تيسير الكريم الرحمن

في تفسير كلام المنان

تأليف

العلامة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

١٣٠٧-١٣٧٦هـ

دار الحديث

القاهرة



تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَٰنِ

فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ المَنَّانِ



اسم الكتـــاب : تيسير الكريم الرحمن

اسم المؤلــف : الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدى

القطــــع : ١٧×٢٤سم

عدد الصفحات : ١٠٥٦ صفحة

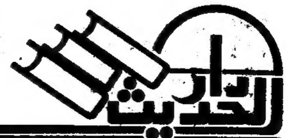
عدد المجلدات : مجلد واحد ورق أبيض

سنة الطبــع : ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م


رقـم الإيـداع : ١٨٠٠ / ٢٠٠٢م

الترقيـم الدولى : ٢-٠٢٢-٣٠٠-٩٧٧

6 222007 700613



طبـع . نشـر . توزيـع

١٤٠ شارع جوهر القائد امام جامعه الازهر تليفون : ٥٨٩٩٤٠٩ / ٥٩١٨٧١٩ / ٥٩١٩٦٩٧ فاكس : ٥٩١٩٦٩٧

www.darelhadith.com E-mail: info@darelhadith.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ
عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجـعل له عوجًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بَعد. . .

فإن الله بحكمـته ورحـمته أنزل كـتابه تبيـانًا لكل شيء، وجعله هُدًى وبرهانًا لهـذه الأمة، ويسـره للذكر والتلاوة والهداية بجميع أنواعها ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أنزله بلسان عربى مبين، وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشـر، وقيض له من العلماء من يفسرونه، ويبلغونه للناس، ألفاظه ومـعانيه، لتتم بذلك الهداية وتقوم به الحجة، وقد أكـثر العلماء من التأليف فى تفسير القرآن العظيم كل بمـا أوتى من علم، فمنهم من يفسر القرآن بالقرآن، ومنهم من يفسره بالأخبار والآثار، ومنهم من يفـسره من حيث اللغة العربية بأنواعها، ومنهم من يعنى بآيات الأحكام إلى غير ذلك.

وقد كـان لشيخنا العلامـة الشيخ عبـد الرحمن بن ناصر السـعدى رحـمه الله من ذلك حظ وافـر، وذلك بتفسيـره المسمى: (تيسير الكريم الرحمـن فى تفسير كلام المنان) حيث جاء هذا التفـسير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع بعبارات قـريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعـتنى بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختـصر مـفيد، مـستوعب لـجميع مـا تضمنته الآية من مـعنًى أو حكم سواء من منطوقـها أو مفهومـها، دون إطالة أو استطراء أو ذكر قصص أو إسرائيليات، أو حكاية أقوال تخـرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب، إلا فى النادر الذى يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المـعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرؤها مهما كان مستواه العلمى، فـهو فى الحقيقة سهل ممتنع يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه، وقد اهتم بترسيخ العقـيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعيـة، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية بمقتضى عقيدة السلف، خلافًا لما يؤولها بعض المفسرين.

وقد منَّ الله علىَّ فسمعت منه بعض تفسيره شفهـيًا فى حلقات الدروس فى مسجد الجامع بعنيزة، كما أننى ممن أشار عليه بطبعه، فطبع الجزء الخامس فقط فى حياته عام ١٣٧٥هـ فى المطبعة السلفية بمصر، وبعد ذلك تشاورنا فى طبع بقيته، وساهمت فى ذلك أيام كنت قاضيًا فى عنيزة، فطبع بعد وفاته فى عامى ٧٦، ٧٧، وبعد تمام طبعه تداوله الناس بالقـراءة والتدريس، ودرسناه لإخواننا وأبنائنا الطلاب، وحصل بذلك خير كـثير، وقرأه أئمة المساجد على جماعاتهم لوضوح عـباراته، وقد طبع بعد ذلك طبعات أخرى لا يخلو كل منها من ملاحظة أو مؤاخذة.

ولما صارت طبعاته بهذه المثابة مع حاجة الناس إليه سمت همة ابننا الشيخ الفاضل: عبد الرحمن بن معلا اللويحق الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إلى طبعه على هامش المصحف الموجه

كل جزء (٢٠) صفحة مراعية فى كل صفحة وضع ما يتعلق بتفسيرها، وقد عرض عليَّ النماذج الأولى لهذه الطبعة فأعجبتني، وسررت بها جدًا مؤملاً أن تكون هذه الطبعة خير معين على فهم كتاب الله تعالى، والاعتناء به تلاوة وحفظًا وفهمًا، لأنه بهذا الصنيع يقرب الاستفادة لتالى القرآن لسهولة التناول وسرعة الرجوع إلى تفسير الآية من نفس الصفحة بدلاً من الرجوع إليها من كتب التفاسير البعيدة، كما أنه سيعتنى بتصحيح الأصل وجودة الطبع.

فأسأل الله أن يشكر للابن الشيخ **عبد الرحمن بن معلا اللويحق** هذا الصنيع المبارك وأن يجزيه أفضل الجزاء، وأن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقاتها وأن يجزى كل من أسهم فى إخراج هذا المشروع النافع أفضل الجزاء، وأن يتغمد الجميع ومؤلف التفسير برحمته، إنه جواد كريم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

حرر فى ٢٧/ ٩/ ١٤١٦ هـ

وكتبه الفقير إلى الله

عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلي سابقًا

وعضو بمجلس القضاء الأعلى (متقاعد)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ
محمد الصالح العثيمين

الحمد لله رب العالمين، والصـلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومـن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد. . .

فإن تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة:

منها: سهولة العبارة ووضوحها حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها: تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه إلا إضاعة وقت القارئ وتبلبل فكره.

ومنهـا: تجنب ذكر الخـلاف إلا أن يكون الخلاف قويّا تدعو الـحاجة إلى ذكره، وهذه ميزة مهـمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها السير على منهج السلف في آيات الصفات فلا تحريف ولا تأويل يخالف مـراد الله بكلامه، فهو عمدة في تقرير العقيدة.

ومنهـا: دقة الاسـتنبـاط فيمـا تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم، وهذا يظهـر جليّا في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة، حيث استنبط منها خمسين حكمًا، وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص:

ومنها: أنه كتـاب تفسير وتربيـة على الأخلاق الفاضلة كما تبـين في تفسير قوله تعـالى في سورة الأعراف ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

ومن أجل هذا أشير على كل مريد لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به مؤلفـه وقارئه إنه كريم جواد، وصلى الله على نبينا محـمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

كتبه

محمد الصالح العثيمين

في ١٥/ رمضان ١٤١٦هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل، وجعله ـ برحمتـه ـ هدًى للناس عمومًا، وللمتقـين خصوصًا ـ من ضلال الكفر، والمـعاصى والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم، وأنزله شفاء للصدور، من أمراض الشـبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم، فى المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها، وعللها، وآلامها، وأسقامها، وأخبر أنه لا ريب فيه، ولا شك، بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم، فى أخباره، وأوامـره، ونواهيه، وأنزله مباركًا، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البـديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال فى الدنيا والآخـرة فسببها الاهتداء به واتباعه، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما شهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود لأنه تضمنها وزاد عليها.

قال تعالـى فيه: ﴿**يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ**﴾ فهو هاد لدار السلام، مـبين لطريق الوصول إليها، وحاث عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذر عنها، وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ فبيَّن آياته أكمل تبيين، وأتقنها أى إتقـان، وفصَّلها بتمييز الحق من الباطل، والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفـًا للبس، لكونه صادرًا من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن، ووصفه بأنـه «مجيد» والمجد: سعة الأوصاف وعظمتهـا، وذلك لسعة معانى القرآن وعظمتهـا، ووصفه بأنه «ذو الذكر» أى: يتـذكر به العلوم الإلهيـة والأخلاق والأعمال الصالحـة، ويتعظ به من يخشى.

وقال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ وأنزله بهذا اللسان لنعقله ونفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار.

فلله الحـمد والشكر والثناء، على أن جـعل كتابه هدى وشـفاء ورحـمة ونورًا، وتبصـرة وتذكرة، وعـبرة وبركة، وهدى وبشرى للمسلمين.

فإذا عُلم هذا عُلم افـتقار، كل مكلف لمعرفـة معانيه والاهتـداء بها، وكان حقيـقًا بالعبد أن يبـذل جهده، ويستفرغ وسعه فى تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.

وقد كثرت تفاسير الأئمة، رحمهم الله، لكتاب الله، فمن مطول خارج فى أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقتصر، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية، بقطع النظر عن المراد.

وكان الذى ينبغى فى ذلك، أن يجعل المعنى، هو المقـصود، واللفظ وسيلة إليه، فينظر فى سياق الكلام، ومـا سيق لأجله، ويقـابل بينه وبين نظيـره فى مـوضع آخر، ويعـرف أنه سـيق لهداية الخلـق كلهم، عالمـهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم.

فالنظر لسياق الآيات، مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه، وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته، وفهم المراد منه، خصوصًا إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية، على اختلاف أنواعها.

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكر فى ألفاظه ومعانيه، ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه، منطوقًا ومفهومًا، فإذا بذل وسعه فى ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أمورًا لا تدخل تحت كسبه.

ولما منَّ البارى، علىَّ وعلى إخوانى، بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا، أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله، ما تيسر، وما منَّ به الله علينا، ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين، ولأقيده[1] خوف الضياع، ولم يكن قصدى فى ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل فى حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذى ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيرًا.

والله أرجو، وعليه أعتمد، أن ييسر ما قصدت، ويذلل ما أردت، فإنه إن لم ييسر الله فلا سبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم، اللهم صل على محمد.

تنبيه: اعلم أن طريقتى فى هذا التفسير أنى أذكر عند كل آية ما يحضرنى من معانيها، ولا أكتفى بذكرى ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثانى» تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه، لما فى ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها.

---

(١) كذا فى الأصل، والصواب أن يقال: «وقيدته».

ترجمة المؤلف

بقلم أحد تلاميذه

هو: الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدى، من قبيلة تميم، ولد فى بلدة عنيزة فى القصيم، وذلك بتاريخ ١٢ محرم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية، وتوفيت أمه وله أربع سنين، وتوفى والده وله سبع سنين، فتربى يتيمًا، ولكنه نشأ نشأة حسنة، وكان قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه ورغبته الشديدة فى العلوم، وقد قرأ القرآن بعد وفاة والده ثم حفظه عن ظهر قلب وأتقنه وعمره إحدى عشرة سنة، ثم اشتغل فى التعلم على علماء بلده وعلى من قدم بلده من العلماء، فاجتهد وجد حتى نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم، ولما بلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة جلس للتدريس فكان يتعلم ويعلم، ويقضى جميع أوقاته فى ذلك، حتى إنه فى عام ألف وثلاثمائة وخمسين صار التدريس ببلده راجعًا إليه، ومعول جميع الطلبة فى التعلم عليه.

بعض مشايخ المؤلف:

أخذ عن الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر، وهو أول من قرأ عليه، وكان المؤلف يصف شيخه بحفظه للحديث، ويتحدث عن ورعه ومحبته للفقراء ومواساتهم، وكثيرًا ما يأتيه الفقير فى اليوم الشاتى فيخلع أحد ثوبيه ويلبسه الفقير مع حاجته إليه، وقلة ذات يده، رحمه الله، ومن مشايخ المؤلف الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل، قرأ عليه فى الفقه وعلوم العربية وغيرهما، ومنهم الشيخ صالح بن عثمان القاضى (قاضى عنيزة) قرأ عليه فى التوحيد والتفسير والفقه أصوله وفروعه وعلوم العربية، وهو أكثر من قرأ عليه المؤلف ولازمه ملازمة تامة حتى توفى، رحمه الله، ومنهم الشيخ عبد الله بن عايض، ومنهم الشيخ صعب القويجرى، ومنهم الشيخ على السنانى، ومنهم الشيخ على الناصر أبو وادى، قرأ عليه فى الحديث، وأخذ عنه الأمهات الست وغيرها وأجازه فى ذلك، ومنهم الشيخ محمد ابن الشيخ عبد العزيز المحمد المانع (مديرالمعارف فى المملكة العربية السعودية) فى وقتنا الحالى، وقد قرأ عليه المؤلف فى عنيزة، ومن مشائخه الشيخ محمذ الشنقيطى (نزيل الحجاز قديمًا ثم الزبير) لما قدم عنيزة وجلس فيها للتدريس قرأ عليه المؤلف فى التفسير والحديث ومصطلح الحديث وعلوم العربية، كالنحو والصرف ونحوهما.

نبذة من أخلاق المؤلف:

كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة؛ متواضعًا للصغير والكبير والغنى والفقير، وكان يقضى بعض وقته فى الاجتماع بمن يرغب حضوره فيكون مجلسهم ناديًا علميًا، حيث إنه يحرص أن يحتوى على البحوث العلمية والاجتماعية ويحصل لأهل المجلس فوائد عظمى من هذه البحوث النافعة التى يشغل وقتهم فيها، فتنقلب مجالسهم العادية عبادة ومجالس علمية، ويتكلم مع كل فرد بما يناسبه، ويبحث معه فى المواضيع النافعة له دنيا وأخرى، وكثيرًا ما يحل المشاكل برضاء الطرفين فى الصلح العادل، وكان ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء مادًا يد المساعدة لهم بحسب قدرته، ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير

فى المناسبات، وكان على جانب كبير من الأدب والعفة والنزاهة والحزم فى كل أعماله، وكان من أحسن الناس تعليمًا وأبلغهم تفهيمًا، مرتبًا لأوقات التعليم، ويعمل المناظرات بين تلاميذه المحصلين لشحذ أفكارهم، ويجعل الجُعل لمن يحفظ بعض المتون، وكل من حفظه أعطى الجُعل ولا يُحرم منه أحد، ويتشاور مع تلاميذه فى اختيار الأنفع من كتب الدراسة، ويرجح ما عليه رغبة أكثرهم، ومع التساوى يكون هو الحكم، ولا يمل التلاميذ من طول وقت الدراسة إذا طال، لأنهم يتلذذون من مجالسته، ولذا حصل له من التلاميذ المحصلين عدد كثير ولا يزال كذلك، متَّع الله بحياته، وبارك الله لنا وله فى الأوقات ورزقنا وإياه التزود من الباقيات الصالحات.

مكانة المؤلف بالمعلومات:

كان ذا معرفة تامة فى الفقه، أصوله وفروعه، وفى أول أمره متمسكًا بالمذهب الحنبلى تبعًا لمشائخه، وحفظ بعض المتون من ذلك، وكان له مصنف فى أول أمره فى الفقه، نظم رجز نحو أربعمائة بيت وشرحه شرحًا مختصرًا، ولكنه لم يرغب ظهوره لأنه على ما يعتقده أولاً.

وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وحصل له خير كثير بسببهما فى علم الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة، وبسبب استنارته بكتب الشيخين المذكورين صار لا يتقيد بالمذهب الحنبلى، بل يرجح ما ترجح عنده بالدليل الشرعى، ولا يطعن فى علماء المذاهب كبعض المتهوسين، هدانا الله وإياهم للصواب والصراط المستبين، وله اليد الطولى فى التفسير، إذ قرأ عدة تفاسير وبرع فيه، وألف تفسيرًا جليلاً فى عدة مجلدات، فسره بالبديهة من غير أن يكون عنده وقت التصنيف كتاب تفسير ولا غيره، ودائمًا يقرأ والتلاميذ فى القرآن الكريم ويفسره ارتجالاً، ويستطرد ويبين من معانى القرآن وفوائده، ويستنبط منه الفوائد البديعة والمعانى الجليلة، حتى إن سامعه يود أن لا يسكت لفصاحته وجزالة لفظه وتوسعه فى سياق الأدلة والقصص، ومن اجتمع به وقرأ عليه وبحث معه عرف مكانته فى المعلومات، وكذلك من قرأ مصنفاته وفتاويه.

مصنفات المؤلف:

١- تفسير القرآن الكريم المسمى «تيسير الكريم المنان» فى ثمانى مجلدات أكمله فى عام ١٣٤٤هـ ولم يطبع.

٢- حاشية على الفقه استدراكًا على جميع الكتب المستعملة فى المذهب الحنبلى، ولم تطبع.

٣- إرشاد أولى البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب، رتبه على السؤال والجواب، طبع بمطبعة الترقى فى دمشق عام ١٣٦٥هـ على نفقة المؤلف ووزعه مجانًا.

٤- الدرة المختصرة فى محاسن الإسلام، طبع فى مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦هـ.

٥- الخطب العصرية القيمة، لما آل إليه أمر الخطابة فى بلده اجتهد أن يخطب فى كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت الحاضر فى المواضيع المهمة التى يحتاج الناس إليها، ثم جمعها وطبعها مع الدرة المختصرة فى مطبعة أنصار السنة على نفقته ووزعها مجانًا.

٦- القواعد الحسان لتفسير القرآن، طبعها فى مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦هـ ووزع مجانًا.

٧- تنزيه الدين وحملته ورجاله، ممـا افتراه القصيمى فى أغلاله، طبع فى مطبعـة دار إحياء الكتب العربية على نفقة وجيه الحجاز «الشيخ محمد أفندى نصيف» عام ١٣٦٦هـ.

٨- الحق الواضح المبين، فى شرح توحيد الأنبياء والمرسلين.

٩- توضيح الكافية الشافية، وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم.

١٠- وجوب التعاون بين المسلمين، وموضوع الجهاد الدينى.

وهذه الثلاثة الأخيرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية على نفقة المؤلف ووزعها مجانًا.

١١- القول السديد فى مقـاصد التوحيد، طبع فى مصـر «بمطبعة الإمام» على نفقة عبـد المحسن أبا بطين عام ١٣٦٧هـ.

١٢- مختصر فى أصول الفقه، لم يطبع.

١٣- تيسير اللطيف المنان فى خلاصة تفسير القـرآن، طبع على نفقة المؤلف وجماعة من المحسنين، وزع مجانًا، طبع بمطبعة الإمام.

١٤- الرياض الناضرة، طبع بمطبعة الإمام (الطبعة الأولى).

وله فوائد منثورة وفـتاوى كثيرة فى أسـئلة شتى ترد إليه من بلده وغيـره ويجيب عليها، وله تعليـقات شتى على كثير مما يمر عليه من الكتب، وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جدًا، حتى إنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئًا كثيرًا، ومما كتب نظم ابن عبد القوى المشهور، وأراد أن يشرحه شرحًا مستقلا فرآه شاقًا عليه، فجمع بينه وبين الإنصاف بخط يده ليساعد على فهمه فكان كالشرح له، ولهذا لم نعده من مصنفاته.

غايته من التصنيف:

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر الـعلم والدعوة إلى الحق، ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته، لا ينال منها عرضًا زائلاً، أو يستفيد منها عرض الدنيا، بل يوزعها مجانًا ليعم النفع بها، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا، ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه.

وفاتــــه:

وبعد عمر طويل دام قـرابة ٦٩ عامًا فى خدمة العلم انتقل إلى جوار ربـه فى عام ١٣٧٦هـ فى مدينة عنيزة من بلاد القصيم، رحمه الله رحمة واسعة.

فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن
من بدائع الفوائد
لابن القيم رحمه الله تعالى

فصل: قال: النكرة في سياق النفي تعم، مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

وفي الشرط من قوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾.

وفي النهي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾.

وفي سياق الإثبات، بعموم العلة والمقتضى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾.

وإذا أضيف إليها «كل» نحو: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

ومن عمومها بعموم المقتضى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

فصل: ويستفاد عموم المفرد المحلى باللام من قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾.

وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ و ﴿كِتَابِهِ﴾.

قرأ أهل البصرة وحفص ﴿وَكُتُبِهِ﴾ على الجمع.

وقرأ الآخرون ﴿وكتابه﴾ على التوحيد.

وقوله: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم.

وعموم الجمع المحلى باللام من قوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ...﴾ إلى آخرها.

والمضاف من قوله: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾.

وعموم أدوات الشرط من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ هذا إذا كان الجواب طلبًا مثل هاتين الآيتين.

فإن كان خيرًا ماضيًا لم يلزم العموم كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾.

وإن كان مستقبلاً فالتزموا رد العموم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقد لا يعم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

فصل: ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب من ذمه لمن خالفه، وتسميته إياه عاصيًا، وترتيبه عليه العقاب العاجل أو الآجل، ويستفاد كون النهي للتحريم من ذمه لمن ارتكبه، وتسميته عاصيًا، وترتيبه العقاب على فعله.

ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب، ولفظة «على» ولفظة «حق على العباد وعلى المؤمنين» ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل.

وقوله: «لا ينبغي» فإنها ـ في لغة القرآن والرسول ـ للمنع عقلاً وشرعًا.

ولفظة «ما كان لهم كذا وكذا» و «لم يكن لهم» وترتيب الحد على الفعل، ولفظة «لا يحل» و «لا يصلح» ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يزكي فاعله، ولا يكلمه، ولا ينظر إليه، ونحو ذلك.

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجناح والحرج والإثم والمؤاخذة، والإخبار بأنه يعفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإنكار على من حرَّم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به، وإخباره عن فعل من قبلنا، غير ذامٍّ لهم عليه.

فإن اقترن بإخباره مدح دل على رجحانه، استحبابًا أو وجوبًا.

فصل: وكل فعل عظمه الله ورسوله، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحب فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحسن، أو نصبه سببًا لمحبته أو ثوابه، عاجلاً أو آجلاً، أو نصبه سببًا لذكره لعبده، أو لشكره، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، ووصف فاعليه بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفي الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سببًا لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به أو بفاعله، كالقسم بخيل المجاهدين وإثارتها، أو ضحك الرب جل جلاله عن فاعله، أو عجبه به ـ فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

فصل: وكل فعل طلب الشارع تركه، أو ذم فاعله، أو عاب عليه، أو مقت فاعله، أو لعنه، أو نفي محبته إياه، أو محبة فاعله، أو نفي الرضا به، أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين، أو جعله مانعًا من الهدى، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سببًا لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لذم أو لوم أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بالخبث، أو رجس، أو نجس، أو بكونه فسقًا أو إثمًا، أو سببًا لإثم أو رجس، أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة، أو خزي، أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله ومحاربته، أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سببًا لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه، أو الحلم عنه، أو الصفح، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار، أو نسبه إلى الشيطان وتزيينه، أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم، مثل كونه ظلمات أو بغيًا، أو عدوانًا أو إثمًا، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سببًا لخيبة فاعله، عاجلاً أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله، أو الله عدوه، أو أعلن[1] فاعله بحرب من الله ورسوله أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه: «لا ينبغي هذا» أو «لا يصلح» أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعليه في الآخرة، أو تبرؤ بعضهم من

(١) في الأصل (أعلم) وهو تحريف.

بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه «ليس من الله في شيء» أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنه بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سببًا للفلاح، أو جعل سببًا لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله: «هل أنت منته» أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد أو طرد، أو لفظة: «قُتل من فعله» أو «قاتل الله من فعله» أو أخبر أن فاعله «لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكيه» أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدى كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفًا ولا عدلا، أو أخبر أن من فعله قيض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سببًا لإزاغة قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل «لم فعل» نحو: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾، ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ ما لم يقترن به جواب من السؤال، فإذا قرن به جواب كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرد[١] من دلالته على مجرد الكراهة.

وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروه ـ فأكثر ما يستعمل في المحرم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه.

وأما لفظة «وأما أنا فلا أفعل» فالمحقق منه الكراهة كقوله: «أما أنا فلا آكل متكئًا».

وأما لفظة «ما يكون ذلك» و «ما يكون لنا» فاطرد[٢] استعمالها في المحرم نحو: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

فصل: وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، و «إن شئت فافعل» و «إن شئت فلا تفعل» ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق من الأفعال نحو: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ونحو: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

فائدة: التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو: «عجب ربك من شاب ليست له صبوة» ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾.

وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه كقوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ﴾.

ويدل على حسن المنع منه قدرًا، وأنه لا يليق به فعله كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾.

فائدة: نفي التساوي في كتاب الله قد يأتي بين الفعلين كقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية.

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وقد يأتي بين الجزاءين كقوله: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ الآيات.

---

(١) أطرد، أي: أنسب لجريانه على قواعد اللغة والأصول.

(٢) فاطرد، أي: جرى على قاعدة لا شذوذ فيها.

فائدة: ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور:

التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث تكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

فائدة: السياق يرشد إلى بيان المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته.

فانظر إلى قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير.

فائدة: إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده، **ومنها:** أن يكون موعظة وتذكرة، **ومنها:** أن يكون شاهداً على ما أخبر به، من توحيده، وصدق رسوله، وإحياء الموتى، **ومنها:** أن يذكر في معرض الامتنان، **ومنها:** أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ، **ومنها:** أن يذكر في معرض المدح أو الذم، **ومنها:** أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه، وغير ذلك من فوائد.

انتهى كلامه، رحمه الله، وهو في غاية النفاسة، والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فجزاه الله خيراً.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثنيت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها، **ومنها:** ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير تدل على محبة الله ورضاه، وأنها محمودة، والصفات التي يوصف بها أهل الشر تدل على بغض الله لها، وأنها مذمومة، **ومنها:** ما يكرم الله به أولياءه من الثناء الحسن بين عباده، فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة فيكون عقابًا معجلاً، **ومنها:** أن فيه حثًا للنفوس على الاقتداء بأهل الخير، ومنافستهم، وتنشيط العمال على الأعمال، ببيان أن من عملها فهو من أولياء الله.

وفيه الترهيب عن أفعال أهل الشر، وتبغيض المعاصي التي أثرت مع عامليها ما أثرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن من فعل مثل فعلهم نال ما نالهم.

وقد حث تعالى على الاعتبار في غير موضع من كتابه، وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء، وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا نظر إلى أعمال أهل الخير، وعجزه عن القيام بها، أوجب له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر، هو عين فساده، إلى غير ذلك من الفوائد، **ومنها:** ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله، وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم ـ وهو العلم المتعلق بالله تعالى ـ أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق، فالاشتغال بفهمه، والبحث التام عنه، اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب، **ومنها:** أن معرفة الله

تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه، ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه فى فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عباده، وتعريفهم لنفسه، كى يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق، ليعرفوه ويعبدوه، وهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغال بذلك اشتغال بما خُلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خُلق له، وقبيح بعبد، لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه، أن يكون جاهلاً بربه، معرضًا عن معرفته، ومنها: أن أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها، الإيمان بالله، وليس الإيمان مجرد قوله: «آمنت بالله» من غير معرفته بربه، بل حقيقة الإيمان أن يعرف الرب الذى يؤمن به، ويبذل جهده فى معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه، وكلما نقص نقص، وأقرب طريق يوصله إلى ذلك تدبر صفاته وأسمائه فى القرآن، والطريق[1] فى ذلك إذا مر به اسم من أسماء الله أن يثبت له ذلك المعنى وكماله ،، وينزهه عما يضاد ذلك، ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعر ل بما عرف من صفاته وأفعاله، على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك، لا يشرع ما يشرعه من الأحكام إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته، وفضله وعدله.

فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة.

وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه:

وكيف يصح فى الأذهان شىء
إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين، وما أرسلوا به، وما جرى لهم مع أممهم، وفى ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم.

وكلما كان المؤمن بذلك أعرف كان أعظم إيمانًا بهم، ومحبة لهم، وتعظيمًا لهم، وتعزيرًا وتوقيرًا.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا ـ خصوصًا النبى محمد ﷺ ـ معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم، ومنها: أن معرفة الأنبياء، موجبة لشكر الله تعالى على ما منَّ به على المؤمنين، إذ بعث فيه رسولاً منهم، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا فى ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين، الذين ما نال المؤمنون مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على أيديهم وبسببهم. فقبيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيه ومزكيه ومعلمه.

وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرسول الذى هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقى، الذى حقه مقدم على سائر الخقوق، بعد حق الله تعالى؟!!.

ومنها: أن فى معرفة ما جرى لهم، وجرى عليهم، تحصل للمؤمنين الأسوة والقدوة، ويخف عنهم كثير

---

(١) قوله: (والطريق ... إلخ) يريد أن المؤمن إذا طرق سمعه اسم من أسمائه تعالى أو صفة من صفاته أن يثبت لله ذلك المعنى بكماله على وجه العموم، مع اعتقاد أن كمال الله لا تحيط به العقول كما أنه سبحانه منزه عن النقائص مهما استصغرتها العقول، فالنقائص ـ صغيرها وكبيرها ـ بعيدة عن الله كل البعد، فلا بد من إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل.

من المقلقات والمزعجات، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

ومن أعظم الاقتداء الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن، وبهذا وأمثاله، كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه وفهم المعنى.

والمراد منها موقوف على معرفة أصول الرسول، وسيرته مع قومه وأصحابه، وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافًا كثيرًا.

فلو أراد الإنسان أن يصرف همه لمعرفة معانى القرآن من دون معرفة منه لذلك، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله، وعلى مراد الله من كلامه شىء كثير.

وهذا إنما يعرفه من عرف كيف كثر حمل مراد الله ورسوله، على العرف الحادث، فوقع الخلل الكثير، ولغير ذلك من الفوائد المفيدة، والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهى الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفى معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك، ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده: الأوامر والنواهى التى كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها، وتعلمها وتعليمها، ولا سبيل إلى امتثالها أو اجتنابها إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها أو تركها، وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذى أمر به، وما يدخل به، وما لا يدخل، فإذا عرف ذلك استعان بالله واجتهد فى امتثاله بحسب القدرة والإمكان.

وكذلك إذا نهى عن أمر من الأمور، وجب عليه معرفة ذلك المنهى وحقيقته، ثم يبذل جهده، مستعينًا بربه، على تركه، امتثالاً لأمر الله، واجتنابًا لنهيه.

وامتثال الأمر، واجتناب النهى، كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير، ليدعو إليه، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه. والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن: أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت، مما أخبر به الله فى كتابه، أو أخبر به رسوله من أهوال الموت، والقبر، والموقف، والجنة والنار، وفى العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة، التى لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيلها ازداد إيمان العبد به، ومنها: أن معرفة ذلك حقيقة المعرفة يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذيْن إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصى.

والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التى يخاف منها ويحذر كأحوال

القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفظعة، وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والحبرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعى للاجتهاد فى السعى للمحبوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه، ومنها: أن يعرف بذلك فضل الله وعدله فى المجازاة على الأعمال الصالحة والسيئة، الموجب لكمال حمده، والثناء عليه بما هو أهله.

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب يعرف بذلك فضل الله، وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية.

وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراسخين، والعقلاء المستبصرين.

وقد اشتمل القرآن على الأدلة العقلية، والقواطع البرهانية، ما لو جمع ما عند المتكلمين من حق لكان بالنسبة إليه كنقرة عصفور بالنسبة لماء البحر.

ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح، فإنه ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول، ونهى عن الثانى، وأقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقًا للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة، كالشمس فى نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث على الآداب، ومكارم الأخلاق، رأيته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التى يحتاجونها فى معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضى الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث، أخبر بما فى ضمنها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم، وتنزيههم عنها، وتكريمهم، وتعلية أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة.

فالمأمورات مشتملة على المصالح، والمحرمات مشتملة على المفاسد.

وإن شرع فى الحِجاج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودفع باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شىء من الحق، بل هو على اسمه، باطل لا حقيقة له، إن هى إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت تبينت هباء منثوراً.

ورأيته يسوق البراهين العقلية بأوضح عبارة وأوجزها، وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء.

فيجمع بين الدليل العقلى والنقلى فى كلمة واحدة، إيجازاً غير مخل بالمطلوب.

وتارة يفصِّل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفى بعضه بالبيان.

فلله الحمد والشكر . . .

فهذه مقدمة نافعة، إن شاء الله، ينبغى للمسلم استقراؤها فى كل مواردها، والتنبه لكل ما يرد عليه من هذه المطالب على وجه التفصيل.

فمن استعملها فى كل ما يرد عليه من الآيات انتفع بها نفعًا عظيمًا.

وذلك فضل الله، يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

تفسير سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الله: أبتدئ بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء الحسنى ﴿اللَّهِ﴾ هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية، وهى صفات الكمال ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التى وسعت كل شىء، وعمت كل حى، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فله نصيب منها، وأعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التى اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا فى سائر الأسماء، يقال فى العليم: إنه عليم ذو علم، يعلم به كل شىء، قدير، ذو قدرة يقدر على كل شىء ﴿الْحَمْدُ للَّهِ﴾ هو الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب هو المربى جميع العالمين، وهم من سوى الله، بخلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التى لو فقدوها، لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى، وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة، فالعامة: هى خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التى فيها بقاؤهم فى الدنيا، والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة من كل شر، ولعل هذا المعنى هو السر فى كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة، فدل قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على انفراده بالخلق والتدبير والنعم وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ المالك: هو من اتصف بصفة الملك التى من آثارها أن يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، وأصناف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم، خيرها وشرها، لأن فى ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق، حتى إنه يستوى فى ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار، كلهم مذعنون لعظمته، خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصه بالذكر، وإلا، فهو المالك ليوم الدين وغيره من الأيام، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أى: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه، فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك، وتقديم العبادة على الاستعانة من باب تقديم العام على الخاص، واهتمامًا بتقديم حقه تعالى على حق عبده، و «العبادة» اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، و «الاستعانة» هى الاعتماد على الله تعالى فى جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به فى تحصيل ذلك، والقيام بعبادة الله والاستعانة به هما الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصودًا بها وجه الله، فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر «الاستعانة» بعد «العبادة» مع دخولها فيها، لاحتياج العبد فى جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهى، ثم قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: دلنا وأرشدنا، ووفقنا إلى الصراط المستقيم، وهو

الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا فى الصراط، فالهداية إلى الصراط لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية فى الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علمًا وعملاً فهذا الدعاء من أجمع الأدعية، وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به فى كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك، وهذا الصراط المستقيم هو: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿غَيْرِ﴾ صراط ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم ﴿وَلَا﴾ صراط ﴿الضَّالِّينَ﴾ الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم، فهذه السورة، على إيجازها، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: ﴿اللَّهِ﴾ ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التى أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ كما تقدم، وتضمنت إثبات النبوة فى قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة، وإثبات الجزاء على الأعمال فى قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل، وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافًا للقدرية والجبرية، بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال فى قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك، وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة واستعانة فى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالحمد لله رب العالمين.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

تقدم الكلام على البسملة، وأما الحروف المقطعة فى أوائل السور فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعى، مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثًا بل لحكمة لا نعلمها، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ أى هذا الكتاب العظيم الذى هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين، من العلم العظيم، والحق المبين، فهو ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شك بوجه من الوجوه، ونفى الريب عنه يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة أن النفى المقصود به المدح لا بد أن يكون متضمنًا لضده، وهو الكمال، لأن النفى عدم، والعدم المحض لا مدح فيه، فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال ﴿هُدًى﴾ وحذف المعمول، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشىء الفلانى، لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد فى المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم، فى دنياهم وأخراهم، وقال فى موضع آخر: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فعمم، وفى هذا الموضع وغيره: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنه فى نفسه هدى لجميع الناس، فالأشقياء لم

يرفعوا به رأسًا، ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم، وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية؛ وهو التقوى التى حقيقتها: اتخاذ ما يقى سخط الله وعذابه، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فاهتدوا به وانتفعوا غاية الانتفاع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الكونية، ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية تامة، ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة، والأعمال الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن فى الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن فى الإيمان بالغيب الذى لم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذى يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله، ويدخل فى الإيمان بالغيب الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها، ثم قال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفى فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة إقامتها ظاهرًا، بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنًا بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصلاة هى التى قال الله فيها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ وهى التى يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها، ويدخل فى الصلاة فرائضها ونوافلها، ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب، والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفَق عليهم، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هى قربة إلى الله، وأتى بـ «من» الدالة على التبعيض، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءًا يسيرًا من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم، وفى قوله: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التى بين أيديكم ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هى رزق الله، الذى خولكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين، وكثيرًا ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة فى القرآن، لأن الصلاة متضمنة الإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة الإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه فى نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجحده أو تأويله، على غير مراد الله ورسوله، كما فعل ذلك من يفعله من المبتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيمانًا حقيقيًا، وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يشمل الإيمان بجميع الكتب السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسل وبما اشتملت عليه الكتب، خصوصًا التوراة والإنجيل والزبور، وهذه خاصية المؤمنين، يؤمنون بالكتب السماوية كلها، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم، ثم قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ و «الآخرة» اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، و «اليقين» هو العلم التام الذى ليس فيه أدنى شك، والموجب للعمل ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أى الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: على هدى عظيم، لأن التنكير للتعظيم، وأى هداية أعظم من تلك

الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة؟! وهل الهداية فى الحقيقة، إلا هدايتهم وما سواها مما خالفها، فهى ضلالة، وأتى بـ «على» فى هذا الموضع الدالة على الاستعلاء، وفى الضلالة يأتى بـ «فى» كما فى قوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لأن صاحب الهدى مُسْتَعْلٍ بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر، ثم قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، حصر الفلاح فيهم، لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهى سبل الشقاء والهلاك والخسار، التى تفضى بسالكها إلى الهلاك، فلهذا، لما ذكر صفات المؤمنين حقًا، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم المعاندين للرسول فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا، أى، اتصفوا بالكفر، وانصبغوا به، وصار وصفًا لهم لازمًا، لا يردعهم عنه رادع، ولا ينجع فيهم وعظ، أنهم مستمرون على كفرهم، فسواء عليهم أأنذرتهم، أو لم تنذرهم لا يؤمنون، وحقيقة الكفر هو: الجحود لما جاء به الرسول، أو جحد بعضه، فهؤلاء الكفار لا تفيدهم الدعوة إلا إقامة الحجة عليهم، وكأن فى هذا قطعًا لطمع الرسول ﷺ فى إيمانهم، وأنك لا تأس عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان فقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أى: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها فلا يعون ما ينفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ أى: غشاء وغطاء وأكنة تمنعها من النظر الذى ينفعهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا عقاب عاجل، ثم ذكر العقاب الآجل فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم، ثم قال تعالى: فى وصف المنافقين، الذين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

واعلم أن النفاق هو: إظهار الخير، وإبطان الشر، ويدخل فى هذا التعريف النفاق الاعتقادى، والنفاق العملى، كالذى ذكره النبى ﷺ فى قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» وفى رواية: «وإذا خاصم فجر» وأما النفاق الاعتقادى المخرج عن دائرة الإسلام فهو الذى وصف الله به المنافقين فى هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجودًا قبل هجرة النبى ﷺ من مكة إلى المدينة، ولا بعد الهجرة، حتى كانت وقعة «بدر» وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، فذل مَنْ فى المدينة ممن لم يسلم، فأظهر الإسلام بعضهم خوفًا ومخادعة، ولتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين فى الظاهر أنهم منهم، وفى الحقيقة ليسوا منهم، فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلا أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضًا عن كثير من فجورهم، وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فوصفهم الله بأصل النفاق فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان الحقيقى ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين، والمخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئًا ويبطن خلافه لكى يتمكن من مقصوده ممن يخادع، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده

هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، وهذا من العجائب، لأن المخادع إما أن ينتج خداعه ويحصل له مقصوده، أو يسلم، لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم على أنفسهم، وكأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها، لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم شيئًا، وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئًا، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقنت دماؤهم، وصار كيدهم فى نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزى والفضيحة فى الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة، ثم فى الآخرة لهم العذاب الأليم الموجع المفجع، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم - من جهلهم وحماقتهم - لا يشعرون بذلك، وقوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، وذلك أن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا ومحبة الفواحش والمعاصى وفعلها، من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وهو شهوة الزنا، والمعافى من عوفى من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فرفل فى أثواب العافية، وفى قوله عن المنافقين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ بيان لحكمته تعالى فى تقدير المعاصى على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة يبتليهم بالمعاصى اللاحقة الموجبة لعقوباتها، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾

أى: إذا نُهى هؤلاء المنافقون عن الإفساد فى الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصى، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد فى الأرض، وإظهار أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلبًا للحقائق، وجمعًا بين فعل الباطل واعتقاده حقًا، وهؤلاء أعظم جناية ممن يعمل بالمعاصى مع اعتقاد تحريمها، فهذا أقرب للسلامة وأرجى لرجوعه، ولما كان فى قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ حصر للإصلاح فى جانبهم - وفى ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فإنه لا أعظم إفسادًا ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله وخادع الله وأولياءه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم - مع هذا - أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟ ولكن لا يعلمون علمًا ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علمًا تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل فى الأرض إفسادًا لأنه سبب لفساد ما على الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات، لما يحصل فيها من الآفات التى سببها المعاصى، ولأن الإصلاح فى الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم الأرض، وأدر عليهم الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته وعبادته، فإذا عمل فيها بضده كان سعيًا فيها بالفساد، وإخرابًا لها عما خلقت له.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾

أى: إذا قيل للمنافقين: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ أى: كإيمان الصحابة ﷺ، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا بزعمهم الباطل: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعنون - قبحهم الله - الصحابة ﷺ، لزعمهم أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضى ضد ذلك، فنسبوهم إلى السفه، وفى ضمن ذلك أنهم هم العقلاء أرباب الحجى والنهى، فرد الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن

حقيقة السفه جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم، كما أن العقل والحجى معرفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعى فيما ينفعه، وفى دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على الصحابة والمؤمنين، فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة، والأقوال الفارغة.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾

هذا من قولهم بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، وذلك أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم على طريقتهم، وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم ـ أى كبرائهم ورؤسائهم بالشر ـ قالوا: إنا معكم فى الحقيقة، وإنما نحن مستهزئون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أنَّا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزائه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والأحوال الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزائه بهم يوم القيامة أن يعطيهم مع المؤمنين نورًا ظاهرًا، فإذا مشى المؤمنون بنورهم طفئ نور المنافقين، وبقوا فى الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ أى يزيدهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ أى: فجورهم وكفرهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أى حائرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم، ثم قال تعالى كاشفًا عن حقيقة أحوالهم: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾، ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ أى: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾ أى: رغبوا فى الضلالة، رغبة المشترى فى السلعة، التى ـ من رغبته فيها ـ يبذل فيها الأموال والأنفس، وهذا من أحسن الأمثلة، فإن جعل الضلالة التى هى غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى، الذى هو غاية الصلاح، بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى، رغبة عنه فى الضلالة رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وهذه صفقتهم، فبئست الصفقة، وإذا كان من يبذل دينارًا فى مقابلة درهم خاسرًا، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهمًا؟!! فكيف من بذل الهدى. . . فى مقابلة الضلالة، واختار الشقاء على السعادة، ورغب فى سافل الأمور وترك عاليها؟!! فما ربحت تجارته، بل خسر فيها أعظم خسارة أولئك ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ تحقيق لضلالهم، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شىء، فهذه أوصافهم القبيحة، ثم ذكر مثلهم فقال:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾

أى: مثلهم المطابق لما كانوا عليه ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ أى: كان فى ظلمة عظيمة، وحاجة شديدة فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هى خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذى هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك إذ ذهب الله بنوره، فزال عنه النور، وذهب معه السرور، وبقى فى الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب ما فيها من الإشراق، وبقى ما فيها من الإحراق، فبقى فى ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذلك هؤلاء المنافقون، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين، ولم تكن صفة لهم، فاستضاءوا بها مؤقتًا وانتفعوا، فحقنت بذلك دماؤهم، وسلمت

أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن فى الدنيا، فبينما هم كذلك إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصى على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار، وبئس القرار، فلهذا قال تعالى عنهم: ﴿صُمٌّ﴾ أى: عن سماع الخير ﴿بُكْمٌ﴾ أى: عن النطق به ﴿عُمْيٌ﴾ أى: عن رؤية الحق ﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعًا منهم، ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى: كصاحب صيب وهو المطر الذى يصوب، أى: ينزل بكثرة ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمات المطر ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو: الصوت الذى يسمع من السحاب ﴿وَبَرْقٌ﴾ وهو الضوء اللامع المشاهد من السحاب ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم﴾ البرق فى تلك الظلمات ﴿مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أى وقفوا، فهكذا حالة المنافقين، إذا سمعوا القرآن وأوامره، ونواهيه، ووعده، ووعيده، جعلوا أصابعهم فى آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده، فيروعهم وعيده، وتزعجهم وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذى يسمع الرعد، فيجعل أصابعه فى أذنيه خشية الموت، فهذا ربما حصلت له السلامة، وأما المنافقون، فأنى لهم السلامة، وهو تعالى محيط بهم، قدرة وعلمًا، فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها أتم الجزاء، ولما كانوا مبتلين بالصمم، والبكم، والعمى المعنوى، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أى: الحسية، ففيه تخويف لهم وتحذير من العقوبة الدنيوية ليحذروا، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شىء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئًا فعله من غير ممانع ولا معارض، وفى هذه الآية وما أشبهها رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة فى قدرة الله تعالى، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة فى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا أمر عام لجميع الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة، لامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ثم استدل على وجوب عبادته وحده بأنه ربكم، الذى رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشًا تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من وجوه الانتفاع بها، وجعل السماء بناء لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والسماء هو كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء ههنا السحاب، فأنزل منه تعالى ماء ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ كالحبوب والثمار من نخيل وفواكه وزروع وغيرها ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ به ترتزقون، وتتقوتون وتعيشون وتفكهون ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أى: أشباهًا ونظراء من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبونه، وهم مثلكم، مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا ينفعونكم ولا يضرون ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله ليس له شريك ولا نظير، لا فى الخلق، والرزق، والتدبير ولا فى الألوهية والكمال، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه، وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهى عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة ما سواه، وهو ذكر توحيد الربوبية، المتضمن انفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقرًا بأنه ليس له شريك بذلك، فكذلك فليكن الإقرار بأن الله ليس له شريك فى عبادته، وهذا أوضح دليل عقلى على وحدانية البارى تعالى، وبطلان الشرك، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

يحتمل أن المعنى أنكم إذا عبدتم الله وحده اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى أنكم إذا عبدتم الله صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين، ومن كان من المتقين حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه، وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ، وصحة ما جاء به فقال:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾

وإن كنتم يا معشر المعاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كذبه ـ فى شك واشتباه، مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فههنا أمر نصف فيه الفيصلة بينكم وبينه، وهو أنه بشر مثلكم، ليس من جنس آخر، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم، لا يكتب ولا يقرأ، فأتاكم بكتاب أخبركم أنه من عند الله، وقلتم أنتم: إنه تقوّله وافتراه، فإن كان القول كما تقولون فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهدائكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصًا، وأنتم أهل الفصاحة والخطابة، والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، فهذا آية كبيرة، ودليل واضح جلى على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التى بلغت فى الحرارة العظيمة والشدة أن كان وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا، التى تتقد بالحطب، وهذه النار الموصوفة معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسوله، فاحذروا الكفر برسوله، بعدما تبين لكم أنه رسول الله، وهذه الآية ونحوها يسمونها آية التحدى، وهو تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ويعارضوه بوجه، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ وكيف يقدر المخلوق من تراب أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب؟ أم كيف يقدر الفقير الناقص من جميع الوجوه أن يأتى بكلام ككلام الكامل الذى له الكمال المطلق، والغنى الواسع من جميع الوجوه؟ هذا ليس فى الإمكان، ولا فى قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام، إذا وزن هذا القرآن بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم، وفى قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ...﴾ إلى آخره، دليل على أن الذى يرجى له الهداية من الضلالة، هو الشاك الحائر الذى لم يعرف الحق من الضلالة، فهذا الذى إذا بين له الحق حرى باتباعه، إن كان صادقًا فى طلب الحق، وأما المعاند الذى يعرف الحق ويتركه فهذا لا يمكن رجوعه، لأنه ترك الحق بعدما تبين له، ولم يتركه عن جهل، فلا حيلة فيه، وكذلك الشاك الذى ليس بصادق فى طلب الحق، بل هو معرض، غير مجتهد بطلبه فهذا ـ فى الغالب ـ لا يوفق، وفى وصف الرسول بالعبودية فى هذا المقام العظيم دليل على أن أعظم أوصافه ﷺ قيامه بالعبودية، التى لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين، كما وصفه بالعبودية فى مقام الإسراء فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ وفى مقام تنزيل القرآن عليه فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ وفى قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان، خلافًا للمعتزلة، وفيها أيضًا، أن الموحدين ـ وإن ارتكبوا بعض الكبائر ـ لا يخلدون فى النار، لأنه قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها، لم تكن معدة للكافرين وحدهم، خلافًا للخوارج والمعتزلة، وفيها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه، وهو الكفر، وأنواع المعاصى على اختلافها، ولما ذكر جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين، أهل الأعمال الصالحات، كما هى طريقته تعالى فى كتابه، يجمع بين الترغيب والترهيب، ليكون العبد راغبًا راهبًا، خائفًا راجيًا فقال:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾

﴿وَبَشِّرِ﴾ أى: أيها الرسول، ومن قام مقامك ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، ووصف أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن فى جنته، فبشرهم ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ أى بساتين جامعة للأشجار العجيبة، والثمار الأنيقة، والظل المديد، والأغصان والأفنان، وبذلك صارت جنة، يجتن بها داخلها، وينعم فيها ساكنها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: أنهار الماء، واللبن، والعسل، والخمر، يفجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها أين أرادوا، وتسقى منها تلك الأشجار فتنبت أصناف الثمار ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أى: هذا من جنسه، وعلى وصفه، كلها متشابهة فى الحسن واللذة، ليس فيها ثمرة خاصة، وليس لهم وقت خال من اللذة، فهم دائما متلذذون بأكلها، وقوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قيل: متشابهًا فى الاسم، مختلفًا فى الطعم، وقيل: متشابهًا فى اللون، مختلفًا فى الاسم، وقيل: يشبه بعضه بعضًا، فى الحسن واللذة، والفكاهة، ولعل هذا أحسن، ثم لما ذكر مسكنهم، وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم، ذكر أزواجهم فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه وأوضحه فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ فلم يقل: «مطهرة من العيب الفلانى» ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عُرُبٌ متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل، والأدب القولى والفعلى، ومطهر خَلقهن من الحيض والنفاس والمنى والبول والغائط والمخاط والبصاق والرائحة الكريهة، ومطهرات الخَلق أيضًا بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح، ففى هذه الآية الكريمة ذكر المبشر والمبشَّر والمبشر به، والسبب الموصل لهذه البشارة، فالمبشِّر هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمبشَّر هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشَّر به هى الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة، على يد أفضل الخلق، بأفضل الأسباب، وفيه استحباب بشارة المؤمنين، وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمرتها، فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشرى عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم، نسأل الله من فضله.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ (٢٦) ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (٢٧)﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا﴾ أى: أى مثل كان ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ لاشتمال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحيى من الحق، وكأن فى هذا جوابًا لمن أنكر ضرب الأمثال فى الأشياء الحقيرة، واعترض على الله فى ذلك، فليس فى ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فيفهمونها، ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثًا، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابغة ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ فيعترضون ويتحيرون، فيزدادون كفرًا إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم، ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة وضلالة، وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة ورحمة، وزيادة خير إلى خيرهم، فسبحان من فاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والضلال، ثم ذكر حكمته وعدله في إضلاله من يضل فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: الخارجين عن طاعة الله، المعاندين لرسل الله، الذين صار الفسق وصفهم، فلا يبغون به بدلاً، فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم، لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضى فضله وحكمته هداية من اتصف بالإيمان، وتحلى بالأعمال الصالحة، والفسق نوعان: نوع مخرج من الدين، وهو الفسق المقتضى للخروج من الإيمان، كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج من الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية، ثم وصف الفاسقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهذا يعم العهد الذى بينهم وبين ربهم، والذى بينهم وبين الخلق، الذى أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل ينقضونها، ويتركون أوامره ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهود التى بينهم وبين الخلق، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به، والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به، ومحبته، وتعزيره، والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب، والأصحاب، وسائر الخلق بالقيام بحقوقهم التى أمر الله أن نصلها، فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون فقطعوها ونبذوها وراء ظهورهم، معتاضين عنها بالفسق والقطيعة والعمل بالمعاصى، وهو: الإفساد فى الأرض ﴿أُوْلَـئِكَ﴾ أى: من هذه صفته ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فى الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم لأن خسرانهم عام فى كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح، لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذى قد يكون كفراً، وقد يكون معصية، وقد يكون تفريطًا فى ترك مستحب، المذكور فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ فهذا عام لكل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصى بالحق، والتواصى بالصبر، وحقيقته فوات الخير، الذى كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أى: كيف يحصل منكم الكفر بالله، الذى خلقكم من العدم، وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال آجالكم، ويجازيكم فى القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم فى تصرفه وتدبيره وبره، وتحت أوامره الدينية، وبعد ذلك تحت دينه الجزائى أفيليق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه كبير؟ بل الذى يليق بكم أن تتقوه وتشكروه وتؤمنوا به وتخافوا عذابه وترجوا ثوابه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ أى: خلق لكم براً بكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار، وفى هذه الآية الكريمة دليل على أن الأصل فى الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سيقت فى معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث، فإن تحريمها أيضًا يؤخذ من فحوى الآية، وبيان المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الخبائث، تنزيهًا لنا، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

معنى كلمة استوى: «استوى» ترد فى القرآن على ثلاثة معان: فتارة لا تعدى بالحروف فيكون معناها: الكمال والتمام، كما فى قوله عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ وتارة تكون بمعنى «علا» كقوله

تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ وتارة تكون بمعنى «قصد» كما إذا عديت بـ «إلى» كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السموات، فسواهن سبع سموات، فخلقها وأحكمها، وأتقنها ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ يعلم السر وأخفى، وكثيرًا ما يقرن بين خلقه وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وفضله، وأن الله تعالى - حين أراد خلقه - أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وهذا تخصيص بعد تعميم، لبيان شدة مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن المجعول في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك، وعظموه، وأخبروه أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة فقالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ يحتمل أن معناها: ونقدسك، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا، أي: نطهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونطهرها من الأخلاق الرذيلة، قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من هذا الخليفة ﴿مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير لم يكن في ذلك، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، أو لتظهر آياته للخلق، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة، كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز المكلفين من الخير والشر بالامتحان، وليتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه، واتصف به، فهذه حكم عظيمة، يكفي بعضها في ذلك، ثم لما كان قول الملائكة، عليهم السلام، فيها إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي: أسماء الأشياء، وما هو مسمى لها، فعلمه الاسم والمسمى، أي: الألفاظ والمعاني، حتى المصغر من الأسماء والمكبر كالقصعة والقصيعة ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي: عرض المسميات ﴿عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾ امتحانًا لهم، هل يعرفونها أم لا؟ ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم وظنكم أنكم أفضل من هذا الخليفة ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي: ننزهك من الاعتراض منا عليك، ومخالفة أمرك ﴿لا عِلْمَ لَنَا﴾ بوجه من الوجوه ﴿إِلا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ إياه، فضلا منك وجودًا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ العليم الذي أحاط علمًا بكل شيء، فلا يغيب عنه، ولا يعزب مثقال ذرة في السموات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، الحكيم، من له الحكمة التامة، التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئًا إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، فأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعترافهم بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون، فحينئذ قال الله: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي: أسماء المسميات التي عرضها الله

على الملائكة، فعجزوا عنها ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة البارى وعلمه فى استخلاف هذا الخليفة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو ما غاب عنا، فلم نشاهده، فإذا كان عالمًا للغيب فالشهادة من باب أولى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أى: تظهرون ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم، إكرامًا له وتعظيمًا، وعبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله، وبادروا كلهم بالسجود ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، قال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وهذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الذى هو منطو عليه، فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم، وكفره واستكباره، وفى هذه الآيات من العبر والآيات إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلمًا، يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله فى بعض المخلوقات والمأمورات فالواجب عليه التسليم واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم، بتعليمهم ما جهلوا، وتنبيههم على ما لم يعلموه، وفيه فضيلة العلم من وجوه: منها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون فى العبد، ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم، إكرامًا له، لما بان فضل علمه، ومنها: أن الامتحان للغير إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداء، ومنها: الاعتبار بحال أبوى الإنس والجن، وبيان فضل آدم، وأفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦)﴾

لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه، بأن خلق منه زوجه، ليسكن إليها، ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة، والأكل منها رغدًا، أى: واسعًا هنيئًا ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أى: من أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ نوع من أنواع شجر الجنة، الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحانًا وابتلاء، أو لحكمة غير معلومة لنا ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ دل على أن النهى للتحريم، لأنه رتب الظلم عليه، فلم يزل عدوهما يوسوس لهما ويزين لهما تناول ما نهيا عنه حتى أزلهما أى: حملهما على الزلل بتزيينه ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فاغترا به وأطاعاه، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أى: آدم وذريته، أعداء لإبليس وذريته، ومن المعلوم أن العدو يجد ويجتهد فى ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه الخير بكل طريق، ففى ضمن هذا تحذير بنى آدم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ ثم ذكر منتهى الإهباط فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أى: مسكن وقرار ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالكم، ثم تنتقلون منها للدار التى خلقتم لها، وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكنًا حقيقيًا، وإنما هى معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ﴾ أى: تلقف وتلقن، وألهمه الله ﴿مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ وهى قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ الآية، فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته ﴿فَتَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِ﴾ ورحمه ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ لمن تاب إليه وأناب، وتوبته نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانيًا ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة، وعفا عنهم وصفح.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾

كرر الإهباط ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني، يا معشر الثقلين، هدى، أي رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني، ويدنيكم من رضائي ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء: نفي الخوف، والحزن، والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع الهدى، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب آياته فأولئك أصحاب النار، أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون، وفي هذه الآيات وما أشبهها انقسام الخلق من الجن والإنس إلى أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

ثم شرع تعالى يذكّر بني إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه فقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من أتى بعدهم، فأمرهم بأمر عام فقال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وهو يشمل سائر النعم، التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد ذكرها بالقلب اعترافًا، وباللسان ثناء، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به وبرسله، وإقامة شرعه ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وهو المجازاة على ذلك، والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشيه أوجبت له خشيته امتثال أمره، واجتناب نهيه، ثم أمرهم بالأمر الخاص الذي لا يتم إيمانهم ولا يصح إلا به فقال: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ﴾ وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم فقال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي: موافقًا له لا مخالفًا ولا مناقضًا، فإذا كان موافقًا لما معكم من الكتب، غير مخالف لها، فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاء به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به، لكونكم أهل الكتب والعلم، وأيضًا فإن في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به عاد ذلك عليكم، بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو ما جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم، وأيضًا، فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به كذبتم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب ببعض ما أنزل إليه فقد كذب الرسل جميعهم، فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم عن ضده وهو الكفر به فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: بالرسول والقرآن، وقوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أبلغ من قوله: «ولا تكفروا به» لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم، ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل التي يتوهمون انقطاعها، إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وآثروها ﴿وَإِيَّايَ﴾ أي: لا غيري ﴿فَاتَّقُونِ﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده أوجبت لكم تقواه تقديم

الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم، ثم قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾ أى: تخلطوا ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ فنهاهم عن شيئين: عن خلط الحق بالباطل، وكتمان الحق، لأن المقصود من أهل الكتب والعلم تمييز الحق، وإظهار الحق، ليهتدى بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين، لأن الله فصَّل آياته، وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم، فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم، ومن لبس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا، مع علمه بذلك، وكتم الحق الذى يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو من دعاة جهنم، لأن الناس لا يقتدون فى أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين، ثم قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أى: ظاهرًا وباطنًا ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ مستحقيها ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أى: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسل الله وآيات الله فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية، وقوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أى: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أى: بالإيمان والخير ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أى تتركونها عن أمرها بذلك، والحال ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وسمى العقل عقلاً لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصًا إذا كان عالمًا بذلك، قد قامت عليه الحجة، وهذه الآية، وإن كانت نزلت فى سبب بنى إسرائيل، فهى عامة لكل أحد، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وليس فى الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها، فترك أحدهما لا يكون رخصة فى ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس فى رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضًا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾

أمرهم الله أن يستعينوا فى أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة، التى هى ميزان الإيمان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور ﴿وَإِنَّهَا﴾ أى: الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أى: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة، لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده، يوجب له فعله، منشرحًا صدره لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعى له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه، والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه، ذلا وافتقارًا، وإيمانًا به وبلقائه، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أى: يستيقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فهذا الذى خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلى فى المصيبات، ونفَّس عنهم الكربات،

وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم فى الغرفات العاليات، ومن لم يؤمن بلقاء ربه كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه، ثم كرر على بنى إسرائيل التذكير بنعمته، وعظًا لهم، وتحذيرًا وحثًا، وخوفهم بيوم القيامة الذى ﴿لاَّ تَجْزِي﴾ فيه أى: لا تغنى ﴿نَفْسٌ﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿شَيْئًا﴾ لا كبيرًا ولا صغيرًا وإنما ينفع الإنسان عمله الذى قدمه ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ أى: النفس ﴿شَفَاعَةٌ﴾ لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له، ولايرضى منه العمل إلا ما أريد به وجهه وكان على السبيل والسنة ﴿وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى: فداء ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ﴾ ولا يقبل منهم ذلك ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: يدفع عنهم المكروه، فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه، فقوله: ﴿لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ هذا فى تحصيل المنافع، ولا تقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل، هذا نفى للنفع الذى يطلب ممن يملكه بعوض، كالعدل، أو بغيره كالشفاعة، فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين، لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع، وأن يعلقه بالله الذى يجلب المنافع، ويدفع المضار، فيعبده وحده لا شريك له ويستعين على عبادته.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

هذا شروع فى تعداد نعمه على بنى إسرائيل على وجه التفصيل فقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أى: من فرعون وملئه وجنوده وكانوا قبل ذلك ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أى: يولونهم ويستعملونهم (والمعنى يذيقونكم) ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى: أشده بأن كانوا ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ خشية نموكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أى: فلا يقتلونهن، فأنتم بين قتيل ومذلل بالأعمال الشاقة، مستحيى على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه، فهذا غاية الإهانة، فمَنّ الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقر أعينهم ﴿وَفِي ذَلِكُم﴾ أى: الإنجاء ﴿بَلاءٌ﴾ أى: إحسان ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فهذا ما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره، ثم ذكر منته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة، ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده، أى ذهابه ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ تعلمون بظلمكم، قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرمًا وأكبر إثمًا، ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضًا فعفا الله عنكم بسبب ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهذا غاية الجرأة على الله وعلى رسوله ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ إما الموت أو الغشية العظيمة ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وقوع ذلك، كلٌّ ينظر إلى صاحبه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ثم ذكر نعمته عليهم فى التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ وهو اسم جامع لكل رزق يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز وغير ذلك ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ طائر صغير يقال له: السمانى، طيب اللحم، فكان ينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم ويقيتهم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أى: رزقًا لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفهين، فلم

يشكروا هذه النعمة، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيعود ضرره عليهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وهذا أيضًا من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزًا ووطنًا ومسكنًا، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل، وهو دخول الباب ﴿سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين ذليلين، وبالقول، وهو أن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بسؤالكم المغفرة ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بأعمالهم، أي جزاء عاجلاً وآجلاً ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم، ولم يقل: فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل حطة: حبة في حنطة استهانة بأمر الله واستهزاء، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم ﴿رِجْزًا﴾ أي: عذابًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم وبغيهم.

﴿۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي: طلب لهم ماء يشربون منه ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم جنس ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي: محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضًا، بل يشربونه متهنئين لا متكدرين، ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ أي: الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: تخربوا على وجه الإفساد.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ﴾ أي: واذكروا، إذ قلتم لموسى، على وجه التملل لنعم الله والاحتقار لها: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي: جنس من الطعام، وإن كان كما تقدم أنواعًا، لكنها لا تتغير ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا﴾ أي: نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساق ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ وهو الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ أي ثومها ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ والعدس والبصل معروف، قال لهم موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ وهو الأطعمة المذكورة ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وهو المن والسلوى، فهذا غير لائق بكم، فإن هذه الأطعمة التي طلبتموها، أي مصر هبطتموه وجدتموها، وأما طعامكم الذي منَّ الله به عليكم فهو خير الأطعمة وأشرفها، فكيف تطلبون به بدلاً؟ ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه جازاهم من جنس عملهم فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهممهم أردأ الهمم ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: لم تكن

غنيمتهم التى رجعوا بها وفازوا إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، فبئست الغنيمة غنيمتهم، وبئست الحالة حالتهم ﴿ذَلِكَ﴾ الذى استحقوا به غضبه ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالات على الحق الموضحة له، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم، وبما كانوا ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وقوله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبيين لا يكون بحق، لكن لئلا يظن جهلهم وعدم علمهم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ بأن ارتكبوا معاصى الله ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ على عباد الله، فإن المعاصى يجر بعضها بعضًا، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنها الذنب الكبير، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر، وغير ذلك، فنسأل الله العافية من كل بلاء، واعلم أن الخطاب فى هذه الآيات لأمة بنى إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها، وهى فعل أسلافهم، ونسبت لهم لفوائد عديدة، منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبيَّن الله من أحوال سلفهم التى قد تقررت عندهم، ما يبين به لكل واحد منهم أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق، ومعالى الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم ـ مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة، ممن بعدهم ـ فكيف الظن بالمخاطبين؟! ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصلة إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم، ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كأن متقدمهم ومتأخرهم فى وقت واحد، وكأن الحادث من بعضهم حادث من الجميع، لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع، ومنها: أن أفعالهم أكثرهم لم ينكرها، والراضى بالمعصية شريك للعاصى، إلى غير ذلك من الحكم التى لا يعلمها إلا الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ثم قال تعالى حاكمًا بين الفرق الكتابية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة، لأن الصابئين الصحيح أنهم من جملة فرق النصارى، فأخبر الله المؤمنين من هذه الأمة اليهود والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وصدقوا رسلهم فإن لهم الأجر العظيم والأمن ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر فهو بضد هذه الحال فعليه الخوف والحزن، والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث لهم لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ وأن هذا مضمون أحوالهم وهذه طريقة القرآن إذا وقع فى بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم لأنه تنزيل ممن يعلم الأشياء قبل وجودها، ومَن رحمته وسعت كل شىء، وذلك ـ والله أعلم ـ أنه لما ذكر بنى إسرائيل وذمهم وذكر معاصيهم وقبائحهم ربما وقع فى بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم فأراد البارى تعالى أن يبين من لا يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان أيضًا ذكر بنى إسرائيل خاصة يوهم الاختصاص بهم ذكر تعالى حكمًا عامًا يشمل الطوائف كلها، ليتضح الحق، ويزول التوهم والإشكال، فسبحان من أودع فى كتابه ما يبهر عقول العالمين.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

ـ ثم عاد تبارك وتعالى يوبخ بنى إسرائيل بما فعل سلفهم فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ الآية، أى: واذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم برفع الطور فوقهم وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾

من التوراة ﴿بقوة﴾ أي: بجد واجتهاد وصبر على أوامر الله ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي: ما في كتابكم بأن تتلوه وتتعلموه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من أهل التقوى، فبعد هذا التأكيد البليغ ﴿تَوَلَّيْتُم﴾ وأعرضتم وكان ذلك موجبًا لأن يحل بكم أعظم العقوبات، ولكن ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي: ولقد تقرر عندكم حالة ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ الآيات، فأوجب لهم هذا العذاب العظيم أن غضب الله عليهم وجعلهم ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ حقيرين ذليلين، وجعل الله هذه العقوبة ﴿نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: لمن حضرها من الأمم وبلغه خبرها، ممن هو في وقتهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: من بعدها، فتقوم على العباد حجة الله وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى حين قتلتم قتيلاً فادارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلفتم في قاتله حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد - لولا تبيين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبين القاتل: اذبحوا بقرة، وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فقال نبي الله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر الكبائر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاءه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه والرحمة لعباده، فلما قال لهم موسى ذلك علموا أن ذلك صدق فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما سنها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ أي: كبيرة ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ أي: صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: متوسطة بين السنين المذكورين سابقًا وهما الصغر والكبر ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ واتركوا التشديد والتعنت ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي: شديد ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ من حسنها ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ فلم نهتد إلى ما تريد ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا

﴿ذَلُولٌ﴾ أى: مذللة بالعمل ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ بالحراثة ﴿وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أى: ليست بساقية ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب أو من العمل ﴿لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾ أى: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالبيان الواضح، وهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أى بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضًا إليها ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أى: البقرة التى وصفت بتلك الصفات ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ بسبب التعنت الذى جرى منهم، فلما ذبحوها قلنا لهم اضربوا القتيل ببعضها، أى: بعضو منها، إما بعضو معين أو أى عضو منها، فليس فى تعيينه فائدة، فضربوه ببعضها فأحياه الله وأخرج ما كانوا يكتمون، فأخبر بقاتله، وكان فى إحيائه ـ وهم يشاهدون ـ ما يدل على إحياء الله الموتى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتنزجرون عن ما يضركم ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ أى: اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أى: من بعد ما أنعم الله عليكم بالنعم العظيمة، وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغى أن تقسو قلوبكم، لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده، ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ التى هى أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب فى النار ذاب بخلاف الأحجار، وقوله ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أى: إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى «بل» ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فبهذه الأمور فضلت قلوبكم، ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه، واعلم أن كثيرًا من المفسرين، رحمهم الله، قد أكثروا فى حشو تفاسيرهم من قصص بنى إسرائيل ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيرًا لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» والذى أرى أنه، وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيرًا لكتاب الله قطعًا، إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكًا فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة التى يغلب على الظن كذبها، أو كذب أكثرها، معانى لكتاب الله، مقطوعًا بها، ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا، حصل ما حصل، والله الموفق.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أى: فلا تطمعوا فى إيمانهم، وأخلاقهم لا تقتضى الطمع فيهم، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معانى، ما أرادها الله، ليوهموا الناس أنها من عند الله، وما هى من عند الله، فإذا كانت حالهم فى كتابهم الذى يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء، ثم ذكر حال منافقى أهل الكتاب فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ فأظهروا لهم الإيمان قولاً بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ﴿وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم قال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: أتظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم، فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟ يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق وما هم عليه باطل فيحتجون عليكم بذلك عند ربهم ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفلا يكون لكم عقل، فتتركون ما هو حجة عليكم؟ هذا يقوله بعضهم لبعض ﴿أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾

وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير، فإن الله يعلم سرهم وعلنهم، فيظهر لعباده ما هم عليه ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أى: من أهل الكتاب ﴿أُمِّيُّونَ﴾ أى: عوام، وليسوا من أهل العلم ﴿لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ﴾ أى: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم، فذكر فى هذه الآيات علماءهم وعوامهم ومنافقيهم ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم، لا بصيرة عندهم، فلا مطمع لكم فى الطائفتين.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ﴾ توعد تعالى المحرفين للكتاب الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون ﴿هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ والدنيا كلها - من أولها إلى آخرها - ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركًا يصطادون به ما فى أيدى الناس، فظلموهم من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطل الباطل، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبًا وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفى ضمنها الوعيد الشديد، قال شيخ الإسلام(١) لما ذكر هذه الآيات من قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ إلى: ﴿يَكْسِبُونَ﴾: فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة على ما أصَّله من البدع الباطلة، وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وهو متناول لمن ترك سر تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتابًا بيده مخالفًا لكتاب الله لينال به دنيا وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين، الذى يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية، ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة، لئلا يحتج به مخالفه فى الحق الذى يقوله، وهذه الأمور كثيرة جدا فى أهل الأهواء جملة كالرافضة، وتفصيلاً مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء. انتهى.

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾

ذكر أفعالهم القبيحة، ثم ذكر - مع هذا - أنهم يزكون أنفسهم ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله والفوز بثوابه وأنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، أى: قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن، ولما كان هذا مجرد دعوى رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يأيها الرسول ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أى: بالإيمان به وبرسله وبطاعته، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذى لا يتغير ولا يتبدل ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقف على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما: إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهدًا، فتكون دعواهم صحيحة، وإما أن يكونوا متقولين عليه فتكون كاذبة، فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم، وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهدًا لتكذيبهم كثيرًا من الأنبياء حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولنكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق، فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم من أعظم المحرمات وأشنع القبيحات، ثم ذكر تعالى حكمًا عامًا لكل

---

(١) هو ابن تيمية، رحمه الله تعالى ورضى عنه.

أحد يدخل فيه بنو إسرائيل وغيرهم، وهو الحكم الذى لا حكم غيره، لا أمانيهم ودعاويهم بصفة الهالكين والناجين فقال: ﴿بَلَى﴾ أى: ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة له، ولكن ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ وهو نكرة فى سياق الشرط، فيعم الشرك فما دونه، والمراد به هنا الشرك بدليل قوله: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أى: أحاطت بعاملها فلم تدع له منفذاً، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهى حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة فى الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعًا بها سنة رسوله، فحاصل هاتين الآيتين أن أهل النجاة والفوز هم أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار هم المشركون بالله الكافرون به، فهذه الشرائع من أصول الدين التى أمر الله بها فى كل شريعة، لاشتمالها على المصالح العامة، فى كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا بها فى قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى آخر الآية.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣)﴾

فقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به استعصوا[(١)] فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة والعهود الموثقة ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ هذا أمر بعبادة الله وحده، ونهى عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها، وإن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، ثم قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى: أحسنوا بالوالدين إحسانًا، وهذا يعم كل إحسان، قولى وفعلى، مما هو إحسان إليهم، وفيه النهى عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة، لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشىء نهى عن ضده، وللإحسان ضدان: الإساءة، وهى أعظم جرمًا، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول، وكذا يقال فى صلة الأقارب واليتامى والمساكين، وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد، بل تكون بالحد، كما تقدم، ثم أمر بالإحسان إلى الناس عمومًا فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب، ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون فى ضمن ذلك النهى عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ومن أدب الإنسان الذى أدب الله به عباده أن يكون الإنسان نزيهًا فى أقواله وأفعاله غير فاحش ولا بذىء ولا شاتم ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر الله ورجاء لثوابه، ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد، ثم بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التى إذا نظر إليها البصير العاقل عرف أن من إحسان الله على عباده أن أمرهم بها، وتفضل بها عليهم، وأخذ المواثيق عليهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ على وجه الإعراض، لأن المتولى قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع فى هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان، وقوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ﴾ هذا استثناء، لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم عصمهم الله وثبتهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ

---

(١) قوله: (أن كل أمر أمروا به ... إلخ) هكذا فى الأصل، والعبارة قلقة كما ترى، والأوضح أن يقال: (أنهم كلما أمروا بأمر استعصوا... إلخ).

﴿تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

وهذا الفعل المذكور فى هذه الآية فعل للذين كانوا فى زمن الوحى بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبى ﷺ مشركين، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة، فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودى حليفه على مقاتليه الذين تعينهم الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودى اليهودى، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضاً، والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ وهو فداء الأسير ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو القتل والإخراج، وفيها دليل على أن الإيمان يقتضى فعل الأوامر واجتناب النواهى، وأن فعل المأمورات من الإيمان، قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقد وقع ذلك، فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجلى من أجلى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ أى: أعظمه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ثم أخبر تعالى عن السبب الذى أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار فاختاروا النار على العار، فلهذا قال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ بل: هو باق على شدته ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: يدفع عنهم مكروه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾

يمتن تعالى على بنى إسرائيل أن أرسل لهم كليمه موسى وآتاه التوراة، ثم تابع بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى عليه السلام، وآتاه من الآيات البينات، ما يؤمن على مثله البشر ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أى: قواه الله بروح القدس، قال أكثر المفسرين: إنه جبريل، عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذى يؤيد الله به عباده، ثم مع هذه النعم التى لا يقدر قدرها، لما أتوكم ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بهم ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أى: اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه، يأيها الرسول، بأن قلوبهم غلف، أى: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول، يعنى، فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أى: أنهم مطرودون ملعونون، بسبب كفرهم، فقليلاً المؤمن منهم، أو قليلاً إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

أى: ولما جاءهم من عند الله على يد أفضل الخلق، وخاتم الأنبياء، الكتاب المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به وتيقنوه على أنهم إذا كان وقع بينهم وبين المشركين فى الجاهلية حروب استنصروا بهذا النبى وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبى الذى عرفوا كفروا به، بغيًا وحسدًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فلعنهم الله وغضب عليهم غضبًا بعد غضب لكثرة كفرهم وتوالى شكهم وشركهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: مؤلم موجع، وهو صلى الجحيم، وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به وبكتبه ورسله، مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أى: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله، وهو القرآن، استكبروا وعتوا ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أى: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمنوا بما أنزل الله مطلقًا، سواء أنزل عليهم، أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسله، وأما التفريق بين الرسل والكتب، وزعم الإيمان ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا ردًا شافيًا، وألزمهم إلزامًا لا محيد لهم عنه فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين فقال: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحق فى جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات والأوامر والنواهى، وهو من عند ربهم، فالكفر به - بعد ذلك - كفر بالله، وكفر بالحق الذى أنزله، ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أى: موافقًا له فى كل ما دل عليه من الحق ومهيمنًا عليه، فلم تؤمنون بما أنزل عليكم وتكفرون بنظيره؟ هل هذا إلا تعصب واتباع للهوى لا للهدى؟ وأيضًا فإن كون القرآن مصدقًا لما معهم، يقتضى أنه حجة لهم على صدق ما فى أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينة، ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بينته، ثم يأتى هو لبينته وحجته فيقدح فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن كفرًا بما فى أيديهم ونقضًا له، ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالأدلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ﴾ أى: بعد مجيئه ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ فى ذلك ليس لكم عذر ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ أى سماع قبول وطاعة واستجابة ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

أى صارت هذه حالتهم ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أى: صبغ حب العجل وحب عبادته فى قلوبهم، وشربها بسبب كفرهم ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى: أنتم تدَّعون الإيمان وتتمدحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلهًا من دون الله، لما غاب عنكم موسى، نبى الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمتم بالقول، ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذى ادعيتم، وما هذا الدين؟ فإن كان هذا إيمانًا، على زعمكم، فبئس الإيمان الداعى صاحبه إلى الطغيان والكفر برسل الله، وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم وتبين تناقضهم.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

أى: ﴿قُلْ﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعنى الجنة ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، وأن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة، فإن كنتم صادقين فى هذه الدعوى ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ، وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم، إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم، وهو تمنى الموت الذى يوصلهم إلى الدار التى هى خالصة لهم، فامتنعوا من ذلك، فعلم كل أحد أنهم فى غاية المعاندة والمحادة لله ورسوله، مع علمهم بذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصى لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة، فالموت أكره شىء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب، ثم ذكره شدة محبتهم الدنيا فقال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحرص، تمنوا حالة هى من المحالات، والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور لم يغن عنهم شيئا ولا دفع عنهم من العذاب شيئا ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا﴾ أى: قل لهؤلاء اليهود، الذين زعموا أن الذى منعهم من الإيمان بك أن وليك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله لآمنوا بك وصدقوا: إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت، وتكبر على الله، فإن جبريل عليه السلام هو الذى نزل القرآن من عند الله على قلبك، وهو الذى ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذى أمره وأرسله بذلك، فهو رسول محض، مع أن هذا الكتاب الذى نزل به جبريل - مصدقًا لما تقدمه من الكتب - غير مخالف لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوى والأخروى لمن آمن به، فالعداوة لجبريل، الموصوف بذلك، كفر بالله وآياته، وعداوة لله ولرسله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق، على رسل الله، فيتضمن الكفر والعداوة للذى أنزله وأرسله، والذى أُرسل به، والذى أُرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

يقول لنبيه ﷺ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحجة على من

عاند، وهى فى الوضوح والدلالة على الحق قد بلغت مبلغًا عظيمًا، ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر، وهذا فيه التعجب من كثرة معاهداتهم، وعدم صبرهم على الولاء بها.

﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

فـ ﴿كُلَّمَا﴾ تفيد التكرار، فكلما وجد العهد ترتب عليه النقض، ما السبب فى ذلك؟ السبب أن أكثرهم لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذى أوجب لهم نقض العهود، ولو صدق إيمانهم لكانوا مثل من قال الله فيهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أى: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم فلما كفروا بهذا الرسول وبما جاء به ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ الذى أنزل إليهم، أى طرحوه رغبة عنه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وهذا أبلغ فى الإعراض كأنهم فى فعلهم هذا من الجاهلين وهم يعلمون صدقه وحقيقة ما جاء به، تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق فى أيديهم شىء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به كفرًا بكتابهم من حيث لا يشعرون، ولما كان من العوائد القدسية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه وأمكنه الانتفاع به ولم ينتفع ابتلى بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن ابتُلى بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه ابتُلى بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفق ماله فى طاعة الله أنفقه فى طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه ابتُلى بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتُلى بالباطل، كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين وتختلق من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله وبه حصل الملك العظيم، وهم كذبة فى ذلك، فلم يستعمله سليمان بل نزهه الصادق فى قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أى: بتعلم السحر، فلم يتعلمه ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ فى ذلك ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بنى آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذى أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق أنزل عليهما السحر امتحانًا وابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم السحر ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ﴾ ينصحاه ﴿يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أى: لا تتعلم السحر فإنه كفر فينهيانه عن السحر ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام، وتعليم الملكين امتحانًا مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة، فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذى تعلمه الشياطين، والسحر الذى يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكلٌّ يصبو إلى ما يناسبه، ثم ذكر مفاسد السحر فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن

الله قال فى حقهما: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وفى هذا دليل على أن السحر له حقيقة وأنه يضر بإذن الله أى بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما فى هذه الآية، وإذن شرعى كما فى قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وفى هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت فى قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة فى التأثير، ولم يخالف فى هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية فى أفعال العباد زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله تعالى، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين، ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية، كما يوجد بعض المنافع الدنيوية فى بعض المعاصى، كما قال تعالى فى الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ فهذا السحر مضرة محضة، فليس له داع أصلاً، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة، أو شرها أكبر من خيرها، كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أى اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أى: رغب فى السحر رغبة المشترى فى السلعة ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أى: نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ علمًا يثمر العمل ما فعلوه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾

كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: ﴿رَاعِنَا﴾ أى: راع أحوالنا، فيقصدون بها معنى صحيحًا، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسدًا، فانتهزوا الفرصة فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة، سدًا لهذا الباب، ففيه النهى عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب واستعمال الألفاظ التى لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التى فيها نوع تشويش واحتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن فقال: ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور ﴿وَاسْمَعُوا﴾ لم يذكر المسموع ليعم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن، وسماع السنة التى هى الحكمة، لفظًا ومعنى، واستجابة، ففيه الأدب والطاعة، ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجع، وأخبر عن عداوة اليهود المشركين للمؤمنين أنهم ما يودون ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أى: لا قليلاً ولا كثيرًا ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حسدًا منهم، وبغضًا لكم أن يختصكم بفضله فإنه ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ومن فضله عليكم أنزل الكتاب على رسولكم ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة.

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ النسخ هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر، أو إلى إسقاطه، وكان اليهود ينكرون النسخ، ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم فى التوراة، فإنكارهم له كفر وهوى محض، فأخبر الله تعالى عن حكمته فى النسخ فقال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أى: ننسها العباد فنزيلها من قلوبهم ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ وأنفع لكم ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول، لأن فضله تعالى يزداد، خصوصًا على هذه الأمة، التى سهل عليها دينها غاية التسهيل، وأخبر أن من قدح فى النسخ قدح فى ملكه وقدرته فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ

﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فإذا كان مالكًا لكم متصرفًا فيكم تصرف المالك البر الرحيم فى أقداره وأوامره ونواهيه، فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام، فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية، فما له والاعتراض؟ وهو أيضًا، ولى عباده ونصيرهم فيتولاهم فى تحصيل منافعهم وينصرهم فى دفع مضارهم، فمن ولايته لهم أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم، ومن تأمل ما وقع فى القرآن والسنة من النسخ عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم، من حيث لا يشعرون بلطفه.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)﴾

ينهى الله المؤمنين، أو اليهود، بأن يسألوا رسولهم ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ والمراد بذلك أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ فهذه ونحوها هى المنهى عنها، وأما سؤال الاسترشاد والتعليم فهذا محمود قد أمر الله به، كما قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ويقرهم عليه كما فى قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ و ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ ونحو ذلك، ولما كانت المسائل المنهى عنها مذمومة وقد تصل بصاحبها إلى الكفر قال: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم الحال أنهم ودوا ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ وسعوا فى ذلك وعملوا المكايد وكيدهم راجع عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم، فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم بالعفو عنهم والصفح، حتى يأتى الله بأمره، ثم بعد ذلك أتى الله بأمره إياهم الجهاد، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا، واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثم أمرهم الله بالاشتغال بالوقت الحاضر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير فإنه لا يضيع عند الله، بل يجدونه عنده وافرًا موفرًا قد حفظه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ أى: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أمانى غير مقبولة إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى، لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذى يصدق الدعوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان علم كذبهم بتلك الدعوى، ثم ذكر تعالى البرهان الجلى العام لكل أحد فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ أى: ليس بأمانيكم ودعاويكم ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أى: أخلص لله أعماله، متوجهًا إليه بقلبه ﴿وَهُوَ﴾ مع إخلاصه ﴿مُحْسِنٌ﴾ فى عبادة ربه، بأن عبده بشرعه، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم ﴿فَلَهُ

أجره عند ربه﴾ وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب، ويفهم منها أن من ليس كذلك فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلَّل بعضًا، وكفَّر بعضهم بعضًا، كما فعل الأميون من مشركى العرب وغيرهم، فكل فرقة تضلل الأخرى، ويحكم الله فى الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل الذى أخبر به عباده، فإنه لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتثل أوامر ربه، واجتنب نواهيه، ومن عداهم فهو هالك.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أى: لا أحد أظلم، وأشد جرمًا ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات ﴿وَسَعَىٰ﴾ أى: اجتهد وبذل وسعه ﴿فِى خَرَابِهَا﴾ الحسى والمعنوى، فالخراب الحسى: هدمها وتخريبها وتقذيرها، والخراب المعنوى: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل فى ذلك أصحاب الفيل، وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين فى خرابها، محادة لله ومشاقة، فجازاهم الله بأن منعهم دخولها شرعًا وقدرًا، إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيرًا حتى أذن الله له فى فتح مكة، ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وأصحاب الفيل ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى سلط الله عليهم المؤمنين فأجلوهم، وهكذا كل من اتصف بوصفهم فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها البارى قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر، واستدل العلماء بالآية الكريمة على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد ﴿لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ فضيحة، كما تقدم ﴿وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه فلا أعظم إيمانًا ممن سعى فى عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ وللمساجد أحكام كثيرة يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

أى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ خصهما بالذكر لأنهما محل الآيات العظيمة، فى مطالع الأنوار ومغاربها، فإذا كان مالكًا لها كان مالكا لكل الجهات ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ وجوهكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة فى السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد، أو تشتبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذورًا بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور إما أن يكون العبد فيها معذورًا أو مأمورًا، وبكل حال فما استقبل جهة من الجهات خارجة عن ملك ربه ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهًا لا تشبهه الوجوه، وهو ــ تعالى ــ واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسرائركم ونياتكم، فمن سعته وعلمه وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) ﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أى: اليهود والنصارى والمشركون وكل من قال ذلك ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأساءوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم، وهو ـ تعالى ـ صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى: تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذى لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك فقال: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: جميعهم ملكه وعبيده يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده مفتقرين إليه، وهو غنى عنهم، فكيف يكون منهم أحد يكون له ولدًا، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه، والله تعالى المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغنى وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا يكون له ولدًا؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه، والقنوت نوعان: قنوت عام وهو قنوت الخلق كلهم تحت تدبير الخالق، وخاص وهو قنوت العبادة، فالنوع الأول كما فى هذه الآية، والنوع الثانى كما فى قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ ثم قال: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يستعصى عليه، ولا يمتنع منه.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) ﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم: هل يكلمنا الله كما كلم الرسل؟ ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ يعنون آيات الاقتراح التى يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة التى تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ الآية، وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ الآيات، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ الآيات، فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاءوا من الآيات بما يؤمن على مثله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فكل موقن فقد عرف من آيات الله الباهرة وبراهينه الظاهرة ما حصل له اليقين، واندفع عنه كل شك وريب، ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ وصحة ما جاء به فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فهذا مشتمل على الآيات التى جاء بها، وهى ترجع إلى ثلاثة أمور: **الأول**: فى نفس إرساله، **والثانى**: فى سيرته وهديه ودله، **والثالث**: فى معرفة ما جاء به من القرآن والسنة، فالأول والثانى قد دخلا فى قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ والثالث فى قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ وبيان الأمر الأول وهو ـ نفس إرساله ـ أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران والصلبان وتبديلهم للأديان، حتى كانوا فى ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقرضوا قبيل البعثة، وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملا، لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله، وأما الثانى: فمن عرف النبى ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشوءه

على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها وسبر أحواله عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأنه تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم، وأما الثالث فهو ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم والقرآن الكريم، المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهى عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل فى هذه الثلاثة، قوله ﴿بَشِيرًا﴾ أى: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوى والأخروى ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أى: لست مسئولاً عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾

يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى، إلا باتباعه دينهم لأنهم دعاة إلى الدين الذى هم عليه، ويزعمون أنه الهدى فقل لهم: ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ الذى أرسلت به ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ وأما ما أنتم عليه فهو الهوى بدليل قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فهذا فيه النهى العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب ـ وإن كان لرسول الله ﷺ ـ فإن أمته داخلة فى ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ثم قال:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾

يخبر الله تعالى أن الذين آتاهم الكتاب، ومنَّ عليهم به منة مطلقة أنهم ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أى: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم، فهؤلاء هم المؤمنون حقًا، لا من قال منهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقد تقدم تفسير الآية التى بعدها.

﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ﴾ يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، المتفق على إمامته وجلالته، الذى كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون، أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات، أى: بأوامر ونواه، كما هى عادة الله فى ابتلائه لعباده ليتبين الكاذب الذى لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق الذى ترتفع درجته، ويزيد قدره، ويزكو عمله، ويخلص ذهبه، وكان من أجلهم فى هذا المقام الخليل عليه السلام، فأتم ما ابتلاه الله به، وأكمله ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكورًا، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أى: يقتدون بك فى الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الثناء الدائم، والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد، وهذه ـ لعمر الله ـ أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم، من كل صديق متبع لهم داع إلى الله وإلى سبيله، فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام، وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته، لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضًا من إمامته ونصحه لعباد الله، ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون، فلله عظمة هذه الهمم العالية، والمقامات السامية، فأجابه الرحيم

اللطيف وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام فقال: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أى: لا ينال الإمامة فى الدين من ظلم نفسه وضرها وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آلته الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟ ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

ثم ذكر تعالى أنموذجًا باقيًا دالاً على إمامة إبراهيم، وهو: هذا البيت الحرام، الذى جعل قصده ركنًا من أركان الإسلام، حاطًا للذنوب والآثام، وفيه من آثار الخليل وذريته ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ أى: مرجعًا يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطرًا ﴿وَ﴾ جعله ﴿أَمْنًا﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار، ولهذا كانوا فى الجاهلية ـ على شركهم ـ يحترمونه أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه فى الحرم فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذى قد جعل الآن مقابل باب الكعبة وأن المراد بهذا ركعتا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفردًا مضافًا، فيعم جميع مقامات إبراهيم فى الحج، وهى المشاعر كلها، من الطواف والسعى والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمى الجمار والنحر، وغير ذلك من أفعال الحج، فيكون معنى قوله: ﴿مُصَلًّى﴾ أى: معبدًا، أى: اقتدوا به فى شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى لدخول المعنى الأول فيه، واحتمال اللفظ له ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ أى: أوحينا إليهما وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك والكفر والمعاصى، ومن الرجس والنجاسات والأقذار، ليكون ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فيه ﴿وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أى: المصلين، قدم الطواف لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف، لأن من شرطه المسجد مطلقًا، ثم الصلاة، مع أنها أفضل، لهذا المعنى، وأضاف البارى البيت إليه لفوائد: منها: أن ذلك يقتضى شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما ويستغرقان وسعهما فى ذلك، ومنها: أن الإضافة تقتضى التشريف والإكرام، ففى ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه، ومنها: أن هذه الإضافة، هى السبب الجالب للقلوب إليه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

أى: وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت أن يجعله الله بلدًا آمنًا ويرزق أهله من أنواع الثمرات، ثم قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين، تأدبًا مع الله، إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق فجاء بالجواب فيه مقيدًا بغير الظالم، فلما دعا لهم بالرزق وقيده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن والكافر، والعاصى والطائع، قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أى: أرزقهم كلهم، مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر فيتمتع فيها قليلاً ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أى: ألجئه وأخرجه مكرهًا ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ أى: واذكر إبراهيم وإسماعيل فى حالة رفعهما القواعد من البيت، الأساس، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كان حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما ـ مع هذا العمل ـ دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما حتى يجعل فيه النفع العميم، ودعوا لأنفسهما وذريتهما بالإسلام، الذى حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أى: علمناها على وجه الإرادة والمشاهدة ليكون أبلغ، يحتمل أن يكون المراد بالمناسك: أعمال الحج كلها كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعظم من ذلك وهو الدين كله، والعبادات كلها، كما يدل عليه عموم اللفظ، لأن النسك: التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج، تغليبًا عرفيًا، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح، ولما كان العبد ـ مهما كان ـ لا بد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة قالا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أى: فى ذريتنا ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ ليكون أرفع لدرجتهما ولينقادوا له وليعرفوه حقيقة المعرفة ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ لفظًا وحفظًا وتحفيظًا ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ معنى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة والتبرى من الأعمال الردية، التى تزكى النفس معها ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ أى: القاهر لكل شىء الذى لا يمتنع على قوته شىء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك وحكمتك ابعث فيهم هذا الرسول، فاستجاب الله لهما فبعث الله هذا الرسول الكريم الذى رحم الله به ذريتهما خاصة وسائر الخلق عامة، ولهذا قال ﷺ: «أنا دعوة أبى إبراهيم» ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم، وأخبره عن صفاته الكاملة قال تعالى:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: ما يرغب ﴿عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بعدما عرف من فضله ﴿إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أى: جهلها وامتهنها ورضى لها بالدون وباعها بصفقة المغبون، كما أنه لا أرشد ولا أكمل ممن رغب فى ملة إبراهيم، ثم أخبر عن حالته فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أى: اخترناه ووفقناه للأعمال التي صار بها من المصطفين الأخيار ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم أعلى الدرجات ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ﴾ امتثالاً لربه ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إخلاصًا وتوحيدًا ومحبة وإنابة فكان التوحيد لله نعته، ثم ورثه فى ذريته ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية فى عقبه وتوارثت فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه، فأنتم يا بنى يعقوب، قد وصاكم أبوكم بالخصوص، فيجب عليكم كمال الانقياد، واتباع خاتم الأنبياء قال: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ أى: اختاره وتخيره لكم، رحمة بكم، وإحسانًا إليكم، فقوموا به، واتصفوا بشرائعه، وانصبغوا بأخلاقه، حتى تستمروا على ذلك فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش على شىء مات عليه، ومن مات على شىء بُعث عليه، ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أى: حضورًا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أى: مقدماته وأسبابه، فقال لبنيه على وجه الاختبار، ولتقر عينه فى حياته بامتثالهم ما وصاهم به: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ فأجابوه بما قرت به عينه فقالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فلا نشرك به شيئًا ولا نعدل به ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل، ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية لا باليهودية، ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أى: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أى: كل له عمله وكل سيجازى بما فعله، لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ولا ينفع

أحدًا إلا إيمانه وتقواه، فاشتغالكم به وادعاؤكم أنكم على ملتهم والرضا بمجرد القول أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التى أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

أى: دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول فى دينهم زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال، قال له مجيبًا جوابًا شافيًا: ﴿بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى: مقبلاً على الله، معرضًا عما سواه، قائمًا بالتوحيد، تاركًا للشرك والتنديد، فهذا الذى فى اتباعه الهداية، وفى الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

هذه الآية الكريمة قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به، واعلم أن الإيمان الذى هو تصديق القلب التام، بهذه الأصول وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو ـ بهذا الاعتبار ـ يدخل فيه الإسلام، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهى من الإيمان، وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسمًا لما فى القلب من الإقرار والتصديق والإسلام اسمًا للأعمال الظاهرة، وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة، فقوله تعالى: ﴿قُولُوا﴾ أى: بألسنتكم، متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالى من العمل عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة، وإن كان العبد يؤجر عليه إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد والمقترن به عمل القلب، وفى قوله: ﴿قُولُوا﴾ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها، إذ هى أصل الدين وأساسه، وفى قوله: ﴿آمَنَّا﴾ ونحوه مما فيه صدور الفعل منسوبًا إلى جميع الأمة إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعًا والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحدًا وعملهم متحدًا، وفى ضمنه النهى عن الافتراق، وفيه: أن المؤمنين كالجسد الواحد، وفى قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ إلخ، دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد، بل على وجوب ذلك، بخلاف قوله «أنا مؤمن» ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقرونًا بالاستثناء بالمشيئة، لما فيه من تزكية النفس، والشهادة على نفسه بالإيمان، فقوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أى: بأنه واجب الوجود، واحد أحد، متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها وعدم الإشراك به فى شىء منها بوجه من الوجوه ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله، من صفات البارى وصفات رسله واليوم الآخر والغيوب الماضية والمستقبلة، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الأمرية الشرعية، وأحكام الجزاء وغير ذلك ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عمومًا وخصوصًا، ما نص عليه فى الآية، لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار، فالواجب فى الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب الإيمان به مفصلاً، وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أى: بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التى انفردوا بها عن كل من يدعى أنه على دين، فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم ـ وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب ـ فإنهم يكفرون بغيره، فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذى زعموا أنهم قد آمنوا به قد صدق سائر الرسل، وخصوصًا محمد ﷺ، فإذا كذبوا محمداً فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفراً برسولهم، وفى قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ دلالة على أن عطية الدين هى العطية الحقيقية المتصلة

بالسعادة الدنيوية والأخروية، لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتى الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع، وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه فى تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شىء، وفى قولهم: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل عليهم الكتب ويرسل إليهم الرسل فلا تقتضى ربوبيته تركهم سدى ولا هملاً، وإذا كان ما أوتى النبيون إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعى النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا إلى الخير ولا ينهون إلا عن كل شر وكل واحد منهم يصدق الآخر، ويشهد له بالحق من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا فى إخبارهم وأوامرهم ونواهيهم كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع، وعرف ما يدعون إليه، فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به، عمومًا وخصوصًا، وكان القول لا يغنى عن العمل قال: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أى: خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته، بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة، بدليل تقديم المعمول، وهو ﴿لَهُ﴾ على العامل وهو ﴿مُسْلِمُونَ﴾ فقد اشتملت هذه الآية الكريمة ـ على إيجازها واختصارها ـ على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل، بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله فى ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين ومن ادعى النبوة الكاذبين، وعلى تعليم البارى عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبيانًا لكل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ أى: فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به ـ يا معشر المؤمنين ـ من جميع الرسل وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده ولم يفرقوا بين أحد من الرسل ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ للصراط المستقيم الموصل لجنات النعيم، أى: فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه، و«الهدى» هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذى كانوا عليه لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق: هو الذى يكون فى شق والله ورسوله فى شق، ويلزم من المشاقة المحادة والعداوة البليغة، التى من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم، لأنه السميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك كفاك الله شرهم، وقد أنجز الله لرسوله وعده وسلطه عليهم، حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد، ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشىء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أى: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قيامًا تامًا، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده فى جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعًا واختيارًا ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذى صار له صفة فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية لحث الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالى الأمور، فلهذا قال، على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أى: لا

أحسن صبغة من صبغته، وإذا أردت أن تعرف نموذجًا يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بضده، فكيف ترى فى عبد آمن بربه إيمانًا صحيحًا أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوصفه الصدق فى قوله وفعله، والصبر والحلم والعفة والشجاعة والإحسان القولى والفعلى، ومحبة الله وخشيته وخوفه ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده، فقسه بعبد كفر بربه وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين، فاتصف بالصفات القبيحة من الكفر والشرك والكذب والخيانة والمكر والخداع، وعدم العفة والإساءة إلى الخلق فى أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبيده، فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن من صبغة الله، وفى ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه، وفى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ بيان لهذه الصبغة، وهى القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة، لأن «العبادة» اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص أن يقصد العبد وجه الله وحده فى تلك الأعمال، فتقدم المعمول يؤذن بالحصر، وقال: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ليدل على اتصافهم بذلك.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)﴾

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا﴾ المحاجة هى: المجادلة بين اثنين فأكثر تتعلق بالمسائل الخلافية حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما، يجتهد فى إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتى هى أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق، ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور كانت مماراة ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل، فإذا كان رب الجميع واحد، ليس ربًا لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وأنتم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره، لأن التفريق مع الاشتراك فى الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفريق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف للمؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم، لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بالأوصاف الحقيقية، التى يسلمها أهل العقول ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففى هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)﴾

وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة فى رسل الله زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ فالله يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهم يقولون: بل كان يهوديًا أو نصرانيًا، فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو فى غاية الوضوح والبيان، حتى إنه ــ من وضوحه ــ لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك، وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء، لم يكونوا هودًا ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ

أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ فهى شهادة عندهم، مودعة من الله لا من الخلق، فيقتضى الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوى إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلهذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد أحصى أعمالهم وعدها وادخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار مثوى للظالمين، وهذه طريقة القرآن فى ذكر العلم والقدرة عقب الآيات المتضمنة للأعمال التى يجازى عليها، فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويفيد أيضًا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام أن الأمر الدينى والجزائى أثر من آثارها، وموجبًا من موجباتها، وهى مقتضية له.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقدم تفسيرها، وكررها لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان لا عمل آبائه وأسلافه، فالنفع الحقيقى بالأعمال لا بالانتساب المجرد للرجال.

﴿ ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ قد اشتملت الآية الأولى على معجزة وتسلية، وتطمين قلوب المؤمنين واعتراض وجوابه، من ثلاثة أوجه: الاعتراض، وصفه المعترض، وصفة المسلم لحكم الله دينه، فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس، وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة نحو سنة ونصف، لما لله فى ذلك من الحكم التى سيشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضى أمرهم باستقبال الكعبة، فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ وهى استقبال بيت المقدس، أى: أىُّ شىء صرفهم عنه؟ وفى ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه، فسلاهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم، إذ قد علم مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالى باعتراض السفيه ولا يلقى له ذهنه، ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وقد كان فى قوله: ﴿السُّفَهَاءُ﴾ ما يغنى عن رد قولهم وعدم المبالاة به، ولكنه تعالى ـ مع هذا ـ لم يترك هذه الشبهة حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قُل﴾ لهم مجيبًا ﴿لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: فإذا كان المشرق والمغرب ملكًا لله، ليس جهة من الجهات خارجة من ملكه ومع هذا يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التى هى من ملة إبراهيم ـ فلأى شىء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلة تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكًا له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم معترض على فضل الله، حسدًا لكم وبغيًا، ولما كان قوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مطلقًا، والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر فى غير موضع من كتابه بأسباب الهداية التى أتى بها العبد حصل له الهدى، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ ذكر فى هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقًا بجميع أنواع الهداية، ومنة الله عليها فقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أى: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فالأطراف داخلة تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة، وسطًا فى كل أمور الدين، وسطًا فى الأنبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطا فى الشريعة، لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى، وفى باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا فى بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم الطيبات، عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئا، ولا يحرمون شيئا، بل أباحوا ما دب ودرج، بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها، ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ كاملين معتدلين، ليكونوا ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود، فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة وحصلت العدالة التامة، كما فى هذه الأمة، فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك: العلم والعدل، وهما موجودان فى هذه الأمة، فقبل قولها، فإن شك شاك فى فضلها وطلب مزكيًا لها فهو أكمل الخلق، نبيهم ﷺ، فلهذا قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة، وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم، استشهد الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها، وفى الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ لإطلاق قوله: ﴿وَسَطًا﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطًا إلا فى بعض الأمور، وفيها اشتراط العدالة فى الحكم والشهادة والفتيا، ونحو ذلك.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ وهى استقبال بيت المقدس أولاً ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أى: علمًا يتعلق به الثواب والعقاب[1]، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها، ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثوابًا

---

(١) قوله: (أى علما يتعلق به الثواب . . . إلخ) هذه العبارة مبهمة تحتاج إلى إيضاح، ونذكر ما أفاده الأئمة: النسفى، وأبو السعود، وابن كثير فى تفاسيرهم، وأبو حيان فى بحره، فنقول: (لنعلم) أى: لنميز التابع من الناكص، وينكشف أمرهم وحالهم للرسول وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ فوضع العلم موضع التمييز لأن العلم يقع به التمييز، وهو سببه فأطلق السبب - الذى هو العلم - وأراد المسبب - الذى هو التمييز - ويؤيد ما قلنا قراءة «لِيُعلم» بالياء وبالبناء للمجهول، وإنما أسند علمهم إلى ذاته، لأنهم خواصه، أو هو ملاطفة الخطاب كقولك لمن ينكر ذوب الذهب: فلنلقه فى النار لنعلم أيذوب الذهب أم لا؟ اهـ.

وفى البحر المحيط لأبى حيان: وظاهر قوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ابتداء العلم، وليس المعنى على الظاهر إذ يستحيل حدوث علم الله تعالى فأول على حذف مضاف، أى ليعلم رسولنا والمؤمنون، وأسند علمهم إلى ذاته لأنهم خواصه وأهل الزلفى لديه، فيكون هذا من مجاز الحذف أو على إطلاق العلم على معنى التمييز، لأن بالعلم يقع التمييز، أى: لنميز التابع من الناكص، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ ويكون هذا من مجاز إطلاق السبب ويراد به المسبب، وحكى هذا التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما، أو على أنه أراد ذكر علمه وقت موافقتهم الطاعة أو المعصية، إذ بذلك الوقت يتعلق الثواب والعقاب، أو أريد بالمستقبل هنا الماضى والتقدير: لما علمنا أو لعلمنا من يتبع الرسول ممن يخالف. اهـ. بتصرف.

واقتصر ابن كثير فى تفسيره على جعل المعنى ليعلم المؤمنون وينكشف حال ضعاف الإيمان فقال: ويقول تعالى: إنا شرعنا لك يا محمد التوجه أولا إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنه إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك، حيثما توجهت، ممن ينقلب على عقبيه). اهـ.

ولا عقابا لتمام عدله، وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها الثواب والعقاب، أى: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن ﴿مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ ويؤمن به فيتبعه على كل حال، لأنه عبد مأمور مدبر، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة، فالمنصف الذى مقصوده الحق إنما يزيده ذلك إيمانًا، وطاعة للرسول، وأما من انقلب على عقبيه وأعرض عن الحق واتبع هواه، فإنه يزداد كفرًا إلى كفره، وحيرة إلى حيرته، ويدلى بالحجة الباطلة المبنية على شبهة لا حقيقة لها ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أى: صرفك عنها ﴿لَكَبِيرَةً﴾ أى: شاقة ﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم، وشكروا وأقروا له بالإحسان، حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، الذى فضله على سائر بقاع الأرض، وجعل قصده، ركنًا من أركان الإسلام، وهادمًا للذنوب والآثام، فلهذا خف عليهم ذلك وشق على من سواهم، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أى: ما ينبغى له ولا يليق به تعالى، بل هو من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل، أن يضيع إيمانكم، وفى هذه بشارة عظيمة لمن مَنَّ الله عليهم بالإسلام والإيمان بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم، فلا يضيعه، وحفظه نوعان: حفظ عن الضياع والبطلان بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيد له، ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، وحفظ بتنميته لهم وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم بأن هداكم للإيمان فسيحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن المقصود منها تبين المؤمن الصادق من الكاذب فإنها تمحص المؤمنين، وتظهر صدقهم، وكأن فى هذا احترازًا عما قد يقال: إن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ قد يكون سببًا لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها، دخل فى ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله فى وقتها، وطاعة الله: امتثال أمره فى كل وقت، بحسب ذلك، وفى هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: شديد الرحمة بهم عظيمها فمن رأفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التى ابتدأهم بها، وأن ميز عنهم من دخل فى الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحانًا زاد به إيمانهم وارتفعت به درجتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت وأجلها.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾

يقول الله لنبيه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أى: كثرة تردده فى جميع جهاته شوقًا وانتظارًا لنزول الوحى باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وَجْهِكَ﴾ ولم يقل «بصرك» لزيادة اهتمامه، ولأن تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ أى: نوجهك لولايتنا إياك ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أى: تحبها، وهى الكعبة، وفى هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع فى رضاه، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أى: من بر وبحر، وشرق وغرب، وجنوب وشمال ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أى: جهته، ففيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها، فرضها ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفى شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشىء نهى عن ضده، ولما ذكر تعالى فيما تقدم المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلماء منهم يعلمون أنك فى ذلك على حق واضح، لما يجدونه فى كتبهم، فيعترضون عنادًا وبغيًا، فإذا كانوا يغمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه إذا كان الأمر مشتبهًا، وكان ممكنًا أن يكون معه صواب، فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه، وأن المعترض معاند، عارف ببطلان قوله فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخروية، فلهذا قال

تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم ويجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعترضين وتسلية للمؤمنين.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾

كان النبى ﷺ - من كمال حرصه على هداية الخلق - يبذل غاية ما يقدر عليه من النصيحة ويتلطف بهدايتهم، ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله، فكان من الكفار من تمرد عن أمر الله، واستكبر على رسل الله، وترك الهدى، عمدًا وعدوانًا، فمنهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين، لا عن جهل، فلهذا أخبره الله تعالى أنك ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ أى: بكل برهان ودليل يوضح قولك، ويبين ما تدعو إليه ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ أى: ما تبعوك، لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما ينتفع بها من يتطلب الحق وهو مشتبه عليه، فتوضح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق فلا حيلة فيه، وأيضًا فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب منهم - مع ذلك - أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد وهم الأعداء الحسدة حقيقة، وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أبلغ من قوله «ولا تتبعوا» لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه، ولم يقل: «ولو أتوا بكل آية» لأنهم لا دليل لهم على قولهم، وكذلك إذا تبين الحق بأدلته اليقينية لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه لأنها لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافى الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ إنما قال: «أهواءهم» ولم يقل: «دينهم» لأن ما هم عليه مجرد أهواء نفس، حتى هم - فى قلوبهم - يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى لا محالة، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأنك على الحق وهم على الباطل ﴿إِنَّكَ إِذًا﴾ أى: إن اتبعتهم، فهذا احتراز، لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو فى الأفهام ﴿لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: داخل فيهم ومندرج فى جملتهم، وأى ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل فآثر الباطل على الحق، وهذا، وإن كان الخطاب له ﷺ فإن أمته داخلة فى ذلك، وأيضًا، فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالمًا مع علو مرتبته، وكثرة إحسانه، فغيره من باب أولى وأحرى، ثم قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)﴾

يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم، وعرفوا أن محمداً رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك، كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون بغيره، فمعرفتهم بمحمد ﷺ وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون، ولكن فريقًا منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به كتموا هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وفى ضمن ذلك تسلية للرسول والمؤمنين، وتحذير له من شرهم وشبههم، وفريق منهم لم يكتموا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر به جهلاً، فالعالم عليه إظهار الحق، وتبيينه وتزيينه بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق وتشيينه، وتقبيحه للنفوس بكل طريق مؤد لذلك، فهؤلاء الكاتمون عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أى: هذا الحق الذى هو أحق أن يسمى حقًا من كل شىء لما اشتمل عليه من المطالب العالية، والأوامر الحسنة، وتزكية النفوس وحثها على تحصيل مصالحها، ودفع مفاسدها، لصدوره من ربك، الذى من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذى فيه تربية العقول والنفوس، وجميع المصالح ﴿فَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أى: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكر فيه وتأمل، حتى تصل بذلك إلى اليقين، لأن التفكر فيه، لا محالة، دافع للشك موصل لليقين.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ أى: كل أهل دين وملة له وجهة يتوجه إليها فى عبادته، وليس الشأن فى استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التى تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل، من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن فى امتثال طاعة الله، والتقرب إليه، وطلب الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذى إذا لم تتصف به النفوس حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة كما أنها إذا اتصفت به فهى الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه فى جميع الشرائع، وهو الذى خلق الله له الخلق، وأمرهم به، والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال والمبادرة إليها، ومن سبق فى الدنيا إلى الخيرات فهو السابق فى الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة وجهاد، ونفع متعد وقاصر، ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير وينشطها ما رتب الله عليها من الثواب قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته فيجازى كل عامل بعمله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة فى أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج والعمرة وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فلله ما أجمعها وأنفعها من آية!!.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

أى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ فى أسفارك وغيرها، وهذا للعموم ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى: جهته، ثم خاطب الأمة عموما فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أكده بـ «إن» واللام لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولئلا يظن أنه على سبيل التشهى لا الامتثال ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو مطلع عليكم فى جميع أحوالكم، فتأدبوا معه وراقبوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وقال هنا: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أى: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين، فإنه لو بقى مستقبلاً لبيت المقدس لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجدون فى كتابهم أن قبلته المستقرة، هى الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعى أنه على ملة إبراهيم وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟ فباستقبال القبلة قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين، وانقطعت حججهم عليه ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أى: من احتج منهم بحجة، هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التى يوردونها على سبيل الاحتجاج محلا يؤبه لها، ولا يلقى لها بال، فلهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ لأن حجتهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق، فإن للحق صولة وعزاً يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التى هى رأس كل خير، فمن لم يخش الله لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره، وكان صرف المسلمين إلى الكعبة مما حصلت فيه فتنة كبيرة أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون،

وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلهذا بسطها الله تعالى وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات، التي تضمنتها لهذه الآيات، منها: الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود أن الأمر إما أن يكون للرسول فتدخل فيه الأمة، أو للأمة عمومًا، ولهذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ والأمة عمومًا في قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهل العناد وأبطلها شبهة شبهة، كما تقدم توضيحها، ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب، ومنها: قوله ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ومنها: أنه أخبر ـ وهو العالم بالخفيات ـ أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم، ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهى نعمة عظيمة قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ فأصل النعمة، الهداية لدينه، بإرسال رسوله، وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك، النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة، ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فلله الحمد على فضله الذى لا نبلغ له عدًا، فضلاً عن القيام بشكره ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: تعلمون الحق وتعملون به، فالله تبارك وتعالى ـ من رحمته ـ بالعباد قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبيين، حتى إن فى جملة ذلك أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه فى مقابلة الحق لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحًا ظاهرًا، فلله الحمد على ذلك.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة ليس ذلك ببدع من إحساننا ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه، وأمانته وكماله ونصحه ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التى دلتكم أولاً على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله، ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب حتى حصل لكم الهداية التامة، والعلم اليقينى ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أى: يطهر أخلاقكم ونفوسكم بتربيتها على الأخلاق الجميلة وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحابب والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ أى: القرآن، ألفاظه ومعانيه ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ قيل: هى السنة، وقيل: الحكمة: معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها وتنزيل الأمور منازلها، فيكون ـ على هذا ـ تعليم السنة داخلاً فى تعليم الكتاب، لأن السنة تبين القرآن وتفسره وتعبر عنه ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته فى ضلال مبين، لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ، وبسببه كان، فهذه النعم هى أصول النعم على الإطلاق، وهى أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها، فلهذا قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فأمر تعالى بذكره ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى،

ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» وذكر الله تعالى أفضله: ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذي يثمر معرفة الله ومحبته، وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصًا، ثم من بعده أمر بالشكر عمومًا فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم ودفعت عنكم صفوف النقم، والشكر يكون بالقلب، إقرارًا بالنعم واعترافًا، وباللسان ذكرًا وثناء، وبالجوارح طاعة لله وانقيادًا لأمره، واجتنابًا لنهيه، فالشكر فيه بقاء[1] النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وفي الإتيان بالأمر بالشكر بعد النعم الدينية، من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل النعم الحقيقية، التي تدوم، إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر، ولما كان الشكر ضده الكفر نهى عن ضده فقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ المراد بالكفر ههنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها وعدم القيام بها، ويحتمل أن يكون المعنى عامًا فيكون الكفر أنواعًا كثيرة أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي، على اختلاف أنواعها وأجناسها، من الشرك فما دونه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾

أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدنيوية ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ فالصبر هو: حبس النفس وكفها عما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها، فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر، أن يدرك مطلوبه، وخصوصًا الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر وتجرع المرارة الشاقة. فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها لم يدرك شيئًا وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم، وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار، وكذلك البلاء الشاق، خصوصًا إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مقتضاها، وهو التسخط، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، والافتقار على الدوام، فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر إليه في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: مع من كان الصبر لهم خلقًا وصفة وملكة، بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة، تقتضي محبته ومعونته، ونصره وقربه، وهذه منقبة عظيمة للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفى بها فضلاً وشرفًا، وأما المعية العامة، فهي العلم والقدرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وهذه عامة للخلق، وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعًا فيها ما يلزم فيها، وما يسن، وحصل فيها حضور القلب، الذي هو لبها فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضرًا لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقًا بمناجاة ربه ودعائه، لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة يوجب للعبد في قلبه وصفًا، وداعيًا يدعوه إلى امتثال أوامر به واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾

---

(١) قوله: (فالشكر فيه بقاء النعم ... إلخ) عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم: (الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود).

﴿ولا تقـولوا لمن﴾ لما ذكر تبارك وتعالى الأمـر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال ذكـر نموذجًا مما يستعان بالصـبر عليه، وهو الجهاد فى سبيله، وهو أفضـل الطاعات البدنية، وأشقها على النفوس، لمـشقته فى نفسه، ولكونه مـؤديًا للقتل، وعدم الحياة، التى إنما يرغب الراغـبون فى هذه الدنيا لحصول الحـياة ولوازمها، فكل ما يتصرفـون به فإنه سعى لها ودفع لما يضادها، ومن المـعلوم أن المحبوب لا يتركه العـاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخـبر تعالى أن من قتل فى سبـيله بأن قاتل فى سبيل الله لتكون كلمـة الله هى العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لـم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حـياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون، فالشهداء ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾ فهل أعظم من هذه الحـياة المتـضمنة للقـرب من الله تعالى، وتمـتعهم برزقـه البدنى فى المـأكولات والمـشروبات اللذيذة، والرزق الروحى، وهو الفرح، وهو الاستبشار، وزوال كل خـوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيـا، بل وقد أخبر النبى ﷺ أن أرواح الشـهداء فى أجواف طيور خضـر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش، وفى هذه الآية أعظم حث على الجهاد فى سبيل الله، وملازمة الصبر عليه، فلو شعـر العباد بما للمـقتولين فى سبيل الله من الـثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العـلم اليقينى التام، هو الذى فتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد ﴿اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فوالله لو كـان للإنسان ألف نفس، تذهب نفسًا فنفسًا فى سبيل الله، لم يكن عظيمًـا فى جانب هذا الأجر، ولهذا لا يتمنى الشهداء بعد ما عاينوا من ثـواب الله وحسن جزائه - إلا أن يردوا إلى الدنيا، حتـى يقتلوا فى سبيله مـرة بعد مرة، وفى الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ أخبر تعالى أنه لا بد أن يبتلى عباده بالمحن ليتبين الصادق من الكاذب والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى فى عباده، لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة لحصل الاختلاط الذى هو فساد، وحكمة الله تقـتضى تمييز أهل الخير من أهل الشر، هذه فـائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر فى هذه الآية أنه سيبتلى عباده ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ من الأعداء ﴿وَالْجُوعِ﴾ أى: بشىء يسير منهما، لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعترى للأموال، من جوائح سماوية وغرق وضيـاع وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمـة وقطاع الطريق وغير ذلك ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ أى: ذهـاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمـراض فى بدن العبد أو بدن من يحبه ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أى: الحبوب وثمار النخيل والأشـجار كلها والخضر ببرد أو برد أو حرق أو آفة سمـاوية من جراد ونحوه، فهذه الأمور لا بد أن تقع لأن العليم الخبير أخـبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسـم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حـصلت له المصيبتان: فوات الـمحبوب، وهو وجود هذه المصيـبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجـر بامتثال أمر الله بالصـبر، ففاز بالخـسارة والحرمان ونقص مـا معه من الإيمان، وفـاته الصبر والرضا والـشكران، وحصل له الـسخط الدال على شدة النقـصان، وأمـا من وفقه الله لـلصبر عنـد وجود هذه المصائب، فـحبس نفسه عن التـسخط، قولاً وفعـلاً، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن مـا يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التى حصلت له، بل المصيـبة تكون نعمة فى حقه، لأنها صارت طريقًا لحصول ما هو

خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله، وفاز بالثواب، فلهذا قال تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أى: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ وهى كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ أى: مملوكون لله مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شىء، فإذا ابتلانا بشىء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذى هو أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله فإنا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفوراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجعًا إليه من أقوى أسباب الصبر ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: ثناء وتنويه بحالهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذى ينالون به كمال الأجر ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ الذين عرفوا الحق، وهو فى هذا الموضع علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله، ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله والعقوبة والضلال والخسارة، فما أعظم الفرق بين الفريقين «وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين» فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابرين من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بضد حال الصابر، وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التى قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب.

﴿۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾

يخبر تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ وهما معروفان ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أى: أعلام دينه الظاهرة التى تعبّد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب، والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعى بهما فرض لازم للحج والعمرة، كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبى ﷺ وقال: «خذوا عنى مناسككم» ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ هذا دفع لوهم من توهم وتحرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما فى الجاهلية كانت تعبد عندهما الأصنام، فنفى تعالى الجناح لدفع هذا التوهم، لا لأنه غير لازم، ودل تقييد نفى الجناح فيمن تطوف بهما فى الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعى مفرداً إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت، فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة، فأما السعى والوقوف بعرفة ومزدلفة، ورمى الجمار فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك، كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة فتفعل على غير تلك الصفة وهذا منه، وقوله ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾ أى: فعل طاعة مخلصًا بها لله تعالى ﴿خَيْرًا﴾ من حج وعمرة وطواف وصلاة وصوم وغير ذلك ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ فدل هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله ازداد خيره وكماله، ودرجته عند الله لزيادة إيمانه، ودل تقيد التطوع بالخير أن من تطوع بالبدع التى لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شرًا له، إن كان متعمدًا عالمًا بعدم[1] مشروعية العمل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله

(١) فى الأصل: (لعدم) وهو خطأ لأن (علم) لا تتعدى إلا بالباء، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

تعالى الذى يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذى إذا قام عبده بأوامره، وامتثل طاعته أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه فى قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفى بدنه قوة ونشاطاً، وفى جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفى أعماله زيادة توفيق، ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملاً موفراً لم تنقصه هذه الأمور، ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشى أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة، ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت على حسب نياتهم التى اطلع عليها العليم الحكيم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢) ﴾

هذه الآية، وإن كانت نازلة فى أهل الكتاب، وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على الحق المظهرات له ﴿وَالْهُدَىٰ﴾ وهو العلم الذى تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما منَّ الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله فأولئك ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أى: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم فى غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلى الله عليه وملائكته، حتى الحوت فى جوف الماء، لسعيه فى مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزى من جنس عمله، فالكاتم لما أنزل الله مضاد لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يسعى فى طمسها وإخفائها، فهذا عليه هذا الوعيد الشديد ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أى: رجعوا عما هم عليه من الذنوب، ندماً وإقلاعاً وعزماً على عدم المعاودة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفى ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن، ولا يكفى ذلك فى الكاتم أيضاً، حتى يبين ما كتمه، ويبدى ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه لأنه ﴿التَّوَّابُ﴾ أى: الرجاع على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذى اتصف بالرحمة العظيمة، التى وسعت كل شىء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم، لطفاً وكرماً، هذا حكم التائب من الذنب، وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه، ولم ينب إليه، ولم يتب عن قريب فأولئك ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفاً ثابتاً صارت اللعنة عليهم وصفا ثابتاً لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته، وجوداً وعدماً، و ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: في اللعنة أو العذاب وهما متلازمان، و ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى: يمهلون، لأن وقت الإمهال ـ وهو الدنيا ـ قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون.

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) ﴾

يخبر تعالى ـ وهو أصدق القائلين ـ أنه ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ متوحد متفرد فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فليس

له شريك فى ذاته ولا سَمِىٌّ له ولا كفو له، ولا مثل ولا نظير ولا خالق ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك فهو المستحق لأن يؤلَّه ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ المتصف بالرحمة العظيمة، التى لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شىء وعمت كل حى، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عرَّف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبيَّن لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً ـ علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات، وأن من أظلم الظلم، وأقبح القبح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوقين من تراب برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبر القادر القوى، الذى قهر كل شىء، ودان له كل شىء، ففى هذه الآية إثبات وحدانية البارى وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقات، وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التى من آثارها وجود جميع النعم واندفاع جميع النقم، فهذا دليل إجمالى على وحدانيته تعالى، ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾

أخبر تعالى أن فى هذه المخلوقات العظيمة آيات، أى: أدلة على وحدانية البارى وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، ولكنها ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبيره، ففى ﴿خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ فى ارتفاعها واتساعها وإحكامها وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد، وفى خلق ﴿الْأَرْضِ﴾ مهاداً للخلق، يمكنهم القرار عليها، والانتفاع بما عليها والاعتبار، ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وبيان قدرته العظيمة التى بها خلقها، وحكمته التى بها أتقنها، وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التى بها أودع ما أودع من منافع الخلق ومصالحهم، وضروراتهم وحاجاتهم، وفى ذلك أبلغ الدليل على كماله واستحقاقه أن يفرد بالعبادة لانفراده بالخلق والتدبير، والقيام بشئون عباده، وفى ﴿اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفى اختلافهما فى الحر والبرد والتوسط، وفى الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول، التى بها انتظام مصالح بنى آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونباتات، كل ذلك بانتظام وتدبير وتسخير، تنبهر له العقول وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل على ذلك على قدرة مصرفها، وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة، ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره، الذى تفرد به، وعظمته، وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وبذل الجهد فى محابه ومراضيه ﴿وَ﴾ فى ﴿الْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ﴾ وهى السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعتها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها، ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح، التى تحملها بما فيها من الركاب والأموال، والبضائع التى هى من منافع الناس، وبما تقوم به مصالحهم وتنتظم معايشهم، فمن الذى ألهمهم صنعتها، وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذى سخر لها البحر تجرى فيه بإذنه وتسخيره والرياح؟ أم من الذى خلق للمراكب البرية والبحرية، النار والمعادن المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال؟ فهل هذه الأمور حصلت اتفاقاً، أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز، الذى خرج من بطن أمه لا علم له ولا قدرة؟ ثم خلق له ربه القدرة وعلمه ما يشاء تعليمه؟ أم المسخِّر لذلك رب واحد حكيم عليم، لا يعجزه شىء، ولا

يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت بربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته، وغاية العبد الضعيف أن جعله الله جزءًا من أجزاء الأسباب، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم ﴿**وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ**﴾ وهو المطر النازل من السحاب ﴿**فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات، وأصناف النباتات ما هو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها، أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله، وأخرج به ما أخرج، ورحمته ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ أليس ذلك دليلاً على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟ ﴿**وَبَثَّ فِيهَا**﴾ أى: فى الأرض ﴿**مِن كُلِّ دَابَّةٍ**﴾ أى: نشر فى أقطار الأرض من الدواب المتنوعة ما هو دليل على قدرته وعظمته ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع، فمنها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دره، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع فى مصالحهم وحراستهم، ومنها ما يعتبر به، ومنها: أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم، المتكفل بأقواتهم، فما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ﴿**وَ**﴾ فى ﴿**تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ**﴾ باردة وحارة، وجنوبًا وشمالاً، وشرقًا ودبورًا وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقحه، وتارة تدره، وتارة تمزقه وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب، فمن الذى صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد، ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار والحبوب والنباتات، إلا العزيز الحكيم، الرحيم اللطيف بعباده المستحق لكل ذل وخضوع، ومحبة وإنابة وعبادة؟ وفى تسخير السحاب بين السماء والأرض ـــ على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث يشاء، فيحيى به البلاد والعباد، ويروى التلول والوهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرته أمسكه عنهم، فينزله رحمة ولطفًا، ويصرفه عناية وعطفًا، فما أعظم سلطانه، وأغزر إحسانه، والطف امتنانه!! أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه، ويعيشوا ببره وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلاً على حلمه وصبره، وعفوه وصفحه، وعظيم لطفه؟ فله الحمد أولاً وآخرًا، وباطنًا وظاهرًا، والحاصل أنه كلما تدبر العاقل فى هذه المخلوقات، وتغلغل فكره فى بدائع المبتدعات وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلالات على ما أخبر به الله تعالى عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر، وأنها مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها، فتعرف أن العالم العلوى والسفلى كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغنى بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه، ثم قال تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

ما أحسن اتصال هذه الآية بالتى قبلها، فإنه تعالى لما بيَّن وحدانيته وأدلتها القاطعة وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين المزيلة لكل شك ذكر هنا أن ﴿**وَمِنَ النَّاسِ**﴾ مع هذا البيان التام ﴿**مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا**﴾ لله أى نظراء ومثلاء، يساويهم فى الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة، ومن كان بهذه الحالة ـــ بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد ـــ علم أنه معاند لله، مشاق له، أو معرض عن تدبير آياته والتفكير فى مخلوقاته، فليس له أدنى عذر فى ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب، وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله لا يسوونهم بالله فى الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به فى العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه، وفى قوله: ﴿**اتَّخَذُوا**﴾

دليل أنه ليس لله ند، وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً لله تسمية مجردة، ولفظاً فارغاً من المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ فالمخلوق ليس نداً لله لأن الله هو الخالق وغيره مخلوق، والرب هو الرازق، ومن عداه مرزوق، والله هو الغنى وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من اتخذ من دونه الله آلهة وأنداداً، سواد كان ملكاً أو نبياً أو صالحاً، صنماً أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً، ومحبته عين شقاء العبد وفساده وتشتت أمره، فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصدهم عن سبيل الله وسعيهم فيما يضرهم ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي: لعلموا علماً جازماً أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فتبين لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا وظنوا أن لها من الأمر شيئاً، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها من حيث ظنوا نفعها، وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحلت أعمالهم وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضرتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه، ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً، لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربه غير منقطع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ وحينئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرأوا من متبوعيهم بأن يتركوا الشرك بالله، ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيهات، فات الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه، وأماني يتمنونها، حنقاً وغيظاً على المتبوعين لما تبرأوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول لأتباعه: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾

هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض من حبوب وثمار وفواكه وحيوانات حالة كونها ﴿حَلَالًا﴾ أي: محللاً لكم تناوله، ليس بغصب، ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محرم أو معيناً على محرم ﴿طَيِّبًا﴾ أي: ليس بخبيث، كالميتة والدم ولحم الخنزير، والخبائث كلها، ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلاً وانتفاعاً وأن المحرم

نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذى هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال، وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به، إذ هو عين صلاحهم، نهاهم عن اتباع ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى: طرقه التى يأمر بها، وهى جميع المعاصى، من كفر وفسوق وظلم، ويدخل فى ذلك تحريم السوائب والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه تناول المأكولات المحرمة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته حتى أخبرنا ـ وهو أصدق القائلين ـ بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به وأنه أقبح الأشياء وأعظمها مفسدة فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾ أى: الشر الذى يسوء صاحبه، فيدخل فى ذلك جميع المعاصى، فيكون قوله: ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء من المعاصى ما تناهى قبحه كالزنا وشرب الخمر والقتل والقذف والبخل، ونحو ذلك، مما يستفحشه من له عقل ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيدخل فى ذلك القول على الله بلا علم، فى شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن لله ندًا وأوثانًا تقرب من عبدها من الله فقد قال على الله تعالى بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: الله خلق هذا الصنف من المخلوقات للعلة الفلانية بلا برهان له بذلك فقد قال على الله بلا علم، ومن أعظم القول على الله بلا علم أن يتأول المتأول كلامه، أو كلام رسوله، على معانى اصطلح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها، وأكبر طرق الشيطان التى يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التى يدعو إليها هو وجنوده، ويبذلون مكرهم وخداعهم على إغواء الخلق بما يقدرون عليه، وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، فلينظر العبد نفسه، مع أى الداعيين، ومن أى الحزبين؟ أتتبع داعى الله الذى يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية، الذى كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز فى خدمته، وجميع الأرباح فى معاملة المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذى لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، أم تتبع داعى الشيطان الذى هو عدو الإنسان، الذى يريد لك الشر ويسعى ـ بجهده ـ على إهلاكك فى الدنيا والآخرة، الذى كل الشر فى طاعته، وكل الخسران فى ولايته، والذى لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير، ثم أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله، مما تقدم وصفه، رغبوا عن ذلك وقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا فى الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فآباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره تبين له الحق قطعًا واتبعه، إن كان منصفًا، ثم قال تعالى:



﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

لما بيّن تعالى عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل، وردهم لذلك بالتقليد، وعلم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلومًا لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم ـ أخبر تعالى أن مثلهم ـ عند دعاء الداعى لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التى ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول راعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذى تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهًا ينفعهم، فلهذا كانوا صمًا، لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عميًا، لا ينظرون نظر اعتبار، بكمًا، فلا ينطقون بما فيه خير لهم، والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء، فهل يستريب العاقل أن من دعى إلى الرشاد، وذيد عن الفساد، ونهى عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه،

فعصى الناصح، وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل، ونبذ الحق ـ أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء فإنه من أسفه السفهاء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾

هذا أمر للمؤمنين خاصة، بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهى، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوِّى بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ فالشكر فى هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل «حلالاً» لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق، خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أى: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله لم يعبده وحده، كما أن من شكره فقد عبده، وأتى بما أمر به، ويدل أيضًا على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم، لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة. كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة[1]، ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وهى: ما مات بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مضرة، لرداءتها فى نفسها ولأن الأغلب أن تكون عن مرض فيكون زيادة مرض، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد، وسمك البحر، فإنه حلال طيب ﴿وَالدَّمَ﴾ أى: المسفوح كما قيد فى الآية الأخرى ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أى: ذبح لغير الله، كالذى يذبح للأصنام والأوثان، من الأحجار والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير خاص للمحرمات، وجىء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: ﴿طَيِّبَاتِ﴾ فعموم المحرمات، تستفاد من الآية السابقة من قوله: ﴿حَلالاً طَيِّبًا﴾ كما تقدم، وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفًا بنا، وتنزيهًا عن المضر، ومع هذا ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أى: ألجئ إلى المحرم بجوع وعدم وإكراه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أى: غير طالب للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه ﴿وَلا عَادٍ﴾ أى: متجاوز الحد فى تناول ما أبيح له اضطرارًا ﴿فَلا إِثْمَ﴾ أى: جناح وذنب ﴿عَلَيْهِ﴾ وإذا ارتفع الإثم رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهى أن يلقى بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه، فيجب إذا عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولما كان الحل مشروطًا بهذين الشرطين، وكان الإنسان فى هذه الحالة ربما لا يستقصى تمام الاستقصاء فى تحقيقها ـ أخبر أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه فى هذه الحال، خصوصًا وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة، وفى هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات» فكل محظور اضطر إليه الإنسان فقد أباحه له الملك الرحمن، فله الحمد والشكر أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ﴾

(١) وقوله: (أن الكفر ينفر النعم المفقودة ... إلخ) عبر بعض الشعراء عن هذا المعنى بقوله:

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله، من العلم الذى أخذ الله الميثاق على أهله أن يبينوه للناس ولا يكتموه، فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوى، ونبذ أمر الله فأولئك: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾ لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه إنما حصل لهم بأقبح المكاسب، وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار ﴿وَلا يُزَكِّيهِمْ﴾ أى: لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال[1] تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التى أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه، فهؤلاء نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه واختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها؟ وأنى لهم الجلد عليها؟!! ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور، وهو مجازاته بالعدل، ومنعه أسباب الهداية ممن أباها واختار سواها ﴿بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه، والمسىء بإساءته، وأيضًا ففى قوله: ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى: وإن الذين اختلفوا فى الكتاب فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، والذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ أى: محادة ﴿بَعِيدٍ﴾ من الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذى جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به، وحكَّموه فى كل شىء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه، وقد تضمنت هذه الآيات، الوعيد للكاتمين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة، وذكر السبب فى ذلك وهو إيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة، ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التى يعلمون أنها موصلة إليها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه فهو فى غاية البعد عن الحق، والنازعة والمخاصمة، والله أعلم.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾

يقول تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أى: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذى ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» ونحو ذلك ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أى: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال منزه عن كل نقص ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهو كل ما أخبر الله به فى كتابه، أو أخبر به الرسول، مما يكون بعد الموت ﴿وَالْمَلائِكَةِ﴾ الذين وصفهم الله لنا فى كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ ﴿وَالْكِتَابِ﴾ أى: جنس الكتب التى أنزلها الله على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ عمومًا، وخصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيرًا، أى: أعطى المال ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ أى: حب المال، بيَّن به أن المال محبوب للنفوس فلا يكاد يخرجه العبد، فمن أخرجه مع حبه له، تقربًا إلى الله تعالى كان هذا برهانًا لإيمانه،

---

(١) قوله: (وليس لهم أعمال ... إلخ) هكذا فى الأصل والصواب أن يقال: (إذ ليس لهم أعمال تصلح للمدح ... إلخ) لأن المقام يقتضى التعليل بدليل قوله: (لأنهم فعلوا أسباب التزكية ... إلخ).

ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كان أفضل، لأنه فى هذه الحال يحب إمساكه لما يتوهمه من العدم والفقر، وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يحبه من ماله، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه، ثم ذكر المنفَق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك، من ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ الذين تتوجع لمصابهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المالى والقولى، على حسب قربهم وحاجتهم ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ الذين لا كاسب لهم وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته تعالى بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم فى أموالهم الإحسان إلى من فُقد آباؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزاء من جنس العمل فمن رحم يتيم غيره رُحم يتيمه ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة، وأذلهم الفقر، فلهم حق على الأغنياء، بما يدفع مسكنتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه، وبما يتيسر ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به فى غير بلده، فحث الله عباده على إعطائه من المال، ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته، وخوله من نعمته أن يرحم أخاه الغريب الذى بهذه الصفة، على حسب استطاعته، ولو بتزويده، أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أى: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج، توجب السؤال، كمن ابتلى بأرش جناية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد والمدارس والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له الحق، وإن كان غنياً ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفى سيده، وفداء الأسرى عند الكفار، أو عند الظلمة ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات، عبادات قلبية وبدنية ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان، ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ والعهد هو الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه، فدخل فى ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدتها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التى أوجبها الله عليهم، والحقوق التى التزمها العبد كالأيمان والنذور، ونحو ذلك ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أى: الفقر، لأن الفقر يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره، فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم، وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعامًا غير موافق لهواه تألم، وإن عرى أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذى يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذى لا يقدر على دفعه تألم، فكل هذه ونحوها، مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أى: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى وقروح ورياح ووجع عضو، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك، لأن النفس تضعف والبدن يألم، وذلك فى غاية المشقة على النفوس، خصوصًا مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر، احتسابًا لثواب الله تعالى ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أى: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجهاد يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر فى ذلك احتسابًا، ورجاء لثواب الله تعالى، الذى منه النصر والمعونة، التى وعدها الصابرين ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أى: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة، والأعمال التى هى آثار الإيمان، وبرهانه ونوره، والأخلاق التى هى جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية، فأولئك ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فى إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم تركوا المحظور، وفعلوا المأمور، لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير، تضمنًا ولزومًا، لأن الوفاء بالعهد، يدخل فيه الدين كله، ومن قام بها، كان بما سواها أقوم، فهؤلاء الأبرار الصادقون المتقون، وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة من الثواب الدنيوى والأخروى مما لا يمكن تفصيله فى مثل هذا الموضع.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

يمتن الله على عباده المؤمنين بأنه فرض عليهم ﴿ **ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى** ﴾ أى: المساواة فيه وأن يقتل القاتل على الصفة التى قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد، وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل حتى القاتل بنفسه ـ إعانة ولى المقتول إذا طلب القصاص ويمكنه من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية، ومن أشبههم من إيواء المحدثين، ثم بين تفصيل ذلك فقال: ﴿ **ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ** ﴾ يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر ﴿ **وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ** ﴾ والأنثى بالذكر، والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدمًا على مفهوم قوله: ﴿ **ٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ** ﴾ مع دلالة السنة على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك، مع أن فى قوله: ﴿ **ٱلۡقِصَاصُ** ﴾ ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده، ولأن فى قلب الوالد من الشفقة والرحمة ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال فى عقله، أو أذية شديدة جدًا من الولد له، وخرج من العموم أيضًا الكافر بالسنة، مع أن الآية فى خطاب المؤمنين خاصة، وأيضًا فليس من العدل أن يقتل ولى الله بعدوه ﴿ **وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ** ﴾ ذكرًا كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد لكونه غير مستوٍ له ﴿ **وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ** ﴾ أخذ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يجز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك، وفى هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود فى القتل، وأن الدية بدل عنه، فلهذا قال: ﴿ **فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ** ﴾ أى عفا ولى المقتول عن القاتل إلى الدية أو عفا بعض الأولياء فإنه يسقط القصاص وتجب الدية، وتكون الخيرة فى القود واختيار الدية إلى الولى، فإذا عفا عنه وجب على الولى ـ أى: ولى المقتول ـ أن يتبع القاتل ﴿ **بِٱلۡمَعۡرُوفِ** ﴾ من غير أن يشق عليه، ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يحرجه ﴿ **وَ** ﴾ على القاتل ﴿ **أَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ** ﴾ من غير مطل ولا نقص، ولا إساءة فعلية أو قولية فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به فى كل ما يثبت فى ذمم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بالإحسان، وفى قوله: ﴿ **فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ** ﴾ ترقيق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجانًا، وفى قوله: ﴿ **أَخِيهِ** ﴾ دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصى، التى هى دون الكفر، لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه، وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القاتل، وصار معصومًا منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: ﴿ **فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ** ﴾ أى: بعد العفو ﴿ **فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ** ﴾ أى: فى الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم، لأنه قتل مكافئًا له، فيجب قتله بذلك، وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، وأن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء، والصحيح الأول لأن جنايته لا تزيد على غيره، ثم بيَّن تعالى حكمته العظيمة فى مشروعية القصاص فقال: ﴿ **وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ** ﴾ أى: تنحقن بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رؤى القاتل مقتولاً انذعر بذلك غيره، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل انكشاف الشر الذى يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكر «الحياة» لإفادة التعظيم والتكثير، ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم، فى تدبر ما فى أحكامه، من الحكم والمصالح الدالة على كماله وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوى الألباب الذين وجه إليهم الخطاب وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلاً وشرفًا، لقوم يعقلون، وقوله: ﴿ **لَعَلَّكُمۡ**

تتقون﴾ وذلك أن من عرف ربه وعرف ما فى دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله ، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أى: فرض الله عليكم، يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أى: أسبابه، كالمرض المشرف على الهلاك، وحضور أسباب المهالك، وكان قد ترك ﴿خَيْرًا﴾ وهو المال الكثير عرفًا، فعليه أن يوصى لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف على قدر حاله من غير سرف، ولا اقتصار على الأبعد، دون الأقرب، بل يرتبهم على القرب والحاجة، ولهذا أتى بأفعل التفضيل، وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ دل على وجوب ذلك، لأن الحق هو الثابت وقد جعله الله من موجبات التقوى، واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث، وبعضهم يرى أنها فى الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن فى هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة ردها الله تعالى إلى العرف الجارى، ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف فى آيات المواريث بعد أن كان مجملاً، وبقى الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء وهم أحق الناس ببره، وهذا القول تتفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلا من القائلين بهما كل منهم لحظ ملحظًا، واختلف المورد، فبهذا الجمع يحصل الاتفاق والجمع بين الآيات، فإنه لو أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ، الذى لم يدل عليه دليل صحيح، ولما كان الموصى قد يمتنع من الوصية، لما يتوهمه أن من بعده قد يبدل ما وصى به قال تعالى: ﴿فَمَن بَدَّلَهُ﴾ أى: الإيصاء للمذكورين أو غيرهم ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ أى: بعد ما عقله وعرف طرقه وتنفيذه ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ وإلا فالموصى وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المغير ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقالة الموصى ووصيته، فينبغى له أن يراقب من يسمعه ويراه، وأن لا يجور فى وصيته ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيته، وعليم بعمل الموصى إليه، فإذا اجتهد الموصى، وعلم الله من نيته ذلك، أثابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصى إليه من التبديل، فإن الله عليم به، مطلع على فعله، فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة، وأما الوصية التى فيها حيف وجنف وإثم، فينبغى لمن حضر الموصى وقت الوصية بها أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهاه عن الجور والجنف، وهو: الميل بها عن الخطأ من غير تعمد، والإثم: هو التعمد لذلك، فإن لم يفعل ذلك فينبغى له أن يصلح بين الموصى إليهم ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضى والمصالحة، ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم فهذا قد فعل معروفًا عظيمًا، وليس عليهم كما على مبدل الوصية الجائزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ أى: يغفر جميع الزلات ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غض من نفسه وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح سامحه الله، غفور لميتهم الجائر فى وصيته إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضًا لأجل براءة ذمته ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده، حيث شرع لهم كل أمر يتراحمون به ويتعاطفون، فدلت هذه الآيات على الحث على الوصية وعلى بيان من هى له وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة والترغيب فى الإصلاح فى الوصية الجائرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ

مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

يخبر تعالى بما من الله به على عباده، بأنه فرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان، وفيه تنشيط لهذه الأمة، بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمسارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصصتم بها، ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام فقال: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فمما اشتمل عليه من التقوى أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه متقربًا بذلك إلى الله، راجيًا بتركها ثوابه، فهذا من التقوى، ومنها أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه، مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه، ومنها أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن ادم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى، ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام أخبره أنه أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة، ثم سهل تسهيلاً آخر فقال: ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ وذلك للمشقة في الغالب، رخص الله لهما في الفطر، ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض، وانقضى السفر وحصلت الراحة، وفي قوله: ﴿**فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ**﴾ فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان، كاملا كان أو ناقصًا، وعلى أنه يجوز أن يقضي أيامًا قصيرة باردة عن أيام طويلة حارة، وبالعكس، وقوله: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ**﴾ أي: يطيقون الصيام ﴿**فِدْيَةٌ**﴾ عن كل يوم يفطرونه ﴿**طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾ وهذا في ابتداء فرض الصيام لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان فرضه حتمًا فيه مشقة عليهم، درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخير المطيق للصوم بين أن يصوم، وهو أفضل، أو يطعم، ولهذا قال: ﴿**وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ ثم بعد ذلك جعل الصيام حتمًا على المطيق وغير المطيق، يفطر ويقضيه في أيام أخر، وقيل: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ**﴾ أي يتكلفونه ويشق عليهم مشقة غير محتملة، كالشيخ الكبير، فدية عن كل يوم طعام مسكين، وهذا هو الصحيح ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم، المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة، فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه أن يكون موسمًا للعبادة ومفروضًا فيه الصيام، فلما قرره وبين فضيلته وحكمة الله تعالى في تخصيصه قال: ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر، ولما كان النسخ للتخيير بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر، لئلا يتوهم أن الرخصة أيضًا منسوخة فقال: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ أي: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أبلغ تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله، وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله سهله تسهيلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات، وهذه جملة لا يمكن تفصيلها، لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات ﴿**وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ**﴾ وهذا ـ والله أعلم ـ لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، دفع هذا الوهم

بالأمر بتكميل عدته بشكر الله تعالى عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده، وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾

هذا جواب سؤال سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لأنه تعالى الرقيب الشهيد المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضًا من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق، فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصًا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية والإيمان به، الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم البغي، المنافي للإيمان والأعمال الصالحة، ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ ثم قال تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾

كان في أول فرض الصيام يحرم على المسلمين الأكل والشرب والجماع في الليل بعد النوم، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك، وأباح في ليالي الصيام كلها، الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به ﴿فَتَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن وسع لكم أمرًا كان - لولا توسعته - موجبًا للإثم ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ما سلف من التخوف ﴿فَالْآنَ﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ وطئًا وقبلة ولمسًا وغير ذلك ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء وهو حصول الذرية، وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح، ومما كتب الله لكم ليلة القدر الموافقة لليالي صيام رمضان فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها وتضيعوها، فاللذة مدركة، وليلة القدر - إذا فاتت - لم تدرك ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ هذا غاية للأكل والشراب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكا في طلوع الفجر فلا بأس عليه، وفيه دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيره أخذًا من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد، وفيه أيضًا دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع، قبل أن يغتسل، ويصح صيامه، لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق حق ﴿ثُمَّ﴾ إذا طلع الفجر ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ وهو غروب الشمس، ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست إباحة عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثناه بقوله: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ أي: وأنتم متصفون بذلك، ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم

المسجد، لطاعة الله تعالى [١]، وانقطاعًا إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد، ويستفاد من تعريف المساجد أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس، وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف، تلك المذكورات، وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف ونحو ذلك من المحرمات ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي حدها لعباده، ونهاهم عنها فقال: ﴿فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ أبلغ من قوله: «فلا تفعلوها» لأن القربان يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه، والعبد مأمور بترك المحرمات والبعد منها غاية ما يمكنه، وترك كل سبب يدعو إليه، وأما الأوامر فيقول الله فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا﴾ فنهى عن مجاوزتها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: يبين [٢] الله لعباده الأحكام السابقة أتم تبيين، وأوضحها لهم أكمل إيضاح ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه، فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم، ولو علم تحريمه لم يفعله، فإذا بين الله للناس آياته لم يبق لهم عذر ولا حجة، فكان ذلك سببًا للتقوى.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

أي: ولا تأخذوا أموالكم أي: أموال غيركم إضافه إليهم، لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويحترم ماله كما يحترم ماله، ولأن أكله لمال غيره يجرئ غيره على أكل ماله عند القدرة، ولما كان أكلها نوعين: نوعًا بحق، ونوعًا بباطل، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل، قيده الله تعالى بذلك، ويدخل بذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في وديعة أو عارية، أو نحو ذلك، ويدخل فيه أيضًا أخذها على وجه المعاوضة بمعاوضة محرمة، كعقود الربا والقمار كلها، فإنها من أكل المال بالباطل، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة ونحوها، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم، وكذلك أخذهم أجرة على عمل لم يقوموا بواجبه، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح حتى يقصد بها وجه الله تعالى، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات والأوقاف والوصايا لمن ليس له حق منها، أو فوق حقه، فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع والارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحق، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم لا يبيح محرمًا، ولا يحلل حرامًا، إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ولا شبهة ولا استراحة، فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة وحكم له بذلك فإنه لا يحل له، ويكون آكلاً لمال غيره بالباطل والإثم، وهو عالم بذلك، فيكون أبلغ في عقوبته وأشد في نكاله، وعلى هذا فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى: ﴿وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ فقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال، ما فائدتها وحكمتها، أو عن ذاتها ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي جعلها تعالى بلطفه ورحمته على هذا التدبير، يبدو الهلال ضعيفًا في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله [٣] وهكذا، ليعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم من الصيام وأوقات الزكاة والكفارات وأوقات الحج، ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات، ويستغرق أوقاتًا كثيرة قال: ﴿وَالْحَجِّ﴾ وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون

---

(١) قوله: (لطاعة الله) الأنسب (طاعة الله) ليتناسب مع قوله (انقطاعًا).

(٢) قوله: «يبين» كذا في الأصل وهو تحريف بدليل ما بعد وهو (وأوضحها) ولذلك أصلحنا بـ«بين».

(٣) قوله: (إلى كماله) يعني: أن الهلال لا يزال يتناقص إلى نهاية الشهر، حتى ينمحق فلا يرى منه شيء.

المؤجلات، ومدة الإجارات، ومدة العدد[1] والحمل، وغير ذلك، مما هو من حاجات الخلق، فجعله تعالى حسابًا يعرفه كل أحد، من صغير وكبير، وعالم وجاهل، فلو كان الحساب بالسنة الشمسية لم يعرفه إلا النادر من الناس ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب، إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبدًا بذلك؛ وظنًا أنه بر، فأخبر تعالى أنه ليس من البر، لأن الله تعالى لم يشرعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، التى هى قاعدة من قواعد الشرع، ويستفاد من إشارة الآية إلى أنه ينبغى فى كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب، الذى قد جعله له موصلاً، فالآمر بالمعروف، والناهى عن المنكر ينبغى أن ينظر فى حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة، التى بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغى أن يسلك أقرب طريق وأسهله يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمرًا من الأمور وأتاه من أبوابه، وثابر عليه، فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا هو البر الذى أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح الذى هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، فمن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)﴾

هذه الآيات تتضمن الأمر بالقتال فى سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لما قوى المسلمون للقتال أمرهم الله به بعدما كانوا مأمورين بكف أيديهم، وفى تخصيص القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حث على الإخلاص، ونهى عن الاقتتال فى الفتن بين المسلمين ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أى: الذين هم مستعدون لقتالكم وهم المكلفون الرجال، غير الشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال، والنهى عن الاعتداء، يشمل أنواع الاعتداء كلها من قبل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى وقتل الحيوانات وقطع الأشجار ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين، ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها، فإن ذلك لا يجوز ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ هذا أمر بقتالهم أينما وجدوا فى كل وقت، وفى كل زمان قتال مدافعة، وقتال مهاجمة، ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وأنه لا يجوز إلا أن يبدأوا بالقتال، فإنهم يقاتلون، جزاء لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر فى كل وقت، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله، والشرك فى المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمته وكرمه بعباده، ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة فى هذا البلد الحرام أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده من الشرك والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم ـ أيها المسلمون ـ حرج فى قتالهم، ويستدل من هذه الآية ـ على القاعدة المشهورة ـ وهى: أنه يرتكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، ثم ذكر تعالى المقصود من القتال فى سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ تعالى، فيظهر دين الله تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال ﴿فَإِنِ

(١) قوله: «والعدد» جمع «عدة» أى عدة الطلاق وعدة المتوفى عنها زوجها.

انتهوا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ أى: فليس عليهم منكم اعتداء إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾

يقول تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبى ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن الدخول لمكة، وقاضوهم على دخولها من قابل، وكان الصد والقضاء فى شهر حرام، وهو ذو القعدة، فيكون هذا بهذا، فيكون فيه تطييب لقلوب الصحابة بتمام نسكهم وكماله، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إن قاتلتموهم فى الشهر الحرام فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم فى ذلك حرج، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿والحرمات قصاص﴾ من باب عطف العام على الخاص، أى: كل شىء يحترم من شهر حرام، أو بلد حرام، أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك، جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها، فإنه يقتص منه، فمن قاتل فى الشهر الحرام قوتل، ومن هتك البلد الحرام أخذ منه الحد، ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافئًا له قتل به، ومن جرحه أو قطع عضواً منه اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم أخذ منه بدله، ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك أنه إن كان سبب الحق ظاهراً، كالضيف إذا لم يقره غيره، والزوجة، والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة من الإنفاق عليه، فإنه يجوز أخذه من ماله، وإن كان السبب خفيًا، كمن جحد دين غيره، أو خانه فى وديعة، أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعًا بين الأدلة، ولهذا قال تعالى، توكيداً وتقوية لما تقدم: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هى المماثلة فى مقابلة المعتدى، ولما كانت النفوس ــ فى الغالب ــ لا تقف على حدها إذا رخص لها فى المعاقبة لطلبها التشفى أمر تعالى بلزوم تقواه، التى هى الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه ﴿مع المتقين﴾ أى: بالعون والنصر والتأييد والتوفيق، ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾

﴿وأنفقوا فى سبيل الله﴾ يأمر تعالى عباده بالنفقة فى سبيله، وهو إخراج الأموال فى الطرق الموصلة إلى الله، وهى كل طرق الخير، من صدقة على مسكين أو قريب أو إنفاق على من تجب مؤنته، وأعظم ذلك، وأول ما يدخل فى ذلك الإنفاق فى الجهاد فى سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين، وتوهين الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد فى سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفى ترك الإنفاق فى سبيل الله إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدة تكالبهم، فيكون قوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: لترك[1] ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجبًا أو مقاربًا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد فى سبيل الله، أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغرير الإنسان بنفسه، فى مقاتلة، أو سفر مخوف، أو محل مسبعة[2] أو حيات، أو يصعد شجراً أو بنيانًا خطراً، أو يدخل تحت شىء فيه خطر، ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة، ومن ذلك الإقامة على معاصى الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التى فى تركها[3] هلاك للروح والدين،

---

(١) فى الأصل (اترك) وهو خطأ.　　(٢) مسبعة: أرض يكثر فيها السباع.　　(٣) فى الأصل (التى تركها) وهو خطأ.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعًا من أنواع الإحسان أمر بالإحسان عمومًا فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال، كما تقدم، ويدخل فيه الإحسان بالجاه، وبالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم وإزالة شدائدهم وعيادة مرضاهم وتشييع جنائزهم وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضًا الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فمن اتصف بهذه الصفات كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

ولما فرغ تعالى من ذكر أحكام الصيام والجهاد ذكر أحكام الحج فقال: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ الآية، يستدل بقوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ على أمور: أحدها: وجوب الحج والعمرة وفرضيتهما، الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ وقوله: «خذوا عني مناسككم» الثالث: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة، الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلاً، الخامس: الأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما، السادس: وفيه الأمر بإخلاصهما ﴿لِلَّهِ﴾ تعالى، السابع: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناه الله، وهو الحصر، فلهذا قال: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: منعتم من الوصول إلى البيت لتكميلهما، بمرض أو ضلالة أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر الذي هو المنع ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدي، وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه لما صدهم المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدي فليصم بدله عشرة أيام، كما في المتمتع، ثم يحل، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ وهذا من محظورات الإحرام، إزالة الشعر بحلق أو غيره، لأن المعنى واحد من الرأس أو من البدن، لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته، وهو موجود في بقية الشعر، وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليم الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدي محله، وهو النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، كما تدل عليه الآية، ويستدل بهذه الآية على أن المتمتع إذا ساق الهدي لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا سعى وطاف للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدي، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر[1] بأن كان به أذى من مرض ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية، من صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو نسك ما يجزئ في أضحية، فهو مخير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام، ومثل هذا كل ما كان في معنى ذلك، من تقليم الأظفار أو تغطية الرأس أو لبس المخيط أو الطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة، لأن

---

(١) قوله: (فإذا حصل) إلخ. في العبارة شيء من الاضطراب فالأوضح أن يقال: (فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض في رأسه أو قرح أو قمل فله أن يحلق رأسه).

القصد من الجميع إزالة ما به يترفه، ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ أى: بأن قدرتم على المبيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أى: فعليه ما تيسر من الهدى، وهو ما يجزئ فى أضحية، وهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له فى سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة بعد فراغ العمرة، وقبل الشروع فى الحج، ومثله القران لحصول النسكين له، ويدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدى، ودلت الآية على جواز، بل فضيلة المتعة، وعلى جواز فعلها فى أشهر الحج ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أى الهدى أو ثمنه ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمى الجمار، والمبيت بـ «منى» ولكن الأفضل منها، أن يصوم السابع والثامن والتاسع ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أى: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها فى مكة، وفى الطريق، وعند وصوله إلى أهله ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من وجوب الهدى على المتمتع ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بأن كان عن مسافة قصر فأكثر، أو بعيدًا عن عرفات، فهذا الذى يجب عليه الهدى لحصول النسكين له فى سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضرى المسجد الحرام فليس عليه هدى لعدم الموجب لذلك ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أموركم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه المأمورات واجتناب هذه المحظورات المذكورة فى هذه الآية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله، عمل لما يوصله إلى الثواب، ومن لم يخف العقاب ولم يرج الثواب اقتحم المحارم وتجرأ على ترك الواجبات.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

يخبر تعالى أن ﴿الْحَجُّ﴾ واقع فى ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ عند المخاطبين، مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بيَّن تعالى أوقات الصلوات الخمس، وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التى لم تزل مستمرة فى ذريته معروفة بينهم، والمراد بالأشهر المعلومات عند الجمهور: شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة، فهى التى يقع فيها الإحرام بالحج غالبًا ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أى: أحرم به، لأن الشروع فيه يصيره فرضًا، ولو كان نفلاً، واستدل بهذه الآية الشافعى ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل: فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره لكان قريبًا، فإن قوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ دليل على أن الفرض قد يقع فى الأشهر المذكورة وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقيده، وقوله: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أى: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج وخصوصًا الواقع فى أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث، وهو: الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصًا عند النساء بحضرتهن، والفسوق وهو: جميع المعاصى، ومنها محظورات الإحرام، والجدال وهو: المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة، والمقصود من الحج الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتنزه عن مفارقة السيئات، فإنه بذلك يكون مبرورًا، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وهذه الأشياء، وإن كانت ممنوعة فى كل مكان وزمان فإنه يتغلظ المنع عنها فى الحج، واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصى حتى يفعل الأوامر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أتى بـ «من» للتنصيص على[1] العموم فكل خير وقربة وعبادة داخل فى ذلك، أى: فإن الله به عليم، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير، خصوصًا فى تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة، فإنه ينبغى تدارك ما أمكن تداركه فيها، من صلاة وصيام وصدقة وطواف، وإحسان قولى وفعلى، ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك، فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم، سؤالاً واستشرافًا، وفى الإكثار منه نفع

(١) فى الأصل (لتنصيص العموم) فأصلحناه كما ترى لتستقيم العبارة.

وإعانة للمسافرين، وزيادة قربة لرب العالمين، وهذا الزاد المراد منه إقامة البنية بلغة ومتاعًا، وأما الزاد الحقيقى المستمر نفعه لصاحبه فى دنياه وأخراه فهو زاد التقوى، الذى هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة، وأجل نعيم دائمًا أبدًا، ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به الذى هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى، ثم أمر بها أولى الألباب فقال: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أى: يا أهل العقول الرزينة اتقوا ربكم، الذى تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل وفساد الرأى.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ لما أمر تعالى بالتقوى أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب فى مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج وكان الكسب حلالاً منسوبًا إلى فضل الله، لا منسوبًا إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه، وفى قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ دلالة على أمور: أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفًا أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات، لا تكون إلا بعد الوقوف، الثانى: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام، وهو المزدلفة، وذلك أيضًا معروف، يكون ليلة النحر بائتًا بها، وبعد صلاة الفجر يقف فى المزدلفة داعيًا، حتى يسفر جدًا، ويدخل فى ذكر الله عنده إيقاع الفرائض والنوافل فيه، الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء والترتيب، الرابع والخامس: أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها، السادس: أن مزدلفة فى الحرم، كما قيده بالحرام، السابع: أن عرفة فى الحل، كما هو مفهوم التقييد بـ «مزدلفة» ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ أى: اذكروا الله تعالى كما مَنَّ عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون، فهذه من أكبر النعم التى يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم بالقلب واللسان ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أى: ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفًا عندهم، وهو رمى الجمار وذبح الهدايا والطواف والسعى والمبيت بـ «منى» ليالى التشريق وتكميل باقى المناسك، ولما كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكر، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد فى أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة، وهكذا ينبغى للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومَنَّ بها على ربه، وجعلت له محلا ومنزلة رفيعة فهذا حقيق بالمقت، ورد الفعل، كما أن الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أخر، ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم ﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ أى: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته وليس له فى الآخرة من نصيب، لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه فى مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعلمهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماتهم ونياتهم، جزاء دائرًا بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه، وفى هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع،

مسلمًا أو كافرًا أو فاسقًا، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه، إلا فى مطالب الآخرة ومهمات الدين، والحسنة المطلوبة فى الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد من رزق هنى واسع حلال وزوجة صالحة وولد تقر به العين وراحة وعلم نافع وعمل صالح، ونحو ذلك، من المطالب المحبوبة والمباحة، وحسنة الآخرة هى السلامة من العقوبات فى القبر والموقف والنار، وحصول رضا الله والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكمله، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبى ﷺ يكثر من الدعاء به، والحث عليه.

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ يأمر تعالى بذكره فى الأيام المعدودات، وهى أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافًا لله فيها، ولهذا حرم صيامها، فللذكر فيها مزية ليس لغيرها، ولهذا قال النبى ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله» ويدخل فى ذكر الله فيها ذكره عند رمى الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر، وليس ببعيد ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثانى ﴿فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ﴾ بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد ﴿فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وهذا تخفيف من الله تعالى على عباده فى إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أبيح كلا الأمرين فالمتأخر أفضل لأنه أكثر عبادة، ولما كان نفى الحرج قد يفهم منه نفى الحرج فى ذلك المذكور وفى غيره، والحال[1] أن الحرج منفى عن المتقدم والمتأخر فقط قيده بقوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أى: اتقى الله فى جميع أموره وأحوال الحج، فمن اتقى الله فى كل شىء حصل له نفى الحرج فى كل شىء، ومن اتقاه فى شىء دون شىء كان الجزاء من جنس العمل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب معاصيه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعى لتقوى الله، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصوصًا فى الأوقات الفاضلة، الذى هو خير مصلحة وبر أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إذا تكلم راق كلامه للسامع[2]، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ بأن يخبر أن الله يعلم أن ما فى قلبه موافق لما نطق به وهو كاذب فى ذلك، لأنه يخالف قوله فعله، فلو كان صادقًا لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المنافق، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أى: إذا خاصمته وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك، ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين الذين جعلوا السهولة مركبهم، والانقياد للحق وظيفتهم، والسماحة سجيتهم ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ هذا الذى يعجبك قوله إذا حضر عندك ﴿سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أى: يجتهد على أعمال المعاصى، التى هى إفساد فى الأرض ﴿وَيُهْلِكَ﴾ بسبب ذلك ﴿الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ فالزروع والثمار والمواشى

(١) فى الأصل (والحاصل) وهو خطأ.
(٢) فى الأصل (السامع) والصواب ما أثبتناه.

تتلف وتنقص وتقل بركتها بسبب العمل فى المعاصى ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ فإذا كان لا يحب الفساد فهو يبغض العبد المفسد فى الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسنًا، ففى هذه الآية دليل على أن الأقوال التى تصدر من الأشخاص ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور حتى يوجد العمل المصدق لها المزكى لها[1]، وأنه ينبغى اختبار أحوال الشهود، والمحق والمبطل من الناس، بسبر أعمالهم والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتزكيتهم أنفسهم، ثم ذكر أن هذا المفسد فى الأرض بمعاصى الله إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف، و ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصى والتكبر على الناصحين ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ التى هى دار العاصين والمتكبرين ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أى: المستقر والمسكن، عذاب دائم وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الثواب، جزاء لجنايتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياذًا بالله من أحوالهم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

معانى المفردات: قال فى «الصحاح»: شريت الشىء أشريه شراء، إذا بعته، وإذا اشتريته أيضًا، وهو من الأضداد، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أى: يبيعها، وقال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أى: باعوه. اهـ. ومثله فى القاموس، هذه الآية نزلت فى صهيب بن سنان الرومى حين أراده المشركون على ترك الإسلام، كما رواه ابن عباس وأنس وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدى وعكرمة وجماعة غيرهم، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة، فقالوا له: ربح البيع ربح البيع، فقال: وأنتم، فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية، ويروى أن رسول الله ﷺ قال له: «ربح البيع صهيب» وحدث أبو عثمان النهدى عن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبى ﷺ قالت لى قريش: يا صهيب، قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك؟ والله لا يكون ذلك أبدًا، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالى، تخلون عنى؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالى، فخلوا عنى فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: «ربح صهيب ربح صهيب» مرتين، وقال حماد بن سلمة، عن على بن يزيد، عن سعيد بن المسيب قال: أقبل صهيب مهاجرًا نحو النبى ﷺ فاتبعه نفر من قريش فنزل عن راحلته، ونثل ما فى كنانته، ثم قال: يا معشر قريش، قد علمتم أنى من أرماكم رجلاً، وأنتم ـ والله ـ لا تصلون إلىَّ حتى أرمى بكل سهم فى كنانتى، ثم أضرب بسيفى، ما بقى فى يدى منه شىء، ثم افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالى وقينتى بمكة وخليتم سبيلى، قالوا له: نعم، فلما قدم على النبى ﷺ قال: « ربح البيع» قال: ونزلت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[2] وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت فى كل مجاهد فى سبيل الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ اهـ. من تفسير ابن كثير بتصرف يسير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

---

(١) قوله: (المصدق لها المزكى) تكرار (لها) بعد (المصدق) و (المزكى) لا داعى له، فالأنسب أن يقال: (المصدق والمزكى لها).

(٢) قال أبو السعود فى تفسيره: فـ «يشرى» حينئذ بمعنى «يشترى» لجريان الحال على صورة الشرى. اهـ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا﴾ هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا ﴿فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ أى: فى جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئًا، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعًا للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه يلتزمه وينويه، فيدركه بنيته، ولما كان الدخول فى السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى: فى العمل بمعاصى الله ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء وما به الضرر عليكم، ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل قال تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ أى أخطأتم ووقعتم فى الذنوب ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى: على علم ويقين ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز المقام الحكيم إذا عصاه العاصى قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة، وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾

يقول تعالى: هل ينتظر الساعون فى الفساد فى الأرض المتبعون لخطوات الشيطان النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذى قد حشى من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين ويحيق به الجزاء السيئ على المفسدين، وذلك أن الله تعالى يطوى السموات والأرض وتنتثر الكواكب وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق، وينزل البارى تبارك وتعالى ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء والعدل، فتوضع الموازين وتنشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكلٌّ يجازى بعمله، فهناك يعض الظالم على يديه إذا علم[(١)] حقيقة ما هو عليه، وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات الاختيارية كالاستواء والنزول والمجىء، ونحو ذلك من الصفات التى أخبر بها تعالى عن نفسه، وأخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها لمعانيها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل، خلافًا للمعطلة، على اختلاف أنواعهم، من الجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوهم، ممن ينفى هذه الصفات، ويتأول ـ لأجلها ـ الآيات بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان، بل حقيقتها القدح فى بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذى تحصل به الهداية فى هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلى، بل ولا دليل عقلى، أما النقلى فقد اعترفوا أن النصوص الواردة فى الكتاب والسنة ظاهرها، بل صريحها، دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلالتها على مذهبهم الباطل أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص، وهذا، كما ترى، لا يرتضيه من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان، وأما العقلى فليس فى العقل ما يدل على نفى هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذى لا يقدر على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه، والمتعلق بخلقه، هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات، يتبع الكلام على الذات، فكما أن لله ذاتًا لا تشبهها الذوات فللَّه صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس فى إثباتها ما يقتضى التشبيه بوجه، ويقال أيضًا لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضًا، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه، وأثبته رسوله، وإما أن تنفى الجميع وتكون منكرًا لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك بعضه، فهذا تناقض، ففرِّق بين ما أثبته وبين ما نفيته، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً، فإن قلت: ما أثبته لا يقتضى تشبيهًا، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيته لا يقتضى تشبيهًا، فإن قلت: لا أعقل من الذى نفيته إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذى أثبته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة أجابك به

---

(١) قوله: (إذا علم إلخ) تعبير فيه نظر، لأن العلم فى عرصات القيامة متحقق لجميع المخلوقين، فالأنسب أن يقال (حينما يرى ما هو فيه من سوء الحال، وتتكشف حالته التى فارق عليها الدنيا، فيشاهدها متجسدة ومائلة أمام ناظريه).

أهل السنة لما نفيته، والحاصل أن من نفى شيئًا مما دل الكتاب والسنة على إثباته فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعى ولا عقلى، بل قد خالف المعقول والمنقول.

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢١١) ﴾

يقول تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ تدل على الحق، وعلى صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة، التى تقتضى القيام بها، بل كفروا بها، وبدلوا نعمة الله كفرًا، فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلاً لها، لأن من أنعم الله عليه نعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها، ولم يقم بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصى، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى، وقام بحقها، فإنها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها.

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) ﴾

يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله ولم ينقادوا لشرعه أنهم زينت لهم الحياة الدنيا، فزينت فى أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها، واطمأنوا بها[1]، فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها، وعظموا من شاركهم فى صنيعهم، واحتقروا المؤمنين، واستهزأوا بهم وقالوا: أهؤلاء منَّ الله عليهم بيننا؟ وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن فى الدنيا، وإن ناله مكروه، فإنه يصبر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه وصبره ما لا يكون لغيره، وإنما الشأن كل الشأن، والتفضيل الحقيقى فى الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيكون المتقون فى أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور، والبهجة والحبور، والكفار تحتهم فى أسفل الدركات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة، والشقاء السرمدى، الذى لا منتهى له، ففى هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعى على الكافرين، ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فالرزق الدنيوى يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان ومحبة الله وخشيته ورجائه ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يحبه.

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾

أى: كان الناس مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع الله بثمرات الطاعات، من الرزق والقوة فى البدن والقلب، والحياة الطيبة، وأعلى ذلك: الفوز برضوان الله والجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصى الله بثمرات المعصية، من حرمان الرزق والضعف والإهانة والحياة الضيقة، وأشد ذلك: سخط الله والنار ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وهو الإخبارات الصادقة والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب الإلهية فهو حق، يفصل بين المختلفين فى الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع أن يرد الاختلاف والتنازع إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن فى

---

(١) قوله: «اطمأنوا بها» أى الأرض، والصواب أن يقال: «اطمأنوا إليها» على تضمين «اطمأن» كلمة «ارتاح» أو «استكان» وهذا ما يقتضيه سياق الكلام وسباقه.

كتابه، وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما، ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضى اتفاقهم عليها واجتماعهم، أخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف، فاختلفوا فى الكتاب الذى ينبغى أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، وضلوا بذلك ضلالاً بعيداً ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من هذه الأمة ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب وأخطأوا فيه الحق والصواب هُدى للحق فيه هذه الأمة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ تعالى وتيسيره لهم ورحمته ﴿وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فعم الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم، عدلاً منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، لئلا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وهدى بفضله ورحمته وإعانته ولطفه من شاء من عباده، فهذا فضله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته، تبارك وتعالى.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾

يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهى سنته الجارية التى لا تتغير ولا تتبدل، أن من قام بدينه وشرعه لا بد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله ولم يبال بالمكاره الواقعة فى سبيله فهو الصادق الذى قد نال من السعادة كمالها، ومن السيادة آلتها، ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صدته المكاره عما هو بصدده وثنته المحن عن مقصده فهو الكاذب فى دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلى والتمنى ومجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه، فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ أى: الفقر والأمراض فى أبدانهم ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل والنفى وأخذ الأموال وقتل الأحبة، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به، ولكن لشدة الأمر وضيقه ﴿يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن، فكلما اشتدت عليه وصعبت ـ إذا صابر وثابر على ما هو عليه ـ انقلبت المحنة فى حقه منحة، والمشقات راحات، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء، وشفاء ما فى قلبه من الداء، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾

أى: يسألونك عن النفقة، وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فأجابهم عنها فقال: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أى: مال قليل أو كثير، فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم أعظمهم حقّا عليك، وهم الوالدان الواجب برهما، والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما، النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة على الولد الموسر، ومن بعد الوالدين الأقربون، على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليه صدقة وصلة ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، فهم فى مظنة الحاجة، لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد، رحمة منه بهم ولطفًا ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ وهم أهل الحاجات وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أى: الغريب المنقطع به فى غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التى توصله

إلى مقصده، ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف، لشدة الحاجة، عمم تعالى فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات، لأنها تدخل فى اسم الخير ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم، كل على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾

هذه الآية فيها فرض القتال فى سبيل الله، بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة، وكثر المسلمون وقووا، أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس، لما فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف، ومع هذا فهو خير محض، لما فيه من الثواب العظيم، والتحرز من العقاب الأليم، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم، وغير ذلك مما هو مرب، على ما فيه من الكراهة ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة، فإنه شر، لأنه يعقب الخذلان، وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب، وهذه الآيات عامة مطردة فى أن أفعال الخير التى تكرهها النفوس ـ لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة ـ فهى شر بلا شك، وأما أحوال الدنيا فليس الأمر مطرداً، ولكن الغالب على العبد المؤمن أنه إذا أحب أمراً من الأمور فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له، فالأوفق له فى ذلك أن يشكر الله، ويعتقد الخير فى الواقع، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾

ولما كان الأمر بالقتال، لو لم يقيد، لشمل الأشهر الحرم وغيرها، استثنى تعالى القتال فى الأشهر الحرم فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الآية، الجمهور على أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا، وقال بعض المفسرين: إنه لم ينسخ، لأن المطلق محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة لعموم الأمر بالقتال مطلقًا، ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم، بل أكبر مزاياها، تحريم القتال فيها، وهذا إنما هو فى قتال الابتداء، وأما قتال الدفع فإنه يجوز فى الأشهر الحرم، كما يجوز فى البلد الحرام، ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل لسرية عبد الله بن جحش، وقتلهم عمرو بن الحضرمى، وأخذهم أموالهم، وكان ذلك ـ على ما قيل ـ فى شهر رجب، عيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم، وكانوا فى تعييرهم ظالمين، إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، قال تعالى فى بيان ما فيهم: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله، وفتنتهم من آمن به، وسعيهم فى ردهم عن دينهم، وكفرهم الحاصل فى الشهر الحرام، والبلد الحرام، الذى هو بمجرده كاف فى الشر، فكيف وقد كان فى شهر حرام وبلد حرام؟! ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ أى: أهل المسجد الحرام، وهم النبى ﷺ وأصحابه، لأنهم أحق به من المشركين، وهم عماره على الحقيقة، فأخرجوهم ﴿مِنْهُ﴾ ولم يمكنوهم من الوصول إليه، مع أن هذا البيت ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ

فيه وَالْبَادِ﴾ فهذه الأمور كل واحد منها ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ فى الشهر الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم ؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة فى تعييرهم المؤمنين، ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين، وليس غرضهم فى أموالهم وقتلهم، وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم، ويكونوا كفاراً بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير، فهم باذلون قدرتهم فى ذلك، ساعون بما أمكنهم ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وهذا الوصف عام لكل الكفار، لا يزالون يقاتلون غيرهم حتى يردوهم عن دينهم، وخصوصًا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ألفوا الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبثوا الأطباء، وبنوا المدارس لجذب الأمم إلى دينهم، وإدخالهم عليهم كل ما يمكنهم من الشبه التى تشككهم فى دينهم، ولكن المرجو من الله تعالى الذى مَنَّ على المؤمنين بالإسلام، واختار لهم دينه القيم، وأكمل لهم دينه أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم قيام، وأن يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره، ويجعل كيدهم فى نحورهم، وينصر دينه، ويعلى كلمته، وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار، كما صدقت على من قبلهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافرًا ﴿فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ لعدم وجود شرطها وهو الإسلام ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ودلت الآية بمفهومها أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام أنه يرجع إليه عمله، وكذلك من تاب من المعاصى فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

هذه الأعمال الثلاثة هى عنوان السعادة وقطب رحى العبودية وبها يعرف ما مع الإنسان من الربح أو الخسران، فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شىء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذى إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض ولا نفل، وأما الهجرة فهى مفارقة المحبوب المألوف لرضا الله تعالى، فيترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلانه، تقربًا إلى الله ونصرة لدينه، وأما الجهاد فهو بذل الجهد فى مقارعة الأعداء والسعى التام فى نصرة دين الله، وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عبادة الأصنام، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها ومشقتها كان لغيرها أشد قيامًا به وتكميلاً، فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجين رحمة الله، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة، وفى هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتمنٍّ وغرور، وهو دال على ضعف همة صاحبه، ونقص عقله، وهو بمنزلة من يرجو وجود الولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقى، ونحو ذلك، وفى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن العبد ــ ولو أتى من الأعمال بما أتى به ــ لا ينبغى له أن يعتمد عليها، ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ أى: لمن تاب توبة نصوحًا ﴿رَّحِيمٌ﴾ وسعت رحمته كل شىء، وعمَّ جوده وإحسانه كل حى، وفى هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة، حصل له مغفرة الله، إذ ﴿الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وحصلت له رحمة الله، وإذا حصلت له المغفرة اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة التى هى آثار الذنوب التى قد غفرت واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة حصل على كل خير فى الدنيا والآخرة بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم فلولا توفيقه إياهم لم يريدوها، ولولا إقدارهم عليها لم يقدروا عليها، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولاً وآخرًا، وهو الذى مَنَّ بالسبب والمسبب.

﴿۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ الآية، أى: يسألك ــ يأيها الرسول ــ المؤمنون عن أحكام الخمر

والميسر، وقد كانا مستعملين فى الجاهلية وأول الإسلام فكانه وقع فيهما إشكال فلهذا سألوا عن حكمهما، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منافعهما ومضارهما ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما وتحتيم تركهما، فأخبرهم أن إثمهما ومضارهما، وما يصدر عنهما، من ذهاب العقل والمال، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، والعداوة والبغضاء أكبر مما يظنونه من نفعهما من كسب المال بالتجارة بالخمر وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس عند تعاطيهما، وكان هذا البيان زاجراً للنفوس عنهما، لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته، ولكن لما كانوا قد ألفوهما، وصعب التحتيم بتركهما أول وهلة قدم هذه الآية مقدمة للتحريم الذى ذكره فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهذا من لطفه ورحمته وحكمته، ولهذا لما نزلت قال عمر ﷺ: انتهينا انتهينا، فأما الخمر فهو كل مسكر خامر العقل وغطاه، من أى نوع كان، وأما الميسر فهو كل المغالبات التى يكون فيها عوض من الطرفين، من النرد والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية تعوض بعوض، سوى مسابقة الخيل والإبل والسهام، فإنها مباحة لكونها معينة على الجهاد فرخص فيها الشارع.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾

وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم، فيسر الله لهم الأمر وأمرهم أن ينفقوا العفو وهو المتيسر من أموالهم، الذى لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم، وهذا يرجع إلى كل أحد بحسبه، من غنى وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله، ولو شق تمرة، ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم ولا يكلفهم ما يشق عليهم، ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا أو تكليفًا لنا بما يشق، بل أمرنا بما فيه سعادتنا وما يسهل علينا، وما به النفع لنا ولإخواننا، فيستحق على ذلك أتم الحمد، ولما بيَّن تعالى هذا البيان الشافى، وأطلع العباد على أسرار شرعه قال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ أى: الدالات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أى: لكى تستعملوا أفكاركم فى أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضًا لكى تتفكروا فى الدنيا وسرعة انقضائها، وفى الآخرة وبقائها، وأنها دار الجزاء فتعمرونها.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾

لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى، خوفًا على أنفسهم من تناولها، ولو فى هذه الحالة التى جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبى ﷺ عن ذلك فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى، بحفظها وصيانتها والاتجار فيها، وأن خلطتهم إياهم فى طعام وغيره جائز على وجه لا يضر باليتامى، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع فى ذلك إلى النية والعمل، فمن علم من نيته أنه مصلح لليتيم، وليس له طمع فى ماله، فلو دخل عليه شىء ـ من غير قصد ـ لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها، فذلك الذى هو حرج وإثم، و«الوسائل لها أحكام المقاصد» وفى هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات، فى المآكل والمشارب والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله تعالى، وإحسان وتوسعة على المؤمنين، وإلا ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾ أى: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك، فحرجتم، وشق عليكم وأثمتم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى: له القوة الكاملة، والقهر لكل شىء، ولكنه مع ذلك

﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فعزته لا تنافى حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله، وكذلك أحكامه، تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئًا عبثًا، بل لا بد له من حكمة، عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئًا مجردًا عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لتمام حكمته ورحمته.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾

أى ﴿وَلَا تَنكِحُوا﴾ النساء ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ ما دمن على شركهن ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ لأن المؤمنة ــ ولو بلغت من الدمامة ما بلغت ــ خير من المشركة، ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة فى جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة فى إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ وهذا عام لا تخصيص فيه، ثم ذكر تعالى الحكمة فى تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما فى الدين فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى: فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدى، ويستفاد من تعليل الآية النهى عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه إذا لم يجز التزويج ــ مع أن فيه مصالح كثيرة ــ فالخلطة المجردة من باب أولى، وخصوصًا الخلطة التى فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوها، وفى قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ دليل على اعتبار الولى فى النكاح ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أى: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التى من آثارها دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ﴾ أى: أحكامه وحكمها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيوجب لهم ذلك التذكر لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامتثال لما ضيعوه، ثم قال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)﴾

يخبر تعالى عن سؤالهم عن المحيض، وهل تكون المرأة بحالها بعد الحيض، كما كانت قبل ذلك، أم تجتنب مطلقًا كما يفعله اليهود؟ فأخبر تعالى أن الحيض أذى، وإذا كان أذى فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده عن الأذى وحده، ولهذا قال: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أى: مكان الحيض، وهو الوطء فى الفرج خاصة، فهذا هو المحرم إجماعًا، وتخصيص الاعتزال فى المحيض يدل على أن مباشرة الحائض وملامستها فى غير الوطء فى الفرج جائز، لكن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ يدل على ترك المباشرة فيما قرب من الفرج، وذلك فيما بين السرة والركبة، فينبغى تركه كما كان النبى ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأته وهى حائض أمرها أن تتزر فيباشرها، وحد هذا الاعتزال وعدم القربان للحيض ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أى: ينقطع دمهن، فإذا انقطع الدم زال المنع الموجود وقت جريانه، الذى كان لحله شرطان: انقطاع الدم، والاغتسال منه، فلما انقطع الدم زال الشرط الأول، وبقى الثانى، فلهذا قال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أى: اغتسلن ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أى: فى القبل لا فى الدبر، لأنه محل الحرث، وفيه دليل على وجوب الاغتسال للحائض، وأن انقطاع الدم شرط لصحته، ولما كان هذا المنع لطفًا منه تعالى بعباده وصيانة عن الأذى قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أى:

من ذنوبهم على الدوام ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أى: المتنزهين عن الآثام، وهذا يشمل التطهر الحسى من الأنجاس والأحداث، ففيه مشروعية الطهارة مطلقًا، لأن الله تعالى يحب المتصف بها، ولهذا كانت الطهارة مطلقًا شرطًا لصحة الصلاة والطواف وجواز مس المصحف، ويشمل التطهر المعنوى عن الأخلاق الرذيلة والصفات القبيحة والأفعال الخسيسة ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ مقبلة ومدبرة غير أنه لا يكون إلا فى القُبُل لكونه موضع الحرث، وهو الموضع الذى يكون منه الولد، وفيه دليل على تحريم الوطء فى الدبر، لأن الله لم يبح إتيان المرأة إلا فى الموضع الذى منه الحرث، وقد تكاثرت الأحاديث عن النبى ﷺ فى تحريم ذلك ولعن فاعله ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أى: من التقرب إلى الله بفعل الخيرات، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته ويجامعها على وجه القربة والاحتساب، وعلى رجاء تحصيل الذرية، الذين ينفع الله بهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أحوالكم، كونوا ملازمين لتقوى الله، مستعينين على ذلك بعلمكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر المُبَشَّر به، ليدل على العموم، وأن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وكل خير واندفاع كل ضير، رتب على الإيمان فهو داخل فى هذه البشارة، وفيها محبة الله للمؤمنين، ومحبة ما يسرهم، واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوى والأخروى.

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) ﴾

المقصود من اليمين والقسم تعظيم المُقسَم به، وتأكيد المُقسَم عليه، وكان الله تعالى قد أمر بحفظ الأيمان، وكان مقتضى ذلك حفظها فى كل شىء، ولكن الله تعالى استثنى من ذلك إذا كان البر باليمين يتضمن ترك ما هو أحب إليه، فنهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة، أى: مانعة وحائلة عن أن يبروا أى: يفعلوا خيرًا، ويتقوا شرًا، ويصلحوا بين الناس، فمن حلف على ترك واجب وجب حنثه، وحرم إقامته على يمينه، ومن حلف على ترك مستحب استحب له الحنث، ومن حلف على فعل محرم وجب الحنث، أو على فعل مكروه استحب الحنث، وأما المباح فينبغى فيه حفظ اليمين عن الحنث، ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة أنه «إذا تزاحمت المصالح قدم أهمها» فهنا تتميم اليمين مصلحة، وامتثال أوامر الله فى هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقدمت لذلك، ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أى: لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين، وعلمه بمقاصدهم هل هى خير أم شر، وفى ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده، ثم قال تعالى:

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) ﴾

أى: لا يؤاخذكم بما يجرى على ألسنتكم من الأيمان اللاغية، التى يتكلم بها العبد من غير قصد منه ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه، كقول الرجل فى عرض كلامه: «لا والله» و «بلى والله» وكحلفه على أمر ماض يظن صدق نفسه، وإنما المؤاخذة على ما قصده القلب، وفى هذا دليل على اعتبار المقاصد فى الأقوال، كما هى معتبرة فى الأفعال، والله ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب إليه ﴿حَلِيمٌ﴾ بمن عصاه، حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستر، وصفح مع قدرته عليه، وكونه بين يديه.

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦)
وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) ﴾

وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة فى أمر خاص وهو حلف الرجل على ترك وطء زوجته مطلقًا أو مقيدًا بأقل من أربعة أشهر أو أكثر، فمن آلى من زوجته خاصة فإن كان لدون أربعة أشهر فهذا مثل سائر الأيمان إن حنث كفر، وإن أتم يمينه فلا شىء عليه، وليس لزوجته عليه سبيل، لأنه ملكه أربعة أشهر، وإن كان أبدًا، أو

مدة تزيد على أربعة أشهر ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه إذا طلبت زوجته ذلك، لأنه حق لها فإذا تمت أمر بالفيئة وهو الوطء، فإن وطئ فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عليه الحاكم، ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِن فَاءُو﴾ أى: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه، وهو الوطء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف، بسبب رجوعهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة، ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك، ورحيم بهم أيضًا، حيث فاءوا إلى زوجاتهم، وحنوا عليهن ورحموهن ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ أى: امتنعوا من الفيئة، فكان ذلك دليلاً على رغبتهم عنهن، وعدم إرادتهم لأزواجهم، وهذا لا يكون إلا عزمًا على الطلاق، فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة، وإلا أجبره الحاكم عليه، أو قام به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه وعيد وتهديد لمن يحلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة، ويستدل بهذه الآية على أن الإيلاء خاص بالزوجة لقوله: ﴿مِن نِّسَائِهِمْ﴾ وعلى وجوب الوطء فى كل أربعة أشهر مرة، لأنه بعد الأربعة يجبر، إما على الوطء أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجبًا.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)﴾

أى: النساء اللاتى طلقهن أزواجهن ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أى: ينتظرن ويعتددن مدة ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أى: حيض، أو أطهار على اختلاف العلماء فى المراد بذلك، مع أن الصحيح أن القرء الحيض، ولهذه العدة عدة حكم، منها: العلم ببراءة الرحم، إذا تكرر عليها ثلاثة الأقراء عُلم أنه ليس فى رحمها حمل، فلا يفضى إلى اختلاط الأنساب، ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ وحرم عليهن كتمان ذلك، من حمل أو حيض، لأن كتمان ذلك يفضى إلى مفاسد كثيرة، فكتمان الحمل موجب أن تلحقه بغير من هو له، رغبة فيه، أو استعجالاً لانقضاء العدة، فإذا ألحقته بغير أبيه حصل من قطع الرحم والإرث، واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه، وحصل فى مقابلة ذلك إلحاقه بغير أبيه، وثبوت توابع ذلك من الإرث منه وله، ومن جعل أقارب الملحق به أقارب له، وفى ذلك من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولو لم يكن فى ذلك إلا إقامتها مع من نكاحها باطل فى حقه، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة ـ وهى الزنا ـ لكفى بذلك شرًا، وأما كتمان الحيض فإن استعجلت فأخبرت به وهى كاذبة ففيه من انقطاع حق الزوج عنها، وإباحتها لغيره وما يتفرع عن ذلك من الشر، كما ذكرنا، وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض، لتطول العدة، فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه، بل هى سحت عليها محرمة من جهتين: من كونها لا تستحقه، ومن كونها نسبته إلى حكم الشرع وهى كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة فيكون ذلك سفاحًا، لكونها أجنبية منه[1] ، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وإلا فلو آمنَّ بالله واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك، وفى ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر بها عن نفسها من الأمر الذى لا يطلع عليه غيرها، كالحمل والحيض ونحوها، ثم قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أى: لأزواجهن ما دامت متربصة فى تلك العدة أن يردهن إلى نكاحهن ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أى: رغبة وألفة ومودة، ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصد المضارة لها، وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان:

(١) جواب (إن) فى قوله (وإن كذبت ... إلخ) لم يذكره والمقام يقتضى أن يذكر الجواب بعد قوله (أجنبية منه) وهو (فبذلك تكون قد ارتكبت إثمًا عظيمًا فلهذا قال تعالى ... إلخ) وبهذا ينتظم الكلام ويتضح المعنى.

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى فى هذا التربص، وهى: أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها فجعلت له هذه المدة ليتروى بها ويقطع نظره، وهذا دليل على محبته تعالى للألفة بين الزوجين، وكراهته للفراق، كما قال النبى ﷺ: «أبغض الحلال عند الله الطلاق» وهذا خاص فى الطلاق الرجعى، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعتها، بل إن تراضيا على التراجع فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط، ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: وللنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم، مثل الذى عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة، ومرجع الحقوق بين الزوجين إلى المعروف، وهو: العادة الجارية فى ذلك البلد وذلك الزمان من مثلها لمثله، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والأشخاص والعوائد، وفى هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمسكن، وكذلك الوطء ـ الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق، وأما مع الشرط فعلى شرطهما، إلا شرطًا أحل حرامًا أو حرم حلالا ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أى: رفعة ورياسة وزيادة حق عليها، كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ومنصب النبوة والقضاء والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات بالرجال، وله ضعفا ما لها فى كثير من الأمور، كالميراث ونحوه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذى دانت له جميع الأشياء، ولكنه ـ مع عزته ـ حكيم فى تصرفه، ويخرج من عموم هذه الآية الحوامل، فعدتهن وضع الحمل، واللاتى لم يدخل بهن، فليس لهن عدة، والإماء فعدتهن حيضتان، كما هو قول الصحابة ﷺ، وسياق الآية يدل على أن المراد بها الحرة.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾

كان الطلاق فى الجاهلية، واستمر أول الإسلام، وهو أن يطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضارتها طلقها، فإذا شارفت[1] انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها، وصنع بها مثل ذلك أبدًا، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن ﴿الطَّلَاقُ﴾ أى: الذى تحصل به الرجعة ﴿مَرَّتَانِ﴾ ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة ـ من ارتجاعها، ويراجع رأيه فى هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلا لذلك، لأن من زاد على الثنتين فإما متجرئ على المحرم، أو ليس له رغبة فى إمساكها، بل قصده المضارة، فلهذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أى: عشرة حسنة، ويجرى مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئًا من ماله، لأنه ظلم، وأخذ للمال فى غير مقابلة بشىء، فلهذا قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ وهى المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقه أو خلقه أو نقص دينه وخافت أن لا تطيع الله فيه ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة، وفى هذا مشروعية الخلع إذا وجدت هذه الحكمة ﴿تِلْكَ﴾ أى: ما تقدم من الأحكام الشرعية ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى: أحكامه التى شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأى ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال وتعدى منه إلى الحرام، فلم يسعه ما أحل الله؟ والظلم ثلاثة أقسام: ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر[2] الذى هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق، فالشرك لا يغفره الله

(١) شارفت: أى: قاربت.

(٢) قوله: الأكبر، صفة لـ «ظلم» والمعنى: والظلم الأكبر الصادر من العبد هو الشرك بالله.

إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئًا، والظلم الذى بين العبد وربه بما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة[(١)].

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾ ﴾

يقول الله تعالى: ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا**﴾ أى: الطلقة الثالثة ﴿**فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**﴾ أى: نكاحًا صحيحًا ويطأها، لأن النكاح الشرعى[(٢)] لا يكون صحيحًا حتى يدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق، ويتعين أن يكون نكاح الثانى نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء الثانى، لأنه ليس بزوج، فإذا تزوجها الثانى راغبًا، ووطئها ثم فارقها وانقضت عدتها ﴿**فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا**﴾ أى: على الزوج الأول والزوجة ﴿**أَن يَتَرَاجَعَا**﴾ أى: يجددا عقدًا جديدًا بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضى، ولكن يشترط فى التراجع أن يظنا ﴿**أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ**﴾ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما على عشرتهما السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما فى التراجع، ومفهوم الآية الكريمة أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما فى ذلك جناحًا، لأن جميع الأمور إن لم يقيما فيها أمر الله ويسلك بها طاعته لم يحل الإقدام عليها، وفى هذا دلالة على أنه ينبغى للإنسان إذا أراد أن يدخل فى أمر من الأمور خصوصًا الولايات الصغار والكبار، أن ينظر فى نفسه، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها أقدم، وإلا أحجم، ولما بيَّن تعالى هذه الأحكام العظيمة قال: ﴿**وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ**﴾ أى: شرائعه التى حددها وبيَّنها ووضحها ﴿**يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ لأنهم هم المنتفعون بها، النافعون لغيرهم، وفى هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصًا بهم، وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها، ثم قال تعالى: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**﴾ أى: طلاقًا رجعيًا بواحدة أو اثنتين ﴿**فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**﴾ أى: قاربن انقضاء عدتهن ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾ أى: إما أن تراجعوهن ونيتكم القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: ﴿**وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا**﴾ أى: مضارة بهن ﴿**لِّتَعْتَدُوا**﴾ فى فعلكم هذا الحلال إلى الحرام، فالحلال: الإمساك بالمعروف، والحرام: المضارة ﴿**وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرار ﴿**وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا**﴾ لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم والعمل، والوقوف معها، وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثًا، بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها هزوًا، أى: لعبًا بها، وهى التجرؤ عليها، وعدم الامتثال لواجبها، مثل استعمال المضارة فى الإمساك أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله ـ من رحمته ـ جعل له واحدة بعد واحدة، رفقًا به وسعيًا فى مصلحته ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾ عمومًا باللسان، حمدًا وثناء، وبالقلب، اعترافًا وإقرارًا، وبالأركان بصرفها فى طاعة الله ﴿**وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ**﴾ أى: السنة، اللذين بين لكم بهما طرق الخير ورغَّبكم فيها، وطرق الشر وحذركم

---

(١) وفى هذا المعنى قال صاحب جوهرة التوحيد:

ومَن يمُت ولم يتب من ذنبه ... فأمره مُفوَّض لربه

(٢) قوله: (لأن النكاح الشرعى ... إلخ) فى العبارة اضطراب، والصواب أن يقال: (لأن النكاح الشرعى الصحيح، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء).

إياها، وعرفكم نفسه ووقائعه فى أوليائه وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، وقيل: المراد بالحكمة: أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيـان حكمة الله فى أوامره ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾ أى: بما أنزل عليكم، وهذا مما يقوى أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمـة والترغـيب أو الترهيب، فبـالحكم به يزول الجـهل، والحكمة مع التـرغيب يوجب الرغـبة، والحكمة مع الترهيب يوجب الرهبة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى جميع أموركم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلهذا بيَّن لكم هذه الأحكام التى هى جارية مع المصالح فى كل زمان ومكان، فله الحمد والمنة.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾

هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقـة دون الثلاث إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكـحها، ورضيت بذلك فلا يجوز لوليها، من أب وغيره، أن يعضلها، أى: يمنعها من التزوج به حنقًا عليه وغضبًا، واشمئزازًا لما فعل من الطلاق الأول، وذكر أن ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ فإيمانه يمنعه من العضل ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَـرُ﴾ وأطيب مما يظن الولى أن عدم تزويجه هو الرأى والـلائق وأنه يقابل بطلاقه الأول بعدم تزويجه، كما هو عادة المترفعين المتكبرين، فإن كان يظن أن المصلحة فى عدم تزويجه فإنه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم، مريد لها، قادر عليـها ميسر لها من الوجه الذى تعرفون وغيره، وفى هذه الآية دليل على أنه لا بد من الولى فى الـنكاح لأنه نهى الأولياء عن العـضل، ولا ينهاهم إلا عن أمـر هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق، ثم قال تعالى:

﴿۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)﴾

هذا خبر بمعنى الأمر، تنزيلاً له منزلة المتقرر الذى لا يحتاج إلى أمر بأن ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾ ولما كان الحول يطلق على الكامل وعلى مـعظم الحول قال: ﴿كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَـاعَةَ﴾ فإذا تم للـرضيع حولان فقد تم رضاعه وصـار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية، فلهذا كان الرضاع بعد الحولين غـير معتبر، فلا يحرمُ[1]، ويؤخذ من هذا النص، ومن قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأنه يمكن وجود الولد بها ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أى: الأب ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا شامل لما إذا كانت فى حباله أو مطلقة، فإن على الأب رزقها، أى: نفقتها وكسوتها، وهى الأجرة للرضاع، ودل هذا على أنها إذا كانت فى حباله لا يجب لها أجرة غير النفقة والكسوة، وكلٌّ بحسب حاله، فلهذا قال: ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغنى ولا من لم يجد شيئًا بالنفقة حتى يجد ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ أى: لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها، إما أن تمنع من إرضاعه، أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة أو الأجرة ﴿وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة أو تطلب زيادة عن الواجب، ونحو ذلك من أنواع الضـرر، ودل قوله: ﴿الْمَـوْلُودِ لَهُ﴾ أن الولد لأبيه، لأنه مـوهوب له، ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله، رضى أو لم يرض، بخلاف الأم، وقوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أى:

(١) قوله: (فلا يحرم) أى: لا تثبت به الأخوة ولا النسب من الرضاعة بعد الحولين الكاملين، وعلى هذا فيجوز أن يتزوج كل منهما الآخر.

على وارث الطفل إذا عدم الأب، وكان الطفل ليس له مال، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة، فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين، على القريب الوارث الموسر ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أى: الأبوان ﴿فِصَالًا﴾ أى: فطام الصبى قبل الحولين ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ بأن يكونا راضيين ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ فيما بينهما، هل هو مصلحة للصبى أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضيا ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فى فطامه قبل الحولين، فدلت الآية بمفهومها على أنه إن رضى أحدهما دون الآخر، أو لم يكن مصلحة للطفل أنه لا يجوز فطامه، وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أى: تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: للمرضعات ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فمجازيكم على ذلك بالخير والشر.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

أى: إذا توفى الزوج مكثت زوجته متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبًا، والحكمة فى ذلك ليتبين الحمل فى مدة الأربعة الأشهر، ويتحرك فى ابتدائه فى الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام، وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أى: انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ أى: من مراجعتها للزينة والطيب ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: على وجه غير محرم ولا مكروه، وفى هذا وجوب الإحداد مدة العدة، على المتوفى عنها زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع عليه بين العلماء ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى: عالم بأعمالكم، ظاهرها وباطنها، جليلها وخفيها، فمجازيكم عليها، وفى خطابه للأولياء بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ دليل على أن الولى ينظر على المرأة ويمنعها مما لا يجوز فعله، ويجبرها على ما يجب، وأنه مخاطب بذلك، واجب عليه.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

هذا حكم المعتدة من وفاة، أو المبانة فى الحياة، فيحرم على غير مبينها أن يصرح لها فى الخطبة، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ وأما التعريض فقد أسقط تعالى فيه الجناح، والفرق بينهما: أن التصريح لا يحتمل غير النكاح، فلهذا حرم، خوفًا من استعجالها وكذبها فى انقضاء عدتها، رغبة فى النكاح، ففيه دلالة على منع وسائل المحرم، وقضاء لحق زوجها الأول، بعدم مواعدتها لغيره مدة عدتها، وأما التعريض، وهو: الذى يحتمل النكاح وغيره، فهو جائز للبائن كأن يقول: إنى أريد التزويج، وإنى أحب أن تشاورينى عند انقضاء عدتك، ونحو ذلك، فهذا جائز، لأنه ليس بمنزلة الصريح، وفى النفوس داع قوى إليه، وكذا إضمار الإنسان فى نفسه أن يتزوج من هى فى عدتها إذا انقضت، ولهذا قال: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ هذا التفصيل كله فى مقدمات العقد، وأما عقد النكاح فلا يحل ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أى: تنقضى العدة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أى: فانووا الخير ولا تنووا الشر، خوفًا من عقابه ورجاء لثوابه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن صدرت منه الذنوب فتاب منها، ورجع إلى ربه ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعاجل العاصين على معاصيهم، مع قدرته عليهم.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

أى: ليس عليكم ـ يا معشر الأزواج ـ جناح وإثم بتطليق النساء قبل المسيس، وفرض المهر، وإن كان في ذلك كسر لها فإنه ينجبر بالمتعة، فعليكم أن تمتعوهن بأن تعطوهن شيئًا من المال جبرًا لخواطرهن ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ﴾ أى: المعسر ﴿قَدَرُهُ﴾ وهذا يرجع إلى العرف، وأنه يختلف باختلاف الأحوال، ولهذا قال: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ فهذا حق واجب ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ليس لهم أن يبخسوهن، فكما تسببوا لتشوقهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه فعليهم ـ فى مقابلة ذلك ـ المتعة، فللَّه ما أحسن هذا الحكم الإلهى، وأدله على حكمة شارعه ورحمته!! ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون ؟!! فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر، ثم ذكر حكم المفروض لهن فقال:

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

أى: إذا طلقتم النساء قبل المسيس وبعد فرض المهر فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه، وهذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومسامحة، بأن تعفو عن نصفها لزوجها، إذا كان يصح عفوها ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وهو الزوج، على الصحيح، لأنه الذى بيده حل عقدته، ولأن الولى لا يصح أن يعفو عما وجب للمرأة لكونه غير مالك ولا وكيل، ثم رغب فى العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحسانًا موجبًا لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغى أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذى هو أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهما على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب، وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح فى الحقوق، والغض مما فى النفس، فلا ينبغى للإنسان أن ينسى هذه الدرجة، ولو فى بعض الأوقات، وخصوصًا لمن بينك وبينه معاملة أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ثم قال تعالى:

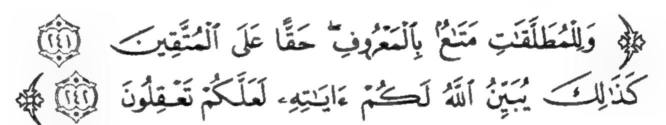
﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

يأمر تعالى بالمحافظة ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ عمومًا ﴿وَ﴾ على ﴿الصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ وهى العصر خصوصًا، والمحافظة عليها: أداؤها بوقتها وشروطها وأركانها وخشوعها، وجميع ما لها من واجب ومستحب، وبالمحافظة على الصلوات تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهى عن الفحشاء والمنكر، وخصوصًا إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أى: ذليلين مخلصين خاشعين، فإن القنوت: دوام الطاعة مع الخشوع، وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ حذف المتعلق ليعم الخوف من العدو والسبع، وفوات ما يتضرر العبد بفوته ﴿فَرِجَالاً﴾ فصلوا ماشين على أرجلكم ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل والإبل وسائر المركوبات، وفى هذه الحال لا يلزمه الاستقبال، فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن صلى صلاة كاملة، ويدخل فى قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضًا الإكثار من ذكر الله، شكرًا له على نعمة التعليم، لما فيه سعادة العبد، وفى الآية الكريمة فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله، وفيه الإشعار أيضًا بأن الإكثار من ذكره سبب لتعليم علوم أخرى، لأن الشكر مقرون بالمزيد، ثم قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾

اشتهر عند كثير من المفسرين أن هذه الآية الكريمة نسختها الآية التى قبلها وهى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وأن الأمر كان على الزوجة أن تتربص حولاً

كاملاً، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر، ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة أن ذلك تقدم فى الوضع لا فى النزول، لأن شرط الناسخ أن يتأخر عن المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه، ومن تأمل الآيتين اتضح له أن القول الآخر فى الآية هو الصواب، وأن الآية الأولى فى وجوب التربص أربعة أشهر وعشرًا، على وجه التحتيم، على المرأة، وأما فى هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم حولاً كاملاً، جبرًا لخاطرها، وبرًا بميتهم، ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم﴾ أى: وصية من الله لأهل الميت أن يستوصوا بزوجته ويمتعوها ولا يخرجوها، فإن رغبت أقامت فى وصيتها، وإن أحبت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ أى: من التجمل واللباس، لكن الشرط أن يكون بالمعروف، الذى لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار، وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين، الدالين على كمال العزة، وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته، حيث وضعها فى مواضعها اللائقة بها.



لما بيَّن فى الآية السابقة، إمتاع المفارقة بالموت، ذكر هنا أن كل مطلقة فلها على زوجها أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها، وأنه حق إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة والمستحبة، فإن كانت المرأة لم يُسَمَّ لها صداق، وطلقها قبل الدخول، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره، وإن كان مسمى لها فمتاعها نصف المسمى، وإن كانت مدخولاً بها صارت المتعة مستحبة، فى قول جمهور العلماء، ومن العلماء من أوجب ذلك استدلالاً بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ والأصل فى «الحق» أنه واجب، خصوصًا وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة، فلما بيَّن تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين أثنى على أحكامه وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقتها للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده أن يعقلوا عنه ما بينه فيعقلونها حفظًا، وفهمًا وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)﴾

أى: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بنى إسرائيل حيث حل الوباء بديارهم فخرجوا بهذه الكثرة، فرارًا من الموت، فلم ينجهم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم فأحياهم، إما بدعوة نبى، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك، ولكن ذلك بفضله وإحسانه، وهو لا زال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله، بالاعتراف بها وصرفها فى مرضاة الله، ومع ذلك، فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر، وفى هذه القصة عبرة بأنه على كل شيء قدير، وذلك آية محسوسة على البعث، فإن هذه القصة معروفة منقولة نقلاً متواترًا عند بنى إسرائيل، ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى بأسلوب الأمر الذى قد تقرر عند المخاطبين، ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفًا من الأعداء، وجبنًا عن لقائهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال، وأخبر عن بنى إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم، وعلى الاحتمالين فإن فيها ترغيبًا فى الجهاد، وترهيبًا من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغنى عن الموت شيئًا ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾

جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن، لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين، وحث على الإخلاص فيه بأن يقاتل العبد لتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله ﴿سَمِيعٌ﴾ للأقوال وإن خفيت ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها، وأيضًا فإنه إذا علم المجاهد في سبيله أن الله سميع عليم هان عليه ذلك، وعلم أنه بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا بد أن يمدهم بعونه ولطفه، وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم، ووعده المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخرًا، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم ما لا يمكن التعبير عنه، والمراد بالقرض الحسن: هو ما جمع أوصاف الحسن، من النية الصالحة وسماحة النفس، بالنفقة ووقوعها في محلها، وأن لا يتبعها المنفق منًّا ولا أذى، ولا مبطلا ولا منقصًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة، ليعتبروا وليرغبوا في الجهاد، ولا ينكلوا عنه، فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والناكلين خسروا الأمرين. فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا، لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقائل مقال، وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا مجرد كلام

لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالعزم الجازم، وأنهم التزموا ذلك التزامًا تامًا، وأن القتال متعين عليهم، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم، وأنه عيَّن لهم نبيهم طالوت ملكًا، يقودهم فى هذا الأمر الذى لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت وثَمَّ من هو أحق منه بيتًا وأكثر مالاً، فأجابهم نبيهم: إن الله اختاره عليكم بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة، وقوة الجسم، اللذيْن هما آلة الشجاعة والنجدة، وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال، ولا يكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة فى بيوتهم، فالله يؤتى ملكه من يشاء، ثم لم يكتف ذلك النبى الكريم بإقناعهم بما ذكره من كفاءة طالوت واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء، فلم يكتفوا بالصفات المعنوية فى طالوت، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فحينئذ سلموا وانقادوا، فلما ترأس فيهم طالوت وجنَّدهم ورتَّبهم، وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهمم ما يحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ تمرون عليه وقت حاجة إلى الماء ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أى: لا يتبعنى، لأن ذلك برهان على قلة صبره ووفور جزعه ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ لصدقه وصبره ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أى: فإنه مسامح فيها، فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء شربوا كلهم منه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فإنهم صبروا ولم يشربوا ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا﴾ أى: الناكلون أو الذين عبروا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ فإن كان القائلون هم الناكلين فهذا قول يبررون به نكولهم، وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بعونه وتأييده ونصره فثبتوا وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ﴾ عليه السلام ﴿جَالُوتَ﴾ وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ﴾ أى: داود ﴿الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ النبوة والعلوم النافعة، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، ثم بيَّن تعالى فائدة الجهاد فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ باستيلاء الكفرة والفجار وأهل الشر والفساد ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث لطف بالمؤمنين ودافع عنهم وعن دينهم، بما شرعه وبما قدَّره، فلما بيَّن هذه القصة قال لرسوله ﷺ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ومن جملة الأدلة على رسالته هذه القصة، حيث أخبر بها وحيًا من الله مطابقًا للواقع، وفى هذه القصة عبر كثيرة للأمة، منها: فضيلة الجهاد فى سبيله، وفوائده وثمراته، وأنه السبب الوحيد فى حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين لو شقت عليهم الأمور فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين، ولو استراحوا قليلاً، فإنهم سيتعبون طويلاً، ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذى هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التى ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره، ومنها: الاستدلال بهذه القصة، على ما قاله العلماء، أنه ينبغى لأمير الجيوش أن يتفقدها عند فصولها، فيمنع من لا يصلح للقتال، من رجال وخيل وركاب، لضعفه أو ضعف صبره، أو لتخذيله، أو خوف الضرر بصحبته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس، ومنها: أنه ينبغى عند حضور البأس تقوية المجاهدين وتشجيعهم وحثهم على القوة الإيمانية، والاتكال الكامل على الله والاعتماد عليه، وسؤال الله التثبيت، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء، ومنها: أن العزم على القتال والجهاد، غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان ولكن عند حضوره تنحل عزيمته، ولهذا كان من دعاء النبى ﷺ: «أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد» فهؤلاء الذين عزموا على القتال وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم، لما جاء الوقت نكص أكثرهم، ويشبه هذا قوله ﷺ: «وأسألك الرضا بعد القضاء» لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس هو الرضا الحقيقى.

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾

يخبر البارى أنه فاوت بين الرسل فى الفضائل الجليلة والتخصيصات الجميلة بحسب ما منَّ الله به عليهم وقاموا به من الإيمان الكامل، واليقين الراسخ، والأخلاق العالية، والآداب السامية، والدعوة والتعليم والنفع العميم، فمنهم: من اتخذه خليلاً، ومنهم: من كلمه تكليمًا، ومنهم: من رفعه فوق الخلائق درجات، وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول لفضلهم الشامخ، وخص عيسى ابن مريم أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقًا، وعبده صدقًا، وأن ما جاء به من عند الله كلمة حق فجعله يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيى الموتى بإذن الله، وكلم الناس فى المهد صبيًا، وأيده بروح القدس، أى: بروح الإيمان، فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عامًا لكل مؤمن، بحسب إيمانه كما قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره، لهذا خصه الله بالذكر، وقيل: إن روح القدس - هنا - جبريل، أيده الله بإعانته ومؤازرته، لكن المعنى الأصح هو الأول، ولما أخبر عن كمال الرسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة، كان موجب ذلك ومقتضاه، أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والانقياد لهم، لما آتاهم من البينات التى على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ووقع لأجل ذلك الاقتتال الذى هو موجب الاختلاف والتعادى، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فما اختلفوا، لو شاء الله أيضًا - بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال - ما اقتتلوا، ولكن حكمته اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، ففى هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى يتصرف فى جميع الأسباب لمسبباتها، وأنه إن شاء أبقاها، وإن شاء منعها، وكل ذلك تبع لحكمته وحده، فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيئته ممانع ولا معارض ولا معاون.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

يحث الله المؤمنين على النفقات فى جميع طرق الخير، لأن حذف المعمول يفيد التعميم، ويذكرهم نعمته عليهم بأنه هو الذى رزقهم، ونوَّع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما فى أيديهم، بل أتى بـ «من» الدالة على التبعيض، فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق، ومما يدعوهم أيضًا إخبارهم أن هذه النفقات، مدخرة عند الله، فى يوم لا تفيد فيه المعاوضات بالبيع ونحوه، ولا التبرعات ولا الشفاعات، فكل أحد يقول: ما قدمت لحياتى[1]، فتنقطع الأسباب كلها، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم وعافاهم، ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، واستعانوا بنعمه على الكفر والفسوق والعصيان، فلم يبقوا للعدل موضعًا، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

(١) يشير إلى قوله تعالى فى سورة الفجر الآية: ٢٤ ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾

أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن، لما احتوت عليه من معانى التوحيد والعظمة، وسعة الصفات للبارى تعالى، فأخبر أنه ﴿ٱللَّهُ﴾ الذى له جميع معانى الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فألوهية غيره، وعبادة غيره، باطلة وأنه ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ الذى له جميع معانى الحياة الكاملة، من السمع والبصر والقدرة والإرادة وغيرها، والصفات الذاتية، كما أن ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ تدخل فيه جميع صفات الأفعال لأنه القيوم الذى قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات فأوجدها وأبقاها، وأمدها بجميع ما تحتاج إليه فى وجودها وبقائها، ومن كمال حياته وقيوميته أنه ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾ أى: نعاس ﴿وَلَا نَوۡمٞ﴾ لأن السنة والنوم إنما يعرضان للمخلوق الذى يعتريه الضعف والعجز والانحلال، ولا يعرضان لذى العظمة والكبرياء والجلال، وأخبر أنه مالك جميع ما فى السموات والأرض، فكلهم عبيد لله مماليك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ فهو المالك لجميع المماليك، وهو الذى له صفات الملك والتصرف والسلطان والكبرياء، ومن تمام ملكه أنه لا ﴿يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ أحد ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضى إلا توحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له فى الشفاعة نصيب، ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدى الخلائق من الأمور المستقبلة، التى لا نهاية لها ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ من الأمور الماضية، التى لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ وأن الخلق لا يحيط أحد بشىء من علم الله ومعلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ منها، وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدًا مضمحل فى علوم البارى ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به، وهم الرسل والملائكة: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه وسع السموات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التى جعلها الله فى المخلوقات، ومع ذلك فـ ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أى: يثقله ﴿حِفۡظُهُمَا﴾ لكمال عظمته واقتداره وسعة حكمته فى أحكامه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ بذاته على جميع مخلوقاته، وهو العلى بعظمة صفاته، وهو العلى الذى قهر المخلوقات ودانت له الموجودات وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء، المجد والبهاء الذى تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شىء - وإن جلت عن الصفة - فإنها مضمحلة فى جانب عظمة العلى العظيم، فآية احتوت على هذه المعانى التى هى أجل المعانى يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها متدبرًا متفهمًا أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظًا بذلك من شرور الشيطان.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾

هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامى، وأنه لكمال[١] براهينه واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له لا يحتاج إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين ورده ولم يقبله، فإنه لعناده، فإنه قد تبين الرشد من الغى، فلم يبق لأحد عذر

---

(١) قوله: (لكمال) هذا الجار والمجرور متعلق بقوله الآتى (لا يحتاج).

ولا حجة إذا رده ولم يقبله، ولا منافاة بين هذا المعنى وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين، وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض مع البر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة، الجهاد القولى والفعلى، فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافى آيات الجهاد فجزم بأنها منسوخة فقوله ضعيف، لفظًا ومعنى، كما هو واضح بيِّن لمن تدبر الآية الكريمة، كما نبهنا عليه، ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك له وكفر بالطاغوت ـ وهو كل ما ينافى الإيمان بالله من الشرك وغيره ﴿فَـ﴾ هذا ﴿قَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ التى ﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ بل هو مستقيم على الدين الصحيح، حتى يصل به إلى الله، وإلى دار كرامته، ويؤخذ القسم الثانى من مفهوم الآية، أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وآمن بالطاغوت، فإنه هالك هلاكا أبديًا، ومعذب عذابًا سرمديًا، وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أى: لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين، وخضوع المتضرعين ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أكنته الصدور، وما خفى من خفايا الأمور، فيجازى كل أحد بحسب ما يعلمه، من نياته وعمله.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)﴾

هذه الآية مترتبة على الآية التى قبلها، فالسابقة هى الأساس، وهذه هى الثمرة، فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا إيمانهم بالقيام بواجبات الإيمان وترك كل ما ينافيه أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصى والغفلة والإعراض إلى نور العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحى والإيمان، وييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، وأما الذين كفروا فإنهم لما تولوا غير وليهم ولاهم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم ووكلهم إلى رعاية من تولاهم، ممن ليس عنده نفع ولا ضر، فأضلوهم وأشقوهم وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرموهم السعادة، وصارت النار مثواهم، خالدين فيها مخلدين، اللهم تولنا فيمن توليت.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾

يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين ما به تبين الحقائق وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام حيث حاج هذا الملك الجبار، وهو نمرود البابلى، المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاجته فى هذا الأمر الذى لا يقبل شكًا ولا إشكالاً ولا ريبًا، وهو توحيد الله وربوبيته، الذى هو أجلى الأمور وأوضحها، ولكن هذا الجبار غره ملكه وأطغاه، حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه وحاج إبراهيم الرسول العظيم، الذى أعطاه الله من العلم واليقين ما لم يعط أحدًا من الرسل، سوى محمد عليه السلام، فقال إبراهيم مناظرًا له: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: هو المنفرد بالخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مباهتًا: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وعنى بذلك أنى أقتل من أردت قتله، وأستبقى من أردت استبقاءه، ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير وحيدة عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذى تفرد بإحياء الحياة فى المعدومات وردها على الأموات، وأنه هو الذى يميت العباد والحيوانات بآجالها بأسباب ربطها وبغير أسباب، فلما رآه الخليل مموهًا تمويهًا ربما راج على الهمج الرعاع، قال إبراهيم ـ ملزمًا له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أى: وقف وانقطعت حجته واضمحلت شبهته، وليس هذا من الخليل انتقالاً من دليل إلى آخر، وإنما هو إلزام النمرود بطرد دليله إن كان صادقًا، وأتى بهذا الذى لا

يقبل الترويج والتزوير والتمويه، فجميع الأدلة السمعية والعقلية والفطرية قد قامت شاهدة بتوحيد الله، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا معاند مكابر مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد، ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء فقال:

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

هذان دليلان عظيمان محسوسان فى الدنيا قبل الآخرة على البعث والجزاء، واحد أجراه الله على يد رجل شاك فى البعث على الصحيح، كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم، كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده؛ فهذا الرجل مر على قرية قد دمرت تدميراً وخوت على عروشها، قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال ـ على وجه الشك والاستبعاد: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ أى: ذلك بعيد، وهى فى هذه الحال، يعنى: وغيرها مثلها، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة، فأراد الله رحمته ورحمة الناس حيث أماته الله مائة عام، وكان معه حمار فأماته معه، ومعه طعام وشراب فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة، فلما مضت الأعوام المائة بعثه الله فقال: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك بحسب ظنه فقال الله: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ والظاهر أن هذه المجاوبة على يد بعض الأنبياء الكرام، ومن تمام رحمة الله به وبالناس أنه أراه الآية عيانًا ليقتنع بها، فبعدما عرف أنه ميت قد أحياه الله، قيل له: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أى: لم يتغير فى هذه المدد الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله، فإن الطعام والشراب ـ خصوصًا ما ذكره المفسرون: أنه فاكهة وعصير ـ لا يلبث أن يتغير، وهذا قد حفظه الله مائة عام وقيل له: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ فإذا هو قد تمزق وتفرق، وصار عظامًا نخرة ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أى: نرفع بعضها إلى بعض، ونصل بعضها ببعض، بعدما تفرقت وتمزقت ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾ بعد الالتئام ﴿لَحْمًا﴾ ثم نعيد فيه الحياة ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ رأى عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فاعترف بقدرة الله على كل شيء وصار آية للناس، لأنهم قد عرفوا موته وموت حماره، وعرفوا قضيته، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى، هذا هو الصواب فى هذا الرجل، وأما قول كثير من المفسرين: إن هذا الرجل مؤمن، أو نبى من الأنبياء، إما عزير أو غيره، وأن قوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعنى: كيف تعمر هذه القرية بعد أن كانت خرابًا؟ وأن الله أماته ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق، وأنها عمرت فى هذه المدة، وتراجع الناس إليها وصارت عامرة، بعد أن كانت دامرة ـ فهذا لا يدل عليه اللفظ بل ينافيه ولا يدل عليه المعنى، فأى آية وبرهان برجوع البلدان الدامرة إلى العمارة، وهذه لم تزل تشاهد، تعمر قرى ومساكن وتخرب أخرى، وإنما الآية العظيمة فى إحيائه بعد موته، وإحياء حماره، وإبقاء طعامه وشرابه لم يتعفن ولم يتغير، ثم قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ صريح فى أنه لم يتبين له إلا بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عيانًا، وأما البرهان الآخر فإن إبراهيم قال طالبًا من الله، أن يريه كيف يحيى الموتى: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ليزيل الشبهة عن خليله ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿بَلَىٰ﴾ يا رب، قد آمنت أنك على كل شيء قدير وأنك

تحيي الموتى وتجازى العباد، ولكن أريد أن يطمئن قلبي وأصل إلى درجة عين اليقين، فأجاب الله دعوته، كرامة له، ورحمة بالعباد ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ ولم يبين أى الطيور هى، فالآية حاصلة بأى نوع منها، وهو المقصود ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ ضمهن واذبحهن ومزقهن ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ففعل ذلك وفرَّق أجزاءهن على الجبال التى حوله ودعاهن بأسمائهن فاقبلن إليه، أى: سريعات، لأن السعى: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات على أكمل ما يكون من الحياة، وخص الطيور بذلك لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن، وأيضًا أزال فى هذا كل وهم ربما يعرض للنفوس المبطلة، فجعلهن متعددات أربعة، ومزقهن جميعًا، وجعلهن على رءوس الجبال ليكون ذلك ظاهرًا علنًا، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نحَّاهن عنه كثيرًا، لئلا يظن أن يكون عاملا حيلة من الحيل، وأيضًا أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات، فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته، وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه وتمام عدله وفضله.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾

هذا حث عظيم من الله لعباده على إنفاق أموالهم فى سبيله، وهو طريقه للوصول إليه، فيدخل فى هذا إنفاقه فى ترقية العلوم النافعة وفى الاستعداد للجهاد فى سبيله، وفى تجهز المجاهدين وتجهيزهم، وفى جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين، ويلى ذلك الإنفاق على المحتاجين والفقراء والمساكين، وقد يجتمع الأمران فيكون فى النفقة دفع الحاجات والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان والإخلاص التام، وفى ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة ومصالح متنوعة، فكان الجزاء من جنس العمل، ثم أيضًا ذكر ثوابًا آخر للمنفقين أموالهم فى سبيله، نفقة صادرة مستوفية لشروطها، منتفية موانعها فلا يتبعون المنفق عليه منًا منهم عليه وتعدادًا للنعم وأذية له، قولية أو فعلية، فهؤلاء ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بحسب ما يعلمه منه، وبحسب نفقاتهم ونفعها، وبفضله الذى لا تناله، ولا تصل إليه صدقاتهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفى عنهم المكروه الماضى بنفى الحزن، والمستقبل بنفى الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب واندفع عنهم المكروه.

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾

ذكر الله أربع مراتب للإحسان: المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة، ولم يتبعها المنفق منًا ولا أذى، ثم يليها قول المعروف وهو: الإحسان القولى بجميع وجوهه الذى فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئًا، وغير ذلك من أقوال المعروف، والثالثة: الإحسان بالعفو والمغفرة عمن أساء إليك بقول أو فعل، وهذان أفضل من الرابعة وخير منها، وهى التى يتبعها المتصدق الأذى للمعطى، لأنه كدر إحسانه وفعل خيرًا وشرًا، فالخير المحض ـ وإن كان مفضولاً ـ خير من الخير الذى يخالطه شر، وإن كان فاضلاً، وفى هذا التحذير العظيم لمن يؤذى من تصدق عليه، كما فعله أهل اللؤم والحمق والجهل ﴿وَاللَّهُ﴾ تعالى ﴿غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عباده ﴿حَلِيمٌ﴾ مع كمال غناه وسعة عطاياه، يحلم عن العاصين ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافيهم ويرزقهم، ويدر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصى، ثم نهى أشد النهى عن المن والأذى، وضرب لذلك مثلاً فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) ﴾

ضرب الله فى هذه الآيات، ثلاثة أمثلة: للمنفق ابتغاء وجهه ولم يتبع نفقته منًا ولا أذى، ولمن أتبعها منًا وأذى، وللمرائى، فأما الأول فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: ينفقون وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق فمثل[1] هذا العمل ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ وهو المكان المرتفع، لأنه يتبين للرياح والشمس والماء فيها غزير، فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير حصل طل كاف لطيب منبتها وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها، ولهذا ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أى متضاعفًا، وهذه الجنة التى على هذا الوصف هى أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل، وأما من أنفق لله ثم أتبع نفقته منًا وأذى، أو عمل عملاً فأتى بمبطل لذلك العمل فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سلط عليها ﴿إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح الشديد ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ وله ذرية ضعفاء، وهو ضعيف قد أصابه الكبر، فهذه الحال من أفظع الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلفها دفعة واحدة بعد زهاء أشجارها، وإيناع ثمارها، مصيبة كبرى، ثم حصول هذه الفاجعة ـ وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء، لا مساعدة منهم له، ومؤنتهم عليه ـ فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل، الذى عمل لله، ثم أبطل عمله بمناف له يشبه حال صاحب الجنة التى جرى عليها ما جرى، حين اشتدت ضرورته إليها، المثل الثالث: الذى يرائى الناس وليس معه إيمان بالله ولا احتساب لثوابه حيث شبه قلبه بالصفوان، وهو: الحجر الأملس عليه تراب يظن الرائى أنه إذا أصابه المطر أنبت كما تنبت الأراضى الطيبة، ولكنه كالحجر الذى أصابه الوابل الشديد فأذهب ما عليه من التراب وتركه صلدًا، وهذا مثل مطابق لقلب المرائى الذى ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع، فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها تؤسس عليه، ولا غاية لها تنتهى إليها، بل ما عمله فهو باطل لعدم شرطه، والذى قبله بطل بعد وجود الشرط لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف لوجود شرطه الذى هو الإيمان والإخلاص والثبات، وانتفاء الموانع المفسدة، وهذه الأمثال الثلاثة تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة والأمثال المطابقة ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾

يحث البارى عباده على الإنفاق مما كسبوا فى التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض من الحبوب

(١) قوله: (فمثل ... إلخ) جواب (لما) فى قوله (فأما الأول ...) إلخ.

والثمار، وهذا يشمل زكاة النقدين، والعروض كلها المعدة للبيع والشراء، والخارج من الأرض من الحبوب والثمار، ويدخل فى عمومها الفرض والنفل، وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الدون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه لم يرتضوه، ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض، فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال: إخراج العالى، والممنوع: إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزئ عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام فى المندوب ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فهو غنى عن جميع المخلوقين، وهو الغنى عن نفقات المنفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثهم عليها لنفعهم ومحض فضله وكرمه عليهم، ومع كمال غناه وسعة عطاياه فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام، وحميد فى أفعاله التى لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها، فلما حثهم على الإنفاق النافع ونهاهم عن الإمساك الضار، بيَّن لهم أنهم بين داعيين: داعى الرحمن يدعوهم إلى الخير، ويعدهم عليه الخير والفضل والثواب العاجل والآجل، وإخلاف ما أنفقوا، وداعى الشيطان الذى يحثهم على الإمساك ويخوفهم إن أنفقوا أن يفتقروا، فمن كان مجيبًا لداعى الرحمن وأنفق مما رزقه الله فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيبًا لداعى الشيطان فإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أى الأمرين أليق به، وختم الآية بأنه ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى واسع الصفات كثير الهبات عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين وعليم بمن هو أهل فيوفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾

لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم ومنَّ عليهم بالأموال التى يدركون بها النفقات فى الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطى الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيرًا من خلقه، والحكمة هى: العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب فى الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف فى الأقوال والأفعال إلى إصابة الصواب فيها وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم واستعد لنفع الخلق أعظم نفع فى دينهم ودنياهم، وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة التى هى وضع الأشياء فى مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام فى محل الإقدام، والإحجام فى موضع الإحجام، ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وهم: أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه، وهذان الأمران، وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات، وهما اللذان ذكرهما النبى ﷺ بقوله: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الحكمة فهو يعلمها الناس».

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠) إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)﴾

يخبر تعالى أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون أو نذر الناذرون فإن الله يعلم ذلك، ومضمون الإخبار بعلمه يدل على الجزاء، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه من نيات صالحة أو

سيئة، وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم أو يقتحمون ما حرم عليهم ليس من دونهم أنصار، ينصرونهم ويمنعونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات، وأخبر أن الصدقة إن أبداها المتصدق فهى خير، وإن أخفاها وسلمها للفقير كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير إحسان آخر، وأيضًا فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «من تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» وفى قوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فائدة لطيفة وهو أن إخفاءها خير من إظهارها إذا أعطيت الفقير، فأما إذا صرفت فى مشروع خيرى لم يكن فى الآية ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع تدل على مراعاة المصلحة، فربما كان الإظهار خيرًا لحصول الأسوة والاقتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير، وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ فى هذا أن الصدقات يجتمع فيها الأمران: حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والثواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوى والأخروى بتكفير السيئات ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازى كلا بعمله بحسب حكمته.

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) ﴾

أى: إنما عليك ـ أيها الرسول ـ البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية فبيد الله تعالى، ويخبر عن المؤمنين حقًا أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم، واحتساب ثوابه، لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، فهذا خير وتزكية للمؤمنين، ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص، وكرر علمه ـ تعالى ـ بنفقاتهم لإعلامهم أنه لا يضيع عنده مثقال ذرة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) ﴾

يعنى أنه ينبغى أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء الذين حبسوا أنفسهم فى سبيل الله وعلى طاعته، وليس لهم إرادة فى الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطرارًا لم يلحفوا في السؤال، فهذا الصنف من الفقراء أفضل ما وضعت فيه النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكرًا لهم على ما اتصفوا به من الصبر والنظر إلى الخالق، لا إلى الخلق.

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) ﴾

ومع ذلك فالإنفاق فى طرق الإحسان وعلى المحاويج حيثما كانوا فإنه خير وأجر، وثواب عند الله ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الآية، فإن الله يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكريهات، وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى: كل أحد منهم بحسب حاله، وتخصيص ذلك بأنه عند ربهم يدل على شرف هذه الحال، ووقوعها فى الموقع الأكبر، كما فى الحديث الصحيح: «إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب يده فيتقبلها الجبار بيده فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم».

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾

لما ذكر الله حالة المنفقين وما لهم من الله من الخيرات، وما يكفر عنهم من الذنوب والخطيئات ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا فى الدنيا فى طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين عوقبوا فى البرزخ والقيامة بأنهم لا يقومون من قبورهم، أو يوم بعثهم ونشورهم ﴿إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أى: من الجنون والصرع، وذلك عقوبة وخزى وفضيحة لهم وجزاء لهم على مراباتهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ فجمعوا - بجراءتهم - بين ما أحل الله وبين ما حرم الله، واستباحوا بذلك الربا، ثم عرض تعالى التوبة على المرابين وغيرهم فقال: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ بيان مقرون به الوعد والوعيد ﴿فَانتَهَىٰ﴾ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ مما تجرأ عليه وتاب منه ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على توبته فالله لا يضيع أجر المحسنين ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لآكل الربا ﴿فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فى هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان، وهذا من جملة الأحكام التى تتوقف على وجود شرطها وانتفاء موانعها، وليس فيها حجة للخوارج، كغيرها من آيات الوعيد، فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن العبد، بما تواترت به النصوص من خروج من فى قلبه أدنى مثقال حبة من خردل من الإيمان من النار، ومن استحقاق هذه الموبقات لدخول النار، إن لم يتب منها، ثم أخبر تعالى أنه يمحق مكاسب المرابين، ويربى صدقات المنفقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيده، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره، فالمتجرئ على الربا يعاقبه بنقيض مقصوده، وهذا مشاهد بالتجربة، و ﴿مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ وهو الذى كفر نعمة الله، وجحد منّة ربه، وأثم بإصراره على معاصيه، ومفهوم الآية أن الله يحب من كان شكوراً على النعماء تائبًا من المآثم والذنوب، ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا، وهى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ الآية، لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما جرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصًا إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإن الزكاة إحسان إلى الخلق ينافى تعاطى الربا، الذى هو ظلم لهم وإساءة عليهم، ثم وجه الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه، ويذروا ما بقى من معاملات الربا، التى كانوا يتعاطونها قبل ذلك، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا، حيث جعل المُصرَّ عليه محاربًا لله ورسوله، ثم قال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ يعنى من المعاملات الربوية ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ﴾ الناس بأخذ الربا ﴿وَلا تُظْلَمُونَ﴾ ببخسكم رءوس أموالكم، فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملات سالفة فله ما سلف، وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملات موجودة وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة فقد

تجرأ على الربا، وفى هذه الآية بيان لحكمة تحريم الربا، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين بأخذ الزيادة وتضاعف الربا عليهم، وهو واجب إنظارهم[1]، ولهذا قال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أى: وإن كان الذى عليه الدين معسرًا، لا يقدر على الوفاء، وجب على غريمه أن ينظره إلى ميسرة، وهو[2] يجب عليه إذا حصل له وفاء بأى طريق مباح أن يوفى ما عليه، وإن تصدق عليه غريمه - بإسقاط الدين كله أو بعضه - فهو خير له، ويهون على العبد التزام الأمور الشرعية، واجتناب المعاملات الربوية، والإحسان إلى المعسرين، علمه[3] بأن له يومًا يرجع فيه إلى الله ويوفيه عمله ولا يظلمه مثقال ذرة، كما ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ثم قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾

احتوت هذه الآيات على إرشاد البارى عباده فى معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة، والإصلاحات التى لا تقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها فوائد كثيرة: منها: جواز المعاملات فى الديون، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلاً ثمنه، فكله جائز، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين فإنه من مقتضيات الإيمان، وقد أقرهم عليه الملك الديان، ومنها: وجوب تسمية الأجل فى جميع المداينات وحلول الإجارات، ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولاً فإنه لا يحل، لأنه غرر وخطر، فيدخل فى الميسر، ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون، وهذا الأمر قد يجب إذا وجب حفظ الحق، كالذى للعبد عليه ولاية، وكأموال اليتامى والأوقاف والوكلاء والأمناء، وقد يقارب الوجوب، كما إذا كان الحق متمحضًا للعبد، فقد يقوى الاستحباب بحسب الأحوال المقتضية لذلك، وعلى كل حال فالكتابة من أعظم ما تحفظ به هذه المعاملات المؤجلة لكثرة النسيان ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى، ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل، فلا يميل مع أحدهما لقرابة ولا غيرها، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها، ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال، ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما

---

(١) قوله: (وهو واجب إنظارهم) الصواب أن يقال: وإن المستدينين يجب إنظارهم إلى وقت الميسرة.

(٢) قوله: (وهو يجب ... إلخ) فى العبارة اضطراب، والأوضح أن يقال: والمدين (أى الذى عليه الدين) يجب عليه الوفاء متى حصل على مال من طريق مباح، وتحرم عليه المماطلة، فإن مطل الغنى (أى: الذى يقدر على الوفاء) ظلم يحل عرضه وعقوبته، كما ورد فى الحديث.

(٣) قوله: «علمه» فاعل لقوله المتقدم «ويهون ... إلخ».

وبراءة ذممها، كما أمره الله بذلك، فليحتسب الكاتب بين الناس هذه الأمور ليحظى بثوابها، ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفًا بالعدل، معروفًا بالعدل، لأنه إذا لم يكن عارفًا بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبرًا عدلاً عند الناس رضيًا لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلاً بها المقصود الذى هو حفظ الحقوق، ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها أن يحسن الكاتب الإنشاء والألفاظ المعتبرة، فى كل معاملة بحسبها، وللعرف فى هذا المقام اعتبار عظيم، ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد التى لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى أن يقضى بكتابته حاجات العباد، ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ ومنها: أن الذى يكتبه الكاتب هو اعتراف مَنْ عليه الحق إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذى عليه، فإن كان لا يحسن ذلك - لصغره أو سفهه أو جنونه أو خرسه أو عدم استطاعته - أملى عنه وليه، وقام وليه فى ذلك مقامه، ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق التى تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ما أملى عليه مَنْ عليه الحق، ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين، من الصغار والمجانين والسفهاء، ونحوهم، ومنها: أن الولى يقوم مقام موليه فى جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه، ومنها: أن من أمنته فى معاملة وفوضته فيها فقوله فى ذلك مقبول، وهو نائب منابك؛ لأنه إذا كان الولى على القاصرين ينوب منابهم فالذى وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر أولى بالقبول واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف، ومنها: أنه يجب على الذى عليه الحق - إذا أملى على الكاتب - أن يتقى الله ولا يبخس الحق الذى عليه فلا ينقصه فى قدره؛ ولا فى وصفه، ولا فى شرط من شروطه؛ أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق؛ كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك فهو من المطففين الباخسين، ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها، ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد فى البيع، فإن كانت فى المداينات فحكمها حكم الكتابة، كما تقدم؛ لأن الكتابة هى كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعًا حاضرًا فينبغى الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة لكثرته وحصول المشقة فيه، ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن أو تعذر أو تعسر فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات: بيوع الإدارة، وبيوع الديون وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها، وإذا قيل: قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة فيها إرشاد البارى عباده إلى حفظ حقوقهم، ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق وأقواها، وليس فيها ما ينافى ما ذكره النبى ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين، فباب حفظ الحقوق فى ابتداء الأمر يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين ينظر فيه إلى المرجحات والبينات بحسب حالها، ومنها: أن شهادة المرأتين قائمة مقام الرجل الواحد فى الحقوق الدنيوية، وأما فى الأمور الدينية - كالرواية والفتوى - فإن المرأة فيه - تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين، ومنها: الإرشاد إلى الحكمة فى كون شهادة المرأتين عن شهادة[1] الرجل، أنه لضعف ذاكرة المرأة غالبًا وقوة حافظة الرجل، ومنها: أن الشاهد لو نسى شهادته فذكره الشاهد الآخر، فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان، إذا زال بالتذكير لقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ ومن باب أولى إذا نسى الشاهد ثم ذكر من دون تذكير فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين، ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين، لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب فى شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم، ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع، إذا دعى للشهادة، سواء دعى للتحمل أو للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها، وأخبر عن نفعها ومصالحها، ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب ولا بالشهيد، بأن يدعيا فى وقت أو حالة تضرهما، وكما أنه

---

(١) قوله: (عن شهادة . . . إلخ) هكذا فى الأصل، وفى العبارة غموض كما ترى، والصواب أن يقال: (ومنها: الإرشاد إلى حكمة جعل الشارع شهادة المرأتين تقوم مقام شهادة الرجل وذلك لضعف ذاكرة المرأة غالبًا. . . . إلخ)

نهى لأهل الحقوق والمتعاملين أن يضار الشهود والكُتَّاب فإنه أيضًا نهى للكاتب والشهيد أن يضار المتعاملين أو أحدهما، وفي هذا أيضًا أن الشاهد والكاتب ـ إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة ـ أنه يسقط عنهما الوجوب، وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف لا يحل إضرارهم وتحميلهم ما لا يطيقون، فـ ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ وكذلك على من أحسن وفعل معروفًا أن يتمم إحسانه بترك الإضرار القولي والفعلي بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك، **ومنها**: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة حيث وجبت، لأنه حق أوجبه الله على الكاتب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين، **ومنها**: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول، ولهذا قال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ وهذه مصالح ضرورية للعباد، **ومنها**: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان، **ومنها**: أن من خصه الله بنعمة من النعم يحتاج الناس إليها فمن تمام شكر هذه النعمة أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة، بتذكير الكاتب بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ ومع هذا فـ «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته» **ومنها**: أن الإضرار بالشهود والكُتَّاب فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو: الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص ويتبعض، ولهذا لم يقل: «فأنتم فساق» أو «فاسقون» بل قال: ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه فإنه يحصل به من الفسوق، بحسب ذلك، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي علمًا تفرقون به بين الحقائق، والحق والباطل، **ومنها**: أنه كما من العلم النافع تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمنه أيضًا تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء، **ومنها**: مشروعية الوثيقة بالحقوق، وهي الرهون والضمانات التي تكفل للعبد حصوله على حقه سواء عامل برًا أو فاجرًا، أمينًا أو خائنًا، فكم في الوثائق من حفظ حقوق، وانقطاع منازعات، **ومنها**: أن تمام الوثيقة في الرهن أن يكون مقبوضًا، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد بكون الرهن مقبوضًا يدل على أنه قد يكون مقبوضًا تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضًا فيكون ناقصًا، **ومنها**: أنه يستدل بقوله: ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن أن القول قول المرتهن، صاحب الحق، لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلولا أنه يقبل قوله في ذلك لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود، **ومنها**: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ولا شهود، لقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال من عليه الحق أن يتقي الله ويؤدي أمانته، **ومنها**: أن من ائتمنه معامله فقد عمل معروفًا عظيمًا، ورضي بدينه وأمانته، فيتأكد على من عليه الحق أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله وامتثالاً لأمره، ووفاء بحق صاحبه الذي رضي بأمانته ووثق به، **ومنها**: تحريم كتم الشهادة، وأن كاتمها قد أثم قلبه، الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها كالشهادة بالباطل والزور، فيها ضياع الحقوق، وفساد المعاملات، والإثم المتكرر في حقه، وحق من عليه الحق، وأما تقييد الرهن بالسفر ـ مع أنه يجوز حضرًا وسفرًا ـ فللحاجة إليه لعدم الكاتب والشهيد، وختم الآية بأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل ما يعمله العباد، كالترغيب[1] لهم في المعاملات الحسنة، والترهيب من المعاملات السيئة.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾

---

(١) الصواب «للترغيب» لأن المقام تعليل.

يخبر تعالى بعموم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأواب إليه ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ ويعذب من يشاء، وهو المصر على المعاصى فى باطنه وظاهره، وهذه الآية لا تنافى الأحاديث الواردة فى العفو عما حدث به العبد نفسه ما لم يعمل أو يتكلم، فتلك الخطرات هى التى تتحدث بها النفوس التى لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهى العزائم المصممة والأوصاف الثابتة فى النفوس، أوصاف الخير وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أى: استقر فيها وثبت من العزائم والأوصاف، وأخبر أنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فمن تمام قدرته محاسبة الخلائق، وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

ثبت عنه ﷺ أن من قرأ هاتين الآيتين فى ليلته كفتاه، أى: من جميع الشرور، وذلك لما احتوتا عليه من المعانى الجليلة، فإن الله أمر فى أول هذه السورة الناس بالإيمان بجميع أصوله فى قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية، وأخبر فى هذه الآية أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين آمنوا بهذه الأصول العظيمة، وبجميع الرسل، وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض وكفر ببعض، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة، وفى قرن المؤمنين بالرسول ﷺ والإخبار عنهم جميعًا بخبر واحد شرف عظيم للمؤمنين، وفيه أنه ﷺ مشارك للأمة فى الخطاب الشرعي له وقيامه التام به، وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين فى القيام بالإيمان وحقوقه، وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ هذا التزام من المؤمنين عام لجميع ما جاء به النبى ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد، ومضمون ذلك تضرعهم إلى الله فى طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات، وما ارتكبوه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله فى هذه الأدعية النافعة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «قد فعلت» فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعًا، ومن أفرادهم، إذا لم يمنع من ذلك مانع فى الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذة فى الخطأ والنسيان، وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحملهم من المشاق والآصار والأغلال ما حمله على من قبلهم، ولم يحملهم فوق طاقتهم، وقد غفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين.

فنسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته وبما مَنَّ به علينا من التزام دينه أن يحقق لنا ذلك، وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هنا قاعدة التيسير، ونفى الحرج فى أمور الدين كلها، وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ فى العبادات، وفى حقوق الله تعالى، وكذلك فى حقوق الخلق من جهة رفع المأثم وتوجه الذم، وأما وجوب ضمان المتلفات، خطأ أو نسيانًا، فى النفوس والأموال، فإنه مرتب على الإتلاف بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان والعمد.

تم تفسير سورة البقرة، ولله الحمد والثناء
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

تفسير سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

﴿الٓمٓ﴾ من الحروف التى لا يعلم معناها إلا الله، فأخبر تعالى أنه ﴿الْحَيُّ﴾ كامل الحياة ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم بنفسه، المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق، الذى لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب، أى: شهد بما شهدت به، ووافقها، وصدق من جاء بها من المرسلين، وكذلك ﴿أَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ﴾ هذا الكتاب ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ، وكتابه العظيم الذى هدى الله به الخلق من الضلالات، واستنقذهم به من الجهالات، وفرّق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واهتدوا حصل لهم به الخير الكثير، والثواب العاجل، و ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التى بيَّنها فى كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ممن عصاه، ومن تمام قيوميته تعالى أن علمه محيط بالخلائق ﴿لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ حتى ما فى بطون الحوامل، فهو ﴿الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من ذكر وأنثى، وكامل الخلق وناقصه، متنقلين فى أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم، لا مشارك له فى ذلك - فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو ﴿لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص أو ينعت بذم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى خلقه وشرعه.

﴿ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وكمال قيوميته أنه هو الذى تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم الذى لم يوجد - ولن يوجد - له نظير أو مقارب فى هدايته وبلاغته وإعجازه، وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوى على المحكم الواضح المعانى البيِّن الذى لا يشتبه بغيره، ومنه آيات متشابهات تحتمل بعض المعانى ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردها حتى تضم إلى المحكم، فالذين فى قلوبهم مرض وزيغ وانحراف لسوء قصدهم يتبعون المتشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة وآرائهم الزائفة طلبًا للفتنة، وتحريفًا لكتابه وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا، وأما أهل العلم الراسخون فيه الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم فأثمر لهم العمل والمعارف - فيعلمون أن القرآن كله من عند الله وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف، فلعلمهم أن المحكمات معناها فى غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه الذى تحصل فيه الحيرة لناقص العلم، وناقص المعرفة، فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكمًا، ويقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ

كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ للأمور النافعة، والعلوم الصائبة ﴿إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ أى: أهل العقول الرزينة، ففى هذا دليل على أن هذا من علامة أولى الألباب، وأن اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة والعقول الواهية، والقصود السيئة، وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور وما تنتهى وتؤول إليه تعين الوقوف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وأن أريد بالتأويل معنى التفسير ومعرفة معنى الكلام كان العطف أولى فيكون هذا مدحًا للراسخين فى العلم أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة، محكمها ومتشابهها، ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أى: لا تملها عن الحق إلى الباطل ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تصلح بها أحوالنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ أى: كثير الفضل والهبات، وهذه الآية تصلح مثالاً للطريقة التى يتعين سلوكها فى المتشابهات، وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم، وقد أخبر فى آيات أخر عن الأسباب التى بها تزيغ قلوب أهل الانحراف وأن ذلك بسبب كسبهم كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فالعبد إذا تولى عن ربه ووالى عدوه ورأى الحق فصد عنه، ورأى الباطل فاختاره ولاه الله ما تولى لنفسه وأزاغ قلبه عقوبة له على زيغه وما ظلمه الله ولكنه ظلم نفسه فلا يلم إلا نفسه الأمارة بالسوء، والله أعلم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

هذا من تتمة كلام الراسخين فى العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعد به، وذلك يستلزم موجبه ومقتضاه من العمل والاستعداد لذلك اليوم، فإن الإيمان بالبعث والجزاء أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة فى الخير والرهبة من الشر، اللذين هما أساس الخيرات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

لما ذكر يوم القيامة ذكر أن جميع من كفر بالله وكذب رسل الله لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها، وأن أموالهم وأولادهم لن تغنى عنهم شيئًا من عذاب الله، وأنه سيجرى عليهم فى الدنيا من الأخذات والعقوبات ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وعجل لهم العقوبات الدنيوية متصلة بالعقوبات الأخروية ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فإياكم أن تستهينوا بعقابه فيهون عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

وهذا خبر وبشرى للمؤمنين وتخويف للكافرين أنهم لا بد أن يغلبوا فى هذه الدنيا، وقد وقع كما أخبر الله، فغلبوا غلبة لم يكن لها مثيل ولا نظير، وجعل الله تعالى ما وقع فى «بدر» من آياته الدالة على صدق رسوله وأنه على الحق وأعداءه على الباطل، حيث التقت فئتان: فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، مع قلة عددهم، وفئة الكافرين يناهزون الألف، مع استعدادهم التام فى السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره فهزموهم بإذن الله، ففى هذا عبرة لأهل البصائر، فلولا أن هذا هو الحق الذى إذا قابل الباطل أزهقه واضمحل الباطل لكان ـ بحسب الأسباب الحسية ـ الأمر بالعكس.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾

أخبر تعالى فى هاتين الآيتين عن حالة الناس، فى إيثار الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم، والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس زينت لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار، واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع، قد جعلوها هى أكبر همهم ومبلغ علمهم، وهى، مع هذا، متاع قليل منقض فى مدة يسيرة، فهذا ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله، القائمين بعبوديته، لهم خير من هذه اللذات، فلهم أصناف الخيرات والنعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله الذى هو أكبر من كل شىء، ولهم الأزواج المطهرة من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق كاملات الخلائق، لأن النفى يستلزم ضده، فتطهيرها عن الآفات مستلزم لوصفها بالكمالات ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فييسر كلا منهم لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرهم لعمل لتلك الدار الباقية، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا ما يعينهم على عبادة الله وطاعته، وأما أهل الشقاوة والإعراض فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة ويرضون بالحياة الدنيا ويطمئنون بها، ويتخذونها قرارًا.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾

أى: هؤلاء الراسخون فى العلم أهل العلم والإيمان يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم لمغفرة ذنوبهم، ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التى يحبها الله أن يتوسل العبد إلى ربه، بما مَنَّ به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم الله عليه بحصول الثواب الكامل واندفاع العقاب، ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذى هو حبس النفوس على ما يحبه الله، طلبًا لمرضاته، يصبرون على طاعة الله، ويصبرون عن معاصيه، ويصبرون على أقداره المؤلمة، وبالصدق بالأقوال والأحوال، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم، وبالقنوت الذى هو دوام الطاعة، مع مصاحبة الخشوع والخضوع، وبالنفقات فى سبل الخيرات وعلى الفقراء وأهل الحاجات، وبالاستغفار، خصوصًا وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾

هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم ومن الملائكة وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع، وجميع أحكام الجزاء، فإن الشرع والدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبودية، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والقدرة، والجلال ونعوت الجود، والبر والرحمة والإحسان والجمال، وبكماله المطلق الذى لا يحصى أحد من الخلق أن يحيطوا بشىء منه أو يبلغوه أو يصلوا إلى الثناء عليه، والعبادات الشرعية، والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهى، كله عدل وقسط، لا ظلم فيه ولا جور، بوجه من الوجوه، بل هو فى غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة كله قسط وعدل ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ فتوحيد الله ودينه وجزاؤه قد ثبت ثبوتًا لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده، وفى هذه الآية فضيلة العلم والعلماء، لأن الله خصهم بالذكر، من دون البشر، وقرن شهادتهم

بشهادته وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة، وفى ضمن ذلك تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفى هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقدر قدره.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ﴾ أى: الدين الذى لا دين سواه ولا مقبول غيره هو ﴿الإِسْلامُ﴾ وهو: الانقياد لله وحده، ظاهراً وباطنًا، بما شرعه على ألسنة رسله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فمن دان بغير دين الإسلام فهو لم يدن لله حقيقة، لأنه لم يسلك الطريق الذى شرعه على ألسنة رسله، ثم أخبر تعالى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا فانحرفوا عنه عناداً وبغيًا، وإلا فقد جاءهم العلم المقتضى لعدم الاختلاف الموجب للزوم الدين الحقيقى، ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغى والكفر بآيات الله هى التى صدتهم عن اتباع الحق ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى: فلينتظروا ذلك فإنه آت، وسيجزيهم الله بما كانوا يعملون.

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾

لما بيَّن أن الدين الحقيقى عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد شافهوا النبى ﷺ بالمجادلة وقامت عليهم الحجة فعاندوها، أمره الله تعالى عند ذلك، أن يقول ويعلن أنه أسلم وجهه ـ أى: ظاهره وباطنه ـ لله، وأن من اتبعه كذلك قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص، وأن يقول للناس كلهم، من أهل الكتاب والأميين أى: الذين ليس لهم كتاب، من العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس علىَّ إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

أى: الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله وتكذيب رسل الله والجناية العظيمة على أعظم الخلق حقًا على الخلق، وهم الرسل وأئمة الهدى الذين يأمرون الناس بالقسط الذى اتفقت عليه الأديان والعقول، فهؤلاء قد ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ واستحقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله، ولا منقذ من عقوبته.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

أى: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ و ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الذى يصدق ما أنزله على رسله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن اتباع الحق، فكأنه قيل: أى داع دعاهم

إلى هذا الإعراض، وهم أحق بالاتباع، وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ؟ فذكر لذلك سببين: أمنهم، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لا تمسهم إلا أيامًا معدودة حددوها بحسب أهوائهم الفاسدة، كأن تدبير الملك راجع إليهم، حيث قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ ومن المعلوم أن هذه أمانى باطلة شرعًا وعقلاً، والسبب الثانى: أنهم لما كذبوا بآيات الله وافتروا عليه زين لهم الشيطان سوء عملهم واغتروا بذلك، وتراءى لهم أنه الحق، عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق، فهؤلاء كيف يكون حالهم[1] - إذا جمعهم الله يوم القيامة ووفى العاملين ما عملوا وجرى عدل الله فى عباده، فهنالك لا تسأل عما يصلون إليه من العقاب، وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

يأمر تعالى نبيه ﷺ - أصلاً، وغيره تبعًا - أن يقول عن ربه معلنًا بتفرده بتصريف الأمور وتدبير العالم العلوى والسفلى واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق والتصريف المحكم، وأنه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، فليس الأمر بأمانى أهل الكتاب ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله، والتدبير له، فليس له معارض فى تدبيره، ولا معاون فى تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس فهو المتصرف بنفس الزمان، وقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ أى: الخير كله منك، ولا يأتى بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر فإنه لا يضاف إلى الله تعالى، لا وصفًا ولا اسمًا ولا فعلاً، ولكنه يدخل فى مفعولاته، ويندرج فى قضائه وقدره، فالخير والشر كله داخل فى القضاء والقدر، فلا يقع فى ملكه إلا ما شاءه، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال: «بيدك الخير والشر» بل يقال: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ كما قاله الله وقاله رسوله، أما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله» فإنه وهم محض ملحظهم، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر ينافى قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ﴾ أى: يدخل هذا على هذا، ويحل هذا محل هذا، ويزيد فى هذا ما ينقص من هذا، ليقيم بذلك مصالح خلقه ﴿وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها، والمؤمن من الكافر، والميت من الحى، كما يخرج الحبوب والنوى، والزروع من الأشجار، والبيضة من الطائر، فهو الذى يخرج المتضادات بعضها من بعض، وقد انقادت له جميع العناصر، وقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قد ذكر الله فى غير هذه الآية الأسباب التى ينال بها رزقه كقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق إلا من الله ويسعوا فيه بالأسباب التى يسرها الله وأباحها.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

هذا نهى من الله، وتحذير للمؤمنين، أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والله وليهم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ التولى ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أى: فهو برىء من الله، والله برىء منه كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى: إلا أن تخافوا على أنفسكم فى إبداء العداوة للكافرين، فلكم - فى هذه الحال - الرخصة فى المسالمة والمهادنة، لا فى التولى الذى هو

---

(١) قوله: (فهؤلاء كيف يكون حالهم ... إلخ) الاستفهام - هنا - للتهويل وحذف خبر (يكون) ليدل على شدة ما يكونون عليه من الندم، الذى لا يبلغ الوصف مداه.

محبة القلب، الذى تتبعه النصرة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أى: فخافوه واخشوه، وقدموا خشيته على خشية الناس، فإنه هو الذى يتولى شئون العباد وقد أخذ بنواصيهم وإليه يرجعون وسيصيرون إليه فيجازى من قدم حقوقه ورجاءه على غيره بالثواب الجزيل، ويعاقب الكافرين ومن تولاهم بالعذاب الوبيل.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)﴾

يخبر تعالى بإحاطة علمه بما فى الصدور، سواء أخفاه العباد أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شىء، فى السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية، ومع إحاطة علمه، فهو العظيم القدير على كل شىء الذى لا يمتنع عن إرادته موجود، ولما ذكر لهم من عظمته وسعة أوصافه ما يوجب للعباد أن يراقبوه فى كل أحوالهم، ذكر لهم أيضًا داعيًا آخر إلى مراقبته وتقواه، وهو أنهم كلهم صائرون إليه، وأعمالهم - حينئذ من خير وشر - محضرة، فحينئذ يغتبط أهل الخير بما قدموا لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً ويودون أن بينهم وبينه أمدًا بعيدًا، فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه وكادح فى هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاقى ربه ويلاقى سعيه، أوجب له أخذ الحذر والتوقى من الأعمال التى توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة التى توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وذلك بما يبدى لكم من أوصاف عظمته وكمال عدله وشدة نكاله، ومع شدة عقابه، فإنه رءوف رحيم، ومن رأفته ورحمته أنه خوف العباد، وزجرهم عن الغى والفساد، كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ فرأفته ورحمته سهلت لهم الطرق التى ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته حذرتهم من الطرق التى تفضى بهم إلى المكروهات، فنسأله تعالى أن يتمم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق التى تفضى بسالكها إلى الجحيم.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾

هذه الآية هى الميزان التى يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلامة محبة الله اتباع محمد ﷺ، الذى جعل متابعته، وجميع ما يدعو إليه طريقًا إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فمن فعل ذلك أحبه الله، وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه، وستر عليه عيوبه، فكأنه قيل: ومع ذلك، فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها؟ فأجاب بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بامتثال الأمر واجتناب النهى وتصديق الخبر ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن ذلك فهذا هو الكفر والله ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

لله تعالى من عباده أصفياء، يصطفيهم ويختارهم، ويمن عليهم بالفضائل العالية، والنعوت السامية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار وما احتوت عليه من كملة الرجال الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير تسلسل فى ذراريهم وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا من أجل منته وأفضل مواقع جوده وكرمه ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل فيضع فضله حيث اقتضت حكمته، فلما قرر عظمة هذه البيوت ذكر قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة، وكيف تنقلت بهما الأحوال، من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران قالت ـ متضرعة إلى ربها متقربة إليه بهذه القربة التى يحبها، التى فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أى: خادمًا لبيت العبادة المشحون بالمتعبدين ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ هذا العمل أى: اجعله مؤسسًا على الإيمان والإخلاص مثمرًا للخير والثواب ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ كان فى هذا الكلام نوع تضرع منها، وانكسار نفس حيث كان نذرها بناء على أنه يكون ذكرًا، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك، ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجبر الله قلبها وتقبل الله نذرها، وصارت هذه الأنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أى: ربيت تربية عجيبة، دينية أخلاقية أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر الله لها

زكريا كافلاً، وهذا من منة الله على العبد أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين، ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلا كد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به، إذ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ وهو محل العبادة، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ هنيئًا معدًا ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فلما رأى زكريا هذه الحال، والبر واللطف من الله بها، ذكَّره أن يسأل الله تعالى حصول الولد على حين اليأس منه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: الكلمة التي من الله «عيسى ابن مريم» فكانت بشارته بهذا النبي الكريم تتضمن البشارة بـ «عيسى» ابن مريم والتصديق له والشهادة له بالرسالة، فهذه الكلمة من الله كلمة شريفة، اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ أي: هذا المُبشَّر به، وهو يحيى، سيد من فضلاء الرسل وكرامهم، والحصور قيل: هو الذي لا يولد له، ولا شهوة له في النساء، وقيل: هو الذي عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ فهذان مانعان، فمن أي طريق يا رب يحصل لي ذلك، مع ما ينافي ذلك؟! ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ فإنه ـ كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة ـ فإنه قد يخرق ذلك، لأنه الفعال لما يريد، الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاصى على قدرته شيء من الأسباب، ولو بلغت في القوة ما بلغت ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ ليحصل السرور والاستبشار، وإن كنتُ ـ يا رب ـ متيقنًا ما أخبرتني به، ولكن النفس تفرح ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللطف ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَ﴾ في هذه المدة ﴿اذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أول النهار وآخره، فمنع من الكلام في هذه المدة، فكان في هذا مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير والمرأة العاقر، وكونه لا يقدر على مخاطبة الآدميين ولسانه منطلق بذكر الله وتسبيحه آية أخرى، فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار، وشكر الله وأكثر من الذكر والتسبيح بالعشايا والإبكار، وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران على زكريا، فإن ما مَنَّ الله به عليها من ذلك الرزق الهني الذي يحصل بغير حساب ذكره وهيجه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب ولكنه يقدر أمورًا محبوبة على يد من يحبه ليرفع الله قدره ويعظم أجره، ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم وأنها بلغت في العبادة والكمال مبلغًا عظيمًا فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي: اختارك، ووهب لك من الصفات الجليلة والأخلاق الجميلة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الأخلاق الرذيلة ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ولهذا قال ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك لتغتبط بنعم الله وتشكر الله وتقوم بحقوقه وتشتغل بخدمته، ولهذا قالت الملائكة: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي أكثري من الطاعة والخضوع والخشوع لربك، وأديمي ذلك ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلي مع المصلين، فقامت بكل ما أمرت به، وبرزت وفاقت في كمالها، ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بها مفصلة محققة، لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم، لا بتعلم من الناس ـ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ حيث جاءت بها أمها، فاختصموا أيهم يكفلها، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها، فألقوا أقلامهم مقترعين، فأصابت القرعة زكريا، رحمة من الله به وبها، فأنت ـ يأيها الرسول ـ لم تحضر تلك الحالة لتعرفها فتقصها على الناس، وإنما الله نبأك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة، وأعظم العبر الاستدلال بها على التوحيد والرسالة

والبعث وغيرها من الأصول الكبار ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أى: له الوجاهة والجاه العظيم فى الدنيا والآخرة عند الخلق، ومع ذلك فهو - عند الله - من المقربين الذين هم أقرب الخلائق إلى الله وأعلاهم درجة، وهذه بشارة لا يشبهها شىء من البشارات، ومن تمام هذه البشارة أنه ﴿يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ فيكون تكليمه آية من آيات الله ورحمة منه بأمه وبالخلق ﴿و﴾ كذلك يكلمهم ﴿كَهْلًا﴾ أى: فى حال كهولته، وهذا تكليم النبوة والدعوة والإرشاد، فكلامه فى المهد فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته، وبراءة أمه مما يُظن بها من الظنون السيئة، وكلامه فى كهولته فيه نفعه العظيم للخلق، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم فى وحيه، وتبليغ دينه وشرعه ومع ذلك فهو ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبه، وألسنتهم بالثناء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ وهذا من الأمور المستغربة ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ليعلم العباد أنه على كل شىء قدير، وأنه لا ممانع لإرادته ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ أى: جنس الكتب السابقة والحكم بين الناس، ويعطيه النبوة ﴿و﴾ يجعله ﴿رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ويؤيده بالآيات البينات والأدلة القاهرة حيث قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدلكم أنى رسول الله حقًا، وكذلك ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ وهو ممسوح العينين الذى فقد بصره وعينيه ﴿وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ فأيده الله بجنسين من الآيات والبراهين والخوارق المستغربة التى لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة والدين الذى جاء به وأنه دين التوراة، ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين، فإنه لو كان من الكاذبين لخالف ما جاء به الرسل، ولناقضهم فى أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه، وأيضًا فقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أى: لأخفف عنكم بعض الآصار والأغلال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل، عبادة الله وحده لا شريك له وطاعتهم، وهذا هو الصراط المستقيم الذى من يسلكه أوصله إلى جنات النعيم، فحينئذ اختلفت أحزاب بنى إسرائيل في عيسى، فمنهم من آمن به واتبعه، ومنهم من كفر به وكذبه، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ والاتفاق على رد دعوته ﴿قَالَ﴾: نادبًا لبني إسرائيل على مؤازرته ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ أى: الأنصار ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وهذا من منة الله عليهم وعلى عيسى، حيث ألهم هؤلاء الحواريين الإيمان به، والانقياد لطاعته، والنصرة لرسوله ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وهذا التزام تام للإيمان، بكل ما أنزل الله، ولطاعة رسوله ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة ولدينك بالحق والصدق ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ وهم جمهور بنى إسرائيل، فإنهم ﴿مَكَرُوا﴾ بعيسى ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ بهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ فاتفقوا على قتله وصلبه، وشبه لهم عيسى فقبضوا على من شبه لهم به وقال الله لعيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فرفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وصلبوا من قتلوه، ظانين أنه عيسى، وباءوا بالإثم العظيم، وسينزل عيسى ابن مريم، فى آخر هذه الأمة حكمًا عدلاً، يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويتبع ما جاء به محمد ﷺ، ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مغرورون مخدوعون، وقوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ المراد بمن اتبعه: الطائفة التى آمنت به ونصرهم الله على من انحرف عن دينه، ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ فكانوا هم أتباعه حقًا، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذى جاءهم به محمد ﷺ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، ولكن حكمة الله عادلة فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين نصره الله النصر المبين، وأن من ترك أمره ونهيه ونبذ شرعه وتجرأ على معاصيه، أن يعاقبه ويسلط عليه الأعداء ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ثم بيّن ما يفعله بهم فقال:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

وهذا الجزاء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف، من جميع أهل الأديان السابقة، ثم لما بعث سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ونسخت رسالته الرسالات كلها، ونسخ دينه جميع الأديان، صار المتمسك بغير هذا الدين من الهالكين، وقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

أى: هذا القرآن العظيم، الذى فيه نبأ الأولين والآخرين، والأنبياء والمرسلين ـ هو آيات الله البينات، وهو الذى يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم، صادق الأخبار، حسن الأحكام.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأهما الحق وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئا من الإلهية فقد كذب على الله، وكذب جميع أنبيائه، وكذب عيسى عليه السلام، فإن الشبهة التى عرضت لمن اتخذه إلهًا شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح لكان آدم أحق منه، فإنه خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك فاتفق البشر كلهم على أنه عبد من عباد الله، فدعوى إلهية عيسى، بكونه خلق من أم بلا أب، دعوى من أبطل الدعاوى، وهذا هو الحق الذى لا ريب فيه، أن عيسى ـ كما قال عن نفسه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وكان قد قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران، وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبى صلى الله عليه وسلم البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله، حيث زعموا إلهيته، فوصلت به وبهم الحال إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد اتضح لهم الحق، ولكن العناد والتعصب منعاهم منه، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين، فتشاوروا، هل يجيبونه إلى ذلك؟ فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه، لأنهم عرفوا أنه نبى الله حقًا، وأنهم ـ إن باهلوه ـ هلكوا هم وأولادهم وأهلوهم، فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه الموادعة والمهادنة، فأجابهم صلى الله عليه وسلم ولم يحرجهم، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباهلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

فإن أعرضوا عن الحق بعدما تبين لهم، ولم يرجعوا عن ضلالاتهم، فهم المفسدون، والله عليم بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أى: الذى لا ريب فيه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات، وأذعن له سكان الأرض والسموات، ومع ذلك فهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

هذه الآية الكريمة كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحيانًا في الركعة الأولى من سنة الفجر ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية، ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية، المبنى على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئًا من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية، فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا، و ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخرها.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

كانت الأديان كلها، اليهود والنصارى، والمشركون، وكذلك المسلمون كلهم، يدَّعون أنهم على ملة إبراهيم، فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به محمد ﷺ وأتباعه، وأتباع الخليل قبل محمد ﷺ، وأما اليهود والنصارى والمشركون فإبراهيم برىء منهم، ومن ولايتهم، لأن دينه الحنيفية السمحة، التي فيها الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين، وأما دعوى اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم فقد علم أن اليهودية والنصرانية التي هم يدعون أنهم عليها لم تؤسس إلا بعد الخليل، فكيف يُحاجُّون في هذا الأمر، الذي يعلم به كذبهم وافتراؤهم؟! فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم، فكيف يحاجون في هذه الحالة؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان، يعلم فساد دعواهم، وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به، وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكلما قوى إيمان العبد تولاه الله بلطفه، ويسَّره لليسرى، وجنَّبه العسرى.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

هذا من منة الله على هذه الأمة حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب، وأنهم - من حرصهم على إضلال المؤمنين - ينوعون المنكرات الخبيثة، فقالت طائفة منهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ أي: أوله، وارجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم - إذا رأوكم راجعين، وهم يعتقدون فيكم العلم - استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم ولا يوافق الكتب السابقة لم يرجعوا، هذا مكرهم، والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي بيده الفضل، يختص به من يشاء، فخصكم - يا هذه الأمة - بما لم يخص به غيركم، ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق، إذا وصلت حقيقته إلى القلوب لم يزدد صاحبه - على طول المدى - إلا إيمانًا ويقينًا، ولم تزده الشبه إلا تمسكًا بدينه، وحمداً لله، وثناء عليه حيث منَّ به عليه،

وقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يعنى: أن الذى حملهم على هذه الأعمال المنكرة الحسد والبغى، وخشية الاحتجاج عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ الآية.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

يخبر تعالى عن أهل الكتاب أن منهم طائفة أمناء، بحيث لو أمنته على قناطير من النقود، وهى المال الكثير، يؤده إليك، ومنهم طائفة خونة يخونك فى أقل القليل، ومع هذه الخيانة الشنيعة فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أى: ليس علينا جناح إذا خناهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن عليهم أشد الحرج، فجمعوا بين الخيانة، وبين احتقار العرب، وبين الكذب على الله، وهم يعلمون ذلك، ليسوا كمن فعل ذلك جهلاً وضلالاً، ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أى: ليس الأمر كما قالوا، فإنه ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾ أى: قام بحقوق الله وحقوق خلقه فإن هذا هو المتقى، والله يحبه، أى: ومن كان بخلاف ذلك فلم يف بعهده وعقوده التى بينه وبين الخلق، ولا قام بتقوى الله فإن الله يمقته، وسيجازيه على ذلك أعظم النكال.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

أى: إن الذين يشترون الدنيا بالدين فيختارون الحطام القليل من الدنيا، ويتوسلون إليها بالأيمان الكاذبة، والعهود المنكوثة فهؤلاء ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: قد حق عليهم سخط الله ووجب عليهم عقابه، وحُرموا ثوابه، ومُنعوا من التزكية، وهى: التطهير، بل يردون القيامة وهم متلوثون بالجرائم، متدنسون بالذنوب العظائم.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

أى: وإن من أهل الكتاب فريقًا، هم محرفون لكتاب الله ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهذا يشمل التحريف اللفظى والتحريف المعنوى، ثم هم - مع هذا التحريف الشنيع - يوهمون أنه من الكتاب، وهم كذبة فى ذلك، ويصرحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم، وسوء مغبتهم.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أى: يمتنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر منَّ الله عليه بالوحى والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعى، أن يأمر الناس بعبادته وبعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أربابًا، لأن هذا هو الكفر، فكيف وقد بعث بالإسلام المنافى للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده؟!! هذا من الممتنع، لأن حاله وما هو عليه، وما منَّ الله به عليه من الفضائل والخصائص تقتضى العبودية الكاملة، والخضوع التام لله الواحد القهار، وهذا جواب لوفد نجران،

حين تمادى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر أن قالوا: أتأمرنا ـ يا محمد ـ أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فبيَّن البارى انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم فى هذا ظاهر البطلان.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم بسبب ما أعطاهم ومنَّ به عليهم من الكتاب والحكمة، المقتضى للقيام التام بحق الله وتوفيته أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط، والأصول التى اتفقت عليها الشرائع، أنهم يؤمنون به وينصرونه، فأقروا على ذلك واعترفوا والتزموا، وأشهدهم وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق، وهذا أمر عام بين الأنبياء، أن جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم قد اتفقوا وتعاقدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق بالإيمان، والنصرة لمحمد ﷺ، فمن ادعى أنه من أتباعهم فهذا دينهم الذى أخذه الله عليهم، وأقروا به واعترفوا، فمن تولى عن اتباع محمد ممن يزعم أنه من أتباعهم فإنه فاسق خارج عن طاعة الله، مكذب للرسول الذى يزعم أنه من أتباعه، مخالف لطريقه، وفى هذا إقامة الحجة والبرهان على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلهم الذين يزعمون أنهم أتباعهم، حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قد تقدم فى سورة البقرة أن هذه الأصول التى هى أصول الإيمان التى أمر الله بها هذه الأمة، قد اتفقت عليها الكتب والرسل، وأنها هى الغرض الموجه لكل أحد، وأنها هى الدين والإسلام الحقيقى، وأن من ابتغى غيرها فعمله مردود، وليس له دين يعول عليه، فمن زهد عنه ورغب عنه فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران؟ أو إلى اتخاذ الأحبار والرهبان والصلبان؟ أو إلى التعطيل لرب العالمين؟ أو إلى الأديان الباطلة التى هى من وحى الشيطان؟ وهؤلاء كلهم ـ فى الآخرة ـ من الخاسرين.

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

يعنى: أنه يبعد كل البعد أن يهدى الله قومًا عرفوا الإيمان ودخلوا فيه، وشهدوا أن الرسول حق، ثم ارتدوا

على أعقابهم ناكصين ناكثين، لأنهم عرفوا الحق فرفضوه، ولأن مَنْ هذه الحالة وصفه فإن الله يعاقبه بالانتكاس وانقلاب القلب جزاء له، إذ عرف الحق فتركه، والباطل فآثره، فولاه الله ما تولى لنفسه، فهؤلاء ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ خالدين فى اللعنة والعذاب ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ إذا جاءهم أمر الله لأن الله عمَّرهم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءهم النذير، ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد التائبين من كفرهم وذنوبهم، المصلحين لعيوبهم، فإن الله يغفر لهم ما قدموه، ويعفو عنهم ما أسلفوه، ولكن من كفر وأصر على كفره ولم يزدد إلا كفرًا حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى، السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب لو بذلوا ملء الأرض ذهبًا ليفتدوا به، لم ينفعهم شيئًا، فعياذًا بالله من الكفر وفروعه.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

يعنى: لن تنالوا وتدركوا البر، الذى هو: اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة حتى تنفقوا مما تحبون، من أطيب أموالكم وأزكاها، فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورقتها، ومن أول الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التى جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن آثر محبة الله على محبة نفسه فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات وأحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه ووفقه أعمالاً وأخلاقًا، لا تحصل بدون هذه الحالة، وأيضًا فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة من طريق الأولى والأحرى، ومع أن النفقة من الطيبات هى أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة، من طيب أو غيره، فإن الله به عليم، وسيجزى كل منفق بحسب عمله، سيجزيه فى الدنيا بالخلف العاجل، وفى الآخرة بالنعيم الآجل.

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

من جملة الأمور التى قدح فيها اليهود بنبوة عيسى ومحمد، صلى الله عليهما وسلم، أنهم زعموا أن النسخ باطل وأنه لا يمكن أن يأتى نبى يخالف النبى الذى قبله، فكذَّبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام قبل نزول التوراة كان حلالاً لبنى إسرائيل، إلا أشياء يسيرة حرمها إسرائيل، وهو: يعقوب، عليه السلام، على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه، ثم إن التوراة فيها من التحريمات التى نسخت ما كان حلالاً قبل ذلك شىء كثير، قل لهم، إن أنكروا ذلك: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم، وهذا من أبلغ الحجج أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للحق فهو الواجب، وإن أبى ولم ينقد بعد هذا البيان تبين كذبه وافتراؤه وظلمه وبطلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود.

﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

أى: قل: صدق الله فى كل ما قاله، ومن أصدق من الله قيلاً وحديثًا، وقد بيَّن فى هذه الآيات من الأدلة على صحة رسالة محمد ﷺ وبراهين دعوته وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب، الذين كذبوا رسوله وردوا دعوته، فقد صدق الله فى ذلك، وأقنع عباده على ذلك ببراهين وحجج تتصدع لها الجبال، وتخضع لها الرجال، فتعين عند ذلك على الناس كلهم اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل

رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله، والإعراض[1] عن الأديان الباطلة المنحرفة فإن إبراهيم كان معرضًا عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئا من الشرك وأهله.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام وأنه أول البيوت التى وضعها الله فى الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوع المصالح والمنافع للعالمين شيء كثير، وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات تذكر بمقامات إبراهيم الخليل، وتنقلاته فى الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم، وفيه الحرم الذى من دخله كان آمنًا قدرًا، مؤمنًا شرعًا ودينًا، فلما احتوى على هذه الأمور التى هذه مجملاتها، وتكثر تفصيلاتها أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً، وهو الذى يقدر على الوصول إليه بأى مركوب يناسبه، وزاد يتزدوه، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذى يمكن تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة والتى ستحدث، وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها، فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر فلم يلتزم حج بيته فهو خارج عن الدين ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

لما أقام، فيما تقدم، الحجج على أهل الكتاب ـ فمع أنهم قبل ذلك يعرفون النبى ﷺ كما يعرفون أبناءهم ـ وبَّخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله، وصدهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

لما أقام الحجج على أهل الكتاب ووبَّخهم بكفرهم وعنادهم حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبيَّن لهم أن هذا الفريق منهم حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان، ولكن، ولله الحمد، أنتم، يا معشر المؤمنين ـ بعدما منَّ الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه، ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذى أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله، الذى هو دينه، يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذى بنى على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار، تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجلِّ غاية وأفضل مطلوب ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ أى: يتوكل عليه، ويحتمى بحماه ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهذا فيه الحث على الاعتصام به وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

---

(١) قوله: (الإعراض) معطوف على قول المتقدم (اتباع).

هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين، أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة، بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته وترك معصيته، مخلصين له بذلك، وأن يقيموا دينهم، ويستمسكوا بحبله الذى أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه، وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات، وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة، وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين فجمعهم بهذا الدين، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخوانًا، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتميم هذه الحالة، والسبب الأقوى الذى يتمكنون به من إقامة دينهم بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهو الدين، أصوله وفروعه وشرائعه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما عرف حسنه شرعًا وعقلاً ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو ما عرف قبحه شرعًا وعقلاً ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المدركون لكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب، ويدخل فى هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس، عمومًا وخصوصًا، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات، فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة فإنه داخل فى هذه الآية الكريمة، ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين، الذين جاءهم الدين والبينات الموجب لقيامهم به واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعًا، ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال، وإنما عن علم وقصد سيئ، وبغى من بعضهم على بعض، ولهذا قال: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ثم بين متى يكون هذا العذاب العظيم، ويمسهم هذا العذاب الأليم فقال:

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) ﴾

يخبر تعالى بتفاوت الخلق يوم القيامة فى السعادة والشقاوة، وأنه تبيض وجوه أهل السعادة الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى يدخلهم الجنات ويفيض عليهم أنواع الكرامات، وهم فيها خالدون، وتسود وجوه أهل الشقاوة الذين كذبوا رسله، وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعًا وأنهم يوبخون فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فكيف اخترتم الكفر على الإيمان؟! ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) ﴾

يثنى تعالى على ما قصه على نبيه من آياته التى حصل بها الفرقان بين الحق والباطل، وبين أولياء الله وأعدائه، وما أعده لهؤلاء من الثواب، وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله وحكمته، وأنه لم يظلم عباده، ولم ينقصهم من أعمالهم، أو يعذب أحدًا بغير ذنبه، أو يحمل عليه وزر غيره، ولما ذكر أن له الأمر والشرع، ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيجازى المحسنين بإحسانهم والمسيئين بعصيانهم، وكثيرًا ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة ليبين لعباده أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده فى الدنيا والآخرة، ومَن سواه من المخلوقات محكوم عليها، ليس لها من الأمر شىء.

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ﴾

هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب التى تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس نصحًا ومحبة للخير ودعوة وتعليمًا وإرشادًا وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وجمعًا بين تكميل الخلق والسعى فى منافعهم، بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله والقيام بحقوق الإيمان، وأن أهل الكتاب لو آمنوا بمثل ما آمنتم به لاهتدوا وكان خيرًا لهم، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير فهم فاسقون خارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله، محاربون للمؤمنين، ساعون فى إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك فلن يضروا المؤمنين إلا أذًى باللسان، وإلا، فلو قاتلوهم لولوا الأدبار ثم لا يُنصرون، وقد وقع ما أخبر الله به، فإنهم لما قاتلوا المسلمين ولوا الأدبار ونصر الله المسلمين عليهم.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة، فهو خائفون أينما ثُقفوا، ولا يؤمنهم شىء إلا معاهدة وسببَ يأمنون به، يرضخون لأحكام الإسلام ويعترفون بالجزية، أو ﴿حَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم، كما شوهد حالهم سابقًا ولاحقًا، فإنهم لم يتمكنوا فى الوقت الأخير من الملك المؤقت فى فلسطين، إلا بنصر الدول الكبرى، وتمهيدها لهم كل سبب ﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: قد غضب الله عليهم، وعاقبهم بالذلة والمسكنة، والسبب فى ذلك كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، أى: ليس ذلك عن جهل، وإنما هو بغى وعناد، تلك العقوبات المتنوعة عليهم ﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فالله تعالى لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذى أجراه عليهم بسبب بغيهم وعدوانهم وكفرهم وتكذيبهم للرسل، وجناياتهم الفظيعة.

﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو الخير كله ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهو جميع الشر، كما قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والمسارعة إلى الخيرات قدر زائد على مجرد فعلها، فهو وصف لهم بفعل الخيرات، والمبادرة إليها، وتكميلها بكل ما تم به من واجب ومستحب، ثم بيّن تعالى أن كل ما فعلوه من خير، قليل أو كثير، فإن الله سيقبله، حيث كان صادرًا عن إيمان وإخلاص ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ يعنى: لن يتكر ما عملوه، ولن يهدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين قاموا بالخيرات، وتركوا المحرمات، لقصد رضا الله، وطلب ثوابه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

بيّن تعالى أن الكفار والذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله أنه لا ينقذهم من عذاب الله منقذ، ولا ينفعهم نافع، ولا يشفع لهم عند الله شافع، وأن أموالهم وأولادهم التى كانوا يعدونها للشدائد والمكاره لا تفيدهم شيئًا، وأن نفقاتهم التى أنفقوها فى الدنيا لنصر باطلهم ستضمحل، وأن مثلها ﴿كَمَثَلِ﴾ حرث أصابته ﴿رِيحٍ﴾

شـديدة ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: برد شديد، أو نار محرقة فـأهلكت ذلك الحرث، وذلك بظلمهم فلم يظلمهم الله ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما ظلموا أنفسهم، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾

هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار واتخاذهم بطانة، أو خصيصة وأصدقاء يسرون إليهم، ويفضون لهم بأسرار المؤمنين، فوضح لعباده المؤمنين الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم لا يألونكم خبالاً، أي: هم حريصون غير مقصرين في إيصال الضرر بكم، وقد بدت البغضاء من كلامهم وفلتات ألسنتهم، وما تخفيه صدورهم من البغضاء والعدواة أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم، فإن كانت لكم فهوم وعقول فقد وضح الله لكم أمرهم، وأيضًا فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين وفي مقابلة إحسانكم؟ فأنتم مستقيمون على أديان الرسل، تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجلِّ الكتب، وأشرف الرسل، وأنتم تبذلون لهم من الشفقة والمحبة ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه، فكيف تحبونهم وهم لا يحبونكم، وهم يداهنونكم وينافقونكم، فإذا لقوكم قالوا: آمنا، وإذا خلوا مع بني جنسهم عضوا عليكم الأنامل من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم، قال تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوءكم، وتموتون بغيظكم، فلن تدركوا شفاء ذلك بما تقصدون ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلذلك بيَّن لعباده المؤمنين ما تنطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ عز ونصر وعافية وخير ﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من إدالة العدو أو حصول بعض المصائب الدنيوية ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وهذا وصف العدو الشديد عداوته، لما بيَّن تعالى شدة عداوتهم، وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة أمر عباده المؤمنين بالصبر ولزوم التقوى، وأنهم إذا قاموا بذلك فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئًا، فإن الله محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم التي يكيدونكم فيها، وقد وعدكم عند القيام بالتقوى أنهم لا يضرونكم شيئًا، فلا تشكوا في حصول ذلك.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧)﴾

وذلك يوم «أحد» حين خرج ﷺ بالمسلمين حين وصل المشركون - بجمعهم - إلى قريب من «أُحُد» فنزلهم ﷺ منازلهم، ورتبهم في مقاعدهم، ونظمهم تنظيمًا عجيبًا يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة في فنون السياية والحرب، كما كان كاملاً في كل المقامات ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أموركم

﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا﴾ وهم بنو سلمة وبنو حارثة، لكن تولاهما البارى بلطفه ورعايته وتوفيقه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم إذا توكلوا عليه كفاهم وأعانهم، وعصمهم من وقوع ما يضرهم فى دينهم ودنياهم، وفى هذه الآية ونحوها وجوب التوكل، وأنه على حسب إيمان العبد يكون توكله، والتوكل هو: اعتماد العبد على ربه فى حصول منافعه، ودفع مضاره، فلما ذكر حالهم فى «أحد» وما جرى عليهم من المصيبة أدخل فيها تذكيرهم بنصره، ونعمته عليهم يوم «بدر» ليكونوا شاكرين لربهم، وليخفف هذا فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ فى عَددكم وعُددكم، فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، فى قلة ورثاثة سلاح، وأعداؤهم يناهزون الألف، فى كامل العدة والسلاح ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذى أنعم عليكم بنصره ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ مبشرًا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مثبتًا لجنانهم: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أى: من حملتهم هذه بهذا الوجه ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أى: معلمين علامة الشجعان، واختلف الناس، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم، أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المومنين، وإلقاء الرعب فى قلوب المشركين، كما قاله كثير من المفسرين، ويدل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وفى هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد، بل يعتمد على الله، وإنما الأسباب وتوفرها فيها طمأنينة للقلوب، وثبات كل على الخير ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ أى: نصر الله لعباده المؤمنين، لا يعدو أن يكون قطعًا لطرف من الكفار، أو ينقلبوا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، كما أرجعهم يوم الخندق، بعدما كانوا قد أتوا على حرد قادرين، أرجعهم الله بغيظهم خائبين.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾

لما أصيب ﷺ يوم «أحد» وكُسرت رباعيته، وشُج فى رأسه، جعل يقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته» فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبيَّن أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شىء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربهم، مدبَّرون لا مدبِّرون، وهؤلاء الذين دعوت عليهم أيها الرسول، أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم، ووفقهم للدخول فى الإسلام، وقد فعل، فإن أكثر أولئك هداهم الله فأسلموا، وإن شاء الله عذبهم فإنهم ظالمون، مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)﴾

يخبر تعالى أنه هو المتصرف فى العالم العلوى والسفلى، وأنه يتوب على من يشاء فيغفر له، ويخذل من يشاء فيعذبه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فمن صفته اللازمة كمال المغفرة والرحمة، ووجود مقتضياتهما فى الخلق والأمر، يغفر للتائبين، ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تقدم فى مقدمة هذا التفسير أن العبد ينبغى له مراعاة

الأوامر والنواهى، فى نفسه وفى غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه - أولاً - أن يعرف حده، وما هو الذى أمر به، ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد واستعان بالله على امتثاله فى نفسه وفى غيره، بحسب قدرته وإمكانه، وكذلك إذا نهى عن أمر، عرف حده، وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه فى تركه، وأن هذا ينبغى مراعاته فى جميع الأوامر الإلهية والنواهى، وهذه الآيات الكريمات، وقد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله بها، وحث على فعلها وأخبر عن جزاء أهلها، وعلى نواهى حث على تركها، ولعل الحكمة - والله أعلم - فى إدخال هذه الآيات أثناء قصة «أحد» أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين أنهم - إذا صبروا، واتقوا - نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ ثم قال: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ الآيات، فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى، التى يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله فى هذه الآيات أهم خصال التقوى التى إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى، ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ «التقوى» فى هذه الآيات ثلاث مرات: مرة مطلقة وهى قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومرتين مقيدتين فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كل ما فى القرآن من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افعلوا كذا أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعى والموجب لامتثال ذلك الأمر واجتناب ذلك النهى، لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، فنهاهم عن أكل الربا أضعافًا مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالى بالأوامر الشرعية، من أنه إذا حل الدَّين على المعسر ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضى ما عليك من الدين وإما أن نزيد فى المدة وتزيد ما فى ذمتك، فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك، اغتنامًا لراحته الحاضرة، فيزداد بذلك ما فى ذمته أضعافًا مضاعفة، من غير نفع وانتفاع، ففى قوله: ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ تنبيه على شدة شناعته بكثرته، وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم، وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فإلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه، وعدم قربانه، لأن تركه من موجبات التقوى، والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ بترك ما يوجب دخولها من الكفر والمعاصى، على اختلاف درجاتها، فإن المعاصى كلها - وخصوصًا المعاصى الكبار - تجر إلى الكفر، بل هى من خصال الكفر، الذى أعد الله النار لأهله، فترك المعاصى ينجى من النار، ويقى من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان وحصول الرحمة، ولهذا قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بفعل الأوامر وامتثالها، واجتناب النواهي ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فطاعة الله وطاعة رسوله من أسباب حصول الرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الآيات، ثم أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التى عرضها السموات والأرض، فكيف بطولها! التى أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هى الموصلة إليها، ثم وصف المتقين وأعمالهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أى: فى عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئًا، ولو قلَّ ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أى: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم - وهو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول والفعل - هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما فى القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ يدخل فى العفو عن الناس العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله وعفا عن عباد الله، رحمة بهم وإحسانًا إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ثم ذكر حالة أعم من غيرها وأحسن وأعلى وأجلّ، وهى الإحسان

فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان نوعان: الإحسان فى عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق، فالإحسان فى عبادة الخالق فسرها النبى ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وأما الإحسان إلى المخلوق فهو إيصال النفع الدينى والدنيوى إليهم، ودفع الشر الدينى والدنيوى عنهم، فيدخل فى ذلك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعى فى جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم، وتباين أوصافهم، فيدخل فى ذلك بذل الندى وكف الأذى واحتمال الأذى كما وصف الله به المتقين فى هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق الله وحق عبيده، ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جناياتهم وذنوبهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أى: صدر منهم أعمال سيئة كبيرة أو ما دون ذلك بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم وما توعد به العاصين، ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تزيل عنهم كل محذور ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم والبهجة والحبور والبهاء والخير والسرور والقصور والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجاريات فى تلك المساكن الطيبات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يحولون عنها، ولا يبغون بها بدلاً، ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ عملوا لله قليلاً فأجروا كثيرًا، فـ «عند الصباح يحمد القوم السرى» وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملاً موفرًا، وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة على أن الأعمال تدخل فى الإيمان، خلافًا للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية التى فى سورة الحديد نظير هذه الآيات وهى قوله: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون، ثم قال تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾

وهذه الآيات الكريمات وما بعدها فى قصة «أحد» يعزى تعالى، عباده المؤمنين ويسليهم ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم امتحنوا وابتلى المومنون بقتال الكافرين فلم يزالوا فى مداولة ومجاولة حتى جعل الله العاقبة للمتقين والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين وخذلهم الله بنصر رسله، وأتباعهم ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم، أفليس فى هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد، على صدق ما جاءت به الرسل؟! وحكمة الله التى يمتحن بها عباده ليبلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أى: دلالة ظاهرة تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بالآيات، فتهديهم إلى سبيل الرشاد، وتعظهم وتزجهم عن طريق الغى، وأما باقى الناس فهي بيان لهم تقوم به عليهم الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة، ويحتمل أن الإشارة فى قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ للقرآن العظيم والذكر الحكيم، وأنه بيان للناس عمومًا، هدى وموعظة للمتقين خصوصًا، وكلا المعنيين حق.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ

﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

يقول تعالى مشجعًا لعباده المؤمنين، ومقويًا لعزائمهم ومنهضًا لهممهم: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ أى: ولا تهنوا وتضعفوا فى أبدانكم، ولا تحـزنوا فى قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة، وابتُليتم بهذه البلوى، فإن الحزن فى القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وأعون لعـدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحـزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعـالى أنه لا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون فى الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المبتغى ما وعده الله من الثواب الدنيوى والأخروى لا ينبغى له ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم سلاهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبيّن الحكمة العظيمة المترتبة على ذلك، فقال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ فأنتم وهم قد تساويتم فى القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ ومن الحكم فى ذلك، أن هذه الدار يعطى الله منها المؤمن والكافر، والبـر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى، لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة فإنهـا خالصة للذين آمنوا ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا أيضًا من الحكم أنه يبتلى الله عـباده بالهزيمة والابتلاء ليتبين المؤمن من المنافق، لأنه لو استمـر النصر للمؤمن فى جمـيع الوقائع لدخل فى الإسلام من لا يريده، فإذا حصل فى بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء تبين المؤمن حقيقة الذى يرغب فى الإسلام، فى الضراء والسراء، واليسر والعسر، ممن ليس كذلك ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وهذا أيضًا من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمته بعباده المؤمنين أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يحبـون من المنازل العالية والنعيم المقيم ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم وتقاعـدوا عن القتال فى سبيله ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا أيضًا من الحكم أن الله يمحص بذلك المؤمنين من ذنوبهم وعـيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقـتال فى سبيل الله تكفر الـذنوب وتزيل العيوب، ويمحص الله أيضًا المؤمنين من غيرهم من المنافقين، فيتخلصون منهم، ويعرفون من المنافق، ومن الحكم أيضًا أن يقدر ذلك ليمحق الكافرين، أى: ليكون سببًا لمحقهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا بغوا، وازدادوا طغيانًا إلى طغيانهم، يسـتحقون به المعاجلة بالعقوبة، رحمة بعـباده المؤمنين، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ هذا استـفهـام إنكارى، أى: لا تظنوا ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مـشقة، واحتـمال المكاره فى سبـيل الله وابتغاء مرضـاته، فإن فى الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المـتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمـل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحـة، ولا يدرك النعيم، إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التى تصـيب العبد فى سبـيل الله عند توطين النفس لها وتمرينهـا عليها، ومـعرفة ما تؤول إلـيه تنقلب ـ عند أرباب البصـائر ـ منحًا يسرون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ثم وبّخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ وذلك أن كثيرًا من الصحابة ﷺ ممن فاته بدر كانوا يتمنون أن يحضرهم الله مشهدًا، يبذلون فيه جهدهم، قال الله تعالى لهم: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أى: ما تمنيتم بأعـينكم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حـالة لا تليق ولا تحسن خصوصًا لمن تمنى ذلك، وحصل له مـا تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجـهد واستفـراغ الوسع فى ذلك، وفى هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهـادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقـرهم على أمنيتهم ولـم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليـهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم، ثم قال تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ أى: ليس ببدع من الرسل بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالة ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطًا فى امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم فى كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ إنما يضر نفسه، وإلا، فالله تعالى غنى عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه مدح من ثبت مع رسوله، وامتثل أمر ربه فقال: ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى فى كل حال، وفى هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم، أو عن بعض لوازمه، فقد رئيس ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد فى كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله والجهاد عنه بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد فى رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم، وفى هذه الآية أيضًا أعظم دليل على فضيلة الصدِّيق الأكبر، أبى بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ، لأنهم هم سادات الشاكرين، ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها معلقة بآجالها، بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه، فلو وقع من الأسباب كل سبب لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاه وقدَّره وكتبه إلى أجل مسمى ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى أنه يعطى الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلقت به إرادتهم، فقال: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ قال الله تعالى: ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ ولم يذكر جزاءهم، ليدل ذلك على كثرته وعظمته وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر، قلة وكثرة وحسنًا.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

هذا تسلية للمؤمنين وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدمًا، لم تزل سنة الله جارية بذلك فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ ﴾ أى: وكم من نبى ﴿ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ أى: جماعات كثيرون من أتباعهم الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح، وغير ذلك ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ أى: ما ضعفت قلوبهم ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا، أى: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم فقال: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ ﴾ أى: فى تلك المواطن الصعبة ﴿ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ والإسراف هو: مجاوزة الحد إلى ما حرم علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلى منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها، ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة فى الدنيا

والآخرة ولهذا قال: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من النصر والظفر والغنيمة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ وهو الفوز برضا ربهم والنعيم المقيم، الذى قد سلم من جميع المنكدات، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال فجازاهم بأحسن الجزاء، فلهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فى عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء المؤمنين، ثم قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾

وهذا نهى من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إذا أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم قصدهم ردهم إلى الكفر الذى عاقبته الخيبة والخسران، ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه يتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور، وفى ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده وليًا وناصرًا، من دون كل أحد، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقى فى قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذى يمنعهم من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى، وذلك أن المشركين، بعدما انصرفوا من وقعة «أحد» تشاوروا فيما بينهم وقالوا: كيف ننصرف بعد أن قتلنا منهم من قتلنا وهزمناهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك، فألقى الله فى قلوبهم الرعب فانصرفوا خائبين، ولا شك أن هذا من أعظم النصر، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطع طرفًا ممن كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين، وهذا من الثانى، ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين، فقال: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أى: ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام التى اتخذوها[1] على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، فمن ثَمَّ كان المشرك مرعوبًا من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، هذا حاله فى الدنيا، وأما فى الآخرة فأشد وأعظم، ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أى: مستقرهم الذى يأوون إليه وليس لهم عنها خروج ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم، صارت النار مثواهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بالنصر، فنصركم عليهم حتى ولوكم أكتافهم وطفقتم فيهم قتلاً حتى صرتم سببًا لأنفسكم وعونًا لأعدائكم عليكم، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ الذى فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلفتم، فمن قائل: نقيم فى مركزنا الذى جعلنا فيه النبى ﷺ، ومن قائل: ما مقامنا فيه، وقد انهزم العدو، ولم يبق محذور، فعصيتم الرسول، وتركتم أمره ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم﴾ الله ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ وهو انخذال أعدائكم، لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب أعظم من غيره، فالواجب فى هذه الحال خصوصًا، وفى غيرها عمومًا، امتثال أمر الله ورسوله ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ وهم الذين لزموا أمر رسول الله ﷺ وثبتوا حيث أمروا ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أى: بعدما وجدت هذه الأمور منكم صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم

(١) قوله: (اتخذوها) أى: جعلوها آلهة يعبدونها ويتقربون إليها بأنواع القربات والعبادات واتخاذها وسائط بينهم وبين الله تعالى فى جلب نفع ودفع ضر.

ابتلاء من الله لكم وامتحانًا، ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من العاصى، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلهذا قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: ذو فضل عظيم عليهم، حيث مَنَّ عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيباتهم، ومن فضله على المؤمنين، أن لا يقدر عليهم خيرًا ولا مصيبة إلا كان خيرًا لهم، إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا جازاهم جزاء الصابرين.

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾

يذكرهم تعالى حالهم فى وقت انهزامهم عن القتال ويعاتبهم على ذلك فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أى: تجدون فى الهرب ﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾ على أحد أى: لا يلوى أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء من القتال، والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلى الأعداء، ويباشر الهيجاء، بل ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ أى: مما يلى القوم يقول: «إلىَّ عباد الله» فلم تلتفتوا إليه ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس أعظم لومًا، بتخلفهم عنها ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ أى: جازاكم على فعلكم ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أى: غمًا يتبعه غم، غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمدًا ﷺ قد قُتل، ولكن الله، بلطفه وحسن نظره لعباده، جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيرًا لهم فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر والظفر ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات واغتبطتم بوجوده المسلى عن كل مصيبة ومحنة، فلله ما فى ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ويحتمل أن معنى قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ يعنى: أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم لكى تتوطن نفوسكم وتمرنوا على الصبر على المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشقات ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ﴾ الذى أصابكم ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ ولا شك أن هذا رحمة بهم وإحسان وتثبيت لقلوبهم، وزيادة طمأنينة، لأن الخائف لا يأتيه النعاس لما فى قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس، وهذه الطائفة التى أنعم الله عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم إلا إقامة دين الله، ورضا الله ورسوله، ومصلحة إخوانهم المسلمين، وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ فليس لهم هم فى غيرها، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ وهذا استفهام إنكارى، أى ما لنا من الأمر - أى: النصر والظهور - شيء، فأساءوا الظن بربهم وبدينه وبنبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هى الفيصلة والقاضية على دين الله، قال الله فى جوابهم: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الأمر يشمل الأمر القدرى والأمر الشرعى، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبتها النصر والظفر لأوليائه، وأهل طاعته وإن جرى عليهم ما جرى ﴿يُخْفُونَ﴾ يعنى المنافقين ﴿فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ثم بين الأمر الذى يخفونه فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى: لو كان لنا فى

هذه الواقعة رأى ومشورة ﴿مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأى رسول الله ورأى أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ التى هى أبعد شىء عن مظان القتل ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ فالأسباب ـ وإن عظمت ـ إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئًا، بل لا بد أن يمضى الله ما كتب فى اللوح المحفوظ من الموت والحياة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أى: يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من وساوس الشيطان وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما فيها وما أكنته، فاقتضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب، ما به يظهر مخبئات الصدور وسرائر الأمور.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾

يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم «أحد» وما الذى أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصى، لأنها مركبه ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربهم، لما كان له عليهم من سلطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذة، وإلا فلو آخذهم لاستأصلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمذنبين الخاطئين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار والمصائب المكفرة ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه، بل يستأنى به ويدعوه إلى الإنابة إليه، والإقبال عليه، ثم إن تاب وأناب قبل منه، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر عنه عيب، فلله الحمد على إحسانه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم، ينهاهم عن مشابهتهم فى كل شىء، وفى هذا الأمر الخاص، وهو أنهم يقولون لإخوانهم فى الدين أو فى النسب: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: سافروا للتجارة ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ أى: غزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت يعارضون القدر ويقولون: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ ولكن هذا التكذيب لم يفدهم إلا أن الله يجعل هذا القول وهذه العقيدة حسرة فى قلوبهم، فتزداد مصيبتهم، وأما المؤمنون فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله فيؤمنون ويسلمون، فيهدى الله قلوبهم ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم المصيبة، قال الله ردًا عليهم: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: هو المنفرد بذلك، فلا يغنى حذر عن قدر ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم، ثم أخبر تعالى أن القتل فى سبيله أو الموت فيه ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغى أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضًا إذا ماتوا أو قتلوا بأى حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله ومآلهم إليه فيجازى كلا بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله؟!!.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾

أى: برحمة الله لك ولأصحابك مَنَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أى: سيئ الخلق ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أى: قاسيه ﴿لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ، فالأخلاق الحسنة من الرئيس فى الدنيا تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس فى الدين تنفر الناس عن الدين وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره، أليس من الواجبات وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به ﷺ من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالا لأمر الله وجذبًا لعباد الله لدين الله، ثم أمره تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير فى حقه ﷺ ويستغفر لهم فى التقصير فى حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ أى: الأمور التى تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن فى الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره، **منها**: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله، **ومنها**: أن فيها تسميحًا لخواطرهم وإزالة لما يصير فى القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس، إذا جمع أهل الرأى والفضل وشاورهم فى حادثة من الحوادث اطمأنت إليه نفوسهم وأحبوه وعلموا أنه ليس يستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم فى طاعته، لعلمهم بسعيه فى مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة، **ومنها**: أن فى الاستشارة تنور الأفكار بسبب إعمالهم فيما وضعت له، فصار فى ذلك زيادة للعقول، **ومنها**: ما تنتجه الاستشارة من الرأى المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ فى علمه، وإن أخطأ، أو لم يتم له مطلوب فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ، وهو أكمل الناس عقلاً وأغزرهم علمًا وأفضلهم رأيًا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ فكيف بغيره، ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ أى: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج استشارة ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: اعتمد على حول الله وقوته متبرئًا من حولك وقوتك ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، اللاجئين إليه.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

أى: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلو اجتمع عليكم من فى أقطارها، وما عندهم من العدد والعُدد، لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد، وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾؟ فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق، وقد ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله، والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وتقدم المعمول يؤذن بالحصر، أى: توكلوا على الله، لا غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار، وفى هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

الغلول هو: الكتمان من الغنيمة، والخيانة فى كل ما يتولاه الإنسان، وهو محرم إجماعًا، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر تعالى أنه ما ينبغى، ولا يليق بنبى أن يغل، لأن الغلول، كما علمت، من أعظم الذنوب وشر العيوب، وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم، ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقًا، وأطهرهم نفوسًا، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته، ومعدن حكمته ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فبمجرد علم العبد بالواحد منهم يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على فساد ما قيل فيهم من أعدائهم، لأن معرفته بنبوتهم

تستلزم دفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أى: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته، ثم ذكر الوعيد على من غل فقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: يأت حامله على ظهره، حيوانًا كان أو متاعًا، أو غير ذلك، يعذب به يوم القيامة ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ الغال وغيره، كلٌّ يوفى أجره ووزره، على مقدار كسبه ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أى: لا يزاد فى سيئاتهم، ولا يهضمون شيئًا من حسناتهم، وتأمل حسن هذا الاحتراز فى هذه الآية الكريمة، لما ذكر عقوبة الغال وأنه يأتى يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه، وكان اقتصاره على الغال، يوهم بالمفهوم، أن غيره من أنواع العالمين قد لا يوفون أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه لا يستوى من كان قصده رضوان الله والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك ممن هو مكب على المعاصى، مسخط لربه، هذان لا يستويان فى حكم الله وحكمة الله، وفى فطر عباد الله ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ ولهذا قال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ أى: كل هؤلاء متفاوتون فى درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم فى أعمالهم، فالمتبعون لرضوان الله يسعون فى نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون فى النزول فى الدركات إلى أسفل سافلين، كل على حسب عمله، والله بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شىء، بل قد علمها وأثبتها فى اللوح المحفوظ، ووكل ملائكته الأمناء الكرام أن يكتبوها ويحفظوها ويضبطوها.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

هذه المنة التى امتن الله بها على عباده أكبر النعم، بل أصلها، وهى الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم، الذى أنقذهم الله به، من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعرفون نسبه وحاله ولسانه من قومهم وقبيلتهم ناصحًا لهم مشفقًا عليهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يعلمهم ألفاظها ومعانيها ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من الشرك والمعاصى والرذائل وسائر مساوئ الأخلاق ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ إما جنس الكتاب الذى هو القرآن، فيكون قوله ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب هنا الكتابة، فيكون قد امتن عليهم بتعليم الكتاب والكتابة التى بها تدرك العلوم وتحفظ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هى: السنة، التى هى شقيقة القرآن، ووضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة، فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفيذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ بعثة هذا الرسول ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكى النفوس ويطهرها، بل ما يزين لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين.

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

هذا تسلية من الله تعالى لعبادة المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم يوم «أحد» وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ من المشركين ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ فقتلتم سبعين من كبارهم، وأسرتم سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستوون أنتم وهم، فإن قتلاكم فى الجنة، وقتلاهم فى النار ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أى: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ حين تنازعتم وعصيتم، من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة فى ابتلائكم ومصيبتكم ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان: جمع المسلمين وجمع المشركين فى «أحد» من القتل والهزيمة أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مرد له، ولا بد من وقوعه، والأمر القدرى - إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق، الذين لما أمروا بالقتال ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: ذبًا عن دين الله وحماية له وطلبًا لمرضاة الله ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾ عن محارمكم وبلدكم، إن لم تكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أى: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة فى هذا، قد علموا وتيقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين قد ملئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا فى جيش عظيم قاصدين المؤمنين فى بلدهم، متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم كيف يتصور أنه لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟ خصوصًا وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل، ولكن المنافقين ظنوا هذا العذر يروج على المؤمنين، قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: فى تلك الحال التى تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وهذه خاصة[1] المنافقين، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده فى قلوبهم وسرائرهم، ومنه قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ فإنهم علموا وقوع القتال، ويستدل بهذه الآية على قاعدة «ارتكاب[2] أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين» للعجز عن أعلاهما، لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ فيبديه لعباده المؤمنين ويعاقبهم عليه، ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أى: جمعوا بين التخلف عن الجهاد وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره، قال الله ردًا عليهم: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا﴾ أى: ادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه، وفى هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد تكون إحداهما أقرب من الأخرى.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

---

(١) قوله: (خاصة) فيه إيهام والأوضح أن يقال: (وهذه خاصية المنافقين).

(٢) قوله: (ارتكاب . . . إلخ) نص القاعدة الأصولية (ارتكاب أخف الضررين) الضرران أعم من أن يكونا مفسدتين وغير مفسدتين ولا يلزم من الضررين أن يكونا مفسدتين لأن الفساد فى اصطلاح الشرع أن يكون منهيًا عنه، والقاعدة تعنى أعم من هذا! مثاله: لو أشرفت سفينة على الغرق، وكان فى طرح المال سلامة للنفوس يطرح فى البحر قدر ما يسلمها من الغرق، ومنها: حبس الأب، لو امتنع عن الإنفاق على ولده، ومنها: التسعير عند تعدى أرباب الطعام فى بيعه بغبن فاحش، ومنها: بيع الطعام المحتكر، جبرًا عليه عند الحاجة وامتناعه عن البيع، دفعًا للضرر العام.

ومن هذه الأمثلة يعلم أن الضرر لا يشترط أن يكون فاسدًا شرعًا لذاته بل قد يكون لعارض.

وللكلام هنا مجال فسيح لا تسمح ببسطه هذه العجالة.

والذى دفعنى إلى ذلك كلمة (المفسدتين) التى تخالف رواية القاعدة.

هذه الآيات الكريمات فيها فضل الشهداء وكرامتهم، وما مَنَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفى ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال فى سبيل الله، والتعرض للشهادة فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: فى جهاد أعداء الدين قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله ﴿أَمْوَاتًا﴾ أى: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفُقدوا وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا، والتمتع بزهرتها الذى يحذر من فواته من جبن عن القتال، وزهد فى الشهادة ﴿بَلْ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فى دار كرامته، ولفظ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضى علو درجاتهم وقربهم من ربهم ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من أنواع النعيم الذى لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا صاروا ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أى: مغتبطون بذلك، وقد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته وعظمته، وكمال اللذة فى الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح، بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم لهم النعيم والسرور، وجعلوا ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أى: يبشر بعضهم بعضًا بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أى: يهنئ بعضهم بعضًا بأعظم مهنأ به، وهو نعمة ربهم وفضله وإحسانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميه ويشكره، ويزيدهم من فضله ما لا يصل إليه سعيهم، وفى هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، و أن الشهداء فى أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقى أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضًا، وتبشير بعضهم بعضًا.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾

لما رجع النبى ﷺ من «أحد» إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة ندب أصحابه إلى الخروج فخرجوا ـ على ما بهم من الجراح ـ استجابة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «حمراء الأسد» وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ وهموا باستئصالكم، تخويفًا لهم وترهيبًا، فلم يزدهم ذلك إلا إيمانًا بالله واتكالاً عليه ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أى: كافينا كل ما أهمنا ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ المفوض إليه تدبير عباده والقائم بمصالحهم ﴿فَانقَلَبُوا﴾ أى: رجعوا ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ وجاء الخبر للمشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلف منهم فألقى الله الرعب فى قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل، حيث مَنَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم وتقواهم عن معصيته لهم أجر عظيم، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى: إن ترهيب من رهب من المشركين، وقال: إنهم جمعوا لكم، داع من دعاة الشيطان يخوف أولياءه الذين عُدم إيمانهم، أو ضَعُفَ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى: فلا تخافوا المشركين، أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذى ينصر أولياءه الخائفين إياه[1] المستجيبين لدعوته، وفى هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود ما حجز العبد عن محارم الله.

---

(١) فى الأصل (الخائفين له) والصواب (الخائفين إياه) لأن (خاف) لا يتعدى باللام، بل يتعدى بنفسه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾.

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾

كان النبى ﷺ حريصًا على الخلق مجتهدًا فى هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر﴾ من شدة رغبتهم فيه وحرصهم عليه ﴿إنهم لن يضروا الله شيئا﴾ فالله ناصر دينه ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضرون ويسعون فى ضرر أنفسهم بفوات الإيمان فى الدنيا، وحصول العذاب الأليم فى الأخرى، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيبًا فى الآخرة من ثوابه، خذلهم فلم يوفقهم لما وفق إليه أولياءه، ومن أراد به خيرًا، عدلاً منه وحكمة، ولعلمه بأنهم غير زاكين[1] على الهدى، ولا قابلين للرشاد لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم، ثم أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان ورغبوا فيه، رغبة من بذل ما يحب من المال فى شراء ما يحب من السلع ﴿لن يضروا الله شيئا﴾ بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم، ولهذا قال: ﴿ولهم عذاب أليم﴾ وكيف يضرون الله شيئًا وهم قد زهدوا أشد الزهد فى الإيمان ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن؟! فالله غنى عنهم، وقد قيض لدينه من عباده الأبرار الأذكياء سواهم، وأعد له ـ ممن ارتضاه لنصرته ـ أهل البصائر والعقول وذوى الألباب من الرجال الفحول، قال الله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا﴾ الآيات.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾

أى: ولا يظن الذين كفروا بربهم ونابذوا دينه وحاربوا رسوله أن تركنا إياهم فى الدنيا وعدم استئصالنا لهم وإملائنا لهم خير لأنفسهم ومحبة منا لهم، كلا، ليس الأمر كما زعموا، وإنما ذلك الشر يريده الله بهم، وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم، ولهذا قال: ﴿إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين﴾ فالله تعالى يملى للظالم حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، فليحذر الظالمون من الإمهال، ولا يظنوا أن يفوتوا الكبير المتعال.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

أى: ما كان فى حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التمييز حتى يميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب، ولم يكن فى حكمته أيضًا، أن يطلع عباده على الغيب الذى يعلمه من عباده، فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلى عباده ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله وأمر بطاعتهم والانقياد لهم والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم، فانقسم الناس حسب اتباعهم للرسل قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين، ليترتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله وحكمته لخلقه.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

أى: ولا يظن الذين يبخلون، أى: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله، من المال والجاه والعلم، وغير ذلك، مما منحهم الله وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فبخلوا بذلك وأمسكوه

---

(١) قوله: (زاكين ... إلخ) يريد: أن أنفسهم غير طاهرة ولا حريصة على قبول الهدى والحق فيكون استعمال (زاكين) مجازًا، وأنت ترى أن التعبير بكلمة (زاكين) فيه ما فيه من الغموض فإن المعاجم كلها متفقة أنها بمعنى طهارة النفوس.

وضنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم، بل هو شر لهم فى دينهم ودنياهم، وعاجلهم وآجلهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: يجعل ما بخلوا به طوقًا فى أعناقهم، يُعذَّبون به كما ورد فى الحديث الصحيح: «إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يأخذ بلهزمتيه يقول: أنا مالك، أنا كنزك» وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك هذه الآية، فهؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم، ومجد عليهم، فانقلب عليهم الأمر وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار، ولا غير ذلك من المال، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائى والسبب النهائى الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله أخبر أولاً أن الذى عنده وفى يده فضل من الله ونعمة، ليس ملكًا للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه لم يصل إليه منه شىء، فمنعه ذلك منع لفضل الله وإحسانه، ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فمن تحقق أن ما بيده هو فضل من الله لم يمنع الفضل الذى لا يضره، بل ينفعه فى قلبه وماله وزيادة إيمانه وحفظه من الآفات، ثم ذكر ثانيًا أن هذا الذى بيد العباد كله يرجع إلى الله ويرثه تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشىء هو زائل عنك منتقل إلى غيرك، ثم ذكر ثالثًا السبب الجزائى فقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فإذا كان خبيرًا بأعمالكم جميعًا ـ ويستلزم ذلك الجزاء الحسن، على الخيرات والعقوبات على الشر ـ لم يتخلف مَنْ فى قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذى يجزى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذى به العقاب.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتمردين الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه، وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة، وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأنه يقال لهم ـ بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء ـ ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة، وأن عذابهم ليس ظلمًا من الله لهم فإنه ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فإنه منزه عن ذلك، وإنما ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من المخازى والقبائح التى أوجبت استحقاقهم العذاب وحرمانهم الثواب، وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت فى قوم من اليهود تكلموا بذلك، وذكروا منهم «فنحاص بن عازوراء» من رؤساء علماء اليهود فى المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال على وجه التكبر والتجرؤ[1] هذه المقالة، قبحه الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببدع من شنائعهم، بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك، وهو: قتلهم الأنبياء بغير حق، هذا القيد يراد به أنهم تجرءوا على قتلهم مع علمهم بشناعته، لا جهلاً وضلالاً، بل تمردًا وعنادًا.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفترين القائلين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أى: تقدم إلينا وأوصى أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فجمعوا بين الكذب على الله، وحصر آية الرسل بما قالوه من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتهم بقربان تأكله النار فهم ـ فى ذلك ـ مطيعون لربهم، ملتزمون عهده، وقد علم أن كل رسول يرسله الله يؤيده من الآيات والبراهين بما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما

---

(١) فى الأصل (والتجرهم) ولم أجد معنى هذه الكلمة فى المعاجم ولعلها تحريف ولذلك أبدلتها بكلمة (والتجرؤ) لأن المقام يقتضى ذلك.

قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفكًا لم يلتزموه، وباطلاً لم يعملوا به، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على صدقهم ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ بأن أتاكم بقربان تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: فى دعواكم الإيمان برسول يأتيكم بقربان تأكله النار، فقد تبين بهذا كذبهم وعنادهم وتناقضهم، ثم بشر رسوله ﷺ فقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى: هذه عادة الظالمين ودأبهم، الكفر بالله، وتكذيب رسل الله، وليس تكذيبهم لرسل الله عن تصور بما أتوا به، أو عدم تبين حجة، بل قد ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: الحجج العقلية والبراهين النقلية ﴿وَالزُّبُرِ﴾ أى: الكتب المزبورة، المنزلة من السماء، التى لا يمكن أن يأتى بها غير الرسل ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ للأحكام الشرعية، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضًا للأخبار الصادقة، فإذا كان هذا عادتهم فى عدم الإيمان بالرسل الذين هذا وصفهم، فلا يحزنك أمرهم ولا يهمك شأنهم، ثم قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

هذه الآية الكريمة فيها التزهيد فى الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هى منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار التى توفى فيها النفوس ما عملت فى هذه الدار، من خير وشر ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ أى: أخرج ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أى: حصل له الفوز العظيم بالنجاة من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم، التى فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومفهوم الآية أن من لم يزحزح عن النار ويدخل الجنة فإنه لم يفز، بل قد شقى الشقاء الأبدى، وابتلى بالعذاب السرمدى، وفى هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: توفية الأعمال التامة إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون فى البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك فى الدنيا كقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾.

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين، أنهم سيبتلون فى أموالهم من النفقات الواجبة والمستحبة، من التعرض لإتلافها فى سبيل الله، وفى أنفسهم من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة على كثير من الناس، كالجهاد فى سبيل الله، والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح، وكالأمراض التى تصيبه فى نفسه أو فيمن يحب ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ من الطعن فيكم وفى دينكم وكتابكم ورسولكم، وفى إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد، منها: أن حكمته تعالى تقتضى ذلك، ليتميز المؤمن الصادق من غيره، ومنها: أنه تعالى يقدر عليهم هذه الأمور لما يريده بهم من الخير ليعلى درجاتهم ويتم به إيقانهم، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر ﴿قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ ومنها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع، لأنهم قد استعدوا لوقوعه فيهون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته، ويلجأون إلى الصبر والتقوى، ولهذا قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أى: إن تصبروا على ما نالكم فى أموالكم وأنفسكم من الابتلاء والامتحان، وعلى أذية الظالمين، وتتقوا الله فى ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله، والتقرب إليه، ولم تتعدوا فى صبركم الحد الشرعى من الصبر فى موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أى: من الأمور التى يعزم عليها وينافس فيها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتب وعلمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتمهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه فى تلك الحال أن يبينه، ويوضح الحق من الباطل، فأما الموفقون فقاموا بهذا أتم القيام وعلموا الناس مما علمهم الله ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفًا من إثم الكتمان، وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبأوا بها فكتموا الحق وأظهروا الباطل، تجرءوا على محارم الله وتهاونوا بحقوقه تعالى وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمنًا قليلاً، وهو: ما يحصل لهم إن حصل، من بعض الرياسات والأموال الحقيرة من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنه أخس العوض، والذى رغبوا عنه ـ وهو بيان الحق الذى فيه السعادة الأبدية والمصالح الدينية والدنيوية ـ أعظم المطالب وأجلها، فلم يختاروا الدون الخسيس ويتركوا العالي النفيس إلا لسوء حظهم وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له، ثم قال تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا﴾ أى: من القبائح، والباطل القولى والفعلى ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أى: بالخير الذى لم يفعلوه والحق الذى لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله والفرح بذلك، ومحبة أن يحمدوا على فعل الخير الذى ما فعلوه ﴿فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ أى: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه وسيصيرون إليه، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ويدخل فى هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم المحقون فى حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة، قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع، ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة التى أخبر الله أنه يجزى بها المحسنين فى الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ وقال: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وقد قال عباد الرحمن: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وهى من نعم البارى على عبده، ومننه التى تحتاج إلى الشكر ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: هو المالك للسموات والأرض وما فيهما من سائر أصناف الخلق المتصرف فيهم بكمال القدرة، وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

يخبر تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ وفى ضمن ذلك حث العباد على التفكر فيها والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها، وأبهم قوله: آيات، ولم يقل: «على المطلب الفلانى» إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه فلا يمكن مخلوقًا

أن يحصره ويحيط ببعضه، وفى الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها وعظمة سلطانه وشمول قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنع ولطائف الفعل يدل على حكمة الله ووضعه الأشياء مواضعها، وسعة علمه، وما فيها من المنافع للخلق يدل على سعة رحمة الله وعموم فضله، وشمول بره ووجوب شكره، وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد فى مرضاته، وأن لا يشرك به سواه ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى الأرض ولا السماء، وخص الله بالآيات أولى الألباب، وهم: أهل العقول، لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم، لا بأبصارهم، ثم وصف أولى الألباب بأنهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ فى جميع أحوالهم[1] ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل فى ذلك الصلاة قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب، وأنهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها عرفوا أن الله لم يخلقها عبثًا فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بالحق وللحق، بل خلقتها مشتملة على الحق ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بأن تعصمنا من السيئات وتوفقنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار، ويتضمن ذلك سؤال الجنة لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم دعوا الله بأهم الأمور عندهم ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أى: لحصوله على السخط من الله ومن ملائكته وأوليائه، ووقوع الفضيحة، التى لا نجاة منها ولا منقذ منها، ولهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ وهو محمد ﷺ، يدعو الناس إليه ويرغبهم فيه، فى أصوله وفروعه ﴿فَآمَنَّا﴾ أى: أجبناه مبادرة، وسارعنا إليه، وفى هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم وتبجح بنعمته وتوسل إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذى مَنَّ عليهم بالإيمان يمن عليهم بالأمان التام ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير وترك الشر، الذى به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والثبات إلى الممات، ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان وتوسلهم به إلى تمام النعمة سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله من النصر والظهور فى الدنيا، ومن الفوز برضوان الله وجنته فى الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعائهم، وقبل تضرعهم، فلهذا قال:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

أى: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة ودعاء الطلب وقال: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفرًا ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ أى: كلكم على حد سواء فى الثواب والعقاب ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال، طلبًا لمرضاة ربهم، وجاهدوا فى سبيل الله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الذى يعطى عبده الثواب الجزيل على العمل القليل ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ

---

(١) قوله (فى جميع أحوالهم) إيضاح ذلك أن يذكر المؤمن ربه فى جميع أحواله، وأحواله منحصرة فى ثلاث: القيام، والقعود والاضطجاع، فالله تعالى امتدح المؤمنين الذين يذكرونه بالتسبيح والتحميد والتهليل فى جميع حالاتهم من قيام وقعود واضطجاع ولم يفرض الله على عباده هيئة خاصة لذكره بأنواع الأذكار ولا طهارة خاصة من وضوء وغسل، بل ندب إليه ورغب فيه فى جميع الأحوال، ومن نعم الله على عباده أن جعل آلة الذكر ـ الذى هو اللسان ـ عضوًا لا يعتريه الملل ولا يصيبه التعب كبقية الجوارح فإن المرء تتعب يده بحمل شىء مهما كان خفيفًا وينقله من يد إلى أخرى، وأما اللسان فليس كذلك، فلذلك =

حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك فليطلبه من الله بطاعته، والتقرب إليه بما يقدر عليه العبد.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨)﴾

وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم فى البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة فى بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه، وأما المتقون لربهم المؤمنون به فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فلو قدر أنهم فى دار الدنيا قد حصل لهم كل بؤس وشدة وعناء ومشقة لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم والعيش السليم، والسرور والحبور، والبهجة نزراً يسيراً، ومنحة فى صورة محنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ وهم الذين برت قلوبهم فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البر الرحيم من بره أجراً عظيماً وعطاء جسيماً وفوزاً دائماً.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾

أى: وإن من أهل الكتاب طائفة موفقة للخير، يؤمنون بالله ويؤمنون بما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وهذا هو الإيمان النافع، لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب ويكفر ببعض، ولهذا ما كان إيمانهم عامّا حقيقيّا ـ صار نافعًا فأحدث لهم خشية الله وخضوعهم لجلاله، الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده، وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ومن تمام خشيتهم لله، أنهم ﴿لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ فلا يقدمون الدنيا على الدين، كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمنًا قليلاً، وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذى هو أكبر حظ وفوز من الدنيا والآخرة فآثروا الحق وبينوه، ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل، فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه، وأنه سريع الحساب، فلا يستبطئوا ما وعدهم الله، لأن ما هو آت محقق حصوله، فهو قريب، ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح، وهو الفوز بالسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر الذى هو حبس النفس على ما تكرهه من ترك المعاصى، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك، والمصابرة هى الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء فى جميع الأحوال، والمرابطة وهو لزوم المحل الذى يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحبوب الدينى والدنيوى والأخروى، وينجون من المكروه كذلك، فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحد الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها، والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به.

= أخبر الرسول أن خير حالات المرء أن يكون لسانه رطبًا من ذكر الله، وأن أفضل حالاته عند فراقه هذه الدنيا أن يفارقها ولسانه رطب من ذكر الله.

تفسير سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾

افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه والحث على عبادته والأمر بصلة الأرحام والحث على ذلك، وبين السبب الداعي الموجب لكل من ذلك، وأن الموجب لتقواه أنه ﴿ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم ﴾ ورزقكم ورباكم بنعمة العظيمة، التي من جملتها خلقكم ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ليناسبها فيسكن إليها، وتتم بذلك النعمة ويحصل به السرور، وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم توسلتم به بالسؤال، فيقول من يريد ذلك لغيره: أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني، لعلمه بما قام فى قلبه من تعظيم الله الداعى أن لا يرد من سأله بالله، فكما عظمتموه بذلك فلتعظموه بعبادته وتقواه، وكذلك الإخبار بأنه رقيب، أى: مطلع على العباد فى حال حركاتهم وسكونهم وسرهم وعلنهم وجميع الأحوال، مراقبًا لهم فيها، مما يوجب مراقبته وشدة الحياء منه بلزوم تقواه، وفى الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثهم فى أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد ليعطف بعض على بعض ويرقق بعضهم على بعض، وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام النهى عن قطيعتها ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله كذلك يجب القيام بحقوق الخلق خصوصًا الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذى أمر به، وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى وصلة الأرحام والأزواج عمومًا، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها، فكأنها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجمل منها، موضحة لما أبهم، وفى قوله: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج، فبينهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال وأوثق علاقة، وقوله تعالى:

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) ﴾

هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق فى هذه السورة، وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين لهم وهم صغار ضعاف لا يقومون بمصالحهم، فأمر الرءوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم، وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتى هى أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا كاملة موفرة، وأن لا ﴿ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ ﴾ الذى هو أكل مال اليتيم بغير حق ﴿ بِالطَّيِّبِ ﴾ وهو الحلال، الذى ما فيه حرج ولا تبعة ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ أى: مع أموالكم، ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة التى هى قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له، من الرزق فى ماله، فمن تجرأ على هذه الحالة فقد أتى ﴿ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أى: إثمًا عظيمًا، ووزرًا جسيمًا، ومن استبدال الخبيث بالطيب أن يأخذ الولى من مال اليتيم النفيس، ويجعل بدله من ماله الخسيس، وفيه الولاية على اليتيم، لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله ثبوت ولاية المؤتى على ماله، وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم، لأن تمام إيتائه ماله حفظه، والقيام به بما يصلحه وينميه، وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤) ﴾

أى: وإن خفتم ألا تعدلوا فى يتامى النساء التى تحت حجوركم وولايتكم، وخفتم أن لا تقوموا بحقهن

لعدم محبتكم إياهن - فاعدلوا إلى غيرهن وانكحوا ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أى: ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين والمال والجمال والحسب والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين، كما قال النبى ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» وفى هذه الآية - أنه ينبغى للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل قد أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها ليكون على بصيرة من أمره، ثم ذكر العدد الذى أباحه من النساء فقال: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أى: مَنْ أحب أن يأخذ اثنين فليفعل، أو ثلاثًا فليفعل، أو أربعًا فليفعل، ولا يزيد عليها، لأن الآية سيقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله تعالى إجماعًا، وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة حتى تبلغ أربعًا، لأن فى الأربع غنية لكل أحد، إلا ما ندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم ووثق بالقيام بحقوقهن، فإن خاف شيئًا من هذا فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه، فإنه لا يجب عليه القسم فى ملك اليمين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: الاقتصار على واحدة أو ما ملكت اليمين ﴿أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أى: تظلموا، وفى هذا إن تعرض العبد للأمر الذى يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب - ولو كان مباحًا - أنه لا ينبغى له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطى العبد، ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهن حقوقهن - خصوصًا الصداق الذى يكون شيئًا كثيرًا ودفعة واحدة يشق دفعه للزوجة - أمرهم وحثهم على إيتاء النساء ﴿صَدُقَاتِهِنَّ﴾ أى: مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾ أى: عن طيب نفس وحال طمأنينة، فلا تمطلوهن أو تبخسوا منه شيئًا، وفيه: أن المهر يدفع إلى المرأة إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضى التمليك ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ أى: من الصداق ﴿نَفْسًا﴾ بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شىء منه أو تأخيره أو المعاوضة عنه ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ أى: لا حرج عليكم فى ذلك ولا تبعة، وفيه دليل على أن للمرأة التصرف فى مالها - ولو بالتبرع - إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شىء غير ما طابت به وفى قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهى عنه كالمشركة وكالفاجرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وقال ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾

السفهاء جمع «سفيه» وهو: من لا يحسن التصرف فى المال، إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه ونحوهما، وإما لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد، فنهى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم خشية إفسادها وإتلافها، لأن الله جعل الأموال قيامًا لعباده فى مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها، فأمر الله الولى أن لا يؤتيهم إياها بل يرزقهم منها ويكسوهم ويبذل منها، ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية، وأن يقولوا لهم قولا معروفًا بأن يعدوهم - إذا طلبوها - أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم فى الأقوال جبرًا لخواطرهم، وفى إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا فى أموال السفهاء ما يفعلونه فى أموالهم من الحفظ والتصرف، وعدم التعرض للأخطار، وفى الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه فى مالهم، إذا كان لهم مال، لقوله ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ وفيه دليل على أن قول الولى مقبول فيما يدعيه فى النفقة الممكنة والكسوة لأن الله جعله مؤتمنًا على مالهم، فلزم قبول قول الأمين.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

الابتلاء هو: الاختبار والامتحان، وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد الممكن رشده شيئًا من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه، فإن استمر غير محسن للتصرف لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه ولو بلغ عمرًا كثيرًا، فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ كاملة موفرة ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم ﴿وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها، وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء الذين ليس عندهم خوف من الله ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال حال فرصة فيغتنمونها ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (٧)﴾

كان العرب في الجاهلية ـ من جبروتهم[1] وقسوتهم، لا يورثون الضعفاء كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء، لأنهم ـ بزعمهم ـ أهل الحرب والقتال والنهب السلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعبادة شرعًا يستوي فيه رجالهم ونساؤهم، وأقوياؤهم وضعفاؤهم، وقدم بين يدي ذلك أمرًا مجملاً لتتوطن على ذلك النفوس، فيأتي التفصيل بعد الإجمال قد تشوفت له النفوس وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة فقال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ أي: قسط وحصة ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: خلف ﴿الْوَالِدَانِ﴾ أي: الأب والأم ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾ عمومًا بعد خصوص ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ فكأنه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف والعادة، وأن يرضخوا لهم ما يشاءون؟ أو شيئًا مقدرًا؟ فقال تعالى ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: قدره العليم الحكيم، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ تقدير ذلك، وأيضًا فهنا توهم آخر، لعل أحدًا يتوهم أن النساء والرجال ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير فأزال ذلك بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ فتبارك الله أحسن الحاكمين.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨)﴾

وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة، الجابرة للقلوب فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أي: قسمة المواريث ﴿أُولُو الْقُرْبَى﴾ أي: الأقارب غير الوارثين، بقرينة قوله تعالى: ﴿الْقِسْمَةَ﴾ لأن الوارثين من المقسوم عليهم، و ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ﴾ أي: المستحقون من الفقراء ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب ولا عناء ولا نصب، فإن نفوسهم متشوفة إليه وقلوبهم متطلعة، فاجبروا خواطرهم بما لا يضركم وهو نافعهم، ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر، كما كان النبي ﷺ يقول: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه معه، فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين» أو كما قال، وكان الصحابة ﷺ ـ إذا بدأت باكورة أشجارهم ـ أتوا بها رسول الله ﷺ فبرك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك، علمًا منه بشدة تشوقه إلى ذلك، وهذا كله مع إمكان الإعطاء، فإن لم يمكن ذلك ـ لكونه حق سفهاء، أو ثم أهم من ذلك ـ فليقولوا لهم ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ يردونهم ردًا جميلاً، بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾

(١) في الأصل (جبريتهم) وهو غير سائغ لغة، ولذا أبدلناها بـ (جبروتهم).

قيل: إن هذه خطاب لمن يحضر من حضره الموت وأجنف فى وصيته أن يأمره بالعدل فى وصيته، والمساواة فيها بدليل قوله: ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ أى: سداداً موافقًا للقسط والمعروف، وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم، وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء، من المجانين، والصغار والضعاف، أن يعاملوهم فى مصالحهم الدينية والدنيوية، بما يحبون أن يعامل مَنْ بعدهم من ذريتهم الضعاف ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى ولايتهم لغيرهم، أى: يعاملونهم بما فيه تقوى الله من عدم إهانتهم والقيام عليهم، وإلزامهم لتقوى الله، ولما أمرهم بذلك زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعد فقال على ذلك أشد العذاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً﴾ أى: بغير حق، وهذا القيد يخرج به ما تقدم من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى، فمن أكلها ظلمًا فإنما ﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾ أى: فإن الذى أكلوه نار تتأجج من أجوافهم، وهم الذين أدخلوه فى بطونهم ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ أى: نارًا محرقة متوقدة، وهذا أعظم وعيد ورد فى الذنوب يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر، نسأل الله العافية.

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) ﴾

أحكام المواريث ـ وبيان أصحابها

هذه الآيات والآية التى هى آخر السورة من آيات المواريث المتضمنة لها، فإنها، مع حديث عبد الله بن عباس الثابت فى صحيح البخارى: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر» مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها، كما سترى ذلك، إلا ميراث الجدات فإنه غير مذكور فى ذلك، لكنه قد ثبت فى السنن عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبى ﷺ أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك.

بيان ميراث الأولاد: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أى: أولادكم ـ يا معشر الوالدين ـ عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلمونهم وتؤدبونهم وتكفونهم عن المفاسد، وتأمرونهم بطاعة الله وملازمة التقوى على الدوام، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فالأولاد ـ عند والديهم ـ موصى بهم، فإما أن يقوموا بتلك الوصية فلهم جزيل الثواب، وإما أن يضيعوها، فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب، وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين ـ مع كمال شفقتهما ـ عليهم، ثم ذكر كيفية إرثهم فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أى: الأولاد للصلب، والأولاد للابن، للذكر مثل حظ الأنثيين إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك، وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه مع وجود أولاد الصلب فالميرث لهم، وليس لأولاد الابن

شيء حيث كان أولاد الصلب ذكوراً أو إناثاً، هذا مع اجتماع الذكور والإناث، وهنا حالتان: انفراد الذكور، وسيأتي حكمها، وانفراد الإناث، وقد ذكره بقوله:

أحكام البنات في الميراث: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي بنات صلب، أو بنات ابن، ثلاثاً فأكثر ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ أي: بنتاً، أو بنت ابن ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وهذا إجماع، بقى أن يقال: من أين يستفاد أن للابنتين الثنتين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟ فالجواب أنه يستفاد من قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة انتقل الفرض عن النصف، ولا ثم بعده إلا الثلثان، وأيضاً فقوله ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ إذا خلف ابنا وبنتا فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدل ذلك على أن للبنتين الثلثين، وأيضاً فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها ـ وهو أزيد ضرراً عليها من أختها ـ فأخذها له ـ مع أختها ـ من باب أولى وأحرى، وأيضاً فإن قوله تعالى في الأختين: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ نص في الأختين الثلثين، فإذا كان الأختان الثنتان ـ مع بعدهما ـ يأخذان الثلثين فالابنتان ـ مع قربهما ـ من باب أولى وأحرى، وقد أعطى النبي ﷺ ابنتى سعد الثلثين، كما في الصحيح، بقى أن يقال: فما الفائدة في قوله ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾؟ قيل: الفائدة في ذلك ـ والله أعلم ـ أنه ليعلم أن الفرض الذى هو الثلثان لا يزيد بزيادتهن على الثنتين، بل من الثنتين فصاعداً، ودلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة وبنت ابن أو بنات ابن، فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس تكملة الثلثين، ومثل ذلك بنت الابن مع بنات الابن، اللاتي أنزل منها، وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين أنه يسقط من دونهن من بنات الابن، لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم، فلو لم يسقطن لزم من ذلك أن يفرض لهن الثلثين، وهو خلاف النص، وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء ولله الحمد، ودل قوله ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت من عقار وأثاث وذهب وفضة، وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمة.

أحكام الأبوين في الميراث: ثم ذكر ميراث الأبوين فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: أبوه وأمه ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: ولد صلب أو ولد ابن، ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو متعدداً، فأما الأم فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد.

أحكام الأب في الميراث: وأما الأب فمع الذكور منهم لا يستحق أزيد من السدس، فإن كان الولد أنثى أو إناثاً، ولم يبق بعد الفرض شيء، كأبوين وابنتين، لم يبق له تعصيب، وإن بقى بعد فرض البنت أو البنات شيء أخذ الأب السدس فرضاً والباقي تعصيباً، لأننا ألحقنا الفروض بأهلها، فما بقى فلأولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعم، وغيرهما ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ أي: والباقي للأب، لأنه أضاف المال إلى الأب والأم إضافة واحدة ثم قدر نصيب الأم، فدل ذلك على أن الباقي للأب، وعلم من ذلك أن الأب ـ مع عدم الأولاد ـ لا فرض له بل يرث ـ تعصيباً ـ المال كله، أو ما أبقت الفروض، ولكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين ـ ويعبر عنهما بالعمريتين ـ فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي، وقد دل على ذلك قوله: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ ثلث ما ورثه الأبوان، وهو في هاتين الصورتين إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب، فلم تدل الآية على إرث الأم ثلث المال كاملاً، مع عدم الأولاد، حتى يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا، ويوضح ذلك أن الذى يأخذه الزوج أو الزوجة، بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين، ولأنا لو أعطينا الأم ثلث المال لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج، أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهذا لا نظير له، فإن المعهود مساواتها للأب أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ أشقاء أو الأب أو الأم، ذكوراً أو إناثاً، وارثين أو محجوبين بالأب أو الجد، لكن قد يقال: ليس ظاهر قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ شاملاً لغير الوارثين، بدليل عدم تناولها للمحجوب بالوصف، فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الأخوة إلا الإخوة الوارثون، ويؤيده أن الحكمة في حجبهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال، وهو

معـدوم، والله أعلم، ولكن يشترط كـونهم اثنين فأكثـر، ويشكل على ذلك إتيان لفظ «الإخـوة» بلفظ الجمع، وأجيب عن ذلك بأن المقصود مجرد التعدد لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين، وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان، كما في قوله تعالى عن داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وقال في الإخوة للأم: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ فـأطـلق لفظ الجمع والمـراد به اثنان فأكثـر بالإجماع، فعلى هذا لو خلف أمّـا وأبًا وإخوة كان للأم السـدس والباقى للأب، فحـجبوها عن الثلث مع حـجب الأب إياهم، إلا على الاحتمـال الآخر فإن للأم الثلث والبـاقى للأب، ثم قال تعـالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أى: هذه الفروض والأنصباء والمواريث إنـما ترد وتستحق بعد نزع الديون التى على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التى قد أوصى الميت بها بعد موته، فالباقى عن ذلك هو التركة التى يستـحقها الورثة، وقدم الوصية - مع أنها مـؤخرة عن الدين - للاهتمام بشأنها، لكون إخراجـها شاقًا على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها وتكون من رأس المـال، وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل للأجنبى الذى هو غير وارث، وأما غير ذلك فـلا ينفذ، إلا بإجازة الورثة، قال تعالى: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ فلو رد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم لحصل من الضرر ما الله به عليم، لنقص العقول، وعـدم معـرفتـها بمـا هو اللائق والأحسن، فى كل زمـان ومكان، فـلا يدرون أى الأولاد أو الوالدين أنفع لهم وأقرب، لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى: فرضها الله الذى قد أحاط بكل شىء علمًا، وأحكم مـا شرعه، وقدر ما قدره، على أحـسن تقدير لا تستطيع العقول أن تقـترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

حكم الزوج والزوجات في الميراث: ثم قال تعالى ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ ويدخل فى مسمى الولد المـشروط وجوده أو عدمـه ولد الصلب أو ولد الابن الذكر والأنثى، الواحد والمـتعدد الذى من الزوج أو من غيـره، ويخرج عنه ولد البنات إجماعًا.

بيان معنى (الكلالة) ونصيبها في الميراث: ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أى: من أم، كما هى فى بعض القراءات، وأجمع العلمـاء على أن المراد بالإخوة - هنا - الإخوة للأم، فإذا كان يورث كلالة أى: ليس للميت والد ولا ولد، أى لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت ولا بنت ابن، وإن نزلوا، وهذه هى الكلالة كمـا فسرها بذلك أبو بكر الصـديق ﷺ، وقد حصل على ذلك الاتفاق، ولله الـحمد ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ أى: من الأخ والأخت ﴿السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ﴾ أى: من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ أى: لا يزيدون على الثلث، ولو زادوا عن اثنيـن، ودل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ أن ذكـرهم وأنثاهـم سواء، لأن لفظ «الشـريك» يقتـضى التسوية، ودل لفظ الكلالة على أن الفروع وإن نزلـوا، والأصول الذكور وإن علوا يسـقطون أولاد الأم لأن الله لم يورثهم إلا فى الكلالة، فلو لم يكن يورث كـلالة لم يرثوا منه شيئًا اتفـاقًا، ودل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ أن الإخوة الأشقاء يسقطون فى المسـألة المسماة بالحمارية، وهى: زوج وأم وإخوة لأم وإخوة أشـقاء، للزوج النصف وللأم السدس وللإخوة للأم الثلث، ويسـقط الأشقاء، لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمـعًا لما فرق الله حكمه، وأيضًا فإن الأخوة للأم أصحاب فـروض، والأشقاء عصبـات، وقد قال النبى ﷺ : «ألحـقوا الفرائض بأهلها، فمـا بقى فلأولى رجل ذكر» وأهل الفروض هم الذين قدر الله أنصباءهم، ففى هذه المسـألة لا يبقى بعدهم شىء فيسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب فى ذلك، وأما ميراث الإخوة والأخـوات الأشقاء أو الأب فمذكور فى قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ الآية، فالأخت الواحدة، شقيقة أو لأب، لها النصف، والثنتـان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخـوات تأخذ النصف الباقى من الثلثين للأخـت أو الأخوات لأب وهو السدس،

تكملة الثلثين، وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين تسقط الأخوات للأب، كما تقدم فى البنات وبنات الابن، وإن كان الإخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين.

حكم القاتل واختلاف دين الميت وأقربائه: فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل الرقيق، والمخالف فى الدين، والمبعض، والخنثى، والجد مع الإخوة لغير أم، والعول، والرد وذوى الأرحام، وبقية العصبة، والأخوات لغير أم، مع البنات، أو بنات الابن، من القرآن أم لا؟ **قيل:** نعم، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يعسر فهمها على غير المتأمل، تدل على جميع المذكورات، فأما (القاتل والمخالف فى الدين) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية فى توزيع المال على الورثة، بحسب قربهم، ونفعهم الدينى والدنيوى، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ وقد علم أن القاتل قد سعى لمورثه[1] بأعظم الضرر، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل، الذى هو ضد النفع الذى رتب عليه الإرث، فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع من الميراث، ويقطع الرحم الذى قال الله فيه: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن «من استعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه» وبهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له، وذلك أنه قد تعارض الموجب الذى هو اتصال النسب الموجب للإرث، والمانع الذى هو المخالفة فى الدين الموجبة للمباينة من كل وجه، فقوى المانع ومنع موجب الإرث، الذى هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع، يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية، فإذا مات المسلم انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به، فيكون قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ إذا اتفقت أديانهم، وأما مع تباينهم فالأخوة الدينية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة، قال ابن القيم فى «جلاء الأفهام»: «وتأمل هذا المعنى من آية المواريث وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة كما فى قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ ففيه إيذان[2] بأن التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث، وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العاقلين. انتهى.

حكم الرقيق فى الميراث: وأما (الرقيق) فإنه لا يرث ولا يورِّث، أما كونه لا يورِّث فواضح، لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده، وأما كونه لا يرث فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان سيده، وهو أجنبى من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ ونحوها، لمن يتأتى منه التملك، وأما الرقيق فلا يتأتى منه ذلك فعلم أنه لا ميراث له، وأما من بعضه حر وبعضه رقيق فإنه تتبعض أحكامه، فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبه الله فى المواريث، لكون ما فيه من الحرية قابلاً للتملك، وما فيه من الرق فليس بقابل لذلك، فإذًا يكون المبعض يرث ويورث، ويحجب بقدر ما فيه من الحرية، وإذا كان العبد يكون محمودًا ومذمومًا، مثابًا ومعاقبًا، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك.

حكم الخنثى والمشكل فى الميراث: وأما (الخنثى) فلا يخلو إما أن يكون واضحًا ذكوريته أو أنوثيته أو مشكلاً، فإن كان واضحًا فالأمر فيه واضح، إن كان ذكرًا فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم، وإن كانت أنثى فلها حكم الإناث ويشملها النص الوارد فيهن، وإن كان مشكلاً، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما، كالإخوة للأم، فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين، لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل لاحتمال ظلمنا[3]

---

(١) قوله: الأولى (لمورثه) خطأ، والصحيح (لمورثه) لأن كلمة (موروث) معناها الحقيقى تركة الميت فيقال: مال موروث، ولا يقال ـ على وجه الحقيقة ـ ميت موروث، لأن جثته لا تورث، ولا داعى لارتكاب المجاز.

(٢) إيذان: أى إعلام وتعليم.

(٣) قوله: (ظلمنا له) هكذا فى الأصل وهو خطأ نحوى لأن (ظلم) يتعدى بنفسه لا باللام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ ولذا أصلحناه كما ترى.

إياه، فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوك أعدل الطريقين، قال تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فليس لنا طريق إلى العدل فى مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

ميراث الجد: وأما (ميراث الجد) مع الأخوة الأشقاء أو لأب وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبى بكر ﷺ أن الجد يحجب الإخوة، أشقاء أو لأب أو لأم، كما يحجبهم الأب، وبيان ذلك أن الجد أب فى غير موضع فى القرآن كقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ الآية، وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فسمى الله الجد وجد الأب أبًا، فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه (أى: عند عدمه) وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه فى ميراثه مع الأولاد وغيرهم، من بين الإخوة والأعمام وبينهم، وسائر أحكام المواريث، فينبغى أيضًا أن يكون حكمه حكمه فى حجب الإخوة لغير أم، وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب، فلِمَ لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ قد اتفق العلماء على أنه يحجبه فلِمَ لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع من يورث الإخوة مع الجد، نص ولا إشارة ولا تنبيه، ولا قياس صحيح.

العول وأحكامه: وأما مسائل (العول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض وقدر لأهل المواريث أنصباء، وهم بين حالتين: إما أن يحجب بعضهم بعضًا أو لا، فإن حجب بعضهم بعضًا فالمحجوب ساقط لا يزاحم ولا يستحق شيئًا، وإن لم يحجب بعضهم بعضًا فلا يخلو إما أن لا تستغرق الفروض التركة أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص، أو تزيد الفروض على التركة، ففى الحالتين الأوليين كلٌّ يأخذ فرضه كاملاً، وفى الحالة الأخيرة وهى ـ ما إذا زادت الفروض على التركة ـ فلا يخلو من حالين: إما أن ننقص بعض الورثة عن فرضه الذى فرضه الله له ونكمل للباقين منهم فروضهم، وهذا ترجيح بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر، فتعينت الحال الثانية، وهو: أننا نعطى كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان ونحاصص بينهم، كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم، ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول، فعلم من هذا أن العول فى الفرائض قد بينه الله فى كتابه.

بيان أحكام الرد على أصحاب الفرائض: وبعكس هذه الطريقة بعينها، يعلم (الرد) فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضهم التركة وبقى شىء ليس له مستحق من عاصب قريب ولا بعيد، فإن رده على أحدهم ترجيح بغير مرجح، وإعطاؤه غيرهم ممن ليس بقريب للميت، جنف وميل، معارضة لقوله: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللَّهِ﴾ فتعين أن يرد على أهل الفروض، بقدر فروضهم.

حكم الرد على الزوجين فى الميراث: ولما كان الزوجان ليسا من القرابة لم يستحقا الزيادة على فرضهم المقدر عند القائلين بعدم عليهما، وأما على القول الصحيح أن حكم الزوجين حكم باقى الورثة فى الرد، فالدليل المذكور شامل للجميع، كما شملهم دليل العول.

حكم ذوى الأرحام فى الميراث: وبهذا يعلم أيضًا ميراث ذوى الأرحام، فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض ولا عاصبًا، وبقى الأمر دائرًا بين كون ماله يكون لبيت المال لمنافع الأجانب، وبين كون ماله يرجع إلى أقربائه المدلين بالورثة المجمع عليهم، تعين الثانى، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللَّهِ﴾ فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولى من غيره، فتعين توريث ذوى الأرحام، وإذا تعين توريثهم فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم فى كتاب الله، وأن بينهم وبين الميت وسائط، صاروا ـ بسببها ـ من الأقارب، فينزلون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط، والله أعلم.

بيان من هم عصبة الميت وحكمهم فى الميراث: وأما (ميراث بقية العصبة) كالبنوة والأخوة وبنيهم والأعمام وبنيهم... إلخ فإن النبى ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر» وقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ

جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾ فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ولم يبق شيء لم يستحق العاصب شيئًا، وإن بقى شىء أخذه أولى العصبة بحسب جهاتهم ودرجاتهم.

جهات العصبة: فإن جهات العصوبة خمس: البنوة، ثم الأبوة، ثم الأخوة وبنوهم، ثم العمومة وبنوهم، ثم الولاء، ويقدم منهم الأقرب جهة، فإن كانوا فى جهة واحدة فالأقرب منزلة، فإن كانوا بمنزلة واحدة فالأقوى، وهو الشقيق، فإن تساووا من كل وجه اشتركوا، والله أعلم، وأما كون الأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن عصبات، يأخذن ما فضل عن فروضهن، فلأنه ليس فى القرآن ما يدل على أن الأخوات يسقطن بالبنات، فإذا كان الأمر كذلك وبقى شىء بعد أخذ البنات فرضهن، فإنه يعطى للأخوات ولا يعدل عنهن إلى عصبة أبعد منهن، كابن الأخ والعم، ومن هو أبعد منهم، والله أعلم.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)﴾

أى: تلك التفاصيل التى ذكرها فى المواريث حدود الله التى يجب الوقوف معها، وعدم مجاوزتها ولا القصور عنها، وفى ذلك دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقديره تعالى أنصباء الوارثين، ثم قوله تعالى: ﴿تلك حدود الله﴾ فالوصية للوارث بزيادة على حقه يدخل فى هذا التعدى، مع قوله ﷺ: «لا وصية لوارث» ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عمومًا، ليدخل فى العموم لزوم حدوده فى الفرائض، أو ترك ذلك فقال: ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ بامتثال أمرهما الذى أعظمه طاعتهما فى التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيهما الذى أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصى على اختلاف طبقاتها ﴿يُدْخِلْهُ جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ فمن أدى الأوامر واجتنب النواهى فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار ﴿وذلك الفوز العظيم﴾ الذى حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم، الذى لا يصفه الواصفون ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ إلخ، ويدخل فى اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصى، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصى، فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله، ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب، ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه دخل النار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية، وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد غير مخلدين فى النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦)﴾

﴿واللاتى﴾ أى النساء ﴿يأتين الفاحشة﴾ أى: الزنا، فوصفها بالفاحشة لشناعتها وقبحها ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ أى: من رجالكم المؤمنين العدول ﴿فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت﴾ احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضًا فإن الحبس من جملة العقوبات ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ أى: هذا منتهى الحبس ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ أى: طريقًا غير الحبس فى البيوت، فهذه الآية ليست منسوخة، فإنما هى مغياة إلى ذلك الوقت، فكان الأمر فى أول الإسلام كذلك حتى جعل الله لهن سبيلاً، وهو رجم المحصن والمحصنة، وجلد غير المحصن والمحصنة ﴿و﴾ كذلك ﴿اللذان يأتيانها﴾ أى: الفاحشة ﴿منكم﴾ من الرجال والنساء ﴿فآذوهما﴾ بالقول والتوبيخ والتعيير والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، فعلى هذا كان الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحبسن ويؤذين، فالحبس غايته للموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح، ولهذا قال: ﴿فإن

تابا﴾ أى: رجعا عن الذنب الذى فعلاه وندما عليه وعزما أن لا يعودا ﴿وأصلحا﴾ العمل الدال على صدق التوبة ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أى: عن أذاهما ﴿إن الله كان توابا رحيما﴾ أى: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان الذى ـ من إحسانه ـ وفقهم للتوبة وقبلها منهم وسامحهم عن ما صدر منهم، ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بينة الزنا أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم، لأن الله تعالى شدد فى أمر هذه الفاحشة سترًا لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات، ولا مع الرجال، ولا مع دون أربعة، ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة وتومئ إليه هذه الآية لما قال: ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ لم يكتف بذلك حتى قال: ﴿فإن شهدوا﴾ أى: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عيانًا من غير تعريض ولا كناية، يؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والحبس قد شرعه الله تعزيرًا لجنس المعصية الذى يحصل به الزجر.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)﴾

توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر هنا ـ أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرمًا منه وجودًا، لمن عمل السوء أى: المعاصى ﴿بجهالة﴾ أى: جهالة منه لعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه لنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالمًا بالتحريم بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقبًا عليها ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ يحتمل أن يكون المعنى: ثم يتوبون قبل معاينة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعًا، وأما بعد حضور الموت فلا يقبل من العاصين توبتهم ولا من الكفار رجوع، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده﴾ وقال هنا: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾ أى: المعاصى فيما دون الكفر ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما﴾ وذلك أن التوبة فى هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار، ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿من قريب﴾ أى: قريب من فعلهم الذنب الموجب للتوبة، فيكون المعنى: من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب وأناب إلى الله وندم عليه فإن الله يتوب عليه، بخلاف من استمر على ذنبه وأصر على عيوبه حتى صارت فيه صفات راسخة فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة، والغالب أنه لا يوفق للتوبة ولا ييسر لأسبابها، كالذى يعمل السوء على علم قائم ويقين متهاون بنظر الله إليه، فإنه يسد على نفسه باب الرحمة، نعمْ قد يوفق الله عبده المصرّ على الذنوب ـ على عمد ويقين ـ للتوبة النافعة التى يمحو بها ما سلف من سيئاته وما تقدم من جناياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا ختم الآية الأولى بقوله ﴿وكان الله عليما حكيما﴾ فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها، فيجازى كلا منهما بحسب ما استحق بحكمته، ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه، والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ

﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

كانوا فى الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته رأى قريبه كأخيه وابن عمه ونحوهما أنه أحق بزوجته من كل أحد وحماها عن غيره أحبت أو كرهت، فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها، وإن لم يرضها عضلها، فلا يزوجها إلا من يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئًا من ميراث قريبه أو من صداقها، وكان الرجل أيضًا يعضل زوجته التى يكون يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها، فنهى الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول، كما هو مفهوم قوله ﴿كَرْهًا﴾ وإذا أتين بفاحشة مبينة كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها، فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها عقوبة لها على فعلها، لتفتدى منه إذا كان عضلاً بالعدل، ثم قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، من الصحبة الجميلة وكف الأذى وبذل الإحسان وحسن المعاملة، ويدخل فى ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها، فى ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أى: ينبغى لكم - أيها الأزواج - أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن فى ذلك خيرًا كثيرًا، من ذلك امتثال أمر الله وقبول وصيته التى فيها سعادة الدنيا والآخرة، ومنها: أن إجباره نفسه - مع عدم محبته لها - فيه مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة كما هو الواقع فى ذلك، وربما رزق منها ولدًا صالحًا نفع والديه فى الدنيا والآخرة، وهذا كله مع الإمكان في الإمساك، وعدم المحذور، فإذا كان لا بد من الفراق وليس للإمساك محل فليس الإمساك بلازم بل متى ﴿أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أى: تطليق زوجة وتزوج أخرى، أى: فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج، ولكن إذا ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾ أى: المفارقة أو التى تزوجها ﴿قِنطَارًا﴾ أى: مالاً كثيرًا ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ بل وفروه لهن ولا تمطلوا بهن، وفى هذا الآية دلالة عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبى ﷺ فى تخفيف المهر، ووجه الدلالة أن الله أخبر عن أمر يقع منهم ولم ينكره عليهم، فدل على عدم تحريمه، لكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحة تقاوم، ثم قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ فإن هذا لا يحل ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل، فإن إثمه واضح، وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وبيان ذلك أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمة على الزوج ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذى يدفعه لها، فإذا دخل بها وأفضى إليها وباشرها المباشرة التى كانت حرامًا قبل ذلك، والتى لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض فإنه قد استوفى المعوض فثبت عليه العوض، فكيف يستوفى المعوض ثم بعد ذلك يرجع فى العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور، وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقًا غليظًا بالعقد والقيام بحقوقها.

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

أى: لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آباؤكم، أى: الأب وإن علا ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أى: أمرًا قبيحًا يفحش ويعظم قبحه ﴿وَمَقْتًا﴾ من الله لكم ومن الخلق، بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه، والأب ابنه، مع الأمر ببره ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أى: بئس الطريق طريقًا لمن سلكه، لأن هذا من عوائد الجاهلية، التى جاء الإسلام بالتنزه عنها والبراءة منها.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي

حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

هذه الآيات الكريمات مشتملات على المحرمات بالنسب والمحرمات بالصهر والمحرمات بالجمع، وعلى المحللات من النساء، فأما المحرمات فى النسب فهن السبع اللاتى ذكرهن الله، الأم، يدخل فيها كل من لها عليك ولادة وإن بعدت، ويدخل فى البنت كل من لك عليها ولادة، والأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم، والعمة: كل أخت لأبيك أو لجدك وإن علا، والخالة: كل أخت لأمك أو جدتك وإن علت، وارثة أم لا، وبنات الأخ، وبنات الأخت، أى: وإن نزلت، فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء، كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن فيدخل فى قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ وذلك كبنت العمة والعم وبنت الخال والخالة، وأما المحرمات بالرضاع، فقد ذكر الله منهن الأم، الأخت، وفى ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها إنما هو لصاحب اللبن، دل بتنبيهه على أن صاحب اللبن يكون أبًا للمرتضع، فإذا ثبتت الأبوة والأمومة، ثبت ما هو فرع عنهما، كأخوتهما وأصولهما وفروعهما، وقال النبى ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» فينتشر التحريم من جهة المرضعة ومن له اللبن، كما ينتشر فى الأقارب وفى الطفل المرتضع إلى ذريته فقط، لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات فى الحولين، كما بينت السنة، وأما المحرمات بالصهر فهن أربع: حلائل الآباء وإن علوا، وحلائل الأبناء وإن نزلوا، وارثين أو محجوبين، وأمهات الزوجة، وإن علون، فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد، والرابعة: الربيبة، وهى بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجته كما قال هنا: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ الآية، وقد قال الجمهور: إن قوله: ﴿اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم﴾ قيد خرج بمخرج الغالب، لا مفهوم له، فإن الربيبة تحرم، ولو لم تكن فى حجره، ولكن للتقييد بذلك فائدتان: إحداهما: التنبيه على الحكمة فى تحريم الربيبة وأنها كانت بمنزلة البنت فمن المستقبح إباحتها، والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة وأنها بمنزلة من هى فى حجره من بناته ونحوهن، والله أعلم، وأما المحرمات بالجمع فقد ذكر الله الجمع بين الأختين، وحرمه، وحرم النبى ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم، لو قدر إحداهما ذكرًا والأخرى أنثى حرمت عليه فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما فى ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام، ومن المحرمات فى النكاح ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أى: ذوات الأزواج، فإنه يحرم نكاحهن ما دمن فى ذمة الزوج حتى تطلق وتنقضى عدتها، و ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أى: بالسبى، فإذا سبيت الكافرة ذات الزوج حلت للمسلمين بعد أن تستبرأ، وأما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وهبت فإنه لا ينفسخ نكاحها لأن المالك الثانى نزل منزلة الأول، ولقصة بريرة حين خيرها النبى ﷺ، وقوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أى: الزموه واهتدوا به، فإن فيه الشفاء والنور وفيه الحلال من الحرام، ودخل فى قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ كل ما لم يذكر فى هذه الآية، فإنه حلال طيب، فالحرام محصور، والحلال ليس لا حد ولا حصر، لطفًا من الله ورحمة وتيسيرًا للعباد، وقوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾ أى: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم من اللاتى أباحهن الله لكم حالة كونكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ أى: مستعفين عن الزنا، ومعفين نساءكم ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ والسفح: سفح الماء فى الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته لكونه وضع شهوته فى الحرام فتضعف داعيته للحلال فلا يبقى محصنًا لزوجته، وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف، لقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ أى: من تزوجتموهن ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أى:

الأجور فى مقابلة الاستمتاع، ولهـذا إذا دخل الزوج بزوجته تقرر عليه صداقها ﴿فَرِيضَةً﴾ أى: إتيـانكم إياهن أجورهن فرض فرضـه الله عليكم ليس بمنزلة التبرع الذى إن شاء أمضاه، وإن شاء رده، أو مـعنى قوله فريضة: أى مقدرة قد قدرتموها فوجبت عليـكم فلا تنقصوا منها شيئًا ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ أى: بزيادة من الزوج أو إسقـاط من الزوجة عن رضا وطيب نـفس، هذا قول كثيـر من المفسـرين، وقال كثير منهم: إنها نزلت فى متعة الـنساء التى كانت حلالاً فى أول الإسلام ثم حرمها النبى ﷺ، وأنه يؤمر بتـوقيتها وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذى بينهما فتراضيا بعد الفريضة فلا حرج عليهما، والله أعلم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى: كامل العلم واسعه، كامل الحكمة، فمن علـمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام، ثم قال تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

أى: ومن لم يستطع الطول الذى هو المهر لنكاح المحـصنات، أى: الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العنت، أى: الزنا والمشقة الكثيـرة، فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المـؤمنات، وهذا بحسب ما يظهر، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصـادق من غيره، فأمور الدنيـا مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مـبنية على ما فى البواطن ﴿فَانكِحُوهُنَّ﴾ أى: المملوكات ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أى: سيدهن، واحدًا أو متعددًا ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: ولو كن إماء فإنه كما يجب المهر للحرة فكذلك يجب للأمة، ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ أى: عفيفات عن الزنا ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ أى: زانيات علانية ﴿وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أى: أخلاء فى السـر، فالحاصل أنه لا يجـوز للحر المسلـم نكاح أمة إلا بأربعة شـروط ذكرها الله: إيمانهن والعـفة ظاهرًا وباطنًا، وعدم استطاعـة طول الحرة، وخوف العنت، فإذا تمت هذه الشـروط جاز له نكاحهن، ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل لما فيه من تعريض الأولاد للرق ولما فيه من الدناءة والعيب، وهذا إذا أمكن الصبر، فإن لم يكن الصبر عن الحـرام إلا بنكاحهن وجب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ أى: تزوجن أو أسلمن، أى الإماء ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ أى: الحرائر ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ وذلك الذى يمكن تنصيفه، وهو: الجلد، فيكون عليهن خمسون جلدة، وأما الرجم فليس على الإماء رجم لأنه لا يتنصف، فـعلى القول الأول إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد، إنمـا عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفـاحشة، وعلى القول الثانى: إن الإماء غيـر المسلمات إذا فعلن فاحشـة أيضًا عزرن، وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين «الغفور الرحيم» لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد وكرمًا وإحسانًا إليهم، فلم يضيق عليهم بل وسع غاية السعـة، ولعل فى ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحـدود كفارات يغفر الله بها ذنوب عباده كما ورد بذلك الحديث، وحكم العبد الذكر فى الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

يخبر تعالى بمنته العظيمـة ومنحته الجسيمة وحسن تربيته لعبـاده المؤمنين وسهولة دينه فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أى: جميع ما تحتاجون إلى بيانه، من الحق والباطل، والحلال والحرام ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن

﴿قَبْلِكُم﴾ أى: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم فى سيرهم الحميدة وأفعالهم السديدة وشمائلهم الكاملة وتوفيقهم التام، فلذلك نفذ ما أراده ووضح لكم وبيَّن بيانًا، كما بيَّن لمن قبلكم وهداكم هداية عظيمة فى العلم والعمل ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أى: يلطف بكم فى أحوالكم وما شرعه لكم حتى تتمكنوا من الوقوف على ما حده الله والاكتفاء بما أحله، فتقل ذنوبكم بسبب ما يسر الله عليكم، فهذا من توبته على عباده، ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة وأوزع قلوبهم الإنابة إليه والتذلل بين يديه ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له، فله الحمد والشكر، على ذلك، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: كامل الحكمة، فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود، ومن حكمته أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله من لا يصلح للتوبة، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أى: توبة تلم شعثكم وتجمع متفرقكم وتقرب بعيدكم ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ أى: يميلون معها حيث مالت ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم ويعبدون أهواءهم من أصناف الكفرة والعاصين المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم، فهؤلاء يريدون ﴿أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ أى: تنحرفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم والضالين، يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها، فى امتثال أوامره إلى من الشقاوة كلها فى اتباعه، فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعيين وتخيروا أحسن الطريقتين ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أى: بسهولة ما أمركم به ونهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة فى بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم كالميتة والدم ونحوهما للمضطر، وكتزوج الأمة للحر بتلك الشروط السابقة، وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه ضعف البنية وضعف الإرادة وضعف العزيمة وضعف الإيمان وضعف الصبر فناسب ذلك أن يخفف الله عنه ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل أكلها بالغصوب والسرقات وأخذها بالقمار والمكاسب الرديئة، بل لعله يدخل فى ذلك أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف، لأن هذا من الباطل وليس من الحق، ثم إنه ـ لما حرم أكلها بالباطل ـ أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع المشتملة على الشروط من التراضى وغيره ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا يقتل بعضكم بعضًا ولا يقتل الإنسان نفسه، ويدخل فى ذلك الإلقاء بالنفس فى التهلكة وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتبه من الحدود، وتأمل هذا الإيجاز والجمع فى قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم﴾ و ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ كيف شمل أموال غيرك ومال نفسك، وقتل نفسك وقتل غيرك، بعبارة أخصر من قوله: «لا يأكل بعضكم مال بعض» و «لا يقتل بعضكم بعضًا» مع قصور هذه العبارة على مال الغير ونفس الغير، مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين فيه دلالة على أن المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ومصالحهم كالجسد الواحد، حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية، ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل التى فيها غاية الضرر عليهم على الآكل، ومن أخذ ماله أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات، وأنواع الحرف والإجارات فقال: ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ أى: فإنها مباحة لكم، وشرط التراضى ـ مع كونها تجارة ـ لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا، لأن الربا ليس من التجارة بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين ويأتى به اختيارًا، ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلومًا، لأنه إذا لم

يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدورًا علـى تسليمه، لأن غير المقدور عليه، شبيه ببيع القـمار، فبيع الغرر بجميع أنواعه، خال من الرضا فـلا ينفذ عقده، وفيها أنه تنـعقد العقود بما دل عليهـا، من قول أو فعل، لأن الله شرط الرضا فبأى طريق حصل الرضا انعقد به العقد، ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته، أن عصم دماءكم وأموالكم، وصانها، ونهاكم عن انتهاكها، ثم قال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أى: أكل الأموال بالباطل، وقتل النفوس ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ أى: لا جهلاً ونسيانًا ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أى: عظيمة كما يفيده التنكير ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات غفر لهم جميع الذنوب والسيئات وأدخلهم مدخلاً كريمًا كثير الخير وهو الجنة المشتملة على ما لا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطر على قلب بشر، ويدخل فى اجتناب الكبائر فعل الفـرائض التى يكون تاركها مـرتكبًا كبيـرة، كالصلوات الخمس والجـمعة وصـوم رمضان، كمـا قال النبى ﷺ: «الصلوات الخمس والجـمعة إلى الجمعـة ورمضان إلى رمضان مـكفرات لما بينها ما اجـتنبت الكبائر» وأحسن ما حدت به الكبائر أن الكبيرة ما فيه حد فى الدنيا، أو وعيد فى الآخرة، أو نفى إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

ينهى تعالى المـؤمنين عن أن يتمنى بعضهم مـا فضل الله به غيره من الأمـور الممكنة وغير المـمكنة، فلا تتمنى النساء خصائص الرجال التى بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنى والكامل تمنيا مجردًا، لأن هذا هو الحسد بعينه، تمنى نعمـة الله على غيرك أن تكون لك ويسلب إياها، ولأنه يقتضى السخط على قدر الله والإخلاد إلى الكسل والأمانى الباطلة التى لا يقترن بها عمل ولا كسب، وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبد، على حسب قدرته، بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله، فلا يتكل على نفسـه، ولا على غير ربه، ولهذا قـال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ أى: من أعمـالهم المنتجة للمطلوب ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ فكل منهم لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ أى: من جميع مصالحكم فى الدين والدنيا، فهذا كمال العبد وعنوان سعادته، لا من يترك العمل أو يتكل على نفسه، غير مفتقر لربه، أو يجمع بين الأمرين، فإن هذا مخذول خاسر، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعطى من يعلمه أهلاً لذلك، ويمنع من يعلمه غير مستحق.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

أى: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الناس ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ أى: يتولونه ويتولاهم بالتعزز والنصرة والمعاونة على الأمور ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وهذا يشمل سائر الأقارب من الأصـول والفروع والحواشى، هؤلاء الموالى من القرابة، ثم ذكر نوعًا آخـر من الموالى فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أى: حالفتموهم بمـا عقدتم معهم من عقد المحالفـة على النصرة والمساعدة والاشتراك بالأموال، وغيـر ذلك، وكل هذا من نعم الله على عباده حيث كان الموالى يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفردًا، قال تعالى: ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أى: آتوا الموالى نصيبهم الذى يجب القيـام به من النصرة والمعـاونة والمساعدة، على غيـر معـصية الله، والميـراث للأقارب الأدنين من المـوالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أى: مطلعًا على كل شىء، بعلمه لجميـع الأمور وبصره لحركات عباده وسمعه لجميع أصواتهم.

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) ﴾

يخبر تعالى أن ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أى: قوامون عليهن بإلزامهن بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه وكفهن عن المفاسد، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضًا بالإنفاق عليهن والكسوة والمسكن، ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أى: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهم، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة، من كون الولايات مختصة بالرجال والنبوة والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجُمَع، وبما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلد، الذى ليس للنساء مثله، وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء، ولعل هذا سر قوله: ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا﴾ وحذف المفعول ليدل على عموم النفقة، فعلم من هذا كله أن الرجال كالوالى والسيد لامرأته، وهى عنده عانية أسيرة، فوظيفته أن يقوم بما استرعاه الله به، ووظيفتها القيام بطاعة ربها وطاعة زوجها، فلهذا قال: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ أى: مطيعات لله تعالى ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أى: مطيعات لأزواجهن حتى فى الغيب، تحفظ بعلها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس أمارة بالسوء، ولكن مَنْ توكل على الله كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه، ثم قال: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أى: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن بأن تعصيه بالقول أو الفعل، فإنه يؤدبها بالأسهل فالأسهل ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أى: ببيان حكم الله فى طاعة الزوج ومعصيته والترغيب فى الطاعة والترهيب من المعصية، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج فى المضجع، بأن لا يضاجعها ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضربها ضربًا غير مبرح، فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور، وأطعنكم ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أى: فقد حصل لكم ما تحبون، فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية والتنقيب عن العيوب التى يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ أى: له العلو المطلق بجميع الوجوه والاعتبارات، علو الذات وعلو القدر وعلو القهر، الكبير الذى لا أكبر منه ولا أجل ولا أعظم، كبير الذات والصفات.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥) ﴾

أى: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتى يكون كل منهما فى شق ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أى: رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، وهذا مستفاد من لفظ «الحكم» لأنه لا يصلح حكمًا إلا من اتصف بتلك الصفات، فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك أقنعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه، فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعاداة والمقاطعة ومعصية الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح فرقا بينهما، ولا يشترط رضا الزوج، كما يدل عليه أن الله سماهما الحكمين، والحكم يحكم، وإن لم يرض المحكوم عليه، ولهذا قال: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أى: بسبب الرأى الميمون والكلام الذى يجذب القلوب ويؤلف بين القرينين ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أى: عالمًا بجميع الظواهر والبواطن مطلقًا على خفايا الأمور وأسرارها، فمن علمه وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة والشرائع الجميلة.

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾

يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلاً وإخلاصًا له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة، وينهى عن الشرك به شيئًا، لا شركًا أصغر ولا أكبر، لا ملكًا ولا نبيًا، ولا وليًا ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد، ثم بعدما أمره بعبادته والقيام بحقه أمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب، فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعل الجميل، بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما، وللإحسان ضدان: الإساءة، وعدم الإحسان، وكلاهما منهى عنه ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أيضًا إحسانًا، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع رحمه بقوله أو فعله ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ أي: الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم وبرهم وجبر خواطرهم وتأديبهم وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر فلم يحصلوا على كفايتهم، ولا كفاية من يمونون، فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم بسد خلتهم وبدفع فاقتهم والحض على ذلك، والقيام بما يمكن منه ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: الجار القريب الذي له حقان: حق الجوار، وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف، وكذلك ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي: الذي ليس له قرابة، وكلما كان الجار أقرب بابًا كان آكد حقًا، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة، واللطافة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته بقول أو فعل ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ قيل: الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقًا، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر، ويشمل الزوجة، فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له، والوفاء معه، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة تأكد الحق، وزاد: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو الغريب الذي احتاج في بلد الغربة، أو لم يحتج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه، بتبليغه إلى مقصوده، أو بعض مقصوده، وبإكرامه وتأنيسه ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: من الآدميين والبهائم، بالقيام بكفايتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما تحملوه، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم، فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل، والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور بقوله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ أي: معجبًا بنفسه متكبرًا على الخلق ﴿فَخُورًا﴾ يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله، فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعهم من القيام بالحقوق، ولهذا ذمهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بأقوالهم وأفعالهم ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق، فجمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين، فلهذا قال تعالى:

﴿وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا﴾ أى: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه، وتسببوا فى منع غيرهم، من البخل، وعدم الاهتداء، أهانهم بالعذاب الأليم، والخزى الدائم، فعياذًا بك اللهم من كل سوء، ثم أخبر عن النفقة الصادرة عن رياء وسمعة وعدم إيمان به فقال: ﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾ أى: ليروهم ويمدحوهم ويعظموهم ﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ أى: ليس إنفاقهم صادرًا عن إخلاص وإيمان بالله ورجاء ثوابه، أى: فهذا من خطوات الشيطان وأعماله التى يدعو حزبه إليها، ليكونوا من أصحاب السعير، وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها، فلهذا قال: ﴿ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا﴾ أى: بئس المقارن والصاحب الذى يريد إهلاك من قارنه، ويسعى فيه أشد السعى، فكما أن من بخل بما آتاه الله وكتم ما منَّ الله عليه عاص آثم، مخالف لربه، فكذلك من أنفق وتعبد لغير الله، فإنه آثم عاص لربه مستوجب للعقوبة، لأن الله إنما أمر بطاعته، وامتثال أمره على وجه الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ فهذا هو العمل المقبول الذى يستحق صاحبه المدح والثواب، فلهذا حث تعالى عليه بقوله:

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

أى: أى شىء عليهم، وأى حرج ومشقة تلحقهم لو حصل منهم الإيمان بالله، الذى هو الإخلاص، وأنفقوا من أموالهم التى رزقهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق، ولما كان الإخلاص سرا بين العبد وربه، لا يطلع عليه إلا الله، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال: ﴿وكان الله بهم عليما﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾

يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يضاد ذلك، من الظلم القليل والكثير فقال: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ أى: ينقصها من حسنات عبده أو يزيدها فى سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ⑦ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ ﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾ أى: إلى عشرة أمثالها وأكثر من ذلك بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها إخلاصًا ومحبة وكمالاً ﴿ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾ أى: زيادة على ثواب العمل بنفسه من التوفيق لأعمال أخر وإعطاء البر الكثير والخير الغزير، ثم قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ أى: كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم، الذى جمع أن من حكم به كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة، بشهادة أزكى الخلق، وهم الرسل، على أممهم، مع إقرار المحكوم عليه؟!! فهذا ــ والله ــ الحكم الذى هو الأحكام وأعدلها وأعظمها، وهناك يبقى المحكوم عليهم مقرين له لكمال الفضل والعدل والحمد والثناء، وهناك يسعد أقوام بالفوز والفلاح، والعز والنجاح، ويشقى أقوام بالخزى والفضيحة والعذاب المبين، ولهذا قال:

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

أى: جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، ومعصية الرسول ﴿لو تسوى بهم الأرض﴾ أى: تبتلعهم، ويكونون ترابًا وعدمًا، كما قال تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا﴾ ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ أى: بل يعترفون له بما عملوا وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيهم الله دينهم: جزاءهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين، فأما ما ورد من أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم فإن ذلك يكون فى بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق وشهدت عليهم جوارحهم، حينئذ ينجلى الأمر ولا يبقى للكتمان موضع، ولا نفع ولا فائدة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، حتى يعلموا ما يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كالمسجد، فإنه لا يمكن السكران من دخوله، وشامل لنفس الصلاة، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة، لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول، ولهذا حدد تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم بما يقول السكران، وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقًا، فإن الخمر - في أول الأمر - كان غير محرم، ثم إن الله تعالى عرَّض لعباده بتحريمه بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر، عند حضور الصلاة، كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الآية، ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة، الذي هو روحها ولبها، وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبثين والتوق لطعام ونحوه، كما ورد في ذلك الحديث الصحيح، ثم قال: ﴿وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنبًا إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل، أي: تمرون في المسجد ولا تمكثون فيه ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ أي: فإذا اغتسلتم فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب، فيحل للجنب المرور في المسجد فقط ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ فأباح التيمم للمريض مطلقًا، مع وجود الماء وعدمه، والعلة هي: المرض الذي يشق معه استعمال الماء وكذلك السفر، فإنه مظنة فقد الماء، فإذا فقده المسافر ووجد معه ما يتعلق بحاجته من شرب ونحوه، جاز له التيمم، وكذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط، أو ملامسة النساء، فإنه يباح له التيمم إذا لم يجد الماء، حضرًا وسفرًا، كما يدل على ذلك عموم الآية، والحاصل: أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين: حال عدم الماء، وهذا مطلقًا في الحضر والسفر، وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه، واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ هل المراد بذلك: الجماع، فتكون الآية نصًا في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة؟ أو المراد بذلك: مجرد اللمس باليد، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة، فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك[1]؟ واستدل الفقهاء بقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت، قالوا: لأنه لا يقال: «لم يجد» لمن لم يطلب، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب، واستدل بذلك أيضًا على أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات يجوز بل يتعين التطهر به لدخوله في قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ وهذا ماء، ونوزع في ذلك، أنه ماء غير مطلق، وفي ذلك نظر، وفي هذه الآية الكريمة مشروعية هذا الحكم العظيم الذي امتن به الله على هذه الأمة، وهو مشروعية التيمم، وقد أجمع على ذلك العلماء، ولله الحمد، وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض، سواء كان له غبار أم لا، ويحتمل أن يختص ذلك بذي الغبار، لأن الله قال في آية الوضوء من سورة المائدة الآية ٦: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ وما لا غبار له لا يمسح به، وقوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي: منه كما في آية (المائدة) هذا محل المسح في التيمم: الوجه جميعه، واليدان إلى الكوعين، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة، كما دل على ذلك حديث عمار، وفيه أن تيمم الجنب كتيمم غيره، بالوجه واليدين.

فائدة: اعلم أن قواعد الطب تدور على ثلاث قواعد: حفظ الصحة عن المؤذيات، والاستفراغ منها،

---

(١) الذي انتهى إليه التحقيق في لمس المرأة أنه لا ينقض الوضوء إلا إذا كانت لشهوة وكان الملامس يعرف من نفسه أن يخرج منه مذي باللمس، وأما إذا لم يؤد اللمس إلى خروج المذي، فلا ينقض اللمس الوضوء، والمسألة راجعة إلى حالة اللامس فكل ما أفضى إلى الإمذاء فهو ناقض للوضوء.

والحمية عنها، وقد نبه تعالى عليها فى كتابه العزيز، أما حفظ الصحة والحمية عن المؤذى، فقد أمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف فى ذلك، وأباح للمسافر والمريض الفطر حفظًا لصحتهما باستعمال ما يصلح البدن على وجه العدل، وحماية للمريض عما يضره، وأما استفراغ المؤذى فقد أباح تعالى للمحرم المتأذى برأسه أن يحلقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه، ففيه تنبيه على استفراغ ما هو أولى منها، من البول والغائط والقىء والمنى والدم، وغير ذلك، نبه على ذلك ابن القيم، رحمه الله تعالى.

وفى الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين، وأنه يجوز التيمم، ولو لم يضق الوقت، وأنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب، والله أعلم، ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أى: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، بتيسير ما أمرهم به وتسهيله غاية التسهيل، بحيث لا يشق على العبد امتثاله، فيحرج بذلك، ومن عفوه ومغفرته أن رحم هذه الأمة بشرع الطهارة بالتراب بدل الماء، عند تعذر استعماله، ومن عفوه ومغفرته أن فتح للمذنبين باب التوبة والإنابة، ودعاهم إليه ووعدهم بمغفرة ذنوبهم، ومن عفوه ومغفرته أن المؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئًا لأتاه بقرابها مغفرة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

هذا ذم لمن ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وفى ضمنه تحذير عباده عن الاغترار بهم والوقوع فى أشراكهم، فأخبر أنهم فى أنفسهم ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ أى: يحبونها محبة عظيمة، ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير فى طلب ما يحبه، فيؤثرون الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، والشقاء على السعادة، ومع هذا ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص، باذلون جهدهم فى ذلك، ولكن لما كان الله ولى عباده المؤمنين وناصرهم، بيّن لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أى: يتولى أحوال عباده ويلطف بهم فى جميع أمورهم، وييسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينصرهم على أعدائهم ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم، فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر، ثم بيّن كيفية ضلالهم وعنادهم، وإيثارهم الباطل على الحق فقال: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أى: اليهود، وهم علماء الضلال منهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعًا، فمن تحريفهم تنزيل الصفات التى ذكرت فى كتبهم التى لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد ﷺ على أنه غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتمانهم ذلك، فهذا حالهم فى العلم شر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا ذلك الحق، وأما حالهم فى العمل والانقياد فإنهم ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أى: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد والشرود عن الانقياد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره ﴿وَرَاعِنَا﴾ قصدهم بذلك الرعونة بالعيب القبيح، ويظنون أن اللفظ ــ لما كان محتملاً لغير ما أرادوا من الأمور ــ أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذى يلوون به ألسنتهم إلى الطعن فى الدين، والعيب للرسول، ويصرحون بذلك فيما بينهم، فلهذا قال: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ وذلك لما تضمنه هذا الكلام من حسن الخطاب والأدب اللائق فى مخاطبة الرسول، والدخول تحت طاعة الله، والانقياد لأمره، وحسن التلطف فى طلبهم العلم، بسماع سؤالهم، والاعتناء بأمرهم، فهذا هو الذى ينبغى لهم سلوكه، ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية أعرضوا عن ذلك، وطردهم الله بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) ﴾

يأمر تعالى أهل الكتاب، من اليهود والنصارى أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ، وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم، المهيمن على غيره، من الكتب السابقة التى صدقها، فإنها أخبرت به، فلما وقع المخبر به كان تصديقًا لذلك الخبر، وأيضًا، فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنهم لم يؤمنوا بما فى أيديهم من الكتب، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضًا، ويوافق بعضها بعضًا، فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض، دعوى باطلة لا يمكن صدقها، وفى قوله: ﴿آمنوا بما نزلنا مصدقًا لما معكم﴾ حث لهم، وأنهم ينبغى أن يكونوا قبل غيرهم مبادرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم والكتاب الذى يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان فقال: ﴿من قبل أن نطمس وجوهًا فنردها على أدبارها﴾ وهذا جزاء من جنس ما عملوا، فكما تركوا الحق، وآثروا الباطل وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقًا، والحق باطلاً جوزوا[1] من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق، وردها على أدبارها بأن تجعل فى أقفائهم، وهذا أشنع ما يكون ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ بأن يطردهم من رحمته، ويعاقبهم بجعلهم قردة، كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا فى السبت ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ كقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) ﴾

يخبر تعالى أنه لا يغفر لمن أشرك به أحدًا من المخلوقين، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب، صغائرها وكبائرها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمته مغفرته، فالذنوب التى دون الشرك، قد جعل الله لمغفرتها أسبابًا كثيرة كالحسنات الماحية، والمصائب المكفرة فى الدنيا، والبرزخ ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وبشفاعة الشافعين، ومن دون ذلك كله رحمته التى أحق بها أهل الإيمان والتوحيد، وهذا بخلاف الشرك، فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئًا، وما لهم يوم القيامة من شافعين ﴿ولا صديق حميم﴾[2]، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثمًا عظيمًا﴾ أى: افترى جرمًا كبيرًا، وأى ظلم أعظم ممن سوى المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذى لا يملك لنفسه ـ فضلاً عمن عبده ـ نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا بالخالق لكل شىء الكامل من جميع الوجوه، الغنى بذاته عن جميع مخلوقاته، الذى بيده النفع والضر، والعطاء والمنع، الذى ما من نعمة بالمخلوقين إلا منه تعالى، فهل أعظم من هذا الظلم شىء؟ ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ وهذه الآية الكريمة فى حق غير التائب، وأما التائب فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠) ﴾

هذا تعجب من الله لعباده، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم، من اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم، من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه، وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ ويقولون: ﴿لن

---

(١) فى الأصل (فجوزوا) ولا معنى هنا لاقتران الفعل بالفاء لأن قواعد النحو تأبى ذلك.

(٢) الآيتان ١٠٠، ١٠١ بنصهما فى سورة الشعراء، والمؤلف أتى بمعنى الآية الأولى لمناسبة سياق الكلام، وأتى بنص الآية الثانية.

يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى﴾ وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به فى القرآن فى قوله: ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فهؤلاء هم الذين زكاهم الله، ولهذا قال هنا: ﴿بل الله يزكى من يشاء﴾ أى: بالإيمان والعمل الصالح بالتخلى عن الأخلاق الرذيلة والتحلى بالصفات الجميلة، وأما هؤلاء فهم ـ وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شىء، وأن الثواب لهم وحدهم ـ فإنهم كذبة فى ذلك، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب، بسبب ظلمهم وكفرهم، لا بظلم من الله لهم، ولهذا قال: ﴿ولا يظلمون فتيلا﴾ وهذا لتحقيق العموم، أى: لا يظلمون شيئًا، ولا مقدار الفتيل الذى فى شق النواة، أو الذى يفتل من وسخ اليد وغيرها، قال تعالى: ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ أى: بتزكيتهم أنفسهم، لأن هذا من أعظم الافتراء على الله، لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقًا وما عليه المؤمنون المسلمون باطلاً، وهذا أعظم الكذب وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً والباطل حقًا، ولهذا قال: ﴿وكفى به إثمًا مبينًا﴾ أى: ظاهرًا بينًا، موجبًا للعقوبة البليغة، والعذاب الأليم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾

وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبى ﷺ والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله، فدخل فى ذلك السحر والكهانة وعبادة غير الله وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حملهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله، عبدة الأصنام، على طريق المؤمنين فقال: ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ أى: لأجلهم، تملقًا لهم ومداهنة وبغضًا للإيمان: ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أى: طريقًا، فما أسمجهم وأشد عنادهم، وأقل عقولهم!! وكيف سلكوا هذا المسلك الوخيم والوادى الذميم؟! هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء أو يدخل عقل أحد من الجهلاء؟ فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسوله وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله فى السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه، من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام، والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، ومصدق فى جميع الأقوال والأعمال، فهل هذا إلا من الهذيان؟ وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلاً، وإما من أعظمهم عنادًا وتمردًا ومراغمة للحق، وهذا هو الواقع، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ أى: طردهم عن رحمته وأحل عليهم نقمته ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا﴾ أى: يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه عن المكاره، هذا غاية الخذلان ﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ أى: فيفضلون من شاءوا على من شاءوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله فى تدبير المملكة، فلوا كانوا كذلك لشحوا وبخلوا أشد البخل، ولهذا قال: ﴿فإذًا﴾ أى: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لا يؤتون الناس نقيرًا﴾ أى: شيئًا، ولو قليلاً، وهذا وصف لهم بشدة البخل، على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله، وأخرج هذا مخرج

الاستفهام المتقرر إنكاره عند كل أحد ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أى: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء لله فيفضلون من شاءوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسد للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم من فضله؟ ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته من النبوة والكتاب والملك الذى أعطاه من أعطاه من أنبيائه كـ «داود» و «سليمان» فإنعامه لم يزل مستمرًا على عباده المؤمنين، فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر والملك لمحمد ﷺ أفضل الخلق وأجلهم، وأعظمهم معرفة بالله، وأخشاهم له ؟! ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ﴾ أى: بمحمد ﷺ، فنال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الآخروى ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ عنادًا وبغيًا وصدًا، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ تسعر على من كفر بالله وجحد نبوة أنبيائه، من اليهود والنصارى وغيرهم، من أصناف الكفرة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أى: عظيمة الوقود شديدة الحرارة ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾[1] أى: احترقت ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أى: ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ، ولما تكرر منهم الكفر والعناد وصار وصفًا لهم وسجية، كرر عليهم العذاب جزاءً وفاقًا، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أى: له العزة العظيمة والحكمة فى خلقه وأوامره وثوابه وعقابه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: بالله وما أوجب الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أى: من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميم ومما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أى: دائم الظل.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

الأمانات: كل ما ائتمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها أى: كاملة موفرة لا منقوصة ولا مبخوسة ولا ممطولاً بها، ويدخل فى ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار، والمأمورات التى لا يطلع عليها إلا الله، وقد ذكر الفقهاء أن من ائتمن أمانة وجب عليه حفظها فى حرز مثلها، قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها، فوجب ذلك، وفى قوله تعالى ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمن، ووكيله بمنزلته، فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديًا لها ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم فى الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد والفاجر والولى والعدو، والمراد بالعدل الذى أمر الله بالحكم به هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به، ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه لاشتمالها على مصالح الدارين، ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير، الذى لا تخفى عليه خافية، ويعلم من مصالح العباد ما لا يعلمون، ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامتثال أمرهما الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولى الأمر، وهم: الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ولعل هذا هو السر فى حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية، ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله والرسول، أى: الى كتاب الله وسنة رسوله، فإن فيهما الفصل فى جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما أو عمومهما، أو إيماء أو تنبيه، أو مفهوم أو عموم معنى يقاس عليه ما

---

(١) خص الجلود، لأنها موضع الإحساس بالألم كما ثبت ذلك بالطب.

أشبهه، لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما، فالرد إليهما شرط فى الإيمان، فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر فى الآية بعدها ﴿ذَلِكَ﴾ أى: الرد إلى الله ورسوله ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها، وأصلحها للناس فى أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)﴾

يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ بما جاء به الرسول وبما قابله، ومع هذا ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت، والحال أنهم ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟! فإن الإيمان يقتضى الانقياد لشرع الله وتحكيمه فى كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله فهو كاذب فى ذلك، وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ عن الحق ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصى، ومنها تحكيم الطاغوت؟ ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ معتذرين لما صدر منهم، و ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أى: ما قصدنا إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كذبة فى ذلك، فإن الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: من النفاق ولا القصد السيئ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أى: لا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقترفوه ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أى: بين لهم حكم الله تعالى، مع الترغيب فى الانقياد لله، والترهيب من تركه ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ أى: انصحهم سرًا، بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ فى زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه، وفى هذا دليل على أن مقترف المعاصى، وإن أعرض عنه، فإنه ينصح سرًا، ويبالغ فى وعظه بما يظن حصول المقصود به.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾

يخبر تعالى خبرًا، فى ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقاد لهم المرسل إليهم فى جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين تعظيم المطاع من المطيع، وفى هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه، لأن الله أمر بطاعتهم مطلقًا، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقًا، وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: الطاعة من المطيع، صادر بقضاء الله وقدره، ففيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان ـ إن لم يعنه الله ـ أن يطيع الرسول، ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده ودعوته لمن اقترفوا السيئات أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ أى: معترفين بذنوبهم باخعين بها ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أى: لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمهم بقبول

التوبة والتوفيق لها، والثواب عليها، وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته، لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا فى حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك، ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم أى: فى كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفى هذا التحكيم حتى ينتفى الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفى هذا التحكيم حتى يسلموا لحكمه تسليمًا، بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن، فالتحكيم فى مقام الإسلام، وانتفاء الحرج فى مقام الإيمان، والتسليم فى مقام الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب وكملها فقد استكمل مراتب الدين كلها، ومن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له، فهو كافر، ومن تركه ـ مع التزامه ـ فله حكم أمثاله من العاصين.

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس من قتل النفوس والخروج من الديار، لم يفعله إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به، من الأوامر التى تسهل على كل أحد ولا يشق فعلها، وفى هذا إشارة إلى أنه ينبغى أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات، لتخف عليه العبادات، ويزداد حمدًا وشكرًا لربه، ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به، أى: ما وظف عليهم، فى كل وقت بحسبه، فبذلوا هممهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذى ينبغى للعبد أن ينظر إلى الحالة التى يلزمه القيام بها فيكملها، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى ما قدر له، من العلم والعمل فى أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه، ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل، وعدم النشاط، ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور: **أحدها**: الخيرية فى قوله: ﴿**لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ**﴾ أى: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير، التى أمروا بها، أى: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار، لأن ثبوت الشيء يستلزم نفى ضده، **الثانى**: حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذى هو القيام بما وعظوا به، فيثبتهم فى الحياة الدنيا عند ورود الفتن فى الأوامر والنواهى والمصائب، فيحصل لهم ثبات يوفقون به لفعل الأوامر، وترك الزواجر التى تقتضى النفس فعلها، وعند حلول المصائب التى يكرهها العبد، فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو الشكر، فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين عند الموت وفى القبر، وأيضًا فإن العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها، ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات، **الثالث**: قوله: ﴿**وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ أى: فى العاجل والآجل، الذى يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، **الرابع**: الهداية إلى صراط مستقيم، وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومحبته وإيثاره به، والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هدى إلى صراط مستقيم فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

أى: كل من أطاع الله ورسوله ـ على حسب حاله، وقدر الواجب عليه، من ذكر وأنثى وصغير وكبير ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أى: النعمة العظيمة التى تقتضى الكمال والفلاح والسعادة ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ الذين فضلهم الله بوحيه، واختصهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخلق، ودعوتهم إلى الله تعالى ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ وهم: الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً، ودعوة إلى الله ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ الذين قاتلوا فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله فقتلوا ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ الذين صلح ظاهرهم وباطنهم فصلحت أعمالهم، فكل من أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء فى صحبتهم ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ بالاجتماع بهم فى جنات النعيم، والأنس بقربهم، فى جوار رب العالمين ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ﴾ الذى نالوه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ فهو الذى وفقهم لذلك، وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ يعلم أحوال عباده، ومن يستحق منهم الثواب الجزيل، بما قام به من الأعمال الصالحة، التى تواطأ عليها القلب والجوارح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التى بها يستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم، من استعمال الحصون والخنادق، وتعلم الرمى والركوب، وتعلم الصناعات التى تعين على ذلك، وما به يعرف مداخلهم ومخارجهم ومكرهم، والنفير فى سبيل الله، ولهذا قال: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أى: متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش ويقيم غيرهم ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ وكل هذا تبع للمصلحة، والنكاية والراحة للمسلمين فى دينهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ أى: أيها المؤمنون ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أى: يتثاقل عن الجهاد فى سبيل الله، ضعفًا وخوراً وجبنًا، هذا هو الصحيح، وقيل: معناه: ليبطئن غيره، أى: يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون، ولكن الأول أولى لوجهين: أحدهما: قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين، والثانى: قوله فى آخر الآية: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ فإن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة، وأيضًا فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين على قسمين: صادقون فى إيمانهم، أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد، وضعفاء دخلوا فى الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ إلى آخر الآيات، ثم ذكر غايات هؤلاء المتثاقلين ونهاية مقاصدهم، وأن معظمهم قصدهم الدنيا وحطامها فقال: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أى: هزيمة وقتل، وظفر الأعداء عليكم فى بعض الأحوال، لما لله فى ذلك من الحكم ﴿قَالَ﴾ ذلك المتخلف ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ رأى ـ من ضعف عقله وإيمانه ـ أن التقاعد عن الجهاد ـ الذى فيه تلك المصيبة ـ نعمة، ولم يدر أن النعمة الحقيقية هى التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة، التى بها يقوى الإيمان ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب، ورضا الكريم الوهاب، وأما القعود فإنه وإن استراح قليلا فإنه يعقبه تعب طويل وآلام عظيمة، ويفوته ما يحصل للمجاهدين (أى من الأجر العظيم) ثم قال: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: نصر وغنيمة ما يحصل للمجاهدين ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أى: يتمنى أنه حاضر لينال من المغانم ليس له رغبة ولا قصد فى غير ذلك، كأنه ليس منكم يا معشر المؤمنين ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التى من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون فى جميع مصالحهم ودفع مضارهم، يفرحون بحصولها، ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين، ويألمون بفقدها،

ويسعون جميعًا فى كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فـهذا الذى يتمنى الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة، ومن لطف الله بعبـاده أن لا يقطع عنهم رحمته، ولا يغلق عنهم أبوابها، بل من حـصل على غير ما يليق أمره دعاه إلى جبر نقصه، وتكميل نفسه فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص، والخروج فى سبيله فقال: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ هذا أحد الأقوال فى هذه الآية، وهو أصحها، وقيل: إن معناه: فليقاتل فى سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان، الصادقون فى إيمانهم ﴿ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ أى: يبيعون الدنيا رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها، فإن هؤلاء الذين يوجه إليهم الخطاب، لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطنوها على جهاد الأعـداء لما معهم من الإيمان التام المقـتضى لذلك، وأما أولئك المتثاقلـون فلا يعبأ بهم، خرجوا أو قعدوا، فيكون هذا نظير قوله تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ إلى آخر الآيات، وقوله: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ وقيل: إن معنى الآية: فليـقاتل المقاتل والمـجاهد للكافر الذين يشرون الحـياة الدنيا بالآخرة، فـيكون على هذا الوجه «الذين» فى محل نصب على المفـعولية ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بأن يكون جهادًا قـد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصًا لله فـيه قاصدًا وجه الله ﴿ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ زيادة فى إيمـانه ودينه وغنيمة وثـناء حسنًا، وثواب المجاهدين فى سـبيل الله لهم فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

هذا حث من الله لعبـاده المؤمنين وتهـييج لهم على القتال فى سبـيله، وأن ذلك قد تعين عليـهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه فقال: ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبـيلاً، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم، فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بـالكفر والشرك، وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهـجرة، ويدعون الله أن يجعل لهم وليًا ونصيرًا، يسـتنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها، فصار جهادكم على هذا الوجـه من باب القتال والذب عن عيلاتكم[1] وأولادكم ومحـارمكم، لأن باب الجهاد الذى هو الطمع فى الكفار فإنه وإن كان فيه فضل عظيم، ويلام المتخلف عنه أعظم اللوم، فالجهاد الذى فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجرًا، وأكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء، ثم قال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

هذا إخبار من الله بأن المؤمنيـن يقاتلون فى سبيله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ الذى هـو الشيطان، فى ضمن ذلك عدة فوائد: **منها:** أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاد فى سبيل الله وإخلاصه ومتابعته، فالجهـاد فى سبيل الله من آثار الإيمان ومقـتضياته ولوازمه، كمـا أن القتال فى سبيل الطاغـوت من شعب الكفر ومقتضياته، **ومنها:** أن الذى يقاتل فى سبيل الله ينبغى له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره، فإذا كـان أولياء الشـيطان يصبـرون ويقاتـلون، وهم على باطل، فأهل الحـق أولى بذلك، كمـا قال تعـالى فى هذا المعنى: ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ ﴾ الآية، **ومنها:** أن الذى يقاتل فى سبيل الله مـعتمد على ركن وثيق، وهو الحق والتـوكل على الله، فصاحب القوة والركن، يطلب مـنه من الصبر والثبات والنشاط ما لا يطلب مـمن يقاتل عن الباطل، الذى لا حقيقة له، ولا عاقبة حـميدة، فلهذا قال تعالى:

---

(١) قوله: (عيلاتكم) معناه الدفاع عن نسائكم وأطفالكم والمحافظة عليهم بأن لا يتعرضوا للوقوع فى أيدى الأعداء.

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ والكيد: سلوك الطرق الخفية الذى فيه إلحاق الضرر بالعدو، فالشيطان وإن بلغ مكره مهما بلغ، فإنه فى غاية الضعف الذى لا يقوم لأدنى شىء من الحق، ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)﴾

كان المسلمون ـ إذ كانوا بمكة ـ مأمورين بالصلاة والزكاة، أى: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النصب والشروط، فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، لعدة فوائد: منها: أن من حكمة البارى تعالى أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق عليهم، ويبدأ بالأهم فالأهم، والأسهل فالأسهل، ومنها: أنه لو فرض عليهم القتال ـ مع قلة عَددهم وعُددهم، وكثرة أعدائهم ـ لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام، فروعى جانب المصلحة العظمى على ما دونها، ولغير ذلك من الحكم، وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال فى تلك الحال، غير اللائق فيها ذلك وإنما اللائق فيها القيام بما أمروا به فى ذلك الوقت من التوحيد والصلاة والزكاة ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ فلما هاجروا إلى المدينة وقوى الإسلام كتب عليهم القتال، فى وقته المناسب لذلك، فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك، خوفًا من الناس، وضعفًا وخورًا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ وفى هذا تضجرهم واعتراضهم على الله، وكان الذى ينبغى لهم، ضد هذه الحال التسليم لأمر الله، والصبر على أوامره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أى: هلا أخرت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر؟ وهذه الحال كثيرًا ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل فى الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت خلولها، ولا ينوء بحملها، بل يكون قليل الصبر، ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال التى فيها التخلف عن القتال فقال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ أى: التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل، فتحتمل الأثقال فى طاعة الله فى المدة القصيرة مما يسهل على النفوس ويخف عليها، لأنها إذا علمت أن المشقة التى تنالها لا يطول لبثها هان عليها ذلك، فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة، وأن الآخرة خير منها فى ذاتها ولذاتها وزمانها، فذاتها، ما ذكر النبى ﷺ فى الحديث الثابت عنه «أن موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها» ولذاتها صافية عن المكدرات، بل كل ما خطر بالبال أو دار فى الفكر من تصور لذة فلذة الجنة فوق ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وقال الله على لسان نبيه: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» وأما لذات الدنيا فإنها مشوبة بأنواع التنغيص، الذى لو قوبل بين لذاتها وما يقترن بها من أنواع الآلام والهموم والغموم لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه، وأما زمانها فإن الدنيا منقضية، وعمر الإنسان ـ بالنسبة إلى الدنيا ـ شىء يسير، وأما الآخرة فإنها دائمة النعيم، وأهلها خالدون فيها، فإذا فكر العاقل فى هاتين الدارين، وتصور حقيقتهما حق التصور عرف ما هو أحق بالإيثار والسعى له والاجتهاد لطلبه، ولهذا قال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ أى: الشرك وسائر المحرمات ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أى: فسعيكم لدار الآخرة ستجدونه كاملاً موفرًا غير منقوص منه شيئًا.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)﴾

ثم أخبر أنه لا يغنى حذر عن قدر، وأن القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئًا فقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ أى: فى أى زمان وأى مكان ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ أى: قصور منيعة ومنازل رفيعة، وكل هذا

حث على الجهاد فى سبيل الله، تارة بالترغيب فى فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودهم، وتارة بتسهيل الطريق فى ذلك وقصرها، ثم قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ الآيـة، يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المعرضين عما جاءت به الرسل المعارضين لهم أنهم إذا جاءتهم حسنة، أى: خصب وكثرة أموال، وتوفر أولاد وصحة، قالوا: ﴿هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وأنهم إن أصابتهم سيئة أى: جدب وفقر ومرض وموت أولاد وأحباب قالوا: ﴿هَذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ أى: بسبب ما جئتنا به يا محمد، تطيروا برسول الله ﷺ، كما تطير أمثالهم برسل الله، كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ وقال قوم صالح: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ وقال قوم ياسين لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ الآية، فلما تشابهت قلوبهم بالكفر تشابهت أقوالهم وأفعالهم، وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه، فهو داخل فى هذا الذم الوخيم، قال الله فى جوابهم: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أى: من الحسنة والسيئة، والخير والشر ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أى: بقضائه وقدره وخلقه ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾ أى: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أى: لا يفهمون حديثًا بالكلية، ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعيفًا، وعلى كلٍّ فهو ذم لهم، وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم، وفى ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعينة على ذلك، من الإقبال على كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه، فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر، والحسنات والسيئات، كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شىء عن ذلك، وأن الرسل، عليهم الصلاة والسلام، لا يكونون سببًا لشر يحدث، لا هم ولا ما جاءوا به، لأنهم بعثوا بمصالح الدنيا والآخرة والدين.

﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أى: فى الدين والدنيا ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ هو الذى منَّ بها ويسرها بتيسير أسبابها ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ فى الدين والدنيا ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أى: بذنوبك وكسبك، وما يعفو الله عنه أكثر، فالله تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصى مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه، فإنه المانع لنفسه عن وصول فضل الله وبره، ثم أخبر عن عموم رسالة محمد ﷺ فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنك رسول الله حقًّا بما أيدك بنصره، والمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة، فهى أكبر شهادة على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإذا علم أن الله تعالى كامل العلم وتام القدرة عظيم الحكمة، وقد أيد الله رسوله بما أيده، ونصره نصرًا عظيمًا، تيقن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقوَّل عليه بعض الأقاويل لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين.

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

أى: كل من أطاع رسول الله فى أوامره ونواهيه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ تعالى، لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه ووحيه وتنزله، وفى هذا عصمة الرسول ﷺ لأن الله أمر بطاعته مطلقًا، فلولا أنه معصوم فى كل ما يبلغ عن الله لم يأمر بطاعته مطلقًا، ويمدح على ذلك، وهذا من الحقوق المشتركة، فإن الحقوق ثلاثة: حق الله تعالى، لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك، وقسم مختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة، وقسم مشترك وهو الإيمان بالله ورسوله، ومحبتهما وطاعتهما، كما جمع الله بين هذه

الحقوق فى قوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير ما رتب على طاعة الله ﴿ومن تولى﴾ عن طاعة الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظًا﴾ أى: تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغًا ومبينًا وناصحًا، وقد أديت وظيفتك، ووجب أجرك على الله، سواء اهتدوا أم لم يهتدوا، كما قال تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر (٢١) لست عليهم بمسيطر﴾ الآية، ولا بد أن تكون طاعة الله ورسوله، ظاهرًا وباطنًا فى الحضرة والمغيب، فأما من يظهر فى الحضرة الطاعة والالتزام، فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه ترك الطاعة وأقبل على ضدها، فإن الطاعة التى أظهرها غير نافعة ولا مفيدة، وقد أشبه من قال الله فيهم: ﴿ويقولون طاعة﴾ أى: يظهرون الطاعة إذا كانوا عندك ﴿فإذا برزوا من عندك﴾ أى: خرجوا وخلوا فى حالة لا يطلع فيها عليهم ﴿بيت طائفة منهم غير الذى تقول﴾ أى: بيتوا ودبروا غير طاعتك ولا ثَمَّ إلا المعصية، وفى قوله تعالى ﴿بيت طائفة منهم غير الذى تقول﴾ دليل على أن الأمر الذى استقروا عليه غير الطاعة، لأن التبييت تدبير الأمر ليلاً على وجه يستقر عليه الرأى، ثم توعدهم على ما فعلوا فقال: ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ أى: يحفظه عليهم، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء، ففيه وعيد لهم، ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض وعدم التعنيف، فإنهم لا يضرونه شيئًا إذا توكل على الله، واستعان به فى نصر دينه، وإقامة شرعه، ولهذا قال: ﴿فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا (٨٢)﴾

يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو: التأمل فى معانيه وتحديق الفكر فيه، وفى مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك، فإن فى تدبر كتاب الله مفتاحًا للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان فى القلب وترسخ شجرته، فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذى هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهله، وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلما ازداد تأملا فيه ازداد علمًا وعملا وبصيرة، ولذلك أمر الله بذلك، وحث عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، فترى الحكم والقصة والأخبار تعاد فى القرآن فى عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضًا، فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ أى: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)﴾

هذا تأديب من الله لعباده، عن فعلهم هذا، غير اللائق، وأنه ينبغى لهم، إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذى فيه مصيبة عليهم، أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم، أهل الرأى والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا فى إذاعته مصلحة ونشاطًا للمؤمنين وسرورًا لهم، وتحرزًا من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا ما فيه مصلحة، أو فيه مصلحة، ولكن مضرته تزيد على مصلحته لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أى: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة، وفى هذا دليل لقاعدة أدبية وهى: أنه إذا حصل بحث فى أمر من الأمور ينبغى أن يولى من هو أهل لذلك ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ، وفيه النهى عن

العجلة والتسرع لنشر الأمـور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام، والنظر فيـه، هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان، أم لا فيحجم عنه؟ ثم قال تعالى: ﴿**وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ**﴾ أى: فى توفيقكم وتأديبكم وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿**لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر، فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به واجتهد فى ذلك لطف به ربه ووفقه لكل خير وعصمه من الشيطان الرجيم.

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾

هذه الحالة أفضل أحوال العبد أن يجتهد فى نفسه على امـتثال أمر الله من الجهاد وغيـره، ويحرض غيره عليه، وقد يعدم فى العبد الأمران أو أحدهما، فلهذا قال لرسوله: ﴿**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ**﴾ أى: ليس لك قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك ﴿**وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين، وقوة قلوبهم من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء وفشلهم، وبما أعد للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله كله يدخل فى التحريض على القتال ﴿**عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ أى: بقتالكم فى سبيل الله وتحريض بعضكم بعضًا ﴿**وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا**﴾ أى: قوة وعزة ﴿**وَأَشَدُّ تَنكِيلاً**﴾ بالمذنب فى نفسه، وتنكيـلاً لغيره، فلو شاء تعالى لانتصر من الكفار بقـوته، ولم يجعل لهم باقية، ولكن ـ من حكمته ـ يبلو بعض عبـاده ببعض ليقوم سوق الجهاد ويحصل الإيمـان النافع، إيمان الاختيار، لا إيمان الاضطرار والقهر، الذى لا يفيد شيئًا.

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾﴾

المراد بالشفاعة هنا: المعاونة على أمر من الأمور، فمن شفَّع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير، ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمـهم، كان له نصيب من شفاعته، بحسب سعيـه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل أو المباشر شىء، ومن عـاون غيره على أمر من الشر كان عليه كفل من الإثـم بحسب ما قام به وعاون عليه، ففى هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتـقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان، وقرر ذلك بقوله: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا**﴾ أى: شاهدًا حفيظًا حسيبًا على هذه الأعمال، فيجازى كلا ما يستحقه.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

التحية هى: اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين على وجه الإكرام الدعاء، وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها، وأعلى أنواع التحـية ما ورد به الشرع من السلام ابـتداءً وردًا، فأمر تعالى المـؤمنين أنهم إذا حيوا بأى تحية كانت أن يردوها بأحسن منها، لفظًا وبشاشة، أو مثلها فى ذلك، ومفهوم ذلك النهى عن عدم الرد بالكلية، أو ردها بدونها، ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السـلام والتحية من وجهين: **أحدهـما**: أن الله أمـر بردها بأحسن منها أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعًا، **والثانى**: ما يستفاد من أفعل التفضيل، وهو «أحسن» الدال على مشاركـة التحية وردها بالحسن، كما هو الأصل فى ذلك، ويستـثنى من عموم الآية الكريمة من حيا بحال غير مـأمور بها، كـ «على مشتغل بقراءة، أو استمـاع خطبة، أو مصلٍّ ونحو ذلك» فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره وعدم تحيته، وهو العاصى غير التائب، الذى يرتدع بالهجر، فإنه يهجر ولا يُحيا، ولا ترد تحيته، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى، ويدخل فى رد التحية كل تحية اعتـادها الناس، وهى غير محـظورة شرعًا، فإنه مـأمور بردها وبأحسن منهـا، ثم وعد تعالى وتوعـد على فعل الحسنات والسيـئات بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا**﴾ فيحفظ على العباد أعمـالهم، حسنها وسيئها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله، وحكمه المحمود.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن انفراده بالوحدانية وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو، لكماله فى ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير، والنعم الظاهرة والباطنة، وذلك يستلزم الأمر بعبادته، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية، لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازى للعباد، بما قاموا به من عبوديته، أو تركوه منها، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء ـ وهو يوم القيامة ـ فقال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أى: أولكم وآخركم، فى مقام واحد ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: لا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، بالدليل العقلى، والدليل السمعى، فالدليل العقلى ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النشأة الأولى، التى وقوع الثانية أولى منها بالإمكان، ومن الحكمة التى يجزم[1] بأن الله لم يخلق خلقه عبثًا، يحيون ثم يموتون، وأما الدليل السمعى فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك، بل إقسامه عليه، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ كذلك أمر رسوله ﷺ أن يقسم عليه فى غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وفى قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله فى أعلى مراتب الصدق، بل أعلاه، فكل ما قيل فى العقائد والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به فهو باطل، لمناقضته للخبر الصادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقًا.

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾

المراد بالمنافقين المذكورين فى هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة ﷺ فيهم اشتباه، فبعضهم تحرج عن قتالهم وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم، فأخبر عنهم تعالى أنه لا ينبغى لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون، قد تكرر كفرهم، وودوا ـ مع ذلك ـ كفركم، وأن تكونوا مثلهم، فإذا تحققتم ذلك منهم ﴿فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع المحبة، ويستلزم أيضًا بغضهم وعداوتهم، لأن النهى عن الشىء أمر بضده، وهذا الأمر مؤقت بهجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبى ﷺ يجرى أحكام الإسلام على كل[2] من كان معه، وهاجر إليه، سواء كان مؤمنًا حقيقة أو ظاهر الإيمان، وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أى: فى أى وقت، وأى محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال فى الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة محمولة على تقييد

---

(١) قوله: (ومن الحكمة التى يجزم ... إلخ) هكذا فى الأصل المطبوع، والعبارة قلقة، والأوضح أن يقال: (ومن الحكمة التى يجب على الإنسان أن يجزم بها، أن الله لم يخلق خلقه عبثًا ... إلخ).

(١) فى الأصل (فكل من كان معه وهاجر إليه وسواء ... إلخ) والصواب أن يقال: (على كل من كان معه وهاجر إليه سواء ... إلخ) فلذلك صححنا ما فى الأصل بحذف الفاء من كلمة (فكل) وحذف الواو من (وسواء) كما ترى لينتظم الكلام، ويتضح المعنى.

التحريم فى الأشهر الحرم، ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق: فرقتين أمر بتركهم، وحتم على ذلك، إحداهما: من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم فى حقن الدم والمال، والفرقة الثانية: قوم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أى: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضًا أمر بتركهم، وذكر الحكمة فى ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام: إما أن يكونوا معكم، يقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذى كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك، فهؤلاء ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ﴾ أى: من هؤلاء المنافقين ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ أى: خوفًا منكم ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ أى: يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رءوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء فى الصورة كالفرقة الثانية، وفى الحقيقة مخالفة لها، فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم، لا خوفًا على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفًا، لا احترامًا، بل لو وجدوا فرصة فى قتال المؤمنين فإنهم سيقدمون لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم، ويتضح اتضاحًا عظيمًا، اعتزال المؤمنين وترك قتالهم فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أى: المسالمة والموادعة ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أى: حجة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلوموا إلا أنفسهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

وهذه الصيغة من صيغ الامتناع، أى: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن أى: متعمدًا، وفى هذا الإخبار بشدة تحريمه، وأنه مناف للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك، إما من كافر أو من فاسق، قد نقص إيمانه نقصًا عظيمًا، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه، الذى عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التى من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأى أذى أشد من القتل؟ وهذا يصدق قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض» فعلم أن القتل من الكفر العملى، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله، ولما كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ لفظًا عامًا لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه، بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: ﴿إِلَّا خَطَئًا﴾ فإن المخطئ الذى لا يقصد القتل غير آثم، ولا مجترئ على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعًا، وصورته كافية فى قبحه، وإن لم يقصده ــ أمر تعالى بالكفارة والدية فقال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا﴾ سواء كان القاتل ذكرًا أو أنثى، حرًا أو عبدًا، صغيرًا أو كبيرًا، عاقلاً أو مجنونًا، مسلمًا أو كافرًا، كما يفيده لفظ «مَن» الدال على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «من» فى هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضى أن يقول فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما شمله «من» وسواء كان المقتول ذكرًا أو أنثى، صغيرًا أو كبيرًا، كما يفيده التنكير فى سياق الشرط، فإن على القاتل ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ كفارة لذلك، تكون فى ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، فى قول بعض العلماء، ولكن الحكمة تقتضى أن لا يجزئ عتق المعيب فى الكفارة، لأن المقصود بالعتق نفع العتيق وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه،

وبقاؤه فى الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن فى قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك، فإن التحرير: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير، فتأمل ذلك، فإنه واضح، وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل، فى الخطأ وشبه العمد ﴿مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ جبرًا لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة فى كتب الفقه، وقوله: ﴿إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ أى: يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية فإنها تسقط، وفى ذلك حث لهم على العفو، لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة فى كل وقت ﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ أى: من كفار حربيين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أى: وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم فى دمائهم وأموالهم ﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة ولا ثمنها، بأن كان معسرًا بذلك ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شىء يفى بالرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أى: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما، وإن كان لغير عذر انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: هذه الكفارات التى أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده، ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو الواقع كثيرًا للقاتل خطأ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فى أى وقت كان، وأى محل كان، ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شىء، بل كل ما خلقه وشرعه فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل، كفارة مناسبة لما صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين فأخرج نفسه من رق الشهوات، واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقربًا إلى الله، ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة فى عددها، ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام فى هذه المواضع لعدم المناسبة، بخلاف الظهار، كما سيأتى إن شاء الله تعالى، ومن حكمته أن أوجب فى القتل الدية، ولو كان خطأ، لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك[1]، ومن حكمته أن أوجبت على العاقلة فى قتل الخطأ بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك، من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة والمساعدة على تحصيل المصالح، وكف المفاسد، ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل، حذار تحميلهم، ويخف عليهم بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضًا بتأجيلها عليهم ثلاث سنين، ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القتل عن مصيبتهم بالدية التى أوجبها على أولياء القاتل.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملى، وذكر هنا وعيد القاتل عمدًا، وعيدًا ترجف له القلوب، وتتصدع له الأفئدة، وينزعج منه أولو العقل، فلم يرد فى أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أى: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزى المهين وسخط الجبار، وفوات الفوز

---

(١) وليكون أيضًا سدًا لباب الاحتيال والكذب فيدعى القاتل أنه إنما صدر القتل منه خطأ، وفى الواقع أنه تعمد القتل لحقد فى نفسه على المقتول، ولكن ليست هناك بينة تكشف كذبه.

فمن حكمة الشارع: أن ألزم الدية على من قتل خطأ، سدًا لتلك الذرائع، وقمعًا للنفوس التى ترتكب الجريمة وتتذرع بأوهى الأسباب، خصوصًا فى زماننا هذا، الذى عم فيه الكذب معظم الناس.

والفلاح، وحصول الخيبة والخسار، فعياذًا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته، وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد على بعض الكبائر والمعاصى بالخلود فى النار، أو حرمان الجنة، وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله، فى تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة، الذين يخلدون فى النار، ولو كانوا موحدين، والصواب فى تأويلها ما قاله الإمام المحقق «شمس الدين ابن القيم» رحمه الله فى «المدارج»[1] فإنه قال بعدما ذكر تأويلات الأئمة فى ذلك وانتقدها فقال: وقالت فرقة: إن هذه النصوص وأمثالها، مما ذكر فيه المقتضى للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، وغاية هذه النصوص الإعلان بأن كذا سبب للعقوبة ومقتضى لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع وبعضها بالنص، فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التى لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود فى الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين، ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتبارًا لمقتضى العقاب ومانعه، وإعمالاً لأرجحها، قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية، وهو مقتضى الحكمة السارية فى الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها، خلقًا وأمرًا، وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضدًا يدافعه، ويقاومه ويكون الحكم للأغلب منهما، فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاق وبغيها مانع من عمل الطبيعة، وفعل القوة، والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض، والعبد يكون فيه مقتض للصحة ومقتض للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له، ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ولا يدخل النار، وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرج منها، ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث، فى سرعة الخروج وبطئه، ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به فى كتابه، من أمر المعاد وتفاصيله، حتى كأنه يشاهده رأى العين، ويعلم أن هذا مقتضى إلهيته سبحانه وربوبيته وعزته وحكمته، وأنه مستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به ليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره، وهذا يقين الإيمان، وهو الذى يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان، يستحيل إصراره على السيئات، وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله فى عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى كلامه قدس الله روحه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهاداً فى سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا فى جميع أمورهم المشتبهة، فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة، فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل، وأما الأمور المشكلة غير الواضحة فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين، هل يقدم عليها أم لا؟ فإن التثبت فى هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة والكف عن شرور عظيمة، فإنه به يعرف دين العبد وعقله ورزانته، بخلاف المستعجل للأمور فى بدايتها قبل أن يتبين له حكمها فإن ذلك يؤدى إلى ما لا ينبغى، كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم فى الآية لما لم يتثبتوا، وقتلوا من سلم عليهم وكان معه غنيمة له أو مال غيره، ظنًا أنه يستكفى[2] بذلك قتلهم، وكان هذا خطأ فى نفس الأمر، فلهذا عاتبهم بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ أى ولا يحملنكم العرض الفانى

(١) يعنى كتاب «مدارج السالكين».

(٢) يستكفى يعنى: يدفع عند القتل.

القليل على ارتكاب ما لا ينبغى فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقى، فما عند الله خير وأبقى، وفى هذا إشارة إلى أن العبد ينبغى له إذا رأى دواعى نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى، وهى مضرة له أن يذكرها، ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها، وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن فى ذلك ترغيبًا للنفس فى امتثال أمر الله، وإن شق ذلك عليها، ثم قال تعالى مذكرًا لهم بحالهم الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: فكما هداكم بعد ضلالكم فكذلك يهدى غيركم، وكما أن الهداية حصلت لكم شيئًا فشيئًا فكذلك غيركم، فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة ومعاملته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة لحسنة، من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فإذا كان من خرج للجهاد فى سبيل الله ومجاهدة أعداء الله، واستعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم مأمورًا بالتبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية، فى أنه إنما سلم تعوذًا من القتل، وخوفًا على نفسه، إن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت، فى كل الأحوال التى يقع فيها نوع اشتباه، فيثبت فيها العبد حتى يتضح له الأمر ويتبين الرشد والصواب ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازى كلا ما عمله ونواه بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦)﴾

أى: لا يستوى من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله ومن لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب فى ذلك والترهيب من التكاسل، والقعود عنه من غير عذر، وأما أهل الضرر كالمريض والأعمى والأعرج، والذى لا يجد ما يتجهز به فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، فمن كان من أولى الضرر راضيًا بقعوده، لا ينوى الخروج فى سبيل الله، لولا وجود المانع، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر، ومن كان عازمًا على الخروج فى سبيل الله، لولا وجود المانع، يتمنى ذلك ويحدث به نفسه، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول، أو الفعل - ينزل صاحبها منزلة الفاعل، ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة أى: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم والرحمة التى تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر، والدرجات التى فصلها النبى ﷺ بالحديث الثابت عنه فى الصحيحين، أن فى الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله، وهذا الثواب الذى رتبه الله على الجهاد نظير الذى فى سورة الصف فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إلى آخر السورة، وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعدة بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات، وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها عند القدح والذم، أحسن لفظًا، وأوقع فى النفس، وكذلك إذا فضل تعالى شيئًا على شىء، وكل منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين، لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه، كما قال هنا: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ وكما قال تعالى فى الآيات المذكورة فى الصف فى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكما فى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أى: ممن لم يكن كذلك، ثم قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فينبغى لمن يبحث فى التفضيل بين الأشخاص والطوائف

والأعمال أن يفطن لهذه النكتة، وكذلك لو تكلم فى ذم الأشخاص والمقالات، ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لئلا يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال، كما إذا قيل: النصارى خير من المجوس، فليقل، مع ذلك، وكل منهما كافر، والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرمها الله ورسوله وزجر عنها، ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين: الغفور الرحيم ختم هذه الآية بهما فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)﴾

هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة، مع قدرته عليها، حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أى: على أى حال كنتم؟ وبأى شىء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير، والجهاد مع رسوله، والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: ضعفاء مقهورين مظلومين ليس لنا قدرة على الهجرة، وهم غير صادقين فى ذلك، لأن الله وبخهم وتوعدهم، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، واستثنى المستضعفين حقيقة، ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ وهذا استفهام تقرير، أى: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فحيثما كان العبد فى محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه فإن له متسعًا وفسحة من الأرض، يتمكن فيها من عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وهذا كما تقدم، فيه ذكر بيان السبب الموجب، فقد يترتب عليه مقتضاه، مع اجتماع شروطه وانتفاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع، وفى الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من أكبر الكبائر، وفى الآية دليل على أن كل من توفى فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذ من لفظ «التوفى» فإنه يدل على ذلك، لأنه لو بقى عليه شىء من ذلك لم يكن متوفيًا. وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم، وموافقته لمحله، ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه فقال: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ و «عسى» ونحوها، واجب وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه وإحسانه، وفى الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة، وهو أنه لا يوفيه حق توفيته، ولا يعمله على الوجه اللائق الذى ينبغى، بل يكون مقصرًا، فلا يستحق ذلك الثواب، والله أعلم، وفى الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور من واجب وغيره فإنه معذور، كما قال تعالى فى العاجزين عن الجهاد: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ وقال فى عموم الأوامر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وقال النبى ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده وانسدت عليه أبواب الحيل لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ وفى الآية تنبيه على أن الدليل فى الحج والعمرة، ونحوهما ـ مما يحتاج إلى سفر ـ من شروط الاستطاعة.

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠)﴾

هذا فى بيان الحث على الهجرة والترغيب وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق فى وعده أن من هاجر فى سبيله، ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغمًا فى الأرض وسعة، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين والسعة على

مصالح الدنيا، وذلك أن كثيرًا من الناس يتوهم أن فى الهجرة شتاتًا بعد الألفة، وفقرًا بعد الغنى، وذلا بعد العز، وشدة بعد الرخاء، والأمر ليس كذلك، فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين فدينه فى غاية النقص، لا فى العبادات القاصرة عليه كالصلاة ونحوها، ولا فى العبادات المتعدية كالجهاد بالقول والفعل، وتوابع ذلك، لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه خصوصًا إن كان مستضعفًا، فإذا هاجر فى سبيل الله تمكن من إقامة دين الله، وجهاد أعداء الله ومراغمتهم، فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله من قول وفعل، وكذلك ما يحصل له سعة فى رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى، واعتبر ذلك بالصحابة ﷺ، فإنهم لما هاجروا فى سبيل الله وتركوا ديارهم وأولادهم وأموالهم لله كمل بذلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التام والجهاد العظيم والنصر لدين الله ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذلك حصل لهم ما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم ما كانوا به أغنى الناس، وهكذا كل من فعل فعلهم، يحصل له ما حصل لهم إلى يوم القيامة، ثم قال: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: قاصدًا ربه ورضاه ومحبته لرسوله، ونصرًا لدين الله، لا لغير ذلك من المقاصد ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ بقتل أو غيره ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: فقد حصل له أجر المهاجر الذى أدرك مقصوده بضمان الله تعالى، وذلك لأنه نوى وجزم وحصل منه ابتداء، وشروع فى العمل، فمن رحمة الله به وبأمثاله أن أعطاهم أجرهم كاملاً، ولو لم يكملوا العمل وغفر لهم ما حصل منهم من التقصير فى الهجرة وغيرها، ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصًا التائبين المنيبين إلى ربهم ﴿رَّحِيمًا﴾ بجميع الخلق، رحمة أوجدتهم وعافتهم ورزقتهم من المال والبنين والقوة، وغير ذلك، رحيمًا بالمؤمنين، حيث وفقهم للإيمان وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فنسأل الله أن لا يحرمنا خيره بشر ما عندنا.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

هاتان الآيتان أصل فى رخصة القصر وصلاة الخوف، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: فى السفر، وظاهر الآية أنه يقتضى الترخيص فى أى سفر كان، ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبى حنيفة رحمه الله، وخالف فى ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخيص فى سفر المعصية، تخصيصًا للآية بالمعنى والمناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده، إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصى بسفره لا يناسب حاله التخفيف، وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أى: لا حرج ولا إثم عليكم فى ذلك، ولا ينافى ذلك كون القصر هو الأفضل، لأن نفى الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع فى كثير من النفوس، بل ولا ينافى الوجوب، كما تقدم ذلك فى سورة البقرة، فى قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، وإزالة الوهم فى هذا الموضع ظاهرة، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم، إلا بذكر ما ينافيه، ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: أحدهما: ملازمة النبى ﷺ على القصر فى جميع أسفاره، والثانى: أن هذا من باب التوسعة والترخيص

والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته، وقوله ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ولم يقل: «أن تقصروا الصلاة» فيه فائدتان: **إحداهما**: أنه لو قال: «أن تقصروا الصلاة» لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة لأجزأه، فإتيانه بقوله: ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه، **الثانية**: أن «من» تفيد التبعيض، ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات، لا جميعها، فإن الفجر والمغرب لا يقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية، من أربع إلى ركعتين، فإذ تقرر أن القصر في السفر رخصة فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأمرين كليهما، السفر مع الخوف، ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله: ﴿أَن تَقْصُرُوا﴾ قصر العدد فقط؟ أو قصر العدد والصفة؟ فالإشكال إنما يكون على الوجه الأول، وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب ؓ، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ أي: والله يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» أو كما قال، فعلى هذا يكون هذا القيد أتى به نظرًا لغالب الحال، التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها، فإن غالب أسفاره أسفار جهاد، وفيه فائدة أخرى، وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر، فبين في هذه الآية أنهى[1] ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده الذي هو مظنة المشقة، وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر: قصر العدد والصفة، فإن القيد على بابه، فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد، وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز قصر العدد فقط، أو الخوف وحده، جاز قصر الصفة، وذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: صليت بهم صلاة تقيمها وتتم ما يجب فيها، ويلزم فعلهم ما ينبغي لك ولهم فعله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو، كما يدل على ذلك ما يأتي: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: الذين معك أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها ﴿فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ ودل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظرًا للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف، فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة، كلها جائزة، وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين: **أحدهما**: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة، وقت اشتداد الخوف من الأعداء، وحذر مهاجمتهم، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى، **والثاني**: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيرًا من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكيد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها، وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد، ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم، وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم، وأمر تعالى بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف، وهذا، وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة، فإن فيه مصلحة راجحة، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص، على الإيقاع بالمسلمين، والميل عليهم وعلى أمتعتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ ثم إن الله عذر من له عذر، من مرض أو مطر أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم

---

(١) أنهى، أي: غاية ما يتصور ... إلخ.

مَرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ومن العذاب المهين ما أمر الله به حزبه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين، من قتلهم وقتالهم، حيثما ثقفوهم ويأخذوهم ويحصروهم ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم فى جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم، خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم، فلله أعظم حمد وثناء على ما مَنَّ به على المؤمنين، وأيدهم بمعونته وتعاليمه التى لو سلكوها على وجه الكمال لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو، فى وقت من الأوقات، وقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين، وأن الرسول ﷺ يثبت منتظرًا للطائفة الأخرى قبل السلام، لأنه أولاً ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له، ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه، وفى قوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة فى ركعتهم الأولى، وحكمًا فى ركعاتهم الأخيرة فيستلزم ذلك، انتظار الإمام إياهم، حتى يكملوا صلاتهم ثم يسلم بهم، وهذا ظاهر للمتأمل.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

أى: فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها، فاذكروا الله فى جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد: **منها**: أن القلب صلاحه وفلاحه، وسعادته بالإنابة إلى الله تعالى، فى المحبة، وامتلاء القلب من ذكره، والثناء عليه، وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة التى حقيقها أنها صلة بين العبد وبين ربه، **ومنها**: أن فيها من حقائق الإيمان، ومعارف الإيقان، ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة، ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف، فأمر بجبرها بالذكر بعدها، **ومنها**: أن الخوف يوجب قلق القلب وخوفه، وهو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله تعالى والإكثار منه من أعظم مقويات القلب، **ومنها**: أن الذكر لله تعالى ـ مع الصبر والثبات ـ سبب للفلاح والظفر بالأعداء، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فأمر بالإكثار منه فى هذه الحال، إلى غير ذلك من الحكم، وقوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أى: إذا أمنتم من الخوف، واطمأنت قلوبكم وأبدانكم، فأقيموا صلاتكم على الوجه الأكمل، ظاهرًا وباطنًا، بأركانها وشروطها وخشوعها وسائر مكملاتها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أى: مفروضًا فى وقته، فدل ذلك على فرضيتها، وأن لها وقتًا لا تصح إلا به، وهو هذه الأوقات التى قد تقررت عند المسلمين، صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ: «صلوا كما رأيتمونى أصلى» ودل قوله: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على أن الصلاة ميزان الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته، تتم وتكمل، ويدل ذلك على أن الكفار ـ وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة ـ أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن كانوا يعاقبون عليها وعلى سائر الأحكام فى الآخرة.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

أى: لا تضعفوا ولا تكسلوا فى ابتغاء عدوكم من الكفار، أى: فى جهادهم، والمرابطة على ذلك، فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء، بل كونوا أقوياء نشيطين فى قتالهم، ثم ذكر ما يقوى قلوب المؤمنين، فذكر شيئين: **الأول**: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح، ونحو ذلك، فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وهم وقد

تساويتم فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية أن لا يضعف إلا من توالت عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال له مرة، ويدال عليه أخرى، الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين، لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة من نصر دين الله وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين، فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط، والشجاعة التامة، لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوى، إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان من فاوت بين العباد، وفرّق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ كامل العلم كامل الحكمة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق، أى: محفوظ فى إنزاله من الشياطين أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق، ومشتملاً أيضًا على الحق، فأخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس، وفى الآية الأخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فيحتمل أن هذه الآية فى الحكم بين الناس، فى مسائل النزاع والاختلاف، وتلك فى تبيين جميع الدين وأصوله وفروعه، ويحتمل أن الآيتين كلتيهما معناهما واحد، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم فى الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفى العقائد، وفى جميع مسائل الأحكام، وقوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أى: لا بهواك، بل بما علمك الله وألهمك، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ وفى هذا دليل على عصمته ﷺ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها، وأنه يشترط فى الحكم العلم والعدل لقوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: بما رأيت، ورتب أيضًا الحكم بين الناس على معرفة الكتاب، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط نهاه عن الجور والظلم، الذى هو ضد العدل فقال: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ أى: لا تخاصم عن من عرفت خيانته، من مدع ما ليس له، أو منكر حقًا عليه، سواء علم ذلك أو ظنه، ففى هذا دليل على تحريم الخصومة فى باطل، والنيابة عن المبطل فى الخصومات الدينية، والحقوق الدنيوية، ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول فى نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مما صدر منك، إن صدر ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أى: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره وتاب إليه وأناب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك، الموجب لثوابه وزوال عقابه ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ «الاختيان» و «الخيانة» بمعنى الجناية والظلم والإثم، وهذا يشمل النهى عن المجادلة، عن من أذنب وتوجه عليه عقوبة، من حد أو تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ أى: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده،

وهو البغض، وهذا كالتعليل للنهى المتقدم، ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهذا من ضعف الإيمان ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم - مع ذلك - قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم، وهو معهم بالعلم فى جميع أحوالهم، خصوصًا فى حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول، من تبرئة الجانى، ورمى البرىء بالجناية، والسعى فى ذلك للرسول ﷺ ليفعل ما بيتوه، فقد جمعوا بين عدة جنايات، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أى: قد أحاط بذلك علمًا، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم الموجب للعقوبة البليغة ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أى: هبكم جادلتم عنهم فى هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكم بعض ما يحذرون من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يغنى عنهم وينفعهم؟ ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ فمن يجادل عنهم من يعلم السر وأخفى، ومن أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟ وفى هذه الآية الإرشاد إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله، أو فعل مناهيه، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة، أو يحصل من عقوباتها، فيقول من أمرته نفسه بترك أمر الله: ها أنت تركت أمره كسلاً وتفريطًا، فما النفع الذى انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرمان والخيبة والخسران؟ وكذلك إذا دعته نفسه إلى ما تشتهيه من الشهوات المحرمة، قال لها: هبك فعلت ما اشتهيت، فإن لذته تنقضى ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات وفوات الثواب وحصول العقاب - ما بعضه يكفى العاقل فى الإحجام عنها، وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقى، بخلاف من يدعى العقل وليس كذلك، فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب، والله المستعان، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أى: من تجرأ على المعاصى واقتحم على الإثم ثم استغفر الله استغفارًا تامًا يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم على أن لا يعود، فهذا[1] قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه، لأنه قد غفره، وإذا غفره غفر ما يترتب عليه، واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل المعاصى، الصغيرة والكبيرة، وسمى «سوءًا» لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه فى نفسه سيئًا غير حسن، وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق، يشمل ظلمها بالشرك فما دونه، ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذى يسوء الناس، وهو ظلمهم فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصى التى بين الله وبين عبده، وسمى ظلم النفس «ظلمًا» لأن نفس العبد ليست ملكًا له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هى ملك لله تعالى، قد جعلها أمانة عند العبد وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بإلزامها الصراط المستقيم، علمًا وعملاً، فيسعى فى تعليمها ما أمر به، ويسعى فى العمل بما يجب، فسعيه فى غير هذا الطريق ظلم لنفسه، وخيانة وعدول بها عن العدل، الذى ضده الجور والظلم، ثم قال: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ وهذا يشمل كل ما يؤثم، من صغير وكبير، فمن كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه، لا تتعداها إلى غيرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر عمت عقوبتها، وشمل إثمها، فلا تخرج أيضًا عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة، وفى هذا بيان عدل الله وحكمته أنه لا يعاقب

---

(١) قوله (فهذا . . . إلخ) جواب (من) فى قوله «من تجرأ» . . . إلخ.

أحدًا بذنب أحد، ولا يعاقب أحدًا أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى: له العلم الكامل، والحكمة التامة، ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب ومن صدر منه، والسبب الداعى لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب أنه إن صدر منه الذنب بغلبة دواعى نفسه الأمارة بالسوء، مع إنابته إلى ربه فى كثير من أوقاته، أنه سيغفر له، ويوفقه للتوبة، وإن صدر بتجرئه على المحارم استخفافًا بنظر ربه، وتهاونًا بعقابه، فإن هذا بعيد من المغفرة، بعيد من التوفيق للتوبة، ثم قال: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ أى: ذنبًا كبيرًا ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ ما دون ذلك ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ﴾ أى: يتهم بذنبه ﴿بَرِيئًا﴾ من ذلك الذنب، وإن كان مذنبًا ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أى: فقد حمل فوق ظهره بهتًا للبرىء وإثمًا ظاهرًا بينًا، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها، فإنه قد جمع عدة مفاسد: كسب الخطيئة، والإثم، ثم رمى من لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع بتبرئة نفسه واتهام البرىء، ثم ما يترتب على ذلك من العقوبة الدنيوية تندفع عمن وجبت عليه وتقام على من لا يستحقها، ثم ما يترتب على ذلك أيضًا من كلام الناس فى البرىء، إلى غير ذلك من المفاسد، التى نسأل الله العافية منها ومن كل شر، ثم ذكر منته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضله فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ وذلك أن هذه الآيات الكريمات قد ذكر المفسرون أن سبب نزولها أن أهل بيت سرقوا فى المدينة، فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة وأخذوا سرقتهم فرموها ببيت من هو برىء من ذلك، واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ ويطلبوا منه أن يبرئ صاحبهم على رءوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق، وإنما الذى سرق من وجدت السرقة ببيته، وهو البرىء، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يبرئ صاحبهم فأنزل الله هذه الآيات، تذكيرًا وتبيينًا لتلك الواقعة، وتحذيرًا للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين، فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال، فإن الضلال نوعان: ضلال فى العلم، وهو: الجهل بالحق، وضلال فى العمل، وهو: العمل بغير ما يجب، فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال، كما حفظه عن الضلال فى الأعمال، وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم، كحالة كل ماكر، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ لكون ذلك المكر وذلك التحيل لم يحصل لهم فيه مقصودهم، ولم يحصل لهم إلا الخيبة والحرمان والإثم والخسران، وهذه نعمة كبيرة على رسوله ﷺ تتضمن النعمة بالعمل، وهو: التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم، ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أى: أنزل عليك هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم الذى فيه تبيان كل شىء وعلم الأولين والآخرين، والحكمة: إما السنة التى قد قال فيها بعض السلف: إن السنة تنزل عليه كما ينزل القرآن وإما: معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها، وترتيب كل شىء بحسبه ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى، فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ ثم لم يزل يوحى الله إليه ويكلمه حتى ارتقى مقامًا من العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين، فكان أعلم الخلق على الإطلاق وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ففضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل الخلق، وأجناس الفضل التى قد فضله الله به، لا يمكن استقصاؤها ولا يتيسر إحصاؤها.

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

أى: لا خير فى كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه، كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه، ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال أو علم أو أى نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة كالتسبيح والتحميد ونحوه، كما قال النبى ﷺ: «إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة، وفى بضع أحدكم صدقة ...» الحديث ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو الإحسان والطاعة، وكل

ما عرف فى الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف، من غير أن يقرن بالنهى عن المنكر، دخل فيه النهى عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضًا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر، وأما عند الاقتران فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهى ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة، ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس، فى الدماء والأموال والأعراض بل وهى الأديان، كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ والساعى فى الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله، كما أن الساعى فى الإفساد لا يصلح الله عمله ولا يتم له مقصوده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فهذه الأشياء حيثما فعلت فهى خير، كما دل على ذلك الاستثناء، ولكن كمال الأجر وتمامه، بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فلهذا ينبغى للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله فى كل وقت، وفى كل جزء من أجزاء الخير ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا، لأن النية حصلت واقترن بها ما يمكن من العمل.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾

أى: ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو: طريقهم فى عقائدهم وأعمالهم ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أى: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفقه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلاً، أن يبقيه فى ضلاله حائرًا، ويزداد ضلالاً إلى ضلاله، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول ويتبع سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله، واتباع رسوله، ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم بها ما هو من مقتضيات النفوس وغلبات الطباع فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلطفه ويمن عليه بحفظه، ويعصمه من السوء، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل، وقوله ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ أى: نعذبه فيها عذابًا عظيمًا ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أى: مرجعًا له ومآلاً، وهذا الوعيد المترتب على الشقاق ومخالفة المؤمنين مراتب لا يحصيها إلا الله بحسب حالة الذنب، صغرًا وكبرًا، فمنه ما يخلد فى النار ويوجب جميع الخذلان، ومنه ما هو دون ذلك، فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق، وهو: أن الشرك لا يغفره الله تعالى لتضمنه القدح فى رب العالمين ووحدانيته، وتسوية المخلوق، الذى لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، بمن هو مالك النفع والضر، الذى ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات، فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شىء منها للمخلوق الذى ليس له من صفات الكمال شىء، ولا له من صفات الغنى شىء، بل ليس له إلا العدم، عدم الوجود، وعدم الكمال، وعدم الغنى من جميع الوجوه، وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصى فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته، وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أن إجماع هذه الأمة حجة وأنها معصومة من الخطأ،

ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، وسبيل المؤمنين مفرد مضاف، يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، أو تحريمه، أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه فقد اتبع غير سبيلهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ ووجه الدلالة منها أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه فهو مما أمروا به، فيتعين - بنص الآية - أن يكون معروفًا، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهى عن شيء فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكرًا، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطًا، أى عدلاً خيارًا، ليكونوا شهداء على الناس، أى: فى كل شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة لكونهم عالمين بما شهدوا به، عادلين فى شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين فى شهادتهم ولا عالمين بها، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يفهم منها أن ما لم يتنازعوا فيه، بل اتفقوا عليه، أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقًا للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفًا، فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، لهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله:

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)﴾

أى: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إناثًا، أى: أوثانًا وأصنامًا، مسميات بأسماء الإناث، كـ «العزى» و «مناة» ونحوهما، ومن المعلوم، أن الاسم دال على المسمى، فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدها لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى فى غير موضع من كتابه أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن عابديها، بل ولا عن نفسها نفعًا ولا ضرًا، ولا تنصر أنفسها ممن يريدها بسوء، وليس لها أسماع ولا أبصار ولا أفئدة، فكيف يُعبد مَنْ هذا وصفه، ويُترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى والصفات العليا والحمد والكمال والمجد والجلال والعز والجمال والرحمة والبر والإحسان، والانفراد بالخلق والتدبير والحكمة العظيمة فى الأمر والتقدير؟! هل هذا إلا من أقبح القبيح، الدال على نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة، أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟!! ومع هذا فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة، وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذى هو عدوهم، الذى يريد إهلاكهم ويسعى فى ذلك بكل ما يقدر عليه، الذى هو فى غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته يسعى فى إبعاد العباد عن رحمة الله ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ولهذا أخبر الله عن سعيه فى إغواء العباد، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسمًا: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أى: مقدورًا، علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولاه وآثر طاعته على طاعة مولاه، وأقسم فى موضع آخر ليغوينهم فقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ فهذا الذى ظنه الخبيث وجزم به أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا النصيب المفروض الذى أقسم ليتخذنه منهم، ذكر ما يريده بهم وما يقصده لهم بقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أى: عن الصراط المستقيم، ضلالاً فى العلم، وضلالاً فى العمل ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أى: مع الإضلال لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون، وهذا هو الغرور بعينه،

فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال، وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ و ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الآيات، وقال تعالى عن المنافقين: إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وقوله: ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ أي: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فنبه ببعض ذلك على جميعه، وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة ما هو من أكبر الإضلال ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ وهذا يتناول الخلقة الظاهرة، بالوشم والوشر والنمص والتفليج للحسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن، وذلك يتضمن التسخط من خلقته والقدح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعونه بأيديهم، أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره، ويتناول أيضًا تغيير الخلقة الباطنة، فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك والكفر والفسوق والعصيان، فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد من توحيده، وحبه ومعرفته، فافترستهم الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئاب للغنم المنفردة، ولولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين لجرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين فخسروا الدنيا والآخرة ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرهم، وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر، من كل وجه، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ وأي خسار أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه، وأوبقته معاصيه وخطاياه؟! فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدي، كما أن من تولى مولاه، وآثر رضاه ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قرير العين، اللهم فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت، ثم قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم، والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ الآية، ويخوفهم عند إيثار مرضاة الله بكل ما يمكن، وما لا يمكن مما يدخله في عقولهم حتى يكسلوا عن فعل الخير، وكذلك يمنيهم الأماني الباطلة، التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: من انقاد للشيطان وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه، مستقرهم النار ﴿وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: مخلصًا ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد، ولما بين مآل الأشقياء، أولياء الشيطان، ذكر مآل السعداء أوليائه فقال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، أي: ﴿آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به، علمًا وتصديقًا وإقرارًا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الناشئة عن الإيمان، وهذا يشمل سائر المأمورات، من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح، كلٌّ له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح، ويقويه ما رتب على ذلك بحسب ما أحل به من الإيمان والعلم، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله، ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المآكل والمشارب اللذيذة والمناظر العجيبة والأزواج الحسنة والقصور والغرف المزخرفة والأشجار المتدلية والفواكه المستغربة والأصوات الشجية والنعم السابغة، وتزاور الإخوان وتذكرهم ما كان منهم فى رياض الجنة، وأعلى من ذلك وأجل، رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه، الذى ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والحبور، فلله ما أحلى ذلك النعيم، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم، وما حصل لهم من كل خير وبهجة، لا يصفه الواصفون، وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم فى تلك المنازل العاليات، ولهذا قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ فصدق الله العظيم، الذى بلغ قوله وحديثه فى الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقًا وخبره مصدقًا كان ما يدل عليه مطابقة وتضمنًا وملازمة، كل ذلك مراد من كلامه، كذلك كلام رسوله ﷺ لكونه لا يخبر إلا بأمره، ولا ينطق إلا عن وحيه.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾

أى: ﴿لَيْسَ﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ والأمانى: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها، وهذا عام فى كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟! فإن أمانى أهل الكتاب قد أخبر الله بها، أنهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول، من باب أولى وأحرى، وكذلك أدخل الله فى ذلك من ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أى دين كان لا يفيد شيئًا إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه، فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها، ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل لأى ذنب كان، من صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضًا لكل جزاء، قليل أو كثير، دنيوى أو أخروى، والناس فى هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءًا، وذلك لا يكون إلا كافرًا، فإذا مات من دون توبة جوزى بالخلود فى العذاب الأليم، ومن كان عمله صالحًا، وهو مستقيم فى غالب أحواله، وإنما يصدر منه أحيانًا بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم والأذى، وبعض الآلام فى بدنه أو قلبه أو حبيبه أو ماله، ونحو ذلك، فإنها مكفرات للذنوب، لطفًا من الله بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة، وهذا الجزاء على عمل السوء العام، مخصوص فى غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص، وقوله: ﴿وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على علمه قد يكون له ولى أو ناصر أو شافع يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولى يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المرهوب إلا ربه ومليكه ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دخل فى ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضًا كل عامل، من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى، ولهذا قال: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان، فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بنى على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس، والقاعدة التى يبنى عليها كل شىء، وهذا القيد ينبغى التفطن له فى كل عمل مطلق، فإنه مقيد به ﴿فَأُوْلَٰئِكَ﴾ أى: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ المشتملة على ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ أى: لا قليلاً ولا كثيرًا، مما عملوه من الخير، بل يجدونه كاملاً موفرًا، مضاعفًا أضعافًا كثيرة.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) ﴾

أى: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو: إسلام الوجه لله الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿مُحْسِنٌ﴾ أى: متبع لشريعة الله، التى أرسل الله بها رسله وأنزل كتبه وجعلها طريقًا لخواص خلقه وأتباعهم ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: دينه وشرعه ﴿حَنِيفًا﴾ أى: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق، إلى الإقبال على الخالق. ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين: محمد وإبراهيم، عليهما الصلاة السلام، وأما المحبة من الله فهى لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً لأنه وفَّى بما أمر به، وقام بما ابتلى به، فجعله الله إمامًا للناس، واتخذه خليلاً، ونوه بذكره فى العالمين.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦) ﴾

وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أنه له ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسموات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧) ﴾

الاستفتاء: طلب السائل من المسئول بيان الحكم الشرعى فى ذلك المسئول عنه، فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ فى حكم النساء المتعلق بهم، فتولى الله هذه الفتوى بنفسه فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به فى جميع شئون النساء، من القيام بحقوقهن، وترك ظلمهن، عمومًا وخصوصًا، وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله، أمرًا ونهيًا، فى حق النساء، الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار، ثم خص، بعد التعميم، الوصية بالضعاف من اليتامى والولدان، اهتمامًا بهم، وزجرًا عن التفريط فى حقوقهم فقال: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ أى: ويفتيكم أيضًا بما يتلى عليكم فى الكتاب فى شأن اليتامى من النساء ﴿اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة فى ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذى لها، أو بعضه، أو منعها من التزوج، لينتفع بمالها، خوفًا من استخراجه من يده إن زوجها، أو يأخذ من صهرها، الذى تتزوج به، بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغبًا عنها، أو يرغب فيها وهى ذات جمال ومال، ولا يقسط فى مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أى: ترغبون عن نكاحهن، أو فى نكاحهن، كما ذكرنا تمثيله ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أى: ويفتيكم فى المستضعفين من الولدان الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم، على وجه الظلم والاستبداد ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بإلزامهم أمر الله، وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله، ويشمل القيام عليهم فى مصالحهم الدنيوية، بتنمية أموالهم، وطلب الأحظ لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتى هى أحسن، وكذلك لا يحابون فيهم صديقًا ولا غيره، فى تزوج وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم، وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حث غاية الحث على

القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه لضعفه، وفقد أبيه، ثم حث على الإحسان عمومًا فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعديًا أو لازمًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ أى: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسنًا وضده، فيجازى كلا بحسب عمله.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)﴾

أى: إذا خافت المرأة نشوز زوجها، أى ترفعه عنها وعدم رغبته فيها، وإعراضه عنها، فالأحسن فى هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحًا، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها، على وجه تبقى مع زوجها، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة أو الكسوة أو المسكن أو القسم، بأن تسقط حقها منه، أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها، فإذا اتفقا على هذه الحالة فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهى خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين مَنْ بينهما حق أو منازعة فى جميع الأشياء أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيه من الإصلاح وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح، وهو جائز فى جميع الأشياء، إلا إذا أحل حرامًا أو حرم حلالاً، فإنه لا يكون صلحًا، وإنما يكون جورًا، واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير، الذى هو الصلح، فذكر تعالى المقتضى لذلك، ونبه على أنه خير، والخير كل عامل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان - مع ذلك - قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلبًا له، ورغبة فيه، وذكر المانع بقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أى: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة فى بذل ما على الإنسان والحرص على الحق الذى له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعًا، أى: ينبغى لكم، أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنىء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده وهو: السماحة، وهو بذل الحق الذى عليك، والاقتناع ببعض الحق الذى لك، فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل - حينئذ - عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب، بخلاف من لم يجتهد فى إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدى ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر، ثم قال: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ أى: تحسنوا على عبادة الخالق، بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال أو علم أو جاه، أو غير ذلك ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات، أو تحسنوا بفعل المأمور، وتتقوا بترك المحظور ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قد أحاط به علمًا وخبرًا، بظاهره وباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه، أتم الجزاء.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩)﴾

يخبر تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون، وليس فى قدرتهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعى على السواء، والميل فى القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطاع[1]، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أى: لا تميلوا ميلاً كثيرًا، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم فى العدل، فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب والوطء، ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها صارت كالمعلقة، التى لا زوج لها فتستريح وتستعد

(١) فى الأصل: (لا يستطيع) وهو خطأ، فأصلحناه كما ترى لينتظم الكلام.

للتزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، وبإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس، احتسابًا وقيامًا بحق الزوجة، وتصلحوا أيضًا، فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضًا بين الناس فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقًا، كما تقدم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب، والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)﴾

هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا تعذر الاتفاق، فإنه لا بأس بالفراق، فقال[1]: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ أي: بطلاق أو فسخ أو خلع، أو غير ذلك ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ من الزوجين ﴿مِّن سَعَتِهِ﴾ أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل، فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله، وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجًا خيرًا منه ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه، وكان مع ذلك ﴿حَكِيمًا﴾ أي: يعطي بحكمته، ويمنع لحكمته، فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده من إحسانه بسبب في العبد لا يستحق معه الإحسان حرمه، عدلاً وحكمة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢)﴾

يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف، قدرًا وشرعًا، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين، أهل الكتب السابقة واللاحقة، بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية، بالثواب، والعاقبة لمن أهملها وضيعها، بأليم العذاب، ولهذا قال: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ بأن تتركوا تقوى الله وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئًا، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له، خاضعون لأمره، ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته، التي لا ينقصها الإنفاق، ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السموات، وأهل الأرض، أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه فأعطاهم، ما نقص من ملكه شيئًا، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولا شريكًا في ملكه، ولا ظهيرًا، ولا معاونًا له على شيء، من تدابير ملكه، ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي في جميع أحوالهم وشئونهم إليه، وسؤالهم إياه، جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم، ومنَّ عليهم بلطفه وهداهم، وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه هو المستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال، وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، ثم كرر إحاطة ملكه، لما في السموات

(١) قوله (فقال) الأحسن أن يقال: (ولذا قال) لأن المقام مقام تعليل.

والأرض، وأنه على كل شيء وكيل، أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة، فإن ذلك من تمام الوكالة، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، والقوة والقدرة على تنفيذه وتدبيره، وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة، فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل، والله تعالى منزه عن كل نقص، أي: هو الغنى الحميد الذى له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة فيكم.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ غيركم، هم أطوع لله منكم وخير منكم، وفى هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم، وإعراضهم عن ربهم، فإن الله لا يعبأ بهم شيئًا، إن لم يطيعوه، ولكنه يمهل ويملى، ولا يهمل، ثم أخبر أن من كانت همته وإرادته دنية، غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة فى الآخرة فإنه قد قصر سعيه ونظره، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا، سوى ما كتب الله له منها، فإنه تعالى هو المالك لكل شىء، الذى عنده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلبا منه، وليستعن به عليهما، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به والافتقار إليه على الدوام، وله الحكمة تعالى فى توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وفى إعطائه ومنعه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ثم قال تعالى:

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ والقوّام، صيغة مبالغة، أى: كونوا فى كل أحوالكم قائمين بالقسط، الذى هو العدل فى حقوق الله وحقوق عباده، فالقسط فى حقوق الله، أن لا يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف فى طاعته، والقسط فى حقوق الآدميين أن تؤدى جميع الحقوق التى عليك، كما تطلب حقوقك، فتؤدى النفقات الواجبة والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، من الأخلاق والمكافأة، وغير ذلك، ومن أعظم أنواع القسط القسط فى المقالات والقائلين، فلا يحكم لأحد القولين، أو أحد المتنازعين، لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التى عندك على أى وجه كان، حتى على الأحباب، بل على النفس، ولهذا قال: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أى: فلا تراعوا الغنى لغناه، ولا الفقير، بزعمكم، رحمة له، بل اشهدوا بالحق على من كان، والقيام بالقسط، من أعظم الأمور وأدلها على دين القائم به، وورعه ومقامه فى الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه، وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب عينيه، ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به، وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ أى: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمى بصيرة صاحبه، حتى يرى الحق باطلاً، والباطل حقًا، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه وُفق للحق، وهُدى إلى الصراط المستقيم، ولما بيَّن أن الواجب القيام بالقسط، نهى عن ما يضاد ذلك، وهو لىُّ اللسان عن الحق، فى الشهادات وغيرها، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه، أو من بعض الوجوه، ويدخل فى ذلك تحريف الشهادة، وعدم تكميلها، أو تأويل الشاهد على أمر آخر، فإن هذا من اللىِّ، لأنه الانحراف عن الحق ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ أى: تتركوا القسط المنوط بكم كترك الشاهد لشهادته، وترك الحاكم لحكمه الذى يجب عليه القيام به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أى: محيطًا بما

فعلتم، يعلم أعمالكم، خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد للذي يلوى أو يعرض، ومن باب أولى الذي يحكم بالباطل أو يشهد بالزور، لأنه أعظم جرمًا، لأن الأولين تركا الحق، وقام هو بالباطل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

اعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتصف بشيء منه، فهذا يكون أمرًا له في الدخول فيه، وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ الآية، وإما أن يوجه إلى من دخل في الشيء، فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان، فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم، من الإخلاص والصدق، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات، ويقتضي أيضًا الأمر بما لم يوجد من المؤمن، من علوم الإيمان وأعماله، فإنه كلما وصل إليه نص وفهم معناه واعتقده فإن ذلك من المأمور به، وكذلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان، كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة، ثم الاستمرار على ذلك، والثبات عليه إلى الممات، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وأمر هنا بالإيمان به وبرسله وبالقرآن وبالكتب المتقدمة، فهذا كله من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمنًا إلا به، إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتفصيل، فمن آمن هذا الإيمان المأمور به فقد اهتدى وأنجح ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ وأي ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم، وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم؟! واعلم أن الكفر بشيء من هذه الأمور المذكورة كالكفر بجميعها لتلازمها، وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض، ثم قال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ ﴾

أي: من تكرر منه الكفر بعد الإيمان، فاهتدى ثم ضل وأبصر ثم عمي وآمن ثم كفر واستمر على كفره، وازداد منه، فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد عن المغفرة، لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها، فإن كفره يكون عقوبة وطبعًا لا يزول كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ودلت الآية أنهم إن لم يزدادوا كفرًا، بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة، وإذا كان هذا الحكم في الكفر فغيره - من المعاصي التي دونه - من باب أولى أن العبد لو تكررت منه ثم عاد إلى التوبة عاد الله له بالمغفرة.

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾

البشارة، تستعمل في الخير[1]، وتستعمل في الشر بقيد، كما في هذه الآية، يقول تعالى: ﴿بَشِّرِ

---

(١) قوله (وتستعمل البشارة في الخير، وتستعمل في الشر بقيد) أي: لنكتة بلاغية وهي إرادة السخرية بهؤلاء المجرمين على حد قوله تعالى: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

ومعلوم أن النزل هو البيت الذي يكرم فيه الأضياف كالفنادق ونحوها، ولا شك أن تسمية (جهنم) التي هي مأوى العصاة - نزلاً لتزيد حسراتهم ويتضاعف عذابهم، لأنهم لم يسلكوا سبيل المؤمنين، ومراد القول في استقصاء الكلام في هذا الموضوع، وإيراد الشواهد من القرآن وكلام العرب - فسيح، ومجاله واسع، لا تتسع له هذه العجالة.

ومن أراد الاستقصاء فليرجع إلى تفسير الزمخشري المعروف بالكشاف وإلى تفسير الآلوسي. =

﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ أى: الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، بأقبح بشارة وأسوأها، وهو العذاب الأليم، وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم، وتركهم لموالاة المؤمنين، فأى شىء حملتهم على ذلك؟ ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين، ساء ظنهم بالله، وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التى عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء، يتعززون بهم ويستنصرون، والحال أن العزة لله جميعًا، فإن نواصى العباد بيده ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفى هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضى محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعدواتهم.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

أى: وقد بين الله لكم ـ فيما أنزل عليكم ـ حكمه الشرعى عند حضور مجالس الكفر والمعاصى ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أى: يستهان بها، وذلك أن الواجب على كل مكلف فى آيات الله الإيمان بها، وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا هو المقصود بإنزالها وهو الذى خلق الله الخلق لأجله، فضد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء واحتقارها، ويدخل فى ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم، وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله، لأنها لا تدل إلا على الحق، ولا تستلزم إلا صدقًا، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصى والفسوق، التى يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التى حدها لعباده، ومنتهى هذا النهى عن القعود معهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أى: غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ أى: إن قعدتم معهم فى الحال المذكور ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضى بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلسًا يعصى الله به[1]، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم، مع القدرة، أو القيام مع عدمها ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالاة، ولا ينفع المنافقين مجرد كونهم ـ فى الظاهر ـ مع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ إلى آخر الآيات، ثم ذكر تحقيق موالاة المنافقين للكافرين ومعاداتهم للمؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أى: ينتظرون الحالة التى تصيرون عليها وتنتهون إليها، من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جوابًا بحسب نفاقهم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ فيظهرون أنهم مع المؤمنين، ظاهرًا وباطنًا، ليسلموا من القدح والطعن عليهم، وليشركوهم فى الغنيمة والفىء، وليتصروا بهم ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ ولم يقل فتح، لأنه لا يحصل لهم فتح يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر، حكمة من الله، فإذا كان ذلك ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أى: نستولى عليكم ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: يتصنعون عندهم، بكف أيديهم عنهم، مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع فى تنفيرهم وتزهيدهم فى القتال، ومظاهرة الأعداء عليهم، وغير ذلك، مما هو معروف منهم ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ

= والمقصود أن استعمال البشارة فى الشر استعمال مجازى بدليل القيد المشروط فيه، والقيود لا يفتقر إليها إلا المجاز، قال فى الصحاح: البشارة المطلقة لا تكون إلا بخير، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ اهـ.

(١) لعل الصواب فيه.

يوم القيامة﴾ فيجازى المؤمنين ظاهرًا وباطنًا بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ أى: تسلطًا واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين ودفع تسليط الكافرين ما هو مشهود بالعيان، حتى إن بعض المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأديانهم، ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز التام من الله، فللَّه الحمد، أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه من قبيح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى، أى: بما أظهروه من الإيمان وأبطنوه من الكفران، ظنوا أنه يروج على الله ولا يعلمه ولا يبديه لعباده، والحال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم ومشيهم عليها خداع لأنفسهم، وأى خداع أعظم ممن يسعى سعيًا يعود عليه بالهوان والذل والحرمان؟ ويدل ـ بمجرده ـ على نقص عقل صاحبه، حيث جميع بين المعصية ورآها حسنة، وظنها من العقل والمكر، فللَّه ما يصنع الجهل والخذلان لصاحبه! ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله فى قوله: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴿١٣﴾ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا﴾ إلى آخر الآيات، ومن صفاتهم أنهم ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة﴾ التى هى أكبر الطاعات العملية، إن قاموا ﴿قاموا كسالى﴾ متثاقلين لها متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله، وإلى ما عنده، عادمة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل ﴿يراءون الناس﴾ أى: هذا الذى انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم مراءاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم، ولا يخلصون لله، فلهذا ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ لامتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته لا يكون إلا من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة الله وعظمته ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ أى: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، فلا من المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولا من الكافرين ظاهرًا وباطنًا، أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر، ولهذا قال: ﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أى: لن تجد طريقًا لهدايته، ولا وسيلة لترك غوايته، لأنه انغلق عنه باب الرحمة وصار بدله كل نقمة، فهذه الأوصاف المذمومة تدل ـ بتنبيهها ـ على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق والإخلاص، ظاهرًا وباطنًا، وأنهم لا يجهل ما عندهم من النشاط[1] فى صلاتهم وعباداتهم وكثرة ذكرهم لله تعالى، وأنهم قد هداهم الله ووفقهم للصراط المستقيم، فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختر أيهما أولى به، والله المستعان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾

ولما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، فإن ذلك موجب لأن ﴿تجعلوا لله عليكم سلطانًا مبينًا﴾ أى: حجة واضحة على عقوبتكم، فإنه قد أنذرنا وحذرنا منها وأخبرنا بما فيها من المفاسد، فسلوكها ـ بعد هذا ـ موجب للعقاب، وهذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحدًا قبل قيام الحجة عليه، وفيه التحذير من المعاصى، فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطانًا مبينًا.

---

(١) فى الأصل المطبوع (نشاطهم) وهو خطأ نحوى فلذلك أصلحناها بـ (من النشاط) لأن (ما) تحتاج إلى بيان، و (من) بيان لها.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾

يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم فى أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب، فهم تحت سائر الكفار، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق، إلا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالتوبة من السيئات ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ له الظواهر والبواطن ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ والتجأوا إليه فى جلب منافعهم ودفع المضار عنهم ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ الذى هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾ فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: فى الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر مع دخولهما فى قوله: ﴿أَصْلَحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصًا فى هذا المقام الحرج، الذى تمكن فيه النفاق من القلوب، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه فى دفعه، وكون الإخلاص منافيًا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما، وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة فى هذا المقام إليهما، وتأمل كيف ـ لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين ـ لم يقل: (وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا) مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة ـ لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق فى بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب عليه ثوابًا أو عقابًا، وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه رتب[1] الثواب فى مقابلة الحكم العام الذى تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئى، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين، وله ثوابهم، ثم أخبر تعالى عن كمال غناه وسعة حلمه ورحمته وإحسانه فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ والحال أن الله شاكر عليم، يعطى المتحملين لأجله الأثقال الدائبين فى الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان، ومن ترك شيئًا لله أعطاه الله خيرًا منه، ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك، وهو يريد التوبة والإنابة منكم والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه فأى شىء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع بعقابكم، بل العاصى لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه، والشكر هو: خضوع القلب واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)﴾

يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أى: يبغض ذلك ويمقته ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التى تسوء وتحزن، كالشتم والقذف والسب، ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهى عنه الذى يبغضه الله، ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين، وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ أى: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه، ويشتكى منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه وعدم مقابلته أولى، كما

(١) قوله: (رتب ... إلخ) جواب (إذا) فى قوله المتقدم (إذا كان السياق ... إلخ).

قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ولما كانت الآية، قد اشتملت على الكلام السيئ والحسن والمباح أخبر تعالى أنه سميع، فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يغضب ربكم فيعاقبكم، وفيه أيضًا ترغيب على القول الحسن ﴿عَلِيمًا﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم، ثم قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وهذا يشمل كل خير، قولي وفعلي، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾ أي: عمن أساء إليكم[1]، في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا لله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته، وفي هذه الآية إرشاد إلى التدبر[2] في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية، لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك، بأن أحالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص قال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

هنا قسمان، قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسله كلهم وكتبه، وكافر بذلك كله، وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجيه من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أماني، فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسله، فإن من تولى الله حقيقة تولى جميع رسله، لأن ذلك من تمام توليه، ومن عادى أحدًا من رسله فقد عادى الله، وعادى جميع رسله، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ الآيات، وكذلك من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وذلك لئلا يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر، ووجه كونهم كافرين، حتى بمن زعموا الإيمان به، أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود، هو أو مثله، أو ما هو فوقه مع النبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به، فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى، ومجرد الدعوى التي يمكن كل حد أن يقابلها بمثلها، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقًا، ذكر عقابًا شاملاً لهم، ولكل كافر فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ كما تكبروا عن الإيمان بالله أهانهم بالعذاب الأليم المخزي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: جزاء إيمانهم وما ترتب عليه، من عمل صالح، وقول حسن وخلق جميل، كلٌّ على حسب حاله، ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر السيئات ويقبل الحسنات.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا

---

(١) في الأصل المطبوع (ساءكم) وهو خطأ لغوي.

(٢) في الأصل «التفقد» وهو خطأ.

يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم، وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم، فإن الرسول بشر عبد مدبَّر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذى يرسل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التى فيها اقتراح المشركين عليه ﷺ : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل، مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقًا، مجرد دعوى لا دليل عليها ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد فى نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذى يأتيكم بكتاب نزل مفرقًا فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟ بل نزول القرآن مفرقًا بحسب الأحوال مما يدل على عظمته، واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوا مع الرسول، الذى يزعمون أنهم آمنوا به، من سؤالهم له رؤية الله عيانًا، واتخاذهم العجل إلهًا يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم، ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم، وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رءوسهم، وهُددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض والإيمان الشبيه بالإيمان الضرورى، ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التى أمروا بدخولها سجدًا مستغفرين، فخالفوا القول والفعل، ومن اعتداء من اعتدى منهم فى السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة، وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم، فنبذوه وراء ظهورهم وكفروا بآيات الله، وقتلوا رسله بغير حق، ومن قولهم: إنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه، بل شبه لهم غيره، فقتلوا غيره وصلبوه، وادعائهم أن قلوبهم غلف، لا تفقه ما تقول لهم، ولا تفهمه، وبصدهم الناس عن سبيل الله، فصدوهم عن الحق، ودعوتهم إلى ما هم عليه من الضلال والغى، وبأخذهم السحت والربا، مع نهى الله لهم عنه والتشديد فيه، فالذين فعلوا هذه الأفاعيل لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمدًا ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحاجة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره فى رد الحق، أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة، ما هو من أقبح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادى الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها، وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ ، يمكن أن يقابل بمثله، أو ما هو أقوى منه فى نبوة من يدعون إيمانهم به، ليكتفى بذلك شرهم وينقمع باطلهم، وكل حجة سلكوها فى تقريرهم لنبوة من آمنوا به فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها دالة ومقررة لنبوة محمد ﷺ ، ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة، لم يبسطها فى هذا الموضع، بل أشار إليها وأحال على مواضعها، وقد بسطها فى غير هذا الموضع فى المحل اللائق ببسطها، وقوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يحتمل أن الضمير هنا فى قوله: ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يعود إلى أهل الكتاب، فيكون ـ على هذا ـ كل كتابى يحضره الموت، ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى، عليه السلام،

ولكنه إيمان لا ينفع، لأنه إيمان اضطرار، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد، أن لا يستمروا على هذه الحال، التى سيندمون عليها قبل مماتهم، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟ ويحتمل أن الضمير فى قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام، قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة، وظهور علاماتها الكبار، فإنها تكاثرت الأحاديث فى نزوله عليه السلام فى آخر هذه الأمة، يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين، ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدًا، يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هى موافقة لشرع الله أم لا؟ وحينئذ لا يشهد إلا ببطلان كل ما هم عليه، مما هو مخالف لشريعة القرآن، ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا بذلك لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، وما عداه فهو ضلال وباطل، ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيرًا من الطيبات التى كانت حلالاً عليهم، وهذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم واعتدائهم وصدهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه، فمنعوا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التى كانوا بصدد حلها لكونها طيبة، وأما التحريم الذى على هذه الأمة فإنه تحريم تنزيهًا لهم عن الخبائث التى تضرهم، فى دينهم ودنياهم.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

لما ذكر معايب أهل الكتاب ذكر الممدوحين منهم فقال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أى: الذين ثبت العلم فى قلوبهم، ورسخ الإيقان فى أفئدتهم، فأثمر لهم الإيمان التام العام ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وأثمر لهم الاعمال الصالحة، من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، اللذين هما أفضل الأعمال، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد، وآمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد ورجوا الوعد ﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان، والعمل الصالح، والإيمان بالكتب، والرسل السابقة واللاحقة.

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وفى هذا عدة فوائد: **منها**: أن محمدًا ﷺ ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير، والجم الغفير، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل والعناد، **ومنها**: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم فى الأصول، والعدل الذى اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضًا، ويوافق بعضهم بعضًا، **ومنها**: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم، وأخلاقهم متفقة، ومصدرهم واحد، وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين ولا بالكذابين ولابالملوك الظالمين، **ومنها**: أن فى ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم والثناء الصادق عليهم وشرح أحوالهم مما يزداد به المؤمن إيمانًا بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم، واستنانًا بسنتهم، ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقًا لقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه، والرسل ـ خصوصًا هؤلاء المسمون ـ فى المرتبة العليا من الإحسان، ولما ذكر اشتراكهم بوحيه ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه آتى داود الزبور،

وهو الكتاب المعروف، المزبور الذى خص الله به داود عليه السلام، لفضله وشرفه، وأنه كلم موسى تكليمًا، أى: مشافهة منه إليه، لا بواسطة، حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: «موسى كليم الرحمن» وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم، وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين ﴿ **لئلاَّ يكُونَ للنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ فيقولوا: ﴿ **مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ** ﴾ فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل تترى، يبينون لهم أمر دينهم، ومراضى ربهم ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار، فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه، وهذا من كماله عزته تعالى وحكمته أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضًا من فضله وإحسانه، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطرار، فله الحمد والشكر، ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم أن يتمها بالتوفيق لسلوك طريقهم، إنه جواد كريم.

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) ﴾

لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين، أخبر هنا بشهادته تعالى عن رسالته وصحة ما جاء به، و ﴿ **أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ** ﴾ يحتمل أن يكون المراد أنزله مشتملاً على علمه، أى: فيه من العلوم الإلهيه والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية ما هو من علم الله تعالى، الذى علم به عباده، ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادرًا عن علمه، ويكون فى ذلك إشارة وتنبيه على وجه شهادته، وأن المعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهى، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذى أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدقه كان وليه، ومن كذبه وعاداه كان عدوه، واستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه ويوالى نصره ويجيب دعواته، ويخذل أعداءه، وينصر أولياءه، فهل[1] توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القدح فى هذه الشهادة إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته، وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله لكمال إيمانهم، ولجلالة هذا المشهود عليه، فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص، كما قال تعالى فى الشهادة على التوحيد: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ ﴿ **وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) ﴾

لما أخبر عن رسالة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها، وشهدت ملائكته ـ لزم من ذلك ثبوت الأمر المقرر والمشهود به، فوجب تصديقهم والإيمان بهم واتباعهم، ثم توعد من كفر بهم فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ أى: جمعوا بين الكفر بأنفسهم وصدهم الناس عن سبيل الله، وهؤلاء أئمة الكفر، ودعاة الضلال ﴿ **قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيدًا** ﴾ وأى ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره، فباء بالإثمين ورجع بالخسارتين وفاتته الهدايتان، ولهذا قال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا** ﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر ـ عند إطلاق الظلم ـ يدخل فيه، والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿ **لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ** ﴾ وإنما تعذر المغفرة لهم والهداية، لأنهم استمروا فى طغيانهم وازدادوا فى كفرهم، فطبع على قلوبهم، وانسدت عليهم طرق الهداية، بما كسبوا ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾، ﴿ **وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** ﴾ أى: لا يبالى الله بهم ولا يعبأ، لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التى اختاروها لأنفسهم.

---

(١) قوله (فهل) إلخ جواب (إذا) فى قوله المتقدم (وأن المعنى. د.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ، وذكر السبب الموجب للإيمان به، والفائدة فى الإيمان، والمضرة فى عدم الإيمان به، فالسبب الموجب هو: إخباره بأنه جاءهم بالحق، فمجيئه نفسه حق وما جاء به من الشرع حق، فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق فى جهلهم يعمهون، وفى كفرهم يترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم غير لائق بحكمة الله ورحمته، فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغى من الرشد، فمجرد النظر فى رسالته دليل قاطع على صحة نبوته، وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصراط المستقيم، فإنه فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة والخبر عن الله وعن اليوم الآخر ما لا يعرفه أحد إلا بالوحى والرسالة، وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح ورشد وعدل وإحسان وصدق وبر وصلة وحسن خلق، ومن النهى عن الشر والفساد والبغى والظلم وسوء الخلق والكذب والعقوق مما يقطع[1] به أنه من عند الله، وكلما ازداد به العبد بصيرة ازداد إيمانه ويقينه، فهذا السبب الداعى للإيمان، وأما الفائدة فى الإيمان فأخبر أنه ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ والخير ضد الشر، فالإيمان خير للمؤمنين، فى أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم، وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وآجل فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم والعمل الصالح والسرور والأفراح والجنة، وما اشتملت عليه من النعيم، كل ذلك سبب عن الإيمان، كما أن الشقاء الدنيوى والأخروى، من عدم الإيمان أو نقصه وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان، وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غنى عنه، لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شىء ﴿حَكِيمًا﴾ فى خلقه وأمره، فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية، الحكيم فى وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو فى الدين، وهو: مجاوزة الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع، وذلك كقول النصارى فى غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذى لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهيٍّ عنهما، وهما: قول الكذب على الله، والقول بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه ورسله، والثالث: مأمور وهو: قول الحق فى هذه الأمور، ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق فى شأن عيسى عليه السلام، نصا على قول الحق فيه المخالف للطريقة اليهودية والنصرانية قال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أى: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهى درجة الرسالة، التى هى أعلى الدرجات، وأجل المثوبات، وأنه ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أى: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم، وكذلك قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أى: من الأرواح التى خلقها وكملها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام فنفخ فى فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام، فلما بيَّن حقيقة عيسى عليه السلام أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن

(١) قوله (مما يقطع) جملة فعلية واقعة فى محل رفع خبر عن المبتدأ الذى هو قوله (ولما فيه .... إلخ).

يجعلوا الله ثالث ثلاثة، أحدهم عيسى، والثانى مريم، فهذه مقالة النصارى، قبحهم الله، فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذى يتعين أنه سبيل النجاة وما سواه فهو طرق الهلاك، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد فقال: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أى: هو المنفرد بالألوهية، الذى لا تنبغى العبادة إلا له ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى: تنزه وتقدس ﴿أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لأن: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فالكل مملوكون له مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد، ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوى والسفلى، أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها ومجازيها فقال تعالى:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)﴾

لما ذكر تعالى غلو النصارى فى عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أى: لا يمتنع عنها رغبة عنها لا هو ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فنزههم عن الاستنكاف، وتنزيههم عن الاستكبار، من باب أولى، ونفى الشىء فيه إثبات ضده، أى: فعيسى والملائكة المقربون قد رغبوا فى عبادة ربهم، وأحبوها وسعوا فيها، بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار، ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق فوق مرتبته، التى أنزل الله فيها، وترفعه عن العبادة كمالاً، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أى: فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستنكفين والمستكبرين، وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل وجزائه الفصل، ثم فصل حكمه فيهم فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: جمعوا بين الإيمان المأمور به وعمل الصالحات، من واجبات ومستحبات فى حقوق الله وحقوق عباده ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أى: الأجور التى رتبها على الأعمال، كل بحسب إيمانه وعمله ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ من الثواب الذى لم تنله أعمالهم ولم تصل إليه أفعالهم ولم يخطر على قلوبهم، ودخل فى ذلك كل ما فى الجنة من المآكل والمشارب والمناكح والمناظر والسرور، ونعيم القلب والروح ونعيم البدن، بل يدخل فى ذلك كل خير دينى ودنيوى، رتب على الإيمان والعمل الصالح ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أى: عن عبادة الله تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو سخط الله وغضبه، والنار الموقدة التى تطلع على الأفئدة ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أى: لا يجدون أحداً من الخلق يتولاهم فيحصل لهم المطلوب، ولا من ينصرهم فيدفع عنهم المرهوب، بل قد تخلى عنهم أرحم الراحمين، وتركهم فى عذابهم خالدين، وما حكم به تعالى فلا راد لحكمه، ولا مغير لقضائه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (١٧٥)﴾

يمتن تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة، والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه، وتبين ضده، وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية والآيات الأفقية والنفسية ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وفى قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم، الذى رباكم التربية الدينية والدنيوية، فمن تربيته لكم التى يحمد عليها ويشكر أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم والوصول إلى جنات النعيم ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ وهو هذا القرآن

العظيم الذى قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهى عن كل ظلم وشر، فالناس فى ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفى شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيره، ولكن انقسم الناس، بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به قسمين: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ أى: اعترفوا بوجوده واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أى: لجأوا إلى الله واعتمدوا عليه، وتبرأوا من حولهم وقوتهم واستعانوا بربهم ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أى: فسيتغمدهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات ويجزل لهم المثوبات ويدفع عنهم البليات ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى: يوفقهم للعلم والعمل ومعرفة الحق والعمل به، أى: ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه منعهم من رحمته وحرمهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالاً مبينًا عقوبة لهم على تركهم الإيمان، فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)﴾

أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ أى: فى الكلالة بدليل قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وهى: الميت يموت وليس له ولد صلب، ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، ولهذا قال: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى: لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب، ولا ولد ابن، وكذلك ليس له والد، بدليل أنه ورَّث فيه الإخوة، والإخوة[1] بالإجماع، لا يرثون مع الوالد، فإذا هلك وليس له ولد ولا والد ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ أى: شقيقة، أو لأب، لا لأم، فإنه قد تقدم حكمها ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أى: نصف متروكات أخيها من نقود وعقار وأثاث، وغير ذلك، وذلك من بعد الدَّين والوصية، كما تقدم ﴿وَهُوَ﴾ أى: أخوها الشقيق، أو الذى للأب ﴿يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ ولم يقدر له إرث، لأنه عاصب فيأخذ مالها كله، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض ﴿فَإِن كَانَتَا﴾ أى: الأختان ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ أى: فما فوق ﴿فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً﴾ أى: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم، مع الإناث ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ فيسقط فرض الإناث، ويعصبهن إخوتهن ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ أى: يبين لكم أحكامه التى تحتاجونها ويوضحها ويشرحها لكم، فضلاً منه وإحسانًا لكى تهتدوا ببيانه وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم، وعدم علمكم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى: عالم بالغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبلة، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه فيعلمكم من علمه الذى ينفعكم على الدوام فى جميع الأزمنة والأمكنة.



تفسير سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود أى: بإكمالها وإتمامها وعدم

---

(١) فى الأصل (والإخوان) أصلحناها بكلمة (الإخوة) لأنها خاصة بالنسب والولادة وأما (الإخوان) فعامة تطلق على ما كان أخًا فى النسب وعلى ما كان فى الصداقة غالبًا، والمقام هنا يقتضى أن يكون الأخ فى الولادة.

قال فى الصحاح: وأكثر ما يستعمل (الإخوان) فى الأصدقاء والإخوة فى الولادة. ا هـ.

نقضها ونقصها، وهذا شامل للعقود التى بين العبد وبين ربه من التزام عبوديته والقيام بها أتم قيام وعدم الانتقاص من حقوقها شيئًا، والتى بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتى بينه وبين الوالدين والأقارب ببرهم وصلتهم وعدم قطيعتهم، والتى بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة فى الغنى والفقر واليسر والعسر، والتى بينه وبين الخلق من عقود المعاملات كالبيع والإجارة ونحوهما وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، والقيام بحقوق المسلمين التى عقدها الله بينهم فى قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ بل التناصر على الحق والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع، فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه فكلها داخلة فى العقود التى أمر الله بالقيام بها، ثم قال ممتنًا على عباده: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ أى: لأجلكم، رحمة بكم ﴿بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ من الإبل والبقر والغنم بل ربما دخل فى ذلك، الوحش منها والظباء وحمر الوحش ونحوها من الصيود، واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذى يموت فى بطن أمه بعدما تذبح ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه منها فى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ إلى آخر الآية، فإن هذه المذكورات وإن كانت من بهيمة الأنعام فإنها محرمة، ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة فى جميع الأحوال والأوقات استثنى منها الصيد فى حال الإحرام فقال: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أى: أحلت لكم بهيمة الأنعام فى كل حال إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير محلى الصيد وأنتم حرم، أى: متجرئون على قتله فى حال الإحرام فإن ذلك لا يحل لكم إذا كان صيدًا كالظباء ونحوه، والصيد هو الحيوان المأكول المتوحش ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أى: فمهما أراده تعالى حكم به حكمًا موافقًا لحكمته كما أمركم بالوفاء بالعقود لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم، وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم وحرم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض من الميتة ونحوها صونًا لكم واحترامًا، ومن صيد الإحرام احترامًا للإحرام وإعظامًا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) ﴾

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أى: محرماته التى أمركم بتعظيمها وعدم فعلها، فالنهى يشمل النهى عن فعلها والنهى عن اعتقاد حلها، فهو يشمل النهى عن فعل القبيح وعن اعتقاده، ويدخل فى ذلك النهى عن محرمات الإحرام ومحرمات الحرم، ويدخل فى ذلك ما نص عليه بقوله: ﴿وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أى: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره، من أنواع الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ والجمهور من العلماء على أن القتال فى الأشهر الحرم منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ وغير ذلك من العمومات التى فيها الأمر بقتال الكفار مطلقًا والوعيد فى التخلف عن قتالهم مطلقًا، وبأن النبى ﷺ قاتل أهل الطائف، فى ذى القعدة وهو من الأشهر الحرم، وقال آخرون: إن النهى عن القتال فى الأشهر الحرم غير منسوخ لهذه الآية وغيرها مما فيه النهى عن ذلك بخصوصه، وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك، وقالوا: المطلق يحمل على المقيد، وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال فى الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله إذا كان أوله فى غيرها فإنه يجوز، وحملوا قتال النبى ﷺ لأهل الطائف على ذلك لأن أول قتالهم فى «حنين» فى «شوال» وكل هذا فى القتال الذى ليس المقصود منه الدفع، فأما قتال الدفع - إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال - فإنه يجوز للمسلمين القتال دفعًا عن أنفسهم فى الشهر الحرام وغيره بإجماع العلماء، وقوله: ﴿وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ﴾ أى: ولا تحلوا الهدى الذى يهدى إلى بيت الله فى حج أو عمرة أو غيرها من نعم وغيرها، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها ولا تقصروا به أو تحملوه ما لا يطيق خوفًا من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء به ﴿وَلا الْقَلائِدَ﴾ هذا نوع خاص

من أنواع الهدى، وهو الهدى الذى يفتل له قلائد أو عرى فيجعل فى أعناقه إظهاراً لشعائر الله وحملاً للناس على الاقتداء وتعليمًا لهم للسنة وليعرف أنه هدى فيحرم، ولهذا كان تقليد الهدى من السنة والشعائر المسنونة ﴿وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أى: قاصدين له ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أى: من قصد هذا البيت الحرام وقصده فضل الله بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قصده رضوان الله بحجه وعمرته والطواف به والصلاة وغيرها من أنواع العبادات، فلا تتعرضوا له بسوء ولا تهينوه بل أكرموه وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم، ودخل فى هذا الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك، وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فالمشرك لا يمكن من الدخول إلى الحرم، والتخصيص فى هذه الآية بالنهى عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه يدل[1] على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصى فإن من تمام احترام الحرم صد مَنْ هذه حاله عن الإفساد ببيت الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولما نهاهم عن الصيد فى حال الإحرام قال ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أى: إذا حللتم من الإحرام بالحج والعمرة حل لكم الاصطياد وزال ذلك التحريم والأمر بعد التحريم، يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ أى: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم، واعتداؤهم عليكم حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم طلبًا للاشتفاء[2] منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله ويسلك طريق العدل ولو جنى عليه أو ظلم واعتدى عليه فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خانه ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ أى: ليعن بعضكم بعضًا على البر، وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة من حقوق الله وحقوق الآدميين، والتقوى فى هذا الموضع: اسم جامع، لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه وبمعاونة غيره عليها من إخوانه المؤمنين بكل قول يبعث عليها وينشط لها وبكل فعل كذلك ﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ وهو: التجرى على المعاصى التى يأثم صاحبها ويحرج ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ وهو: التعدى على الخلق فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه ثم إعانة غيره على تركه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من عصاه وتجرأ على محارمه، فاحذروا المحارم لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

هذا الذى حولنا الله عليه فى قوله: ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يحرم ما يحرم إلا صيانة لعباده وحماية لهم من الضرر الموجود فى المحرمات، وقد يبين للعباد ذلك وقد لا يبين، فأخبر أنه حرم ﴿الْمَيْتَةُ﴾ والمراد بالميتة: ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضررها وهو احتقان الدم فى جوفها ولحمها المضر بآكلها، وكثيراً ما تموت بعلة تكون سببًا لهلاكها فتضر بالآكل، ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك فإنه حلال ﴿وَالدَّمُ﴾ أى: المسفوح كما قيد فى الآية الأخرى ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ وذلك شامل لجميع

---

(١) قوله (يدل الخ) جملة فعلية فى محل رفع خبر عن المبتدأ السابق فى قوله (والتخصيص ... إلخ).

(٢) قوله: (للاشتفاء) يعنى شفاء غيظهم بالانتقام من الذين أساءوا إليهم، ولو عبر (بالتشفى) لكان أولى وأوضح.

أجزائه، وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع لأن طائفة من أهل الكتاب، من النصارى يزعمون أن الله أحله لهم، أى: فلا تغتروا بهم بل هو محرم من جملة الخبائث ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أى: ذكر عليه اسم غير الله من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين، فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة فذكر اسم غيره عليها يفيدها خبثًا معنويًا لأنه شرك بالله تعالى ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ أى: الميتة بخنق، بيد أو حبل أو إدخالها رأسها بشىء ضيق فتعجز عن إخراجه حتى تموت ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ أى: الميتة بسبب الضرب بعصًا أو حصى أو خشبة أو هدم شىء عليها بقصد أو بغير قصد ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ أى: الساقطة من علو كجبل أو جدار أو سطح ونحوه فتموت بذلك ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ وهى التى تنطحها غيرها فتموت ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ من ذئب أو أسد أو نمر أو من الطيور التى تفترس الصيود، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع فإنها لا تحل، وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ راجع لهذه المسائل، من منخنقة وموقوذة ومتردية ونطيحة وأكيلة سبع إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها، ولهذا قال الفقهاء: «لو أبان السبع أو غيره حشوتها أو قطع حلقومها كان وجود حياتها كعدمها، لعدم فائدة الذكاة فيها» وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة، فإذا ذكاها وفيها حياة حلت ولو كانت مبانة الحشوة وهو ظاهر الآية الكريمة ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أى: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، ومعنى الاستقسام: طلب ما يقسم لكم ويقدر بها، وهى قداح ثلاثة كانت تستعمل فى الجاهلية مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثانى «لا تفعل» والثالث «غفل» لا كتابة فيه، فإذا هَمَّ أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما أجال تلك القداح المتساوية فى الجرم ثم أخرج واحدًا منها، فإن خرج المكتوب عليه «افعل» مضى فى أمره، وإن ظهر المكتوب عليه «لا تفعل» لم يفعل ولم يمض فى شأنه، وإن ظهر الآخر الذى لا شىء عليه أعادها حتى يخرج أحد القدحين فيعمل به، فحرم الله عليهم الذى فى هذه الصورة وما يشبهها، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم فى جميع أمورهم ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات، التى حرمها الله صيانة لعباده، وأنها فسق أى: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان، ثم امتن على عباده بقوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ الآية، واليوم المشار إليه يوم عرفة إذ أتم الله دينه ونصر عبده ورسوله وانخذل أهل الشرك انخذالاً بليغًا بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم طامعين فى ذلك، فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره يئسوا كل اليأس من المؤمنين أن يرجعوا إلى دينهم وصاروا يخافون منهم ويخشون، ولهذا فى هذه السنة التى حج فيها النبى ﷺ سنة عشر - حجة الوداع - لم يحجج فيها مشرك ولم يطف بالبيت عريان، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ أى: فلا تخشوا المشركين واخشوا الله الذى نصركم عليهم وخذلهم ورد كيدهم فى نحورهم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بتمام النصر وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية فى أحكام الدين أصوله وفروعه، فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس فى معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة من علم الكلام وغيره فهو جاهل مبطل فى دعواه قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الظاهرة والباطنة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أى: اخترته واصطفيته لكم دينًا كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكرًا لربكم واحمدوا الذى مَنَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أى: ألجأته الضرورة إلى أكل شىء من المحرمات السابقة فى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ أى: مجاعة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ أى: مائل ﴿لِّإِثْمٍ﴾ بأن لا يأكل حتى يضطر ولا يزيد فى الأكل على كفايته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث أباح له الأكل فى هذه الحال، ورحمه بما يقيم به بنيته، من غير نقص يلحقه فى دينه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ من الأطعمة؟ ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ وهى كل ما فيه نفع أو لذة من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل فى ذلك جميع الحبوب والثمار التى فى القرى

والبرارى، ودخل فى ذلك جميع حيوانات البر إلا ما استثناه الشارع كالسباع والخبائث منها، ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ أى: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية، دلت هذه الآية على أمور: **أحدها**: لطف الله بعباده ورحمته لهم حيث وسع عليهم طرق الحلال وأباح لهم ما لم يذكره مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح: الكلاب والفهود والصقر ونحو ذلك مما يصيد بنابه أو بمخلبه، **الثانى**: أنه يشترط أن تكون معلمة بما يعد في العرف تعليمًا بأن يسترسل إذا أرسل وينزجر إذا زجر وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أى: أمسكن من الصيد لأجلكم، وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه، **الثالث**: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ مع ما تقدم من تحريم المنخنقة، فلو خنقه الكلب أو غيره أو قتله بثقله لم يبح، هذا بناء على أن الجوارح اللاتى يجرحن الصيد بأنيابها أو مخالبها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواسب أى: المحصلات للصيد والمدركات له، فلا يكون فيها ـ على هذا ـ دلالة، والله أعلم، **الرابع**: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد فى الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه، **الخامس**: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلاً فدل على طهارته، **السادس**: فيه فضيلة العلم وأن الجارح المعلم ـ بسبب العلم ـ يباح صيده والجاهل بالتعليم لا يباح صيده، **السابع**: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما ليس مذمومًا وليس من العبث والباطل، بل هو أمر مقصود لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به، **الثامن**: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك، **التاسع**: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح وأنه إن لم يسم الله متعمدًا لم يبح ما قتل الجارح، **العاشر**: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا، وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بذكاة، ثم حث تعالى على تقواه وحذر من إتيان الحساب فى يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

كرر تعالى إحلال الطيبات لبيان الامتنان ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ أى: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم ـ يا معشر المسلمين ـ دون باقى الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين، وذلك لأن أهل الكتاب ينتسبون إلى الأنبياء والكتب، وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله لأنه شرك، فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم، والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم أن الطعام الذى ليس من الذبائح كالحبوب والثمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم، وأيضًا فإنه أضاف الطعام إليهم فدل ذلك على أنه كان طعامًا، بسبب ذبحهم، ولا يقال: إن ذلك للتمليك وأن المراد: الطعام الذى يملكون، لأن هذا لا يباح على وجه الغصب ولا من المسلمين ﴿وَطَعَامُكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أى: يحل لكم أن تطعموهم إياه ﴿وَ﴾ أحل لكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ أى: الحرائر العفيفات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ والحرائر العفيفات ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أى: من اليهود والنصارى، وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ ومفهوم الآية أن الأرقاء من المؤمنات لا يباح نكاحهن للأحرار وهو كذلك، وأما الكتابيات فعلى كل حال لا يحن ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقًا، لقوله تعالى: ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ وأما المسلمات ـ إذا كن رقيقات ـ فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن

إلا بشرطين: عدم الطول وخوف العنت، وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزنا فلا يباح نكاحهن سواء كن مسلمات أو كتابيات حتى يتبين لقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية، وقوله: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أى: أبحنا لكم نكاحهن إذا أعطيتموهن مهورهن، فمن عزم على أن لا يؤتيها مهرها فإنها لا تحل له، وأمر بإيتائها إذا كانت رشيدة تصلح للإيتاء وإلا أعطاه الزوج لوليها، وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع مهرها وليس لأحد منه شيء إلا ما سمحت به لزوجها أو وليها أو غيرهما ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أى: حالة كونكم - أيها الأزواج - محصنين لنسائكم بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أى: زانين مع كل أحد ﴿وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ وهو: الزنا مع العشيقات لأن الزناة فى الجاهلية منهم من يزنى مع من كان فهذا هو المسافح، ومنهم من يزنى مع خدنه ومحبه، فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافى العفة، وأن شروط التزوج أن يكون الرجل عفيفًا عن الزنا، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أى: ومن كفر بالله تعالى وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع فقد حبط عمله بشرط أن يموت على كفره كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة وحصلوا على الشقاوة الأبدية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة نذكر منها ما يسره الله وسهله: **أحدها**: أن هذه المذكورات فيها[1] امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذى لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخرها، أى: يأيها الذين آمنوا اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم، **والثانى**: الأمر بالقيام بالصلاة لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ **الثالث**: الأمر بالنية للصلاة، لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ أى: بقصدها ونيتها. **الرابع**: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة لأن الله أمر بها عند القيام إليها والأصل فى الأمر الوجوب، **الخامس**: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت وإنما عند إرادة الصلاة، **السادس**: أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة فى الفرض والنفل وفرض الكفاية وصلاة الجنازة تشترط له الطهارة حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء كسجود التلاوة والشكر، **السابع**: الأمر بغسل الوجه، وهو: ما تحصل به المواجهة، من منابت شعر الرأس المعتاد إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضًا، ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق بالسنة، ويدخل فيه الشعور التى فيه، لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة وإن كانت كثيفة اكتفى بظاهرها، **الثامن**: الأمر بغسل اليدين وأن حدهما إلى المرفقين، و «إلى» كما قال جمهور المفسرين بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق، **التاسع**: الأمر بمسح الرأس، **العاشر**: أنه يجب مسح جميعه لأن الباء ليست للتبعيض وإنما هى للملاصقة[2] وأنه يعمم المسح بجميع الرأس، **الحادى عشر**: أنه يكفى المسح كيفما كان بيديه أو إحداهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما، لأن الله أطلق المسح ولم يقيده بصفه فدل ذلك على إطلاقه، **الثانى عشر**: أن الواجب المسح، فلو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف لأنه لم يأت بما أمر الله به، **الثالث عشر**: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما

(١) هكذا فى الأصل، لعل الصواب أن (فيها) زائدة.

(٢) قوله (للملاصقة) يريد: للإلصاق، ولو عبر به لكان أولى موافقة لجمهور علماء اللغة فكلهم يقول: (الباء للإلصاق) ولم يقل أحد للملاصقة.

ما يقال فى اليدين، **الرابع عشر**: فيها الرد على الرافضة، على قراءة الجمهور بالنصب، وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين، **الخامس عشر**: فيه الإشارة إلى مسح الخفين على قراءة الجر فى ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ وتكون كل من القراءتين محمولة على معنى، فعلى قراء النصب فيها غسلهما إن كانتا مكشوفتين، وعلى قراءة الجر فيها مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف، **السادس عشر**: الأمر بالترتيب فى الوضوء لأن الله تعالى ذكرها مرتبة ولأنه أدخل ممسوحًا ـ وهو الرأس ـ بين مغسولين ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب، **السابع عشر**: أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات فى هذه الآية، وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين فإن ذلك غير واجب بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين، **الثامن عشر**: الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة، لتوجد صورة المأمور به، **التاسع عشر**: الأمر بالغسل من الجنابة، **العشرون**: أنه يجب تعميم الغسل للبدن لأن الله أضاف التطهر للبدن ولم يخصصه بشىء دون شىء، **الحادى والعشرون**: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه فى الجنابة، **الثانى والعشرون**: أنه يندرج الحدث الأصغر فى الحدث الأكبر، ويكفى مَنْ هما عليه أن ينوى ثم يعمم بدنه لأن الله لم يذكر إلا التطهر ولم يذكر أنه يعيد الوضوء، **الثالث والعشرون**: أن الجنب يصدق على من أنزل المنى يقظة أو منامًا أو جامع ولو لم ينزل، **الرابع والعشرون**: أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بللاً فإنه لا غسل عليه لأنه لم تتحقق منه الجنابة، **الخامس والعشرون**: ذكر منة الله تعالى على العباد بمشروعيته التيمم، **السادس والعشرون**: أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذى يضره غسله بالماء فيجوز له التيمم، **السابع والعشرون**: أن من جملة أسباب جوازه السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء فالمرض يجوز التيمم مع وجود الماء لحصول التضرر به، وباقيها يجوزه العدم للماء، ولو كان فى الحضر، **الثامن والعشرون**: أن الخارج من السبيلين من بول وغائط ينقض الوضوء، **التاسع والعشرون**: استدل بها من قال: لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران، فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره **الثلاثون**: استحباب التكنية عما يستقذر التلفظ به لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ **الحادى والثلاثون**: أن لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض للوضوء، **الثانى والثلاثون**: اشتراط عدم الماء لصحة التيمم، **الثالث والثلاثون**: أن مع وجود الماء ولو فى الصلاة يبطل التيمم لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء، **الرابع والثلاثون**: أنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء فإنه يلزمه طلبه فى رحله وفيما قرب منه، لأنه لا يقال: «لم يجد» لمن لم يطلب، **الخامس والثلاثون**: أن من وجد ماء لا يكفى بعض طهارته فإنه يلزمه استعماله ثم يتيمم بعد ذلك، **السادس والثلاثون**: أن الماء المتغير بالطاهرات مقدم على التيمم، أى يكون طهورًا، لأن الماء المتغير ماء فيدخل فى قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ **السابع والثلاثون**: أنه لا بد من نية التيمم لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أى: اقصدوا، **الثامن والثلاثون**: أنه يكفى التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره، فيكون على هذا قوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ إما من باب التغليب، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين، وإما يكون إرشادًا للأفضل وأنه إذا أمكن التراب الذى فيه غبار فيه[1] فهو أولى، **التاسع والثلاثون**: أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس لأنه لا يكون طيبًا بل خبيثًا، **الأربعون**: أنه يمسح فى التيمم الوجه واليدين فقط دون بقية الأعضاء، **الحادى والأربعون**: أن قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ شامل لجميع الوجه أن يعمه بالمسح إلا أنه معفو عن إدخال التراب فى الفم والأنف وفيما تحت الشعور ولو خفيفة، **الثانى والأربعون**: أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط لأن اليدين عند الإطلاق كذلك، فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين لقيده الله بذلك كما قيده فى الوضوء، **الثالث والأربعون**: أن الآية عامة فى جواز التيمم لجميع الأحداث كلها: الحدث الأكبر والأصغر، بل ونجاسة البدن لأن الله جعلها[2] بدلاً عن طهارة الماء وأطلق فى الآية فلم يقيد، وقد يقال: إن نجاسة البدن لا تدخل فى حكم التيمم لأن السياق فى الأحداث، وهو قول الجمهور العلماء، **الرابع والأربعون**: أن محل التيمم فى الحدث

(١) فيه: هكذا فى الأصل، لعل الصواب أن (فيه) زائدة.

(٢) قوله: (جعلها) أى: جعل الطهارة بالتيمم.

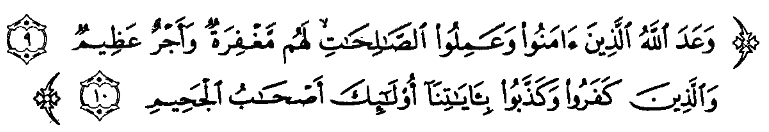
الأصغر والأكبر واحد وهو الوجه واليدان، **الخامس والأربعون:** أنه لو نوى من عليه حدثان التيمم عنهما فإنه يجزئ أخذًا من عموم الآية وإطلاقها، **السادس والأربعون:** أنه يكفى المسح بأى شىء كان بيده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فَامْسَحُوا﴾ ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شىء، **السابع والأربعون:** اشتراط الترتيب فى طهارة التيمم كما يشترط ذلك فى الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين، **الثامن والأربعون:** أن الله تعالى - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا فى ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليطهرهم وليتم نعمته عليهم، وهذا هو **التاسع والأربعون:** أن طهارة الظاهر بالماء والتراب تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد والتوبة النصوح، **الخمسون:** أن طهارة التيمم - وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة - تدرك بالحس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى، **الحادي والخمسون:** أنه ينبغى للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار فى شرائع الله فى الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلمًا ويزداد شكرًا لله ومحبة له على ما شرع من الأحكام التى توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)﴾

يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية بقلوبهم وألسنتهم، فإن فى استدامة ذكرها داعيًا لشكر الله تعالى ومحبته وامتلاء القلب من إحسانه، وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية وزيادة لفضل الله وإحسانه، ﴿وَمِيثَاقَهُ﴾ أى: واذكروا ميثاقه ﴿الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ أى: عهده الذى أخذه عليكم، وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم - بإيمانهم بالله ورسوله - قد التزموا طاعتهما، ولهذا قال: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أى: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية سمع فهم وإذعان وانقياد، وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال وما نهيتنا عنه بالاجتناب، وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، وأن المؤمنين يذكرون فى ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى جميع أحوالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: ما تنطوى عليه من الأفكار والأسرار والخواطر، فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه أن يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده، فإنكم إن كنتم كذلك غفر لكم السيئات وضاعف لكم الحسنات لعلمه بصلاح قلوبكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)﴾

أى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم بأن تكونوا ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة، وأن يكون ذلك القيام لله وحده لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط الذى هو العدل لا الإفراط ولا التفريط فى أقوالكم ولا فى أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد والصديق والعدو ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أى: لا يحملنكم ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أى: بغضهم ﴿عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، فلو كان كافرًا أو مبتدعًا فإنه يجب العدل فيه وقبول ما يأتى به من الحق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله فإن هذا ظلم للحق ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أى: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم فى العمل به كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها صغيرها وكبيرها جزاء عاجلاً وآجلاً.



﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)﴾

أي: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ الذى لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين ـ المؤمنين به وبكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من واجبات ومستحبات ـ بالمغفرة لذنوبهم، بالعفو عنها وعن عواقبها وبالأجر العظيم الذى لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها، بعدما أبانت الحقائق ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم ـ كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمة ـ فليعدوا أيضًا إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم ورد كيدهم فى نحورهم نعمة، فإن الأعداء قد هموا بأمر وظنوا أنهم قادرون عليه، فإن لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم فهو نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغى لهم أن يشكروا الله على ذلك ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر من كافر ومنافق وباغ كف الله شره عن المسلمين، فإنه دخل فى هذه الآية، ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم وعلى جميع أمورهم فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: يعتمدوا عليه فى جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ويتبرءوا من حولهم وقوتهم ويثقوا بالله تعالى فى حصول ما يحبون، وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه أخذ على بنى إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به وذكر ما عاقبهم به فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: عهدهم المؤكد الغليظ ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أى: رئيسًا وعريفًا على ما تحته ليكون ناظرًا عليهم حاثًا لهم على القيام بما أمروا به مطالبًا يدعوهم ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أى: بالعون والنصر، فإن المعونة بقدر المؤنة، ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا بالإتيان بما يلزم وينبغى فيها والمداومة على ذلك ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ لمستحقيها ﴿وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أى: عظمتموهم وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو الصدقة والإحسان الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب، فإذا قمتم بذلك ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات، ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد والميثاق المؤكد بالإيمان، والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب وحصول العقاب، فكأنه قيل: ليت شعرى ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه أم نكثوا؟ فبين أنهم نقضوا ذلك فقال: ﴿فبما

نقضهم ميثاقهم﴾ أى: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات: **الأولى**: أن ﴿لعناهم﴾ أى: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة ولم يقوموا بالعهد الذى أخذ عليهم الذى هو سببها الأعظم، **الثانية**: قوله: ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أى: غليظة لا تجدى فيها المواعظ ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد أن يكون قلبه بهذه الصفة التى لا يفيده معها الهدى الخير إلا شرًا، **الثالثة**: أنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أى: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون الكلام الذى أراد الله له معنى غير ما أراد الله ولا رسوله، **الرابعة**: أنهم ﴿ونسوا حظًا مما ذكروا به﴾ فإنهم ذكروا بالتوراة وبما أنزل الله على موسى فنسوا حظًا منه، وهذا شامل لنسيان علمه وأنهم نسوه وضاع عنهم ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه عقوبة منه لهم، وشامل لنسيان العمل الذى هو الترك فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذى قد ذكر فى كتابهم أو وقع فى زمانهم أنه مما نسوه، **الخامسة**: الخيانة المستمرة التى ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ أى: خيانتهم لله ولعباده المؤمنين، ومن أعظم الخيانة منهم كتمهم الحق عمن يعظمهم ويحسن فيهم الظن وإبقاؤهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة، وهذه الخصال الذميمة حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم، فكل من لم يقم بما أمر الله به وأخذ به عليه الالتزام كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب والابتلاء بتحريف الكلم وأنه لا يوفق للصواب ونسيان حظ مما ذكر به، وأنه لا بد أن يبتلى بالخيانة، نسأل الله العافية، وسمى الله تعالى ما ذُكروا به حظًا، لأنه هو أعظم الحظوظ وما عداه فإنما هى حظوظ دنيوية، كما قال تعالى: ﴿فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ وقال فى الحظ النافع: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ وقوله: ﴿إلا قليلاً منهم﴾ أى: فإنهم وفوا بما عاهدوا الله عليه فوفقهم وهداهم للصراط المستقيم ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ أى: لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى الذى يقتضى أن يعفى عنهم، واصفح فإن ذلك من الإحسان ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ والإحسان: هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وفى حق المخلوقين: بذل النفع الدينى والدنيوى لهم.

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ (١٤) ﴾

أى: وكما أخذنا من اليهود العهد والميثاق فكذلك أخذنا ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾ لعيسى ابن مريم وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله وما جاءوا به ونقضوا العهد ﴿فنسوا حظًا مما ذكروا به﴾ نسيانًا علميًا، ونسيانًا عمليًا ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أى: سلطنا بعضهم على بعض وصار بينهم من الشرور والإحن ما يقتضى بغض بعضهم بعضًا ومعاداة بعضهم بعضًا إلى يوم القيامة، وهذا أمر مشاهد، فإن النصارى لم يزالوا فى بغض وعداوة وشقاق ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ فيعاقبهم عليه.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ (١٥) يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (١٦) ﴾

لما ذكر تعالى ما أخذه الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأنهم نقضوا ذلك إلا قليلاً، أمرهم جميعًا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، واحتج عليهم بآية قاطعة دالة على صحة نبوته وهى: أنه يبين لهم كثيرًا مما يخفون عن الناس حتى عن العوام من أهل ملتهم، فإذا كانوا هم المشار إليهم فى العلم ولا عند أحد فى ذلك الوقت إلا ما عندهم فالحريص على العلم لا سبيل له إلى إدركه إلا منهم، فإتيان الرسول ﷺ بهذا القرآن

العظيم الذى بين به ما كانوا يتكاتمون بينهم، وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب - من أدل الدلائل على القطع برسالته، وذلك مثل صفة محمد فى كتبهم ووجود البشائر به فى كتبهم وبيان آية الرجم ونحو ذلك ﴿ويعفو عن كثير﴾ أى: يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ وهو القرآن، يستضاء به فى ظلمات الجهالة وعماية الضلالة ﴿وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ بكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ومن العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية، ثم ذكر مَن الذى يهتدى بهذا القرآن؟ وما هو السبب الذى من العبد لحصول ذلك فقال: ﴿يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ أى: يهدى من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله وصار قصده حسنًا - سبل السلام التى يسلم صاحبها من العذاب وتوصله إلى دار السلام وهو العلم بالحق والعمل به إجمالاً وتفصيلاً ﴿ويخرجهم من الظلمات﴾ ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والجهل والغفلة ﴿إلى النور﴾ نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم الذكر، وكل هذه من الهداية بإذن الله الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾

لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه - ذكر أقوالهم الشنيعة، فذكر قول النصارى، القول الذى ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح ابن مريم، ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل، مع أن حواء نظيره خلقت بلا أم، وآدم أولى منه خلق بلا أب ولا أم، فهلا ادعوا فيهما الإلهية كما ادعوها فى المسيح؟ فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة، فرد الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال: ﴿قُلْ فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعًا﴾ فإذا كان المذكورون لا امتناع يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك ولا فى قوته شىء من الفكاك، ومن الأدلة أن ﴿لله﴾ وحده ﴿ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكونى والشرعى والجزائى وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير إلهًا معبودًا غنيًا من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال، ولا وجه لاستغرابهم، لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب فإن الله ﴿يخلق ما يشاء﴾ إن شاء من أب وأم كسائر بنى آدم، وإن شاء من أب بلا أم كحواء، وإن شاء من أم بلا أب كعيسى، وإن شاء من غير أب ولا أم كآدم، فنوع خليقته تعالى بمشيئته النافذة التى لا يستعصى عليها شىء، ولهذا قال: ﴿والله على كل شىء قدير﴾ ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة يزكون بها أنفسهم بأن قال كل منهما: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ والابن فى لغتهم هو الحبيب ولم يريدوا البنوة الحقيقية فإن هذا ليس من مذهبهم إلا مذهب النصارى فى المسيح، قال الله ردًا عليهم حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾؟ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ تجرى عليكم أحكام العدل والفضل ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ أى: فأى شىء خصكم بهذه الفضيلة وأنتم من جملة المماليك ومن جملة من يرجع إلى الله فى الدار الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)﴾

يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ ويشكروا الله تعالى الذى أرسله إليهم ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ وشدة حاجة إليه، وهذا مما يدعو إلى الإيمان به وأن يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية، وقد قطع الله بذلك حجتهم لئلا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ يبشر بالثواب العاجل والآجل وبالأعمال الموجبة لذلك وصفة العاملين بها، وينذر بالعقاب العاجل والآجل وبالأعمال الموجبة لذلك وصفة العاملين بها ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ انقادت الأشياء طوعًا وإذعانًا لقدرته فلا يستعصى عليه شيء منها، ومن قدرته أن أرسل الرسل وأنزل الكتب وأنه يثيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾

لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرهم واستعبادهم ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم وهى بيت المقدس وما حواليه وقاربوا وصول بيت المقدس وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم، فوعظهم موسى عليه السلام وذكَّرهم ليقروا على الجهاد فقال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بقلوبكم وألسنتكم، فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ﴾ يدعونكم إلى الهدى ويحذرونكم من الردى ويحثونكم على سعادتكم الأبدية ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ تملكون أمركم بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم فكنتم تملكون أمركم وتتمكنون من إقامة دينكم ﴿وَآتَاكُم﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ فإنهم - فى ذلك الزمان - خيرة الخلق وأكرمهم على الله، وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم، فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعى ذلك لإيمانهم وثباته وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أى: المطهرة ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فأخبرهم خبرًا تطمئن به أنفسهم إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ أى: ترجعوا ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ قد خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم، وآخرتكم بما فاتكم من الثواب وما استحققتم - بمعصيتكم - من العقاب، فقالوا قولاً يدل على ضعف قلوبهم وخور نفوسهم وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ شديدى القوة والشجاعة، أى: فهذا من الموانع لنا من دخولها ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشدهم لعلموا أنهم كلهم من بنى آدم وأن القوى من أعانه الله بقوة من عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم إذ وعدهم الله بذلك وعدًا خاصًا ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله تعالى، مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالتوفيق وكلمة الحق فى هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ أى: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تهجموا عليهم وتدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون، ثم أمرهم بعدة هى أقوى العدد فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن فى التوكل على الله - وخصوصًا فى هذا

الموطن - تيسيرًا للأمر ونصرًا على الأعداء، ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، فلم ينجع هذا الكلام ولا نفع فيهم الملام فقالوا قول الأذلين: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فما أشنع هذا الكلام منهم ومواجهتهم به لنبيهم فى هذا المقام الحرج الضيق الذى قد دعت الحاجة والضرورة فيه إلى نصرة نبيهم وإعزاز أنفسهم، وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم وأمة محمد ﷺ حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ - حين شاورهم فى القتال يوم «بدر» مع أنه لم يحتم عليهم - يا رسول الله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ولو بلغت بنا برك الغماد[1] ما تخلف عنك أحد، ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن يسارك، فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أى: فلا يدان لنا بقتالهم ولست بجبار على هؤلاء ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: احكم بيننا وبينهم بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك، ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق ﴿قَالَ﴾ الله مجيبًا لدعوة موسى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التى كتبهم الله لها مدة أربعين سنة، وتلك المدة أيضًا يتهيون فى الأرض لا يهتدون إلى طريق ولا يبقون مطمئنين، وهذه عقوبة دنيوية، لعل الله تعالى كفَّر بها عنهم ودفع عنهم عقوبة أعظم منها، وفى هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة أو دفع نقمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر، ولعل الحكمة فى هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات، بل قد ألفت الاستعباد لعدوها ولم تكن لها همم ترقيها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها، ولتظهر ناشئة جديدة تتربى عقولهم على طلب قهر الأعداء وعدم الاستعباد، والذل المانع من السعادة، ولما علم الله تعالى أن عبده موسى فى غاية الرحمة على الخلق خصوصًا قومه وأنه ربما رق لهم واحتملته الشفقة على الحزن عليهم فى هذه العقوبة أو الدعاء لهم بزوالها مع أن الله قد حتمها، قال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: لا تأسف عليهم ولا تحزن فإنهم قد فسقوا وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلمًا منا.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

أى: قص على الناس وأخبرهم بالقضية التى جرت على ابنى آدم بالحق تلاوة يعتبر بها المعتبرون صدقًا لا كذبًا وجدًا لا لعبًا، والظاهر أن ابنى آدم هما ابناه لصلبه، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين، أى: اتل عليهم نبأهما، فى حال تقريبهما للقربان الذى أداهما إلى الحال المذكورة ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ أى: أخرج كل منهما شيئًا من ماله، لقصد التقرب إلى الله ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ بأن علم ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة فى الأمم أن علامة تقبل الله للقربان أن تنزل نار من السماء فتحرقه ﴿قَالَ﴾ الابن الذى لم يتقبل منه للآخر، حسدًا وبغيًا: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال له الآخر، مترفقًا به فى ذلك: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فأى ذنب لى وجناية توجب لك أن تقتلنى؟ إلا أنى اتقيت الله تعالى الذى تقواه واجبة علىَّ وعليك

---

(١) قال فى القاموس «برك الغماد» بكسر الباء وبفتحها وسكون الراء فيهما موضع باليمن أو وراء مكة بخمس ليال، أو أقصى معمور الأرض اهـ.

وعلى كل أحد، وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا، أي: المتقين لله في ذلك العمل بأن يكون عملهم خالصًا لوجه الله متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ، ثم قال له مخبرًا أنه لا يريد أن يتعرض لقتله لا ابتداء ولا مدافعة فقال: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ وليس ذلك جبنًا مني ولا عجزًا وإنما ذلك لأني ﴿أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ والخائف لله لا يقدم على الذنوب، خصوصًا الذنوب الكبار، وفي هذا تخويف لمن يريد القتل وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ﴾ أي: ترجع ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني فإني أوثر أن تقتلني فتبوء بالوزرين ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب وأنه موجب لدخول النار، فلم يرتدع ذلك الجاني ولم ينزجر ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها حتى طوعت له قتل أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دنياهم وآخرتهم، وأصبح قد سن هذه السنة لكل قاتل «ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» ولهذا ورد في الحديث الصحيح أن «ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمها لأنه أول من سن القتل» فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به لأنه أول ميت مات من بني آدم ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يثيرها ليدفن غرابًا آخر ميتًا ﴿لِيُرِيَهُ﴾ بذلك ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي: بدنه، لأن بدن الميت يكون عورة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ وهكذا عاقبة المعاصي، الندامة والخسارة.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾

يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرناه في قصة ابني آدم وقتل أحدهما أخاه وسنة القتل لمن بعده وأن القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أهل الكتب السماوية ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بغير حق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ لأنه ليس معه داع يدعوه إلى التبيين، وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق، فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء، فتجرؤه على قتله كأنه قتل الناس جميعًا، وكذلك من أحيا نفسًا أي: استبقى أحدًا فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله، فهذا كأنه أحيا الناس جميعًا لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل، ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: إما أن يقتل نفسًا بغير حق متعمدًا في ذلك فإنه يحل قتله إن كان مكلفًا مكافئًا ليس بوالد للمقتول، وإما أن يكون مفسدًا في الأرض بإفساده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين والدعاة إلى البدع الذين لا ينكشف شرهم إلا بالقتل، وكذلك قطاع الطريق ونحوهم ممن يصول على الناس لقتلهم أو أخذ أموالهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي لا يبقى معها حجة لأحد ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ أي: من الناس ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ البيان القاطع للحجة الموجب للاستقامة في الأرض ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ في العمل بالمعاصي ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤)﴾

المحاربون لله ولرسوله هم الذين بارزوه بالعداوة وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل وأخذ الأموال وإخافة السبل، والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي

فيغصبونهم أموالهم ويقتلونهم ويخيفونهم فيمتنع الناس من سلوك الطريق التى هم بها فتنقطع بذلك، فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم ـ عند إقامة الحد عليهم ـ أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور، واختلف المفسرون: هل ذلك على التخيير، وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ، أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم، فكل جريمة لها قسط يقابلها كما تدل عليه الآية بحكمها وموافقتها لحكمة الله تعالى، وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالاً تحتم قتلهم وصلبهم حتى يشتهروا ويختزوا ويرتدع غيرهم، وإن قتلوا ولم يأخذوا مالاً تحتم قتلهم فقط، وإن أخذوا مالاً ولم يقتلوا تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد اليمنى والرجل اليسرى، وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولا أخذوا مالاً نفوا من الأرض، فلا يتركون يأوون فى بلد حتى تظهر توبتهم، وهذا قول ابن عباس ﷺ وكثير من الأئمة على اختلاف فى بعض التفاصيل ﴿ذَٰلِكَ﴾ النكال ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أى: فضيحة وعار ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة، وأن فاعله محارب لله ولرسوله، وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة علم أن تطهير الأرض من المفسدين وتأمين السبل والطرق عن القتل وأخذ الأموال وإخافة الناس من أعظم الحسنات وأجلّ الطاعات وأنه إصلاح فى الأرض كما أن ضده إفساد فى الأرض ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أى: من هؤلاء المحاربين ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: فيسقط عنه ما كان لله من تحتم القتل والصلب والقطع والنفى، ومن حق الآدمى أيضًا إن كان المحارب كافرًا ثم أسلم، فإن كان المحارب مسلمًا فإن حق الآدمى لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال، ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب ـ بعد القدرة عليه ـ أنها لا تسقط عنه شيئًا، والحكمة فى ذلك ظاهرة، وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه تمنع من إقامة الحد فى الحرابة فغيرها من الحدود ـ إذا تاب من فعلها قبل القدرة عليه ـ من باب أولى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يجتهد العبد ويبذل غاية ما يمكنه المقدور فى اجتناب ما يسخطه الله من معاصى القلب واللسان والجوارح الظاهرة والباطنة، ويستعين بالله على تركها لينجو بذلك من سخط الله وعذابه ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أى: القرب منه والحظوة لديه والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية كالحب له وفيه والخوف والرجاء والإنابة والتوكل، والبدنية كالزكاة والحج، والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها من أنواع القراءة والذكر ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال والعلم والجاه والبدن والنصح لعباد الله، فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله، ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله حتى يحبه فإذا أحبه كان سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ويستجيب الله له الدعاء، ثم خص تبارك وتعالى من العبادات المقربة إليه الجهاد فى سبيله، وهو: بذل الجهد فى قتال الكافرين بالمال والنفس والرأى واللسان والسعى فى نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد، لأن هذا النوع من أجلّ الطاعات وأفضل القربات، ولأن من قام به فهو على القيام بغيره أحرى وأولى ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إذا اتقيتم الله بترك المعاصى وابتغيتم الوسيلة إلى الله بفعل الطاعات وجاهدتم فى سبيله ابتغاء مرضاته، والفلاح هو: الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب والنجاة من كل مرهوب، فحقيقته السعادة الأبدية والنعيم المقيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين يوم القيامة وما لهم من العذاب الفظيع، وأنهم لو افتدوا من عذاب

الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ما تقبل منهم ولا أفاد، لأن محل الافتداء قد فات ولم يبق إلا العذاب الأليم الموجع الدائم الذى لا يخرجون منه أبدًا، بل هم ماكثون فيه سرمدًا.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)﴾

السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية بغير رضاه، وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة وهو قطع اليد اليمنى، كما هو فى قراءة بعض الصحابة، وحد اليد عند الإطلاق: من الكوع، فإذا سرق قطعت يده من الكوع وحسمت فى زيت لتنسد العروق فيقف الدم، ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه: منها: الحرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة، فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه، ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصابًا، وهو: ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساوى أحدهما، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه، ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها، فإن لفظ «السرقة» أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز منه، وذلك أن يكون المال محرزًا، فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية، ومن الحكمة أيضًا أن لا تقطع اليد فى الشيء النزر التافه، فلما كان لا بد من التقدير كان التقدير الشرعى مخصصًا للكتاب، والحكمة فى قطع اليد فى السرقة أن ذلك حفظ للأموال واحتياط لها وليقطع العضو الذى صدرت منه الجناية، فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى، فإن عاد فقيل: تقطع يده اليسرى ثم رجله اليمنى وقيل: يحبس حتى يموت، وقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ أى: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ أى: تنكيلاً وترهيبًا للسارق ولغيره ليرتدع السراق ـ إذا علموا ـ أنهم سيقطعون إذا سرقوا ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عز وحكم، فقطع السارق ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيغفر لمن تاب فترك الذنوب وأصلح الأعمال والعيوب، وذلك أن الله له ملك السموات والأرض يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية والمغفرة والعقوبة بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾

كان الرسول محمد ﷺ ـ من شدة حرصه على الخلق ـ يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان ثم يرجع إلى

الكفر فأرشده الله تعالى إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء فإن هؤلاء لا فى العير ولا فى النفير، إن حضروا لم ينفعوا وإن غابوا لم يفقدوا، ولهذا قال ـ مبينًا للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم ـ فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ فإن الذين يؤسى ويحزن عليهم من كان معدودًا من المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، وحاشا لله أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويرتدوا فإن الإيمان ـ إذا خالطت بشاشته القلوب ـ لم يعدل به صاحبه غيره ولم يبغ به بدلاً ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أى: اليهود ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أى: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم المبنى أمرهم على الكذب والضلال والغى، وهؤلاء الرؤساء المتبعون ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ بل أعرضوا عنك، وفرحوا بما عندهم من الباطل ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أى: يجلبون معانى للألفاظ ما أرادها الله ولا قصدها لإضلال الخلق ولدفع الحق، فهؤلاء المنقادون للدعاة إلى الضلال المتبعين للمحال الذين يأتون بكل كذب لا عقول لهم ولا همم، فلا تبال أيضًا إذا لم يتبعوك لأنهم فى غاية النقص والناقص لا يؤبه له ولا يبالى به ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أى: هذا قولهم عند محاكمتهم إليك، لا قصد لهم إلا اتباع الهوى، يقول بعضهم لبعض: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم، الذى يوافق هواكم فاقبلوا حكمه وإن لم يحكم لكم به فاحذروا أن تتابعوه على ذلك، وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ أى: فلذلك صدر منهم ما صدر، فدل ذلك على أن من كان مقصوده بالتحاكم إلى الحكم الشرعى اتباع هواه وأنه إن حكم له رضى وإن لم يحكم له سخط فإن ذلك من عدم طهارة قلبه، كما أن من حاكم وتحاكم إلى الشرع ورضى به وافق هواه أو خالفه فإنه من طهارة القلب، ودل على أن طهارة القلب سبب لكل خير وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد وعمل سديد ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أى: فضيحة وعار ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو: النار وسخط الجبار ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ والسمع ههنا سمع استجابة أى: من قلة دينهم وعقلهم أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أى: المال الحرام بما يأخذونه على سفلتهم وعوامهم من المعلومات والرواتب التى بغير الحق، فجمعوا بين اتباع الكذب وأكل الحرام ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فأنت مخير فى ذلك، وليست هذه منسوخة، فإنه ـ عند تحاكم هذا الصنف إليه ـ يخير بين أن يحكم بينهم أو يعرض عن الحكم بينهم بسبب أنه لا قصد لهم فى الحكم الشرعى إلا أن يكون موافقًا لأهوائهم، وعلى هذا فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم، فإن حكم بينهم وجب أن يحكم بالقسط، ولهذا قال: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء فلا يمنعك ذلك من العدل فى الحكم بينهم، وفى هذا بيان فضيلة العدل والقسط فى الحكم بين الناس وأن الله تعالى يحبه، ثم قال متعجبًا منهم: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم ـ لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه ـ لم يصدفوا عن حكم الله الذى فى التوراة التى بين أيديهم إلا لعلهم أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم، وحين حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضًا لم يرضوا بذلك بل أعرضوا عنه فلم يرتضوه أيضًا، قال تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ﴾ الذين هذا صنيعهم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: ليس هذا دأب المؤمنين وليسوا حريين بالإيمان، لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم وجعلوا أحكام الإيمان تابعة لأهوائهم ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾ على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ﴿فِيهَا هُدًى﴾ يهدى إلى الإيمان والحق ويعصم من الضلالة ﴿وَنُورٌ﴾ يستضاء به فى ظلم الجهل والحيرة والشكوك والشبهات والشهوات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿يَحْكُمُ بِهَا﴾ بين الذين هادوا، أى: اليهود فى القضايا والفتاوى ﴿النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ لله وانقادوا لأوامره الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، صفوة الله من العباد، فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام والسادة للأنام قد اقتدوا بها وائتموا ومشوا خلفها فما الذى منع هؤلاء الأراذل من اليهود من الاقتداء بها؟ وما الذى أوجب لهم أن ينبذوا أشرف ما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ الذى لا يقبل عمل ظاهر وباطن إلا بتلك العقيدة؟ هل لهم إمام فى ذلك؟ نعم لهم أئمة دأبهم التحريف وإقامة

رياستهم ومناصبهم بين الناس والتأكل بكتمان الحق وإظهار الباطل، أولئك أئمة الضلال الذين يدعون إلى النار، وقوله: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾ أى: وكذلك يحكم بالتوراة الذين هادوا أئمة الدين من الربانيين، أى: العلماء العاملين المعلمين الذين يربون الناس بأحسن تربية ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين، والأحبار أى: العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم وترمق آثارهم ولهم لسان الصدق بين أممهم، وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أى: بسبب أن الله استحفظهم على كتابه وجعلهم أمناء عليه وهو أمانة عندهم أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان وتعليمه لمن لا يعلمه، وهم شهداء عليه بحيث إنهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتبه على الناس منه، فالله تعالى قد حمل أهل العلم ما لم يحمله الجهال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا، وأن لا يقتدوا بالجهال، فى الإخلاد إلى البطالة والكسل، وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة من أنواع الذكر والصلاة الزكاة والحج والصوم ونحو ذلك من الأمور التى إذا قام به غير أهل العلم سلموا ونجوا، وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم خصوصًا الأمور الأصولية والتى يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم، ولهذا قال: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ فتكتموا الحق وتظهروا الباطل لأجل متاع الدنيا القليل، وهذه الآفات إذا سلم منها العالم فهو من توفيقه وسعادته بأن يكون همه الاجتهاد فى العلم والتعليم، ويعلم أن الله قد استحفظه بما أودعه من العلم واستشهده عليه وأن يكون خائفًا من ربه، ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم من القيام بما هو لازم له وأن لا يؤثر الدنيا على الدين، كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلدًا للبطالة غير قائم بما أمر به ولا مبالٍ بما استحفظ عليه، قد أهمله وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشى فى أحكامه وأخذ المال على فتاويه، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة، فهذا قد منَّ الله عليه بمنة عظيمة كفرها ودفع حظًا جسيما حرم منه غيره، فنسألك اللهم علمًا نافعًا وعملاً متقبلاً وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الحق المبين وحكم بالباطل الذى يعلمه لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفرًا ينقل عن الملة،وذلك إذا اعتقد حله وجوازه، وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ومن أعمال الكفر قد استحق من فعله العذاب الشديد.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٥)﴾

هذه الأحكام من جملة الأحكام التى فى التوراة، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار، فإن الله أوجب عليهم أن النفس ـ إذا قتلت ـ تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة، والعين تقلع بالعين، والأذن تؤخذ بالأذن، والسن ينزع بالسن، ومثل هذه ما أشبهها من الأطراف التى يمكن الاقتصاص منها بدون حيف ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ والاقتصاص: أن يُفعل به كما فعل، فمن جرح غيره عمدًا اقتص من الجارح جرحًا مثل جرحه للمجروح حدًا وموضعًا وطولاً وعرضًا وعمقًا، وليعلم أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ﴾ أى: بالقصاص فى النفس وما دونها من الأطراف والجروح، بأن عفا عمن جنى وثبت له الحق قبله ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ أى: كفارة للجانى لأن الآدمى عفا عن حقه والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه وكفارة أيضًا عن العافى فإنه كما عفا عمن جنى عليه أو عمن يتعلق به فإن الله يعفو عن زلاته وجناياته ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ابن عباس: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، فهو ظلم أكبر عند استحلاله وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له.

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

أى: وأتبعنا هؤلاء الأنبياء والمرسلين الذين يحكمون بالتوراة بعبدنا ورسولنا عيسى ابن مريم روح الله وكلمته التى ألقاها إلى مريم، بعثه الله مصدقًا لما بين يديه من التوراة، فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق ومؤيد لدعوته وحاكم بشريعته وموافق له فى أكثر الأمور الشرعية، وقد يكون عيسى عليه السلام أخف فى بعض الأحكام، كما قال تعالى عنه أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ولأُحلَّ لكم بعضَ الَّذى حُرِّمَ عليكُمْ﴾، ﴿وآتيْناهُ الإنجيلَ﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة ﴿فيه هدى ونور﴾ يهدى إلى الصراط المستقيم ويبين الحق من الباطل ﴿ومُصدِّقًا لما بيْن يديْه من التَّوْرَاة﴾ بتثبيتها والشهادة لها والموافقة ﴿وهُدًى ومَوْعظَةً للْمتَّقين﴾ فإنهم الذين ينتفعون بالهدى ويتعظون بالمواعظ ويرتدعون عما لا يليق ﴿ولْيحكُمْ أَهْلُ الإنجيلِ بمَا أنزلَ اللَّهُ فيه﴾ أى: يلزمهم التقيد بكتابهم ولا يجوز لهم العدول عنه ﴿ومَن لَّمْ يَحْكُم بمَا أنزلَ اللَّهُ فأُولَئكَ هُمُ الْفَاسقُونَ﴾.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وأنزلْنا إليْكَ الْكتابَ﴾ الذى هو القرآن العظيم أفضل الكتب وأجلها ﴿بالْحقِّ﴾ أى: إنزالاً بالحق ومشتملاً على الحق فى أخباره وأوامره ونواهيه ﴿مُصدِّقًا لما بيْن يديْه من الْكتاب﴾ لأنه شهد للكتب السالفة ووافقها وطابقت أخباره أخبارها وشرائعه الكبار شرائعها وأخبرت به فصار وجودها مصداقًا لخبرها ﴿ومُهيْمنًا عليْه﴾ أى: مشتملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة وزيادة فى المطالب الإلهية والأخلاق النفسية، فهو الكتاب الذى يتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به وحث عليه وأكثر من الطرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذى فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذى فيه الحكم والحكمة والأحكام، الذى عرضت عليه الكتب السابقة فما شهد له بالصدق فهو المقبول وما شهد له بالرد فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل وإلا فلو كان من عند الله لم يخالفه ﴿فاحْكُم بيْنهُم بما أنزلَ اللَّهُ﴾ من الحكم الشرعى الذى أنزله الله عليك ﴿ولا تتَّبعْ أهْواءهُمْ عمَّا جاءك منَ الْحقِّ﴾ أى: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلا عما جاءك من الحق فتستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ﴿لكُلٍّ جعلْنا منكُمْ﴾ أيها الأمم ﴿شرْعةً ومنْهاجًا﴾ أى: سبيلاً وسنة، وهذه الشرائع التى تختلف باختلاف الأمم هى التى تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال وكلها ترجع إلى العدل فى وقت شرعتها، وأما الأصول الكبار التى هى مصلحة وحكمة فى كل زمان فإنها لا تختلف فتشرع فى جميع الشرائع ﴿ولوْ شاء اللَّهُ لجعلكُمْ أُمَّةً واحدةً﴾ تبعًا لشريعة واحدة لا يختلف متأخرها ولا متقدمها ﴿ولكن ليبْلُوكُمْ فى ما آتاكُمْ﴾ فيختبركم وينظر كيف تعملون ويبتلى كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته ويؤتى كل أحد ما يليق به وليحصل التنافس بين الأمم، فكل أمة تحرص على سبق غيرها، ولهذا قال: ﴿فاسْتبقُوا الْخيْرات﴾ أى: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب من حقوق الله وحقوق عباده لا يصير فاعلها سابقًا لغيره مستوليًا على

الأمر إلا بأمرين: المبادرة إليها وانتهاز الفرصة، حين يجيء وقتها ويعرض عارضها والاجتهاد فى أدائها كاملة على الوجه المأمور به، ويستدل بهذه الآية على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها فى أول وقتها، وعلى أنه ينبغى أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزى فى الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغى أن يأتى بالمستحبات التى يقدر عليها لتتم وتكتمل ويحصل بها السبق ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الأمم السابقة واللاحقة كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الشرائع والأعمال فيثيب أهل الحق والعمل الصالح ويعاقب أهل الباطل والعمل السيئ ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ هذه الآية هى التى قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ والصحيح أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ مخير بين الحكم بينهم وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق، وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، وهو القسط الذى تقدم أن الله قال: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ ودل هذا على بيان القسط وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط وما خالف ذلك فهو جور وظلم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ كرر النهى عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها، ولأن ذلك فى مقام الحكم والفتوى وهو أوسع، وهذا فى مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أى: إياك والاغترار بهم وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فصار اتباع أهوائهم سببًا موصلاً إلى ترك الحق الواجب، والفرض اتباعه ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿فَاعْلَمْ﴾ أن ذلك عقوبة عليهم و ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة ومن أعظم العقوبات أن يبتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول وذلك لفسقه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أى: طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أى: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية؟ وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله، فلا ثَمَّ إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية، فمن أعرض عن الأول ابتلى بالثانى المبنى على الجهل والظلم والغى، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبنى على العلم والعدل والقسط والنور والهدى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فالموقن هو الذى يعرف الفرق بين الحكمين ويميز بإيقانه ما فى حكم الله من الحسن والبهاء وأنه يتعين عقلاً وشرعًا اتباعه، واليقين هو العلم التام الموجب للعمل.

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)﴾

يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بيَّن لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة أن لا يتخذوهم أولياء، فإن ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتناصرون فيما بينهم ويكونون يدًا على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء فإنهم هم الأعداء على الحقيقة، ولا يبالون بضركم بل لا يدخرون من مجهودهم شيئًا على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ لأن التولى التام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولى القليل يدعو إلى الكثير ثم يتدرج شيئًا فشيئًا حتى يكون العبد منهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: الذين وصفهم الظلم وإليه يرجعون وعليه يعولون، فلو جئتهم بكل آية ما تبعوك ولا انقادوا لك، ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم أخبر أن ممن يدعى الإيمان طائفة تواليهم فقال: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى: شك ونفاق وضعف إيمان يقولون: إن تولينا إياهم[1] للحاجة فإننا ﴿نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أى:

(١) قوله (تولينا إياهم) خطأ نحوى والصواب (توليناهم) لأن المقرر فى القواعد النحوية كما ذكره ابن هشام - فى كتاب (القطر) وابن مالك فى ألفيته أن الضمير مهما أمكن اتصاله فلا يعدل عنه إلى الانفصال.

تكون الدائرة لليهود والنصارى فإذا كـانت الدائرة لهم، فإذًا لنا معهم يد[1] يكافئوننا عنـها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قـال تعالى، رادًا لظنهـم السيئ: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ الذى يعـز الله به الإسلام على اليـهود والنصارى ويقـهرهم المـسلمون ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ ييأس به المنافقـون من ظفر الكافرين من اليهـود وغيرهم ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا﴾ أى: أضمروا ﴿فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذى نصر الله به الإسلام والمسلمين وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أى: حلفوا وأكدوا حلفهم وغلظوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم فى الإيمان وما يلزمه من النصرة والمحبة والموالاة، ظهر ما أضمروه وتبين ما أسروه وصار كيدهم الذى كادوه وظنهم الذى ظنوه بالإسلام وأهله باطلاً، وبطل كيدهم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ فى الدنيا ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ حيث فاتهم مقصودهم وحضرهم الشقاء والعذاب.

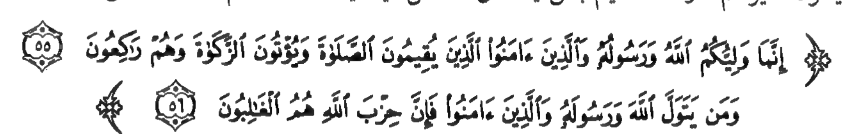
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

يخبر تعالى أنه الغنى عن العالمين وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئًا وإنما يضر نفسه، وأن لله عبادًا مخلصين ورجالاً صادقين قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم ووعـد بالإتيان بهم وأنهم أكمل الخلق أوصـافًا وأقواهم نفوسًا وأحسنهـم أخلاقًا، أجل صفاتهم أن الله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فإن محبة الله للعبـد هى أجل نعمة أنعم بها عليـه وأفضل فضيلـة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عـبدًا يسر له الأسـباب وهون عليه كل عسير ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات وأقبل بقلوب عباده إليـه بالمحبة والوداد، ومن لوازم محبة العبد لـربه أنـه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا فى أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ كمـا أن من لوازم محبـة الله للعبد أن يكثـر العبد من التـقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصـحيح عن الله: «وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويـده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، ولئن سـألنى لأعطينه ولئن استعـاذنى لأعيذنه» ومن لوازم محبة الله معرفتـه تعالى والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة الله ناقـصة جدًا بل غير موجودة، وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبدًا قبل منه الـيسير من العمل وغفر له الكثير من الزلل، ومن صفاتهم أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فهم للمؤمنين أذلة، من محبتهم لهم ونصحهم لهم ولينهم ورفقهم ورأفتهم ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم وقرب الشىء الذى يطلب منهم، وعلى الكافرين بالله المعاندين لآياته المكذبين لرسله أعزة قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم وبذلوا جهدهم فى كل سبب يحصـل به الانتصار عـليهم، قال تـعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ فالغلظة الشديدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله ويوافق العبد ربه فى سخطه عليهم، ولا تمنع الغلـظة عليهم والشدة، دعوتهم إلى الدين الإسلامى بالتى هى أحسن، فتجتمع الغلظة عليهم، واللين فى دعوتهم، وكـلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المـخلوقين، وهذا يدل على قوة همـمـهم وعزائمهم، فإن ضـعيف القلب ضعيف الهـمة تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين وتفتر قوته عند عذل العاذلين، وفى قلوبهم تعبد لغير الله بحسب ما فيـها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهـم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التـعبد لغير الله حـتى لا يخاف فى الله لومة

---

(١) قوله (فإذًا لنا معهم يد) تعبير ليس على ما ينبغى الصواب (فتكون لنا عندهم يد).

لائم، ولما مدحهم تعالى بما مَنَّ به عليهم من الصفات الجميلة والمناقب العالية المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير ـ أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لئلا يعجبوا بأنفسهم وليشكروا الذى مَنَّ عليهم بذلك ليزيدهم من فضله وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: واسع الفضل والإحسان جزيل المنن قد عمت رحمته كل شىء ويوسع على أوليائه من فضله ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعًا.


﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾

لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين أخبر تعالى من يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى، فكل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا ومن كان لله وليًا فهو ولى لرسوله، ومن تولى الله ورسوله كان تمام ذلك تولى من تولاه وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهرًا وباطنًا وأخلصوا للمعبود بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها وأحسنوا للخلق وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقيها منهم، وقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أى: خاضعون لله ذليلون، فأداة الحصر فى قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين والتبرى من ولاية غيرهم، ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أى: فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه الغالبون الذين لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة، وإن أديل عليه فى بعض الأحيان لحكمة يريدها الله تعالى فآخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾

ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء يحبونهم ويتولونهم ويبدون لهم أسرار المؤمنين ويعاونونهم على بعض أمورهم التى تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم ويحثهم على معاداتهم، وكذلك التزامهم لتقوى الله التى هى امتثال أوامره واجتناب زواجره مما يدعوهم إلى معاداتهم، وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار والمخالفون للمسلمين من قدحهم فى دين المسلمين واتخاذهم إياه هزوًا ولعبًا واحتقاره واستصغاره خصوصًا الصلاة التى هى أظهر شعائر المسلمين وأجلّ عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزوًا ولعبًا وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول لخضعوا لها ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التى تتصف بها النفوس، فإذا علمتم ـ أيها المؤمنون حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم ـ فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص وأنه لا يبالى بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شىء، فكيف تدعى لنفسك دينًا قيمًا وأنه الدين الحق وما سواه باطل وترضى بموالاة من اتخذه هزوًا ولعبًا وسخر به وبأهله من أهل الجهل والحمق؟! وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا

يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

أى: ﴿قُلْ﴾ يأيها الرسول ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ملزمًا لهم، إن دين الإسلام هو الدين الحق وإن قدحهم فيه قدح بأمر ينبغى المدح عليه ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى: هل لنا من العيب إلا إيماننا بالله وبكتبه السابقة واللاحقة وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان فإنه كافر فاسق؟ فهل تنقمون منا بهذا الذى هو أوجب الواجبات على جميع المكلفين؟ ومع هذا فأكثرهم فاسقون، أى: خارجون عن طاعة الله متجرئون على معاصيه، فأولى لكم ـ أيها الفاسقون ـ السكوت فلو كان عيبكم وأنتم سالمون من الفسق، وهيهات ذلك ـ لكان الشر أخف من قدحكم فينا مع فسقكم، ولما كان قدحهم فى المؤمنين يقتضى أنهم يعتقدون أنهم على شر، قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم، مخبرًا عن شناعة ما كانوا عليه: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذى نقمتم فيه علينا مع التنزل معكم ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أى: أبعده عن رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وعاقبه فى الدنيا والآخرة ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وهو الشيطان، وكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم ورضى الله عنهم وأثابهم فى الدنيا والآخرة لأنهم أخلصوا له الدين، وهذا النوع من باب استعمال أفعل التفضيل[1] فى غير بابه، وكذلك قوله: ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أى: وأبعد عن قصد السبيل ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقًا ومكرًا ﴿وَ﴾ هم ﴿قَد دَّخَلُوا﴾ مشتملين ﴿بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فمدخلهم ومخرجهم بالكفر ـ وهم يزعمون أنهم مؤمنون، فهل أشر من هؤلاء وأقبح حالاً منهم؟ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها، ثم استمر تعالى يعدد معايبهم انتصارًا لقدحهم فى عباده المؤمنين فقال: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أى: من اليهود ﴿يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أى يحرصون ويبادرون المعاصى المتعلقة فى حق الخالق والعدوان على المخلوقين ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الذى هو الحرام، فلم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك حتى أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا يدل على خبثهم وشرهم وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصى والظلم، هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا فى غاية الذم لهم والقدح فيهم ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أى: هلا ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس الذين مَنَّ الله عليهم بالعلم والحكمة ـ عن المعاصى التى تصدر منهم ليزول ما عندهم من الجهل وتقوم حجة الله عليهم؟ فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيهم وأن يبينوا لهم الطريق الشرعى ويرغبون فى الخير ويرهبوهم من الشر ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن مقالة اليهود الشنيعة وعقيدتهم الفظيعة فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أى: عن الخير والإحسان والبر ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وهذا دعاء عليهم بجنس مقالتهم، فإن كلامهم متضمن لوصف

---

(١) قوله (من باب استعمال أفعل التفضيل الخ) يريد بهذا الكلام أن أفعل التفضيل يأتى على وزن (أفعل) غير أن كلمتين خرجتا عن القاعدة لكثرة دورانهما فى الكلام وهما (خير) و (شر) والقياس أن يكونا على وزن أفعل فيقال مثلاً (أخير) و (أشر).

الله الكريم بالبخل وعدم الإحسان، فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقًا عليهم، فكانوا أبخل الناس وأقلهم إحسانًا وأسوأهم ظنًا بالله وأبعدهم عن رحمته التى وسعت كل شىء وملأت أقطار العالم العلوى والسفلى، ولهذا قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ لا حجر عليه ولا مانع يمنعه مما أراد، فإنه تعالى قد بسط فضله وإحسانه الدينى والدنيوى وأمر العباد أن يتعرضوا لنفحات جوده وأن لا يسدوا على أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم فيده سحاء الليل والنهار وخيره فى جميع الأوقات مدرارًا يفرج كربًا ويزيل غمًا ويغنى فقيرًا ويفك أسيرًا ويجبر كسيرًا ويجيب سائلاً ويعطى فقيرًا عائلاً ويجيب المضطرين، ويستجيب للسائلين وينعم على من لم يسأله ويعافى من طلب العافية ولا يحرم من خيره عاصيًا، بل خيره يرتع فيه البر والفاجر ويجود على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال ثم يحمدهم عليها ويضيفها إليهم وهى من جوده ويثيبهم عليها من الثواب العاجل والآجل ما لا يدركه الوصف ولا يخطر على بال العبد، ويلطف بهم فى جميع أمورهم ويوصل إليهم من الإحسان ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه، فسبحان من كل النعم التى بالعباد منه وإليه، يجأرون فى دفع المكاره، وتبارك من لا يحصى أحد ثناءً عليه بل هو كما أثنى على نفسه، وتعالى من لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين، بل ولا وجود لهم ولا بقاء إلا بوجوده، وقبّح الله من استغنى بجهله عن ربه ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله، بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة، ونحوهم ممن حاله كحالهم، ببعض قولهم لهلكوا وشقوا فى دنياهم، ولكنهم يقولون تلك الأقوال وهو تعالى يحلم عنهم ويصفح ويمهلهم ولا يهملهم، وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وهذا من أعظم العقوبات على العبد أن يكون الذكر الذى أنزله الله على رسوله، الذى فيه حياة القلب والروح وسعادة الدنيا والآخرة وفلاح الدارين الذى هو أكبر منّة امتن الله بها على عباده، توجب عليهم المبادرة إلى قبولها والاستسلام لله بها وشكرًا لله عليها، أن تكون لمثل هذا زيادة غى إلى غيه وطغيان إلى طغيانه وكفر إلى كفره، وذلك بسبب إعراضه عنها ورده لها ومعاندته إياها ومعارضته لها بالشبه بالباطلة ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا يتألفون ولا يتناصرون ولا يتفقون على حالة فيها مصلحتهم، بل لم يزالوا متباغضين فى قلوبهم متعادين بأفعالهم إلى يوم القيامة ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ ليكيدوا بها الإسلام وأهله، وأبدوا وأعادوا وأجلبوا بخيلهم ورجلهم ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ بخذلانهم وتفرق جنودهم وانتصار المسلمين عليهم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أى: يجتهدون ويجدون ولكن بالفساد فى الأرض، أى: بعمل المعاصى والدعوة إلى دينهم الباطل والتعويق عن الدخول فى الإسلام ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض وسيجازيهم على ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وهذا من كرمه وجوده حيث لما ذكر قبائح أهل الكتاب ومعايبهم وأقوالهم الباطلة دعاهم إلى التوبة، وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته وجميع كتبه وجميع رسله واتقوا المعاصى لكفّر عنهم سيئاتهم، ولو كانت ما كانت، ولأدخلهم جنات النعيم التى فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: قاموا بأوامرها كما ندبهم الله وحثهم، ومن إقامتهما الإيمان بما دُعوا إليه من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة التى أنزلها ربهم إليهم، أى: لأجلهم وللاعتناء بهم ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أى: لأدر الله عليهم الرزق ولأمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿مِّنْهُمْ﴾ أى: من أهل الكتاب ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أى: عاملة بالتوراة والإنجيل عملاً غير قوى ولا نشيط، و ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أى: والمسىء منهم الكثير، وأما السابقون منهم فقليل ما هم.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها وهو: التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل فى هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية، فبلّغ

ﷺ أكمل تبليغ ودعا وأنذر وبشر ويسر وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلَّغ بقوله وفعله وكتبه ورسله فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرها عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أى: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أى: فما امتثلت أمره ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغى أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين فإن نواصيهم بيد الله وقد تكفل بعصمتك، فأنت إنما عليك البلاغ المبين، فمن اهتدى فلنفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم ولا يوفقهم للخير بسبب كفرهم.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

أى: قل لأهل الكتاب ـ مناديًا على ضلالهم ومعلنًا بباطلهم: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الأمور الدينية، فإنكم لا بالقرآن ومحمد آمنتم، ولا بنبيكم وكتابكم صدقتم، ولا بحق تمسكتم ولا على أصل اعتمدتم ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ أى: تجعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما والتمسك بكل ما يدعوان إليه ﴿وَ﴾ تقيموا ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذى رباكم وأنعم عليكم وجعل أجل إنعامه إنزال الكتب إليكم، فالواجب عليكم أن تقوموا بشكر الله وتلتزموا أحكام الله وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أهل الكتاب من أهل القرآن والتوراة والإنجيل أن سعادتهم ونجاتهم فى طريق واحد وأصل واحد وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فله النجاة ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها، وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمنة.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: عهدهم الثقيل بالإيمان بالله والقيام بواجباته التى تقدم الكلام عليها فى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ إلى آخر الآيات ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً﴾ يتوالون عليهم بالدعوة ويتعاهدونهم بالإرشاد ولكن ذلك لم ينجح فيهم ولم يفد ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾ من الحق، كذبوه وعاندوه وعاملوه أقبح المعاملة ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أى: ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجر عليهم عذابًا ولا عقوبة واستمروا على باطلهم ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ عن الحق ﴿ثُمَّ﴾ نعشهم و ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ حين تابوا إليه وأنابوا ﴿ثُمَّ﴾ لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة، حيث ﴿عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بهذا الوصف، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازى كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى

وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ بشبهة أنه خرج من أم بلا أب وخالف المعهود من الخلقة الإلهية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم فى هذه الدعوى وقال لهم: ﴿**يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ**﴾ فأثبت لنفسه العبودية التامة ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق ﴿**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ**﴾ أحدًا من المخلوقين، لا عيسى ولا غيره ﴿**فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ**﴾ وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق وصرف ما خلقه الله له ـ وهو العبادة الخالصة ـ لغير من هى له فاستحق أن يخلد فى النار ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ ينقذونهم من عذاب الله أو يرفعون عنهم بعض ما نزل بهم ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ**﴾ وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا أن الله ثالث ثلاثة: الله وعيسى ومريم، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، هذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى، كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء والعقيدة القبيحة؟ كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق؟ كيف خفى عليهم رب العالمين؟ قال تعالى ـ ردًا عليهم وعلى أشباههم: ﴿**وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾ متصف بكل صفة كمال منزه عن كل نقص منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه، فكيف يجعل معه إله غيره؟!! تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، ثم توعدهم بقوله: ﴿**وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم وبيَّن أنه يقبل التوبة عن عباده فقال: ﴿**أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ**﴾ أى: يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد وبأن عيسى عبد الله ورسوله ـ عما كانوا يقولونه ﴿**وَيَسْتَغْفِرُونَهُ**﴾ عما صدر منهم ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ أى: يغفر ذنوب التائبين ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم وتبديل سيئاتهم حسنات، وصدَّر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذى هو غاية اللطف واللين فى قوله: ﴿**أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ**﴾ ثم ذكر حقيقة المسيح وأمه الذى هو الحق فقال: ﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ أى: هذا غايته ومنتهى أمره، أنه من عباد الله المرسلين الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله لا مزية له عليهم تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية ﴿**وَأُمُّهُ**﴾ مريم ﴿**صِدِّيقَةٌ**﴾ أى: هذا أيضًا غايتها أن كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء، والصديقية، هى: العلم النافع المثمر لليقين والعمل الصالح، وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبية بل أعلى أحوالها الصديقية وكفى بذلك فضلاً وشرفًا، وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبية لأن الله تعالى جعل النبوة فى أكمل الصنفين، فى الرجال، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِم**﴾ فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله وأمه صديقة فلأى شىء اتخذهما النصارى إلهين مع الله؟ وقوله: ﴿**كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ**﴾ دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب ولم يحتاجا إلى شىء، فإن الإله هو الغنى الحميد، ولما بيَّن تعالى البرهان قال: ﴿**انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ**﴾ الموضحة للحق الكاشفة لليقين ومع هذا لا تفيد فيهم شيئًا بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وافترائهم وذلك ظلم وعناد منهم.

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

أى: ﴿**قُلْ**﴾ لهم أيها الرسول: ﴿**أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ من المخلوقين الفقراء المحتاجين ﴿**مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا**﴾ وتدعون من انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ﴿**وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**﴾ لجميع الأصوات باختلاف

اللغات على تفنن الحاجات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالظواهر والبواطن والغيب والشهادة والأمور الماضية المستقبلة، فالكامل تعالى الذى هذه أوصافه هو الذى يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة ويخلص له الدين.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أى: لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل، وكذلك كقولهم فى المسيح ما تقدم حكايته عنهم وكغلوهم فى بعض المشايخ، متبعين ﴿أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ أى: تقدم ضلالهم ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين الذى هم عليه ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أى: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله منهم، وعن اتباع أهوائهم المردية وآرائهم المضلة، ثم قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أى: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم وعاندوها ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر واللعن ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أى: بعصيانهم لله وظلمهم لعباد الله صار سببًا لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات، ومن معاصيهم التى أحلت بهم المثلات وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أى: كانوا يفعلون المنكر ولا ينهى بعضهم بعضًا فيشترك بذلك المباشر وغيره الذى سكت عن النهى عن المنكر مع قدرته على ذلك، وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر ـ مع القدرة ـ موجبًا للعقوبة لما فيه من المفاسد العظيمة، منها: أن مجرد السكوت فعل معصية وإن لم يباشرها الساكت، فإنه ـ كما يجب اجتناب المعصية ـ فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية، ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصى، وقلة الاكتراث بها، ومنها: أن ذلك يجرئ العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصى إذا لم يردعوا عنها فيزداد الشر وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرون على ما كانوا يقدرون عليه أولاً، ومنها: أنه ـ بترك الإنكار للمنكر ـ يندرس العلم ويكثر الجهل، فإن المعصية ـ مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها ـ يظن أنها ليست بمعصية وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأى مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله حلالاً؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقًا؟ ومنها: أن بالسكوت على معصية العاصين ربما تزينت المعصية فى صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالاقتداء بأحزابه وبنى جنسه، ومنها ومنها، فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة نص الله تعالى أن بنى إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم وخص من ذلك هذا المنكر العظيم ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالمحبة والموالاة والنصر ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ البضاعة الكاسدة والصفة الخاسرة وهى: سخط الله الذى يسخط لسخطه كل شىء، والخلود الدائم فى العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المقيم ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ فإن الإيمان بالله وبالنبى وما أنزل إليه يوجب على العبد موالاة ربه وموالاة أوليائه ومعاداة من كفر به وعاداه وأوضع فى معاصيه، فشرط ولاية الله

والإيمان به أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط فدل على انتفاء المشروط ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبى، ومن فسقهم موالاة أعداء الله، ثم قال تعالى:

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول تعالى فى بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين وإلى ولايتهم ومحبتهم وأبعدهم من ذلك ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين وأكثرهم سعيا فى إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم بغيًا وحسدًا وعنادًا وكفرًا ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ وذكر تعالى لذلك عدة أسباب، منها: أن ﴿مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أى: علماء متزهدين وعبادًا فى الصوامع متعبدين، والعلم مع الزهد وكذلك العبادة ـ مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود وشدة المشركين، ومنها: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر، ومنها: أنهم ﴿إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ أثر ذلك فى قلوبهم وخشعوا له وفاضت أعينهم بحسب ما سمعوا من الحق الذى تيقنوه، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهم أمة محمد ﷺ، يشهدون لله بالتوحيد ولرسله بالرسالة وصحة ما جاءوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب، وهم عدول شهادتهم مقبولة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فكأنهم ليموا على إيمانهم ومسارعتهم فيه، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ أى: وما الذى يمنعنا من الإيمان بالله والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا الذى لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين، فأى مانع يمنعنا؟ أليس ذلك موجبًا للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه، قال الله تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أى: بما تفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذه الآيات نزلت فى النصارى الذين آمنوا بمحمد ﷺ، كالنجاشى وغيره ممن آمن منهم، وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام، ولما ذكر ثواب المحسنين ذكر عقاب المسيئين فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لأنهم كفروا بالله وكذبوا بآياته المبينة للحق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه إذ أحلها لكم واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها أو اعتقاد تحريمها فتجمعوا بذلك بين قول الكذب على الله وكفر النعمة واعتقاد الحلال الطيب حرامًا خبيثًا، فإن هذا من الاعتداء والله قد نهى عن الاعتداء فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك،

ثم أمر بضد ما عليه المشركون الذين يحرمون ما أحل الله فقال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا﴾ أى: كلوا من رزقه الذى ساقه إليكم بما يسره من الأسباب إذا كان حلالاً لا سرقة ولا غصبًا ولا غير ذلك من أنواع الأموال التى تؤخذ بغير حق، وكان أيضًا طيبًا، وهو الذى لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه فإنه لا يتم إلا بذلك، ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالاً عليه من طعام وشراب وسرية وأمة ونحو ذلك، فإنه لا يكون حرامًا بتحريمه، لكن لو فعله فعليه كفارة يمين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية، إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار، ويدخل فى هذه الآية أنه لا ينبغى للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها على نفسه بل يتناولها مستعينًا بها على طاعة ربه.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوٓا أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

أى: فى أيمانكم التى صدرت على وجه اللغو، وهى الأيمان التى حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾ أى: بما عزمتم عليه وعقدت عليه قلوبكم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ أى: كفارة الأيمان التى عقدتموها بقصدكم ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ وذلك الإطعام ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أى: كسوة عشرة مساكين، والكسوة هى التى تجزئ فى الصلاة ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ كما قيدت فى غير هذا الموضع، فمتى فعل واحدًا من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ واحدًا من هذه الثلاثة ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ تكفرها وتمحوها وتمنع من الإثم ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ عن الحلف بالله كذبًا وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيرًا، فتمام الحفظ أن يفعل الخير ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ المبينة للحلال من الحرام الموضحة للأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله، حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون، فعلى العبد شكر الله تعالى على ما منَّ به عليه من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة ويخبر أنها من عمل الشيطان وأنها رجس ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أى: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله خصوصًا هذه الفواحش المذكورة: وهى الخمر، وهى: كل ما خامر العقل أى: غطاه بسكره، والميسر، وهو: جميع المغالبات التى فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها، والأنصاب، وهى: الأصنام والأنداد ونحوها مما ينصب ويعبد من دون الله، والأزلام، التى يقتسمون بها، فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر وأخبر عن مفاسدها الداعية إلى تركها، واجتنابها، فمنها: أنها رجس، أى: نجس، خبث معنى، وإن لم تكن نجسة حسًا، والأمور الخبيثة مما ينبغى اجتنابها وعدم التدنس بأوضارها، ومنها: أنها من عمل الشيطان الذى هو أعدى الأعداء للإنسان، ومن المعلوم أن العدو يحذر منه وتحذر مصايده وأعماله خصوصًا الأعمال التى يعملها ليوقع فيها عدوه فإنها فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين والحذر منها والخوف من الوقوع فيها، ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو الفوز بالمطلوب المحبوب والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له، ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس والشيطان حريص على بثها خصوصًا: الخمر والميسر، ليوقع بين المؤمنين

العداوة والبغضاء، فإن في الخمر من انقلاب العقل وذهاب حجاه ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه من المؤمنين خصوصًا إذا اقترن بذلك من الأسباب ما هو من لوازم شارب الخمر فإنه ربما أوصل إلى القتل، وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء، **ومنها:** أن هذه الأشياء تصد القلب وتبعد البدن عن ذكر الله وعن الصلاة للذين خلق لهما العبد وبهما سعادته، فالخمر والميسر يصدانه عن ذلك أعظم صد ويشتغل قلبه ويذهل لبه في الاشتغال بهما حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو، فأي معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها وتجعله من أهل الخبث وتوقعه في أعمال الشيطان وشباكه فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها وتحول بين العبد وبين فلاحه وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة؟ فهل فوق هذه المفاسد شيء أكبر منها؟ ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها عرضًا بقوله: ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ لأن العاقل ـ إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد ـ انزجر عنها وكفت نفسه ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ.

﴿**وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾**﴾

طاعة الله وطاعة رسوله واحدة، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة الواجبة والمستحبة المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتهاء عما نهى الله ورسوله عنه كذلك وهذا الأمر أعم الأوامر فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي ظاهر وباطن، وقوله: ﴿**وَاحْذَرُوا**﴾ أي: من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين ﴿**فَإِن تَوَلَّيْتُمْ**﴾ عما أمرتم به ونهيتم عنه ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾ وقد أدى ذلك، فإن اهتديتم فلأنفسكم وإن أسأتم فعليها والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه وما حمل به.

﴿**لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾**﴾

لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها، فأنزل الله هذه الآية وأخبر تعالى أنه ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ**﴾ أي: حرج وإثم ﴿**فِيمَا طَعِمُوا**﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمها، ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: ﴿**إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي مؤمنون بالله إيمانًا صحيحًا موجبًا لهم عمل الصالحات ثم استمروا على ذلك، وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر، فلا يكفي حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد، ويدخل في هذه الآية الكريمة من طعم المحرم أو فعل غيره بعد التحريم ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله واتقى وعمل صالحًا فإن الله يغفر له ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾**﴾

هذا من منن الله على عباده أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدرًا ليطيعوه ويقدموا على بصيرة ويهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ لا بد أن يختبر الله إيمانكم ﴿**لَيَبْلُوَنَّكُمُ**

﴿اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ أي: بشيء غير كثير، فتكون محنة يسيرة تخفيفًا منه تعالى ولطفًا، وذلك الصيد الذى يبتليكم الله به ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أى: تتمكنون فى صيده ليتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح فلا يبقى للابتلاء فائدة، ثم ذكر الحكمة فى ذلك الابتلاء فقال: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ علمًا ظاهرًا للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب ﴿مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ فكيف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه فيثيبه الثواب الجزيل ممن لا يخافه بالغيب فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ﴾ منكم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ البيان الذى قطع الحجاج وأوضح السبيل ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: مؤلم موجع لا يقدر على وصفه إلا الله، لأنه لا عذر لذلك المعتدى والاعتبار بمن يخافه بالغيب وعدم حضور الناس عنده، وأما إظهار مخافة الله عند الناس فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس فلا يثاب على ذلك، ثم خرج بالنهى عن قتل الصيد فى حال الإحرام فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ أى: محرمون فى الحج والعمرة، والنهى عن قتله يشمل النهى عن مقدمات القتل وعن المشاركة فى القتل والدلالة عليه والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالاً له قبل الإحرام، وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾ قتل صيدًا عمدًا ﴿فَـ﴾ عليه ﴿جَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أى: الإبل أو البقر أو الغنم، فينظر ما يشبهه من ذلك فيجب عليه مثله يذبحه ويتصدق به، والاعتبار بالمماثلة ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أى: عدلان يعرفان الحكم ووجه الشبه كما فعل الصحابة ﷺ حيث قضوا فى الحمامة شاة وفى النعامة بدنة وفى بقر الوحش ـ على اختلاف أنواعه ـ بقرة، هكذا كل ما يشبه شيئًا من النعم ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئًا ففيه قيمته كما هو القاعدة فى المتلفات، وذلك الهدى لا بد أن يكون ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أى: يذبح فى الحرم ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ أى: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أى: يجعل مقابل المثل من النعم طعام يطعم المساكين، قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء فيشترى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامًا﴾ أى: يصوم عن إطعام كل مسكين يومًا ﴿لِيَذُوقَ﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه ﴿وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ﴾ بعد ذلك ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطئ كما هى القاعدة الشرعية ـ أن المتلف للنفوس والأموال المحترمة فإنه يضمنها على أى حال كان إذا كان إتلافه بغير حق، لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام وهذا للمتعمد، وأما المخطئ فليس عليه عقوبة إنما عليه الجزاء، هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرحت به الآية أنه لا جزاء على غير المتعمد، كما لا إثم عليه، ولما كان الصيد يشمل الصيد البرى والبحرى استثنى تعالى الصيد البحرى فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ أى: أحل لكم ـ فى حال إحرامكم ـ صيد البحر وهو: الحى من حيواناته وطعامه وهو: الميت منها، فدل ذلك على حل ميتة البحر ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أى: الفائدة فى إباحته لكم أنه لأجل انتفاعكم وانتفاع رفقتكم الذين يسيرون معكم ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ ويؤخذ من لفظ «الصيد» أنه لا بد أن يكون وحشيًا لأن الإنسى ليس بصيد، ومأكولاً فإن غير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أى: اتقوه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون، فيجازيكم هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل أو لم تقوموا فيعاقبكم؟.

﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه جعل ﴿الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ يقوم، بالقيام بتعظيمه، دينهم ودنياهم، فبذلك يتم إسلامهم وبه تحط أوزارهم وتحصل لهم ـ بقصده ـ العطايا الجزيلة والإحسان الكثير، وبسببه تنفق الأموال

وتقتحم - من أجله - الأهوال، ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين فيتعارفون ويستعين بعضهم ببعض ويتشاورون على المصالح العامة وتنعقد بينهم الروابط فى مصالحهم الدينية والدنيوية، قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ومن أجل كون البيت قياماً للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية فى كل سنة، فلو ترك الناس حجه لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم وقامت القيامة، وقوله: ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ أى: وكذلك جعل الهدى والقلائد - التى هى أشرف أنواع الهدى - قياماً للناس ينتفعون بهما ويثابون عليهما ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: ليكن هذان العلمان موجودين فى قلوبكم على وجه الجزم واليقين، تعلمون أن الله شديد العقاب - العاجل والآجل - على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه، فيثمر لكم هذا العلم الخوف من عقابه والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء، ثم قال تعالى: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلّغ كما أمر وقام بوظيفته وما سوى ذلك فليس له من الأمر شيء ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فيجازيكم بما يعلمه - تعالى - منكم.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)﴾

أى: ﴿قُل﴾ للناس - محذراً عن الشر ومرغباً فى الخير - ﴿لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ من كل شيء، فلا يستوى الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا يستوى المال الحرام بالمال الحال ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً بل يضره فى دينه ودنياه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فأمر أولى الألباب، أى: أهل العقول الوافية والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب وهم: الذين يؤبه لهم ويرجى أن يكون فيهم خير، ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التى هى موافقة الله فى أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران وفاتته الأرباح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)﴾

ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التى إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آبائهم وعن حالهم فى الجنة أو النار، فهذا ربما أنه لو بيّن للسائل لم يكن له فيه خير، كسؤالهم للأمور غير الواقعة، وكالسؤال الذى يترتب عليه تشديدات فى الشرع ربما أحرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعنى، فهذه الأسئلة وما أشبهها هى المنهى عنها، وأما السؤال الذى لا يترتب عليه شيء من ذلك فهو مأمور به، كما قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أى: وإذا وافق سؤالكم محله فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن، فتسألون عن آية أشكلت أو حكم خفى وجهه عليكم فى وقت يمكن فيه نزول الوحى من السماء تبد لكم، أى: تبين لكم وتظهر، وإلا فاسكتوا عما سكت الله عنه ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أى: سكت معافياً لعباده منها، فكل ما سكت الله عنه فهو مما أباحه وعفا عنه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أى: لم يزل بالمغفرة موصوفاً وبالحلم والإحسان معروفاً، فتعرضوا لمغفرته وإحسانه واطلبوا من رحمته ورضوانه، وهذه المسائل التى نهيتم عنها ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أى: جنسها وشبهها، سؤال تعنت لا استرشاد، فلما بينت لهم وجاءتهم ﴿أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم».

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ (١٠٤)﴾

هذا ذم للمشركين الذين شـرعوا فى الدين ما لم يأذن به الله وحرموا ما أحله الله، فـجعلوا بآرائهم الفاسدة شيئًا من مواشيهم محـرمًا على حسن اصطلاحاتهم التى عارضت ما أنزل الله، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ﴾ وهى: ناقة يشقون أذنها ثم يحرمون ركوبها ويرونها محترمة ﴿وَلا سَائِبَةٍ﴾ وهى: ناقة أو بقرة أو شاة إذا بلغت سنًا اصطلحوا عليه سـيبوها فلا تركب ولا يحمل عليهـا ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئًا من مالـه، يجعله سائبة ﴿وَلا حَـامٍ﴾ أى: جمل يحمى ظهـره عن الركوب والحمل إذا وصل إلى حالة معروفـة بينهم، فكل هذه مما جعلها المشركون محرمة بغير دليل ولا برهان وإنما ذلك افتراء على الله وصادرة من جهلهم وعدم عقلهم، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ فلا نقل فيها ولا عقل، ومع هذا فقد أعجبوا بآرائهم التى بنيت على الجهـالة والظلـم، فإذا دعـوا ﴿إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أعـرضوا، فلـم يقبلـوا، و ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الدين، ولو كان غير سديد، ولا دينًا ينجى من عذاب الله، ولو كان فى آبائهم كفاية ومعـرفة ودراية لهان الأمر ولكن آباءهم لا يعقلون شيئًـا، أى: ليس عندهم من المعقول شىء، ولا من العلم والهدى شىء فـتبًا لمن قلد من لا علم عنده صحيح ولا عقل رجيح، وترك اتباع مـا أنزل الله واتباع رسله الذى يملأ القلوب علمًا وإيمانًا وهدى وإيقانًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٠٥)﴾

قول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أى: اجتهدوا فى إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصراط المستقيم، فإنكم - إذا صلحتم - لا يضركم من ضل عن الصراط المستقيم ولم يهتد إلى الدين القويم وإنما يضر نفسه، ولا يدل هذا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يضر العبـد تركهما وإهمالهما، فإنه لا يتم هداه إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والـنهى عن المنكر، نعم إذا كان عاجزًا عن إنكار المنكر بيده ولسانه وأنكره بقلبه فإنه لا يضره ضـلال غيره، وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أى: مآلكم يوم القيامـة واجتماعكم بين يدى الله تعالى ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ (١٠٦) فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (١٠٨)﴾

يخبر تعالى خبرًا مـتضمنًا للأمر، بإشهاد اثنين على الوصية، إذا حضر الإنسان مـقدمات الموت وعلائمه، فينبغى له أن يكتب وصيته ويشهد عليها اثنين ذوى عدل ممن يعتبر شهادتهما ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أى: مـن غير أهل دينكم من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أى: سافرتم فيها ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أى: فأشهدوهما، ولم يأمر بإشهادهما إلا

لأن قولهما فى تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما أن يحبسا ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ التى يعظمونها ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أنهما صدقا وما غيرا ولا بدلا، هذا ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ فى شهادتهما، فإن صدقتموها فلا حاجة إلى القسم بذلك ويقولان: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ أى: بأيماننا ﴿ثَمَنًا﴾ بأن نكذب فيها لأجل عرض من الدنيا. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ فلا نراعيه لأجل قرابته منا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿إِنَّا إِذًا﴾ أى: إن كتمناها ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ ١٠٦ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا﴾ أى: الشاهدين ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما خانا فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهما الأوليان، أى: فليقم رجلان من أولياء الميت وليكونا من أقرب الأولياء إليه ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أى: أنهما كذبا وغيرا وخانا ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: إن ظلمنا واعتدينا وشهدنا بغير الحق، قال الله تعالى فى بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها وردها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ﴾ أى: أقرب ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى: أن لا تقبل أيمانهم ثم ترد على أولياء الميت ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: الذين وصفهم الفسق فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم، وحاصل هذا أن الميت – إذا حضره الموت فى سفر ونحوه مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين – أنه ينبغى أن يوصى شاهدين مسلمين عدلين، فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين جاز أن يوصى إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما بعد الصلاة أنهما ما خانا ولا كذبا ولا غيرا ولا بدلا، فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما، فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين فإن شاء أولياء الميت فليقم منهم اثنان فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون، وهذه الآيات الكريمة نزلت فى قصة «تميم الدارى» و «عدى بن بداء» المشهورة حين أوصى لهما العدوى، والله أعلم، ويستدل بالآيات الكريمات على عدة أحكام منها: أن الوصية مشروعة وأنه ينبغى لمن حضره الموت أن يوصى، ومنها: أنها معتبرة ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلامته ما دام عقله ثابتًا، ومنها: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين، ومنها: أن شهادة الكافرين فى هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد، وزعم كثير من أهل العلم: أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها، ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه أن شهادة الكفار – عند عدم غيرهم حتى فى غير هذه المسألة – مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذورًا، ومنها: جواز السفر للتجارة، ومنها: أن الشاهدين – إذا ارتيب فيهما ولم تبد قرينة تدل على خيانتهما وأراد الأولياء – أن يؤكدوا عليهما اليمين يحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى، ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما وتأكيد اليمين عليهما، ومنها: تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط، ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الريبة فيهما وتفريقهما لينظر فى قيمة شهادتهما صدقًا أو كذبًا، ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين فى هذه المسألة – قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله أن أيماننا أصدق من أيمانهما ولقد خانا وكذبا، ثم يدفع إليهما ما ادعياه وتكون القرينة – مع أيمانهما – قائمة مقام البينة.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ١٠٩ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ١١٠﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أى: ماذا أجابتكم به أممكم؟ ﴿قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا﴾ وإنما العلم لك ـ يا ربنا فأنت أعلم منا ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أى: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ أى: اذكرها بقلبك ولسانك وقم بواجبها شكرًا لربك حيث أنعم عليك نعمًا ما أنعم بها على غيرك ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أى: قوَّيتك بالروح والوحى الذى طهرك وزكاك وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله، وقيل: إن المراد ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جبريل عليه السلام وأن الله أعانه به وبملازمته له وتثبيته فى المواطن الشاقة ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ المراد بالتكليم هنا غير التكليم المعهود الذى هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذى ينتفع به المتكلم والمخاطب وهو الدعوة إلى الله، ولعيسى عليه السلام من ذلك ما لإخوانه من أولى العزم من المرسلين من التكليم فى حال الكهولة بالرسالة والدعوة إلى الخير والنهى عن الشر، وامتاز عنهم بأنه كلم الناس فى المهد فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ الآية ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فالكتاب يشمل الكتب السابقة، وخصوصًا التوراة، فإنه من أعلم أنبياء بنى إسرائيل ـ بعد موسى ـ بها ويشمل الإنجيل الذى أنزله الله عليه، والحكمة هى معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه وحسن الدعوة والتعليم ومراعاة ما ينبغى على الوجه الذى ينبغى ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أى: طيرًا مصورًا، لا روح فيه ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ الذى لا بصر له ولا عين ﴿وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ فهذه آيات بينات ومعجزات باهرات، يعجز عنها الأطباء وغيرهم، أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ لما جاءهم الحق مؤيدًا بالبينات الموجبة للإيمان به ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهموا بعيسى أن يقتلوه وسعوا فى ذلك فكف الله أيديهم عنه وحفظه منهم وعصمه، فهذه منن امتن الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ودعاه إلى شكرها والقيام بها، فقام بها عليه السلام أتم القيام وصبر كما صبر إخوانه من أولى العزم.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾

أى: واذكر نعمتى عليك إذ يسرت لك أتباعًا وأعوانًا، فأوحيت إلى الحواريين أى: ألهمتهم وأوزعت قلوبهم الإيمان بى وبرسولى، وأوحيت إليهم على لسانك أى: أمرتهم بالوحى الذى جاءك من عند الله فأجابوا

لذلك وانقادوا ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ فجمعوا بين الإسلام الظاهر والانقياد بالأعمال الصالحة والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان، والحواريون هم: الأنصار، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾، ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك فى قدرة الله واستطاعته على ذلك وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم، ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافيا للانقياد للحق وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك وعظهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى وأن ينقاد لأمر الله ولا يطلب من آيات الاقتراح التى لا يدرى ما يكون بعدها، فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى وإنما لهم مقاصد صالحة لأجل الحاجة إلى ذلك ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بالإيمان، حين نرى الآيات العيانية حتى يكون الإيمان عين اليقين كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أى: نعلم صدق ما جئت به أنه حق وصدق ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهدها لك فتقوم الحجة ويحصل زيادة البرهان بذلك، فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك، وعلم مقصودهم فأجابهم إلى طلبهم فى ذلك، فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾ أى: يكون وقت نزولها عيداً وموسماً يتذكر به هذه الآية العظيمة فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين، كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكرة لآياته، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمة وفضله وإحسانه عليهم ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أى: اجعلها لنا رزقاً، فسأل عيسى عليه السلام نزولها أن تكون لهاتين المصلحتين: مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا وهى أن تكون رزقاً ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عناداً وظلماً فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد، واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها وتوعدهم ــ إن كفروا ــ بهذا الوعيد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويدل على ذلك أنه لم يذكر فى الإنجيل الذى بأيدى النصارى ولا له وجود، ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، وأنه لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها فى الأناجيل التى بأيديهم من الحظ الذى ذُكِّروا به فنسوه، أو أنه لم يذكر فى الإنجيل أصلاً وإنما كان ذلك متوارثاً بينهم ينقله الخلف عن السلف فاكتفى الله بذلك عن ذكره فى الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة فيقول الله هذا الكلام لعيسى، فيتبرأ منه عيسى ويقول: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح وعما لا يليق بك ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أى: ما ينبغى لى ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافى ولا من حقوقى، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم، له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية، وإنما الجميع عباد مدبرون وخلق مسخرون وفقراء عاجزون، ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ فأنت أعلم بما صدر منى ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام فى خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام «لم أقل شيئاً من ذلك» وإنما أخبر بكلام ينفى عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافى منصبه الشريف وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة، ثم صرح بذكر ما أمر به بنى إسرائيل فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك لا متجرئ على عظمتك ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أى: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له المتضمن للنهى عن اتخاذى وأمى إلهين من دون الله، وبيان أنى عبد مربوب فكما أنه ربكم فهو ربى ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر ممن لم يقم به ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أى: المطلع على سرائرهم وضمائرهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا فعلمك قد أحاط بالمعلومات وسمعك بالمسموعات وبصرك بالمبصرات، فأنت الذى تجازى عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم فلولا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة، الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ مبينًا لحال عباده يوم القيامة ومن الفائز منهم ومَنِ الهالك ومن الشقى ومن السعيد ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدى القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق إذا أحلهم الله فى مقعد صدق، عند مليك مقتدر، ولهذا: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والكاذبون بضدهم سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم وثمرة أعمالهم الفاسدة ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدرى وحكمه الشرعى وحكمه الجزائى ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شىء بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته ومسخرة بأمره.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ① هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ②﴾

هذا إخبار عن حمده والثناء عليه بصفات الكمال ونعوت العظمة والجلال عمومًا، وعلى هذه المذكورات خصوصًا، فحمد نفسه على خلقه السموات والأرض الدالة على كمال قدرته وسعة علمه ورحمته وعموم حكمته وانفراده بالخلق والتدبير وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسى من ذلك كالليل والنهار والشمس والقمر، والمعنوى كظلمات الجهل والشك والشرك والمعصية والغفلة، ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة وإخلاص الدين له، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ به سواه، يسوونهم به فى العبادة والتعظيم مع أنهم لم يساووا الله فى شىء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ وذلك بخلق مادتكم وأبيكم آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ أى: ضرب لمدة إقامتكم فى هذه الدار أجلا تتمتعون به وتُمتحنون وتبتلون بما يرسل إليكم به رسله ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ويعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ وهى: الدار الآخرة التى ينتقل العباد إليها من هذه الدار فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر ﴿ثُمَّ﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أى: تشكون فى وعد الله ووعيده ووقوع الجزاء يوم القيامة، وذكر الله الظلمات بالجمع لكثرة موادها وتنوع طرقها، ووحد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها، وهى: الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ③﴾

أى: وهو المألوه المعبود فى السموات وفى الأرض فأهل السماء والأرض متعبدون لربهم خاضعون لعظمته مستكينون لعزه وجلاله، الملائكة المقربون والأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون، وهو تعالى يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون، فاحذروا معاصيه وارغبوا فى الأعمال التى تقربكم منه، وتدنيكم من رحمته واحذروا من كل عمل يبعدكم عنه، ومن رحمته.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

هذا إخبار منه تعالى عن إعراض المشركين وشدة تكذيبهم وعداوتهم وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل بهم المثلات فقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على الحق دلالة قاطعة الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يلقون لها بالاً ولا يصغون لها سمعًا، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها وولوها أدبارهم ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ والحق حقه أن يتبع ويشكر الله على تيسيره لهم وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: فسوف يرون ما استهزءوا به أنه الحق والصدق، ويبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السابقة فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أى: كم تابع إهلاكنا للأمم المكذبين وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ من الأموال والبنين والرفاهية ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ تنبت لهم بذلك ما شاء الله من زرع وثمار يتمتعون بها ويتناولون منها ما يشتهون، فلم يشكروا الله على نعمه بل أقبلوا على الشهوات وألهتهم اللذات، فجاءتهم رسلهم بالبينات فلم يصدقوها بل ردوها وكذبوها ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أى: فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأ من بعدهم قرنًا آخرين، فهذه سنة الله ودأبه فى الأمم السابقين واللاحقين، فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جئتهم به ولا الجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغى لا حيلة لكم فيه، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وتيقنوه ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظلمًا وعدوانًا ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فأى بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها حيث كابروا المحسوس الذى لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه؟!! ﴿وَقَالُوا﴾ أيضًا - تعنتًا مبنيًا على الجهل وعدم العلم بالمعقول ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أى: هلا أنزل مع محمد ملك يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر وأن رسالة الله لا تكون إلا على أيدى الملائكة، قال الله - فى بيان رحمته ولطفه بعباده حيث أرسل إليهم بشرًا منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق ولكان إيمانًا بالشهادة الذى لا ينفع شيئًا وحده، وهذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فلو لم يؤمنوا ﴿لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم، لأن هذه سنة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها، فإرسال الرسول البشرى إليهم بالآيات البينات التى يعلم الله أنها أصلح للعباد وأرفق بهم مع إمهال الله للكافرين والمكذبين - خير لهم وأنفع، فطلبهم لإنزال الملك شر لهم، لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم وأرسل لم يطيقوا التلقى عنه ولا احتملوا ذلك ولا أطاقته قواهم الفانية ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأن الحكمة لا تقتضى سوى ذلك ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أى: ولكان الأمر مختلطًا عليهم وملبوسًا، وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التى فيها

اللبس وعدم بيان الحق، فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة وقواعده التى هى قواعده لم يكن ذلك هداية لهم إذا اهتدى بذلك غيرهم، والذنب ذنبهم، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى وفتحوا أبواب الضلال.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى ـ مسليًا لرسوله ومصبرًا ومتهددًا أعداءه ومتوعدًا: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لما جاءوا أممهم بالبينات كذبوهم واستهزءوا بهم وبما جاءوا به، فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفر لهم من العذاب أكمل نصيب ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فاحذروا ـ أيها المكذبون ـ أن تستمروا على تكذيبكم فيصيبكم ما أصابهم ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أى: فإن شككتم فى ذلك أو ارتبتم فسيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين، فلن تجدوا إلا قومًا مهلكين وأممًا فى المثلات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار وكان نبأهم عبرة لأولى الأبصار، وهذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان الذى يتولد منه الاعتبار، وأما مجرد النظر من غير اعتبار فإن ذلك لا يفيد شيئًا.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين، مقررًا لهم وملزمًا بالتوحيد ﴿لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: من الخالق لذلك، المالك له المتصرف فيه؟ ﴿قُل﴾ لهم ﴿لِّلَّهِ﴾ وهم مقرون بذلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟!! وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أى: العالم العلوى والسفلى تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه وتغمدهم برحمته وامتنانه وكتب على نفسه كتابًا «أن رحمته تغلب غضبه» و «أن العطاء أحب إليه من المنع» و «أن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم» وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهذا قسم منه، وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذلك من الحجج والبراهين ما يجعله حق اليقين، ولكن أبى الظالمون إلا جحودًا وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق، فأوضعوا[1] فى معاصيه، وتجرءوا على الكفر به، فخسروا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) أوضعوا: أى أسرعوا فى السير إلى المعاصى.

اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد بكل دليل عقلى ونقلى، بل كادت أن تكون كلها فى شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله، فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى وينقمع به الشرك، فذكر أن ﴿وَلَهُ﴾ تعالى ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وذلك هو المخلوقات كلها من آدميها وجنها وملائكتها وحيواناتها وجماداتها، فالكل خلق مدبرون وعبيد مسخرون لربهم العظيم القاهر المالك، فهل يصح فى عقل ونقل أن يعبد من هؤلاء المماليك الذى لا نفع عنده ولا ضر؟ ويترك الإخلاص للخالق المدبر المالك الضار النافع؟!! أم العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو إلى إخلاص العبادة والحب والخوف والرجاء لله رب العالمين؟!! ﴿السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفنن الحاجات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن؟!! ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين بالله ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ من هؤلاء المخلوقات العاجزة يتولانى وينصرنى؟!! فلا أتخذ من دونه تعالى وليًا لأنه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خالقهما ومدبرهما ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أى: وهو الرازق لجميع الخلق عن غير حاجة منه تعالى إليهم، فكيف يليق أن أتخذ وليًا غير الخالق الرازق، الغنى الحميد؟!! ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لله بالتوحيد وانقاد له بالطاعة، لأنى أولى من غيرى بامتثال أوامر ربى ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: ونهيت أيضًا عن أن أكون من المشركين، لا فى اعتقادهم ولا فى مجالستهم ولا فى الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض علىَّ وأوجب الواجبات ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فإن المعصية فى الشرك توجب الخلود فى النار وسخط الجبار، وذلك اليوم هو اليوم الذى يُخاف عذابه ويحذر عقابه، لأنه من صُرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم، ومن نجا فيه فهو الفائز حقًا، كما أن من لم ينج منه فهو الهالك الشقى، ومن أدلة توحيده أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء وجلب الخير والسراء، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من فقر أو مرض أو عسر أو غم أو هم أو نحوه ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإذا كان وحده النافع الضار فهو الذى يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فلا يتصرف منهم متصرف ولا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه بل هم مدبرون مقهورون، فإذا كان هو القاهر وغيره مقهور كان هو المستحق للعبادة ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فيما أمر به ونهى وأثاب وعاقب وفيما خلق وقدر ﴿الْخَبِيرُ﴾ المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد ﴿قُلْ﴾ لهم ـ لما بيّنا لهم الهدى وأوضحنا لهم المسالك: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ على هذا الأصل العظيم ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أكبر شهادة، فهو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فلا أعظم منه شهادة ولا أكبر، وهو يشهد لى بإقراره وفعله فيقرنى على ما قلت لكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ فالله حكيم قدير فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذبًا عليه زاعمًا أن الله أرسله ولم يرسله وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، وأن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم ونساءهم، وهو مع ذلك يصدقه بإقراره وبفعله فيؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة وينصره ويخذل من خالفه وعاداه، فأى شهادة أكبر من هذه الشهادة؟! وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أى: وأوحى الله إلىَّ هذا القرآن لمنفعتكم ومصلحتكم لأنذركم به من العقاب الأليم، والنذارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به من الترغيب والترهيب وببيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة التى من قام بها فقد قبل النذارة، فهذا القرآن فيه النذارة لكم أيها المخاطبون، وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية، لما بيَّن تعالى شهادته التى هى أكبر الشهادات على توحيده قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله والمكذبين لرسله ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أى: إن شهدوا فلا تشهد معهم، فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك الذين مرجت[1] عقولهم وأديانهم وفسدت آراؤهم وأخلاقهم

---

(١) مرجت أى: أصاب عقولهم اختلاط وامتزجت عقولهم التى أفسدها العناد بأديانهم الباطلة.

واضحكوا على أنفسهم العقلاء، بل خالفت شهادتهم فطرهم وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى، مع أنه لا يقوم على ما خالفوه أدنى شبهة فضلاً عن الحجج، واختر لنفسك أى الشهادتين إن كنت تعقل، ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه الذى أمرنا الله بالاقتداء به فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أى: منفرد، لا يستحق العبودية والإلهية سواه كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان والأنداد وكل ما أشرك به مع الله، فهذا حقيقة التوحيد إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه، لما بيّن شهادته وشهادة رسوله على التوحيد وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أى: يعرفون صحة التوحيد ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ أى: لا شك عندهم فيه بوجه كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم خصوصًا البنين الملازمين فى الغالب لآبائهم، ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يمترون بها لما عندهم من البشارات به ونعوته التى تنطبق عليه ولا تصلح لغيره، والمعنيان متلازمان، قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أى: فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد وحرموها الفضل من الملك المجيد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإذا لم يوجد الإيمان منهم فلا تسأل عن الخسار والشر الذى يحصل لهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

أى: لا أعظم ظلمًا وعنادًا ممن كان فيه أحد الوصفين فكيف لو اجتمعا، افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته التى جاء بها المرسلون، فإن هذا أظلم الناس والظالم لا يفلح أبدًا، ويدخل فى هذا كل من كذب على الله بادعاء الشريك له والمعين[1] وزعم أنه ينبغى أن يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولدًا، وكل من رد الحق الذى جاءت به الرسل أو من قام مقامهم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة وأنهم يُسألون ويوبخون فيقال لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أى: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أى: لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين ﴿انظُرْ﴾ متعجبًا منهم ومن أحوالهم ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: كذبوا كذبًا عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم والله غاية الضرر ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

أى: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعض الأوقات بعض الدواعى إلى الاستماع، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع لعدم إرادتهم للخير ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أى: أغطية وأغشية لئلا يفقهوا كلام الله فصان كلامه عن أمثال هؤلاء ﴿وَفِي آذَانِهِمْ﴾ جعلنا ﴿وَقْرًا﴾ أى: صممًا فلا يستمعون ما ينفعهم ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ وهذا غاية الظلم والعناد أن الآيات البينات الدالة على الحق لا ينقادون لها ولا يصدقون بها بل يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة التى ليست عن الله ولا

(١) قوله: (والعوين) هكذا فى الأصل المطبوع وهو تحريف والصواب (المعين) ولذلك أصلحناها كما ترى بعد أن بحثنا فى بالمعاجم فلم نجد (عوين) بمعنى (معين).

عن رسله، وهذا من كفرهم، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الحاوى لأنباء السابقين واللاحقين والحقائق التى جاءت بها الأنبياء والمرسلون والحق والقسط والعدل التام من كل وجه، أساطير الأولين؟.

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

وهم: أى المشركون بالله المكذبون لرسوله يجمعون بين الضلال والإضلال، ينهون الناس عن اتباع الحق ويحذرونهم منه ويبعدون بأنفسهم عنه ولن يضروا الله ولا عباده المؤمنين بفعلهم هذا شيئا ﴿ **وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ بذلك.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال المشركين يوم القيامة وإحضارهم النار: ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ** ﴾ ليوبخوا ويقرعوا لرأيت أمرًا هائلاً وحالاً مفظعة، ولرأيتم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق وتمنوا أن لو يردوا إلى الدنيا ﴿ **فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ** ﴾ فإنهم كانوا يخفون فى أنفسهم أنهم كانوا كاذبين ويبدون ما فى قلوبهم فى كثير من الأوقات، ولكن الأغراض الفاسدة صدتهم عن ذلك وصدفت قلوبهم عن الخير وهم كذبة فى هذه الأمنية وإنما قصدهم أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب ﴿ **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا** ﴾ منكرين للبعث ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا** ﴾ أى: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا إلا الحياة الدنيا وحدها ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

أى: ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ** ﴾ الكافرين ﴿ **إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ** ﴾ لرأيت أمرًا عظيمًا وهولاً جسيمًا ﴿ **قَالَ** ﴾ لهم موبخًا ومقرعًا ﴿ **أَلَيْسَ هَٰذَا** ﴾ الذى ترون من العذاب ﴿ **بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا** ﴾ فأقروا واعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك ﴿ **قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

أى: قد خاب وخسر وحُرم الخير كله من كذَّب بلقاء الله فأوجب له هذا التكذيب الاجتراء على المحرمات واقتراف الموبقات ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ** ﴾ وهم على أقبح حال وأسوئه فأظهروا غاية الندم، و ﴿ **قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا** ﴾ ولكن هذا تحسر ذهب وقته ﴿ **وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** ﴾ فإن وزرهم وزر يثقلهم ولا يقدرون على التخلص منه ولهذا خلدوا فى النار واستحقوا التأبيد فى غضب الجبار.

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

أما حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو، لعب فى الأبدان، ولهو فى القلوب، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلقة والاشتغال بها كلعب الصبيان، وأما الآخرة فإنها ﴿ **خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ** ﴾ فى ذاتها وصفاتها وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح وكثرة السرور والأفراح، ولكنها ليست لكل أحد وإنما هى للمتقين الذين يفعلون أوامر الله ويتركون نواهيه وزواجره ﴿ **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ أى: أفلا يكون لكم عقول بها تدركون، أى الدارين أحق بالإيثار؟.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

أى: قد نعلم أن الذى يقوله المكذبون فيك يحزنك ويسوؤك، ولم نأمرك بما أمرناك به من الصبر إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية، فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه فى أمرك وشك فيك ﴿ **فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ** ﴾ لأنهم يعرفون صدقك ومدخلك ومخرجك وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه ـ قبل بعثته ـ الأمين ﴿ **وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ أى: فإن تكذيبهم لآيات الله التى جعلها الله على يديك ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا** ﴾ فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ ما به يثبت فؤادك ويطمئن به قلبك ﴿ **وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ** ﴾ أى: شق عليك من حرصك عليهم ومحبتك لإيمانهم فابذل وسعك فى ذلك فليس فى مقدورك أن تهدى من لم يرد الله هدايته ﴿ **فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ** ﴾ أى: فافعل ذلك، فإنه لا يفيدهم شيئًا وهذا قطع لطمعه فى هداية أشباه هؤلاء المعاندين ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾ ولكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال ﴿ **فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا ينزلونها على منازلها.

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ** ﴾ لدعوتك، ويلبى رسالتك وينقاد لأمرك ونهيك ﴿ **الَّذِينَ يَسْمَعُونَ** ﴾ بقلوبهم ما ينفعهم وهم أولو الألباب والأسماع، والمراد بالسماع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن يشترك فيه البر والفاجر، فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى باستماع آياته فلم يبق لهم عذر فى عدم القبول ﴿ **وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ يحتمل أن المعنى مقابل للمعنى المذكور، أى: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم ولا يحسون بما ينجيهم فإنهم لا يستجيبون لك ولا ينقادون، وموعدهم يوم القيامة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون، ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها وأن الله تعالى يقرر المعاد وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون، ويكون هذا متضمنًا للترغيب فى الاستجابة لله ورسوله والترهيب من عدم ذلك ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أى: المكذبون بالرسول تعنتًا وعنادًا ﴿ **لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ** ﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح التى يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة، كقولهم: ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا** ﴾ الآيات ﴿ **قُلْ** ﴾ مجيبًا لقولهم: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً** ﴾ فليس فى قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء منقادة لعزته مذعنة لسلطانه؟! ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ فهم ـ لجهلهم وعدم علمهم ـ يطلبون ما هو شر لهم من الآيات التى لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها ـ لعوجلوا بالعقاب، كما هى سنة الله التى لا تبديل لها، ومع هذا فإن كان قصدهم الآيات التى تبين لهم الحق وتوضح السبيل فقد أتى محمد ﷺ بكل آية قاطعة وحجة ساطعة دالة على ما جاء به من الحق بحيث يتمكن العبد فى كل مسألة من مسائل الدين أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية بحيث لا يتبقى فى القلوب أدنى شك وارتياب، فتبارك الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

أى: جميع الحيوانات الأرضية والهوائية من البهائم والوحوش والطيور، كلها أمم أمثالكم خلقناها كما خلقناكم ورزقناها كما رزقناكم ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا كما كانت نافذة فيكم ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ﴾ أى: ما أهملنا ولا أغفلنا فى اللوح المحفوظ شيئًا من الأشياء، بل جميع الأشياء صغيرها وكبيرها مثبتة فى اللوح المحفوظ على ما هى عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم، وفى هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب: علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته العامة النافذة فى كل شىء، وخلقه لجميع المخلوقات حتى أفعال العباد، ويحتمل أن المراد بالكتاب هذا القرآن، وأن المعنى كالمعنى فى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أى: جميع الأمم تجمع وتحشر إلى الله فى موقف القيامة فى ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضى عليهم حكمه الذى يحمده عليه الأولون والآخرون، أهل السماء وأهل الأرض.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله المكذبين لرسله، أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى وفتحوا باب الردى، وأنهم ﴿صُمٌّ﴾ عن سماع الحق ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن النطق به، فلا ينطقون إلا بالباطل ﴿فِى الظُّلُمَاتِ﴾ أى: منغمسون فى ظلمات الجهل والكفر والظلم والعناد والمعاصى، وهذا من إضلال الله إياهم، فإنه ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأنه المنفرد بالهداية والإضلال بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله: ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله، العادلين به غيره ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إذا حصلت هذه المشقات، وهذه الكروب التى يضطر إلى دفعها، هل تدعون آلهتكم وأصنامكم أم تدعون ربكم الملك الحق المبين؟ ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد، تنسونهم لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وتخلصون لله الدعاء لعلمكم أنه هو الضار النافع المجيب لدعوة المضطر، فما بالكم فى الرخاء تشركون به وتجعلون له شركاء؟ هل دلكم على ذلك عقل أو نقل أم عندكم من سلطان بهذا؟ أم تفترون على الله الكذب؟.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من الأمم السالفين والقرون المتقدمين فكذبوا رسلنا وجحدوا بآياتنا ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أى: بالفقر والمرض والآفات والمصائب رحمة منا بهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلينا، ويلجئون عند الشدة إلينا ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: استحجرت فلا تلين

للحق ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ فظنوا أن ما هم عليه دين الحق فتمتعوا فى باطلهم برهة من الزمان ولعب بعقولهم الشيطان ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ من الدنيا ولذاتها وغفلاتها ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ أى: آيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب أن يؤخذوا على غرة وغفلة وطمأنينة ليكون أشد لعقوبتهم وأعظم لمصيبتهم ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أى اصطلموا بالعذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين، فإن بذلك تتبين آياته وإكرامه لأوليائه وإهانته لأعدائه وصدق ما جاءت به المرسلون.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يخبر تعالى أنه كما هو المنفرد بخلق الأشياء وتدبيرها فإنه المنفرد بالوحدانية والإلهية فقال: ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم﴾ فبقيتم بلا سمع ولا بصر ولا عقل ﴿من إله غير الله يأتيكم به﴾ فإذا لم يكن غير الله يأتى بذلك فلمَ عبدتم معه من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاءه الله؟ وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ أى: ننوعها ونأتى بها فى كل فن، ولتنير الحق وتستبين سبيل المجرمين ﴿ثم هم﴾ مع هذا البيان التام ﴿يصدفون﴾ عن آيات الله ويعرضون عنها ﴿قل أرأيتكم﴾ أى: أخبرونى ﴿إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة﴾ أى: مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات تعلمون بها وقوعه ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الذين صاروا سببًا لوقوع العذاب بهم بظلمهم وعنادهم، فاحذروا أن تقيموا على الظلم فإنه الهلاك الأبدى، والشقاء السرمدى.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشر به والأعمال التى إذا عملها العبد حصلت له البشارة، والمنذر والمنذر به والأعمال التى من عملها حقت عليه النذارة، ولكن الناس انقسموا ـ بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها ـ إلى قسمين: ﴿فمن آمن وأصلح﴾ أى: آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته ﴿فلا خوف عليهم﴾ فيما يستقبل ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما مضى ﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب﴾ أى: ينالهم ويذوقونه ﴿بما كانوا يفسقون﴾.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ أن يخاطب المقترحين عليه الآيات أو القائلين له: إنما تدعونا لنتخذك إلهًا مع الله ﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله﴾ أى: مفاتيح رزقه ورحمته ﴿ولا أعلم الغيب﴾ وإنما ذلك كله عند الله فهو الذى ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ وهو ـ وحده ـ عالم الغيب والشهادة ﴿فلا يظهر على غيبه أحدا (٢٦) إلا من ارتضى من رسول﴾ ﴿ولا أقول لكم إنى ملك﴾ فأكون نافذ التصرف قويًا، فلست أدعى فوق منزلتى التى أنزلنى الله بها ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلى﴾ أى: هذا غايتى ومنتهى أمرى وأعلاه، لا أتبع إلا ما يوحى إلى فأعمل به فى نفسى وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك، فإذا عرفت منزلتى فلأى شيء يبحث الباحث معى أو يطلب منى أمرًا لست أدعيه، وهل يلزم الإنسان بغير ما هو بصدده؟ ولأى شيء إذا دعوتكم بما يوحى إلىَّ تلزموننى أنى أدعى لنفسى غير مرتبتى، وهل هذا إلا ظلم منكم وعناد وتمرد؟ ﴿قل﴾

لهم في بيان الفرق بين مَنْ قبل دعوتي وانقاد لما أوحى إلى وبين من لم يكن كذلك: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتنزلون الأشياء منازلها وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار؟

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

هذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما ينتفع به ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدعون ما يضرهم ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: لا من يتولى أمرهم، فيحصل لهم المطلوب ويدفع عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإن الإنذار موجب لذلك وسبب من أسبابه ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص رغبة فى مجالسة غيرهم من الملازمين لدعاء ربهم، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة فى أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل، فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم بل هم مستحقون لموالاتك إياهم ومحبتهم وإدنائهم وتقريبهم، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء والأعزاء - فى الحقيقة - وإن كانوا عند الناس أذلاء ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: كلٌّ له حسابه وله عمله الحسن وعمله القبيح ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه وحسن خلقه وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه ﷺ، وكان سبب نزول هذه الآيات أن أناسًا من قريش أو من أجلاف العرب قالوا للنبى ﷺ: إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك فاطرد فلانًا وفلانًا، أناسًا من فقراء الصحابة، فإنا نستحى أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له فحدثته نفسه بذلك، فعاتبه الله بهذه الآية ونحوها ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم غنيًا وبعضهم فقيرًا وبعضهم شريفًا وبعضهم وضيعًا، فإذا منَّ الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع كان محل محنة للغنى والشريف، فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم ولم يمنعه من ذلك مشاركة الذى يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقًا فى طلب الحق كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق، وقالوا، محتقرين لمن يرونهم دونهم ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ فمنعهم هذا من اتباع الحق لعدم زكائهم، قال الله - مجيبًا لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله فى هداية هؤلاء وعدم هداية الله لهم[1]: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الذين يعرفون النعمة ويقرون بها ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح فيضع فضله ومنته عليهم دون من ليس بشاكر، فإن الله تعالى حكيم لا يضع فضله عند من ليس له أهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف بخلاف مَنْ مَنَّ الله عليهم بالإيمان من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون، ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين،

(١) فى الأصل المطبوع (وعدم هدايتهم هم) وهو خطأ تأباه القواعد النحوية، لذلك أصلحنا العبارة كما ترى لتتماشى العبارة على القواعد النحوية لأن (هم) ضمير منفصل مختص بالرفع وكلمة (هداية) مصدر مضاف لفاعله، والمفعول به هنا ضمير، فيتعين أن يكون كلمة (إياهم) المختصة بالنصب.

أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: إذا جاءك المؤمنون فحيهم ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلامًا وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم من رحمة الله وسعة جوده وإحسانه وحثهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك، ورهبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصى لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أى: فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة، فإذا وجد ذلك كله ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: صب عليهم من مغفرته ورحمته بحسب ما قاموا به بما أمرهم به ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أى: نوضحها ونبينها ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغى والرشاد، ليهتدى بذلك المهتدون ويتبين الحق الذى ينبغى سلوكه ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه، فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت أمكن اجتنابها والبعد منها بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد والأوثان التى لا تملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فإن هذا باطل وليس لكم فيه حجة ولا شبهة إلا اتباع الهوى الذى اتباعه أعظم الضلال، ولهذا قال: ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أى: إن اتبعت أهواءكم ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ بوجه من الوجوه، وأما ما أنا عليه من توحيد الله وإخلاص العمل له فإنه هو الحق الذى تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة، وأنا ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى: على يقين مبين بصحته وبطلان ما عداه، وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد وهو أعدل الشهود على الإطلاق، فصدق بها المؤمنون وتبين لهم من صحتها وصدقها بحسب ما منَّ الله به عليهم ﴿وَ﴾ لكنكم أيها المشركون ﴿كَذَّبْتُم بِهِ﴾ وهو لا يستحق هذا منكم ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمررتم على تكذيبكم فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة وهو عند الله، هو الذى ينزله عليكم إذا شاء وكيف شاء، وإن استعجلتم به فليس بيدى من الأمر شىء ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فكما أنه هو الذى حكم بالحكم الشرعى فأمر ونهى، فإنه سيحكم بالحكم الجزائى فيثيب ويعاقب بحسب ما تقتضيه حكمته، فالاعتراض على حكمه مطلقًا مدفوع وقد أوضح السبيل وقص على عباده الحق قصًا، قطع به معاذيرهم وانقطعت له حجتهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىٍّ عن بينة ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ بين عباده، فى الدنيا والآخرة فيفصل بينهم فصلاً يحمده عليه حتى من قضى عليه، ووجه الحق نحوه ﴿قُل﴾ للمستعجلين بالعذاب جهلاً وعنادًا وظلمًا ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فأوقعته بكم، ولا خير لكم فى ذلك ولكن الأمر عند الحليم الصبور الذى يعصيه العاصون ويتجرأ عليه المتجرئون وهو يعافيهم ويرزقهم ويسدى إليهم نعمه[1] الظاهرة والباطنة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شىء، فيمهلهم ولا يهملهم.

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

(١) فى الأصل المطبوع (ويسدى عليهم إلخ) خطأ نحوى لأن أسدى يتعدى بـ «إلى» لا بـ «على» فلذلك أصلحنا العبارة بـ «أسدى إليهم» ولو عبر بـ «يسبغ عليهم نعمه إلخ» لكان أجمل وأبلغ.

هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط وأنه شامل للغيوب كلها التى يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما فى البرارى والقفار من الحيوانات والأشجار والرمال والحصى والتراب، وما فى البحار، من حيوانات ومعادنها وصيدها وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها ويشتمل عليه ماؤها ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من أشجار البر والبحر والبلدان والقفر والدنيا والآخرة إلا يعلمها ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ من حبوب الثمار والزروع وحبوب البذور التى يبذرها الخلق وبذور النباتات البرية التى ينشئ منها أصناف النباتات ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، قد حواها واشتمل عليها، وبعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته فى أوصافه كلها، وأن الخلق ـ من أولهم إلى آخرهم ـ لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته لم يكن لهم قدرة ولا وسع فى ذلك، فتبارك الرب العظيم الواسع العليم الحميد المجيد الشهيد المحيط، وجل من إله لا يحصى أحد ثناءً عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى عليه عباده، فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء وكتابه المحيط بجميع الحوادث.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

هذا كله تقرير لإلهيته واحتجاج على المشركين به وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم والإجلال والإكرام، فأخبر أنه وحده المتفرد بتدبير عباده فى يقظتهم ومنامهم وأنه يتوفاهم بالليل، وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم وتستريح أبدانهم، ويبعثهم فى اليقظة من نومهم ليتصرفوا فى مصالحهم الدينية والدنيوية، وهو، تعالى، يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال، ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم حتى يستوفوا آجالهم، فيقضى بهذا التدبير أجل مسمى وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ لا إلى غيره ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة ومشيئته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئًا ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه، ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظة من الملائكة يحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ فهذا حفظه لهم فى حال الحياة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أى: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ فى ذلك، فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه، ولا ينقصون ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقادير الربانية ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر ﴿رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أى: الذى تولاهم بحكمه القدرى، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبته فى اللوح المحفوظ ثم أثبته ملائكته فى الكتاب الذى بأيديهم، فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير وهو القاهر فوق عباده وقد اعتنى بهم كل الاعتناء فى جميع أحوالهم وهو الذى له الحكم القدرى والحكم الشرعى والحكم الجزائى، فأين للمشركين العدول عمن هذا وصفه ونعته إلى عبادة من ليس له من الأمر شىء ولا عنده مثقال ذرة من النفع ولا له قدرة وإرادة؟! أما والله لو علموا حلم الله عليهم وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونه بالشرك والكفران ويتجرءون على عظمته بالإفك والبهتان وهو يعافيهم ويرزقهم لانجذبت دواعيهم إلى معرفته وذهلت عقولهم فى حبه، ولمقتوا أنفسهم أشد المقت حيث انقادوا لداعى الشيطان الموجب للخزى والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أى: ﴿قُــلْ﴾ للمشركين بالله الداعيـن معه آلهة أخرى، ملزمًا لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيـد الإلهية ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى: شدائدهما ومشقاتـهما، وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة فتدعون ربكم تضرعًا بقلب خاضع ولسان لا يزال يلهج بحاجته فى الدعاء، وتقولون، وأنتم فى تلك الحال: ﴿لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ﴾ الشدة التى وقعنا فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لله، أى: المعترفين بنعمته الواضـعين لها فى طاعة ربهم الذين حفظوها عن أن يبذلوها فى معصيته ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ أى: من هذه الشدة الخاصة ومن جميع الكروب العامة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ لا تفون لله بما قلتم وتنسون نعمه عليكم، فأى برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك وصحة التوحيد؟!.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

أى: هو تعالى قادر على إرسال الـعذاب إليكم من كل جهة: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ أى: يخلـطكم ﴿شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أى: فى الفتنة وقتل بعضكم بعـضًا، فهو قادر على ذلك كله فاحذروا من الإقامـة على معاصيه فيصيـبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقـد أخبر أنه قادر على ذلك، ولكن من رحمته أن رفع عن هذه الأمة العـذاب من فوقهم بالرجم والحصب ونحوه، ومن تحت أرجلهم بالخسف، ولكن عاقب من عـاقب منهم بأن أذاق بعضهم بأس بعض وسلط بعضهم على بعض بهـذه العقوبات المذكورة، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون ويشعر بها العاملون ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ أى: ننوعها، ونأتى بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أى: يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية والمطالب الإلهية ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أى: بالقرآن ﴿قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الذى لا مرية فيه ولا شك يعتريه ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أى: وقت يستقر فيه وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما توعدون به من العذاب.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾

المراد بالخوض فى آيات الله: التكلم بمـا يخالف الحق من تحسين المقالات الباطلة والدعـوة إليها ومدح أهلها والإعراض عن الحق والقدح فيه وفى أهله، فأمر الله رسوله أصلاً وأمته تبعًا إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشىء ممـا ذكر بالإعراض عنهم وعـدم حضور مجـالس الخائضين بالبـاطل والاستمـرار على ذلك حتى يكون البحث والخوض فى كلام غيـره، فإذا كان فى كلام غيره زال النهى المذكور، فإن كان مـصلحة كان مأمورًا به، وإن كان غير ذلك كان غيـر مفيد ولا مـأمور به، وفى ذم الخوض بالباطل حث علـى البحث والنظر والمناظرة بالحق، ثم قـال: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ أى: بأن جلست معهم على وجـه النسيان والغفلة ﴿فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يشمل الخائضين بالباطل وكل متكلم بمـحرم أو فاعل لمحرم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر الذى لا يقدر على إزالته، هذا النهى والتحريم لمن جلس معهم ولم يستعمل تقوى الله بأن كان يشاركهم فى القول والعمل المحرم أو يسكت عنهم وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى، بأن كان يأمرهم بالخيـر وينهاهم عن الشر والكلام الذى يصدر منهم فـيترتب على ذلك زواله وتخفيفـه ــ فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: ولكن

ليذكرهم ويعظهم لعلهم يتقون الله تعالى، وفي هذا دليل على أنه ينبغى أن يستعمل المذكر من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى، وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعظ شرًا إلى شره كان تركه هو الواجب، لأنه إذا ناقض المقصود كان تركه مقصودًا.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾

المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له ويبذلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه، وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه، وكون سعى العبد نافعًا وجدًا لا هزلاً وإخلاصًا لوجه الله لا رياء ولا سمعة، هذا هو الدين الحقيقى الذى يقال له دين، فأما من زعم أنه على الحق وأنه صاحب دين وتقوى وقد اتخذ دينه لعبًا ولهوًا، بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته وأقبل على كل ما يضره ولها في باطله ولعب فيه ببدنه لأن العمل والسعى إذا كان لغير الله فهو لعب، فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويحذر ولا يغتر به وتنظر حاله ويحذر من أفعاله ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أى: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد أمرًا وتفصيلاً وتحسينًا له بذكر ما فيه من أوصاف الحسن وما يضر العباد نهيًا عنه، وتفصيلاً لأنواعه وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركه وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت، أى: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجرئه على علام الغيوب واستمراره على ذلك المرهوب فذكرها، وعظها لترتدع وتنزجر وتكف عن فعلها، وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أى: قبل أن تحيط بها ذنوبها ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد ولا يشفع لها شافع ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أى: تفتدى بكل فداء ولو بملء الأرض ذهبًا ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ أى: لا يقبل ولا يفيد ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ أى: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك ﴿بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أى: ماء حار قد انتهى حره، يشوى وجوههم ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)﴾

﴿قُلْ﴾ يأيها الرسول للمشركين بالله الداعين معه غيره، الذين يدعونكم إلى دينهم، مبينًا وشارحًا لوصف آلهتهم، التى يكتفى العاقل بذكر وصفها عن النهى عنها، فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين جزم ببطلانه قبل أن تقام البراهين على ذلك، فقال: ﴿أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ وهذا وصف يدخل فيه كل من عبد من دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر وليس له من الأمر شىء، إن الأمر إلا لله ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أى: ننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغى، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم إلى الطرق التى تفضى بسالكها إلى العذاب الأليم، فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه الموصل إلى مقصده، فبقى ﴿حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ والشياطين يدعونه إلى الردى فبقى بين الداعيين حائرًا، وهذه حال الناس كلهم إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعى متعارضة، دواعى الرسالة والعقل الصحيح والفطرة المستقيمة ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ والصعود إلى أعلى عليين، ودواعى الشيطان ومن سلك مسلكه والنفس الأمارة بالسوء

يدعونه إلى الضلال والنزول إلى أسفل سافلين، فمن الناس من يكون مع دواعي الهدى في أموره كلها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك، ومنهم من يتساوى لديه الداعيان ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أي: ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه فهو ضلال وردى وهلاك ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بأن ننقاد لتوحيده ونستسلم لأوامره ونواهيه وندخل تحت عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد وأكمل تربية أوصلها إليهم ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه نهى ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون ليوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه ولا مثنوية، ولا يقول شيئًا عبثًا ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي: يوم القيامة خصه بالذكر ــ مع أنه مالك كل شيء ــ لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ الذي له الحكمة التامة والنعمة السابغة والإحسان العظيم والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، مثنيًا عليه ومعظمًا في حال دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ أي: لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث عبدتم من لا يستحق العبادة شيئًا وتركتم عبادة خالقكم ورازقكم ومدبركم ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه ﴿نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليرى ببصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: أظلم ﴿رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ لعله من الكواكب المضيئة، لأن تخصيصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره، ولهذا ــ والله أعلم ــ قال من قال: إنه الزهرة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: على وجه التنزل مع الخصم أي: هذا ربي، فهلم ننظر هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب ذلك الكوكب ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أي: الذي يغيب ويختفي عمن عبده، فإن المعبود لا بد أن يكون قائمًا بمصالح من عبده ومدبرًا له في جميع شئونه، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب فمن أين يستحق العبادة؟! وهل اتخاذه إلهًا إلا من أسفه السفه وأبطل الباطل؟! ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: طالعًا، رأى زيادته على نور

الكواكب ومخالفته لها ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ تنزلاً ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادى لـه وإن لم يعنه على طاعته فلا معين له ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَا أَكْبَرُ﴾ من الكوكب ومن القمر ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ تقرر حينئذ الهدى واضمحل الردى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أى: لله وحده مقبلاً عليه معرضًا عمَّن سواه ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فتبرأ من الشرك وأذعن بالتوحيد وأقام على ذلك البرهان، وهذا الذى ذكرنا فى تفسير هذه الآيـات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومـه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأمـا من قال: إنه مقام نظر فى حال طفوليـته، فليس عليه دليل ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أى: أى فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهـدى؟ فأما من هداه الله ووصل إلى أعلى درجات اليـقين فإنه ـ هو بنفسه ـ يدعو الناس إلى ما هو عليه ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ فإنها لن تضرنى ولن تمنع عنى من النفع شيئًا ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أنه ـ وحده ـ المعبود المستحق للعبودية ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ وحالها حال العجز وعدم النفع ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ أى: إلا بمجرد اتباع الهوى ﴿فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ أى: يخلـطوا ﴿إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأمن من المخاوف والعذاب والـشقاء والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا لا بشرك ولا بمعاصى حصل لهم الأمن التام والهداية التامـة، وإن كانوا لم يلبسـوا إيمانهم بالشرك وحـده ولكنهم يعملون السيئات حصـل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها، ومفهوم الآية الكريمة أن الذين لم يحصل لهم الأمران لم يحصل لهم هداية ولا أمن بل حظهم الضـلال والشقاء، ولمـا حكم لإبراهيم عليه السـلام بما بيَّن به من البـراهين القاطعـة قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أى: علا بها عليهم، وحاجهم بها ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام فى الدنيا والآخرة فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات، خصوصًا العالم العامل المعـلم، فإنه يجعله الله إمامًا لـلناس بحسب حاله، ترمق أفعـاله، وتقتفى آثاره ويستضـاء بنوره ويمشى بعلمه فى ظلمة ديجـوره، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فلا يضع العلم والحكمة إلا فى المحل اللائق بهما وهو أعلم بذلك المحل وبما ينبغى له.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

لما ذكر الله عبـده وخليله إبراهيم عليه السلام، وذكر ما منَّ الله عليه به من العلم والدعوة والـصبر ذكر ما أكرمـه الله به من الذرية الصالحـة والنسل الطيب، وأن الله جعل صـفوة الخلق من نسـله، وأعظم بهذه المنقـبة والكرامة الجسيمة التى لا يدرك لها نظير فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابنه، الذى هو إسرائيل أبو الشعب الذى فضله الله على العالمين ﴿كُلًّا﴾ منهما ﴿هَدَيْنَا﴾ هُ الصراط المستقيم، فى علمه وعمله ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ هُ ﴿مِن قَبْلُ﴾ وهدايته أعلى أنواع الهـدايات الخاصة التى لم تحصل إلا لأفراد من العـالم، وهم أولو العزم من

الرسل الذى هو أحدهم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح، لأنه أقرب مذكور، لأن الله ذكر مع من ذكر لوطًا وهو من ذرية نوح لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه، ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم لأن السياق فى مدحه والثناء عليه، ولوط ـ وإن لم يكن من ذريته ـ فإنه ممن آمن على يده، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك أبلغ من كونه مجرد ابن له ﴿دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ابن داود ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ بن يعقوب ﴿وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ابنى عمران ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل لأنه أحسن فى عبادة ربه وأحسن فى نفع الخلق كذلك ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بأن نجعل لهم من الثناء الصدق والذرية الصالحة بحسب إحسانهم ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾ ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم ﴿وَإِلْيَاسَ كُلٌّ﴾ هؤلاء ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فى أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأئمتهم ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ ابن إبراهيم أبو الشعب الذى هو أفضل الشعوب وهو الشعب العربى، ووالد سيد ولد آدم محمد ﷺ ﴿وَيُونُسَ﴾ بن متى ﴿وَلُوطًا﴾ بن هاران، أخى إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ لأن درجات الفضائل أربع ـ وهى التى ذكرها الله بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ فهؤلاء من الدرجة العليا بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصهم الله فى كتابه أفضل ممن لم يقصص علينا نبأهم بلا شك ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ أى: آباء هؤلاء المذكورين ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ أى: وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ أى: اخترناهم ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ﴾ الهدى المذكور ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الذى لا هدى إلا هداه ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فاطلبوا منه الهدى، فإن لم يهدكم فلا هادى لكم غيره، وممن شاء هدايته هؤلاء المذكورين ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإن الشرك محبط للعمل موجب للخلود فى النار، فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار لو أشركوا، وحاشاهم، لحبطت أعمالهم فغيرهم أولى ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المذكورون ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ أى: امش أيها الرسول الكريم، خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار واتبع ملتهم، وقد امتثل ﷺ فاهتدى بهدى الرسل قبله وجمع كل كمال فيهم فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وبهذا الملحظ استدل بهذا من استدل من الصحابة أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم ﴿قُل﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى: لا أطلب منكم مغرمًا ومالاً جزاء عن إبلاغى إياكم ودعوتى لكم فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجرى إلا على الله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيذرونه، ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه، ويتذكرون به الأخلاق الحميدة والطرق الموصلة إليها، والأخلاق الرذيلة والطرق المضية إليها، فإذا كان ذكرى للعالمين كان أعظم نعمة أنعم بها عليهم، فعليهم قبولها والشكر عليها.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾

هذا تشنيع على من نفى الرسالة من اليهود والمشركين وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شىء، فمن قال هذا فما قدر الله حق قدره ولا عظمه حق عظمته، إذ هذا قدح فى حكمته وزعم أنه يترك عباده هملاً لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفى لأعظم منة امتن الله بها على عباده وهى الرسالة التى لا طريق للعباد إلى نيل السعادة والكرامة الفلاح إلا بها، فأى قدح فى الله أعظم من هذا؟!! ﴿قُلْ﴾ لهم ملزمًا بفساد قولهم وقررهم بما به يقرون: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة العظيمة ﴿نُورًا﴾ فى ظلمات الجهل ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة، وهاديًا إلى الصراط المستقيم علمًا وعملاً وهو الكتاب الذى شاع وذاع وملأ ذكره القلوب والأسماع، حتى إنهم جعلوا يتناسخونه فى القراطيس ويتصرفون فيه بما شاءوا، فما وافق أهواءهم منه أبدوه وأظهروه، وما خالف ذلك أخفوه وكتموه، وذلك كثير ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ من العلوم التى بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ فإذا

سألتهم عن من أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات ـ فأجب عن هذا السؤال ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: اتركهم يخوضون في الباطل ويلعبون بما لا فائدة فيه، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)﴾

أي ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ إليك ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي: وصفه البركة وذلك لكثرة خيراته وسعة مبراته ﴿مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: موافق للكتب السابقة وشاهد لها بالصدق ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وأنزلناه أيضًا لتنذر أم القرى، وهي: مكة المكرمة، ومن حولها من ديار العرب بل ومن سائر البلدان، فتحذر الناس عقوبة الله وأخذه الأمم وتحذرهم مما يوجب ذلك ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لأن الخوف إذا كان في القلب عمرت أركانه وانقاد لمراضي الله ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يداومون عليها ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها ومكملاتها، جعلنا الله منهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾

يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلمًا ولا أكبر جرمًا ممن كذب على الله بأن نسب إلى الله قولاً أو حكمًا وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق، لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله ـ ما هو من أكبر المفاسد، ويدخل في ذلك إدعاء النبوة وأن الله يوحي إليه وهو كاذب في ذلك، فإنه ـ مع كذبه على الله وجرأته على عظمته وسلطانه ـ يوجب على الخلق أن يتبعوه ويجاهدهم على ذلك ويستحل دماء من خالفه وأموالهم، ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة، كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي والمختار، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ويجاري الله في أحكامه ويشرع من الشرائع كما شرعه الله، ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله، وأي ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات الناقص من كل وجه مشاركة القوي الغني الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته؟!! ولما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: شدائده وأهواله الفظيعة وكربه الشنيعة ـ لرأيت أمرًا هائلا وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها وتعصيها عن الخروج من الأبدان: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب الشديد الذي يهينهكم ويذلكم والجزاء من جنس العمل فإن هذا العذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من كذبكم عليه وردكم للحق الذي جاءت به الرسل ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تترفعون عن الانقياد لها والاستسلام لأحكامها، وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده، وفيه دليل على أن الروح جسم يدخل ويخرج ويخاطب ويساكن الجسد ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ، وأما يوم القيامة فإنهم إذا وردوها وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ولا أولاد ولا جنود ولا أنصار كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء، فإن الأشياء إنما تتمول وتحصل بعد ذلك بأسبابها التي هي أسبابها، وفي ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في

الدنيا سوى العمل الصالح والعمل السيئ، الذى هو مادة الدار الآخرة الذى تنشأ عنه ويكون حسنها وقبحها وسرورها وغمومها وعذابها ونعيمها بحسب الأعمال فهى التى تنفع أو تضر وتسوء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد والمال والأنصار فعوار خارجية وأوصاف زائلة وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أى: أعطيناكم وأنعمنا به عليكم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ لا يغنون عنكم شيئًا ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ فإن المشركين يشركون بالله ويعبدون معه الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم، وهم كلهم لله، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيبًا من أنفسهم وشركة فى عبادتهم، وهذا زعم منهم وظلم، فإن الجميع عبيد الله والله مالكهم والمستحق لعبادتهم، فشركهم فى العبادة وصرفها لبعض العبيد تنزيل لهم منزلة الخالق المالك، فيوبخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أى: تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم من الشفاعة وغيرها، فلم تنفع ولم تجد شيئًا ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الربح والأمن والسعادة والنجاة التى زينها لكم الشيطان وحسنها فى قلوبكم فنطقت بها ألسنتكم واغترزتم بهذا الباطل الذى لا حقيقة له حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهليكم وأموالكم.

﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) ﴾

يخبر تعالى عن كماله وعظمة سلطانه وقوة اقتداره وسعة رحمته وعموم كرمه وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ شامل لكل الحبوب التى يباشر الناس زرعها والتى لا يباشرونها، كالحبوب التى يبثها الله فى البرارى والقفار فيفلق الحبوب عن الزروع والنباتات على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار من النخيل والفواكه وغير ذلك، فينتفع بها الخلق من الآدميين والأنعام والدواب، ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى، ويقتاتون وينتفعون بجميع أنواع المنافع التى جعلها الله فى ذلك، ويريهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول ويذهل الفحول ويريهم من بدائع صنعته وكمال حكمته ما به يعرفونه ويوحدونه، ويعلمون أنه هو الحق وأن عبادة ما سواه باطلة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج من المنى حيوانًا، ومن البيضة فرخًا، ومن الحب والنوى زرعًا وشجرًا ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ﴾ وهو الذى لا نمو فيه، أو لا روح ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضًا ونحو ذلك ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذى فعل ما فعل وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿اللَّهُ﴾ ربكم أى: الذى له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذى ربى جميع العالمين بنعمه وغذاهم بكرمه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أى: فأنى تصرفون وتصدون عن عبادة من هذا شأنه إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!! ولما ذكر تعالى مادة خلق الأقوات ذكر منته بتهيئة المساكن وخلقه كل ما يحتاج إليه العباد من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أى: كما أنه فالق الحب والنوى كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجى الشامل لما على وجه الأرض بضياء الصبح الذى يفلقه شيئًا فشيئًا حتى تذهب ظلمة الليل كلها ويخلفها الضياء والنور العام الذى يتصرف به الخلق فى مصالحهم ومعايشهم ومنافع دينهم ودنياهم، ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة التى لا تتم إلا بوجود النهار والنور ﴿وَجَعَلَ﴾ الله ﴿اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكذا أبدًا إلى يوم القيامة ﴿وَ﴾ جعل تعالى ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات فتنضبط بذلك أوقات العبادات وآجال المعاملات، ويعرف بهما مدة ما مضى من الأوقات التى

لولا وجود الشمس والقمر وتناوبهما واختلافهما ـ لما عرف ذلك عامة الناس واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت ﴿ذَلِكَ﴾ التقدير المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذى ـ من عزته ـ انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذللة مسخرة بأمره بحيث لا تتعدى ما حده الله لها ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذى أحاط علمه بالظواهر والبواطن والأوائل والأواخر، ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه تسخير هذه المخلوقات العظيمة على تقدير ونظام بديع تحيرت العقول فى حسنه وكماله وموافقته للمصالح والحكم ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ حين تشتبه عليكم المسالك ويتحير فى سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبيل التى يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم وتجاراتهم وأسفارهم، منها نجوم لا تزال ترى ولا تسير عن محلها، ومنها ما هو مستمر السير يعرف سيره أهل المعرفة بذلك ويعرفون به الجهات والأوقات، ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذى يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ﴾ أى: بيَّناها ووضحناها وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: لأهل العلم والمعرفة فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجفاء المعرضين عن آيات الله وعن العلم الذى جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئًا والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبسًا والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو: آدم عليه السلام، أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمى الذى قد ملأ الأرض، ولم يزل فى زيادة ونمو، الذى قد تفاوت فى أخلاقه وخلقه وأوصافه تفاوتًا لا يمكن ضبطه ولا يدرك وصفه، وجعل الله لهم مستقرًا أى منتهى ينتهون إليه وغاية يساقون إليها، وهى: دار القرار التى لا مستقر وراءها ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هى التى خلق الخلق لسكناها وأوجدوا فى الدنيا ليسعوا فى أسبابها التى تنشأ عليها وتعمر بها، وأودعهم الله فى أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم ثم فى دار الدنيا ثم فى البرزخ، كل ذلك على وجه الوديعة التى لا تستقر ولا تثبت بل يتنقل منها حتى يوصل إلى الدار التى هى المستقر، وأما هذه الدار فإنها مستودع وممر ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبيناته.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾

وهذا من أعظم مننه العظيمة التى يضطر إليها الخلق من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعًا وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شىء مما يأكل الناس والأنعام فرتع الخلق بفضل الله وانبسطوا برزقه وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجدب والقحط ففرحت القلوب وأسفرت الوجوه وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم ما به يتمتعون وبه يرتعون، مما يوجب لهم أن يبذلوا جهدهم فى شكر من أسدى النعيم وعبادته[1] والإنابة إليه والمحبة له، ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء من أنواع الأشجار والنبات ذكر الزرع والنخل لكثرة نفعهما وكونهما قوتًا لأكثر الناس فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ أى: من ذلك الخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ بعضه فوق بعض من بر وشعير وذرة وأرز وغير ذلك من أصناف الزروع، وفى وصفه بأنه متراكب إشارة إلى أن حبوبه متعددة وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهى لا تختلط بل هى متفرقة الحبوب مجتمعة الأصول، وإشارة أيضًا إلى كثرتها وشمول ريعها وغلتها ليبقى أصل البذر ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ أخرج الله ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ وهو الكفرى والوعاء قبل ظهور القنو منه فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أى: قريبة سهلة التناول متدلية على من أرادها بحيث لا يعسر التناول من النخل، وإن طالت فإنه يوجد

---

(١) قوله (وعبادته والإنابة إليه، والمحبة له) هذه الأسماء الثلاثة منصوبة، لأنها معطوفة على قوله (جهدهم الذى هو مفعول به لـ «يبذلون».

فيها كرب ومراق يسهل صعودها ﴿وَ﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع العظيمة الوقع فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنباتات، وقوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أى: مشتبهًا فى شجره وورقه غير متشابه فى ثمره، ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفواكه وأن بعضها مشتبه يشبه بعضه بعضًا ويتقارب فى بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد ويتفكهون ويقتاتون ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به فقال: ﴿انظُرُوا﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾ أى: الأشجار كلها خصوصًا النخل ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أى: انظروا إليه وقت إطلاعه ووقت نضجه وإيناعه، فإن فى ذلك عبرًا وآيات يستدل بها على رحمة الله وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده، ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان على العمل بمقتضياته ولوازمه التى منها: التفكر فى آيات الله والاستنتاج منها ما يراد منها وما تدل عليه عقلاً وفطرة وشرعًا.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤)﴾

يخبر تعالى أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات وحججه الواضحات ـ أن المشركين به من قريش وغيرهم جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شىء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم الدافع لجميع النقم، وكذلك «خرق المشركون» أى: انتفكوا وافتروا من تلقاء أنفسهم لله بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم وافترى عليه أشنع النقص الذى يجب تنزيه الله عنه؟! ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال المنزه عن كل نقص وآفة وعيب ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خالقها ومتقن صنعتها على غير مثال سبق بأحسن خلق ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولى الألباب مثله وليس له فى خلقهما مشارك ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ أى: كيف يكون لله الولد وهو الإله السيد الصمد الذى لا صاحبة له، أى: لا زوجة له، وهو الغنى عن مخلوقاته وكلها فقيرة إليه مضطرة فى جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شىء وليس شىء من المخلوقات مشابهًا لله بوجه من الوجوه، ولما ذكر عموم خلقه للأشياء ذكر إحاطة علمه بها فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفى ذكر العلم بعد الخلق إشارة إلى الدليل العقلى على ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات وما اشتملت عليه من النظام التام والخلق الباهر، فإن فى ذلك دلالة على سعة علم الخالق وكمال حكمته، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ذلكم الذى خلق ما خلق وقدر ما قدر ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: المألوه المعبود الذى يستحق نهاية الذل له ونهاية الحب، الرب الذى ربى جميع الخلق بالنعم وصرف عنهم صنوف النقم ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ أى: إذا استقر وثبت أنه الله الذى لا إله إلا هو فاصرفوا له جميع أنواع العبادة وأخلصوها لله واقصدوا بها وجهه، فإن هذا هو المقصود من الخلق الذين خلقوا لأجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى: جميع الأشياء تحت وكالة الله وتدبيره خلقًا وتدبيرًا وتصريفًا، ومن المعلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته وتمامه وكمال انتظامه بحسب حال الوكيل عليه، ووكالته تعالى على

الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق فإن وكالتهم وكالة نيابة، والوكيل فيها تابع لموكله وأما البارى تبارك وتعالى فوكالته من نفسه لنفسه متضمنة لكمال العلم وحسن التدبير والإحسان فيه العدل، فلا يمكن أحدًا أن يستدرك على الله ولا يرى فى خلقه خللاً ولا فطورًا ولا فى تدبيره نقصًا وعيبًا، ومن وكالته أنه تعالى توكل ببيان دينه وحفظه عن المزيلات والمغيرات وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ لعظمته وجلاله وكماله، أى: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه فى الآخرة، وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفى الإدراك لا ينفى الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم، فإنه إذا نفى الإدراك الذى هو أخص أوصاف الرؤية دل على أن الرؤية ثابتة، فإنه لو أراد نفى الرؤية لقال: «لا تراه الأبصار» ونحو ذلك فعلم أنه ليس فى الآية حجة لمذهب المعطلة الذين ينفون رؤية ربهم فى الآخرة، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ أى: هو الذى أحاط علمه بالظواهر والبواطن وسمعه بجميع الأصوات الظاهرة والخفية وبصره بجميع المبصرات صغارها وكبارها، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذى لطف علمه وخبرته ودق حتى أدرك السرائر والخفايا والخبايا والبواطن، ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه ويوصلها إليه بالطرق التى لا يشعر بها العبد ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية والفلاح السرمدى من حيث لا يحتسب، حتى إنه يقدر عليه الأمور التى يكرهها العبد ويتألم منها ويدعو الله أن يزيلها، لعلمه أن دينه أصلح وأن كماله متوقف عليها فسبحان اللطيف لما يشاء الرحيم بالمؤمنين ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ لما بيّن تعالى من الآيات البينات والأدلة الواضحات الدالة على الحق فى جميع المطالب والمقاصد نبه العباد عليها وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أى: آيات تبين الحق وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ وبيانه ووضوحه ومطابقته للمعانى الجليلة والحقائق الجميلة لأنها صادرة من الرب الذى ربه خلقه بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التى من أفضلها وأجلها تبيين الآيات وتوضيح المشكلات ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بتلك الآيات مواقع العبرة وعمل بمقتضاها ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فإن الله هو الغنى الحميد ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ بأن بصر فلم يتبصر وزجر فلم ينزجر وبين له الحق فما انقاد له ولا تواضع فإنما مضرة عماه[1] عليه ﴿وَمَا أَنَا﴾ أيها الرسول ﴿عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأرقبها على الدوام، إنما علىَّ البلاغ المبين وقد أديته وبلغت ما أنزل الله إلىَّ، فهذه وظيفتى وما عدا ذلك فلست موظفًا فيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ الكاف فى موضع نصب صفة للمصدر المحذوف أى: نصرف الآيات تصريفًا مثل ما تلونا عليك، والتصريف معناه: التنويع، والمراد أن الله تعالى ينوع الآيات الدالة على المعانى الرائعة الكاشفة عن الحقائق الفائقة، لا تصريفًا أدنى منه، بل تصريفًا بلغ فى الروعة مبلغًا ارتقى عن إدراك المخلوقين، قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ جوابه محذوف تقديره «ونحن نصرفها» أو نفعل ما نفعل من التصريف المذكور معنى ﴿دَرَسْتَ﴾ تعلمت وقرأت كتب أهل الكتاب أى: قدمت هذه الآية ومضت كما قالوا: أساطير الأولين تلقاها ممن مضوا من أهل الكتاب من الأمم السابقة ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ علة لفعل قد حذف تعويلاً على دلالة السياق عليه أى: وليقولوا: درست نفعل ما نفعل من التصريف المذكور، واللام للعاقبة والصيرورة، والواو اعتراضية، أى: لتصيير عاقبة أمرهم إلى أن يقولوا درست، وهو كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وهم لم يلتقطوه للعداوة، وإنما التقطوه ليصير لهم قرة عين، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة، وكذلك الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا: درست، ولكن حصل هذا القول

---

(١) فى الأصل المطبوع كانت العبارة هكذا (عماء مضرته) وهو خطأ واضح فلذا صححنا العبارة كما ترى لينتظم الكلام.

بتصريف الآيات كما حصل التبيين فشبه به، وقوله تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾ أى: القرآن، وإن لم يجر له ذكر لكونه معلومًا، أو الآيات لأنها فى معنى القرآن ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحق من الباطل، ومجمل معنى الآية: ومثل هذا التنويع البديع فى عرض الدلائل الكونية نعرض آياتنا فى القرآن منوعة مفصلة لنقيم الحجة بها على الجاحدين، فلا يجدوا الاختلاق والكذب فيتهموك بأنك تعلمت من الناس لا من الله، ولنبين ما أنزل إليك من الحقائق من غير تأثر بهوى لقوم يدركون الحق ويذعنون له ﴿اتَّبِعْ﴾ أيها النبى ما جاءك به الوحى من الله مالك أمرك ومدبر شئونك، إنه وحده الإله المستحق للطاعة والخضوع، فالتزم طاعته ولا تبال بعناد المشركين ولا تحتفل بهم وبأقاويلهم الباطلة، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أى: إيمانهم، فالمفعول به محذوف ﴿مَا أَشْرَكُوا﴾ بيِّن أنهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله ولو علم منهم اختيار الإيمان لهداهم إليه ولكن علم منهم اختيار الشرك فأشركوا بمشيئته، قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أى: رقيبًا مهيمنًا من قبلنا مراعيًا لأعمالهم مأخوذًا بإجرامهم، وكذلك قوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ من جهتهم، ولا بمسلط تقوم بتدبير أمورهم وترعى مصالحهم، والمعنى الإجمالى للآية: ولو أراد الله أن يعبدوه وحده لقهرهم على ذلك بقوته وقدرته لكنه تركهم لاختيارهم، وما جعلناك رقيبًا تحصى عليهم أعمالهم، وما أنت بمكلف بأن تقوم عنهم بتدبير شئونهم وإصلاح أمرهم.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزًا بل مشروعًا فى الأصل هو سب آلهة المشركين التى اتخذت أوثانًا وآلهة مع الله التى يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها، ولكن لما كان هذا السب طريقًا إلى سب المشركين لرب العالمين، الذى يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب وآفة وسب وقدح نهى الله عن سب آلهة المشركين لأنهم يتحمسون[1] لدينهم ويتعصبون له، لأن كل أمة زين الله لهم عملهم فرأوه حسنًا وذبوا عنه ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم يسبون الله رب العالمين الذى رسخت عظمته فى قلوب الأبرار والفجار، إذا سب المسلمون آلهتهم، ولكن الخلق كلهم مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة يعرضون عليه وتعرض أعمالهم فينبئهم بما كانوا يعملون من خير وشر، وفى هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية[2] وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التى توصل إليها، وأن وسائل المحرم ولو كانت جائزة تكون محرمة إذا كانت تفضى إلى الشر.

---

(١) فى الأصل المطبوع «يحمون» وهو خطأ، فلذلك صححنا الكلمة بـ «يتحمسون».

(٢) قوله (دليل للقاعدة الشرعية إلخ) الرواية المشهورة فى هذه القاعدة معروفة لدى العلماء على وجوه عدة متداولة فيما بينهم.

الأولى: الغاية تبرر الوسيلة، الثانية: الوسائل لها حكم المقاصد، الثالثة: وهى التى وردت فى المادة الثانية من (مجلة الأحكام العدلية) بهذه الصيغة: الأمور بمقاصدها يعنى أن الحكم الذى يترتب على أمر يكون على مقتضى ما هو المقصود من ذلك الأمر، أى: إن الحكم الذى يترتب على فعل المكلف ينظر فيه إلى مقصوده، فعلى حسبه يترتب الحكم، تملكًا وعدمه، ثوابًا وعدمه، عقابًا وعدمه، مؤاخذة وعدمها، ضمانًا وعدمه، فهذه قاعدة جامعة، مستنبطة من الحديث المشهور أخرجه الأئمة الستة، وهو قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات» ومن تدبر مسائل النية فى متفرقات أبواب الفقه وجدها فى العبادات بكمالها، أعنى الطهارة والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وفى بعض المعاملات، وفيها بيان أن الشىء الواحد يتصف بالحل والحرمة باعتبار ما قصد له، وإليك بعض الأمثلة توضيحًا لتلك القاعدة:

فلو رمى إنسان سهمًا قاصدًا صيدًا فأصاب إنسانًا فقتله، لا يقتل به، ولو قال: أنت علىَّ كظهر أمى، أو مثل أمى، يرجع إلى نيته، فإن قصد الظهار فمظاهرة، أو الكرامة كان كرامة، أو الطلاق كان طلاقًا، أو اليمين كان إيلاء، لأن اللفظ يحتمل كل ذلك، وإذا قصد السارق أخذ الدين من مديونه لا تقطع يده، وإذا أخرج المودع بنية لبسها فهلكت قبل اللبس يضمن، وإن لم تكن بتلك لا يضمن، وإذا وطئ الرجل زوجته على ظن أنها أجنبية يأثم، وفى شرب الماء على ظن أنه خمر، وفى قتل قاتل مورثه على ظن أنه معصوم الدم، ففى كل هذه الصور يأثم، فيفسق لقصده الزنا، وشرب الخمر، والقتل، ولكن لا يحد فى جميع الصور المتقدمة لقيام الشبهة.

وباقى الكلام مبسوط فى شرح المادة الثانية من (مجلة الأحكام الشرعية) لمفتى حمص الأسبق الشيخ «محمد طاهر الأتاسى» الشقيق الأكبر لصاحب الدولة «هاشم الأتاسى» الرئيس الأسبق للجمهورية العربية السورية، فقد أجاد وأفاد، رحمه الله رحمة واسعة.

وفى (الأشباه والنظائر) لابن نجيم، وفى (الفتاوى الهندية) وفى (رد المختار على الدر المختار) تفريعات كثيرة على هذه القاعدة، فمن أراد الاستقصاء فعليه بمراجعتها.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

أى: وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ ﴿بالله جهد أيمانهم﴾ أى: قسمًا اجتهدوا فيه وأكدوه ﴿لئن جاءتهم آية﴾ تدل على صدق محمد ﷺ ﴿ليؤمنن بها﴾ وهذا الكلام الذى صدر منهم لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم دفع الاعتراض ورد ما جاء به الرسل قطعًا، فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات والأدلة الواضحات، التى عند الالتفات إليها لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال فى صحة ما جاء به، فطلبهم بعد ذلك للآيات من باب التعنت الذى لا يلزم إجابته بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم، فإن الله جرت سنته فى عباده أن المقترحين للآيات على رسلهم إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أى: هو الذى يرسلها إذا شاء ويمنعها إذا شاء، ليس لى من الأمر شىء، فطلبكم منى الآيات ظلم وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إلى توضيح ما جئتكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع ذلك فليس معلومًا أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب ممن هذه حاله أنه لا يؤمن، ولهذا قال: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴿١٠٩﴾ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾ أى: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعى وتقوم عليهم الحجة بتقليب القلوب والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم، وهذا من عدل الله وحكمته بعباده فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبيَّن لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق كان مناسبًا لأحوالهم، وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ومشيئتهم وحدهم وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط، فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة من تنزيل الملائكة إليهم يشهدون للرسل بالرسالة وتكليم الموتى وبعثهم بعد موتهم ﴿وحشرنا عليهم كل شىء﴾ حتى يكلمهم ﴿قبلا﴾ مشاهدة ومباشرة بصدق ما جاء به الرسول ما حصل(١) لهم الإيمان إذا لم يشأ الله إيمانهم، ولكن أكثرهم يجهلون، فلذلك رتبوا إيمانهم على مجرد إتيان الآيات، وإنما العقل والعلم أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق ويطلبه بالطرق التى بينها الله ويعمل بذلك، ويستعين ربه فى اتباعه ولا يتكل على نفسه وحوله وقوته ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيها.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يقول تعالى مسليًا الرسول ﷺ: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ويحاربونك ويحسدونك فهذه سنتنا أن نجعل لكل نبى نرسله إلى الخلق أعداء من شياطين الإنس والجن يقومون بضد ما جاءت به الرسل ﴿يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا﴾ أى: يزين بعضهم لبعض الأمر الذى يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه فى أحسن صورة ليغتر به السفهاء وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق ولا يفقهون المعانى، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة والعبارات المموهة فيعتقدون الحق باطلاً والباطل حقًا، ولهذا قال تعالى: ﴿ولتصغى إليه﴾ أى: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخرة وعدم عقولهم النافعة يحملهم على ذلك ﴿وليرضوه﴾ بعد أن يصغوا إليه فيصغون إليه

(١) قوله «ما حصل» جواب «لو» فى قوله المتقدم «فإنهم لو جاءتهم».

أولاً، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه وزين فى قلوبهم وصار عقيدة راسخة وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أى: يأتون من الكذب بالقول والفعل ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المفترين شياطين الإنس والجن المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة فإنهم لا يغترون بتلك العبارات ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق فينظرون إلى المعانى التى يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقًا قبلوها وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات رديئة وألفاظًا غير وافية، وإن كانت باطلاً ردوها على من قالها كائنًا من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ما هو أرق من الحرير، ومن حكمته تعالى فى جعله للأنبياء أعداء وللباطل أنصارًا قائمين بالدعوة إليه أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان ليتميز الصادق من الكاذب والعاقل من الجاهل والبصير من الأعمى، ومن حكمته أن فى ذلك بيانًا للحق وتوضيحًا له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنه حينئذ يتبين من أدلة الحق وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه ما هو من أكبر المطالب التى يتنافس فيها المتنافسون.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١١٥)﴾

أى: قل يأيها الرسول: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أحاكم إليه وأتقيد بأوامره ونواهيه، فإن غير الله محكوم عليه لا حاكم، وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذى يجب أن يتخذ حاكمًا هو الله وحده لا شريك له الذى له الخلق والأمر ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ أى: موضحًا فيه الحلال والحرام والأحكام الشرعية وأصول الدين وفروعه الذى لا بيان فوق بيانه ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكمًا ولا أقوم قيلاً، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى يعترفون بذلك، و ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ولهذا تواطأت الأخبار ﴿فَلا﴾ تشكنَّ فى ذلك ولا ﴿تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ أى: صدقًا فى الإخبار وعدلاً فى الأمر والنهى، فلا أصدق من أخبار الله التى أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه و ﴿لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح أحسن منها ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذى أحاط بالظواهر والبواطن والماضى والمستقبل.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١١٧)﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ محذرًا عن طاعة أكثر الناس: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإن أكثرهم قد انحرفوا فى أديانهم وأعمالهم وعلومهم فأديانهم فاسدة وأعمالهم تبع لأهوائهم وعلومهم ليس فيها تحقيق ولا إيصال لسواء الطريق، بل غايتهم أنهم يتبعون الظن والذى لا يغنى من الحق شيئًا، ويتخرصون فى القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة فحرى أن يحذر الله منه عباده ويصف لهم أحوالهم، لأن هذا وإن كان خطابًا للنبى ﷺ فإن أمته تبع له فى سائر الأحكام التى ليست من خصائصه، والله تعالى أصدق قيلاً وأصدق حديثًا، وهو أعلم من يضل عن سبيله وأعلم بمن يهتدى، ويهدى فيجب عليكم أيها المؤمنون أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم وأرحم بكم من أنفسكم، ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف

ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا وأجرًا بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل بالطرق الموصلة إليه.

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان وأنهم إن كانوا مؤمنين فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام وغيرها من الحيوانات المحللة ويعتقدوا حلها ولا يفعلوا كما يفعله أهل الجاهلية من تحريم كثير من الحلال ابتداعًا من عند أنفسهم وإضلالاً من شياطينهم، فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية فى هذه العادة الذميمة المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أى شىء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه وقد فصل الله لعباده ما حرم عليهم وبيَّنه ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال خوفًا من الوقوع فى الحرام، ودلت الآية الكريمة على أن الأصل فى الأشياء والأطعمة الإباحة وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شىء منها فإنه باق على الإباحة، فما سكت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فصله الله، فما لم يفصله الله فليس بحرام مع ذلك، فالحرام الذى قد فصله الله وأوضحه، وقد أباحه عند الضرورة والمخمصة، كما قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ إلى أن قال: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ثم حذر عن كثير من الناس فقال: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم ﴾ أى: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ولا حجة، فليحذر العبد من أمثال هؤلاء وعلامتهم ـ كما وصفهم الله لعباده ـ أن دعوتهم غير مبنية على برهان ولا لهم حجة شرعية وإنما يوجد لهم شبه بحسب أهوائهم الفاسدة وآرائهم القاصرة، فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين، بخلاف الهادين المهتدين فإنهم يدعون إلى الحق والهدى ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية ولا يتبعون فى دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

المراد بالإثم: جميع المعاصى التى تؤثم العبد، أى: توقعه فى الإثم والحرج من الأشياء المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده، فنهى الله عباده عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن أى: السر والعلانية المتعلقة بالبدن والجوارح والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصى الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصى القلب والبدن، والعلم بذلك واجبًا متعينًا على المكلف، وكثير من الناس يخفى عليه كثير من المعاصى خصوصًا معاصى القلب كالكِبْر والعجب والرياء ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها وهو لا يحس به ولا يشعر وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة، ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن سيجزون على حسب كسبهم وعلى قدر ذنوبهم، قلَّت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون فى الآخرة وقد يكون فى الدنيا يعاقب العبد فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

ويدخل تحت هذا المنهى عنه ما ذكر عليه اسم غير الله كالذى يذبح للأصنام وآلهة المشركين فإن هذا مما أهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصًا، ويدخل فى ذلك متروك التسمية مما ذبح لله كالضحايا والهدايا أو للحم والأكل إذا كان الذابح متعمدًا ترك التسمية، عند كثير من العلماء، ويخرج من هذا العموم الناسى بالنصوص الأخر الدالة على دفع الحرج عنه، ويدخل فى هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه ونص الله عليها بخصوصها فى قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ ولعلها سبب نزول الآية لقوله:

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بغير علم فإن المشركين حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة وتحليله للمذكاة وكانوا يستحلون أكل الميتة قالوا، معاندة لله ورسوله ومجادلة بغير حجة ولا برهان: أتأكلون ما قتلتم ولاتأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك الميتة، وهذا رأى فاسد لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التى لو كان الحق تبعًا لها لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، فتبًا لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة، ولا يستغرب هذا منهم فإن هذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحى أوليائهم من الشياطين الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم ويدعونهم ليكونوا من أصحاب السعير ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فى شركهم وتحليلهم الحرام وتحريمهم الحلال ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم، ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع فى القلوب من الإلهامات والكشوف التى يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم لا تدل بمجردها على أنها حق ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله، فإن شهدا لها بالقبول قبلت وإن ناقضتهما ردت وإن لم يعلم شىء من ذلك توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب، لأن الوحى والإلهام قد يكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال ما لا يحصيه إلا الله.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ﴾ من قبل هداية الله له ﴿مَيْتًا﴾ فى ظلمات الكفر والجهل والمعاصى ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشى بين الناس فى النور متبصراً فى أموره مهتديًا لسبيله عارفًا للخير مؤثرًا له مجتهدًا فى تنفيذه فى نفسه وغيره عارفًا بالشر مبغضًا له مجتهدًا فى تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره، فيستوى هذا بمن هو فى الظلمات، ظلمات الجهل والغى والكفر والمعاصى ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ قد التبست عليه الطرق وأظلمت عليه المسالك فحضره الهم والغم والحزن والشقاء، فنبه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه أنه لا يستوى هذا ولا هذا، كما لا يستوى الليل والنهار والضياء والظلمة والأحياء والأموات، فكأنه قيل: فكيف يوثر من له أدنى مسكة من عقل أن يكون بهذه الحالة وأن يبقى فى الظلمات متحيرًا؟ فأجاب بأنه ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم ويزينها فى قلوبهم حتى استحسنوها ورأوها حقًا وصار ذلك عقيدة فى قلوبهم وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح وهؤلاء الذين فى الظلمات يعمهون وفى باطلهم يترددون غير متساوين، فمنهم: القادة والرؤساء والمتبوعون، ومنهم: التابعون المرءوسون، والأولون منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أى: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم واشتد طغيانهم ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان ومحاربة الرسل وأتباعهم بالقول والفعل، وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم لأنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم يناضلون هؤلاء المجرمين ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم فى سبيل الله ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك ويعينهم الله ويسدد رأيهم ويثبت أقدامهم ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم حتى يدول الأمر فى عاقبته بنصرهم وظهورهم، والعاقبة للمتقين، وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم وقاموا برد الحق الذى جاءت به الرسل حسدًا منهم وبغيًا فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ من النبوة والرسالة، وفى هذا اعتراض منهم على الله وعجب بأنفسهم

وتكبر على الحق الذى أنزله على أيدى رسله وتحجر على فضل الله وإحسانه، فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد وأخبر أنهم لا يصلحون للخير ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً عن أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فيمن علمه يصلح لها ويقوم بأعبائها وهو متصف بكل خلق جميل ومتبرئ من كل خلق دنىء أعطاه الله ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعًا ومن لم يكن كذلك لم يضع أفضل مواهبه عند من لا يستأهله ولا يزكو عنده، وفى هذه الآية دليل على كمال حكمة الله تعالى، لأنه وإن كان تعالى رحيمًا واسع الجود كثير الإحسان فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله، ثم توعد المجرمين فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ﴾ أى: إهانة وذل، كما تكبروا على الحق أذلهم الله ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أى: بسبب مكرهم لا ظلمًا منه تعالى.

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾

يقول تعالى ـ مبينًا لعباده علامة سعادة العبد وهدايته وعلامة شقاوته وضلاله: إن من انشرح صدره للإسلام أى: اتسع وانفسح فاستنار بنور الإيمان وحيى بضوء اليقين فاطمأنت بذلك نفسه وأحب الخير وطوعت له نفسه فعله متلذذًا به ـ غير مستثقل ـ فإن هذا علامة على أن الله قد هداه ومنَّ عليه بالتوفيق وسلوك أقوم الطريق، وأن علامة من يرد الله أن يضله أن يجعل صدره ضيقًا حرجًا، أى: فى غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين قد انغمس قلبه فى الشبهات والشهوات فلا يصل إليه خير ولا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد فى السماء أى: كأنه يكلف الصعود إلى السماء الذى لا حيلة فيه، وهذا سببه عدم إيمانهم فهو الذى أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان، وهذا ميزان لا يعول وطريق لا يتغير فإن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ييسره الله لليسرى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره للعسرى.

﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) ۞ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)﴾

أى: معتدلاً موصلاً إلى الله وإلى دار كرامته قد بينت أحكامه وفصلت شرائعه وميز الخير من الشر، ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فإنهم الذين علموا فانتفعوا بعلمهم وأعد لهم الجزاء الجزيل والأجر الجميل، فلهذا قال: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وسميت الجنة دار السلام لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر وهمٍّ وغمٍّ، وغير ذلك من المنغصات ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها فى غاية الكمال ونهاية التمام بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون ولا يتمنى فوقه المتمنون من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ الذى يتولى تدبيرهم وتربيتهم ولطف بهم فى جميع أمورهم وأعانهم على طاعته ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة ومقدماتهم التى قصدوا بها رضا مولاهم، بخلاف من أعرض عن مولاه واتبع هواه فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه فأفسد عليه دينه ودنياه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ

﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أى: جميع الثقلين من الإنس والجن، من ضل منهم ومن أضل غيره، فيقول موبخًا للجن الذين أضلوا الإنس وزينوا لهم الشر وأزروهم إلى المعاصى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾ أى: من إضلالهم وصدهم عن سبيل الله فكيف أقدمتم على محارمى وتجرأتم على معاندة رسلى؟ وقمتم محاربين لله ساعين فى صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟ فاليوم حقت عليكم لعنتى ووجبت لكم نقمتى، وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم وإضلالكم لغيركم، وليس لكم عذر به تعتذرون ولا ملجأ إليه تلجأون، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع، فلا تسأل حينئذ عما يحل بهم من النكال والخزى والوبال، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذارًا، وأما أولياؤهم من الإنس فأبدوا عذرًا غير مقبول فقالوا: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أى: تمتع كل من الجنى والإنسى بصاحبه وانتفع به، فالجنى يستمتع بطاعة الإنسى له وعبادته وتعظيمه واستعاذته به، والإنسى يستمتع بنيل أغراضه وبلوغه بحسب خدمة الجنى له بعض شهواته، فإن الإنسى يعبد الجنى فيخدمه الجنى ويحصل له بعض الحوائج الدنيوية، أى: حصل منا من الذنوب ما حصل ولا يمكن رد ذلك ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أى: وقد وصلنا المحل الذى نجازى فيه بالأعمال، فافعل بنا الآن ما تشاء واحكم فينا بما تريد قد انقطعت حجتنا ولم يبق لنا عذر والأمر أمرك والحكم حكمك وكان فى هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق ولكن فى غير أوانه، ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل الذى لا جور فيه فقال: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمها فحكمته الغائية شملت الأشياء وعمتها ووسعتها ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: وكما ولينا الجن المردة وسلطناهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة بسبب كسبهم وسعيهم بذلك، كذلك من سنتنا أن نولى كل ظالم ظالمًا مثله يؤزه إلى الشر ويحثه عليه ويزهده فى الخير وينفره عنه وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها البليغ خطرها، والذنب ذنب الظالم فهو الذى أدخل الضرر على نفسه وعلى نفسه جنى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ومنعهم الحقوق الواجبة ولَّى عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله وحقوق عباده على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين، كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا أصلح الله رعاتهم وجعلهم أئمة عدل وإنصاف لا ولاة ظلم واعتساف، ثم وبخ الله جميع من أعرض عن الحق ورده من الجن والإنس وبين خطأهم فاعترفوا بذلك، فقال: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ الواضحات البينات التى فيها تفاصيل الأمر والنهى والخير والشر والوعد والوعيد ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ ويعلمونكم أن النجاة فيه والفوز إنما هو بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن الشقاء والخسران فى تضييع ذلك، فأقروا بذلك واعترفوا فـ ﴿قَالُوا﴾ بلى ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخرفها ونعيمها فاطمأنوا بها ورضوا بها وألهتهم عن الآخرة ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ فقامت عليهم حجة الله، وعلم حينئذ كل أحد حتى هم بأنفسهم عدل الله فيهم، فقال لهم حاكمًا عليهم بالعذاب الأليم: ﴿ادْخُلُوا فِي﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ صنعوا كصنيعكم واستمتعوا بخلاقهم كما استمتعتم وخاضوا بالباطل كما خضتم، إنهم كانوا خاسرين، أى الأولون من هؤلاء والآخرون، وأى خسران أعظم من خسران جنات النعيم وحرمان جوار أكرم الأكرمين؟ ولكنهم وإن اشتركوا فى

الخسران فإنهم يتفاوتون فى مقداره تفاوتًا عظيمًا ﴿وَلِكُلٍّ﴾ منهم ﴿دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره، ولا التابع كالمتبوع، ولا المرءوس كالرئيس، كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتركوا فى الربح والفلاح ودخول الجنة فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم رضوا بما آتاهم مولاهم وقنعوا بما حباهم، فنسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى التى أعدها الله للمقربين من عباده والمصطفين من خلقه وأهل الصفوة وأهل وداده ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازى كلا بحسب عمله وبما يعلمه من مقصده، وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة ونهاهم عن الأعمال السيئة رحمة بهم وقصدًا لمصالحهم، وإلا فهو الغنى بذاته عن جميع مخلوقاته فلا تنفعه طاعة الطائعين كما لا تضره معصية العاصين ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالإهلاك ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار كما انتقل غيركم وترحلون منها وتخلونها لمن بعدكم كما رحل عنها من قبلكم وخلوها لكم فلِمَ اتخذتموها قرارًا؟ وتوطنتم بها ونسيتم أنها دار ممر لا دار مقر، وأن أمامكم دارًا هى الدار التى جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟ وهى الدار التى يسعى إليها الأولون والآخرون ويرتحل نحوها السابقون واللاحقون، التى إذا وصلوها فثم الخلود الدائم والإقامة اللازمة والغاية التى لا غاية وراءها والمطلوب الذى ينتهى إليه كل مطلوب والمرغوب الذى يضمحل دونه كل مرغوب، هنالك والله ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ويتنافس فيه المتنافسون من لذة الأرواح وكثرة الأفراح ونعيم الأبدان والقلوب والقرب من علام الغيوب، فلله همة تعلقت بتلك الكرامات وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات!! وما أبخس حظ من رضى بالدون، وأدنى همة من اختار صفقة المغبون!! ولا يستبعد المعرض الغافل سرعة الوصول إلى هذه الدار ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لله، فارين من عقابه، فإن نواصيكم تحت قبضته وأنتم تحت تدبيره وتصرفه ﴿قُلْ﴾ يأيها الرسول لقومك إذا دعوتهم إلى الله وبينت لهم مآلهم وما عليهم من حقوقه فامتنعوا من الانقياد لأمره واتبعوا أهواءهم واستمروا على شركهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: على حالتكم التى أنتم عليها ورضيتموها لأنفسكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على أمر الله ومتبع لمراضى الله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أنا أو أنتم، وهذا من الإنصاف بموضع عظيم حيث بيَّن الأعمال وعامليها وجعل الجزاء مقرونًا بنظر البصير ضاربًا فيه صفحًا عن التصريح الذى يغنى عنه التلويح، وقد علم أن العاقبة الحسنة فى الدنيا والآخرة للمتقين، وأن المؤمنين لهم عقبى الدار، وأن كل معرض عما جاءت به الرسل عاقبته سوء وشر، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فكل ظالم وإن تمتع فى الدنيا بما تمتع به فنهايته فيه الاضمحلال والتلف «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته».

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذبون للنبى ﷺ من سفاهة العقل وخفة الأحلام والجهل البليغ، وعدَّد تبارك وتعالى شيئًا من خرافاتهم لينبه بذلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذى جاء به الرسول لا تقدح فيه أصلاً فإنهم لا أهلية لهم فى مقابلة الحق، فذكر من ذلك ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ ولشركائهم من ذلك نصيبًا، والحال أن الله تعالى هو الذى ذرأه للعباد وأوجده رزقًا فجمعوا بين محذورين محظورين، بل ثلاثة محاذير: منتهم على الله فى جعلهم له نصيبًا مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع، وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم ولم يوجدوا لهم شيئًا فى ذلك، وحكمهم الجائر فى أن ما كان لله لم يبالوا به ولم يهتموا ولو كان واصلاً إلى الشركاء وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصل إلى الله منه شىء، وذلك أنهم إذا حصل لهم - من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التى أوجدها الله لهم - شىء جعلوه قسمين: قسمًا قالوا: هذا لله بقولهم وزعمهم، وإلا فالله لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه ولا يقبل عمل من أشرك به، وقسمًا جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد، فإن وصل شىء مما جعلوه لله واختلط بما جعلوه لغيره لم يبالوا بذلك وقالوا: الله غنى عنه فلا يردونه وإن وصل شىء مما جعلوه لآلهتهم إلى ما جعلوه لله ردوه إلى محله وقالوا: إنها فقيرة لا بد من رد نصيبها، فهل أسوأ من هذا الحكم وأظلم؟!! حيث جعلوا ما للمخلوق يجتهد فيه وينصح ويحفظ أكثر مما يفعل بحق الله تعالى، ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة ما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال عن الله تعالى أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من أشرك معى شيئًا تركته وشركه» وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم فهو تقرب خالص لغير الله ليس لله منه شىء، وما جعلوه لله - على زعمهم - فإنه لا يصل إليه لكونه شركًا بل يكون حظ الشركاء والأنداد لأن الله غنى عنه لا يقبل العمل الذى أشرك به معه أحد من الخلق ومن سفه المشركين وضلالهم أنه زين لكثير من المشركين شركاؤهم - أى: رؤساؤهم وشياطينهم - قتل أولادهم، وهو: الوأد الذين يدفنون أولادهم وهم أحياء خشية الافتقار، والإناث خشية العار، وكل هذا من خدع الشياطين الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك ويلبسوا عليهم دينهم فيفعلون الأفعال التى فى غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمنعهم ويحول بينهم وبين هذه الأفعال ويمنع أولادهم عن قتال الأبوين لهم ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمته للتخلية بينهم وبين أفعالهم استدراجًا منه لهم وإمهالاً لهم وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أى: دعهم مع كذبهم وافترائهم، ولا تحزن عليهم فإنهم لن يضروا الله شيئًا، ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التى أحلها الله لهم عمومًا وجعلها رزقًا ورحمة يتمتعون بها وينتفعون قد اخترعوا فيها بدعًا وأقوالاً من تلقاء أنفسهم، فعندهم اصطلاح فى بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها: ﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أى محرم ﴿لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ﴾ أى: لا يجوز أن يطعمه أحد إلا من أردنا أن نطعمه أو وصفناه بوصف من عندنا وكل هذا ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ لا مستند لهم ولا حجة إلا أهويتهم وآراؤهم الفاسدة، وأنعام ليست محرمة من كل وجه بل يحرمون ظهورها، أى: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها ويسمونها الحام ﴿وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها وينسبون تلك الأفعال إلى الله وهم كذبة فجار فى ذلك ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله، من إحلال الشرك وتحريم الحلال من الأكل والمنافع، ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ويعينونها - محرمًا ما فى بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أى: حلال لهم، لا يشاركهم فيها النساء ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ أى: نسائنا، هذا إذا ولد حيًا، وإن يكن ما فى بطنها يولد ميتًا فهم فيه شركاء، أى: فهو حلال للذكور والإناث ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله ﴿وَصْفَهُمْ﴾ حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه ونسبوا ذلك إلى الله ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ حيث أمهل لهم ومكنهم مما هم فيه من الضلال ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعافيهم ويرزقهم جل جلاله، ثم بيّن خسرانهم وسفاهة عقولهم فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردى والضلال

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أى: ما جعله رحمة لهم وساقه رزقًا لهم، فردوا كرامة ربهم ولم يكتفوا بذلك بل وصفوها بأنها حرام وهى من أحل الحلال، وكل هذا ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ أى: كذب يكذب به كل معاند كفار ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أى: قد ضلوا ضلالاً بعيدًا، ولم يكونوا مهتدين فى شىء من أمورهم.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

لما ذكر تعالى تصرف المشركين فى كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك ووظيفتهم اللازمة عليهم فى الحروث والأنعام فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ﴾ أى: بساتين فيها أنواع الأشجار المتنوعة والنباتات المختلفة ﴿مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أى: بعض تلك الجنات مجعول لها عرش تنتشر عليه الأشجار ويعاونها فى النهوض عن الأرض، وبعضا خال من العروش تنبت على ساق أو تنفرش فى الأرض، وفى هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها وأنها تعالى علم العباد كيف يعرشونها وينمونها ﴿وَ﴾ أنشأ تعالى ﴿النَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ أى: كله فى محل واحد ويشرب من ماء واحد ويفضل الله بعضه على بعض فى الأكل، وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها ولكونها هى القوت لأكثر الخلق ﴿وَ﴾ أنشأ تعالى ﴿الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا﴾ فى شجره ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ فى ثمره وطعمه، كأنه قيل: لأى شىء أنشأ الله هذه الجنات، وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ أى: النخل والزرع ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أى: أعطوا حق الزرع وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدرة فى الشرع أمرهم أن يعطوها يوم حصادها وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول لأنه الوقت الذى تتشوف إليه نفوس الفقراء ويسهل حينئذ إخراجه على أهل الزرع ويكون الأمر فيها ظاهرًا لمن أخرجها حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج، وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يعم النهى عن الإسراف فى الأكل، وهو: مجاوزة الحد والعادة وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة والإسراف فى إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه أو يضر نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذى نهى الله عنه الذى لا يحبه الله بل يبغضه ويمقت عليه، وفى هذه الآية دليل على وجوب الزكاة فى الثمار وأنه لا حول لها بل حولها حصادها فى الزرع وجذاذ النخيل وأنه لا تتكرر فيها الزكاة لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة إذا كانت لغير التجارة لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده، وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر أنه لا يضمنها وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة بل يزكى المال الذى يبقى بعده، وقد كان النبى ﷺ يبعث خارصًا يخرص للناس ثمارهم ويأمره أن يدع لأهلها الثلث أو الربع بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

أى: ﴿وَ﴾ خلق وأنشأ ﴿مِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أى: بعضها تحملون عليه وتركبونه، وبعضها لاتصلح للحمل والركوب عليها لصغرها كالفصلان ونحوها وهى الفرش، فهى من جهة الحمل والركوب تنقسم إلى هذين القسمين، وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع فإنها كلها تؤكل وينتفع بها، ولهذا قال: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم

اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى: طرقه وأعماله التى من جملتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلا يأمركم إلا بما فيه مضرتكم وشقاؤكم الأبدى، وهذه الأنعام التى امتن الله بها على عباده وجعلها كلها حلالاً طيبًا فصلها بأنها: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ كذلك، فهذه أربعة كلها داخلة فيما أحل الله لا فرق بين شىء منها، فقل لهؤلاء المتكلفين الذين يحرمون منها شيئًا دون شىء أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور ملزمًا لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا: ﴿ءَالذَّكَرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله فلستم تقولون بذلك وتطردونه ﴿أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ حرم الله من الضأن والمعز، فليس هذا قولكم، لا تحريم الذكور الخلص ولا الإناث الخلص من الصنفين، بقى إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنثى أو على مجهول فقال: أم تحرمون ما ﴿اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أى: أنثى الضأن وأنثى المعز من غير فرق بين ذكر وأنثى، فلستم تقولون أيضًا بهذا القول، فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة التى حصرت الأقسام الممكنة فى ذلك فإلى أى شىء تذهبون؟ ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى قولكم ودعواكم، ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغًا فى العقل إلا واحدًا من هذه الثلاثة، وهم لا يقولون بشىء منها إنما يقولون: إن بعض الأنعام التى يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم حرام على الإناث دون الذكور، أو محرمة فى وقت من الأوقات، أو نحو ذلك من الأقوال التى يعلم علمًا لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب والعقول المختلفة المنحرفة والآراء الفاسدة، وأن الله ما أنزل - بما قالوه - من سلطان ولا لهم عليه حجة ولا برهان، ثم ذكر فى الإبل والبقر مثل ذلك، فلما بيَّن بطلان قولهم وفساده قال لهم قولاً لا حيلة لهم فى الخروج من تبعته إلا فى اتباع شرع الله ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا﴾ أى: لم يبق عليكم إلا دعوى لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها، وهى: أن تقولوا: إن الله وصانا بذلك وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله، بل أوحى إلينا وحيًا مخالفًا لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب، وهذا افتراء لا يجهله أحد، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى: مع كذبه وافترائه على الله قصده بذلك ضلال عباد الله عن سبيل الله بغير بينة منه ولا برهان ولا عقل ولا نقل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين لا إرادة لهم فى غير الظلم والجور والافتراء على الله.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من الحلال ونسبوه إلى الله وأبطل قولهم، أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حرمه الله عليهم ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال، من نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل، لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله، وقد قال لرسوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أى: محرمًا أكله بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ والميتة: ما مات بغير ذكاة شرعية، فإن ذلك لا يحل، كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾، ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ وهو: الدم الذى يخرج من الذبيحة عند ذكاتها، فإنه الدم الذى يضر احتباسه فى البدن فإذا خرج من البدن زال الضرر بأكل اللحم، ومفهوم هذا اللفظ أن الدم الذى يبقى فى اللحم والعروق بعد الذبح أنه حلال طاهر ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أى: فإن هذه الأشياء الثلاثة رجس أى: خبث نجس مضر حرمه الله لطفًا بكم ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث ﴿أَوْ﴾ إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله من الأوثان والآلهة التى يعبدها المشركون، فإن هذا من الفسق الذى هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أى: ومع هذا فهذه الأشياء المحرمات من اضطر إليها أى: حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شىء منها، بأن لم يكن عنده شىء

وخاف على نفسه التلف ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أى: مريد لأكلها من غير اضطرار ﴿وَلا عَادٍ﴾ أى: متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة عن حاجته ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: فالله قد سامح من كان بهذه الحال واختلف العلماء رحمهم الله فى هذا الحصر المذكور فى هذه الآية مع أن ثم محرمات لم تذكر فيها كالسباع وكل ذى مخلب من الطير ونحو ذلك، فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذكر فيها، فلا ينافى هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك لأنه لم يجده فيما أوحى إليه فى ذلك الوقت، وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات، بعضها صريحًا وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة، فإن قوله تعالى فى تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير أو الأخير منها فقط: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وصف شامل لكل محرم فإن المحرمات كلها رجس وخبث، وهى من أخبث الخبائث المستقذرة التى حرمها الله على عباده صيانة لهم وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس، ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السنة، فإنها تفسر القرآن وتبين المقصود منه، فإذا كان الله تعالى لم يحرم من المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره إلا شرع الله ـ دل ذلك على أن المشركين الذين حرموا ما رزقهم الله مفترون على الله متقولون عليه ما لم يقل، وفى الآية احتمال قوى لولا أن الله ذكر فيها الخنزير وهو: أن السياق فى نقض أقوال المشركين المتقدمة فى تحريمهم ما أحله الله وخوضهم بذلك بحسب ما سولت لهم أنفسهم، وذلك فى بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرم إلا ما ذكر فى الآية: الميتة منها وما أهل لغير الله به، وما سوى ذلك فحلال، ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال أن بعض الجهال قد يدخله فى بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم، فينمونها كما ينمون المواشى ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام، فهذا المحرم على هذه الأمة كلها من باب التنزيه لهم والصيانة، وأما ما حرم على أهل الكتاب فبعضه طيب ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم ولهذا قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وذلك كالإبل وما أشبهها ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بعض أجزائها، وهو: ﴿شُحُومَهُمَا﴾ وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل شحم الألية والترب، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك فقال: ﴿إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا﴾ أى: الشحم المخالط للأمعاء ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ﴾ التحريم على اليهود ﴿جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أى ظلمهم وتعديهم فى حقوق الله وحقوق عباده فحرم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالاً ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فى كل ما نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثًا، ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

أى: فإن كذبك هؤلاء المشركون فاستمر على دعوتهم بالترغيب والترهيب وأخبرهم بأن الله ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ أى: عامة شاملة لجميع المخلوقات كلها، فسارعوا إلى رحمته بأسبابها التى رأسها وأساسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به ﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: الذين كثر إجرامهم وذنوبهم، فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله التى أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شىء من الخير والشر حجة لهم فى دفع اللوم عنهم، وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ﴾ الآية، فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل ويحتجون بها فلم تُجد فيهم شيئًا ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكهم الله وأذاقهم بأسه، فلو كانت حجة صحيحة لدفعت عنهم العقاب ولما

أحل الله بهم العذاب، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة وشبهة كاسدة من عدة أوجه: منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة لم تحل بهم العقوبة ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذى لا يغنى من الحق شيئًا فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فلو كان لهم علم ـ وهم خصوم ألداء ـ لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ ومن بنى حججه على الخرص والظن فهو مبطل خاسر، فكيف إذا بناها على البغى والعناد والشر والفساد؟ ومنها: أن لله الحجة البالغة التى لم تبق لأحد عذرًا، التى اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون والكتب الإلهية والآثار النبوية والعقول الصحيحة والفطر المستقيمة والأخلاق القويمة فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الآية القاطعة باطل لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلاً، ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة يتمكن بها من فعل ما كُلِّفَ به فما أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله ولا حرم على أحد ما لا يتمكن من تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر ظلم محض وعناد صرف، ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم بل جعل أفعالهم تبعًا لاختيارهم، فإن شاءوا فعلوا وإن شاءوا كفوا، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلاً فى مشيئة الله ومندرجًا تحت إرادته، ومنها: أن المحتجين على المعاصى بالقضاء والقدر يتناقضون فى ذلك فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك بل لو أساء إليهم مسىء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك واحتج بالقضاء والقدر لما قبلوا منه هذا الاحتجاج ولغضبوا من ذلك أشد الغضب، فيا عبًا[1] كيف يحتجون به على معاصى الله ومساخطه ولا يرضون من أحد أن يحتج به فى مقابلة مساخطهم؟! ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصودًا ويعلمون أنه ليس بحجة وإنما المقصود منه دفع الحق ويرون أن الحق بمنزلة الصائل فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام المصيب عندهم والمخطئ.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١٥٠﴾

أى: قل لمن حرم ما أحل الله ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإذا قيل لهم هذا الكلام فهم بين أمرين: إما أن لا يحضروا أحدًا يشهد بهذا فتكون دعواهم إذًا باطلة خالية من الشهود والبرهان وإما أن يحضروا أحدًا يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التى يصح أن يشهد بها العدول، ولهذا قال تعالى ناهيًا نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أى: يسوون به غيره من الأنداد والأوثان فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين الله كانت أهواؤهم مناسبة لعقيدتهم وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحرى بهوى هذا شأنه أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ

(١) هكذا فى الأصل، لعل الصواب فيا عجبًا.

ﱡ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﱠ

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمًا عامًا شاملاً لكل أحد محتويًا على سائر المحرمات من المآكل والمشارب والأقوال والأفعال ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أى: لا قليلاً ولا كثيرًا، وحقيقة الشرك بالله أن يُعبد المخلوق كما يُعبد الله، أو يُعظم كما يُعظم الله، أو يُصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحدًا مخلصًا لله فى جميع أحواله فهذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، ثم بدأ بآكد الحقوق بعد حقه فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم﴾ من ذكور وإناث ﴿مِّنْ إِمْلاقٍ﴾ أى: بسبب الفقر وضيقتكم من رزقهم، كما كان ذلك موجودًا فى الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا منهيين عن قتلهم فى هذه الحال وهم أولادهم، فنهيهم عن قتلهم لغير موجب أو قتل أولاد غيرهم من باب أولى وأحرى ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أى: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ وهى: الذنوب العظام المستفحشة ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أى: لا تقربوا الظاهرة منها والخفى، أو المتعلق منها بالظاهر والمتعلق بالقلب والباطن، والنهى عن قربان الفواحش أبلغ من النهى عن مجرد فعلها فإنه يتناول النهى عن مقدماتها ووسائلها الموصلة إليها ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهى: النفس المسلمة من ذكر وأنثى صغير وكبير بر وفاجر، والكافرة التى قد عصمت بالعهد والميثاق ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ كالزانى المحصن والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة ﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الله وصيته ثم تحفظونها ثم تراعونها وتقومون بها، ودلت الآية على أنه بحسب عقل العبد يكون قيامه بما أمر الله به ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ بأكل أو معاوضة على وجه المحاباة لأنفسكم أو أخذ من غير سبب ﴿إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى: إلا بالحال التى تصلح بها أموالهم وينتفعون بها، فدل هذا على أنه لا يجوز قربانها والتصرف بها على وجه يضر اليتامى أو على وجه لا مضرة فيه ولا مصلحة ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ أى: حتى يبلغ ويرشد ويعرف التصرف، فإذا بلغ أشده أعطى حينئذ ماله وتصرف فيه على نظره وفى هذا دلالة على أن اليتيم - قبل بلوغ الأشد - محجور عليه وأن وليه يتصرف فى ماله بالأحظ، وأن هذا الحجر ينتهى ببلوغ الأشد ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل والوفاء التام، فإذا اجتهدتم فى ذلك فإننا ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أى: بقدر ما تسعه ولا تضيق عنه، فمن حرص على الإيفاء فى الكيل والوزن ثم حصل منه تقصير لم يفرط فيه ولم يعلمه فإن الله غفور رحيم، وبهذه الآية استدل الأصوليون بأن الله لا يكلف أحدًا ما لا يطيق، وعلى أن من اتقى الله فيما أمر وفعل ما يمكنه من ذلك فلا حرج عليه فيما سوى ذلك ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً تحكمون به بين الناس وتفصلون بينهم الخطاب وتتكلمون به على المقالات والأحوال ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فى قولكم، بمراعاة الصدق فيمن تحبون ومن تكرهون، والإنصاف وعدم كتمان ما يلزم بيانه، فإن الميل على من تكره بالكلام فيه أو فى مقالته من الظلم المحرم، بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع فالواجب عليه أن يعطى كل ذى حق حقه وأن يبين ما فيها من الحق والباطل ويعتبر قربها من الحق وبعدها منه، وذكر الفقهاء أن القاضى يجب عليه العدل بين الخصمين فى لحظه ولفظه ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وهذا يشمل العهد الذى عاهده عليه العباد من القيام بحقوقه والوفاء بها ومن العهد الذى يقع التعاهد به بين الخلق، فالجميع يجب الوفاء به ويحرم نقضه والإخلال به ﴿ذَلِكُمْ﴾ الأحكام المذكورة ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما بيّنه لكم من الأحكام، وتقومون بوصية الله لكم حق القيام وتعرفون ما فيها من الحكم والأحكام، ولما بيّن كثيرًا من الأوامر الكبار والشرائع المهمة أشار إليها وإلى ما هو أعم منها فقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ أى: هذه الأحكام وما أشبهها مما بيّنه الله فى كتابه ووضحه لعباده صراط الله الموصل إليه وإلى دار كرامته المعتدل السهل المختصر ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ لتنالوا الفوز

والفلاح وتدركوا الآمال والأفراح ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ أي: الطرق المخالفة لهذا الطريق ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: تضلكم عنه وتفرقكم يمينًا وشمالاً، فإذا ضللتم عن الصراط المستقيم فليس ثمَّ إلا طرق توصل إلى الجحيم ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم، علمًا وعملاً، صرتم من المتقين وعباد الله المفلحين، ووحد الصراط وأضافه إليه لأنه سبيل واحد موصل إليه والله هو المعين للسالكين على سلوكه.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿ثُمَّ﴾ في هذا الموضع ليس المراد منها الترتيب الزماني، فإن زمن موسى عليه السلام متقدم على تلاوة الرسول محمد ﷺ هذا الكتاب وإنما المراد الترتيب الإخباري، فأخبر أنه آتى ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو: التوراة ﴿تَمَامًا﴾ لنعمته، وكمالاً لإحسانه ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ من أمة موسى، فإن الله أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تحصى، من جملتها وتمامها إنزال التوراة عليهم فتمت عليهم نعمة الله ووجب عليهم القيام بشكرها ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجون إلى تفصيله من الحلال والحرام والأمر والنهي والعقائد ونحوها ﴿وَهُدًى﴾ أي: يهديهم إلى الخير ويعرفهم بالشر في الأصول والفروع ﴿وَرَحْمَةً﴾ يحصل لهم بها السعادة والرحمة والخير الكثير ﴿لَعَلَّهُم﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبينات عليهم ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال وما يوجب لهم الإيمان بلقاء ربهم والاستعداد له ﴿وَهَذَا﴾ القرآن العظيم والذكر الحكيم ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير وهو الذي تستمد منه سائر العلوم وتستخرج منه البركات فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه، وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ فيما يأمر به وينهى وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمرًا ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن اتبعتموه ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علمًا وعملاً ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعًا لحجتكم وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي: اليهود والنصارى ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ أي: تقولون لم تنزل علينا كتابًا، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتابًا لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا بعدم إكمالها وتمامها فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهذا اسم جنس يدخل فيه كل ما يبين الحق ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره وأن من لم يرفع به رأسًا وكذب به فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض ونأى بجانبه ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الذي يسوء صاحبه ويشق عليه ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ لأنفسهم ولغيرهم وجزاء لهم على عملهم السيئ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وفي هذا الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم هداية تامة لا يحتاج معها إلى

تخرص المتكلفين ولا إلى أفكار المتفلسفين ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين، وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين من اليهود والنصارى، فهم أهل الكتاب عند الإطلاق لا يدخل فيهم سائر الطوائف لا المجوس ولا غيرهم، وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب الذين عندهم مادة العلم وغفلتهم عن دراسة كتبهم، يقول تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ﴾ مقدمات العذاب ومقدمات الآخرة بأن تأتيهم ﴿الْمَلائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد ومجازاة المحسنين والمسيئين ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدالة على قرب الساعة ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الخارقة للعادة التي يعلم بها أن الساعة قد دنت وأن القيامة قد اقتربت ﴿لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أى إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير الموجود قبل أن يأتى بعض الآيات، والحكمة فى هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانًا بالغيب وكان اختيارًا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة ولم يبق للإيمان فائدة لأنه يشبه الإيمان الضرورى كإيمان الغريق والحريق ونحوهما ممن إذا رأى الموت أقلع عما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبى ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم ويغلق حينئذ باب التوبة، ولما كان هذا وعيدًا للمكذبين بالرسول ﷺ منتظرًا وهم ينتظرون بالنبى ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور قال: ﴿قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ فستعلمون أينا أحق بالأمن، وفى هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة فى إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى كالاستواء والنزول والإتيان لله تبارك وتعالى من غير تشبيه له بصفات المخلوقين، وفى الكتاب والسنة من هذا شىء كثير، وفيه أن من جملة أشراط الساعة طلوع الشمس من مغربها، وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريًا لا اضطراريًا، كما تقدم، وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد إيمان فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شىء من ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أى: شتتوه وتفرقوا فيه، وكلٌّ أخذ لنفسه نصيبًا من الأسماء التى لا تفيد الإنسان فى دينه شيئًا كاليهودية والنصرانية والمجوسية، أو لا يكمل بها إيمانه بأن يأخذ من الشريعة شيئًا ويجعله دينه ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة، ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف وينهى عن التفرق والاختلاف فى أهل الدين وفى سائر مسائله الأصولية والفروعية وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أى: لست منهم وليسوا منك لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ثم ذكر صفة الجزاء فقال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ القولية والفعلية الظاهرة والباطنة المتعلقة بحق الله أو حق خلقه ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه وأنه لا يظلم مثقال ذرة ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي

رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥)

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم: الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة والأعمال الصالحة والأمر بكل حسن والنهى عن كل قبيح الذى عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصًا إمام الحنفاء ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم من أديان أهل الانحراف كاليهود والنصارى والمشركين، وهذا عموم ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي﴾ أى: ذبحى، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ودلالتهما على محبة الله تعالى وإخلاص الدين له والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذى بذل ما تحبه النفس من المال لما هو أحب إليها، وهو الله تعالى، ومن أخلص فى صلاته ونسكه استلزم ذلك إخلاصه لله فى سائر أعماله وأقواله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أى: ما آتيه فى حياتى وما يجريه الله على وما يقدر على فى مماتى، الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ﴾ فى العبادة، كما أنه ليس له شريك فى الملك والتدبير، ليس هذا الإخلاص لله ابتداعًا منى وبدعًا أتيته من تلقاء نفسى، بل ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرًا حتمًا لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ من المخلوقين ﴿أَبْغِي رَبًّا﴾ أى: أيحسن ذلك ويليق بى أن أتخذ غيره مربيا ومدبرًا والله رب كل شىء، فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته منقادون لأمره؟! فتعين علىَّ وعلى غيرى أن يتخذ الله ربًا ويرضى به ولا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين، ثم رغب ورهب بذلك الجزاء فقال: ﴿وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ﴿إِلاَّ عَلَيْهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ بل كلٌ عليه وزر نفسه، وإن كان أحد قد تسبب فى ضلال غيره ووزره فإنه عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شىء ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من خير وشر ويجازيكم على ذلك أوفى الجزاء ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ أى: يخلف بعضكم بعضًا، واستخلفكم الله فى الأرض وسخر لكم جميع ما فيها وابتلاكم لينظر كيف تعملون ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ فى القوة والعافية والرزق والخلق والخُلُق ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فتفاوتت أعمالكم ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وكذب بآياته ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن به وعمل صالحًا وتاب من الموبقات.



تفسير سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿المص (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧)﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مبينًا عظمة القرآن: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أى: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد وجميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية محكمًا مفصلاً ﴿فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾

أى: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد وأنه أصدق الكلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلينشرح له صدرك ولتطمئن به نفسك ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تخش لائمًا ومعارضًا ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ الخلق، وتعظهم وتذكرهم فتقوم الحجة على المعاندين ﴿وَ﴾ ليكن ﴿ذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة وما يحول بين العبد وبين سلوكه ثم خاطب الله العباد ولفتهم إلى الكتاب فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: الكتاب الذى أريد إنزاله لأجلكم، وهو: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذى يريد أن يتم تربيته لكم فأنزل عليكم هذا الكتاب الذى إن اتبعتموه كملت تربيتكم وتمت عليكم النعمة وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: تتولونهم وتتبعون أهواءهم وتتركون لأجلها الحق ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة لما آثرتم الضار على النافع والعدو على الوليّ، ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم، فلا يشابهونهم فقال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ أى: عذابنا الشديد ﴿بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أى: فى حين غفلتهم وعلى غرتهم غافلون لم يخطر الهلاك على قلوبهم، فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم ولا أغنت عنهم آلهتهم التى كانوا يرجونهم[1] ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصى ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أى: لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين عما أجابوا رسلهم ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآيات ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم وعما أجابتهم به أممهم ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أى: على الخلق كلهم ما عملوا ﴿بِعِلْمٍ﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ فى وقت من الأوقات، كما قال تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ثم ذكر الجزاء على الأعمال فقال:

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩)﴾

أى: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط الذى لا جور فيه ولا ظلم بوجه ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: الناجون من المكروه المدركون للمحبوب الذين حصل لهم الربح العظيم والسعادة الدائمة ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته وصار الحكم لها ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم وحصل لهم العذاب الأليم ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فلم ينقادوا لها كما يجب عليهم ذلك.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠)﴾

يقول تعالى ممتنًا على عباده بذكر المسكن والمعيشة ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: هيأناها لكم بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها ووجوه الانتفاع بها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ مما يخرج من الأشجار والنبات ومعادن الأرض وأنواع الصنائع والتجارات، فإنه هو الذى هيأها وسخر أسبابها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله الذى أنعم عليكم بأصناف النعم وصرف عنكم النقم.

(١) قوله (يرجونهم . . . إلخ) من باب تغليب العقلاء على غيرهم، لأن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويرجونها وليست من العقلاء، كما كانوا أيضًا يعوذون برجال من الجن والإنس، كما اتخذوا فرعون والنمرود إلها فتعبير المؤلف بـ (يرجونهم) إنما يتمشى على إرادة العقلاء، لان «هم» لا تكون إلا للعقلاء فلذلك قلنا: «من باب تغليب العقلاء» ولو كان المعنى مقتصرًا على الأصنام لما صح التعبير بـ «يرجونهم» بل لتعين أن يقال «يرجونهن» لأن ضمير «هن» صالحة للعاقلات ولغير العقلاء مؤنثًا ومذكرًا.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطبًا بنى آدم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ بخلق أصلكم ومادتكم التى منها خرجتم من أبيكم آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ فى أحسن صورة وأحسن تقويم، وعلَّمه تعالى ما به تكمل صورته الباطنة أسماء كل شىء، ثم أمر الملائكة الكرام أن يسجدوا لآدم إكرامًا واحترامًا وإظهارًا لفضله، فامتثلوا أمر ربهم ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ كلهم أجمعون ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ أبى أن يسجد له تكبرًا عليه وإعجابًا بنفسه، فوبخه الله على ذلك وقال: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ لما خلقت بيدى، أى: شرفته وفضلته بهذه الفضيلة التى لم تكن لغيره فعصيت أمرى وتهاونت بى؟ ﴿ قَالَ ﴾ إبليس معارضًا لربه: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله له: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ وموجب هذا أن المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين لعلو النار على الطين وصعودها، وهذا القياس من أفسد الأقيسة فإنه باطل من عدة أوجه: منها: أنه فى مقابلة أمر الله له بالسجود، والقياس إذا عارض النص فإنه قياس باطل، لأن المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذى لم يأت فيه نص يقارب الأمور المنصوص عليها ويكون تابعًا لها، فأما قياس يعارضها ويلزم من اعتباره إلغاء النصوص فهذا القياس من أشنع الأقيسة، ومنها: أن قوله: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ بمجردها كافية لنقص إبليس الخبيث، فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبره والقول على الله بلا علم، وأى نقص أعظم من هذا؟! ومنها: أنه كذب فى تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب، فإن مادة الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار ففيها الخفة والطيش والإحراق، ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين، فقال الله له: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أى: من الجنة ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ لأنها دار الطيبين الطاهرين فلا تليق بأخبث خلق الله وأشرهم ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أى: المهانين الأذلين جزاء على كبره وعجبه بالإهانة والذل فلما أعلن عدو الله بعداوة الله وعداوة آدم وذريته سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بنى آدم ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم ليتبين الصادق من الكاذب ومن يطيعه ومن يطيع عدوه أجابه لما سأل فقال: ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾.

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

أى قال إبليس، لما أبلس وأيس من رحمة الله: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ أى: للخلق ﴿ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى: لألزمن الصراط ولأسعى غاية جهدى على صد الناس عنه وعدم سلوكهم إياه ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ أى: من جميع الجهات والجوانب ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم، ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازما ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه فقال: ﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم وهو يريد صدهم عنه وعدم قيامهم به، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله لنأخذ حذرنا ونستعد لعدونا ونحترز منه بعلمنا بالطريق التى يأتى منها ومداخله التى ينفذ منها فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

أى: قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا ﴾ خروج صغار واحتقار، لا خروج إكرام، بل

﴿مَذْءُومًا﴾ أى: مذموما ﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعدًا عن الله وعن رحمته وعن كل خير ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾ أى: منك وممن تبعك منهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وهذا قسم من الله تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس ثم حذر آدم شره وفتنته فقال:

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

أى أمر الله تعالى آدم وزوجته حواء، التى أنعم الله بها عليه ليسكن إليها، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعا فيها بما أرادا، إلا أنه عين لهما شجرة ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هى، وليس فى تعيينها فائدة لنا، وحرم عليهما أكلها بدليل قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فلم يزالا ممتثلين لأمر الله حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره فوسوس لهما وسوسة خدعهما بها وموه عليهما وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أى: من جنس الملائكة ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ ومع قوله هذا أقسم لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أى: من جملة الناصحين حيث قلت لكما ما قلت، فاغترا بذلك وغلبت الشهوة فى تلك الحال على العقل ﴿فَدَلاَّهُمَا﴾ أى: أنزلهما عن رتبتهما العالية التى هى البعد عن الذنوب والمعاصى إلى التلوث بأوضارها، فأقدما على أكلها ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ أى: ظهرت عورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار للعرى الباطن من التقوى فى هذه الحال أثر فى اللباس الظاهر حتى انخلع فظهرت عوراتهما، ولما ظهرت عوراتهما خجلا وجعلا يخصفان على عوراتهما من أوراق أشجار الجنة ليستترا بذلك ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ وهما بتلك الحال موبخًا ومعاتبًا ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلمَ اقترفتما المنهى وأطعتما عدوكما؟ فحينئذ مَنَّ الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب وسألا الله مغفرته فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: قد فعلنا الذنب الذى نهيتنا عنه وأضررنا بأنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا بمحو أثر الذنب وعقوبته وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا، فغفر الله لهما ذلك ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ هذا وإبليس مستمر على طغيانه غير مقلع عن عصيانه، فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع ـ إذا صدرت منه الذنوب ـ اجتباه ربه وهداه، ومن أشبه إبليس ـ إذا صدر منه الذنب لا يزال يزداد من المعاصى ـ فإنه لا يزداد من الله إلا بعدًا.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ أى: قال الله مخاطبًا لآدم وحواء بلفظ الجمع، لأن إبليس هبط من قبل إلى السماء ثم هبطوا جميعًا إلى الأرض، وكرر الأمر لإبليس تبعًا لهما ليعلم أنهم قرناء أبدًا، لأن إبليس لا يفارق الإنسان بل يلازمه كل الملازمة ويبذل كل جهده فى إضلال بنى آدم، وجملة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فى موضع نصب على الحال من الضمير الذى هو الواو فى ﴿اهْبِطُوا﴾ وخلاصة المعنى أن الله قال لهما وللشيطان: اهبطوا جميعًا من الجنة إلى الأرض متعادين ولكم فى الأرض استقرار وموضع استقرار تتمتعون وتنتفعون إلى حين انقضاء آجالكم.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

أى: لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض أخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوها الموت مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها يرسل إليهم رسله وينزل عليهم كتبه حتى يأتيهم الموت فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله وأخرجهم منها إلى الدار التى هى الدار حقيقة التى هى دار المقامة، ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضرورى واللباس الذى المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء كالطعام والشراب والمراكب والمناكح ونحوها، قد يسر الله للعباد ضروريها ومكمل ذلك وبيّن لهما أن هذا ليس مقصوداً بالذات وإنما أنزله الله ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من اللباس الحسى، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد ولا يبلى ولا يبيد وهو جمال القلب والروح، وأما اللباس الظاهرى فغايته أن يستر العورة الظاهرة فى وقت من الأوقات أو يكون جمالاً للإنسان وليس وراء ذلك منه نفع، وأيضًا فبتقدير عدم هذا اللباس تنكشف عورته الظاهرة التى لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى فإنها تنكشف عورته الباطنة وينال الخزى والفضيحة، وقوله ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى: ذلك المذكور لكم من اللباس مما تذكرون به ما ينفعكم ويضركم وتستعينون باللباس الظاهر على الباطن.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾

يقول تعالى محذراً لبنى آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يزين لكم العصيان ويدعوكم إليه ويرغبكم فيه فتنقادون له ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ وأنزلهما من المحل العالى إلى أنزل منه، فإياكم[1] يريد أن يفعل بكم كذلك ولا يألو جهده عنكم حتى يفتنكم إن استطاع، فعليكم أن تجعلوا الحذر منه فى بالكم وأن تلبسوا لأمة الحرب بينكم وبينه وأن لا تغفلوا عن المواضع التى يدخل منها إليكم ﴿إِنَّهُ﴾ يراقبكم على الدوام و ﴿يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ من شياطين الجن ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾

يقول تعالى مبينًا لقبح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب وينسبون لله أنه أمرهم بها ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ وهى: كل ما يستفحش ويستقبح ومن ذلك: طوافهم بالبيت عراة ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ وصدقوا فى هذا ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ وكذبوا فى هذا ولهذا رد الله عليهم هذه النسبة فقال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى: لا يليق بكماله وحكمته أن يأمر عباده بتعاطى الفواحش، لا هذا الذى يفعله المشركون ولا غيره ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأى افتراء أعظم من هذا، ثم ذكر ما يأمر به فقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل فى العبادات والمعاملات لا بالظلم والجور ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أى: توجهوا إلى الله واجتهدوا فى تكميل العبادات خصوصًا «الصلاة» أقيموها ظاهراً وباطنًا ونقوها من كل نقص ومفسد ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له، والدعاء يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، أى: لا تريدوا ولا تقصدوا من الأغراض فى دعائكم سوى عبودية الله ورضاه ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أول مرة ﴿تَعُودُونَ﴾ للبعث، فالقادر على بدء خلقكم قادر على إعادته، بل الإعادة أهون من البدء.

---

(١) فى الأصل المطبوع (فأنتم) وهو خطأ نحوى لأن (أنتم) من الضمائر المختصة بالرفع فلذلك أبدلناه بـ «إياكم» المختص بالنصب.

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَى﴾ الله أى: وفقهم للهداية ويسَّر لهم أسبابها وصرف عنهم موانعها ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾ أى: وجبت عليهم الضلالة بما تسببوا لأنفسهم وعملوا بأسباب الغواية ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ومن يتخذ الشيطان وليّا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا، فحين انسلخوا من ولاية الرحمن واستحبوا ولاية الشيطان حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لأنهم انقلبت عليهم الحقائق فظنوا الباطل حقّا والحق باطلاً، وفى هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهى تابعة للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومنه، وأن الضلالة بخذلانه للعبد إذ تولى - بجهله وظلمه - الشيطان وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتد وهو ضال فإنه لا عذر له لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى - بعدما أنزل على بنى آدم لباسًا يوارى سوءاتهم وريشًا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أى: استروا عوراتكم عند الصلاة كلها: فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحًا مشوهًا، ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففى هذا الأمر بستر العورة فى الصلاة وباستعمال التجميل فيها ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس، ثم قال ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أى: مما رزقكم الله من الطيبات ﴿وَلا تُسْرِفُوا﴾ فى ذلك، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافى والشره فى المأكولات التى تضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه والتنوق[1] فى المآكل والمشارب واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فإن السرف يبغضه الله ويضر بدن الإنسان ومعيشته حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففى هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب والنهى عن تركهما وعن الإسراف فيهما.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول تعالى منكرًا على من تعنت وحرم ما أحل الله من الطيبات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق من مأكل ومشرب بجميع أنواعه، أى: من هذا الذى يقدم على تحريم ما أنعم الله على العباد ومن ذا الذى يضيق عليهم ما وسعه الله؟ وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات جعله لهم ليستعينوا به على عبادته فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين ولهذا قال: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: لا تبعة عليهم فيها، ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله بل استعان بها على معاصيه فإنها غير خالصة، ولا مباحة، بل يُعاقب عليها وعلى التنعم بها ويسأل عن النعيم يوم القيامة ﴿كَذَلِكَ

(١) تنوق: لغة فى تأنق، قال فى المختار من الصحاح: شىء أنيق، أى: حسن معجب، وتأنق فى الأمر أى: عمله بنيقة مثل تنوق، والاسم منه، النيقة وبعضهم لا يقول: تنوق، وفى المصباح: أنق الشىء من باب «تعب» راع حسنه وأعجب، وأنقت به: أعجبت، ويتعدى بالهمزة فيقال: آنقنى وشىء أنيق، مثل: «عجيب» وزنًا ومعنى، وتأنق فى عمله: أحكمه. اهـ. والمراد هنا: التفنن وبذلك الجهد فى صنع الأطعمة بصفة جذابة رائعة تأخذ بالألباب وتبهر الأنظار.

نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات ويعلمون أنها من عند الله فيعقلونها ويفهمونها، ثم ذكر المحرمات التى حرمها الله فى كل شريعة من الشرائع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ أى: الذنوب الكبار التى تستفحش وتستقبح لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما، وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أى: الفواحش التى تتعلق بحركات البدن والتى تتعلق بحركات القلوب كالكبر والعجب والرياء والنفاق ونحو ذلك ﴿وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: الذنوب التى تؤثم وتوجب العقوبة فى حقوق الله والبغى على الناس فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم فدخل فى هذا الذنوب المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحق العباد ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أى: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد، والشرك هو: أن يشرك مع الله فى عبادته أحدًا من الخلق، وربما دخل فى هذا الشرك الأصغر كالرياء والحلف بغير الله ونحو ذلك. ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ فى أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرمها الله ونهى العباد عن تعاطيها لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة ولما فيها من الظلم والتجرؤ على الله والاستطالة على عباد الله وتغيير دين الله وشرعه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

أى: وقد أخرج الله بنى آدم إلى الأرض وأسكنهم فيها وجعل لهم أجلاً مسمى لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

لما أخرج الله بنى آدم من الجنة ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصون عليهم آيات الله ويبينون لهم أحكامه، ثم ذكر فضل من استجاب لهم وخسار من لم يستجب لهم فقال: ﴿فَمَنِ اتَّقَى﴾ ما حرم الله من الشرك والكبائر والصغائر ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أعماله الظاهرة والباطنة ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من الشر الذى قد يخافه غيرهم ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام والسعادة والفلاح الأبدى ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أى: لا آمنت بها قلوبهم ولا انقادت لها جوارحهم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كما استهانوا بآياته ولازموا التكذيب بها أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

أى: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك له والنقص له والتقول عليه ما لم يقل ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الواضحة المبينة للحق المبين الهادية إلى الصراط المستقيم، فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا ونالهم نصيبهم مما كان مكتوبًا لهم فى اللوح المحفوظ فليس ذلك بمغن عنهم شيئًا يتمتعون قليلاً ثم يعذبون طويلاً ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أى: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم ﴿قَالُوا﴾ لهم فى تلك الحالة توبيخًا وعتابًا ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أى: اضمحلوا وبطلوا وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شىء ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ مستحقين للعذاب المهين الدائم فقالت لهم الملائكة: ﴿ادْخُلُوا فِي

﴿أُمَمٍ﴾ أى: فى جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ أى: مضوا على ما مضيتم عليه من الكفر والاستكبار فاستحق الجميع الخزى والبوار والخلود ﴿فِى النَّارِ﴾ كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أى: اجتمع فى النار جميع أهلها من الأولين والآخرين والقادة والرؤساء والمقلدين الأتباع ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ أى: متأخروهم المتبعون الرؤساء ﴿لأُولاهُمْ﴾ أى: لرؤسائهم شاكين إلى الله إضلالهم إياهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أى: عذبهم عذابًا مضاعفًا لأنهم أضلونا وزينوا لنا الأعمال الخبيثة، قال الله: ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم ﴿ضِعْفٌ﴾ ونصيب من العذاب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع ﴿وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ﴾ أى: الرؤساء قالوا لأتباعهم: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أى: قد اشتركنا جميعًا فى الغى والضلال وفى فعل أسباب العذاب فأى فضل لكم علينا؟ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ فهذه الآيات ونحوها دلت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله مخلدون فى العذاب مشتركون فيه وفى أصله وإن كانوا متفاوتين فى مقداره بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم وأن مودتهم التى كانت بينهم فى الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن بها مع أنها آيات بينات واستكبر عنها فلم ينقد لأحكامها بل كذب وتولى أنهم آيسون من كل خير فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا، وصعدت تريد العروج إلى الله فتستأذن فلا يؤذن لها، كما لم تصعد فى الدنيا إلى الإيمان بالله ومعرفته ومحبته، كذلك لا تصعد بعد الموت، فإن الجزاء من جنس العمل، ومفهوم الآية أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر الله المصدقين بآياته تفتح لها أبواب السماء حتى تعرج إلى الله وتصل إلى حيث أراد الله فى العالم العلوى وتبتهج بالقرب من ربها، والحظوة برضوانه، وقوله عن أهل النار: ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ وهو البعير المعروف ﴿فِى سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أى: حتى يدخل البعير الذى هو من أكبر الحيوانات جسمًا فى خرق الإبرة الذى هو من أضيق الأشياء، وهذا من باب تعليق الشىء بالمحال، أى: فكما أنه محال دخول الجمل فى سم الخياط فكذلك المكذبون بآيات الله محال دخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ وقال هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أى: فراش من تحتهم ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أى: ظلل من العذاب تغشاهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم، جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

لما ذكر تعالى عقاب العاصين الظالمين ذكر ثواب المطيعين فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لفظًا عامًا يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد، قال تعالى: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أى: بمقدار ما تسعه طاقتها ولا يعسر على قدرتها فعليها فى هذه الحال أن تتقى الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التى يقدر عليها غيرها سقطت عنها، كما قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فلا واجب مع العجز ولا محرم مع الضرورة ﴿أُولَئِكَ﴾ أى: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى: لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلاً، لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتهيات ما تقف عنده الغايات ولا يطلب أعلى منه ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة أن الغل الذى كان موجودًا فى قلوبهم والتنافس الذى كان بينهم أن الله يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخوانًا متحابين وأخلاء متصافين، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم، فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض لأنه فقدت أسبابه، قوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أى: يفجرونها تفجيراً حيث شاءوا وأين أرادوا، إن شاءوا فى خلال القصور أو تلك الغرف العاليات، أو فى رياض الجنات من تحت تلك الحدائق الزاهرات أنهار تجرى فى غير أخدود، وخيرات ليس لها حد محدود ﴿وَ﴾ لهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ بأن مَنَّ علينا وأوحى إلى قلوبنا فآمنت به وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار، فنعم الرب الكريم الذى ابتدأنا بالنعم وأسدى من النعم الظاهرة والباطنة ما لا يحصيه المحصون ولا يعده العادون ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أى: ليس فى نفوسنا قابلية للهدى لولا أنه تعالى منَّ علينا بهدايته واتباع رسله ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أى: حين كانوا يتمتعون بالنعيم الذى أخبرت به الرسل وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين لهم قالوا: لقد تحققنا ورأينا ما وعدتنا به الرسل وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين لا مرية فيه ولا إشكال ﴿وَنُودُوا﴾ تهنئة لهم وإكرامًا وتحية واحترامًا ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ أى كنتم الوارثين لها وصارت إقطاعًا لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار، أورثتموها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله وأدخلوا الجنة برحمة الله واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، وهى من رحمته بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى بعدما ذكر استقرار كل من الفريقين فى الدارين، ووجدا ما أخبرت به الرسل، ونطقت به الكتب من الثواب والعقاب، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة فأدخلناها ورأينا ما وصفه لنا ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ على الكفر والمعاصى ﴿حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ قد وجدناه حقًا، فبيَّن للخلق كلهم بيانًا لا شك فيه، صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قيلاً، وذهبت عنهم الشكوك والشبه وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله، واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أى: بين أهل النار وأهل الجنة، بأن قال ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ﴾ أى: بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته فصدفوا أنفسهم عنها ظلمًا وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم وصدوا غيرهم فضلوا وأضلوا، والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة ويعتدل سير السالكين إليه ﴿وَ﴾ هؤلاء ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى: منحرفة صادة عن سواء السبيل ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ وهذا الذى أوجب لهم الانحراف عن الصراط والإقبال على شهوات النفوس المحرمة عدم إيمانهم بالبعث وعدم خوفهم من العقاب، ورجائهم للثواب، ومفهوم هذا أن رحمة الله على المؤمنين وبره شامل لهم وإحسانه متواتر عليهم.

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا

يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

أى: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار ﴿حِجَابٌ﴾ يقال له: ﴿الْأَعْرَافِ﴾ لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين وينظر من عليه حال الفريقين وعلى هذا الحجاب ﴿رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ﴾ من أهل الجنة والنار ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ أى: علاماتهم التى بها يعرفون ويميزون، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ﴿أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: يحيونهم ويسلمون عليهم وهم - إلى الآن - لم يدخلوا الجنة ولكنهم يطمعون فى دخولها ولم يجعل الله الطمع فى قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ورأوا منظرًا شنيعًا وهولاً فظيعًا ﴿قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فأهل الجنة - إذا رآهم أهل الأعراف - يطمعون أن يكونوا معهم فى الجنة ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار يستجيرون من حالهم هذا على وجه العموم، ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ وهم من أهل النار وقد كانوا فى الدنيا لهم أبهة وشرف وأموال وأولاد، فقال لهم أصحاب الأعراف - حين رأوهم منفردين فى العذاب بلا ناصر ولا مغيث ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ فى الدنيا، الذى كنتم تستدفعون به المكاره وتتوسلون به إلى مطالبكم فى الدنيا، فاليوم اضمحل ولم يغن عنكم شيئًا، وكذلك أى شىء نفعكم استكباركم على الحق وعلى ما جاء به وعلى من اتبعه، ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا فى الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار: ﴿أَهَٰؤُلاءِ﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ احتقارًا لهم وازدراءً وإعجابًا بأنفسكم قد حنثتم فى أيمانكم وبدا لكم من الله ما لم يكن لكم فى حساب ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بما كنتم تعملون، أى: قيل لهؤلاء الضعفاء إكرامًا واحترامًا: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيما يستقبل من المكاره ﴿وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ واختلف أهل العلم والمفسرون، مَنْ هم أصحاب الأعراف وما أعمالهم؟ والصحيح من ذلك أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا فى الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمته الجنة، فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه ورحمته وسعت كل شىء.

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

أى: ينادى أصحاب النار أصحاب الجنة حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ وحين يمسهم الجوع المفرط والظمأ الموجع يستغيثون بهم فيقولون: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ أى: ماء الجنة وطعامها ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله واتخاذهم دينهم الذى أمروا أن يستقيموا عليه ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أى: لهت قلوبهم وأعرضت عنه ولعبوا واتخذوه سخريًا، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخرفها وكثرة دعاتها فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا وأعرضوا عن

الآخرة ونسوها ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ أى: نتركهم فى العذاب ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا وليس أمامهم عرض ولا جزاء ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور فى آيات الله وبيناته، بل قد ﴿جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ أى: بينا فيه جميع المطالب التى يحتاج إليها الخلق ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله بأحوال العباد فى كل زمان ومكان وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور فيجهل بعض الأحوال فيحكم حكمًا غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شىء، ووسعت رحمته كل شىء ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال وبيان الحق والباطل والغى والرشد، ويحصل أيضًا لهم به الرحمة وهى: الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة فينتفى عنهم بذلك الضلال والشقاء، وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم ولا انقادوا لأوامره ونواهيه فلم يبق فيهم حيلة إلا استحقاقهم أن يحل بهم ما أخبر به القرآن، ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أى: وقوع ما أخبر به كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ ، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ متندمين متأسفين على ما مضى متشفعين فى مغفرة ذنوبهم مقرين بما أخبرت به الرسل: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم كذب منهم مقصودهم به دفع ما حل بهم قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ، ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ حين فوتوها الأرباح وسلكوا بها سبيل الهلاك وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابه ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فى الدنيا مما تمنيهم أنفسهم به ويعدهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم فى حساب وتبين لهم باطلهم وضلالهم وصدق ما جاءتهم به الرسل.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾

يقول تعالى مبينًا أنه الرب المعبود وحده لا شريك له ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما على عظمهما وسعتهما وإحكامهما واتقانهما وبديع خلقهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها: يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، فلما قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع ﴿اسْتَوَىٰ﴾ تبارك وتعالى ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم الذى يسع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش واحتوى على الممالك وأجرى عليهم أحكامه الكونية وأحكامه الدينية، ولهذا قال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ﴾ المظلم ﴿النَّهَارَ﴾ المضيء فيظلم ما على وجه الأرض ويسكن الآدميون وتأوى المخلوقات إلى مساكنها ويستريحون من التعب والذهاب والإياب الذى حصل لهم فى النهار ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب الليل وهكذا أبدًا على الدوام حتى يطوى الله هذا العالم وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ أى: بتسخيره وتدبيره الدال على ما له من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته وعلمه وأنه الإله الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أى: له الخلق الذى صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية وثم أحكامه وذلك يكون فى دار البقاء ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أى: عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه فتبارك فى نفسه لعظمة أوصافه وكمالها وبارك فى غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير فكل بركة فى الكون فمن آثار رحمته، ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوى الألباب على أنه وحده المعبود المقصود فى الحوائج كلها أمر بما يترتب على ذلك فقال:

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: إلحاحًا في المسألة ودءوبًا في العبادة ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: لا جهر أو علانية يخاف منه الرياء، بل خفية وإخلاصًا لله تعالى ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء: كون العبد يسأل الله مسائل لا تصلح له أو ينقطع في السؤال أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء فكل هذا داخل في الاعتداء المنهى عنه ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ بعمل المعاصي ﴿بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ بالطاعات فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق والأعمال والأرزاق وأحوال الدنيا والآخرة ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا من عقابه وطمعًا في ثوابه، طمعًا في قبولها وخوفًا من ردها، لا دعاء عبد مدلٍّ على ربه قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه منزلته أو دعاء من هو غافل لاه، وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده لأن ذلك يتضمنه الخفية، وإخفاؤه وإسراره أن يكون القلب خائفًا طامعًا لا غافلاً ولا آمنًا ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحسانًا كان أقرب إلى رحمة ربه وكان ربه قريبًا منه برحمته، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

بيَّن تعالى أثرًا من آثار قدرته ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: الرياح المبشرات بالغيث التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا ثِقَالاً﴾ قد أثاره بعضها وألفته ريح أخرى وألقحته ريح أخرى ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قد كادت تهلك حيواناته وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي: ذلك البلد الميت ﴿الْمَاءَ﴾ الغزير من ذلك السحاب وسخر الله له ريحًا تدره وريحًا تفرقه بإذن الله ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله راتعين بخير الله، وقوله: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات كذلك نخرج الموتى من قبورهم بعدما كانوا رفاتًا متمزقين، وهذا استدلال واضح فإنه لا فرق بين الأمرين، فمنكر البعث استبعادًا له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد وإنكار المحسوسات، وفي هذا الحث على التذكر والتفكر في آلاء الله والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال، لا بعين الغفلة والإهمال، ثم ذكر تفاوت الأراضي التي ينزل عليها المطر فقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ أي: طيب التربة والمادة إذا نزل عليه مطر ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ الذي هو مستعد له ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بإرادة الله ومشيئته فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء حتى يأذن الله بذلك ﴿وَالَّذِي خَبُثَ﴾ من الأراضي ﴿لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ أي: إلا نباتًا خاسًا لا نفع فيه ولا بركة ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي: ننوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمه والإقرار بها وصرفها في مرضاة الله فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهية لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة، كما أن الغيث مادة الحيا[1]، فإن القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي تقبله

(١) الحيا، أي: المطر.

وتعلمه وتنبت بحسب طيب أصلها وحسن عنصرها، وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها فإذا جاءها الوحي لم يجد محلاً قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة أو معارضة فيكون كالمطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور فلا يؤثر فيها شيئًا وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ الآيات.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾

لما ذكر تعالى من أدلة توحيده جملة صالحة أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده مع أممهم المنكرين لذلك، وكيف أيد الله أهل التوحيد وأهلك من عاندهم ولم ينقد لهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد ومعتقد واحد، فقال عن نوح، أول المرسلين: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده حين كانوا يعبدون الأوثان ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور وما سواه مخلوق مدبر ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي والشقاء السرمدي كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة ردوا عليه أقبح رد ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ أي: الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق وعدم انقيادهم للرسل: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فلم يكفهم - قبحهم الله - أنهم لم ينقادوا له بل استكبروا عن الانقياد له وقدحوا فيه أعظم قدح ونسبوه إلى الضلال ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالاً مبينًا واضحًا لكل أحد، وهذا من أعظم أنواع المكابرة التي لا تروج على أضعف الناس عقلاً وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح الذين جاءوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئًا فنزلوها منزلة فاطر السموات وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات، فلولا أن لهم أذهانًا تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم بل هم أهدى منهم وأعقل، فرد نوح عليهم ردًا لطيفًا، وترقق لهم لعلهم ينقادون له فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها وهي هداية الرسالة التامة الكاملة ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق بأنواع التربية الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها، ولهذا قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي: وظيفتي تبليغكم ببيان توحيده وأوامره ونواهيه على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها وهو: أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة على يد رجل منكم تعرفون حقيقته وصدقه وحاله؟ فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر، وقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لينذركم العذاب الأليم وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهرًا وباطنًا، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة فلم يفد فيهم ولا نجح ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي: السفينة التي أمر الله نوحًا عليه السلام بصنعها وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، فحملهم فيها ونجاهم الله بها ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا

﴿قومًا عمين﴾ عن الهدى، أبصروا الحق وأراهم الله ـ على يد نوح ـ من الآيات البينات ما به يؤمن أولو الألباب، فسخروا منه واستهتروا به وكفروا.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾

أى: ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ الأولى، الذين كانوا فى أرض اليمن ﴿أَخَاهُمْ﴾ فى النسب ﴿هُودًا﴾ عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك والطغيان فى الأرض ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ سخطه وعذابه إن أقمتم على ما أنتم عليه فلم يستجيبوا ولا انقادوا ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ رادين لدعوته قادحين فى رأيه ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى: ما نراك إلا سفيهًا غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين، وقد انقلبت عليهم الحقيقة واستحكم عماهم حيث ذموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه، فإنهم السفهاء حقًا، الكاذبون، وأى سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقالبه لكل شيطان مريد، ووضع العبادة فى غير موضعها، فعبد من لا يغنى عنه شيئًا من الأشجار والأحجار؟! وأى كذب أبلغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى؟ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ بوجه من الوجوه بل هو الرسول المرشد الرشيد ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد وطاعة رب العباد ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أى: كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحثكم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أى: واحمدوا ربكم واشكروه إذ مكن لكم فى الأرض وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله وأبقاكم لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا فيصيبكم ما أصابهم ﴿وَ﴾ اذكروا نعمة الله عليكم التى خصكم بها وهى أن ﴿زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ فى القوة وكبر الأجسام وشدة البطش ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أى: نعمه الواسعة وأياديه المتكررة ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتموها بشكرها وأداء حقها ﴿تُفْلِحُونَ﴾ أى: تفوزون بالمطلوب وتنجون من المرهوب، فوعظهم وذكَّرهم وأمرهم بالتوحيد وذكر لهم وصف نفسه وأنه ناصح أمين وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم وذكَّرهم نعم الله عليهم وإدرار الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا ﴿قَالُوا﴾ متعجبين من دعوته ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ قبحهم الله، جعلوا الأمر الذى هو أوجب الواجبات وأكمل الأمور من الأمور التى يعارضون بها ما وجدوا عليه آباءهم، فقدموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام على ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وحده لا شريك له وكذبوا نبيهم، وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا الاستفتاح منهم على أنفسهم ﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أى: لا بد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه وحان وقت الهلاك ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أى: كيف

تجادلون على أمور لا حقائق لها وعلى أصنام سميتموها آلهة وهى لا شىء من الإلهية فيها ولا مثقال ذرة، و ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ فإنها لو كانت صحيحة لأنزل الله بها سلطانًا، فعدم إنزاله له دليل على بطلانه، فإنه ما من مطلوب ومقصود ـ وخصوصًا الأمور الكبار ـ إلا وقد بيَّن الله فيها من الحجج ما يدل عليها ومن السلطان ما لا تخفى معه ﴿فَانتَظِرُوا﴾ ما يقع بكم من العقاب الذى وعدتكم به ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ وفرق بين الانتظارين: انتظار من يخشى وقوع العقاب ومن يرجو من الله النصر والثواب ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أى: هودًا ﴿وَالَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ فإنه الذى هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سببًا ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذى لم يبق منهم أحدًا وسلط الله عليهم الريح العقيم ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، فأهلكوا فأصبحوا لا يُرَى إلا مساكنهم، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت عليهم الحجج فلم ينقادوا لها، وأُمروا بالإيمان فلم يؤمنوا، فكان عاقبتهم الهلاك والخزى والفضيحة ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ وقال هنا: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بوجه من الوجوه، بل وصفهم التكذيب والعناد، ونعتهم الكبر والفساد.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

أى ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله من أرض الحجاز وجزيرة العرب، أرسل الله إليهم ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ نبيًا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وينهاهم عن الشرك والتنديد ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ دعوته ـ عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين ـ الأمر[١] بعبادة الله وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: خارق من خوارق العادات التى لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها، ثم فسرها بقوله ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أى: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى إضافة تشريف لكم فيها آية عظيمة، وقد ذكر وجه الآية فى قوله: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ كان عندهم بئر كبيرة، وهى المعروفة ببئر الناقة يتناوبونها هم والناقة، للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها ولهم يوم يردونها وتصدر الناقة عنهم، وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ فلا عليكم من مؤونتها شىء ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ أى: بعقر أو غيره ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ فى الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم ﴿مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ الذين أهلكهم الله وجعلكم خلفاء من بعدهم ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: مكَّن لكم فيها وسهَّل لكم الأسباب الموصلة إلى ما

(١) قوله (الأمر) خبر للمبتدأ الذى هو (دعوته).

تريدون وتبتغون ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أى: من الأراضى السهلة التى ليست بجبال ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ كما هو مشاهد إلى الآن من آثارهم التى فى الجبال من المساكن والحجر ونحوها وهى باقية ما بقيت الجبال ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ﴾ أى: نعمه وما خولكم من الفضل والرزق والقوة ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أى: لا تخرجوا فى الأرض بالفساد والمعاصى فإن المعاصى تدع الديار العامرة بلاقع(١) وقد أخليت ديارهم منهم وأبقيت مساكنهم موحشة بعدهم ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أى: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين قالوا: ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: أهو صادق أم كاذب؟. فقال المستضعفون: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ من توحيد الله والخبر عنه وأمره ونهيه ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ حملهم الكبر على أن لا ينقادوا للحق الذى انقاد له الضعفاء ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ التى توعدهم إن مسوها بسوء أن يصيبهم عذاب أليم ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أى: قسوا عنهم واستكبروا عن أمره الذى من عتا عنه أذاقه العذاب الشديد لا جرم أحل الله بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم ﴿وَقَالُوا﴾ مع هذه الأفعال متجرئين على الله معجزين له غير مبالين بما فعلوا بل مفتخرين به: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ على ركبهم قد أبادهم الله وقطع دابرهم ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ صالح عليه السلام حين أحل الله بهم العذاب ﴿وَقَالَ﴾ مخاطبًا لهم توبيخًا وعتابًا بعدما أهلكهم الله: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أى: جميع ما أرسلنى الله به إليكم قد أبلغتكم به وحرصت على هدايتكم واجتهدت فى سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم ﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ بل رددتم قول النصحاء وأطعتم كل شيطان رجيم، واعلم أن كثيرًا من المفسرين يذكرون فى هذه القصة أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح وأنها تمخضت تمخض الحامل فخرجت الناقة وهم ينظرون، وأن لها فصيلاً حين عقروها رغى ثلاث رغيات وانفلق له الجبل ودخل فيه، وأن صالحًا عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم أن تصبحوا فى اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثانى محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال، هذا من الإسرائيليات التى لا ينبغى نقلها فى تفسير كتاب الله وليس فى القرآن ما يدل على شىء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى ويدع ذكره حتى يأتى من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات فإن صالحًا قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أى: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جدًا، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا، وأى لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب وذكر لهم وقوع مقدماته فوقعت يومًا فيومًا على وجه يعمهم ويشملهم، لأن احمرار وجوههم واصفرارها واسودادها من العذاب، هل هذا إلا مناقض للقرآن ومضاد له؟ فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه، نعم لو صح شىء عن رسول الله ﷺ مما لا يناقض كتاب الله فعلى الرأس والعين وهو مما أمر القرآن باتباعه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التى لا يجزم بكذبها فإن معانى كتاب الله يقينية وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب فلا يمكن اتفاقهما.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

---

(١) بلاقع أى: لا شىء فيها من نبات ولا إنسان، ولا من الحيوانات التى ينتفع من ألبانها وأوبارها وأصوافها وركوبها وفى الحديث (اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع) أى خرابًا مقفرة من كل ما ينتفع به.

أي: ﴿و﴾ اذكر عبدنا ﴿لُوطًا﴾ عليه الصلاة والسلام إذ أرسلناه إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي: الخصلة التي بلغت - في العظم والشناعة - إلى أن استغرقت أنواع الفحش ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ فكونها فاحشة من أشنع الأشياء وكونهم ابتدعوها وابتكروها وسنوها لمن بعدهم من أشنع ما يكون أيضًا، ثم بيَّنها بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي: كيف تذرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والفطرة وتقبلون على أدبار الرجال التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث وهي تخرج منه الأنتان والأخباث التي يستحيي من ذكرها فضلاً عن ملامستها وقربها ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: يتنزهون عن فعل الفاحشة ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: الباقين المعذبين، أمره أن يسرى بأهله ليلاً، فإن العذاب مصبح قومه، فسرى بهم إلا امرأته أصابها ما أصابهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: حجارة حارة شديدة من سجيل وجعل الله عاليها سافلها ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الهلاك والخزي الدائم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)﴾

أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم وأن لا يعثوا في الأرض مفسدين بالإكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن ترك المعاصي امتثالاً لأمر الله وتقربًا إليه - خير وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار وعذاب النار ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ للناس ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها تحذرون الناس منها ﴿تُوعِدُونَ﴾[1] من سلوكها ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي: من أراد الاهتداء به ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة وتميلونها اتباعًا لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته ورحمهم بها أعظم رحمة وتصدون

(١) توعدون أي: تهددون من سلك سبيل الله بأنواع الأذى والعذاب.

لنصرتها والدعـوة إليها والذب عنها لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقهـا الصادين الناس عنها فإن هذا كفـر لنعمة الله ومحادة لله وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة وتشنعون على من سلكها ﴿وَاذْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ أى: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل والصـحة، وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم ولا سلط عليكم عـدوًا يجتاحكم[١] ولا فرقكم فى الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم وإدرار الأرزاق وكثرة النسل ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فإنكم لا تجدون فى جموعهم إلا الشتات ولا فى ربوعهم إلا الـوحشة والانبتات[٢]، ولم يورثوا ذكرًا حسنًا بل أُتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيـامة خزيًا وفضيحة ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ وهم الجمهور منهم ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فينصر المحق ويوقع العقوبة على المبطل ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ وهم الأشراف والكبراء منهم الذين اتبعوا أهواءهم ولهوا بلذاتـهم، فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة ردوه واستكبروا عنه، فقالوا لنبيهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ استعملوا قوتهم السبعية فى مقابلة الحق ولم يراعوا دينًا ولا ذمة ولا حقًا وإنما راعوا واتبعوا أهواءهم وعقولهم السفيهة التى دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قـريتنا، فـ «شعيب» عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعًـا فى إيمانهم والآن لم يسلم حتى توعدوه إن لم يتابعهم بالجلاء عن وطنه الذى هو ومن معه أحق به منهم ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجبًا من قولهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أى: أنتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانهـا فإنما يدعى إليها من له نـوع رغبة فيها، أمـا من يعلن بالنهى عنها والتشنيع على من اتبـعها فكيف يدعى إليها؟ ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ أى: اشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعـدما نجانا الله منها وأنقذنا من شـرها أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فـإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل لله شريكًا وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولا شريكًا فى الملك ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾ أى: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها فإن هذا من المحال، فآيسهم عليه الصلاة السلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة: من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك، ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذبًا وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون، ومنها: اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها، ومنها: أن عودتهم فـيها ـ بعدما هداهم الله ـ من المحالات بالنظر إلى حـالتهم الراهنة وما فى قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية وأنه الإله وحده الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له وأن آلهة المشـركين أبطل الباطل وأمـحل المحال، وحيث إن الله منَّ عـليهم بعقول يعـرفون بها الحق والبـاطل والهدى والضلال، وأمـا من حيث النظر إلى مشـيئة الله وإرادته النافـذة فى خلقه التى لا خروج لأحـد عنها ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى فـإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئًا أو يتـركونه، ولهذا استثنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أى: فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيـئته التابعة لعلمه وحكمته، وقـد ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فيعلم ما يصلح للعبـاد وما يدبرهم عليه ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أى: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم وأن يعصـمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل على الله كـفاه ويسر له أمر دينه ودنيـاه ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أى: انصر المظلـوم وصاحب الحق على الظالم المـعاند للحق ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ وفتحه تعالى لعباده نوعان: فـتح العلم بتبيين الحق من الباطل والهدى من الضلال ومن هو المستـقيم على الصراط مـمن هو منحرف عنه، والنوع الثـانى: فتحه بالجـزاء وإيقاع العقـوبة على الظالمين والنجاة والإكرام للصالحـين، فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعـدل وأن يريهم من آياته وعبره ما يكون فاصلاً بين الفريقين ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ محذرين من اتباع شعيب: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء فى اتباع الرشد والهدى ولم يدروا أن الخسارة كل

(١) يجتاحكم، أى: يهلككم بأنواع الشدائد. (٢) الانبتات، أى: الانقطاع والمراد، خلو مساكنهم من الناس بالهلاك الذى أنزله الله بهم.

الخسارة فى لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أى: الزلزلة الشديدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أى: صرعى ميتين هامدين، قال تعالى ناعيًا حالهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أى: كأنهم ما أقاموا فى ديارهم وكأنهم ما تمتعوا فى عرصاتهما ولا تفيئوا فى ظلالها ولا غنوا فى مسارح أنهارها ولا أكلوا من ثمار أشجارها فأخذهم العذاب فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: الخسار محصور فيهم لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك هو الخسران المبين لا من قالوا لهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَالَ﴾ معاتبًا وموبخًا ومخاطبًا لهم بعد موتهم ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ أى: أوصلتها إليكم وبيَّنتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه وخالطت أفئدتكم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فلم تقبلوا نصحى ولا انقدتم لإرشادى بل فسقتم وطغيتم ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أى: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يُحزن عليهم بل يُفرح بإهلاكهم ومحقهم، فعياذًا بك اللهم من الخزى والفضيحة، وأى شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم؟.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عن ما هم فيه من الشر فلم ينقادوا له: ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا﴾ أى: ابتلاهم الله ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أى: بالفقر والمرض وأنواع البلايا: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إذا أصابتهم خضعت نفوسهم فهم ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ إلى الله ويستكينون للحق ﴿ثُمَّ﴾ إذا لم يفد فيهم واستمر استكبارهم وازداد طغيانهم ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ فَأَدَرَّ عليهم الأرزاق وعافى أبدانهم ورفع عنهم البلايا ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أى: كثروا وكثرت أرزاقهم وانبسطوا فى نعمة الله وفضله ونسوا ما مر عليهم من البلايا ﴿وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ أى: هذه عادة جارية لم تزل موجودة فى الأولين واللاحقين تارة يكونون فى سراء وتارة فى ضراء وتارة فى فرح ومرة فى ترح على حسب تقلبات الزمان وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير ولا للاستدراج والتكير حتى إذا اغتبطوا وفرحوا بما أوتوا وكانت الدنيا أسر ما كانت إليهم ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾ بالعذاب ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: لا يخطر لهم الهلاك على بال، وظنوا[1] أنهم قادرون على ما آتاهم الله وأنهم غير زائلين ولا منتقلين عنه.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل يبتلون بالضراء موعظة وإنذارًا وبالسراء استدراجًا ومكرًا ذكر أن أهل القرى لو آمنوا بقلوبهم إيمانًا صادقًا صدقته الأعمال واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرًا وباطنًا بترك جميع ما حرم الله لفتح عليهم بركات من السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدرارًا وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم فى أخصب عيش وأغزر رزق من غير عناء ولا تعب ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بالعقوبات والبلايا ونزع البركات وكثرة الآفات وهى بعض جزاء أعمالهم وإلا فلو آخذهم بجميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ أى: المكذبة بقرينة السياق ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾

(١) قوله «وظنوا» أى: اعتقدوا حتى صار ذلك عندهم بمنزلة علم اليقين، و «الظن» ليس على بابه الذى هو الرجحان، بل هو لليقين.

أي: عذابنا الشديد ﴿بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أى: فى غفلتهم وغرتهم وراحتهم ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أى: أى شيء يؤمنهم من ذلك وهم قد فعلوا أسبابه وارتكبوا من الجرائم العظيمة ما يوجب بعضه الهلاك؟ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون ويملى لهم إن كيده متين ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فإن من أمن من عذاب الله فإنه لم يصدق بالجزاء على الأعمال ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان، وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ على أن العبد لا ينبغى له أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان بل لا يزال خائفًا وجلاً أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان وأن لا يزال داعيًا بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» وأن يعمل ويسعى فى كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن فإن العبد ـ ولو بلغت به الحال ما بلغت ـ فليس على يقين من السلامة.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾

يقول تعالى منبهًا للأمم الغابرين(١) بعد هلاك الأمم الغابرين(٢): ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى: أولم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين؟ أولم يهتدوا أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإن هذه سنة فى الأولين والآخرين، وقوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ أى: إذا نبههم الله فلم يتنبهوا وذكَّرهم فلم يتذكروا وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا فإن الله تعالى يعاقبهم ويطبع على قلوبهم فيعلوها الران والدنس حتى يختم عليها فلا يدخلها حق ولا يصل إليها خير ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ الذين تقدم ذكرهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ ما يحصل به عبرة للمعتبرين وازدجار للظالمين وموعظة للمتقين ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة والبينات المبينات للحق بيانًا كاملاً ولكنهم لم يفدهم هذا ولا أغنى عنهم شيئًا ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ أى: بسبب تكذيبهم وردهم الحق أول مرة، ما كان يهديهم للإيمان جزاء لهم على ردهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ عقوبة منه وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أى: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد أى: من ثبات والتزام لوصية الله التى أوصى بها جميع العالمين ولا انقادوا لأوامره التى ساقها إليهم على ألسنة رسله ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أى: خارجين عن طاعة الله متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، فالله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمتثل لأمره إلا القليل من الناس الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة، وأما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدى واستكبروا عما جاءت به الرسل فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)﴾

(١) أى: الباقين. (٢) أى: الماضين.

أى: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم الإمام العظيم والرسول الكريم إلى قوم عتاة جبابرة وهم فرعون وملئه من أشرافهم وكبرائهم فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ بأن لم ينقادوا لحقها الذى من لم ينقد لها فهو ظالم بل استكبروا عنها ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ كيف أهلكهم الله وأتبعهم الذم واللعنة فى الدنيا ويوم القيامة، بئس الرفد المرفود، وهذا مجمل فصله بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: إنى رسول من مرسل عظيم وهو رب العالمين الشامل للعالم العلوى والسفلى مربى جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية التى من جملتها أنه لا يتركهم سدى بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذى لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه ويدعى أنه أرسله ولم يرسله، فإذا كان هذا شأنه وأنا قد اختارنى واصطفانى لرسالته فحقيق علىَّ أن لا أكذب عليه ولا أقول عليه إلا الحق فإنى لو قلت غير ذلك لعاجلنى بالعقوبة وأخذنى أخذ عزيز مقتدر فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه خصوصًا وقد جاءهم ببينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به واتباعهم له وإرسال بنى إسرائيل، الشعب الذى فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء وسلسلة يعقوب عليه السلام، الذى موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ

إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا
غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ
﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ
ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ
ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى
وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ
فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى
وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا
لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ
يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا
وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ
حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾
وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ
﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ
بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ
ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟
ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ
ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ
أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا
مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى
يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

فقال له فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ فى الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أى: حية ظاهرة تسعى وهم يشاهدونها ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ من غير سوء، فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه وأنه رسول رب العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، فلهذا ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات ولم يؤمنوا وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أى: ماهر فى سحره، ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول بأنه: ﴿يُرِيدُ﴾ موسى بفعله هذا ﴿أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أى: يريد أن يجليكم عن أوطانكم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أى: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم، فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه وإلا دخل فى عقول أكثر الناس فحينئذ انعقد رأيهم

إلى أن قالوا لفرعون: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أى: احبسهما وأمهلهما وابعث فى المدائن أناسًا يحشرون أهل المملكة، و ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أى: يجيئون بالسحرة المهرة ليقابلوا ما جاء به موسى فقالوا: يا موسى ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ وقال هنا: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ طالبين منه الجزاء إن غلبوا ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾؟ فـ ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم أجر ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ فوعدهم الأجر والتقريب وعلو المنزلة عنده ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم فى مغالبة موسى، فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿قَالُوا﴾ على وجه التألى وعدم المبالاة بما جاء به موسى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ ما معك ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَلْقُوا﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ حبالهم وعصيهم إذا هى من سحرهم كأنها حيات تسعى، وبذلك ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ لم يوجد له نظير من السحر ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ حية تسعى، و ﴿تَلْقَفُ﴾ جميع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أى: يكذبون به ويموهون ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ أى: تبيَّن وظهر واستعلن فى ذلك المجمع ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾ أى: فى ذلك المقام ﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ أى: حقيرين قد اضمحل باطلهم وتلاشى سحرهم ولم يحصل لهم المقصود الذى ظنوا حصوله وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أى: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿فِرْعَوْنُ﴾ متهددًا لهم على الإيمان: ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ كان الخبيث حاكمًا مستبدًا على الأديان والأقوال قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع وأمره نافذ فيهم ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم وتضعف عقولها ونفوذها وتعجز عن المدافعة عن حقوقها ولهذا قال الله عنه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ وقال هنا: ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أى: فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ علَىَّ. ثم موَّه على قومه وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أى: إن موسى كبيركم الذى علمكم السحر فتواطأتم أنتم وهو على أن تنغلبوا له فيظهر فتتبعوه ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم فتخرجوا منها أهلها وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم فى مغالبة موسى حتى عجزوا وتبين لهم الحق فاتبعوه ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أحل بكم من العقوبة ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ زعم الخبيث أنهم مفسدون فى الأرض وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين من تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف أى: اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ فى جذوع النخل لتختزوا بزعمه ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أى: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيذوق هذا العذاب، فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أى: فلا نبالى بعقوبتك، فالله خير وأبقى فاقض ما أنت قاض ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا﴾ أى: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ فإن كان هذا ذنبًا يعاب عليه ويستحق صاحبه العقوبة فهو ذنبنا، ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ أى: أفض ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أى: عظيمًا كما يدل عليه التنكير لأن هذه محنة عظيمة تؤدى إلى ذهاب النفس فيحتاج فيها من الصبر إلى شىء كثير ليثبت الفؤاد ويطمئن المؤمن على إيمانه ويزول عنه الانزعاج الكثير ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أى: منقادين لأمرك متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه وأن الله تعالى ثبَّتهم على الإيمان هذا وفرعون وملأه وعامتهم المتبعون للملأ قد استكبروا عن آيات الله وجحدوا بها ظلمًا وعلوًا وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى وزاعمين أن ما جاء به باطل وفساد: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالدعوة إلى الله وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال التى هى الصلاح فى الأرض وما هم عليه هو الفساد ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ أى: يدعك أنت وآلهتك وينهى عنك ويصد الناس عن اتباعك ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيبًا لهم بأنه سيدع بنى إسرائيل مع موسى بحالة

لا ينمون فيها ويأمن فرعون وقومه - بزعمه - من ضررهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أى: نستبقيهن فلا نقتلهن، فإذا فعلنا ذلك أمنا من كثرتهم وكنا مستخدمين لباقيهم ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت والعتو والقسوة من فرعون ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ موصيًا لهم فى هذه الحالة التى لا يقدرون معها على شىء ولا مقاومة إلا بالمقاومة الإلهية والاستعانة الربانية: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ أى: اعتمدوا عليه فى جلب ما ينفعكم ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيتم أمركم ﴿وَاصْبِرُوا﴾ أى: الزموا الصبر على ما يحل بكم منتظرين للفرج ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكموا فيها ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته ولكن العاقبة للمتقين فإنهم - وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة - فإن النصر لهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ على قومهم، وهذه وظيفة العبد أنه عند القدرة أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير ما يقدر عليه وعند العجز أن يصبر ويستعين الله وينتظر الفرج ﴿قَالُوا﴾ لموسى متضجرين من طول ما مكثوا فى عذاب فرعون وأذيته: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ فإنهم كانوا يسوموننا سوء العذاب يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ﴿وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ كذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى مرجيًا لهم بالفرج والخلاص من شرهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: يمكنكم فيها ويجعل لكم التدبير فيها ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هل تشكرون أم تكفرون؟ وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذى أراده الله، قال الله تعالى فى بيان ما عامل به آل فرعون فى هذه المدة الأخيرة أنها على عادته وسنته فى الأمم أن يأخذ هم بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ أى: بالدهور والجدب[1] ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم فلم ينجع فيهم ولا أفاد بل استمروا على الظلم والفساد ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ أى: الخصب وإدرار الرزق ﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ أى: نحن مستحقون لها فلم يشكروا الله عليها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أى: قحط وجدب ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ أى: يقولون: إنما جاءنا بسبب مجىء موسى واتباع بنى إسرائيل له، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ بقضائه وقدرته ليس كما قالوا بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب فى ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلذلك قالوا ما قالوا ﴿وَقَالُوا﴾ مبينين لموسى أنهم لا يزالون ولا يزولون عن باطلهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أى: قد تقرر عندنا أنك ساحر فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر فلا نؤمن لك ولا نصدق، وهذا غاية ما يكون من العناد أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوى عندهم الحالات سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ أى: الماء الكثير الذى أغرق أشجارهم وزروعهم وأضرهم ضررًا كثيرًا ﴿وَالْجَرَادَ﴾ فأكل ثمارهم وزروعهم ونباتهم ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ قيل: إنه الدباء أى: صغار الجراد والظاهر أنه القمل المعروف[2] ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ فملأت أوعيتهم وأقلقتهم وآذتهم أذية شديدة ﴿وَالدَّمَ﴾ إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين أن ماءهم الذى يشربون انقلب دمًا فكانوا لا يشربون إلا دمًا ولا يطبخون إلا بالدم ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ أى: أدلة وبينات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ لما رأوا الآيات ﴿وَكَانُوا﴾ فى سابق أمرهم ﴿قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى بأن أبقاهم على الغى والضلال ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أى: العذاب يحتمل أن المراد به: الطاعون كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به: ما تقدم من الآيات الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم فإنها رجز وعذاب وأنهم كلما أصابهم واحد منها ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أى: تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحى والشرع ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهم فى ذلك كذبة لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب وظنوا أنه إذا رفع

---

(١) قوله (بالدهور والجدب) كلام فيه ما فيه، فإن المعاجم القرآنية واللغوية متفقة على أن (السنين) معناها: السنون المجدبة والقحوط فالأولى أن يقال: أى: بالسنين المجدبة والأعوام التى لا تنبتُ الأرض شيئًا من الزروع والثمار.

(٢) قوله (القمل) ذكر فى (المنتخب من تفسير القرآن) أن القمل: حشرة، تفسد الثمار وتقضى على الحيوان والنبات.

لا يصيبهم غيره ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ﴾ أى: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها وليس كشفًا مؤبدًا وإنما هو مؤقت ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ العهد الذى عاهدوا عليه موسى ووعدوه بالإيمان به وإرسال بنى إسرائيل فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بنى إسرائيل بل استمروا على كفرهم يعمهون وعلى تعذيب بنى إسرائيل دائبين ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أى: حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم أمر الله موسى أن يسرى ببنى إسرائيل ليلاً وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يجمعون الناس ليتبعوا بنى إسرائيل وقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ وقال هنا: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أى: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ فى الأرض أى: بنى إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل فرعون يسومونهم سوء العذاب أورثهم الله ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ والمراد بالأرض ههنا أرض مصر التى كانوا فيها مستضعفين أذلين أى: ملكهم الله جميعها ومكنهم فيها ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ حين قال لهم موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من الأبنية الهائلة والمساكن المزخرفة ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ بعدما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه وأهلكهم الله وبنو إسرائيل ينظرون ﴿فَأَتَوْا﴾ أى: مروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ أى: يقيمون عندها ويتبركون بها ويعبدونها ﴿قَالُوا﴾ من جهلهم وسفههم لنبيهم موسى بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أى: اشرع لنا أن نتخذ أصناما آلهة كما اتخذها هؤلاء ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وأى جهل أعظم من جهل الإنسان ربه وخالقه وأراد أن يسوى به غيره ممن لا يملك نفعًا ولا ضراً ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً؟ ولهذا قال لهم موسى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ[1] مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن دعاءهم إياها باطل وهى باطلة بنفسها فالعمل باطل وغايته باطلة ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أى: أطلب لكم إلهًا غير الله المألوه الكامل فى ذاته وصفاته وأفعاله ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فيقتضى أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر وذلك بإفراد الله وحده بالعبادة والكفر بما يدع أى من دونه، ثم ذكرهم بما امتن الله به عليهم فقال: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أى: من فرعون وآله ﴿يَسُومُونَكُمْ[2] سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه وهو أنهم كانوا ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أى: النجاة من عذابهم ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أى: نعمة جليلة ومنحة جزيلة أو فى ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم فلما ذكَّرهم موسى ووعظهم انتهوا عن ذلك ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم وتمكينهم فى الأرض أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم بإنزال الكتاب الذى فيه الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فصارت أربعين ليلة ليستعد موسى ويتهيأ لوعد الله ويكون لنزولها موقع كبير لديهم وتشوق إلى إنزالها، ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال لهارون، موصيًا له على بنى إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أى: كن خليفتى فيهم واعمل فيهم بما كنت أعمل ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أى: اتبع طريق الصلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصى ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ الذى وقتناه له لإنزال الكتاب ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بما كلمه من وحيه وأمره ونهيه تشوق إلى رؤية الله ونزعت نفسه لذلك حبًا لربه واشتياقًا لرؤيته ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ﴾ الله ﴿لَن تَرَانِي﴾ أى: لن تقدر الآن على

---

(١) قوله (متبر) أى مهلك، ومدمر، والمراد: إن هؤلاء الذين يعبدون الأصنام هالك ما هم فيه من الدين الباطل وزائل عملهم، لا بقاء له.

(٢) يسومونكم، أى: يذيقونكم أشد العذاب ويسخرونكم لخدمتهم فى مشاق الأعمال.

رؤيتى، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق فى هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها ولا يثبتون لرؤية الله، وليس فى هذا دليل على أنهم لا يرونه فى الجنة، فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة يقدرون معها على رؤية الله تعالى[1]، ولهذا رتب الله الرؤية فى هذه الآية على ثبوت الجبل فقال ـ مقنعًا لموسى فى عدم إجابته للرؤية: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ إذا تجلى الله له ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ الأصم الغليظ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أى: انهال مثل الرمل انزعاجًا من رؤية الله وعدم ثبوته لها ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ حين رأى ما رأى ﴿صَعِقًا﴾ أى: مغشيًا عليه ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ تبين له حينئذ أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله فموسى أولى أن لا يثبت لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال الذى لم يوافق موضعًا ولذلك: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أى: تنزيهًا لك وتعظيمًا عما لا يليق بجلالك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب وسوء الأدب معك ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك فلما منعه الله من رؤيته ـ بعدما كان متشوقًا إليها ـ أعطاه خيرًا كثيرًا فقال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: اخترتك واجتبيتك وفضلتك وخصصتك بفضائل عظيمة ومناقب جليلة ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ التى لا أجعلها ولا أخص بها إلا أفضل الخلق ﴿وَبِكَلَامِي﴾ إياك من غير واسطة وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ من النعم وخذ ما آتيتك من الأمر والنهى بانشراح صدر وتلقه بالقبول والانقياد ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لله على ما خصك وفضلك ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه العباد، و ﴿مَّوْعِظَةً﴾ ترغب النفوس فى أفعال الخير وترهبهم من أفعال الشر ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأحكام الشرعية والعقائد والأخلاق والآداب ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أى: بجد واجتهاد على إقامتها ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وهى الأوامر الواجبة والمستحبة فإنها أحسنها، وفى هذا دليل على أن أوامر الله ـ فى كل شريعة ـ كاملة عادلة حسنة ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ بعدما أهلكهم الله وأبقى ديارهم عبرة بعدهم يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون، وأما غيرهم فقال عنهم: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ أى: عن الاعتبار فى الآيات الأفقية والنفسية والفهم لآيات الكتاب ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: يتكبرون على عباد الله وعلى الحق وعلى من جاء به، فمن كان بهذه الصفة حرمه الله خيرًا كثيرًا وخذله ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق واستحسن القبيح ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لإعراضهم واعتراضهم ومحادتهم لله ورسوله ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ أى: الهدى والاستقامة وهو الصراط الموصل إلى الله وإلى دار كرامته ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ أى: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه ﴿سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ أى: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ والسبب فى انحرافهم هذا الانحراف ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ فردُّهم لآيات الله وغفلتهم عما يراد بها واحتقارهم لها هو الذى أوجب لهم من سلوك طريق الغى وترك طريق الرشد ما أوجب ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ لأنها على غير أساس وقد فقد شرطها وهو الإيمان بآيات الله والتصديق بجزائه ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ فى بطلان أعمالهم وحصول ضد مقصودهم ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر لا يرجو فيها ثوابًا وليس لها غاية تنتهى إليها فلذلك اضمحلت وبطلت ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ صاغه السامرى وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾[2] وصوت فعبدوه واتخذوه إلهًا، وقال[3]: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ موسى وذهب يطلبه، وهذا من سفههم وقلة بصيرتهم، كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسموات بعجل من أنقص

---

(١) أقول: رؤية الله أجل نعمة وأعظم منحة، فلا تكون إلا فى دار لم تتدنس بالمعاصى وهى الجنة، وأما الأرض فقد حصل على ظهرها من الآثام ما لا يعلم عظمها إلا الله، فلا يمكن أن يقع فيها أعظم النعم وهى رؤية الله التى ينسى بها الراءون نعيم الجنان، ذكر هذا «الكلاباذى» فى كتابه (التعرف بمذهب بالتصوف) وهو كتاب نفيس لم يخرج عن الكتاب والسنة.

(٢) الخوار: صوت البقر.

(٣) أى: السامرى.

المخلوقات؟ ولهذا قال مبينًا أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية ما يوجب أن يكون إلهًا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ﴾ أى: وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد الذى لا يتكلم ﴿وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ أى: لا يدلهم طريقًا دينيًا ولا يحصل لهم مصلحة، لأن من المتقرر فى العقول والفطر أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل وأسمج السفه، ولهذا قال: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ حيث وضعوا العبادة فى غير موضعها وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى، لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذى لا يتكلم للإلهية ﴿وَلَمَّا﴾ رجع موسى إلى قومه فوجدهم على هذه الحال وأخبرهم بضلالهم ندموا ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أى: من الهم والندم على فعلهم ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ فتنصلوا إلى الله وتضرعوا و ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ فيدلنا عليه ويرزقنا عبادته ويوفقنا لصالح الأعمال ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ما صدر منا من عبادة العجل ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: ممتلئًا غضبًا وغيظًا عليهم لتمام غيرته عليه السلام وكمال نصحه وشفقته ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ أى: بئس الحالة التى خلفتمونى بها من بعد ذهابى عنكم، فإنها حالة تفضى إلى الهلاك الأبدى والشقاء السرمدى ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ حيث وعدكم بإنزال الكتاب فبادرتم برأيكم الفاسد إلى هذه الخصلة القبيحة ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أى: رماها من الغضب ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون ولحيته ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وقال له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ لك بقولى: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ و ﴿قَالَ﴾ هنا ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ هذا ترقيق لأخيه بذكر الأم وحدها وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ أى: احتقرونى حين قلت لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أى: فلا تظن بى تقصيرًا ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ بنهرك لى ومسكك إياى بسوء، فإن الأعداء حريصون على أن يجدوا علىَّ عثرة أو يطلعوا لى على زلة ﴿وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فتعاملنى معاملتهم فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته مما ظنه فيه من التقصير، و ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ هارون ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ أى: فى وسطها واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب فإنها حصن حصين من جميع الشرور وثَمَّ كل خير وسرور ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أى: أرحم بنا من كل راحم أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا وأولادنا وأنفسنا، قال الله تعالى مبينًا حال أهل العجل الذين عبدوه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلهًا ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فكل مفتر على الله كاذب على شرعه متقوِّل عليه ما لم يقل فإن له نصيبًا من الغضب من الله والذل فى الحياة الدنيا، وقد نالهم غضب الله حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك، فقتل بعضهم بعضًا وانجلت المعركة عن كثير من القتلى[1] ثم تاب الله عليهم بعد ذلك، ولهذا ذكر حكمًا عامًّا يدخلون فيه وغيرهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من شرك وكبائر وصغائر ﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا﴾ بأن ندموا على ما مضى وأقلعوا عنه وعزموا على أن لا يعودوا ﴿وَآمَنُوا﴾ بالله وبما أوجب الله من الإيمان به، ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ أى: بعد هذه الحالة حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات ﴿لَغَفُورٌ﴾ يغفر السيئات ويمحوها ولو كانت ملء قراب الأرض ﴿رَّحِيمٌ﴾ بقبول التوبة والتوفيق لأفعال الخير وقبولها ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ أى: سكن غضبه وتراجعت نفسه وعرف ما هو فيه اشتغل بأهم الأشياء عنده، فـ ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التى ألقاها وهى ألواح عظيمة المقدار جليلة ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أى: مشتملة ومتضمنة ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أى: فيها الهدى من الضلالة وبيان الحق من الباطل وأعمال الخير وأعمال الشر والهدى لأحسن الأعمال والأخلاق والآداب ورحمة وسعادة لمن عمل بها وعلم أحكامها ومعانيها ولكن ليس كل أحد يقبل هدى

---

(١) فى الأصل المطبوع (عن قتلى كثيرة) ولا شك أنه تعبير غير قويم فلذلك أبدلنا الجملة بـ (عن كثير من القتلى).

الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك وينقاد ذلك له ويتلقاه بالقبول ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أى: يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف الله ولا المقام بين يديه فإنه لا يزداد بها إلا عتواً ونفوراً وتقوم عليه حجة الله فيها ﴿وَ﴾ لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ أى: منهم ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ من خيارهم ليعتذروا لقومهم عند ربهم ووعدهم الله ميقاتًا يحضرون فيه، فلما حضروه قالوا: يا موسى ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فتجرءوا على الله جراءة كبيرة وأساءوا الأدب معه ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فصعقوا وهلكوا، فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله ويتبتل ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ أن يحضروا ويكونوا فى حالة يعتذرون فيها لقومهم فصاروا هم الظالمين[1] ﴿وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أى: ضعفاء العقول سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله واعتذر بأن المتجرئين على الله ليس لهم عقول كاملة تردعهم عما قالوا وفعلوا وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر[2] بها الإنسان ويخاف من ذهاب دينه فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أى: أنت خير من غفر وأولى من رحم وأكرم من أعطى وتفضل، فكأن موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يا رب بالقصد الأول لنا كلنا هو التزام طاعتك والإيمان بك وأن من حضره عقله ورشده وتم[3] على ما وهبته من التوفيق فإنه لم يزل مستقيمًا، وأما من ضعف عقله وسفه رأيه وصرفته الفتنة فهو الذى فعل ما فعل لذينك السببين، ومع هذا فأنت أرحم الراحمين وخير الغافرين فاغفر لنا وارحمنا، فأجاب الله سؤاله وأحياهم من بعد موتهم وغفر لهم ذنوبهم، وقال موسى فى تمام دعائه: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ من علم نافع ورزق واسع وعمل صالح ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ حسنة، وهى ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أى: رجعنا مقرين بتقصيرنا منيبين فى جميع أمورنا ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ ممن كان شقيًا متعرضًا لأسبابه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من العالم العلوى والسفلى والبر والفاجر والمؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا قد وصلت إليه رحمة الله وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المعاصى صغارها وكبارها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الواجبة مستحقيها ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها والعمل بمقتضاها ومن ذلك اتباع النبى ﷺ ظاهرًا وباطنًا فى أصول الدين وفروعه ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ احترازًا عن سائر الأنبياء، فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، والسياق فى أحوال بنى إسرائيل وأن الإيمان بالنبى محمد ﷺ شرط فى دخولهم فى الإيمان وأن المؤمنين به المتبعين هم أهل الرحمة المطلقة التى كتبها الله لهم، ووصفه بالأمى لأنه من العرب الأمة الأمية التى لا تقرأ ولا تكتب وليس عندها قبل القرآن كتاب ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ باسمه وصفته التى من أعظمها وأجلها ما يدعون إليه وينهى عنه، وأنه ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهو: كل ما عرف قبحه فى العقول والفطر، فيأمرهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج وصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان إلى الجار والمملوك وبذل النفع لسائر الخلق والصدق والعفاف والبر والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله وقتل النفوس بغير حق والزنا وشرب ما يسكر العقل والظلم لسائر الخلق والكذب والفجور، ونحو ذلك، فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله ما دعا إليه وأمر به ونهى عنه وأحله وحرمه، فإنه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم والمشارب والمناكح ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ من المطاعم والمشارب والمناكح والأقوال والأفعال ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى: ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر لا إصر فيه ولا أغلال ولا مشقات ولا تكاليف ثقال ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ أى: عظموه وبجلوه ﴿وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ وهو القرآن الذى يستضاء به فى ظلمات

---

(١) قوله (رب لو شئت أهلكتهم) إلى (فصاروا هم الظالمين) هذا التفسير غير منتظم مع الآية فكان الأولى ـ بل الصواب ـ للمفسر أن يقول (لو شئت إهلاكهم أهلكتهم من قبل خروجهم إلى الميقات وأهلكتنى معهم) وبهذا يتمشى التفسير مع الآية، فالمفسر لم يتعرض لكلمة (وإياى).

(٢) قوله: يخطر هكذا فى الأصل المطبوع ولعل الصواب (يخطئ). (٣) قوله (وتم) أى: استمر.

الشك والجهالات ويقتدى به إذا تعارضت المقالات ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة والناجون من شرهما لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح، وأما من لم يؤمن بهذا النبى الأمى ويعزره وينصره ولم يتبع النور الذى أنزل معه فأولئك هم الخاسرون، ولما دعا أهل التوراة من بنى إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم أتى بما يدل على العموم فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أى: عربيكم وعجميكم أهل الكتاب فيكم وغيرهم ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيها بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية وبأحكامه الشرعية الدينية التى من جملتها أن أرسل إليكم رسولاً عظيمًا يدعوكم إلى الله وإلى دار كرامته ويحذركم من كل ما يباعدكم منه ومن دار كرامته ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: من جملة تدابيره: الإحياء والإماتة التى لا يشاركه فيها أحد وقد جعل الله الموت جسرًا ومعبرًا يعبر الإنسان منه إلى دار البقاء التى من آمن بها صدق الرسول محمدًا ﷺ قطعًا ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ إيمانًا فى القلب متضمنًا لأعمال القلوب والجوارح ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أى: آمنوا بهذا الرسول المستقيم فى عقائده وأعماله ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فى مصالحكم الدينية والدنيوية فإنكم إذا لم تتبعوه ضللتم ضلالاً بعيدًا ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ﴾ أى: جماعة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أى: يهدون الناس فى تعليمهم إياهم وفتواهم لهم يعدلون به فى الحكم بينهم فى قضاياهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ وفى هذا فضيلة لأمة موسى عليه الصلاة والسلام وأن الله تعالى جعل منهم هداة يهدون بأمره، وكان الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز مما تقدم فإنه تعالى ذكر فيما تقدم جملة من معايب بنى إسرائيل المنافية للكمال المناقضة للهداية، فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ أى: قسمناهم ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أى: اثنتى عشرة قبيلة متعارفة متوالفة، كل بنى رجل من أولاد يعقوب قبيلة ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ أى: طلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يسقيهم ما يشربون منه وتشرب منه مواشيهم وذلك لأنهم ــ والله أعلم ــ فى محل قليل الماء، فأوحى الله لموسى إجابة لطلبهم ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ يحتمل أنه حجر معين ويحتمل أنه اسم جنس يشمل أى حجر كان، فضربه ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ أى: انفجرت من ذلك الحجر ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ جارية سارحة ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أى: قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتى عشر وجعل لكل منهم عينًا فعلموها واطمأنوا واستراحوا من التعب والمزاحمة وهذا من تمام نعمة الله عليهم ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ فكان يسترهم من حر الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ﴾ وهو الحلوى ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ وهو لحم طير من أحسن أنواع الطيور وألذها فجمع الله لهم بين الظلال والشراب والطعام الطيب من الحلوى واللحوم على وجه الراحة والطمأنينة، وقيل لهم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ حين لم يشكروا الله ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فوتوها كل خير وعرضوها للشر والنقمة، وهذا كان مدة لبثهم فى التيه ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أى: ادخلوها لتكون وطنًا لكم ومسكنًا وهى «إيلياء»[1] ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أى: قرية كانت كثيرة الأشجار غزيرة الثمار رغيدة العيش، فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاءوا ﴿وَقُولُوا﴾ حين تدخلوا الباب: ﴿حِطَّةٌ﴾ أى: احطط عنا خطايانا واعف عنا ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أى: خاضعين لربكم مستكينين لعزته شاكرين لنعمته، فأمرهم بالخضوع وسؤال المغفرة ووعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل فقال: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من خير الدنيا والآخرة فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهى بل خالفوا ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أى: عصوا الله واستهانوا بأمره ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل طلب المغفرة وقولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾ حبة فى شعيرة» وإذا بدلوا القول ــ مع يسره وسهولته ــ فتبديلهم للفعل من باب أولى، ولهذا دخلوا يزحفون على أستاههم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ حين خالفوا أمر الله وعصوه ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى: عذابًا شديدًا، إما الطاعون وإما

---

(١) إيلياء: أى مدينة القدس.

غيره من العقوبات السماوية، وما ظلمهم الله بعقابه وإنما كان ذلك ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاسْأَلْهُمْ﴾ أى: اسأل بنى إسرائيل ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أى: على ساحله فى حال تعديهم وعقاب الله إياهم ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيداً فابتلاهم الله وامتحنهم، فكانت ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أى: كثيرة طافية على وجه البحر ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أى: إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أى: تذهب فى البحر فلا يرون منها شيئًا ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ففسقهم هو الذى أوجب أن يبتليهم الله وأن تكون لهم هذه المحنة وإلا فلو لم يفسقوا لعافاهم الله ولما عرضهم للبلاء والشر فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفراً وينصبون لها الشباك فإذا جاءت يوم السبت ووقعت فى تلك الحفر والشباك لم يأخذوها فى ذلك اليوم فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فيهم ذلك وانقسموا ثلاث فرق: معظمهم اعتدوا وتجرءوا وأعلنوا بذلك وفرقة أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم ونهيهم لهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كأنهم يقولون: لا فائدة فى وعظ من اقتحم محارم الله ولم يصغ للنصيحة بل استمر على اعتدائه وطغيانه فإنه لا بد أن يعاقبهم الله إما بهلاك أو عذاب شديد، فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أى: لنعذر فيهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يتركون ما هم فيه من المعصية فلا نيأس من هدايتهم، فربما نجح فيهم الوعظ وأثر فيهم اللوم، وهذا هو المقصود الأعظم من إنكار المنكر ليكون معذرة وإقامة حجة على المأمور المنهى ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى: تركوا ما ذكروا به واستمروا على غيهم واعتدائهم ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهكذا سنة الله فى عباده أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم الذين اعتدوا فى السبت ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أى: شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وأما الفرقة الأخرى التى قالت للناهين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ فاختلف المفسرون فى نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين لأن الله خص الهلاك بالظالمين وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين فى السبت ولأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين فاكتفوا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأبدوا من غضبهم عليهم ما يقتضى أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أى: قسوا فلم يلينوا ولا اتعظوا ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ قولاً قدريًا ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[1] فانقلبوا بإذن الله قردة وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقى منهم فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أى: أعلم إعلامًا صريحًا ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى: يهينهم ويذلهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه حتى إنه يعجل له العقوبة فى الدنيا ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب إليه وأناب، يغفر له الذنوب ويستر عليه العيوب ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات ويثيبه عليها بأنواع المثوبات، وقد فعل الله بهم ما وعدهم به فلا يزالون فى ذل وإهانة تحت حكم غيرهم لا تقوم لهم راية ولا ينصر لهم علمٌ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أى: فرقناهم ومزقناهم فى الأرض بعدما كانوا مجتمعين ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ القائمون بحقوق الله وحقوق عباده ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أى: دون الصلاح، إما مقتصدون وإما ظالمون لأنفسهم ﴿وَبَلَوْنَاهُم﴾ على عادتنا وسنتنا ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أى: باليسر والعسر ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى ويراجعون ما خلقوا له من الهدى فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ زاد شرهم ﴿وَرِثُوا﴾ بعدهم ﴿الْكِتَابَ﴾ وصار المرجع فيه إليهم وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم وتبذل لهم الأموال ليفتوا ويحكموا بغير الحق وفشت فيهم الرشوة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ﴾ مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنه ليس استغفاراً وطلبًا للمغفرة على الحقيقة فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا وعزموا على أن لا يعودوا ولكنهم ــ إذا أتاهم عرض آخر ورشوة أخرى ــ يأخذونه فاشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً واستبدلوا الذى

---

(١) خاسئين، أى: ذليلين، حقيرين.

هو أدنى بالذى هو خير قال الله تعالى فى الإنكار عليهم وبيان جراءتهم: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعًا لأهوائهم وميلاً مع مطامعهم ﴿وَ﴾ الحال أنهم قد ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ فليس عليهم فيه إشكال بل قد أتوا أمرهم متعمدين وكانوا فى أمرهم مستبصرين وهذا أعظم للذنب وأشد للوم وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم وسفاهة رأيهم بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ما حرم الله عليهم من المآكل التى تصاب وتؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله وغير ذلك من أنواع المحرمات ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفلا تكون لكم عقول توازن بين ما ينبغى إيثاره وما ينبغى الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعى إليه والتقديم له على غيره، فخاصية العقل النظر للعواقب، وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع يفوت نعيمًا باقيًا فأنى له العقل والرأى؟ وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أى: يتمسكون به علمًا وعملاً فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التى علمها أشرف العلوم، ويعملون بما فيها من الأوامر التى هى قرة العيون وسرور القلوب وأفراح الأرواح وصلاح الدنيا والآخرة، ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات إقامة الصلاة ظاهرًا وباطنًا، ولهذا خصها بالذكر لفضلها وشرفها وكونها ميزان الإيمان وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات، ولما كان عملهم كله إصلاحًا قال تعالى: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ فى أقوالهم وأعمالهم ونياتهم مصلحين لأنفسهم ولغيرهم، وهذه الآية وما أشبهها دلت على أن الله بعث رسله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح كان أقرب إلى اتباعهم، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا[1] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ حين امتنعوا من قبول ما فى التوراة فألزمهم الله العمل ونتق فوق رءوسهم الجبل فصار فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ أى: بجد واجتهاد ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ دراسة ومباحثة واتصافًا بالعمل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا فعلتم ذلك.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أى: أخرج من أصلابهم ذريتهم وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرنًا بعد قرن ﴿وَ﴾ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أى: قررهم بإثبات ربوبيته بما أودعه فى فطرهم من الإقرار بأنه ربهم وخالقهم ومليكهم، قالوا ﴿بَلَىٰ﴾ قد أقررنا بذلك فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم فكل أحد فهو مفطور على ذلك ولكن الفطرة قد تغير وتبدل بما يطرأ على العقول من العقائد الفاسدة، ولهذا ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ أى: إنما امتحناكم حتى أقررتم بما تقرر عندكم من الله تعالى ربكم خشية أن تنكروا يوم القيامة فلا تقروا بشىء من ذلك وتزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم ولا عندكم بها علم بل أنتم غافلون عنها لاهون فاليوم قد انقطعت حجتكم وثبتت الحجة البالغة لله عليكم، أو تحتجون أيضًا بحجة أخرى فتقولون: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ فحذونا حذوهم وتبعناهم فى باطلهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فقد أودع الله فى فطركم ما يدلكم على أن ما مع آبائكم باطل وأن الحق ما جاءت به الرسل وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم ويعلو عليه، نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق وما ذاك إلا لإعراضه عن حجج الله وبيناته وآياته الأفقية والنفسية فإعراضه ذلك وإقباله على ما قاله المبطلون ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق، هذا هو الصواب فى تفسير هذه الآيات، وقد قيل: إن

(١) نتقنا، أى: قلعناه ورفعناه من أصله فوق رءوسهم.

هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا بذلك فاحتج عليهم بما أمرهم به فى ذلك الوقت على ظلمهم فى كفرهم وعنادهم فى الدنيا والآخرة، ولكن ليس فى الآية ما يدل على هذا ولا له مناسبة ولا تقضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك فإن هذا العهد والميثاق الذى ذكروا أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره حين كانوا فى عالم الذر لا يذكره أحد ولا يخطر ببال آدمى، فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر ولا له عين ولا أثر؟ ولهذا لما كان هذا أمرًا واضحًا جليًا، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أى: نبينها ونوضحها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى ما أودع الله فى فطرهم وإلى ما عاهدوا الله عليه فيرتدعوا عن القبائح.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ أى: علمناه كتاب الله فصار العالم الكبير والحبر النحرير ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أى: انسلخ من الاتصاف الحقيقى بالعلم بآيات الله فإن العلم بذلك يصير صاحبه متصفًا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره ونبذ الأخلاق التى يأمر بها الكتاب وخلعها كما يخلع اللباس، فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان أى: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين وصار إلى أسفل سافلين فأزه[1] إلى المعاصى أزًا ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ بعد أن كان من الراشدين المرشدين، وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ بأن نوفقه للعمل بها فيرتفع فى الدنيا والآخرة فيتحصن من أعدائه ﴿وَلَكِنَّهُ﴾ فعل ما يقتضى الخذلان إذ ﴿أَخْلَدَ[2] إِلَى الأَرْضِ﴾ أى: إلى الشهوات السفلية والمقاصد الدنيوية ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وترك طاعة مولاه ﴿فَمَثَلُهُ﴾ فى شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه إليها ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[3] أى: لا يزال لاهثًا فى كل حال وهذا لا يزال حريصًا حرصًا قاطعًا قلبه لا يسد فاقته شىء من الدنيا ﴿ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم فلم ينقادوا لها بل كذبوا بها وردوها لهوانهم على الله واتباعهم لأهوائهم بغير هدى من الله ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى ضرب الأمثال وفى العبر والآيات، فإذا تفكروا علموا وإذا علموا عملوا ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أى: ساء وقبح مثل من كذب بآيات الله وظلم نفسه بأنواع المعاصى فإن مثلهم مثل السوء، وهذا الذى آتاه الله آياته يحتمل أن المراد شخص معين قد كان منه ما ذكره الله فقص الله قصة تنبيها للعباد، ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها، وفى هذه الآيات الترغيب فى العمل بالعلم وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه وعصمة من الشيطان والترهيب من عدم العمل به وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه وفيه أن اتباع الهوى وإخلاد العبد إلى الشهوات يكون سببًا للخذلان ثم قال مبينًا أنه المنفرد بالهداية والإضلال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ بأن يوفقه للخيرات ويعصمه من المكروهات ويعلمه ما لم يكن يعلم ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِى﴾ حقًا لأنه آثر هدايته تعالى ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ فيخذله ولا يوفقه للخير ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين.

---

(١) أزه، أى: أغراه بالمعاصى، وهيجه ودفعه إليها.

(٢) أخلد، أى: ركن إلى الأرض ورضى بالدنيا ظانًا أنه يدوم ويخلد فيها.

(٣) يلهث، أى: يدفع لسانه ويخرجه بالنفس الشديد.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾

يقول تعالى مبينًا كثرة الغاوين الضالين المتبعين إبليس اللعين: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أى: أنشأنا وبثثنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ صارت البهائم أحسن حالة منهم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أى لا يصل إليها فقه ولا علم إلا مجرد قيام الحجة ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ما ينفعهم بل فقدوا منفعتها وفائدتها ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ سماعًا يصل معناه إلى قلوبهم ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كَالأَنْعَامِ﴾ أى: البهائم التى فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى فسلبوا خاصية العقل ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان تدرك بها مضرتها من منفعتها فلذلك كانت أحسن حالاً منهم، و﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار لتكون عونًا لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود، فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ[1] الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم للنار وبأعمال أهلها يعملون، وأما من استعمل هذه الجوارح فى عبادة الله وانصبغ قلبه بالإيمان بالله ومحبته ولم يغفل عن الله فهؤلاء أهل الجنة وبأعمال أهل الجنة يعملون.

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) ﴾

هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه بأن له الأسماء الحسنى، أى له كل اسم حسن، وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة وبذلك كانت حسنى، فإنها لو دلت على غير صفة بل كانت علمًا محضًا لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التى اشتق منها مستغرق لجميع معناها، وذلك نحو «العليم» الدال على أنه له علمًا محيطًا عامًا لجميع الأشياء فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، و «الرحيم» الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شىء، و «القدير» الدال على أن له قدرة عامة لا يعجزها شىء، ونحو ذلك، ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾[2] وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فيدعى فى كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعى مثلاً: اللهم اغفر لى وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علَىَّ يا تواب، وارزقنى يا رزاق، والطف بى يا لطيف، ونحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ[3] فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: عقوبة وعذابًا على إلحادهم فى أسمائه، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفى معانيها وتحريفها وأن يجعل لها معنًى ما أراده الله ولا رسوله وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ «أن الله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة» وقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أى: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة فى نفسها مكملة لغيرها يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق فيعلمون الحق ويعملون به ويعلمونه ويدعون إليه وإلى العمل به ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس فى أحكامهم إذا حكموا فى الأموال والدماء والحقوق

(١) ذرأ، أى: خلق.

(٢) قوله ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أى: ادعوا ربكم بأسمائه، على حسب حاجتكم، فإذا أردتم الرزق، قولوا: اللهم باسمك الرزاق ارزقنا، وإذا أردتم النصر قولوا: باسمك الناصر انصرنا، وهكذا فإن لكل اسم من أسماء الله الحسنى خاصية، يدعى به الله ويسأل، والمراد التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى حسب تنوع الحاجات، هذا هو الظاهر والأوضح فى تفسير هذه الآية.

(٣) يلحدون، أى: يميلون وينحرفون عن الحق.

والمقالات وغير ذلك، وهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله وعلو منزلته فسبحان من يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ بأن الله يدر لهم الأرزاق ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون فيزدادوا كفراً وطغياناً وشراً إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم ويتضاعف عذابهم فيضرون أنفسهم من حيث لا يعلمون، ولهذا قال: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: قوى بليغ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم﴾ ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: أولم يُعملوا أفكارهم وينظروا: هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه وعدله وصفاته وينظروا في ما دعا إليه فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها ولا من الأخلاق إلا أتمها ولا من العقل والرأى إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير ولا ينهى إلا عن كل شر أفبهذا يا أولي الألباب جنة؟!! أم هو الإمام العظيم والناصح المبين والماجد الكريم والرءوف الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب ويحصل لهم الثواب ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فإنهم إذا نظروا إليها وجدوها أدلة على توحيد ربها وعلى ما له من صفات الكمال ﴿وَ﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ فإن جميع أجزاء العالم تدل أعظم دلالة على الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته وإحسانه ونفوذ مشيئته وغير ذلك من صفاته العظيمة الدالة على تفرده بالخلق والتدبير الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود المسبَّح الموحَّد المحبوب، وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لينظروا في خصوص حالهم ولينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم ويفاجأهم الموت وهم في غفلة معرضون فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل فأى حديث يؤمنون به؟!! أبكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟ ولكن الضال لا حيلة فيه ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتحيرون ويترددون فلا يخرجون من طغيانهم ولا يهتدون إلى حق.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: المكذبون لك المتعنتون ﴿عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: متى وقتها الذي تجيء به ومتى تحل بالخلق؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: إنه تعالى المختص بعلمها ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: خفي علمها على أهل السموات والأرض واشتد أمرها أيضاً عليهم فهم من الساعة مشفقون ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ

﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة من حيث لا يشعرون لم يستعدوا لها ولم يتهيئوا لها **﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ[1] عَنْهَا﴾** أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة كأنك مستحف[2] عن السؤال عنها ولم يعلموا أنك ـ لكمال علمك بربك وما ينفع السؤال عنه ـ غير مبال بالسؤال الخالى من المصلحة المتعذر علمه فإنه لا يعلمها نبى مرسل ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التى أخفاها عن الخلق لكمال حكمته وسعة علمه **﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** فلذلك حرصوا على ما لا ينبغى الحرص عليه وخصوصًا مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم ويدعون ما يجب عليهم من العلم ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه ولا هم مطالبون بعلمه **﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾** فإنى فقير مدبر لا يأتينى خير إلا من الله ولا يدفع عنى الشر إلا هو وليس لى من العلم إلا ما علمنى الله تعالى **﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾** أي: لفعلت الأسباب التى أعلم أنها تنتج لى المصالح والمنافع ولحذرت من كل ما يفضى إلى سوء ومكروه لعلمى بالأشياء قبل كونها وعلمى بما تفضى إليه ولكنى ـ لعدم علمي ـ قد ينالنى ما ينالنى من السوء وقد يفوتنى ما يفوتنى من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أول دليل على أنى لا علم لى بالغيب **﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾** أنذر بالعقوبات الدينية والدنيوية والأخروية وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك وأحذر منها: **﴿وَبَشِيرٌ﴾** بالثواب العاجل ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة وإنما ينتفع بذلك ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريمات مبينة جهل من يقصد النبى ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضر فإنه ليس بيده شيء من الأمر ولا ينفع من لم ينفعه الله ولا يدفع الضر عمن لم يدفعه الله عنه ولا له من العلم إلا ما علمه الله، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة وعمل بذلك، فهذا نفعه ﷺ الذى فاق نفع الآباء والأمهات والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير وحذرهم عن كل شر، وفيه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)﴾

أي: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم﴾** أيها الرجال والنساء المنتشرون فى الأرض على كثرتكم وتفرقكم **﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾** وهو: آدم أبو البشر ﷺ **﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾** أي: خلق من آدم زوجته حواء **﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾** لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضى سكون أحدهما إلى الآخر فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمام الشهوة **﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾** أي: تجللها مجامعًا لها قدَّر البارى أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل وحينئذ **﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾** وذلك فى ابتداء الحمل لا تحس به الأنثى ولا يثقلها **﴿فَلَمَّا﴾** استمرت و **﴿أَثْقَلَت﴾** به حين كبر فى بطنها فحينئذ صار فى قلوبهما الشفقة على الولد وعلى خروجه حيًا صحيحًا سالمًا لا آفة فيه، لذلك **﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا﴾** ولدًا **﴿صَالِحًا﴾** أي: صالح الخلقة تامها لا نقص فيه **﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾** على وفق ما طلبا وتمت عليهما النعمة فيه **﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾** أي: جعلا لله شركاء فى ذلك الولد الذى انفرد الله بإيجاده والنعمة به وأقرّ به أعين والديه فعبَّداه لغير الله، إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ «عبد الحارث» و «عبد العزى» و «عبد الكعبة» ونحو ذلك، أو يشركا فى الله فى العبادة بعدما منَّ الله عليهما بما منَّ به من النعم التى لا يحصيها أحد من العباد، وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام فى آدم وحواء ثم انتقل الكلام فى الجنس، ولا شك أن هذا موجود فى الذرية كثيرًا، فلذلك قررهم

---

(١) حفى، أى: عالم بها، ومستقص فى السؤال عنها.

(٢) قوله (مستحف) المراد: يسألونك هذا السؤال كأنك حريص على العلم بها، ومستقص بالسؤال عنها، كما يستفاد من المختار من الصحاح.

الله على بطلان الشرك وأنهم فى ذلك ظالمون أشد الظلم سواء كان الشرك فى الأقوال أم فى الأفعال فإن الله هو الخالق لهم من نفس واحدة الذى خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجًا ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلى بعض ويألفه ويلتذ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة والأولاد والنسل ثم أوجد الذرية فى بطون الأمهات وقتًا موقوتًا تتشوف إليه نفوسهم ويدعون الله أن يخرجه سويًا صحيحًا فأتم الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم، أفلا يستحق أن يعبدوه ولا يشركوا فى عبادته أحدًا ويخلصوا له الدين ولكن الأمر جاء على العكس فأشركوا بالله ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ أى: لعابديها ﴿نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فإذا كانت لا تخلق شيئًا ولا مثقال ذرة بل هى مخلوقة ولا تستطيع أن تدفع المكروه عمن يعبدها ولا عن أنفسها فكيف تتخذ مع الله آلهة؟!! إن هذا إلا أظلم الظلم وأسفه السفه ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أى: وإن تدعوا أيها المشركون هذه الأصنام التى عبدتموها من دون الله ﴿إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ فصار الإنسان أحسن حالة منها لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تَهدى ولا تُهدَى، وكل هذا إذا تصوره اللبيب العاقل تصورًا مجردًا جزم ببطلان إلهيتها وسفاهة من عبدها، وهذا من نوع التحدى للمشركين العابدين للأوثان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٩٤ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝١٩٥ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ۝١٩٦﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أى: لا فرق بينكم وبينهم فكلكم عبيد لله مملوكون، فإن كنتم كما تزعمون صادقين فى أنها تستحق من العبادة شيئًا ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فإن استجابوا لكم وحصلوا مطلوبكم وإلا تبين أنكم كاذبون فى هذه الدعوى مفترون على الله أعظم الفرية وهذا لا يحتاج إلى تبيين فيه فإنكم إذا نظرتم إليها وجدتم صورتها دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء فليس لها أرجل تمشى بها ولا أيد تبطش بها ولا أعين تبصر بها ولا آذان تسمع بها فهى عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة فى الإنسان فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها فهى عباد أمثالكم بل أنتم أكمل منها وأقوى على كثير من الأشياء فلأى شيء عبدتموها ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أى: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم على إيقاع السوء والمكروه بى من غير إمهال ولا إنظار فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بى ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ الذى يتولانى فيجلب لى المنافع ويدفع عنى المضار ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الذى فيه الهدى والشفاء والنور وهو من توليه وتربيته لعباده الخاصة الدينية ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ الذين صلحت نياتهم وأعمالهم وأقوالهم كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. فالمؤمنون الصالحون - لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر - تولاهم الله ولطف بهم وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة فى دينهم ودنياهم ودفع عنهم - بإيمانهم - كل مكروه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٧ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾

وهذا أيضًا فى بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التى يعبدونها من دون الله شيئًا من العبادة لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار فى نصر أنفسها ولا فى نصر عابديها وليس لها قوة العقل والاستجابة، فلو دعوتها إلى الهدى لم تهتد وهى صور لا حياة فيها فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم صوروها على صورة الحيوانات من الآدميين أو غيرهم وجعلوا لها أبصارًا وأعضاء فإذا رأيتها قلت: هذه حية، فإذا تأملتها عرفت أنها جمادات لا حراك بها ولا حياة، فبأى رأى اتخذها المشركون آلهة مع الله؟ ولأى مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟ فإذا عرف هذا عرف أن المشركين وآلهتهم التى عبدوها لو اجتمعوا وأرادوا أن

يكيدوا من تولاه فاطر السموات والأرض متولى أحوال عباده الصالحين لم يقدروا على كيده بمثقال ذرة من الشر لكمال عجزهم وعجزها وكمال قوة الله واقتداره وقوة من احتمى بجلاله وتوكل عليه، وقيل: إن معنى قوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول الله ﷺ فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس وما ينبغى فى معاملتهم، فالذى ينبغى أن يعامل به الناس أن يأخذ العفو أى: ما سمحت به أنفسهم وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم بل يشكر من كل أحد ما قابله به من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم ولا يتكبر على الصغير لصغره ولا ناقص العقل لنقصه ولا الفقير لفقره بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أى: بكل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد فاجعل ما يأتى إلى الناس منك إما تعليم علم أو حثًا على خير من صلة رحم أو برٍّ والدين أو إصلاح بين الناس أو نصيحة نافعة أو رأى مصيب أو معاونة على بر وتقوى أو زجر عن قبيح أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه ومن حرمك لا تحرمه ومن قطعك فَصِلْهُ ومن ظلمك فاعدل فيه، وأما ما ينبغى أن يعامل به العبد شياطين الجن فقال تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

أى: أى وقت وفى أى حال ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ أى: تحس منه بوسوسة وتثبيط عن الخير أو حث على الشر وإيعاز به. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: التجئ واعتصم بالله واحتم بحماه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما تقول ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيتك وضعفك وقوة التجائك له فسيحميك من فتنته ويقيك من وسوسته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى آخر السورة، ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان الذى لا يزال مرابطًا ينتظر غرته وغفلته ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين وأن المتقى - إذا أحس بذنب ومسه طائف من الشيطان فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أى باب أُتِىَ ومن أى مدخل دخل الشيطان عليه وتذكر ما أوجب الله عليه وما عليه من لوازم الإيمان فأبصر واستغفر الله تعالى واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئًا حسيرًا وقد أفسد عليه كل ما أدركه منه، وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم فإنهم إذا وقعوا فى الذنوب لا يزالون يمدونهم فى الغى ذنبًا بعد ذنب ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسى القياد لها وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

أى: لا يزال هؤلاء المكذبون لك فى تعنت وعناد ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد فإذا جئتهم بشىء من الآيات الدالة على صدقك لم ينقادوا ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ من آيات الاقتراح التى يعينونها ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أى: هلا اخترت الآية فصارت الآية الفلانية والمعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات المدبر لجميع المخلوقات ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شىء أو لولا اخترعتها من نفسك ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ فأنا عبد متبع مدبَّر، والله تعالى هو الذى ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده

وطلبته حكمته البالغة فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات وحجة لا تبطل فى جميع الآنات، فإن ﴿هَـٰذَا﴾ القرآن العظيم والذكر الحكيم ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يستبصر به فى جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية وهو الدليل والمدلول، فمن تفكر وتدبره علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه ولكن أكثر الناس لا يؤمنون وإلا فمن آمن فهو نور له ﴿وَهُدًى﴾ له من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ له من الشقاء، فالمؤمن مهتد بالقرآن متبع له سعيد فى دنياه وأخراه، وأما من لم يؤمن فإنه ضال شقى فى الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

هذا الأمر عام فى كل من سمع كتاب الله يتلى فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات أن الإنصات فى الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له فهو أن يلقى سمعه ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله فإنه ينال خيراً كثيراً وعلمًا غزيراً وإيمانًا مستمراً متجدداً وهدى متزايداً وبصيرة فى دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلى عليه الكتاب فلم يستمع له ولم ينصت أنه محروم الحظ من الرحمة قد فاته خير كثير، ومن أوكد ما يؤمر مستمع القرآن أنه يستمع له وينصت فى الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

الذكر لله تعالى يكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بهما وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلا وغيره تبعا بذكر ربه فى نفسه أى مخلصًا خاليًا ﴿تَضَرُّعًا﴾[1] بلسانك مكرراً لأنواع الذكر ﴿وَخِيفَةً﴾ فى قلبك بأن تكون خائفًا من الله وَجِلَ القلب منه خوفًا أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد فى تكميل العمل وإصلاحه والنصح به ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أى: كن متوسطًا لا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَالآصَالِ﴾ آخره، وهذان الوقتان فيهما مزية وفضيلة على غيرهما ﴿وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة وأعرضوا عمن كل السعادة والفوز فى ذكره وعبوديته وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة فى الاشتغال به، وهذه من الآداب التى ينبغى للعبد أن يراعيها حق رعايتها وهى: الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار خصوصًا طَرَفى النهار مخلصًا خاشعًا متضرعًا متذللاً ساكنًا متواطئًا عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار وإقبال على الدعاء والذكر وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه، ثم ذكر تعالى أن له عباداً مستديمين لعبادته ملازمين لخدمته، وهم الملائكة، لتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسكم وأن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقربين وحملة العرش والكروبيين ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربهم ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ الليل والنهار لا يفترون ﴿وَلَهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَسْجُدُونَ﴾ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام وليداوموا على عبادة الملك العلام.

تم تفسير سورة الأعراف ولله الحمد والشكر والثناء

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) تضرعا، أى: مظهراً شدة الاضطرار والذلة.

تفسير سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾

الأنفال هى: الغنائم التى ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات فى هذه السورة قد نزلت فى قصة «بدر» أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع فسألوا رسول الله ﷺ عنها فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم؟ ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يضعانها حيث شاءا، فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله، بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما وتسلموا الأمر لهما، وذلك داخل فى قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أى: أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر بالتوادد والتحاب والتواصل فبذلك تجتمع كلمتكم ويزول ما يحصل ـ بسبب التقاطع ـ من التخاصم والتشاجر والتنازع، ويدخل فى إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم والعفو عن المسيئين منهم فإنه ـ بذلك ـ يزول كثير مما يكون فى القلوب من البغضاء والتدابر والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن، ومن نقصت طاعته لله ورسوله فذلك لنقص إيمانه، ولما كان الإيمان قسمين إيمانًا وكاملاً يترتب عليه المدح والثناء والفوز التام وإيمانًا دون ذلك، ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: خافت ورهبت فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم لأن التدبر من أعمال القلوب ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه ويتذكرون ما كانوا نسوه أو يحدث فى قلوبهم رغبة فى الخير واشتياقًا إلى كرامة ربهم أو وجلاً من العقوبات وازدجارًا عن المعاصى وكل هذا مما يزداد به الإيمان ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: يعتمدون فى قلوبهم على ربهم فى جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك والتوكل هو الحامل للأعمال كلها فلا توجد ولا تكمل إلا به ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ من فرائض ونوافل بأعمالها الظاهرة والباطنة كحضور القلب فيها الذى هو روح الصلاة ولبها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات والنفقة على الزوجات والأقارب وما ملكت أيمانهم والمستحبة كالصدقة فى جميع طرق الخير ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل بين أداء حقوق الله وحقوق عباده وقدم تعالى أعمال القلوب لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، وفيها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها، وأنه ينبغى للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميه، وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه، ثم ذكر ثواب المؤمنين حقًا فقال: ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى: عالية بحسب علو أعمالهم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعد الله لهم فى دار كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم فى الإيمان ـ وإن دخل الجنة ـ فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة.

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾

قدم تعالى - أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة - الصفات التى على المؤمنين أن يقوموا بها لأن من قام بها استقامت أحواله وصلحت أعماله التى من أكبرها الجهاد فى سبيله، فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقى وجزاءهم هو الحق الذى وعدهم الله به كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين فى «بدر» بالحق الذى يحبه الله تعالى وقد قدره وقضاه، وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم فى ذلك الخروج أن يكون بينهم وبين عدوهم قتال، فحين تبين لهم أن ذلك واقع جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبى ﷺ فى ذلك ويكرهون لقاء عدوهم ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ والحال أن هذا لا ينبغى منهم خصوصًا بعدما تبين لهم أن خروجهم بالحق ومما أمر الله به ورضيه فهذه الحال ليس للجدال فيها محل لأن الجدال محله وفائدته عند اشتباه الحق والتباس الأمر فأما إذا وضح وبان فليس إلا الانقياد والإذعان هذا وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شىء ولا كرهوا لقاء عدوهم، وكذلك الذين عاتبهم الله انقادوا للجهاد أشد الانقياد وثبتهم الله وقيض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتى ذكر بعضها، وكان أصل خروجهم ليتعرضوا[1] لعير خرجت مع أبى سفيان بن حرب لقريش إلى الشام فى قافلة كبيرة، فلما سمعوا برجوعها من الشام ندب النبى ﷺ الناس. فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً معهم سبعون بعيرًا يعتقبون عليها ويحملون عليها متاعهم، فسمعت بخبرهم قريش فخرجوا لمنع عيرهم فى عدد كثير وعدد وافرة من السلاح والخيل والرجال يبلغ عددهم قريبًا من الألف فوعد الله المؤمنين إحدى الطائفتين، إما أن يظفروا بالعير أو بالنفير فأحبوا العير لقلة ذات يد المسلمين ولأنها غير ذات الشوكة، ولكن الله تعالى أحب لهم وأراد أمرًا أعلى مما أحبوا، أراد أن يظفروا بالنفير الذى خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ فينصر أهله ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: يستأصل أهل الباطل ويُرى عباده من نصره للحق أمرًا لم يكن يخطر ببالهم ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه ﴿ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ فلا يبالى الله بهم.

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤ ﴾

أى: اذكروا نعمة الله عليكم لما قارب التقاؤكم بعدوكم استغثتم بربكم وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ وأغاثكم بعدة أمور: منها: أن الله أمدكم ﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ أى: يردف بعضهم

---

(١) فى الأصل المطبوع «يتعرضون» والمقام يقتضى التعليل فلذلك أصلحنا الكلمة بـ «ليتعرضوا».

بعضًا ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: إنزال الملائكة ﴿إِلاَّ بُشْرَى﴾ أي: لتستبشر بذلك نفوسكم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ وإلا فالنصر بيد الله ليس بكثرة عَدد ولا عُدد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب بل هو القهار الذى يخذل من بلغوا من الكثرة ومن العدد والآلات ما بلغوا ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث قدر الأمور بأسبابها ووضع الأشياء مواضعها ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاسًا ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ أى: فيذهب ما فى قلوبكم من الخوف والوجل ويكون ﴿أَمَنَةً﴾ لكم وعلامة على النصر والطمأنينة ومن ذلك أنه أنزل عليكم من السماء مطرًا ليطهركم به من الحدث والخبث وليطهركم من وساوس الشيطان ورجزه ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أى: يثبتها فإن ثبات القلب أصل ثبات البدن ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ فإن الأرض كانت سهلة دهسة[1] فلما نزل عليها المطر تلبدت وثبتت به الأقدام، ومن ذلك أن الله أوحى إلى الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر والتأييد ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: ألقوا فى قلوبهم وألهموهم الجراءة على عدوهم ورغبوهم فى الجهاد وفضله ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الذى هو أعظم جند لكم عليهم، فإن الله إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب فى قلوب الكافرين لم يقدر الكافرون على الثبات لهم ومنحهم الله أكتافهم ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ أى: على الرقاب ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أى مفصل، وهذا خطاب إما للملائكة الذين أوحى إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا فيكون فى ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم الله ويعلمهم كيف يقتلون المشركين وأنهم لا يرحمونهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ العذاب المذكور ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أيها المشاقون لله ورسوله عذابًا معجلاً ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ وفى هذه القصة من آيات الله العظيمة ما يدل على أن ما جاء به محمد ﷺ رسول الله حق، منها: أن الله وعدهم وعدًا فأنجزهموه، ومنها: ما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ الآية، ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب وفيها الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين وتقييض الأسباب التى بها ثبت إيمانهم وثبتت أقدامهم وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية، ومنها: أن من لطف الله بعبده أن يسهل عليه طاعته وييسرها بأسباب داخلية وخارجية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية والقوة فى أمره والسعى فى جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أى: صف القتال وتزاحف الرجال واقتراب بعضهم من بعض ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ بل اثبتوا لقتالهم واصبروا على جلادهم فإن فى ذلك نصرة لدين الله وقوة لقلوب المؤمنين وإرهابًا للكافرين ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ﴾ أى: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أى: مقره ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وهذا يدل على أن الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد، ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال وهو الذى ينحرف من جهة إلى أخرى ليكون أمكن له فى القتال وأنكى لعدوه فإنه لا بأس بذلك لأنه لم يول دبره فارًا وإنما ولى دبره ليستعلى على عدوه أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته أو ليخدعه بذلك أو غير ذلك من مقاصد المحاربين وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار فإن ذلك جائز. فإن كانت الفئة فى العسكر فالأمر فى هذا واضح وإن كانت الفئة فى غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدى الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام

---

(١) دهسة، أى ما سهل ولان من الأرض ولم يبلغ أن يكون رملاً، اهـ، نهاية لابن الأثير.

أحمد عاقبة وأبقى عليهم أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار فى ثباتهم لقتالهم فيبعد - فى هذه الحال - أن تكون من الأحوال المرخص فيها لأنه - على هذا - لا يتصور الفرار المنهى عنه، وهذه الآية مطلقة وسيأتى فى آخر السورة تقييدها بالعدد.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول تعالى لما انهزم المشركون يوم بدر وقتلهم المسلمون: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بحولكم وقوتكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ وذلك أن النبى ﷺ وقت القتال دخل العريش وجعل يدعو الله ويناشده فى نصرته ثم خرج منه فأخذ حفنة من تراب فرماها فى وجوه المشركين فأوصلها الله إلى وجوههم فما بقى منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينيه منها، فحينئذ انكسر حدهم وفتر زندهم وبان فيهم الفشل والضعف فانهزموا، يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك - حين رميت التراب - أوصلته إلى أعينهم وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا﴾ أى: إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين من دون مباشرة قتال ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات ويعطيهم أجرًا حسنًا وثوابًا جزيلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع تعالى ما أسر به العبد وما أعلن ويعلم ما فى قلبه من النيات الصالحة وضدها فيقدر على العباد أقدارًا موافقة لعلمه وحكمته ومصلحة عباده، ويجزى كلا بحسب نيته وعمله ﴿ذَلِكُمْ﴾ النصر من الله لكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: مضعف كل مكر وكيد يكيدون به الإسلام وأهله وجاعل مكرهم محيقًا[1] بهم ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أيها المشركون أى: تطلبون من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ حين أوقع الله بكم من عقابه ما كان نكالاً[2] لكم وعبرة للمتقين ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ عن الاستفتاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنه ربما أمهلكم ولم يعجل لكم النقمة ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ أى: أعوانكم وأنصاركم الذين تحاربون وتقاتلون معتمدين عليهم ﴿شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن كان الله معه فهو المنصور وإن كان ضعيفًا قليلاً عدده، وهذه المعية التى أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان فإذا أديل العدو على المؤمنين فى بعض الأوقات فليس ذلك إلا تفريطًا من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه وإلا فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه لما انهزمت لهم راية انهزامًا مستقرًا ولا أديل عليهم عدوهم أبدًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذى يدركون معيته فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما ﴿وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أى: عن هذا الأمر الذى هو طاعة الله وطاعة رسوله ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ما يتلى عليكم من كتاب الله وأوامره ووصاياه ونصائحه فتوليكم فى هذه الحال من أقبح الأحوال ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ أى لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التى لا

---

(١) محيقًا، أى: محيطًا بهم، وفعله (أحاق) مثل (حاق) أى: أحاط به، كما يستفاد من القاموس.

(٢) نكالاً، أى: عقوبة لكم، تكون عبرة لغيركم، تمنعهم عن مثل ما استحققتم به العقاب من سوء الأعمال.

حقيقة لها فإنها حالة لا يرضاها الله ولا رسوله، فليس الإيمان بالتمنى والتحلى ولكنه ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال.

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عندَ اللَّهِ﴾ من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم: ﴿الصُّمُّ﴾ عن استماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن النطق به ﴿الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعهم ويؤثرونه على ما يضرهم، فهؤلاء شر عند الله من شرار الدواب، لأن الله أعطاهم أسماعًا وأبصارًا وأفئدة ليستعملوها فى طاعة الله فاستعملوها فى معاصيه وعدموا بذلك الخير الكثير، فإنهم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البرية فأبوا هذا الطريق واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية، والسمع الذى نفاه الله عنهم سمع المعنى المؤثر فى القلب، وأما سمع الحجة فقد قامت حجة الله تعالى عليهم بما سمعوه من آياته، وإنما لم يسمعهم السماع النافع لأنه لم يعلم فيهم خيرًا يصلحون به لسماع آياته ﴿ولَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ ولَوْ أَسْمَعَهُم﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن الطاعة ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه، وهذا دليل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير إلا عمن لا خير فيه والذى لا يزكو لديه ولا يثمر عنده، وله الحمد تعالى والحكمة فى هذا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو: الاستجابة لله وللرسول أى: الانقياد لما أمر به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه والاجتناب لما نهيا عنه والانكفاف عنه والنهى عنه، وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه وبيان لفائدته وحكمته فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك وتختلف قلوبكم فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء، فليكثر العبد من قول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك، يا مصرف القلوب اصرف قلبى إلى طاعتك» ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أى: تجمعون ليوم لا ريب فيه فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بعصيانه ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره وتتقى هذه الفتنة بالنهى عن المنكر وقمع أهل الشر والفساد وأن لا يمكنوا من المعاصى والظلم مهما أمكن ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن تعرض لمساخطه وجانب رضاه.

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى - ممتنًا على عباده فى نصرهم بعد الذلة وتكثيرهم بعد القلة وإغنائهم بعد العيلة[1] ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى الأَرْضِ﴾ أى: مقهورون تحت حكم غيركم ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ أى: يأخذوكم ﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فجعل لكم بلدًا تأوون إليه وانتصر من أعدائكم على أيديكم وغنمتم

(١) العيلة، أى: الفقر.

من أموالهم ما كنتم به أغنياء ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على منته العظيمة وإحسانه التام بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه، فإن الأمانة قد عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولاً، فمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الوبيل وصار خائنًا لله وللرسول ولأمانته، منقصًا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات وأقبح الشيات، وهى الخيانة، مفوتًا لها أكمل الصفات وأتمها وهى: الأمانة، ولما كان العبد ممتحنًا بأمواله وأولاده فربما حملته محبته ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلى الله بهما عباده وأنهما عارية ستؤدى لمن أعطاها وترد لمن استودعها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فإن كان لكم عقل ورأى فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة، فالعاقل يوازن بين الأشياء ويؤثر أولاها بالإيثار وأحقها بالتقديم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة وعلامة الفلاح وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئًا كثيرًا، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها: **الأول:** الفرقان وهو: العلم والهدى الذى يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال والحق والباطل والحلال والحرام وأهل السعادة من أهل الشقاوة، **الثانى والثالث:** تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، وكل واحد منها داخل فى الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر، **الرابع:** الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

أى ﴿وَ﴾ اذكر أيها الرسول ما منَّ الله به عليك ﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين تشاور المشركون فى دار الندوة فيما يصنعون بالنبى ﷺ إما أن يثبتوه عندهم بالحبس ويوثقوه، وإما أن يقتلوه فيستريحوا - بزعمهم - من دعوته، وإما أن يخرجوه ويجلوه من ديارهم، فكلٌّ أبدى من هذه الآراء رأيًا رآه، فاتفق رأيهم على رأى رآه شريرهم أبو جهل، لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى ويعطوه سيفًا صارمًا ويقتله الجميع قتلة رجل واحد ليتفرق دمه فى القبائل، فيرضى بنو هاشم ثَمَّ بديته فلا يقدرون على مقاومة جميع قريش، فترصدوا للنبى ﷺ فى الليل ليوقعوا به إذا قام من فراشه، فجاء الوحى من السماء وخرج عليهم فذر على رءوسهم التراب وخرج وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطأوه جاءهم آت وقال: خيَّبكم الله قد خرج محمد وذَرَّ على رءوسكم التراب، فنفض كلٌ منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم وأذن له فى الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة وقهر أهلها، فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه بعد أن خرج مستخفيًا منهم خائفًا[1] على نفسه، فسبحان اللطيف بعباده الذى لا يغالبه مغالب.

---

(١) قوله (خائفًا على نفسه) كلام غير صحيح، كيف أن الله طمأنه بحفظه وقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فشجاعته ﷺ بلغت أقصى الغايات ولم يستخف بخروجه من منزله، بل شق طريقه - امتثالاً لأمر الله - فى وسط صفوفهم، أفيكون هذا الخروج استخفاء؟! بل هو غاية فى =

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ـ في بيان عناد المكذبين للرسول ﷺ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به الرسول ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله ويدعوا من استطاعوا من دون الله فلم يقدروا على ذلك وتبين عجزهم، فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى كذَّبها الواقع، وقد علم أنه ﷺ أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين فأتى بهذا الكتاب الجليل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا﴾ الذى يدعو إليه محمد ﴿هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم والجهل بما ينبغى من الخطاب، فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه قالوا لمن ناظرهم وادعى أن الحق معه إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له لكان أولى لهم وأستر لظلمهم: فمذ قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية، علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء الجهلة الظالمون، فلو عاجلهم الله بالعقاب لما أبقى منهم باقية ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ فوجوده ﷺ أمنة لهم من العذاب وكانوا مع قولهم هذه المقالة التى يظهرونها على رءوس الأشهاد يدرون بقبحها فكانوا يخافون من وقوعها فيهم فيستغفرون الله تعالى فلهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم بعدما انعقدت أسبابه، ثم قال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أى: أى شىء يمنعهم من عذاب الله وقد فعلوا ما يوجب ذلك وهو صد الناس عن المسجد الحرام خصوصًا صدهم النبى ﷺ وأصحابه الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أى المشركون ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الله، أى: أولياء الله، ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام أى: وما كانوا أولى به من غيرهم ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة وأخلصوا له الدين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك ادعوا لأنفسهم أمرًا غيرهم أولى به.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يعنى: أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه وتخلص له فيه العبادة، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه فما كانت صلاتهم فيه التى هى أكبر أنواع العبادات ﴿إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ أى: صفيرًا وتصفيقًا فعل الجهلة الأغبياء الذين ليس فى قلوبهم تعظيم لربهم ولا معرفة بحقوقه ولا

= الاستعلان، ولم يكن النبى فى وقت من الأوقات خائفًا من المخلوقين، وما فعل ما فعل من الخروج من منزله ومن مكة بلده ومسقط رأسه إلا بأمر من ربه، وما كان استخفاؤه فى الغار إلا تشريعًا لأمته كيف يتخذون الحيطة لأنفسهم عند الأزمات، فعجيب جدًا أن يقال: إن الرسول كان يخشى على نفسه من الناس، كيف يكون ذلك مع فضله وتكريمه على الخلق أجمع؟ فهل يكون أقل شجاعة من ابن رواحة الذى قال كلمته المدوية فى غزوة مؤتة مشجعًا إخوانه الجنود حينما رأوا كثرة العدو وتضاعفه: «والله إن الذى تكرهون هو ما خرجتم لأجله (أى الشهادة) نحن لا نحارب بكثرة الرجال، ولكن نحارب بقوة الإيمان الذى أودعه الله فى قلوبنا» فهذا صحابى بلغ به قوة الإيمان هذا المبلغ ولقى مصرعه بين تلك الجموع الكثيفة، أفيكون رسول الله أقل منه شجاعة ويقال عنه خرج مستخفيًا منهم خائفًا على نفسه؟ اللهم عرِّفنا بك ثم بقدر نبيك.

احترام لأفضل البقاع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه فكيف ببقية العبادات؟ فبأى شىء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة والأفعال السديدة ،لا جرم أورثهم الله بيته الحرام ومكنهم منه وقال بعدما مكن لهم منه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ وقال هنا: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) ﴾

يقول تعالى مبينًا لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم ومبارزتهم لله ولرسوله وسعيهم فى إطفاء نوره وإخماد كلمته وأن وبال مكرهم سيعود عليهم ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى: ليبطلوا الحق وينصروا الباطل ويبطل توحيد الرحمن ويقوم دين عبادة الأوثان ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ﴾ أى: فسيصدرون هذه النفقة وتخف عليهم لتمسكهم بالباطل وشدة بغضهم للحق ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ أى: ندامة وخزيًا وذلاً ﴿ ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ فتذهب أموالهم وما أملوا ويعذبون فى الآخرة أشد العذاب، ولهذا قال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ أى: يجمعون إليها ليذوقوا عذابها وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء، والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب ويجعل كل واحد على حدة وفى دار تخصه، فيجعل الخبيث بعضه على بعض من الأعمال والأموال والأشخاص ﴿ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) ﴾

هذا من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر العباد ولا استمرارهم فى العناد من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغى والردى فقال: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا ﴾ عن كفرهم وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ منهم من الجرائم ﴿ وَإِن يَعُودُوا ﴾ إلى كفرهم وعنادهم ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بإهلاك الأمم المكذبة فلينتظروا ما حل بالمعاندين فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون، فهذا خطابه للمكذبين، وأما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين فقال: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أى: شرك وصد عن سبيل الله ويذعنوا لأحكام الإسلام ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين أن يدفع شرهم عن الدين وأن يذب عن دين الله الذى خلق الخلق له حتى يكون هو العالى على سائر الأديان ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا ﴾ عما هم عليه من الظلم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا تخفى عليه منهم خافية ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن الطاعة وأوضعوا فى الإضاعة ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ ﴾ الذى يتولى عباده المؤمنين ويوصل إليهم مصالحهم وييسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية ﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ الذى ينصرهم فيدفع عنهم كيد الفجار وتكالب الأشرار ومن كان الله مولاه وناصره فلا خوف عليه ومن كان الله عليه فلا عز له ولا قائمة تقوم له.

﴿ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ أى: أخذتم من مال الكفار قهرًا بحق قليلاً كان أو كثيرًا ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ أى: وباقيه لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم وأخرج منها خمسها فدل على أن الباقى لهم يقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ: للراجل سهم وللفارس سهمان سهم لفرسه وسهم له، وأما هذا الخمس فيقسم خمسة أسهم: سهم لله ولرسوله ويصرف فى مصالح المسلمين العامة من غير تعيين لمصلحة لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه فعلم أنه لعباد الله، فإذا لم يعين الله له مصرفًا دل على أن مصرفه للمصالح العامة والخمس الثانى: لذى القربى وهم قرابة النبى ﷺ من بنى هاشم وبنى المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه مجرد القرابة فيستوى فيه غنيهم وفقيرهم ذكرهم وأنثاهم، والخمس الثالث: لليتامى وهم: الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم وقد فقد من يقوم بمصالحهم، والخمس الرابع للمساكين أى: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار ذكور وإناث، والخمس الخامس لابن السبيل وهو: الغريب المنقطع به فى غير بلده، وبعض المفسرين يقول: إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك تبع للمصلحة وهذا هو الأولى، وجعل الله أداء الخمس على وجهه شرطًا للإيمان فقال: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ وهو يوم «بدر» الذى فرق الله به بين الحق والباطل وأظهر الحق وأبطل الباطل ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع الكافرين أى: إن كان إيمانكم بالله وبالحق الذى أنزله الله على رسوله يوم الفرقان الذى حصل فيه من الآيات والبراهين ما دل على أن ما جاء به هو الحق ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يغالبه أحد إلا غلبه ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أى: بعدوة الوادى القريبة من المدينة ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أى: جانبه البعيد من المدينة فقد جمعكم واد واحد ﴿وَالرَّكْبُ﴾ الذى خرجتم لطلبه وأراد الله غيره ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ مما يلى ساحل البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أى: لا بد من تقدم أو تأخر أو اختيار منزل أو غير ذلك مما يعرض لكم أو لهم يصدفكم عن ميعادهم ﴿وَلَٰكِن﴾ الله جمعكم على هذه الحال ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أى: مقدرًا فى الأزل لا بد من وقوعه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ أى: ليكون حجة وبينة للمعاند فيختار الكفر على بصيرة وجزم ببطلانه فلا يبقى له عذر عند الله ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ أى: يزداد المؤمن بصيرة ويقينًا بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه ما هو تذكرة لأولى الألباب ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والضمائر والسائر والغيب والشهادة.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

وكان الله قد أرى رسوله المشركين فى الرؤيا قليلاً فبشر بذلك أصحابه فاطمأنت قلوبهم وتثبتت أفئدتهم ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ﴾ الله ﴿كَثِيرًا﴾ فأخبرت بذلك أصحابك ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم ومنكم من لا يرى ذلك والتنازع مما يوجب الفشل ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أى: لطف بكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما فيها من ثبات وجزع وصدق وكذب فعلم الله من قلوبكم ما صار سببًا للطفه وإحسانه بكم وصدق رؤيا رسوله فأرى الله المؤمنين عدوهم قليلاً فى أعينهم ويقللكم - يا معشر المؤمنين - فى أعينهم فكل من الطائفتين ترى الأخرى قليلة لتقدم كل منهما على الأخرى ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين وقتل قادتهم ورؤساء الضلال منهم ولم يبق منهم أحد له اسم يذكر فيتيسر بعد ذلك انقيادهم

إذا دعوا إلى الإسلام فصار أيضًا لطفًا بالباقين الذين مَنَّ الله عليهم بالإسلام ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى: جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله فيميز الخبيث من الطيب ويحكم فى الخلائق بحكمه العادل الذى لا جور فيه ولا ظلم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾

يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ أى: طائفة من الكفار تقاتلكم ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ لقتالها واستعملوا الصبر وحبس النفس على هذه الطاعة الكبيرة التى عاقبتها العز والنصر واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى استعمال ما أمروا به والمشى خلف ذلك فى جميع الأحوال ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ تنازعًا يوجب تشتيت القلوب وتفرقها ﴿ فَتَفْشَلُوا ﴾ أى: تجبنوا ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ أى: وتنحل عزائمكم وتفرق قوتكم ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله ﴿ وَاصْبِرُوا ﴾ نفوسكم على طاعة الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالعون والنصر والتأييد واخشعوا لربكم واخضعوا له ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى: هذا مقصدهم الذى خرجوا إليه وهذا الذى أبرزهم من ديارهم الأشر والبطر فى الأرض وليراهم الناس ويفخروا لديهم والمقصود الأعظم: أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه ﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فلذلك أخبركم بمقاصدهم وحذركم أن تشبهوا بهم فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة فليكن قصدكم فى خروجكم وجه الله تعالى وإعلاء دين الله والصد عن الطريق الموصلة إلى سخط الله وعقابه وجذب الناس إلى سبيل الله القويم الموصل لجنات النعيم ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ حسنها فى قلوبهم ﴿ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فإنكم فى عَدَد وعُدَد وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه ﴿ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ من أن يأتيكم أحد ممن تخشون غائلته لأن إبليس قد تبدى لقريش فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى وكانوا يخافون من بنى مدلج لعداوة كانت بينهم فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم فاطمأنت نفوسهم وأتوا على حرد قادرين[1] ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ ﴾ المسلمون والكافرون فرأى الشيطانُ جبريلَ عليه السلام يزع[2] الملائكة خاف خوفًا شديدًا و ﴿ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ أى: ولى مدبرًا ﴿ وَقَالَ ﴾ لمن خدعهم وغرهم: ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ أى: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ أى: أخاف أن يعاجلنى بالعقوبة فى الدنيا ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ومن المحتمل أن يكون الشيطان سول لهم ووسوس فى صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس وأنه جار لهم فلما أوردهم مواردهم نكص عنهم وتبرأ منهم كما قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى: شك وشبهة من ضعفاء الإيمان للمؤمنين حين أقدموا - مع قلتهم - على قتال المشركين مع كثرتهم

---

(١) قوله (على حرد قادرين) قال الراغب، أى: على امتناع من أن يتناولوه قادرين على ذلك. اهـ. فيكون المراد: وأتوا بمنع وحدة وغضب.

(٢) قوله (يزع) أى: حبس أولهم على آخرهم، فلم يتركهم يتطلقون كما يشاءون، بل كان جبريل يقودهم بنظام.

﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ أى: أوردهم الدين الذى هم عليه هذه الموارد التى لا يدان لهم بها ولا استطاعة لهم بها يقولونه احتقارًا لهم واستخفافًا بعقولهم وهم ـ والله ـ الأخفاء عقولاً الضعفاء أحلامًا فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التى لا يقدم عليها الجيوش العظام فإن المؤمن المتوكل على الله الذى يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشىء قد كتبه الله عليه وعلم أنه على الحق وأن الله تعالى حكيم رحيم فى كل ما قدره وقضاه فإنه لا يبالى بما أقدم عليه من قوة وكثرة وكان واثقًا بربه مطمئن القلب لا فزعًا ولا جبانًا ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا تغالب قوته قوة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضاه وأجراه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٥٢)﴾

يقول تعالى: ولو ترى الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم و ﴿الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم ونفوسهم ممتنعة مستعصية على الخروج لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم ولهذا قال: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أى: العذاب الشديد المحرق ذلك العذاب حصل لكم من غير ظلم ولا جور من ربكم وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصى التى أثرت لكم ما أثرت، وهذه سنة الله فى الأولين والآخرين، فإن داب هؤلاء المكذبين، أى: سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبة ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ بالعقاب ﴿بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يعجزه أحد يريد أخذه ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ (٥٤)﴾

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذى أوقعه الله بالأمم المكذبة وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من نعم الدين والدنيا بل يبقيها ويزيدهم منها إن ازدادوا له شكرًا ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الطاعة إلى المعصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوا بها كفرًا فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم، ولله الحكمة فى ذلك والعدل والإحسان إلى عباده حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم وحيث جذب قلوب أوليائه إليه بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون سواء من أسر القول ومن جهر به ويعلم ما تنطوى عليه الضمائر وتخفيه السرائر فيجرى على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أى: فرعون وقومه ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ حين جاءتهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ كلٌّ بحسب جرمه ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسهم ساعين فى هلاكها لم يظلمهم الله ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم فى الظلم فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧)﴾

﴿إِنَّ﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث ـ الكفر وعدم الإيمان والخيانة ـ بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه هم ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾ فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها لأن الخير معدوم

منهم والشر متوقع فيهم فإذهاب هؤلاء ومحقهم هو المتعين لئلا يسرى داؤهم لغيرهم، ولهذا قال: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ﴾ أى: تجدنهم فى حال المحاربة بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أى: نكل بهم غيرهم وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون به عبرة لمن بعدهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أى: من خلفهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصى أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصى بل وزجرا لمن عملها أن لا يعاودها ودل تقييد هذه العقوبة فى الحرب أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر - أنه إذا أعطى عهداً لا يجوز خيانته وعقوبته.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

أى: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم أى: ارمه عليهم وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى: حتى يستوى علمك وعلمهم بذلك ولا يحل لك أن تغدرهم أو تسعى فى شىء مما منعه موجب العهد حتى تخبرهم بذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض فلا بد من أمر بيِّن يبرئكم من الخيانة، ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم لأنه لم يخف منهم بل علم ذلك ولعدم الفائدة، ولقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ وهنا قد كان معلومًا عند الجميع غدرهم ودل مفهومها أيضًا أنه إذا لم يخف منهم خيانة بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أى: لا يحسب الكافرون بربهم المكذبون بآياته أنهم سبقوا الله وفاتوه فإنهم لا يعجزونه والله لهم بالمرصاد، وله تعالى الحكمة البالغة فى إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة التى من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم وتزودهم من طاعته ومراضيه ما يصلون به المنازل العالية واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها، فلهذا قال لعباده المؤمنين:

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أى: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين فى هلاككم وإبطال دينكم ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أى: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم فدخل فى ذلك أنواع الصناعات التى تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق والطيارات الجوية والمراكب البرية والبحرية والقلاع والخنادق وآلات الدفاع والرأى والسياسة التى بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم وتَعَلُّم الرمى والشجاعة والتدبير، ولهذا قال النبى ﷺ: «ألا إن القوة الرمى» ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العلة موجودة فيها فى ذلك الزمان وهى إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته، فإذا كان شىء موجوداً أكثر إرهابًا منها كالسيارات البرية والهوائية المعدة للقتال التى تكون النكاية فيها أشد كانت مأمورًا بالاستعداد بها والسعى لتحصيلها حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة وجب ذلك لأن «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذى يخاطبهم الله به ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك النفقات المالية فى جهاد الكفار، ولهذا قال تعالى مرغبًا فى ذلك: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفًا أضعافًا كثيرة، حتى إن النفقة فى

سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أى: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئًا.

﴿ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٤) ﴾

يقول تعالى: ﴿وإن جنحوا﴾ أى: الكفار المحاربون أى: مالوا ﴿للسلم﴾ أى: الصلح وترك القتال ﴿فاجنح لها وتوكل على الله﴾ أى: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك فإن فى ذلك فوائد كثيرة منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت فإذا كانوا هم المبتدئين فى ذلك كان أولى لإجابتهم، ومنها: أن فى ذلك استجمامًا لقواكم واستعدادًا منكم لقتالهم فى وقت آخر إن احتيج إلى ذلك، ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضًا وتمكن كلٌّ من معرفة ما عليه الآخر فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان لحسنه فى أوامره ونواهيه وحسنه فى معاملته للخلق والعدل فيهم وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له فصار هذا السلم عونًا للمسلمين على الكافرين ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة وهى أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين وانتهاز الفرصة فيهم فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيهم خداعهم وأن ذلك يعود عليهم ضرره فقال: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله﴾ أى: كافيك ما يؤذيك وهو القائم بمصالحك ومهماتك فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك وإنه ﴿هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ أى: أعانك بمعونة سماوية وهو: النصر منه الذى لا يقاومه شىء ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك ﴿وألف بين قلوبهم﴾ فاجتمعوا وائتلفوا وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعى أحد ولا بقوة غير قوة الله، وإنك ﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا﴾ من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة ﴿ما ألفت بين قلوبهم﴾ لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى ﴿ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ ومن عزته أن ألف بين قلوبهم وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيها النبى حسبك الله﴾ أى: كافيك ﴿ومن اتبعك من المؤمنين﴾ أى: وكافى أتباعك من المؤمنين وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله بالكفاية والنصرة على الأعداء فإذا أتوا بالسبب الذى هو الإيمان والاتباع فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (٦٦) ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال﴾ أى: حثهم واستنهضهم[1] إليه بكل ما يقوى عزائمهم وينشط هممهم من الترغيب فى الجهاد ومقارعة الأعداء والترهيب من ضد ذلك وذكر فضائل

(١) فى الأصل المطبوع «ونهضهم» وهو خطأ لغوى.

الشجاعة والصبر وما يترتب على ذلك من خير فى الدنيا والآخرة وذكر مضار الجبن وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ ﴿إن يكن منكم﴾ أيها المؤمنون ﴿عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك ﴿بأنهم﴾ أى: الكفار ﴿قوم لا يفقهون﴾ أى: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين فى سبيله فهم يقاتلون لأجل العلو فى الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال أنه لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه والذب عن كتاب الله وحصول الفوز الأكبر عند الله، وهذه كلها دواع للشجاعة والصبر والإقدام على القتال، ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا﴾ فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ بعونه وتأييده وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين فى مقابلته من الكفار وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية، ولكن معناها وحقيقتها الأمر، وأن الله أمر المؤمنين فى أول الأمر أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة والعشرة من المائة والمائة من الألف، ثم إن الله خفف ذلك فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار، فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران: أحدهما: أنها بصورة الخبر والأصل فى الخبر أن يكون على بابه وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع، والثانى: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر، ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين فإنه يجوز لهم الفرار ولو أقل من مثلهم إذا غلب على ظنهم الضرر كما تقتضيه الحكمة الإلهية، ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ إلى آخرها دليل على أن هذا الأمر لازم وأمر محتم ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد فهذا ظاهر فى أنه أمر وإن كان فى صيغة الخبر وقد يقال: إن فى إتيانه بلفظ الخبر نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر وهى: تقوية قلوب المؤمنين والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين، ويجاب عن الثانى: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين أنه حث على الصبر وأنه ينبغى منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم «بدر» إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء وكان رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى هذه الحال قتلهم واستئصالهم فقال تعالى: ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض﴾ أى: ما ينبغى ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويسعون لإخماد دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الذى يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم فما دام لهم شر وصولة فالأوفق أن لا يؤسروا فإذا أثخن فى الأرض وبطل شر المشركين واضمحل أمرهم فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم، يقول تعالى: ﴿تريدون﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿عرض الدنيا﴾ أى لا لمصلحة تعود إلى دينكم ﴿والله يريد الآخرة﴾ بإعزاز دينه ونصر أوليائه وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم فيأمركم بما يوصل إلى ذلك ﴿والله عزيز حكيم﴾ أى: كامل العزة ولو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لفعل ولكنه حكيم يبتلى بعضكم ببعض ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ به القضاء والقدر أنه قد أحل لكم الغنائم وأن الله رفع عنكم - أيتها الأمة - العذاب ﴿لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ وفى الحديث: «لو نزل عذاب يوم بدر ما نجا منه إلا عمر» ﴿فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة أن أحل لها الغنائم ولم تحل لأمة قبلها ﴿واتقوا

اللَّـهَ﴾ في جميع أموركم ولازموها شكراً لنعم الله عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب ويغفر لمن لم يشرك به شيئًا جميع المعاصى ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالاً طيبًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

وهذه نزلت فى أسارى يوم بدر وكان من جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ فلما طلب منه الفداء ادعى أنه مسلم قبل ذلك فلم يسقطوا عنه الفداء فأنزل الله تعالى جبراً لخاطره ومن كان على مثل حاله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أى: من المال بأن ييسر لكم من فضله خيراً كثيراً مما أخذ منكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ويدخلكم الجنة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره فحصل له ـ بعد ذلك ـ من المال شىء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبى ﷺ مال كثير أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ فى السعى لحربك ومنابذتك ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بكل شىء حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وقد تكفل بكفايتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ ﴾

هذا عقد موالاة ومحبة عقدها الله بين المهاجرين الذى آمنوا وهاجروا فى سبيل الله وتركوا أوطانهم لله لأجل الجهاد فى سبيل الله وبين الأنصار الذى آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوهم فى ديارهم وأموالهم وأنفسهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض لكمال إيمانهم تمام اتصال بعضهم ببعض ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم فى وقت شدة الحاجة إلى الرجال فلما لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شىء لكنهم ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أى: لأجل قتال من قاتلهم ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أى: عهد بترك القتال فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم فلا تعينوهم عليهم لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعلم ما أنتم عليه من الأحوال فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ ﴾

لما عقد الولاية بين المؤمنين أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء بعض فلا يواليهم إلا كافر مثلهم وقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أى: موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين بأن واليتموهم أو عاديتموهم كلهم أو واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل والمؤمن بالكافر وعدم كثير من العبادات الكبار كالجهاد والهجرة وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التى تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

الآيات السابقات فى ذكر عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار وهذه الآيات فى بيان مدحهم وثوابهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ من المهاجرين والأنصار، أى: المؤمنون ﴿حَقًّا﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله تمحى بها سيئاتهم وتضمحل بها زلاتهم ﴿وَ﴾ لهم ﴿رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أى: خير كثير من الرب الكريم فى جنات النعيم وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقر به أعينهم وتطمئن به قلوبهم، وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار ممن اتبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد فى سبيل الله ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، فهذه الموالاة الإيمانية ـ وقد كانت فى أول الإسلام ـ لها وقع كبير وشأن عظيم حتى إن النبى ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة غير الأخوة الإيمانية العامة وحتى كانوا يتوارثون بها فأنزل الله ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض فإن لم يكونوا فأقرب قراباته من ذوى الأرحام كما دل عليه عموم الآية الكريمة، وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى: فى حكمه وشرعه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم التى يجري من شرائعه الدينية عليكم ما يناسبها.

تم تفسير سورة الأنفال، ولله الحمد والمنة



تفسير سورة التوبة

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾

أى: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاندين، أن لهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض على اختيارهم آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم ولا ميثاق، وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة أشهر فإنه يتعين أن يتمم له عهده إذا لم يخف منه خيانة ولم يبدأ بنقض العهد، ثم أنذر المعاهدين فى مدة عهدهم أنهم وإن كانوا آمنين فإنهم لن يعجزوا الله ولن يفوتوه وأنه من استمر منهم على شركه فإنه لا بد أن يخزيه فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول فى الإسلام إلا من عاند وأصر ولم يبال بوعيد الله.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾

هذا ما وعد الله به المؤمنين من نصر دينه وإعلاء كلمته وخذلان أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة من بيت الله الحرام وأجلوهم مما لهم التسلط عليه من أرض الحجاز، نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة وأذل المشركين وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار، فأمر النبى ﷺ مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر وهو: يوم النحر وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم من جميع جزيرة العرب أن يؤذن بأن الله برىء ورسوله من المشركين، فليس لهم عنده عهد وميثاق فأينما وجدوا قتلوا وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا وكان سنة تسع من الهجرة، وحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأذن ببراءة يوم النحر ابن عم رسول الله ﷺ على بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة ورهبهم من الاستمرار على الشرك فقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أى: فائتيه بل أنتم فى قبضته قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: مؤلم مفظع فى الدنيا بالقتل والأسر والجلاء، وفى الآخرة بالنار وبئس القرار.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

أي: هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين ﴿إِلاَّ الَّذين عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِين﴾ واستمروا على عهدهم ولم يجر منهم ما يوجب النقص فلا نقصوكم شيئًا ولا عاونوا عليكم أحدًا فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم قَلَّتْ أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر بالوفاء ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِين﴾ الذين أدوا ما أمروا به واتقوا الشرك والخيانة وغير ذلك من المعاصي.

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي: التى حرم فيها قتال المشركين المعاهدين وهى أشهر التيسير الأربعة وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها فقد برئت منهم الذمة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ فى أى مكان وزمان ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرى ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ أى: ضيقوا عليهم فلا تدعوهم يتوسعون فى بلاد الله وأرضه التى جعلها معبدًا لعباده، فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكناها ولا يستحقون منها شبرًا لأن الأرض أرض الله وهم أعداؤه المنابذون له ولرسله، والمحاربون الذين يريدون أن تخلو الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أى: كل ثنية وموضع يمرون عليه ورابطوا فى جهادهم وابذلوا غاية مجهودكم فى ذلك ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم، ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ من شركهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ أى: أدوها بحقوقها ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ لمستحقيها ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أى: اتركوهم وليكونوا مثلكم لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر الشرك فما دونه للتائبين ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة ثم قبولها منهم، وفى هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة فإنه يقاتل حتى يؤديها كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

لما كان ما تقدم من قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أمرًا عامًا فى جميع الأحوال وفى كل الأشخاص منهم ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم جاز بل وجب فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أى: طلب منك أن تجيره وتمنعه من الضرر لأجل أن يسمع كلام الله وينظر حالة الإسلام ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ ثم إن أسلم فذاك وإلا فأبلغه مأمنه أى: المحل الذى يأمن فيه والسبب فى ذلك أن الكفار ﴿قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم إذا زال اختاروا عليه الإسلام فلذلك أمر الله رسوله وأمته أسوته فى الأحكام أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله، وفى هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق لأنه تعالى هو المتكلم به وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها وبطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق، وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول ليس هذا محل ذكرها.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾

هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين فقال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ هل قاموا بواجب الإيمان أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم؟ وحاربوا الحق ونصروا

الباطل؟ أما سعوا فى الأرض فساداً؟ فيحق عليهم أن يتبرأ الله منهم وأن لا يكون لهم عهد عنده ولا عند رسوله؟ ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ﴾ من المشركين ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإن لهم - فى العهد - وخصوصاً فى هذا المكان الفاضل - حرمة أوجب أن يراعوا فيها ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ولهذا قال:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

أى: ﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ بالقدرة والسلطان لا يرحموكم و ﴿لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾[1] أى: لا ذمة ولا قرابة ولا يخافون الله فيكم بل يسومونكم سوء العذاب، فهذه حالكم معهم لو ظهروا ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم فإنهم ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقًا المبغضون لكم صدقًا ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ لا ديانة لهم ولا مروءة ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ أى: اختاروا الحظ العاجل الخسيس فى الدنيا على الإيمان بالله ورسوله والانقياد لآيات الله ﴿فَصَدُّوا﴾ بأنفسهم وصدوا غيرهم ﴿عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ أى: لأجل عداوتهم للإيمان وأهله فالوصف الذى جعلهم يعادونكم لأجله ويبغضونكم هو الإيمان، فذبوا عن دينكم وانصروه واتخذوا من عاداه عدواً ومن نصره لكم ولياً، واجعلوا الحكم يدور معه وجوداً وعدمًا، لا تجعلوا الولاية والعداوة طبيعة تميلون بها حيثما مال الهوى وتتبعون فيها النفس الأمارة بالسوء ولهذا: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن شركهم ورجعوا إلى الإيمان ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وتناسوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين لتكونوا عباد الله المخلصين، وبهذا يكون العبد عبداً حقيقة، لما بيّن من أحكامه العظيمة ما بيّن ووضّح منها ما وضّح أحكامًا وحكَمًا وحُكْمًا ﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أى: نوضحها ونميزها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإليهم سياق الكلام وبهم تعرف الآيات والأحكام، وبهم عرف دين الإسلام وشرائع الدين، اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون ويعملون بما يعلمون، برحمتك وجودك وكرمك وإحسانك يا رب العالمين.

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى - بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أى: نقضوها وحلوها أو أعانوا على قتالكم أو نقصوكم ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ عابوه وسخروا منه ويدخل فى هذا جميع أنواع الطعن والموجهة إلى الدين أو إلى القرآن ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ أى: القادة فيه الرؤساء الطاعنين فى دين الرحمن الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر لعظم

(١) قال الراغب الأصفهانى: (الإل) كل حالة ظاهرة من عهد خلف وقرابة «تئل» تلمع فلا يمكن إنكاره والمراد هنا: لا يرعون عهداً ولا حلفًا ولا قرابة، وقوله (ولا ذمة) أى: لا عهد لهم ولا أمان.

جناياتهم ولأن غيرهم تبع، وليدل على أن من طعن فى الدين وتصدى للرد عليه فإنه من أئمة الكفر ﴿إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أى: لا عهود ولا مواثيق يلازمون على الوفاء بها بل لا يزالون خائنين ناكثين للعهد لا يوثق منهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ فى قتالكم إياهم ﴿يَنتَهُونَ﴾ عن الطعن فى دينكم، وربما دخلوا فيه، ثم حث على قتالهم وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف التى صدرت من هؤلاء الأعداء والتى هم موصوفون بها المقتضية لقتالهم فقال: ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ الذى يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه وسعوا فى ذلك ما أمكنهم ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حيث نقضوا العهد وأعانوا عليكم وذلك حيث أعانت قريش ـ وهم معاهدون ـ بنى بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط فى السيرة ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ فى ترك قتالهم ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فالله أمركم بقتالهم وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد فإن كنتم مؤمنين فامتثلوا لأمر الله ولا تخشوهم فتتركوا أمر الله، ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم فقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بالقتل ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ إذا نصركم الله عليهم وهم الأعداء الذين يُطلب خزيهم ويحرص عليه ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فإن فى قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما فى قلوب المؤمنين من الغم والهم إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله ساعين فى إطفاء نور الله وزوالاً للغيظ الذى فى قلوبكم، وهذا يدل على محبة الله للمؤمنين واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل ـ من جملة المقاصد الشرعية ـ شفاء ما فى صدورهم وذهاب غيظهم، ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ من هؤلاء المحاربين بأن يوفقهم للدخول فى الإسلام ويزينه فى قلوبهم ويُكرِّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه ومن لا يصلح فيبقيه فى غيه وطغيانه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعدما أمرهم بالجهاد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾ من دون ابتلاء وامتحان وأمر بما يبين به الصادق والكاذب ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ أى: علمًا يظهر ما فى القوة إلى الخارج ليترتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون فى سبيله لإعلاء كلمته ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾(١) أى: وليًا من الكافرين بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء، فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم وهو أن يتميز الصادقون ـ الذين لا يتحيزون إلا لدين الله ـ من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى: ما يصير منكم ويصدر فيبتليكم بما تظهر به حقيقة ما أنتم عليه ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۝١٧ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۝١٨﴾

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾ أى: ما ينبغى ولا يليق ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ بالعبادة والصلاة وغيرها من أنواع الطاعات والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرهم وعلم كثير

(١) وليجة: أى: أصدقاء وبطانة، تطلعونهم على جميع أسراركم وتعتمدون عليهم فى شئونكم، قال الراغب فى شرح مفردات غريب القرآن (الوليجة كل ما يتخذه الإنسان معتمدًا عليه وليس من أهله، من قولهم «فلان وليجة فى القوم» إذا لحق بهم وليس منهم، إنسانًا كان أو غيره) اهـ.

منهم أنهم على الكفر والباطل، فإذا كانوا ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ وعدم الإيمان الذى هو شرط لقبول الأعمال فكيف يزعمون أنهم عُمَّارُ مساجد الله والأصل منهم مفقود والأعمال منهم باطلة؟ ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: بطلت وضلت ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ثم ذكر من هم عمار مساجد الله فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ الواجبة والمستحبة بالقيام بالظاهر منها والباطن ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ لأهلها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أى: قصر خشيته على ربه فكف عنه ما حرم الله ولم يقصر بحقوق الله الواجبة، فوصفهم بالإيمان النافع وبالقيام بالأعمال الصالحة التى أُمُّها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التى هى أصل كل خير، فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ و«عسى» من الله واجبة، وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمار مساجد الله ولا من أهلها الذين هم أهلها وإن زعم ذلك وادعاه.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

لما اختلف بعض المسلمين أو بعض المسلمين وبعض المشركين فى تفضيل عمارة المسجد الحرام بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج على الإيمان بالله والجهاد فى سبيله - أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ أى: سقيهم الماء من زمزم، كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم أنه هو المراد ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة لأن الإيمان أصل الدين وبه تقبل الأعمال وتزكو الخصال، وأما الجهاد فى سبيل الله فهو ذروة سنام الدين به يحفظ الدين الإسلامى ويتسع وينصر الحق ويخذل الباطل وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فهى وإن كانت أعمالاً صالحة فهى متوقفة على الإيمان وليس فيها من المصالح ما فى الإيمان والجهاد فلذلك قال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: الذين وصفهم الظلم الذين لا يصلحون لقبول شىء من الخير بل لا يليق بهم إلا الشر، ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ﴾ بالنفقة فى الجهاد وتجهيز الغزاة ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بالخروج بالنفس ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أى: لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب إلا من اتصف بصفاتهم وتخلق بأخلاقهم ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ رحمة منه وكرمًا وبرًا بهم واعتناء ومحبة لهم ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أزال بها عنهم الشرور وأوصل إليهم بها كل خير ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ منه تعالى عليهم الذى هو أكبر نعيم الجنة وأجله فيحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذى منه أن الله أعد للمجاهدين فى سبيله مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ولو اجتمع الخلق فى درجة واحدة منها لوسعتهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا ينتقلون عنها ولا يبغون عنها حولاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا تستغرب كثرته على فضل الله ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشىء كن فيكون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان بأن توالوا من قام به وتعادوا من لم يقم به، و ﴿**لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ**﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم وغيرهم من باب أولى وأحرى فلا تتخذوهم ﴿**أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا**﴾ أى: اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿**الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ لأنهم تجرءوا على معاصى الله واتخذوا أعداء الله أولياء وأصل الولاية: المحبة والنصرة وذلك أن اتخاذهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله ومحبتهم على محبة الله ورسوله، ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك وهو أن محبة الله ورسوله يتعين تقديمها على محبة كل شيء وجعل الأشياء تابعة لهما فقال: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ**﴾ ومثلهم الأمهات ﴿**وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ**﴾ فى النسب والعشيرة ﴿**وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ**﴾ أى: قراباتكم عمومًا ﴿**وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا**﴾ أى: اكتسبتموها وتعبتم فى تحصيلها، خصها بالذكر لأنها أرغب عند أهلها وصاحبها أشد حرصًا عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كدّ ﴿**وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا**﴾ أى: رخصها ونقصها وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات من الأثمان والأوانى والأسلحة والأمتعة والحبوب والحروث والأنعام وغير ذلك ﴿**وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا**﴾ من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم فإن كانت هذه الأشياء ﴿**أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ**﴾ فأنتم فسقة ظلمة ﴿**فَتَرَبَّصُوا**﴾ أى: انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿**حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ الذى لا مرد له ﴿**وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ أى: الخارجين عن طاعة الله المقدمين على محبة الله شيئًا من المذكورات، وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله وعلى تقديمها على محبة كل شيء وعلى الوعيد الشديد[1] والمقت الأكيد على من كان شيء من المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد فى سبيله، وعلامة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران أحدهما يحبه الله ورسوله وليس لنفسه فيها هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا لله ورسوله أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله دل على أنه ظالم تارك لما يجب عليه.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) ﴾

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بنصره إياهم فى مواطن كثيرة من مواطن اللقاء ومواضع الحروب والهيجاء حتى فى يوم «حنين» الذى اشتدت عليهم فيه الأزمة ورأوا من التخاذل والفرار ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها، وذلك أن النبى ﷺ لما فتح مكة سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ فى أصحابه الذى فتحوا مكة وممن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثنى عشر ألفًا والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، فلما التقوا هم وهوازن حملوا على المسلمين حملة واحدة فانهزموا لا يلوى أحد على أحد ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مائة رجل ثبتوا معه وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبى ﷺ يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب» ولما رأى من المسلمين ما رأى أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادى فى الأنصار وبقية المسلمين وكان رفيع الصوت فناداهم: **يا أصحاب السمرة يا أهل سورة البقرة**، فلما سمعوا صوته عطفوا عطفة رجل واحد فاجتلدوا مع المشركين فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم، وذلك قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ**﴾ وهو اسم للمكان الذى كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف ﴿**إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا**﴾ أى: لم تفدكم شيئًا قليلاً ولا كثيرًا ﴿**وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ**

(١) قوله (و على الوعيد الشديد الخ) معطوف على قوله السابق (على وجوب).

﴿الأَرْضُ﴾ بما أصابكم من الهم والغم حيث انهزمتم ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ أى: على رحبها وسعتها ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أى: منهزمين ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ والسكينة: ما يجعله الله فى القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفظعات ما يثبتها ويسكنها ويجعلها مطمئنة وهى من نعم الله العظيمة على العباد ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين يثبتونهم ويبشرونهم بالنصر ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالهزيمة والقتل واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يعذبهم الله فى الدنيا ثم يردهم فى الآخرة إلى عذاب غليظ ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ فتاب الله على كثير ممن كانت الواقعة عليهم وأتوا إلى النبى ﷺ مسلمين تائبين فرد عليهم نساءهم وأولادهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: ذو مغفرة واسعة ورحمة عامة يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة والصفح فى جرائمهم وقبول توباتهم، فلا ييأسن أحد من رحمته ومغفرته ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)﴾

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿نَجَسٌ﴾ أى: خبثاء فى عقائدهم وأعمالهم وأى نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر ولا تغنى عنه شيئًا؟ وأعمالهم ما بين محاربة لله وصد عن سبيل الله ونصر للباطل ورد للحق وعمل بالفساد فى الأرض لا فى الصلاح فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة حين حج بالناس أبو بكر الصديق وبعث النبى ﷺ ابن عمه عليًا أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة» فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، وليس المراد هنا نجاسة البدن فإن الكافر - كغيره - طاهر البدن بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها ولم يأمر بغسل ما أصاب منها، والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها تَقَذُّرَهم من النجاسات وإنما المراد - كما تقدم - نجاستهم المعنوية بالشرك فإن كان التوحيد والإيمان طهارة فالشرك نجاسة، وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿عَيْلَةً﴾ أى: فقرًا وحاجة من منع المشركين من قربان المسجد الحرام بأن تنقطع الأسباب التى بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فليس الرزق مقصورًا على باب واحد ومحل واحد بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع وجوده عظيم، خصوصًا لمن ترك شيئًا لوجه الله الكريم فإن الله أكرم الأكرمين، وقد أنجز الله وعده، فإن الله قد أغنى المسلمين من فضله وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك، وقوله: ﴿إِن شَاءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة لأن الغنى فى الدنيا ليس من لوازم الإيمان ولا يدل على محبة الله فلهذا علقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الإيمان والدين إلا من يحب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: علمه واسع يعلم من يليق به الغنى ومن لا يليق ويضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها، وتدل الآية الكريمة وهى قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ أن المشركين بعدما كانوا هم الملوك والرؤساء بالبيت ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول الله ﷺ والمؤمنين مع إقامتهم فى البيت ومكة المكرمة ثم نزلت هذه الآية، ولما مات النبى ﷺ أمر أن يجلوا من الحجاز فلا يبقى فيها دينان، وكل هذا لأجل بُعْد كل كافر عن المسجد الحرام فيدخل فى قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾

هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيمانًا صحيحًا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فلا يتبعون شرعه فى تحريم المحرمات ﴿وَلَا

﴿يدينون دين الحق﴾ أى: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين فإنه دين غير الحق لأنه إما دين مبدل وهو: الذى لم يشرعه الله أصلاً، وإما دين منسوخ قد شرعه الله ثم غيَّره بشريعة محمد ﷺ فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز، فأمر بقتال هؤلاء وحث على ذلك لأنهم يدعون إلى ما هم عليه ويحصل الضرر الكثير منهم للناس بسبب أنهم أهل كتاب، وعيَّن ذلك القتال **﴿حتى يعطوا الجزية﴾** أى: المال الذى يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام كلٌّ على حسب حاله من غنى وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين، وقوله: **﴿عن يد﴾** أى: حتى يبذلوها فى حال ذلهم وعدم اقتدارهم ويعطوها بأيديهم فلا يرسلون بها خادمًا ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم **﴿وهم صاغرون﴾**[1] فإذا كانوا بهذه الحال وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم وحال الأمن من شرهم وفتنتهم واستسلموا للشروط التى أجراها المسلمون بما ينفى عزهم وتكبرهم ويوجب ذلهم وصغارهم وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم وإلا بأن لم يفوا ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون لم يجز إقرارهم بالجزية بل يُقاتَلون حتى يسلموا، واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا، وألحق بأهل الكتاب - فى أخذ الجزية وإقرارهم فى ديار المسلمين - المجوس، فإن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس، وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين والشروع فى قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخبارًا بالواقع لا مفهومًا له، ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب، ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف من غير فرق بين كتابىٍّ وغيره.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب ذكر من أقوالهم الخبيثة ما يهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينهم على قتالهم والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال: **﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾** وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن فى اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التى تجرءوا فيها على الله وتنقصوا عظمته وجلاله، وقد قيل: إن سبب ادعائهم فى «عزير» أنه ابن الله أنه لما تسلط الملوك على بنى إسرائيل ومزقوهم كل ممزق وقتلوا حَمَلَةَ التوراة وجدوا عزيرًا بعد ذلك حافظًا لها أو أكثرها فأملاها عليهم من حفظه واستنسخوها فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة **﴿وقالت النصارى المسيح﴾** عيسى ابن مريم **﴿ابن الله﴾** قال الله تعالى: **﴿ذلك﴾** القول الذى قالوه **﴿قولهم بأفواههم﴾** لم يقيموا عليه حجة ولا برهانًا، ومن كان لا يبالى بما يقول لا يستغرب عليه أى قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام، ولهذا قال: **﴿يضاهئون﴾** أى: يشابهون فى قولهم هذا **﴿قول الذين كفروا من قبل﴾** أى: قول المشركين الذين يقولون: «الملائكة بنات الله» تشابهت أقوالهم فى البطلان **﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾** أى: كيف يصرفون

---

(١) صاغرون، أى: طائعون متقادون.

عن الحق الصرف الواضح المبين إلى القول الباطل المبين، وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تتفق على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسليط للعقل عليه، فإن لذلك سببًا وهو أنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم علماؤهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ أي: العبَّاد المتجردين للعبادة ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ يُحلُّون عليهم ما حرم الله فيحلونه ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها، وكانوا أيضًا يغلون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم ويتخذون قبورهم أوثانًا تعبد من دون الله وتقصد بالذبائح والدعاء والاستغاثة ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ اتخذوه إلهًا من دون الله والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على ألسنة رسله، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة ويخصونه بالمحبة والدعاء فنبذوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتقدس وتعالت عظمته عن شركهم وافترائهم فإنهم ينتقصونه في ذلك ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه مما ينافي كماله المقدس، فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه ولا برهان لما أصَّلوه وإنما هو مجرد قول قالوه وافتراء افتروه أخبر أنهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل وأنزل به الكتب وسماه الله نورًا لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة فإنه علم بالحق وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهاهم من المشركين يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم التي ليس عليها دليل أصلاً ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ لأنه النور الباهر الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده وقد تكفل بحفظه من كل من يريده بسوء، ولهذا قال: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله فإن سعيهم لا يضر الحق شيئًا، ثم بيَّن تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ الذي هو العلم النافع ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمدًا ﷺ مشتملاً على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده ومحبة الله وعبادته والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال الصالحة والآداب النافعة والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة، فأرسله الله بالهدى ودين الحق ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك وبغوا له الغوائل ومكروا مكرهم فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعد الله لا بد أن ينجزه وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان أي: العلماء والعبَّاد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل أي: بغير حق ويصدون عن سبيل الله فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس أو بذل الناس لهم من أموالهم فإنه لأجل علمهم وعبادتهم ولأجل هداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها ويصدون الناس عن سبيل الله فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتًا وظلمًا فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم على الطريق المستقيم ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله فهؤلاء الأحبار والرهبان ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق وصدهم الناس عن سبيل الله ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي: يمسكونها ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى

الله وهذا هو الكنز المحرم أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أى: على أموالهم ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فيحمى كل دينار أو درهم على حدته ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ويقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكنز، وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله وذلك بأحد أمرين: إما أن ينفقه في الباطل الذى لا يجدى عليه نفعًا بل لا يناله منه إلا الضرر المحض وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التى لا تعين على طاعة الله وإخراجها للصد عن سبيل الله وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات و «النهى عن الشيء أمر بضده».

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ﴾ أى: في قضاء الله وقدره ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى: في حكمه القدرى ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأجرى ليلها ونهارها وقدّر أوقاتها فقسمها على هذه الشهور الاثنى عشر شهرًا ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي: رجب الفرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وسميت حُرُمًا لزيادة حرمتها وتحريم القتال فيها ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثنى عشر شهرًا وأن الله تعالى بيّن أنه جعلها مقادير للعباد وأن تعمر بطاعته ويشكر الله تعالى على منّته بها وتقييضها لصالح العباد فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم وأنّ هذا نهى لهم عن الظلم فيها خصوصًا مع النهى عن الظلم كل وقت لزيادة تحريمها وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها ومن ذلك النهى عن القتال فيها، على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرم لم ينسخ تحريمه عملاً بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ أخذًا بعموم نحو قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أى: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين ولا تخصوا أحدًا منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم لا يألونهم من الشر شيئًا، ويحتمل أن ﴿كَافَّةً﴾ حال من الواو فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم(١) المشركين فيكون فيها وجوب النفير على جميع المؤمنين، وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سركم وعلنكم والقيام بطاعته خصوصًا عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾

النسيء هو: ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم وكان جملة بدعهم الباطلة أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم رأوا - بآرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم التى حرم الله القتال فيها وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم أو يقدموه ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا فإذا جعلوه مكانه أحلوا القتال فيه وجعلوا الشهر الحلال حرامًا، فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم

(١) الأولى أن يقال «مجتمعين» كلكم حتى يتضح معنى الاحتمال الأخير، ولأن الحال يجب أن تكون مشتقة، وكلمة (جميع) ليست مشتقة، فلا يصار إلى التأويل إذا أمكن عدمه.

وضلالهم لما فيه من المحاذير، منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه والله ورسوله بريئان منه، ومنها: أنهم قلبوا الدين فجعلوا الحلال حرامًا والحرام حلالاً، ومنها: أنهم موَّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده ولبسوا عليهم دينهم واستعملوا الخداع والحيلة فى دين الله، ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها يزول قبحها عن النفوس وربما ظن أنها عوائد حسنة فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يُضَلُّ به الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أى: ليوافقوها فى العدد ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أى: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة فرأوها حسنة بسبب العقيدة المزينة فى قلوبهم ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أى: الذين انصبغ الكفر والتكذيب فى قلوبهم فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا، اعلم أن كثيرًا من هذه السورة الكريمة نزلت فى غزوة تبوك. إذ ندب النبى ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حارًا والزاد قليلاً والمعيشة عسرة فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان ودواعى اليقين من المبادرة لأمر الله والمسارعة إلى رضاه وجهاد أعدائه لدينكم، فـ ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أى: تكاسلتم وملتم إلى الأرض والدعة والكون فيها ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أى: ما حالكم إلا حال من رضى بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة فكأنه ما آمن بها ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التى مالت بكم وقدمتموها على الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أفليس قد جعل الله لكم عقولاً تزنون بها الأمور وأيها أحق بالإيثار؟ أفليست الدنيا، من أولها إلى آخرها، لا نسبة لها فى الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان القصير جدًا من الدنيا حتى يجعله الغاية التى لا غاية وراءها؟ فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى الحياة الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار المشحونة بالأخطار، فبأى رأى رأيتم إيثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التى فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون؟ فوالله ما آثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان فى قلبه ولا من جزل رأيه ولا من عُدَّ من أولى الألباب، ثم توعدهم على عدم النفير فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الدنيا والآخرة، فإن عدم النفير فى حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب لما فيه من المضار الشديدة، فإن المتخلف قد عصى الله تعالى وارتكب لنهيه ولم يساعد على نصر دين الله ولا ذب عن كتاب الله وشرعه ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذى يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فَتَّ فى أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ فإنه تعالى متكفل بنصرة دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله أو ألقيتموه وراءكم ظهريًا ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شىء أراده ولا يغالبه أحد.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾

أى: إلا تنصروا رسوله محمدًا ﷺ فالله غنى عنكم لا تضرونه شيئًا فقد نصره فى أقل ما يكون ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة لما هموا بقتله وسعوا فى ذلك وحرصوا أشد الحرص، فألجأوه إلى أن يخرج

﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أى: هو وأبو بكر الصديق ﷺ ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أى لما هربا(١) من مكة لجآ إلى غار ثور فى أسفل مكة فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب، فهما فى تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبى ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أبى بكر لما حزن واشتد قلقه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بعونه ونصره وتأييده ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أى: الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهى الملائكة الكرام الذين جعلهم الله حرسًا له ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ أى: الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا كانوا على حرد قادرين فى ظنهم أنهم يقدرون على قتل الرسول ﷺ وأخذه حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم فى ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم بل ولا أدركوا شيئًا منه ونصر الله رسوله بدفعه عنه وهذا هو النصر المذكور فى هذا الموضع، فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا فى عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم، والثانى: نصر المستضعف الذى طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفراو ثانى اثنين من هذا النوع، وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أى: كلماته القدرية وكلماته الدينية هى العالية على كلمة غيره التى من جملتها قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فدين الله هو الظاهر العالى على سائر الأديان بالحجج الواضحة والآيات الباهرة والسلطان الناصر ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب ولا يفوته هارب ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها وقد يؤخر نصر حزبه إلى

---

(١) قوله (لما هربا) تعبير فيه ما فيه من المؤاخذات، والذى يتتبع كتب السيرة وتمهيدات الهجرة النبوية يعلم يقينًا أن النبى ﷺ لم يحرك ساكنًا، ولم يأت بعمل، إلا بأمر الله تعالى، ود تحمل رسول الله ﷺ من أذى قريش ما لا يتحمله إلا أشد الناس، وأشجع من خلق الله تعالى، ولا يستغرب ذلك منه ﷺ، لأنه سيد أولى العزم من الرسل وأشجعهم، فلو لكان خروجه هربًا من المشركين لهام على وجهه، ولم يلبث بمكة ولا ما بقربها من الأماكن لحظة واحدة، كما هو شأن الهاربين، ولم يكن مكثه فى الغار تلك الأيام إلا تشريعًا للأمة، وتعليمًا لهم بأخذ الحيطة فى الأمور المتأزمة، تصفح معى كتب السيرة تعلم تمامًا أن تحركات النبى ﷺ كلها لم تكن إلا بالوحى الإلهى، وذلك أنه لما تآمرت قريش على قتله، وانتدبت من كل قبيلة شابًا جلدًا، فى يد كل واحد سيف صارم، تنزل عليه تلك السيوف دفعة واحدة، فيتفرق دمه فى القبائل، فلا يستطيع بنو هاشم محاربة كل العرب، فتقدم ديته إليهم وينقضى الأمر، ودخلت المسألة فى دور التنفيذ، فحاصر هؤلاء الشبان بيت النبى ﷺ وأحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر، والأكمام بالثمر، ومع هذا فهو ثابت الجأش، رابط القلب، فنزل عليه جبريل يبلغه أمر الله إياه بالهجرة فامتثل الأمر، وخرج شاقًا وسط تلك الجموع ذارًا فوق رءوسهم حفنة من رمل وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فاجتاز تلك الصفوف، ولم يره أحد، أيكون هذا العمل هربًا؟ اللهم لا، أيكون اختباؤه خوفًا من المشركين؟ اللهم لا، بل تعليم للأمة فى أخذ الحيطة فى الأزمات، وليقف على حركات قريش، ويعلم مقاصدها، ولينكشف ما اعتزموا عليه، وما قول الله ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلا من إطلاق السبب على المسبب، وذلك أنه لما تفاقم إيذاء قريش للنبى ﷺ وأصحابه ولم يبق ثمت علاج، واستعصى الداء على الدواء، ولم ينجح أى دواء، وانتشرت الدعوة الإسلامية فى المدينة المنورة، حينذاك أمره الله بالهجرة إلى دارة صالحة التربة، لبذر بذور الإسلام، فخرج ﷺ امتثالاً لأمر الله، واستقر فى المدينة، فأخصبت الدعوة الإسلامية فيها، وضربت جذور الدعوة فى أعماق الأرض، وأخذت أصولها وفروعها فى السموق إلى السماء، كما قال تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ فتكونت الدولة الإسلامية، وخرجت جيوشها المظفرة، ففتحت البلاد، ومصرت الأمصار، وحطمت دول الكفر، وأتت على بنيان الطغيان من القواعد فهدمته، وجعلته هشيمًا تذروه الرياح، وما إضافة الله إخراج النبى إلى الذين كفروا إلا من إضافة السبب إلى المسبب كما قلنا، لأنهم ركبوا رءوسهم فى العناد، وبلغ إيذاؤهم للنبى وأصحابه نهايته، وظهر لكل ذى عينين أن مكة يومئذ غير صالحة لنشر الدعوة الإسلامية فيها، وبلغ السيل الزبى، فاقتضت عدالة الله وحكمته أن أذن لرسوله ﷺ بالهجرة من مكة، ونسب هذا الخروج لمن تسبب فيه، وهم المشركون، فهذه الإجراءات كلها تلقى أسطع الأنوار على حقيقة تحركات النبى ﷺ وأنها كلها كانت بأمر من الله، أيكون عمر بن الخطاب أشجع من الرسول ﷺ حينما أعلن على ملأ من قريش أنه اعتزم على الهجرة، وقال لهم كلمته التى تداولتها كتب السيرة (من أراد أن ييتم أطفاله ويرمل امرأته فليلقنى فى موضع كذا) فلم يتجرأ منهم أحد على ملاقاته ولا على منعه من الهجرة، ومما بسطناه من الكلام، يعلم القارئ أن قول المؤلف (لما هربا) تعبير غير لائق بالجناب النبوى، فمعاذ الله أن يوصف الرسول بالهرب الذى هو من أخس الصفات.

وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية، وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافرًا لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها، وفيها فضيلة السكينة وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش لها الأفئدة وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه وثقته بوعده الصادق وبحسب إيمانه وشجاعته، وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباده الصديقين مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه فإنه مضعف للقلب موهن للعزيمة.

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين - مهيجًا لهم على النفير في سبيله: ﴿انفروا خفافا وثقالاً﴾ في العسر واليسر والمنشط والمكره والحر والبرد وفي جميع الأحوال ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب في المال حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك، ثم قال: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي: الجهاد في النفس والمال خير لكم من التقاعد عن ذلك لأن فيه رضا الله تعالى والفوز بالدرجات العاليات عنده والنصر لدين الله والدخول في جملة جنده وحزبه ﴿لو كان﴾ خروجهم ﴿عرضًا قريبا﴾ أي: لطلب عرض قريب ومنفعة دنيوية سهلة التناول ﴿و﴾ كان السفر ﴿سفرًا قاصدًا﴾ أي: قريبًا سهلاً ﴿لاتبعوك﴾ لعدم المشقة الكثيرة ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أي: طالت عليهم المسافة وصعب عليهم السفر فلذلك تثاقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد لله على كل حال ﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي: سيحلفون لتخلفهم عن الخروج أن لهم عذرًا وأنهم لا يستطيعون ذلك ﴿يهلكون أنفسهم﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ وهذا العتاب إنما هو للمنافقين الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في «غزوة تبوك» وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم من غير أن يمتحنهم فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى قبول اعتذارهم فقال:

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عفا الله عنك﴾ أي: سامحك وغفر لك ما أجريت ﴿لم أذنت لهم﴾ في التخلف ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ بأن تمتحنهم ليتبين لك الصادق من الكاذب فتعذر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك، ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاث فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر ﴿والله عليم بالمتقين﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه ومن علمه بالمتقين أنه أخبر أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد ﴿إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم﴾ أي ليس لهم إيمان تام ولا يقين صادق فلذلك قلت رغبتهم في الخير وجبنوا عن القتال واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال ﴿فهم في ريبهم يترددون﴾ أي: لا يزالون في الشك والحيرة.

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ

﴿ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى مبينًا أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج بالكلية وأن أعذارهم التي اعتذروها باطلة فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه وسعي في أسباب الخروج ثم منعه مانع شرعي فهذا الذي يعذر ﴿وَ﴾ أما هؤلاء المنافقون ﴿لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة علم أنهم ما أرادوا الخروج ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ قدرًا وقضاء وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم بل خذلهم وثبطهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ من النساء والمعذورين، ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ أي نقصًا ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم وفرقوا جماعتكم المجتمعين ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم ﴿وَفِيكُمْ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا حريصين على خذلانكم وإلقاء الشر بينكم وتثبيطكم عن أعدائكم وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم، فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين والنقص الكثير منهم؟ فللَّه ما أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم ولطفًا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم بل يضرهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم ويبيِّن لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم، ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي: حين هاجرتم إلى المدينة فبذلوا الجهد فيها ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ أي: أداروا الأفكار وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم ولم يقصروا في ذلك ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم، فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده المؤمنون منهم وأن لا يبالي المؤمنين بتخلفهم عنهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: ﴿ائْذَن لِّي﴾ في التخلف ﴿وَلا تَفْتِنِّي﴾ في الخروج فإني إذا خرجت فرأيت نساء من بني الأصفر لا أصبر عنهن، كما قال ذلك «الجد بن قيس» ومقصوده في قلبه ـ قبحه الله ـ الرياء والنفاق، ويعبر بلسانه بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعرضًا للشر وفي عدم خروجي عافية وكفًا عن الشر، قال الله تعالى ـ مبينًا كذب هذا القول: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده فإن في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظمى محققة وهي: معصية الله ومعصية رسوله والتجرى على الإثم الكبير والوزر العظيم، وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

ـ يقول تعالى مبينًا أن المنافقين هم الأعداء حقًا المبغضون للدين صرفًا ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ كنصر وإدالة[1]

(١) إدالة على العدو، أي: انتصار على العدو.

﴿تَسُؤْهُمْ﴾ أى: تحزنهم وتغمهم ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ كإدالة العدو عليك ﴿يَقُولُوا﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أى: قد حذرنا وعملنا بما ينجينا من الوقوع فى مثل هذه المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ بمصيبتك وبعدم مشاركتهم إياك فيها، قال تعالى رادًا عليهم فى ذلك: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أى ما قدره وأجراه فى اللوح المحفوظ ﴿هُوَ مَوْلانَا﴾ أى: متولى أمورنا الدينية والدنيوية فعلينا الرضا بأقداره وليس فى أيدينا من الأمر شىء ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: ليعتمدوا عليه فى جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم وليثقوا به فى تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره فإنه مخذول غير مدرك لما أمّل.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

أى: قل للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر: أى شىء تربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا إلا أمرًا فيه غاية نفعنا وهو إحدى الحسنيين: إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الأخروى والدنيوى، وإما الشهادة التى هى من أعلى درجات الخلق وأرفع المنازل عند الله، وأما تربصنا بكم - يا معشر المنافقين - فنحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده لا سبب لنا فيه أو بأيدينا بأن يسطلنا عليكم فنقتلكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ بنا الخير ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ بكم الشر.

﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى مبينًا بطلان نفقات المنافقين وذاكرًا السبب فى ذلك: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أنفقوا طَوْعًا﴾ من أنفسكم ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ على ذلك بغير اختياركم ﴿لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ شىء من أعمالكم ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله، ثم بيّن صفة فسقهم وأعمالهم بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التى هى أفضل أعمال البدن إذا قاموا إليها قاموا كسالى، وقد بيّن الله ذلك فقال: ﴿وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أى: متثاقلون لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم ﴿وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ من غير انشراح صدر وثبات نفس ففى هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغى للعبد أن لا يأتى الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر ثابت القلب يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم فإنه لا غبطة فيها، وأول بركاتها عليهم أن قدموها على مراضى ربهم وعصوا الله لأجلها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والمراد بالعذاب هنا ما ينالهم من المشقة فى تحصيلها والسعى الشديد فى ذلك وهم القلب فيها وتعب البدن فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم لم يكن لها نسبة إليها فهى - لما ألهتهم عن الله وذكره - صارت وبالاً عليهم حتى فى الدنيا، ومن وبا لها العظيم الخطر أن قلوبهم تتعلق بها وإرادتهم لا تتعداها فتكون منتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم ولا يبقى فى قلوبهم للآخرة نصيب فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدنيا ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فأى عقوبة

أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة الملازمة ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ﴾ قصدهم فى حلفهم هذا أنهم ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أى: يخافون الدوائر وليس فى قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم، فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تتبرءوا منهم فيتخطفهم الناس من كل جانب، وأما حال قوى القلب ثابت الجنان فإنه يحمله ذلك على بيان حاله حسنة كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خلع عليهم خلعة الجبن وحلوا بحلية الكذب، ثم ذكر شدة جبنهم فقال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا﴾ يلجئون إليه عندما تنزل بهم الشدائد ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ يدخلونها فيستقرون فيها ﴿أَوْ مُدَّخَلاً﴾ أى: محلاً يدخلونه فيتحصنون فيه ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أى: يسرعون ويهرعون فليس لهم ملكة يقتدرون بها على الثبات.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أى: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك فى قسمة الصدقات وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيبهم لقصد صحيح ولا لرأى رجيح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ وهذه حالة لا ينبغى للعبد أن يكون رضاه وغضبه تابعًا لهوى نفسه الدنيوى وغرضه الفاسد، بل الذى ينبغى أن يكون لمرضاة ربه كما قال النبى ﷺ: «لا يومن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به» وقال هنا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أى: أعطاهم من قليل وكثير ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أى: كافينا الله فنرضى بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ أى: متضرعون فى جلب منافعنا ودفع مضارنا، ثم بيّن تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ أى: الزكوات، الواجبة بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد لا يخص بها أحد دون أحد، إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم لأنه حصرها فيهم وهم ثمانية أصناف: **الأول والثانى**: الفقراء والمساكين، وهم فى هذا الموضع صنفان متفاوتان فالفقير أشد حاجة من المسكين لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، ففسر الفقير بأنه الذى لا يجد شيئًا أو يجد بعض كفايته دون نصفها، والمسكين: هو الذى يجد نصفها فأكثر ولا يجد تمام كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنيًا، فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكنتهم، **والثالث**: العاملون على الزكاة وهم كل من له عمل وشغل فيها من حافظ لها وجاب لها من أهلها أو راعٍ أو حامل لها أو كاتب أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عمالتهم وهى أجرة لأعمالهم فيها، **والرابع**: المؤلفة قلوبهم، والمؤلفة قلبه هو: السيد المطاع فى قومه ممن يرجى إسلامه أو يخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه أو إسلام نظيره أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة، **والخامس**: **الرقاب** وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم فهم يسعون فى تحصيل ما يفك رقابهم فيعانون على ذلك من الزكاة وفك الرقبة المسلمة التى فى حبس الكفار داخل فى هذا بل أولى، ويدخل فى هذا أنه يجوز أن يعتق الرقاب استقلالاً لدخوله فى قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ **والسادس**: الغارمون وهم قسمان: **أحدهما**: الغارمون لإصلاح ذات البين وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بما يبذله لأحدهم أو لهم كلهم، فجعل له نصيب من الزكاة ليكون أنشط له وأقوى لعزمه فيعطى ولو كان غنيًا، **والثانى**: من غرم لنفسه ثم أعسر فإنه يعطى ما يُوفِّى به دينه، **والسابع**: الغازى فى سبيل الله، وهم: الغزاة المتطوعة الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم من ثمن سلاح أو دابة أو نفقة له ولعياله ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه، وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم أعطى من الزكاة لأن

العلم داخل فى الجهاد فى سبيل الله، وقالوا أيضًا: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه وفيه نظر، والثامن: ابن السبيل، وهو: الغريب المنقطع بـه فى غير بلده فـيعطى من الزكـاة ما يوصله إلى بلده، فـهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفـع إليهم الزكاة وحدهم ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ فرضها وقـدرها تابعة لعلمه وحكمه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ واعلم أن هذه الأصناف الثمانية ترجع إلى أمرين: أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه كالفقير والمسكين ونحوهما، والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به، فأوجب الله هذه الحصة فى أموال الأغنياء لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلميـن، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعى لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الثغور ويجاهد به الكفار وتحصل به جميع المصالح الدينية.

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) ﴾

أى: من هؤلاء المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بالأقوال الردية والعيب له ولدينه ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أى: لا يبالون بما يقولون من الأذية لـلنبى ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك جئنا نعتذر إليـه فيقبل منا لأنه أذن أى: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب، وقصدهم، قبحهم الله، فيما بينهم أنهم غير مكترثين بذلك ولا مهتمـين به لأنه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم، وإن بلغه اكتـفوا بمجرد الاعتذار البـاطل، فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم الذى جاء لهـدايتهم وإخراجهم من الشقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة، ومنها: عدم اهتمامهم أيضًا بذلك وهو قدر زائد على مجرد الأذية، ومنهـا: قدحهم فى عقل النبى ﷺ وعدم إدراكه وتفريقه بين الصـادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلاً وأتمهم إدراكـًا وأثقبهم رأيًا وبصيرة، ولهـذا قال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أى: يقبل من قال له خيرًا وصدقًا، وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة، فلسعة خلقه وعدم اهتمـامه بشأنهم وامتثاله لأمر الله فى قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ وأما حقـيقة ما فى قلبـه ورأيه فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين المصدقين ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كـان كثيرًا ما يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ فإنهم به يهتدون وبأخلاقه يقتدون، وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها فخسروا دنياهم وآخرتهم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالقول والفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الدنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتمه ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ فيتبرءوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها، فغايتهم أن ترضوا عليهم ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمن لا يقدم شيئًا على رضا ربه، فدل هذا على انتفاء إيمانهم حيث قدموا رضا غير الله ورسوله، وهذا محادة لله ومشاقة له، وقد توعد من حاده بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بأن يكون فى حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله وتجرأ على محارمه ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الذى لا خزى أشنع ولا أفظع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم وحصلوا على عذاب الجحيم عياذًا بالله من حالهم.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾

كانت هذه السورة الكريمة تسمى «الفاضحة» لأنها بينت أسرار المنافقين وهتكت أستارهم، فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين: إحداهما: أن الله ستِّيرٌ يحب الستر على عباده، والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب حتى خافوا غاية الخوف، قال الله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ وقال هنا: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: تخبرهم وتفضحهم وتبين أسرارهم حتى تكون علانية لعباده ويكونوا عبرة للمعتبرين ﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوا﴾ أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ وقد وفَّى تعالى بوعده، فأنزل هذه السورة التي بيَّنتهم وفضحتهم وهتكت أستارهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم، يقول طائفة منهم في غزوة تبوك: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، يعنون النبي ﷺ وأصحابه ـ أرغب بطونًا وأكذب ألسنًا وأجبن عند اللقاء» ونحو ذلك، ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم جاءوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: نتكلم بكلام لا قصد لنا به ولا قصدنا الطعن والعيب، قال تعالى، مبينًا عدم عذرهم وكذبهم في ذلك: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فإن الاستهزاء بالله ورسوله كفر مخرج عن الدين، لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة، ولهذا لما جاءوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة والرسول لا يزيدهم على قوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ منكم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة خصوصًا السريرة التي يمكر فيها بدينه ويستهزئ به وبآياته ورسوله فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ويعاقبه أشد العقوبة، وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه أو سخر بذلك أو تنقصه أو استهزأ بالرسول أو تنقصه فإنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة من كل ذنب وإن كان عظيمًا.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ لأنهم اشتركوا في النفاق فاشتركوا في تولِّي بعضهم بعضًا، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم، ثم ذكر وصف المنافقين العام الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ وهو: الكفر والفسوق والعصيان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو: الإيمان والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب الحسنة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الصدقة وطرق الإحسان، فوصفهم البخل ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ فلا يذكرونه إلا قليلاً ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ من رحمته فلا يوفقهم لخير ولا يدخلهم الجنة بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار خالدين فيها مخلدين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ حصر الفسق فيهم لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ جمع المنافقين والكفار في نار جهنم واللعنة والخلود في ذلك لاجتماعهم في الدنيا على الكفر والمعاداة لله ورسوله والكفر بآياته.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى واصفًا حال المنافقين: إن حالكم ـ أيها المنافقون ـ كحال أمثالكم ممن سبقوكم إلى النفاق والكفر وقد كانوا أقوى منكم وأكثر أموالاً وأولادًا، استمتعوا بما قدر لهم من حظوظ الدنيا وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف وسخروا منهم فيما بينهم وبين أنفسهم، وقد استمتعتم بما قدر لكم من ملاذ الدنيا كما استمتعوا وخضتم فيما خاضوا فيه من المنكر والباطل، إنهم قد بطلت أعمالهم فلم تنفعهم فى الدنيا ولا فى الآخرة وكانوا هم الخاسرين وأنتم مثلهم فى سوء الحال والمآل والعاقبة الوخيمة ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ﴾ أى: بنصيبكم من الدنيا فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة معرضين عن المراد منه واستعنتم به على معاصى الله ولم تتعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم، كما فعل الذين من قبلكم ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أى: وخضتم بالباطل والزور وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق، فهذه أعمالهم وعلومهم استمتاع بالخلاق وخوض بالباطل، فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم ممن فعلوا كفعلهم، وأما المؤمنون منهم ـ وإن استمتعوا بنصيبهم وما خولوا من الدنيا ـ فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله، وأما علومهم فهى علوم الرسل وهى الوصول إلى اليقين فى جميع المطالب العالية والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل، يقول تعالى محذرًا للمنافقين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم المكذبة ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ أى: قرى قوم لوط، فكلهم ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالحق الواضح الجلى المبين لحقائق الأشياء فكذبوا بها، فجرى عليهم ما قص الله علينا فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم، قوله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث تجرءوا على معاصيه وعصوا رسلهم واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

لما ذكر أن المنافقين بعضهم من بعض، ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ أى: ذكورهم وإناثهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فى المحبة والموالاة والانتماء والنصرة ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل فى أمرهم أنفسهم ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة والأعمال الخبيثة والأخلاق الرذيلة ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أى: يدخلهم فى رحمته ويشملهم بإحسانه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: قوى قاهر، ومع قوته فهو حكيم يضع كل شيء موضعه اللائق به الذى يحمد على ما خلقه وأمر به، ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ جامعة لكل نعيم وفرح خالية من كل أذى وترح تجرى من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة المروية للبساتين الأنيقة التى لا يعلم ما فيها من الخيرات إلا الله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يبغون عنها حولاً ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ قد زخرفت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها وطاب منزلها ومقيلها وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفًا

فى غاية الصفاء والحسن يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، فهذه المساكن الأنيقة التى حقيق بأن تسكن إليها النفوس وتنزع إليها القلوب وتشتاق لها الأرواح لأنها فى جنات عدن، أى: إقامة لا يظعنون عنها ولا يتحولون منها ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ يحله على أهل الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التى أمّها العابدون والنهاية التى سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسموات أكبر من نعيم الجنات ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ حيث حصلوا على كل مطلوب وانتفى عنهم كل محذور وحسنت وطابت منهم جميع الأمور فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أى: بالغ فى جهادهم ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم، وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد واللسان والسيف والسنان، ومن كان مذعنًا للإسلام بذمة أو عهد فإنه يجاهد بالحجة والبرهان ويبين له محاسن الإسلام ومساوئ الشرك والكفران فهذا ما لهم فى الدنيا ﴿وَ﴾ أما فى الآخرة فإن ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: مقرهم الذى لا يخرجون منه ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(١) ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ أى: إذا قالوا قولاً كقول من قال منهم: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ والكلام الذى يتكلم به الواحد بعد الواحد فى الاستهزاء بالدين وبالرسول، فإذا بلغهم أن النبى ﷺ قد بلغه شيء من ذلك جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا، قال تعالى مكذبًا لهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ فإسلامهم السابق وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم ويدخلهم بالكفر ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وذلك حين هموا بالفتك برسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فقص الله عليه نبأهم فأمر من يصدهم عن قصدهم ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا نَقَمُوا﴾ وعابوا من رسول الله ﷺ ﴿إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ بعد أن كانوا فقراء معوزين، وهذا من أعجب الأشياء أن يستهينوا بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور ومغنيًا لهم بعد الفقر، وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه ويؤمنوا به ويجلوه؟ ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا﴾ عن التوبة والإنابة ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ فى الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه وإعزاز نبيه وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفى الآخرة فى عذاب السعير ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولى أمورهم ويحصل لهم المطلوب ﴿وَلا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى فثم أصناف الشر والخسران والشقاء والحرمان.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ

(١) أى: ما أسوأ هذه العاقبة، وما أفظعها عذابًا وألمًا؟!!.

فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

أى: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى عهده وميثاقه ﴿لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ من الدنيا فبسطها لنا ووسَّعها ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فنصل الرحم ونقرى الضيف ونعين على نوائب الحق ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أى: غير ملتفتين إلى الخير، فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه عاقبهم، و ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مستمرًا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فليحذرالمؤمن من هذا الوصف الشنيع أن يعاهد ربه إن حصل مقصوده الفلانى ليفعلن كذا وكذا ثم لا يفى بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء، وقد قال النبى ﷺ فى الحديث الثابت فى الصحيحين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف» فهذا المنافق الذى وعد الله وعاهده لئن أعطاه الله من فضله ليصدقن وليكونن من الصالحين، حدث فكذب وعاهد فغدر ووعد فأخلف، ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وسيجاريهم على ما عملوا من الأعمال التى يعلمها الله تعالى، وهذه الآيات نزلت فى رجل من المنافقين يقال له: «ثعلبة» جاء إلى النبى ﷺ وسأله أن يدعو الله له أن يعطيه من فضله وأنه إن إعطاه ليتصدقن ويصل الرحم ويعين على نوائب الحق، فدعا النبى ﷺ له فكان له غنم فلم تزل تتنامى حتى خرج بها عن المدينة فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس ثم أبعد فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة ثم كثرت فأبعدها فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة، ففقده النبى ﷺ فأخبر بحاله فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها فمروا على ثعلبة فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، فلما لم يعطهم جاءوا فأخبروا بذلك النبى ﷺ فقال: «يا ويح ثعلبة» ثلاثًا، فلما نزلت هذه الآية فيه وفى أمثاله ذهب بها بعض أهله فبلَّغه إياها فجاء بزكاته فلم يقبلها النبى ﷺ، ثم جاء بها إلى أبى بكر بعد وفاة النبى ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبى بكر إلى عمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك فى زمن عثمان، وهذا أيضًا من مخازى المنافقين فكانوا - قبحهم الله - لا يدعون شيئًا من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً إلا قالوا وطعنوا بغيًا وعدوانًا، فلما حثَّ الله ورسوله على الصدقة بادر المسلمون إلى ذلك وبذلوا من أموالهم كلٌّ على حسب حاله، منهم المكثر ومنهم المقل، فيلمزون المكثر منهم بأن قصده بنفقته الرياء والسمعة وقالوا للمقل الفقير: إن الله غنى عن صدقة هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أى: يعيبون ويطعنون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ فيقولون: مراءون قصدهم الفخر والرياء ﴿وَ﴾ يلمزون ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غنى عن صدقاتهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فقوبلوا على صنيعهم بأن ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإنهم جمعوا فى كلامهم هذا بين عدة محاذير: **منها:** تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **ومنها:** طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم كفرًا بالله تعالى وبغضًا للدين، **ومنها:** أن اللمز محرم بل هو من كبائر الذنوب فى أمور الدنيا، وأما اللمز فى أمر الطاعة فأقبح وأقبح، ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير فإن الذى ينبغى هو إعانته وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه، ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالاً كثيرًا بأنه مراء غلط فاحش وحكم على الغيب ورجم بالظن وأى شر أكبر من هذا؟ ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة «الله غنى عن صدقة هذا» كلام مقصوده باطل فإن الله غنى عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغنى عن أهل السموات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله - وإن كان غنيًا عنهم - فهم فقراء إليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وفى هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بين ولهذا كان جزاؤهم أن يسخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ على وجه المبالغة، وإلا فلا مفهوم لها ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ كما قال فى الآية الأخرى:

﴿سواءٌ عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال: ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ أى: الذين صار الفسق لهم وصفًا بحيث لا يختارون عليه سواه ولا يبغون به بدلا، يأتيهم الحق الواضح فيردونه فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى مبينًا تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك، الدال على عدم الإيمان واختيار الكفر على الإيمان: ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف فإن هذا تخلف محرم وزيادة رضا بفعل المعصية وتبجح به ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا ـ ولو لعذر ـ حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لما فى قلوبهم من الإيمان ويرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه ﴿وقالوا﴾ أى: المنافقون ﴿لا تنفروا فى الحر﴾ أى: قالوا إن النفير مشقة علينا بسبب الحر فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة، وحذروا من الحر الذى تقى منه الظلال وتذهبه البكور والآصال على الحر الشديد الذى لا يقادر قدره، وهو النار الحامية، ولهذا قال: ﴿قل نار جهنم أشد حرًا لو كانوا يفقهون﴾ لما آثروا ما يفنى على ما يبقى ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية إلى المشقة الشديدة الدائمة، قال تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ أى: فليتمتعوا فى هذه الدار المنقضية ويفرحوا بلذاتها ويلهوا بلعبها، فسيبكون كثيراً فى عذاب أليم ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والنفاق وعدم الانقياد لأوامر ربهم ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر ولم يحزنوا على تخلفهم ﴿فاستئذنوك للخروج﴾ لغير هذه الغزوة إذا رأوا السهولة ﴿فقل﴾ لهم عقوبة ﴿لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً﴾ فسيغنى الله عنكم ﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ فإن المتثاقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة لن يوفق له بعد ذلك ويحال بينه وبينه، وفيه أيضًا تعزير لهم فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم كان ذلك توبيخًا لهم وعاراً عليهم ونكالاً أن يفعل أحد كفعلهم.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات﴾ من المنافقين ﴿أبداً ولا تقم على قبره﴾ بعد الدفن لتدعو له، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعة منه لهم ولا تنفع فيهم الشفاعة ﴿إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ ومن كان كافراً ومات على ذلك فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفى ذلك عبرة لغيرهم وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق فإنه لا يصلى عليه، وفى هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم كما كان النبى ﷺ يفعل ذلك فى المؤمنين، فإن تقييد الله بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقرراً فى المؤمنين.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أى: لا تغتر بما أعطاهم الله فى الدنيا من الأموال والأولاد فليس ذلك لكرامتهم عليه وإنما ذلك إهانة منه

لهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ فيتعبون فى تحصيلها ويخافون من زوالها ولا يتهنئون بها بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها وتلهيهم عن الله والدار الآخرة حتى ينتقلوا من الدنيا ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ قد سلبهم حبها كل شيء فماتوا وقلوبهم بها متعلقة وأفئدتهم عليها متحرقة.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَـْٔذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى فى بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ يعنى: أولى الغنى والأموال الذين لا عذر لهم وقد أمدهم الله بأموال وبنين، أفلا يشكرون الله ويحمدونه ويقومون بما أوجبه عليهم وسهل عليهم أمره ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان فى القعود ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ قال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد؟ هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا تعى الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ ﴿فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التى تحطهم عن منازل الرجال.

﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَٰتُ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد فالله سيغنى عنهم ولله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿الرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ غير متثاقلين ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ الكثيرة فى الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فتبا لمن لم يرغب بما رغبوا فيه وخسر دينه ودنياه وأخراه، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

﴿وَجَآءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أى: جاء الذين تهاونوا وقصروا منهم فى الخروج لأجل أن يؤذن لهم فى ترك الجهاد غير مبالين فى الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف، وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم فقعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ أى: الذين لهم عذر أتوا إلى الرسول ﷺ ليعذرهم ومن عادته أن يعذر من له عذر ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فى دعواهم الإيمان المقتضى للخروج وعدم علمهم بذلك، ثم توعدهم بقوله:

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة، لما ذكر المعتذرين وكانوا على قسمين: قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ﴾ وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي لا يقدر صاحبه على الخروج والجهاد من عرج وعمى وحمى ذات الجنب والفالج وغير ذلك ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي: لا يجدون زادًا ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج بشرط أن ينصحوا لله ورسوله بأن يكونوا صادقي الإيمان وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة فإنهم ـ بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد ـ أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه سقط عنه ما لا يقدر عليه، ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره في نفسه أو في ماله ونحو ذلك ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف أنه غير ضامن لأنه محسن ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن ـ وهو المسيء ـ كالمفرط أن عليه الضمان ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن مغفرته ورحمته عفا عن العاجزين وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ فلم يصادفوا عندك شيئًا ﴿قُلْتَ﴾ لهم معتذرًا ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم وقد صدر منهم من الحزن والمشقة ما ذكره الله عنهم، فهؤلاء لا حرج عليهم وإذا سقط الحرج عنهم عاد الأمر إلى أصله، وهو أن من نوى الخير واقترن بنيته الجازمة سعيٌ فيما يقدر عليه ثم لا يقدر فإنه ينزل منزلة الفاعل التام ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ يتوجه واللوم يتأكد ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ قادرون على الخروج ولا عذر لهم، فهؤلاء ﴿رَضُوا﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم ﴿وَ﴾ إنما رضوا بهذه الحال لأنه ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ختم عليها فلا يدخلها خير ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عقوبة لهم على ما اقترفوا.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾

لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء وأنهم لا عذر لهم أخبر أنهم سوف ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزاتكم ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وهو الصادق في قيله، فلم يبق للاعتذار فائدة لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ في الدنيا لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال فلا دلالة فيها على شيء من ذلك ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله من غير أن يظلمكم مثقال ذرة، واعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما أن يقبل قوله وعذره ظاهرًا وباطنًا ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: لا توبخوهم ولا تجلدوهم أو تقتلوهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي: إنهم قذر خبثاء ليسوا بأهل لأن يبالى بهم وليس التوبيخ والعقوبة مفيدًا فيهم ﴿وَ﴾ يكفيهم أن ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي: ولهم أيضًا هذا

المقصد الآخر منكم غير مجرد الإعراض بل يحبون أن ترضوا عنهم كأنهم ما فعلوا شيئًا ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: فلا ينبغي لكم ـ أيها المؤمنون ـ أن ترضوا عمن لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه، وتأمل كيف قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ولم يقل: «فإن الله لا يرضى عنهم» ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم فإن الله يتوب عليهم ويرضى عنهم، وأما ما داموا فاسقين فإن الله لا يرضى عليهم لوجود المانع من رضاه وهو: خروجهم عما رضيه الله لهم من الإيمان والطاعة إلى ما يغضبه من الشرك والنفاق والمعاصي، وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر إذا اعتذروا للمؤمنين وزعموا أن لهم أعذارا في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم فلا حبًّا ولا كرامة لهم، وأما الإعراض عنهم فيعرض المؤمنون عنهم إعراضهم عن الأمور الردية والرجس، وفي هذه الآيات إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية لله الواقعة بمشيئته تعالى وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه، وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿الأَعْرَابُ﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق وذلك لأسباب كثيرة: منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم أحرى ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله فيحدث لهم ـ بسبب هذا العلم ـ تصورات حسنة وإرادات للخير الذي يعلمون منه ما لا يكون في البادية، وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية، ويجالسون أهل الإيمان ويخالطونهم أكثر من أهل البادية، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة كفار ومنافقون ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة، ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال وأشح فيها، فمنهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: يراها خسارة ونقصًا، لا يحتسب فيها ولا يريد بها وجه الله ولا يكاد يؤديها إلا كرهًا ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم أنهم يودون ويتنظرون فيهم دوائر الدهر وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم فتكون ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم ولهم العقبى الحسنة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم نيات العباد وما صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره، وليس الأعراب كلهم مذمومين بل منهم ﴿مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: يحتسب نفقته ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه ﴿وَ﴾ يجعلها وسيلة إلى ﴿صَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: دعائه لهم وتبريكه عليهم، قال تعالى مبينًا لنفع صلوات الرسول: ﴿أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ تقربهم إلى الله وتنمي أموالهم وتحل فيها البركة ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ في جملة عباده الصالحين ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه ويعم عباده برحمته التي وسعت كل شيء ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات ويحميهم فيها من المخالفات ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات، وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله وأنهم في مظنة ذلك، ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص

ويغلظ ويخف بحسب الأحوال، ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه، لأن الله ذم الأعراب وأخبر أنهم أشد كفرًا ونفاقًا وذكر السبب الموجب لذلك وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، ومنها: أن العلم النافع الذى هو أنفع العلوم معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله من أصول الدين وفروعه كمعرفة حدود الإيمان والإسلام والإحسان والتقوى والفلاح والطاعة والبر والصلة والكفر والنفاق والفسوق والعصيان والزنا والخمر والربا ونحو ذلك، فإن فى معرفتها يتمكن العارف من فعلها إن كانت مأمورًا بها أو تركها إن كانت محظورة، ومن الأمر بها أو النهى عنها، ومنها: أنه ينبغى للمؤمن أن يؤدى ما عليه من الحقوق منشرح الصدر مطمئن النفس ويحرص أن تكون مغنمًا ولا تكون مغرمًا.

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾

﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ** ﴾ هم: الذين سبقوا هذه الأمة وبدروها للإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله ﴿ **مِنَ الْمُهَاجِرِينَ** ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴿ **وَ** ﴾ من ﴿ **الأَنصَارِ** ﴾ الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ** ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاءهم الذين سلموا من الذم وحصل لهم نهاية المدح وأفضل الكرامات من الله ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** ﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة ﴿ **وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ** ﴾ الجارية التى تساق إلى سقى الجنان والحدائق الزاهية الزاهرة والرياض الفاخرة ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾ لا يبغون عنها حولاً ولا يطلبون منها بدلاً، لأنهم مهما تمنوه أدركوه ومهما أرادوه وجدوه ﴿ **ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ الذى حصل لهم فيه كل محبوب للنفوس ولذة للأرواح ونعيم للقلوب وشهوة للأبدان واندفع عنهم كل محذور.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) ﴾

يقول تعالى: ﴿ **وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ** ﴾ أيضًا منافقون ﴿ **مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ** ﴾ أى: تمرنوا عليه وازدادوا فيه طغيانًا ﴿ **لا تَعْلَمُهُمْ** ﴾ بأعيانهم فتعاقبهم أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله فى ذلك من الحكمة الباهرة ﴿ **نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ** ﴾ يحتمل أن التثنية على بابها وأن عذابهم عذاب فى الدنيا وعذاب فى الآخرة، ففى الدنيا ما ينالهم من الهم والغم والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفى الآخرة عذاب النار وبئس القرار، ويحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب ونضاعفه عليهم ونكرره.

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) ﴾

يقول تعالى: ﴿ **وَآخَرُونَ** ﴾ ممن بالمدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية ﴿ **اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ** ﴾ أى: أقروا بها وندموا عليها وسعوا فى التوبة منها والتطهير من أدرانها ﴿ **خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا** ﴾ ولا يكون العمل صالحًا إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان المخرج عن الكفر والشرك الذى هو شرط لكل عمل صالح، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة من التجرى على بعض المحرمات والتقصير فى بعض الواجبات مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** ﴾ وتوبته على عبده نوعان: **الأول**: التوفيق للتوبة، **والثانى**: قبولها بعد وقوعها منهم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أى: وصفه المغفرة والرحمة اللتان لا يخلو مخلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوى والسفلى إلا بهما، فلو يؤاخذ الله الناس

بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ومن مغفرته أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة إذا تابوا إليه وأنابوا ولو قبيل موتهم بأقل القليل فإنه يعفو عنهم ويتجاوز عن سيئاتهم، فهذه الآية دالة على أن المخلط المعترف النادم الذى لم يتب توبة نصوحًا أنه تحت الخوف والرجاء وهو إلى السلامة أقرب، وأما المخلط الذى لم يعترف ولم يندم على ما مضى منه بل لا يزال مصرًا على الذنوب فإنه يخاف عليه أشد الخوف، قال تعالى لرسوله - ومن قام مقامه - آمرًا له بما يطهر المؤمنين ويتمم إيمانهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ وهى الزكاة المفروضة ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أى: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ أى: تنميهم وتزيد فى أخلاقهم الحسنة وأعمالهم الصالحة وتزيد فى ثوابهم الدنيوى والأخروى وتنمى أموالهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أى: ادع لهم، أى: للمؤمنين عمومًا وخصوصًا عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أى: طمأنينة لقلوبهم واستبشار لهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك سمع إجابة وقبول ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ونياتهم فيجازى كل عامل بعمله وعلى قدر نيته، فكان النبى ﷺ يمتثل لأمر الله ويأمرهم بالصدقة ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه وأخذ صدقته دعا له وبرَّك، ففى هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة فى جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة فإنها أموال تنمى ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة، وما عدا أموال التجارة فإن كان المال ينمى كالحبوب والثمار والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل فإنه تجب فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها لأنها إذا كانت للقنية لم تكن بمنزلة الأموال التى يتخذها الإنسان فى العادة مالا يتموله ويطلب منه المقاصد المالية وإنما صرف عن المالية بالقنية ونحوها، وفيها أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شىء سوى أدائها لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها، وفيها استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغى أن يكون جهرًا بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه، ويؤخذ من المعنى أنه ينبغى إدخال السرور على المؤمنين بالكلام اللين والدعاء لهم ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة وسكون لقلبه.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

أى: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه، وأنه ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ التائبين من أى ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح يقدر ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ منهم أى يقبلها ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدهم كما يربى الرجل فلوه[1] حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أى: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه ولو تكررت منه المعصية مرارًا، ولا يمل الله من التوبة على عباده حتى يملوا هم ويأبوا إلا النفار والشرود عن بابه وموالاتهم عدوهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذى وسعت رحمته كل شىء وكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآياته ويتبعون رسوله.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَقُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿اعْمَلُوا﴾ ما ترون من الأعمال واستمروا على باطلكم فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، ففى هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر

---

(١) بوزن (عدو) وفيه لغة ثانية على وزن (حمل) بكسر الحاء وسكون الميم أى: المهر يفصل عن أمه، والجمع أفلاء مثل عدو وأعداء، والأنثى (فلوة) على وزن (عدوة) بفتح العين وضم الدال وتشديد الواو، وعلى لغة فتح العين وضم الدال تكون الواو مشددة: اهـ من المصباح بزيادة إيضاح.

على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه، ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير وشر فإن الله مطلع عليكم وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

أي: ﴿وَآخَرُونَ﴾ من المخلفين ﴿مُرْجَوْنَ﴾ أي: مؤخرون ﴿لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ففى هذا التخويف الشديد للمتخلفين والحث لهم على التوبة والندم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة فعل ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء يريدون به المضارة والمشاقة بين المؤمنين ويعدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله يكون لهم حصنًا عند الاحتياج إليه فبيّن تعالى خزيهم وأظهر سرهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً﴾ أى: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذى يجتمعون فيه ﴿وَكُفْراً﴾ أى: مقصدهم فيه الكفر إذا قصد غيرهم الإيمان ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا ﴿وَإِرْصَاداً﴾ أى: إعداداً ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ أى: إعانة للمحاربين لله ورسوله الذين تقدم حرابهم واشتدت عداوتهم، وذلك كأبى عامر الراهب الذى كان من أهل المدينة فلما قدم النبى ﷺ وهاجر إلى المدينة كفر بـه وكان متعبداً فى الجاهلية فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ، فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره فهلك اللعين فى الطريق، وكان على وعد وممالئة هو والمنافقون، فكان مما أعدوا له مسجد الضرار فنزل الوحى بذلك فبعث إليه النبى ﷺ من يهدمه ويحرقه فهدم وحرق وصار بعد ذلك مزبلة، قال تعالى بعدما بين مقاصدهم الفاسدة فى ذلك المسجد:- ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا﴾ فى بنائنا إياه ﴿إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ أى: الإحسان إلى الضعيف والعاجز والضرير ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ أى: لا تصل فى ذلك المسجد الذى بنى ضراراً أبداً فالله يغنيك عنه ولست بمضطر إليه ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ ظهر فيه الإسلام فى «قباء» وهو مسجد «قباء» أسس على إخلاص الدين لله وإقامة ذكره وشعائر دينه وكان قديماً فى هذا عريقا فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ وتتعبد وتذكر الله تعالى فهو فاضل وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ من الذنوب ويتطهروا من الأوساخ والنجاسات والأحداث، ومن المعلوم أن من أحب شيئًا لا بد أن يسعى له ويجتهد فيما يحب فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه وكانوا مقيمين للصلاة محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ وإقامة شرائع الدين وممن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله وسألهم النبى ﷺ بعدما نزلت هذه الآية فى مدحهم عن طهارتهم فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء فحمدهم على صنيعهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ الطهارة المعنوية كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث، ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: على نية صالحة وإخلاص ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بأن كان موافقا لأمره فجمع فى عمله بين الإخلاص والمتابعة ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ

بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا ﴾ أى: على طرف ﴿ جُرُفٍ هَارٍ ﴾ أى: بال قد تداعى للانهدام ﴿ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أى: شكًا وريبًا ماكثًا فى قلوبهم ﴿ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبًا إلى ريبهم ونفاقًا إلى نفاقهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها خفيها وجليها وبما أسره العباد وأعلنوه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به فللّه الحمد، وفى هذه الآيات عدة فوائد: منها: أن اتخاذ المسجد الذى يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه أنه محرم وأنه يجب هدم مسجد الضرار الذى اطلع على مقصود أصحابه، ومنها: أن العمل وإن كان فاضلاً تغيره النية فينقلب منهيًا عنه كما قلبت نية أصحاب مسجدِ الضرار عملهم إلى ما ترى، ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين فإنها من المعاصى التى يتعين تركها وإزالتها كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهى عنه كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله، ومنها: النهى عن الصلاة فى أماكن المعصية والبعد عنها وعن قربها، ومنها: أن المعصية تؤثر فى البقاع كما أثرت معصية المنافقين فى مسجد الضرار ونهى عن القيام فيه وكذلك الطاعة تؤثر فى الأماكن كما أثرت فى مسجد «قباء» حتى قال الله فيه: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلى فيه وحث على الصلاة فيه، ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة فى الآية أربع قواعد مهمة: وهى: كل عمل فيه مضارة لمسلم أو فيه معصية لله فإن المعاصى من فروع الكفر أو فيه تفريق بين المؤمنين أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله فإنه محرم ممنوع منه وعكسه بعكسه، ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجدًا أسس على التقوى فمسجد النبى ﷺ الذى أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى، ومنها: أن العمل المبنى على الإخلاص والمتابعة هو العمل المؤسس على التقوى الموصل لعامله إلى جنات النعيم، والعمل المبنى على سوء القصد وعلى البدع والضلال هو العمل المؤسس على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين.

﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾

يخبر تعالى خبرًا صدقًا ويعد وعدًا حقًا بمبايعة عظيمة ومعاوضة جسيمة، وهو: أنه ﴿ اشْتَرَىٰ ﴾ بنفسه الكريمة ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾ فهى المثمن والسلعة المبيعة ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ التى فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من أنواع اللذات والأفراح والمسرات والحور الحسان والمنازل الأنيقات، وصفة العقد والمبايعة بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم فى جهاد أعدائه لإعلاء كلمته وإظهار دينه ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ فهذا العقد والمبايعة قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ التى هى أشرف الكتب التى طرقت العالم وأعلاها وأكملها وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ﴾ أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله ﴿ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ﴾ أى: لتعزموا بذلك وليبشر بعضكم بعضًا ويحث بعضكم بعضًا ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذى لا فوز أكبر منه ولا أجل لأنه يتضمن السعادة الأبدية والنعيم المقيم والرضا من الله الذى هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة فانظر إلى المشترى من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض وهو أكبر الأعواض وأجلها جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها وهو: النفس والمال الذى هو أحب الأشياء للإنسان، وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع وهو أشرف الرسل وبأى الكتب رقم فى كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾

كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال: ﴿التَّائِبُونَ﴾ أى: الملازمون للتوبة فى جميع الأوقات عن جميع السيئات ﴿الْعَابِدُونَ﴾ أى: المتصفون بالعبودية لله والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات فى كل وقت فبذلك يكون العبد من العابدين ﴿الْحَامِدُونَ﴾ لله فى السراء والضراء واليسر والعسر المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة المثنون على الله بذكرها وبذكره فى آناء الليل وآناء النهار ﴿السَّائِحُونَ﴾ فسرت السياحة بالصيام أو السياحة فى طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب فى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر فى القربات كالحج والعمرة والجهاد وطلب العلم وصلة الأقارب ونحو ذلك ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أى: المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهى جميع ما نهى الله ورسوله عنه ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله وما يدخل فى الأوامر والنواهى والأحكام وما لا يدخل الملازمون لها فعلاً وتركًا ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر ما يبشر لهم به ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة فالبشارة متناولة لكل مؤمن، وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين وإيمانهم قوة وضعفًا وعملاً بمقتضاه.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾

يعنى: ما يليق ولا يحسن بالنبى والمؤمنين به ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أى: لمن كفر به وعبد معه غيره ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فإن الاستغفار لهم فى هذه الحال غلط غير مفيد فلا يليق بالنبى والمؤمنين، لأنهم إذا ماتوا على الشرك أو علم أنهم يموتون عليه فقد حقت عليهم كلمة العذاب ووجب عليهم الخلود فى النار ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين ولا استغفار المستغفرين وأيضًا فإن النبى والذين آمنوا معه عليهم أن يوافقوا ربهم فى رضاه وغضبه ويوالوا من والاه الله ويعادوا من عاداه الله والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك مناقض له، ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ فى قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله سيموت على الكفر ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ موافقة لربه وتأدبًا معه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أى: رجّاع إلى الله فى جميع الأمور كثير الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: ذو رحمة بالخلق وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستفزه جهل الجاهلين ولا يقابل الجانى عليه بجرمه، فأبوه قال له: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وهو يقول له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ فعليكم أن تقتدوا به وتتبعوا ملة إبراهيم فى كل شىء ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ كما نبهكم الله عليها وعلى غيرها، ولهذا قال:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦﴾

يعنى أن الله تعالى إذا منَّ على قوم بالهداية وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه وتدعو إليه ضرورتهم فلا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم، ففى هذا دليل

على كمال رحمته وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد فى أصول الدين وفروعه، ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ فإذا بيَّن لهم ما يتقون فلم ينقادوا له عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين والأول أولى ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلكمال علمه وعمومه علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون وبيَّن لكم ما به تنتفعون ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: هو المالك لذلك المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدرى فكيف يخل بتدبيره الدينى المتعلق بإلهيته ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم تولية لعباده؟ فلهذا قال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى: ولى يتولاكم بجلب المنافع لكم أو ﴿نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾

يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه تاب ﴿عَلَى النَّبِيِّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ فغفر لهم الزلات ووفر لهم الحسنات ورقاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أى: خرجوا معه لقتال الأعداء فى غزوة «تبوك» وكانت فى حر شديد وضيق من الزاد والركوب وكثرة عدد مما يدعو إلى التخلف، فاستعانوا بالله تعالى وقاموا بذلك ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أى: تنقلب قلوبهم ويميلوا إلى الدعة والسكون ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم، وزيغ القلب هو: انحرافه عن الصراط المستقيم فإن كان الانحراف فى أصل الدين كان كفرًا، وإن كان فى شرائعه كان بحسب تلك الشريعة التى زاغ عنها، إما قصر عن فعلها أو فعَلها على غير الوجه الشرعى، وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أى: قبل توبتهم ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن رأفته ورحمته أن منَّ عليهم بالتوبة وقبلها منهم وثبتهم عليها ﴿وَ﴾ كذلك لقد تاب ﴿عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ عن الخروج مع المسلمين فى تلك الغزوة وهم «كعب ابن مالك» وصاحباه وقصتهم مشهورة معروفة فى الصحاح والسنن ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ حزنوا حزنًا عظيمًا و ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أى: على سعتها ورحبها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ التى هى أحب إليهم من كل شىء فضاق عليهم الفضاء الواسع والمحبوب الذى لم تجر العادة بالضيق منهم وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شىء ﴿وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أى: تيقنوا وعرفوا بحالهم أنه لا ينجى من الشدائد ويلجأ إليه إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين وتعلقوا بالله ربهم وفروا منه إليه فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أى: أذن فى توبتهم ووفقهم لها ﴿لِيَتُوبُوا﴾ لتقع منهم فيتوب الله عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أى: كثير التوبة والعفو والغفران عن الزلات والنقصان ﴿الرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التى لا تزال تنزل على العباد فى كل وقت وحين فى جميع اللحظات ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية، وفى هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات وأعلى النهايات فإن الله جعلها نهاية خواص عباده وامتنَّ عليهم بها حين عملوا الأعمال التى يحبها ويرضاها، ومنها: لطف الله بهم وتثبيتهم فى إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة، ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس لها فضل ومزية ليست لغيرها وكلما عظمت المشقة عظم الأجر، ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد وأن من لا يبالى بالذنب ولا يحرج إذا فعله فإن توبته مدخولة وإن زعم أنها مقبولة، ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقًا تامًا وانقطع عن المخلوقين، ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة أن وسمهم بوسم ليس بعار عليهم فقال: ﴿خُلِّفُوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين

خلفوهم أو خلفوا عمن بُتَّ فى قبول عذرهم أو فى رده وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير ولهذا لم يقل: «تخلفوا»، ومنها: أن الله تعالى مَنَّ عليهم بالصدق ولهذا أمر بالاقتداء بهم فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾

أى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبما أمر الله بالإيمان به قوموا بما يقتضيه الإيمان وهو القيام بتقوى الله باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم الذين أقوالهم صدق وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقًا خالية من الكسل والفتور سالمة من المقاصد السيئة مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة، قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الآية.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾

يقول تعالى حاثًا لأهل المدينة المنورة من المهاجرين والأنصار ومن حولها من الأعراب الذين أسلموا فحسن إسلامهم: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ أى: ما ينبغى لهم ذلك ولا يليق بأحوالهم ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فى بقائها وراحتها وسكونها ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ الكريمة الزكية، بل النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدى النبى ﷺ بنفسه ويقدمه عليها، فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبته والإيمان التام به أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أى: المجاهدين فى سبيل الله ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ أى: تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: مجاعة ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا فى مبادرتهم إلى أمر الله وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم، ثم قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ فى ذهابهم إلى عدوهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ومن ذلك هذه الأعمال إذا أخلصوا فيها لله ونصحوا فيها، ففى هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد فى سبيل الله والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات وأن ذلك لهم رفعة درجات وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

﴿ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾

يقول تعالى منبها لعباده المؤمنين على ما ينبغى لهم: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ أى: جميعًا لقتال عدوهم فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك ويفوت به كثير من المصالح الأخرى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أى: من البلدان والقبائل والأفخاذ ﴿طَائِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى، ثم نبه على أن فى إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ أى: القاعدون ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أى: ليتعلموا العلم الشرعى ويعلموا معانيه ويفقهوا أسراره وليعلموا غيرهم ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، ففى هذا فضيلة العلم وخصوصًا الفقه فى الدين وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علمًا

فعليه نشره وبثه فى العباد ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذى ينمى، وأما اقتصار العالم على نفسه وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون فأى منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأى نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت فيموت علمه وثمرته وهذا غاية الحرمان لمن آتاه الله علمًا ومنحه فهمًا، وفى هذه الآية أيضًا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف لفائدة مهمة، وهى: أن المسلمين ينبغى لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها ويوفر وقته عليها ويجتهد فيها ولا يلتفت إلى غيرها لتقوم مصالحهم وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب فالأعمال متباينة والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة فى جميع الأمور.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وهذا أيضًا إرشاد آخر بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال أرشدهم إلى أنهم يبدءون بالأقرب فالأقرب من الكفار والغلظة عليهم والشدة فى القتال والشجاعة والثبات ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى فلازموا على تقوى الله يُعنْكُم وينصركم على عدوكم، وهذا العموم فى قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ مخصوص بما إذا كانت المصلحة فى قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جدًا.

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى - مبينًا حال المنافقين وحال المؤمنين عند نزول القرآن وتفاوت ما بين الفريقين فقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر والنهى والخبر عن نفسه الكريمة وعن الأمور الغائبة والحث على الجهاد ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ أى: حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين، قال تعالى، مبينًا الحال الواقعة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ بالعلم بها وفهمها واعتقادها والعمل بها والرغبة فى فعل الخير والانكفاف عن فعل الشر ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أى: يبشر بعضهم بعضًا بما منَّ الله عليهم من آياته والتوفيق لفهمها والعمل بها، وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله وطمأنينة قلوبهم وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى: شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أى: مرضًا إلى مرضهم وشكًا إلى شكهم من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها فازداد لذلك مرضهم وترامى بهم إلى الهلاك ﴿وَ﴾ الطبع على قلوبهم حتى ﴿مَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وهذا عقوبة لهم لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله فأعقبهم نفاقًا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه، قال تعالى موبخًا لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التى يراد بها اختبارهم ﴿ثُمَّ لا يَتُوبُونَ﴾ عما هم عليه من الشر ﴿وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ما ينفعهم فيفعلونه وما يضرهم فيتركونه، فالله تعالى - يبتليهم - كما هى سنته فى سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهى ليرجعوا إليه ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون، وفى هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص وأنه ينبغى للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده فيجدده وينميه ليكون - دائمًا - فى صعود، وقوله:

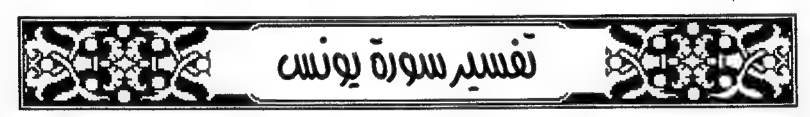
﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

يعنى: أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ليؤمنوا بها ويعملوا بمضمونها ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ جازمين على ترك العمل بها ينتظرون الفرصة فى الاختفاء عن أعين المؤمنين ويقولون: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ متسللين وانقلبوا معرضين فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ أى: صدها عن الحق وخذلها ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فقهًا ينفعهم فإنهم لو فقهوا لكانوا - إذا نزلت سورة - آمنوا بها وانقادوا لأمرها، والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبى الأمى الذى من أنفسهم يعرفون حاله ويتمكنون من الأخذ عنه ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ فى غاية النصح لهم والسعى فى مصالحهم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى: يشق عليه الأمر الذى يشق عليكم ويعنتكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فيحب لكم الخير ويسعى جهده فى إيصاله إليكم ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان ويكره لكم الشر ويسعى جهده فى تنفيركم عنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: شديد الرأفة والرحمة بهم أرحم بهم من والديهم، ولهذا كان حقه مقدمًا على سائر حقوق الخلق وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيره ﴿فَإِن﴾ آمنوا فذلك حظهم وتوفيقهم وإن ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان والعمل فامض على سبيلك ولا تزل فى دعوتك وقل: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى: الله يكفينى جميع ما أهمنى ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: لا معبود بحق سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى: اعتمدت ووثقت به فى جلب ما ينفع ودفع ما يضر ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذى هو أعظم المخلوقات، وإذا كان رب العرش العظيم الذى وسع المخلوقات كان ربًا لما دونه من باب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه، فلله الحمد أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا



تفسير سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢)﴾

يقول تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وهو هذا القرآن المشتمل على الحكمة والأحكام الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهى الشرعية الذى على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد ومع هذا فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون فتعجبوا ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ عذاب الله وخوفهم نقم الله وذكرهم بآيات الله ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيمانًا صادقًا ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى: لهم جزاء موفور وثواب مدخور عند ربهم بما قدموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجبًا حملهم على الكفر به ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ عنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بيِّنُ السحر لا يخفى - بزعمهم - على أحد، وهذا من سفههم وعنادهم فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم الذى بعثه الله من أنفسهم يعرفونه حق المعرفة فردوا دعوته وحرصوا على إبطال دينه، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

يقول تعالى، مبينًا لربوبيته وإلهيته وعظمته: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر على خلقها فى لحظة واحدة ولكن لما فى ذلك من الحكمة الإلهية ولأنه رفيق فى أفعاله ومن جملة حكمته فيها أنه خلقها بالحق وللحق ليُعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة ﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السموات والأرض ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بعظمته ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ فى العالم العلوى والسفلى من الإماتة والإحياء وإنزال الأرزاق ومداولة الأيام بين الناس وكشف الضر عن المضرورين وإجابة سؤال السائلين، فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه وجميع الخلق مذعنون لعزته خاضعون لعظمته وسلطانه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا يأذن إلا لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذى هذا شأنه ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: هو الله الذى له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال ووصف الربوبية الجامعة لصفات الأفعال ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أى: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود ذو الجلال والإكرام فلما ذكر حكمه القدرى وهو التدبير العام وحكمه الدينى وهو شرعه الذى مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له ذكر الحكم الجزائى وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أى: سيجمعكم بعد موتكم لميقات يوم معلوم ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أى: وعده صادق لا بد من إتمامه ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته والذى يرى ابتداءه بالخلق ثم ينكر إعادته للخلق فهو فاقد العقل منكر لأحد المثلين مع إثبات ما هو أولى منه فهذا دليل عقلى واضح على المعاد ثم ذكر الدليل النقلى فقال: ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم من واجبات ومستحبات ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أى: بإيمانهم وأعمالهم جزاء قد بينه لعباده وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أى: ماء حار يشوى الوجوه ويقطع الأمعاء ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى: بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾

لما قرر ربوبيته وإلهيته ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله فى أسمائه وصفاته من الشمس والقمر والسموات والأرض وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات وأخبر أنها آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ فإن العلم يهدى إلى معرفة الدلالة فيها وكيفية استنباط الدلائل على أقرب وجه، والتقوى تحدث فى القلب الرغبة فى الخير والرهبة من الشر الناشئين عن الأدلة والبراهين وعن العلم واليقين، وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة دال على كمال قدرة الله تعالى وعلمه وحياته وقيوميته وما فيها من الأحكام والإتقان والإبداع والحسن دال على كمال حكمة الله وحسن خلقه وسعة علمه، وما فيها من أنواع المنافع والمصالح، جعل الشمس ضياء والقمر نوراً يحصل بهما من النفع الضرورى وغيره مما يحصل يدل ذلك على رحمة الله تعالى واعتنائه بعباده وسعة بره وإحسانه وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة وذلك دال على أنه وحده المعبود والمحبوب المحمود ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام الذى

لا تنبغى الرغبة والرهبة إلا إليـه ولا يصرف خالص الدعاء إلا له لا لغيره من المخلوقات المربوبات المفتقرات إلى الله فى جميع شئونـها، وفى هذه الآيات: الحث والترغيب على التفكير فى مخلوقات الله والنـظر فيها بعين الاعتبار فإن بذلك تنفسح البصيرة ويزداد الإيمان والعقل وتقوى القريحـة وفى إهمال ذلك تهاون بما أمر الله به وإغلاق لزيادة الإيمان وجمود للذهن والقريحة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أى: لا يطمعون بلقاء الله الذى هو أكبر ما طمع فيه الطامعون؛ وأعلى ما أمله المـؤملون، بل أعرضوا عن ذلك وربمـا كذبوا به ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدلاً عن الآخـرة ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أى: ركنوا إليها وجعلوها غاية أمرهم ونهاية قصدهم فـسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأى طريق حصلت حصلوها ومن أى وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها فكأنهم خلقوا للبقاء فيهـا وكأنها ليست بدار ممر يتزود فيها المسافـرون إلى الدار الباقية التى إليها يرحل الأولون والآخرون وإلى نعيمها ولذاتهـا شمر الموفقون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ فلا ينتفعـون بالآيات القرآنية ولا بالآيات الأفقية والنفسية والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة عن المدلول المقصود ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الذين هذا وصفهم ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أى: مقرهم ومسكنهم التى لا يرحلون عنها ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والشرك وأنواع المعاصى فلما ذكر عقابهم ذكر ثواب المطيعين فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول تـعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: جمعوا بين الإيمان والقيام بمـوجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة المشتملة على أعمـال القلوب وأعمال الجوارح على وجه الإخلاص والمتابعة ﴿يَهْـدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ أى: بسبب ما معهم من الإيمان يثيبهم الله أعظم الثواب وهو: الهداية فيعلمهم ما ينفعهم ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية ويهديهم للنظر فى آياته ويهديهم فى هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفى دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِـيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم لاشتمالها على النعيم التـام نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والحبور ورؤية الرحمن وسماع كـلامه والاغتباط برضاه وقربه ولقاء الأحـبة والإخوان والتمتع بالاجتمـاع بهم وسماع الأصوات المطربات والنغمات المشجيات والمناظر المفـرحات، ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب والمناكح ونحو ذلك مما لا تعلمه النفوس ولا خطر ببال أحد أو قدر أن يصفه الواصفون ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أى: عبادتهم فيها لله أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم فى دار الجزاء وإنما بقى لهم أكمل اللذات الذى هو ألذ عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو: ذكر الله الذى تطمئن به القلوب وتفرح به الأرواح وهو لهم بمنزلة النَّفَس من دون كلفة ومـشقة ﴿وَ﴾ أمـا ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ فيمـا بينهم عند التلاقى والتزاور فهو السلام أى: كلام سالم من اللغو والإثم موصوف بأنه ﴿سَلامٌ﴾ وقد قيل فى تفسير قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ﴾ إلى آخر الآية أن أهل الجنة ـ إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما ـ قالوا: سبحانك اللهم، فأحضر لهم فى الحال ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ إذا فرغوا ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهذا من لطفه وإحسانه بعباده أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه ويبادرهم بالعقوبة على ذلك كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لمحقتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة، ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حليم حكيم، وقوله: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يؤمنون بالآخرة فلذلك لا يستعدون لها ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: باطلهم الذي جاوزوا به الحق والحد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون حائرين لا يهتدون السبيل ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم على ظلمهم وكفرهم بآيات الله.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)﴾

وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو وأنه إذا مسه ضر من مرض أو مصيبة اجتهد في الدعاء وسأل الله في جميع أحواله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ أي: استمر في غفلته معرضًا عن ربه كأنه ما جاءه ضر فكشفه الله عنه، فأي ظلم أعظم من هذا الظلم؟!! يطلب من الله قضاء غرضه فإذا أناله إياه لم ينظر إلى حق ربه وكأنه ليس عليه لله حق، وهذا تزيين من الشيطان زين له ما كان مستهجنًا مستقبحًا في العقول والفطر ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾

يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل وتبين الحق فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ على محارم الله وهذه سنته في جميع الأمم ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أي: المخاطبين ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم واتبعتم آيات الله وصدقتم رسله نجوتم في الدنيا والآخرة، وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم أحل بكم ما أحل بهم ومن أنذر فقد أعذر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)﴾

يذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق أعرضوا عنها وطلبوا وجوه التعنت فقالوا، جراءة منهم وظلمًا: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ فقبحهم الله ما أجرأهم على الله وأشدهم ظلمًا وردًا لآياته فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق بي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ فإني رسول محض ليس لي من الأمر شيء ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: ليس لي غير ذلك فإني عبد مأمور ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فهذا قول خير الخلق وأدبه مع أوامر ربه ووحيه فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين الذي جمعوا بين الجهل والضلال والظلم والعناد والتعنت والتعجيز لرب العالمين، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟!! فإن زعموا أن قصدهم أن يتبين لهم الحق بالآيات التي طلبوا فهم كَذَبَةٌ في ذلك، فإن الله قد بيَّن من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهو الذي يصرفها

كيف يشاء تبعًا لحكمتـه الربانية ورحمته بعباده ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ طويلاً ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ أى: قبل تلاوته وقبل درايتكم به وأنا ما خطر على بالى ولا وقع فى ظنى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنى حيث لم أتله فى مدة عمرى ولا صدر منى ما يدل على ذلك فكيف أتقوَّله بعد ذلك وقد لبثت فيكم عمرًا طويلاً تعرفون حـقيقة حالى بأنى أمىٌّ لا أقـرأ ولا أكتب ولا أدرس ولا أتعلم من أحد؟!! فأتيتكم بكتـاب عظيم أعجز الفصحاء وأعـيا العلماء فهل يمكن ـ مع هذا ـ أن يكون من تلقاء نفـسى، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟ فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم وتدبرتم حالى وحال هذا الكتاب لجزمتم جزمًا لا يقبل الريب بصدقه وأنه الحق الذى ليس بعده إلا الضلال ولكن إذا أبيتم إلا التكذيب والعناد فأنتم لا شك أنكم ظالمون ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ؟! فلو كنت متقولاً لكنت أظلم الناس وفاتنى الفلاح ولم تخفَ عليكم حالى ولكنى جئتكم بآيات الله فكذبـتم بها فتعين فيكم الظلم ولا بـد أن أمركم سيضمحل ولن تنالوا الفـلاح ما دمتم كذلك ودل قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ الآية أن الذى حملهم على هذا التعنت الذى صدر منهم هو عدم إيمانهم بلقاء الله وعدم رجائه وأن من آمن بلقاء الله فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب ويؤمن به لأنه حسن القصد.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تـعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أى: المشركـون المكذبون لرسول الله ﷺ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أى: إن معبوداتهم لا تملك لهم مثقال ذرة من النفع ولا تدفع عنهم شيئًا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولاً خاليًا من البـرهان: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ أى: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله ويشـفعوا لهم عنده وهذا قول من تلقاء أنفسهم وكلام ابتكروه هم ولهذا قـال تعالى، مبطلاً لهذا القول: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: الله تعالى هو العالم الذى أحـاط علمًا بجميع ما فى السموات والأرض وقـد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه أفـأنتم ـ يا معشر المشركين ـ تزعمون أنه يوجد له فيهـا شركاء؟ أفتخبرونه بـأمر خفى عليه وعلمتموه؟ أأنتم أعلم أم الله؟ فـهل يوجد قول أبطل من هذا القول المتضمن أن هؤلاء الضُّلال الجُـهال السفهاء أعلم من رب العالمين؟ فليكتف العاقل بمجرد تصـور هذا القول فإنه يجزم بفساده وبطلانه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْـرِكُـونَ﴾ أى: تقدس وتنزه أن يكـون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحـد الفرد الصـمد الذى لا إله فى السموات والأرض إلا هو، وكل معبود فى العالم العلوى والسفلى سواه فإنه باطل عقلاً وشرعًا وفطرة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

أى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على الدين الصحيح ولكنهم اختلفوا فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بأن ننجى المؤمنين ونهلك الكافرين المكذبين وصار هذا فارقًا بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضـهم ببعض ليتبين الصادق من الكاذب ﴿وَيَقُـولُونَ﴾ أى: المكذبون المتعنتون: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ يعنون: آيات الاقتراح التى يعينونها كقولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ الآيات، وكقولهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ الآيات: ٩٠: ٩٣ من سـورة الإسراء ﴿فَـقُلْ﴾ لهم إذا طلبـوا منك آية: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أى: هو المحيط علمـًا بأحوال العباد

فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة وليس لأحد تدبير فى حكم ولا دليل ولا غاية ولا تعليل ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أى: كلٌّ ينتظر بصاحبه ما هو أهل له فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ كالصحة بعد المرض والغنى بعد الفقر والأمن بعد الخوف نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا فى طغيانهم ومكرهم، ولهذا قال: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ أى: يسعون بالباطل ليبطلوا به الحق ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله فمقصودهم منعكس عليهم ولم يسلموا من التبعة بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون ويحصيه الله ثم يجازيهم عليه أوفر الجزاء.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

لما ذكر تعالى القاعدة العامة فى أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء واليسر بعد العسر ذكر حالة تؤيد ذلك وهى: حالهم فى البحر عند اشتداده والخوف من عواقبه فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بما يسر لكم من الأسباب الميسرة لكم فيها وهداكم إليها ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ أى: السفن البحرية ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ موافقة لما يهوونه من غير انزعاج ولا مشقة ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أى: عرفوا أنه الهلاك فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، وحينئذ ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام فقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء وما ألزموه أنفسهم فأشركوا بالله من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد ولا يدفع عنهم المضايق، فهلا أخلصوا لله العبادة فى الرخاء كما أخلصوها فى الشدة؟! ولكن هذا البغى يعود وباله عليهم ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: غاية ما تؤملون ببغيكم وشرودكم عن الإخلاص لله أن تنالوا شيئًا من حطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذى سينقضى سريعًا ويمضى جميعًا ثم تنتقلون عنه بالرغم عنكم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ فى يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وفى هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

وهذا المثل من أحسن الأمثلة وهو مطابق لحالة الدنيا فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا فإذا استكمل وتم اضمحل وزال عن صاحبه أو زال صاحبه عنه فأصبح صفر اليدين منها ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها فذلك ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أى: نبت فيها من كل صنف وزوج بهيج ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالحبوب والثمار ﴿وَ﴾ مما تأكل ﴿الْأَنْعَامُ﴾ كأنواع العشب

والكلأ المختلف الأصناف ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ أى: تزخرفت فى منظرها واكتست فى زينتها فصارت بهجة للناظرين ونزهة للمتفرجين وآية للمتبصرين فصرت ترى لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر وأصفر وأبيض وغيره ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أى: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم لوقوف إرادتهم عنده وانتهاء مطالبهم فيه، فبينما هم فى تلك الحالة ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أى: كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا سواء بسواء ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أى: نبينها ونوضحها بتقريب المعانى إلى الأذهان وضرب الأمثال ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم وأما الغافل المعرض فهذا لا تنفعه الآيات ولا يزيل عنه الشك البيان ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها شوق إلى الدار الباقية فقال:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ السَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

عمم تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام والحث على ذلك والترغيب وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاءه، فهذا فضله وإحسانه والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل وسمى الله الجنة «دار السلام» لسلامتها من جميع الآفات والنقائص وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه وحسنه من كل وجه، ولما دعا إلى دار السلام كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها أخبر عنها بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أى: للذين أحسنوا فى عبادة الخالق بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة فى عبوديته وقاموا بما قدروا عليه منها وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولى والفعلى من بذل الإحسان المالى والإحسان البدنى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتعليم الجاهلين ونصيحة المعرضين وغير ذلك من وجوه البر والإحسان فهؤلاء الذين أحسنوا لهم ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهى: الجنة الكاملة فى حسنها، و ﴿زِيَادَةٌ﴾ وهى: النظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه والفوز برضاه والبهجة بقربه فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون ويسأله السائلون ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أى: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه لأن المكروه إذا وقع بالإنسان تبين ذلك فى وجهه وتغير وتكدر، وأما هؤلاء فكما قال الله عنهم: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يحولون ولا يزولون ولا يتغيرون.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا۟ السَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ الَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار فذكر أن بضاعتهم التى اكتسبوها فى الدنيا هى الأعمال السيئة المسخطة لله من أنواع الكفر والتكذيب وأصناف المعاصى فـ ﴿جَزَاءُ﴾ هم ﴿سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ أى جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أى: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ فى قلوبهم وخوف من عذاب الله لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسرى تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم فتكون سوادًا فى وجوههم ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق ويا بعد ما بينهما من التفاوت؟! ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعًا﴾ أى: نجمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم ونحضر المشركين وما كانوا يعبدون من دون الله ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ أى: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم ﴿فزيلنا بينهم﴾ أى: فرقنا بينهم بالبعد البدنى والقلبى فحصلت بينهم العداوة الشديدة بعد أن بذلوا لهم فى الدنيا خالص المحبة وصفو الوداد فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضًا وعداوة ﴿وقال شركاؤهم﴾ متبرئين منهم: ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ فإننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد ﴿فكفى بالله شهيدًا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ ما أمرناكم بها ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك وهو الشيطان كما قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ وقال: ﴿ويوم يحشرهم جميعًا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون (٤٠) قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾ فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرءون ممن عبدهم يوم القيامة ويتنصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون فى ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين وأنهم مفترون على الله قد ضلت عبادتهم واضمحلت معبوداتهم وتقطعت بهم الأسباب والوسائل، ولهذا قال: ﴿هنالك﴾ أى: فى ذلك اليوم ﴿تبلو كل نفس ما أسلفت﴾ أى: تتفقد أعمالها وكسبها وتتبعه بالجزاء وتجازى بحسبه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾

أى: قل لهؤلاء الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، محتجًا عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الألوهية: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ بإنزال الأرزاق من السماء وإخراج أنواعها من الأرض وتيسير أسبابها فيها؟ ﴿أمن يملك السمع والأبصار﴾ أى: من هو الذى خلقهما وهو مالكهما؟ وخصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل ولكمال شرفهما ونفعهما ﴿ومن يخرج الحى من الميت﴾ كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى وإخراج المؤمن من الكافر والطائر من البيضة ونحو ذلك ﴿ويخرج الميت من الحى﴾ عكس هذه المذكورات ﴿ومن يدبر الأمر﴾ فى العالم العلوى والسفلى وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿فسيقولون الله﴾ لأنهم يعترفون بجميع ذلك وأن الله لا شريك له فى شيء من المذكورات ﴿فقل﴾ لهم إلزامًا بالحجة ﴿أفلا تتقون﴾ الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له وتخلعون ما تعبدونه من دونه من الأنداد والأوثان ﴿فذلكم﴾ الذى وصف نفسه بما وصفها به ﴿الله ربكم﴾ أى: المألوه المعبود المحمود المربى جميع الخلق بالنعم وهو ﴿الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء الذى ما بالعباد من نعمة إلا منه ولا يأتى بالحسنات إلا هو ولا يدفع السيئات إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام ﴿فأنى تصرفون﴾ عن عبادة من هذا وصفه إلى عبادة الذى ليس له من وجوده إلا العدم ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا فليس له من الملك مثقال ذرة ولا شركة له بوجه من الوجوه ولا يشفع عند الله إلا بإذنه فتبًا لمن أشرك به وويحًا لمن كفر به لقد عدموا عقولهم بعد أن عدموا أديانهم بل فقدوا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ بعد أن أراهم الله من الآيات البينات والبراهين النيرات ما فيه عبرة لأولى الألباب وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم

مَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى مبينًا عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ أي: يبتديه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفى والتقرير أى: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده وهى أضعف من ذلك وأعجز ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أى: تصرفون وتنحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئًا وهم يخلقون ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ ببيانه وإرشاده أو بإلهامه وتوفيقه ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وحده ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ بالأدلة والبراهين وبالإلهام والتوفيق والإعانة إلى سلوك أقوم طريق ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي﴾ أى: لا يهتدى ﴿إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ لعدم علمه ولضلاله وهى شركاؤهم التى لا تهدى ولا تهتدى إلا أن تُهدَى ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أى: أى شىء يجعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل بصحة عبادة أحد مع الله بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده فإذا تبين أنه ليس فى آلهتهم التى يعبدون مع الله أوصافًا معنوية ولا أوصافًا فعلية تقتضى أن تعبد مع الله بل هى متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها فلأى شىء جعلت مع الله آلهة؟ فالجواب: أن هذا من تزيين الشيطان للإنسان أقبح البهتان وأضل الضلال حتى اعتقد ذلك وألفه وظنه حقًا وهو لا شىء، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ أى: أكثر الذين يدعون من دون الله شركاء ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ أى: ما يتبعون فى الحقيقة شركاء لله فإنه ليس لله شريك أصلاً عقلاً ولا نقلاً وإنما يتبعون الظن ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ فسموها آلهة وعبدوها مع الله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: غير ممكن ولا متصور أن يفترى هذا القرآن على الله لأنه الكتاب العظيم الذى ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وهو الكتاب الذى ﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ وهو الكتاب الذى تكلم به رب العالمين فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله أو بما يقاربه والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه ؟!! فإن كان أحد يماثل الله فى عظمته وأوصاف كماله أمكن أن يأتى بمثل هذا القرآن ولو تنزلنا على الفرض والتقدير فتقوله أحد على رب العالمين لعاجله بالعقوبة وبادره بالنكال ﴿وَلَٰكِن﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين وحجة على العباد أجمعين أنزله ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله السماوية بأن وافقها وصدقها بما شهدت به وبشرت بنزوله فوقع كما أخبرت ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ للحلال والحرام والأحكام الدينية والقدرية والإخبارات الصادقة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه بل هو الحق اليقين ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذى ربى جميع الخلق بنعمه ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذى فيه مصالحهم الدينية والدنيوية المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أى: المكذبون به عنادًا وبغيًا: ﴿افْتَرَاهُ﴾ محمد على الله واختلقه ﴿قُلْ﴾ لهم - ملزمًا لهم بشىء - إن قدروا عليه أمكن ما ادعوه وإلا كان قولهم باطلاً ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعاونكم

على الإتيان بسورة مثله وهذا محال ولو كان ممكنًا لادعوا قدرتهم على ذلك ولأتوا بمثله ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل لا حظ له من الحجة والذى حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذى لا حق فوقه أنهم لم يحيطوا به علمًا فلو أحاطوا به علمًا وفهموه حق فهمه لأذعنوا بالتصديق به وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذى وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم ولهذا قال: ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ وهو الهلاك الذى لم يبق منهم أحدًا، فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم فيحل بهم ما أحل بالأمم المكذبين والقرون المهلكين وفى هذا دليل على وجوب التثبت فى الأمور وأنه لا ينبغى للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علمًا ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أى: بالقرآن وما جاء به ﴿ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم والعناد والفساد فسيجاريهم على فسادهم بأشد العذاب ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ فاستمر على دعوتك وليس عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء، لكلٍّ عمله ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾

يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما جاء به ﴿ وَ ﴾ أن ﴿ مِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ ﴾ إلى النبى ﷺ وقت قراءته للوحى لا على وجه الاسترشاد بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلُّب العثرات وهذا استماع غير نافع ولا مُجد على أهله خيرًا لا جرم انسد عليهم باب التوفيق وحرموا من فائدة الاستماع ولهذا قال: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفى المتقرر أى: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به وخصوصًا إذا كان عقلهم معدومًا فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذى لا يعقل للكلام فهؤلاء المكذبون كذلك ممتنع إسماعك إياهم إسماعًا ينتفعون به وأما سماع الحجة فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخبر، ثم ذكر انسداد الطريق الثانى وهو: طريق النظر فقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ فلا يفيدهم نظرهم إليك ولا استراحوا لك شيئًا فكما أنك لا تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون فكذلك لا تهدى هؤلاء، فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التى هى الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟ ودل قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ الآية أن النظر إلى حالة النبى ﷺ وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به وأنه يكفى البصير عن غيره من الأدلة، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴾ فلا يزيد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿ وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ يجيئهم الحق فلا يقبلونه فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم والختم على أسماعهم وأبصارهم.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) ﴾

يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس وهم يتعارفون بينهم كحالهم فى الدنيا ففى هذا اليوم يربح المتقون ويخسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين إلى الصراط المستقيم والدين القويم حيث فاتهم النعيم واستحقوا دخول النار.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) ﴾

أى: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين ولا تستعجل لهم فإنهم لا بد أن يصيبهم الذى نعدهم من

العذاب إما فى الدنيا فتراه بعينك وتقر به نفسك، وإما فى الآخرة بعد الوفاة فإن مرجعهم إلى الله وسينبئهم بما كانوا يعملون، وأحصاه ونسوه، والله على كل شىء شهيد، ففيه الوعيد الشديد لهم والتسلية للرسول الذى كذبه قومه وعاندوه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)﴾

يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية ﴿رَّسُولٌ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه ﴿فَإِذَا جَاءَ﴾ هم ﴿رَسُولُهُمْ﴾ بالآيات صدقه بعضهم وكذبه آخرون فيقضى الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين وإهلاك المكذبين ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة أو يعذبوا بغير جرمهم فليحذر المكذبون لك من مشابهة الأمم المهلكين فيحل بهم ما حل بأولئك ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فإن هذا ظلم منهم حيث طلبوه من النبى ﷺ فإنه ليس له من الأمر شىء وإنما عليه البلاغ والبيان للناس وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم فمن الله تعالى ينزل عليهم إذا جاء الأجل الذى أجله فيه والوقت الذى قدره فيه الموافق لحكمته الإلهية فإذا جاء ذلك الوقت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فليحذر المكذبون من الاستعجال فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذى إذا نزل لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ولهذا قال:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا﴾ وقت نومكم بالليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ فى وقت غفلتكم ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أى: أى بشارة استعجلوا بها وأى عقاب ابتدروه؟ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ﴾ فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله ويقال لهم، توبيخًا وعتابًا فى تلك الحال التى زعموا أنهم يؤمنون: ﴿آلآنَ﴾ تؤمنون فى حال الشدة والمشقة؟ ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فإن سنة الله فى عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسًا إيمانها كما قال تعالى عن فرعون لما أدركه الغرق: ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأنه يقال له: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ﴾ وقال هنا: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ﴾ تدعون الإيمان ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فهذا ما عملت أيديكم وهذا ما استعجلتم به ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ حين يوفون أعمالهم يوم القيامة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أى: العذاب الذى تخلدون فيه ولا يفتر عنكم ساعة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والتكذيب والمعاصى.

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ أى: يستخبرك المكذبون على وجه التعنت والعناد لا على وجه التبين والاسترشاد ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أى: أصحيح حشر العباد وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد وجزاء العباد بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر؟ ﴿قُلْ﴾ لهم مقسمًا على صحته مستدلا عليه بالدليل الواضح والبرهان: ﴿إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لله أن يبعثكم فكما ابتدأ خلقكم ولم

تكونوا شيئًا كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم ﴿وَ﴾ إذا كانت القيامة ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصى جميع ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ من ذهب وفضة وغيرهما لتفتدى به من عذاب الله ﴿لافْتَدَتْ بِهِ﴾ ولما نفعها ذلك وإنما النفع والضر والثواب والعقاب على الأعمال الصالحة والسيئة ﴿وَأَسَرُّوا﴾ أى: الذين ظلموا ﴿النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ ندموا على ما قدموا ولات حين مناص ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أى: العدل التام الذى لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يحكم فيهم بحكمه الدينى والقدرى وسيحكم فيهم بحكمه الجزائى، ولهذا قال: ﴿أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لا يستعدون للقاء الله بل ربما لم يؤمنوا به وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين النقلية والعقلية ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: هو المتصرف بالإحياء والإماتة وسائر أنواع التدابير لا شريك له فى ذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾

يقول تعالى مرغبًا الخلق فى الإقبال على هذا الكتاب الكريم بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: تعظكم وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله المقتضية لعقابه وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ وهو: هذا القرآن شفاء لما فى الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع وأمراض الشبهات القادحة فى العلم اليقينى فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة وإذا وجدت فيه الرغبة فى الخير والرهبة عن الشر ونمتا على تكرر ما يرد إليها من معانى القرآن أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس وصار ما يرضى الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه، وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التى صرفها الله غاية التصريف وبينها أحسن بيان مما يزيل الشبه القادحة فى الحق ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين وإذا صح القلب من مرضه ورفل بأثواب العافية تبعته الجوارح كلها فإنها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالهدى هو العلم بالحق والعمل به والرحمة هى: ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به، فالهدى أجل الوسائل والرحمة أكمل المقاصد والرغائب ولكن لا يهتدى به ولا يكون رحمة إلا فى حق المؤمنين وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة الناشئة عنه حصلت السعادة والفلاح والربح والنجاح والفرح والسرور، ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ الذى هو: القرآن الذى هو أعظم نعمة ومنة وفضل تفضل الله به على عباده ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ الدين والإيمان وعبادة الله ومحبته ومعرفته ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من متاع الدنيا ولذاتها فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين لا نسبة بينها وبين جميع ما فى الدنيا مما هو مضمحل زائل عن قريب وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها وشكرها لله تعالى وقوتها وشدة الرغبة فى العلم والإيمان الداعى للازدياد منهما وهذا فرح محمود بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها أو الفرح بالباطل فإن هذا مذموم كما قال تعالى عن قول قوم قارون له: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ وكما قال تعالى فى الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠) ﴾

يقول تعالى ـ منكرًا على المشركين الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا

﴿أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ يعنى أنواع الحيوانات المحللة التى جعلها الله رزقًا لهم ورحمة فى حقهم ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً﴾ قل لهم موبخًا على هذا القول الفاسد: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؟ ومن المعلوم أن الله لم يأذن لهم فعلم أنهم مفترون ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أن يفعل الله بهم من النكال ويحل لهم من العقاب قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ كثير وذو إحسان جزيل ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ إما أنهم لا يقومون بشكرها وإما أن يستعينوا بها على معاصيه وإما أن يُحرموا منها ويردوا ما منَّ الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذى يعترف بالنعمة ويثنى بها على الله ويستعين بها على طاعته، ويستدل بهذه الآية على أن الأصل فى جميع الأطعمة الحل إلا ما ورد الشرع بتحريمه لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذى أنزله لعباده.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

يخبر تعالى عن عموم مشاهدته واطلاعه على جميع أحوال العباد فى حركاتهم وسكناتهم وفى ضمن هذا الدعوة لمراقبته على الدوام فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أى: حال من أحوالك الدينية والدنيوية ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ أى: وما تتلو من القرآن الذى أوحاه الله إليك ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغير أو كبير ﴿إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى: وقت شروعكم فيه واستمراركم على العمل به فراقبوا الله فى أعمالكم وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها، وإياكم وما يكره الله تعالى فإنه مطلع عليكم عالم بظواهركم وبواطنكم ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أى: ما يغيب عن علمه وسمعه وبصره ومشاهدته ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أى: قد أحاط به علمه وجرى به قلمه وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر كثيرًا ما يقرن الله بينهما وهما: العلم المحيط بجميع الأشياء وكتابته المحيطة بجميع الحوادث، وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم فقال: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ثبت لهم الأمن والسعادة والخير الكثير الذى لا يعلمه إلا الله تعالى، ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى بامتثال الأوامر واجتناب النواهى، فكل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله تعالى وليًا لذلك كانت ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ أما البشارة فى الدنيا فهى: الثناء الحسن والمودة فى قلوب المؤمنين والرؤيا الصالحة وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق وصرفه عن مساوئ الأخلاق، وأما فى الآخرة فأولها البشارة عند قبض أرواحهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وفى القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم، وفى الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم والنجاة من العذاب الأليم ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ بل ما وعد الله فهو حق لا يمكن تغييره ولا تبديله، لأنه الصادق فى قيله الذى لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور والظفر بكل مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى، والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب رتبه الله فى الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى ولهذا أطلق ذلك فلم يقيده.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

أى: ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التى يتصلون بها إلى القدح فيك وفى دينك، فإن أقوالهم لا تُعزهُم ولا تضرك شيئًا ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يؤتيها من يشاء ويمنعها ممن يشاء، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أى: فليطلبها بطاعته بدليل قوله بعده: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ومن المعلوم أنك على طاعة الله وأن العزة لك ولأتباعك من الله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى: سمعه قد أحاط بجميع الأصوات فلا يخفى عليه شىء منها، وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وهو تعالى يسمع قولك وقول أعدائك فيك ويعلم ذلك تفصيلاً فاكتف بعلم الله وكفايته فمن يتق الله فهو حسبه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يخبر تعالى أن له ما فى السموات والأرض خلقًا وملكًا، يتصرف فيهم بما يشاء من أحكامه، فالجميع مماليك لله مسخرون مدبرون لا يستحقون شيئًا من العبادة وليسوا شركاء لله بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ أى: الذى لا يغنى من الحق شيئًا ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ فى ذلك، خرص إفك وبهتان، فإن كانوا صادقين فى أن معبوداتهم شركاء لله فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة فلن يستطيعوا فهل منهم أحد يخلق شيئًا أو يرزق أو يملك شيئًا من المخلوقات أو يدبر الليل والنهار الذى جعله الله قيامًا للناس؟ و ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ فى النوم والراحة بسبب الظلمة التى تغشى وجه الأرض، فلو استمر الضياء لما قرُّوا ولما سكنوا ﴿وَ﴾ جعل الله ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أى: مضيئًا، يبصر به الخلق فينصرفون فى معايشهم ومصالح دينهم ودنياهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عن الله، سمع فهم وقبول واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد، فإن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ويستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرءوف الرحيم العليم الحكيم.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن بهت المشركين لرب العالمين: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فنزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى: تنزه عما يقول الظالمون فى نسبة النقائص إليه علوًا كبيرًا، ثم برهن عن ذلك بعدة براهين: أحدها: قوله: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أى: الغنى منحصر فيه وأنواع الغنى مستغرقة فيه فهو الغنى الذى له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه، فإذا كان غنيًا من كل وجه فلأى شىء يتخذ الولد؟ ألحاجة منه إلى الولد، فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولدًا إلا لنقص فى غناه، البرهان الثانى: قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السموات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد مماليك، ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافى أن يكون له ولد، فإن الولد من جنس والده لا يكون مخلوقًا ولا مملوكًا، فملكيته لما فى السموات والأرض عمومًا تنافى الولادة، البرهان الثالث: قوله: ﴿إِنْ[1] عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أى: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولدًا، فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تحداهم وعجزهم على إقامة الدليل علم بطلان ما قالوه، وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا قال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا

(١) «إن» حرف نفى، أى: (ما عندكم حجة على ادعائكم أن لله ولدًا) فحمل المؤلف حرف «إن» على الاستفهام خطأ، غير وجيه.

تعلمون ﴾ فإن هذا من أعظم المحرمات ﴿ **قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ** ﴾ أى: لا ينالون مطلوبهم ولا يحصل لهم مقصودهم وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً ثم ينتقلون إلى الله ويرجعون إليه فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴿ **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ** ﴾ أى: على قومك ﴿ **نَبَأَ نُوحٍ** ﴾ فى دعوته لقومه حين دعاهم إلى الله مدة طويلة، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فلم يزدهم دعاؤه إياهم إلا طغيانًا فتمللوا منه وسئموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل ولا متوانٍ فى دعوتهم، فقال لهم: ﴿ **يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ أى: إن كان مقامى عندكم وتذكيرى إياكم ما ينفعكم ﴿ **بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ الأدلة الواضحة البينة قد شق عليكم وعظم لديكم وأردتم أن تنالونى بسوء أو تردوا الحق ﴿ **فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ** ﴾ أى: اعتمدت على الله فى دفع كل شر يراد بى وبما أدعو إليه، فهذا جندى وعدَّتى، وأنتم فأتوا بما قدرتم عليه من أنواع العَدَد والعُدَد ﴿ **فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ** ﴾ كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد ولا تدخروا من مجهودكم شيئًا ﴿ **وَ** ﴾ أحضروا ﴿ **شُرَكَاءَكُمْ** ﴾ الذين كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين ﴿ **ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً** ﴾ أى: مشتبهًا خفيًا بل ليكن ظاهرًا علانية ﴿ **ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ** ﴾ أى: اقضوا علىَّ بالعقوبة والسوء الذى فى إمكانكم ﴿ **وَلا تُنظِرُونِ** ﴾ أى: لا تمهلونى ساعة من نهار، فهذا برهان قاطع وآية عظيمة على صحة رسالته وصدق ما جاء به حيث كان وحده لا عشيرة تحميه ولا جنود تؤويه، وقد بادأ قومه بتسفيه آرائهم وفساد دينهم وعيب آلهتهم، وقد حملوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسى وهم أهل القدرة والسطوة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد فأوقعوا بى إن قدرتم على ذلك، فلم يقدروا على شىء من ذلك، فعلم أنه الصادق حقًا، وهم الكاذبون فيما يوعدون، ولهذا قال: ﴿ **فَإِن تَوَلَّيْتُمْ** ﴾ عن ما دعوتكم إليه فلا موجب لتوليكم لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته إلى باطل قامت الأدلة على فساده، ومع هذا ﴿ **فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ** ﴾ على دعوتى وعلى إجابتكم فتقولوا: هذا جاءنا ليأخذ أموالنا فتمتنعون لأجل ذلك ﴿ **إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ** ﴾ أى: لا أريد الثواب والجزاء إلا منه ﴿ **وَ** ﴾ أيضًا فإنى ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده، بل ﴿ **أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ فأنا أول داخل وأول فاعل لما أمرتكم به ﴿ **فَكَذَّبُوهُ** ﴾ بعدما دعاهم ليلاً ونهارًا سرًا وجهارًا فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا ﴿ **فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ** ﴾ الذى أمرناه أن يصنعه بأعيننا وقلنا له إذا فار التنور: ﴿ **احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ** ﴾ ففعل ذلك فأمر الله السماء أن تمطر بماء منهمر وفجر الأرض عيونًا ﴿ **فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ** ﴿١٢﴾ **وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ** ﴿١٣﴾ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا** ﴾ ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ** ﴾ فى الأرض، بعد إهلاك المكذبين، ثم بارك الله فى ذريته وجعل ذريته هم الباقين ونشرهم فى أقطار الأرض ﴿ **وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** ﴾ بعد ذلك البيان وإقامة البرهان ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ وهو: الهلاك المخزى واللعنة المتتابعة عليهم فى كل قرن يأتى بعدهم لا تسمع فيهم إلا لومًا ولا ترى إلا قدحًا وذمًا، فليحذر هؤلاء المكذبون أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من الهلاك والخزى والنكال.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

أى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى: من بعد نوح عليه السلام ﴿رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ المكذبين، يدعونهم إلى الهدى ويحذرونهم من أسباب الردى ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: كل نبى أيَّد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ يعنى: أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول فبادروا بتكذيبه فطبع الله علي قلوبهم وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أى: نختم عليها فلا يدخلها خير، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم وتكذيبهم الأول.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

أى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ أى: من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين ﴿مُوسَىٰ﴾ ابن عمران كليم الرحمن أحد أولى العزم من المرسلين وأحد الكبار المقتدى بهم المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة ﴿وَ﴾ جعلنا معه أخاه ﴿هَارُونَ﴾ وزيرًا وبعثناهما ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى: كبار دولته ورؤسائهم، لأن عامتهم تبع للرؤساء ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاءا به من توحيد الله والنهى عن عبادة ما سوى الله تعالى ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عنها ظلمًا وعلوًا بعدما استيقنوها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أى: وصفهم الإجرام والتكذيب ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ الذى هو أكبر أنواع الحق وأعظمها، وهو من عند الله الذى خضعت لعظمته الرقاب وهو رب العالمين المربى جميع خلقه بالنعم، فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى ردوه فلم يقبلوه، و ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لم يكفهم - قبحهم الله - إعراضهم ولا ردهم إياه حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر: الذى حقيقته: التمويه، بل جعلوه سحرًا مبينًا ظاهرًا، وهو الحق المبين، ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ موبخًا لهم عن ردهم الحق الذى لا يرده إلا أظلم الناس: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ أى: أتقولون إنه سحر مبين ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ أى: فانظروا وصفه وما اشتمل عليه فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، فانظروا لمن تكون العاقبة ومن له الفلاح وعلى يديه النجاح، وقد علموا بعد ذلك وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام هو الذى أفلح وفاز بظفر الدنيا والآخرة ﴿قَالُوا﴾ لموسى، رادين لقوله بما لا يرد به: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى: أجئتنا لتصدنا عما وجدنا عليه آباءنا من الشرك وعبادة غير الله وتأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؟ فجعلوا قول آبائهم الضالين حجة يردون بها الحق الذى جاءهم به موسى عليه السلام، وقوله: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء ولتخرجونا من أراضينا، وهذا تمويه منهم وترويج على جهالهم وتهييج لعوامهم على معاداة موسى وعدم الإيمان، به وهذا لا يحتج به من عرف الحقائق وميز بين الأمور فإن الحجج لا تدفع إلا بالحجج والبراهين، وأما من جاء بالحق، فرد قوله بأمثال هذه الأمور فإنها تدل على عجز موردها عن الإتيان بما يرد القول الذى جاء به خصمه لأنه لو كان له حجة لأوردها ولم يلجأ إلى قوله: قصدك كذا أو مرادك كذا، سواء كان صادقًا فى قوله وإخباره عن قصد خصمه أم كاذبًا، مع أن موسى عليه الصلاة والسلام كل من عرف حاله وما يدعو إليه عرف أنه ليس له قصد فى العلو فى الأرض وإنما قصده كقصد إخوانه المرسلين هداية الخلق وإرشادهم لما فيه نفعهم، ولكن حقيقة الأمر كما نطقوا به بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أى: تكبرًا وعنادًا لا لبطلان ما جاء به موسى وهارون ولا لاشتباه فيه ولا لغير ذلك من المعانى سوى الظلم والعدوان وإرادة العلو الذى رموا به موسى وهارون.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا للحق الذى جاء به موسى ومغالبًا لملئه وقومه: ﴿ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أى: ماهر بالسحر متقن له، فأرسل فى مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ لمغالبة موسى ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أى: شىء أردتم لا أعين لكم شيئًا وذلك لأنه جازم بغلبته غير مبال بهم وبما جاءوا به ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ حبالهم وعصيهم إذا هى كأنها حيات تسعى ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾ أى: هذا السحر الحقيقى العظيم ولكن مع عظمته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأى فساد أعظم من هذا؟!! وهكذا كل مفسد عمل عملاً واحتال كيدًا أو أتى بمكر فإن عمله سيبطل ويضمحل وإن حصل لعمله رواج فى وقت ما فإن مآله الاضمحلال والمحق، وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى وهى أعمال ووسائل نافعة مأمور بها فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها وينميها على الدوام، فألقى موسى عصاه فتلقفت جميع ما صنعوا فبطل سحرهم واضمحل باطلهم ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ فأذعن السحرة حين تبين لهم الحق، فتوعدهم فرعون بالصلب وتقطيع الأيدى والأرجل فلم يبالوا بذلك وثبتوا على إيمانهم، وأما فرعون وملؤه وأتباعهم فلم يؤمن منهم أحد بل استمروا فى طغيانهم يعمهون.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

ولهذا قال: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ أى: شباب من بنى إسرائيل صبروا على الخوف لما ثبت فى قلوبهم الإيمان ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ عن دينهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى الْأَرْضِ﴾ أى: له القهر والغلبة فيها فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿إِنَّهُ﴾ كان ﴿لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أى: المتجاوزين للحد فى البغى والعدوان، والحكمة - والله أعلم - بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه أن الذرية والشباب أقبل للحق وأسرع له انقيادًا بخلاف الشيوخ ونحوهم ممن تربى على الكفر فإنهم - بسبب ما مكث فى قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد عن الحق من غيرهم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ موصيًا لقومه بالصبر ومذكرًا لهم ما يستعينون به على ذلك فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ فقوموا بوظيفة الإيمان بالله ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أى: اعتمدوا عليه والجئوا إليه واستنصروه ﴿فَقَالُوا﴾ ممتثلين ذلك ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، أو يغلبونا فيفتنونا بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما غلبوا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لنسلم من شرهم ولنقيم على ديننا على وجه نتمكن به من إقامة شرائعه وإظهاره من غير معارض ولا منازع ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ حين اشتد الأمر على قومهما من فرعون وقومه وحرصوا على فتنتهم عن دينهم ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أى: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتًا يتمكنون بها من الاستخفاء فيها ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أى: اجعلوها محلاً تصلون فيها حيث عجزتم عن إقامة الصلاة فى الكنائس والبيع العامة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فإنها معونة على جميع الأمور ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والتأييد وإظهار دينهم فإن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا، وإذا اشتد الكرب وضاق الأمر فرَّجه الله ووسَّعه، فلما رأى موسى القسوة والإعراض من فرعون وملئه دعا عليهم، وأمَّن هارون على دعائه، فقال:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً﴾ يتزينون بها من أنواع الحلى والثياب والبيوت المزخرفة والمراكب الفاخرة والخدام ﴿وَأَمْوَالاً﴾ عظيمة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ أي: إن أموالهم يستعينون بها على الإضلال فى سبيلك فَيَضِلُّون ويُضِلُّون ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: أتلفها عليهم: إما بالهلاك وإما بجعلها حجارة غير منتفع بها ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قسها[1] ﴿فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ قال ذلك غضبًا عليهم حيث تجرءوا على محارم الله وأفسدوا عباد الله وصدوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا بإغلاق باب الإيمان عليهم ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وهذا دليل على أن موسى كان يدعو وهارون يُؤَمِّنُ على دعائه وأن الذى يؤمِّن يكون شريكًا للداعى فى ذلك الدعاء ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على دينكما واستمرا على دعوتكما ﴿وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتبعان سبيل الجهال الضلال المنحرفين عن الصراط المستقيم المتبعين لطرق الجحيم، فأمر الله موسى أن يسرى ببنى إسرائيل ليلاً وأخبره أنهم سيتبعونه، وأرسل فرعون فى المدائن حاشرين يقولون: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ أي: موسى وقومه ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ فجمع جنوده قاصيهم ودانيهم فأتبعهم بجنوده بغيًا وعدوًا، أي: أخرجهم باغين على موسى وقومه ومعتدين فى الأرض وإذا اشتد البغى واستحكم الذنب، فانتظر العقوبة.

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩٠) ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)﴾

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ وذلك أن الله أوحى إلى موسى لما وصل البحر أن يضربه بعصاه، فضربه فانفلق اثنى عشر طريقًا وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين، فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر وفرعون وجنوده داخلين فيه أمر الله البحر فالتطم على فرعونه وجنوده فأغرقهم وبنو إسرائيل ينظرون، حتى إذا أدرك فرعون الغرق وجزم بهلاكه ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وهو الله الإله الحق الذى لا إله إلا هو ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المنقادين لدين الله ولما جاء به موسى، قال الله تعالى مبينًا أن هذا الإيمان فى هذه الحالة غير نافع له: ﴿آلآنَ﴾ تؤمن وتقر برسول الله ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي: بارزت بالمعاصى والكفر والتكذيب ﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم، لأن إيمانهم صار إيمانًا مشاهدًا كإيمان من ورد القيامة، والذى ينفع إنما هو الإيمان بالغيب ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ قال المفسرون: إن بنى إسرائيل لما فى قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون كأنهم لم يصدقوا بإغراقه وشكُّوا فى ذلك، فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه ليكون لهم عبرة وآية ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ فلذلك تمر عليهم وتتكرر فلا ينتفعون بها لعدم إقبالهم عليها، وأما من له عقل وقلب حاضر فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: أنزلهم الله وأسكنهم فى مساكن آل فرعون وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم والمشارب وغيرهما ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ فى الحق ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بحكمه العدل الناشئ على علمه التام وقدرته الشاملة، وهذا هو الداء الذى يعرض لأهل الدين

(١) قسها، أي: اجعلها قاسية.

الصحيح، وهو أن الشيطان إذا أعجزه أن يطيعوه فى ترك الدين بالكلية سعى فى التحريش بينهم وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض وعداوة بعضهم لبعض ما هو قرة عين اللعين، وإلا فإذا كان ربهم واحداً ورسولهم واحداً ودينهم واحداً ومصالحهم العامة متفقة فلأى شىء يختلفون اختلافًا يفرق شملهم ويشتت أمرهم ويحل رابطتهم ونظامهم فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟ فنسألك اللهم لطفًا بعبادك المؤمنين، جمع شملهم ورأب صدعهم ورد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح؟ ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ أى: اسأل أهل الكتب المنصفين والعلماء الراسخين فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به وموافقته لما معهم، فإن قيل: إن كثيراً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعاندوه وردوا عليه دعوته والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم وجعل شهادتهم حجة لما جاء به وبرهانًا على صدقه، فكيف يكون ذلك؟ **فالجواب عن هذا** من عدة أوجه: **منها:** أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة أو أهل مذهب أو بلد ونحوهم فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم، وأما من عداهم فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين كـ «عبد الله بن سلام» وأصحابه وكثير ممن أسلم فى وقت النبى ﷺ وخلفائه ومن بعدهم، **ومنها:** أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذى ينتسبون إليه، فإذا كان موجودًا فى التوراة ما يوافق القرآن ويصدقه ويشهد له بالصحة فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم على إنكار ذلك لم يقدح بما جاء به الرسول، **ومنها:** أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وظهر ذلك وأعلنه على رءوس الأشهاد، ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شىء من ذلك كان عدم رد المعادى وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه، **ومنها:** أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول بل أكثرهم استجاب لها وانقاد طوعًا واختياراً، فإن الرسول بُعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل الكتاب، فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام ومصر والعراق وما جاورها من البلدان التى هى مقر دين أهل الكتاب، فلم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحق ومن تبعهم من العوام الجهلة ومن تدين بدينهم اسمًا لا معنى كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل وإنما انتسبوا للدين المسيحى ترويجًا لملكهم وتمويهًا لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة، وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ أى: الذى لا شك فيه بوجه من الوجوه ﴿مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وحاصل هذا: أن الله نهى عن شيئين: الشك فى هذا القرآن والامتراء منه، وأشد من ذلك التكذيب به، وهو آيات الله البينات التى لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار وهو: عدم الربح أصلاً، وذلك بفوات الثواب فى الدنيا والآخرة وحصول العقاب فى الدنيا والآخرة، والنهى عن الشىء أمر بضده، فيكون أمرًا بالتصديق التام بالقرآن وطمأنينة القلب إليه والإقبال عليه علمًا وعملاً، فبذلك يكون العبد من الرابحين الذين أدركوا أجل المطالب وأفضل الرغائب وأتم المناقب وانتفى عنهم الخسار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أى: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن

يصيروا إلى ما قدَّره الله وقضاه فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانًا وغيًا إلى غيهم، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذى وعدوا به، فحينئذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق ولكن فى وقت لا يجدى عليهم إيمانهم شيئًا، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من القرى المكذبين ﴿آمَنَتْ﴾ حين رأت العذاب ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ أى: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريبًا لما قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فقيل له: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ﴾ والحكمة فى هذا ظاهرة فإن الإيمان الاضطرارى ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذى اضطره إلى الإيمان لرجع إلى الكفران، وقوله: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ بعدما رأوا العذاب ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فهم مستثنون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ولعل الحكمة فى ذلك أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وأما قوم يونس فإن الله أعلم أن إيمانهم سيستمر، بل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه، والله أعلم.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ بأن يلهمهم الإيمان ويوزع قلوبهم للتقوى، فقدرته صالحة لذلك ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى: لا تقدر على ذلك وليس فى إمكانك ولا قدرة لغير الله على شىء من ذلك ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادته ومشيئته وإذنه القدرى الشرعى، فمن كان من الخلق قابلاً لذلك ويزكو عنده الإيمان وفقه وهداه ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ أى: الشر والضلال ﴿عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ عن الله أوامره ونواهيه، ولا يلقوا بالاً لنصائحه ومواعظه.

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يدعو تعالى عباده إلى النظر لما فى السموات والأرض، والمراد بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل لما فيها وما تحتوى عليه والاستبصار، فإن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون وعبرًا لقوم يوقنون تدل على أن الله وحده المعبود المحمود ذو الجلال والإكرام والأسماء والصفات العظام ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها ﴿إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: من الهلاك والعقاب

فإنهم صنعونا كصنيعهم وسنة الله جارية فى الأولين والآخرين ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ فستعلمون من تكون له العاقبة الحسنة والنجاة فى الدنيا والآخرة وليست إلا للرسل وأتباعهم ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدهما ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا فإنه ـ بحسب ما مع العبد من الإيمان ـ تحصل له النجاة من المكاره.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ أى: فى ريب واشتباه فإنى لست فى شك منه بل لدىَّ العلم اليقين أنه الحق وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولى على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد والأصنام وغيرهما، لأنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدبر شيئًا من الأمور وإنما هى مخلوقة مسخرة ليس فيها ما يقتضى عبادتها ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أى: هو الله الذى خلقكم وهو الذى يميتكم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذى يستحق أن يعبد ويصلى له ويسجد ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أى: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله وأقم جميع شرائع الدين حنيفًا، أى: مقبلاً على الله معرضًا عما سواه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا فى حالهم، ولا تكن معهم ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ وهذا وصف لكل مخلوق أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أى: دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فإذا كان خير الخلق لو دعا مع الله غيره لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟!!.

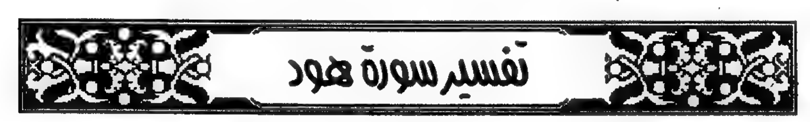
﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة فإنه: النافع الضار المعطى المانع الذى إذا مس بضر كفقر ومرض نحوها ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشىء لم ينفعوا إلا بما كتبه الله ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدًا لم يقدروا على شىء من ضرره إذا لم يرده، ولهذا قال: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أى: لا يقدر أحد من الخلق أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: يختص برحمته من شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لجميع الزلات الذى يوفق عبده لأسباب مغفرته ثم إذا فعلها العبد غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذى وسعت رحمته كل شىء ووصل جوده إلى جميع الموجودات بحيث لا تستغنى عن إحسانه طرفة عين، فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعم وكشف النقم وإعطاء الحسنات وكشف السيئات والكربات وأن أحدًا من الخلق ليس بيده من هذا شىء إلا ما أجراه الله على يده جزم بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ولهذا ـ لما بيَّن الدليل الواضح قال بعده:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

أى ﴿قُلْ﴾ يأيها الرسول، لما تبيَّن البرهان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أى: الخبر الصادق المؤيد بالبراهين الـذى لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم الذى مـن أعظم تربيته لكم أن أنزل إليكم هذا القرآن الذى فيه تبيان لكل شىء وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق الـمرضية ما فيه أعظم تربية لكم وإحسان منه إليكم، فقد تبين الرشد من الغى ولم يبق لأحد شبهة ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بهدى الله بأن علم الحق وتفهمـه وآثره على غيره ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ والله تعالى غنى عن عباده وإنمـا ثمرة أعمالهم راجعة إليهم ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق أو عن العمل به ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ولا يضر الله شيئًا، فلا يضر إلا نفسه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين والله عليكم وكيل، فانظروا لأنفسكم ما دمتم فى مدة الإمهال ﴿وَاتَّبِعْ﴾ أيها الرسول ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ علمًا وعملاً وحـالاً ودعوةً إليه ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر وإن عاقبـته حميدة فلا تكسل ولا تضجر، بل دم على ذلك واثبت ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بينك وبين من كذبك ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذى يحمد عليه، وقـد امتثل ﷺ أمر ربه وثبت على الصراط المستقيم حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان ونصـره على أعدائه بالسيف والسنان بعدما نصره الله عليـهم بالحجة والبرهان، فللَّه الحمد والثناء الحسن كما ينبغى لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة يونس ـ والحمد لله رب العالمين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)﴾

يقول تعالى: هذا ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم ونزل كريم ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أى: أتقنت وأحسنت صادقة أخبارها عادلة أوامرها ونواهيها فصيحة ألفاظه بهية معانيه ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أى: ميزت وبينت بيانًا فى أعلى أنواع البيان ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها لا يـأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته ﴿خَبِيرٍ﴾ مطلـع على الظواهر والبواطن فإذا كـان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبيـر فلا تسأل بعد هذا عن عظمتـه وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة، وإنما أنزل الله كتابه لأجل ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أى: لأجل إخلاص الدين كله وأن لا يشرك به أحد من خلقه ﴿إِنَّنِي لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّنْهُ﴾ أى: من الله ربكم ﴿نَذِيرٌ﴾ لمن تجرأ على المعاصى بعقاب الدنيا والآخرة ﴿وَبَشِيرٌ﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه بالإنابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ أى: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به وتنتفعون ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى وقت وفاتكم ﴿وَيُؤْتِ﴾ منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى: يعطى أهل الإحسـان والبر من فضله وبره ما هـو جزاء لإحسانهم من حـصول ما يحبـون ودفع ما يكرهون ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عما دعوتكم إليه بل أعرضتم عنه وربما كذبتم به ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة الذى يجـمع الله فيه الأولين والآخرين ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ليجازيكم بأعمالكم إن خـيراً فخير وإن شراً فشـر وفى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالدليل على إحياء الله المـوتى، فإنه على كل شىء قدير، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلاً.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين وشدة ضلالهم أنهم ﴿**يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ**﴾ أى: يميلونها ﴿**لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ**﴾ أى: من الله فتقع صدورهم حاجبة لعلم الله بأحوالهم وبصره لهيئاتهم، قال تعالى، مبينًا خطأهم فى هذا الظن: ﴿**أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ**﴾ أى: يتغطون بها يعلمهم فى تلك الحال التى هى من أخفى الأشياء، بل ﴿**يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ**﴾ من الأقوال والأفعال ﴿**وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾ منها، بل ما هو أبلغ من ذلك وهو ﴿**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ أى بما فيها من الإرادات والوساوس والأفكار التى لم ينطقوا بها سرًا ولا جهرًا، فكيف تخفى عليه حالكم إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منهم، ويحتمل أن المعنى فى هذا أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول الغافلين عن دعوته أنهم - من شدة إعراضهم - يثنون صدورهم أى: يحدودبون حين يرون الرسول ﷺ لئلا يراهم ويسمعهم دعوته ويعظهم بما ينفعهم، فهل فوق هذا الإعراض شيء؟ ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم وأنهم لا يخفون عليه وسيجازيهم بصنيعهم.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

أى: جميع ما دب على وجه الأرض من آدمى وحيوان برى أو بحرى فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم فرزقهم على الله ﴿**وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا**﴾ أى: يعلم مستقر هذه الدواب وهو: المكان الذى تقيم فيه وتستقر فيه وتأوى إليه، ومستودعها: المكان الذى تنتقل إليه فى ذهابها ومجيئها وعوارض أحوالها ﴿**كُلٌّ**﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿**فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ أى: فى اللوح المحفوظ المحتوى على جميع الحوادث الواقعة والتى تقع فى السموات والأرض، الجميع قد أحاط بها علم الله وجرى بها قلمه ونفذت فيها مشيئته ووسعها رزقه، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها وأحاط علمًا بذواتها وصفاتها.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾

يخبر تعالى أنه ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾ أولها: يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿**وَ**﴾ حين خلق السموات والأرض ﴿**كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ فوق السماء السابعة، فبعد أن خلق السموات والأرض استوى على عرشه يدبر الأمور ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدرية والأحكام الشرعية، ولهذا قال: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ أى: ليمتحنكم إذ خلق لكم ما فى السموات والأرض بأمره ونهيه فينظر أيكم أحسن عملاً، قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أى «أخلصه وأصوبه» قيل: يا أبا على «ما أخلصه وأصوبه؟» فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعًا فيه الشرع والسنة[1]، وهذا كما قال تعالى: ﴿**وَمَا**

---

(١) قوله: متبعًا فيه الشرع والسنة، أى: تكون العبادات جارية على الصورة الواردة بالكتاب والسنة، غير مخالفة لها، لا بزيادة ولا نقصان، ولا وضع شيء من الأذكار فى غير مواضعها، التى لم يرد بها كتاب ولا سنة، فلا يزاد فى الأذان، الصلاة على النبى، ولا يقرأ قرآن فى سجود ولا ركوع، لأن ابتداع شيء فى العبادات وفى صورها استدراك على الشارع الحكيم، وتجهيل له، حيث لم يعرف الشارع الأكمل والأحسن، وهذا معنى قبيح جدًا، لا يرضى به مؤمن، ولا يقبله مسلم على نفسه.

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ وقال تعالى: **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾** فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته وأمرهم بذلك، فمن انقاد وأدى ما أمر به فهو من المفلحين ومن أعرض عن ذلك فأولئك هم الخاسرون ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم، ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء فقال: **﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾** أي: ولئن قلت لهؤلاء وأخبرتهم بالبعث بعد الموت لم يصدقوك بل كذبوك أشد التكذيب وقدحوا فيما جئت به وقالوا: **﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾** ألا وهو الحق المبين **﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾** أي: إلى وقت مقدر فاستبطأوه لقالوا من جهلهم وظلمهم: **﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾** ومضمون هذا تكذيبهم به فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلاً على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب فما أبعد هذا الاستدلال **﴿أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾** فيتمكنون من النظر في أمرهم **﴿وَحَاقَ بِهِم﴾** أي: أحاط بهم ونزل **﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾** من العذاب حيث تهاونوا به حتى جزموا بكذب من جاء به.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ ﴾

يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان أنه جاهل ظالم بأن الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق والأولاد ونحو ذلك ثم نزعها منه فإنه يستسلم لليأس وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها أو خيراً منها عليه، وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته أنه يفرح ويبطر ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير ويقول: **﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾** أي: يفرح بما أوتي مما يوافق هوى نفسه فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس والتكبر على الخلق واحتقارهم وازدرائهم، وأي عيب أشد من هذا؟ وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا وعند السراء فلم يبطروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات **﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾** لذنوبهم يزول بها عنهم كل محذور **﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾** وهو: الفوز بجنات النعيم التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤ ﴾

يقول تعالى مسليًا لنبيه محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين: **﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾** أي: لا ينبغي هذا لمثلك أن قولهم يؤثر فيك ويصدك عما أنت عليه فتترك بعض ما يوحى إليك ويضيق صدرك لتعنتهم بقولهم: **﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾** فإن هذا القول ناشئ من تعنت وظلم وعناد وضلال وجهل بمواقع الحجج والأدلة، فامض على أمرك ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه ولا يضيق لذلك صدرك، فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحًا يؤثر فيه وينقص قدره فيضيق صدرك لذلك؟! أم عليك حسابهم ومطالب بهدايتهم جبرًا؟ و **﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾** فهو الوكيل عليهم يحفظ أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾** أي: افترى محمد هذا القرآن؟ فأجابهم بقوله: **﴿قُلْ﴾** لهم **﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ﴾**

استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ أى: إن كان قد افتراه فإنه لا فرق بينكم وبينه فى الفصاحة والبلاغة وأنتم الأعداء حقًا الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته، فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ على شيء من ذلكم ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ من عند الله لقيام الدليل والمقتضى وانتفاء المعارض ﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أى: واعلموا ﴿أن لا إله إلا هو﴾ أى: هو المستحق للألوهية والعبادة ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أى: منقادون لألوهيته مستسلمون لعبوديته، وفى هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغى للداعى إلى الله أن يصده اعتراض المعترضين ولا قدح القادحين خصوصًا إذا كان القدح لا مستند له ولا يقدح فيما دعا إليه وأنه لا يضيق صدره بل يطمئن بذلك ماضيًا على أمره مقبلاً على شانه وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التى يختارونها بل يكفى إقامة الدليل السالم عن المعارض على جميع المسائل والمطالب وفيها أن هذا القرآن معجز بنفسه لا يقدر أحد من البشر أن يأتى بمثله ولا بعشر سور مثله، بل ولا سورة من مثله لأن الأعداء البلغاء الفصحاء تحداهم الله بذلك فلم يعارضوه لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك، وفيها: أن مما يطلب فيه العلم ولا يكفى غلبة الظن علم القرآن وعلم التوحيد لقوله تعالى: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ أى: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا وعلى زينتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث قد صرف رغبته وسعيه وعمله فى هذه الأشياء ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئًا فهذا لا يكون إلا كافرًا لأنه لو كان مؤمنًا لكان ما معه من الإيمان ما يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال أثر من آثار إرادته الدار الآخرة، ولكن هذا الشقى الذى كأنه خلق للدنيا وحدها ﴿نوف إليهم أعمالهم فيها﴾ أى نعطيهم ما قسم لهم فى أم الكتاب من ثواب الدنيا ﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ أى: لا ينقصون شيئًا مما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم ﴿أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار﴾ خالدين فيها أبدًا لا يفتر عنهم العذاب وقد حرموا جزيل الثواب ﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ أى: فى الدنيا، أى بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله وما عملوه من أعمال الخير التى لا أساس لها ولا وجود لشرطها وهو الإيمان.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

يذكر تعالى حال رسوله محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القائمين بدينه وحججه الموقنين بذلك وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد مثلهم فقال: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ بالوحى الذى أنزل الله فيه المسائل المهمة ودلائلها الظاهرة فتيقن تلك البينة ﴿ويتلوه﴾ أى يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر ﴿شاهد منه﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه وعلم بعقله حسنه فازداد بذلك إيمانًا إلى إيمانه ﴿و﴾ ثمَّ شاهد ثالث ﴿من قبله﴾ وهو ﴿كتاب موسى﴾ التوراة التى جعلها الله ﴿إمامًا﴾ للناس ﴿ورحمة﴾ لهم يشهد لهذا القرآن بالصدق ويوافقه فيما جاء به من الحق، أى: أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان وقامت لديه أدلة اليقين كمن هو فى الظلمات والجهالات ليس بخارج منها؟! لا يستوون عند الله ولا عند عباد الله ﴿أولئك﴾ أى: الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم ﴿يؤمنون به﴾ أى: بالقرآن حقيقة فيثمر لهم إيمانهم كل خير فى الدنيا والآخرة ﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾ أى: سائر طوائف أهل الأرض المتحزبة على رد الحق ﴿فالنار موعده﴾ لا بد من وروده إليها ﴿فلا تك فى مرية﴾ أى: فى أدنى شك

﴿مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ إما جهلاً منهم وضلالاً وإما ظلمًا وعنادًا وبغيًا وإلا فمن كان قصده حسنًا وفهمه مستقيمًا فلا بد أن يؤمن به لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)﴾

يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ويدخل فى هذا كل من كذب على الله بنسبة شريك له أو وصفه بما لا يليق بجلاله أو الإخبار عنه بما لم يقل أو ادعاء النبوة أو غير ذلك من الكذب على الله، فهؤلاء أعظم الناس ظلمًا ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ليجازيهم بظلمهم فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ أى: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أى: لعنة لا تنقطع لأن ظلمهم صار وصفًا لهم ملازمًا لا يقبل التخفيف، ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله وهى سبيل الرسل التى دعوا الناس إليها وصدوا غيرهم عنها فصاروا أئمة يدعون إلى النار ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أى: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أى: يجتهدون فى ميلها وتشيينها وتهجينها لتصير عند الناس غير مستقيمة فيحسنون الباطل ويقبحون الحق، قبحهم الله ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: ليسوا فائتين الله لأنهم تحت قبضته وفى سلطانه ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فيدفعوا عنهم المكروه أو يحصلوا لهم ما ينفعهم بل تقطعت بهم الأسباب ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أى: يغلظ ويزداد لأنهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أى: من بغضهم حق ونفورهم عنه ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعًا ينتفعون به ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أى: ينظرون نظر عبرة وتفكر فيما ينفعهم وإنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ حيث فوتوها أعظم الثواب واستحقوا أشد العذاب ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: اضمحل دينهم الذى يدعون إليه ويحسنونه ولم تغن عنهم آلهتهم التى يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى: حقًا وصدقًا ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم بل جعل لهم منه أشده لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة والعذاب فنستجير بالله من حالهم، ولما ذكر حال الأشقياء ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم، أى: صدقوا واعترفوا لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أى: خضعوا له واستكانوا لعظمته وذلوا لسلطانه وأنابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين جمعوا تلك الصفات ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبًا إلا أدركوه ولا خيرًا إلا سبقوا إليه ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أى: فريق الأشقياء وفريق السعداء ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ﴾ هؤلاء الأشقياء ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ مثل السعداء ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ لا يستوون مثلاً، بل بينهما من الفرق ما لا يأتى عليه الوصف ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأعمال التى تنفعكم فتفعلونها والأعمال التى تضركم فتتركونها.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

أى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أول المرسلين ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بينت لكم ما أنذرتكم به بيانًا زال به الإشكال ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أى: أخلصوا العبادة لله وحده واتركوا كل ما يعبد من دون الله ﴿إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ إن لم تقوموا بتوحيد الله وتطيعونى ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أى: الأشراف والرؤساء رادين لدعوة نوح عليه السلام، كما جرت العادة لأمثالهم أنهم أول من رد دعوة المرسلين: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ وهذا مانع - بزعمهم - عن اتباعه مع أنه - فى

نفس الأمر ـ هو الصواب الذى لا ينبغى غيره لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه ويراجعوه فى كل أمر بخلاف الملائكة ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أى: ما نرى اتبعك منا إلا الأراذل والسفلة بزعمهم، وهم ـ فى الحقيقة ـ الأشراف وأهل العقول الذين انقادوا للحق ولم يكونوا كالأراذل الذين يقال لهم الملأ الذين اتبعوا كل شيطان مريد واتخذوا آلهة من الحجر والشجر يتقربون إليها ويسجدون، فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس؟ وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أى: إنما اتبعوك من غير تفكر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك، يعنون بذلك أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولى الألباب يعرفونه ويتحققونه لا كالأمور الخفية التى تحتاج إلى تأمل وفكر طويل ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أى: لستم أفضل منا فننقاد لكم ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ وكذبوا فى قولهم هذا، فإنهم رأوا من الآيات التى جعلها الله مؤيدة لنوح ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه، ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم نوح مجاوبًا ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى: على يقين وجزم، يعنى وهو الرسول الكامل القدوة الذى ينقاد له أولو الألباب وتضمحل فى جنب عقله عقول الفحول من الرجال وهو الصادق حقًا، فإذا قال: إنى على بينة من ربى فحسبك بهذا القول شهادة له وتصديقًا ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أى: أوحى إلى وأرسلنى ومنَّ علىَّ بالهداية ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أى: خفيت عليكم وبها تثاقلتم ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أى: أنكرهكم على ما تحققناه وشككتم أنتم فيه؟ ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ حتى حرصتم على رد ما جئت به ليس ذلك ضارنا وليس بقادح من يقيننا فيه ولا قولكم وافتراؤكم علينا صادًا لنا عما كنا عليه، وإنما غايته أن يكون صادًا لكم أنتم وموجبًا لعدم انقيادكم للحق تزعمون أنه باطل فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله ولا إلزامكم ما نفرتم عنه ولهذا قال: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أى: على دعوتى إياكم ﴿مَالاً﴾ فتستثقلون المغرم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: ما ينبغى لى ولا يليق ذلك، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام والإعزاز والإعظام ﴿إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ فمثيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث تأمروننى بطرد أولياء الله وإبعادهم عنى، وحيث رددتم الحق لأنهم أتباعه وحيث استدللتم على بطلان الحق بقولكم: «إنى مثلكم» وإنه ليس لنا عليكم من فضل ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أى: من يمنعنى من عذابه فإن طردهم موجب للعذاب والنكال الذى لا يمنعه من دون الله مانع ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ ما هو الأنفع لكم والأصلح وتدبرون الأمور ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أى: غايتى أنى رسول الله إليكم، أبشركم وأنذركم، وما عدا ذلك، فليس بيدى من الأمر شىء، فليست خزائن الله عندى، أدبرها أنا، وأعطى من أشاء، وأحرم من أشاء ﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فأخبركم بسرائركم وبواطنكم ﴿وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ والمعنى: أنى لا أدعى رتبة فوق رتبتى ولا منزلة سوى المنزلة التى أنزلنى الله بها، ولا أحكم على الناس بظنى ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أى: الضعفاء المؤمنين الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ فإن كانوا صادقين فى إيمانهم فلهم الخير الكثير وإن كانوا غير ذلك فحسابهم على الله ﴿إِنِّي إِذًا﴾ أى: إن قلت لكم شيئًا مما تقدم ﴿لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا تأييس منه عليه الصلاة والسلام لقومه أن ينبذ فقراء المؤمنين أو يمقتهم، وإقناع لقومه بالطرق المقنعة للمنصف، فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم ولم يدركوا منه مطلوبهم ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فما أجهلهم وأضلهم حيث قالوا هذه المقالة لنبيهم الناصح، فهلا قالوا، إن كانوا صادقين: يا نوح قد نصحتنا وأشفقت علينا ودعوتنا إلى أمر لم يتبين لنا فنريد منك أن تبينه لنا لننقاد لك، وإلا فأنت مشكور فى نصحك، لكان هذا الجواب المنصف للذى قد دعا إلى أمر خفى عليه، ولكنهم فى قولهم كاذبون وعلى نبيهم متجرئون ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة فضلاً عن أن يردوه بحجة، ولهذا عدلوا ـ من جهلهم وظلمهم ـ إلى الاستعجال بالعذاب وتعجيز الله، ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ أى: إن اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم فعل ذلك ﴿وَمَا أَنتُم

بمعجزين﴾ لله وأنا ليس بيدى من الأمر شيء ﴿ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أى: إن إرادة الله غالبة فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم الحق، فلو حرصت غاية مجهودى ونصحت لكم أتم النصح ــ وهو قد فعل عليه السلام ــ فليس ذلك بنافع لكم شيئًا، و ﴿هو ربكم﴾ يفعل بكم ما يشاء ويحكم فيكم ما يريد ﴿وإليه ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم ﴿أم يقولون افتراه﴾ هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق فى قصته مع قومه وأن المعنى أن قومه يقولون: افترى على كذبًا وكذب بالوحى الذى يزعم أنه من الله وأن الله أمره أن يقول: ﴿قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون﴾ أى: كلٌّ عليه وزره ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ويحتمل أن يكون عائدًا إلى النبى محمد ﷺ وتكون هذه الآية معترضة فى أثناء قصة نوح وقومه لأنها من الأمور التى لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله فى قصها على رسوله وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته ذكر تكذيب قومه مع البيان التام فقال: ﴿أم يقولون افتراه﴾ أى: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه، أى: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتاب فجاء بهذا الكتاب الذى تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فإذا زعموا ــ مع هذا ــ أنه افتراه علم أنهم معاندون ولم يبق فائدة فى حجاجهم، بل اللائق فى هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قل إن افتريته فعلى إجرامى﴾ أى: ذنبى وكذبى ﴿وأنا برىء مما تجرمون﴾ أى: فلم تستلجون فى تكذيبى، وقوله: ﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ أى: قد قسوا ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ أى: فلا تحزن ولا تبال بهم وبأفعالهم فإن الله قد مقتهم وأحق عليهم عذابه الذى لا يرد ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ أى: بحفظنا ومرأى منا وعلى مرضاتنا ﴿ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا﴾ أى: لا تراجعنى فى إهلاكهم ﴿إنهم مغرقون﴾ أى: قد حق القول ونفذ فيهم القدر، فامتثل أمر ربه وجعل يصنع الفلك ﴿وكلما مر عليه ملأ من قومه﴾ ورأوا ما يصنع ﴿سخروا منه قال إن تسخروا منا﴾ الآن ﴿فإنا نسخر منكم كما تسخرون (٣٨) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ نحن أم أنتم؟ وقد علموا ذلك حين حل بهم العذاب ﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ أى: قدرنا بوقت نزول العذاب بهم ﴿وفار التنور﴾ أى: أنزل الله السماء بالماء المنهمر وفجر الأرض كلها عيونًا حتى التنانير التى هى محل النار فى العادة وأبعد ما يكون عن الماء تفجرت، فالتقى الماء على أمر قد قدر، و ﴿قلنا﴾ لنوح: ﴿احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ أى: من كل صنف من أصناف المخلوقات ذكر وأنثى لتبقى مادة سائر الأجناس، وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين فإن السفينة لا تطيق حملها ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ ممن كان كافرًا كابنه الذى غرق ﴿ومن آمن﴾ الحال أنه ﴿وما آمن معه إلا قليل (٤٠) وقال﴾ نوح لمن أمره الله أن يحملهم: ﴿اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها﴾ أى: تجرى على اسم الله وترسى بتسخيره وأمره ﴿إن ربى لغفور رحيم﴾ حيث غفر لنا ورحمنا ونجانا من القوم الظالمين، ثم وصف جريانها كأنا نشاهدها فقال: ﴿وهى تجرى بهم﴾ أى: بنوح ومن ركب معه ﴿فى موج كالجبال﴾ والله حافظها وحافظ أهلها ﴿ونادى نوح ابنه﴾ لما ركب ليركب معه ﴿وكان﴾ ابنه ﴿فى معزل﴾ عنهم حين ركبوا، أى: مبتعدًا وأراد منه أن يقرب ليركب، فقال له: ﴿يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ فيصيبك ما يصيبهم، و ﴿قال﴾ ابنه مكذبًا لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب السفينة: ﴿سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء﴾ أى: سأرتقى جبلاً أمتنع به من الماء ﴿قال﴾ نوح: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ فلا يعصم أحدًا جبل ولا غيره، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب لما نجا إن لم ينجه الله ﴿وحال بينهما الموج فكان﴾ الابن ﴿من المغرقين (٤٣) و﴾ لما أغرقهم الله ونجى نوحًا ومن معه ﴿قيل يا أرض ابلعى ماءك﴾ الذى خرج منك والذى نزل إليك، ابلعى الماء الذى هو على وجهك ﴿ويا سماء أقلعى﴾ فامتثلتا لأمر الله فابتلعت الأرض ماءها وأقلعت السماء ﴿وغيض الماء﴾ أى: نضب من الأرض ﴿وقضى الأمر﴾ بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين ﴿واستوت﴾ السفينة ﴿على الجودى﴾ أى: أرست على ذلك الجبل المعروف فى أرض الموصل ﴿وقيل بعدًا للقوم الظالمين﴾ أى: أتبعوا بهلاكهم لعنة وبعدًا وسحقًا لا يزال معهم ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق﴾ وقد قلت لى: ﴿احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك﴾ ولن تخلف ما وعدتنى به، لعله عليه الصلاة والسلام لما حملته الشفقة وأن الله وعده بنجاة أهله

ظن أن الوعد لعمومهم من آمن ومن لم يؤمن فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء، ومع هذا ففوض الأمر لحكمة الله البالغة حيث قال: ﴿ وأنت أحكم الحاكمين (٤٥) قال ﴾ الله له: ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ الذين وعدتك بإنجائهم ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ أى: هذا الدعاء الذى دعوت به لنجاة كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴾ أى: ما لا تعلم عاقبته ومآله وهل يكون خيرًا أو غير خير ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ أى: إنى أعظك وعظًا تكون به من الكاملين وتنجو به من صفات الجاهلين، فحينئذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة على ما صدر منه و ﴿ قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين، ودل هذا على أن نوحًا عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه فى نجاة ابنه محرم، داخل فى قوله: ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ بل تعارض عنده الأمران وظن دخوله فى قوله: ﴿ وأهلك ﴾ وبعد هذا تبين له أنه داخل فى المنهى عن الدعاء لهم والمراجعة فيهم ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ﴾ من الآدميين وغيرهم من الأزواج التى حملها معه فبارك الله فى الجميع حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها ﴿ وأمم سنمتعهم ﴾ فى الدنيا ﴿ ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ أى: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك أحللنا به العقاب وإن متعوا قليلاً فسيؤخذون بعد ذلك، قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قص عليه هذه القصة المبسوطة التى لا يعلمها إلا من منَّ عليه برسالته ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ فيقولوا: إنه كان يعلمها، فاحمد الله واشكره واصبر على ما أنت عليه من الدين القويم والصراط المستقيم والدعوة إلى الله ﴿ إن العاقبة للمتقين ﴾ الذين يتقون الشرك وسائر المعاصى فستكون لك العاقبة على قومك كما كانت لنوح على قومه.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾

أى: ﴿ و ﴾ أرسلنا ﴿ إلى عاد ﴾ وهم القبيلة المعروفة فى الأحقاف من أرض اليمن ﴿ أخاهم ﴾ فى النسب ﴿ هودا ﴾ ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴾ أى: أمرهم بعبادة الله وحده ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب فى عبادتهم لغيره وتجويزهم لذلك وأوضح لهم وجوب عبادة الله وفساد عبادة ما سواه، ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال: ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ﴾ أى: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا وإنما أدعوكم وأعلمكم مجانًا ﴿ إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون ﴾ ما أدعوكم إليه وأنه موجب لقبوله منتفى المانع عن رده ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ﴾ عما مضى منكم ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإنابة إلى الله تعالى، فإنكم إذا فعلتم ذلك ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ بكثرة

الأمطار التى تخصب بها الأرض ويكثر خيرها ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ فإنهم كانوا من أقوى الناس ولهذا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ فوعدهم أنهم إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ عنه أى: عن ربكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ أى: مستكبرين عن عبادته متجرئين على محارمه ﴿قَالُوا﴾ رادين لقوله: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ إن كان قصدهم بالبينة البينة التى يقترحونها فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتى النبى بآية تدل على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة فقد كذبوا فى ذلك، فإنه ما جاء نبى لقومه إلا وبعث الله على يديه من الآيات ما يؤمن على مثلها البشر، ولو لم تكن له آية إلا دعوته إياها لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له والأمر بكل عمل صالح وخلق جميل والنهى عن كل خلق ذميم من الشرك بالله والفواحش والظلم وأنواع المنكرات مع ما هو مشتمل عليه هود عليه السلام من الصفات التى لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم لكفى بها آيات وأدلة على صدقه، بل أهل العقول وأولو الألباب يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التى يراها بعض الناس هى المعجزات فقط، ومن آياته وبيناته الدالة على صدقه أنه شخص واحد ليس له أنصار ولا أعوان وهو يصرخ فى قومه ويناديهم ويعجزهم ويقول لهم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة ويريدون إطفاء ما معه من النور بأى طريق كان وهو غير مكترث ولا مبال بهم وهم عاجزون لا يقدرون أن ينالوه بشىء من السوء، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أى: لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك الذى ما أقمت عليه بينة بزعمهم ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا تأييس منهم لنبيهم هود عليه السلام فى إيمانهم وأنهم لا يزالون فى كفرهم يعمهون ﴿إِن نَّقُولُ﴾ فيك ﴿إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أى: أصابتك بخبال وجنون فصرت تهذى بما لا يعقل، فسبحان من طبع على قلوب الظالمين كيف جعلوا أصدق الخلق الذى جاء بأحق الحق بهذه المرتبة التى يستحى العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاها عنهم ولهذا بيَّن هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم ولا من آلهتهم أذى فقال: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أى: اطلبوا إلىَّ الضرر كلكم بكل طريق تتمكنون بها منى ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أى: لا تمهلون ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: اعتمدت فى أمرى كله على الله ﴿رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أى: هو خالق الجميع ومدبرنا وإياكم وهو الذى ربانا ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه، فلو اجتمعتم جميعًا على الإيقاع بى والله لم يسلطكم علىَّ لم تقدروا على ذلك فإن سلطكم فلحكمة أرادها ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: على عدل وقسط وحكمة وحمد فى قضائه وقدره وشرعه وأمره وفى جزائه وثوابه وعقابه لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التى يحمد ويثنى عليه بها ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عما دعوتكم إليه ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ فلم يبق علىَّ تبعة من شأنكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئًا ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ فإن ضرركم إنما يعود إليكم فالله لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أى: عذابنا بإرسال الريح العقيم التى ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أى: عظيم شديد أحله الله بـ «عاد» فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم لأنهم ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ولهذا قالوا: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ فتبين بهذا أنهم متيقنون لدعوته وإنما عاندوا وجحدوا ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأن من عصى رسولاً فقد عصى جميع المرسلين لأن دعوتهم واحدة ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ أى: متسلط على عباد الله بالجبروت ﴿عَنِيدٍ﴾ أى: معاند لآيات الله فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم لا جرم أهلكهم الله ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فما من وقت وجيل إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة ذكر يذكرون به وذم يلحقهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لهم أيضًا لعنة ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى: جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أى: أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

أى ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم: عاد الثانية المعروفون الذين يسكنون الحجر ووادى القرى ﴿أَخَاهُمْ﴾ فى النسب ﴿صَالِحًا﴾ عبد الله ورسوله ﷺ يدعوهم إلى عبادة الله وحده ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أى: وحدوه وأخلصوا له الدين ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ لا من أهل السماء ولا من أهل الأرض ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ أى: خلقكم منها ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى: استخلفكم فيها وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة ومكنكم فى الأرض تبنون وتغرسون وتزرعون وتحرثون ما شئتم وتنتفعون بمنافعها وتستغلون مصالحها فكما أنه لا شريك له فى جميع ذلك فلا تشركوا به فى عبادته ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصى وأقلعوا عنها ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أى: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أى: قريب ممن دعاه دعاء مسألة أو دعاء عبادة يجيبه بإعطائه سؤاله وقبول عبادته وإثابته عليها أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام وخاص فالقرب العام قربه بعلمه من جميع الخلق وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ والقرب الخاص قربه من عابديه وسائليه ومحبيه وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ وفى هذه الآية وفى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وهذا النوع قرب يقتضى ألطافه تعالى وإجابته لدعواتهم وتحقيقه لمراداتهم ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب» فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام ورغبهم فى الإخلاص لله وحده ردوا عليه دعوته وقابلوه أشنع المقابلة ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أى: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفًا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وأنه من خيار قومه ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذى لا يوافق أهواءهم الفاسدة قالوا هذه المقالة التى مضمونها أنك قد كنت كاملاً والآن أخلفت ظننا فيك وصرت بحالة لا يرجى منك خير، وذنبه ما قالوه عنه: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح فى صالح كيف قدح فى عقولهم وعقول آبائهم الضالين وكيف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر ولا يغنى شيئًا من الأحجار والأشجار ونحوها، وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذى لم تزل نعمه عليهم تترى وإحسانه عليهم دائمًا ينزل الذى ما بهم من نعمة إلا منه ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أى: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكًا مؤثرًا فى قلوبنا الريب، وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه وهم كذبة فى ذلك ولهذا بيَّن كذبهم فى قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى: برهان ويقين منى ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أى: منَّ علىَّ برسالته ووحيه أى: أفاتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعوننى إليه؟ ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أى: غير خسار وتباب وضرر ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ لها شرب من البئر يومًا ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أى: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شىء ﴿وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ أى: بعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ بل لا بد من وقوعه ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾

بوقوع العذاب ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أى: نجيناهم من العذاب والخزى والفضيحة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية ونجّى الرسل وأتباعهم ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ فقطعت قلوبهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أى: خامدين لا حراك لهم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أى: كأنهم ـ لما جاءهم العذاب ـ ما تمتعوا فى ديارهم ولا أنسوا فيها ولا تنعموا بها يومًا من الدهر قد فارقهم النعيم وتناولهم العذاب السرمدى الذى لا ينقطع والذى كأنه لم يزل ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ فما أشقاهم وأذلهم نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

أى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ من الملائكة الكرام رسولنا ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿بِالْبُشْرَىٰ﴾ أى: بالبشارة بالولد حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط وأمرهم أن يمروا على إبراهيم فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أى: سلموا عليه ورد عليهم السلام، ففى هذا مشروعية السلام وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام وأنه ينبغى أن يكون الرد أبلغ من الابتداء لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد ورده بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار وبينهما فرق كبير كما هو معلوم فى علم العربية ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أى: بادر لبيته فاستحضر لأضيافه عجلاً مستويًا[١] على الرضف سمينًا فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون؟ ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أى: إلى تلك الضيافة[٢] ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وظن أنهم أتوه بشر ومكروه وذلك قبل أن يعرف أمرهم ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أى: إنا رسل الله أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ أى: وامرأة إبراهيم ﴿قَائِمَةٌ﴾ تخدم

(١) مستويًا أى: مشويًا على الحجارة المحماة بالنار كالفرن فى عصرنا.

(٢) قوله (إلى تلك الضيافة) الأوضح أن يقال (إلى العجل الحنيذ) لأن الضمير لا يرجع إلا إلى مذكور، وكلمة (الضيافة) غير مذكورة، ولا يصح أيضًا حمل (الضيافة) على الطعام الذى يقدم للضيف لمخالفته لنصوص اللغة، قال فى القاموس وضفته أضيفه ضيفًا وضيافة نزلت عليه ضيفًا. اهـ. وفى «المختار من الصحاح» أضاف الرجل وضيفه تضييفًا أنزله به ضيفًا، وضافه ضيافة إذا نزل عليه ضيفًا، وكذا تضيفه. اهـ.
ومما ذكرنا يعلم أن (الضيافة) مصدر لفعل (ضيافة) فلا يصح إطلاق المصدر على طعام الضيف بوجه من الوجوه، لا حقيقة ولا مجازًا.

أضيافه ﴿فَضَحِكَتْ﴾ حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به تعجبًا ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ فتعجبت من ذلك و ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ هذان مانعان من وجود الولد ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ فإن أمره لا عجب فيه لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء فلا يستغرب على قدرته شيء وخصوصًا فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ﴾ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته وهي: الزيادة من خيره وإحسانه وحلول الخير الإلهي ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: حميد الصفات، لأن صفاته صفات كمال، حميد الأفعال لأن أفعاله إحسان وجود وبر وحكمة وعدل وقسط ﴿مَّجِيدٌ﴾ والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها، فله صفات الكمال وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الذي أصابه من خيفة أضيافه ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ﴾ بالولد التفت حينئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ أي: ذو خلق وسعة صدر وعدم غضب عند جهل الجاهلين ﴿أَوَّاهٌ﴾ أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات ﴿مُّنِيبٌ﴾ أي: رجَّاع إلى الله بمعرفته ومحبته والإقبال عليه والإعراض عمن سواه فلذلك كان يجادل عمن حتَّم الله بهلاكهم، فقيل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الجدال ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فلا فائدة في جدالك ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا ﴿لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ أي: شق عليه مجيئهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم لأنهم في صور شباب جرد مرد في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون ويبادرون يريدون أضيافه بالفاحشة التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ من أضيافي، وهذا كما عرض سليمان عليه السلام على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه لاستخراج الحق، ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن ولا حق لهم فيهن، والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: إما أن تراعوا تقوى الله وإما أن تراعوني في ضيفي ولا تخزوني عندهم ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: لا نريد إلا الرجال ولا لنا رغبة في النساء، فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام و ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ كقبيلة مانعة لمنعتكم، وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أي: أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بسوء، ثم قال جبريل بجناحه فطمس أعينهم فانطلقوا يتوعدون لوطًا بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطًا أن يسري بأهله ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير ليتمكنوا من البعد عن قريتهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: بادروا بالخروج وليكن همكم النجاة ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا﴾ من العذاب ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ لأنها تشارك قومها في الإثم فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ فكأن لوطًا استعجل ذلك فقيل له: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بنزول العذاب وإحلاله فيهم ﴿جَعَلْنَا﴾ ديارهم ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلبناها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: متتابعة تتبع من شذ عن القرية ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: معلمة عليها علامة العذاب والغضب ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يشابهون لفعل قوم لوط ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم لئلا يصيبهم ما أصابهم.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ

وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا
مَا نَشَـٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ
وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ
أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ
مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ
كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ
أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ
مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ
﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ
جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

أى: ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ القبيلة المعروفة الذين يسكنون مدين فى أدنى فلسطين ﴿أَخَاهُمۡ﴾ فى النسب ﴿شُعَيۡبٗا﴾ لأنهم يعرفونه ويتمكنون من لأخذ عنه ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَا قَوۡمِ اعۡبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُ﴾ أى: أخلصوا له العبادة فإنهم كانوا يشركون وكانوا ـ مع شركهم ـ يبخسون المكيال والميزان ولهذا نهاهم عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الۡمِكۡيَالَ وَالۡمِيزَانَ﴾ بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيۡرٍ﴾ أى: بنعمة كثيرة وصحة وكثرة أموال وبنين فاشكروا الله على ما أعطاكم ولا تكفروا بنعمة الله فيزيلها عنكم ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ مُّحِيطٍ﴾ أى: عذابًا يحيط بكم ولا يبقى منكم باقية ﴿وَيَا قَوۡمِ أَوۡفُوا الۡمِكۡيَالَ وَالۡمِيزَانَ بِالۡقِسۡطِ﴾ أى: بالعدل الذى ترضون أن تعطوه ﴿وَلَا تَبۡخَسُوا النَّاسَ أَشۡيَاءَهُمۡ﴾ أى: لا تنقصوا من أشياء الناس فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال والميزان ﴿وَلَا تَعۡثَوۡا فِي الۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ فإن الاستمرار على المعاصى يفسد الأديان والعقائد والدين والدنيا ويهلك الحرث والنسل ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ أى: يكفيكم ما أبقى الله لكم من الخير وما هو لكم فلا تطمعوا فى أمر لكم عنه غنية وهو ضار لكم جدًا ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فاعملوا بمقتضى الإيمان ﴿وَمَا أَنَا عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ﴾ أى: لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنما الذى يحفظها الله تعالى وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت به ﴿قَالُوا يَا شُعَيۡبُ أَصَلَاتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أى: قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم والاستبعاد لإجابتهم له، ومعنى كلامهم أنه لا موجب لنهيك لنا إلا أنك تصلى لله وتتعبد له، فإن كنت كذلك أفيوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا لقول ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك، فكيف نتبعك ونترك آباءنا الأقدمين أولى العقول والألباب؟ وكذلك لا يوجب قولك لنا: ﴿أَن نَّفۡعَلَ فِي أَمۡوَالِنَا﴾ ما قلت لنا من وفاء الكيل والميزان وأداء الحقوق الواجبة فيها بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا لأنها أموالنا فليس لك فيها تصرف، ولهذا قالوا فى تهكمهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الۡحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أى: إنك أنت الذى الحلم والوقار لك خلق والرشد لك سجية فلا يصدر عنك إلا رشد ولا تأمر إلا برشد ولا تنهى إلا عن غى، أى: ليس الأمر كذلك، وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية، أى إن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد وآباونا هم السفهاء الغاوون؟ وهذا القول الذى أخرجوه بصيغة التهكم وأن الأمر بعكسه ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه إن صلاته تأمره أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون وأن يفعلوا فى أموالهم ما يشاءون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأى فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله ومن منع حقوق عباد الله أو سرقتها بالمكاييل والموازين وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب: ﴿يَا قَوۡمِ أَرَأَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى: يقين وطمأنينة فى صحة ما جئت به ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنًا﴾ أى: أعطانى الله من أصناف المال ما أعطانى، ﴿وَ﴾ أنا ﴿مَا أُرِيدُ

أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ فلست أريد أن أنهاكم عن البخس فى المكيال والميزان وأفعله أنا حتى تتطرق إلىَّ التهمة فى ذلك بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدر[1] لتركه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أى: ليس لى من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم منافعكم وليس لى من المقاصد الخاصة لى وحدى شىء بحسب استطاعتى، ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس دفع هذا بقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أى: ما يحصل لى من التوفيق لفعل الخير والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى لا بحولى ولا بقوتى ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى: اعتمدت فى أمورى ووثقت فى كفايته ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فى أداء ما أمرنى به من أنواع العبادات، وفى هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات، وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد وهما الاستعانة بربه والإنابة إليه كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أى: لا تحملنكم مخالفتى ومشاقتى ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ من العقوبات ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ لا فى الدار ولا فى الزمان ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عما اقترفتم من الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النصوح والإنابة إليه بطاعته وترك مخالفته ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ لمن تاب وأناب يرحمه فيغفر له ويتقبل توبته ويحبه، ومعنى الودود من أسمائه تعالى أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه فهو «فعول» بمعنى «فاعل» ومعنى «مفعول» ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أى: تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم فقالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ وذلك لبغضهم لما يقول ونفرتهم عنه ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أى: فى نفسك لست من الكبار والرؤساء بل من المستضعفين ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أى: جماعتك وقبيلتك ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أى: ليس لك قدر فى صدورنا ولا احترام فى أنفسنا وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك ﴿قَالَ﴾ لهم مترققًا لهم ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: كيف تراعوننى لأجل رهطى ولا تراعوننى لله فصار رهطى أعز عليكم من الله ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أى: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم ولم تبالوا به ولا خفتم منه ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء ﴿وَ﴾ لما أعيوه وعجز عنهم قال: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: على حالتكم ودينكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويحل عليه عذاب مقيم ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أنا أم أنتم، وقد علموا بذلك حين وقع عليهم العذاب ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ ما يحل بى ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ما يحل بكم ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإهلاك قوم شعيب ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ لا تسمع لهم صوتًا ولا ترى منهم حركة ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أى: كأنهم ما أقاموا فى ديارهم ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ﴾ إذ أهلكها الله وأخزاها ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أى: قد اشتركت هاتان القبيلتان فى السحق والبعد والهلاك، وشعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه، وفى قصته من الفوائد والعبر شىء كثير، منها: أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام فكذلك بشرائعه وفروعه لأن شعيبًا دعا قومه إلى التوحيد وإلى إيفاء المكيال والميزان وجعل الوعيد مرتبًا على مجموع ذلك، ومنها: أن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم فى المكاييل والموازين موجبة للوعيد فسرقتهم - على وجه القهر والغلبة - من باب أولى وأحرى، ومنها: أن الجزاء من جنس العمل فمن بخس أموال الناس يريد زيادة ماله عوقب بنقيض ذلك وكان سببًا لزوال الخير الذى عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أى: فلا تتسببوا إلى زواله بفعلكم، ومنها: أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة وأن ذلك خير له لقوله: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ففى ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس فى التكالب على الأسباب المحرمة من المحق وضد البركة، ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره، فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان فدل على أنه إذا لم يوجد العمل فالإيمان ناقص أو معدوم، ومنها: أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين وأنها من

---

(١) مبتدر، أى: مسارع إليه.

أفضل الأعمال حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها وتقديمها على سائر الأعمال وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وهى ميزان للإيمان وشرائعه، فبإقامتها على وجهها تكمل أحوال العبد وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية، ومنها: أن المال الذى يرزقه الله الإنسان - وإن كان الله قد خوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء فإنه أمانة عنده عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق والامتناع من المكاسب التى حرمها الله ورسوله لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون سواء وافق حكم الله أو خالفه، ومنها: أن من تكملة دعوة الداعى وتمامها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول منته عما ينهى غيره عنه كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ومنها: أن وظيفة الرسل وسنتهم وملتهم إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان بتحصيل المصالح وتكميلها أو بتحصيل ما يقدر عليه منها وبدفع المفاسد وتقليلها ويراعون المصالح الخاصة، وحقيقة المصلحة هى التى تصلح بها أحوال العباد وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية، ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن ملومًا ولا مذمومًا فى عدم فعله ما لا يقدر عليه فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح فى نفسه وفى غيره ما يقدر عليه، ومنها: أن العبد ينبغى له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين بل لا يزال مستعينًا بربه متوكلاً عليه سائلا له التوفيق، وإذا حصل له شىء من التوفيق فلينسبه لموليه ومسديه ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ومنها: الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم وأنه ينبغى أن تذكر القصص التى فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين فى سياق الوعظ والزجر كما أنه ينبغى ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى، ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له(١) عن ذنبه ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: «إن التائب إذا تاب فحسبه أن يغفر له ويعود عليه بالعفو، وأما عود الود والحب فإنه لا يعود» فإن الله قال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئًا منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم وأهل وطنهم الكفار كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التى يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعى فيها بل ربما تعين ذلك لأن الإصلاح مطلوب على حسن القدرة والإمكان، فعلى هذا لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضى على حقوقهم الدينية والدنيوية وتحرص على إبادتها وجعلهم عَمَلَةً وَخَدَمًا لهم، نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة فالمرتبة التى فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ ابن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به كالعصا واليد ونحوهما من الآيات التى أجراها الله على يدى موسى عليه السلام ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: حجة ظاهرة بينة ظهرت ظهور الشمس ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى: أشراف قومه لأنهم المتبوعون وغيرهم تبع لهم فلم ينقادوا لما

(١) قوله (كما يسمح) الأولى أن يقال (كما يتجاوز له عن ذنبه).

مع موسى من الآيات التى أراهم إياها كما تقدم بسطها فى سورة الأعراف ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ بل هو ضال غاو لا يأمر إلا بما هو ضرر محض لا جرم - لما اتبعه قومه - أرداهم وأهلكهم ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ أى: فى الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: يلعنهم الله وملائكته والناس أجمعون فى الدنيا والآخرة ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أى: بئس ما اجتمع لهم وترادف عليهم من عذاب الله ولعنة الدنيا والآخرة، ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ لتنذر به ويكون آية على رسالتك وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ لم يتلف بل بقى من آثار ديارهم ما يدل عليهم ﴿وَ﴾ منها ﴿حَصِيدٌ﴾ قد تهدمت مساكنهم واضمحلت منازلهم فلم يبق لها أثر ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بأخذهم بأنواع العقوبات ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالشرك والكفر والعناد ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وهكذا كل من التجأ إلى غير الله لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أى: خسار ودمار بالضد مما خطر ببالهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

أى: يقصمهم بالعذاب ويبيدهم ولا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شىء.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من أخذه للظالمين بأنواع العقوبات ﴿لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أى: لعبرة ودليلاً على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية والعقوبة الأخروية، ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة فقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أى: جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة وليظهر لهم من عظمة الله وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أى: يشهده الله وملائكته وجميع المخلوقين ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أى: إتيان يوم القيامة ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق فحينئذ ينقلهم إلى الدار الأخرى ويجرى عليهم أحكامه الجزائية كما أجرى عليهم فى الدنيا أحكامه الشرعية ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم ويجتمع الخلق ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ حتى الأنبياء والملائكة الكرام لا يشفعون إلا بإذنه ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أى: الخلق ﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فالأشقياء هم الذين كفروا بالله وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم المؤمنون المتقون، وأما جزاؤهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ أى: حصلت لهم الشقاوة والخزى والفضيحة ﴿فَفِي النَّارِ﴾ منغمسون فى عذابها مشتد عليهم عقابها ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ من شدة ما هم فيه ﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وهو أشنع الأصوات وأقبحها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: فى النار التى هذا عذابها ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أى: خالدين فيها أبدًا إلا المدة التى شاء الله أن لا يكونوا فيها كما قاله جمهور المفسرين، فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان سوى الزمن الذى قبل الدخول فيها ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته فعله تبارك وتعالى لا يرده أحد عن مراده ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ أى: حصلت لهم السعادة والفلاح والفوز ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أى: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية فإنه دائم مستمر غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله أن يجعلنا منهم.

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ﴾ المشركون أي: لا تشك في حالهم وأن ما هم عليه باطل فليس لهم دليل شرعي ولا عقلي وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة فضلاً عن أن يكون دليلاً، لأن أقوال ما عدا الأنبياء لا يحتج بها خصوصًا أمثال هؤلاء الضالين الذين كثر خطؤهم وفساد أقوالهم في أصوال الدين، فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها فإنها خطأ وضلال ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ أي: لا بد أن ينالهم نصيب من الدنيا مما كتب لهم وإن كثر ذلك النصيب أو راق في عينك فإنه لا يدل على صلاح حالهم، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب، والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الظالمين على قول الضالين من آبائهم الأقدمين ولا على ما خولهم الله وآتاهم من الدنيا.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه آتى موسى الكتاب الذي هو التوراة الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه والاجتماع، ولكن مع هذا فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافًا أضر بعقائدهم وبجامعتهم الدينية ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بإحلال العقوبة بالظالم ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة وبقوا في شك مريب، وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود أن لا يؤمنوا به وأن يكونوا في شك منه مريب ﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: لا بد أن يقضي الله بينهم يوم القيامة بحكمه العدل فيجازي كلاً بما يستحق ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿خَبِيرٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم دقيقها وجليلها، ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم أمر نبيه محمدًا ﷺ ومن معه ومن المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع ويعتقدوا ما أخبر الله من العقائد الصحيحة ولا يزيغوا عن ذلك يمنة ولا يسرة ويدوموا على ذلك ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة، وقوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء وسيجازيكم عليها، ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة وترهيب من ضدها، ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فإنكم إذا ملتم إليهم ووافقتموهم على ظلمهم أو رضيتم ما هم عليه من الظلم ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يمنعونكم من عذاب الله ولا يحصلون لكم شيئًا من ثواب الله ﴿ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم، ففي هذه الآية التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك والرضا بما هو عليه من الظلم، وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة فكيف حال الظلمة؟!! نسأل الله العافية من الظلم.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

يأمر تعالى إقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ أى: أوله وآخره، ويدخل فى هذا صلاة الفجر وصلاتا الظهر والعصر ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ ويدخل فى ذلك صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل فإنها مما تزلف العبد وتقربه إلى الله تعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: فهذه الصلوات الخمس وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات وهى - مع أنها حسنات - تقرب إلى الله وتوجب الثواب فإنها تذهب السيئات وتمحوها والمراد بذلك: الصغائر كما قيدتها الأحاديث الصحيحة عن النبى ﷺ مثل قوله: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر» بل كما قيدتها الآية التى فى سورة النساء وهى قوله عز وجل: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ذلك ولعل الإشارة لكل ما تقدم من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم وعدم مجاوزته وتعديه وعدم الركون إلى الذين ظلموا والأمر بإقامة الصلاة وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات الجميع ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم عنه ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات الدافعة للشرور والسيئات، ولكن تلك الأمور تحتاج إلى مجاهدة النفس والصبر عليها، ولهذا قال: ﴿وَاصْبِرْ﴾ أى: احبس نفسك على طاعة الله وعن معصيته وإلزامها لذلك واستمر ولا تضجر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل يتقبل الله عنهم أحسن الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، وفى هذا ترغيب عظيم للزوم الصبر بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله كلما ونت وفترت.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)﴾

لما ذكر تعالى إهلاك الأمم المكذبة للرسل وأن أكثرهم منحرفون عن أهل الكتب الإلهية وذلك كله يقضى على الأديان بالذهاب والاضمحلال ذكر أنه لولا أنه جعل فى القرون الماضية بقايا من أهل الخير يدعون إلى الهدى وينهون عن الفساد والردى فحصل من نفعهم وأبقيت به الأديان ولكنهم قليلون جدًا وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين وقيامهم بما قاموا به من دينهم ويكون حجة الله أجراها على أيديهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ﴿وَ﴾ لكن ﴿اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أى: اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف ولم يبغوا به بدلاً ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أى: ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه فلذلك حق عليهم العقاب واستأصلهم العذاب وفى هذا حث لهذه الأمة أن يكون فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس قائمون بدين الله يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويبصرونهم من العمى، وفى هذه الحال أعلى حالة يرغب فيها الراغبون وصاحبها يكون إمامًا فى الدين إذ جعل عمله خالصًا لرب العالمين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾

أى: وما كان الله ليهلك القرى بظلم منه لهم والحال أنهم مصلحون أى: مقيمون على الصلاح مستمرون عليه فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا وقامت عليهم حجة الله، ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق إذا رجعوا وأصلحوا عملهم فإن الله يعفو عنهم ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾

يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامى، فإن مشيئته غير قاصرة ولا يمتنع عليه شىء، لكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين مخالفين للصراط المستقيم متبعين للسبل الموصلة إلى النار كل يرى الحق فيما قاله والضلال فى قول غيره ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق

عليه، فهؤلاء سبقت لهم سابقة السعادة وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهى، وأما من عداهم فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم، وقوله: ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ أى: اقتضت حكمته أنه خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء والمتفقون والمختلفون والفريق الذى هدى الله والفريق الذى حقت عليهم الضلالة ليتبين للعباد عدله وحكمته وليظهر ما كمن فى الطباع البشرية من الخير والشر ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التى لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء ﴿ وَ ﴾ لأنه ﴿ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ فلا بد أن ييسر للنار أهلاً يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ (١٢١) وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾

لما ذكر فى هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر ذكر الحكمة فى ذكر ذلك فقال: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أى: قلبك ليطمئن ويثبت وتصبر كما صبر أولو العزم من الرسل فإن النفوس تأنس بالاقتدا وتنشيط على الأعمال وتريد المنافسة لغيرها ويتأيد الحق بذكر شواهده وكثرة من قام به ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ ﴾ السورة ﴿ الْحَقُّ ﴾ اليقين فلا شك فيه بوجه من الوجوه فالعلم بذلك من العلم بالحق الذى هو أكبر فضائل النفوس ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: يتعظون به فيرتدعون عن الأمور المكروهة ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها وأما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ بعدما قامت عليهم الآيات: ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أى: حالتكم التى أنتم عليها ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ على ما كنا عليه ﴿ وَانتَظِرُوا ﴾ ما يحل بنا ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ ما يحل بكم، وقد فصل الله بين الفريقين وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين وقمعه لأعداء الله المكذبين ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى: ما غاب فيهما من الخفايا والأمور الغيبية ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ من الأعمال والعمال فيميز الخبيث من الطيب ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أى: قم بعبادته وهى جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله فى ذلك ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من الخير والشر بل قد أحاط علمه بذلك وجرى به قلمه وسيجرى عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (١) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٣) ﴾

يخبر تعالى أن آيات القرآن هى ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى: البين الواضحة ألفاظه ومعانيه ومن بيانه وإيضاحه أنه أنزله باللسان العربى أشرف الألسنة وأبينها، المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة وكل هذا الإيضاح والتبيين ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه وأوامره ونواهيه فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم واتصفت قلوبكم بمعرفتها أثمر ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه و ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى: تزداد عقولكم بتكرر المعانى الشريفة العالية على أذهانكم فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ وذلك لصدقه وسلاسة عبارته ورونق معانيه ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ أى: بما اشتمل عليه

هذا القرآن الذي أوحيناه إليك وفضلناك به على سائر الأنبياء وذاك محضُ منَّة من الله وإحسان ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى الله إليك ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، ولما مدح ما اشتمل عليه هذ القرآن من القصص وأنه أحسن القصص على الإطلاق فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن ذكر قصة يوسف وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة فقال:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب ثم ذكر هذه القصة وبسطها وذكر ما جرى فيها فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب فهو مستدرك على الله ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحًا، فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير، فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل، فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة، وهكذا إذا أراد الله أمرًا من الأصول العظام قدم بين يديه مقدمة توطئة له وتسهيلاً لأمره واستعدادًا لما يرد على العبد من المشاق ولطفًا بعبده وإحسانًا إليه فأوّلها يعقوب بأن الشمس أمه والقمر أبوه والكواكب إخوته وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له ويسجدون له إكرامًا وإعظامًا وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له واصطفائه إياه وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل والتمكين في الأرض وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب الذين سجدوا له وصاروا تبعًا له فيها ولهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يصطفيك ويختارك بما منَّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي: من تعبير الرؤيا وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة كالكتب السماوية ونحوها ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ في الدنيا والآخرة بأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ حيث أنعم الله عليهما بنعم عظيمة واسعة دينية ودنيوية ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: علمه محيط بالأشياء وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره فيعطي كلاً ما تقتضيه حكمته وحمده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها، ولما تم تعبيرها ليوسف قال له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: حسدًا من عند أنفسهم بأن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ لا يفتر عنه ليلاً ولا نهارًا ولا سرًا ولا جهارًا، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه ولم يخبر إخوته بذلك بل كتمها عنهم.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ﴾ أي: عبرٌ وأدلة على كثير من المطالب الحسنة ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر

وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات ولا بالقصص والبينات ﴿إِذْ قَالُوا﴾ فيما بينهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين أى: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أى: جماعة فكيف يفضلهما بالمحبة والشفقة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: لفى خطأ بيِّنٍ حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه ولا أمر نشاهده ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أى: غيِّبوه عن أبيه فى أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أى: يتفرغ لكم ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ﴾ أى: من بعد هذا الصنيع ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أى: تتوبون إلى الله وتستغفرونه من بعد ذنبكم فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلاً لفعله وإزالة لشناعته وتنشيطًا من بعضهم لبعض.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

أى: ﴿قَالَ قَائِلٌ﴾ من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن قتله أعظم إثمًا وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه ﴿فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم بل على أنه عبد مملوك آبق لأجل أن ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ الذين يريدون مكانًا بعيدًا فيحتفظوا به، وهذا القائل أحسنهم رأيًا فى يوسف وأبرهم وأتقاهم فى هذه القضية، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل، فلما اتفقوا على هذا الرأى.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

أى: قال إخوة يوسف متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ أى: لأى شىء يدخلك الخوف منا على يوسف من غير سبب ولا موجب؟ ﴿وَ﴾ الحال ﴿إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ أى: مشفقون عليه نود له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها، فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة لعدم إرساله معهم ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذى يحبه أبوه له ما يقتضى أن يسمح بإرساله معهم فقالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أى: يتنزه فى البرية ويستأنس ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أى: سنراعيه ونحفظه من كل أذى يريده، فأجابهم بقوله: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أى: مجرد ذهابكم به يحزننى ويشق علىَّ لأننى لا أقدر على فراقه ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله ﴿وَ﴾ مانع ثان وهو أنى ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أى: فى حال غفلتكم عنه لأنه صغير لا يمتنع من الذئب ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أى: جماعة حريصون على حفظه ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أى: لا خير فينا ولا نفع يرجى منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه، فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله وعدم الموانع سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

أي: لما ذهب إخوة يوسف بعدما أذن له أبوه وعزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه فنفذوا فيه قدرتهم وألقوه في الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو بتلك الحال الحرجة ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: سيكون منك معاتبة لهم وإخبار عن أمرهم هذا وهم لا يشعرون بذلك الأمر ففيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ليكون إتيانهم متأخرًا عن عادتهم وبكاؤهم دليلاً لهم وقرينة على صدقهم فقالوا معتذرين بعذر كاذب: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ إما على الأقدام أو بالرمي والنضال ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ توفيرًا له وراحة ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ في حال غيابنا عنه واستباقنا ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي: اعتذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف والرقة الشديدة عليه ولكن عدم تصديقك إيانا لا يمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي وكل هذا تأكيد لعذرهم ﴿وَ﴾ مما أكدوا به قولهم أنهم ﴿جَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب فلم يصدقهم أبوهم بذلك، و ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي: زينت لكم أنفسكم أمرًا قبيحًا في التفريق بيني وبينه لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما دله على ما قال ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها وهي أني أصبر على هذه المحنة صبرًا جميلاً سالمًا من السخط والتشكي إلى الخلق وأستعين الله على ذلك لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، لأن النبي إذا وعد وفَّى.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)﴾

أي: مكث يوسف في الجب ما مكث حتى ﴿جَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: قافلة تريد مصر ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي: فرطهم ومقدمهم الذي يعس لهم المياه ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك ﴿فَأَدْلَىٰ﴾ ذلك الوارد ﴿دَلْوَهُ﴾ فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾ أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ وكان إخوته قريبًا منه فاشتراه السيارة منهم ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: قليل جدًا فسره بقوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه والمعنى في هذا أن السيارة لما وجدوه عزموا أن يُسِرُّوا أمره ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق منهم فاشتروه منهم بذلك الثمن واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾

أي: لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه أعجب به ووصى عليه امرأته وقال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كما يسرنا له أن يشتريه عزيز مصر ويكرمه هذا الإكرام جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ إذا بقي لا شغل له ولا همَّ سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علمًا كثيرًا من علم الأحكام وعلم التعبير وغير ذلك ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أي: أمره تعالى نافذ لا يبطله مبطل ولا يغلبه مغالب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك يجري منهم ويصدر في مغالبة أحكام الله القدرية وهم أعجز وأضعف من ذلك.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

أي: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: كمال قوته المعنوية والحسية وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة من النبوة والرسالة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: جعلناه نبيا رسولاً وعالمًا ربانيًا ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في عباده الخالق ببذل الجهد والنصح فيها وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علمًا نافعًا، ودل هذا على أن يوسف في مقام الإحسان فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته وصبره عليها أعظم أجرًا لأنه صبر اختيار، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل فقدم محبة الله عليها وأما محنته بإخوته فصبره صبر اضطرار بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها طائعًا أو كارهًا، وذلك أن يوسف عليه الصلاة السلام بقي مكرمًا في بيت العزيز وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك أن ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: هو غلامها وتحت تدبيرها والمسكن واحد يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه من غير شعور أحد ولا إحساس بشر ﴿وَ﴾ زادت المصيبة بأن ﴿غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ وصار المحل خاليًا وهما آمنان من دخول أحد عليهما بسبب تغليق الأبواب وقد دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إليَّ ومع هذا فهو غريب لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه وهو أسير تحت يدها وهي سيدته وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك وهو شاب عزب، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن أو العذاب الأليم فصبر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها همًّا تركه لله وقدم مراد الله على النفس الأمارة بالسوء ورأى من برهان ربه ـ وهو ما معه من العلم والإيمان الموجب لترك كل ما حرم الله ـ ما[1] أوجب له البعد والانكفاف عن هذه المعصية الكبيرة ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح لأنه مما يسخط الله ويبعد عنه ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة وهذا من أعظم الظلم والظالم لا يفلح، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله ومراعاة حق سيده الذي أكرمه وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما منَّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه يقتضي منه امتثال الأوامر واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم الذين أخلصهم الله واختارهم واختصهم لنفسه وأسدى عليهم من النعم وصرف عنهم المكاره ما كانوا به من خيار خلقه، ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة وذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص ويهرب من الفتنة فبادرت إليه وتعلقت بثوبه

---

(١) قوله (ما) مفعول به لـ (رأى).

فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب فى تلك الحال ألفيا سيدها أى: زوجها، لدى الباب، فرأى أمرًا شق عليه فبادرت إلى الكذب وادعت أن المراودة قد كانت من يوسف وقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ ولم تقل: «من فعل بأهلك سوءًا» تبرئة لها وتبرئة له أيضًا من الفعل، وإنما النزاع عن الإرادة والمراودة ﴿إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: أو يعذب عذابًا أليمًا فبرأ نفسه مما رمته به وقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما، ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمنّ الله فى هذه القضية بمعرفة الصادق منهما تبرئة لنبيه وصفيه يوسف عليه السلام فبعث شاهدًا من أهل بيتها يشهد بقرينة من وجدت معه فهو الصادق فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها المراود لها المعالج وأنها أرادت أن تدفعه عنها فشقت قميصه من هذا الجانب ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأن ذلك يدل على هروبه منها وأنها هى التى طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ عرف بذلك صدق يوسف وبراءته وأنها هى الكاذبة فقال لها سيدها: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وهل أعظم من هذا الكيد الذى برأت به نفسها لما أرادت وفعلت ورمت به نبى الله يوسف عليه السلام ثم إن سيدها لما تحقق الأمر قال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أى: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد طلبًا للستر على أهله ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾ أيتها المرأة ﴿لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ فأمر يوسف بالإعراض وأمرها بالاستغفار والتوبة.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

يعنى: أن الخبر اشتهر وشاع فى البلد وتحدث به النسوة فجعلن يلمنها ويقلن: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أى: هذا أمر مستقبح، هى امرأة كبيرة القدر وزوجها كبير القدر ومع هذا لم تزل تراود فتاها - الذى تحت يدها وفى خدمتها - عن نفسه ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغًا عظيمًا ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أى: وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو: باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث وجدت منها هذه الحالة التى لا ينبغى منها وهى حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس وكان هذا القول منهن مكرًا ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذى فتنت به امرأة العزيز لتحنق امرأة العزيز وتريهن إياه ليعذرنها ولهذا سماه: مكرًا، فقال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن إلى منزلها للضيافة ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أى: محلاً مهيأ بأنواع الفرش والوسائد وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان فى جملة ما أتت به وأحضرته فى تلك الضيافة طعام يحتاج إلى سكين إما أترج أو غيره ﴿وَآتَتْ[1] كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ليقطعن بها ذلك الطعام ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فى حالة جماله وبهائه ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أى: أعظمنه فى صدورهن ورأين منظرًا فائقًا لم يشاهدن مثله ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ من الدهش ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ بتلك السكاكين اللاتى معهن ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى: تنزيهًا لله ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وذلك أن يوسف أعطى من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آية

(١) أى: أعطت.

للناظرين وعبرة للمتأملين، فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر وأعجبهن غاية العجب وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز شيء كثير أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت، معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع وهي مقيمة على مراودته لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقًا ومحبة وشوقًا لوصاله وتوقًا، ولهذا قالت له بحضرتهن: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه واستعان به على كيدهن ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وهذا يدل أن النسوة جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته وجعلن يكدن به في ذلك فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أمل إليهن، فإني ضعيف عاجز إن لم تدفع عني السوء صبوت إليهن ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فإن هذا جهل لأنه آثر لذة قليلة منغصة على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم ومن آثر هذا على هذا فمن أجهل منه؟!! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين ويؤثر ما كان محمود العاقبة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ حين دعاه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل حتى آيسها وصرف الله عنه كيدها ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء الداعي ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيته الصالحة وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة، وأما أسياده فإنه لما اشتهر الخبر وبان وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح ﴿بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر لهم ﴿مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ الدالة على براءته ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشيع مع وجود أسبابه فإذا عدمت أسبابه نُسيَ فرأوا أن هذا مصلحة لهم فأدخلوه في السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

أي ﴿وَ﴾ لما دخل يوسف السجن كان من جملة من ﴿دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي: شابان فرأى كل واحد منهما رؤيا فقصها على يوسف ليعبرها ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ وذلك الخبز ﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتفسيره وما يئول إليه أمره وقولهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسلا ليوسف بإحسانه ﴿قَالَ﴾ لهما مجيبًا لطلبهما ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ أي: فلتطمئن قلوبكما فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما فلا يأتيكما غداؤكما أو عشاؤكما أول ما يجيء إليكما إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه ليكون أنجع لدعوته وأقبل لهما، ثم قال: ﴿ذَلِكُمَا﴾ التعبير الذي سأعبره لكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ أي: هذا من علم الله علمنيه وأحسن إليَّ به وذلك ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه يكون لمن لم يدخل فيه أصلاً فلا يقال: إن يوسف كان من قبل

على غير ملة إبراهيم ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ثم فسر تلك الملة بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ بل نفرد الله بالتوحيد ونخلص له الدين والعبادة ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ أي: هذا من أفضل منته وإحسانه وفضله علينا وعلى من هداه الله كما هدانا فإنه لا أفضل من منَّة الله على العباد بالإسلام والدين القويم فمن قبله وانقاد له فهو حظه وقد حصل له أكبر النعم وأجل الفضائل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلذلك تأتيهم المنة والإحسان فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحق، وفي هذا من الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى فإن الفتيين ـ لما تقرر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال وأنه محسن معلم ـ ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها كلها من فضل الله وإحسانه حيث منَّ عليَّ بترك الشرك وباتباع ملة آبائي فبهذا وصلت إلى ما رأيتما فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت ثم صرح لهما بالدعوة فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر ولا تعطي ولا تمنع وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون أذلك ﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ﴾ الذي له صفات الكمال ﴿الْوَاحِدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك ﴿الْقَهَّارُ﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء لا كمال لها ولا أفعال لديها ولهذا قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أي: كسوتموها أسماء سميتموها آلهة وهي لا شيء ولا فيها من صفات الألوهية شيء ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها وإذا لم ينزل الله بها سلطانًا لم يكن طريق ولا وسيلة ولا دليل لها ﴿إِنِ[1] الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحده فهو الذي يأمر وينهى ويشرع الشرائع ويسن الأحكام وهو الذي ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم الموصل إلى كل خير وما سواه من الأديان فإنها غير مستقيمة بل معوجة توصل إلى كل شر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأشياء وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له وبين الشرك به من أظهر الأشياء وأبينها ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك حصل منهم ما حصل من الشرك فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده وإخلاص الدين له فيحتمل أنهما استجابا وانقادا فتمت عليهما النعمة ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما فقامت عليهما ـ بذلك ـ الحجة، ثم إنه عليه السلام شرع يعبر رؤياهما بعدما وعدهما ذلك فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا فإنه يخرج من السجن ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرًا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ فإنه عبر عن الخبز الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه وما فيه من المخ وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور بل يصلب ويجعل في محل تتمكن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوله لهما أنه لا بد من وقوعه فقال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرًا ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر له شأني وقصتي لعله يرقُّ لي فيخرجني مما أنا فيه ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: فأنسى

(١) «إن» حرف نفي، أي: لا حكم إلا لله.

الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذى يستحق أن يجازى بأتم الإحسان وذلك ليتم الله أمره وقضاءه ﴿فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والبضع: من الثلاث إلى التسع ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله أن يتم أمره ويأذن بإخراج يوسف من السجن قدَّر لذلك سببًا لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره وهو رؤيا الملك.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة التى تأويلها يتناول جميع الأمة ليكون تأويلها على يد يوسف فيظهر من فضله ويبين من عمله ما يكون له رفعة فى الدارين ومن التقادير المناسبة أن الملك الذى ترجع إليه أمور الرعية هو الذى رآها لارتباط مصالحها به، وذلك أنه رأى رؤيا هالته فجمع علماء قومه وذوى الرأى منهم وقال: ﴿إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ أى: سبع من البقرات ﴿عِجَافٌ﴾ وهذا من العجب أن السبع العجاف الهزيلات اللاتى سقطت قوتهن يأكلن السبع السمان التى كُنّ نهاية فى القوة ﴿وَ﴾ رأيت ﴿سَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ﴾ أى: وسبع سنبلات أُخر ﴿يَابِسَاتٍ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ﴾ لأن تعبير الجميع واحد وتأويلهن شىء واحد ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ فتحيروا ولم يعرفوا لها وجهًا ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ أى: أحلام لا حاصل لها ولا لها تأويل وهذا جزم منهم بما لا يعلمون وتعذر منهم بما ليس بعذر ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ أى: لا نعبر إلا الرؤيا وأما الأحلام التى هى من الشيطان أو من حديث النفس فإنا لا نعبرها، فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضغاث أحلام والإعجاب بالنفس بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التى لا تنبغى لأهل الدين والحجا وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عليه السلام فإنه لو عبرها ابتداء ـ قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم فيعجزوا عنها ـ لم يكن لها ذلك الموقع ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب وكان الملك مهتمًا لها غاية الاهتمام فعبرها يوسف ـ وقعت[1] عندهم موقعًا عظيمًا وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم بعد أن سألهم فلم يعلموا ثم سأل آدم فعلمهم أسماء كل شىء فحصل بذلك زيادة فضله وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ فى القيامة أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام فيعتذرون عنها ثم يأتون محمدًا ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها» فيشفع فى جميع الخلق وينال ذلك المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون فسبحان من خفيت ألطافه ودقَّتْ فى إيصاله البر والإحسان إلى خواص أصفيائه وأوليائه ﴿وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أى: من الفتيين وهو الذى رأى أنه يعصر خمرًا وهو الذى أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أى: وتذكر يوسف وما جرى له فى تعبيره لرؤياهما وما وصاه به وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين فقال: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى يوسف لأسأله عنها فأرسلوه فجاء إليه ولم يعنفه يوسف على نسيانه بل استمع ما يسأله عنه وأجابه عن ذلك فقال: ﴿يُوسُفُ

(١) قوله: «وقعت» جواب لقوله «لما عرضها».

أيها الصديق﴾ أى: كثير الصدق فى أقواله وأفعاله ﴿أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾ فإنهم متشوفون لتعبيرها وقد أهمتهم فعبر يوسف السبع بقرات السمان والسبع السنبلات الخضره أنهن سبع سنين مخصبات والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات بأنهن سنين مجدبات، ولعل وجه ذلك ـ والله أعلم ـ أن الخصب والجدب ـ لما كان الحرث مبنيًا عليه وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث وحسن منظرها وكثرت غلالها والجدب بالعكس من ذلك وكانت البقر هى التى تحرث عليها الأرض وتسقى عليها الحروث فى الغالب والسنبلات هى أعظم الأقوات وأفضلها عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم فى تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه ويستعدون به من التدابير فى سنى الخصب إلى سنى الجدب فقال: ﴿تزرعون سبع سنين دأبا﴾ أى: متتابعات ﴿فما حصدتم﴾ من تلك الزروع ﴿فذروه﴾ أى: اتركوه ﴿فى سنبله﴾ لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه[1] ﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾ أى: دبروا أكلكم فى هذه السنين السبع الخصبة وليكن قليلاً ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه ﴿ثم يأتى من بعد ذلك﴾ أى: بعد تلك السنين المخصبات ﴿سبع شداد﴾ أى: مجدبات ﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾ أى: يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيراً ﴿إلا قليلاً مما تحصنون﴾ أى: تمنعونه من التقديم لهن ﴿ثم يأتى من بعد ذلك﴾ أى: السبع الشداد ﴿عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾ أى: فيه تكثر الأمطار والسيول وتكثر الغلات وتزيد على أقواتهم حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب مع أنه غير مصرح به فى رؤيا الملك لأنه فهم من التعبير بالسبع الشداد أن العام الذى يليها تزول به شدتها ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات إلا بعام مخصب جداً وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا عجبوا من ذلك وفرحوا بها أشد الفرح.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)﴾

يقول تعالى: ﴿وقال الملك﴾ لمن عنده ﴿ائتونى به﴾ أى: بيوسف عليه السلام بأن يخرجوه من السجن ويحضروه إليه ﴿فلما جاءه الرسول﴾ وأمره بالحضور عند الملك امتنع عن المبادرة إلى الخروج حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام وحينئذ ﴿قال﴾ للرسول ﴿ارجع إلى ربك﴾ يعنى به الملك ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن﴾ أى: اسأله ما شأنهن وقصتهن فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿إن ربى بكيدهن عليم﴾ فأحضرهن الملك وقال ﴿ما خطبكن﴾ أى: شأنكن ﴿إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ فهل رأيتن منه ما يريب؟ فبرأنه و﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾ أى: لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السبب الذى تبنى عليه التهمة ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز ﴿قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق﴾ أى: تمحص وتبين بعدما كنا ندخل عليه من

---

(١) قوله «وأبعد من الالتفات إليه» لا يخفى ما فى هذا التعبير من الإبهام، فلو قال «وأبعد من تسرب ووصول التلف إليه» لكان أوضح وأولى، وقد علق الخبراء على هذه الآية بقولهم: «تتفق هذه الآية مع ما وصل إليه بالعلم الحديث من أن ترك الحب فى سنابله عند تخزينه وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات، وفوق ذلك يبقيه محافظًا على محتوياته الغذائية كاملة وأن ذلك الإلهام كان لنبى من أنبياء الله، وهو: يوسف عليه السلام».

السوء والتهمة ما أوجب له السجن ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فى أقواله وبراءته ﴿ذَلِكَ﴾ الإقرار الذى أقررت أنى راودت يوسف ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أى: ليعلم أنى حين أقررت أنى راودت يوسف أنى لم أخنه بالغيب، أى: لم يَجْرِ منى إلا مجرد المراودة ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك: ليعلم يوسف حين أقررت أنى أنا الذى راودته وأنه صادق أنى لم أخنه فى حال غيبته عنى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ فإن كل خائن لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه ولا بد أن يتبين أمره ثم لما كان فى هذا الكلام نوع تزكية لنفسها وأنه لم يجر منها ذنب فى شأن يوسف استدركت فقال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ أى: من المراودة والهم والحرص الشديد والكيد فى ذلك ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أى: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء أى: الفاحشة وسائر الذنوب فإنها مركب الشيطان ومنها يدخل على الإنسان ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ فنجاه من نفسه الأمارة حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها منقادة لداعى الهدى متعاصية عن داعى الردى فذلك ليس من النفس بل من فضل الله ورحمته بعبده ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ أى: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصى إذا تاب وأناب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بقبول توبته توفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف، فإن السياق فى كلامها ويوسف إذ ذاك فى السجن لم يحضر، فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة أرسل إليه الملك وقال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أى: أجعله من خلصائى ومقربًا لدىَّ فأتوه به مكرمًا محترمًا ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أعجبه كلامه وزاد موقعه عنده فقال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا﴾ أى: عندنا ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى: متمكن أمين على الأسرار ﴿قَالَ﴾ يوسف طلبًا للمصلحة العامة: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ أى: على خزائن جبايات الأرض وغلالها وكيلاً وحافظًا مدبرًا ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أى: حفيظ للذى أتولاه فلا يضيع منه شىء فى غير محله وضابط للداخل والخارج عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع والتصرف فى جميع أنواع التصرفات وليس ذلك حرصًا من يوسف على الولاية وإنما هو رغبة منه فى النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاية والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أى: بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ فى عيش رغد ونعمة واسعة وجاه عريض ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ أى هذا من رحمة الله بيوسف التى أصابه بها وقدرها له وليست مقصورة على نعمة الدنيا ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين فله فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ولهذا قال: ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من أجر الدنيا ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أى: لمن جمع بين التقوى والإيمان فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب بما أمر الله بالتصديق به وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ

﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

أى: لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض دبرها أحسن تدبير فزرع فى أرض مصر جميعها فى السنين المخصبة زروعًا هائلة واتخذ لها المحلات الكبار وجبى من الأطعمة شيئًا كثيرًا وحفظه وضبطه ضبطًا تامًا فلما دخلت السنون المجدبة وسرى الجدب حتى وصل إلى فلسطين التي يقيم فيها يعقوب وبنوه فأرسل يعقوب بنيه لاجل الميرة إلى مصر ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أى: لم يعرفوه ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أى: كال لهم كما كان يكيل لغيرهم وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير وكان قد سألهم عن حالهم فأخبروه أن لهم أخًا عند أبيه وهو بنيامين ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ثم رغبهم فى الإتيان به فقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ فى الضيافة والإكرام ثم رهبهم بعدم الإتيان به فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه وأن ذلك يحملهم على الإتيان به ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعا به لا يصبر عنه وكان يتسلي به بعد يوسف فلذلك احتاج إلى مراودة فى بعثه معهم ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ لما أمرتنا به ﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَانِهِ﴾ الذين فى خدمته: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ أى: الثمن الذي اشتروا به من الميرة ﴿فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ أى: بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك فى رحالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لا لأجل التحرج من أخذها على ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم فى إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلاً وافيًا ثم إعادة بضاعتهم إليهم علي وجه لا يحسون بها ولا يشعرون، لما يأتى، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسنين ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أى: إن لم ترسل معنا أخانا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أى: ليكون ذلك سببًا لكيلنا ثم التزموا له بحفظه فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يعرض له ما يكره ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عليه السلام: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أى: تقدم منكم التزام أكثر من هذا فى حفظ يوسف ومع هذا فلم تفوا بما عقدتم من التأكيد فلا أثق بالتزامكم وحفظكم وإنما أثق بالله تعالى ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أى: يعلم حالي وأرجو أن يرحمني فيحفظه ويرده عليَّ، وكأنه فى هذا الكلام قد لان لإرساله معهم ثم إنهم ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلومًا عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد وأنه أراد أن يملكهم إياها ﴿قَالُوا﴾ لأبيهم ترغيبًا فى إرسال أخيهم معهم: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أى: أى شىء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل حيث وفَّى لنا الكيل ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟ ﴿هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أى: إذا ذهبنا بأخينا صار سببًا لكيله لنا فنمير أهلنا ونأتى لهم بما هم مضطرون إليه من القوت ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بإرساله معنا فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أى: سهل لا ينالك منه ضرر لأن المدة لا تطول والمصلحة قد تبينت ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: عهداً ثقيلاً وتحلفون بالله ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أى: إلا أن يأتيكم أمر لا قِبَلَ لكم به ولا تقدرون دفعه ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ على ما قال وأراد ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أى تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفالته، ثم لما أرسله معهم وصاهم إذا هم قدموا مصر أن ﴿لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ وذلك لأنه خاف عليهم العين لكثرتهم وبهاء منظرهم لكونهم أبناء رجل واحد وهذا سبب ﴿وَ﴾ إلا ﴿مَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ فالمقدر لا بد أن يكون ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أى: القضاء قضاؤه والأمر أمره فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى: اعتمدت على الله لا على ما وصيتكم به من السبب ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن

بالتوكل يحصل كل مطلوب ويندفع كل مرهوب ﴿وَلَمَّا﴾ ذهبوا و ﴿دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ﴾ ذلك الفعل ﴿يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد فحصل له فى ذلك نوع طمأنينة وقضاء لما فى خاطره، وليس هذا قصوراً فى علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ أى: لصاحب علم عظيم ﴿لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أى: لتعليمنا إياه لا بحوله وقوته أدركه بل بفضل الله وتعليمه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شىء كثير.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

أى: لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أى: شقيقه وهو «بنيامين» الذى أمرهم بالإتيان به وضمه إليه واختصه من بين إخوته وأخبره بحقيقة الحال ﴿قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أى: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإن العاقبة خير لنا ثم أخبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهى الأمر ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أى: كال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ وهو: الإناء الذى يشرب به ويكال فيه ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ﴾ أوعوا متاعهم فلما انطلقوا ذاهبين ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال ﴿قَالُوا﴾ أى: إخوة يوسف ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ لإبعاد التهمة فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه لتسلم له سرقته وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم ليس لهم هم إلا إزالة التهمة التى رموا بها عنهم فقالوا فى هذه الحال: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ولم يقولوا: «ما الذى سرقنا» لجزمهم بأنهم برآء من السرقة ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أى: أجرة له على وجدانه ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أى: كفيل، وهذا يقوله المتفقد ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ﴾ بجميع أنواع المعاصى ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد فى الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم وهذا أبلغ فى نفى التهمة من أن لو قالوا: «تالله لم نفسد فى الأرض ولم نسرق» ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أى: جزاء هذا الفعل ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ بأن كان معكم؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ﴾ أى: الموجود فى رحله ﴿جَزَاؤُهُ﴾ بأن يتملكه صاحب السرقة وكان هذا فى دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكاً لصاحب المال المسروق ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ﴾ المفتش ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ وذلك لتزول الريبة التى يظن أنها فعلت بالقصد ﴿ثُمَّ﴾ لما لم يجد فى أوعيتهم شيئًا ﴿اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ ولم يقل: «وجدها أو سرقها أخوه» مراعاة للحقيقة الواقعة، فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده على

وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أى: يسرنا له هذا الكيد الذى توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم ليتم له ما أراد قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ بالعلم النافع ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها كما رفعنا درجات يوسف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فكل عالم فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهى العلم إلى علام الغيب والشهادة، فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ﴾ هذا الأخ فليس هذا غريبًا عنه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يعنون: يوسف عليه السلام ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهم ما يصدر من السرقة وهما ليسا شقيقين لنا وفى هذا من الغض عليهما ما فيه ولهذا أسرها يوسف فى نفسه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أى: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون بل كظم الغيظ وأسر الأمر فى نفسه و ﴿قَالَ﴾ فى نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ حيث ذممتمونا بما أنتم على أشر منه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ منا من وصفنا بالسرقة يعلم الله أنا برآء منها ثم سلكوا معه مسلك التملق لعله يسمح لهم بأخيهم ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أى: وإنه لا يصبر عنه وسيشق عليه فراقه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ أى: هذا ظلم منا لو أخذنا البرىء بذنب من وجدنا متاعنا عنده ولم يقل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب ﴿إِنَّا إِذًا﴾ أى: إن أخذنا غير من وجد فى رحله ﴿لَّظَالِمُونَ﴾ حيث وضعنا العقوبة فى غير موضعها.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾

أى: فلما استيأس[1] إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أى: اجتمعوا وحدهم ليس معهم غيرهم وجعلوا يتناجون فيما بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ فى حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ فاجتمع عليكم الأمران: تفريطكم السابق فى يوسف وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق فليس لى وجه أواجه به أبى ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أى: سأقيم فى هذه الأرض ولا أزال بها ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ أى: يقدر لى المجيء وحدى أو مع أخى ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم فقال: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ أى: وأُخذَ بسرقته ولم يحصل لنا أن نأتيك به مع ما بذلنا من الجهد فى ذلك والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه وإنما شهدنا بما علمنا لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أى: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود فى ذهابه معنا ولما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ ﴿وَاسْأَلِ﴾ إن شككت فى قولنا: ﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فقد اطلعوا على ما أخبرناك به ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ لم نكذب ولم نغير ولم نبدل بل هذا الواقع، فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر اشتد حزنه وتضاعف كمده واتهمهم أيضًا فى هذه القضية كما اتهمهم فى الأولى و ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أى: ألجأ فى ذلك إلى الصبر الجميل الذى لا يصحبه تسخط ولا جزع ولا شكوى للخلق ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد والكربة انتهت فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أى: يوسف و «بنيامين» وأخوهم.

---

(١) أى: فلما انقطع منهم الأمل، ويئسوا من قبول الرجاء.

الكبير الذى أقام فى مصر ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذى يعلم حالى واحتياجى إلى تفريجه ومنته واضطرارى إلى إحسانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى جعل لكل شيء قدراً ولكل أمر منتهى بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

أى: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر واشتد به الأسف والأسى وابيضت عيناه من الحزن الذى فى قلبه والكمد الذى أوجب له كثرة البكاء حيث ابيضت عيناه من ذلك ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى: ممتلئ القلب من الحزن الشديد ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أى: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى المصيبة الأولى فقال له أولاده، متعجبين من حاله: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أى: لا تزال تذكر يوسف فى جميع أحوالك ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أى: فانيًا لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أى: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبدًا ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ أى: ما أبث من الكلام ﴿وَحُزْنِي﴾ الذى فى قلبى ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق فقولوا ما شئتم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه سيردهم علىَّ ويقر عينى بالاجتماع بهم.

﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

أى: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أى: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ فإن الرجاء: يوجب للعبد السعى والاجتهاد فيما رجاه والإياس: يوجب له التثاقل والتباطؤ وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ فإنهم - لكفرهم - يستبعدون رحمته ورحمته بعيدة منهم فلا تتشبهوا بالكافرين ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه فذهبوا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أى: على يوسف ﴿قَالُوا﴾ متضرعين إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أى: قد اضطررنا نحن وأهلنا ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أى: مدفوعة مرغوب عنها لقلتها وعدم وقوعها الموقع ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أى: مع عدم وفاء العرض وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بثواب الدنيا والآخرة فلما انتهى الأمر وبلغ أشده رق لهم يوسف رقة شديدة وعرفهم بنفسه وعاتبهم فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه فلعله - والله أعلم - قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أو أن الحادث الذى فرق بينه وبين أبيه هم السبب فيه والأصل الموجب له ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين مع أنه لا ينبغى ولا يليق منهم فعرفوا أن الذى خاطبهم هو يوسف فقالوا: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالإيمان والتقوى والتمكين فى الدنيا وذلك بسبب الصبر والتقوى ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أى: يتقى فعل ما حرم الله ويصبر على الآلام والمصائب وعلى الأوامر بامتثالها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن هذا من الإحسان والله لا يضيع أجر من أحسن

عملا ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أى: فضَّلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وأسأنا إليك غاية الإساءة وحرصنا على إيصال الأذى إليك والتبعيد لك عن أبيك فآثرك الله تعالى ومكنك مما تريده ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ﴾ لهم يوسف عليه السلام كرمًا وجودًا: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أى: لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فسمح لهم سماحًا تامًا من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق ودعا لهم بالمغفرة والرحمة وهذا نهاية الإحسان الذى لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

أى: قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص، لما كان فيه أثر ريح يوسف الذى أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم، أراد أن يشمه فترجع إليه روحه وتتراجع إليه نفسه ويرجع إليه بصره ولله فى ذلك حكم وأسرار لا يطلع عليها العباد وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم ليحصل تمام اللقاء ويزول عنكم نكد المعيشة وضنك الرزق ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين شم يعقوب ريح القميص فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أى: تسخرون منى وتزعمون أن هذا الكلام صدر منى من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول فوقع ما ظنه بهم فقالوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أى: لا تزال تائهًا فى بحر لجى لا تدرى ما تقول ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم ﴿أَلْقَاهُ﴾ أى: القميص ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أى: رجع إلى حاله الأولى بصيرًا بعد أن ابيضت عيناه من الحزن فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفندون رأيه ويتعجبون منه منتصرًا عليهم مغتبطًا بنعمة الله عليه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ حيث كنت مترجيًا للقاء يوسف مترقبًا لزوال الهم والغم والحزن فأقروا بذنبهم و ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا ﴿قَالَ﴾ مجيبًا لطلبتهم ومسرعًا لإجابتهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ورجائى به أن يغفر لكم ويرحمكم ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل ليكون أتم للاستغفار وأقرب للإجابة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

أى: ﴿فَلَمَّا﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف فى مصر وسكناها فلما وصلوا إليه و ﴿دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أى: ضمهما إليه واختصهما بقربه وأبدى لهما من البر والإحسان والتبجيل والإعظام شيئًا عظيمًا ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ من جميع المكاره والمخاوف فدخلوا فى هذه الحال السارة وزال عنهم النصب ونكد المعيشة وحصل السرور والبهجة ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أى: على سرير الملك ومجلس العز ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أى: أبوه وأمه

وإخوته سجودًا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى هذه الحال ورأى سجودهم له: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ حين رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين فهذا وقوعها الذى آلت إليه ووصلت ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ إحسانًا جسيمًا ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام حيث ذكر حاله فى السجن ولم يذكر حاله فى الجب لتمام عفوه عن إخوته وأنه لا يذكر ذلك الذنب وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب ولا قال: «أحسن بكم» بل قال: ﴿أَحْسَنَ بِي﴾ جعل الإحسان عائدًا إليه فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فلم يقل: «نزغ الشيطان إخوتى» بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذى أخزى الشيطان ودحره وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذى يعلم ظواهر الأمور وبواطنها وسرائر العباد وضمائرهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى وضعه الأشياء مواضعها وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين فى الأرض والملك وأقر عينه بأبويه وإخوته، وبعد العلم العظيم الذى أعطاه الله إياه فقال مقرًا بنعمة الله شاكرًا لها داعيًا بالثبات على الإسلام:

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها ووزيرًا كبيرًا للملك ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أى: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أى: أدم علىَّ الإسلام وثبتنى عليه حتى تتوفانى عليه ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من الأنبياء والأبرار والأصفياء الأخيار.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ذَلِكَ﴾ النبأ الذى أخبرناك به ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ولولا إيحاؤنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل ﴿وَ﴾ أنك ﴿مَا كُنتَ﴾ حاضرًا ﴿لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أى: إخوة يوسف ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه فى حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى ولا يمكن أحدًا أن يصل إلى علمها إلا بتعليم الله له إياها كما قال تعالى لما قص قصة موسى وما جرى له ذكر الحال التى لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه فقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الآيات فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله ﷺ حق وصدق.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ولو عدمت الموانع بأنهم كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم ودفع الشر عنهم من غير أجر ولا عوض ولا أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا ولهذا قال: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه وما يضرهم ليتركوه ﴿وَكَأَيِّن﴾ أى: وكم ﴿مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ دالة لهم

على توحيد الله ﴿ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ومع هذا ﴿ وَ ﴾ إن وجد منهم بعض الإيمان ﴿ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب ويفاجئهم العقاب وهم آمنون ولهذا قال: ﴿ أَفَأَمِنُوا ﴾ أي: الفاعلون لتلك الأفعال المعرضون عن آيات الله ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ أي: عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ أي: فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: فإنهم قد استوجبوا ذلك فليتوبوا إلى الله وليتركوا ما يكون سببًا في عقابهم.

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ للناس ﴿ هَٰذِهِ سَبِيلِي ﴾ أي: طريقي التي أدعو إليها وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ أي: أحث الخلق والعباد على الوصول إلى ربهم وأرغبهم في ذلك وأرهبهم مما يبعدهم عنه ومع هذا فأنا ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ من ديني أي على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية ﴿ أَنَا وَ ﴾ كذلك ﴿ مَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ يدعو إلى الله كما أدعوه على بصيرة من أمره ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ عما ينسب إليه مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ في جميع أموري بل أعبد الله مخلصًا له الدين ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ أي: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق فلأي شيء يستغرب قومك رسالتك ويزعمون أنه ليس عليهم فضل؟ فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة ﴿ نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ أي: لا من البادية بل من أهل القرى الذين هم أكمل عقولاً وأصح آراء وليتبين أمرهم ويتضح شأنهم ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ إذا لم يصدقوا لقولك ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كيف أهلكهم الله بتكذيبهم فاحذروا أن تقيموا على ما قاموا عليه فيصيبكم ما أصابهم ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ﴾ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الله في امتثال أوامره واجتناب نواهيه فإن نعيم الدنيا منغص منكد منقطع ونعيم الآخرة تام كامل لا يفنى أبدًا بل هو على الدوام في تزايد وتواصل ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي: أفلا تكون لكم عقول تؤثر الذي هو خير على الأدنى.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾

يخبر تعالى: أنه يرسل الرسل الكرام فيكذبهم القوم المجرمون اللئام وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل حتى إن الرسل - على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس ونوع من ضعف العلم والتصديق فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾ وهم الرسل وأتباعهم ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: ولا يرد عذابنا عمن اجترم وتجرأ على الله ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي: يعتبرون بها أهل الخير وأهل الشر وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة ويعتبرون بها أيضًا ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له وقوله: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلقة ﴿ وَلَٰكِن ﴾ كان ﴿ تَصْدِيقَ الَّذِي

بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة يوافقها ويشهد لها بالصحة ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه ومن الأدلة والبراهين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره - يحصل لهم الهدى وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة.

فصل: في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد:

فمن ذلك أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال ومن محنة إلى منحة ومن منحة إلى منحة ومِنَّة ومن ذل إلى عز ومن رقٍّ إلى ملك ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء ومن ضيق إلى سعة ومن إنكار إلى قرار فتبارك من قصها فأحسنها ووضحها وبيَّنها، **ومنها:** أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا فإن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة فإن رؤيا يوسف التي رأى فيها الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا له ساجدين وجه المناسبة فيها: أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء زينة للأرض وجمال وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار ولأن الأصل أبوه وأمه وإخوته هم الفرع فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورًا وجرمًا لما هو فرع عنه فلذلك كانت الشمس أمه والقمر أباه والكواكب إخوته، ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث فلذلك كانت أمه والقمر والكواكب مذكرات فكانت لأبيه وإخوته ومن المناسبة أن الساجد معظم محترم للمسجود له والمسجود له معظم محترم، فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظمًا محترمًا عند أبويه وإخوته ومن لازم ذلك أن يكون مجتبى مفضلاً في العلم والفضائل الموجبة لذلك ولذلك قال أبوه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ومن المناسبة في رؤيا الفتيين أن الرؤيا الأولى - التي رأى صاحبها أنه يعصر خمرًا - أن الذي يعصر خمرًا في العادة يكون خادمًا لغيره والعصر يقصد لغيره فلذلك أوَّله بما يئول إليه أنه يسقى ربه وذلك متضمن لخروجه من السجن، وأوَّل رؤيا الآخر أي: أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه بأن جلدة رأسه ولحمه وما في ذلك من المخ أنه هو الذي يحمل وأنه سيبرز للطيور بمحل تتمكن من الأكل من رأسه فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل، وأوَّل رؤيا الملك للبقرات والسنبلات بالسنين المخصبة والسنين المجدبة، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية واستقامة أمر المعاش أو عدمه، وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها ويستقى عليها الماء، وإذا أخصبت السنة سمنت وإذا أجدبت صارت عجافًا وكذلك السنابل في الخصب تكثر وتخضر وفي الجدب تقل وتيبس وهي أفضل غلال الأرض، **ومنها:** ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدًا يراه قومه بين أظهرهم صباحًا ومساء وهو أمي لا يخط ولا يقرأ وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون **ومنها:** أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر وكتمان ما تخشى مضرته لقول يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ **ومنها:** أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ **ومنها:** أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه وأنه ربما شملهم وحصل لهم ما حصل له سببه كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ولما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف، **ومنها:** أن العدل مطلوب في كل الأمور لا في معاملة السلطان رعيته فقط ولا فيما دونه، بل حتى في معاملة الوالد لأولاده في المحبة والإيثار وغيره وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر وتفسد الأحوال ولهذا لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته جرى منهم ما جرى على أنفسهم وعلى أبيهم وأخيهم، **ومنها:** الحذر من

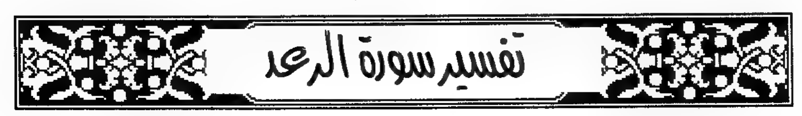
شؤم الذنوب وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعد جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه احتالوا لذلك بأنواع من الحيل وكذبوا عدة مرات وزوروا على أبيهم فى القميص والدم الذى فيه وفى إتيانهم عشاء يبكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها فى تلك المدة بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف وكلما صار البحث حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل وهذا شؤم الذنب وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة، ومنها: أن العبرة فى حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى فى أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص واللوم ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح والسماح التام من يوسف ومن أبيهم والدعاء بالمغفرة والرحمة وإذا سمح العبد عن حقه فالله خير الراحمين ولهذا ـ فى أصح الأقوال ـ أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ والأسباط هم: أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن فى رؤيا يوسف أنه رآهم كواكب نيرة والكواكب فيها النور والهداية وذلك من صفات الأنبياء فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة ومنها: ما مَنَّ الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم ومكارم الأخلاق والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفوًا بادرهم به وتم ذلك بأن لا يثرب عليهم ولا يعيرهم به ثم برُّه العظيم بأبويه وإحسانه لإخوته بل لعموم الخلق، ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضًا وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف وبسبب خف عن إخوته الإثم الكبير، ومنها: أن الشىء إذا تداولته الأيدى وصار من جملة الأموال ولم يعلم أنه كان على غير الشرع أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعًا حرامًا لا يجوز ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها وبقى عند سيده غلامًا رقيقًا وسماه الله سيدًا وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم، ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء اللائى يخشى منهن الفتنة والحذر أيضًا من المحبة التى يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب انفرادها بيوسف وحبها الشديد له الذى ما تركها حتى راودته تلك المراودة ثم كذبت عليه فسُجن ـ بسببها ـ مدة طويلة، ومنها: أن الهمَّ الذى همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله مما يرقيه إلى الله زلفى لأن الهمَّ داع من دواعى النفس الأمارة بالسوء وهو طبيعة لأغلب الخلق فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته غلبت محبة الله وخشيته داعى النفس والهوى فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله أحدهم رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله وإنما الهم الذى يلام عليه العبد الهم الذى يساكنه ويصير عزمًا ربما اقترن به الفعل ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه وكان مخلصًا لله فى جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصى ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح فإنه من إخلاص الله إياه وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه فلما أخلص عمله لله أخلصه الله وخلصه من السوء والفحشاء ومنها: أنه ينبغى للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه ليتمكن من التخلص من المعصية لأن يوسف عليه السلام ـ لما راودته التى هو فى بيتها ـ فر هاربًا يطلب الباب ليتخلص من شرها ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه فلو تخاصم رجل وامرأته فى شىء من أوانى الدار فما يصلح للرجل فإنه للرجل وما يصلح للمرأة فهو لها، هذا إذا لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجار وحداد فى آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقيافة فى الأشباه والأثر من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة وحكم بها فى قد القميص واستدل بقَدِّه من دبره على صدق يوسف وكذبها، ومما يدل على هذه القاعدة أنه استدل بوجود الصُّواع فى رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق فى يد السارق ـ خصوصًا إذا كان معروفًا بالسرقة ـ فإنه يحكم عليه بالسرقة وهذا أبلغ من الشهادة، وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر أو وجود المرأة التى لا زوج لها ولا سيد حاملاً فإنه يقام بذلك الحد ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمى الله هذا الحكم شاهدًا فقال:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التى هو فى بيتها ما أوجب وللنساء اللاتى جمعتهن حين لُمْنَها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وأما جماله الباطن فهو العفة العظيمة عن المعصية مع وجود الدواعى الكثيرة لوقوعها وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته ولهذه قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ وقالت بعد ذلك: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وإنه لمن الصادقين﴾ وقالت النسوة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغى للعبد إذا ابتلى بين أمرين ـ إما فعل معصية وإما عقوبة دنيوية ـ أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة فى الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان أن يكره العبد أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار، ومنها: أنه ينبغى للعبد أن يلتجئ إلى الله ويحتمى بحماه عند وجود أسباب المعصية ويتبرأ من حوله وقوته لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقه هوى النفس وإن كان معصية ضارًا لصاحبه ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله فى الرخاء فعليه عبودية له فى الشدة فـ «يوسف» عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله فلما دخل السجن استمر على ذلك ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته حيث ظنا فيه الظن الحسن وقالا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وأتياه لأن يعبر لهما عن رؤياهما فرآهما متشوقين لتعبيرها عنده ـ رأى ذلك فرصة فانتهزها فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده وأقرب لحصول مطلوبه وبيَّن لهما أولا أن الذى أوصله إلى الحال التى رأياه فيها من الكمال والعلم إيمانه وتوحيده وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وهذا دعاء لهما بلسان الحال، ثم دعاهما بالمقال وبيَّن فساد الشرك وبرهن عليه وحقيقة التوحيد وبرهن عليه، ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم وأنه إذا سئل المفتى وكان السائل فى حاجة أشد لغير ما سأل عنه أنه ينبغى له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه فإن يوسف ـ لما سأله الفتيان عن الرؤيا ـ قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له ومنها: أن من وقع فى مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار بحاله وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق فإن هذا من الأمور العادية التى جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذى ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ومنها: أنه ينبغى ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام فى تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد فى مال أو جاه أو نفع وأن لا يمتنع من التعليم أو لا ينصح فيه إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف عليه السلام قد قال ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه فلم يذكره ونسى، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى وجاءه سائلا مستفتيًا عن تلك الرؤيا فلم يعنفه يوسف ولا وبخه لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جوابًا تامًا من كل وجه، ومنها: أنه ينبغى للمسئول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده إلى الطريق التى ينتفع بها فى دينه ودنياه فإن هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك بل دلهم ـ مع ذلك ـ على ما يصنعون فى تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع وكثرة جبايته، ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعى فى دفع التهمة عن نفسه وطلب البراءة لها بل يحمد على ذلك كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتى قطعن أيديهن، ومنها: فضيلة العلم علم الأحكام والشرع وعلم تعبير الرؤيا وعلم التدبير والتربية وأنه أفضل من الصورة الظاهرة ولو بلغت فى الحسن جمال يوسف فإن يوسف ـ بسبب جماله ـ حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين فى الأرض فإن كل خير فى الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته، ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه وأن تعبير الرؤيا داخل فى الفتوى لقوله للفتيين: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وقال الملك: ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ وقال

الفتى ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم، ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل إذا كان في ذلك مصلحة ولم يقصد به العبد الرياء وسلم من الكذب لقول يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ وكذلك لا تذم الولاية إذا كان المتولى فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذى يذم إذا لم يكن فيه كفاية أو كان موجودًا غيره مثله أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فبهذه الأمور ينهى عن طلبها والتعرض لها، ومنها: أن الله واسع الجود والكرم يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغى له أنت يدعو نفسه ويشوقها لثواب الله ولا يدعها تحزن إذا رأت زينة أهل الدنيا ولذاتها وهي غير قادرة عليها بل يسليها بثواب الله الأخروى وفضله العظيم لقوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ومنها: أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة فى السنين المخصبات للاستعداد للسنين المجدبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله ويعمل الأسباب التى تنفعه فى دينه ودنياه ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض حتى كثرت عندهم الغلات جدًا وحتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها لعلمهم بوفورها فيها وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله، ومنها: مشروعية الضيافة وأنها من سنن المرسلين وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ ومنها: أن سوء الظن - مع وجود القرائن الدالة عليه - غير ممنوع ولا محرم فإن يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة ثم قال لهم بعدما أتوه وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وقال لهم فى الأخ الآخر: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ ثم لما احتبسه يوسف عنده وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فهم فى الأخيرة - وإن لم يكونوا مفرطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع بل جائز وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضًا من القضاء والقدر لأمر يعقوب حيث قال لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ ومنها: جواز استعمال المكايد التى يتوصل بها إلى الحقوق وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع التحيل على إسقاط واجب أو فعل محرم، ومنها: أنه ينبغى لمن أراد أن يوهم غيره بأمرٍ لا يحب أن يطلع عليه أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة من الكذب كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع فى رحل أخيه ثم استخرجها منه موهمًا أنه سارق وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ ولم يقل: «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل: «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس فى ذلك محذور وإنما فيها إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر وأن يبقى عنده أخوه وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبينت الحال، ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحققه بمشاهدة أو خبر من يثق به وتطمئن إليه النفس لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ومنها: هذه المحنة العظيمة التى امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف الذى لا يقدر على فراقه ساعة واحدة ويحزنه ذلك أشد الحزن فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة لا تقصر عن ثلاثين سنة ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه فى هذه المدة ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ثم ازداد به الأمر شدة حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثانى شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفَّى بما وعد به ولا ينافى ذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فإن الشكوى إلى الله لا تنافى الصبر وإنما الذى ينافيه الشكوى إلى المخلوقين، ومنها: أن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى

أنهى [(١)] ما يكون ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر أذن الله حينئذ بالفرج فحصل التلاقى فى [(٢)] أشد الأوقات إليه حاجة واضطرارًا، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلى أولياءه بالشدة والرخاء والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم ويزداد ـ بذلك ـ إيمانهم ويقينهم وعرفانهم، ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما على غير وجه التسخط لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿**يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ**﴾ ولم ينكر عليهم يوسف، ومنها: فضيلة التقوى وأن كل خير فى الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب لقوله: ﴿**قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ ومنها: أنه ينبغى لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال أن يعترف بنعمة الله عليه وأن لا يزال ذاكرًا حاله الأولى ليحدث لذلك شكرًا كلما ذكرها لقول يوسف عليه السلام ﴿**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ**﴾ ومنها: لطف الله العظيم بيوسف حيث نقله فى تلك الأحوال وأوصل إليه الشدائد والمحن ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات، ومنها: أنه ينبغى للعبد أن يتملق إلى الله دائمًا فى تثبيت إيمانه ويعمل الأسباب الموجبة لذلك ويسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر فى هذه القصة المباركة ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك، فنسأله تعالى علمًا نافعًا وعملاً متقبلاً إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة يوسف عليه السلام والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾

يخبر تعالى: أن هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه وأن الذى أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق المبين، لأن إخباره صدق وأوامره ونواهيه عدل مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة، فمن أقبل عليه وعلى علمه كان من أهل العلم بالحق الذى يوجب لهم علمهم به العمل بما أوجب الله ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ بهذا القرآن إما جهلاً وإعراضًا عنه وعدم اهتمام به وإما عنادًا وظلمًا، فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به لعدم السبب الموجب للانتفاع.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير والعظمة والسلطان الدال على أنه وحده المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له فقال: ﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ**﴾ على عظمها واتساعها بقدرته العظيمة ﴿**بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ أى:

---

(١) أنهى، أى: بلغ أقصى ما يتصوره الإنسان.

(٢) قوله: «فى أشد الأوقات إليه حاجة واضطرارًا» قيل إنه لو قال «فحصل التلاقى أحوج ما يكون إليه» لوضح المعنى وحصل المقصود مع الاختصار فى الكلام.

ليس لها عمد من تحتها فإنه لو كان لها عمد لرأيتموها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما خلق السموات والأرض ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم الذى هو أعلى المخلوقات استواء يليق بجلاله ويناسب كماله ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ بتدبير العزيز العليم ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ بسير منتظم لا يفتران ولا ينيان حتى يجيء الأجل المسمى وهو طَيِّ الله هذا العالم ونقلهم إلى الدار الآخرة التى هى دار القرار، فعند ذلك يطوى الله السموات ويبدلها ويغير الأرض ويبدلها، فتكور الشمس والقمر ويجمع بينهما فيلقيان فى النار ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة فيتحسر بذلك أشد الحسرة وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر، أى: قد استوى الله العظيم على سرير الملك يدبر الأمور فى العالم العلوى والسفلى، فيخلق ويرزق ويغنى ويفقر ويرفع أقوامًا ويضع آخرين ويعز ويذل ويخفض ويرفع ويقيل العثرات ويفرج الكربات وينفذ الأقدار فى أوقاتها التى سبق بها علمه وجرى بها قلمه ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره وينزل الكتب الإلهية على رسله ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهى ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية والآيات القرآنية ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها من أسباب حصول اليقين فى جميع الأمور الإلهية خصوصًا فى العقائد الكبار كالبعث والنشور والإخراج من القبور وأيضًا فقد علم أن الله تعالى حكيم لا يخلق سدى ولا يتركهم عبثًا فكما أنه أرسل رسله وأنزل كتبه لأمر العباد ونهيهم فلا بد أن ينقلهم إلى دار يحل فيها جزاؤه فيجازى المحسنين بأحسن الجزاء ويجازى المسيئين بإساءتهم ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أى: خلقها للعباد ووسعها وبارك فيها ومدها للعباد وأودع فيها من مصالحهم ما أودع ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أى: جبالاً عظامًا لئلا تميد بالخلق، فإنه لولا الجبال لمادت بأهلها لأنها على تيار ماء لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرواسى التى جعلها الله أوتادًا لها ﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿أَنْهَارًا﴾ تسقى الآدميين وبهائمهم وحروثهم، فأخرج بها من الأشجار والزروع والثمار خيرًا كثيرًا ولهذا قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أى: صنفين مما يحتاج إليه العباد ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ فتظلم الآفاق فيسكن كل حيوان إلى مأواه ويستريحون من التعب والنصب فى النهار ثم إذا قضوا مآربهم من النوم غشى النهار الليل فإذا هم مصبحون ينتشرون فى مصالحهم وأعمالهم فى النهار ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ على المطالب الإلهية ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها وينظرون فيها نظرة اعتبار دالة على أن الذى خلقها ودبرها وصرفها هو الله الذى لا إله إلا هو ولا معبود سواه وأنه عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم وأنه القادر على كل شيء الحكيم فى كل شيء المحمود على ما خلقه وأمر به تبارك وتعالى ﴿وَ﴾ من الآيات على كمال قدرته وبديع صنعته ﴿فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ﴾ فيها أنواع الأشجار ﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ وغير ذلك والنخيل التى بعضها ﴿صِنْوَانٌ﴾ أى: عدة أشجار فى أصل واحد ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بأن كان كل شجرة على حدتها، والجميع ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ وأرضه واحدة ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ لونًا وطعمًا ونفعًا ولذة، فهذه أرض طيبة تنبت الكلأ والعشب الكثير والأشجار والزروع وهذه أرض تلاصقها لا تنبت كلأ ولا تمسك ماء وهذه تمسك الماء ولا تنبت الكلأ وهذه تنبت الزرع والأشجار ولا تنبت الكلأ وهذه الثمرة حلوة وهذه مرة وهذه بين ذلك، فهل هذا التنوع فى ذاتها وطبيعتها، أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم وتقودهم إلى ما يرشدون به ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه، وأما أهل الإعراض وأهل البلادة فهم فى ظلماتهم يعمهون وفى غيهم يترددون لا يهتدون إلى ربهم سبيلاً ولا يعون له قيلاً.

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾

يحتمل أن معنى قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من عظمة الله تعالى وكثرة أدلة التوحيد، فإن العجب - مع هذا - إنكار المكذبين وتكذيبهم بالبعث وقولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: هذا بعيد فى غاية الامتناع بزعمهم أنهم بعدما كانوا ترابًا أن الله يعيدهم، فإنهم - من جهلهم - قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق فلما رأوا هذا ممتنعًا فى قدرة المخلوق ظنوا أنه ممتنع على قدرة الخالق ونسوا أن الله خلقهم أول مرة ولم يكونوا شيئًا، ويحتمل أن معناه: وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم للبعث فإن ذلك من العجائب، فإن الذى توضح له الآيات ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب ثم ينكر ذلك فإن قوله من العجائب، ولكن ذلك لا يستغرب على ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وجحدوا وحدانيته وهى أظهر الأشياء وأجلاها ﴿وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ﴾ المانعة لهم من الهدى ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ حيث دعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا فقلبت قلوبهم وأفئدتهم عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبدًا.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)﴾

يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله المشركين به الذين وعظوا فلم يتعظوا وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها، بل جاهروا بالإنكار واستدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم وعدم معاجلتهم بذنوبهم أنهم على حق وجعلوا يتعجلون الرسل بالعذاب ويقول قائلهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾ أى وقائع الله وأيامه فى الأمم المكذبين أفلا يتفكرون فى حالهم ويتركون جهلهم؟ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أى: لا يزال خيره إليهم وإحسانه وبره وعفوه نازلاً إلى العباد وهم لا يزال شركهم وعصيانهم إليه صاعدًا يعصونه فيدعوهم إلى بابه ويجرمون فلا يحرمهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم لأنه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم يبتليهم بالمصائب ليطهرهم من المعايب ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من لم يزل مصرًا على الذنوب قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار، فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم فإن أخذه أليم شديد.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)﴾

أى: ويقترح الكفار عليك من الآيات التى يعينون ويقولون: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ ويجعلون هذا القول منهم عذرًا لهم فى عدم الإجابة إلى الرسول، والحال أنه منذر ليس له من الأمر شىء والله هو الذى ينزل الآيات وقد أيده بالأدلة البينات التى لا تخفى على أولى الألباب وبها يهتدى من قصده الحق وأما الكافر الذى من ظلمه وجهله يقترح على الله الآيات فهذا اقتراح منه باطل وكذب وافتراء، فإنه لو جاءته أى آية كانت لم يؤمن ولم ينقد لأنه لم يمتنع من الإيمان لعدم ما يدله على صحته وإنما ذلك لهوى نفسه واتباع شهوته ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أى: داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل وأتباعهم، ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدل على صحة ما معهم من الهدى.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١)﴾

يخبر تعالى بعموم علمه وسعة اطلاعه وإحاطته بكل شىء فقال: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من بنى آدم وغيرهم ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أى: تنقص مما فيها إما أن يهلك الحمل أو يتضاءل أو يضمحل ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ الأرحام وتكبر الأجنة التى فيها ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينتقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه، فإنه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ﴾ فى ذاته وأسمائه وصفاته ﴿الْمُتَعَالِ﴾ على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم﴾ فى علمه وسمعه وبصره ﴿مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أى: مستقر بمكان خفى فيه ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أى: داخل سربه فى النهار والسرب هو: ما يستخفى فيه الإنسان إما جوف بيته أو غار أو مغارة أو نحو ذلك ﴿لَهُ﴾ أى: للإنسان ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ من الملائكة يتعاقبون فى الليل والنهار ﴿مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء ويحفظون عليه أعماله وهم ملازمون له دائمًا، فكما أن علم الله محيط به فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم ولا ينسى منها شىء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية أو من شكر نعم الله إلى البطر بها فيسلبهم الله إياها عند ذلك، وكذلك إذا غيَّر العباد ما بأنفسهم من المعصية فانتقلوا إلى طاعة الله غيَّر الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أى: عذابًا وشدة وأمرًا يكرهونه فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم ﴿فَـ﴾ إنه ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ ولا أحد يمنعهم منه ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ يتولى أمورهم فيجلب لهم المحبوب ويدفع عنهم المكروه، فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أى: يخاف منه الصواعق والهدم وأنواع الضرر على بعض الثمار ونحوها ويطمع فى خيره ونفعه ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ بالمطر الغزير الذى به نفع العباد والبلاد ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ وهو الصوت الذى يسمع من السحاب المزعج للعباد فهو خاضع لربه مسبح بحمده ﴿وَ﴾ تسبح ﴿الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أى: خشعًا لربهم خائفين من سطوته ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ وهى هذه النار التى تخرج من السحاب ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ من عباده بحسب ما شاءه وأراده ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أى: شديد الحول والقوة فلا يريد شيئًا إلا فعله ولا يتعاصى عليه شىء ولا يفوته هارب، فإذا كان هو وحده الذى يسوق للعباد الأمطار والسحب التى فيها مادة أرزاقهم وهو الذى يدبر الأمور وتخضع له المخلوقات العظام التى يخاف منها وتزعج العباد وهو شديد القوة - فهو الذى يستحق أن يعبد وحده ولا شريك له، ولهذا قال:

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿لَهُ﴾ أى: لله وحده ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ وهى: عبادته وحده لا شريك له وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، أى: هو الذى ينبغى أن يصرف له الدعاء والخوف والرجاء والحب والرغبة والرهبة والإنابة لأن ألوهيته هى الحق وألوهية غيره باطلة ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ من الأوثان والأنداد التى جعلوها شركاء لله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم﴾ أى: لمن يدعوها ويعبدها بشىء قليل ولا كثير لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ الذى لا تناله كفاه لبعده ﴿لِيَبْلُغَ﴾ ببسط كفيه إلى الماء ﴿فَاهُ﴾ فإنه عطشان ومن شدة عطشه يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه فلا يصل إليه، كذلك الكفار الذين يدعون مع الله آلهة لا يستجيبون لهم بشىء ولا ينفعونهم فى أشد الأوقات إليهم حاجة لأنهم فقراء كما أن من دعوهم فقراء لا

يملكون مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴿**وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ**﴾ لبطلان ما يدعون من دون الله فبطلت عبادتهم ودعاؤهم لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين كانت عبادته حقًّا متصلة النفع بصاحبها فى الدنيا والآخرة، وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذى يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة فإن ذلك تشبيه بأمر محال فكما أن هذا محال فالمشبه به محال. والتعليق على المحال؛ من أبلغ ما يكون فى نفى الشيء كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

أى: جميع ما احتوت عليه السموات والأرض كلها خاضعة لربها تسجد له ﴿**طَوْعًا وَكَرْهًا**﴾ فالطوع لمن يأتى بالسجود والخضوع اختيارًا كالمؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه وحاله وفطرته تكذبه فى ذلك ﴿**وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾ أى: وتسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره وسجود كل شيء بحسب حاله كما قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعًا وكرهًا كان هو الإله حقًّا المعبود المحمود حقًّا وإلاهية غيره باطلة، ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

أى: قل لهؤلاء المشركين به أوثانًا وأندادًا يحبونها كما يحبون الله ويبذلون لها أنواع التقربات والعبادات: أفتاهت عقولكم حتى اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة وليسوا بأهل لذلك؟ فإنهم ﴿**لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا**﴾ وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات المالك للأحياء والأموات الذى بيده الخلق والتدبير والنفع والضر؟ فما تستوى عبادة الله وحده وعبادة المشركين به ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ**﴾ فإن كان عندهم شك واشتباه وجعلوا له شركاء زعموا أنهم خلقوا كخلقه وفعلوا كفعله فأزل عنهم هذا الاشتباه واللبس بالبرهان الدال على تفرد الإله بالوحدانية، فقل لهم: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه ومن المحال أيضًا أن يوجد من دون خالق فتعين أن لها إلهًا خالقًا لا شريك له فى خلقه لأنه الواحد القهار، فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده فالمخلوقات وكل مخلوق فوقه مخلوق يقهره ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه حتى ينتهى القهر للواحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان متعينان لله وحده، فتبين بالدليل العقلى القاهر أن ما يُدْعَى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات وبذلك كانت عبادته باطلة.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

شبه تعالى الهدى الذى أنزل على رسوله لحياة القلوب والأرواح بالماء الذى أنزله لحياة الأشباح وشبه ما فى الهدى من النفع العام الكثير الذى يضطر إليه العباد بما فى المطر من النفع العام الضرورى وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التى تسيل فيها السيول: فوَاد كبير يسع ماء كثيرًا كقلب كبير يسع علمًا كثيرًا ووَاد صغير يأخذ ماء قليلاً كقلب صغير يسع علمًا قليلاً وهكذا، وشبه ما يكون فى القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها بالزبد الذى يعلو الماء ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التى يراد تخليصها

وسبكها وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له حتى تذهب وتضمحل ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة، كذلك الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها ويجاهدها بالبراهين الصادقة والإرادات الجازمة حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصًا صافيًا ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره والرغبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ وقال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)﴾

لما بيَّنَ تعالى الحق من الباطل ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه فذكر ثوابه وغير مستجيب فذكر عقابه فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ﴾ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان وجوارحهم للأمر والنهي وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم فلهم ﴿الْحُسْنَى﴾ أي: الحالة الحسنة والثواب الحسن، فلهم من الصفات أجلها ومن المناقب أفضلها ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ بعدما ضرب لهم الأمثال وبيَّن لهم الحق لهم الحالة غير الحسنة، و ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من ذهب وفضة وغيرها ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم وأنى لهم ذلك؟ ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ وما سيضيعوه من حقوق عباده قد كتب ذلك وسطر عليهم وقالوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿وَ﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الجامعة لكل عذاب من الجوع الشديد والعطش الوجيع والنار الحامية والزقوم والزمهرير والضريع وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: المقرر والمسكن مسكنهم.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾

يقول تعالى: مفرقًا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ ففهم ذلك وعمل به ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ لا يعلم الحق ولا يعمل به فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض، فحقيق بالعبد أن يتذكر ويتفكر أي الفريقين أحسن حالاً وخير مآلاً فيؤثر طريقها ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ أي: أولو العقول الرزينة والآراء الكاملة الذين هم لُبّ العالم وصفوة بني آدم، فإن سألت عن وصفهم فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الذي عهده إليهم والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة فالوفاء بها توفيتها حقها من التنمية لها والنصح فيها ﴿وَ﴾ تمام الوفاء بها أنهم ﴿لا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ أي: العهد الذي عاهدوا الله عليه، فدخل في ذلك جميع المواثيق والعهود والأيمان والنذور التي يعقدها العباد فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم إلا بأدائها كاملة وعدم نقضها وبخسها ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله من الإيمان به وبرسوله ومحبته ومحبة رسوله والانقياد لعبادته وحده لا شريك له ولطاعة رسوله، ويصلون آباءهم وأمهاتهم ببرهم بالقول والفعل وعدم عقوقهم، ويصلون الأقارب والأرحام بالإحسان إليهم قولاً وفعلاً، ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والمماليك بأداء حقهم كاملاً موفرًا من الحقوق الدينية

والدنيوية، والسبب الذى يجعل العبد واصلاً ما أمر الله به أن يوصل خشية الله وخوف يوم الحساب ولهذا قال: ﴿**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ أى: يخافونه فيمنعهم خوفهم منه ومن القدوم عليه يوم الحساب أن يتجرءوا على معاصى الله أو يقصروا فى شىء مما أمر الله به خوفًا من العقاب ورجاءً للثواب ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا**﴾ على المأمورات بامتثالها وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها، لكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿**ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا هو الصبر النافع الذى يحبس به العبد نفسه وطلبًا لمرضاة ربه ورجاء للقرب منه، والحظوة بثوابه هو الصبر الذى من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذى غايته التجلد ومنتهاه الفخر فهذا يصدر من البر والفاجر والمؤمن والكافر فليس هو الممدوح على الحقيقة ﴿**وَأَقَامُوا الصَّلاةَ**﴾ بأركانها وشروطها ومكملاتها ظاهرًا وباطنًا ﴿**وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً**﴾ دخل فى ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات والنفقات المستحبة وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة سرًا وعلانية ﴿**وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**﴾ أى: من أساء إليهم بقول أو فعل لم يقابلوه بفعله بل قابلوه بالإحسان إليه، فيعطون من حرمهم ويعفون عمَّن ظلمهم ويصلون من قطعهم ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسىء بالإحسان فما ظنك بغير المسىء؟ ﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة ﴿**لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ فسرها بقوله: ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ**﴾ أى: إقامة لا يزالون منها ولا يبغون عنها حولاً لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم والسرور الذى تنتهى إليه المطالب والغايات، ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم أنهم ﴿**يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ**﴾ من الذكور والإناث وكذلك النظراء والأشباه والأصحاب والأحباب فإنهم من قبيل أزواجهم وذرياتهم ﴿**وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ**﴾ يهنئونهم بالسلامة وكرامة الله لهم ويقولون: ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُم**﴾ أى: حلَّتْ عليكم السلامة والتحية من الله حصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه ومستلزم لحصول كل محبوب ﴿**بِمَا صَبَرْتُمْ**﴾ أى: بسبب صبركم، وهو الذى أوصلكم إلى هذه المنازل العالية والجنان الغالية ﴿**فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ فحقيق بمن نصح نفسه وكان لها عنده قيمة أن يجاهدها لعلها تأخذ من أوصاف أولى الألباب بنصيب، ولعلها تحظى بهذه الدار التى هى منية النفوس وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فليعمل العاملون وفيها فليتنافس المتنافسون.

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾

لما ذكر حال أهل الجنة ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به فقال عنهم: ﴿**وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**﴾ أى: من بعد ما أكده عليهم على أيدى رسله وغلظ عليهم فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم بل قابلوه بالاعراض والنقض ﴿**وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ**﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق بل أفسدوا فى الأرض بالكفر والمعاصى والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجًا ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ**﴾ أى البعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين ﴿**وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ وهى: الجحيم بما فيها من العذاب الأليم.

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِى الْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

أى: هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء ويقدره ويضيقه على من يشاء ﴿**وَفَرِحُوا**﴾ أى: الكفار ﴿**بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ فرحًا أوجب لهم أن يطمئنوا بها ويغفلوا عن الآخرة وذلك لنقصان عقولهم ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ**﴾ أى: شىء حقير يتمتع به قليلاً ويفارق أهله وأصحابه ويعقبهم ويلاً طويلاً.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله يتعنتون على رسول الله ويقترحون ويقولون: ﴿**لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ**﴾ ويزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا فأجابهم الله بقوله: ﴿**قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ**﴾ أي: طلب رضوانه فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفًا على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون فلو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون، ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها بل إذا جاءهم بآية وتبين ما جاء به من الحق كفى ذلك وحصل المقصود وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب، ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ**﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها وتحضرها أفراحها ولذاتها ﴿**أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ أي: حقيق بها وحرى أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره فإنه لا شيء ألذ للقلوب ولا أحلى من محبة خالقها والأنس به ومعرفته وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله هو ذكر العبد لربه من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك، وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذى أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلب بذكر الله: أنها حين تعرف معانى القرآن وأحكامه تطمئن لها فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين وبذلك تطمئن القلوب فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم، وذلك فى كتاب الله مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾ وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله وتدبره وتدبر غيره من أنواع العلوم فإنه يجد بينها وبينه فرقًا عظيمًا، ثم قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ أي: آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة أعمال القلوب كمحبة الله وخشيته ورجائه وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها ﴿**طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**﴾ أي: لهم حالة طيبة ومرجع حسن وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته فى الدنيا والآخرة وأن لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التى فى الجنة التى يسير الراكب فى ظلها مائة عام ما يقطعها كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ**﴾ إلى قومك تدعوهم إلى الهدى ﴿**فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ**﴾ أرسلنا فيهم رسلنا فلست ببدع من الرسل حتى يستنكروا رسالتك ولست تقول من تلقاء نفسك بل تتلو عليهم آيات الله التى أوحاها الله إليك التى تطهر القلوب وتزكى النفوس، والحال أن قومك يكفرون بالرحمن فلم يقابلوا رحمته وإحسانه ـ التى أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولاً وأنزلنا عليك كتابًا ـ بالقبول والشكر بل قابلوها بالإنكار والرد فلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم ﴿**قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ وهذا متضمن التوحيدين توحيد: الألوهية وتوحيد الربوبية، فهو ربى الذى ربانى بنعمه منذ أوجدنى وهو إلهى الذى ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**﴾ فى جميع أمورى ﴿**وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ أي: أرجع فى جميع عباداتى وفى حاجاتى.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾

يقول تعالى مبينًا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا ﴾ من الكتب الإلهية ﴿ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ عن أماكنها ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ ﴾ جنانًا وأنهارًا ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ﴾ لكان هذا القرآن ﴿ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل لهم ولغيرهم من الأمر شيء؟ ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعًا ولكن لا يشاء ذلك بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ على كفرهم لا يعتبرون ولا يتعظون، والله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم أو تحل قريبًا منها وهم مصرون على كفرهم ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ الذي وعدهم به لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ وهذا تهديد وتخويف لهم من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾

يقول تعالى لرسوله مثبتًا له ومسليًا ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ فلست أول رسول كُذِّب وأوذي ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ برسلهم أي: أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ بأنواع العذاب ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ كان عقابًا شديدًا وعذابًا أليمًا فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزءوا بك بإمهالنا فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك.

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ﴾

يقول تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ بالجزاء العاجل والآجل بالعدل والقسط وهو: الله تبارك وتعالى كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له ولا ند ولا نظير ﴿ قُلْ ﴾ لهم إن كانوا صادقين: ﴿ سَمُّوهُمْ ﴾ لنعلم حالهم ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ ﴾ فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة وهو لا يعلم له شريكًا علم بذلك بطلان دعوى الشريك له وأنكم بمنزلة الذي يعلم الله أن له شريكًا وهو لا يعلمه وهذا أبطل ما يكون ولهذا قال: ﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى أنه بظاهر أقوالكم، وأما في الحقيقة فلا إله إلا الله وليس أحد من الخلق يستحق شيئًا من العبادة ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ الذي مكروه وهو كفرهم وشركهم وتكذيبهم لآيات الله ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ لأنه ليس لأحد من الأمر شيء ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ يقيهم من عذابه فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

﴿ ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى الْكَـٰفِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾

يقول تعالى: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه ولم يقصروا فيما أمرهم به أي:

صفتها وحقيقتها ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ أنهار العسل وأنهار الخمر وأنهار اللبن وأنهار الماء التى تجرى فى غير أخدود فتسقى تلك البساتين والأشجار فتحمل جميع أنواع الثمار ﴿أكلها دائم وظلها﴾ دائم أيضًا ﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ أى: مآلهم وعاقبتهم التى إليها يصيرون ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ أى: مننا عليهم به وبمعرفته ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ فيؤمنون به ويصدقونه ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض وتصديق بعضها بعضًا وهذه حال من آمن من أهل الكتاب ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ أى: ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدقه ﴿فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ إنما أنت يا محمد منذر تدعو إلى الله ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به﴾ أى: بإخلاص الدين لله وحده ﴿إليه أدعو وإليه مآب﴾ أى: مرجعى الذى أرجع به إليه فيجازينى بما قمت به من الدعوة إلى دينه والقيام بما أمرت به.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

أى: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب ﴿حكمًا عربيًا﴾ أى: محكمًا متقنًا بأوضح الألسنة وأفصح اللغات لئلا يقع فيه شك واشتباه وليوجب أن يتبع وحده ولا يداهن فيه ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون ولهذا توعد رسوله - مع أنه معصوم - ليمتن عليه بعصمته وليكون لأمته أسوة فى الأحكام فقال: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم﴾ البين الذى ينهاك عن اتباع أهوائهم ﴿ما لك من الله من ولى﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب ﴿ولا واق﴾ يقيك من الأمر المكروه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

أى: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية﴾ فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية كما كان لإخوانك المرسلين، فلأى شىء يقدحون فيك بذلك؟ وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم؟ وإن طلبوا منك آية اقترحوها فليس لك من الأمر شىء ﴿وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله﴾ والله لا يأذن فيها إلا فى وقتها الذى قدره وقضاه ﴿لكل أجل كتاب﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه فليس استعجالهم بالآيات أو العذاب موجبًا لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر مع أنه تعالى فعال لما يريد ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ من الأقدار ﴿ويثبت﴾ ما يشاء منها وهذا المحو والتغيير فى غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير لأن ذلك محال على الله أن يقع فى علمه نقص أو خلل ولهذا قال: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أى: اللوح المحفوظ الذى ترجع إليه سائر الأشياء فهو أصلها وهى فروع وشعب، فالتغيير والتبديل يقع فى الفروع والشعب كأعمال اليوم والليلة التى تكتبها الملائكة ويجعل الله لثبوتها أسبابًا ولمحوها أسبابًا لا تتعدى تلك الأسباب ما رسم فى اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق وكما جعل المعاصى سببًا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببًا للسلامة وجعل التعرض لذلك سببًا للعطب فهو الذى يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه فى اللوح المحفوظ.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابة ما يوعدون من العذاب فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به إما ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ إياه فى الدنيا فتقر بذلك عينك، بل هى مبنية على القسط والعدل والحمد فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أصابتهم فليس ذلك شغلاً لك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ والتبيين للخلق ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ فنحاسب الخلق على ما قاموا به بما عملوه أو ضيعوه ونثيبهم أو نعاقبهم، ثم قال متوعداً للمكذبين: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قيل بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين ونقصهم فى أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال، والظاهر ــ والله أعلم ــ أن المراد بذلك أن أراضى هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويجتاحها ويحل القوارع بأطرافها تنبيهًا لهم قبل أن يجتاحهم النقص ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ ويدخل فى هذا حكمه الشرعى والقدرى والجزائى، فهذه الأحكام التى يحكم الله فيها توجد فى غاية الحكمة والإتقان لا خلل فيها ولا نقص، بل هى مبنية على القسط والعدل والحمد فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها بخلاف حكم غيره فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى: فلا يستعجلوا بالعذاب فإن كل ما هو آت فهو قريب.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم وبالحق الذى جاءت به الرسل فلم يغن عنهم مكرهم ولم يصنعوا شيئًا فإنهم يحاربون الله، ويبارزونه ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أى: لا يقدر أحد أن يمكر مكراً إلا بإذنه وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم، فإن الله ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أى: همومها وإرادتها وأعمالها الظاهرة والباطنة والمكر لا بد أن يكون من كسبها فلا يخفى على الله مكرهم فيمتنع أن يمكروا مكراً يضر الحق وأهله ويفيدهم شيئًا ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أى: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين لا للكفر وأهله ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ أى: يكذبونك ويكذبون ما أرسلت به ﴿قُلْ﴾ لهم إن طلبوا على ذلك شهيداً: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وشهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يثبت به رسالته، وأما فعله فلأن الله تعالى أيد رسوله ونصره نصراً خارجًا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد، وأما إقراره فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسول وأنه أمر الناس باتباعه فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته ومن لم يتبعه فله النار والسخط وحل له ماله ودمه والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهد منهم للرسول من آمن واتبع الحق فصرح بتلك الشهادة التى عليه، ومن كتم ذلك فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة لرد استشهاده بالبرهان فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة، وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم بخلاف من هو أجنبى عنه كالأميين من مشركى العرب وغيرهم، فلا فائدة فى استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم، والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

يخبر الله تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله إلا بإرادة من الله ومعونة، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم، ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب فقال: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي الموصل إليه وإلى دار كرامته المشتمل على العمل بالحق والعمل به، وفي ذكر ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة أن من سلكه فهو عزيز بعزة الله قوي ولو لم يكن له أنصار إلا الله محمود في أموره حسن العاقبة، وليدل ذلك على أن صراط الله من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال ونعوت الجلال، وإن الذي نصبه لعباده عزيز السلطان حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم وأنه كما أن له ملك السموات والأرض خلقًا ورزقًا وتدبيرًا فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية لأنهم ملكه ولا يليق به أن يتركهم سدى فلما بيَّن الدليل والبرهان توعد من لم ينقد لذلك فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لا يقدر قدره ولا يوصف أمره، ثم وصفهم بأنهم ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فرضوا بها واطمأنوا وغفلوا عن الدار الآخرة ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ التي نصبها لعباده وبينها في كتبه وعلى ألسنة رسله فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي: يحرصون على تهجينها وتقبيحها للتنفير منها ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين ذكر وصفهم ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا وشاقوا الله ورسوله وحاربوهما فأي ضلال أبعد من هذا؟ وأما أهل الإيمان فعكس هؤلاء يؤمنون بالله وآياته ويستحبون الآخرة على الدنيا ويدعون إلى سبيل الله ويحسنونها مهما أمكنهم ويبغون استقامتها.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولاً ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما يحتاجون إليه ويتمكنون من تعلم ما أتى به بخلاف ما لو أتى على غير لسانهم فإنهم يحتاجون إلى تلك اللغة التي يتكلم بها ثم يفهمون عنه، فإذا بيَّن الرسول ما أمروا به ونهوا عنه وقامت عليهم حجة الله ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ ممن لم ينقد للهدى ويهدي من يشاء ممن اختصه برحمته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي من عزته أنه انفرد بالهداية والإضلال وتقليب القلوب إلى ما شاء ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبيين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها، إلا إذا كان الناس في حالة لا يحتاجون إليها وذلك إذا تمرنوا على العربية ونشأ عليها صغيرهم وصارت طبيعة لهم، فحينئذ قد اكتفوا المؤنة وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء كما تلقى الصحابة ﷺ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

يخبر تعالى: أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: ظلمات الجهل والكفر وفروعه إلى نور العلم والإيمان وتوابعه ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أى: بنعمه عليهم وإحسانه إليهم وبأيامه فى الأمم المكذبين ووقائعه بالكافرين ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أى: فى أيام الله على العباد ﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أى: صبار فى الضراء والعسر والضيق، شكور على السراء والنعمة، فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه وتمام عدله وحكمته، ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه فذكرهم نعم الله فقال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أى: بقلوبكم وألسنتكم ﴿إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ أى: يولونكم (١) ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى: أشده، وفسر ذلك بقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أى: يبقونهن فلا يقتلونهن ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ الإنجاء ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أى: نعمة عظيمة، أو فى ذلكم العذاب الذى ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم لينظر هل تعتبرون أم لا؟ وقال لهم حاثًا على شكر نعم الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أى: أعلم ووعد ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من نعمى ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التى أنعم بها عليهم والشكر هو اعتراف القلب بنعم الله والثناء على الله بها وصرفها فى مرضاة الله تعالى وكفر النعمة ضد ذلك ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فلن تضروا الله شيئًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فالطاعات لا تزيد فى ملكه والمعاصى لا تنقص وهو كامل الغنى حميد فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخوفًا عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل فكذبوهم فعاقبهم بالعقاب العاجل الذى رآه الناس وسمعوه فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ وقد ذكر الله قصصهم فى كتابه وبسطها ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ من كثرتهم وكون أخبارهم اندرست فهولاء كلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به فلم يرسل الله رسولاً إلا أتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم ينقادوا لها بل استكبروا عنها ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أى: لم

---

(١) قوله (يولونكم) تعبير فيه إبهام، ولو قال (يذيقونكم أو يكلفونكم) لكان أوضح، ولأن الذين شرحوا معانى مفردات القرآن فسروا «يسومونكم» بـ «يذيقونكم» أو «يكلفونكم».

يؤمنوا بما جاءوا به ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ صريحًا لرسلهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أى: موقع فى الريبة وقد كذبوا فى ذلك وظلموا ولهذا ﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أى: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك فى الله ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذى وجود الأشياء مستند إلى وجوده لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات حتى الأمور المحسوسة ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الريب فيه ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى منافعكم ومصالحكم ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: ليثيبكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم بل النفع عائد إليكم، فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين و ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أى: فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فكيف نترك رأى الآباء وسيرتهم لرأيكم؟ وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بحجة وبينة ظاهرة ومرادهم بينة يقترحونها هم وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجيبين لاقتراحهم واعتراضهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى: صحيح وحقيقة إنّا بشر مثلكم ﴿وَلَكِنَّ﴾ ليس فى ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق فإن ﴿اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فإذا منَّ الله علينا بوحيه ورسالته فذلك فضله وإحسانه وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله فانظروا ما جئناكم به فإن كان حقًا فاقبلوه وإن كان غير ذلك فردوه ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ فإن هذا ليس بأيدينا وليس لنا من الأمر شيء ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو الذى إن شاء جاءكم به وإن شاء لم يأتكم به وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيعتمدون عليه فى جلب مصالحهم ودفع مضارهم لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته وعميم إحسانه، ويثقون به فى تيسير ذلك وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم فعلم بهذا وجوب التوكل وأنه من لوازم الإيمان ومن العبادات الكبار التى يحبها الله ويرضاها لتوقف سائر العبادات عليه ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: أى شيء يمنعنا من التوكل على الله والحال أننا على الحق والهدى ومن كان على الحق والهدى فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدى وكفايته يدعو إلى ذلك بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامنًا على الله فإن حاله مناقضه لحال المتوكل وفى هذا كالإشارة من الرسل عليهم الصلاة والسلام لقومهم بآية عظيمة، وهو أن قومهم - فى الغالب - أن لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدتهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله فى دفع كيدهم ومكرهم وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ الآيات، وقول هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أى: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم ولا نبالى بما يأتينا منكم من الأذى فإنا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى احتسابًا للأجر ونصحًا لكم لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير، واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم فى أعلى المطالب وأشرف المراتب وهو التوكل على الله فى إقامة دينه ونصره هداية عبيده وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)﴾

لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك وعدم مللهم ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ متوعدين لهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الرد وليس بعد هذا فيهم مطمع لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم ونسبوها إلى أنفسهم وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها وهذا من أعظم الظلم فإن الله أخرج عباده إلى الأرض وأمرهم بعبادته وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته، فمن استعان بذلك على عبادة الله حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي لم يكن ذلك خالصًا له ولم يحل له فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدوا الرسل بإخراجهم منها، وإن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم وأفراد منهم، فلأي شيء يمنعونهم حقًا لهم صريحًا واضحًا؟! هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟ ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره وينصره أولياءه ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ بأنواع العقوبات ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ﴾ أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسل ومن تبعهم جزاء ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ عليه في الدنيا وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: ما توعدت به من عصاني فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله والمبادرة إلى ما يحبه الله ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: الكفار أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه فجاءهم ما استفتحوا به وإلا فالله عليم حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: خسر في الدنيا والآخرة من تجبر على الله وعلى الحق وعلى عباد الله واستكبر في الأرض وعاند الرسل وشاقهم ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد فلا بد له من ورودها فيذوق حينئذ العذاب الشديد ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة وهو في غاية الحرارة ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ من العطش الشديد ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه وإذا وصل إلى بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت ولكن الله قضى أن لا يموتوا، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ ﴿وَمِن وَرَائِهِ﴾ أي: الجبار العنيد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: قوي شديد لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾

يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد الذي هو أدق الأشياء وأخفها إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب فإنه لا يبقى منه شيء ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل، فكذلك أعمال الكفار ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ولا على مثقال ذرة منه لأنه مبني على الكفر والتكذيب ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ حيث بطل سعيهم واضمحل عملهم، وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها ليكيدوا بها الحق، فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك ومرهم عائد عليهم ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١)﴾

ينبه تعالى عباده بأن ﴿اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: ليعبده الخلق ويعرفوه ويأمرهم وينهاهم وليستدلوا بهما وما فيهما على ما له من صفات الكمال وليعلموا أن الذي خلق السموات والأرض - على

عظمهما وسعتهما ـ قادراً على أن يعيدهم خلقًا جديداً ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك ولهذا قال: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يكونون أطوع لله منكم ويحتمل أن المراد: إن يشأ يفنيكم ثم يعيدكم بالبعث خلقًا جديداً ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال يوم القيامة ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أى: بممتنع بل هو سهل عليه جداً ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ ﴿وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ ﴿وبرزوا﴾ أى: الخلائق ﴿لله جميعًا﴾ حين ينفخ فى الصور فيخرجون من الأجداث إلى ربهم فيقفون فى أرض مستوية قاع صفصف لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ويبرزون له لا يخفى عليه منهم خافية فإذا برزوا صاروا يتحاجون وكلٌّ يدفع عن نفسه ويدافع ما يقدر عليه ولكن أنى لهم ذلك؟ ﴿فقال الضعفاء﴾ أى: التابعون والمقلدون ﴿للذين استكبروا﴾ وهم: المتبوعون الذى هم قادة فى الضلال: ﴿إنا كنا لكم تبعًا﴾ أى: فى الدنيا أمرتمونا بالضلال وزينتموه لنا فأغويتمونا ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء﴾ أى: ولو مثقال ذرة ﴿قالوا﴾ أى: المتبوعون والرؤساء ﴿أغويناهم كما غوينا﴾ و ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ فلا يغنى أحد أحداً ﴿سواء علينا أجزعنا﴾ من العذاب ﴿أم صبرنا﴾ عليه ﴿ما لنا من محيص﴾ أى: لا ملجأ نلجأ إليه ولا مهرب لنا من عذاب الله.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢٢) وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ (٢٣)﴾

أى: ﴿وقال الشيطان﴾ الذى هو سبب لكل شر يقع ووقع فى العالم مخاطبًا لأهل النار ومتبرئًا منهم ﴿لما قضى الأمر﴾ ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ على ألسنة رسله فلم تطيعوه فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم ﴿ووعدتكم﴾ الخير ﴿فأخلفتكم﴾ أى: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأمانى الباطلة ﴿وما كان لى عليكم من سلطان﴾ أى: من حجة على تأييد قولى ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى﴾ أى: هذه نهاية ما عندى أنى دعوتكم إلى مرادى وزينته لكم فاستجبتم لى اتباعًا لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كان الحال بهذه الصورة ﴿فلا تلومونى ولوموا أنفسكم﴾ فأنتم السبب وعليكم المدار فى موجب العقاب ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ أى: بمغيثكم من الشدة التى أنتم بها ﴿وما أنتم بمصرخى﴾ كل له قسط من العذاب ﴿إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل﴾ أى: تبرأت من جعلكم لى شريكًا مع الله فلست شريكًا لله ولا تجب طاعتى ﴿إن الظالمين﴾ لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لهم عذاب أليم﴾ خالدين فيه أبداً، وهذا من لطف الله بعباده أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله التى يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه وأنه يقصد أن يدخله النيران، وهنا بيَّن لنا أنه إذا دخل النار هو وجنده أنه يتبرأ منهم هذه البراءة ويكفر بشركهم ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ واعلم أن الله ذكر فى هذه الآية أن الشيطان ليس له سلطان، وقال فى آية أخرى: ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ فالسلطان الذى نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلاً على ما يدعو إليه وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرءون على المعاصى، وأما السلطان الذى أثبته فهو التسلط بالإغراء على المعاصى لأوليائه يؤزهم إلى المعاصى أزًا وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ولما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب الطائعين فقال: ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أى: الذين قاموا بالدين قولاً وعملاً واعتقاداً ﴿جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ فيها من اللذات والشهوات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿خالدين فيها بإذن ربهم﴾ أى: لا بحولهم وقوتهم بل بحول الله وقوته ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ أى: يُحيِّى بعضهم بعضًا بالسلام والتحية والكلام الطيب.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦)﴾

يقول تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهى شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهى النخلة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فى الأرض ﴿وَفَرْعُهَا﴾ منتشر ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وهى كثيرة النفع دائمًا ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ أى: ثمرتها ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ فكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت فى قلب المؤمن علمًا واعتقادًا وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية والآداب الحسنة فى السماء دائمًا يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التى تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينتفع غيره ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه، فإن فى ضرب الأمثال تقريبًا للمعانى المعقولة من الأمثال المحسوسة ويتبين المعنى الذى أراده الله غاية البيان ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته وحسن تعليمه، فللَّه أتم الحمد وأكمله وأعمه فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها فى قلب المؤمن ثم ذكر ضدها وهى كلمة الكفر وفرعها فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ المأكل والمطعم وهى: شجرة الحنظل ونحوها ﴿اجْتُثَّتْ﴾ هذه الشجرة ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أى: ثبوت فلا عروق تمسكها ولا ثمرة صالحة تنتجها بل إن وجد فيها ثمرة فهى ثمرة خبيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصى ليس لها ثبوت نافع فى القلب ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث يؤذى صاحبه ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح ولا ينفع نفسه ولا ينتفع به غيره.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾

يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين أى: الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبى التام الذى يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبتهم الله فى الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها، وفى الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامى والخاتمة الحسنة، وفى القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح إذا قيل للميت «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: «الله ربى والإسلام دينى ومحمد نبيى» ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ عن الصواب فى الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم، وفى هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه ونعيمه كما تواترت بذلك النصوص عن النبى ﷺ فى الفتنة وصفتها ونعيم القبر وعذابه.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾

يقول تعالى مبينًا حال المكذبين لرسوله من كفار قريش وما آل إليه أمرهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ ونعمة الله هى: إرسال محمد ﷺ إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات فى الدنيا والآخرة وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة فبدلوا هذه النعمة بردها والكفر بها والصد عنها بأنفسهم ﴿وَ﴾ صدهم غيرهم حتى ﴿أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ وهى: النار حيث تسببوا لإضلالهم فصاروا وبالاً على قومهم من حيث يظن نفعهم ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله فجرى عليهم ما جرى وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم فى تلك الوقعة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أى: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أى: نظراء وشركاء ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أى: ليضلوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا

لله من الأنداد ودعوهم إلى عبادتها ﴿قُلْ﴾ لهم متوعدًا: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً فليس ذلك بنافعكم ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أى: مآلكم ومأواكم فيها وبئس المصير.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾

أى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ آمرًا لهم بما فيه غاية صلاحهم وأن ينتهزوا الفرصة قبل أن لا يمكنهم ذلك: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أى: ظاهرًا وباطنًا ﴿وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أى: من النعم التى أنعمنا بها عليهم قليلاً أو كثيرًا ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب عليه نفقته والمستحبة كالصدقات ونحوها ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أى: لا ينفع فيه شىء ولا سبيل إلى استدراك ما فات لا بمعاوضة بيع وشراء ولا بهبة خليل وصديق فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه ولينظر ما قدمه لغد وليتفقد أعماله ويحاسب نفسه قبل الحساب الأكبر.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

يخبر تعالى: أنه وحده ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على اتساعهما وعظمهما ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو: المطر الذى ينزله الله من السحاب ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ أى: بذلك الماء ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ المختلفة الأنواع ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ورزقًا لأنعامكم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أى: السفن والمراكب ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ فهو الذى يسّر لكم صنعتها وأقدركم عليها وحفظها على تيار الماء لتحملكم وتحمل تجارتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ لتسقى حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ لا يفتران ولا ينيان يسعيان لمصالحكم من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم وحيواناتكم وزروعكم وثماركم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ﴾ مبصرًا لتبتغوا من فضله ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أى: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم مما تسألونه إياه بلسان الحال أو بلسان المقال من أنعام وآلات وصناعات وغير ذلك ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ فضلاً عن قيامكم بشكرها ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أى: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرئ على المعاصى مقصر فى حقوق ربه كفّار لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها إلا من هداه الله فشكر نعمه وعرف حق ربه وقام به، ففى هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شىء عظيم مجمل ومفصل يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره ويحثهم على ذلك ويرغبهم فى سؤاله ودعائه آناء الليل والنهار كما أن نعمته تتكرر عليهم فى جميع الأوقات.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

أى: ﴿وَ﴾ اذكر إبراهيم عليه والصلاة السلام فى هذه الحالة الجميلة: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ أى: الحرم ﴿آمِنًا﴾ فاستجاب الله دعاؤه شرعًا وقدرًا فحرمه الله فى الشرع ويسَّر من أسباب حرمته قدرًا ما هو معلوم حتى إنه لم يُرِدْهُ ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم، ولما دعا له بالأمن دعا له ولبنيه بالأمن فقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ أى: اجعلنى وإياهم جانبًا بعيدًا عن عبادتها والإلمام بها، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه بكثرة من افتتن وابتلى بعبادتها فقال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: ضلوا بسببها ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ لتمام الموافقة ومن أحب قومًا واتبعهم التحق بهم ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده لا يعذب إلا من تمرد عليه ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وذلك أنه أتى بـ «هاجر» أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو فى ذلك الرضاع من الشام حتى وضعهما فى مكة وهى - إذا ذاك - ليس فيها سكن ولا داع ولا مجيب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء فقال متضرعًا متوكلاً على ربه: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أى: لا كل ذريتى، لأن إسحاق فى الشام، وباقى بنيه كذلك، وإنما أسكن فى مكة إسماعيل وذريته، وقوله: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أى: لأن أرض مكة لم يكن فيها ماء ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أى: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية فمن أقامها كان مقيمًا لدينه ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أى: تحبهم وتحب الموضع الذى هم ساكنون فيه، فأجاب الله دعاءه فأخرج من ذرية إسماعيل محمدًا ﷺ حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامى وإلى ملة أبيهم إبراهيم فاستجابوا له وصاروا مقيمى الصلاة وافترض الله حج هذا البيت الذى أسكن به ذرية إبراهيم وجعل فيه سرًا عجيبًا جاذبًا للقلوب فهى تحجه ولا تقضى منه وطرًا على الدوام بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه وعظم ولعه وتَوَقُّهُ، وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فأجاب الله دعاءه فصار يجبى إليه ثمرات كل شىء، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت والثمار فيها متوفرة والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أى: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور التى نعلمها والتى لا نعلمها ما هو مقتضى علمك ورحمتك ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ ومن ذلك هذا الدعاء الذى لم يقصد به الخليل إلا الخير وكثرة الشكر لله رب العالمين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ فذلك من أكبر النعم، وكونه على الكبر فى حال الإياس من الأولاد نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين أجلُّ وأفضل ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أى: لقريب الإجابة ممن دعاه وقد دعوته ولم يخيب رجائى، ثم دعا لنفسه ولذريته فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ فاستجاب الله له فى ذلك كله إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعدة وعده إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، ثم قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ (٤٣)﴾

هذا وعيد شديد للظالمين وتسلية للمظلومين يقول تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث أمهلهم وأدَرَّ عليهم الأرزاق وتركهم يتقلبون فى البلاد آمنين مطمئنين، فليس فى هذا ما يدل على حسن حالهم فإن الله يُمْلِي للظالم ويمهله ليزداد إثمًا حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ والظلم - ههنا - يشمل الظلم فيما بين العبد وربه وظلمه لعباد الله ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ أى: لا تَطْرُف من شدة ما ترى من الأهوال وما أزعجها من القلاقل ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أى: مسرعين إلى إجابة الداعى حين يدعوهم إلى الحضور بين يدى الله للحساب لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ

﴿مُقْنِعِي رءُوسِهِمْ﴾ أى: رافعيها قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان فارتفعت لذلك رءوسهم ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أى: أفئدتهم فارغة من قلوبهم قد صعدت إلى الحناجر لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾

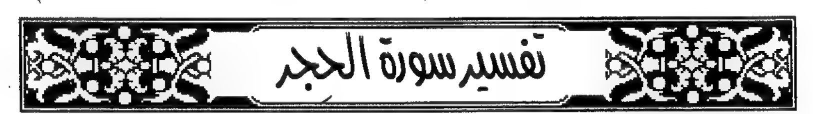
يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أى: صفْ لهم تلك الحال وحذِّرهم من الأعمال الموجبة للعذاب الذى حين يأتى فى شدائده وقلاقله ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصى نادمين على ما فعلوا سائلين للرجعة فى غير وقتها ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أى: ردَّنا إلى الدنيا فإنا قد أبصرنا ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ والله يدعو إلى دار السلام ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ وهذا كله لأمل التخلص من العذاب الأليم وإلا فهم كَذَبَةٌ فى هذا الوعد ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة فها قد تبين لكم حنثكم فى إقسامكم وكذبكم فيما تدعون ﴿وَ﴾ ليس عملكم قاصراً فى الدنيا من أجل الآيات البينات، بل ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من أنواع العقوبات؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات حين كذبوا بالآيات البينات ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ الواضحة التى لا تدع أدنى شك فى القلب إلا أزالته فلم تنفع فيكم تلك الآيات بل أعرضتم ودمتم على باطلكم حتى صار ما صار ووصلتم إلى هذا اليوم الذى لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ أى: المكذبون للرسل ﴿مَكْرَهُمْ﴾ الذى وصلت إليه إرادتهم وقدروا عليه ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أى: هو محيط به علماً وقدرة وقد عاد مكرهم عليهم ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ أى: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق وبمن جاء به - من عظمه - لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها، أى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ لا يقدر قدره ولكن الله رد كيدهم فى نحورهم، ويدخل فى هذا كل مَنْ مكر من المخالفين للرسل لينصر باطلاً أو يبطل حقًا، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئًا ولم يضروا الله شيئًا وإنما ضروا أنفسهم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم وإهلاك أعدائهم وخذلانهم فى الدنيا وعقابهم فى الآخرة فهذا لا بد من وقوعه لأنه وعد به الصادق قولاً على ألسنة أصدق خلقه وهم: الرسل وهذا أعلى ما يكون من الأخبار خصوصًا وهو مطابق للحكمة الإلهية والسنن الربانية وللعقول الصحيحة، و ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ لا يعجزه شىء فإنه ﴿عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أى: إذا أراد أن ينتقم من أحد فإنه لا يفوته ولا يعجزه وذلك فى يوم القيامة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ تبدل غير السموات، وهذا التبديل تبديل صفات لا تبديل ذات فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم فتصير قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وتكون السماء كالمهل من شدة أهوال ذلك اليوم ثم يطويها الله

تعالى بيـمينه ﴿وَبَـرَزُوا﴾ أى: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثـهم ونشورهم فى محل لا يخفى منهم على الله شىء ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة وقهره لكل العوالم فكلها تحت تصرفه وتدبيره فلا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: الذين وصفهم الإجرام وكثرة الذنوب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فى ذلك اليوم ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أى: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار فيقادون إلى العذاب فى أذل صورة وأشنعها وأبشعها ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أى: ثيابهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها ونتن ريحها ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾ التى هى أشرف ما فى أبدانهم ﴿النَّارُ﴾ أى: تحيط بها وتصلاها من كل جانب وغير الوجوه من باب أولى وأحرى، ولـيس هذا ظلمًا من الله وإنما هو جـزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر بالعدل والقسط الذى لا جور فيه بوجـه من الوجوه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ كقـوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ويحتمل أن مـعناه: سريع المحاسبـة فيحاسب الخلق فى ساعـة واحدة كما يرزقهم ويدبـرهم بأنواع التدابير فى لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن، ولـيس ذلك بعسير عليه سبحانه، فلما بيَّن البـيان المبين فى هذا القرآن قال فى مدحه: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أى: يتبلغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات لما اشتمل عليه من الأصول والفروع وجميع العلوم التى يحتاجها العباد ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعـد الله لأهلها من العقاب ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ حيث صرف فـيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته ما صار ذلك حق اليقين ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أى: العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه وما يضرهم فيتركونه وبذلك صاروا أولى الألبـاب والبصائر إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم وتنورت أفكارهم لما أخذوه غـضًا طريًا فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخـلاق والأعمال وأفضلها ولا يسـتدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها، وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكى لم يزل فى صعود ورقى على الدوام فى كل خصلة حميدة والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة إبراهيم والحمد لله ربِّ العالمين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

يقول تعـالى معظمًا لكتابه مـادحًا له: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أى: الآيـات الـدالة على أحـسن المعـانى وأفـضل المطالب ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدله عـلى المقصود، وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليـه والتسليم لحكمه وتلقيـه بالقبول والفرح والسرور، فـأما من قابل هذه النعمـة العظيمة بردها والكفر بها فإنه من المكـذبين الضالين الذين سيأتى عليهم وقت يتمنون أنهم مـسلمون، أى: منقادون لأحكامه، وذلك حين ينكشف الغطاء وتظهـر أوائل الآخرة ومقدمـات الموت، فإنهم فى أحوال الآخرة كلهـا يتمنون أنهم مسلمون وقد فات وقت الإمكان ولكـنهم فى هذه الدنيا مغترون ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بلذاتـهم ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أى: يؤملون البقاء فى الدنيا فيلهيهم عن الآخرة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أن ما هم عليه باطل وأن أعمالهم ذهبت خسرانًا عليهم ولا يغتروا بإمهال الله تعالى فإن هذه سنته فى الأمم ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ كانت مستحقة

للعذاب ﴿إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ مقدر لإهلاكها ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ وإلا فالذنوب لا بد من وقوع أثرها وإن تأخر.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾

أي: وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ على زعمك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ إذ تظن أنّا سنتبعك ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق، وهذا من أعظم الظلم والجهل، أما الظلم فظاهر، فإن هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات التى لم يخترها وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به، وأما الجهل فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم فليس فى إنزال الملائكة خير لهم بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذى لا إمهال على من لم يتبعه وينقد له ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا﴾ أى: حين تنزل الملائكة إن لم يؤمنوا ولن يؤمنوا ﴿مُّنظَرِينَ﴾ أى: بممهلين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلاً لأنفسهم بالهلاك والدمار، فإن الإيمان ليس فى أيديهم وإنما هو بيد الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين هذا القرآن العظيم ولهذا قال هنا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أى: القرآن الذى فيه ذكر لكل شىء من المسائل والدلائل الواضحة وفيه يتذكر من أراد التذكر ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أى: فى حال إنزاله وبعد إنزاله، ففى حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله فى قلب رسوله واستودعه فى قلوب أمته وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص ومعانيه من التبديل فلا يحرف معنى من معانيه إلا وقيض الله له من يبين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه: أن الله يحفظ أهله من أعدائهم ولا يسلط عدواً يجتاحهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣)﴾

يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: فرقهم وجماعتهم، رسلاً ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ يدعوهم إلى الحق والهدى ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ أى: ندخل التكذيب ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: الذين وصفهم الظلم والبهت عاقبناهم لما تشابهت قلوبهم بالكفر والتكذيب وتشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسلهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾

أى: ولو جاءتهم كل آية عظيمة لم يؤمنوا وكابروا ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فصاروا يعرجون فيه ويشاهدونه عيانًا بأنفسهم ﴿لَقَالُوا﴾ من ظلمهم وعنادهم منكرين لهذه الآية: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ أى: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نر ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أى: ليس هذا بحقيقة بل هذا سحر، وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء، ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)﴾

يقول تعالى مبينًا كمال اقتداره ورحمته بخلقه: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا﴾ أي: نجومًا كالأبراج والأعلام العظام يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ﴿وزيناها للناظرين﴾ فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهى والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها والنظر فى معانيها والاستدلال بها على باريها ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ إذا استرق السمع أتبعته الشهب الثواقب فبقيت السماء ظاهرها مجملاً بالنجوم النيرات وباطنها محروسًا ممنوعًا من الآفات ﴿إلا من استرق السمع﴾ أي: فى بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس ﴿فأتبعه شهاب مبين﴾ أي: بيِّن منير يقتله أو يخبله، فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه فينقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب فيضمها ويكذب معها مائة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التى سمعت من السماء ﴿والأرض مددناها﴾ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها من الامتداد بأرجائها والتناول من أرزاقها والسكون فى نواحيها ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ أي: جبالاً عظامًا تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد وتثبتها أن تزول ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ أي: نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد ما بين نخيل وأعناب وأصناف الأشجار وأنواع النبات والمعادن ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ من الحرث ومن الماشية ومن أنواع المكاسب والحرف ﴿ومن لستم له برازقين﴾ أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام لنفعكم ومصالحكم وليس عليكم رزقها بل خولكم الله إياها وتكفل بأرزاقها.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾

أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بحسب حكمته ورحمته الواسعة ﴿وما ننزله﴾ أي: المقدر من كل شيء من مطر وغيره ﴿إلا بقدر معلوم﴾ فلا يزيد على ما قدره الله ولا ينقص منه.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)﴾.

أي: وسخرنا الرياح رياح الرحمة تلقح السحاب كما يلقح الذكر الأنثى فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله فيسقيه الله العباد ومواشيهم وأرضهم ويبقى فى الأرض مدخرًا لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره ولكن الله يخزنه لكم ويسلكه ينابيع فى الأرض رحمة بكم وإحسانًا إليكم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)﴾

أي: هو وحده لا شريك له الذى يحيى الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا ويميتهم لآجالهم التى قدرها ﴿ونحن الوارثون﴾ كقوله: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾ وليس ذلك بعزيز ولا ممتنع على الله، فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم، ويعلم ما تنقص الأرض منهم وما تفرق من أجزائهم، وهو الذى قدرته لا يعجزها معجز فيعيد عباده خلقًا جديدًا ويحشرهم إليه ﴿إنه حكيم عليم﴾ يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها ويجازى كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا

فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام وما جرى من عدوه إبليس وفى ضمن ذلك التحذير لنا من شره وفتنته فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ أى: آدم عليه السلام ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أى: من طين قد يبس بعدما خمر حتى صار له صلصلة وصوت كصوت الفخار، والحمأ المسنون الطين المتغير لونه وريحه من طول مكثه ﴿وَالْجَانَّ﴾ وهو: أبو الجن أى: إبليس ﴿خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ خلق آدم ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ أى: من النار الشديدة الحرارة، فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ جسداً تاماً ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فامتثلوا أمر ربهم ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد بعد تأكيد ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيمًا لأمر الله وإكرامًا لآدم حيث علم ما لم يعلموا ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ وهذا أول عداوته لآدم وذريته، قال الله ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فاستكبر على أمر الله وأبدى العداوة لآدم وذريته وأعجب بعنصره وقال: أنا خير من آدم ﴿قَالَ﴾ الله معاقبًا له على كفره واستكباره ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أى: مطرود ومبعد من كل خير ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ أى: الذم والعيب والبعد عن رحمة الله ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ففيها وما أشبهها دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ أى: أمهلنى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وليس إجابة الله لدعائه كرامة فى حقه وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد ليتبين الصادق الذى يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير وشرح لنا ما يريده منا ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أى: أزين لهم الدنيا وأدعوهم إلى إيثارها على الأخرى حتى يكونوا منقادين لكل معصية ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: الذين أخلصتهم واجتبيتهم لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى: معتدل موصل إلىَّ وإلى دار كرامتى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره أعانهم الله وعصمهم من الشيطان ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ فرضى بولايتك وطاعتك بدلاً من طاعة الرحمن ﴿مِنَ الْغَاوِينَ﴾ والغوى: ضد الراشد فهو الذى عرف الحق وتركه، والضال الذى تركه من غير علم منه به ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: إبليس وجنوده ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ كل باب أسفل من الآخر ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ أى: من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ بحسب أعمالهم، قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم والنعيم المقيم فقال:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ قد احتوت على جميع الأشجار وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة فى جميع الأوقات، ويقال لهم

حال دخولها: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ من الموت والنوم والنصب واللغوب وانقطاع شيء من النعيم الذى هم فيه أو نقصانه ومن المرض والحزن والهم وسائر المكدرات ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ فتبقى قلوبهم سالمة من كل غل وحسد متصافية متحابة ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم فى كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له متكئين على تلك السرر المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر ﴿لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾[1] لا ظاهر ولا باطن، وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة لا تقبل شيئًا من الآفات ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ على سائر الأوقات، ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة من مفعولات الله من الجنة والنار ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ أى: أخبرهم خبراً جازمًا مؤيدًا بالأدلة ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته سعوا بالأسباب الموصلة لهم إلى رحمته وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها لينالوا مغفرته ومع هذا فلا ينبغى أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال[2]، فنبئهم ﴿أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ أى: لا عذاب فى الحقيقة إلا عذاب الله الذى لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه، نعوذ به من عذابه، فإنهم إذا عرفوا أنه ﴿لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ حذروا وبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغى أن يكون قلبه دائمًا بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره فى حقوق ربه أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: عن تلك القصة العجيبة فإن فى قصك عليهم أنباء الرسل وما جرى لهم ما يوجب لهم العبرة والاقتداء بهم، خصوصًا إبراهيم الخليل الذى أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيفه هم الملائكة الكرام، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا﴾ أى: سلموا عليه فرد عليهم ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أى: خائفون، لأنه لما دخلوا عليه وحسبهم ضيوفًا ذهب مسرعًا إلى بيته فأحضر لهم ضيافتهم عجلاً حنيذاً[3] فقدمه إليهم فلما رأى أيدهم لا تصل إليه خاف منهم أن يكونوا لصوصًا أو نحوهم ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ وهو: إسحاق عليه الصلاة والسلام، تضمنت هذه البشارة بأنه ذكر لا أنثى، عليم أى: كثير العلم، وفى الآية الأخرى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال لهم متعجبًا من هذه البشارة: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد ﴿عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ وصار نوع إياس منه ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أى: على أى وجه تبشرون وقد عدمت الأسباب؟ ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الذى لا شك فيه، لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص ـ يا أهل هذا البيت ـ رحمة الله وبركاته عليكم، فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم ﴿فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزال راجيًا لفضل الله وإحسانه وبره وامتنانه، فأجابهم إبراهيم بقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ الذين لا علم لهم بربهم وكمال اقتداره، وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم فلا سبيل إلى القنوط إليه لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئا كثيراً، ثم لما بشروه بهذه البشارة عرف أنهم مرسلون لأمر مهم.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ

---

(١) نصب، أى: تعب وكلدر. (٢) كذا فى الأصل والعبارة غير واضحة. اهـ مصححه. (٣) حنيذا، أى: مشويًا.

قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

أى ﴿قَالَ﴾ الخليل عليه السلام للملائكة ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أى: ما شأنكم ولأى شيء أرسلتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أى: كثر فسادهم وعظم شرهم لنعذبهم ونعاقبهم ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: إلا لوطًا وأهله ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى: الباقين بالعذاب، وأما لوط فلنخرجنه وأهله وننجيهم منها، فجعل إبراهيم يجادل الرسل فى إهلاكهم ويراجعهم فقيل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فذهبوا عنه ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ﴾ لهم لوط ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أى: لا أعرفكم ولا أدرى من أنتم ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أى: جئناك بعذابهم الذى كانوا يشكون فيه ويكذبونك حين توعدتهم به ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الذى ليس بالهزل ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما قلنا لك ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أى: فى أثنائه حين تنام العيون ولا يدرى أحد عن مسراك ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أى: بادروا وأسرعوا ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كأن معهم دليلاً يدلهم إلى أين يتوجهون ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ﴾ أى: أخبرناه خبرًا لا مثنوية فيه ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أى: سيصبحهم العذاب الذى يجتاحهم ويستأصلهم ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ أى: المدينة التى فيها قوم لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أى: يبشر بعضهم بعضًا بأضياف لوط وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم، فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط فجعلوا يعالجون لوطًا على أضيافه ولوط يستعيذ منهم ويقول: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أى: راقبوا الله أول ذلك، وإن كان ليس فيكم خوف من الله فلا تفضحون فى أضيافى وتنتهكوا منهم حرمتهم بفعل الأمر الشنيع، و ﴿قَالُوا﴾ له جوابًا عن قوله ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ فقط ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أن تضيفهم فنحن قد أنذرناك، ومن أنذر فقد أعذر ﴿قَالَ﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذى أصابه: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فلم يبالوا بقوله، ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذه السكرة هى سكرة محبة الفاحشة التى لا يبالون معها بعذل ولا لوم، فلما بينت له الرسل حالهم زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلاً فنجوا، وأما أهل القرية ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ أى: وقت شروق الشمس حيث كانت العقوبة عليهم أشد ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أى: قلبنا عليهم مدينتهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ تتبع فيها من شذ من البلد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أى: المتأملين المتفكرين الذين لهم فكر وروية وفراسة يفهمون بها ما أريد بذلك من أن من تجرأ على معاصى الله خصوصًا هذه الفاحشة العظيمة أن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات كما تجرءوا على أشنع السيئات ﴿وَإِنَّهَا﴾ أى: مدينة قوم لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ للسالكين يعرفه كل من تردد فى تلك الديار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفى هذه القصة من العبر: عنايته تعالى بخليله إبراهيم، فإن لوطًا عليه السلام من أتباعه ومن آمن به فكأنه تلميذ له، فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحقوا ذلك أمر رسله أن يمروا على إبراهيم عليه السلام كى يبشروه بالولد ويخبروه بما بعثوا له حتى أنه جادلهم عليه السلام فى إهلاكهم حتى أقنعوه فطابت نفسه، وكذلك لوط عليه السلام لما كانوا أهل وطنه فربما أخذته الرقة عليهم والرأفة بهم قدَّر الله من الأسباب ما به

يشتد غيظه وحنقه عليهم حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية زاد شرهم وطغيانهم فإذا انتهى أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

وهؤلاء قوم شعيب نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة وهو البستان كثير الأشجار ليذكروا نعمته عليهم وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبيهم شعيب فدعاهم إلى التوحيد وترك ظلم الناس فى المكاييل والموازين وعالجهم على ذلك أشد المعالجة فاستمروا على ظلمهم فى حق الخالق وفى حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أى: ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أى: لبطريق واضح يمر بهم المسافرون كل وقت فَيَبِينُ من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار فيعتبر بذلك أولو الألباب.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

يخبر تعالى عن أهل الحجر وهم قوم صالح الذين كانوا يسكنون الحجر المعروف فى أرض الحجاز أنهم كذبوا المرسلين أى: كذبوا صالحًا، ومن كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه بل لما جاء به من الحق الذى اشترك جميع الرسل بالإتيان به ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق ومن جملتها: تلك الناقة هى من آيات الله العظيمة ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كبرًا وتجبرًا على الله ﴿وَكَانُوا﴾ من كثرة إنعام الله عليهم ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ من المخاوف مطمئنين فى ديارهم، فلو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحًا عليه السلام لأدرَّ الله عليهم الأرزاق ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم لما كذبوا وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ فتقطعت قلوبهم فى أجوافهم وأصبحوا فى دارهم جاثمين هَلْكى مع ما يتبع ذلك من الخزى واللعنة المستمرة ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود ولا قوة أنصار ولا غزارة أموال.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

أى: ما خلقناهما عبثًا باطلاً كما يظن أعداء الله، بل ما خلقناهما ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ الذى منه أن تكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما واقتداره وسعة رحمته وحكمته وعلمه المحيط وأنه الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ﴾ لا ريب فيها لأن خلق السموات والأرض ابتداء أكبر من خلق الناس مرة أخرى ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ وهو الصفح الذى لا أذية فيه، بل قَابِلْ إساءة المسىء بالإحسان وذنبه بالغفران لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب، فإن كل ما هو آت فهو قريب، وقد ظهر لى معنى أحسن مما ذكرت هنا، وهو أن المأمور به هو الصفح الجميل أى: الحسن الذى قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية دون الصفح الذى ليس بجميل وهو: الصفح فى غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة وهذا هو المعنى ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ﴾ لكل مخلوق ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شىء فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ

﴿عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يقول تعالى ممتنًا على رسوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ وهن - على الصحيح - السور السبع الطوال: «البقرة» و «آل عمران» و «النساء» و «المائدة» و «الأنعام» و «الأعراف» و «الأنفال» مع «التوبة» أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات، فيكون عطف ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ على ذلك من باب عطف العام على الخاص لكثرة ما فى المثانى من التوحيد وعلوم الغيب والأحكام الجليلة وتثنيتها فيها، وعلى القول بأن «الفاتحة» هى السبع المثانى معناها أنها سبع آيات تثنى فى كل ركعة، وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثانى كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون وأعظم ما فرح به المؤمنون ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ولذلك قال بعده: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أى: لا تعجب إعجابًا يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التى تمتع بها المترفون واغتر بها الجاهلون واستغن بما آتاك الله من المثانى والقرآن العظيم ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فإنهم لا خير فيهم يُرجَى ولا نفع يُرتَقب، فلك فى المؤمنين عنهم أحسن البدل وأفضل العوض ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: ألِنْ لهم جانبك وحَسِّن لهم خلقك محبة وإكرامًا وتوددًا ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أى: قم بما عليك من النذارة وأداء الرسالة والتبليغ للقريب والبعيد والعدو والصديق، فإنك إذا فعلت ذلك فليس عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء، وقوله: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أى: كما أنزلنا العقوبة على من أقسموا على بطلان ما جئت به الساعين لصد الناس عن سبيل الله ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أى: أصنافًا وأعضاء وأجزاء يصرفونه بحسب ما يهوونه، فمنهم من يقول: سحر ومنهم من يقول: كهانة ومنهم من يقول: مُفْتَرى إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به الذين جعلوا قدحهم فيه ليصدوا الناس عن الهدى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: جميع من قدح فيه وعابه وحرَّفه وبدَّله ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفى هذا أعظم ترهيب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا يعملون.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

ثم أمر الله رسوله أن لا يبالى بهم ولا بغيرهم وأن يصدع بما أمر الله ويعلن بذلك لكل أحد ولا يعوقنه عن أمر عائق ولا تَصُدُّه أقوال المتهوكين ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: لا تبال بهم واترك مشاتمتهم ومسابتهم مقبلاً على شأنك ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بك وبما جئت به، وهذا وعد من الله لرسوله أن لا يضره المستهزئون وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة، وقد فعل تعالى فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله فإنهم أيضًا يؤذون الله ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ وهو ربهم وخالقهم ومنه برهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ غبَّ أفعالهم إذا وردوا القيامة ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لك من التكذيب والاستهزاء فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب والتعجيل لهم بما يستحقونه ولكن الله يمهلهم ولا يهملهم وأنت يا محمد ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ أى: أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة، فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه ويعينك على أمورك ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أى: الموت أى: استمر فى جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل ﷺ أمر ربه فلم يزل دائبًا فى العبادة حتى أتاه اليقين من ربه ﷺ تسليمًا كثيرًا.

تم تفسير سورة الحجر - والحمد لله رب العالمين - آمين

تفسير سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ① يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ②﴾

يقول تعالى مقربًا لما وعد به محققًا لوقوعه ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فإنه آت وما هو آت فإنه قريب ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من نسبة الشريك والولد والصاحبة والكفء وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون مما لا يليق بجلاله أو ينافى كماله، ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه ذكر الوحى الذى ينزله على أنبيائه مما يجب اتباعه فى ذكر ما ينسب لله من صفات الكمال فقال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أى: بالوحى الذى به حياة الأرواح ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ممن يعلمه صالحًا لتحمل رسالته، وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا﴾ أى: على معرفة الله تعالى وتوحده فى صفات العظمة التى هى صفات الألوهية وعبادته وحده لا شريك له، فهى التى أنزل بها كتبه وأرسل بها رسله وجعل الشرائع كلها تدعو إليها وتحث وتجاهد من حاربها وقام بضدها، ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك فقال:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ③ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ④ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑦ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ⑧ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ⑨﴾

هذه السورة تسمى سورة النعم فإن الله ذكر فى أولها أصول النعم وقواعدها وفى آخرها متمماتها ومكملاتها فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما وما له من نعوت الكمال ويعلموا أنه خلقهما سكنًا لعباده الذين يعبدونه بما يأمرهم به فى الشرائع التى أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تنزه وتعاظم عن شركهم فإنه الإله حقًا الذى لا تنبغى العبادة والحب والذل إلا له تعالى، ولما ذكر خلق السموات والأرض ذكر خلق ما فيهما وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ لم يزل يدبرها ويربيها وينميها حتى صارت بشرًا تامًا كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة قد غمره بنعمه الغزيرة حتى إذا استتم فخر بنفسه وأعجب بها ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه يكفر به ويجادل رسله ويكذب بآياته ونسى خلقه الأول وما أنعم الله عليه به من النعم فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ الآدمى من نطفة ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور حتى صار عاقلاً متكلمًا ذا ذهن ورأى يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذى أوصله إلى هذه الحال التى ليس فى إمكانه القدرة على شىء منها ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ أى: لأجلكم ولأجل منافعكم ومصالحكم، ومن جملة منافعها العظيمة ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها من الثياب والفرش والبيوت ﴿وَ﴾ لكم فيها ﴿مَنَافِعُ﴾ غير ذلك ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أى: فى وقت رواحها وسكونها ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شىء فإنكم أنتم الذين تتجملون بها بثيابكم وأولادكم وأموالكم وتعجبون بذلك ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ من الأحمال الثقيلة بل وتحملكم أنتم ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ ولكن الله ذللها لكم فمنها ما تركبونه ومنها ما تحملون

عليه ما تشاءون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إنه سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وسعة جوده وبره ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ سخرناها لكم ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب وتارة لأجل الجمال والزينة ولم يذكر الأكل لأن البغال والحمير محرم أكلها والخيل لا تستعمل - في الغالب - للأكل بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل خوفًا من انقطاعها، وإلا فقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم فإنه لم يذكرها بأعيانها لأن الله تعالى لم يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد به فيذكر أصلاً جامعًا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة سمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره كالنخل والأعناب والرمان وأجمل ما لا نعرف له نظيرًا في قوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ فكذلك هنا ذكر ما نعرفه من المراكب كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولما ذكر تعالى الطريق الحسي وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم الذي هو أقرب الطرق وأخصرها موصل إلى الله وإلى كرامته، وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله وهو: كل ما خالف الصراط المستقيم فهو قاطع عن الله موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم وضل الغاوون عنه وسلكوا الطرق الجائرة ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولكنه هدى بعضًا كرمًا وفضلاً ولم يهد آخرين حكمة منه وعدلاً.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

ينبه الله تعالى بهذه الآية الإنسان على عظمة قدرته وحثهم على التفكر حيث ختمها بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على كمال قدرة الله الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف ورحمته حيث جعل فيه ماء غزيرًا منه يشربون وتشرب مواشيهم ويسقون منه حروثهم فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم بحيث لا تستغنون عنها أبدًا، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودنياكم وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق وإصلاح الأشجار والثمار والنبات وتجفيف الرطوبات وإزالة البرودة الضارة للأرض وللأبدان وغير ذلك من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر، وفيهما وفي النجوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البر والبحر ومعرفة الأوقات وحساب الأزمنة ما تتنوع دلالاتها وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكر فيما هي مهيأة له مستعدة تعقل ما تراه وتسمعه لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظرة حظ البهائم التي لا عقل لها.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض من حيوان وأشجار ونبات وغير ذلك مما تختلف ألوانه وتختلف منافعه آية على كمال قدرة الله وعميم إحسانه وسعة بره وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

أي: هو وحده لا شريك له ﴿الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ وهيأه لمنافعكم المتنوعة ﴿لِتأْكُلُوا مِنْهُ لَحمًا طَرِيًّا﴾ وهو: السمك والحوت الذى تصطادونه منه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالاً وحسنًا إلى حسنكم ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ أى: السفن والمراكب ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أى: تمخر فى البحر العجاج الهائل بمقدمها حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التى يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذى يسر لكم هذه الأشياء وهيأها وتثنون على الله الذى مَنَّ بها، فللّه تعالى الحمد والشكر والثناء حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون وأعلى ما يتمنون وآتاهم من كل ما سألوه لا نحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه.

﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

أى: ﴿وَأَلْقَى﴾ الله تعالى لأجل عباده ﴿فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ﴾ وهى: الجبال العظام لئلا تميد بهم وتضطرب بالخلق فيتمكنون من حرث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته أن جعل فيها أنهارًا، يسوقها من أرض بعيدة، إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقى مواشيهم وحروثهم، أنهارًا على وجه الأرض، وأنهارًا فى بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالى والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل فى الأرض سبلاً، أى: طرقًا توصل إلى الديار المتنائية ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ السبيل إليها حتى إنك تجد أرضًا مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين.

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة وما أنعم به من النعم العميمة ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفء له ولا ند له فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ جميع المخلوقات وهو الفعال لما يريد ﴿كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾ شيئًا لا قليلاً ولا كثيرًا ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها فكما أنه واحد فى خلقه وتدبيره فإنه واحد فى إلهيته وتوحيده وعبادته وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم فلا تجعلوا له أندادًا فى عبادته بل أخلصوا له الدين ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ عددًا مجردًا عن الشكر ﴿لا تُحْصُوهَا﴾ فضلاً عن كونكم تشكرونها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات من جميع أصناف النعم مما يعرف العباد ومما لا يعرفون وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير، وكما أن رحمته واسعة وجوده عميم ومغفرته شاملة للعباد فعلمه محيط بهم ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بخلاف من عُبد من دونه، فإنهم ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ قليلاً ولا كثيرًا ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فكيف يخلقون شيئًا مع افتقارهم فى إيجادهم إلى الله تعالى؟ ومع هذا ليس فيهم من أوصاف الكمال شىء لا علم ولا غيره ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئًا أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين؟ فتبًا لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها حيث ضلت فى أظهر الأشياء لفساد عقولهم، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال ولا شىء من الأفعال وبين الكامل من جميع الوجوه الذى له كل صفة كمال وله من تلك

الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء والقدرة العامة والرحمة الواسعة التى ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة التى لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه ولهذا قال: إن ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وهو: الله الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فأهل الإيمان والعقول أجلته قلوبهم وعظمته وأحبته حبًا عظيمًا وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية وأعمال القلوب وأعمال الجوارح وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة ﴿فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ لهذا الأمر العظيم الذى لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعنادًا وهو: توحيد الله ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته ﴿لا جَرَمَ﴾ أى: حقًا لا بد ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض وسيجازيهم من جنس عملهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾

يقول تعالى مخبرًا عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أى: إذا سئلوا عن القرآن والوحى الذى هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها أم تكفرون وتعاندون؟ فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه فيقولون عنه: إنه ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أى: كذب اختلقه محمد على الله وما هو إلا قصص الأولين التى يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة ودعوا أتباعهم إليها وحملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوهم إليه فيحملون إثم ما دعوهم إليه وأما الذين يعلمون فكلٌّ مستقل بجرمه لأنه عرف ما عرفوا ﴿أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أى: بئس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم من وزرهم ووزر من أضلوه ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به وبنوا من مكرهم قصورًا هائلة ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أى: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها ﴿فَخَرَّ(١) عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ فصار ما بنوه عذابًا عذبوا به ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم ويقيهم العذاب فصار عذابهم فيما بنوه وأصّلوه وهذا من أحسن الأمثال فى إبطال الله مكر أعدائه، فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم وجعلوا لهم أصولاً وقواعد من الباطل يرجعون إليها ويردون بها ما جاءت به الرسل واحتالوا أيضًا على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبَالاً عليهم فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سيئ ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ هذا فى الدنيا ولعذاب الآخرة، أخزى ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أى: يفضحهم على رءوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أى: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله، فإذا سألهم هذا السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم والاعتراف بعنادهم فيقولون: ﴿ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا

---

(١) فخرَّ، أى: سقط، ووقع.

كافرين﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أى العلماء الربانيون ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ أى يوم القيامة ﴿وَالسُّوءَ﴾ اى: سوء العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وفى هذا فضيلة أهل العلم وأنهم الناطقون بالحق فى هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وأن لقولهم اعتبارًا عند الله وعند خلقه، ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفى القيامة فقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ أى: تتوفاهم فى هذه الحال التى كثر فيها ظلمهم وغيهم وقد علم ما يلقى الظلمة فى ذلك المقام من أنواع العذاب والخزى والإهانة ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أى: استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون الله وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ فيقال لهم: ﴿بَلَى﴾ كنتم تعملون السوء، و ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئًا، وهذا فى بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه فى الدنيا ظنًّا منهم أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم، فإذا دخلوا أبواب جهنم فكلُّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ نار جهنم، فإنها مثوى الحسرة والندم ومنزل الشقاء والألم ومحل الهموم والغموم وموضع السخط من الحى القيوم، لا يُفتَّر عنهم من عذابها ولا يرفع عنهم يومًا من أليم عقابها قد أعرض عنهم الرب الرحيم وأذاقهم العذاب العظيم.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣١) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٣٢)﴾

لما ذكر الله قيل[1] المكذبين بما أنزل الله ذكر ما قاله المتقون وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزل الله نعمة عظيمة وخير عظيم امتن الله به على العباد فقبلوا تلك النعمة وتلقوها بالقبول والانقياد وشكروا الله عليها فعلموها وعملوا بها ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ فى عبادة الله تعالى وأحسنوا إلى عباد الله فلهم ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ رزق واسع وعشية هنية وطمأنينة قلب وأمن وسرور ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أى: مهما تمنت أنفسهم وتعلقت به إرادتهم حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يمكن أن يطلبوا نوعًا من أنواع النعيم الذى فيه لذة القلوب وسرور الأرواح إلا وهو حاضر لديهم، ولهذا يعطى الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه حتى إنه يذكِّرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم، فتبارك الذى لا نهاية لكرمه ولا حد لجوده، الذى ليس كمثله شىء فى صفات ذاته وصفات أفعاله وآثار تلك النعوت وعظمة الملك والملكوت ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ لسخط الله وعذابه بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان من حقه وحق عباده وترك ما نهاهم الله عنه ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ مستمرين على تقواهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ أى: طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم ويخل فى إيمانهم فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته وألسنتهم بذكره والثناء عليه وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه ﴿يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ﴾ التحية الكاملة خاصة لكم والسلامة من كل آفة، وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الإمان بالله والانقياد لأمره، فإن العمل هو السبب والمادة والأصل فى دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته لا بحولهم وقوتهم.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٣٤)﴾

يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا وذُكِّروا فلم يتذكروا ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾

(١) قيل، أى: «قول» ولو عبَّر بهذه لكان أحسن وأوضح للقارئ.

لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب الذى سيحل بهم فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كذبوا وكفروا ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ إذ عذبهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فإنها مخلوقة لعبادة الله ليكون مآلها إلى كرامة الله فظلموها وتركوا ما خلقت له وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أى: عقوبات أعمالهم وآثارها ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: نزل ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإنهم كانوا إذا أنذرتهم رسلهم بالعذاب استهزءوا به وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذى سخروا منه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾

أى: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله وأن الله لو شاء ما أشركوا ولا حرموا شيئًا من الأنعام التى أحلها كالبحيرة والوصيلة والحام ونحوها من دونه، وهذه حجة باطلة فإنها لو كانت حقًا ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به فعاقبهم أشد العقاب فلو كان يحب ذلك منهم لما عذبهم وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذى جاءت به الرسل وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله فإن الله أمرهم ونهاهم ومكنهم من القيام بما كلفهم وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريده من غير أن ينازعه منازع فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أى: البيِّن الظاهر الذى يصل إلى القلوب ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه واحتجوا عليهم بالقدر فليس للرسل من الأمر شيء وإنما حسابهم على الله عز وجل.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧)﴾

يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولاً وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد وهو: عبادة الله وحده لا شريك له ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فاتبعوا المرسلين علمًا وعملاً ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ فاتبع سبيل الغيِّ ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب فلا تجد مكذبًا إلا كان عاقبته الهلاك ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ﴾ وتبذل جهدك فى ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾

يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله أنهم ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى: حلفوا أيمانًا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله وأنه لا يبعث الأموات ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا ترابًا، قال تعالى مكذبًا لهم: ﴿بَلَى﴾ سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ لا يخلفه ولا يغيره ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا

يعلمون﴾ ومن جهلهم العظيم إنكارهم البعث والجزاء ثم ذكر الحكمة فى الجزاء والبعث فقال: ﴿**ليبين لهم الذى يختلفون فيه**﴾ من المسائل الكبار والصغار فيبين حقائقها ويوضحها ﴿**وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين**﴾ حتى يروا أعمالهم حسرات عليهم وما نفعتهم آلهتهم التى يدعون مع الله من شىء لما جاء أمر ربك وحين يرون ما يعبدون حطبًا لجهنم وتكور الشمس والقمر وتناثر النجوم ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات وأنها مفتقرات إلى الله فى جميع الحالات وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد فإنه إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون من غير منازعة ولا امتناع بل يكون على طبق ما أراده وشاءه.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين ﴿**الذين هاجروا فى الله**﴾ أى: فى سبيله وابتغاء مرضاته ﴿**من بعد ما ظلموا**﴾ بالأذية والمحنة من قومهم الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك فتركوا الأوطان والخلان وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين: ثوابًا عاجلاً فى الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنىء الذى رأوه عيانًا بعدما هاجروا وانتصروا على أعدائهم وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة فتمولوا وآتاهم الله فى الدنيا حسنة ﴿**ولأجر الآخرة**﴾ الذى وعدهم الله على لسان رسوله خير، و ﴿**أكبر**﴾ من أجر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿**الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون (٢٠) يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم (٢١) خالدين فيها أبدًا إن الله عنده أجر عظيم**﴾ وقوله: ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ أى: لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر فى سبيله لم يتخلف عن ذلك أحد، ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿**الذين صبروا**﴾ على أوامر الله وعن نواهيه وعلى أقدار الله المؤلمة وعلى الأذية فيه والمحن ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ أى: يعتمدون عليه فى تنفيذ محابه لا على أنفسهم وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحدًا شىء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه أو لعدم توكله واعتماده على الله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً**﴾ أى: لست ببدع من الرسل فلم نرسل قبلك ملائكة بل رجالاً كاملين لا نساء ﴿**نوحى إليهم**﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد من غير أن يأتوا بشىء من قبل أنفسهم ﴿**فاسألوا أهل الذكر**﴾ أى: الكتب السابقة ﴿**إن كنتم لا تعلمون**﴾ نبأ الأولين وشككتم: هل بعث الله رجالاً؟ فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبينات فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم فى جميع الحوادث، وفى ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم والاتصاف بصفات الكمال، وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم فإنهم أهل الذكر على الحقيقة وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر**﴾ أى: القرآن الذى فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة ﴿**لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه ﴿**ولعلهم يتفكرون**﴾ فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾

هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصى من أن يأخذهم بالعذاب على غِرَّة وهم لا يشعرون إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم أو من أسفل منهم بالخسف أو غيره، وإما فى حال تَقَلُّبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما فى حال تَخَوُّفهم من العذاب فليسوا بمعجزين الله فى حالة من هذه الأحوال بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده، ولكنه رءوف رحيم لا يعاجل العاصين بالعقوبة بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أولياءه ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة ويدعوهم إلى الإقلاع عن السيئات التى تضرهم ويعدهم بذلك أفضل الكرامات ومغفرة ما صدر عنهم من الذنوب، فَلْيَسْتَحِ المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة فى جميع الحالات ومعاصيه صاعدة إلى ربه فى كل الأوقات، وَلْيَعْلَمْ أن الله يمهل ولا يهمل وأنه إذا أخذ العاصى أخذه أخذ عزيز مقتدر، فَلْيَتُبْ إليه وَلْيَرْجِعْ فى جميع أموره إليه فإنه رءوف رحيم، فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة وبره العميم وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم ألا وهى تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠) ﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أى: الشاكُّون فى توحيد ربهم وعظمته وكماله ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أى: إلى جميع مخلوقاته وكيف تتفيأ أظلتها ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ أى: كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: عن عبادته على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله مدحهم بالخوف من الله الذى هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الأوصاف فهم أذلاء تحت قهره ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أى: مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره طوعًا واختيارًا وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان: سجود اضطرار ودلالة على ما له من صفات الكمال وهذا عام لكل مخلوق من مؤمن وكافر وبر وفاجر وحيوان ناطق وغيره، وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين الملائكة وغيرهم من المخلوقات.

﴿ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أى: تجعلون له شريكًا فى إلهيته، وهو ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ متوحد فى الأوصاف العظيمة متفرد بالأفعال كلها، فكما أنه الواحد فى ذاته وأسمائه ونعوته وأفعاله فَلْتُوَحِّدُوه فى عبادته، ولهذا قال: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أى: خافونى وامتثلوا أمرى واجتنبوا نهيى من غير أن تشركوا بى شيئًا من المخلوقات فإنها كلها لله تعالى مملوكة ﴿وَلَهُ مَا فِي

﴿السموات والأرض وله الدين واصبا﴾(١) أي: الدين والعبادة والذل في جميع الأوقات لله وحده على الخلق أن يخلصوه لله وينصبغوا بعبوديته **﴿أفغير الله تتقون﴾** من أهل الأرض أو أهل السموات فإنهم لا يملكون لكم ضرًا ولا نفعًا والله المنفرد بالعطاء والإحسان **﴿وما بكم من نعمة﴾** ظاهرة وباطنة **﴿فمن الله﴾** لا أحد يشركه فيها **﴿ثم إذا مسكم الضر﴾** من فقر ومرض وشدة **﴿فإليه تجأرون﴾** أي: تضجون بالدعاء والتضرع لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون وصرف ما تكرهون هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده ولكن كثيرًا من الناس يظلمون أنفسهم ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة فإذا صاروا في حال الرخاء وأشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة ولهذا قال: **﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾** أي: أعطيناهم حيث نجيناهم من الشدة وخلصناهم من المشقة **﴿فتمتعوا﴾** في دنياكم قليلاً **﴿فسوف تعلمون﴾** عاقبة كفركم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافترائهم على الله الكذب وأنهم يجعلون لأصنامهم - التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر - نصيبًا مما رزقهم الله وأنعم به عليهم فاستعانوا برزقه على الشرك به وتقربوا به إلى أصنام منحوتة كما قال تعالى: **﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله﴾** الآية وقال: **﴿تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾** وقال: **﴿آلله أذن لكم أم على الله تفترون (٥٩) وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾** فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة **﴿ويجعلون لله البنات سبحانه﴾** حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله **﴿ولهم ما يشتهون﴾** أي: لأنفسهم الذكور حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان **﴿إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا﴾** من الغم الذي أصابه **﴿وهو كظيم﴾** أي: كاظم على الحزن والأسف إذا بُشِّر بأنثى وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه ويتوارى منهم من سوء ما بشر به، ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها **﴿أيمسكه على هون﴾** أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل؟ **﴿أم يدسه في التراب﴾** أي: يدفنها وهي حية وهو الوأد الذي ذم الله به المشركين **﴿ألا ساء ما يحكمون﴾** إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه ثم لم يكفهم هذا حتى نسبوا له أردأ القسمين وهو: الإناث اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فبئس الحكم حكمهم، ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون، قال تعالى: **﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾** أي: المثل الناقص والعيب التام **﴿ولله المثل الأعلى﴾** وهو كل صفة كمال وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصًا بوجه من الوجوه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه وهو: التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة **﴿وهو العزيز﴾** الذي قهر جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات بأسرها **﴿الحكيم﴾** الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)﴾

لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه ذكر كمال حلمه وصبره فقال: **﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم﴾** من غير زيادة ولا نقص **﴿ما ترك عليها من دابة﴾** أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم من أنواع الدواب

---

(١) واصبًا، أي: دائمًا.

والحيوانات فإن شؤم المعاصى يهلك به الحرث والنسل ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فَلْيَحْذَرُوا ما داموا فى وقت الإمهال قبل أن يجىء الوقت الذى لا إمهال فيه..

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

يخبر تعالى أن المشركين ﴿يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ من البنات ومن الأوصاف القبيحة وهو: الشرك بصرف شىء من العبادات إلى بعض المخلوقات التى هى عبيد لله فكما أنهم يكرهون ولا يرضون أن يكون عبيدهم، وهم مخلوقون من جنسهم، شركاء لهم فيما رزقهم الله فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟!! ﴿وَ﴾ هم مع هذه الإساءة العظيمة ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أى: أن لهم الحالة الحسنة فى الدنيا والآخرة، فرد عليهم بقوله: ﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مقدمون إليها ماكثون فيها غير خارجين منها أبدًا، بيَّن تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّب فقال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلاً يدعونهم إلى التوحيد ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فكذبوا الرسل وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجى من كل مكروه وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم صار ﴿وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ فى الدنيا فأطاعوه واتبعوه وتولوه ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الآخرة حيث تولوا عن ولاية الرحمن ورضوا بولاية الشيطان فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى: وما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن إلا لتبين للناس الحق فيما كان موضع اختلافهم من التوحيد والقدر وأحكام الأفعال وأحوال المعاد وليكون هداية تامة ورحمة عامة لقوم يؤمنون بالله وبالكتاب الذى أنزله.

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يذكر الله تعالى فى هذه الآية نعمة من أعظم النعم ليعقلوا عن الله مواعظه وتذكيره فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات وعلى أنه على كل شىء قدير، وأن الذى أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات، وأن الذى نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة وجود عظيم.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

أى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ التى سخرها الله لمنافعكم ﴿لَعِبْرَةً﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم فأخرج من بين ذلك لبنًا خالصًا من الكدر سائغًا للشاربين للذته ولأنه يسقى ويغذى فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية، فأى شىء فى الطبيعة يقلب العلف الذى تأكله البهيمة والشراب الذى تشربه من الماء العذب والملح لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين؟ وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح من أنواع الرزق الحسن الذى يأكله العباد طريًا ونضيجًا وحاضرًا ومدخرًا وطعامًا وشرابًا يتخذ من عصيرها ونبيذها ومن السكر الذى كان حلالاً قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حِلَّ المسكرات وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة، ولهذا قال من قال: «إن

المراد بالسكر هنا: الطعام والشراب اللذيذ» وهو أولى من القول الأول ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله كمال اقتداره حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة وعلى شمول رحمته حيث عم بها عباده ويسرها لهم وأنه الإله المعبود وحده حيث إنه المنفرد بذلك.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

في خلق هذه النحلة الصغيرة التي هداها الله هذه الهداية العجيبة ويسر لها المراعي ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهدايته لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها فيه شفاء للناس من أمراض عديدة، فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى وتمام لطفه بعباده وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعى سواه.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقية طوراً بعد طور ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم ومنهم من يعمره حتى ﴿يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه ويصير عقله كعقل الطفل ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة خلقًا بعد خلق كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

هذا من أدلة توحيده وقبح الشرك به، يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون إلا أنه تعالى ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فجعل منكم أحراراً لهم مال وثروة ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئًا من الدنيا فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ ويرون هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟! هل هذا إلا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله؟!! ولهذا قال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاها لما أشركوا به أحداً.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده حيث جعل لهم أزواجًا ليسكنوا إليها وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تقر بهم أعينهم ويخدمونهم ويقضون حوائجهم وينتفعون بهم من وجوه كثيرة ورزقهم من الطيبات من المآكل والمشارب والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئًا مذكوراً ثم أوجده الله وليس له من وجوده سوى العدم فلا تخلق ولا ترزق ولا تدبر من الأمور شيئًا، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله فإنها باطلة فكيف يتخذها المشركون من دون الله؟ ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يجحدونها ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم وأفجر الفجور وأسفه السفه؟!!.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقًا من السموات والأرض فلا ينزلون مطراً ولا رزقًا ولا ينبتون من نبات الأرض شيئًا ولا يملكون مثقال ذرة فى السموات والأرض ولا يستطيعون لو أرادوا، فإن غير المالك للشىء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون، فهذه صفة آلهتهم، كيف جعلوها مع الله وشبهوها بمالك الأرض والسموات الذى له الملك كله والحمد كله والقوة كلها؟!! ولهذا قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه: أحدهما: عبد مملوك أى: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئًا، والثانى: حر غنى قد رزقه الله منه رزقًا حسنًا من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان فهو ينفق منه سرًا وجهرًا هل يستوى هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان وغير محال استواؤهما، فإذا كانا لا يستويان فكيف يستوى المخلوق والعبد الذى ليس له مالك ولا قدرة ولا استطاعة بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب المالك لجميع الممالك القادر على كل شىء؟!! ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فَلِمَ سوَّى المشركون آلهتهم بالله؟ قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرءوا على الشرك العظيم، والمثل الثانى مثل ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ لا يسمع ولا ينطق ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ أى: يخدمه مولاه ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه فهو ناقص من كل وجه، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم فأقواله عدل وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان فلا يستوى من عُبِدَ من دون الله وهو لا يقدر على شىء من مصالحه فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئًا منها ولا يكون كفواً ولا نداً لمن لا يقول إلا الحق ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)﴾

أى: هو تعالى المنفرد بغيب السموات والأرض فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلا هو ومن ذلك علم الساعة فلا يدرى أحد متى تأتى إلا الله فإذا جاءت وتجلت لم تكن ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ من ذلك فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياؤه للموتى.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾

أى: هو المنفرد بهذه النعم حيث ﴿أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ولا تقدرون على شىء ثم إنه ﴿جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ خص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها ولأنها مفتاح لكل علم فلا

يصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذى أعطاهم إياها وجعل ينميها فيهم شيئًا فشيئًا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح فى طاعة الله، فمن استعملها فى غير ذلك كانت حجة عليه وقابل النعمة بأقبح المعاملة.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

أى: لأنهم المنتفعون بآيات الله المتفكرون فيما جعلت آية عليه وأما غيرهم فإن نظرهم نظر لهو وغفلة ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقة تصلح للطيران ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك وذلك دليل على حكمته وعلمه الواسع وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره تبارك الله رب العالمين، يُذكِّر تعالى عباده بنعمه ويستدعى منهم شكرها والاعتراف بها فقال:

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ فى الدور والقصور ونحوها تُكنُّكُم من الحر والبرد وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم وتتخذون فيها الغرف والبيوت التى هى لأنواع منافعكم ومصالحكم وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ ﴾ إما من الجلد نفسه أو مما نبت عليه من صوف وشعر ووبر ﴿ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ أى: تجدونها خفيفة الحمل تكون لكم ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ أى: فى السفر والمنازل التى لا قصد لكم فى استيطانها فتقيكم من الحر والبرد والمطر وتقى متاعكم من المطر ﴿ وَ ﴾ جعل لكم ﴿ مِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ أى: الأنعام ﴿ وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا ﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة وغير ذلك ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى: تتمتعون بذلك فى هذه الدنيا وتنتفعون بها، فهذا مما سخر الله العباد لصنعته وعمله ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ﴾ أى: من مخلوقاته التى لا صنعة لكم فيها ﴿ ظِلاَلاً ﴾ وذلك كأظلة الأشجار والجبال والآكام ونحوها ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ أى: مغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ أى: ألبسة وثيابًا ﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ ولم يذكر الله البرد لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها فى أصول النعم وآخرها فى مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم فإنه من الضرورة وقد ذكره فى أولها فى قوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ﴾ ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ أى: وثيابًا تقيكم وقت البأس والحرب من السلاح وذلك كالدروع والزرود ونحوها ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ إذا ذكرتم نعمة الله ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه ﴿ تُسْلِمُونَ ﴾ لعظمته وتنقادون لأمره وتصرفونها فى طاعة موليها ومسديها، فكثرة النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر والثناء بها على الله تعالى ولكن أبى الظالمون إلا تمردًا وعنادًا ولهذا قال الله عنهم ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن الله وعن طاعته بعدما ذُكِّروا بنعمه وآياته ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شىء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير، فإذا أديت ما عليك فحسابهم على الله فإنهم يرون الإحسان ويعرفون نعمة الله ولكنهم ينكرونها ويجحدونها ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ لا خير فيهم وما ينفعهم

توالى الآيات لفساد مشاعرهم وسوء قصودهم سيرون جزاء الله لكل جبار عنيد كفور للنعم، متمرد على الله وعلى رسله.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حال هؤلاء الذين كفروا فى يوم القيامة وأنه لا يقبل لهم عذر ولا يرفع عنهم العقاب وأن شركاءهم تتبرأ منهم ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم بأعمالهم وماذا أجابوا به الداعى إلى الهدى وذلك الشهيد الذى يبعثه الله أزكى الشهداء وأعدلهم وهم: الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فى الاعتذار لأن اعتذارهم بعدما علموا يقينًا بطلان ما هم عليه اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئًا، وإن طلبوا أيضًا الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا لم يجابوا ولم يعتبوا بل يبادرهم العذاب الشديد الذى لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه لأنهم لا حسنات لهم وإنما تعد أعمالهم وتحصى ويوقفون عليها ويقرون بها ويفتضحون ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ يوم القيامة وعلموا بطلانها ولم يمكنهم الإنكار ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ ليس عندها نفع ولا شفيع، فنوهوا بأنفسهم ببطلانها وكفروا بها وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أى: ردت عليهم شركاؤهم قولهم فقالت لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حيث جعلتمونا شركاء لله وعبدتمونا معه فلم نأمركم بذلك ولا زعمنا أن فينا استحقاقًا للألوهية فاللوم عليكم، فحينئذ استسلموا لله وخضعوا لحكمه وعلموا أنهم مستحقون للعذاب ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فدخلوا النار وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم ومن حمد ربهم وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يذكر الله تعالى فى هذه الآية عاقبة المجرمين حيث كفروا بأنفسهم وكذبوا بآيات الله وحاربوا رسله وصدوا الناس عن سبيل الله وصاروا دعاة إلى الضلال فاستحقوا مضاعفة العذاب كما تضاعف جرمهم وكما أفسدوا فى أرض الله.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

لما ذكر فيما تقدم أنه يبعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ ذكر ذلك أيضًا هنا وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ أى: على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر، وهذا من كمال عدل الله تعالى أن كل رسول يشهد على أمته لأنه أعظم اطلاعًا من غيره على أعمال أمته وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فى أصول الدين وفروعه وفى أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جلية حتى إنه تعالى يثنى فيه الأمور الكبار التى يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت وإعادتها فى كل ساعة ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة لتستقر فى القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها فى القلب، وحتى إنه تعالى يجمع

فى اللفظ القليل الواضح معانى كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، واعتبر هذا بالآية التى بعد هذه الآية وما فيها من أنواع الأوامر والنواهى التى لا تحصى، فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شىء صار حجة الله على العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم ورحمة ينالون به كل خير فى الدنيا والآخرة، فالهدى ما نالوا به من علم نافع وعمل صالح والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة كصلاح القلب وبره وطمأنينته وتمام العقل الذى لا يتم إلا بتربيته على معانيه التى هى أجل المعانى وأعلاها والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة والرزق الواسع والنصر على الأعداء بالقول والفعل ونيل رضا الله تعالى وكرامته العظيمة التى لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

فالعدل الذى أمر الله به يشمل العدل فى حقه وفى حق عباده، فالعدل فى ذلك أداء الحقوق كاملة موفورة بأن يؤدى العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما فى حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام فيؤدى كل والٍ ما عليه تحت ولايته سواء فى ذلك ولاية الإمامة الكبرى وولاية القضاء ونواب الخليفة ونواب القاضى، والعدلُ هو: ما فرضه الله عليهم فى كتابه وعلى لسان رسوله وأمرهم بسلوكه، ومن العدل فى المعاملات أن تعاملهم فى عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقًا ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم، فالعدل واجب والإحسان فضيلة مستحبة، وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذلك من أنواع النفع حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره، وخص الله إيتاء ذوى القربى - وإن كان داخلاً فى العموم - لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم والحرص على ذلك ويدخل فى ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم لكن كل من كان أقرب كان أحق بالبر، وقوله: ﴿**وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ**﴾ وهو: كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش ويدخل فى المنكر كل ذنب ومعصية تتعلق بحق الله تعالى وبالبغى كل عدوان على الخلق فى الدماء والأموال والأعراض، فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شىء إلا دخل فيها فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذى القربى فهى مما أمر الله به، وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغى فهى مما نهى الله عنه، وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال فتبارك من جعل من كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء، ولهذا قال: ﴿**يَعِظُكُمْ**﴾ أى: بما بيَّنه لكم فى كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم ﴿**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها، فلما أمر بما هو واجب فى أصل الشرع أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال:

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

هذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التى عقدها إذا كان بها برًا، ويشتمل أيضًا ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين وكالوعد الذى يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه فعليه فى جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عنه نقضها فقال: ﴿**وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ**

توكيدها﴾ بعقدها على اسم الله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المتعاقدون ﴿كَفِيلاً﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلاً فيكون فى ذلك ترك تعظيم الله واستهانة به وقد رضى الآخر منك باليمين والتوكيد الذى جعلت الله فيه كفيلاً فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك فلتف له بما قلته وأكدته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازى كل عامل بعمله على حسب نيته ومقصده ﴿وَلا تَكُونُوا﴾ فى نقضكم للعهود بأسوإ الأمثال وأقبحها وأدلها على صفة متعاطيها وذلك ﴿كَالَّتِي﴾ تغزل غزلاً قويًا فإذا استحكم وتم ما أريد منه ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ فجعلته ﴿أَنكَاثًا﴾ فتعبت على الغزل ثم على النقض ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأى، فكذلك من نقض ما عاهد عليه فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة، وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أى: لا تنبغى هذه الحالة منكم تعقدون الأيمان المؤكدة وتنتظرون فيها الفرص فإذا كان العاقد لها ضعيفًا غير قادر على الآخر أتمها لا لتعظيم العقد واليمين بل لعجزه، وإن كان قويًا يرى مصلحته الدنيوية فى نقضها نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه، كل ذلك دورانًا مع أهوية النفوس وتقديمًا لها على مراد الله منكم وعلى المروءة الإنسانية والأخلاق المرضية لأجل أن تكون أمة أكثر عددًا وقوة من الأخرى، وهذا ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ امتحانًا حيث قيض لعباده من أسباب المحن ما يمتحن به الصادق الوفى من الفاجر الشقى ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازى كلا بعمله ويخزى الغادر.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لجمع الناس على الهدى و ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال هدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته يعطى الهداية من يستحقها فضلاً ويمنعها من لا يستحقها عدلاً ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

أى: ﴿وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ وعهودكم ومواثيقكم ﴿دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ أى: تبعًا لأهوائكم متى شئتم وفيتم بها ومتى شئتم نقضتموها فإنكم إذا فعلتم ذلك تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ أى: العذاب الذى يسوءكم ويحزنكم ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حيث ضللتم وأضللتم غيركم ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مضاعف.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

يحذر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها فقال: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ تنالونه بالنقض وعدم الوفاء ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الثواب العاجل والآجل لمن آثر رضاه وأوفى بما عاهد عليه الله ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من حطام الدنيا الزائلة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فآثروا ما يبقى على ما يفنى فإن ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ ولو كثر جدًا لا بد أن ﴿يَنفَدُ﴾ ويفنى ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ببقائه لا يفنى ولا يزول، فليس بعاقل من آثر الفانى الخسيس على الباقى النفيس، وهذا كقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ

وأبْقَىٰ﴾، ﴿وَمَا عندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ وفى هذا الحث والترغيب على الزهد فى الدنيا، خصوصًا الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضررًا على العبد ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه وتقديمه على حق الله، فإن هذا الزهد واجب، ومن الدواعى للزهد أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين، وليس الزهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة، كالصلاة والصيام والذكر ونحوها، بل لا يكون العبد زاهدًا صحيحًا حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل، فالزهد الحقيقى هو: الزهد فيما لا ينفع فى الدين والدنيا والرغبة والسعى فى كل ما ينفع ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وفطموا أنفسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولهذا ذكر جزاء العاملين فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإن الإيمان شرط فى صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالاً صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مقتض لها فإنه: التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقًا حلالاً طيبًا من حيث لا يحتسب ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من أصناف اللذات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيؤتيه الله فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾

أى: فإذا أردت القراءة لكتاب الله الذى هو أشرف الكتب وأجلها وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه فى الأمور الفاضلة فيسعى فى صرفه عن مقاصدها ومعانيها فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله والاستعاذة من شره، فيقول القارئ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» متدبرًا لمعناها معتمدًا بقلبه على الله فى صرفه عنه مجتهدًا فى دفع وسواسه وأفكاره الرديئة مجتهدًا على السبب الأقوى فى دفعه وهو: التحلِّى بحلية الإيمان والتوكل، فإن الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ أى: تسلط ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان ولا يبقى له عليهم سبيل ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ أى: تسلطه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أى: يجعلونه لهم وليًا، وذلك بتخليهم عن ولاية الله ودخولهم فى طاعة الشيطان وانضمامهم لحزبه فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم فأزَّهم إلى المعاصى أزًّا وقادهم إلى النار قَوْدًا.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾

يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو: أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم الذى يشرع الأحكام ويبدل حكمًا مكان آخر لحكمته ورحمته، فإذا رأوه كذلك قدحوا فى الرسول وبما جاء به و ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشرعه ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به فإن القدح فى الشىء فرع عن العلم به وما يشتمل عليه مما يوجب المدح والقدح، ولهذا ذكر تعالى حكمته فى ذلك فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة ﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: نزوله من عند الله بالحق وهو مشتمل على الحق فى أخباره وأوامره ونواهيه فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحًا صحيحًا لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتًا بعد وقت فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم

شيئًا فشيئًا حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسى، وأيضًا فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكمًا من الأحكام ثم نسخه علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أى: يهديهم إلى حقائق الأشياء ويبين لهم الحق من الباطل والهدى من الضلال ويبشرهم أن لهم أجرًا حسنًا ماكثين فيه أبدًا، وأيضًا فإنه كلما نزل شيئًا فشيئًا كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة وتفرق الفكر فيه بل ينزل الله حكمًا وبشارة أكثر فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترووا منه أنزل نظيره وهكذا، ولذلك بلغ الصحابة ﷺ به مبلغًا عظيمًا وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد أعمال فاقوا بها الأولين والآخرين وكان أعلى وأولى لمن بعدهم أن يتربوا بعلومه ويتخلقوا بأخلاقه ويستضيئوا بنوره فى ظلمات الغى والجهالات ويجعلوه إمامهم فى جميع الحالات فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

يخبر تعالى عن قيل[1] المشركين المكذبين لرسوله: ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ﴾ هذا الكتاب الذى جاء به ﴿بَشَرٌ﴾ وذلك البشر الذى يشيرون إليه أعجمى اللسان ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ هل القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه فيكون فى قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين فيردونها ولا يقبلونها ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ حيث جاءهم الهدى فردوه فعوقبوا بحرمانه وخذلان الله لهم ﴿وَلَهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ﴾ أى: إنما يصدر افتراء الكذب من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أى: الكذب منحصر فيهم وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم، وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله الخاضع لربه فمحال أن يكذب على الله ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذى هو وصفهم فأظهر الله خزيهم وبيّن فضائحهم، فله تعالى الحمد.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

يخبر تعالى عن شناعة حال ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ فعمى بعدما أبصر ورجع إلى الضلال بعدما اهتدى وشرح صدره بالكفر راضيًا به مطمئنًا أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم الذى إذا غضب لم يقم لغضبه شىء وغضب عليهم كل شىء ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى: فى غاية الشدة مع أنه دائم أبدًا، و ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ حيث ارتدوا على أدبارهم طمعًا فى شىء من حطام الدنيا ورغبة فيه وزاهدًا فى خير الآخرة فلما اختاروا الكفر على الإيمان منعهم الله الهداية فلم يهدهم لأن الكفر وصفهم فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم، فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان وحرموا رحمة الله التى وسعت كل شىء وذلك أنها أتتهم فردوها وعرضت عليهم فلم

---

(١) قيل، أى: «قول» ولو عبر بهذه لكان أحسن وأوضح للقارئ.

يقبلوها ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة وفاتهم النعيم المقيم وحصلوا على العذاب الأليم، وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه وقلبه مطمئن بالإيمان راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها، ودل ذلك على أن كلام المكره على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنه لا عبرة به ولا يترتب عليه حكم شرعى لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾

أى: ثم إن ربك الذى ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر فى سبيله وخلى[1] دياره وأمواله طالبًا لمرضاة الله وفُتِنَ على دينه ليرجع إلى الكفر فثبت على الإيمان وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم فى دين الله بلسانه ويده وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس فهذه أكبر الأسباب التى ينال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب وهى مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه ورحمته[2] العظيمة التى بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم فلهم الرحمة من الله فى يوم القيامة ﴿يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها﴾ كلٌّ يقول نفسى لا يهمه سوى نفسه ففى ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير ﴿وتوفى كل نفس ما عملت﴾ من خير وشر ﴿وهم لا يظلمون﴾ فلا يزاد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئًا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)﴾

وهذه القرية هى: مكة المشرفة التى كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم يجد فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه[3] مع شدة الحمية فيهم والنعرة[4] العربية فحصل فى مكة من الأمن التام ما لم يحصل لها فى سواها وكذلك الرزق الواسع كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر لكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه يدعوهم إلى أكمل الأمور وينهاهم عن الأمور السيئة فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه وألبسهم لباس الجوع الذى هو ضد الرغد والخوف الذى هو ضد الأمن وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

---

(١) خلى، أى: ترك وطنه ومسقط رأسه وقصد أرضًا يتمكن فيها من إقامة شرائع دينه والدعوة إليه، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مستظلاً بحكم حاكم مسلم لا يقف عقبة فى سبيل الدعاة إلى الله.

(٢) ورحمته: معطوف على قوله «مغفرة الله» أى: ينال مغفرة الله ورحمته... إلخ.

(٣) لا يهيجه، أى: لا يزعجه ولا يثيره.

(٤) النعرة: بضم النون وفتح العين: بالكبر والخيلاء. اهـ. القاموس.

رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها ﴿حَلالاً طَيِّبًا﴾ أى: حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حرم الله أو أثرًا من غصب ونحوه فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعدٍّ ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ بالاعتراف بها بالقلب والثناء على الله بها وصرفها فى طاعة الله ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أى: إن كنتم مخلصين له العبادة فلا تشكروا إلا إياه ولا تنسوا المنعم ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ الأشياء المضرة تنزيهًا لكم، ومن ذلك: ﴿الْمَيْتَةَ﴾ ويدخل فى ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة[١] مشروعة ويستثنى منه ميتة الجراد والسمك ﴿وَالدَّمَ﴾ المسفوح[٢] وأما ما يبقى فى العروق واللحم فلا يضر ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ لقذارته وخبثه وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ كالذى يذبح للأصنام والقبور ونحوها لأنه مقصود به الشرك ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ إلى شىء من المحرمات ـ بأن حملته الضرورة وخاف إن لم يأكل أن يهلك ـ فلا جناح عليه إذا كان ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ﴾ أى: إذا لم يرد أكل المحرم وهو غير مضطر ولا متعد الحلال إلى الحرام أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذى[٣] حرمه الله من المباحات ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ أى: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم كذبًا وافتراء على الله وتقوّلاً عليه ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ولا بد أن يظهر الله خزيهم وإن تمتعوا فى الدنيا فإنه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ومصيرهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات تفضلاً منه وصيانة عن كل مستقذر، وأما الذين هادوا[٤] فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم كما قصه فى سورة الأنعام فى قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

وهذا حض منه لعباده على التوبة ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءًا بجهالة بعاقبة ما تجنى عليه ولو كان متعمدًا للذنب فإنه لا بد أن ينقص ما فى قلبه من العلم وقت مقارفة الذنب، فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب وندم عليه وأصلح أعماله فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها.

---

(١) ذكاة بالذال، أى: الذبح بالشرعى ولا يتحقق الذبح الشرعى إلا بقطع الودجين وهما: العرقان الموجودان على يمين العنق وعلى يساره.

(٢) فى الأصل المطبوع «والدم المسفوح» وهو خطأ واضح، ولم يقل أحد إن الدم المسفوح حلال أبدًا بل هو محرم بنص القرآن القائل ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ الآية، والدم الحلال أكله هو الكبد والطحال، كما قال النبى ﷺ «أحلت لكم ميتتان ودمان، السمك والجراد والكبد والطحال» فالعبارة كما ترى قلقة وأمارات التحريف من الناسخ ظاهرة.

(٣) قوله: «فهذا الذى حرمه الله .. إلخ» خطأ واضح والصواب «فهذا الذى أباحه الله من المحرمات».

(٤) الذين هادوا، أى: اليهود.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عما فضل به خليله عليه الصلاة والسلام وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أى: إمامًا جامعًا لخصال الخير هاديًا مهتديًا ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أى: مديمًا لطاعة ربه مخلصًا له الدين ﴿حَنِيفًا﴾ مقبلاً على الله بالمحبة والإنابة والعبودية معرضًا عمن سواه ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فى قوله وعمله وجميع أحواله لأنه إمام الموحدين الحنفاء ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أى آتاه الله فى الدنيا حسنة وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿اجْتَبَاهُ﴾ ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه وخيار عباده المقربين. ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فى علمه وعمله فعلم[1] بالحق وآثره على غيره ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ رزقًا واسعًا وزوجة حسناء وذرية صالحين وأخلاقًا مرضية ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم المنازل العالية والقرب العظيم من الله تعالى، ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم أن يتبع ملة إبراهيم ويقتدى به هو وأمته.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أى: فرضًا ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ حين ضلوا عن يوم الجمعة وهم اليهود فصار اختلافهم سببًا لأن يجب عليهم فى السبت احترامه وتعظيمه وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذى هدى الله هذه الأمة إليه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيبين لهم المحق من المبطل والمستحق للثواب ممن استحق العذاب.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

أى: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ أى: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل وَالْبَدَاْة بالأهم فالأهم وبالأقرب إلى الأذهان والفهم وبما يكون قبوله أتم وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة وإلا فينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة وهو الأمر والنهى المقرون بالترغيب والترهيب، إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها والنواهى من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بذين الله وإهانة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق أو كان داعيه إلى الباطل فيجادل بالتى هى أحسن وهى الطرق التى تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً من ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التى كان يعتقدها فإنه أقرب إلى حصول المقصود وأن لا تؤدى المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أى: أعلم بالسبب الذى أداه إلى الضلال أعماله ويعلم المترتبة على ضلالته وسيجازيه عليها ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم.

---

(١) كذا فى الأصل ولعل الصواب «فعمل» والله أعلم.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾

يقول تعالى مبيحًا للعدل ونادبًا للفضل والإحسان: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هو الذى يعينك عليه ويثبتك ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولاً لدعوتك فإن الحزن لا يجدى عليك شيئًا ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أى: شدة وحرج ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين، والله مع المتقين المحسنين بعونه وتوفيقه وتسديده وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصى وأحسنوا فى عبادة الله بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه، نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

تم تفسير سورة النحل ـ ولله الحمد والمنة



تفسير سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾

ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التى من جملتها أنه ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ ورسوله محمد ﷺ ﴿لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذى هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ الذى هو من المساجد الفاضلة وهو محل الأنبياء، فَأُسْرِىَ به فى ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدًا ورجع فى ليلته، وأراه الله من آياته ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتًا وفرقانًا، وهذا من اعتنائه تعالى به ولطفه حيث يسره لليسرى فى جميع أموره وخوله نعمًا فاق بها الأولين والآخرين، وظاهر الآية أن الإسراء كان فى أول الليل وأنه من نفس المسجد الحرام، لكن ثبت فى الصحيح أنه أُسْرِىَ به من بيت أم هانئ، فعلى هذا تكون الفضيلة فى المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تضاعف فيه العبادة كتضاعفها فى نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معًا، وإلا لم يكن فى ذلك آية كبرى ومنقبة عظيمة، وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبى ﷺ فى الإسراء وذكر تفاصيل ما رأى أنه أسرى به إلى بيت المقدس ثم عرج به من هناك إلى السموات حتى وصل إلى ما فوق السموات العلى ورأى الجنة والنار والأنبياء على مراتبهم وفرض عليه الصلوات خمسين ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم حتى صارت خمسًا فى الفعل وخمسين فى الأجر والثواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة هو وأمته ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل، وذكره هنا وفى مقام الإنزال للقرآن ومقام التحدى بصفة العبودية لأنه نال هذه المقامات الكبار بتكميله لعبودية ربه، وقوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أى: بكثرة الأشجار والأنهار والخصب الدائم، ومن بركته تفضيله على غيره من المساجد سوى المسجد الحرام ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه وأن الله اختصه محلاً لكثير من أنبيائه وأصفيائه.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

كثيراً ما يقرن البارى بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى عليه السلام وبين كتابيهما وشريعتيهما لأن كتابيهما أفضل الكتب وشريعتيهما أكمل الشرائع ونبوتيهما أعلى النبوات وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا: ﴿**وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**﴾ الذى هو التوراة ﴿**وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ يهتدون به فى ظلمات الجهل إلى العلم بالحق ﴿**أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً**﴾ أى: وقلنا لهم ذلك وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك ليعبدوا الله وحده وينيبوا إليه ويتخذوه وحده وكيلاً ومدبراً لهم فى أمر دينهم ودنياهم ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئًا ولا ينفعونهم بشىء ﴿**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ**﴾ أى: يا ذرية من مننا عليهم وحملناهم مع نوح ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**﴾ ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام بقيامه بشكر الله واتصافه بذلك والحث لذريته أن يقتدوا به فى شكره ويتابعوه عليه وأن يتذاكروا نعمة الله عليهم إذ أبقاهم واستخلفهم فى الأرض وأغرق غيرهم ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ أى: تقدمنا وعهدنا إليهم وأخبرناهم فى كتابهم أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد فى الأرض مرتين بعمل المعاصى والبطر لنعم الله والعلو فى الأرض والتكبر فيها وأنه إذا وقع واحدة منهما سلط الله عليهم الأعداء وانتقم منهم وهذا تحذير لهم وإنذار لعلهم يرجعون فيتذكرون ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا**﴾ أى: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما، أى: إذا وقع منهم الفساد ﴿**بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ**﴾ بعثًا قدريًا وسلطنا عليكم تسليطًا كونيًا جزائيًا ﴿**عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾ أى: ذوى شجاعة وعدد وعدة فنصرهم الله عليكم فقتلوكم وسبوا أولادكم ونهبوا أموالكم ﴿**فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ**﴾ وهتكوا الدور ودخلوا المسجد الحرام وأفسدوه ﴿**وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً**﴾ لا بد من وقوعه لوجود سببه منهم واختلف المفسرون فى تعيين هؤلاء المسلطين إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار إما من أهل العراق أو الجزيرة أو غيرها سلطهم الله على بنى إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصى وتركوا كثيرًا من شريعتهم وطغوا فى الأرض ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ**﴾ أى: على هؤلاء الذين سلطوا عليكم فأجليتموهم من دياركم ﴿**وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**﴾ أى: أكثرنا أرزاقكم وكثرناكم وقويناكم عليهم ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا**﴾ منهم وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله ﴿**إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ**﴾ لأن النفع عائد إليكم حتى فى الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم ﴿**وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**﴾ أى: فلأنفسكم يعود الضرر كما أراكم الله من تسليط الأعداء ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ**﴾ أى: المرة الأخرى التى تفسدون فيها فى الأرض سلطنا عليكم الأعداء ﴿**لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ**﴾ بانتصارهم عليكم وسبيكم ﴿**وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ والمراد بالمسجد مسجد بيت المقدس ﴿**وَلِيُتَبِّرُوا**﴾ أى: يخربوا ويدمروا ﴿**مَا عَلَوْا**﴾ عليه ﴿**تَتْبِيرًا**﴾ فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحرثكم ﴿**عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ**﴾ فيديل[1] لكم الكرة عليهم، فرحمهم وجعل لهم الدولة وتوعدهم على المعاصى فقال: ﴿**وَإِنْ عُدتُّمْ**﴾ إلى الإفساد فى الأرض ﴿**عُدْنَا**﴾ إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك فسلط الله عليهم رسوله محمدًا ﷺ فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء الدنيا وما عند الله من النكال أعظم وأشنع ولهذا قال: ﴿**وَجَعَلْنَا**

---

(١) فيديل لكم، أى: ينصركم عليهم.

جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ يصلونها ويلازمونها لا يخرجون منها أبدًا، وفى هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصى لئلا يصيبهم ما أصاب بنى إسرائيل، فسنة الله واحدة لا تبدل ولا تغير، ومن نظر إلى تسليط الكفرة والظلمة على المسلمين عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم عقوبة لهم وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله مكَّن لهم فى الأرض ونصرهم على أعدائهم.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أى: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم فى جميع الأمور ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والسنن ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أعده الله لهم فى دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو ﴿وأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة وذكر الأسباب التى تنال بها البشارة وهو الإيمان والعمل الصالح والتى تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

وهذا من جهل الإنسان وعجلته حيث يدعو على نفسه وأولاده بالشر عند الغضب ويبادر بذلك الدعاء كما يبادر بالدعاء فى الخير ولكن الله ـ من لطفه ـ يستجيب له فى الخير ولا يستجيب له بالشر ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أى: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته وأنه الذى لا تنبغى العبادة إلا له ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أى: جعلناه مظلمًا للسكون فيه والراحة ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أى: مضيئة ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فى معايشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ بتوالى الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ أى: بيَّنا الآيات وصرفناه لتتميز الأشياء ويتبين الحق من الباطل كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

وهذا إخبار عن كمال عدله أن كل إنسان يلزمه طائره فى عنقه أى: ما عمل من خير وشر يجعله الله ملازمًا له لا يتعداه إلى غيره فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ فيه عمله من الخير والشر حاضرًا صغيره وكبيره ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وهذا من أعظم العدل والأنصاف أن يقال للعبد: حاسب نفسك ليعرف ما عليه من الحق الموجب للعقاب.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

أى: هداية كل أحد وضلاله لنفسه ولا يحمل أحد ذنب أحد ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى أعدل العادلين لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة، وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالى فإن الله تعالى لا يعذبه، استدل بهذه الآية على أن أهل الفترات وأطفال المشركين لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولاً لأنه منزه عن الظلم.

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب أمر مترفيها أمـرًا قدريًا ففسقوا فيها واشتد طغيانهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أى: كلمة العذاب التى لا مرد لها ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب من بعد قوم نوح كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من عاقبهم الله لما كثر بغيهم واشتد كفرهم أنزل الله بهم عقابه العظيم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ فلا يخافون منه ظلمًا وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

يخبـر تعالى أن ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أى: الدنيا المنقضية الزائلة فعـمل لها وسعى ونسى المبتدأ أو المنتهى أن الله يُعجل له من حطامها ومتاعها ما يشاءُ ويريده مما كتب الله له فى اللوح المحفوظ ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له، ثم يجعل له فى الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلاهَا﴾ أى: يباشر عذابها ﴿مَذْمُوماً مَّدْحُوراً﴾ أى: فى حالة الخزى والفضيحة والذم من الله ومن خلقه والبعد عن رحـمة الله فيجمع له العذاب والفضيحة ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ فرضيـها وآثرها على الدنيا ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ الذى دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ أى: مقبـولاً مُنَمى مدخرًا لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم ومع هذا فـلا يفوتهم نصيبهم مـن الدنيا فكلا يمده الله منها لأنه عطاؤه وإحسانه ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ أى: ممنوعًا من أحد بل جـميع الخلق راتعون بفضله وإحسـانه ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فى الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها واليسر والعسر والعلم والجهل والعقل والسفه وغير ذلك من الأمور التى فـضل الله العباد بعضهم على بعض بها ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه فكم بين من هو فى الغرف العاليات واللذات المتنوعات والسرور والخيرات والأفراح ممن هو يتـقلب فى الجحيم ويعذب بالعذاب الأليم وقد حل عليه سخط الرب الرحيم وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحدًا عده.

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾

أى: لا تعتقد أن أحدًا من المخلوقين يستحق شيئًا من العبادة ولا تشرك بالله أحدًا منهم فإن ذلك داع للذم والخذلان، فالله وملائكته ورسله قـد نهوا عن الشـرك وذمـوا عن عمله أشـد الذم ورتبوا عليـه من الأسمـاء المذمومة والأوصاف المقـبوحة ما كان به متعاطيه أشنع الخلق وصفًا وأقبـحهم نعتًا وله من الخذلان فى أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه فمن تعلق بغيره فهو مخذول قد وكل إلى من تعلق به ولا أحد من الخلق

ينفع أحدًا إلا بإذن الله كما أن من جعل مع الله إلهًا آخر له الذم والخذلان، فمن وحده وأخلص دينه لله وتعلق به دون غيره فإنه محمود معان فى جميع أحواله.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

لما نهى تعالى عن الشرك به أمر بالتوحيد فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ قضاء دينيًا وأمرًا شرعيًا ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ أحدًا من أهل الأرض والسموات والأحياء والأموات ﴿إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى له كل صفة كمال وله من كل صفة أعظمها على وجه لا يشبهه أحد من خلقه وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة الدافع لجميع النقم الخالق الرزاق المدبر لجميع الأمور فهو المتفرد بذلك كله وغيره ليس له من ذلك شىء، ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القولى والفعلى لأنهما سبب وجود العبد ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضى تأكد الحق ووجوب البر ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا﴾ أى: إذا وصلا إلى هذه السن الذى تضعف فيه قواهما ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى نبه به على ما سواه والمعنى لا تؤذهما أدنى أذية ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ أى: لا تزجرهما وتتكلم كلامًا خشنًا ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ بلفظ يحبانه وتأدب وتلطف معهما بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما وتطمئن به نفوسهما وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أى: تواضع لهما ذلاً لهما ورحمة واحتسابًا للأجر لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لما لهما ونحو ذلك من المقاصد التى لا يؤجر عليها العبد ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أى: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتًا جزاء على تربيتهما إياك صغيرًا وفهم من هذا أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق وكذلك من تولى تربية الإنسان فى دينه ودنياه تربية صالحة غير الأبوين فإن له على من رباه حق التربية.

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾

أى: ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم من خير وشر وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله ورغبتكم فيما يقربكم إليه وليس فى قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ﴾ أى: الرجاعين إليه فى جميع الأوقات ﴿غَفُورًا﴾ فمن اطلع الله على قلبه وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبته ومحبة ما يقرب إليه فإنه وإن جرى منه فى بعض الأوقات ما هو مقتضى الطبائع البشرية فإن الله يعفو عنه ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ من البر والإكرام الواجب والمسنون وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال والأقارب والحاجة وعدمها والأزمنة ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ آته حقه من الزكاة ومن غيرها لتزول مسكنته ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو: الغريب المنقطع به عن بلده ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ يعطى الجميع من المال على وجه لا يضر

المعطى ولا يكون زائدًا على المقدار اللائق فإن ذلك تبذير قد نهى الله عنه وأخبر: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك فإذا عصاه دعاه إلى الإسراف والتبذير والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها ويمدح عليه كما قوله عن عباد الرحمن الأبرار ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ وقال هنا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فتنفق فيما لا ينبغي وزيادة على ما ينبغي ﴿فَتَقْعُدَ﴾ إن فعلت ذلك ﴿مَلُومًا﴾ أى: تلام على ما فعلت ﴿مَّحْسُورًا﴾ أى: حاسر اليد فارغها فلا بقى ما فى يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء وهذا الأمر بإيتاء ذى القربى مع القدرة والغنى، فأما مع العدم أو تعسر النفقة الحاضرة فأمر تعالى أن يردوا ردًا جميلاً فقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أى: تعرضن عن إعطائهم إلى وقت آخر ترجو فيه من الله تيسير الأمر ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أى: لطيفًا برفق ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان فى الوقت الحاضر لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ وهذا أيضًا من لطف الله تعالى بالعباد أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وَعْدُهُم بالصدقة والمعروف عند التيسر عبادة حاضرة لأن الهم بفعل الحسنة حسنة ولهذا ينبغى للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير وينوى فعل ما لم يقدر عليه ليثاب على ذلك ولعل الله ييسر له بسبب رجائه، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أى: يضيقه على من يشاء حكمة منه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فيجزيهم على ما يعلمه صالحًا لهم ويدبرهم بلطفه وكرمه.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

وهذا من رحمته بعباده حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفًا من الفقر والإملاق وتكفل برزق الجميع، وأخبر أن قتلهم كان خطئًا كبيرًا أى من أعظم كبائر الذنوب لزوال الرحمة من القلب والعقوق العظيم والتجرؤ على قتل الأطفال الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

النهى عن قربان الزنى أبلغ من النهى عن مجرد فعله لأن ذلك يشمل النهى عن جميع مقدماته ودواعيه فإن «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه» خصوصًا هذا الأمر الذى فى كثير من النفوس أقوى داع إليه، ووصف الله الزنى وقبحه بأنه ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾ أى: إنما يستفحش فى الشرع والعقل والفطر لتضمنه التجرى على الحرمة فى حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد، وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أى: بئس السبيل سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

وهذا شامل لكل نفس ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد ومسلم وكافر له عهد ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالنفس بالنفس والزانى المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة والباغى فى حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أى: بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ﴾ وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَانًا﴾ أى: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل وجعلنا له أيضًا تسلطًا قدريًا على ذلك وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص كالعمد العدوان والمكافأة ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ الولى ﴿فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ والإسراف مجاوزة الحد إما أن يمثل بالقاتل أو يقتله بغير ما قتل به أو يقتل غير القاتل، وفى هذه الآية دليل على أن الحق فى القتل للولى لا يقتص إلا بإذنه وإن عفا سقط القصاص، وإن ولىّ المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ ﴾

وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم الذى فقد والده ـ وهو صغير غير عرف بمصلحة نفسه ولا قائم بها ـ أن أمر أولياءه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه وأن لا يقربوه ﴿إلاَّ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من التجارة فيه وعدم تعريضه للأخطار والحرص على تنميته، وذلك ممتد إلى أن ﴿يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ أى: بلوغه وعقله ورشده فإذا بلغ أشده زالت عنه الولاية وصار ولى نفسه ودفع إليه ماله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الذى عاهدتم الله عليه والذى عاهدتم الخلق عليه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ أى: مسئولون عن الوفاء به، فإن وفيتم فلكم الثواب الجزيل وإن لم تفعلوا فعليكم الإثم العظيم.

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾

وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط من غير بخس ولا نقص، ويؤخذ من عموم المعنى النهى عن كل غش فى ثمن أو مثمن أو معقود عليه والأمر بالنصح والصدق فى المعاملة ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من عدمه ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أى: أحسن عاقبة به يسلم العبد من التبعات وبه تنزل البركة.

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

أى: ولا تتبع ما ليس لك به علم بل تثَبَّتْ فى كل ما تقوله وتفعله فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ فحقيق بالعبد الذى يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التى خلقها الله لعبادته أن يُعِدَّ للسؤال جوابًا وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله وإخلاص الدين له وكفها عما يكرهه الله تعالى.

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى: كبرًا وتيهًا وبطرًا متكبرًا على الحق ومتعاظمًا فى تكبرك على الخلق ﴿إِنَّكَ﴾ فى فعلك ذلك ﴿لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ بل تكون حقيرًا عند الله ومحتقرًا عند الخلق مبغوضًا ممقوتًا قد اكتسبت شر الأخلاق واكتسيت بأرذلها من غير إدراك لبعض ما تروم ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ المذكور الذى نهى الله عنه فيما تقدم من قوله: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ والنهى عن عقوق الوالدين وما عطف على ذلك ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أى: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم والله تعالى يكرهه ويأباه ﴿ذَلِكَ﴾ الذى بيَّناه ووضَّحناه من هذه الأحكام الجليلة ﴿مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ فإن الحكمة الأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والنهى عن أراذل الأخلاق وأسوإ الأعمال، وهذه الأعمال المذكورة فى هذه الآيات من الحكمة العالية التى أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين فى أشرف الكتب ليأمر بها أفضل الأمم فهى من الحكمة التى من أوتيها فقد أوتى خيرًا كثيرًا ثم ختمها بالنهى عن عبادة غير الله كما افتتحها بذلك فقال: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ﴾ أى: خالدًا مخلدًا فإنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴿مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ أى: قد لحقتك اللائمة واللعنة والذم من الله وملائكته والناس أجمعين.

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

وهذا إنكار شديد على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات فقال: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ أى: اختار لكم الصفوة والنصيب الكامل، واتخذ لنفسه من الملائكة إناثًا حيث زعموا أن الملائكة بنات الله ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ

قَوْلاً عَظِيمًا﴾ فيه أعظم الجرأة على الله حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته واستغناء بعض المخلوقات عنه وحكمتم له بأردأ القسمين وهو الإناث وهو الذى خلقكم واصطفاكم بالذكور، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾

يخبر تعالى أنه صرَّف لعباده فى هذا القرآن أى: نوَّع الأحكام ووضحها وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه ووعظ وذكَّر لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه وما يضرهم فيدعوه ولكن أبى أكثر الناس إلا نفورًا عن آيات الله لبغضهم للحق ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل حتى تعصبوا لباطلهم ولم يعيروا آيات الله لهم سمعًا ولا ألقوا لها بالاً ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة التوحيد الذى هو أصل الأصول، فأمر به ونهى عن ضده وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئًا كثيرًا بحيث أن من أصغى إلى بعضها لا تدع فى قلبه شكًا ولا ريبًا ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلى الذى ذكره هنا فقال: ﴿قُل﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أى: على موجب زعمهم وافترائهم ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أى: لاتخذوا سبيلاً إلى الله بعبادته والإنابة إليه والتقرب وابتغاء الوسيلة فكيف يجعل العبد الفقير الذى يرى شدة افتقاره لعبودية ربه إلهًا مع الله؟ هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؟ فعلى هذا المعنى تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ ويحتمل أن المعنى فى قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أى: وسعوا فى مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلوا(١) عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، فأما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التى يدعون من دون الله مقهورة مغلوبة ليس لها من الأمر شىء فلم اتخذوها وهى بهذه الحال؟ فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ أى: تقدس وتنزه وعلت أوصافه ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك به واتخاذ الأنداد معه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فعلا قدره وعظم وجلت كبرياؤه التى لا تقادر أن يكون معه آلهة فقد ضل من قال ذلك ضلالاً مبينًا وظلم ظلمًا كبيرًا، لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة وصغرت لدى كبريائه السموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وافتقر إليه العالم العلوى والسفلى فقرًا ذاتيًا لا ينفك عن أحد منهم فى وقت من الأوقات هذا الفقر بجميع وجوهه: فقر من جهة الخلق والرزق والتدبير وفقر من جهة الاضطرار إلى أن يكون معبوده ومحبوبه الذى إليه يتقربون وإليه فى كل حال يفزعون ولهذا قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ من حيوان ناطق وغير ناطق ومن أشجار ونبات وجامد وحىٍّ وميت ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ بلسان الحال ولسان المقال ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أى: تسبيح باقى المخلوقات التى على غير لغتكم بل يحيط بها علام الغيوب ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولاً تكاد السموات والأرض تتفطر منه وتخر له الجبال، ولكنه أمهلهم وأنعم عليهم وعافاهم ورزقهم ودعاهم إلى بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم ليعطيهم الثواب الجزيل ويغفر لهم ذنبهم، فلولا حلمه ومغفرته لسقطت السموات على الأرض ولما ترك على ظهرها من دابة.

---

(١) قوله: (فإما أن يعلوا عليه الخ) فى العبارة إبهام، والأوضح أن يقال: «فإما أن يعلوا عليه، فيكون من علا وقهر هو الرب الإله» وإما أن يقروا أن آلهتهم التى يدعون من دون الله، مقهورة مغلوبة، ليس لها من الأمر شىء، وهم مقرون ومعترفون بذلك، فلم اتخذوها آلهة، وهى بهذه الحال؟ فبهذا تستقيم العبارة وتتضح.

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه وأعرضوا عنه أنه يحول بينهم وبين الإيمان فقال: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ** ﴾ الذي فيه الوعظ والتذكير والهدى والإيمان والخير والعلم الكثير ﴿ **جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا** ﴾ يسترهم عن فهمه حقيقة وعن التحقيق بحقائقه والانقياد إلى ما يدعو إليه من الخير ﴿ **وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً** ﴾ أى: أغطية وأغشية لا يفقهون معها القرآن بل يسمعونه سماعًا تقوم به عليهم الحجة ﴿ **وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا** ﴾ أى: صممًا عن سماعه ﴿ **وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ** ﴾ داعيًا لتوحيده ناهيًا عن الشرك به ﴿ **وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا** ﴾ من شدة بغضهم له ومحبتهم لما هم عليه من الباطل، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ ﴿ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ** ﴾ أى: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة يريدون أن يعثروا على أقل شيء ليقدحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق وإنما هم متعمدون على عدم اتباعه ومن كان بهذه الحالة لم يفده الاستماع شيئًا ولهذا قال: ﴿ **إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ** ﴾ أى: متناجين ﴿ **إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ** ﴾ فى مناجاتهم: ﴿ **إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا** ﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم وقد بنوها على أنه مسحور فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال وأنه يهذى لا يدرى ما يقول، قال تعالى: ﴿ **انْظُرْ** ﴾ متعجبًا ﴿ **كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ** ﴾ التى هى أضل الأمثال وأبعدها عن الصواب ﴿ **فَضَلُّوا** ﴾ فى ذلك أو صارت سببًا لضلالهم لأنهم بنوا عليها أمرهم والمبنى على فاسد أفسد منه ﴿ **فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا** ﴾ أى: لا يهتدون أى اهتداء فيصيبهم الضلال المحض والظلم الصِّرف.

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث وتكذيبهم به واستبعادهم بقولهم: ﴿ **أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا** ﴾ أى: أجسادًا بالية ﴿ **أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا** ﴾ أى: لا يكون ذلك وهو محال بزعمهم، فجهلوا أشد الجهل حيث كذبوا رسول الله وجحدوا آيات الله وقاسوا قدرة خالق السموات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرون عليه جعلوا قدرة الله كذلك، فسبحان من جعل خلقًا من خلقه يزعمون أنهم أولو العقول والألباب مثالاً فى جهل أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها براهين وأعلاها ليرى عباده أنه ما ثم إلا توفيقه وإعانته أو الهلاك والضلال ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ** ﴾ ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعادًا: ﴿ **كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا** ﴿٥٠﴾ **أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ** ﴾ أى: يعظم ﴿ **فِي صُدُورِكُمْ** ﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم من أن تنالكم قدرة الله أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزين الله فى أى حالة تكونون وعلى أى وصف تتحولون، وليس فى أنفسكم تدبير فى حالة الحياة وبعد الممات، فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط ﴿ **فَسَيَقُولُونَ** ﴾ حين تقيم عليهم الحجة فى البعث: ﴿ **مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ فكما فطركم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا فإنه سيعيدكم خلقًا جديدًا ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ** ﴾ ﴿ **فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ** ﴾ أى: يهزونها إنكارًا وتعجبًا مما

قلت ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ أى: متى وقت البعث الذى تزعمه على قولك؟ ولا إقرار منهم لأصل البعث بل ذلك سفه منهم وتعجيز ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ فليس فى تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ للبعث والنشور وينفخ فى الصور ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أى: تنقادون لأمره ولا تستعصون عليه، وقوله: ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ أى: هو المحمود تعالى على فعله ويجزى به العباد إذا جمعهم ليوم التناد ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ من سرعة وقوعه وأن الذى مر عليكم من النعيم كأنه ما كان، فهذا الذى يقول عنه المنكرون: ﴿ مَتَىٰ هُوَ ﴾؟ يندمون غاية الندم عند وروده ويقال لهم: ﴿ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾.

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥) ﴾

وهذا من لطفه بعباده حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهى عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما، والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره، وقوله: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم فدواء هذا أن لا يطيعوه فى الأقوال غير الحسنة التى يدعوهم إليها، وأن يلينوا فيما بينهم لينقمع الشيطان الذى ينزغ بينهم فإنه عدوهم الحقيقى الذى ينبغى لهم أن يحاربوه فإنه يدعوهم ﴿ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ وأما إخوانهم فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم وسعى فى العداوة فإن الحزم كل الحزم السعى فى ضد عدوهم وأن يقمعوا أنفسهم الأمارة بالسوء التى يدخل الشيطان من قبلها فبذلك يطيعون ربهم ويستقيم أمرهم ويهدون لرشدهم ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ من أنفسكم فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم وقد تريدون شيئًا والخير فى عكسه ﴿ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ فيوفق من شاء لأسباب الرحمة ويخذل من شاء فيضل عنها فيستحق العذاب ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ تدبر أمرهم وتقوم بمجازاتهم وإنما الله هو الوكيل وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من جميع أصناف الخلائق فيعطى كلا منهم ما يستحقه وتقتضيه حكمته ويفضل بعضهم على بعض فى جميع الخصال الحسية والمعنوية كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحيه على بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم من الأوصاف الممدوحة والأخلاق المرضية والأعمال الصالحة وكثرة الأتباع ونزول الكتب على بعضهم المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية كما أنزل على داود زبوراً وهو الكتاب المعروف، فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض وآتى بعضهم كتبًا فلم ينكر المكذبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب.

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾

يقول تعالى: ﴿ قُلِ ﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أندادًا يعبدونهم كما يعبدون الله ويدعونهم كما يدعونه ملزمًا لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ آلهة ﴿ مِّن دُونِهِ ﴾ فانظروا هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم الضر ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ ﴾ من مرض أو فقر أو شدة ونحو ذلك فلا يدفعونه بالكلية ﴿ وَلَا ﴾ يملكون أيضًا ﴿ تَحْوِيلًا ﴾ له من شخص إلى آخر من شدة إلى ما دونها، فإذا كانوا بهذه الصفة فلأى شىء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم ولا فعال نافعة فاتخاذهم آلهة نقص فى الدين والعقل وسفه فى الرأى ومن العجب أن السفه عند الاعتياد والممارسة وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول يراه

صاحبه هو الرأى السديد والعقل المفيد، ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السفه والأمر المتعجب منه كما قال المشركون: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ثم أخبر أيضًا أن الذين يعبدونهم من دون الله فى شغل شاغل عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى الله وابتغاء الوسيلة إليه فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أى: يتنافسون فى القرب من ربهم ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أى: هو الذى ينبغى شدة الحذر منه والتوقى من أسبابه، وهذه الأمور الثلاثة: الخوف والرجاء والمحبة التى وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هى الأصل والمادة فى كل خير، فمن تمت له تمت له أمور وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور، وعلامة المحبة ما ذكره الله أن يجتهد العبد فى كل محل يقربه إلى الله وينافس فى قربه بإخلاص الأعمال كلها لله والنصح فيها وإيقاعها فى أكمل الوجوه المقدورة عليها فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

أى: ما من قرية من القرى المكذبة للرسل إلا لا بد أن يصيبهم هلاك يوم القيامة أو عذاب شديد كتاب كتبه الله وقضاء أبرمه لا بد من وقوعه فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله وتصديق رسله قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب ويحق عليهم القول.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التى اقترحها[1] المكذبون وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفًا من تكذيبهم لها فإذا كذبوا بها عاجلهم العقاب وحل بهم من غير تأخير كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها، ومن أعظم الآيات الآية التى أرسلها الله إلى ثمود وهى الناقة العظيمة الباهرة التى كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها ومع ذلك كذبوا بها فأصابهم ما قص الله علينا فى كتابه وهؤلاء كذلك لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء ومعه من البراهين الكثيرة بما دل على صحة ما جاء به الموجب لهداية من طلب الهداية فغيرها مثلها فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها فترك إنزالها والحالة هذه خير لهم وأنفع، وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ أى: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذى لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب ليرتدعوا عن ما هم عليه ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ علمًا وقدرة فليس لهم ملجأ يلجئون إليه ولا ملاذ يلوذون به عنه وهذا كاف لمن له عقل فى الانكفاف عما يكرهه الله الذى أحاط بالناس ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً﴾ أكثر المفسرين على أنها ليلة الإسراء ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ التى ذكرت ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ وهى شجرة الزقوم التى تنبت فى أصل الجحيم، والمعنى: إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنة للناس حتى استلج[2] الكفار بكفرهم وازداد شرهم وبعض من كان إيمانه ضعيفًا رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التى كانت ليلة

(١) فى الأصل المطبوع «يقترح بها» وهو خطأ لا يتمشى مع القواعد العربية فلذلك أبدلنا الكلمة بـ «اقتراحها».

(٢) استلج، أى «ألح» قال فى القاموس «واستلجه» ألح فى شربه. اهـ. والمراد هنا: ثبتوا على كفرهم وتمسكوا به أشد التمسك واستلذوه استلذاذ العطشان فى ابتلاع أعذب المياه.

الإسراء ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقًا للعادة والإخبار بوجود شجرة تنبت فى أصل الجحيم أيضًا من الخوارق فهذا الذى أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟! أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟ فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم، ومن هنا تعلم أن عدم التصريح فى الكتاب والسنة بذكر الأمور العظيمة التى حدثت فى الأزمنة المتأخرة أولى وأحسن لأن الأمور التى لم يشاهد الناس لها نظيراً ربما لا تقبلها عقولهم فيكون ذلك ريبًا فى قلوب بعض المؤمنين ومانعًا يمنع من لم يدخل الإسلام ومنفرًا عنه، بل ذكر الله ألفاظًا عامة تتناول جميع ما يكون والله أعلم ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بالآيات ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ وهذا أبلغ ما يكون فى التحلى بالشر ومحبته وبغض الخير وعدم الانقياد له.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

ينبه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان وحرصه على إضلالهم وأنه لما خلق الله آدم استكبر عن السجود له و ﴿قَالَ﴾ متكبرًا: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أى: من طين وبزعمه أنه خير منه لأنه خلق من نار وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم ﴿قَالَ﴾ مخاطبًا لله ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أى: لأستأصلنهم بالإضلال ولأغوينهم ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ عرف الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه، فقال الله له: ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ واختارك على ربه ووليه الحق ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ أى: مدخرًا لكم موفرًا جزاء أعمالكم ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم فقال: ﴿وَاسْتَفْزِزْ(١) مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ ويدخل فى هذا كل داع إلى المعصية ﴿وَأَجْلِبْ(٢) عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ ويدخل فيه كل راكب وماش فى معصية الله فهو من خيل الشيطان ورجله والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين الداعى لهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم من منع الزكاة والكفارات، والحقوق الواجبة وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر وأخذ الأموال بغير حقها أو وضعها بغير حقها أو استعمال المكاسب الردية، بل ذكر كثير من المفسرين أنه يدخل فى مشاركة الشيطان فى الأموال والأولاد ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع وأنه إذا لم يسم الله فى ذلك شارك فيه الشيطان كما ورد فيه الحديث ﴿وَعِدْهُمْ﴾ الوعود المزخرفة التى لا حقيقة لها ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ أى: باطلاً مضمحلاً كأن يزين لهم المعاصى والعقائد الفاسدة ويعدهم عليها الأجر لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد وذكر ما يعتصم به من فتنته وهو عبودية الله والقيام بالإيمان والتوكل قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أى: تسلط وإغواء بل الله يدفع عنهم - بقيامهم بعبوديته - كل شر ويحفظهم من الشيطان الرجيم ويقوم بكفايتهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ لمن توكل عليه وأدى ما أمر به.

---

(١) واستفزز، أى: أزعج، واستخف حتى يتبعك طائشًا منجرفًا وراءك.

(٢) وأجلب عليهم، أى: صح بهم واستحثهم بخيلك ورجالك للسبق إلى متابعتك بقهر وإجبار، قال الراغب فى معجم مفردات القرآن «وأجلبت عليه: صحت عليه بقهر، قال الله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ اهـ. وفى المختار من الصحاح: وجلب على فرسه يجلبه جلبًا بوزن يطلبه طلبًا صاح به من خلفه واستحثه للسبق، وكذا أجلب عليه. اهـ.

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾

يذكر تعالى: نعمته على العباد بما سخر لهم من الفلك والسفن والمراكب وألهمهم كيفية صنعتها وسخر لها البحر الملتطم يحملها على ظهره لينتفع العباد بها فى الركوب والحمل للأمتعة والتجارة، وهذا من رحمته بعباده فإنه لم يزل بهم رحيمًا رءوفًا يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم، ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه أنهم إذا مسهم الضر فى البحر فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله فى حال الرخاء من الأحياء والأموات فكأنهم لم يكونوا يدعونهم فى وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر وصرخوا[1] بدعوة فاطر الأرض والسموات الذى يستغيث به فى شدائدها جميع المخلوقات وأخلصوا له الدعاء والتضرع فى هذه الحال، فلما كشف الله عنهم الضر ونجاهم إلى البر نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر ولا يعطى ولا يمنع وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم، وهذا من جهل الإنسان وكفره فإن الإنسان كفور للنعم إلا من هدى الله فمن عليه بالعقل السليم واهتدى إلى الصراط المستقيم، فإنه يعلم أن الذى يكشف الشدائد وينجى من الأهوال هو الذى يستحق أن يفرد وتخلص له سائر الأعمال فى الشدة والرخاء واليسر والعسر، وأما من خذل ووكل إلى عقله الضعيف فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة وإنجاءه فى تلك الحال فلما حصلت له النجاة وزالت عنه المشقة ظن بجهله أنه قد أعجز الله ولم يخطر بقلبه شىء من العواقب الدنيوية فضلاً عن أمور الآخرة، ولهذا ذكرهم الله بقوله: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أى: فهو على كل شىء قدير إن شاء أنزل عليكم عذابًا من أسفل منكم بالخسف أو من فوقكم بالحاصب وهو: العذاب الذى يحصبهم فيصبحوا هالكين فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا فى البحر وإن ظننتم ذلك فلستم آمنين من ﴿ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ ﴾ أى: ريحًا شديدة جدًا تقصف ما أتت عليه ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ أى: تبعة ومطالبة فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ﴾

وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذى لا يقادر قدره حيث كرم بنى آدم بجميع وجوه الإكرام فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب وجعل منهم الأولياء والأصفياء وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ ﴾ على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية ﴿ وَالْبَحْرِ ﴾ فى السفن والمراكب ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من المآكل والمشارب والملابس والمناكح فما من طيب تتعلق به حوائجهم إلا وقد

---

(١) قوله: «وصرخوا الخ» أقول ـ والأسف يقطع نياط القلب ـ إن مشركى زماننا فاقوا مشركى الجاهلية لأن مشركى زماننا يدعون غير الله فى الرخاء والشدة.

إليك القصة الآتية، أقلعت باخرة من بيروت تحمل رجالاً وبضائع واصطخب الموج وهاج البحر هيجانًا شديدًا، وصارت الأمواج تتلاعب بالباخرة وبلغت القلوب الحناجر فأخذ البعض يقول: يا رفاعى، والبعض الآخر: يا جيلانى، وآخرون: يا بدوى، وهناك كان رجل شامى يستمع لنداء المنادين واستغاثاتهم وهو صامت فلم يسمع من أحد يقول «يا الله» فقال: اللهم أغرق أغرق، ما بقى أحد يعرفك فيذكرك.

وهكذا اشتد فى هذا الزمان واستغلظ وتحقق قوله تعالى ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ فتعلم التوحيد والتدقيق فيه وتعلم الشرك ووسائله والتدقيق قد أهمل فى جميع الأقطار ما عدا المملكة العربية السعودية صانها الله وزادها يقظة وتوفيقًا.

أكرمهم الله بـه ويسره لهم غاية التيسير ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ بما خصهم به من المناقب وفضلهم به من الفضائل التى ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات، أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم بل ربما استعانوا بها على معاصيه.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة وأنه يدعو كل أناس ومعهم إمامهم وهاديهم إلى الرشد وهم: الرسل ونوابهم فتعرض كل أمة ويحضرها رسولهم الذى دعاهم وتعرض أعمالهم على الكتاب الذى يدعو إليه الرسول هل هى موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ لكونه اتبع إمامه الهادى إلى صراط مستقيم واهتدى بكتابه فكثرت حسناته وقلَّت سيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ قراءة سرور وبهجة على ما يرون فيه مما يفرحهم ويسرهم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ مما عملوه من الحسنات ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن الحق فلم يقبله ولم ينقد له بل اتبع الضلال ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه فى الدنيا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، كما تدين تدان، وفى هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها هل عملت به أم لا؟ وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبى لم يؤمروا باتباعه وأن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ومخالفته لها، وأن أهل الخير يعطون كتبهم بأيمانهم ويحصل لهم من الفرح والسرور شىء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك لأنهم لا يقدرون على قراءة كتبهم من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم(١).

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق فقال: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ أى: قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه وتحيلوا لك على أن تفترى على الله غير الذى أنزلنا إليك فتجىء بما يوافق أهواءهم وتدع ما أنزل الله إليك ﴿وَإِذًا﴾ لو فعلت ما يهوون ﴿لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أى: حبيبًا صفيًا أعز عليهم من أحبابهم لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب المحببة للقريب والبعيد والصديق والعدو، ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك وينابذوك العداوة إلا للحق الذى جئت به لا لذاتك كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ على الحق وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ من كثرة المعالجة ومحبتك لهدايتهم، و ﴿إِذًا﴾ لو ركنت إليهم بما يهوون ﴿لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أى: لأصبناك بعذاب مضاعف فى الدنيا والآخرة وذلك لكمال نعمة الله عليك وكمال معرفتك ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ينقذك مما يحل بك من العذاب ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر ومن الشر فثبتك وهداك الصراط المستقيم ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أى: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم قد كادوا أن

---

(١) قال الراغب: «الثبور» بالهلاك والفساد، وقال فى المختار من الصحاح: «الثبور: الهلاك والخسران» اهـ. فيكون المعنى: إن أهل الشرك لا يقدرون على قراءة كتبهم من شدة حزنهم ومشاهدتهم لهلاكهم وخسرانهم.

يخرجوك من الأرض ويجلوك عنها، ولو فعلوا ذلك لم يلبثوا بعدك إلا قليلاً حتى تحل بهم العقوبة كما هى سنة الله التى لا تحول ولا تبدل فى جميع الأمم كل أمة كذبت رسولها وأخرجته عاجلها الله بالعقوبة ولما مكر به الذين كفروا وأخرجوه لم يلبثوا إلا قليلاً حتى أوقع الله بهم بـ «بدر» وقتل صناديدهم وفض بيضتهم فله الحمد، وفى هذه الآيات دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه وأنه لا يزال متملقًا لربه أن يثبته على الإيمان ساعيًا فى كل سبب موصل إلى ذلك لأن النبى ﷺ وهو أكمل الخلق قال الله له ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ فكيف بغيره؟ وفيها تذكير الله لرسوله منته عليه وعصمته من الشر، فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم ـ عند وجود أسباب الشر ـ بالعصمة منه والثبات على الإيمان، وفيها أنه بحسب علو مرتبة العبد وتواتر النعم عليه من الله يعظم إثمه ويتضاعف جرمه إذا فعل ما يلام عليه لأن الله ذكر رسوله لو فعل ـ وحاشاه من ذلك ـ بقوله: ﴿إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ وفيها أن الله إذا أراد إهلاك أمة تضاعف جرمها وعظم وكبر فيحق عليها القول من الله فيوقع بها العقاب كما هى سنته فى الأمم إذا أخرجوا رسولهم.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾

يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ بإقامة الصلاة تامة ظاهرًا وباطنًا فى أوقاتها ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أى: ميلانها إلى الأفق الغربى بعد الزوال فيدخل فى ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أى: ظلمته فيدخل فى ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أى: صلاة الفجر وسميت قرآنًا لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها ولفضل القراءة فيها حيث شهدها الله وملائكة الليل والنهار، ففى هذه الآية ذكر الأوقات الخمسة للصلوات المكتوبات وأن الصلوات الموقعة فيه فرائض لتخصيصها بالأمر، ومنها: أن الوقت شرط لصحة الصلاة وأنه سبب لوجوبها لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات وأن الظهر والعصر يجمعان، والمغرب والعشاء كذلك، للعذر لأن الله جمع وقتهما جميعًا، وفيه: فضيلة صلاة الفجر وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها دل على فرضية ذلك، وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أى: صل به فى سائر أوقاته ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أى: لتكون صلاة الليل زيادة لك فى علو القدر ورفع الدرجات بخلاف غيرك فإنها تكون كفارة لسيئاته ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين بخلاف صلاة الليل فإنها فرض عليك بالخصوص ولكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك وليكثر ثوابك وتنال بذلك المقام المحمود وهو المقام الذى يحمدك فيه الأولون والآخرون مقام الشفاعة العظمى حين يتشفع الخلائق بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى وكلهم يعتذر ويتأخر عنها حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم وليرحمهم الله من هول الموقف وكربه فيشفع عند ربه فيشفعه ويقيمه مقامًا يغبطه به الأولون والآخرون وتكون له المنة على جميع الخلق، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أى: اجعل مداخلي ومخارجي كلها فى طاعتك وعلى مرضاتك وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقتها الأمر ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ أى: حجة ظاهرة وبرهانًا قاطعًا على جميع ما آتيه وما أذره، وهذا أعلى حالة ينزلها الله العبد أن تكون أحواله كلها خيرًا ومقربة له إلى ربه وأن يكون له ـ على كل حالة من أحواله ـ دليل ظاهر وذلك متضمن للعلم النافع والعمل الصالح للعلم بالمسائل والدلائل، وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ والحق هو: ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ فأمره الله أن يقول ويلعن، وقد جاء الحق الذى لا يقوم له شىء وزهق الباطل أى: اضمحل وتلاشى ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أى: هذا وصف الباطل ولكنه قد يكون له صولة

ورواج إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل فلا يبقى له حراك ولهذا لا يروج الباطل إلا فى الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيناته، وقوله:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

أى: فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل أحد وإنما ذلك للمؤمنين به المصدقين بآياته العاملين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به فلا تزيدهم آياته إلا خسارًا إذ به تقوم عليهم الحجة، فالشفاء الذى تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب من الشبه والجهالة والآراء الفاسدة والانحراف السيئ والقصود الرديئة فإنه مشتمل على العلم اليقين الذى تزول به كل شبهة وجهالة والوعظ والتذكير الذى يزول به كل شهوة تخالف أمر الله ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها، وأما الرحمة فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التى يحث عليها متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية والثواب العاجل والآجل.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾

هذه طبيعة الإنسان من حيث هو إلا من هداه الله، فإن الإنسان ـ عند إنعام الله عليه ـ يفرح بالنعم ويبطر بها ويعرض وينأى بجانبه عن ربه فلا يشكره ولا يذكره ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ كالمرض ونحوه ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ من الخير قد قطع من ربه رجاءه وظن أن ما هو فيه دائم أبدًا، وأما من هداه الله فإنه ـ عند النعم ـ يخضع لربه ويشكر نعمته وعند الضراء يتضرع ويرجو من الله عافيته وإزالة ما يقع فيه وبذلك يخف عليه البلاء.

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

أى: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ من الناس ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ أى: على ما يليق به من الأحوال، إن كانوا من الصفوة الأبرار لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين، ومن كانوا من غيرهم من المخذولين لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ فيعلم من يصلح للهداية فيهديه ومن لا يصلح له فيخذله ولا يهديه.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل التى يقصد بها التعنت والتعجيز ويدع السؤال عن المهم فيسألون عن الروح التى هى من الأمور الخفية التى لا يتقن(١) وصفها وكيفيتها كل أحد وهم قاصرون فى العلم الذى يحتاج إليه العباد، ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أى: من جملة مخلوقاته التى أمرها أن تكون فكانت فليس فى السؤال عنها كبير فائدة مع عدم علمكم بغيرها وفى هذه(٢) الآية دليل على أن المسئول إذا سئل عن أمر الأولى به أن يعرض عن إجابة السائل عما سأل عنه ويدله على ما يحتاج إليه ويرشده إلى ما ينفعه.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

---

(١) «لا يتقن الخ» الصواب أن يقال: إن الروح من الأمور الخفية التى لا يعلم حقيقتها ووصفها إلا الله، لأن قوله «لا يتقن وصفها كل أحد» يوهم أن بعض الناس يتقن وصفها، والواقع أن جميع الخلق متساوون فى جهالتهم لحقيقة الروح ووصفها.

(٢) فى الأصل المطبوع «وفى هذه الآية دليل على السؤال إذا سئل عن أمر، الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه ويدل على ما يحتاج إليه ويرشده إلى ما ينفعه» وهو تعبير لا يدل على المقصود، وفيه ركاكة فى التعبير وعدم انسجام فى الأسلوب ولذلك أصلحنا العبارة كما ترى ليكون المعنى واضحًا.

يخبر تعالى أن القرآن والوحى الذى أوحاه إلى رسوله رحمة منه عليه وعلى عباده وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله فإن فضل الله عليه كبير لا يقادر قدره فالذى تفضل به عليك قادر على أن يذهب به ثم لا تجد رادًا ولا وكيلاً يتوجه عند الله فيه، فلتغتبط به ولتقر به عينك، ولا يحزنك تكذيب المكذبين ولا استهزاء الضالين، فإنهم عرضت عليهم أجل النعم فردوها لهوانهم على الله وخذلانه[1] لهم.

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه، حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله وأخبر أنهم لا يأتون بمثله ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه، ووقع كما أخبر الله فإن دواعى أعدائه المكذبين له متوفرة على رد ما جاء به بأى وجه كان وهم أهل اللسان والفصاحة، فلو كان عندهم أدنى تأمل وتمكن من ذلك لفعلوه، فعلم بذلك أنهم أذعنوا غاية الإذعان طوعًا وكرهًا وعجزوا عن معارضته، وكيف يقدر المخلوق من تراب الناقص من جميع الوجوه الذى ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه أن يعارض كلام رب الأرض والسموات المطلع على سائر الخفيات الذى له الكمال المطلق والحمد المطلق والمجد العظيم الذى لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادًا والأشجار كلها أقلام لنفد المداد وفنيت الأقلام ولم تنفد كلمات الله، فكما أنه ليس أحد من المخلوقين مماثلاً لله فى أوصافه فكلامه من أوصافه التى لا يماثله فيها أحد، فليس كمثله شىء فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى، فتبًا لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق وزعم أن محمدًا ﷺ افتراه على الله واختلقه من نفسه.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى: نوعنا فيه المواعظ والأمثال وثنينا فيه المعانى التى يضطر إليها العباد لأجل أن يتذكَّروا ويتقوا، فلم يتذكر إلا القليل منهم الذى سبقت لهم من الله سابقة السعادة وأعانهم الله بتوفيقه، وأما أكثر الناس فأبوا إلا كفوراً لهذه النعمة التى هى أكبر من جميع النعم وجعلوا يتعنتون عليه باقتراح آيات غير آياته يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة، فيقولون لرسول الله ﷺ الذى أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ أى: أنهاراً جارية ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ فتستغنى بها عن المشى فى الأسواق والذهاب والمجىء ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أى: قطعًا من العذاب ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾ أى: جميعًا أو مقابلة ومعاينة يشهدون لك بما جئت به ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أى: مزخرف بالذهب وغيره ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ رقيًا حسيًا ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ ولما كانت هذه تعنتات

(١) الصواب أن يقال: وخذلانه إياهم لأن «خذل» يتعدى بنفسه لا باللام فيقال «خذل الله الكافر» ولا يقال «خذل الله للكافر».

وتعجيزات وكلام أسفه الناس وأظلمهم المتضمنة لرد الحق وسوء أدب مع الله وأن الله تعالى هو الذى يأتى بالآيات - أمر الله رسوله أن ينزهه فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ عما تقولون علوًا كبيرًا وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة وآرائهم الضالة ﴿هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ ليس بيده شىء من الأمر، وهذا السبب الذى منع أكثر الناس من الإيمان حيث كانت الرسل التى ترسل إليهم من جنسهم بشرًا، وهذا من رحمته بهم أن أرسل إليهم بشرًا منهم فإنهم لا يطيقون التلقى من الملائكة ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ يثبتون على رؤية الملائكة والتلقى عنهم ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ ليمكنهم التلقى عنه ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات وما أنزل عليه من الآيات ونصره على من عاداه وناوأه، فلو تقوَّل عليه بعض الأقاويل لأخذ منه باليمين ثم لقطع منه الوتين فإنه خبير بصير لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال فمن يهده فييسره لليسرى ويجنبه العسرى فهو المهتدى على الحقيقة ومن يضلله فيخذله ويكله إلى نفسه فلا هادى له من دون الله وليس له ولى ينصره من عذاب الله حتى يحشرهم الله على وجوههم خزيًا عميًا وبكمًا لا يبصرون ولا ينطقون ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أى: مقرهم ودارهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ التى جمعت كل هم وغم وعذاب ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أى تهيأت للانطفاء ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أى: سعرناها[(١)] بهم لا يُفتَّر[(٢)] عنهم العذاب ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، ولم يظلمهم الله تعالى بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذى أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم فأنكروا تمام قدرته ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أى: لا يكون هذا لأنه فى غاية البعد عن عقولهم الفاسدة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وهى أكبر من خلق الناس ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ بلى إنه على ذلك قدير ﴿وَ﴾ لكنه قد ﴿جَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شك وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة، ومع إقامته الحجج والأدلة على البعث ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا﴾ ظلمًا منهم وافتراء ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ التى لا تنفد ولا تبيد ﴿إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ﴾ أى: خشية أن ينفد ما تنفقون منه مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

---

(١) سعرناها، أى: زدناها التهابًا واشتعالاً.

(٢) لا يفتر: أى لا يضعف قوة العذاب ولا ينكسر حدة ألمه، قال الراغب: «الفتور: سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة» وفى المختار من الصحاح: «الفترة: الانكسار والضعف» وفى القاموس: «فَتَر يَفْتُرُ ويفتِرُ فتورًا وفُتارًا: سكن بعد حدة، ولان بعد شدة».

أى: لست أيها الرسول المؤيد بالآيات أول رسول كذبه الناس، فلقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران الكليم إلى فرعون وقومه وآتيناه ﴿تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ كل واحدة منها تكفى لمن قصده اتباع الحق كالحية والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم واليد وفلق البحر، فإن شككت فى شىء من ذلك ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ﴾ مع هذه الآيات ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ منه لعباده فليس قولك هذا بالحقيقة وإنما قلت ذلك ترويجًا على قومك واستخفافًا لهم ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[1] أى: ممقوتًا ملقى فى العذاب لك الويل والذم واللعنة ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أى: يجليهم ويخرجهم منها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ وأورثنا بنى إسرائيل أرضهم وديارهم، ولهذا قال: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أى: جميعًا ليجازى كل عامل بعمله.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥)﴾

أى: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم لأمر العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أى: بالصدق والعدل والحفظ من كل شيطان رجيم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ويلزم من ذلك بيان ما يبشر به وينذر.

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾

أى: وأنزلنا هذا القرآن مفرقًا فارقًا بين الهدى والضلال والحق والباطل ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أى: على مهل ليتدبروه ويتفكروا فى معانيه ويستخرجوا علومه ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ أى: شيئًا فشيئًا مفرقًا فى ثلاث وعشرين سنة ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ فإذا تبين أنه الحق الذى لا شك فيه ولا ريب بوجه من الوجوه ﴿قُلْ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ فليس لله حاجة فيكم ولستم بضاريه شيئًا وإنما ضرر ذلك عليكم، فإن لله عبادًا غيركم وهم الذين آتاهم الله العلم النافع: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أى: يتأثرون به غاية التأثر ويخضعون له ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ عما لا يليق بجلاله مما نسبه إليه المشركون ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿لَمَفْعُولًا﴾ لا خُلْفَ فيه ولا شك ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أى: على وجوههم ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ وهؤلاء كالذين مَنَّ الله عليهم من مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره ممن أسلم فى وقت النبى ﷺ وبعد ذلك.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾

يقول تعالى لعباده: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ أى: أيهما شئتم ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أى: ليس له اسم غير حسن أى: حتى ينهى عن دعائه به أى: اسم دعوتموه به حصل به المقصود والذى ينبغى أن

---

(١) قوله مثبورًا، أى: ناقص العقل، قال الراغب: وقوله تعالى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال ابن عباس ﷺ: يعنى ناقص العقل، ونقصان العقل أعظم هُلك. اهـ.

يدعى فى كل مطلوب مما يناسب ذلك الاسم ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أى: قراءتك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فإن فى كل من الأمرين محذورًا، أما الجهر فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه سبوه وسبوا من جاء به، وأما المخافتة فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أى: اتخذ بين الجهر والإخفات ﴿سَبِيلًا﴾ أى: تتوسط فيما بينهما ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذى له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع الوجوه المنزه عن كل آفة ونقص ﴿الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ﴾ بل الملك كله لله الواحد القهار، فالعالم العلوى والسفلى كلهم مملوكون لله ليس لأحد من الملك شيء ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ أى: لا يتولى أحدًا من خلقه ليتعزز به ويعاونه فإنه الغنى الحميد الذى لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات فى الأرض ولا فى السموات لكنه يتخذ أولياء إحسانًا منه إليهم ورحمة بهم ﴿اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أى: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة وبالثناء عليه بأسمائه الحسنى وبتحميده بأفعاله المقدسة وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

الحمد هو الثناء عليه بصفاته التى هى كلها صفات كمال وبنعمه الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، وأجل نعمه على الإطلاق إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد ﷺ فحمد نفسه وفى ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم وإنزال الكتاب عليهم، ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين على أنه الكامل من جميع الوجوه وهما نفى العوج عنه وإثبات أنه مقيم مستقيم، فنفى العوج يقتضى أنه ليس فى أخباره كذب ولا فى أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث، وإثبات الاستقامة يقتضى أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلِّ الإخبارات وهى الأخبار التى تملأ القلوب معرفة وإيمانًا وعقلاً كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكى النفوس وتطهرها وتنميها وتكملها لاشتمالها على كمال العدل والقسط والإخلاص والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له، وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر أن يحمد الله نفسه على إنزاله وأن يتمدح إلى عباده به، قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أى: لينذر بهذا القرآن الكريم عقابه الذى عنده أى: قدره وقضاءه على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، وهذا أيضًا من نعمه أن خوف عباده وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم، كما قال تعالى لما ذكر فى هذا القرآن وصف النار قال: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ فمن رحمته بعباده أن قيض العقوبات الغليظة على من خالف أمره وبينها لهم وبين لهم الأسباب الموصلة إليها ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أى: وأنزل الله على عبده الكتاب ليبشر المؤمنين به وبرسله وكتبه الذين كمل إيمانهم فأوجب لهم عمل الصالحات وهى الأعمال الصالحة من واجب ومستحب التى جمعت الإخلاص والمتابعة ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو: الثواب الذى رتبه الله على الإيمان والعمل الصالح وأعظمه وأجله الفوز برضا الله ودخول الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفى وصفه بالحسن دلالة على أنه لا مكدر فيه ولا منغص بوجه من

الوجوه إذ لو وجد فيه شيء من ذلك لم يكن حسنه تامًا ومع ذلك فهذا الأجر الحسن ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا يزول عنهم ولا يزولون عنه بل نعيمهم فى كل وقت متزايد وفى ذكر التبشير ما يقتضى ذكر الأعمال الموجبة للمبشر به، وهو: أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح موصل لما تستبشر به النفوس وتفرح به الأرواح ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ من اليهود والنصارى والمشركين الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين لا علم منهم ولا علم من آبائهم الذين قلدوهم واتبعوهم بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أى: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأى شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد الذى يقتضى نقصه ومشاركة غيره له فى خصائص الربوبية والإلهية والكذب عليه؟ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ولهذا قال هنا: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أى: كذبًا محضًا ما فيه من الصدق شيء، وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدريج والانتقال من شيء إلى أبطل منه، فأخبر أولاً: أنه ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ والقول على الله بلا علم لا شك فى منعه وبطلانه، ثم أخبر ثانيًا أنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ثم ذكر ثالثًا مرتبته من القبح وهو: الكذب المنافى للصدق، ولما كان النبى ﷺ حريصًا على هداية الخلق ساعيًا فى ذلك أعظم السعى فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين شفقة منه ﷺ عليهم ورحمة بهم أرشده الله(١) أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن كما قال فى الآية الأخرى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ وهنا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أى: مهلكها غمًا وأسفًا عليهم وذلك أن أجرك قد وجب على الله وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرًا لهداهم ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار فلذلك خذلهم فلم يهتدوا، فإشغالك نفسك غمًا وأسفًا عليهم ليس فيه فائدة لك، وفى هذه الآية ونحوها عبرة فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله عليه التبليغ والسعى بكل سبب يوصل إلى الهداية وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه مع التوكل على الله فى ذلك، فإن اهتدوا فبها ونعمت وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن ذلك مضعف للنفس هادم للقوى ليس فيه فائدة بل يمضى على فعله الذى كُلِّفَ به وتوجه إليه وما عدا ذلك فهو خارج عن قدرته، وإذا كان النبى ﷺ يقول الله له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وموسى عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ الآية، فمن عداهم من باب أولى وأحرى قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾

يخبر تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض من مآكل لذيذة ومشارب وملابس طيبة وأشجار وأنهار وزروع وثمار ومناظر بهيجة ورياض أنيقة وأصوات شجية وصور مليحة وذهب وفضة وخيل وإبل ونحوها الجميع جعله الله زينة لهذه الدار فتنة واختبارًا ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أى: أخلصه وأصوبه ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات فانية مضمحلة وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيدًا جرزًا(٢) قد ذهبت لذاتها وانقطعت أنهارها واندرست آثارها وزال نعيمها وهذه حقيقة الدنيا قد جلاها الله لنا كأنها رأى عين وحذرنا من الاغترار بها ورغبنا فى دار يدوم نعيمها ويسعد مقيمها كل ذلك رحمة بنا فاغتر بزخرف الدنيا وزينتها من نظر إلى ظاهر الدنيا دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم وتمتعوا بها تمتع السوائم لا ينظرون فى حق ربهم ولا يهتمون لمعرفته بل همهم تناول الشهوات من أى وجه حصلت وعلى أى حالة اتفقت، فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت قلق لخراب ذاته وفوات لذاته لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات وأما من نظر إلى باطن الدنيا وعلم المقصود منها ومنه فإنه يتناول منها ما يستعين به على ما خلق له وانتهز الفرصة فى عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل

---

(١) قوله «أرشده الله» جواب «لما» فى قوله المتقدم «ولما كان الخ».

(٢) جرز: أى الأرض التى لا نبات بها، قال فى المصباح: «وأرض جُرز، بضم الجيم والراء، قد انقطع الماء عنها، فهى يابسة لا نبات فيها» اهـ. وفى المختار من الصحاح: أرض جُرُز وجُرْز «كعُسُر وعُسْر: لا نبات بها وجَرْز وجَرَز كنهْر ونَهَر، كله بمعنى» اهـ.

عبور لا محل حبور وشقَّة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده فى معرفة ربه وتنفيذ أوامره وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا حين نظر المغتر إلى ظاهرها وعمل لآخرته حين عمل البطال لدنياه فشتان ما بين الفريقين وما أبعد الفرق بين الطائفتين.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

وهذا الاستفهام بمعنى النفى والنهى، أى: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف وما جرى لهم غريبة على آيات الله وبديعة فى حكمته وأنه لا نظير لها ولا مجانس لها بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير من جنس آياته فى أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يُرى عباده من الآيات فى الآفاق وفى أنفسهم ما يتبين به الحق من الباطل والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفى[1] أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب بل هى من آيات الله العجيبة، وإنما المراد أن جنسها كثير جداً فالوقوف معها وحدها فى مقام العجب والاستغراب نقص فى العلم والعقل بل وظيفة المؤمن التفكر بجميع آيات الله التى دعا الله العباد إلى التفكير فيها فإنها مفتاح الإيمان وطريق العلم والإيقان وإضافتهم إلى الكهف الذى هو الغار فى الجبل والرقيم أى: الكتاب الذى قد رقمت فيه أسماؤهم وقصتهم لملازمتهم له دهراً طويلاً، ثم ذكر قصتهم مجملة وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿**إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ**﴾ أى: الشباب ﴿**إِلَى الْكَهْفِ**﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم ﴿**فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً**﴾ أى: تثبتنا بها وتحفظنا من الشر وتوفقنا للخير ﴿**وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**﴾ أى: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشد وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعى والفرار من الفتنة إلى محل يمكن الاستخفاء فيه وبين تضرعهم وسؤالهم الله تيسير أمورهم وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم وقيض لهم ما لم يكن فى حسابهم قال: ﴿**فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ**﴾ أى: أنمناهم ﴿**سِنِينَ عَدَدًا**﴾ وهى: ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وفى النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف وحفظ لهم من قومهم ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ**﴾ أى: من نومهم ﴿**لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا**﴾ أى: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ**﴾ الآية، وفى العلم بمقدار لبثهم ضبط للحساب ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شىء من ذلك من قصتهم.

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾

هذا شروع فى تفصيل قصتهم وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق الذى ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ**﴾ وهذا من جموع القلة يدل ذلك على أنهم دون العشرة ﴿**آمَنُوا**﴾ بالله وحده لا شريك له من دون قومهم فشكر الله لهم إيمانهم فزادهم هدى، أى: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان زادهم الله من الهدى الذى هو العلم النافع والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾ ﴿**وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ**﴾ أى: صبَّرناهم وثبتناهم وجعلنا قلوبهم مطمئنة فى تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبره أن وفقهم للإيمان والهدى والصبر والثبات والطمأنينة ﴿**إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ أى: الذى خلقنا ورزقنا ودبرنا وربانا هو خالق السموات والأرض المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة لا تلك الأوثان والأصنام التى لا تخلق ولا ترزق ولا تملك نفعًا ولا ضراً ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على

---

(١) فى الأصل المطبوع «بهذا النفى عن أن تكون» والصواب حذف كلمة «عن» لذلك حذفناها، لأن القواعد العربية تأباها.

توحيد الإلهية ولهذا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ أى: من سائر المخلوقات ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا﴾ أى: إن دعونا معه آلهة بعدما علمنا أنه الرب الإله الذى لا تجوز ولا تنبغى العبادة إلا له ﴿شَطَطًا﴾ أى: ميلاً عظيمًا عن الحق وطريقًا بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية والتزام ذلك وبيان أنه الحق وما سواه باطل وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

لما ذكروا ما منَّ الله به عليهم من الإيمان والهدى والتقوى التفتوا إلى ما كان عليه قومهم من اتخاذ الآلهة من دون الله فمقتوهم وبيَّنوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم بل هم فى غاية الجهل والضلال فقالوا: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أى: بحجة وبرهان على ما هم عليه من الباطل ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك إنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

أى: قال بعضهم لبعض إذ حصل لكم اعتزال قومكم فى أجسامكم وأديانكم فلم يبق إلا النجاء من شرهم والتسبب بالأسباب المفضية لذلك لأنه لا سبيل لهم إلى قتالهم ولا إلى بقائهم بين أظهرهم وهم على غير دينهم ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ أى: انضموا إليه واختفوا فيه ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ وفيما تقدم أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فجمعوا بين التبرى من حولهم وقوتهم والالتجاء إلى الله فى صلاح أمرهم ودعائه بذلك وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته وهيأ لهم من أمرهم مرفقًا، فحفظ أديانهم وأبدانهم وجعلهم من آياته على خلقه ونشر لهم من الثناء الحسن ما هو من رحمته بهم ويسَّر لهم كل سبب حتى المحل الذى ناموا فيه كان على غاية ما يمكن من الصيانة ولهذا قال:

﴿۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

أى: حفظهم الله من الشمس فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس تميل عنه يمينًا وعند غروبها تميل عنه شمالاً فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أى: من الكهف أى: مكان متسع وذلك ليطرقهم الهواء والنسيم ويزول عنهم الوخم والتأذى بالمكان الضيق خصوصًا مع طول المكث، وذلك من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى فى هذه الأمور ولهذا قال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أى: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله فهو الهادى المرشد لمصالح الدارين ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أى: لا تجد من يتولاه ويدبره على ما فيه صلاحه ولا يرشده إلى الخير والفلاح لأن الله قد حكم عليه بالضلال ولا راد لحكمه ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أى: تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنهم أيقاظ والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم منفتحة لئلا تفسد فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظًا وهم رقود ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وهذا أيضًا من حفظه لأبدانهم لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها فكان من قدر الله أن قلَّبهم على جنوبهم يمينًا وشمالاً بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من

الأرض من غير تقليب ولكنه تعالى حكيم أراد أن تجرى سنته فى الكون ويربط الأسباب بمسبباتها ﴿ **وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ** ﴾ أى: الكلب الذى كان مع أصحاب الكهف أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته فكان باسطًا ذراعيه بالوصيد أى: الباب أو فنائه، هذا حفظهم من الأرض، وأما حفظهم من الآدميين فأخبر أنه حماهم بالرعب الذى نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد لامتلأ رعبًا وولى منهم فرارًا، وهذا الذى أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة وهم لم يعثر عليهم أحد مع قربهم من المدينة جدًا، والدليل على قربهم أنهم لما استيقظوا أرسلوا أحدهم يشترى لهم طعامًا من المدينة وبقوا فى انتظاره فدل ذلك على شدة قربهم منها.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ** ﴾ من نومهم الطويل ﴿ **لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ** ﴾ أى: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم، و ﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾ وهذا مبنى على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه فى طول مدتهم فلهذا ﴿ **قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ** ﴾ فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شىء جملة وتفصيلاً، ولعل الله تعالى - بعد ذلك - أطلعهم على مدة لبثهم لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم وأخبر أنهم تساءلوا وتكلموا بمبلغ ما عندهم وصار آخر أمرهم الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقينًا علمنا ذلك من حكمته فى بعثهم وأنه لا يفعل ذلك عبثًا، ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة فى الأمور المطلوب علمها وسعى لذلك ما أمكنه فإن الله يوضح له ذلك وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا** ﴾ فلولا أنه حصل العلم بحالهم لم يكونوا دليلاً على ما ذكر، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم وجرى منهم ما أخبر الله به أرسلوا أحدهم بورقهم أى: بالدراهم التى كانت معهم ليشترى لهم طعامًا يأكلونه من المدينة التى خرجوا منها وأمروه أن يتخير من الطعام أزكاه أى: أطيبه وألذه وأن يتلطف فى ذهابه وشرائه وإيابه وأن يختفى فى ذلك ويخفى حال إخوانه ولا يشعرن بهم أحدًا، وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم وظهورهم عليهم أنهم بين أمرين: إما الرجم بالحجارة فيقتلونهم أشنع قتلة لحنقهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنوهم عن دينهم ويردوهم فى ملتهم، وفى هذه الحال لا يفلحون أبدًا بل يخسرون فى دينهم ودنياهم وأخراهم، وقد دلت هاتان الآيتان على عدة فوائد: **منها:** الحث على العلم وعلى المباحثة فيه لكون الله بعثهم لأجل ذلك، **ومنها:** الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عالمه وأن يقف عند حده، **ومنها:** صحة الوكالة فى البيع والشراء وصحة الشركة فى ذلك، **ومنها:** جواز أكل الطيبات والمطاعم اللذيذة إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهى عنه لقوله: ﴿ **فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ** ﴾ وخصوصًا إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة التى جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها، **ومنها:** الحث على التحرز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن فى الدين واستعمال الكتمان فى ذلك على الإنسان وعلى إخوانه فى الدين، **ومنها:** شدة رغبة هؤلاء الفتية فى الدين وفرارهم من كل فتنة فى دينهم وتركهم أوطانهم فى الله، **ومنها:** ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد الداعية لبغضه وتركه، وأن هذه الطريقة هى طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين لقولهم: ﴿ **وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك ـ والله أعلم ـ بعدما استيقظوا وبعثوا أحدهم يشترى لهم طعامًا وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمرًا فيه صلاح للناس وزيادة أجر لهم وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله المشاهدة بالعيان على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا بُعد بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم فمن مثبت للوعد والجزاء ومن ناف لذلك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين وحجة على الجاحدين وصار لهم أجر هذه القضية، وشهر الله أمرهم ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم، وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أى: نعبد الله تعالى فيه ونتذكر به أحوالهم وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة نهى عنها النبى ﷺ وذم فاعليها ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها فإن السياق فى شأن أهل الكهف والثناء عليهم وأن هؤلاء وصل بهم الحال إلى أن قالوا ابنوا عليهم مسجدًا بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم وحذرهم من الاطلاع عليهم فوصلت الحال إلى ما ترى وفى هذه القصة دليل على أن من فرَّ بدينه من الفتن سلمه الله منها وأن من حرص على العافية عافاه الله ومن أوى إلى الله آواه الله وجعله هداية لغيره، ومن تحمَّل الذل فى سبيله وابتغاء مرضاته كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)﴾

يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب فى عدة أصحاب الكهف اختلافًا صادرًا عن رجمهم بالغيب وتقوُّلهم بما لا يعلمون وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال: منهم من يقول ثلاثة رابعهم كلبهم، ومنهم من يقول: خمسة سادسهم كلبهم، وهذان القولان ذكر الله بعدهما أن هذا رجم منهم بالغيب فدل على بطلانهما، ومنهم من يقول: سبعة وثامنهم كلبهم، وهذا ـ والله أعلم ـ هو الصواب، لأن الله أبطل الأولين ولم يبطله فدل على صحته، وهذا من الاختلاف الذى لا فائدة تحته ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس دينية ولا دنيوية ولهذا قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ تجادل وتحاج فيهم ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أى: مبنيًا على العلم واليقين ويكون أيضًا فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب أو التى لا فائدة فيها إما أن يكون الخصم معاندًا أو تكون المسألة لا أهمية فيها ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك فإن فى كثرة المناقشات فيها والبحوث المتسلسلة تضييعًا للزمان وتأثيرًا فى مودة القلوب بغير فائدة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ أى: فى شأن أهل الكهف ﴿مِّنْهُمْ﴾ أى: من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾ وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن الذى لا يغنى من الحق شيئًا، ففيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إما لقصوره فى الأمر المستفتى فيه أو لكونه لا يبالى بما تكلم به وليس عنده ورع يحجزه، وإذا نهى عن استفتاء هذا الجنس فنهيه هو عن الفتوى من باب أولى وأحرى، وفى الآية أيضًا دليل على أن الشخص قد يكون منهيًا عن استفتائه فى شىء دون آخر فيستفتى فيما هو أهل له بخلاف غيره لأن الله لم ينه عن استفتائهم مطلقًا إنما نهى عن استفتائهم فى قصة أصحاب الكهف وما أشبهها.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤)﴾

هذا النهى كغيره وإن كان لسبب خاص وموجهًا للرسول ﷺ فإن الخطاب عام للمكلفين، فنهى الله أن يقول العبد فى الأمور المستقبلة ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ من دون أن يقرنه بمشيئة الله وذلك لما فيه من المحذور وهو: الكلام على الغيوب المستقبلة التى لا يدرى هل يفعلها أم لا؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد

استقلالاً، وذلك محذور محظور لأن المشيئة كلها لله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ولما فى ذكر مشيئة الله من تيسير الأمر وتسهيله وحصول البركة فيه والاستعانة من العبد لربه، ولما كان العبد بشرًا لا بد أن يسهو عن ذكر المشيئة أمره الله أن يستثنى بعد ذلك إذا ذكر ليحصل المطلوب ويندفع المحذور، ويؤخذ من عموم قوله ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الأمر بذكر الله عند النسيان فإنه يزيله ويُذَكِّر العبد ما سها عنه وكذلك يؤمر الساهى الناسى لذكر الله أن يذكر ربه ولا يكونن من الغافلين، ولما كان العبد مفتقرًا إلى الله فى توفيقه للإصابة وعدم الخطأ فى أقواله وأفعاله أمره الله أن يقول: ﴿عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ فأمره أن يدعو الله ويرجوه ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد، وحَرِىٌّ بعبد تكون هذه حاله ثم يبذل جهده ويستفرغ وسعه فى طلب الهدى والرشد أن يوفق لذلك وأن تأتيه المعونة من ربه وأن يسدده فى جميع أموره.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب فى شأن أهل الكهف - لعدم علمهم بذلك وكان الله عالم الغيب والشهادة العالم بكل شىء - أخبره الله بمدة لبثهم وأن علم ذلك عنده وحده فإنه من غيب السموات والأرض وغيبها مختص به، فما أخبر به عنها على ألسنة رسله فهو الحق اليقين الذى لا شك فيه وما لا يطلع رسله عليه فإن أحدًا من الخلق لا يعلمه، وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ تعجب من كمال سمعه وبصره وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامة والخاصة فهو الولى الذى يتولى تدبير جميع الكون الولى لعباده المؤمنين يخرجهم من الظلمات إلى النور وييسرهم لليسرى ويجنبهم العسرى ولهذا قال: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أى: هو الذى تولى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه ولم يكلهم إلى أحد من الخلق ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ وهذا يشمل الحكم الكونى القدرى الحكم الشرعى الدينى فإنه الحاكم فى خلقه قضاء وقدرًا وخلقًا وتدبيرًا والحاكم فيهم بأمره ونهيه وثوابه وعقابه، ولما أخبر أنه تعالى له غيب السموات والأرض فليس لمخلوق إليها طريق إلا عن الطريق التى يخبر بها عباده وكان هذا القرآن قد اشتمل على كثير من الغيوب أمر تعالى بالإقبال عليه فقال:

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

التلاوة هى الاتباع أى: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها وتصديق أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه فإنه الكتاب الجليل الذى ﴿لا مُبَدِّلَ لكلماته﴾ أى: لا تغيير ولا تبدل لصدقها وعدلها وبلوغها من الحسن فوق كل غاية ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ فلكمالها استحال عليها التغير والتبديل فلو كانت ناقصة لعرض لها ذلك أو شىء منه وفى هذا تعظيم للقرآن فى ضمنه الترغيب على الإقبال عليه ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أى: لن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه ولا معاذًا تعوذ به فإذا تعين أنه وحده الملجأ فى كل الأمور تعين أن يكون هو المألوه المرغوب إليه فى السراء والضراء المفتقر إليه فى جميع الأحوال المسئول فى جميع المطالب.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

يأمر تعالى نبيه محمدًا ﷺ - وغيره أسوته فى الأوامر والنواهى - أن يصبر نفسه مع المؤمنين العُبَّاد المنيبين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أى: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن فى صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أى: لا تجاوزهم بصرك وترفع عنهم نظرك ﴿تُرِيدُ زِينَةَ

﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن هذا ضار غير نافع وقاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا فتصير الأفكار والهواجس فيها وتزول من القلب الرغبة فى الآخرة فإن زينة الدنيا تروق للناظر وتسحر القلب فيغفل القلب عن ذكر الله ويُقبل على اللذات والشهوات فيضيع وقته وينفرط أمره فيخسر الخسارة الأبدية والندامة السرمدية ولهذا قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ غفل عن الله فعاقبه بأن أغفله عن ذكره ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أى: صار تبعًا لهواه حيث ما اشتهت نفسه فعله وسعى فى إدراكه ولو كان فيه هلاكه وخسرانه فهو قد اتخذ إلهه هواه كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآية ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ أى: مصالح دينه ودنياه ﴿فُرُطًا﴾ أى: ضائعة معطلة، فهذا قد نهى الله عن طاعته لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به ودلت الآية على أن الذى ينبغى أن يطاع ويكون إمامًا للناس من امتلأ قلبه بمحبة الله وفاض ذلك على لسانه فلهج بذكر الله واتبع مراضي ربه فقدمها على هواه فحفظ بذلك ما حفظ من وقته وصلحت أحواله واستقامت أفعاله ودعا الناس إلى ما منَّ الله به عليه فحقيق بذلك أن يُتبع ويجعل إمامًا، والصبر المذكور فى هذه الآية هو الصبر على طاعة الله الذى هو أعلى أنواع الصبر وبتمامه يتم باقى الأقسام، وفى الآية استحباب الذكر والدعاء والعبادة طَرَفَيِ النهار لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله دل ذلك على أن الله يحبه وإذا كان يحبه فإنه يأمر به ويرغب فيه.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

أى: قل للناس يا محمد: هو الحق من ربكم، أى: قد تبين الهدى من الضلال والرشد من الغى وصفات أهل السعادة وصفات أهل الشقاوة وذلك بما بينه الله على لسان رسوله فإذا بان واتضح ولم يبق فيه شبهة ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أى: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين بحسب توفيق العبد وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب ومن كفر فقد قامت عليه الحجة وليس بمكره على الإيمان كما قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أى: سورها المحيط بها فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها تصلاهم النار الحامية ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ بأن يطلبوا الشراب ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ أى: كالرصاص المذاب أو كعكر الزيت من شدة حرارته ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أى: فكيف بالأمعاء والبطون كما قال تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ الذى يراد ليطفئ العطش ويدفع بعض العذاب فيكون زيادة فى عذابهم وشدة عقابهم ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ وهذا ذم لحالة النار أنها ساءت المحل الذى يرتفق به، فإنها ليس فيها ارتفاق وإنما فيها العذاب العظيم الشاق الذى لا يُفَتَّر عنهم ساعة وهم فيه مبلسون قد أيسوا من كل خير ونسيهم الرحيم فى العذاب كما نسوه، ثم ذكر الفريق الثانى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ وإحسان العمل أن يريد العبد العمل لوجه الله متبعًا فى ذلك شرع الله فهذا العمل لا يضيعه الله ولا شيئًا منه بل يحفظه للعاملين ويوفيهم من الأجر بحسب عملهم وفضله وإحسانه وذكر أجرهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾ أى: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح لهم

الجنات العاليات التى قد كثرت أشجارها فأجَنَّتْ من فيها وكثرت أنهارها فصارت تجرى من تحت تلك الأشجار الأنيقة والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق وهو ما رَقَّ منه متكئين فيها على الأرائك وهى: السرر المزينة المجملة بالثياب الفاخرة فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفى اتكائهم على الأرائك ما يدل على كمال الراحة وزوال النصب والتعب وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ للعاملين ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يرتفقون بها ويتمتعون بما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من الحسرة والسرور والفرح الدائم واللذات المتواترة والنعم المتوافرة، وأى مرتفق أحسن من دار أدنى أهلها يسير فى ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه أَلْفَىْ سنة ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم قد أعطى جميع أمانيه ومطالبه وزيد من المطالب ما قصرت عنه الأمانى ومع ذلك فنعيمهم على الدوام متزايد فى أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان بِشَرِّ ما عندنا من التقصير والعصيان، ودلت الآية الكريمة وما أشبهها على أن الحلية عامة للذكور والإناث كما ورد فى الأخبار الصحيحة لأنه أطلقها فى قوله ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ وكذلك الحرير ونحوه.

﴿۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣)﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين الشاكر لنعمة الله والكافر لها وما صدر من كل منهما من الأقوال والأفعال وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب ليعتبروا بحالهما ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين وفى أى زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط والتعرض لما سوى ذلك من التكلف، فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة جعل الله له جنتين أى: بستانين حسنين من أعناب ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أى: فى هاتين الجنتين من كل الثمرات وخصوصًا أشرف الأشجار العنب والنخل، فالعنب وسطها والنخل قد حف بذلك ودار به فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التى تكمل لها الثمار وتنضج وتتجوهر ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعًا فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت[1] أكلها أى: ثمرها وزرعها ضعفين أى: متضاعفًا ﴿وَ﴾ أنها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أى: لم تنقص من أكلها أدنى شىء ومع ذلك فالأنهار فى جوانبهما سارحة كثيرة غزيرة ﴿وَكَانَ لَهُ﴾ أى لذلك الرجل ﴿ثَمَرٌ﴾ أى: عظيم كما يفيده التنكير أى: قد استكملت جنتاه ثمارهما وارجحنت[2] أشجارهما ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا فى الحرث ولهذا اغتر هذا الرجل وتبجح وافتخر ونسى آخرته.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾

أى: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهما يتحاوران أى يتراجعان الكلام بينهما فى بعض المجريات المعتادة مفتخرًا عليه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فخر بكثرة ماله وعزة أنصاره من عبيد وخدم وأقارب وهذا جهل منه، وإلا فأى افتخار بأمر خارجى ليس فيه فضيلة نفسية ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبى

(١) آتت، أى: أعطت.

(٢) ارجحنت، أى: مالت أشجارها من كثرة ثمارها وثقلها وأصبحت الأغصان متدلية، كادت تلامس الأرض من ثقل ثمارها.

بالأماني التي لا حقائق تحتها، ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه حتى حكم بجهله وظلمه وظن لما دخل جنته، فـ ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي: تنقطع وتضمحل ﴿هَذِهِ أَبَدًا﴾ فاطمأن إلى هذه الدنيا ورضي بها وأنكر البعث فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ على ضرب المثل ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: ليعطيني خيرًا من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالمًا بحقيقة الحال فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة فيكون من أجهل الناس وأبخسهم حظًا من العقل، فأي تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة حتى يظن بجهله أن من أعطيَ في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب أن الله تعالى يَزْوِي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال ولكنه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ فإثبات أن وصفه الظلم في حال دخوله الذي جرى منه من القول ما جرى يدل على تمرده وعناده.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾

أي: قال له صاحبه المؤمن ناصحًا له ومذكرًا له حاله الأولى التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد وواصل عليك النعم ونقلك من طور إلى طور حتى سواك رجلاً كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسَّر لك الأسباب وهيأ لك ما هيأ من نعم الدنيا فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً وتجهل نعمته وتزعم أنه لا يبعثك وإن بعثك أنه يعطيك خيرًا من جنتك هذا مما لا ينبغي ولا يليق، ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطغيانه قال مخبرًا عن نفسه على وجه الشكر لربه والإعلان بدينه عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ فأقر بربوبية ربه وانفراده فيها والتزام طاعته وعبادته وأنه لا يشرك به أحدًا من المخلوقين، ثم أخبر أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام ـ ولو مع قلة ماله وولده ـ أنها هي النعمة الحقيقة وأن ما عداها مُعَرَّض للزوال والعقوبة عليه والنكال فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ﴾ إلى ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت ـ وإن فخرت عليَّ بكثرة مالك وولدك ورأيتني أقل منك مالاً وولدًا ـ فإن ما عند الله خير وأبقى، وما يرجى من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا التي يتنافس فيه المتنافسون.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عذابًا بمطر عظيم أو غيره ﴿فَتُصْبِحَ﴾ بسبب ذلك ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: قد اقتلعت أشجارها وتلفت ثمارها وغرق زرعها وزال نفعها ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا﴾ الذي مادتها منه ﴿غَوْرًا﴾ أي: غائرًا في الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أي: غائرًا لا يستطاع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنما دعا على جنته المؤمن غضبًا لربه لكونها غرته وأطغته واطمأن إليها لعله ينيب ويراجع رشده ويتبصر في أمره، فاستجاب الله دعاه ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾

أى: أصابه عـذاب أحاط به واستهلكه فلم يبق منـه شىء، والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره وثماره وزرعه، فندم كل الندامة واشتد لذلك أسفه ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ أى: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها حيث اضمحلت وتلاشت فلم يبق لها عـوض وندم أيضًا على شركه وشره ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أى: لما نزل العذاب بجنته ذهب عنه ما كان يفتـخر به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فلم يدفعـوا عنه من العذاب شيئًا أشد ما كان إليهم حاجة وما كان بنفسه منتصرًا، وكيف ينتصر أو يكون له انتصار على قضاء الله وقدره الذى إذا أمضاه وقدره لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شىء منه لم يقـدروا؟ ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه أن صاحب هذه الجنة التـى أحيط بها تحـسنت حاله ورزقه الله الإنابة إليـه وراجع رشده وذهب تمرده وطغـيانه بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه وأن الله أذهب عنه ما يطغيه وعـاقبه فى الدنيا وإذا أراد الله بعبد خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول ولا ينكره إلا ظالم جهول ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أى: فى تلك الحال التى أجـرى الله فيها العـقوبة على من طغى وآثر الحيـاة الدنيا والكرامة لمن آمن وعمل صالحًا وشكر الله ودعا غـيره لذلك تبين وتوضح أن الولاية الحق لله وحده، فمن كان مؤمنًا به تقيًا كان له وليًا فأكرمه بـأنواع الكرامات ودفع عنه الشرور والمثلات ومن لم يؤمن بربه ولم يتولاه خسر دينه ودنياه، فثوابه الدنيوى والأخروى خير ثواب يرجى ويؤمل، فـفى هذه القصة العظيمة اعتبار بحال الذى أنعم الله عليه نعمًا دنيوية فألهته عن آخرته وأطغته وعصى الله فيها أن مآلها الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلاً فإنه يحـرمها طويلاً، وأن العبد ينبغى له ـ إذا أعـجبه شىء من ماله أو ولده ـ أن يضيف النعمـة إلى موليها ومسديها وأن يقول: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» ليكون شاكرًا متـسببًا لبقاء نعمته عليه لقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وفيها الإرشاد إلى التسلى عن لذات الدنيـا وشهواتها بما عند الله من الخير لقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ وفيها أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وفيه الدعاء بتلف مـال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخـسرانه خصوصًا إن فضَّل نفسه بـسببه على المؤمنين وفخر عليهم، وفيها أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء ووجد العاملون أجرهم فـ ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أى: عاقبة ومآلاً.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ أصـلاً ولمن قام بوراثته بعده تبعًا: اضرب للناس مثل الحيـاة الدنيا ليتصوروها حق التصور ويعرفوا ظاهرها وباطنها فيقيسوا بينهـا وبين الدار الباقية ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار، وأن مثل هذه الحياة الدنيا كـمثل المطر ينزل على الأرض فـيختلط نبـاتها أو تنبت من كل زوج بهـيج، فبينا زهرتهـا وزخرفهـا تسر الناظرين وتفرح المـتفرجين وتأخذ بعـيون الغافلين إذ أصبـحت هشيمًا تذروه الرياح فذهب ذلـك النبات الناضر والزهر الزاهر والمنظر البهى فأصبـحت الأرض غبراء ترابًا قد انحرف عنها النظر وصدف عنهـا البصر وأوحشت القلب، كذلك هذه الدنيا بينما صاحـبها قد أعجب بشبابه وفاق فيهـا على أقرانه وأترابه وحصل درهمها وديناره واقتطف من لذته أزهارها وخاض فى الشهوات فى جميع أوقاته وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه إذ أصابه الموت أو التلف لماله فذهب عنه سروره وزالت لذته وحبوره واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله وانفرد بصالح أو سيئ أعماله، هنالك يعض الظالم على يديه حين يعلم حقـيقة ما هو عليه ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهـوات بل ليستدرك ما فرط منه من الغـفلات بالتوبة والأعمال الصالحات، فـالعاقل الجازم الموفق

يعرض على نفسه هذه الحالة ويقول لنفسه: «قدِّرى أنك قد متِّ ولا بد أن تموتى فأى الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة أم العمل لدار أكلها دائم وظلها ظليل وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين؟» فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه وربحه من خسرانه، ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، أى: ليس وراء ذلك شىء وأن الذى يبقى للإنسان وينفعه ويسره الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله وحقوق عباده من صلاة وزكاة وصدقة وحج وعمرة وتسبيح وتحميد وتهليل وقراءة وطلب علم نافع وأمر بمعروف ونهى عن منكر وصلة رحم وبر الوالدين وقيام بحق الزوجات والمماليك والبهائم وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثوابًا وخير أملاً، فثوابها يبقى ويتضاعف على الآباد ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة فهذه التى ينبغى أن يتنافس بها المتنافسون ويستبق إليها العاملون ويَجدُّ فى تحصيلها المجتهدون، وتأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها ذكر أن الذى فيها نوعان: نوع من زينتها يتمتع به قليلاً ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون، ونوع يبقى لصاحبه على الدوام وهى: الباقيات الصالحات.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من الأهوال المقلقة والشدائد المزعجة فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ أى: يزيلها عن أماكنها يجعلها كثيبًا ثم يجعلها كالعهن المنفوش ثم تضمحل وتتلاشى وتكون هباء منبثًا، وتبرز الأرض فتصير قاعًا صفصفًا لا عوج فيه ولا أمتًا، ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض فلا يغادر منهم أحدًا، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات وقعور البحار ويجمعهم بعدما تفرقوا ويعيدهم بعدما تمزقوا خلقًا جديدًا، فيعرضون عليه صفًا ليستعرضهم وينظر فى أعمالهم ويحكم فيهم بحكمه العدل الذى لا جور فيه ولا ظلم ويقول لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: بلا مال ولا أهل ولا عشيرة ما معهم إلا الأعمال التى عملوها والمكاسب فى الخير والشر التى كسبوها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ وقال هنا مخاطبًا للمنكرين للبعث وقد شاهدوه عيانًا: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أى: أنكرتم الجزاء على الأعمال ووعد الله ووعيده فيها قد رأيتموه وذقتموه، فحينئذ تحضر كُتُبُ الأعمال التى كتبها الملائكة الأبرار فتطير لها القلوب وتعظم من وقعها الكروب وتكاد لها الصم الصلاب تذوب ويشفق منها المجرمون، فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم مُحْصى عليهم أقوالهم وأفعالهم قالوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أى: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهى مكتوبة فيه محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية ولا ليل ولا نهار ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ لا يقدرون على إنكاره ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فحينئذ يجازون بها ويقررون بها ويخزون ويحق عليهم العذاب ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم إكرامًا وتعظيمًا وامتثالاً لأمر الله، فامتثلوا ذلك ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ وقال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ فتبين بهذا عداوته لله ولأبيكم فكيف تتخذونه وذريته، أى: الشياطين ﴿أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ أى: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان الذى لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن الذى كل السعادة والفلاح والسرور فى ولايته، وفى هذه الآية الحث على اتخاذ الشيطان عدوًا والإغراء بذلك وذكر السبب الموجب لذلك وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأى ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقى وليًا وترك الولى الحميد؟ قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين وهؤلاء المضلين ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: ما أحضرتهم ذلك ولا شاورتهم عليه فكيف يكونون خالقين لشىء من ذلك؟! بل المنفرد بالخلق والتدبير والحكمة والتقدير هو الله خالق الأشياء كلها المتصرف فيها بحكمته، فكيف يجعل له شركاء من الشياطين يوالون ويطاعون كما يطاع الله وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقًا ولم يعاونوا الله تعالى؟ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أى: معاونين مظاهرين لله على شأن من الشئون، أى: ما ينبغى ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطًا من التدبير لأنهم ساعون فى إضلال الخلق والعداوة لربهم فاللائق أن يقصيهم ولا يدنيهم، ولما ذكر حال من أشرك به فى الدنيا وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال وحكم بجهل صاحبه وسفهه أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة وأن الله يقول لهم: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ بزعمكم أى: على موجب زعمكم الفاسد، وإلا فالحقيقة ليس لله شريك فى الأرض ولا فى السماء أى: نادوهم لينفعوكم ويخلصوكم من الشدائد ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأن الحكم والملك يومئذ لله لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ أى: بين المشركين وشركائهم ﴿مَّوْبِقًا﴾ أى: مهلكًا يفرق بينهم وبينهم ويبعد بعضهم من بعض ويتبين حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم وكفرهم بهم وتبريهم منهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

أى: لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم وحقت كلمة العذاب على المجرمين فرأوا جهنم قبل دخولها فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها وهذا الظن قال المفسرون: إنه بمعنى اليقين فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أى: معدلاً يعدلون إليه ولا شافع لهم من دون إذنه وفى هذا من التخويف والترهيب ما ترعد له الأفئدة والقلوب.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه وأنه صرّف فيه من كل مَثَل، أى: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة والسعادة الأبدية وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، ففيه أمثال الحلال والحرام وجزاء الأعمال والترغيب والترهيب والأخبار الصادقة النافعة للقلوب اعتقادًا وطمأنينة ونورًا، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة وعدم المنازعة له فى أمر من الأمور، ومع ذلك كان كثير من الناس يجادلون فى الحق بعدما تبين ويجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ أى:

مجادلة ومنازعة فيه مع أن ذلك غير لائق بهم ولا عدل منهم، والذى أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله وإنما هو الظلم والعناد لا لقصور فى بيانه وحجته وبرهانه، وإلا فلو جاءهم العذاب وجاءهم ما جاء قبلهم لم تكن هذه حالهم ولهذا قال:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

أى ما منع الناس من الإيمان والحال أن الهدى الذى يحصل به الفرق بين الهدى والضلال والحق والباطل قد وصل إليهم وقامت عليهم حجة الله فلم يمنعهم عدم البيان بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله وعادته فى الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب أو يرون العذاب قد أقبل عليهم ورأوه مقابلة ومعاينة، أى: فليخافوا من ذلك وليتوبوا من كفرهم قبل أن يكون العذاب الذى لا مرد له.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

أى: لم نرسل الرسل عبثًا ولا ليتخذهم الناس أربابًا ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير وينهون عن كل شر ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والآجل وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون إلا المجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق، فسعوا فى نصر الباطل مهما أمكنهم وفى إدحاض الحق وإبطاله، واستهزءوا برسل الله وآياته وفرحوا بما عندهم من العلم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ويظهر الحق على الباطل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ومن حكمة الله ورحمته أن تقييضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبيين شواهده وأدلته وتبيين الباطل وفساده، فبضدها تتبين الأشياء.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلمًا ولا أكبر جرمًا من عبد ذُكِّر بآيات الله وبيِّن له الحق من الباطل والهدى من الضلال وخُوِّف ورُهِّب ورُغِّب فأعرض عنها فلم يتذكر بما ذُكِّر به ولم يرجع عما كان عليه ونسى ما قدمت يداه من الذنوب ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلمًا من المعرض الذى لم تأته آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالمًا فإنه أشد ظلمًا من هذا لكون العاصى على بصيرة وعلم أعظم ممن ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته ونسيانه لذنوبه ورضاه لنفسه حالة الشر مع علمه بها أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه ﴿أَكِنَّةً﴾ أى: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها فليس فى إمكانه الفقه الذى يصل إلى القلب ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أى: صممًا يمنعهم من وصول الآيات ومن سماعها على وجه الانتفاع وإن كانوا بهذه الحالة فليس لهدايتهم سبيل ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ لأن الذى يرجى أن يجيب الداعى للهدى من ليس عالمًا وأما هولاء الذى أبصروا ثم عموا ورأوا طريق الحق فتركوه وطريق الضلال فسلكوه وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها فليس فى هدايتهم حيلة ولا طريق، وفى هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه وأن يحال بينه وبينه ولا يتمكن منه بعد ذلك ما هو أعظم مرهب وزاجر عن ذلك، ثم أخبر

تعالى عن سعة مغفرته ورحمته وأنه يغفر الذنوب ويتوب الله على من يتوب فيتغمده برحمته ويشمله بإحسانه وأنه لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب لعجل لهم العذاب ولكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة بل يمهل ولا يهمل والذنوب لا بد من وقوع آثارها وإن تأخرت عنها مدة طويلة، ولهذا قال: ﴿ **بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا** ﴾ أى: لهم موعد يجازون فيه بأعمالهم لا بد لهم منه ولا مندوحة لهم عنه ولا ملجأ ولا محيد عنه، وهذه سنته فى الأولين والآخرين أن لا يعاجلهم بالعقاب بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا غفر لهم ورحمهم وأزال عنهم العقاب، وإلا فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم وجاء الوقت الذى جعله موعدًا لهم أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿ **وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا** ﴾ أى: بظلمهم لا بظلم منا ﴿ **وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا** ﴾ أى: وقتًا مقدرًا لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام وشدة رغبته فى الخير وطلب العلم أنه قال لفتاة أى: خادمه الذى يلازمه فى حضره وسفره وهو «يوشع بن نون» الذى نبأه الله بعد ذلك: ﴿ **لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ** ﴾ أى: لا أزال مسافرًا وإن طالت علىَّ الشقة ولحقتنى المشقة حتى أصل إلى مجمع البحرين وهو المكان الذى أوحى إليه أنك ستجد فيه عبدًا من عباد الله العالمين عنده من العلم ما ليس عندك ﴿ **أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا** ﴾ أى: مسافة طويلة، المعنى: أن الشوق والرغبة حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة وهذا عزم منه جازم فلذلك أمضاه ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَا** ﴾ أى: هو وفتاه ﴿ **مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا** ﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان وقد وعد أنه

متى فقد الحوت فثمَّ ذلك العبد الذى قصدته ﴿فَاتَّخَذَ﴾ ذلك الحوت ﴿سَبِيلَهُ﴾ أى: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ وهذا من الآيات، قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذى كانا يتزودان منه لما وصلا إلى ذلك المكان أصابه بلل البحر فانسرب بإذن الله فى البحر وصار مع حيواناته حيًا فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين قال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أى: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط وإلا فالسفر الطويل الذى وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدا من التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضًا فإن الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما وجدا من مس التعب، فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لأنه السبب فى ذلك ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أى: لما انسرب فى البحر ودخل فيه كان ذلك من العجائب قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سربًا ولموسى وفتاه عجبًا فلما قال له الفتى هذا القول وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت وجد الخضر فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أى: نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أى: رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أى: رجعا يقصان أثرهما الذى نسيا فيه الحوت، فلما وصلا إليه وجدا عبدًا من عبادنا وهو الخضر، وكان عبدًا صالحًا لا نبيًا على الصحيح[1] ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أى: أعطاه الله رحمة خاصة بها زاد علمه وحسن عمله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أى: من عندنا ﴿عِلْمًا﴾ وكان قد أعطى من العلم ما لم يعط موسى وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء وخصوصًا فى العلوم الإيمانية والأصولية لأنه من أولى العزم من المرسلين الذين فضلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك فلما اجتمع به موسى قال له على وجه الأدب والمشاورة والإخبار عن مطلبه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أى: هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمك الله ما به أسترشد وأهتدى وأعرف به الحق فى تلك القضايا؟ وكان الخضر قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير من الأشياء التى خفيت حتى على موسى عليه السلام، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك ولكنك ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أى: لا تقدر على اتباعى وملازمتى لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التى ظاهرها المنكر وباطنها غير ذلك ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أى: كيف تصبر على أمر ما أحطت بباطنه وظاهره ولا علمت المقصود منه ومآله؟ فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ وهذا عزم منه قبل أن يوجد الشىء الممتحن به والعزم شىء ووجود الصبر شىء آخر فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر، فحينئذ قال له الخضر: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أى: لا تبتدئنى بسؤال منك وإنكار حتى أكون أنا الذى أخبرك بحاله فى الوقت الذى ينبغى إخبارك به فنهاه عن سؤاله ووعده أن يوقفه على حقيقة الأمر ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أى: اقتلع الخضر منها لوحًا، وكان له مقصود فى ذلك سيبينه فلم يصبر موسى عليه السلام لأن ظاهره أنه منكر لأنه عيب للسفينة وسبب لغرق أهلها ولهذا قال موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أى: عظيمًا شنيعًا وهذا من عدم صبره عليه السلام فقال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أى: فوقع كما أخبرتك وكان هذا من موسى نسيانًا فقال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أى: لا تعسر على الأمر واسمح لى فإن ذلك وقع على وجه النسيان فلا تؤاخذنى فى أول مرة، فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغى لك أيها الخضر الشدة على صاحبك فسمح عنه الخضر ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ أى: صغيرًا ﴿فَقَتَلَهُ﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب وأخذته الحمية الدينية حين قتل غلامًا صغيرًا لم يذنب ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ وأى نكر مثل قتل الصغير الذى ليس عليه ذنب ولم يقتل أحدا؟! وكان الأول من موسى نسيانًا وهذه غير نسيان ولكن عدم صبر، فقال له الخضر معاتبًا ومذكرًا: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فقال له موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ

---

(١) بل الصحيح أنه نبى بدليل قوله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ يعنى أنه أوحى إليه فعل ما فعل، من خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار، والوحى لا ينزل إلا على نبى، هذا هو التحقيق فى هذه المسألة.

عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أى بعد هذه المرة ﴿فَلا تُصَاحِبْنِي﴾ أى: فأنت معذور بذلك وبترك صحبتى ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أى: أعذرت مني ولم تقصر ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ أى: استضافاهم ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أى: عاب واستهدم ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر أى: بناه وأعاده جديدًا، فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى: أهل هذه القرية لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم وأنت تبنيه من دون أجرة وأنت تقدر عليها؟ فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال واستعذر الخضر منه فقال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ فإنك شرطت ذلك على نفسك فلم يبق الآن عذر ولا موضع للصحبة ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أى: سأخبرك بما أنكرت عليَّ وأنبئك بأن لى فى ذلك من المآرب وما يئول إليه الأمر ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التى خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ يقتضى ذلك الرقة عليهم والرأفة بهم ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أى: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم فكل سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب غصبها وأخذها ظلمًا فأردت أن أخرقها ليكون فيها عيب فتسلم من ذلك الظالم ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذى قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وكان ذلك الغلام قد قدر عليه أنه لو بلغ لأرهق أبويه طغيانًا وكفـرًا، أى: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهما إياه أو للحاجة إليـه يحملهما على ذلك، أى: فقتلتـه لاطلاعى على ذلك، سلامةً لدين أبويه المؤمنين وأى فـائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟! وهو وإن كان فيـه إساءة إليهما وقطع لذريتهـما فإن الله تعالى سيعـطيهما من الذرية ما هو خيـر منه ولهذا قال: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أى: ولدًا صالحًا زكيًا واصلاً لرحمه فإن الغلام الذى قتل لو بلغ لعقهما أشد العقـوق بحملهما على الكفر والطغيان ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذى أقمـته ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أى: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما لكونهما صغيرين عدما أباهما وحفظهمـا الله أيضًا بصلاح والدهما ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ أى: فلهـذا هدمت الجدار واستخرجت ما تحته من كنزهما ورددته وأعدته مجانًا ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: هذا الذى فعلته رحمة من الله آتاها الله عبده الخضر ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أى: ما أتيت شيئًا من قبل نفسى ومجرد إرادتى وإنما[1] ذلك من رحمة الله وأمره ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى فسرته لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وفى هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير ننبه على بعضه بعون الله: فمنهـا: فضيلة العلم والرحلة فى طلبه وأنه أهم الأمور، فـإن موسى عليه السـلام رحل مسافة طويلة ولقـى النصب فى طلبه وترك القعـود عند بنى إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم واختار السفر لزيادة العلم على ذلك، ومنهـا: البداءة بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم والجمع بين الأمرين أكمل، ومنها: جواز أخذ الخادم فى الحضر والسفر لكفاية المؤن وطلب الراحة كما فعل موسى، ومنهـا: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه إذا اقـتضت المصلحة الإخبار بمطلبـه وأين يريده فإنه أكمل من كتمه، فـإن فى إظهاره فوائد من الاستعداد له واتخاذ عدته وإتيان الأمر على بصيرة وإظهار الشوق لهذه العبادة الجليلة كما قال موسى: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ وكما أخبر النبى ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه مع أن عادته التورية وذلك تبع للمصلحة، ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل والتزيين وإن كان الكل بقضاء الله وقدره لقول فتى موسى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس من نصب وجوع أو عطش إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقًا لقول موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ ومنها: استحباب كون خادم الإنسان ذكيًا فطنًا كيسًا ليتم له أمره الذى يريده، ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله وأكلهـما جميعًا لأن ظاهر قوله: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ إضافة إلى الجـميع أنه أكل هو وهو جميعًا، ومنهـا: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به وأن الموافق لأمر الله يعان ما لا يعان غيره لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول فلم

(١) قوله «إنما ذلك الخ» الصحيح أن يقال «وإنما ذلك وحى من الله أوحاه إليَّ».

يشتك منه التعب مع طوله لأنه هو السفر على الحقيقة، وأما الأخير فالظاهر أنه بعض يوم لأنهم فقدوا الحوت حتى أووا إلى الصخرة فالظاهر أنهم باتوا عندها ثم ساروا من الغد حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه: ﴿آتنا غداءنا﴾ فحينئذ تذكر أنه نسيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده، ومنها: أن ذلك العبد الذي لقياه ليس نبيًا بل عبدًا صالحًا لأنه وصفه بالعبودية وذكر منة الله عليه بالرحمة والعلم ولم يذكر رسالته ولا نبوته ولو كان نبيًا لذكر ذلك كما ذكره غيره، وأما قوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي[1] وإنما يدل على الإلهام والتحديث كما يكون لغير الأنبياء كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ ومنها: أن العلم الذي يعلمه علم مكتسب يدركه العبد بجهده واجتهاده، ونوع علم لدني يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ومنها: التأدب مع المعلم وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة وأنك هل تأذن لي في ذلك أم لا وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر الذين لا يظهرون للمعلم افتقارهم إلى علمه بل يدعون أنه يتعاونون هم وإياه بل ربما ظن أحدهم أنه يعلم معلمه وهو جاهل جدًا فالذل للمعلم وإظهار الحاجة إلى تعليمه من أنفع شيء للمتعلم، ومنها: تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه فإن موسى - بلا شك - أفضل من الخضر، ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه ممن مهر فيه وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده فلهذا حرص على التعلم منه، فعلى هذا لا ينبغي للفقيه المحدث إذا كان قاصرًا في علم النحو أو الصرف أو نحوهما من العلوم أن لا يتعلمه ممن مهر فيه وإن لم يكن محدثًا ولا فقيهًا، ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى والإقرار بذلك وشكر الله عليها لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: مما علمك الله تعالى، ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطريق الخير وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة لذلك فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك فإما أن يكون ضارًا أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم وحسن الثبات على ذلك أنه ليس بأهل لتلقي العلم، فمن لا صبر له لا يدرك العلم ومن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى فيه لقول الخضر - يعتذر عن موسى بذكر المانع لموسى في الأخذ عنه: إنه لا يصبر معه، ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علمًا وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه وإلا فالذي لا يدريه أو لا يدري غايته ولا نتيجته ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبرًا بالأمر، ومنها: الأمر بالتأني والتثبت وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء حتى يعرف ما يراد منه وما هو المقصود، ومنها: تعليق الأمور المستقبلة التي من أفعال العباد بالمشيئة وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل إلا أن يقول: «إن شاء الله» ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل، ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها فإن المصلحة تتبع كما إذا كان فهمه قاصرًا أو نهاه عن الدقيق في سؤال

---

(١) قوله «فإنه لا يدل على أنه نبي الخ» سبق أن قلنا إن التحقيق أنه نبي، ونزيد هنا ما قاله أبو السعود في تفسيره ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ التنكير للتفخيم، والإضافة للتشريف، والجمهور على أنه الخضر واسمه بليا بن ملكان، وقيل: اليسع، وقيل: إلياس عليهم الصلاة والسلام ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وهي الوحي والنبوة كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ خاصًا لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب. اهـ. ونزيد ثانيًا أن الله قال ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فلما أظهر الخضر على علم الغيب دل على أنه رسول بنص بالآية التي ذكرناها، لأنه تعالى خصص إظهار علم بالغيب وحصره في المرسلين وغيرهم لا يطلعه على شيء من علم الغيب، وتنظير المؤلف ما أوحاه الله إلى الخضر بالوحي إلى النحل وبالوحي إلى أم موسى بعيد كل البعد عن مسألة الخضر فإن الوحي إلى النحل وإلى أم موسى ليس من الأمور الغيبية حتى يستقيم التنظير.

الأشياء التى غيرها أهم منها أو لا يدركها ذهنه أو يسأل سؤالاً لا يتعلق بموضع البحث، ومنها: جواز ركوب البحر فى غير الحالة التى يخاف منها، ومنها: أن الناسى غير مؤاخذ بنسيانه لا فى حق الله ولا فى حقوق العباد لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ ومنها: أنه ينبغى للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها وما سمحت به أنفسهم ولا ينبغى له أن يكلفهم ما لا يطيقون أو يشق عليهم ويرهقهم فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسآمة بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر، ومنها: أن الأمور تجرى أحكامها على ظاهرها وتعلق بها الأحكام الدنيوية فى الأموال والدماء وغيرها، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة وقتل الغلام وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها فى غير هذه الحال التى صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام وبادر إلى الحكم فى حالتها العامة ولم يلتفت إلى هذا العارض الذى يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار، ومنها: القاعدة[1] الكبيرة الجليلة وهو أنه «يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير» ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شر ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شرًا منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته وإن كان يظن أنه خير فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانهما خير من ذلك فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر فتزاحم المصالح والمفاسد كلها داخل فى هذا، ومنها القاعدة الكبيرة أيضًا وهى أن «عمل الإنسان فى مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالم» فعلى هذا لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما فى دار إنسان أو ماله وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقى جاز للإنسان بل شرع له ذلك حفظًا لمال الغير وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقى جاز ولو من غير إذن، ومنها: أن العمل يجوز فى البحر كما يجوز فى البر لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم عملهم، ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين لهم سفينة، ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب لقوله فى قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ ومنها: أن القتل قصاصًا غير منكر لقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله فى نفسه وفى ذريته، ومنها: أن خدمة الصالحين أو من يتعلق بهم أفضل من غيرها لأنه علل استخراج كنزهما وإقامة جدارهما بأن أباهما صالح، ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى فى الألفاظ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وأما الخير فأضافه إلى الله تعالى لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ مع أن الكل بقضاء الله وقدره، ومنها: أنه ينبغى للصاحب أن لا يفارق صاحبه فى حالة من الأحوال ويترك صحبته حتى يعتبه ويعذر منه كما فعل الخضر مع موسى، ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه فى غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

---

(١) وردت هذه القاعدة فى مجلة القوانين الشرعية والأحكام العدلية فى المادة (٢٧) بالصيغة الآتية: الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف» وفى المادة (٢٨). «إذا تعارضت مفسدتان روعى أعظمها ضررًا بارتكاب أخفهما» وساق الشرح لذلك أمثلة: منها: لو أشرفت سفينة على الغرق وكان فى طرح المال سلامة النفوس يطرح فى البحر من المال قدر ما يسلمها من الغرق، ومنها: حبس الأب لو امتنع عن الإنفاق على ولده غير المكتسب، ومنها: لو ابتلعت دجاجة لؤلؤة، ينظر إلى أكثرهما قيمة، فيضمن صاحب الأكثر قيمة الأقل.

كان أهل الكتاب أو المشركون سألوا رسـول الله ﷺ عن قصة ذى القرنين فأمره الله أن يقول: ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ فيه نبأ مفيد وخطاب عجيب، أى: سأتلوا عليكم من أحواله ما يتذكر فيه ويكون عبرة وأما ما سوى ذلك من أحواله فلم يتله عليهم ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: ملكه الله تعالى ومكنه من النفوذ فى أقطار الأرض وانقيـادهم له ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أى: أعطاه الله من الأسباب الموصلـة له لما وصل إليه ما به يستعين على قهر البلدان وسهولة الوصول إلى أقاصى العمران، وعمل بتلك الأسباب التى أعطاه الله إياها، أى: استعملهـا على وجهها فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه ولا كل أحـد يكون قادرًا على السبب، فإذا اجتـمعت القدرة عـلى السبب الحقـيقى والعمـل به حصل المقـصود وإن عدمـا أو أحدهمـا لم يحصل، وهذه الأسبـاب التى أعطاه الله إياها لم يخبرنا الله ولا رسـوله بها ولم تتناقلها الأخـبار على وجه يفيـد العلم فلهذا لا يسعنا غير السكوت عنها وعـدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها ولكننـا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيـرة داخلية وخاجية بها صـار له جند عظيم ذو عَدَد وعُدَد ونظام وبه تمكن من قهر الأعـداء ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها، فأعطاه اللهُ ما بلغ به مغرب الشمس حتى رأى الشمس فى مرأى العين كأنها تغرب فى عـين حمئة، أى: سوداء وهذا هو المعتاد لمن كـان بينه وبين أفق الشمس الغربى ماء رآها تغرب فى نفس الماء وإن كانت فى غاية الارتفاع ووجـد عندها، أى: عند مغربها قومًا ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أى: إما أن تعذبهم بقتل أو ضرب أو أسر ونحوه وإما أن تحسن إليهم، فَخُيِّر بين الأمرين لأن الظاهر أنهم كفار أو فساق أو فيـهم شيء من ذلك، لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق لم يُرَخَّص له فى تعذيبهم فكان عند ذى القـرنين من السياسة الشرعيـة ما استحق به المدح والثناء لتوفـيق الله له لذلك فقال: سأجعلهم قـسمين ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ بالكفـر ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أى: تحـصل له العقوبتان: عقـوبة الدنيا وعقوبة الآخرة ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾ أى: فله الجنة والحـالة الحسنة عند الله جزاء يوم القـيامة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أى: وسنحسن إليه ونلطف له بالقـول ونيسر له المعاملة، وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين الأولياء العـادلين العالمين حيث وافق مرضاة الله فى معاملة كل أحد بما يليق بحاله.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

أى: لما وصل إلى مغرب الشمس كَرَّ راجعًا قاصدًا مطلعها متبعًا للأسباب التى أعطاه الله فوصل إلى مطلع الشمس فـ ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أى: وجدها تطلع على أناس ليس لهم ستر من الشمس إما لعدم استـعدادهم فى المساكن وذلك لزيادة همجيتهم وتوحشـهم وعدم تمدنهم، وإما لكون الشمس دائمة عندهم لا تغرب غروبًا يذكر كما يوجد ذلك فى شرقى أفريقيا الجنوبى، فوصل إلى موضع انقطع عنه علم أهل الأرض فضلاً عن وصولهم إليه بأبدانهم ومع هذا فكل هذا بتقدير الله له وعلمه به ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا﴾ بما عنده من الخير والأسباب العظيمة وعلمنا معه حيثما توجه وسار ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ قال المفسرون: ذهب متوجهًا من المشرق قـاصدًا للشمال فوصل إلى ما بين السدين وهما سدان كانا معروفين فى ذلك الزمان سدان من سلاسل الجبال المتـصلة يَمْنَةً ويَسْرَةً حتى تتصل بالبحار بين يأجوج ومأجوج

وبين الناس، وجد من دون السدين قومًا لا يكادون يفقهون قولاً لعجمة ألسنتهم واستعجام أذهانهم وقلوبهم وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فقه به ألسنة أولئك القوم وفقههم وراجعهم وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج وهما: أمتان عظيمتان من بنى آدم فقالوا: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أى: جُعْلاً ﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد وعرفوا اقتدار ذى القرنين عليه فبذلوا له أجرة ليفعل ذلك وذكروا له السبب الداعى وهو: إفسادهم فى الأرض، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ولا رغبة فى الدنيا ولا تاركًا لإصلاح أحوال الرعية بل قصده الإصلاح فلذلك أجاب طلباتهم لما فيها من المصلحة ولم يأخذ منهم أجرة وشكر ربه على تمكينه واقتداره فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أى: مما تبذلون لى وتعطونى وإنما أطلب منكم أن تعينونى بقوة منكم بأيديكم ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أى: مانعًا من عبورهم عليكم ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أى: قطع الحديد فأعطوه ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أى: الجبلين اللذين بنى بينهما السد ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أى: أوقدوها إيقادًا عظيمًا واستعملوا لها المنافيخ لتشتد فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس الذى يريد أن يلصقه بين زبر الحديد ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أى: نحاسًا مذابًا فأفرغ عليه القطر فاستحكم السد استحكامًا هائلاً وامتنع به مَنْ وراءه من الناس من ضرر يأجوج ومأجوج ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أى: فما لهم استطاعة ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه ولا على نقبه لإحكامه وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل أضاف النعمة إلى موليها وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أى: من فضله وإحسانه علىَّ وهذه حال الخلفاء والصالحين إذا مَنَّ الله عليهم بالنعم الجليلة ازداد شكرهم وإقرارهم واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو فى الأرض فإن النعم الكبار تزيدهم أشرًا وبطرًا كما قال قارون لما آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أى: لخروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُ﴾ أى: ذلك السد المحكم المتقن ﴿دَكَّاءَ﴾ أى: دكه فانهدم واستوى هو والأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج وأنهم إذا خرجوا على الناس - من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها - يموج بعضهم ببعض كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة وأنهم يجتمعون فيه ويكثرون ويموج بعضهم ببعض من الأهوال والزلازل العظام بدليل قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أى: إذا نفخ إسرافيل فى الصور أعاد الله الأرواح إلى الأجساد ثم حشرهم وجمعهم لموقف القيامة الأولين منهم والآخرين والكافرين والمؤمنين ليسألوا ويحاسبوا ويجزوا بأعمالهم فأما الكافرون، على اختلافهم، فإن جهنم جزاؤهم خالدين فيها أبدًا، ولهذا قال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ أى: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها وحميمها وزمهريرها وليذوقوا من العقاب ما تبكم له القلوب وتصم الآذان وهذا آثار أعمالهم وجزاء أفعالهم، فإنهم فى الدنيا ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أى: معرضين عن الذكر الحكيم والقرآن الكريم وقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ وفى أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أى: لا يقدرون على سمع آيات الله الموصلة إلى الإيمان لبغضهم القرآن والرسول فإن المبغض لا يستطيع أن يلقى سمعه إلى كلام من أبغضه فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير

فليس لهم سمع ولا بصر ولا عقل نافع فقد كفروا بالله وجحدوا آياته وكذبوا رسله فاستحقوا جهنم وساءت مصيراً.

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ ﴾

وهذا برهان وبيان لبطلان دعوى المشركين الكافرين الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء شركاء لله يعبدونهم ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء ينجونهم من عذاب الله وينيلونهم ثوابه وهم قد كفروا بالله وبرسوله، يقول الله لهم على وجه الاستفهام والإنكار المتقرر بطلانه في العقول: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ أي: لا يكون ذلك ولا يوالي وليُّ الله معاديًا لله أبدًا فإن الأولياء موافقون لله في محبته ورضاه وسخطه وبغضه، فيكون على هذا المعنى مشابهًا لقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ فمن زعم أنه يتخذ وليَّ الله وليًا له وهو معاد لله فهو كاذب، ويحتمل ـ وهو الظاهر ـ أن المعنى: أفحسب الكفار بالله المنابذون لرسله أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم وينفعونهم من دون الله ويدفعون عنهم الأذى؟ هذا حسبان باطل وظن فاسد فإن جميع المخلوقين ليس بيدهم من النفع والضر شيء، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً ﴾ ﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ ونحو ذلك من الآيات التي يذكر الله فيها أن المتخذ من دونه وليًا ينصره ويواليه ضال خائب الرجاء غير نائل لبعض مقصوده ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾ أي: ضيافة وقرى، فبئس النزل نزلهم وبئست جهنم ضيافتهم.

﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

أي: قل يا محمد للناس، على وجه التحذير والإنذار: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً على الإطلاق؟ ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي: بطل واضمحل كل ما عملوه من عمل وهم يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة وأنها محادة لله ورسله ومعاداة؟!! فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة؟ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ﴾ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانية الدالة على وجوب الإيمان به وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر ﴿ فَحَبِطَتْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ لأن الوزن فائدته مقابلة الحسنات بالسيئات والنظر في الراجح منها والمرجوح وهؤلاء لا حسنات لهم لعدم شرطها وهو: الإيمان كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ لكن تعد أعمالهم وتحصى ويقررون بها ويخزون بها على رءوس الأشهاد ثم يعذبون عليها ولهذا قال: ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ ﴾ أي: حبوط أعمالهم وأنه لا يقام لهم يوم القيامة وزنٌ لحقارتهم وخستهم بكفرهم بآيات الله واتخاذهم آياته ورسله هزواً يستهزئون بها ويسخرون منهم مع أن الواجب في آيات الله ورسوله الإيمان التام بها والتعظيم لها والقيام بها أتم القيام وهؤلاء عكسوا القضية فانعكس أمرهم وتعسوا وانتكسوا في العذاب، ولما بيَّن مآل الكافرين وأعمالهم بيَّن أعمال المؤمنين ومآلهم فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ ﴾

أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم وشمل هذا الوصف جميع الدين عقائده وأعماله أصوله وفروعه الظاهرة والباطنة، فهؤلاء ـ على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح ـ لهم جنات الفردوس، يحتمل أن المراد بجنات الفردوس أعلى الجنة ووسطها وأفضلها وأن هذا الثواب لمن كمل فيه الإيمان

والعمل الصالح وهم الأنبياء والمقربون، ويحتمل أن يراد بها جميع منازل الجنان فيشمل هذا الثواب جميع طبقات أهل الإيمان من المقربين والأبرار والمقتصدين كُلٌّ بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس وأن الفردوس يطلق على البستان المحتوى على الكرم أو الأشجار الملتفة وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نُزُلٌ وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأى ضيافة أجل وأكبر وأعظم من هذه الضيافة المحتوية على كل نعيم للقلوب والأرواح والأبدان وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من المنازل الأنيقة والرياض الناضرة والأشجار المثمرة والطيور المغردة المشجية والمآكل اللذيذة والمشارب الشهية والنساء الحسان والخدم والولدان والأنهار السارحة والمناظر الرائقة والجمال الحسى والمعنوى والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجله التنعم بالقرب من الرحمن ونيل رضاه الذى هو أكبر نعيم الجنان والتمتع برؤية وجهه الكريم وسماع كلام الرءوف الرحيم، فلله تلك الضيافة ما أجلها وأجملها وأدومها وأكملها!! وهى أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علمًا حقيقيًا يصل إلى قلوبهم لطارت إليها قلوبهم بالأشواق ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق ولساروا إليها زرافات ووحدانًا ولم يؤثروا عليها دنيا فانية ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتًا تذهب ضائعة خاسرة يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت والإيمان ضعف والعلم قَلَّ والإرادة وهَتْ فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ هذا هو تمام النعيم إن فيها النعيم الكامل ومن تمامه أنه لا ينقطع ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ أى: تحولاً ولا انتقالاً لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم ويسرهم ويفرحهم ولا يرون نعيمًا فوق ما هم فيه.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

أى: قل لهم مخبرًا عن عظمة البارى وسعة صفاته وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ أى: هذه الأبحر الموجودة فى العالم ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى﴾ أى: وأشجار الدنيا من أولها إلى آخرها من أشجار البلدان والبرارى والبحار أقلام ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ وتكسرت الأقلام ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى﴾ وهذا شيء عظيم لا يحيط به أحد، وفى الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنۢ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان لأن هذه الأشياء مخلوقة وجميع المخلوقات منقضية منتهية، وأما كلام الله فإنه من جملة صفاته وصفاته غير مخلوقة ولا لها حد ولا منتهى، فأى سعة وعظمة تصورتها القلوب فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين أهل السموات وأهل الأرض لكان بالنسبة إلى علم العظيم أقل[1] من نسبة عصفور وقع على حافة البحر فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن الله له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

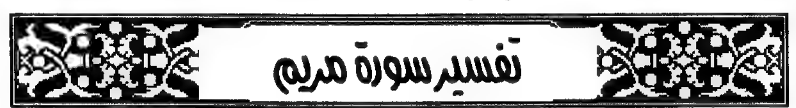
أى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى: لست بإله ولا لى شركة فى الملك ولا علم بالغيب ولا عندى خزائن الله ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ عبد من عبيد ربى ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أى: فضلت عليكم بالوحى الذى يوحيه إلى الذى أجَلُّهُ الإخبار لكم أنما إلهكم إله واحد، أى: لا شريك له ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة، وأدعوكم إلى العمل الذى يقربكم منه وينيلكم ثوابه ويدفع عنكم عقابه ولهذا قال:

---

(١) قوله «أقل من نسبة عصفور... إلخ» لا يخفى ما فى هذا التعبير من الخلل، ولو قال «أقل من نسبة نقطة إلى البحر أخذها عصفور منه بمنقاره» لكان أوجز وأوضح.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ وهو الموافق لشرع الله من واجب ومستحب ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أى: لا يرائى بعمله بل يعمله خالصًا لوجه الله تعالى فهذا الذى جمع بين الإخلاص والمتابعة هو الذى ينال ما يرجو ويطلب وأما من عدا ذلك فإنه خاسر فى دنياه وأخراه وقد فاته القرب من مولاه ونيل رضاه.

آخر سورة الكهف، ولله الحمد



تفسير سورة مريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كهيعص ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾

أى: هـذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ سنقصه عليك ونفصله تفصيـلاً يعرف به حالة نبيه زكريا وآثاره الصالحة ومناقبه الجميلة، فإن فى قصها عبرة للمعتبرين وأسوة للمقتدين، ولأن فى تفصيل رحمته لأوليائه وبأى سبب حصلت لهم مما يدعو إلى محبة الله تعالى والإكثار من ذكره ومعرفته والسبب الموصل إليه، وذلك أن الله تعالى اجتبى واصطفى زكريا عليه السـلام لرسالته وخصه بوحيه فقام بذلك قيام أمـثاله من المرسلين ودعا العباد إلى ربه وعلمهم ما علمه الله ونصح لهم فى حياته وبعد مماته كإخوانه من المرسلين ومن اتبعهم، فلما رأى من نفسـه الضعف وخاف أن يمـوت ولم يكن أحد ينوب منابه فى دعـوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن وناداه نداء خفيًا ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصًا فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أى: وَهَن وضعف وإذا ضعـف العظم الذى هو عماد البدن ضـعف غيره ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ لأن الشـيب دليل الضعف والكبر ورسول المـوت ورائده ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفـه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله لأنه يدل على التبرّى من الحول والقوة وتعلق القلب بحول الله وقوته ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أى: لم تكن يا رب تردنى خائبًا ولا محرومًا من الإجابة بل لم تزل بى حفيًا ولدعائى مجيبًا ولم تزل ألطافك تتوالى علىَّ وإحسانك واصـلاً إلىَّ وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه وإجابة دعـواته السابقة فسأل الذى أحـسن سابقًا أن يتمم إحسانه لاحقًا ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ أى: وإنى خفت من يتولى على بنى إسرائيل من بعد موتى أى: لا يقوموا بدينك حق القـيام ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا أنه لم ير فـيهم أحدًا فيه لياقـة للإمامة فى الدين، وهذا فيـه شفقـة زكريا عليه السلام ونـصحه وأن طلبه للولد لـيس كطلب غيره قصـده مجرد المـصلحة الدنيوية وإنمـا قصده مصلحـة الدين والخوف من ضياعـه ورأى غيره غير صـالح لذلك، وكان بيته مـن البيوت المشهورة فى الدين ومعدن الرسالة ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدًا يقوم بالدين من بعده واشتكى أن امرأته عاقر أى: ليست تلد أصـلاً وأنه قد بلغ من الكبر عتيًا أى: عمرًا يندر مـعه وجود الشهوة والولد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ وهذه الولاية ولاية الدين وميراث النبـوة والعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أى: عبدًا صالحًا ترضاه وتحببه إلى عبادك، والحاصل أنه سأل الله ولدًا ذكرًا صالحًا يبقى بعد موته ويكون وليًا من بعده ويكـون نبيًا مرضيًا عند الله وعند خلقه، وهذا أفـضل ما يكون من الأولاد ومن رحمة الله بعبده أن يرزقه ولدًا صالحًا جامعًا لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم فرحمه ربه واستجاب دعوته فقال:

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ

شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾

أى: بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ «يحيى» وسماه الله له «يحيى» وكان اسمًا موافقًا لمسماه: يحيا حياة حسية فتتم به المنة ويحيا حياة معنوية وهى حياة القلب والروح بالوحى والعلم والدين ﴿**لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**﴾ أى: لم يسم هذا الاسم قبله أحد ويحتمل أن المعنى: لم نجعل له من قبل مثيلاً ومساميًا فيكون بشارة بكماله واتصافه بالصفات الحميدة وأنه فاق من قبله ولكن على هذا الاحتمال[1] هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصًا بإبراهيم وموسى ونوح عليهم الصلاة والسلام ونحوهم ممن هو أفضل من يحيى قطعًا، فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود الذى طلبه استغرب وتعجب وقال: ﴿**رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ**﴾ والحال أن المانع من وجود الولد موجود بى وبزوجتى؟ وكأنه وقت دعائه لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد فى قلبه وشدة الحرص العظيم على الولد، وفى هذه الحال حين قبلت دعوته تعجب من ذلك فأجابه الله بقوله: ﴿**كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**﴾ أى: الأمر مستغرب فى العادة وفى سنة الله فى الخليقة ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاده بدون أسبابها فذلك هين عليه ليس بأصعب من إيجاده قَبْلُ ولم يكن شيئًا ﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً**﴾ أى: يطمئن بها قلبى وليس هذا شكًا فى خبر الله، وإنما هو كما قال الخليل عليه السلام: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ فطلب زيادة العلم والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين فأجابه الله إلى طلبته رحمة به ﴿**قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا**﴾ وفى الآية الأخرى: ﴿**ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا**﴾ والمعنى واحد لأنه تارة يعبر بالليالى وتارة بالأيام ومؤداها واحد، وهذا من الآيات العجيبة فإن منعه من الكلام مدة ثلاث أيام وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة بل كان سويًا لا نقص فيه ـ من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد ـ ومع هذا ممنوع من الكلام الذى يتعلق بالآدميين وخطابهم، وأما التسبيح والذكر ونحوه فغير ممنوع منه، ولهذا قال فى الآية الأخرى: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**﴾ فاطمأن قلبه واستبشر بهذه البشارة العظيمة وامتثل لأمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فعكف فى محرابه وخرج على قومه منه فأوحى إليهم، أى: بالإشارة والرمز ﴿**أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾ لأن البشارة بـ «يحيى» فى حق الجميع مصلحة دينية.

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ ﴾

دل الكلام السابق على ولادة يحيى وشبابه وتربيته، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة أى: بجد واجتهاد وذلك بالاجتهاد فى حفظ ألفاظه وفهم معانيه والعمل بأوامره ونواهيه هذا تمام أخذ الكتاب بقوة فامتثل أمر ربه وأقبل على الكتاب فحفظه وفهمه وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة ما لا يوجد فى غيره، ولهذا قال: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾ ﴿**وَ**﴾ آتيناه أيضًا ﴿**حَنَانًا مِّن لَّدُنَّا**﴾ أى: رحمة ورأفة تيسرت بها أموره وصلحت بها أحواله واستقامت بها أفعاله ﴿**وَزَكَاةً**﴾ أى: طهارة من الآفات والذنوب فطهر قلبه وتزكى عقله وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة والأخلاق الرديئة وزيادة الأخلاق الحسنة والأوصاف المحمودة ولهذا قال: ﴿**وَكَانَ تَقِيًّا**﴾ أى: فاعلاً للمأمور تاركًا للمحظور، ومن كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا وكان من أهل الجنة التى أعدت للمتقين وحصل له من الثواب الدنيوى والأخروى ما رتبه الله على التقوى ﴿**وَ**﴾ كان أيضًا ﴿**بَرًّا بِوَالِدَيْهِ**﴾ أى: لم يكن عاقًا ولا مسيئًا إلى أبويه بل كان محسنًا إليهما بالقول والفعل ﴿**وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا**﴾ أى: لم يكن متجبرًا متكبرًا عن عبادة الله ولا مترفعًا على عباد الله ولا على والديه، فجمع بين القيام

---

(١) قوله (ولكن على هذا الاحتمال هذا العموم الخ) تعبير قلق، ولو قال «ولكن هذا الاحتمال عام لا بد أن يخصص لئلا يلزم المحذور لأنه يلزم أنه أفضل من نوح وإبراهيم وموسى، والواقع أنهم أفضل من يحيى» لكان أسلس أسلوبًا وأوضح للمعنى.

بحق الله وحق خلقه ولهذا حصلت له السلامة من الله فى جميع أحـواله مبادئها وعواقبها، فلذا قال: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ وذلك يقتضى سـلامته من الشيطان والشر والعـقاب فى هذه الأحوال الثلاثة وما بينها وأنه سالم من النار والأهوال ومن أهل دار السلام، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين وجعلنا من أتباعهم إنه جواد كريم.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

لما ذكر قصة زكريا ويحيى وكانت من الآيات العجيبة انتقل منها إلى ما هو أعجب منها تدريجًا من الأدنى إلى الأعلى فقال: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ ﴾ الكـريم ﴿ مَرْيَمَ ﴾ عليها السلام وهذا من أعظم فضائلها أن تذكر فى الكتاب العظيم الذى يتلوه المـسلمون فى مشارق الأرض ومغاربهـا، تذكر فيه بأحسن الذكـر وأفضل الثناء جزاء لعملها الفاضل وسعيها الكامل، أى: واذكر فى الكتاب مريم فى حالها الحسنة حين ﴿ انتَبَذَتْ ﴾ أى: تباعدت عن أهلها ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أى: مما يلى الشرق عنهم ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ أى: سترًا ومانعًا، وهذا التباعد منها واتخـاذ الحجاب لتعتزل وتنفرد بعبادة ربها وتقنت له فى حـالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى وذلك امتثال منها لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ وهو: جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أى: كاملاً من الرجال فى صورة جميلة وهيئة حسنة لا عيب فيه ولا نقص لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رأته فى هذه الحال وهى معتزلة عن أهلها منفردة عن الناس قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلهـا خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء وطمع فـيها فاعتصمت بربهـا واستعاذت منه فقالت له: ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ ﴾ أى: ألتجئ به واعتصم برحمته أن تنالنى بسوء ﴿ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أى: إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه فاترك التعرض لى، فجمـعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى وهى فى تلك الحـالة الخالية والشباب والبـعد عن الناس، وهو فى ذلك الجمال البـاهر والبشرية الكاملة السوية ولم ينطق لها بسوء أو يتـعرض لها، وإنما ذلك خوف منها وهذا أبلغ ما يكون من العـفة والبعد عن الشر وأسبابه وهذه العـفة - خصوصًا مع اجتـماع الدواعى وعدم المانع - من أفضل الأعمـال، ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ فأعاضها الله بعفتها ولدًا من آيات الله ورسولاً من رسله، فلما رأى جبريل منها الروع والخيفة قال: ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أى: إنما وظيفتى وشغلى تنفيذ رسالة ربى فيك ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه فإن الزكاء يستلزم تطهـيره من الخصال الذميمـة واتصافه بالخصال الحميـدة، فتعجبت من وجـود الولد من غير أب فقالت: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ والولد لا يوجد إلا بذلك؟ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ تدل على قدرة الله تعالى وعلى أن الأسباب جميعـها لا تستقل بالتأثير وإنما تأثيرها بتقدير الله فيرى عباده خرق العوائد فى بعض الأسبـاب العادية لئلا يقفوا مع الأسباب ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ ولنجعله رحمة منا به وبوالدته وبالناس، أما رحمة الله به فلما خصه الله بوحيه ومَنَّ عليه بما منَّ به على أولى العزم، وأما رحمته بوالدته فلمَا حـصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة، وأما رحمته بالناس فـإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فـيهم رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمـهم الكتاب والحكمة فيؤمنون به ويطيعونه وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة ﴿ وَكَانَ ﴾ أى: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ قضاء سابقًا فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء فنفخ جبريل عليه السلام فى جيبها.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) ﴾

أي: لما حملت بعيسى عليه السلام خافت من الفضيحة فتباعدت عن الناس ﴿**مَكَانًا قَصِيًّا**﴾ فلما قرب ولادها ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما آلمها وجع الولادة ووجع الانفراد عن الطعام والشراب ووجع قلبها من قالة الناس وخافت عدم صبرها تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث وكانت نسيًا منسيًا فلا تذكر، وهذا التمنى بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل فحينئذ سكَّن الملك روعها[1] وثبَّت جأشها[2] وناداها من تحتها لعله من مكان أنزلَ من مكانها وقال لها: لا تحزني أي: لا تجزعى ولا تهتمى فـ ﴿**قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا**﴾ أى: نهرًا تشربين منه ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**﴾ أى: طريًا لذيذًا نافعًا ﴿**فَكُلِي**﴾ من التمر ﴿**وَاشْرَبِي**﴾ من النهر ﴿**وَقَرِّي عَيْنًا**﴾ بعيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة وحصول المأكل والمشرب الهنئ، وأما من جهة قالة الناس فأمرها أنها إذا رأت أحدًا من البشر أن تقول على وجه الإشارة: ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا**﴾ أى: سكوتًا ﴿**فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**﴾ أى: لا تخاطبيهم بكلام لتستريحى من قولهم وكلامهم، وكان معروفًا عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بمخاطبتهم فى نفى ذلك عن نفسها لأن الناس لا يصدقونها ولا فيه فائدة وليكون تبرئتها بكلام عيسى فى المهد أعظم شاهد على براءتها، فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج ودعواها أنه من غير أحد من أكبر الدعاوى التى لو أقيم عليها عدة من الشهود لم تصدق بذلك فجعلت بينة هذا الخارق للعادة أمرًا من جنسه وهو كلام عيسى فى حال صغره جدًا، ولهذا قال تعالى:

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾

أى: فلما تعلت مريم من نفاسها أتت بعيسى قومها تحمله وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها فأتت غير مبالية ولا مكترثة، فقالوا: ﴿**لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا**﴾ أى: عظيمًا وخيمًا وأرادوا بذلك: البغاء حاشاها من ذلك ﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ**﴾ الظاهر أنه أخ لها حقيقى فنسبوها إليه ﴿**مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾ أى: لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر وخصوصًا هذا الشر الذى يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيا به؟ وذلك أن الذرية ـ فى الغالب ـ بعضها من بعض فى الصلاح وضده، فتعجبوا ـ بحسب ما قام بقلوبهم ـ كيف وقع منها فأشارت لهم إليه أى: كلموه، وإنما أشارت لذلك لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**﴾ فلما أشارت إليهم بتكليمه تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿**كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾ لأن ذلك لم تجر به عادة ولا حصل من

---

(١) قوله: روعها، بضم الراء، أى: قلبها، وفى المصباح «الروع» بضم الراء: الخاطر والقلب.

(٢) قوله «جأشها» أى: قلبها، قال فى النهاية: الجأش: القلب والنفس والجنان، يقال: فلان رابط الجأش، أى ثابت القلب لا يرتاع للعظائم والشدائد، وفى المختار فى الصحاح «الجأش: رواع القلب أى: خوفه، إذا اضطراب عند الفزع، ونفس الإنسان».

أحد فى ذلك السن، فحينئذ قال عيسى عليه السلام وهو فى المهد صبى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فخاطبهم بوصفه بالعبودية وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهًا أو ابنًا للإله تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى ــ فى قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ومدعون موافقته ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أى: قضى أن يؤتينى الكتاب ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فأخبرهم بأنه عبد الله وأن الله علمه الكتاب وجعله من جملة أنبيائه فهذا من كماله لنفسه، ثم ذكر تكميله لغيره، فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أى: فى أى مكان وزمان فالبركة جعلها الله فىَّ من تعليم الخير والدعوة إليه والنهى عن الشر والدعوة إلى الله فى أقواله وأفعاله، فكل من جالسه أو اجتمع به نالته بركته وسعد به مصاحبه ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أى: أوصانى بالقيام بحقوقه التى من أعظمها الصلاة وحقوق عباده التى أجلها الزكاة مدة حياتى، أى: فأنا ممتثل لوصية ربى عامل عليها منفذ لها وأوصانى أيضًا أن أبر والدتى فأحسن إليها غاية الإحسان وأقوم بما ينبغى لها لشرفها وفضلها ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أى: متكبرًا على الله مترفعًا على عباده ﴿شَقِيًّا﴾ فى دنياى وأخراى فلم يجعلنى كذلك بل جعلنى مطيعًا له خاضعًا خاشعًا متذللاً متواضعًا لعباد الله سعيدًا فى الدنيا والآخرة أنا ومن اتبعنى، فلما تم له الكمال ومحامد الخصال قال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أى: من فضل ربى وكرمه حصلت لى السلامة يوم ولادتى ويوم بعثى من الشر والشيطان والعقوبة، وذلك يقتضى سلامته من الأهوال ودار الفجار وأنه من أهل دار السلام، فهذه معجزة عظيمة وبرهان باهر على أنه رسول الله وعبد الله حقًا.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

أى: ذلك الموصوف بتلك الصفات عيسى ابن مريم من غير شك ولا مرية بل قول الحق وكلام الله الذى لا أصدق منه قيلاً ولا أحسن منه حديثًا، فهذا الخبر اليقينى عن عيسى عليه السلام وما قيل فيه مما يخالف هذا فإنه مقطوع ببطلانه، وغايته أن يكون شكًا من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أى: يشكون فيمارون بشكهم ويجادلون بخرصهم، فمن قائل عنه: أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم وتقوُّلهم علوًا كبيرًا، فـ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أى: ما ينبغى ولا يليق لأن ذلك من الأمور المستحيلة لأنه الغنى الحميد المالك لجميع الممالك فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولدًا؟ ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى: تنزه وتقدس عن الولد والنقص ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أى: من الأمور الصغار والكبار لم يمتنع عليه ولم يستصعب ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فإذا كان قدره ومشيئته نافذًا فى العالم العلوى والسفلى فكيف يكون له ولد؟ وإذا كان إذا أراد شيئًا قال له: «كن فيكون» فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟!! ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مربوب كغيره فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ الذى خلقنا وصورنا ونفذ فينا تدبيره وصرفنا تقديره ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أى: أخلصوا له العبادة واجتهدوا فى الإنابة، وفى هذا الإقرار بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية والاستدلال بالأول على الثانى، ولهذا قال: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى: طريق معتدل موصل إلى الله لكونه طريق الرسل وأتباعهم وما عدا هذا فإنه من طرق الغىِّ والضلال.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

لما بيَّن تعالى حال عيسى ابن مريم الذى لا يُشكُّ فيها ولا يمترى أخبر أن الأحزاب أى: فرق الضلال من اليهود والنصارى وغيرهم ـ على اختلاف طبقاتهم ــ اختلفوا فى عيسى عليه السلام فمن غالٍ فيه وجافٍ، فمنهم من قال: إنه الله ومنهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة، ومنهم من لم يجعله رسولاً بل رماه بأنه ولد بَغِيٍّ كاليهود، وكل هؤلاء أقوالهم باطلة وآراؤهم فاسدة مبنية على الشك والعناد والأدلة الفاسدة

والشبه الكاسدة وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ بالله ورسله وكتبه ويدخل فيهم اليهود والنصارى القائلون بعيسى قول الكفر ﴿**مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ أي: مشهد يوم القيامة الذي يشهده الأولون والآخرون أهل السموات وأهل الأرض الخالق والمخلوق، الممتلئ بالزلازل والأهوال، المشتمل على الجزاء بالأعمال، فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون وما كانوا يكتمون ﴿**أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا**﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم؟! فيقرون بكفرهم وشركهم وأقوالهم ويقولون: ﴿**رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ**﴾ ففي القيامة يستيقنون حقيقة ما هم عليه ﴿**لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ وليس لهم عذر في هذا الضلال لأنهم بين معاند ضال على بصيرة عارف بالحق صادف عنه وبين ضال عن طريق الحق متمكن من معرفة الحق والصواب ولكنه راضٍ بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله غير ساعٍ في معرفة الحق من الباطل، وتأمل كيف قال: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ بعد قوله: ﴿**فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ**﴾ ولم يقل: «فويل لهم» ليعود الضمير إلى الأحزاب لأن من الأحزاب المختلفين طائفة أصابت الصواب ووافقت الحق فقالت في عيسى: «إنه عبد الله ورسوله» فآمنوا به واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون غير داخلين في هذا بالوعيد، فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

الإنذار هو: الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب والإخبار بصفاته وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد يوم الحسرة حين يقض الأمر فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد ويسألون عن أعمالهم فمن آمن بالله واتبع رسله سعد سعادة لا يشقى بعدها ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقي شقاء لا يسعد بعده وخسر نفسه وأهله فحينئذ يتحسر ويندم ندامة تنقطع منها القلوب وتتصدع منها الأفئدة، وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته واستحقاق سخطه والنار على وجه لا يتمكن فيه من الرجوع ليستأنف العمل ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعودة إلى الدنيا؟!! فهذا قدامهم والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يخطر بقلوبهم ولو خطر فعلى سبيل الغفلة قد عمتهم الغفلة وشملتهم السكرة فهم لا يؤمنون بالله ولا يتبعون رسله قد ألهتهم دنياهم وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية، فالدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها ستذهب عن أهلها ويذهبون عنها وسيرث الله الأرض ومن عليها ويرجعهم إليه فيجازيهم بما عملوا فيها وما خسروا فيها أو ربحوا، فمن عمل خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

أجل الكتب وأفضلها وأعلاها هذا الكتاب المبين والذكر الحكيم، فإن ذُكرَ فيه الأخبار كانت أصدق الأخبار وأحقها وأنفعها، وإن ذُكرَ فيه الأمر والنهي كانت أجل الأوامر والنواهي وأعدلها وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعد والوعيد كان أصدق الأنباء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون

كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيرًا ما يبدئ ويعيد فى قصص الأنبياء الذين فضَّلهم على غيرهم ورفع قدرهم وأعلى أمرهم بسبب ما قاموا به من عبادة الله ومحبته والإنابة إليه والقيام بحقوقه وحقوق العباد ودعوة الخلق إلى الله والصبر على ذلك والمقامات الفاخرة والمنازل العالية، فذكر الله فى هذه السورة جملة من الأنبياء يأمر الله رسوله أن يذكرهم لأن فى ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم والاقتداء بهم فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ جمع الله له بين الصديقية والنبوة، فالصدِّيق: كثير الصدق فهو الصادق فى أقواله وأفعاله وأحواله المصدق بكل ما أمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب المؤثر فيه الموجب لليقين والعمل الصالح الكامل وإبراهيم عليه السلام هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة وهو الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب، وهو الذى دعا الخلق إلى الله وصبر على ما ناله من العذاب العظيم فدعا القريب والبعيد واجتهد فى دعوة أبيه مهما أمكنه، وذكر الله مراجعته إياه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ مهجنًا له عبادة الأوثان ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا﴾ أى: لم تعبد أصنامًا ناقصة فى ذاتها وفى أفعالها فلا تسمع ولا تبصر ولا تملك لعابدها نفعًا ولا ضرًا بل لا تملك لأنفسها شيئًا من النفع ولا تقدر على شىء من الدفع، فهذا برهان جلىّ دال على أن عبادة الناقص فى ذاته وأفعاله مستقبح عقلاً وشرعًا، ودل تنبيهه وإشارته أن الذى يجب ويحسن عبادة من له الكمال الذى لا ينال العباد نعمة إلا منه ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو وهو الله تعالى ﴿يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أى: يا أبت لا تحقرنى وتقول: إنى ابنك وإن عندك ما ليس عندى، بل قد أعطانى الله من العلم ما لم يعطك، والمقصود من هذا قوله: ﴿فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أى: مستقيمًا معتدلاً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته فى جميع الأحوال، وفى هذا من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى فإنه لم يقل: «يا أبت أنا عالم وأنت جاهل» أو «ليس عندك من العلم شىء» وإنما أتى بصيغة أن عندى وعندك علمًا وأن الذى وصل إلىّ لم يصل إليك ولم يأتك فينبغى لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لأن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فمن اتبع خطواته فقد اتخذه وليًا وكان عاصيًا لله بمنزلة الشيطان، وفى ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن إشارة إلى أن المعاصى تمنع العبد من رحمة الله وتغلق عليه أبوابها كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ أى: بسبب إصرارك على الكفر وتماديك فى الطغيان ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة فتنزل بمنازله الذميمة وترتع فى مراتعه الوخيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه بالأسهل فالأسهل فأخبره بعلمه وأن ذلك موجب لاتباعك إياى وأنك إن أطعتنى اهتديت إلى صراط مستقيم ثم نهاه عن عبادة الشيطان وأخبره بما فيها من المضار ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله وأنه يكون وليًا للشيطان فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقىّ فأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ فتبجح بآلهته التى هى من الأحجار والأصنام، ولام إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط والكفر الوخيم يتمدح بعبادة الأوثان ويدعو إليها ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ أى: عن شتم آلهتى ودعوتى إلى عبادة الله ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أى: قتلا بالحجارة ﴿وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ أى: لا تكلمنى زمانًا طويلاً، فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين ولم يشتمه بل صبر ولم يقابل أباه بما يكره وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أى: ستسلم من خطابى إياك بالشتم والسب وبما تكره ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أى: لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة بأن يهديك للإسلام الذى به تحصل المغفرة، فـ ﴿إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أى: رحيمًا رءوفًا بحالى معتنيًا بى، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله فلما تبين له أنه عدو لله وأنه لا يفيد فيه شيئًا ترك الاستغفار له وتبرأ منه، وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم فمن اتباع ملته سلوك طريقه فى الدعوة إلى الله بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة والانتقال من رتبة إلى رتبة والصبر على ذلك وعدم السآمة منه والصبر على ما ينال الداعى من أذى الخلق بالقول والفعل ومقابلة ذلك بالصفح والعفو بل بالإحسان القولى والفعلى، فلما أيس من قومه وأبيه قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ

اللَّه أى: أنتم وأصنامكم ﴿**وَأَدْعُو رَبِّي**﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿**عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا**﴾ أى: عسى الله أن يسعدنى بإجابة دعائى وقبول أعمالى، وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم فاتبعوا أهواءهم فلم تنجع فيهم المواعظ فأصروا فى طغيانهم يعمهون «فمن وقع فى هذه الحال فعليه»(١) أن يشتغل بإصلاح نفسه ويرجو القبول من ربه ويعتزل الشر وأهله، ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه من أشق شىء على النفس لأمور كثيرة معروفة ومنها انفراده عمن يتعزز بهم ويتكثر وكان من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه واعتزل إبراهيم قومه وقال الله فى حقه: ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا**﴾ من إسحاق ويعقوب ﴿**جَعَلْنَا نَبِيًّا**﴾ فحصل له ولهؤلاء الصالحين المرسلين إلى الناس الذين خصهم الله بوحيه واختارهم لرسالته واصطفاهم من العالمين ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُم**﴾ أى: لإبراهيم وابنيه إسحاق ويعقوب ﴿**مِّن رَّحْمَتِنَا**﴾ وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة من العلوم النافعة والأعمال الصالحة والذرية الكثيرة المنتشرة الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا**﴾ وهذا أيضًا من الرحمة التى وهبها لهم لأن الله وعد كل محسن أن ينشر له ثناء صادقًا بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب العالى(٢) غير الخفى فذكرهم ملأ الخافقين والثناء عليهم ومحبتهم امتلأت به القلوب وفاضت بها الألسنة فصاروا قدوة للمقتدين وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكارهم فى سائر العصور متجددة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

أى: واذكر فى هذا القرآن العظيم موسى بن عمران على وجه التبجيل له والتعظيم والتعريف بمقامه الكريم وزخلاقه الكاملة ﴿**إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا**﴾ قرئ بفتح اللام على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه واصطفاه على العالمين، وقرئ بكسرها على معنى أنه كان مخلصًا لله تعالى فى جميع أعماله وأقواله ونياته فوصفه الإخلاص فى جميع أحواله والمعنيان متلازمان فإن الله أخلصه لإخلاصه وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد الإخلاص منه والاستخلاص من ربه ﴿**وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا**﴾ أى: جمع الله له بين الرسالة والنبوة فالرسالة تقتضى تبليغ كلام المرسل وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع دقه وجله والنبوة تقتضى إيحاء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحى إليه، فالنبوة بينه وبين ربه والرسالة بينه وبين الخلق بل خصه الله من أنواع الوحى بأجل أنواعه وأفضلها وهو: تكليمه تعالى وتقريبه مناجيًا لله تعالى وبهذا اختص من بين الأنبياء بأنه كليم الرحمن ولهذا قال: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ**﴾ أى: الأيمن من موسى فى وقت مسيره، أو الأيمن أى: الأبرك من اليُمن والبركة، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾ ﴿**وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا**﴾ والفرق بين النداء والنجاء أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفى هذا إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه من النداء والنجاء كما هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافًا لمن أنكر ذلك من الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم، وقوله: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا**﴾ هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه ونصحه لأخيه هارون أنه سأل ربه أن يشركه فى أمره وأن يجعله رسولاً مثله فاستجاب الله له ذلك ووهب له من رحمته أخاه هارون نبيًا، فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام فساعده على أمره وأعانه عليه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

---

(١) ما بين القوسين، زيادة يقتضيها المقام، لينتظم الكلام.

(٢) قوله «العالى» هكذا فى الأصل، ولو قال «الظاهر» بدل «العالى» لكان هو الصواب، ولظهر جمال الطباق بين المتضادين وهما «الظاهر» و «الخفى».

أى: واذكر فى القرآن الكريم هذا النبى العظيم الذى خرج منه الشعب العربى أفضل الشعوب وأجلها الذين منهم سيد ولد آدم ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أى: لا يعد وعداً إلا وفى به وهذا شامل للوعد الذى يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وفَّى بذلك ومكَّن أباه من الذبح الذى هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان ثم وصفه بالرسالة والنبوة التى هى أكبر منن الله على عبده وجعله من الطبقة العليا من الخلق ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أى: كان مقيمًا لأمر الله على أهله فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد فكمل نفسه وكمل غيره وخصوصًا أخص الناس عنده وهم أهله لأنهم أحق بدعوته من غيرهم ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضى ربه واجتهاده فيهما يرضيه ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين فرضى الله عنه ورضى هو عن ربه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

أى: اذكر فى الكتاب على وجه التعظيم والإجلال والوصف بصفات الكمال ﴿إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ جمع الله له بين الصديقية الجامعة للتصديق التام والعلم الكامل واليقين الثابت والعمل الصالح وبين اصطفائه لوحيه واختياره لرسالته ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أى: رفع الله ذكره فى العالمين ومنزلته بين المقربين فكان عالى الذكر عالى المنزلة.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾

لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين وخواص المرسلين وذكر فضائلهم ومراتبهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ أى: أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق ومنَّة لا تسبق من النبوة والرسالة وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم وأن من أطاع الله كان ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية، وأن بعضهم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أى: من ذريته ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ فهذه خير بيوت العالم اصطفاهم الله واختارهم واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب والإخبار باليوم الآخر والوعد والوعيد ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أى: خضعوا لآيات الله وخشعوا لها وأثرت فى قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صمًا وعميانًا، وفى إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ دلالة على أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق وبصَّرهم من العمى وأنقذهم من الضلالة وعلمهم من الجهالة.

﴿۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء وهم المخلصون المتبعون لمراضى ربهم المنيبون إليه ذكر من أتى بعدهم وبدَّلوا ما أُمِروا به وأنه خلف من بعدهم خلف رجعوا إلى الخلف والوراء فأضاعوا الصلاة التى أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التى هى عماد الدين وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين التى هى آكد الأعمال وأفضل الخصال كانوا لما سواها من دينهم أضيع وله أرفض، والسبب الداعى

لذلك أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإرادتها فصارت هممهم منصرفة إليها مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه والإقبال على شهوات أنفسهم مهما لاحت لهم حصلوها وعلى أي وجه اتفقت تناولوها ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي: عذابًا مضاعفًا شديدًا، ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي فأقلع عنها وندم عليها وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعاودها ﴿وَآمَنَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على ألسنة رسله إذا قصد به وجهه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ المشتملة على النعيم المقيم والعيش السليم وجوار الرب الكريم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من أعمالهم بل يجدونها كاملة موفرة أجورها مضاعفًا عددها ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها ليست كسائر الجنات وإنما هي ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة لا ظعن فيها ولا حول ولا زوال وذلك لسعتها وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور والبهجة والحبور ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: التي وعدها الرحمن أضافها إلى اسمه ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ لأن فيها من الرحمة والإحسان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وسماها تعالى رحمته فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وأيضًا ففي إضافتها إلى رحمته ما يدل على استمرار سرورها وأنها باقية ببقاء رحمته التي هي أثرها وموجبها، و«العباد» في هذه الآية المراد عباد إلهيته الذين عبدوه والتزموا شرائعه فصارت العبودية وصفًا لهم كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ و نحوه، بخلاف عباده المماليك فقط الذين لم يعبدوه فهؤلاء وإن كانوا عبيدًا لربوبيته - لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم - فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية التي يمدح صاحبها وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار لا مدح لهم فيها، وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ فيكون المعنى على هذا أن الله وعدهم إياها وعدًا غائبًا لم يشاهدوه ولم يروه فآمنوا بها وصدقوا غيبها وسعوا لها سعيها مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها لكانوا أشد لها طلبًا وأعظم فيه رغبة وأكثر لها سعيًا ويكون في هذا مدح لهم بإيمانهم بالغيب الذي هو الإيمان النافع، ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه لكانوا أشد له عبادة وأعظم إنابة وأكثر حبًا وأجل شوقًا، ويحتمل أيضًا أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده من الأمور التي لا تدركها الأوصاف ولا يعلمها أحد إلا الله ففيه من التشويق لها والوصف المجمل ما يهيج النفوس ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى بدليل قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ لا بد من وقوعه فإنه لا يخلف الميعاد وهو أصدق القائلين ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: كلامًا لاغيًا فلا فائدة فيه ولا يؤثم، فلا يسمعون فيها شتمًا ولا عيبًا ولا قولاً فيه معصية لله أو قولاً مكدرًا ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ أي: الأقوال السالمة من كل عيب من ذكر لله وتحية وكلام سرور وبشارة ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان وسماع خطاب الرحمن والأصوات الشجية من الحور والملائكة والولدان والنغمات المطربة والألفاظ الرخيمة لأن الدار دار السلام فليس فيها إلا السلام التام في جميع الوجوه ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: أرزاقهم من المآكل والمشارب وأنواع اللذات مستمرة حيثما طلبوا وفي أي وقت رغبوا ومن تمامها ولذتها وحسنها أن تكون في أوقات معلومة ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ليعظم وقعها ويتم نفعها، فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: نورثها المتقين ونجعلها منزلهم الدائم الذي لا يظعنون عنه ولا يبغون عنها حولاً كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾

استبطأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: «لو تأتينا أكثر مما تأتينا» شوقًا إليه في

وتوحشًا لفراقه وليطمئن قلبه بنزوله، فأنزل الله تعالى على لسان جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ أى: ليس لنا من الأمر شىء إن أمرنا ابتدرنا أمره ولم نعص له أمرًا كما قال الله عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فنحن عبيد مأمورون ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أى: له الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة فى الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله وأننا عبيد مدبرون فيبقى الأمر دائرًا بين «هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟» ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أى: لم يكن لينساك ويهملك كما قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ بل لم يزل معتنيًا بأمورك مجريًا لك على أحسن عوائده الجميلة وتدابيره الجليلة، أى: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد فلا يحزنك ذلك ولا يهمك واعلم أن الله هو الذى أراد ذلك لما له من الحكمة فيه ثم علل إحاطة علمه وعدم نسيانه بأنه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فربوبيته للسموات والأرض وكونهما على أحسن نظام وأكمله ليس فيه غفلة ولا إهمال ولا سُدًى ولا باطل برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك بل اشغلها بما ينفعك ويعود عليك طائله وهو: عبادته وحده لا شريك له ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أى: اصبر نفسك عليها وجاهدها وقم عليها أتم القيام وأكمله بحسب قدرتك، وفى الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشتهيات كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أى: هل تعلم لله مساميًا ومشابهًا ومماثلاً من المخلوقين؟ وهذا استفهام بمعنى النَّفْى المعلوم بالعقل، أى: لا تعلم له مساميًا ولا مشابهًا لأنه الرب وغيره مربوب الخالق وغيره مخلوق الغنى من جميع الوجوه وغيره فقير بالذات من كل وجه الكامل الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية وأن عبادته حق وعبادة ما سواه باطل فلهذا أمر بعبادته وحده والاصطبار عليها وعلل بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى.

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾

المراد بالإنسان ههنا كل منكر للبعث مستبعد لوقوعه، فيقول ـ مستفهمًا على وجه النفى والعناد والكفر ـ ﴿أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أى: كيف يعيدنى الله حيًا بعد الموت وبعدما كنت رميمًا؟!! هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيئ وعناده لرسل الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر وتأمل أدنى تأمل لرأى استبعاده للبعث فى غاية السخافة، ولهذا ذكر تعالى برهانًا قاطعًا ودليلاً واضحًا يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ أى: أولا يلفت نظره ويستذكر حالته الأولى وأن الله خلقه أول مرة ولم يك شيئًا؟ فمن قدر على خلقه من العدم ولم يك شيئًا مذكورًا أليس بقادر على إنشائه بعدما تمزق وجمعه بعدما تفرق؟ وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وفى قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ﴾ دعوة للنظر بالدليل العقلى بألطف خطاب وأن إنكار من أنكر ذلك مبنى على غفلة منه عن حاله الأولى وإلا فلو تذكرها وأحضرها فى ذهنه لم ينكر ذلك.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

أقسم الله تعالى ـ وهو أصدق القائلين ـ بربوبيته ليحشرن[1] هؤلاء المنكرين للبعث هم وشياطينهم وليجمعنهم لميقات يوم معلوم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أى: جاثين على ركبهم من شدة الأهوال وكثرة الزلازل وفظاعة الأحوال منتظرين لحكم الكبير المتعال ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ

---

(١) فى الأصل المطبوع «ليحشر» و «فيجمعهم» فأصلحنا الكلمتين كما ترى لينتظم الكلام على حسب مقتضى الكلام.

﴿أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ أى: ثم لننزعن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشركين فى الظلم والكفر والعتو[1] أشدهم عتوًا وأعظمهم ظلمًا وأكبرهم كفرًا فيقدمهم إلى العذاب ثم هكذا يقوم إلى العذاب الأغلظ إثمًا فالأغلظ وهم فى تلك الحال متلاعنون يلعن بعضهم بعضًا وتقول أخراهم لأولاهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ وكل هذا تابع لعدله وحكمته وعلمه الواسع ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ أى: علمنا محيط بمن هو أولى صليًا بالنار وقد علمناهم وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

وهذا خطاب لسائر الخلائق برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار حكمًا حتمه الله على نفسه وأوعد به عباده فلا بد من نفوذه ولا محيد عن وقوعه واختلف فى معنى الورود فقيل: ورودها حضورها للخلائق كلهم حتى يحصل الانزعاج من كل أحد ثم بَعْدُ ينجى الله المتقين، وقيل: ورودها دخولها وحضورها فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا، وقيل: الورود هو المرور على الصراط الذى هو على متن جهنم فيمر الناس على قدر أعمالهم فمنهم من يمر كلمح البصر وكالريح وكأجاويد الخيل وكأجاويد الركاب ومنهم من يسعى ومنهم من يمشى مشيًا ومنهم من يزحف زحفًا ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كُلٌّ بحسب تقواه، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الله تعالى بفعل المأمور واجتناب المحظور ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصى ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم وجب لهم الخلود وحق عليهم العذاب وتقطعت بهم الأسباب.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾

أى: وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات أى: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان ــ قابلوها بضد ما يجب لها واستهزءوا بها وبمن آمن بها واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا على أنهم خير من المؤمنين فقالوا معارضين للحق: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أى: نحن والمؤمنين ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ أى: فى الدنيا من كثرة الأموال والأولاد وتفوق الشهوات ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أى: مجلسًا، أى: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة بسبب أنهم أكثر مالاً وأولادًا، وقد حصلت أكثر مطالبهم من الدنيا ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين. وهذا دليل فى غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق وإلا فكثرة الأموال والأولاد وحسن المنظر كثيرًا ما يكون سببًا لهلاك صاحبه وشقائه وشره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ أى: متاعًا من أوانٍ وفرش وبيوت وزخارف ﴿وَرِءْيًا﴾ أى: أحسن مرأى ومنظرًا من غضارة العيش وسرور اللذات وحسن الصور، فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثًا ورئيًا ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم فكيف يكون هؤلاء وهم أقل منهم وأذل معتصمين من العذاب ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾؟ وعلم من هذا أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة وأنه من طرق الكفار.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

لما ذكر دليلهم الباطل الدال على شدة عنادهم وقوة ضلالهم أخبر هنا أن من كان فى الضلالة بأن رضيها

(١) قوله «والعتو» كانت فى الأصل «والعتق» وهو خطأ لا معنى له.

لنفسه وسعى فيها فإن الله يمده منها ويزيده فيها حبًا عقوبة له على اختيارها على الهدى قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ أي: القائلون ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ بقتل أو غيره ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ التى هى باب الجزاء على الأعمال ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أى: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم وأنها دعوى مضمحلة ويتيقنون أنهم أهل الشر ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئًا لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا فيعملون غير عملهم الأول.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

لما ذكر أنه يمد للظالمين فى ضلالهم ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته والهدى يشمل العلم النافع والعمل الصالح فكل من سلك طريقًا فى العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه وسهله عليه ويسره له ووهب له أمورًا أخر لا تدخل تحت كسبه، وفى هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه كما قاله السلف الصالح ويدل قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ويدل عليه أيضًا الواقع فإن الإيمان قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح والمؤمنون متفاوتون فى هذه الأمور أعظم تفاوت، ثم قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أى: الأعمال الباقية التى لا تنقطع إذا انقطع غيرها ولا تضمحل هى الصالحات منها من صلاة وزكاة وصوم وحج وعمرة وقراءة وتسبيح وتكبير وتحميد وتهليل وإحسان إلى المخلوقين وأعمال قلبية وبدنية، فهذه الأعمال ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أى: خير عند الله ثوابها وأجرها وكثير للعاملين نفعها وردها وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فى غير بابه فإنه ما ثَمَّ غير الباقيات الصالحات عمل ينفع ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات، والله أعلم، أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد وحسن المقام ونحو ذلك علامة لحسن حال صاحبها أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذى هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح بما يحبه الله ويرضاه.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

أى: أفلا تعجب من حالة هذا الكافر الذى جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة أنه سيؤتى مالاً وولداً أى: يكون من أهل الجنة هذا من أعجب الأمور فلو كان مؤمنًا بالله وادعى هذه الدعوى لسهل الأمر، وهذه الآية وإن كانت نازلة في كافر معين فإنها تشمل كل كافر زعم أنه على الحق وأنه من أهل الجنة، قال الله توبيخًا له وتكذيبًا: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ أى: أحاط علمه بالغيب حتى علم ما يكون وأن من جملة ما يكون أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولدًا؟ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أنه نائل ما قاله أى: لم يكن شىء من ذلك فعلم أنه متقولٌ قائل ما لا علم لديه، وهذا التقسيم والترديد فى غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة، فإن الذى يزعم أنه حاصل له خير عند الله فى الآخرة لا يخلو إما أن يكون قوله صادراً عن علم بالغيوب المستقبلة وقد علم أن هذا لله وحده فلا أحد يعلم شيئًا من المستقبلات الغيبية إلا من أطلعه الله عليه من رسله، وإما أن يكون متخذًا عهدًا عند الله بالإيمان به واتباع رسله الذين عهد الله لأهله وأوزع أنهم أهل الآخرة والناجون الفائزون، فإذا انتفى هذان الأمران علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أى: ليس الأمر كما زعم فليس للقائل اطلاع على الغيب لأنه كافر ليس عنده من علم الرسائل شىء ولا اتخذ عند الرحمن عهداً لكفره وعدم إيمانه ولكنه يستحق ضد ما تقوَّل وأن قوله مكتوب محفوظ ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أى: نزيده من أنواع العقوبات كما ازداد من الغى والضلال ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أى: نرثه ماله وولده فينتقل من الدنيا فردًا بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ فيرى من وخيم العقاب ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾

وهذا من عقوبة الكافرين أنهم ـ لما لم يعتصموا بالله ولم يتمسكوا بحبل الله بل أشركوا به ووالوا أعداءه من الشياطين ـ سلطهم عليهم وقيضهم فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصى أزًا وتزعجهم إلى الكفر إزعاجًا فيوسوسون لهم ويوحون إليهم ويزينون لهم الباطل ويقبحون لهم الحق فيدخل حب الباطل فى قلوبهم ويتشربها فيسعى فيه سعى المحق فى حقه فينصره بجده ويجاهد أهل الحق فى سبيل الباطل، وهذا كله جزاء له على توليه من وليه، وتوليه لعدوه جعل له عليه سلطانه وإلا فلو آمن بالله وتوكل عليه لم يكن له عليه سلطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أى: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أى: إن لهم أيامًا معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله فإذا لم ينجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين والمجرمين، وأن المتقين له ـ باتقاء الشرك والبدع والمعاصى ـ يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن وقصدهم المنان وفدًا إليه، والوافد لا بد أن يكون فى قلبه من الرجاء وحسن الظن بالوافد إليه ما هو معلوم، فالمتقون يفدون إلى الرحمن راجين من رحمته وعميم إحسانه والفوز بعطاياه فى دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه واتباع مراضيه وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب على ألسنة رسله فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به واثقين بفضله، وأما المجرمون فإنهم يساقون إلى جهنم وردًا أى: عطاشًا، وهذا أبشع ما يكون من الحالات سوقهم على وجه الذل والصغار إلى سجن وأفظع عقوبة وهو جهنم فى حال ظمأهم ونصبهم يستغيثون فلا يُغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أى: ليست الشفاعة ملكهم ولا لهم منها شىء، وإنما هى لله تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين لأنهم لم يتخذوا عنده عهدًا بالإيمان به وبرسله، وإلا فمن اتخذ عنده عهدًا فآمن به وبرسله واتبعهم فإنه ممن ارتضاه الله وتحصل له الشفاعة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ وسمى الله الإيمان به واتباع رسله عهدًا لأنه عهد فى كتبه وعلى ألسنة رسله بالجزاء الجميل لمن اتبعهم.

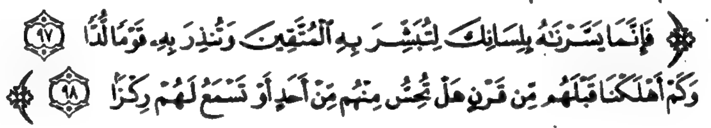
﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدًا كقول النصارى «المسيح ابن الله» واليهود «عزير ابن الله» والمشركين «الملائكة بنات الله» تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أى: عظيمًا وخيمًا، من عظيم أمره أنه ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾ على عظمتها وصلابتها ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أى: من هذا القول ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ﴾ منه تتصدع وتنفطر ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أى: تندك الجبال ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ أى: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات أن يكون منها ما ذكر، والحال أنه: ﴿وَمَا يَنبَغِي﴾ أى: لا يليق ولا يكون ﴿لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وذلك لأن اتخاذه الولد يدل على نقصه واحتياجه وهو الغنى الحميد، والولد أيضًا من جنس والده والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمى ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي

الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ أى: ذليلاً منقاداً غير متعاص ولا ممتنع، الملائكة والإنس والجن وغيرهم الجميع مماليك متصرف فيهم ليس لهم من الملك من شىء، ولا من التدبير شىء فكيف يكون له ولد وهذا شأنه وعظمة ملكه؟ ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ أى: لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم أهل السموات والأرض وأحصاهم وأحصى أعمالهم فلا يضل ولا ينسى ولا تخفى عليه خافية ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ أى: لا أولاد ولا مال ولا أنصار ليس معه إلا عمله فيجازيه الله ويوفيه حسابه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

هذا من نعمه على عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح أن يجعل لهم وداً أى: محبة ووداداً فى قلوب أوليائه وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل، ولهذا ورد فى الحديث الصحيح «إن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل: إنى أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السموات، ثم يوضع له القبول فى الأرض» وإنما جعل الله لهم وداً لأنهم ودوه فودهم إلى أوليائه وأحبابه.


﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

يخبر تعالى عن نعمته وأنه يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ يسر ألفاظه ومعانيه ليحصل المقصود منه والانتفاع به ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ بالترغيب فى المبشر به من الثواب العاجل والآجل وذكر الأسباب الوجبة للبشارة ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً﴾ أى: شديدين فى باطلهم أقوياء فى كفرهم فتنذرهم فتقوم عليهم الحجة وتتبين لهم المحجة فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىَّ عن بينة، ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ من قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من المعاندين المكذبين لما استمروا فى طغيانهم أهلكهم الله فليس لهم من باقية ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ والركز الصوت الخفى، أى: لم يبق منهم عين ولا أثر بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين وأسمارهم عظة للمتعظين.

تم تفسير سورة مريم والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

﴿طه﴾ من جملة الحروف المقطعة المفتتح بها كثير من السور وليست اسماً للنبى ﷺ ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ أى: ليس المقصود بالوحى وإنزال القرآن عليك وشرع الشريعة لتشقى بذلك ويكون فى الشريعة تكليف يشق على المكلفين وتعجز عنه قوى العالمين، وإنما الوحى والقرآن والشرع شرعه الرحيم الرحمن وجعله موصلاً للسعادة والفلاح والفوز وسهله غاية التسهيل ويسر كل طرقه وأبوابه وجعله غذاء للقلوب والأرواح وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان لعلمها بما احتوى عليه من الخير فى

الدنيا والآخرة ولهذا قال: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أى: إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى فيتذكر ما فيه من الترغيب لأجل المطالب فيعمل بذلك ومن الترهيب عن الشقاء والخسران فيرهب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة التى كانت مستقرًا فى عقله حسنها مجملاً فوافق التفصيل ما يجده فى فطرته وعقله ولهذا سماه الله ﴿تَذْكِرَةً﴾ والتذكرة لشىء كان موجودًا إلا أن صاحبه غافل عنه أو غير مستحضر لتفصيله وخص بالتذكرة ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ لأن غيره لا ينتفع به وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار ولا فى قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟ هذا ما لا يكون ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم وأنه تنزيل خالق الأرض والسموات المدبر لجميع المخلوقات، أى: فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم وعظموه نهاية التعظيم، وكثيرًا ما يقرن بين الخلق والأمر كما فى هذه الآية، وكما فى قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وفى قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ وذلك أنه الخالق الآمر الناهى فكما أنه لا خالق سواه فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهى إلا من خالقهم، وأيضًا فإن خلقه للخلق فيه من التدبير القدرى الكونى وأمره فيه التدبير الشرعى الدينى، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة فلم يخلق شيئًا عبثًا فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان، فلما بين أنه الخالق المدبر الآمر الناهى أخبر عن عظمته وكبريائه فقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذى هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها ﴿اسْتَوَىٰ﴾ استواء يليق بجلاله ويناسب عظمته وجماله فاستوى على العرش واحتوى على الملك ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من مَلَك وإنسى وجنى وحيوان وجماد ونبات ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ أى: الأرض فالجميع ملك لله تعالى عبيد مدبرون مسخرون تحت قضائه وتدبيره وليس لهم من الملك شىء ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ الكلام الخفى ﴿وَأَخْفَى﴾ من السر الذى فى القلب ولم ينطق به، أو السر: ما خطر على القلب ﴿وَأَخْفَى﴾ ما لم يخطر يعلم تعالى أنه يخطر فى وقته وعلى صفته، المعنى: أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء دقيقها وجليها خفيها وظاهرها فسواء جهرت بقولك أو أسررته فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالى، فلما قرر كماله المطلق بعموم خلقه وعموم أمره ونهيه وعموم رحمته وسعة عظمته وعلوه على عرشه وعموم ملكه وعموم علمه نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة وأن عبادته هى الحق التى يوجبها الشرع والعقل والفطرة وعبادة غيره باطلة فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: لا معبود بحق ولا مألوه بالحب والذل والخوف والرجاء والمحبة والإنابة والدعاء إلا هو ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أى: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد ومن حسنها أنها ليست أعلامًا محضة وإنما هى أسماء وأوصاف، ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها ويحب من يحبها ويحب من يحفظها ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (٩) إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ (١٣) إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ (١٤) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥)﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريرى والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ فى حاله التى هى مبدأ سعادته ومنشأ نبوته أنه رأى نارًا من بعيد وكان قد ضل الطريق وأصابه البرد ولم يكن عنده ما يتدفأ به فى سفره ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ﴾ أى: أبصرت ﴿نَارًا﴾ وكان ذلك فى جانب الطور الأيمن ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ تصطلون به ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أى: من يهدينى الطريق

وكان مطلبه النور الحسى والهداية الحسية، فوجد ثَمَّ النور المعنوى، نور الوحى الذى تستنير به الأرواح والقلوب والهداية الحقيقة هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن فى حسابه ولا خطر بباله ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أى: النار التى آنسها من بعيد وكانت - فى الحقيقة - نوراً، وهى نار تحرق وتشرق ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره» فلما وصل إليها نودى منها أى: ناداه الله كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أخبره أنه ربه وأمره أن يستعد ويتهيأ لمناجاته ويهتم لذلك ويلقى نعليه لأنه بالوادى المقدس المطهر المعظم ولو لم يكن من تقديسه إلا أنه اختار لمناجاته كليمه موسى لكفى، وقد قال كثير من المفسرين: «إن الله أمره أن يلقى نعليه لأنهما من جلد حمار» فالله أعلم بذلك ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أى: تخيرتك واصطفيتك من الناس وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه تقتضى من الشكر ما يليق بها ولهذا قال: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أى: ألق سمعك للذى أوحى إليك فإنه حقيق بذلك لأنه أصل الدين ومبدأه وعماد الدعوة الإسلامية ثم بيَّن الذى يوحيه إليـه بقوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا﴾ أى: الله المستحق الألوهية المتصف بها لأنه الكامل فى أسمائه وصفاته المنفرد بأفعاله الذى لا شريك له ولا مثيل ولا كفو ولا سَمِى ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ بجميع أنواع العبادة ظاهرها وباطنها أصولها وفروعها، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة فى العـبادة لفضلها وشرفها وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح، وقوله: ﴿لِذِكْرِي﴾ اللام للتعليل أى: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياى، لأن ذكره تعالى أجل المقاصـد وبه عبودية القلب وبه سعادته، فـالقلب المعطل عن ذكر الله معطل عن كل خيـر وقد خرب كل الخراب فشرع الله للعباد أنواع العبادات التى المقصـود منها إقامة ذكره وخصوصًا الصلاة، قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أى: ما فيـها من ذكر الله أكبر من نهـيها عن الفحـشاء والمنكر وهذا النوع يقال له توحيـد الإلهية وتوحيد العـبادة فالألوهية وصـفه تعالى والعبودية وصف عبده ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أى: لا بد من وقوعها ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أى: عن نفسى كما فى بعض القراءات كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ وقال: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فعلمها قد أخفاه عن الخلائق كلهم فلا يعلمها ملك مقرب ولا نبى مرسل، والحكمة فى إتيان الساعة ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ من الخير والشر فهى الباب لدار الجزاء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ١٦﴾

أى: فلا يصدنك ويشغلك عن الإيمان بالساعة والجزاء والعمل لذلك من كان كافراً بها غير معتقد لوقوعها يسعى فى الشك فـيها والتشكيك ويجـادل فيها بالباطـل ويقيم من الشبه ما يـقدر عليه متبـعًا فى ذلك هواه ليس قصـده الوصول إلى الحق وإنما قـصاراه اتباع هواه فـإياك أن تصغى إلى من هذه حاله أو تقـبل شيئًـا من أقواله وأعماله الصادة عن الإيمان بها والسعى لها سعيها، وإنما حذر الله تعالى عمن هذه حاله لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله وكون النفوس مجبـولة على التشبه والاقتداء بأبناء الجنس، وفى هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل يصد عن الإيمان الواجب أو عن كـماله أو يوقع الشبهة فى القلب وعن النظر فى الكتب المشتملة على ذلك، وذكر فى هذا الإيمان به وعـبادته والإيمان باليوم الآخر، لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان وركن الدين وإذا تمت تم أمر الدين ونقصه أو فقـده بنقصها أو نقص شيء منها، وهذه نظير قوله تعالى فى الإخبار عن ميزان سعادة الفرق الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقـوله: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أى: تهلك وتشقى إن اتبعت طريق من يصد عنها، وقوله تعالى:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾

﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

لما بيَّن الله لموسى أصل الإيمان أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه وتقر به عينه ويقوى إيمانه بتأييد الله له على عدوه فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ هذا مع علمه تعالى ولكن لزيادة الاهتمام فى هذا الموضع أخرج الكلام بطريق الاستفهام، فقال موسى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ ذكر فيها هاتين المنفعتين منفعة لجنس الآدمى وهو أنه يعتمد عليها فى قيامه ومشيه فيحصل فيها معونة ومنفعة للبهائم وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها فى شجر الخبط ونحوه هش بها، أى: ضرب الشجر ليتساقط ورقه فيرعاه الغنم هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام الذى من آثاره حسن رعاية الحيوان البهيم والإحسان إليه دل على عناية من الله له واصطفاء وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ﴾ أى: مقاصد ﴿أُخْرَىٰ﴾ غير هذين الأمرين، ومن أدب موسى عليه السلام أن الله لما سأله عما فى يمينه وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها أو منفعتها ـ أجابه بعينها ومنفعتها فقال الله له: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ انقلبت بإذن الله ثعبانًا عظيمًا، فولى موسى هاربًا خائفًا ولم يعقب، وفى وصفها بأنها تسعى إزالة لوهم يمكن وجوده وهو أن يظن أنها تخييل لا حقيقة فكونها تسعى يزيل هذا الوهم، فقال الله لموسى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أى: ليس عليك منها بأس ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ أى: هيئتها وصفتها إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيمانًا به وتسليمًا فأخذها فعادت عصاه التى كان يعرفها هذه الآية، ثم ذكر الآية الأخرى فقال: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أى: أدخل يدك إلى جيبك وضم عليك عضدك الذى هو جناح الإنسان ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى: بياضًا ساطعًا من غير عيب ولا برص ﴿آيَةً أُخْرَىٰ﴾ قال الله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ أى: فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى ومن خروج اليد بيضاء للناظرين لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به فيطمئن قلبك ويزداد علمك وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة ولتكون حجة وبرهانًا لمن أرسلت إليهم.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

لما أوحى الله إلى موسى ونبأه وأراه الآيات الباهرات أرسله إلى فرعون ملك مصر فقال: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أى: تمرد وزاد على الحد فى الكفر والفساد والعلو فى الأرض والقهر للضعفاء حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية قبحه الله أى: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة بالرسل فحينئذ علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملاً عظيمًا حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد الذى ليس له منازع فى مصر من الخلق وموسى عليه السلام وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه وتلقاه بالانشراح والقبول وسأله المعونة وتيسير الأسباب التى هى من تمام الدعوة فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أى: وسعه وأفسحه لأتحمل الأذى القولى والفعلى ولا يتكدر قلبى بذلك ولا يضيق صدرى فإن الصدر إذا ضاق لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم، قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أى: سهل علىَّ كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده فى سبيلك وهوِّن علىَّ ما أمامى من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعى أن يأتى جميع الأمور من أبوابها ويخاطب كل أحد بما يناسب له ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ وكان فى لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه

الكلام كما قال المفسرون، وكما قال الله عنه أنه قال: ﴿وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ فسأل الله أن يحل منه عقدة يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام منه المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعانى ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ أى: معينًا يعاوننى ويؤازرنى ويساعدنى على ما أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله لأنه من باب البر وأحق ببر الإنسان قرابته، ثم عينه بسؤاله فقال: ﴿هَرُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ أى: قوِّنى به وشد به ظهرى، قال الله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أى: في النبوة بأن تجعله نبيًا رسولاً كما جعلتنى، ثم ذكر الفائدة فى ذلك فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك فى كل الأمور وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم فَمُنَّ علينا بما سألناك وأجب لنا فيما دعوناك، فقال الله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أى: أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك ونيسر أمرك ونحل عقدة من لسانك يفقهوا قولك ونشد عضدك بأخيك هارون ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ وهذا السؤال من موسى عليه السلام يدل على كمال معرفته بالله وكمال فطنته ومعرفته للأمور وكمال نصحه وذلك أن الداعى إلى الله المرشد للخلق خصوصًا إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان يحتاج إلى سعة صدر وحلم تام على ما يصيبه من الأذى ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عما يريده ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون لكثرة المراجعات والمراوضات ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه ليحببه إلى النفوس وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه، ويحتاج مع ذلك أيضًا أن يتيسر له أمره فيأتى البيوت من أبوابها ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن يعامل الناس كلا بحسب حاله، وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر، فلذلك سأله عليه الصلاة والسلام هذه الأمور فأعطيها، وإذا نظرنا إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق رأيتهم بهذه الحال بحسب أحوالهم خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ فإنه فى الذروة العليا من صفة كمال وله من شرح الصدر وتيسير الأمر وفصاحة اللسان وحسن التعبير والبيان والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم ما ليس لغيره.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١﴾

لما ذكر منته على عبده ورسوله موسى بن عمران فى الدين والوحى والرسالة وإجابة سؤاله ذكر نعمته عليه وقت التربية والتنقلات فى أطواره فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ حيث ألهمنا أمك أن تقذفك فى التابوت وقت الرضاع خوفًا من فرعون لأنه أمر بذبح أبناء بنى إسرائيل، فأخفته أمه وخافت عليه خوفًا شديدًا فقذفته فى التابوت ثم قذفته فى اليم أى: شط نيل مصر فأمر الله اليم أن يلقيه فى الساحل وقيض الله أن يأخذه أعدى الأعداء لله ولموسى ويتربى فى أولاده ويكون قرة عين لمن رآه، ولهذا قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ فكل من رآه أحبه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى﴾ أى: ولتتربى على نظرى وفى حفظى وكلاءتى وأى نظر وكفالة أجل وأكمل من ولاية البر الرحيم والقادر على إيصال مصالح عبده ودفع المضار عنه؟! فلا ينتقل من حالة إلى حالة إلا والله تعالى هو الذى دبر ذلك لمصلحة موسى، ومن حسن تدبيره أن موسى لما وقع فى يد عدوه قلقت أمه قلقًا شديدًا وأصبح فؤادها فارغًا وكادت تخبر به لولا أن الله ثبتها وربط على قلبها ففى هذه الحالة حرم الله على موسى المراضع فلا يقبل ثدى امرأة قط ليكون مآله إلى أمه فترضعه ويكون عندها مطمئنة ساكنة قريرة العين،

فجعلوا يعرضون عليه المراضع فلا يقبل ثديًا فجاءت أخت موسى فقالت لهم: ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾ ﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا﴾ وهو القبطي لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها وجد رجلين يقتتلان واحد من شيعة موسى والآخر من عدوه قبطي ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه﴾ فدعا الله وسأله المغفرة فغفر له ثم فر هاربًا لما سمع أن الملأ طلبوه يريدون قتله ﴿فنجيناك من الغم﴾ من عقوبة الذنب ومن القتل ﴿وفتناك فتونا﴾ أي: اختبرناك وبلوناك فوجدناك مستقيمًا في أحوالك، أو نقلناك في أحوالك وأطوارك حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ﴿فلبثت سنين في أهل مدين﴾ حين فر هاربًا من فرعون وملئه حين أرادوا قتله، فتوجه إلى مدين ووصل إليها وتزوج هناك ومكث عشر سنين أو ثمان سنين ﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾ أي: جئت مجيئًا ليس اتفاقًا من غير قصد ولا تدبير منا بل بقدر ولطف منا، وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمه موسى عليه السلام ولهذا قال: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي وحسن عوائدي وتربيتي لتكون لنفسي حبيبًا مختصًا وتبلغ في ذلك مبلغًا لا يناله أحد من الخلق إلا النادر منهم، وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ يبذل غاية جهده ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك، فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم وما تحسبه يفعل بمن أراده لنفسه واصطفاه من خلقه؟!!

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾

لما امتن الله على موسى بما امتن به من النعم الدينية والدنيوية قال له: ﴿اذهب أنت وأخوك﴾ هارون ﴿بآياتي﴾ أي: الآيات التي مني الدالة على الحق وحسنه وقبح الباطل كاليد والعصا ونحوها في تسع آيات إلى فرعون وملئه ﴿ولا تنيا في ذكري﴾ أي: لا تفترا ولا تكسلا عن مداومة ذكري بالاستمرار عليه والزماه كما وعدتما بذلك ﴿كي نسبحك كثيرا ﴿٣٣﴾ ونذكرك كثيرا﴾ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور يسهلها ويخفف حملها ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾ أي: جاوز الحد في كفره وطغيانه وظلمه وعدوانه ﴿فقولا له قولا لينا﴾ أي: سهلاً لطيفًا برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف ولا غلظة في المقال أو فظاظة في الأفعال ﴿لعله﴾ بسبب القول اللين ﴿يتذكر﴾ ما ينفعه فيأتيه ﴿أو يخشى﴾ ما يضره فيتركه فإن القول اللين داع لذلك والقول الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فسر القول اللين في قوله: ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى ﴿١٨﴾ وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ فإن في هذا الكلام من لطف القول وسهولته وعدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمل فإنه أتى بـ «هل» الدالة على العرض والمشاورة التي لا يشمئز منها أحد ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس التي أصلها التطهر من الشرك الذي يقبله كل عقل سليم ولم يقل: «أزكيك» بل قال: «تزكى» أنت بنفسك، ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة التي ينبغي مقابلتها بشكرها وذكرها فقال: ﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنه بالقلوب علم أنه لا ينجع فيه تذكير فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر ﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا﴾ أي: يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن نبلغه رسالتك ونقيم عليه الحجة ﴿أو أن يطغى﴾ أي: يتمرد عن الحق ويطغى بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه ﴿قال لا تخافا﴾ أن يفرط عليكما ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ أي: أنتما بحفظي ورعايتي أسمع قولكما وأرى جميع أحوالكما فلا تخافا منه، فزال الخوف عنهما واطمأنت قلوبهما بوعد ربهما.

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

أي: فأتياه بهذين الأمرين دعوته إلى الإسلام وتخليص هذا الشعب الشريف بني إسرائيل من قيده وتعبيده

لهم ليتحرروا ويملكوا أمرهم ويقيم فيهم موسى شرع الله ودينه ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ تدل على صدقنا ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ إلى آخر ما ذكر الله عنهما ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ أي: من اتبع الصراط المستقيم واهتدى بالشرع المبين حصلت له السلامة فى الدنيا والآخرة ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ أي: خبرنا من عند الله لا من عند أنفسنا ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب بأخبار الله وأخبار رسله وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما والترهيب من ضد ذلك، ولكن لم يفد فيه هذا الوعظ والتذكير فأنكر ربه وكفر وجادل فى ذلك ظلمًا وعنادًا.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)﴾

أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح فقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: ربنا الذى خلق جميع المخلوقات وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به على حسن صنعه من خلقه من كبر الجسم وصغره وتوسطه وجميع صفاته ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له وهذه الهداية الكاملة المشاهدة فى جميع المخلوقات فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع وفي دفع المضار عنه حتي إن الله أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به من ذلك، وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ فالذى خلق المخلوقات وأعطاها خلقها الحسن الذى لا تقترح العقول فوق حسنه وهداها لمصالحها هو الرب على الحقيقة فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودًا وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك، ولهذا لما لم يمكن فرعون أن يعاند هذا الدليل القاطع عدل إلى المشاغبة وحاد عن المقصود فقال لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ أي: ما شأنهم وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر والظلم والعناد ولنا فيهم أسوة؟ فقال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر وكتبه فى كتابه وهو اللوح المحفوظ وأحاط به علمًا وخبرًا فلا يضل عن شيء منها ولا ينسى ما علمه منها، ومضمون ذلك أنهم قدموا إلى ما قدموه ولاقوا أعمالهم وسيجازون عليها فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، فإن كان الدليل الذى أوردناه عليك والآيات التى أريناكها قد تحققت صدقها ويقينها وهو الواقع فانقد إلى الحق ودع عنك الكفر والظلم وكثرة الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستيقنة فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق فرد الدليل بالدليل والبرهان بالبرهان ولن تجد لذلك سبيلاً ما دام الملوان، كيف وقد أخبر الله عنه أنه جحدها مع استيقانها كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ وقال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ فعلم أنه ظالم فى جداله قصده العلو فى الأرض، ثم استطرد فى هذا الدليل القاطع بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضرورى فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشًا بحالة تتمكنون من السكون فيها والقرار والبناء والغراس وإثارتها للازدراع وغيره وذللها لذلك ولم يجعلها ممتنعة عن مصلحة من مصالحكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض ومن قطر إلى قطر حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون وينتفعون بأسفارهم أكثر مما ينتفعون بإقامتهم ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي: أنزل المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وأنبت بذلك جميع أصناف النباتات على اختلاف أنواعها وتشتت أشكالها وتباين أحوالها فساقه وقدره ويسره رزقًا لنا ولأنعامنا ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمى وحيوان ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾

وساقها على وجه الامتنان ليدل ذلك على أن الأصل فى جميع النباتات الإباحة فلا يحرم منها إلا ما كان مضراً كالسموم ونحوه ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُوْلِى النُّهَىٰ﴾ أى: لذول العقول الرزينة والأفكار المستقيمة على فضل الله وإحسانه ورحمته وسعة جوده وتمام عنايته وعلى أنه الرب المعبود المالك المحمود الذى لا يستحق العبادة سواه ولا الحمد والمدح والثناء إلا من امتن بهذه النعم وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وخص الله أولى النهى بذلك لأنهم المنتفعون بها الناظرون إليها نظر اعتبار وأما من عداهم فإنهم بمنزلة البهائم السارحة والأنعام السائمة لا ينظرون إليها نظر اعتبار ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم يأكلون ويشربون وقلوبهم لاهية وأجسادهم معرضة ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ولما ذكر كرم الأرض وحسن شكرها لما ينزله الله عليها من المطر وأنها بإذن ربها تخرج النبات المختلف الأنواع أخبر أنه خلقنا منها وفيما يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من العدم وقد علمنا ذلك وتحققناه فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا ليجازينا بأعمالنا التى عملناها عليها وهذان دليلان على الإعادة عقليان واضحان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها وإخراج المكلفين منها فى إيجادهم.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع جميع أنواعها العيانية والأفقية والنفسية فما استقام ولا ارعوى وإنما كذب وتولى، كذب الخبر وتولى عن الأمر والنهى وجعل الحق باطلاً والباطل حقاً وجادل بالباطل ليضل الناس فقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾ زعم أن هذه الآيات التى أراه إياها موسى سحر وتمويه المقصود منها إخراجهم من أرضهم والاستيلاء عليها ليكون كلامه مؤثراً فى قلوب قومه، فإن الطباع تميل إلى أوطانها ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها فأخبرهم أن هذا قصد موسى ليبغضوه ويسعوا فى محاربته فلنأتينك بسحر مثل سحرك فأمهلنا واجعل لنا ﴿مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَاناً سُوًى﴾ أى: مستو علمنا وعلمك به، أو مكانا مستويًا معتدلاً لتتمكن من رؤية ما فيه، فقال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وهو عيدهم الذى يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أى: يجمعون كلهم فى وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك لأن يوم الزينة ووقت الضحى فيه يحصل كثرة الاجتماع ورؤية الأشياء على حقائقها ما لا

يحصل فى غيره ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أى: جميع ما يقدر عليه مما يكيد به موسى فأرسل فى مدائنه من يحشر السحرة الماهرين فى سحرهم وكان السحر إذ ذاك متوفراً وعلمه مرغوبًا فيه فجمع خلقًا كثيراً من السحرة ثم أتى كل منهما للموعد واجتمع الناس للموعد فكان الجمع حافلاً حضره الرجال والنساء والملأ والأشراف والعوام والصغار والكبار وحضوا الناس على الاجتماع وقالوا للناس: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ فحين اجتمعوا من جميع البلدان وعظهم موسى عليه السلام وأقام الحجة عليهم وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أى: لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبوا الحق وتفتروا على الله الكذب فيستأصلكم بعذاب من عنده ويخيب سعيكم وافتراؤكم فلا تدركوا ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه ولا تسلموا من عذاب الله، وكلام الحق لا بد أن يؤثر فى القلوب لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم الاشتباه فى موسى هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم إلى الآن ما تم أمرهم ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى وأنهم يتفوقون على مقالة واحدة لينجحوا فى مقالهم وفعالهم وليتمسك الناس بدينهم، والنجوى التى أسروها وفسرها بقوله: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ كمقالة فرعون السابقة، فإما أن يكون ذلك توافقًا من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد وإما أن يكون تلقينا منه لهم مقالته التى صمم عليها وأظهرها للناس وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أى: طريقة السحر حسدكم عليها وأراد أن يظهر عليكم ليكون له الفخر والصيت والشهرة ويكون هو المقصود بهذا العلم الذى شغلتم زمانكم فيه ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض على الاجتهاد فى مغالبته ولهذا قالوا: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أى: أظهروه دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه متناصرين متفقًا رأيكم وكلمتكم ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ ليكون أمكن لعملكم وأهيب لكم فى القلوب ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره فإنه المفلح الفائز فهذا يوم له ما بعده من الأيام فما أصلبهم فى باطلهم وأشدهم فيه حيث أتوا بكل سبب ووسيلة وممكن ومكيدة يكيدون بها الحق ويأبى الله إلا أن يتم نوره ويظهر الحق على الباطل فلما تمت مكيدتهم وانحصر قصدهم ولم يبق إلا العمل ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ خيروه موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأى حالة كانت فقال لهم موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ فألقوا حبالهم وعصيهم ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أى: إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ﴾ البليغ ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ فلما خيل إلى موسى ذلك ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ كما هو مقتضى الطبيعة البشرية وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره ﴿قُلْنَا﴾ له تثبيتًا وتطمينًا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ عليهم أى: ستعلو عليهم وتقهرهم ويذلوا لك ويخضعوا ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أى: عصاك ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أى: كيدهم ومكرهم ليس بمثمر لهم ولا ناجح فإنه من كيد السحرة الذين يموهون على الناس ويلبسون الباطل ويخيلون أنهم على الحق، فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا كله وأكلته والناس ينظرون لذلك الصنيع فعلم السحرة علمًا يقينًا أن هذا ليس بسحر وأنه من الله فبادروا للإيمان ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ﴾ العالمين رب ﴿هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ فوقع الحق وظهر وسطع وبطل السحر والمكر والكيد فى ذلك المجمع العظيم، فصارت بينة ورحمة للمؤمنين وحجة على المعاندين فـ ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أى: كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة منى ولا إذن؟ استغرب ذلك منهم لأدبهم معه وذلهم وانقيادهم له فى كل أمر من أمورهم وجعل هذا من ذاك، ثم استلج فرعون فى كفره وطغيانه بعد هذا البرهان واستخف بقوله قومه وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة ليس لأن الذى معه الحق بل لأنه تمالأ هو والسحرة ومكروا ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا المكر منه وظنوه صدقًا ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ مع أن هذه المقالة التى قالها لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة بالوقع فإن موسى أتى من مدين وحيدًا وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه وأراهم

الآيات فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى فسعى ما أمكنه وأرسل فى مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم، فجاءوا إليه ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة وهم حرصوا غاية الحرص وكادوا أشد الكيد على غلبتهم لموسى وكان منهم ما كان، فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى واتفقوا على ما صدر؟ هذا من أمحل المحال، ثم توعد فرعون السحرة فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ كما يفعل بالمحارب الساعى بالفساد يقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أى: لأجل أن تشهروا وتختزوا ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يعنى بزعمه هو وأمته وأنه أشد عذابًا من الله وأبقى قلبًا للحقائق وترهيبًا لمن لا عقل له، ولهذا لما عرف السحرة الحق ورزقهم الله من العقل ما يدركون به الحقائق أجابوا بقولهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على أن الله هو الرب المعبود وحده المعظم المبجل وحده وأن ما سواه باطل ونؤثرك على الذى فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ مما أوعدتنا به من القطع والصلب العذاب ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما توعدنا به غاية ما يكون فى هذه الحياة الدنيا ينقضى ويزول ولا يضرنا بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره فإنه دائم عظيم، وهذا كأنه جواب منهم لقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ وفى هذا الكلام من السحرة دليل على أنه ينبغى للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ أى: كفرنا ومعاصينا فإن الإيمان مكفر للسيئات والتوبة تَجُبُّ ما قبلها، وقولهم: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ الذى عارضنا به الحق هذا دليل على أنهم غير مختارين فى عملهم المتقدم وإنما أكرههم فرعون إكراهًا، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن موسى لما وعظهم كما تقدم فى قوله: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أثَّر معهم ووقع منهم موقعًا كبيرًا ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة، ثم إن فرعون ألزمهم ذلك وأكرههم على المكر الذى أجروه ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم حيث قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ فجروا على ما سَنَّهُ لهم وأكرههم عليه، ولعل هذه النكتة التى قامت بقلوبهم من كراهتهم لمعارضة الحق بالباطل وفعلهم ما فعلوا على وجه الإغماض هى التى أثرت معهم ورحمهم الله بسببها ووفقهم للإيمان والتوبة، والله خير مما أوعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه وأبقى ثوابًا وإحسانًا لا ما يقول فرعون ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يريد أنه أشد عذابًا وأبقى وجميع ما أتى من قصص موسى مع فرعون يذكر الله فيه إذا أتى على قصة السحرة أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب ولم يذكر أنه فعل ذلك ولم يأت فى ذلك حديث صحيح والجزم بوقوعه أو عدمه يتوقف على الدليل والله أعلم بذلك وغيره.

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

يخبر تعالى أن من أتاه وقدم عليه مجرمًا ـ أى: وصفه الجرم من كل وجه وذلك يستلزم الكفر ـ واستمر على ذلك حتى مات فإنه له نار جهنم الشديد نكالها العظيمة أغلالها البعيد قعرها الأليم حرها وقرها التى فيها من العقاب ما يذيب الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذب فيها لا يموت ولا يحيا حياة لا يموت فيستريح ولا يحيا يتلذذ بها وإنما حياته محشوة بعذاب القلب والروح والبدن الذى لا يقدر قدره ولا يفتر عنه ساعة يستغيث فلا يغاث ويدعو فلا يستجاب له، نعم إذا استغاث أغيث بماء كالمهل يشوى الوجوه وإذا دعا أجيب بـ ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ ومن يأت ربه مؤمنًا به مصدقًا لرسله متبعًا لكتبه ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ الواجبة والمستحبة ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ أى: المنازل العاليات فى الغرف المزخرفات واللذات المتواصلات والأنهار السارحات والخلود الدائم والسرور العظيم فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الثواب ﴿جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أى: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان إما أن لا يفعلها بالكلية أو يتوب مما فعله منها وزكى أيضًا نفسه ونماها بالإيمان والعمل الصالح فإن للتزكية معنيين التنقية وإزالة الخبث والزيادة بحصول الخير وسميت الزكاة زكاة لهذين الأمرين.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) ﴾

لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه مكث فى مصر يدعوهم إلى الإسلام ويسعى فى تخليص بنى إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون فى عتو ونفور وأمره شديد على بنى إسرائيل ويريه الله من الآيات والعبر ما قصه الله علينا فى القرآن وبنو إسرائيل لا يقدرون أن يظهروا إيمانهم ويعلنوه وقد اتخذوا بيوتهم مساجد وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم ويمكن لهم فى الأرض ليعبدوه جهراً ويقيموا أمره فأوحى إلى نبيه موسى أن يواعد بنى إسرائيل سراً ويسيروا أول الليل ليتمادوا فى الأرض وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه فخرجوا أول الليل جميع بنى إسرائيل ونساؤهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر إذا هم ليس فيها منهم داع ولا مجيب فحنق عليهم عدوهم فرعون وأرسل فى المدائن من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج فى أثر بنى إسرائيل فأتبعوهم مشرقين ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ وقلقوا وخافوا، البحر أمامهم وفرعون من ورائهم وقد امتلأ عليهم غيظًا وحنقًا، وموسى مطمئن القلب ساكن البال قد وثق بوعد ربه فقال: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفرق اثنى عشر طريقًا وصار الماء كالجبال العالية عن يمين الطرق ويسارها، وأيبس الله طرقهم التى انفرق عنها الماء وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون ولا يخشوا من الغرق فى البحر فسلكوا فى تلك الطرق، فجاء فرعون وجنوده فسلكوا وراءه حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين أمر الله البحر فالتطم عليهم وغشيهم من اليم ما غشيهم وغرقوا كلهم ولم ينج منهم أحد وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم قد أقر الله أعينهم بهلاكه، وهذه عاقبة الكفر والضلال وعدم الاهتداء بهدى الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ﴾ بما زين لهم من الكفر وتهجين ما أتى به موسى واستخفافه إياهم وما هداهم فى وقت من الأوقات فأوردهم موارد الغى والضلال ثم أوردهم مورد العذاب والنكال.

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) ﴾

يُذَكِّر تعالى بنى إسرائيل منته العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم ومواعدته لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن لينزل عليه الكتاب الذى فيه الأحكام الجليلة والأخبار الجميلة فتتم عليهم النعمة الدينية بعد النعمة الدنيوية ويذكر منته أيضًا عليهم فى التيه بإنزال المن والسلوى والرزق الرغد الهنى الذى يحصل لهم بلا مشقة وأنه قال لهم: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أى: واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ أى: فى رزقه فتستعملوه فى معاصيه وتبطروا النعمة فإنكم إن فعلتم ذلك حل عليكم غضبى أى: غضبت عليكم ثم عذبتكم ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ أى: ردى وهلك وخاب وخسر لأنه عدم الرضا والإحسان وحل عليه الغضب والخسران، ومع هذا فالتوبة معروضة ولو عمل العبد ما عمل من المعاصى، ولهذا قال: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة ﴿ لِّمَن تَابَ ﴾ من الكفر والبدعة والفسوق ﴿ وَآمَنَ ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ من أعمال القلب والبدن وأقوال اللسان ﴿ ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ أى: سلك الصراط المستقيم وتابع الرسول الكريم واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله أوزاره ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة بل الأسباب كلها منحصرة فى هذه الأشياء فإن التوبة تَجُبُّ ما قبلها والإيمان والإسلام يهدم ما قبله والعمل الصالح الذى هو الحسنات يذهب السيئات وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها من تعلم علم وتدبر آية أو حديث حتى يتبين له معنى من المعانى يهتدى به ودعوة إلى دين الحق ورد بدعة أو كفر أو ضلالة وجهاد وهجرة وغير ذلك من جزئيات الهداية كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب.

﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي (٨٦) ﴾

كان الله تعالى قد واعد موسى أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة فأتمها بعشر، فلما تم الميقات بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعد شوقًا لربه وحرصًا على موعده فقال الله له: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ أى: ما الذى قدمك عليهم؟ ولِمَ لَمْ تصبر حتى تقدم أنت وهم؟ قال: ﴿ هُمْ أُوْلاءِ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ أى: قريبًا منى وسيصلون فى أثرى، والذى عجلنى إليك يا رب الطلب لقربك والمسارعة فى رضاك والشوق إليك، فقال الله له: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ أى: بعبادتهم للعجل ابتليناهم واختبرناهم فلم يصبروا وحين وصلت إليهم المحنة كفروا ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا ﴾ وصاغه فصار ﴿ لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا ﴾ لهم ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ ﴾ فنسيه موسى فافتتن به بنو إسرائيل فعبدوه ونهاهم هارون فلم ينتهوا، فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف أى ممتلئ غيظًا وحنقًا وغمًا، قال لهم موبخًا ومقبحًا لفعلهم: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ وذلك بإنزال التوراة ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ أى: المدة فتطاولتم غيبتى وهى مدة قصيرة؟ هذا قول كثير من المفسرين، ويحتمل أن معناه: أفطال عليكم عهد النبوة والرسالة فلم يكن لكم علم ولا أثر واندرست آثارها فلم تقفوا منها على خبر فانمحت آثارهم لبعد العهد بها فعبدتم غير الله لغلبة الجهل وعدم العلم بآثار الرسالة؟ أى: ليس الأمر كذلك بل النبوة بين أظهركم والعلم قائم والعذر غير مقبول ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ ﴾ بفعلكم ﴿ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؟ أى: فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه وهذا هو الواقع ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ حين أمرتكم بالاستقامة ووصيت بكم هارون فلم ترقبوا غائبًا ولم تحترموا حاضرًا.

﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا (٨٩) ﴾

أى: قالوا له: ما فعلنا الذى فعلنا عن تعمد منا وملك منا لأنفسنا ولكن السبب الداعى لذلك أننا تأثمنا من زينة القوم التى عندنا، وكانوا فيما يذكرون استعاروا حليًا كثيرًا من القبط فخرجوا وهو معهم والقوه وجمعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع، وكان السامرى قد بَصُرَ يوم الغرق بأثر الرسول فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره وأنه إذا ألقاها على شىء حَيِيَ فتنة وامتحانًا، فألقاها على ذلك العجل الذى صاغه بصورة عجل فتحرك العجل وصار له خوار وصوت، وقالوا: إن موسى ذهب يطلب ربه وهو ههنا فنسيه، وهذا من بلادتهم وسخافة عقولهم حيث رأوا هذا العجل الغريب الذى صار له خوار بعد أن كان جمادًا فظنوه إله الأرض والسموات ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ ﴾ أن العجل ﴿ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ﴾ أى: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه ﴿ وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾ فالعبادة للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يعبد وهو أنقص من عابديه فإنهم يتكلمون ويقدرون على بعض الأشياء من النفع والدفع بإقدار الله لهم.

﴿ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي (٩٠) قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي (٩٣) قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي (٩٤) ﴾

أى: إنهم باتخاذهم العجل ليسوا معذورين فيه، فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة فى أصل عبادته فإن هارون قد نهاهم عنه وأخبرهم أنه فتنة وأن ربهم الرحمن الذى منه النعم الظاهرة والباطنة الدافع للنقم وأنه أمرهم أن يتبعوه ويعتزلوا العجل، فأبوا وقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فاقبل موسى على أخيه لائمًا وقال: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ فتخبرنى لأبادر للرجوع إليهم؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ فى قولى: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فأخذ موسى برأس هارون ولحيته يجره من الغضب والعتب عليه، فقال هارون: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾ ترقيق له، وإلا فهو شقيقه ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ فإنك أمرتنى أن أخلفك فيهم فلو تبعتك لتركت ما أمرتنى بلزومه وخشيت لائمتك و ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ حيث تركتهم وليس عندهم راع ولا خليفة فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم فلا تجعلنى مع القوم الظالمين ولا تشمت فينا الأعداء، فندم موسى على ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك فـ ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

ثم أقبل على السامري فـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أى: ما شأنك يا سامرى حيث فعلت ما فعلت؟ فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وهو جبريل عليه السلام على فرس رآه وقت خروجهم من البحر وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون فقبضت قبضة من أثر حافر الفرس فنبذتها على العجل ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أن أقبضها ثم أنبذها فكان ما كان، فقال له موسى: ﴿فَاذْهَبْ﴾ أى: تباعد عنى واستأخر منى ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أى: تعاقب فى الحياة عقوبة لا يدنو منك أحد ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك قلت: لا تمسني ولا تقرب منى، عقوبة على ذلك حيث مس ما لم يمسه غيره وأجرى ما لم يُجره أحد ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ فتجازى بعملك من خير وشر ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أى: العجل ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ففعل موسى ذلك، فلو كان إلهًا لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى له بالإتلاف وكان قد أُشْرِبَ العجل فى قلوب بنى إسرائيل فأراد موسى عليه السلام إتلافه ـ وهم ينظرون على وجه لا تمكن إعادته ـ وبالحروق والسحق وذَرْيِه فى اليم ونَسْفِه ليزول ما فى قلوبهم من حبه كما زال شخصه، ولأن فى إبقائه محنة لأن فى النفوس أقوى داع إِلَى الباطل، فلما تبين لهم بطلانه أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له فقال: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أى: لا معبود إلا وجهه الكريم فلا يؤله ولا يُحَبُّ ولا يُرْجَى ولا يُخافُ ولا يُدْعَى إلا هو لأنه الكامل الذى له الأسماء الحسنى والصفات العلى المحيط علمه بجميع الأشياء الذى ما من نعمة بالعباد إلا منه ولا يدفع السوء إلا هو فلا إله إلا هو ولا معبود سواه.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾

يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين وأخبار السالفين كهذه القصة العظيمة وما فيها من الأحكام وغيرها التى لا ينكرها أحد من أهل الكتاب فأنت لم تدرس أخبار الأولين ولم تتعلم ممن دراها، فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم دليل على أنك رسول الله حقًا وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ

آتيناك من لدنا ﴾ أى: عطية نفيسة ومنحة جزيلة من عندنا ﴿ **ذكرًا** ﴾ وهو: هذا القرآن الكريم ذكر للأخبار السابقة واللاحقة وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة ويتذكر به أحكام الأمر والنهى وأحكام الجزاء، وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام التى تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها، وإذا كان القرآن ذكرًا للرسول ولأمته فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم وأما مقابلته بالإعراض أو ما هو أعم منه من الإنكار فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك فهو مستحق للعقوبة، ولهذا قال: ﴿ **من أعرض عنه** ﴾ فلم يؤمن به أو تهاون بأوامره ونواهيه أو بتعلم معانيه الواجبة ﴿ **فإنه يحمل يوم القيامة وزرًا** ﴾ وهو ذنبه الذى بسببه أعرض عن القرآن وأولاه الكفر والهجران ﴿ **خالدين فيه** ﴾ أى: فى وزرهم لأن العذاب هو نفس الأعمال تنقلب عذابًا على أصحابها بحسب صغرها وكبرها ﴿ **وساء لهم يوم القيامة حملاً** ﴾ أى: بئس الحمل الذى يحملونه والعذاب الذى يعذبونه يوم القيامة ثم استطرد فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال:

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ ﴾

أى: إذا نفخ فى الصور وخرج الناس من قبورهم كُلٌّ على حسب حاله فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفدًا والمجرمون يحشرون زُرْقًا ألوانهم من الخوف والقلق والعطش، يتناجون بينهم ويتخافتون فى قصر مدة الدنيا وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم ويسمع ما يقولون ﴿ **إذ يقول أمثلهم طريقة** ﴾ أى: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿ **إن لبثتم إلا يومًا** ﴾ المقصود من هذا الندم العظيم كيف ضيعوا الأوقات القصيرة وقطعوها ساهين لاهين معرضين عما ينفعهم مقبلين على ما يضرهم، فها قد حضر الجزاء وحق الوعيد فلم يبق إلا الندم والدعاء بالويل والثبور، كما قال تعالى: ﴿ **قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين** ﴿١١٢﴾ **قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم فاسأل العادين** ﴿١١٣﴾ **قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون** ﴾.

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أهوال القيامة وما فيها من الزلازل والقلاقل فقال: ﴿ **ويسألونك عن الجبال** ﴾ أى: ماذا يصنع بها يوم القيامة وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿ **فقل ينسفها ربى نسفًا** ﴾ أى: يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن وكالرمل ثم يدكها فيجعلها هباء منبثًا فتضمحل وتتلاشى ويسويها بالأرض ويجعل الأرض قاعًا صفصفًا مستويًا لا يرى فيها الناظر ﴿ **عوجًا** ﴾ هذا من تمام استوائها ﴿ **ولا أمتًا** ﴾ أى: أودية وأماكن منخفضة أو مرتفعة فتبرز الأرض وتتسع للخلائق ويمدها الله مَدَّ الأديم فيكونون فى موقف واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ولهذا قال: ﴿ **يومئذ يتبعون الداعى** ﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها يدعوهم الدعى إلى الحضور والاجتماع للموقف فيتبعون مهطعين إليه لا يلتفتون عنه ولا يعرجون يمنة ولا يسرة، وقوله ﴿ **لا عوج له** ﴾ أى: لا عوج لدعوة الداعى بل تكون دعوته حقًا وصدقا لجميع الخلق يسمعهم جميعهم ويصيح لهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة خاشعة أصواتهم للرحمن ﴿ **فلا تسمع إلا همسًا** ﴾ أى: إلا وطء الأقدام أو المخافتة سرًا بتحريك الشفتين فقط يملكهم الخشوع والسكوت والإنصات انتظارًا لحكم الرحمن فيهم، وتعنو وجوههم أى:

تذل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم الأغنياء والفقراء والرجال والنساء والأحرار والأرقاء والملوك والسوقة ساكتين منصتين خاشعة أبصارهم خاضعة رقابهم جاثين على ركبهم عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به ولا ماذا يفعل به، قد اشتغل كلٌّ بنفسه وشأنه عن أبيه وأخيه وصديقه وحبيبه ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ يحكم فيه الحاكم العدل الديان ويجازى المحسن بإحسانه والمسيء بالحرمان، والأمل بالرب الكريم الرحمن الرحيم أن يرى الخلائق منه من الفضل والإحسان والعفو والصفح والغفران ما لا تعبر عنه الألسنة ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه فيختص المؤمنون به وبرسله بالرحمة، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟ قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه ومن سعة جوده الذي عم جميع البرايا ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا من النعم المتواترة في هذه الدار وخصوصًا في فضل القيامة فإن قوله: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ مع قوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ مع قوله ﷺ: «إن الله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة بها يتراحمون ويتعاطفون حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تطأه من الرحمة المودعة في قلبها فإن كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة فرحم بها العباد» مع قوله ﷺ: «الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها» فقل ما شئت عن رحمته فإنها فوق ما تقول وتصور فوق ما شئت فإنها فوق ذلك فسبحان من رحم في عدله وعقوبته كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء وعم كرمه كل حي وجَلَّ من غَنِيَ عن عباده رحيم بهم وهم مفتقرون إليه على الدوام في جميع أحوالهم فلا غنى لهم عنه طرفة عين، وقوله ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ أي: لا يشفع أحد عنده من الخلق إلا من أذن له في الشفاعة ولا يأذن إلا لمن رضي قوله أي: شفاعته من الأنبياء والمرسلين وعباده المقربين فيمن ارتضى قوله وهو المؤمن المخلص، فإذا اختل واحد من هذه الأمور فلا سبيل لأحد إلى شفاعة من أحد وينقسم الناس في ذلك الموقف إلى قسمين: ظالمين بكفرهم فهؤلاء لا ينالهم إلا الخيبة والحرمان والعذاب الأليم في جهنم وسخط الديان، والقسم الثاني: من آمن الإيمان المأمور به وعمل صالحًا من واجب ومسنون ﴿فَلا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أي: زيادة في سيئاته ﴿وَلا هَضْمًا﴾ أي: نقصًا من حسناته بل تغفر ذنوبه وتطهر عيوبه وتضاعف حسناته ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾

أي وكذلك أنزلنا هذا الكتاب باللسان الفاضل العربي الذي تفهمونه وتفقهونه ولا يخفى عليهم لفظه ولا معناه ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي: نَوَّعناها أنواعًا كثيرة، تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارة بذكر المثلات التي أحلها بالأمم السابقة وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة بذكر آثار الذنوب وما تكسبه من العيوب، وتارة بذكر أهوال القيامة وما فيها من المزعجات والمقلقات، وتارة بذكر جهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب كل هذا رحمة بالعباد لعلهم يتقون الله فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم فكونه عربيًا وكونه مصرفًا فيه من الوعيد أكبر سبب وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح فلو كان غير عربي أو غير مصرف فيه لم يكن له هذا الأثر.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

لما ذكر تعالى حكمه الجزئي في عباده وحكمه الأمري الديني الذي أنزل في الكتاب وكان هذا من آثار ملكه قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ أي: جَلَّ وارتفع وتقدس عن كل نقص وآفة ﴿الْمَلِكُ﴾ الذي الملك وصفه والخلق كلهم مماليك له، وأحكام الملك القدرية والشرعية نافذة فيهم ﴿الْحَقُّ﴾ أي: وجوده وملكه وكماله حق، فصفات الكمال لا تكون حقيقة إلا لذي الجلال ومن ذلك: الملك فإن غيره من الخلق وإن كان له ملك في بعض الأوقات على بعض الأشياء فإنه ملك قاصر باطل يزول وأما الرب فلا يزال ولا يزول مَلِكًا حيًا قيُّومًا جليلاً

﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أى: لا تبادر بتلقُّف القرآن حين يتلوه عليك جبريل واصبر حتى يفرغ منه فإذا فرغ منه فاقرأه فإن الله قد ضمن لك جمعه فى صدرك وقراءتك إياه، كما قال تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ولما كانت عجلته ﷺ على تلقُّف الوحى ومبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم وحرصه عليه أمره تعالى أن يسأله زيادة العلم فإن العلم خير وكثرة الخير مطلوبة وهى من الله، والطريق إليها الاجتهاد والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه فى كل وقت، ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب فى تلقى العلم وأن المستمع للعلم ينبغى له أن يتأنَّى ويصبر حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام مُلْقِي العلم فإنه سبب للحرمان وكذلك المسئول ينبغى له أن يستملى سؤال السائل ويعرف المقصود منه قبل الجواب فإن ذلك سبب لإصابة الصواب.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾

أى: ولقد وصينا آدم وأمرناه وعهدنا إليه عهداً ليقوم به فالتزمه وأذعن له وانقاد وعزم على القيام به ومع ذلك نسي ما أمر به وانتفضت عزيمته المحكمة فجرى عليه ما جرى فصار عبرة لذريته وصارت طبائعهم مثل طبيعة آدم نسى فنسيت ذريته وخطئ فخطئوا ولم يثبت على العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته وأقرَّ بها واعترف فغفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم، ثم ذكر تفصيل ما أجمله فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

أى: لما أكمل خلق آدم بيده وعلمه الأسماء وفضَّله وكرَّمه أمر الملائكة بالسجود له إكرامًا وتعظيمًا وإجلالاً فبادروا بالسجود ممتثلين وكان بينهم إبليس فاستكبر عن أمر ربه وامتنع من السجود لآدم وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فتبينت حينئذ عداوته البليغة لآدم وزوجه لما كان عدوًا لله وظهر من حسده ما كان سبب العداوة، فحذر الله آدم وزوجه منه وقال: ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ إذا أخرجت منها فإن لك فيها الرزق الهنى والراحة التامة ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ﴾ أى: تصيبك الشمس بحرها، فضمن له استمرار الطعام والشراب والكسوة والماء وعدم التعب والنصب، ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة فقال: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فلم يزل الشيطان يوسوس لهما ويزين أكل الشجرة ويقول: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أى: التى من أكل منها خلد فى الجنة ﴿وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ أى: لا ينقطع إذا أكلت منها، فأتاه بصورة ناصح وتلطف له فى الكلام فاغتر به آدم فأكلا من الشجرة فَسُقِطَ فى أيديهما وسقطت كسوتهما واتضحت معصيتهما وبدا لكل منهما سوأة الآخر بعد أن كانا مستورين وجعلا يخصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة ليستترا بذلك وأصابهما من الخجل ما الله به عليم ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ فبادر إلى التوبة والإنابة وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فاجتباه ربه واختاره ويسر له التوبة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه وبطل مكره فتمت النعمة عليه وعلى ذريته ووجب عليهم القيام بها والاعتراف وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم ليلاً ونهاراً ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ أى: ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾

يخبر تعالى أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض وأن يتخذ آدم وبنوه الشيطان عدوًا لهم فيأخذوا الحذر منه ويُعِدُّوا له عُدَّتَه ويحاربوه وأنه سينزل عليهم كتبًا ويرسل إليهم رسلاً يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته ويحذرونهم من هذا العدو المبين وأنهم أى وقت جاءهم ذلك الهدى الذى هو: الكتب والرسل فإن من اتبعه اتبع ما أمر به واجتنب ما نهى عنه فإنه لا يضل فى الدنيا ولا فى الآخرة ولا يشقى فيهما بل قد هُدِىَ إلى صراط مستقيم في الدنيا والآخرة وله السعادة والأمن فى الآخرة، وقد نفى عنه الخوف والحزن فى آية أخرى بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ واتباع الهدى بتصديق الخبر وعدم معارضته بالشبه وامتثال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أى: كتابى الذى يتذكر به جميع المطالب العالية وأن يتركه على وجه الإعراض عنه أو ما هو أعظم من ذلك بأن يكون على وجه الإنكار له والكفر به ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أى: فإن جزاءه أن نجعل معيشته ضيقة مشقة ولا يكون ذلك إلا عذابًا، وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر وأنه يضيق عليه قبره ويحصره فيه ويعذب جزاء لإعراضه عن ذكر ربه وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر، والثانية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ الآية، والثالثة قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ﴾ والرابعة قوله عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ الآية، والذى أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف وقصرها على ذلك ـ والله أعلم ـ آخر الآية وأن الله ذكر فى آخرها عذاب يوم القيامة، وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة فى دار الدنيا بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم والغموم والآلام التى هى عذاب معجل وفى دار البرزخ وفى الدار الآخرة لإطلاق المعيشة الضنك وعدم تقييدها ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ أى: هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ البصر على الصحيح، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قال على وجه الذل والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ﴾ فى دار الدنيا ﴿بَصِيرًا﴾ فما الذى صيرنى إلى هذه الحالة البشعة ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ بإعراضك عنا ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أى: تترك فى العذاب فأجيب بأن هذا هو عين عملك والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك وغشيت عنه ونسيته ونسيت حظك منه أعمى الله بصرك فى الآخرة فحشرت إلى النار أعمى أصم أبكم وأعرض عنك ونسيك فى العذاب ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أى: هذا الجزاء ﴿نَجْزِي﴾ ـ ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ بأن تعدى الحدود وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له ﴿وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة فى غير محلها وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا أضعافا مضاعفة ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لكونه لا ينقطع بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع، فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾

أى: أفلم يهد لهؤلاء المكذبين المعرضين ويدلهم على سلوك طريق الرشاد وتجنب طريق الغى والفساد ما أحل الله بالمكذبين قبلهم من القرون الخالية والأمم المتتابعة الذين يعرفون قصصهم ويتناقلون أسمارهم وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم وأنهم لما كذبوا رسلنا وأعرضوا عن كتبنا أصبناهم بالعذاب الأليم؟ فما الذى يؤَمِّن هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك؟ ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي

الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ لا شىء من هذا كله فليس هؤلاء الكفار خيراً من أولئك حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شر منهم لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب وليس لهم براءة مزبورة وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون أن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم بل هم أذل وأحقر من ذلك، فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهداية لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاءوهم وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات إنما ينتفع بها أولو النهى، أى: العقول السليمة والفطر المستقيمة والألباب التى تزجر أصحابها عما لا ينبغى.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

هذه تسلية للرسول وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم ولزومه لهم لأن الله جعل العقوبات سببًا وناشئًا عن الذنوب ملازمًا لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب ولكن الذى أخره عنهم كلمة ربك المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم وضرب الأجل المسمى فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله هو الذى أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها ولعلهم يراجعون أمر الله فيتوب عليهم ويرفع عنهم العقوبة إذا لم تحق عليهم الكلمة، ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول وأمره أن يتعوض عن ذلك ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه فى هذه الأوقات الفاضلة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وفى أطراف النهار أوله وآخره عموم بعد خصوص وأوقات الليل وساعاته، ولعلك إن فعلت ذلك ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل وليطمئن قلبك وتقر عينك بعبادة ربك وتتسلى بها عن أذيتهم فيخف حينئذ عليك الصبر.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾

أى: ولا تمد عينيك معجبًا ولا تكرر النظر مستحسنًا ـ إلى أحوال الدنيا والممتعين بها من المآكل والمشارب اللذيذة والملابس الفاخرة والبيوت المزخرفة والنساء المجملة، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا تبتهج بها نفوس المغترين وتأخذ إعجابًا ـ بأبصار المعرضين ويتمتع بها ـ بقطع النظر عن الآخرة ـ القوم الظالمون، ثم تذهب سريعًا وتمضى جميعًا وتقتل محبيها وعشاقها فيندمون حيث لا تنفع الندامة ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا يوم القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختبارًا ليعلم من يقف عندها ويغتر بها ومن هو أحسن عملاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة والآجل من النعيم المقيم والعيش السليم فى جوار الرب الرحيم ﴿خَيْرٌ﴾ مما متعنا به أزواجًا فى ذاته وصفاته ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لكونه لا ينقطع أكلها دائم وظلها كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ وفى هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحًا إلى زينة الدنيا وإقبالاً عليها أن يذكر ما أمامها من رزق ربه وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

أى: حث أهلك على الصلاة وأزعجهم إليها من فرض ونفل، والأمر بالشىء أمر بجميع ما لا يتم إلا به فيكون أمرًا بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أى: على الصلاة بإقامتها بحدودها وأركانها وخشوعها فإن ذلك مشق على النفس ولكن ينبغى إكراهها وجهادها على ذلك والصبر معها دائمًا، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أى: رزقك علينا قد تكلفنا به كما تكلفنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا ؟!! ورزق الله عام للمتقى وغيره فينبغى الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية وهو: التقوى ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ فى

الدنيا والآخرة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ التى هى فعل المأمور وترك المنهى، فمن قام بها كان له العاقبة كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

أى: قال المكذبون للرسول ﷺ: هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ وهذا تعنت منهم وعناد وظلم فإنهم هم والرسول بشر عبيد لله فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم وإنما الذى ينزلها ويختار منها ما يختار بحسب حكمته هو الله، ولما كان قولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ يقتضى أنه لم يأتهم بآية على صدقه ولا بينة على حقه وهذا كذب وافتراء فإنه أتى من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ إن كانوا صادقين فى قولهم وأنهم يطلبون الحق بدليله ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ أى: هذا القرآن العظيم المصدق لما فى الصحف الأولى من التوراة والإنجيل والكتب السابقة المطابق لها المخبر بما أخبرت به وتصديقه أيضًا مذكور فيها ومبشر بالرسول بها وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالآيات تنفع المؤمنين ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعرضون عنها المعارضين لها فلا يؤمنون بها ولا ينتفعون بها ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وإنما الفائدة فى سوقها إليهم ومخاطبتهم بها لتقوم عليهم حجة الله ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ بالعقوبة فها قد جاءكم رسولى ومعه آياتى وبراهينى، فإن كنتم كما تقولون فصدقوه، قل يا محمد مخاطبًا للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به ريب المنون ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ فتربصوا بى الموت وأنا أتربص بكم العذاب ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ أى: الظفر أو الشهادة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ ﴿فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أى: المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بسلوكه أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه هو الفائز الراشد الناجى المفلح، ومن حاد عنه فهو خاسر خائب معذب، وقد علم أن الرسول هو الذى بهذه الحالة وأعداؤه بخلافه، والله أعلم.

تم تفسير سورة طه ولله الحمد والشكر.



تفسير سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾

هذا تعجب من حالة الناس وأنهم لا ينجع فيهم تذكير ولا يرعون إلى نذير وأنهم قد قرب حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة والحال أنهم فى غفلة معرضون أى: غفلة عما خلقوا له وإعراض

عما زجروا به، كأنهم للدنيا خلقوا وللتمتع بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ ولا يزالون فى غفلتهم وإعراضهم ولهذا قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ يذكرهم ما ينفعهم ويحثهم عليه وما يضرهم ويرهبهم منه ﴿إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ﴾ سماعًا تقوم عليهم به الحجة ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أى: قلوبهم غافلة معرضة بمطالبها الدنيوية وأبدانهم لاعبة قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل والأقوال الردية مع أن الذى ينبغى لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة تقبل قلوبهم على أمر الله ونهيه وتستمعه استماعًا تفقه المراد منه وتسعى جوارحهم فى عبادة ربهم التى خلقوا لأجلها ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال فبذلك يتم لهم أمرهم وتستقيم أحوالهم وتزكو أعمالهم، وفى معنى قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قولان: **أحدهما**: أن هذه الأمة هى آخر الأمم ورسولنا آخر الرسل وعلى أمته تقوم الساعة فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم لقوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين إصبعيه السبابة والتى تليها» **والقول الثانى**: أن المراد بقرب الحساب الموت وأن من مات قامت قيامته ودخل فى دار الجزاء على الأعمال وأن هذا تعجب من كل غافل معرض لا يدرى متى يفاجئه الموت صباحًا أو مساءً فهذه حالة الناس كلهم إلا من أدركته العناية الربانية فاستعد للموت وما بعده، ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد ومقابلة الحق بالباطل وأنهم تناجوا وتواطأوا فيما بينهم أن يقولوا فى الرسول ﷺ إنه بشر مثلكم فما الذى فضله عليكم وخصه من بينكم فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه لكان قوله من جنس قوله، ولكنه يريد أن يتفضل عليكم ويرأس فيكم فلا تطيعوه ولا تصدقوه وأنه ساحر وما جاء به من القرآن سحر فانفروا عنه ونفروا الناس وقولوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقًا بما يشاهدون من الآيات الباهرة ما لم يشاهده غيرهم ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد والله تعالى قد أحاط علمًا بما تناجوا به وسيجازيهم عليه، ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ الخفى والجلى ﴿فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أى: فى جميع ما احتوت عليه أقطارهما ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما فى الضمائر وأكنته السرائر.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ⑤ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ⑥﴾

يذكر تعالى ائتفاك المكذبين بمحمد ﷺ وبما جاء به من القرآن العظيم وأنهم تقولوا فيه وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة، فتارة يقولون: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ بمنزلة كلام النائم الهازى الذى لا يحس بما يقول، وتارة يقولون: ﴿افْتَرَاهُ﴾ واختلقه وتقوله من عند نفسه وتارة يقولون: إنه شاعر وما جاء به شعر وكل من له أدنى معرفة بالواقع من حالة الرسول ونظر فى هذا الذى جاء به جزم جزمًا لا يقبل الشك أنه أجل كلام وأعلاه وأنه من عند الله وأن أحدًا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى الله أعداءه بذلك ليعارضوه مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته فلم يقدروا على شيء من معارضته وهم يعلمون ذلك، وإلا فما الذى أقامهم وأقعدهم، وأقض مضاجعهم وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذى لا يقوم له شيء؟ وإنما يقولون هذه الأقوال فيه حيث لم يؤمنوا به تنفيرًا عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه وهو كاف شاف، فمن طلب دليلاً غيره أو اقترح آية من الآيات سواه فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه وطلبوا من الآيات الاقتراحية ما هو أضر شيء عليهم وليس لهم فيها مصلحة، لأنهم إن كان قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم وإن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة ــ على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات ــ لا يؤمنون قطعًا، فلو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ أى: كناقة صالح وعصا موسى ونحو ذلك، قال الله: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنته تقتضي أن من طلبها ثم حصلت له لم يأمن أن يعاجله بالعقوبة، فالأولون ما آمنوا بها أفيؤمن هؤلاء بها؟ ما

الذى فضلهم على أولئك وما الخير الذى فيهم يقتضى الإيمان عند وجودها؟ وهذا الاستفهام بمعنى النفى أى: لا يكون ذلك منهم أبدًا.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾

هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلا كان مَلَكًا لا يحتاج إلى طعام وشراب وتصرُّف فى الأسواق؟ وهلا كان خالدًا؟ فإذا لم يكن كذلك دل على أنه ليس برسول وهذه الشبه ما زالت فى قلوب المكذبين للرسل تشابهوا فى الكفر فتشابهت أقوالهم، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول المقرين بإثبات الرسل قبله ـ ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام الذى قد أقر بنبوته جميع الطوائف والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته ـ بأن الرسل قبل محمد ﷺ كلهم من البشر الذين يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وتطرأ عليهم العوارض البشرية من الموت وغيره وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم فصدقهم من صدقهم وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم وأهلك المسرفين المكذبين لهم، فما بال محمد ﷺ تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته وهى موجودة فى إخوانه المرسلين الذين يُقِر بهم المكذبون لمحمد؟ فهذا إلزام لهم فى غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر ولن يقروا برسول من غير البشر فإن شبههم باطلة قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها وتناقضهم بها، فلو قدر انتقالهم هذا إلى إنكار نبوة البشر رأسًا وأنه لا يكون نبى إلم يكن ملكًا مُخَلَّدًا لا يأكل الطعام فقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ وأن البشر لا طاقة لهم بتلقى الوحى من الملائكة ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ من الكتب السالفة كأهل التوراة والإنجيل يخبروكم بما عندهم من العلم وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم، وهذه الآية وإن كان سببها خاصًا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر وهم أهل العلم فإنها عامة فى كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه، وفى تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهى عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم ونهى له أن يتصدى لذلك، وفى هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبية لا مريم ولا غيرها لقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾

أى: لقد أنزلنا إليكم ـ أيها المرسل إليهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ـ كتابًا جليلاً وقرآنًا مبينًا ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أى: شرفكم وفخركم وارتفاعكم إن تذكرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها وامتثلتم ما فيه من الأوامر واجتنبتم ما فيه من النواهى وارتفع قدركم وعظم أمركم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا تعلمون على ما فيه ذكركم وشرفكم فى الدنيا والآخرة فلو كان لكم عقل لسلكتم هذا السبيل، فلما لم تسلكوه وسلكتم غيره من الطرق التى فيها ضعتُكُمْ وخستُكُمْ فى الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما علم أنه ليس لكم معقول صحيح ولا رأى رجيح، وهذه الآية مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول والذين تذكروا بالقرآن من الصحابة فمن بعدهم حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر والصيت العظيم والشرف على الملوك ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل لمن لم يرفع بهذا القرآن رأسًا ولم يهتد ولم يتزكَّ به من المقت والضعة والتدسية والشقاوة فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب.

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى محذرًا لهؤلاء الظالمين المكذبين للرسول بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أى: أهلكنا بعذاب مستأصل ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ تلفت عن آخرها ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وأن هؤلاء المهلكين لما أحسوا بعذاب الله وعقابه وباشرهم نزوله لم يمكن لهم الرجوع ولا طريق لهم إلى النزوع وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم ندمًا وقلقًا وتحسروا على ما فعلوا، فقيل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أى: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار فارجعوا إلى ما أترفتم فيه من اللذات والمشتهيات ومساكنكم المزخرفات ودنياكم التى غرتكم وآلهتكم حتى جاءكم أمر الله، فكونوا فيها متمكنين وللذاتها جانين وفى منازلكم مطمئنين معظمين لعلكم أن تكونوا مقصودين فى أموركم كما كنتم سابقًا مسئولين من مطالب الدنيا كحالتكم الأولى وهيهات أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت وحل بهم العقاب والمقت وذهب عنهم عزهم وشرفهم ودنياهم وحضرهم ندمهم وتحسرهم؟ ولهذا ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أى: الدعاء بالويل والثبور والندم والإقرار على أنفسهم بالظلم وأن الله عادل فيما أحل بهم ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أى: بمنزلة النبات الذى قد حصد وأنم، قد خمدت منهم الحركات وسكنت منهم الأصوات فاحذروا ـ أيها المخاطبون ـ أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل فيحل بكم كما حل بأولئك.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه ما خلق السموات والأرض عبثًا ولا لعبًا من غير فائدة بل خلقها بالحق وللحق ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم المدبر الحكيم الرحمن الرحيم الذى له الكمال كله والحمد كله والعزة كلها، الصادق فى قيله الصادقة رسله فيما تخبر عنه وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمتهما قادر على إعادة الأجساد بعد موتها ليجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ على الفرض والتقدير المحال﴿لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أى: من عندنا ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ولم نطلعهم على ما فيه عبث ولهو لأن ذلك نقص ومثل سوء لا نحب أن نريه إياكم(١)، فالسموات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو، كل هذا تَنَزُّلٌ مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة، فسبحان الحليم الرحيم الحكيم فى تنزيله الأشياء منازلها.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كان باطل قيل وجودل به فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدمغه فيضمحل ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أى: مضمحل فان، وهذا عام فى جميع المسائل الدينية لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية فى إحقاق باطل أو رد حق إلا وفى أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية ما يُذْهِبُ ذلك القول الباطل ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد، وهذا يتبين باستقراء

---

(١) قوله «أن نريه إياكم» خطأ نحوى فالصواب أن يقال: «أن نريكموه» كما قال تعالى ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا﴾ الآية، وقوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ الآية، لأن مهما أمكن الاتصال فى الضمائر، فلا يعدل عنه إلى الانفصال.

المسائل مسألة مسألة فإنك تجدها كذلك، ثم قال: ﴿وَلَكُمُ﴾ أيها الواصفون الله بما لا يليق به من اتخاذ الولد والصاحبة ومن الأنداد والشركاء حظكم من ذلك ونصيبكم الذى تدركون به ﴿الْوَيْلُ﴾ والندامة والخسران، ليس لكم مما قلتم فائدة ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها وتعملون لأجلها وتسعون فى الوصول إليها إلا عكس مقصودكم وهو: الخيبة والحرمان، ثم أخبر أنه له ملك السموات والأرض وما بينهما، فالكل عبيده ومماليكه فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك ولا معاونة عليه ولا يشفع إلا بإذن الله فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة وكيف يجعل لله منها ولدًا؟! فتعالى وتقدس المالك العظيم الذى خضعت له الرقاب وذلَّتْ له الصعاب وخشعت له الملائكة المقربون وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾ أى: الملائكة ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أى: لا يملون ولا يسأمون لشدة رغبتهم وكمال محبتهم وقوة أبدانهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ أى: مستغرقون فى العبادة والتسبيح فى جميع أوقاتهم فليس فى أوقاتهم وقت فارغ ولا خال منها وهم على كثرتهم بهذه الصفة وفى هذا من بيان عظمته وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته ما يوجب أن لا يعبد إلا هو ولا تُصْرَفَ العبادة لغيره.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

لما بيَّن تعالى كمال اقتداره وعظمته وخضوع كل شىء له أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض فى غاية العجز وعدم القدرة ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ استفهام بمعنى النفى أى: لا يقدرون على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ فالمشرك يعبد المخلوق الذى لا ينفع ولا يضر ويدع الإخلاص لله الذى له الكمال كله وبيده الأمر والنفع والضر وهذا من عدم توفيقه وسوء حظه وتوفُّر جهله وشدة ظلمه فإنه لا يصلح الوجود إلا على إله واحد كما أنه لم يوجد إلا برب واحد، ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أى: السموات والأرض ﴿آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فى ذاتهما. وفسد من فيهما من المخلوقات، وبيان ذلك أن العالم العلوى السفلى على ما يرى فى أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام الذى ما فيه خلل ولا عيب ولا ممانعة ولا معارضة فدل ذلك على أن مدبره واحد وربه واحد وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك لاختل نظامه وتقوضت أركانه فإنهما يتمانعان ويتعارضان وإذا أراد أحدهما تدبير شىء وأراد الآخر عدمه فإنه محال وجود مرادهما معًا ووجود مراد أحدهما دون الآخر يدل على عجز الآخر وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد فى جميع الأمور غير ممكن، فإذا يتعين أن القاهر الذى يوجد مراده وحده من غير ممانع ولا مدافع هو الله الواحد القهار ولهذا ذكر الله دليل التمانع فى قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ومنه ـ على أحد التأويلين ـ قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ولهذا قال هنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أى: تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذى هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها فربوبية ما دونه من باب أولى ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: الجاحدون الكافرون من اتخاذ الولد والصاحبة وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وعزته وكمال قدرته لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه لا بقول ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها وإتقانها أحسن كل شىء يقدره العقل فلا يتوجه إليه سؤال لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال ﴿وَهُمْ﴾ أى: المخلوقون كلهم ﴿يُسْأَلُونَ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم لعجزهم وفقرهم ولكونهم عبيدًا قد

استحقت أفعالهم وحركاتهم فليس لهم من التصرف والتدبير فى أنفسهم ولا فى غيرهم مثقال ذرة، ثم رجع إلى تهجين حال المشركين وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقال لهم موبخًا ومقرعًا ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أى: حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه ولن يجدوا لذلك سبيلاً بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه ولهذا قال: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ أى: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذى فيه ذكر كل شىء بأدلته العقلية والنقلية وهذه الكتب السابقة كلها براهين وأدلة لما قلت ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه علم أنه لا برهان لهم لأن البرهان القاطع يجزم أنه لا معارض له وإلا لم يكن قطعيًا، وإن وجد معارضات فإنها شُبَهٌ لا تغنى من الحق شيئًا، وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أى: وإنما أقاموا على ما هم عليه تقليدًا لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم بالحق لخفائه وغموضه وإنما ذلك لإعراضهم عنه وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات لتبين لهم الحق من الباطل تبينًا واضحًا جليًا، ولهذا قال: ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين وأمر بالرجوع إليهم فى بيان هذه المسألة بيَّنها أتم تبيين فى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم زبدة رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له وبيان أنه الإله الحق المعبود وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾

يخبر تعالى عن سفهة المشركين المكذبين للرسول وأنهم زعموا ـ قبحهم الله ـ أن الله اتخذ ولدًا فقالوا: الملائكة بنات الله تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة بأنهم عبيد مربوبون مدبَّرون ليس لهم من الأمر شىء، وإنما هم مكرمون عند الله قد ألزمهم الله وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل وأنهم فى غاية الأدب مع الله والامتثال لأوامره ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أى: لا يقولون قولاً مما يتعلق بتدبير المملكة حتى يقول الله لكمال أدبهم وعلمهم بكمال حكمته وعلمه ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أى: مهما أمرهم امتثلوا لأمره مهما دبرهم عليه فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله ومع هذا فالله قد أحاط بهم علمًا: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أى: أمورهم الماضية والمستقبلة فلا خروج لهم عن علمه كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره، ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول وأنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه فإذا أذن لهم وارتضى من يشفعون فيه شفعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصًا لوجهه متبعًا فيه الرسول، وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة وأن الملائكة يشفعون ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أى: خائفون وَجِلُون قد خضعوا لجلاله وعنت وجوههم لعزه وجماله، فلما بيَّن أنه لا حق لهم فى الألوهية ولا يستحقون شيئًا من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك ـ ذكر أيضًا أنه لا حظ لهم من الألوهية ولا بمجرد الدعوى وأن من قال منهم: ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ﴾ على سبيل الفرض والتنزل ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أى ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركته الله فى خصائص الإلهية والربوبية؟!!

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾

أى: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم وجحدوا الإخلاص له فى العبودية ما يدلهم دلالة مشاهدة على أنه الرب المحمود الكريم المعبود فيشاهدون السماء والأرض فيجدونهما ﴿رَتْقًا﴾ هذه ليس فيها سحاب ولا مطر وهذه هامدة ميتة لا نبات فيها ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ السماء بالمطر والأرض بالنبات، أليس الذى أوجد فى السماء

السحاب بعد أن كان الجو صافيًا لا قزعة فيه وأودع فيه الماء الغزير ثم ساقه إلى بلد ميت قد اغبرَّتْ أرجاؤه وقحط عنه ماؤه فأمطره فيها فاهتزت وتحركت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج مختلف الأنواع متعدد المنافع، أليس ذلك دليلاً على أنه الحق وما سواه باطل وأنه محيى الموتى وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: إيمانًا صحيحًا ما فيه شك ولا شرك، ثم عدد تعالى الأدلة الأفقية فقال:

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾

أى: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال أرساها بها وأوتدها لئلا تميد بالعباد أى: لئلا تضطرب فلا يتمكن العباد من السكون فيها ولا حرثها ولا الاستقرار بها فأرساها بالجبال فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض قد اتصلت اتصالاً كثيرًا جدًا فلو بقيت بحالها جبالاً شامخات وقللاً باذخات لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان فمن حكمة الله ورحمته أن جعل بين تلك الجبال فجاجًا سبلاً، أى: طرقًا سهلة لا حَزَنَة[1] لعلهم يهتدون إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾ للأرض التى أنتم عليها ﴿مَّحْفُوظًا﴾ من السقوط ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ محفوظًا أيضًا من استراق الشياطين للسمع ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ أى: غافلون لاهون وهذا عام فى جميع آيات السماء من علوها وسعتها وعظمتها ولونها الحسن وإتقانها العجيب وغير ذلك من المشاهد فيها من الكواكب الثوابت والسيارات وشمسها وقمرها النيرات المتولد عنهما الليل والنهار وكونهما دائمًا فى فلكهما سابحين وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد والفصول ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم ويستريحون فى ليلهم ويهدأون ويسكنون وينتشرون فى نهارهم ويسعون فى معايشهم كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب وأمعن فيها النظر جزم جزمًا لا شك فيه أن الله جعلها مؤقتة فى وقت معلوم إلى أجل محتوم يقضى العباد منها مآربهم وتقوم بها منافعهم وليستمعوا وينتفعوا ثم بعد هذا ستزول وتضمحل ويفنيها الذى أوجدها ويسكنها الذى حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار يجدون فيها جزاء أعمالهم كاملاً موفرًا ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار وأنها منزل سفر لا محل إقامة.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾

لما كان أعداء الرسول يقولون: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ قال الله تعالى: هذا طريق مسلوك ومعبد منهوك فلم نجعل لبشر ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿الْخُلْدَ﴾ فى الدنيا فإذا مت فسبيل أمثالك من الرسل والأنبياء والأولياء ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ أى: فهل إذا مت خُلِّدُوا بعدك فَلْيَهْنِهِمُ الخلود إذًا إن كان وليس الأمر كذلك بل كل من عليها فان، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى وعمر سنين ولكن الله تعالى أوجد عباده فى الدنيا وأمرهم ونهاهم وابتلاهم بالخير والشر وبالغنى والفقر والعز والذل والحياة والموت فتنة منه تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجاريكم بأعمالكم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر وأنه مخلد فى الدنيا فهو قول لا دليل عليه ومناقض للأدلة الشرعية.

---

(١) حزنة، أى: وعرة صعبة السلوك والمشى فيها.

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

وهذا من شدة كفرهم فإن المشركين إذا رأوا رسول الله استهزأوا به وقالوا: ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ أى: هذا المحتقر بزعمهم الذى يسب آلهتكم ويذمها ويقع فيها، فلا تبالوا به ولا تحتفلوا به، هذا استهزاؤهم واحتقارهم له بما هو من كماله فإنه الأكمل الأفضل الذى من فضائله ومكارمه إخلاص العبادة لله وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه وذكر محله ومكانته ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب وجحدهم لرسله فصاروا بذلك من أخسأ الخلق وأراذلهم ومع هذا فذكرهم للرحمن الذى هو أعلى حالاتهم كافرون به لأنهم لا يذكرونه ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون فذكرهم كفر وشرك فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟ ولهذا قال: ﴿ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ وفى ذكر اسمه (الرحمن) هنا بيان لقباحة حالهم كيف وأنهم قابلوا الرحمن ـ مسدى النعم كلها ودافع النقم الذى ما بالعباد من نعمة إلا منه ولا يدفع السوء إلا هو ـ بالكفر والشرك ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ أى: خلق عجولاً يبادر الأشياء ويستعجل وقوعها فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين ويستبطئونها والكافرون يتولون ويستعجلون بالعذاب تكذيبًا وعنادًا ويقولون: ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ والله تعالى يمهل ولا يهمل ويحلم ويجعل لهم أجلاً مؤقتًا ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ولهذا قال: ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي ﴾ أى: فى انتقامى ممن كفر بى وعصانى ﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ذلك، وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قالوا هذا القول اغترارًا ولما يحق عليهم العقاب وينزل بهم العذاب، فـ ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ حالهم الشنيعة ﴿ حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ إذ قد أحاطت بهم من كل جانب وغشيتهم من كل مكان ﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أى: لا ينصرهم غيرهم فلا نصروا ولا انتصروا ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ النار ﴿ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ إذ هم أذل وأضعف من ذلك ﴿ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أى: يمهلون فيؤخر عنهم العذاب فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة لما استعجلوا بالعذاب ولخافوه أشد الخوف ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم قالوا ما قالوا، ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ سلاه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم فقال: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم ﴾ أى: نزل بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى: نزل بهم العذاب وتقطعت عنهم الأسباب فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى، ذاكرًا عجز هؤلاء الذين اتخذوا من دونه آلهة وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن الذى رحمته شملت البرَّ والفاجرَ فى ليلتهم ونهارهم فقال: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ أى: يحرسكم ويحفظكم ﴿ بِاللَّيْلِ ﴾ إذا كنتم نائمين على فرشكم وذهبت حواسكم ﴿ وَالنَّهَارِ ﴾ وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أى: بدله غيره، أى: هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ فلهذا أشركوا به

وإلا فلو أقبلوا على ربهم وتلقوا نصائحه لَهُدُوا لرشدهم ووفِّقوا فى أمرهم ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ أى: إذا أردناهم بسوءٍ هل من آلهتهم من يقدر على منعهم من ذلك السوء والشر النازل بهم ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أى: لا يعانون على أمورهم من جهتنا وإذا لم يعانوا من الله فهم مخذولون فى أمورهم لا يستطيعون جلب منفعة ولا دفع مضرة، والذى أوجب لهم استمرارهم على كفرهم وشركهم قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أى: أمددناهم بالأموال والبنين وأطلنا أعمارهم فاشتغلوا بالتمتع بها ولهوا بها عما له خلقوا وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وعظم طغيانهم وتغلظ كفرانهم، فلو لفتوا أنظارهم إلى مَن عن يمينهم وعن يسارهم من الأرض لم يجدوا إلا هالكًا ولم يسمعوا إلا صوت ناعية ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك وقد نصب الموت فى كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك(١)، ولهذا قال: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أى: بموت أهلها وفنائهم شيئًا فشيئًا حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين فلو رأوا هذه الحالة لم يغتروا ويستمروا على ما هم عليه ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ وبطاقتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم لقبض أرواحهم أذعنوا وذلوا ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس كلهم: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ أى: إنما أنا رسول لا آتيكم بشىء من عندى ولا عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك وإنما أنذركم بما أوحاه الله إلىَّ فإن استجبتم فقد استجبتم لله وسيثيبكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم فليس بيدى من الأمر شىء وإنما الأمر لله والتقدير كله لله ﴿وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ أى: الأصم لا يسمع صوتًا لأن سمعه قد فسد وتعطل وشرط السماع مع الصوت أن يوجد محل قابل لذلك، كذلك الوحى سبب لحياة القلوب والأرواح والفقه عن الله ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى كان بالنسبة للهدى والإيمان بمنزلة الأصم بالنسبة إلى الأصوات فهؤلاء المشركون صم عن الهدى فلا يستغرب عدم اهتدائهم خصوصًا فى هذه الحالة التى لم يأتهم فيها العذاب ولا مسهم ألمه ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أى: ولو جزء يسير من عذابه ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أى: لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والثبور والندم والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم العذاب.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يخبر تعالى عن حكمه العدل وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم يوم القيامة وأنه يضع لهم الموازين العادلة التى يبين فيها مثاقيل الذر الذى توزن به الحسنات والسيئات ﴿فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مسلمة ولا كافرة ﴿شَيْئًا﴾ بأن تنقص من حسناتها أو يزاد فى سيئاتها ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التى هى أصغر الأشياء وأحقرها من خير أو شر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ وأحضرناها ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ يعنى بذلك نفسه الكريمة فكفى بها حاسب أى: عالمًا بأعمال العباد حافظًا لها مثبتًا لها فى الكتاب عالمًا بمقاديرها ومقادير ثوابها واستحقاقها موصلاً للعمال جزاءها.

---

(١) الأشراك مفرده (شرك) بفتح الشين والراء، ومعناه: الفخ الذى يستعمله الصيادون.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠)﴾

كثيرًا ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما ولا أعظم ذكرًا ولا أبرك ولا أعظم هدى وبيانًا وهما: التوراة والقرآن، فأخبر أنه آتى موسى أصلا وهارون تبعًا ﴿الْفُرْقَانَ﴾ وهي التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال وأنها ﴿وَضِيَاءً﴾ أي: نور يهتدي به المهتدون ويأتم به السالكون وتعرف به الأحكام ويميز به بين الحلال والحرام وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم ويتذكرون به الخير والشر وخص ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك علمًا وعملاً، ثم فسر المتقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: يخشونه في حال غيبتهم وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى فيتورعون عما حرم ويقومون بما ألزم ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون لكمال معرفتهم بربهم فجمعوا بين الإحسان والخوف والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات الواردة على شيء واحد وموصوف واحد ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكرًا يتذكر به جميع المطالب من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم ومن أحكام الجزاء والجنة والنار فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكرًا لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر من التصديق بالأخبار الصادقة والأمر بالحسن عقلاً والنهي عن القبيح عقلاً وكونه ﴿مُّبَارَكٌ﴾ يقتضي كثرة خيره ونمائه وزيادته ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن فإن كل خير ونعمة وزيادة دينية أو دنيوية أو أخروية فإنها بسببه وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكرًا مباركًا وجب تلقيه بالقبول والانقياد والتسليم وشكرًا لله على هذه المنحة الجليلة والقيام بها واستخراج بركته بتعلم ألفاظه ومعانيه ومقابلته بضد هذه الحالة من الإعراض عنه والإضراب عنه صفحًا وإنكاره وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره فقال: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)﴾

لما ذكر تعالى موسى ومحمداً ﷺ وكتابيهما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ أى: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما فأراه الله ملكوت السموات والأرض وأعطاه من الرشد الذى كمل به نفسه ودعا الناس إليه ما لم يؤته أحداً من العالمين غير محمد وأضاف الرشد إليه لكونه رشداً بحسب حاله وعلو مرتبته وإلا فلا مؤمن إلا وله من الرشد بحسب ما معه فى الإيمان ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أى: أعطيناه رشده واختصصناه بالرسالة والخلة واصطفيناه فى الدنيا والآخرة لعلمنا أنه أهل لذلك وكفء له لزكائه [1] وذكائه [2] ولهذا ذكر محاجته لقومه ونهيهم عن الشرك وتكسير الأصنام وإلزامهم بالحجة، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ التى مثلتموها ونحتموها بأيديكم على صور بعض المخلوقات ﴿الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ مقيمون على عبادتها ملازمون لذلك فما هى؟ وأى فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التى ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها ونحتموها بأيديكم فهذا من أكبر العجائب تعبدون ما تنحتون فأجابوا بغير حجة جواب العاجز الذى ليس بيده أدنى شبهة فقالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ كذلك يفعلون فسلكنا سبيلهم واتبعناهم على عبادتها ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة ولا تجوز به القدوة: خصوصًا فى أصل الدين وتوحيد رب العالمين ولهذا قال لهم إبراهيم ــ مضللاً للجميع: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: ضلال بين واضح، وأى ضلال أبلغ من ضلالهم فى الشرك وترك التوحيد؟!! أى: فليس ما قلتم يصلح للتمسك به وقد اشتركتم وإياهم فى الضلال الواضح البيِّن لكل أحد ﴿قَالُوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله والاستفهام لما قال وكيف بادأهم بتسفيههم وتسفيه آبائهم ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ أى: هذا القول الذى قلته والذى جئتنا به هل هو حق وجد؟ أم كلامك لنا كلام لاعب مستهزئ لا يدرى ما يقول؟ وهذا الذى أرادوا، وإنما رددوا الكلام بين الأمرين لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد أن الكلام الذى جاء به إبراهيم كلام سفيه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم ردًا يبين به وجه سفههم وقلة عقولهم فقال: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلى والدليل السمعى، أما الدليل العقلى فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات من بنى آدم والملائكة والجن والبهائم والسموات والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطوراً مدبرًا متصرفًا فيه ودخل فى ذلك جميع ما عبد من دون الله، أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز أن يعبد مخلوقًا متصرفًا فيه لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟ أما الدليل السمعى فهو المنقول عن الرسل عليهم السلام فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك فلهذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أى: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأى شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصًا أولى العزم منهم خصوصًا خليل الرحمن ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شىء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها وليكيد كيداً يحصل به إقرارهم بذلك فلهذا قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ أى أكسرها على وجه الكيد ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم فلما تولوا مدبرين ذهب إليها بخفية ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أى: كسرًا وقطعًا وكانت مجموعة فى بيت واحد فكسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أى إلا صنمهم الكبير فإنه تركه لمقصد سيبينه، وتأمل هذا الاحتراز العجيب فإن كل ممقوت عند الله لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم إلا على وجه إضافته لأصحابه كما كان النبى ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: «إلى عظيم الفرس» «إلى عظيم الروم» ونحو ذلك ولم يقل «إلى العظيم» وهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ ولم يقل: «كبيراً من أصنامهم» فهذا ينبغى التنبيه له والاحتراز من تعظيم ما حقره الله إلا إذا أضيف إلى من عظمه، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أى ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه ويستملوا حجته ويلتفتوا إليها ولا يعرضوا عنها ولهذا قال فى آخرها: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزى ﴿قَالُوا مَن

(١) قوله (لزكائه) أى: طهارته قلبًا ونفسًا.

(٢) وقوله (لذكائه) أى: لفطنته، وتوقد ذكائه، وسعة عقله.

﴿فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فرموا إبراهيم بالظلم الذى هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة وقد رأى ما يفعل بها ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أى يعيبهم ويذمهم ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذى كسرها، أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ﴾ أى: بإبراهيم ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أى بمرأى منهم ومسمع ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أى: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم وهذا الذى أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾ أى: التكسير ﴿بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؟ وهذا استفهام تقرير، أى: فما الذى جرأك وما الذى أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟ فقال إبراهيم والناس مشاهدون: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أى: كسرها غضبًا عليها لما عُبدت معه وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم المقصد منه إلزامهم الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ وأراد: الأصنام المكسرة اسألوها لم كُسرت؟ والصنم الذى لم يكسر اسألوه لأى شىء كسرها إن كان عندهم نطق فسيجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم وكل أحد يدرى أنها لا تنطق ولا تتكلم ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها ممن يريدها بأذى ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: ثابت إليهم عقولهم ورجعت إليهم أحلامهم وعلموا أنهم ضالون فى عبادتها وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فحصل بذلك المقصود ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل وأن فعلهم كفر وظلم ولكن لم يستمروا على هذه الحالة بل(١) ﴿نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أى: انقلب الأمر عليهم وانتكست عقولهم وضلت أحلامهم فقالوا لإبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تتهكم بنا وتستهزئ بنا وتأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟ فقال إبراهيم ـ موبخًا لهم ومعلنًا بشركهم على رءوس الأشهاد ومبينًا عدم استحقاق آلهتهم للعبادة: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ فلا نفع ولا دفع ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: ما أضلكم وأخسر صفقتكم وما أخسكم أنتم وما عبدتم من دون الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لتعرفوا هذه الحال فلما عدمتم العقل وارتكبتم الجهل والضلال على بصيرة صارت البهائم أحسن حالاً منكم فحينئذ لما أفحمهم ولم يبينوا حجة استعملوا قوتهم فى معاقبته، و ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أى: اقتلوه أشنع القتلات بالإحراق غضبًا لآلهتكم ونصرة لها، فتعسًا لهم ثم تعسًا حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم واتخذوه إلهًا، فانتصر الله لخليله لما ألقوه فى النار وقال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ فكانت عليه بردًا وسلامًا لم ينله فيها أذى ولا أحس بمكروه ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ حيث عزموا على إحراقه ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة كما جعل الله خليله وأتباعه هم الرابحين المفلحين ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله وهاجر ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أى: الشام فغادر قومه فى «بابل» من أرض العراق ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ إنه هو العزيز الحكيم ومن بركة الشام أن كثيرًا من الأنبياء كانوا فيها وأن الله اختارها مهاجرًا لخليله وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة وهو بيت المقدس ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ حين اعتزل قومه ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق ﴿نَافِلَةً﴾ بعدما كبر وكانت زوجته عاقرًا فبشرته الملائكة بإسحاق ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ويعقوب هو إسرائيل الذى كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم الذى كانت منه الأمة الفاضلة العربية ومن ذريته سيد الأولين والآخرين ﴿وَكُلًّا﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أى: قائمين بحقوقه وحقوق عباده، ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إمامًا يهتدى به المهتدون ويمشى خلفه السالكون وذلك لما صبروا وكانوا بآيات الله يوقنون، وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى: يهدون الناس بديننا لا يأمرون بأهواء أنفسهم بل بأمر الله ودينه واتباع مرضاته ولا يكون العبد إمامًا حتى يدعو

(١) قوله «بل» فى الأصل المطبوع «ولكن» وهو خطأ لذلك أبدلناها بـ «بل» ليستقيم الكلام.

إلى أمر الله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها وهذا شامل للخيرات كلها من حقوق الله وحقوق العباد ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ولأن من كملهما كما أمر كان قائمًا بدينه، ومن ضيعهما كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال التى فيها حقه والزكاة أفضل الأعمال التى فيها الإحسان لخلقه ﴿وَكَانُوا لَنَا﴾ أى: لا لغيرنا ﴿عَابِدِينَ﴾ أى: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية فى أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم فاتصفوا بما أمر الله به الخلق وخلقهم لأجله.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾

وهذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعى والحكم بين الناس بالصواب والسداد وأن الله أرسله إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش فلبث يدعوهم فلم يستجيبوا له فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم لأنهم ﴿كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ كذبوا الداعى وتوعدوه بالإخراج ونجى الله لوطًا وأهله، فأمره أن يسرى بهم ليلاً ليبعدوا عن القرية فسروا ونجوا وذلك من فضل الله عليهم ومنّته ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ التى من دخلها كان من الآمنين من جميع المخاوف النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين الذى صلحت أعمالهم وزكت أحوالهم وأصلح الله فاسدهم، والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحًا الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)﴾

أى: واذكر عبدنا ورسولنا نوحًا عليه السلام مثنيًا مادحًا حين أرسله الله إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عن الشرك به ويبدى فيهم ويعيد ويدعوهم سرًا وجهارًا وليلاً ونهارًا، فلما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ ولا يفيد لديهم الزجر نادى ربه وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فاستجاب الله له فأغرقهم ولم يبق منهم أحدًا ونجّى الله نوحًا وأهله ومن معه من المؤمنين فى الفلك المشحون وجعل ذريته هم الباقين ونصرهم الله على قومه المستهزئين.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)﴾

أى: واذكر هذين النبيين الكريمين «سليمان» و«داود» مثنيًا مبجلاً إذ آتاهما الله العلم الواسع والحكم بين العباد بدليل قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أى: إذ تحاكم إليهما صاحب حرث نفشت فيه غنم القوم الأخرى، أى: رعت ليلاً فأكلت ما فى أشجاره ورعت زرعه، فقضى فيه داود عليه السلام بأن الغنم تكون لصاحب الحرث نظرًا إلى تفريط أصحابها فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق

للصواب بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بدَرِّها(١) وصوفها ويقومون على بستان صاحب الحرث حتى يعود إلى حاله الأولى فإذا عاد إلى حاله ترادًّا(٢) ورجع كل منهما بماله، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام، ولهذا قال: ﴿ففهمناها سليمان﴾ أى: فهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله فى غيرها ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله: ﴿وكلاً﴾ من داود وسليمان ﴿آتينا حكمًا وعلمًا﴾ وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب وقد يخطئ ذلك وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده، ثم ذكر ما خص به كلاً منهما فقال: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ وذكر أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكرًا وتسبيحًا وتمجيدًا، وكان قد أعطاه الله من حسن الصوت ورقته ورخامته ما لم يؤته أحدًا من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله جاوبته (الجبال) الصم والطيور البُهْم وهذا فضل الله عليه وإحسانه ولهذا قال: ﴿وكنا فاعلين (٧٩) وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾ أى: علم الله داود عليه السلام صنعة الدروع فهو أول من صنعها وعلمها وسرت صناعته إلى من بعده فألان الله له الحديد وعلمه كيف يسردها والفائدة فيها كبيرة ﴿لتحصنكم من بأسكم﴾ أى: هى وقاية لكم وحفظ عند الحرب واشتداد البأس ﴿فهل أنتم شاكرون﴾ نعمة الله عليكم حيث أجراها على يد عبده داود، كما قال تعالى: ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع وإلانتها أمر خارق للعادة، وأن يكون كما قاله المفسرون: إن الله ألان له الحديد حتى كان يعمله كالعجين والطين من دون إذابة له على النار، ويحتمل أن تعليم الله له على جارى العادة وأن إلانة الحديد له بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها، وهذا هو الظاهر لأن الله امْتَنَّ على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعته من الأمور التى جعلها الله مقدورة للعباد لم يمتن عليهم بذلك ويذكر فائدتها لأن الدروع التى صنع داود عليه السلام متعذر أن يكون المراد أعينها وإنما المِنَّةُ بالجنس، والاحتمال الذى ذكره المفسرون لا دليل عليه إلا قوله: ﴿وألنا له الحديد﴾ وليس فيه أن الإلانة من دون سبب والله أعلم بذلك ﴿ولسليمان الريح﴾ أى: سخرناها ﴿عاصفة﴾ أى: سريعة فى مرورها ﴿تجرى بأمره﴾ حيث أُديرَتْ امتثلت أمره غدوها شهر ورواحها شهر ﴿إلى الأرض التى باركنا فيها﴾ وهى أرض الشام حيث كان مقره، فيذهب على الريح شرقًا وغربًا ويكون مأواها ورجوعها إلى الأرض المباركة ﴿وكنا بكل شىء عالمين﴾ قد أحاط علمنا بجميع الأشياء وعلمنا داود وسليمان ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا ﴿ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك﴾ هذا أيضًا من خصائص سليمان عليه السلام أن الله سخر له الشياطين والعفاريت وسلطه على تسخيرهم فى الأعمال التى لا يقدر على كثير منها غيرهم، فكان منهم من يغوص له فى البحر ويستخرج الدر واللؤلؤ وغير ذلك، ومنهم من يعمل له ﴿محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾ وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس ومات وهم على علمه وبقوا بعده سنة حتى علموا موته كما سيأتى إن شاء الله تعالى ﴿وكنا لهم حافظين﴾ أى: لا يقدرون على الامتناع عنه وعصيانه بل حفظهم الله له بقوته وعزته وسلطانه.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٨٣) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ (٨٤)﴾

أى: واذكر عبدنا ورسولنا أيوب مثنيًا معظمًا له رافعًا لقدره حين ابتلاه ببلاء شديد فوجده صابرًا راضيًا عنه، وذلك أن الشيطان سُلط على جسده ابتلاء من الله وامتحانًا فنفخ فى جسده فتقرح قروحًا عظيمة(٣) ومكث

---

(١) درها، أى: لبنها.		(٢) ترادًّا، أى: يرد كل من صاحب الحرث والغنم للآخر ما أخذه منه.

(٣) قوله «فتقرح قروحًا عظيمة إلخ» هذه عبارة توهم أن أيوب صار بحالة يشمئز الناظر إليه والمقرر فى العقيدة الإسلامية فى باب النبوات أن الأنبياء يستحيل عليهم الأمراض المنفرة للناس كالبرص والتقرحات فى أبدانهم والعمى والصمم، لأنهم مرشدون محتاجون إلى مخالطة الناس لإرشادهم، والنبى إذا كان بحالة تتقزز منها النفس لا يستمع إليه أحد، ولا يمكنه ـ والحالة هذه ـ أن يجالس الناس ويجتمع معهم وبالتالى لا يقدر على القيام بواجب الدعوة، لذلك كان من اللوازم الواجبة للرسل أن يكونوا على أحسن حالة وأجمل هيئة، نعم يجوز لهم الأعراض البشرية كالأمراض ولكن بشرط أن لا تكون منفرة، وللكلام فى ذلك مجال آخر، ليس هنا محل بسطه.

مدة طويلة واشتد به البلاء ومات أهله وذهب ماله فنادى ربه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ وبرحمة ربه الواسعة العامة استجاب الله له وقال: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فركض برجله فخرجت من ركضته عين ماء باردة فاغتسل منها وشرب فأذهب الله عنه ما به من الأذى ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ أي: رددنا عليه أهله وماله ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ بأن منحه الله العافية ومن الأهل والمال شيئًا كثيرًا ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ به حيث صبر ورضى فأثابه الله ثوابًا عاجلاً قبل ثواب الآخرة ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أي: جعلناه عبرة للعابدين الذين ينتفعون بالصبر، فإذا رأوا ما أصاب أيوب عليه السلام من البلاء ثم ما أثابه الله بعد زواله ونظروا السبب وجدوه الصبر، ولهذا أثنى الله عليه به في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضر.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)﴾

أي: واذكر عبادنا المصطفين وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر وأثن عليهم أبلغ الثناء إسماعيل بن إبراهيم وإدريس وذا الكفل نبيين من أنبياء بني إسرائيل ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ والصبر هو: حبس النفس ومنعها مما تميل بطبعها إليه وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام حتى يوفى هذه الثلاثة حقها، فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله بالصبر فدل أنهم وفوها حقها وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضًا بالصلاح وهو يشمل صلاح القلب بمعرفة الله ومحبته والإنابة إليه كل وقت وصلاح اللسان بأن يكون رطبًا من ذكر الله وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله برحمته وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوه بذكرهم في العالمين وجعل لهم لسان صدق في الآخرين لكفى بذلك شرفًا وفضلاً.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾

أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون وهو: يونس أي: صاحب النون وهي الحوت بالذكر الجميل والثناء الحسن فإن الله تعالى أرسله إلى قومه فدعاهم فلم يؤمنوا فوعدهم بنزول العذاب بأمد سماه لهم، فجاءهم العذاب ورأوه عيانًا فعجوا إلى الله وضجوا وتابوا فرفع الله عنهم العذاب كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وهذه الأمة العظيمة الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضبًا وأبق عن ربه لذنب من الذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه ولا حاجة لنا إلى تعيينها لقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ﴾ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: فاعل ما يلام عليه وظن أن الله لا يقدر عليه أي: يضيق عليه في بطن الحوت أو يظن أنه سيفوت الله تعالى ولا مانع(١) من عروض هذا الظن للكل من الخلق على وجه لا يستقر ولا يستمر عليه فركب في السفينة مع أناس فاقترعوا مَن يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصابت القرعة يونس فالتقمه الحوت وذهب فيه إلى ظلمات البحار فنادى في تلك الظلمات: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فأقر لله تعالى بكمال الألوهية ونزهه

---

(١) قوله «ولا مانع إلخ» عجيب جدًا أن يظن بنبي أنه يعرض له أنه سيفوت الله ويأوى إلى مكان خارج عن ملكه، تعالى وقدرته، ومعلوم أن هذا العروض مستحيل على الصالحين من عباد الله فكيف بالأنبياء؟!! ولا شك أن هذا الظن بالأنبياء من أشد المستحيلات وأن ذلك لا يليق بمراتبهم العليَّة التي حباهم الله إياها.

عن كل نقص وعيب وآفة واعترف بظلم نفسه وجنايته، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أى: الشدة التى وقع فيها ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع فى شدة وغم أن الله تعالى سينجيه منها ويكشف عنه ويخفف لإيمانه كما فعل بـ «يونس» عليه السلام.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٨٩) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ (٩٠)﴾

أى: واذكر عبدنا ورسولنا ذكريا منوهًا بذكره ناشرًا لمناقبه وفضائله التى من جملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحه الخلق ورحمة الله إياه، وأنه ﴿نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ من هذه الآيات علمنا أن قوله: ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أنه لما تقارب أجله خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه فى الدعوة إلى الله والنصح لعباد الله وأن يكون فى وقته فردًا ولا يخلف من يشفعه ويعينه على ما قام به ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أى: خير الباقين وخير من خلفنى بخير وأنت أرحم بعبادك منى ولكنى أريد أن يطمئن به قلبى وتسكن له نفسى ويجرى فى موازينى ثوابه ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ النبى الكريم الذى لم يجعل الله له من قبل سميًا ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ بعدما كانت عاقرًا لا يصلح رحمها للولادة فأصلح الله رحمها للحمل لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح أنه مبارك على قرينه فصار يحيي مشتركًا بين الوالدين، ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين كُلا على انفراد أثنى عليهم عمومًا فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أى: يبادرون إليها ويفعلونها فى أوقاتها الفاضلة ويكملونها على الوجه اللائق الذى ينبغى ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أى يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين وهم راغبون لا غافلون لا لاهون ولا مدلون ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أى خاضعين متذللين متضرعين وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (٩١) إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ (٩٤)﴾

أى: واذكر مريم عليها السلام مثنيًا عليها مبينًا لقدرها شاهرًا لشرفها، فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أى: حفظته من الحرام وقربانه بل ومن الحلال فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة واستغراق وقتها بالخدمة لربها، وحين جاءها جبريل فى صورة بشر سَوِيٍّ تامِّ الخلق والحسن ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ فجازاها الله من جنس عملها ورزقها ولدًا من غير أب بل نفخ فيها جبريل عليه السلام فحملت بإذن الله ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ حيث حملت به ووضعته من دون مسيس أحد وحيث تكلم فى المهد وبرأها مما ظن بها المتهمون وأخبر عن نفسه فى تلك الحالة وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين يتحدث بها جيلاً بعد جيل ويعتبر بها المعتبرون، ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام قال مخاطبًا للناس: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: هؤلاء المذكورون هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون وبهديهم تقتدون كلهم على دين واحد وصراط واحد والرب أيضًا واحد، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ الذى خلقتكم وربيتكم بنعمتى فى الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحدًا والنبى واحدًا والدين واحدًا وهو: عبادة الله وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء

ترتيب المسبب على سببه وكان اللائق الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه ولكن البغى والاعتداء أبيا إلا الافتراق والتقطع، ولهذا قال: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فِرَقًا وتشتتوا كُلٌّ يدَّعِى أن الحق معه والباطل مع الفريق الآخر، و ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ وقد علم أن المصيب منهم من كان سالكًا للدين القويم والصراط المستقيم مؤتمًا بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشفت الغطاء وبرح الخفاء وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كُلٌّ﴾ من الفرق المتفرقة وغيرهم ﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أى: فنجازيهم أتم الجزاء، ثم فصل جزاءه فيهم منطوقًا ومفهومًا فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الأعمال التى شرعتها الرسل وحثت عليها الكتب ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبرسله وما جاءوا به ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أى: لا نضيع سعيه ولا نبطله بل نضاعفه له أضعافًا كثيرة ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أى: مثبتون له فى اللوح المحفوظ وفى الصحف التى مع الحفظة، أى: ومن يعمل من الصالحات أو عملها وهو ليس بمؤمن فإنه محروم خاسر فى دينه ودنياه.

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

أى: يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا ما فرطوا فيه فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب، فليحذر المخاطبون أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم فلا يمكن رفعه وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

هذا تحذير من الله للناس أن يقيموا على الكفر والمعاصى وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج وهما قبيلتان من بنى آدم وقد سد عليهم ذو القرنين لما شُكِىَ إليه إفسادهم فى الأرض، وفى آخر الزمان ينفتح السد عنهم فيخرجون إلى الناس وفى هذه الحالة والوصف الذى ذكره الله من كل مكان مرتفع وهو الحدب ﴿يَنسِلُونَ﴾ أى: يسرعون، وفى هذا دلالة على كثرتهم الباهرة وإسراعهم فى الأرض إما بذواتهم وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التى تقرب لهم البعيد وتسهل عليهم الصعب وأنهم يقهرون الناس ويعلون عليهم فى الدنيا وأنه لا يد لأحد بقتالهم ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أى يوم القيامة الذى وعد الله بإتيانه ووعده حق وصدق ففى ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفزاع والأهوال المزعجة والقلاقل المفظعة وما كانوا يعرفون من جناياتهم وذنوبهم وأنهم يدعون بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات ويقولون: ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم العظيم فلم نزل فيها مستغرقين وفى لهو الدنيا متمتعين حتى أتانا اليقين ووردنا القيامة فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة لماتوا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم فحينئذ يؤمر بهم إلى النار هم وما كانوا يعبدون ولهذا قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

أى: وإنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أى: وقودها وحطبها ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ وأصنامكم والحكمة فى دخول الأصنام النار وهى جماد لا تعقل وليس عليها ذنب ـ بيان كذب من اتخذها آلهة وليزداد عذابهم فلهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ هذا كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون لا يخرجون منها ولا ينقلون عنها ﴿ **لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ** ﴾ من شدة العذاب ﴿ **وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ** ﴾ صم بكم عمى أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها لشدة غليانها واشتداد زفيرها وتغيظها ودخول آلهة المشركين النار إنما هو الأصنام أو من عُبد وهو راض بعبادته، وأما المسيح وعزير والملائكة ونحوهم ممن عبد من الأولياء فإنهم لا يعذبون فيها ويدخلون فى قوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ** ﴾ أى: سبقت لهم سابقة السعادة فى علم الله وفى اللوح المحفوظ وفى تيسيرهم فى الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة ﴿ **أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا** ﴾ أى: عن النار ﴿ **مُبْعَدُونَ** ﴾ فلا يدخلونها ولا يكونون قريبًا منها بل يبعدون عنها غاية البعد حتى لا يسمعوا حسيسها ولا يروا شخصها ﴿ **وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ** ﴾ من المآكل والمشارب والمناكح والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مستمر لهم ذلك يزداد حسنه على الأحقاب ﴿ **لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ** ﴾ أى: لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع وذلك يوم القيامة حين تقرب النار تتغيظ على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم لعلمهم بما يقدمون عليه وأن الله قد أمنهم مما يخافون ﴿ **وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ** ﴾ إذا بعثوا من قبورهم وأتوا على النجائب وفدًا لنشورهم مهنئين لهم قائلين: ﴿ **هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ فَلْيَهْنِكُمْ ما وعدكم الله وليعظم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة وليكثر فرحكم وسروركم بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره.

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) ﴾

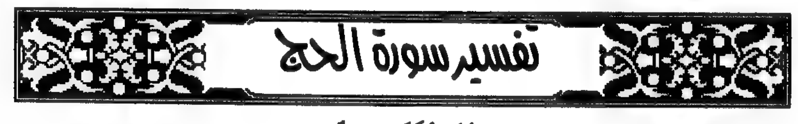
يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوى السموات - على عظمها واتساعها - كما يطوى الكاتب للسجل أى: الورقة المكتوب فيها، فتنتشر نجومها وتكور شمسها وقمرها وتزول عن أمكانها ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ** ﴾ أى إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا لخلقهم فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئًا كذلك نعيدهم بعد موتهم ﴿ **وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ ننفذ ما وعدنا لكمال قدرته وأنه لا تمتنع منه الأشياء ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ** ﴾ وهو الكتاب المزبور والمراد: الكتب المنزلة كالتوراة ونحوها ﴿ **مِن بَعْدِ الذِّكْرِ** ﴾ أى: كتبناه فى الكتب المنزلة بعد ما كتبنا فى الكتاب السابق الذى هو اللوح المحفوظ وأم الكتاب الذى توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب فى ذلك ﴿ **أَنَّ الأَرْضَ** ﴾ أى أرض الجنة ﴿ **يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ الذين قاموا بالمأمورات واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يورثهم الله الجنات كقول أهل الجنة: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ** ﴾ ويحتمل أن المراد: الاستخلاف فى الأرض وأن الصالحين يمكن الله لهم فى الأرض ويوليهم عليها كقوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾.

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾

يثنى الله تعالى على كتابه العزيز «القرآن» ويبين كفايته التامة من كل شىء وأنه لا يستغنى عنه فقال: ﴿ **إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ** ﴾ أى: يتبلغون به فى الوصول إلى ربهم وإلى دار كرامته فيوصلهم إلى أجل المطالب وأفضل الرغائب وليس للعابدين الذين هم أشرف الخلق وراءه غاية لأنه الكفيل بمعرفة ربهم بأسمائه وصفاته وأفعاله وبالإخبار بالغيوب الصادقة وبالدعوة لحقائق الإيمان وشواهد الإيقان المبين للمأمورات كلها والمنهيات جميعًا المعرف بعيوب النفس والعمل والطرق التى ينبغى سلوكها فى دقيق الدين وجليله والتحذير من طرق الشيطان وبيان مداخله على الإنسان فمن لم يغنه القرآن فلا أغناه الله ومن لا يكفه فلا كفاه الله، ثم أثنى على

رسوله الذى جاء بالقرآن فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فهو رحمته المهداة لعباده فالمؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها وغيرهم كفروها وبدلوا نعمة الله كفرًا وأبوا رحمة الله ونعمته ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الذى لا يستحق العبادة إلا هو ولهذا قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى: منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما منَّ عليهم بهذه النعمة التى فاقت المنن ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم فحذرهم حلول المثلات ونزول العقوبة ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ﴾ أى: أعلمتكم بالعقوبة ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى علمى وعلمكم بذلك مستو فلا تقولوا - إذا نزل بكم العذاب ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ بل الآن استوى علمى وعلمكم لما أنذرتكم وحذرتكم وأعلمتكم بمآل الكفر ولم أكتم عنكم شيئًا ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أى: من العذاب لأن علمه عند الله وهو بيده ليس لى من الأمر شىء ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: لعل تأخير العذاب الذى استعجلتموه شر لكم وأن تتمتعوا فى الدنيا إلى حين ثم يكون أعظم لعقوبتكم ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: بيننا وبين القوم الكافرين، فاستجاب الله هذا الدعاء وحكم بينهم فى الدنيا قبل الآخرة بما عاقب الله به الكافرين من وقعة «بدر» وغيرها ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أى: نسأل ربنا الرحمن ونستعين به على ما تصفون من قولكم، سنظهر عليكم وسيضمحل دينكم، فنحن فى هذا لا نعجب بأنفسنا ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن الذى ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعنا به ومن رحمته، وقد فعل، والحمد لله.

تم تفسير سورة الأنبياء ولله الحمد والمنة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾

يخاطب الله الناس كافة بأن يتقوا ربهم الذى رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه بترك الشرك والفسوق والعصيان ويمتثلوا أوامره مهما استطاعوا، ثم ذكر ما يعينهم على التقوى ويحذرهم من تركها وهو: الإخبار بأهوال القيامة فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة رجفت الأرض وزلزلت زلزالها وتصدعت الجبال واندكت وكانت كثيبًا مهيلاً ثم كانت هباء منبثًا، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج فهناك تنفطر السماء وتكور الشمس والقمر وتنتثر النجوم ويكون من القلاقل والبلابل ما تنصدع له القلوب وتوجل منه الأفئدة وتشيب منه الولدان وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها خصوصًا فى هذه الحال التى لا يعيش إلا بها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ من شدة الفزع والهول ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ أى: تحسبهم أيها الرائى لهم - سكارى من الخمر وليسوا سكارى ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فلذلك أذهب عقولهم وفرغ قلوبهم وملأها من الفزع وبلغت القلوب الحناجر وشخصت الأبصار، وفى ذلك اليوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا، ويوم ﴿يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ وهناك يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانًا خليلاً، وتسود حينئذ وجوه وتبيض وجوه، وتنصب الموازين التى يوزن بها مثاقيل الذر من الخير والشر وتنشر صحائف الأعمال وما فيها من جميع الأعمال والأقوال والنيات من صغير وكبير، وينصب الصراط

على متن جهنم وتزلف الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظًا وزفيراً وإذا ألقوا منها مكانًا ضيقًا مقرنين ودعوا هنالك ثبوراً، ويقال لهم: ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ وإذا نادوا ربهم ليخرجهم منها قال: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ قد غضب عليهم الرب الرحيم وحضرهم العذاب الأليم وأيسوا من كل خير ووجدوا أعمالهم كلها لم يفقدوا منها نقيراً ولا قطميراً، هذا والمتقون فى روضات الجنات يحبرون وفى أنواع اللذات يتفكهون وفيما اشتهت أنفسهم خالدون، فحقيق بالعاقل الذى يعرف أن كل هذا أمامه أن يُعدَّ له عُدتهُ وأن لا يلهيه الأمل فيترك العمل وأن تكون تقوى الله شعاره وخوفه دثاره ومحبة الله وذكره روح أعماله.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

أى: ومن الناس طائفة وفرقة سلكوا طريق الضلال وجعلوا يجادلون بالباطل الحق يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم فى غاية الجهل ما عندهم من العلم شىء، وغاية ما عندهم تقليد أئمة الضلال من كل شيطان مريد متمرد على الله وعلى رسله معاند لهم وقد شاقَّ الله ورسوله وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار ﴿كُتب عليه﴾ أى: قدر على هذا الشيطان المريد ﴿أنَّه من تولاه﴾ أى: اتبعه ﴿فأنَّه يُضلُّه﴾ عن الحق ويجنبه الصراط المستقيم ﴿ويهديه إلىٰ عذاب السَّعير﴾ وهذا نائب إبليس حقًا، فإن الله قال عنه: ﴿إنَّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السَّعير﴾ فهذا الذى يجادل فى الله قد جمع بين ضلاله بنفسه وتصديه إلى إضلال الناس وهو متبع ومقلد لكل شيطان مريد ظلمات بعضها فوق بعض ويدخل فى هذا جمهور أهل الكفر والبدع فإن أكثرهم مقلدة يجادلون بغير علم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاس إن كنتُم فى ريب من البعث﴾ أى: شك واشتباه وعدم علم بوقوعه مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم وتصدقوا رسله فى ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب فهاكم دليلين عقليين تشاهدونهما كل واحد منهما يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه ويزيل على قلوبكم الريب، أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان وأن الذى ابتدأه سعيده فقال فيه: ﴿فإنَّا خلقناكم من تراب﴾ وذلك بخلق أبى البشر آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ من نُّطفة﴾ أى: منىٍّ وهذا ابتداء أول التخليق ﴿ثُمَّ من علقة﴾ أى: تنقلب تلك النطفة بإذن الله دمًا أحمر ﴿ثُمَّ من مُّضغة﴾ أى: ينتقل الدم مضغة أى: قطعة لحم بقدر ما يمضغ وتلك المضغة تارة تكون ﴿مُّخلَّقة﴾ أى: مصور منها خلق الآدمى ﴿وغير مُخلَّقة﴾ تارة بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها ﴿لِّنُبيِّن لكُم﴾ أصل نشأتكم مع قدرته تعالى على تكميل خلقه فى لحظة واحدة ولكن ليبين لنا كمال حكمته وعظيم قدرته وسعة رحمته ﴿ونُقرُّ فى الأرحام ما نشاء إلىٰ أجل مُّسمًّى﴾ ونقر أى: نبقى فى الأرحام من الحمل الذى لم تقذفه الأرحام ما نشاء إبقاءه إلى أجل مسمى وهو مدة الحمل ﴿ثُمَّ نُخرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طفلاً﴾ لا تعلمون شيئًا وليس لكم قدرة وسخرنا لكم الأمهات وأجرينا لكم فى ثديها الرزق ثم تنقلون طوراً بعد طور حتى تبلغوا أشدكم وهو كمال القوة

والعقل ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ من قبل أن يبلغ سن الرشد، ومنكم من يتجاوزه فيرد إلى أرذل العمر أى: أخسه وأرذله وهو: سن الهرم والتخريف الذى به يزول العقل ويضمحل كما زالت باقى القوة وضعفت ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أى: لأجل أن لا يعلم هذا المعمر شيئًا مما كان يعلمه قبل ذلك وذلك لضعف عقله، فقوة الآدمى محفوفة بضعفين ضعف الطفولية ونقصها وضعف الهرم ونقصه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ والدليل الثانى: إحياء الأرض بعد موتها فقال الله فيه: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أى: خاشعة مغبرة لا نبات فيها ولا خضرة ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ أى: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ أى: ارتفعت بعد خشوعها[1] وذلك لزيادة نباتها ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أى: صنف من أصناف النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ أى: يبهج الناظرين ويسر المتأملين، فهذان الدليلان القاطعان يدلان على هذه المطالب الخمسة وهى هذه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى أنشأ الآدمى مما وصف لكم وأحيا الأرض بعد موتها ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الرب المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له، وعبادته هى الحق وعبادة غيره باطلة ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِى الْمَوْتَىٰ﴾ كما ابتدأ الخلق وكما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ فلا وجه لاستبعادها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى الْقُبُورِ﴾ فيجازيكم بأعمالكم حسنها وسيئها.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

المجادلة المتقدمة للمقلد وهذه المجادلة للشيطان المريد الداعى إلى البدع، فأخبر بأنه ﴿يُجَادِلُ فِى اللَّهِ﴾ أى: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ صحيح ﴿وَلا هُدًى﴾ أى: غير متبع فى جداله هذا من يهديه لا عقل مرشد ولا متبوع مهتد ﴿وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أى: واضح بين فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هذه إلا شبهات يوحيها إليه الشيطان ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ مع هذا ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِ﴾ أى: لاوىَ جانبه وعنقه وهذا كناية عن كبره عن الحق واحتقاره للخلق فقد فرح بما معه من العلم الغير النافع واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس أى: ليكون من دعاة الضلال، ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال: ﴿لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أى: يفتضح هذا فى الدنيا قبل الآخرة، وهذا من آيات الله العجيبة فإنك لا تجد داعيًا من دعاة الكفر والضلال إلا وله من المقت بين العالمين واللعنة والبغض والذم ما هو حقيق به وكلٌّ بحسب حاله ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أى: نذيقه حرَّها الشديد وسعيرها البليغ وذلك بما قدمت يداه ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من العذاب الدنيوى والأخروى، وما فيه من معنى البعد، وهو معنى اللام فى «ذلك» الموضوعة للدلالة على البعد، للدلالة على كون الكافر فى الغاية القصوى من الهول والفظاعة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أى: بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أى: والأمر أنه تعالى ليس بمعذب عبيده بغير ذنب من قبلهم، والمعنى الإجمالى: أنه يقال للكافر الموصوف بتلك الأوصاف فى الآيتين السابقتين: ذلك الذى تلقاه من خزى وعذاب إنما كان بسبب افترائك وتكبرك لأن الله عادل لا يظلم ولا يسوى بين المؤمن والكافر والصالح والفاجر بل يجازى كلا منهم بعمله.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾

أى: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان لم يدخل الإيمان قلبه ولم تخالطه بشاشته بل دخل فيه إما خوفًا

---

(١) قوله «خشوعها» هكذا فى الأصل المطبوع والمناسب هنا أن يقال «خفوضها» لينتظم الكلام ويظهر جمال الطباق «خفوضها» و «ارتفعت».

وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أى: إن استمر رزقه رغدًا ولم يحصل له من المكاره شيء واطمأن بذلك الخير لا إيمانه، فهذا ربما أن الله يعافيه ولا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ من حصول مكروه أو زوال محبوب ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أى: ارتد عن دينه ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أما فى الدنيا فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذى جعل الردة رأسًا لماله وعوضًا عما يظن إدراكه فخاب سعيه ولم يحصل له إلا ما قسم له، وأما الآخرة فظاهر حرم الجنة التى عرضها السموات والأرض واستحق النار ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أى: الواضح البَيِّن ﴿يَدْعُو﴾ هذا الراجع على وجهه ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ﴾ وهذا صفة كل مدعو ومعبود من دون الله فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ الذى بلغ فى البعد إلى حد النهاية حيث أعرض عن عبادة النافع الضار الغنى المغنى، وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه ليس بيده من الأمر شيء بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب ولهذا قال: ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ فإن ضرره فى العقل والبدن والدنيا والآخرة معلوم ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ أى: هذا المعبود ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أى: القرين الملازم على صحبته، فإن المقصود من المولى والعشير حصول النفع ودفع الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا فإنه مذموم ملوم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

لما ذكر تعالى المجادل بالباطل وأنه على قسمين: مقلد وداع، ذكر أن المتسمى بالإيمان أيضًا على قسمين: قسم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم، والقسم الثانى: المؤمن حقيقة صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة، فأخبر تعالى أنه يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، وسميت الجنة جنة لاشتمالها على المنازل والقصور والأشجار والنباتات التى تُجنُّ مَنْ فيها ويستتر بها من كثرتها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فمهما أراده تعالى فعله من غير ممانع ولا معارض ومن ذلك إيصال أهل الجنة إليها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

أى من كان يظن(١) أن الله لا ينصر رسوله وأن دينه سيضمحل فإن النصر من الله ينزل من السماء ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ النصر عن الرسول ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ أى: ما يكيد به الرسول ويعمله من محاربته والحرص على إبطال دينه ما يغيظه من ظهور دينه وهذا استفهام بمعنى النفى أى: إنه لا يقدر على شفاء غيظه بما يعمله من الأسباب، ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المغادى للرسول محمد ﷺ الساعى فى إطفاء دينه الذى يظن بجهله أن سعيه سيفيده شيئًا، اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب وسعيت فى كيد الرسول فإن ذلك لا يذهب غيظك ولا يشفى كمدك فليس لك قدرة فى ذلك، ولكن سنشير عليك برأى تتمكن به من شفاء غيظك ومن قطع النصر عن الرسول إن كان ممكنًا ائت الأمر من بابه وارتق إليه بأسبابه، اعمد إلى حبل من ليف أو غيره ثم عَلِّقْهُ فى السماء ثم اصعد به حتى تصل إلى الأبواب التى ينزل منها النصر فَسُدَّها وأغلقها واقطعها، فبهذه الحال تشفى غيظك فهذا هو الرأىُ والمكيدة وما سوى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفى بها غيظك ولو ساعدك من ساعدك من الخلق، وهذه الآية الكريمة فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ولرسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفى ومن تأييس الكافرين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون أى: وسعوا مهما أمكنهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

---

(١) الظن هنا ليس على حقيقة الذى هو «إدراك الطرف الراجح» بل هو بمعنى اليقين، فيكون المعنى: «من كان يعتقد أن الله لا ينصر رسوله... إلخ».

أى: وكذلك لما فصلنا فى هذا القرآن ما فصلنا جعلناه آيات بينات واضحات دالات على جميع المطالب والمسائل النافعة ولكن الهداية بيد الله فمن أراد الله هدايته اهتدى بهذا القرآن وجعله إمامًا له وقدوة واستضاء بنوره ومن لم يرد الله هدايته فلو جاءته كل آية ما آمن ولم ينفعه القرآن شيئًا بل يكون حجة عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ (١٨) ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾

يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض من الذين أوتوا الكتاب من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ومن المجوس ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل ويجازيهم بأعمالهم التى حفظها وكتبها وشهدها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ كل يدعى أنه المحق ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يشمل كل كافر من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والمشركين ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أى: يجعل لهم ثياب من قطران وتشعل فيها النار ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ الماء الحار جدًا يصهر ما فى بطونهم من اللحم والشحم والأمعاء من شدة حره وعظيم أمره ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ بيد الملائكة الغلاظ الشداد تضربهم فيها وتقمعهم ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فلا يُفَتَّرُ عنهم العذاب ولا هم ينظرون ويقال لهم توبيخًا: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أى: المحرق للقلوب والأبدان ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين الذين آمنوا بجميع الكتب وجميع الرسل ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ أى: يُسَوَّرُونَ فى أيديهم رجالهم ونساؤهم أساور الذهب ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فتم نعيمهم بذلك من أنواع المأكولات اللذيذات المشتمل عليها لفظ الجنات وذكر الأنهار السارحات أنهار الماء واللبن والعسل والخمر وأنواع اللباس والحلى الفاخر، وذلك بسبب أنهم ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الذى أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص ثم سائر الأقوال الطيبة التى فيها ذكر الله أو إحسان إلى عباد الله ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أى: الصراط المحمود وذلك لأن جميع الشرع كله محتو على الحكمة والحمد وحسن المأمور به وقبح المنهى وهو الدين الذى لا إفراط فيه ولا تفريط المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح، أو وهدوا إلى صراط الله الحميد لأن الله كثيرًا ما يضيف الصراط إليه لأنه يوصل صاحبه إلى الله، وفى ذكر ﴿الْحَمِيدِ﴾ هنا ليبين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم ومنته عليهم، ولهذا يقولون فى الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ واعترض تعالى بين هذه الآيات بذكر سجود المخلوقات له جميع من فى السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب الذى يشمل الحيوانات كلها وكثير من الناس وهم المؤمنون ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أى: وجب وكتب لكفره وعدم إيمانه فلم يوفقه للإيمان لأن الله أهانه ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ ولا رادَّ لما أراد ولا معارض لمشيئته فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته مستكينة لعزته عانية لسلطانه دل على أنه وحده الرب المعبود والملك المحمود وأن من عدل عنه إلى عبادة سواه فقد ضل ضلالاً بعيدًا وخسر خسرانًا مبينًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾

يخبر تعالى عن شناعة ما عليه الكافرون بربهم وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله وبين الصد عن سبيل الله ومنع الناس من الإيمان والصد أيضًا عن المسجد الحرام الذى ليس ملكًا لهم ولا لآبائهم بل الناس فيه سواء المقيم فيه والطارئ إليه بل صدوا عنه أفضل الخلق محمدًا وأصحابه والحال أن المسجد الحرام من حرمته واحترامه وعظمته أن من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم، فمجرد الإرادة للظلم والإلحاد فى الحرم موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم من الكفر والشرك والصد عن سبيله، ومنع من يريده بزيارة فما ظنكم أن يفعل الله بهم؟ وفى هذه الآية الكريمة وجوب احترام الحرم وشدة تعظيمه والتحذير من إرادة المعاصى فيه وفعلها.

﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

يذكر تعالى غظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه وهو خليل الرحمن فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أى: هيأناه له وأنزلنا إياه، وجعل قسمًا من ذريته من سكانه وأمره الله ببنيانه، فبناه على تقوى الله وأسسه على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل وأمره أن لا يشرك به شيئًا بأن يخلص لله أعماله ويبنيه على اسم الله ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ أى: من الشرك والمعاصى ومن الأنجاس والأدناس، وأضافه الرحمن إلى نفسه لشرفه وفضله ولتعظم محبته فى القلوب وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر وقراءة وتعلم علم وتعليمه وغير ذلك من أنواع القرب ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أى: المصلين أى: طهره لهؤلاء الفضلاء الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته والتقرب إليه عند بيته، فهؤلاء لهم الحق ولهم الإكرام ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم ويدخل فى تطهيره تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التى تشوش على المتعبدين بالصلاة والطواف وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة لاختصاصه بهذا البيت ثم الاعتكاف لاختصاصه بجنس المساجد ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أى: أعلمهم به وادعهم إليه وبلّغ دانيهم وقاصيهم فرضه وفضيلته، فإنك إذا دعوتهم أتوك حجاجًا: وعمارًا ﴿رِجَالًا﴾ أى: مشاة على أرجلهم من الشوق ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أى: ناقة ضامر تقطع المهامه والمفاوز وتواصل السير حتى تأتى إلى أشرف الأماكن ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أى: من كل بلد بعيد، وقد فعل الخليل عليه السلام ثم من بعده ابنه محمد ﷺ فدعيا إلى حج هذا البيت وأبديا فى ذلك وأعادا، وقد حصل ما وعد الله به، أتاه الناس رجالاً وركبانًا من مشارق الأرض ومغاربها، ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام مرغبًا فيه فقال: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أى: لينالوا ببيت الله منافع دينية من العبادات الفاضلة والعبادات التى لا تكون إلا فيه ومنافع دنيوية من التكسب وحصول الأرباح الدنيوية وكل هذا أمر مشاهد كلّ يعرفه ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية، أى: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا شكرًا لله على ما رزقهم منها ويسرها لهم، فإذا ذبحتموها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ أى: شديد الفقر ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أى: يقضوا نسكهم ويزيلوا الوسخ والأذى الذى لحقهم فى حال الإحرام ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ التى أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أى: القديم أفضل المساجد على الإطلاق، والمعتق: من تسلط الجبابرة عليه، وهذا أمر بالطواف خصوصًا بعد الأمر بالمناسك له عمومًا لفضله وشرفه ولكونه المقصود

وما قبله وسائل إليه، ولعله ـ والله أعلم أيضًا ـ لفائدة أخرى وهو: أن الطواف مشروع كل وقت وسواء كان تابعًا لنسك أم مستقلاً بنفسه.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكرنا لكم من تلكم الأحكام وما فيها من تعظيم حرمات الله وإجلالها وتكريمها لأن تعظيم حرمات الله من الأمور المحبوبة لله المقربة إليه التى من عظمها وأجلها أثابه الله ثوابًا جزيلاً وكانت خيرًا له فى دينه ودنياه وأخراه عند ربه، وحرمات الله: كل ما له حرمة وأمر باحترامه من عبادة أو غيرها كالمناسك كلها وكالحرم والإحرام وكالهدايا وكالعبادات التى أمر الله العباد بالقيام بها فتعظيمها يكون إجلالاً بالقلب ومحبتها تكميل العبودية فيها غير متهاون ولا متكاسل ولا متثاقل ثم ذكر منته وإحسانه بما أحله لعباده من بهيمة الأنعام من إبل وبقر وغنم وشرعها من جملة المناسك التى يتقرب بها إليه فعظمت منته فيها من الوجهين ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فى القرآن تحريمه من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ الآية، ولكن الذى من رحمته بعباده أن حرمه عليهم ومنعهم منه تزكية لهم وتطهيرًا من الشرك به وقول الزور، ولهذا قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ أى: الخبث القذر ﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ أى: الأنداد التى جعلتموها آلهة مع الله فإنها أكبر أنواع الرجس والظاهر أن ﴿مِنَ﴾ هنا ليست لبيان الجنس كما قاله كثير من المفسرين وإنما هى للتبعيض، وأن الرجس عام فى جميع المنهيات المحرمات، فيكون منهيًا عنها عمومًا وعن الأوثان التى هى بعضها خصوصًا ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أى: جميع الأقوال المحرمات فإنها من قول الزور، أمرهم أن يكونوا ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مقبلين عليه وعلى عبادته معرضين عما سواه ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ فمثله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أى: سقط منها ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ بسرعة ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أى: بعيد كذلك المشركون فالإيمان بمنزلة السماء محفوظة مرفوعة ومن ترك الإيمان بمنزلة الساقط من السماء عرضة للآفات والبليات، فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب ومزقوه وأذهبوا عليه دينه ودنياه، وإما أن تأخذه عاصفة شديدة من الريح فتعلو به فى طبقات الجو فتقذفه بعد أن تنقطع أعضاؤه فى مكان بعيد جدًا.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

أى: ذلك الذى ذكرناه لكم من تعظيم حرماته وشعائره، والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة ومنها المناسك كلها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ومنها الهدايا والقربان للبيت، وتقدم أن معنى تعظيمها إجلالها والقيام بها وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا فتعظيمها باستحسانها واستسمانها وأن تكون مكملة من كل وجه فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أى: فى الهدايا ﴿مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا فى الهدايا المسوقة من البدن ونحوها ينتفع بها أربابها بالركوب والحلب ونحو ذلك مما لا يضرها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مقدر موقت وهو ذبحها إذا وصلت ﴿مَحِلُّهَا﴾ وهو ﴿الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أى الحرام كله «منى» غيرها فإذا ذبحت أكلوا منها وأهدوا وأطعموا البائس الفقير.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾

أى: ولكل أمة من الأمم السالفة جعلنا منسكًا، أى: فاستبقوا إلى الخيرات وسارعوا إليها ولننظر أيكم أحسن عملاً والحكمة فى جعل الله لكل أمة منسكًا إقامة ذكره والالتفات لشكره، ولهذا قال: ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وإن اختلفت أجناس الشرائع فكلها متفقة على هذا الأصل وهو ألوهية الله وإفراده بالعبودية وترك الشرك به، ولهذا قال: ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ أى: انقادوا واستسلموا له لا لغيره فإن الإسلام له طريق الوصول إلى دار السلام ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ بخير الدنيا والآخرة والمخبت: الخاضع لربه المستسلم لأمره المتواضع لعباده، ثم ذكر صفات المخبتين فقال: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى: خوفًا وتعظيمًا فتركوا لذلك المحرمات لخوفهم ووجلهم من الله وحده ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من البأساء والضراء وأنواع الأذى فلا يجرى منهم التسخط لشىء من ذلك بل صبروا ابتغاء وجه ربهم محتسبين ثوابه مرتقبين أجره ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ ﴾ أى: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة بأن أدوا اللازم فيها والمستحب وعبوديتها الظاهرة والباطنة ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة كالزكاة والكفارة والنفقة على الزوجات والمماليك والأقارب والنفقات المستحبة كالصدقات بجميع وجوهها، وأتى بـ «من» المفيدة للتبعيض ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه وأنه جزء يسير مما رزق الله ليس العبد فى تحصيله قادرة لولا تيسير الله له ورزقه إياه، فيا أيها المرزوق من فضل الله أنفق مما رزقك الله ينفق الله عليك ويزدك من فضله.

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾

هذا دليل على أن الشعائر عام فى جميع أعلام الدين الظاهرة وتقدم أنه الله أخبر أن من عظم شعائره فإن ذلك من تقوى القلوب، وهنا أخبر أن من جملة شعائره البدن أى: الإبل والبقر على أحد القولين فتعظم وتسمن وتستحسن ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أى: للمهدى وغيره من الأكل والصدقة والانتفاع والثواب والأجر ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ أى: عند ذبحها قولوا: «باسم الله» واذبحوها ﴿ صَوَافَّ ﴾ أى: قائمات بأن تقام على قوائمها الأربع ثم تعقل يدها اليسرى ثم تنحر ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أى: سقطت على[1] الأرض جنوبها حين تسلخ ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض فحينئذ قد استعدت لأن يؤكل منها ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ وهذا خطاب للمهدى فيجوز له الأكل من هديه ﴿ وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ أى: الفقير الذى لا يسأل تقنعًا وتعففًا، والفقير الذى يسأل، فكل منهما له حق فيها ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ أى: البدن ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على تسخيرها، فإنه لولا تسخيره لها لم يكن لكم بها طاقة ولكنه ذللها لكم وسخرها رحمة بكم وإحسانًا إليكم فاحمدوه، وقوله: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا ﴾ أى: ليس المقصود منها ذبحها فقط، ولا ينال الله من لحومها ولا دمائها شىء لكونه الغنى الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها والاحتساب والنية الصالحة ولهذا قال: ﴿ وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ففى هذا حث وترغيب على الإخلاص فى النحر وأن يكون القصد وجه الله وحده لا فخرًا ولا رياء ولا سمعة ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله كان كالقشر الذى لا لب فيه والجسد الذى لا

---

(١) قوله «أى سقطت» إلى «لأن يؤكل منها» العبارة قلقة كما ترى، والصواب أن يقال «أى: سقطت جنوبها على الأرض، فإذا سلخها الجزار، تكون قد صلحت لأن يؤكل منها» وبهذا يتضح المعنى بأوجز عبارة.

روح فيه ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أى: تعظموه وتجلوه ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أى: مقابلة لهدايته إياكم فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد وأعلى التعظيم ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ بعبادة الله بأن يعبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة فليعبدوه معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم ورؤيته إياهم، والمحسنين لعباد الله بجميع وجوه الإحسان من نفع مال أو علم أو جاه أو نصح أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو كلمة طيبة ونحو ذلك فالمحسنون لهم البشارة من الله بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن الله إليهم كما أحسنوا فى عبادته ولعباده ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

هذا إخبار ووعد وبشارة من الله للذين آمنوا أن الله يدفع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم - بسبب إيمانهم - كل شر من شرور الكفار وشرور وسوسة الشيطان وشرور أنفسهم وسيئات أعمالهم ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون فيخفف عنهم غاية التخفيف، كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه فمستقل ومستكثر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أى: خائن فى أمانته التى حمله الله إياها فيبخس حقوق الله عليه ويخونها ويخون الخلق ﴿كَفُورٍ﴾ لنعم الله يوالى الله عليه الإحسان ويتوالى منه الكفر والعصيان، فهذا لا يحبه الله بل يبغضه ويمقته وسيجاريه على كفره وخيانته، ومفهوم الآية أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته شكور لمولاه.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

كان المسلمون فى أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار ومأمورين بالصبر عليهم لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة وأوذوا وحصل لهم منعة وقوة أذن لهم بالقتال كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلونهم، وإنما أذن لهم لأنهم ظلموا بمنعهم من دينهم وأذيتهم عليه وإخراجهم من ديارهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فليستنصروه وليستعينوا به، ثم ذكر صفة ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ أى: ألجئوا إلى الخروج بالأذية والفتنة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا﴾ أن ذنبهم الذى نقم منهم أعداؤهم ﴿أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أى: إلا لأنهم وحدوا الله وعبدوه مخلصين له الدين، فإن كان هذا ذنبًا فهو ذنبهم كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهذا يدل على حكمة الجهاد، فإن المقصود منه إقامة دين الله أو ذَبُّ الكفار المؤذين للمؤمنين البادئين لهم بالاعتداء عن ظلمهم واعتدائهم والتمكن من عبادة الله وإقامة الشرائع الظاهرة، ولهذا قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ فيدفع الله بالمجاهدين فى سبيله ضرر الكافرين ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ أى: لهدمت هذه المعابد الكبار لطوائف أهل الكتاب معابد اليهود والنصارى والمساجد للمسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ أى: فى هذه المعابد ﴿اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ تقام فيها الصلوات وتتلى فيها كتب الله ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر، فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لاستولى الكفار على المسلمين فخربوا معابدهم وفتنوهم عن دينهم، فدل هذا أن الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذى ومقصود لغيره، ودل ذلك على أن البلدان التى حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله وعمرت مساجدها وأقيمت فيها شعائر الدين كلها من فضائل المجاهدين وبركتهم فبذلك دفع الله عنها الكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب مع أنها كثير منها إمارة صغيرة وحكومة غير منظمة مع أنهم لا بد لهم بقتال

من جاورهم من الإفرنج بل نرى المساجد التى تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة وأهلها آمنون مطمئنون مع قدرة ولاتهم من الكفار على هدمها، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه المعابد ونحن لا نشاهد دفعًا أجيب بأن جواب هذا السؤال والاستشكال داخل فى عموم هذه الآية وفرد من أفرادها، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها وداخل فى حكمها تعتبره عضوًا من أعضاء المملكة وجزءًا من أجزاء الحكومة سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بعَددها أو عُددها أو مالها أو علمها أو خدمتها، فتراعى الحكومات مصالح ذلك الشعب الدينية والدنيوية وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها وتفقد بعض أركانها فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم خصوصًا المساجد فإنها - ولله الحمد - فى غاية الانتظام حتى فى عواصم الدول الكبار، وتراعى تلك الدول الحكومات المستقلة نظرًا لخواطر رعاياهم المسلمين مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى الذى أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة فتبقى الحكومة المسلمة التى لا تقدر على أن تدافع عن نفسها سالمة من كثير ضررهم لقيام الحسد عندهم وفيما بينهم، فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها خوفًا من احتمائها بالآخر مع أن الله تعالى لا بد أن يُرى عباده من نصر الإسلام والمسلمين ما قد وعد به فى كتابه وقد ظهرت ولله الحمد أسبابه بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم والشعور مبدأ العمل، فنحمده ونسأله أن يتم نعمته، ولهذا قال فى وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ أى يقوم بنصر دينه مخلصًا له فى ذلك يقاتل فى سبيله لتكون كلمة الله هى العليا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى: كامل القوة عزيز لا يرام قد قهر الخلائق وأخذ بنواصيهم، فأبشروا يا معشر المسلمين فإنكم وإن ضعف عَددكم وعُددكم وقوى عدد عدوكم فإن ركنكم القوى العزيز ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعلمون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها ثم اطلبوا منه نصركم فلا بد أن ينصركم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وقوموا أيها المسلمون بحق الإيمان والعمل الصالح فقد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ثم ذكر علامة من ينصره وبها يعرف أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه ولم يتصف بهذا الوصف فهو كاذب فقال: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى ملكناهم إياها وجعلناهم المتسلطين عليها من غير منازع ينازعهم ولا معارض ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ فى أوقاتها وحدودها وأركانها وشروطها فى الجمعة والجماعات ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ التى عليهم خصوصًا وعلى رعيتهم عمومًا آتوها أهلها الذين هم أهلها ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعًا وعقلاً من حقوق الله وحقوق الآدميين ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ كل منكر شرعًا وعقلاً معروف قبحه، والأمر بالشىء والنهى عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعًا أو غير مقدر كأنواع التعزير قاموا بذلك وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له لزم ذلك ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا به ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أى: جميع الأمور ترجع إلى الله وقد أخبر أن العاقبة للتقوى، فمن سلطه أى: على العباد من الملوك وقام بأمر الله كانت له العاقبة الحميدة والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصل له ملك مؤقت فإن عاقبته غير حميدة فولايته مشئومة وعاقبته مذمومة.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب وليسوا بأول أمة

كذبت رسولها ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ أى: قوم شعيب ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ المكذبين فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم حتى استمروا فى طغيانهم يعمهون وفى كفرهم وشرهم يزدادون ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعذاب أخذ عزيز مقتدر ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى: إنكارى عليهم كفرهم وتكذيبهم كيف حاله كان أشد العقوبات وأفظع المثلات، فمنهم من أغرقه ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من أهلك بالريح العقيم ومنهم من خسف به الأرض ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة، فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم ليسوا خيرًا منهم ولا كتب لهم براءة فى الكتب المنزلة من الله وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير، ولهذا قال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أى: وكم[1] من قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالعذاب الشديد والخزى الدنيوى ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ بكفرها بالله وتكذيبها لرسله لم يكن عقوبتنا لها ظلمًا منا ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أى: فديارهم متهدمة قصورها وجدرانها قد سقطت على عروشها فأصبحت خرابًا بعد أن كانت عامرة وموحشة بعد أن كانت آهلة بأهلها آنسة ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أى: وكم من بئر قد كان يزدحم عليها الخلق لشربهم وشرب مواشيهم ففقد أهلها وعدم منها الوارد والصادر، وكم من قصر تعب عليه أهله فشيدوه ورفعوه وحصنوه وزخرفوه فحين جاءهم أمر الله لم يغن عنهم شيئًا وأصبح خاليًا من أهله قد صاروا عبرة لمن اعتبر ومثالاً لمن فكر ونظر، ولهذا دعا الله عباده إلى السير فى الأرض لينظروا ويعتبروا فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانهم وقلوبهم ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأمم الماضين وأنباء القرون المعذبين، وإلا فمجرد نظر العين وسماع الأذن وسير البدن الخالى من التفكير والاعتبار غير مفيد ولا موصل إلى المطلوب، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أى: هذا العمى الضار فى الدين عمى القلب عن الحق حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرئيات وأما عمى البصر فغايته بلغة ومنفعة دنيوية.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

أى: يتعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب لجهلهم وظلمهم وعنادهم وتعجيزًا لله وتكذيبًا لرسله ولن يخلف الله وعده، فما وعدهم به من العذاب لا بد من قوعه ولا يمنعهم منه مانع، وأما عجلته والمبادرة فيه فليس ذلك إليك يا محمد ولا يستفزنك عجلتهم وتعجيزهم إيانا فإن أمامهم يوم القيامة الذى يجمع فيه أولهم وآخرهم ويجازون بأعمالهم ويقع بهم العذاب الدائم الأليم، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من طوله وشدته وهوله، فسواء أصابهم عذاب فى الدنيا أم تأخر عنهم العذاب فإن هذا اليوم لا بد أن يدركهم، ويحتمل أن المراد: أن الله حليم ولو استعجلوا العذاب فإن يومًا عنده كألف سنة مما تعدون، فالمدة وإن تطاولتموها واستبطأتم فيها نزول العذاب فإن الله يمهل المدد الطويلة ولا يهمل حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه لم يفلتهم ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أى: أمهلتها مدة طويلة ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أى: مع ظلمهم فلم يكن مبادرتهم بالظلم موجبًا لمبادرتها بالعقوبة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أى: مع عذابها فى الدنيا سترجع إلى الله فيعذبها بذنوبها، فليحذر هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله ولا يغتروا بالإمهال.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

يأمر تعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ أن يخاطب الناس جميعًا بأنه رسول الله حقًا مبشرًا للمؤمنين بثواب

---

(١) «كم» هنا، خبرية بمعنى «كثير» والمعنى: كثير من القرى أهلكناها.

الله منذرًا للكافرين والظالمين من عقابه، وقوله: ﴿الْمُبِينِ﴾ أى: بيِّن الإنذار وهو التخويف مع الإعلام بالمخوف وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به، ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما حصل منهم من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هى الجنة والكريم من كل نوع: ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته، وحاصل معنى الآية: فالذين آمنوا بالله ورسوله واستقر ذلك الإيمان بقلوبهم حتى أصبح إيمانًا صادقًا وعملوا الأعمال الصالحة لهم مغفرة من الله لذنوبهم التي وقعوا فيها كما أن لهم رزقًا كريمًا فى الجنة جمع هذا الرزق جميع الفضائل والكمالات ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أى: سابقين أو مسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من السعى والمعاجزة ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أى: ملازمون للنار الموقدة المصاحبون لها فى كل أوقاتهم فلا يخفف عنهم من عذابها ولا يُفَتَّرُ عنهم لحظة من أليم عقابها، وحاصل المعنى: والذين أجهدوا أنفسهم فى محاربة القرآن مسابقين المؤمنين فى زعمهم معارضين لهم شاقين زاعمين ـ خطأ ـ أنهم بذلك يبلغون ما يريدون أولئك يخلدون فى عذاب الجحيم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

يخبر تعالى بحكمته البالغة واختباره لعباده وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ أى: قرأ قراءته التى يذكر بها الناس ويأمرهم وينهاهم ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أى: فى قراءته من طرقه ومكايده ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله وحفظ وحيه أن يشتبه أو يختلط بغيره، ولكن هذا إلقاء من الشيطان غير مستقر ولا مستمر وإنما هو عارض يعرض ثم يزول وللعوارض أحكام ولهذا قال: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أى: يزيله ويذهبه ويبطله ويبين أنه ليس من آياته ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أى: يتقنها ويحررها ويحفظها فتبقى خالطة من مخالصة إلقاء الشيطان ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: كامل العلم فبكمال علمه يعلم ما يلقى الشيطان قبل أن يلقية فيحفظ وحيه ويزيل ما تلقيه الشياطين ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، فمن كمال حكمته مكَّن الشياطين من الإلقاء المذكور ليحصل ما ذكره بقوله ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ لطائفتين من الناس لا يبالى الله بهم ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى: ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم فيؤثر فى قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان داخلهم الريب والشك فصار فتنة لهم ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: الغليظة التى لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان جعلوه حجة لهم على باطلهم وجادلوا به وشاقُّوا الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى: مشاقة لله ومعاندة للحق ومخالفة له بعيد من الصواب فما يلقيه الشيطان يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين فيظهر به ما فى قلوبهم من الخبث الكامن فيها، وأما الطائفة الثالثة فإنه يكون رحمة فى حقها وهم المذكورون بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وأن الله منحهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل والرشد من الغى، فيفرقون بين الأمرين الحق المستقر الذى يحكمه الله والباطل العارض الذى ينسخه الله بما على كل منهما من الشواهد وليعلموا أن الله حكيم يقيض بعض أنواع الابتلاء ليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريرة ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بسبب ذلك ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبهة ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: تخشع وتخضع وتسلم لحكمته وهذا من هدايته إياهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بسبب إيمانهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ علم بالحق وعمل بمقتضاه فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وهذا

النوع من تثبيت الله لعبده، وهذه الآيات فيها بيان أن للرسول ﷺ أسوة بإخوانه المرسلين لما وقع منه(١) عند قراءته ﷺ ﴿والنَّجْمِ﴾ فلما بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ ألقى الشيطان فى قراءته «تلك الغرانيق العلى . إن شفاعتهن لترجى» فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة كما ذكر الله فأنزل الله هذه الآيات.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧)﴾

يخبر تعالى عن حالة الكفار وأنهم لا يزالون فى شك مما جئتهم به يا محمد لعنادهم وإعراضهم وأنهم لا يبرحون مستمرين على هذه الحال ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أى: مفاجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أى: لا خير فيه وهو يوم القيامة، فإذا جاءتهم الساعة أو أتاهم ذلك اليوم علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين وندموا حيث لا ينفعهم الندم وأبلسوا وأيسوا من كل خير وودوا لو آمنوا بالرسول واتخذوا معه سبيلاً، ففى هذا تحذيرهم من إقامتهم على مريتهم وفريتهم ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة ﴿لِّلَّهِ﴾ تعالى لا لغيره ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بحكمه العدل وقضائه الفصل ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله وما جاءوا به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ نعيم القلب والروح والبدن مما لا يصفه الواصفون ولا تدركه العقول ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الهادية للحق والصواب فأعرضوا عنها أو عاندوها ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لهم من شدته وألمه وبلوغه للأفئدة، كما استهانوا برسله وآياته أهانهم الله بالعذاب.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)﴾

هذه بشارة كبرى لمن هاجر فى سبيل الله فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله ابتغاء وجه الله ونصره لدين الله، فهذا قد وجب أجره على الله سواء مات على فراشه أو قتل مجاهداً فى سبيل الله ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ فى البرزخ وفى يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان والحسن والإحسان ونعيم القلب والبدن، أو يحتمل أن المراد أن المهاجر فى سبيل الله قد تكفل الله برزقه فى الدنيا رزقًا واسعًا حسنًا سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه أو يقتل شهيداً فكلهم مضمون له الرزق فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله سيفتقر ويحتاج فإن رازقه هو خير الرازقين، وقد وقع كما أخبر فإن المهاجرين السابقين تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم نصرة لدين الله فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى فتح الله عليهم البلاد ومكنهم من العباد فاجتبوا من أموالها ما كانوا به من أغنى الناس، ويكون على هذا القول قوله: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ إما ما يفتح الله عليهم من البلدان خصوصًا فتح مكة المشرفة فإنهم دخلوها فى حالة الرضا والسرور، وإما المراد به رزق الآخرة وأن ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين، رزق الدنيا ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله والمعنى صحيح فلا مانع من إرادة الجميع ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بالأمور ظاهرها وباطنها متقدمها ومتأخرها ﴿حَلِيمٌ﴾ يعصيه الخلائق ويبارزونه بالعظائم وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره بل يواصل لهم رزقه ويسدى إليهم فضله.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾

---

(١) قوله «لما وقع منه الخ» أقول إن حديث الغرانيق موضوع باطل قد بيّن بطلانه سنداً ومتنًا، محدث هذا العصر «الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى» فى رسالة خاصة بهذا الحديث أسماها «نصب المجانيق فى نسف حديث الغرانيق» ومن قبله أيضًا «الشيخ محمد عبده» والمقام هنا لا يتسع لبسط الكلام، ومن أراد الوقوف على الحقيقة فليرجع إلى رسالة «الألبانى» فإنه لم يدع قولاً لقائل.

ذلك بأن من جُنِىَ عليه وظُلِمَ فـإنه يجوز له مقـابلة الجانى بمثل جنايتـه، فإن فعل ذلك فليس عليه سـبيل وليس بملوم، فـإن بُغِىَ عليه بعد هذا فـإن الله ينصره لأنه مظلوم فـلان يجوز أن يُبْغى عليـه بسبب أنه اسـتوفى حقه، وإذا كان المجازى غيره بإسـاءته إذا ظلم بعد ذلك نصره الله فالذى بالأصل لم يعاقب أحدًا إذا ظلم وجنى عليه فالنصر إليه أقرب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أى: يعفو عن المذنبين فلا يعاجلهم بالعقوبة ويغفر ذنوبهم فيزيلها ويزيل آثارها عنهم، فالله هذا وصفـه المستقر اللازم الذاتى ومعاملتـه لعباده فى جميع الأوقات بالعفـو والمغفرة فينبغى لكم أيها المظلومون المجنى عليهم أن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (٦١) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ (٦٢)﴾

ذلك الذى شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة هو حسن التصرف فى تقديره وتدبيره الذى ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ﴾ أى: يدخل هذا على هذا وهذا على هذا، فيأتى بالليل بعد النهار وبالنهار بعد الليل ويزيد فى أحدهما ما ينقصه من الآخر ثم بالعكس، فيترتب على ذلك قيام الفصول ومصالح الليل والنهار والشمس والقمر التى هى من أجل نعمه على العباد وهى من الضروريات لهم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ صاحب الحكم والأحكام ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الثابت الذى لا يزال ولا يزول الأول الذى ليس قبله شىء الآخر الذى ليس بعده شىء كامل الأسماء والصفات صادق الوعد الذى وعده حق ولقاؤه حق ودينه حق وعـبادته هى الحق النافعة الباقية على الدوام ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد من الحيـوانات والجمادات ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الذى هو باطل فى نفسه وعبادته باطلة لأنها متعلقة بمضمحل فَانٍ فتبطل تبعًا لغايتها ومقصودها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ﴾ العلى فى ذاته فهو عال على جميع المخلوقات وفى قدره فهو كـامل الصفات وفى قهره لجميع المخلوقات الكبير فى ذاته وفى أسمائـه وفى صفاته الذى من عظمتـه وكبريائه أن الأرض قبـضته يوم القيـامة والسموات مطويات بيـمينه، ومن كبريائه أن كرسيه وسع السموات والأرض ومن عظمته وكبريائه أن نواصى العباد بيده فلا يتصـرفون إلا بمشيئته ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته وحقيقة الكبـرياء التى لا يعلمها إلا هو لا ملك مقرب ولا نبى مرسل أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة فهى ثابتة له وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه أن العبادات كلها الصادرة من أهل السموات والأرض كلها المقصود منها تكبيره وتعظيمه وإجلاله وإكرامه ولهذا كان التكبير شعارًا للعبادات الكبار كالصلاة وغيرها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٦٤)﴾

هذا حث منه تعالى وترغيب فى النظر بآياته الدالة على وحدانيته وكماله فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أى: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو: المطر فينزل على أرض خاشعة مجدبة قد اغبرت أرجاؤها ويبس ما فيهـا من شجر ونبات ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ قد اكتست من كل زوج كـريم وصار لها بذلك منظر بهيج، إن الذى أحياها بعد موتها وهمودها لمـحيى الموتى بعد أن كانوا رميمًا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ اللطـيف الذى يدرك بواطن الأشياء وخفياتها وسرائرها، الذى يسوق إلى عباده الخير ويدفع عنهم الشر بطرق لطيفة تخفى على العبـاد، ومن لطفه أنه يرى عبده عـزته فى انتقامه وكـمال اقتداره ثم يظهـر لطفه بعد أن أشرف العـبد على الهلاك، ومن لـطفه أنه يعلم مواقـع القطر من الأرض وبذور الأرض فى بواطنها، فـيسوق ذلك الـماء إلى ذلك

البذر الذى خفى على علم الخلائق فينبت منه أنواع النبات ﴿خَبِيرٌ﴾ بسرائر الأمور وخبايا الصدور وخفايا الأمور ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ خلقًا وعبيدًا يتصرف فيهم بملكه وحكمته وكمال اقتداره ليس لأحد غيره من الأمر شيء ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته الذى له الغنى المطلق التام من جميع الوجوه ومن غناه أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه ولا يواليهم من ذلة ولا يتكثر بهم من قلة ومن غناه أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا، ومن غناه أنه صمد لا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه فهو يُطْعِمُ ولا يُطعَمُ، ومن غناه أن الخلق كلهم مفتقرون إليه فى إيجادهم وإعدادهم وإمدادهم وفى دينهم ودنياهم، ومن غناه أنه لو اجتمع من فى السموات ومن فى الأرض الأحياء منهم والأموات فى صعيد واحد فسأل كل منهم ما بلغت أمنيته فأعطاهم فوق أمانيهم ما نقص ذلك من ملكه شيئًا ومن غناه أن يده سحًاء بالخير والبركات الليل والنهار لم يزل إفضاله على الأنفاس، ومن غناه وكرمه ما أودعه فى دار كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿الْحَمِيدُ﴾ أى: المحمود فى ذاته وفى أسمائه لكونها حسنى، وفى صفاته لكونها كلها صفات كمال، وفى أفعاله لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، وفى شرعه لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذى له الحمد الذى يملأ ما فى السموات والأرض وما بينهما وما شاء بعدهما الذى لا يحصى العباد ثناء على حمده، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه وخذلان من يخذله وهو الغنى فى حمده الحميد فى غناه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

أى: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابغة وأياديه الواسعة ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ﴾ من حيوانات ونبات وجمادات فجميع ما فى الأرض مسخر لبنى آدم حيواناتها لركوبه وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه وأشجارها وثمارها يقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها ومعادنها يستخرجها وينتفع بها ﴿وَالْفُلْكَ﴾ أى وسخر لكم الفلك وهى السفن ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ تحملكم وتحمل تجاراتكم وتوصلكم من محل إلى محل، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها، ومن رحمته بكم أنه ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ﴾ فلولا رحمته وقدرته لسقطت السماء على الأرض فتلف ما عليها وهلك من فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أرحم بهم من والديهم ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير ويريدون لأنفسهم الشر والضر، ومن رحمته أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ وأوجدكم من العدم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد أن أحياكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بعد موتكم ليجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ أى: جنسه إلا من عصمه الله ﴿لَكَفُورٌ﴾ لنعم الله كفور بالله لا يعترف بإحسانه بل ربما كفر بالبعث وقدرة ربه.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿مَنسَكًا﴾ أى: معبدًا وعبادة قد تختلف فى بعض الأمور مع اتفاقهما على العدل والحكمة كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ الآية ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أى: عاملون عليه بحسب أحوالهم فلا اعترض على شريعة من الشرائع خصوصًا

من الأميين أهل الشرك والجهل المبين، فإنه إذا ثبت رسالة الرسول بأدلتها وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول والتسليم وترك الاعتراض ولهذا قال: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أى: لا ينازعك المكذبون لك ويعترضوا على بعض ما جئتهم به بعقولهم الفاسدة مثل منازعتهم فى حل الميتة بقياسهم الفاسد يقولون: «تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله» وكقولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ ونحو ذلك من اعتراضاتهم التى لا يلزم الجواب عن أعيانها وهم منكرون لأصل الرسالة وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها بل لكل مقام مقال، فصاحب هذا الاعتراض المنكر لرسالة الرسول إذا زعم أنه يجادل ليسترشد يقال له: الكلام معك فى إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فالاقتصار على هذه دليل على أن مقصوده العنت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويمضى على ذلك، سواء اعترض المعترضون أم لا، وأنه لا ينبغى أن يثنيك عن الدعوة شيء لأنك ﴿لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: معتدل موصل للمقصود متضمن علم الحق والعمل به، فأنت على ثقة من أمرك ويقين من دينك فيوجب ذلك لك الصلابة والمضى لما أمرك به ربك، ولست على أمر مشكوك فيه أو حديث مفترى فتقف مع الناس ومع أهوائهم وآرائهم ويوقفك اعتراضهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ مع أن فى قوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ إرشادًا لأجوبة المعترضين على جزئيات الشرع بالعقل الصحيح فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول، والهدى: ما تحصل به الهداية فى مسائل الأصول والفروع وهى المسائل التى يعرف حسنها وعدلها وحكمتها بالعقل والفطرة السليمة وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات، ولهذا أمره الله بالعدول عن جدالهم فى هذه الحالة فقال: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى: هو عالم بمقاصدكم ونياتكم فمجازيكم عليها وهو ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فمن وافق الصراط المستقيم فهو من أهل النعيم ومن زاغ عنه فهو من أهل الجحيم، ومن تمام حكمه أن يكون حكمًا بعلم فلذلك ذكر إحاطة علمه وإحاطة كتابه فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه منها خافية من ظواهر الأمور وبواطنها خفيها وجليها متقدمها ومتأخرها، ذلك العلم المحيط بما فى السماء والأرض قد أثبته الله فى كتاب وهو اللوح المحفوظ حين خلق الله القلم قال له: «اكتب» قال: ما أكتب؟ قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة» ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان تصوره عندكم لا يحاط به فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علمًا بجميع الأشياء وأن يكتب ذلك فى كتاب مطابق للواقع.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

يذكر تعالى حالة المشركين به العادلين به غيره وأن حالهم أقبح الحالات وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه فليس لهم به علم وإنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله وهو ـ فى نفس الأمر ـ له حجة ما علمها، فأخبر هنا أن الله لم ينزل فى ذلك سلطانًا أى: حجة تدل عليه ويجوزه بل قد أنزل البراهين القاطعة على فساده وبطلانه، ثم توعد الظالين منهم المعاندين للحق فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم وحل، وهل لهؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قصدٌ فى اتباع الآيات والهدى إذا جاءهم؟ أم هم راضون بما هم عليه من الباطل؟ ذكر ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ التى هى آيات الله الجليلة المستلزمة لبيان الحق من الباطل لم يلتفتوا إليها ولم يرفعوا بها رأسًا، بل ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾ من بغضها وكراهتها ترى وجوههم معبسة وأبشارهم مكفهرة ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أى: يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته، فهذ الحالة من الكفار بئست الحالة وشرها بئس الشر، ولكن ثَمَّ ما هو شر منها حالتهم التى يئولون

إليها فلهذا قال: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فهذه شرها طويل عريض ومكروهها وآلامها تزداد على الدوام.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾

هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان وبيان نقصان عقول من عبدها وضعف الجميع فقال: ﴿يا أيها الناس﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار المؤمنون يزدادون علمًا وبصيرة والكافرون تقوم عليهم الحجة ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أى: ألقوا إليه أسماعكم وافهموا ما احتوى عليه ولا يصادف منكم قلوبًا لاهية وأسماعًا معرضة بل ألقوا إليه القلوب والأسماع وهو هذا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دونِ اللَّهِ﴾ شمل ما يُدْعَى من دون الله ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبابًا﴾ الذى هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف فما فوقه من باب أولى ﴿ولَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ بل أبلغ من ذلك ﴿وإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ وهذا غاية ما يصير من العجز ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾ الذى هو المعبود من دون الله ﴿والْمَطْلُوبُ﴾ الذى هو الذباب فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما من يتعلقون بهذا الضعيف وينزلونه منزلة رب العالمين، فهؤلاء ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حيث سووا الفقير العاجز من جميع الوجوه بالغنى القوى من جميع الوجوه، سووا من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا بمن هو النافع الضار المعطى المانع مالك الملك والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى: كامل القوة كامل العزة، ومن كمال قوته وعزته أن نواصى الخلق بيديه وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإرادته ومشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته أن يمسك السموات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته أنه يبعث الخلق كلهم أولهم وآخرهم بصيحة واحدة، ومن كمال قوته أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية بشيء يسير وسوط من عذابه.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)﴾

لما بيَّن تعالى كماله وضعف الأصنام وأنه المعبود حقًا بين حالة الرسل وتميزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل فقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ومِنَ النَّاسِ﴾ أى: يختار ويجتبى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً يكونون أزكى ذلك النوع وأجمعه لصفات المجد وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذى اختارهم واجتباهم ليس جاهلاً بحقائق الأشياء أو يعلم شيئًا دون شيء وأن المُصطَفَى لهم السميع البصير الذى قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء، فاختياره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك وأن الوحى يصلح فيهم كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿وإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ أى: هو يرسل الرسل يدعون الناس إلي الله فمنهم المجيب ومنهم الراد لدعوتهم ومنهم العامل ومنهم الناكل فهذا وظيفة الرسل، وأما الجزاء على تلك الأعمال فمصيرها إلى الله فلا تعدم منه فضلاً وعدلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة وخص منها الركوع والسجود لفضلهما وركنيتهما وعبادته التى هى قرة العيون وسلوة القلب المحزون وأن ربوبيته وإحسانه على العباد يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة ويأمرهم بفعل الخير عمومًا، وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى: تفوزون بالمطلوب المرغوب وتنجون من المكروه المرهوب، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص فى عبادة الخالق والسعى فى نفع عبيده، فمن وفق لذلك فله القدح المُعَلَّى من السعادة والنجاح والفلاح ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ والجهاد بذل الوسع فى حصول الغرض المطلوب، فالجهاد فى الله حق جهاده هو القيام التام بأمر الله ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ وغير ذلك ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أى: اختاركم، يا معشر المسلمين، من بين الناس واختار لكم الدين ورضيه لكم واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل، فقابلوا هذه المنحة العظيمة بالقيام بالجهاد فيه حق القيام، ولما كان قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق أو تكليف ما يشق احترز منه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى: مشقة وعسر بل يسره غاية التيسير وسهله بغاية السهولة، فأولاً ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس لا يثقلها ولا يئودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف خفف ما أمر به إما بإسقاطه أو إسقاط بعضه، ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية وهى أن «المشقة تجلب التيسير» و «الضرورات تبيح المحظورات» فيدخل فى ذلك من الأحكام الفرعية شيء كثير معروف فى كتب الأحكام ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: هذه الملة المذكورة والأوامر المزبورة ملة أبيكم إبراهيم التى ما زال عليها فالزموها واستمسكوا بها ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: فى الكتب السابقة أنتم مذكورون ومشهورون أى: بأن إبراهيم سمَّاكم: مسلمين ﴿وَفِي هَذَا﴾ أى: هذا الكتاب وهذا الشرع أى: ما زال هذا الاسم لكم قديمًا وحديثًا ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بأعمالكم خيرها وشرها ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لكونكم خير أمة أخرجت للناس أمة وسطًا عدلاً خيارًا، تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به فى كتابه ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها وحدودها وجميع لوازمها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لمستحقيها شكرًا لله على ما أولاكم ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أى: امتنعوا به وتوكلوا عليه فى ذلك ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ الذى يتولى أموركم فيدبركم بحسن تدبيره ويصرفكم على أحسن تقديره ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أى: نعم المولى لمن تولاه فحصل له مطلوبه ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ لمن استنصره فدفع عنه المكروه.

تم تفسير سورة الحج والحمد لله رب العالمين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

هذا تنويه من الله بذكر عباده المؤمنين وذكر فلاحهم وسعادتهم وبأى شيء وصلوا إلى ذلك وفى ضمن ذلك الحث على الاتصاف بصفاتهم والترغيب فيها، فَلْيَزِن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان زيادة ونقصًا كثرة وقلة، فقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: قد فازوا وسعدوا ونجحوا وأدركوا كل ما يروم المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿فِي

صلاتهم خاشعون ﴾ والخشوع فى الصلاة هو: حضور القلب بين يدى الله تعالى مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه وتطمئن نفسه وتسكن حركاته ويقل التفاته متأدبًا بين يدى ربه مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله فى صلاته من أول صلاته إلى آخرها فتنتفى بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة والمقصود منها، وهو الذى يكتب للعبد، فالصلاة التى لا خشوع فيها ولا حضور قلب وإن كانت مجزية مثابًا عليها فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها ﴿ والذين هم عن اللغو ﴾ وهو الكلام الذى لا خير فيه ولا فائدة ﴿ معرضون ﴾ رغبة عنه وتنزيهًا لأنفسهم وترفعًا عنه، وإذا مروا باللغو مروا كرامًا وإذا كانوا معرضين عن اللغو فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه - إلا فى الخير - كان مالكًا لأمره كما قال النبى ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله فأخذ بلسان نفسه وقال: كُفَّ عليك هذا» فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة كَفُّ ألسنتهم عن اللغو والمحرمات ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ أى: مؤدون لزكاة أموالهم على اختلاف أجناس الأموال مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التى تزكو النفوس بتركها وتجنبها فأحسنوا فى عبادة الخالق فى الخشوع فى الصلاة وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنُّب ما يدعو إلى ذلك كالنظر واللمس ونحوهما، فحفظوا فروجهم عن كل أحد ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ من الإماء المملوكات ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ بقربهما لأن الله تعالى أحلهما ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك ﴾ غير الزوجة والسرية ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه المتجرئون على محارم الله، وعموم هذه الآية يدل على تحريم المتعة فإنها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاؤها ولا مملوكة وتحريم نكاح المحلل لذلك، ويدل بقوله: ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ أنه يشترط فى حل المملوكة أن تكون كلها فى ملكه فلو كان له بعضها لم تحل لأنها ليست مما ملكت يمينه بل هى ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك[1] فى المرأة الحرة زوجان فلا يجوز أن يشترك فى الأمة المملوكة سيدان ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ أى: مراعون لها ضابطون حافظون حريصون على القيام بها وتنفيذها وهذا عام فى جميع الأمانات التى هى حق لله والتى هى حق للعباد، قال تعالى: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾ فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة على العبد حفظها بالقيام التام بها وكذلك يدخل فى ذلك أمانات الآدميين كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين وأداء الأمانتين ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ وكذلك العهد يشمل العهد الذى بينهم وبين العباد وهى الالتزامات والعقود التى يعقدها العبد فعليه مراعاتها والوفاء بها ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ أى: يداومون عليها فى أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع فى الصلاة وبالمحافظة عليها لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع أو على الخشوع من دون محافظة عليها فإنه مذموم ناقص ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿ هم الوارثون ۝١٠ الذين يرثون الفردوس ﴾ الذى هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها أو المراد بذلك جميع الجنة ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم فى مراتبهم كل بحسب حاله ﴿ هم فيها خالدون ﴾ لا يظعنون عنها ولا يبغون عنها حولاً لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه من غير مكدر ولا منغص.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦ ﴾

---

(١) قوله «فلا يجوز أن يشترك فى الأمة سيدان» يريد أنه لا يجوز أن يشترك فى التمتع بوطء الأمة سيدان، وأما الاشتراك فى الملكية المجردة عن الوطء، فلا مانع منه.

ذكر الله فى هذه الآيات أطوار الآدمي وتنقلاته من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فذكر ابتداء خلق أبى النوع البشرى آدم عليه السلام وأنه ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ أى: قد سلت وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض: منهم الطيب والخبيث وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أى: جنس الآدميين ﴿نُطْفَةً﴾ تخرج من بين الصلب والترائب فتستقر ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهو: الرحم محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ﴾ التى قد استقرت قَبْلُ ﴿عَلَقَةً﴾ أى: دمًا أحمر بعد مضى أربعين يومًا من النطفة ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ﴾ بعد أربعين يومًا ﴿مُضْغَةً﴾ أى: قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغ من صغرها ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ اللينة ﴿عِظَامًا﴾ صلبة قد تخللت اللحم بحسب حاجة البدن إليها ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أى: جعلنا اللحم كسوة للعظام كما جعلنا العظام عمادًا للحم وذلك فى الأربعين الثالثة ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ نفخ فيه الروح فانتقل من كونه جمادًا إلى أن صار حيوانًا ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أى: تعالى وتعاظم وكثر خيره ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ⑦ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑧ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فَخَلْقُهُ كله حَسَنٌ والإنسان من أحسن مخلوقاته بل هو أحسنها على الإطلاق كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الخلق ونفخ الروح ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ فى أحد أطواركم وتنقلاتكم ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فتجازون بأعمالكم حسنها وسيئها، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ㊱ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ㊲ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ㊳ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ㊴ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ⑰ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ⑱ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑲ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ⑳﴾

لما ذكر تعالى خلق الآدمي ذكر مسكنه وتوفر النعم عليه من كل وجه فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ سقفًا للبلاد ومصلحة للعباد ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أى: سبع سموات طباقًا كل طبقة فوق الأخرى وقد زينت بالنجوم والشمس والقمر وأودع فيه من مصالح الخلق ما أودع ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق فعلمنا أيضًا محيط بما خلقنا فلا نغفل مخلوقًا ولا ننساه ولا نخلق خلقًا فنضيعه ولا نغفل عن السماء فتقع على الأرض ولا ننسى ذرة فى لجج البحار وجوانب الفلوات ولا دابة إلا سقنا إليها رزقًا ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ وكثيرًا ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه كقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ لأن خلق المخلوقات من أقوى الأدلة العقلية على علم خالقها وحكمته ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يكون رزقًا لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم فلا ينقصه بحيث لا يحصل منه المقصود ولا يزيده بحيث يتلف المساكن ولا تعيش منه النباتات والأشجار بل أنزله وقت الحاجة لنزوله ثم صرفه عند التضرر من دوامه ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: أنزلناه عليها فسكن واستقر وأُخرج بقدرة منزله جميع الأزواج النباتية وأسكنه أيضًا معدًا فى خزائن الأرض بحيث لم يذهب نازلاً حتى لا يوصل إليه ولا يبلغ قعره ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ إما بأن لا ننزله أو ننزله فيذهب نازلاً لا يوصل إليه أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته ويقدروا عدمها ماذا يحصل به من الضرر كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ﴾ أى: بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أى: بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خص تعالى هذين النوعين مع أنه ينشر منه غيرهما من الأشجار لفضلهما ومنافعهما التى فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام فى قوله: ﴿لَّكُمْ﴾ أى: فى تلك الجنات ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من تين وأترج ورمان وتفاح وغيرها ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وهى شجرة الزيتون أى: جنسها، خصت بالذكر لأن مكانها

خاص فى أرض الشام ولمنافعها التى ذكر بعضها فى قوله: ﴿ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾ أى: فيها الزيت الذى هو دهن يكثر استعماله من الاستصباح به واصطباغ للآكلين أى: يجعل إدامًا للآكلين وغير ذلك من المنافع.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

أى: ومن نعمه عليكم أن سخر لكم الأنعام من الإبل والبقر والغنم فيها عبرة للمعتبرين ومنافع للمتفعين ﴿ نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ من لبن يخرج من بين فرث ودم لبن خالص سائغ للشاربين ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أفضل المآكل من لحم وشحم ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ أى: جعلها لكم فى البر تحملون عليها أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس كما جعل لكم السفن فى البحر تحملكم وتحمل متاعكم قليلاً كان أو كثيرًا، فالذى أنعم بهذه النعم وصنف أنواع الإحسان وأدر علينا من خيره المدرار هو الذى يستحق كمال الشكر وكمال الثناء والاجتهاد فى عبوديته وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله نوح عليه السلام أول رسول أرسله لأهل الأرض فأرسله إلى قومه وهم يعبدون الأصنام فأمرهم بعبادة الله وحده فقال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أى: أخلصوا له العبادة لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ فيه إبطال ألوهية غير الله وإثبات الإلهية لله تعالى لأنه الخالق الرازق الذى له الكمال كله وغيره بخلاف ذلك ﴿ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التى صورت على صور قوم صالحين فعبدوها مع الله، فاستمر على ذلك يدعوهم سرًا وجهارًا وليلاً ونهارًا ألف سنة إلا خمسين عامًا وهم لا يزدادون إلا عتوًا ونفورًا ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ ﴾ من قومه الأشراف والسادة المتبوعون، على وجه المعارضة لنبيهم نوح والتحذير من اتباعه: ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى: ما هذا إلا بشر مثلكم قصده حين ادعى النبوة أن يزيد عليكم فضيله ليكون متبوعًا وإلا فما الذى يفضله عليكم وهو من جنسكم؟ وهذه المعارضة لا زالت موجودة فى مكذبى الرسل، وقد أجاب الله عنها بجواب شاف على ألسنة رسله كما فى ﴿ قَالُوا ﴾ أى: لرسلهم ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فأخبروا أن هذا فضل الله ومنته فليس لكم أن تحجروا على الله وتمنعوه من إيصال فضله علينا، وقالوا أيضًا: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً ﴾ وهذه أيضًا معارضة بالمشيئة باطلة، فإنه وإن كان لو شاء لأنزل ملائكة فإنه حكيم رحيم، حكمته ورحمته تقتضى أن يكون الرسول من جنس الآدميين لأن الملاك لا قدرة للناس على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل ثم يعود اللبس عليهم كما كان، وقولهم: ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ أى بإرسال الرسول ﴿ فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ وأى حجة فى عدم سماعهم

إرسال رسول في آبائهم الأولين؟ لأنهم لم يحيطوا علمًا بما تقدم فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم، وعلى تقدير أنه لم يرسل منهم رسولاً فإما أن يكونوا على الهدى فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على غيره فليحمدوا ربهم ويشكروه أن خصهم بنعمة لم تأت آباءهم ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سببًا لكفرهم للإحسان إليهم ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: مجنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ أي: انتظروا به ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يأتيه الموت، وهذه الشبه التي أوردوها معارضة لنبوة نبيهم دالة على شدة كفرهم وعنادهم وعلى أنهم في غاية الجهل والضلال فإنها لا تصلح للمعارضة بوجه من الوجوه كما ذكرنا بل هي في نفسها متناقضة متعارضة، فقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أثبتوا أن له عقلاً يكيدهم به ليعلوهم ويسودهم ويحتاج، مع هذا، أن يحذر منه لئلا يغتر به، فكيف يلتئم مع قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ وهل هذا إلا من مشبه ضال منقلب عليه الأمر قصده: الدفع بأي طريق اتفق له غير عالم بما يقول؟! ويأبى الله إلا أن يظهر خزي من عاداه وعادى رسله، فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فرارًا ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فاستنصر ربه عليهم غضبًا حيث ضيعوا أمره وكذبوا رسله وقال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ عند استجابتنا له سببًا ووسيلة للنجاة قبل وقوع أسبابه ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ أي: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي: بأمرنا لك ومعونتنا وأنت في حفظنا وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإرسال الطوفان الذي عذبوا به ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي: فارت الأرض وتفجرت عيونًا حتى محل النار الذي لم تجر العادة إلا ببعده من الماء ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: أدخل في الفلك من كل جنس من الحيوانات ذكرًا وأنثى كي تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات التي اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في الأرض ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: أدخلهم ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ كابنه ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تدعني أن أنجيهم فإن القضاء والقدر قد حتم أنهم مغرقون ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ أي: علوتم عليها واستقلت بكم في تيار الأمواج ولجج اليم فاحمدوا الله على النجاة والسلامة ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا تعليم منه له ولمن معه أن يقولوا هذا شكرًا له وحمدًا على نجاتهم من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ أي: وبقيت عليكم نعمة أخرى فادعوا الله فيها وهي أن ييسر الله لكم منزلاً مباركًا، فاستجاب الله دعاءه قال الله: ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ الآية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في هذه القصة ﴿لآيَاتٍ﴾ تدل على أن الله وحده المعبود وعلى أن رسوله نوحًا صادق وأن قومه كاذبون وعلى رحمة الله بعباده حيث حملهم في صلب أبيهم نوح في الفلك لما غرق أهل الأرض، والفلك أيضًا من آيات الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ولهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات ومطالب ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٤١)﴾

لما ذكر نوحًا وقومه وكيف أهلكهم قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ الظاهر أنهم «ثمود» قوم صالح

عليه السلام لأن هذه القصة تشبه قصتهم ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ من جنسهم يعرفون نسبه وحسبه وصدقه ليكون ذلك أسرع لانقيادهم إذ كان منهم وأبعد عن اشمئزازهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أممهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة وهى أول دعوة يدعون بها أممهم الأمر بعبادة الله والإخبار أنه المستحق لذلك والنهى عن عبادة ما سواه والإخبار ببطلان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ ربكم فتجتنبوا هذه الأوثان والأصنام ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة وإنكار البعث والجزاء وأطغاهم ترفهم فى الحياة الدنيا معارضة لنبيهم وتكذيبًا وتحذيرًا منه: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى: من جنسكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فما الذى يفضله عليكم؟ فهلا كان ملكًا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب؟ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أى: إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيسًا وهو مثلكم إنكم لمسلوبو العقل نادمون على ما فعلتم، وهذا من العجب فإن الخسارة والندامة حقيقة لمن لم يتابعه ولم ينقد له، والجهل والسفه العظيم لمن تكبر عن الانقياد لبشر خصه الله بوحيه وفضله برسالته وابتلى بعبادة الشجر والحجر، وهذا نظير قولهم: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِى ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ فلما أنكروا رسالته وردوها أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت والمجازاة على الأعمال فقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أى: بعيد بعيد ما يعدكم به من البعث بعد أن تمزقتم وكنتم ترابًا وعظامًا، فنظروا نظرًا قاصرًا ورأوا هذا بالنسبة إلى قدرهم غير ممكن، فقاسوا قدرة الخالق بقدرتهم، تعالى الله عن ذلك، فأنكروا قدرته على إحياء الموتى وعجزوه غاية التعجيز ونسوا خلقهم أول مرة وأن الذى أنشأهم من العدم فإعادته لهم بعد البلى أهون عليه وكلاهما هين لديه فلم لا ينكرون أول خلقهم ويكابرون المحسوسات ويقولون: إننا لم نزل موجودين حتى يسلم لهم إنكارهم البعث وينتقلوا معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟ وهنا دليل آخر وهو: أن الذى أحيا الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى إنه على كل شىء قدير، وثَمَّ دليل آخر وهو ما أجاب به المنكرين للبعث فى قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فقال فى جوابهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى فى البلى ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ ﴿إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أى: يموت أناس ويحيا أناس ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ فلهذا أتى بما أتى به من توحيد الله وإثبات المعاد ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ أى: ارفعوا عنه العقوبة بالقتل وغيره احترامًا له ولأنه مجنون غير مؤاخذ بما يتكلم به، أى: فلم يبق بزعمهم الباطل مجادلة معه لصحة ما جاء به فإنهم قد زعموا بطلانه وإنما بقى الكلام هل يوقعون به أم لا؟ فبزعمهم أن عقولهم الرزينة اقتضت الإبقاء عليه وترك الإيقاع به مع قيام الموجب فهل فوق هذا العناد والكفر غاية؟!! ولهذا لما اشتد كفرهم ولم ينفع فيهم الإنذار دعا عليهم نبيهم فقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أى: بإهلاكهم وخزيهم الدنيوى قبل الآخرة، فـ ﴿قَالَ﴾ الله مجيبًا لدعوته: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ لا بالظلم والجور بل بالعدل وظلمهم أخذتهم الصيحة فأهلكتهم عن آخرهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أى: هشيمًا يبسًا بمنزلة غثاء السيل الملقى فى جنبات الوادى، وقال فى الآية الأخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: أتبعوا مع عذابهم البعد واللعنة والذم من العالمين ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ هذا التعبير مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم، وفيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال عنه: «بكت عليه السماء والأرض» ومنه ما روى أن المؤمن إذا مات ليبكى عليه مصلاه ومحل عبادته ومصاعد عمله ومهابط رزقه وآثاره فى الأرض» وعن الحسن: «يبكى عليه أهل السماء والأرض» ﴿وَمَا كَانُوا﴾ لما جاءهم وقت هلاكهم ﴿مُنظَرِينَ﴾ أى: ممهلين إلى وقت آخر بل عجل لهم العذاب فى الدنيا، والمعنى الإجمالى: فما حزنت عليهم السماء والأرض عندما أخذهم العذاب لهوان شأنهم لأنهم ماتوا كفارًا ولم يُنْظَروا لتوبة ولم يُمْهَل والتدارك تقصيرهم احتقارًا لهم.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أى: ثم أنشأنا من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين قرونًا آخرين كل أمة فى وقت مسمى وأجل محدود لا تتقدم عنه ولا تتأخر وأرسلنا إليهم رسلاً متتابعة لعلهم يؤمنون وينيبون فلم يزل الكفر والتكذيب دأب الأمم العصاة والكفرة البغاة كلما جاء أمة رسولها كذبوه مع أن كل رسول يأتى من الآيات ما يؤمن على مثله البشر بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم يدل على حقيقة ما جاءوا به ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ بالهلاك فلم يبق منهم باقية وتعطلت مساكنهم من بعدهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث بهم من بعدهم ويكونون عبرة للمتقين ونكالاً للمكذبين وخزيا عليهم مقرونًا بعذابهم ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ ما أشقاهم!! وتعسًا لهم ما أخسر صفقتهم.

مر علىَّ منذ زمان طويل كلام لبعض العلماء لا يحضرنى الآن اسمه وهو أنه بعد موسى ونزول التوراة رفع الله العذاب عن الأمم، أى: عذاب الاستئصال وشرع للمكذبين المعاندين بالجهاد ولم أدر من أين أخذه فلما تدبرت هذه الآيات مع الآيات التى فى سورة القصص تبين لى وجهه، أما هذه الآيات فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس ولا يرد على هذا إهلاك فرعون فإنه قبل نزول التوراة، وأما الآيات التى فى سورة القصص فهى صريحة جدًا فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية وأخبر أنه أنزل بصائر للناس وهدى ورحمة، ولعل من هذا ما ذكر الله فى سورة «يونس» من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ أى: من بعد نوح ﴿رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ الآيات، والله أعلم.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

فقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران كليم الرحمن ﴿وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ حين سأل ربه أن يشركه فى أمره فأجاب سؤاله ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاءا به ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: حجة بينة، من قوتها أن تقهر القلوب وتتسلط عليها لقوتها فتنقاد لها قلوب المؤمنين وتقوم الحجة البينة على المعاندين، وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ بتلك الآيات البينات ﴿فَقَالَ﴾ له ﴿فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ كـ «هامان» وغيره من رؤسائهم ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أى: تكبروا عن الإيمان بالله واستكبروا على أنبيائه ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ أى: وصفهم العلو والقهر والفساد فى الأرض فلهذا صدر منهم الاستكبار ذلك غير مستكثر منهم ﴿فَقَالُوا﴾ كبرًا وتيهًا وتحذيرًا لضعفاء العقول وتمويهًا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ كما قاله من قبلهم سواء بسواء وتشابهت قلوبهم فى الكفر فتشابهت أقوالهم وأفعالهم وجحدوا منة الله عليهما بالرسالة ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ أى: بنو إسرائيل ﴿لَنَا عَابِدُونَ﴾ أى: معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟ وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟ ونظير قولهم قول قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ

﴿أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق وأنه تكذيب ومعاندة، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ في الغرق في البحر وبنو إسرائيل ينظرون ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ بعدما أهلك الله فرعون وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم وإظهار شعائره وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة فذهب لميقات ربه قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي والثواب والعقاب ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

أي: وامتننا على عيسى ابن مريم وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة حيث حملته وولدته من غير أب وتكلم في المهد صبيًا وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: مكان مرتفع وهذا، والله أعلم، وقت وضعها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي مستقر وراحة ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي: ماء جار، بدليل قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ أي: تحت المكان الذي أنت فيه لارتفاعه ﴿سَرِيًّا﴾ أي: نهرًا وهو الماء المعين ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات التي هي الرزق والطيب الحلال، والشكر لله بالعمل الصالح الذي به يصلح القلب والبدن والدنيا والآخرة، ويخبرهم أنه بما يعملون عليم فكل عمل عملوه وكل سعي اكتسبوه فإن الله يعلمه وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله، فدل هذا على أن الرسل كلهم متفقون على إباحة الطيبات من المآكل وتحريم الخبائث منها وأنهم متفقون على كل عمل صالح، وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات واختلفت بها الشرائع فإنها كلها عمل صالح ولكن تتفاوت بتفاوت الأزمنة، ولهذا الأعمال الصالحة التي هي صلاح في جميع الأمنة قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع كالأمر بتوحيد الله وإخلاص الدين له ومحبته وخوفه ورجائه والبر والصدق والوفاء بالعهد وصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى والْحُنُو والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم والكتب السابقة والعقل حين بعث الله محمدًا ﷺ يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به وينهى عنه، كما جرى لهرقل وغيره، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء الذين من قبله ونهى عما نهوا عنه دل على أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب فلا بد أن يأمر بالشر وينهى عن الخير، ولهذا قال تعالى للرسل: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ أي: جماعتكم يا معشر الرسل ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقة على دين واحد ورب واحد ﴿فَاتَّقُونِ﴾ بامتثال أوامري واجتناب زواجري، وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين لأنهم بهم يقتدون وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فالواجب على كل المنتسبين إلى الأنبياء وغيرهم أن يمتثلوا هذا ويعملوا به ولكن أبى الظالمون الجاحدون إلا عصيانًا، ولهذا قال: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء ﴿أَمْرَهُم﴾ أي: دينهم ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي قطعًا ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: بما عندهم من العلم والدين ﴿فَرِحُونَ﴾ يزعمون أنهم المحقون وغيرهم على غير الحق مع أن المحق منهم من كان على طريق الرسل من أكل الطيبات والعمل الصالح وما عداهم فإنهم مبطلون ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: في وسط جهلهم بالحق ودعواهم: أنهم هم المحقون ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أن ينزل العذاب بهم فإنهم لا ينفع فيهم وعظ ولا يفيدهم زجر، فكيف يفيد بمن يزعم أنه على الحق ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن

مَال وبَنين ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أى: أيظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟ وهذا مقدم لهم ليس الأمر كذلك ﴿بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ أنما نملى لهم ونمهلهم ونمدهم بالنعم ليزدادوا إثمًا وليتوفر عقابهم فى الآخرة وليغتبطوا بما أوتوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهم بَغْتَةً﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

لما ذكر تعالى الذين جمعوا بين الإساءة والأمن الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم فى الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أى: وجلون مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم خوفًا أن يضع عليهم عدله فلا يبقى لهم حسنة وسوء ظن بأنفسهم أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى وخوفًا على إيمانهم من الزوال ومعرفة منهم بربهم وما يستحقه من الإجلال والإكرام وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب والتقصير فى الواجبات ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا، ويتفكرون أيضًا فى الآيات القرآنية ويتدبرونها فيبين لهم من معانى القرآن وجلالته واتفاقه وعدم اختلافه وتناقضه وما يدعوا إليه من معرفة الله وخوفه ورجائه وأحوال الجزاء فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان ما لا يعبر عنه اللسان، ويتفكرون أيضًا فى الايات الأفقية كما فى قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ إلى آخر الآيات ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ أى: لا شركًا جليًا كاتخاذ غير الله معبودًا يدعونه ويرجونه ولا شركًا خفيًا كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله فى أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ أى: يعطون من أنفسهم مما أمروا به ما آتوا من كل ما يقدرون عليه من صلاة وزكاة وحج وصدقة وغير ذلك ﴿وَّ﴾ مع هذا ﴿قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أى: خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أى: خائفة عند عرض أعمالها عليه والوقوف بين يديه أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله لعلمهم بربهم وما يستحقه من أصناف العبادات ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أى: فى ميدان التسارع فى أفعال الخير همهم ما يقربهم إلى الله وإرادتهم مصروفة فيما ينجى من عذابه فكل خير سمعوا به أو سنحت لهم الفرصة انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه أمامهم ويمنة ويسرة يسارعون فى كل خير وينافسون فى الزلفى عند ربهم فنافسوهم، ولما كان المسابق لغيره المسارع قد يسبق لجده وتشميره وقد لا يسبق لتقصيره أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال: ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أى: للخيرات ﴿سَابِقُونَ﴾ قد بلغوا ذروتها وتباروا هم والرعيل الأول ومع هذا قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة أنهم سابقرن ولما ذكر مسارعتهم إلى الخيرات وسبقهم إليها ربما وهم واهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر، قال تعالى: ﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أى: بقدر ما تسعه ويفضل من قوتها عنه ليس مما يستوعب قوتها رحمة منه وحكمة لتيسير طريق الوصول إليه ولتعمر جادة السالكين فى كل وقت إليه ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ وهو الكتاب الأول الذى فيه كل شيء وهو يطابق كل واقع يكون فلذلك كان حقًا ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى لا ينقص من إحسانهم ولا يزداد فى عقوبتهم وعصيانهم.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ

يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ
فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المكذبين فى غمرة من هذا أى: وسط غمرة من الجهل والظلم والغفلة والإعراض تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن فلا يهتدون به ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ فلما كانت قلوبهم في غمرة منه عملوا بحسب هذا الحال من الأعمال الكفرية والمعاندة للشرع ما هو موجب لعقابهم ﴿وَ﴾ لكن ﴿لَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ هذه الأعمال ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أى: فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم فإن الله يمهلهم ليعملوا هذه الأعمال التى بقيت عليهم مما كتب عليهم فإذا عملوها واستوفوها انتقلوا بشر حالة إلى غضب الله وعقابه ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ أى: متنعميهم الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم ولم تحصل لهم المكاره، فإذا أخذناهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ ووجدوا مسَّه ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يصرخون ويتوجعون لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه، ويستغيثون فيقال لهم: ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾ وإذا لم تأتهم النصرة من الله وانقطع عنهم الغوث من جانبه لم يستطيعوا نصر أنفسهم ولم ينصرهم أحد، فكأنه قيل: ما السبب الذى أوصلهم إلى هذه الحال؟ قال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها فلم تفعلوا ذلك بل: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أى: راجعين القهقرى إلى الخلف وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون وبالإعراض عنه يستأخرون ويتنزلون إلى أسفل سافلين ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قال المفسرون معناه: مستكبرين به الضمير يعود إلى البيت المعهود عند المخاطبين أو الحرم، أى: متكبرين على الناس بسببه تقولون: نحن أهل الحرم فنحن أفضل من غيرنا وأعلى ﴿سَامِرًا﴾ أى: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أى: تقولون الكلام الهُجْرَ الذى هو القبيح: فى هذا القرآن فالمكذبون كانت طريقتهم فى القرآن الإعراض عنه ويوصي بعضهم بعضًا بذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وقال الله عنهم: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل لا جرم حقت عليهم العقوبة، ولما وقعوا فيها لم يكن لهم ناصر ينصرهم ولا مغيث ينقذهم ويوبخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أى: أفلا يتفكرون فى القرآن ويتأملونه ويتدبرونه، أى: فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان ولمنعهم من الكفر ولكن المصيبة التى أصابتهم بسبب إعراضهم عنه ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شر والذى منعهم من تدبره أن على قلوبهم أقفالها ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ أى: أومنعهم من الإيمان أنه جاءهم رسول وكتاب ما جاء آباءهم الأولين فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين وعارضوا كل ما خالف ذلك ولهذا قالوا هم ومن أشبههم من الكفار ما أخبر الله عنهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ فأجابهم بقوله: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق، فأجابوا بحقيقة أمرهم ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أى: أومنعهم من اتباع الحق أن رسولهم محمدًا ﷺ غير معروف عندهم فهم منكرون له؟ يقولون: لا نعرفه ولا نعرف صدقه، دعونا ننظر حاله ونسأل عنه مَنْ لديه خبره، أى: لم يكن الأمر كذلك فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل ويعرفون صدقه وأمانته حتى كانوا يسمونه قبل البعثة «الأمين» فلم لا يصدقونه حين جاءهم بالحق العظيم والصدق المبين؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أى: جنون، فلهذا قال ما قال، والمجنون غير مسموع منه ولا عبرة بكلامه لأنه يهذى بالباطل والكلام السخيف، قال الله فى الرد عليهم فى هذه المقالة: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ أى: بالأمر الثابت الذى هو صدق وعدل لا اختلاف فيه ولا تناقض فكيف يكون من جاء به به جنة؟! وهلا يكون إلا فى أعلى درجات الكمال من العلم والعقل ومكارم

الأخلاق، وأيضًا فإن فى هذا الانتقال مما تقدم، أى: بل الحقيقة التى منعتهم من الإيمان أنه ﴿ **جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ وأعظم الحق الذى جاءهم به إخلاص العبادة لله وحده وترك ما يعبد من دون الله وقد علم كراهتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه، فكون الرسول أتى بالحق وكونهم كارهين للحق بالأصل هو الذى أوجب لهم التكذيب بالحق لا شكًا ولا تكذيبًا للرسول، كما قال تعالى: ﴿ **فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ **فإن قيل**: لِمَ لَمْ يكن الحق موافقًا لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا أو يسرعوا الانقياد؟ **أجاب تعالى بقوله**: ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ** ﴾ ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض لفساد التصرف والتدبير المبنى على الظلم وعدم العدل، فالسموات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل ﴿ **بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ** ﴾ أى: بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير الذى به فخرهم وشرفهم حين يقومون به ويكونون به سادة الناس ﴿ **فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ** ﴾ شقاوة منهم وعدم توفيق ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ** ﴾ ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ فالقرآن ومن جاء به أعظم نعمة ساقها الله إليهم فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض، فهل بعد هذا الإعراض حرمان؟ وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران؟.

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) ﴾

أى: أومنعهم من اتباعك يا محمد أنك تسألهم على الإجابة أجرًا ﴿ **فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ** ﴾ يتكلفون من اتباعك، بسبب ما تأخذ منهم الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك ﴿ **فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ وهذا كما قال الأنبياء لأممهم: ﴿ **يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ** ﴾ أى: ليسوا يدعون الخلق طمعًا فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعونهم نصحًا لهم وتحصيلاً لمصالحهم، بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم، فجزاهم الله عن أممهم خير الجزاء ورزقنا الاقتداء بهم فى جميع الأحوال.

﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) ﴾

ذكر الله تعالى فى هذه الآيات الكريمات كل سبب موجب للإيمان وذكر الموانع وبيَّن فسادها واحدًا بعد واحد، فذكر من الموانع أن قلوبهم فى غمرة وأنهم لم يتدبروا القول وأنهم اقتدوا بآبائهم وأنهم قالوا: برسولهم جِنَّة، كما تقدم الكلام عليها، وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم تدبر القرآن وتَلَقِّى نعمة الله بالقبول، ومعرفة حال محمد ﷺ وكمال صدقه وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجرًا وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم، وأن الذى يدعوهم إليه صراط مستقيم، وسهل على العالمين لاستقامته، موصل إلى المقصود من قرب، حنيفية سمحة، حنيفية فى التوحيد، سمحة فى العمل، فدعوتك إياهم إلى الصراط المسقيم توجب لمن يريد الحق أن يتبعك لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه وموافقته للمصالح، فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك، لأنهم ﴿ **عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ** ﴾ متجنبون منحرفون عن الطريق الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، ليس فى أيديهم إلا ضلالات وجهالات، وهكذا كل من خالف الحق لا بد أن يكون منحرفًا فى جميع أموره، قال تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** ﴾.

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) ﴾

هذا بيان لشدة تمردهم وأنهم إذا أصابهم الضر دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه، إن الله إذا كشف الضر عنهم لَجُّوا، أى: استمروا فى طغيانهم يعمهون، أى: يجولون فى كفرهم حائرين مترددين، كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك وأنهم يدعون مخلصين له الدين وينسون ما يشركون به، فلما

أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بالشرك وغيره ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ قال المفسرون: المراد بذلك: الجوع الذى أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام فلم ينجع فيهم ولا نجح منهم أحد ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى: خضعوا وذلوا ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ إليه ويفتقرون، بل مرَّ عليهم ذلك ثم زال كأنه لم يصبهم، لم يزالوا فى غيهم وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذى لا يرد، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كالقتل يوم بدر وغيره ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فَلْيَحْذَرُوا قبل نزول عذاب الله الشديد الذى لا يرد، بخلاف مجرد العذاب فإنه ربما أقلع عنهم، كالعقوبات الدنيوية التى يؤدب الله بها عباده، قال تعالى فيها: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠)﴾

يخبر تعالى بمننه على عباده الداعين[1] لهم إلى شكره والقيام بحقه فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتدركوا به المسموعات فتنتفعوا فى دينكم ودنياكم ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ لتدركوا بها المبصرات فتنتفعوا بها فى مصالحكم ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أى: العقول التى تدركون بها الأشياء وتتميزون بها عن البهائم، فلو عدمتم السمع والأبصار والعقول بأن كنتم صمًا عميًا بكمًا ماذا تكون حالكم؟ وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم؟ أفلا تشكرون الذى مَنَّ عليكم بهذه النعم فتقومون بتوحيده وطاعته؟ ولكنكم قليل شكركم مع توالى النعم عليكم ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بثكم فى أقطارها وجهاتها وسلطكم على استخراج مصالحها ومنافعها، وجعلها كافية لمعايشكم ومساكنكم ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بعد موتكم، فيجازيكم بما عملتم فى الأرض من خير وشر، وتحدث الأرض التى كنتم فيها بأخبارها ﴿وَهُوَ﴾ تعالى وحده ﴿الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: المتصرف فى الحياة والموت هو الله وحده ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: تعاقبهما وتناوبهما، فلو شاء أن يجعل النهار سرمدًا، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه؟ ولو شاء أن يجعل الليل سرمدًا، منْ إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تبصرون؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، ولهذا قال هنا: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعرفون أن الذى وهب لكم من النعم السمع والأبصار والأفئدة والذى نشركم فى الأرض وحده، والذى يحيى ويميت وحده، والذى يتصرف بالليل والنهار وحده، أن ذلك موجب لكم أن تخلصوا له العبادة وحده لا شريك له وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر ولا يتصرف بشىء، بل هو عاجز من كل وجه، فلو كان لكم عقل لم تفعلوا ذلك.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)﴾

أى: بل سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث واستبعدوه غاية الاستبعاد وقالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أى: هذا لا يتصور ولا يدخل العقل، بزعمهم ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ أى: ما زلنا نوعد بأن البعث كائن نحن وآباؤنا ولم نره ولم يأت بعد ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: قصصهم وأسمارهم التى يتحدث بها ويتلهى وإلا فليس لها حقيقة، وكذبوا - قبحهم الله - فإن الله أراهم من آياته أكبر من البعث، ومثله ما قاله الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا

---

(١) قوله «الداعين إلخ» هكذا فى الأصل، وهو خطأ واضح والصواب أن يقال «الداعية لهم إلى شكره».

ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم﴾ الآيات ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت...﴾ الآيات.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

أى: قل لهؤلاء المكذبين بالبعث العادلين بالله غيره، محتجًا عليهم بما أثبتوه وأقروا به من توحيد الربوبية وانفراد الله بها ـ على ما أنكروه، من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة على ما أنكروه من إعادة الموتى الذى هو أسهل من ذلك ﴿لمن الأرض ومن فيها﴾ أى: من هو الخالق للأرض ومن عليها، من حيوان ونبات وجماد وبحار وأنهار وجبال، ومن المالك لذلك المدبر له؟ فإنك إذا سألتهم عن ذلك لا بد أن يقولوا: الله وحده، فقل لهم إذا أقروا بذلك: ﴿أفلا تذكَّرون﴾ أى: أفلا ترجعون إلى ما ذكَّركم الله به مما هو معلوم عندكم مستقر فى فطركم قد يغيبه الإعراض فى بعض الأوقات، الحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم بمجرد التأمل علمتم أن مالك ذلك هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل، ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك فقال: ﴿قل من رب السموات السبع﴾ وما فيها من النيرات والكواكب السيارات والثوابت ﴿ورب العرش العظيم﴾ الذى هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها؟ فمن الذى خلق ذلك ودبره وصرفه بأنواع التدبير؟ ﴿سيقولون لله﴾ أى: سيقرون بأن الله رب ذلك كله، قل لهم حين يقرون بذلك: ﴿أفلا تتقون﴾ عبادة المخلوقات العاجزة، وتتقون الرب العظيم كامل القدرة عظيم السلطان؟ وفى هذا من لطف الخطاب من قوله: ﴿أفلا تتقون﴾ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب ما لا يخفى، ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال: ﴿قل من بيده ملكوت كل شىء﴾ أى: ملك كل شىء، من العالم العلوى والعالم السفلى، ما نبصره وما لا نبصره؟ و«الملكوت» صيغة مبالغة بمعنى الملك ﴿وهو يجير﴾ عباده من الشر، ويدفع عنهم المكاره ويحفظهم مما يضرهم ﴿ولا يجار عليه﴾ أى: لا يقدر أحد أن يجير على الله ولا يدفع الشر الذى قدره الله، بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿سيقولون لله﴾ أى سيقرون أن الله المالك لكل شىء المجير الذى لا يجار عليه ﴿قل﴾ لهم حين يقرون بذلك ملزمًا لهم ﴿فأنى تسحرون﴾ أى: فأين تذهب عقولكم حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم ولا قسط من الملك وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور، فالعقول التى دلتكم على هذا لا تكون إلا مسحورة، وهى ـ بلا شك ـ قد سحرها الشيطان بما زين لهم وحسَّن لهم وقلب الحقائق لهم، فسحر عقولهم كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى: بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق المتضمن للصدق فى الأخبار العدل فى الأمر والنهى، فما بالهم لا يعترفون به وهو أحق أن يتبع؟ وليس عندهم ما يعوضهم عنه إلا الكذب والظلم ولهذا قال: ﴿وإنهم لكاذبون ﴿٩٠﴾ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ كذب يعرف بخبر الله وخبر رسله ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلى على امتناع إلهين فقال: ﴿إذًا﴾ أى لو كان معه آلهة كما يقولون: ﴿لذهب كل إله بما خلق﴾ أى: لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبته ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ فالغالب يكون هو الإله، فمن التمانع لا يمكن وجود العالم ولا يتصور أن ينتظم هذا

الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر والكواكب الثابتة والسيارة، فإنها منذ خلقت وهى تجرى على نظام واحد وترتيب واحد كلها مسخرة بالقدرة مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم ليست مقصورة على أحد دون أحد ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضًا ولا معارضة فى أدنى تصرف فهل يتصور أن يكون ذلك تقدير إلهين ربين؟ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ قد نطقت بلسان حالها وأفهمت ببديع أشكالها أن المدبر لها إله واحد كامل الأسماء والصفات قد افتقرت إليه جميع المخلوقات فى ربوبيته لها وفى إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته كذلك لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك وهو علمه المحيط فقال: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ أى: الذى غاب عن أبصارنا وعلمنا من الواجبات والمستحيلات والممكنات ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿فَتَعَالَى﴾ أى: ارتفع وعظم ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به ولا علم عندهم إلا ما علمه الله.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة فلم يلتفتوا إليها ولم يذعنوا لها حق عليهم العذاب ووعدوا بنزوله وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أى: أىّ وقت أريتنى عذابهم وأحضرتنى ذلك ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: اعصمنى وارحمنى مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنعم وارحمنى أيضًا من العذاب الذى ينزل بهم، لأن العقوبة العامة تعم - عند نزولها - العاصى وغيره، قال الله فى تقريب عذابهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ ولكن إن أخرناه فلحكمة، وإلا فقدرتنا صالحة لإيقاعه.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

هذا من مكارم الأخلاق التى أمر الله رسوله بها فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ أى: إذا أساء إليك أعداؤك بالقول والفعل فلا تقابلهم بالإساءة مع أنه يجوز معاقبة المسىء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم فإن ذلك فضل منك على المسىء، ومن مصالح ذلك أنه تخف الإساءة عنك فى الحال وفى المستقبل وأنه أدعى لجلب المسىء إلى الحق وأقرب إلى ندمه وأسفه ورجوعه بالتوبة عما فعل، ويتصف العافى بصفة الإحسان ويقهر بذلك عدوه الشيطان ويستوجب الثواب من الرب، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ أى: ما يوفق لهذا الخلق الجميل ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أى: بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق قد أحاط علمنا بذلك وقد حلمنا عنهم وأمهلناهم وصبرنا عليهم والحق لنا وتكذيبهم لنا، فأنت - يا محمد - ينبغى لك أن تصبر على ما يقولون وتقابلهم بالإحسان، هذه وظيفة العبد فى مقابلة المسىء من البشر، وأما المسىء من الشياطين فإنه لا يفيد فيه الإحسان ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير، فالوظيفة فى مقابلته أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أى: أعوذ بك من الشر الذى يصيبنى بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسهم ومن الشر الذى بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان ومن مسه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر وأجاب دعاءه سلم من كل شر ووفق لكل خير.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يخبر تعالى عن حال من حضره الموت من المفرطين الظالمين أنه يندم في تلك الحال إذا رأى مآله وشاهد قبح أعماله، فيطلب الرجعة إلى الدنيا لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك ليقول: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من العمل وفرطت في جنب الله ﴿كَلاَّ﴾ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون ﴿إِنَّهَا﴾ أي مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي: مجرد قول اللسان لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضًا غير صادق في ذلك فإنه لو رُدَّ لَعَادَ لما نُهِيَ عنه ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ: وهو الحاجز بين الشيئين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ يتنعم المطيعون ويعذب العاصون من ابتداء موتهم واستقرارهم في قبورهم إلى يوم يبعثون، أي: فَلْيُعدوا له عُدَّته وليأخذوا له أُهبَتَهُ.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما في ذلك من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث فحشر الناس أجمعون لميقات يوم معلوم أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحدًا عن حاله لاشتغاله بنفسه، فلا يدرى هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ وفي القيامة مواضع يشتد كربها ويعظم وقعها كالميزان الذي يميز به أعمال العبد وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه وتبين فيه مثاقيل الذر من الخير والشر ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لنجاتهم من النار واستحقاقهم الجنة وفوزهم بالثناء الجميل ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته وأحاطت بها خطيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ كل خسارة، غير هذه الخسار، فإنها - بالنسبة إليها - سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة لا يجبر مصابها ولا يستدرك فائتها، خسارة أبدية وشقاوة سرمدية قد خسر نفسه الشريفة التي يتمكن بها من السعادة الأبدية ففوتها هذا النعيم المقيم في جوار الرب الكريم ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين، وهذا الوعيد إنما هو كما ذكرنا لمن أحاطت خطيئاته بحسناته ولا يكون ذلك إلا كافرًا، فعلى هذا لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تُعَدُّ أعمالهم وتحصى فيقفون عليها ويقرون بها ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان ولكن عظمت سيئاته فرجحت على حسناته فإنه وإن دخل النار لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة، ثم ذكر تعالى سوء مصير الكافرين فقال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم حتى تصيب أعضاءهم الشريفة ويتقطع لهبها عن وجوههم ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قد عبست وجوههم وقلصت شفاههم من شدة ما هم فيه وعظيم ما يلقونه، فيقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تدعون بها لتؤمنوا وتعرض عليكم لتنظروا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ظلمًا منكم وعنادًا وهي آيات بينات دالات على الحق والباطل مبينات للمحق والمبطل، فحينئذ أقروا بظلمهم

حيث لا ينفع الإقرار، و ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أى: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق والإقبال على ما يضر وترك ما ينفع ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ فى عملهم وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أى فعلنا فى الدنيا فعل التائه الضال السفيه، كما قالوا فى الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ وهم كاذبون فى وعدهم هذا فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ولم يبق الله لهم حجة بل قطع أعذارهم وغرهم فى الدنيا، ما يتذكر فيه من تذكر ويرتدع فيه المجرم، فقال الله جوابًا لسؤالهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وهذا القول ـ نسأله تعالى العافية ـ أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون فى التخييب والتوبيخ والذل والخسار والتأييس من كل خير والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم أشد عليهم وأبلغ فى نكايتهم من عذاب الجحيم، ثم ذكر الحال التى أوصلتهم إلى العذاب وقطعت عنهم الرحمة فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضى لأعماله الصالحة والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة والتوسل إليه بربوبيته ومنته عليهم بالإيمان والإخبار بسعة رحمته وعموم إحسانه، وفى ضمنه ما يدل على خضوعهم وخشوعهم وانكسارهم لربهم وخوفهم ورجائهم، فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أيها الكفرة الأنذال ناقصو العقول والأحلام ﴿سِخْرِيًّا﴾ تهزءون بهم وتحتقرونهم حتى اشتغلتم بذكر السفه ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وهذا الذى أوجب لهم نسيان الذكر اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر فهل فوق هذه الجرأة جرأة؟! ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعتى وعلى أذاكم حتى وصلوا إلىَّ ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم والنجاة من الجحيم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ الآيات ﴿قَالَ﴾ لهم على وجه اللوم وأنهم سفهاء الأحلام حيث اكتسبوا فى هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون من الخير الذى يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كلامهم هذا مبنى على استقصارهم جدًا لمدة مكثهم فى الدنيا وأفاد ذلك لكنه لا يفيد مقداره ولا يعينه فلهذا قالوا: ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أى: الضابطين لعدده، وأما هم ففى شغل شاغل وعذاب مذهل عن معرفة عدده، فقال لهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سواء عينتم عدده أم لا ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

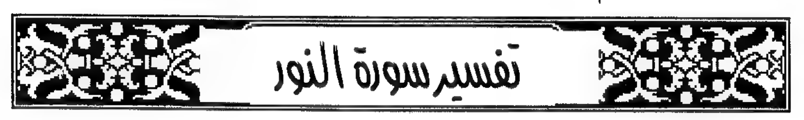
أى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أى: سدًى وباطلاً، تأكلون وتشربون وتمرحون وتتمتعون بلذات الدنيا ونترككم لا نأمركم ولا ننهاكم ولا نثيبكم ولا نعاقبكم؟ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ لا يخطر هذا ببالكم ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ أى: تعاظم وارتفع عن هذا الظن الباطل الذى يرجع إلى القدح فى حكمته ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فكونه ملكًا للخلق كلهم حقًا فى صدقه ووعده ووعيده مألوهًا معبودًا لما له من الكمال ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فما دونه من باب أولى يمنع أن يخلقكم عبثًا.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

أى: ومن دعا مع الله آلهة غيره بلا بينة من أمره ولا برهان على ذلك، يدل على ما ذهب إليه وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله فليس له برهان على ذلك بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه فأعرض عنه ظلمًا وعنادًا فهذا سيقدم على ربه فيجازيه بأعماله ولا ينيله من الفلاح شيئًا لأنه كافر ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فكفرهم منعهم من الفلاح ﴿وَقُل﴾ داعيًا لربك مخلصًا له الدين ﴿رَّبِّ اغْفِرْ﴾ لنا حتى تنجينا من المكروه

﴿وَارْحَمْ﴾ أى وارحمنا لتوصلنا برحمتك إلى كل خير ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فكل راحم للعبد فالله خير له منه أرحم بعبده من الوالدة بولدها وأرحم به من نفسه.

تم تفسير سورة «المؤمنون» بفضل الله وإحسانه



تفسير سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)﴾

أى: هذه ﴿سُورَةٌ﴾ عظيمة القدر ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أى: قدرنا فيها ما قدرنا من الحدود والشهادات وغيرها ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى: أحكامًا جليلة وأوامر وزواجر وحكمًا عظيمة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ حين نبين لكم ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، ثم شرع فى بيان تلك الأحكام المشار إليها فقال:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾

هذا الحكم فى الزانى والزانية البكرين أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة، وأما الثيب فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة أن حده الرجم، ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة بهما فى دين الله تمنعنا من إقامة الحد عليهما سواء رأفة طبيعية أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة بإقامة الحد عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين طائفة أو جماعة من المؤمنين ليشتهر ويحصل بذلك الخزى والارتداع وليشاهدوا الحد فعلاً، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل مما يقوى به العلم ويستقر به الفهم ويكون أقرب لإصابة الصواب فلا يزاد فيه ولا ينقص والله أعلم.

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾

هذا بيان لرذيلة الزنا وأنه يدنس عرض صاحبه وعرض من قارنه ومازجه ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخبر أن الزانى لا يقدم على نكاحه من النساء إلا أنثى زانية تناسب حاله حالها أو مشركة بالله لا تؤمن ببعث ولا جزاء ولا تلتزم أمر الله، والزانية كذلك لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: حرم عليهم أن ينكحوا زانيًا أو ينكحوا زانية، ومعنى الآية: أن من اتصف بالزنا من رجل أو امرأة ولم يتب من ذلك أن المقدم على نكاحه مع تحريم الله لذلك لا يخلو إما أن لا يكون ملتزمًا لحكم الله ورسوله فذاك لا يكون إلا مشركًا، وإما أن يكون ملتزمًا لحكم الله ورسوله فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه فإن هذا النكاح زنا والناكح زان مسافح، فلو كان مؤمنًا بالله حقًا لم يقدم على ذلك، وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب وكذلك نكاح الزانى حتى يتوب فإن مقارنة الزوج لزوجته والزوجة لزوجها أشد الاقترانات والازدواجات، وقد قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أى: قرناءهم، فحرم الله ذلك لما فيه من الشر العظيم، وفيه من قلة الغيرة وإلحاق الأولاد الذين ليسوا من الزوج وكون الزانى لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها مما بعضه كاف فى التحريم، وفى هذا دليل على أن الزانى ليس مؤمنًا كما قال النبى ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» فهو وإن لم يكن مشركًا فلا يطلق عليه اسم المدح الذى هو الإيمان المطلق.

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

لما عظم تعالى أمر الزانى بوجوب جلده وكذا رجمه إن كان محصنًا وأنه لا تجوز مقارنته ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من الشر، بيَّن تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمى بالزنا فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أى: النساء الحرائر العفائف، وكذلك الرجال لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرَّمْى الرَّمْى بالزنا بدليل السياق ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ على ما رموا به ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أى: رجال عدول يشهدون بذلك صريحًا ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ بسوط متوسط يؤلم فيه ولا يبالغ بذلك حتى يتلفه، لأن القصد التأديب لا الإتلاف، وفى هذا تقرير حد القذف ولكن بشرط أن يكون المقذوف كما قال تعالى محصنًا مؤمنًا، وأما قذف غير المحصن فإنه يوجب التعزير ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أى: لهم عقوبة أخرى وهو أن شهادة القاذف غير مقبولة ولو حُدَّ على القذف حتى يتوب كما يأتى ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: الخارجون عن طاعة الله الذين قد كثر شرهم، وذلك لانتهاك ما حرم الله وانتهاك عرض أخيه وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به وإزالة الأخوة التى عقدها الله بين أهل الإيمان ومحبة أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، وهذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالتوبة فى هذا الموضع أن يكذب القاذف نفسه ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه أن يكذب نفسه ولو تيقن وقوعه حيث لم يأت بأربعة شهداء، فإذا تاب القاذف وأصلح عمله وبدل إساءته إحسانًا زال عنه الفسق وكذلك تقبل شهادته على الصحيح فإن الله غفور رحيم يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب وأناب، وإنما يجلد القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجًا، فإن كان زوجًا فقد ذكر بقوله:

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته دارئة عنه الحد لأن الغالب أن الزوج لا يقدم على رَمْيِ زوجته التى يدنسه ما يدنسها إلا إذا كان صادقًا، ولأن له فى ذلك حقًا وخوفًا من إلحاق أولاد ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة فى غيره فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أى الحرائر لا المملوكات ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ على رميهم بذلك ﴿شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ بأن لم يقيموا شهداء على ما رموهن به ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سماها شهادة لأنها نائبة مناب الشهود بأن يقول: «أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميتها به» ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى: يزيد فى الخامسة مع الشهادة المذكورة مؤكدًا تلك الشهادات بأن يدعو على نفسه باللعنة إن كان كاذبًا، فإذا تم لعانه سقط عنه حد القذف، وظاهر الآيات ولو سمى الرجل الذى رماها به فإنه يسقط حقه تبعًا لها، وهل يقام عليها الحد بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذى يدل عليه الدليل أنه يقام عليها الحد بدليل قوله: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ﴾ إلى آخره، فلولا أن العذاب وهو الحد قد وجب بلعانه لم يكن لعانها دارئًا له، ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا﴾ أى: يدفع عنها ﴿الْعَذَابَ﴾ إذ قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وتزيد فى الخامسة - مؤكدة لذلك - أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما فرق بينهما إلى الأبد وانتفى الولد الملاعن عنه، وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها وأن لا ينقص منها شىء ولا يبدل شىء بشىء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته لا بالعكس، وأن الشبه فى الولد مع

اللعان لا عبرة به كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام أي: لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين لشدة الحاجة إليه، وأن بين لكم شدة الزنا وفظاعته وفظاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

لما ذكر فيما تقدم تعظيم الرَّمْي بالزنا عمومًا صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة التي وقعت على أشرف النساء أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات نزلت في قصة الإفك المشهورة الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد، وحاصلها أن النبي ﷺ في بعض غزواته ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق فانقطع عقدها فانحبست في طلبه ورحلوا جملها وهودجها فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلاً وجاءت مكانهم وعلمت أنهم إذا فقدوها رجعوا إليها فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي من أفاضل الصحابة رضي الله عنه قد عرَّس في أخريات القوم ونام فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها فأناخ راحلته فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعدما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال أشاع ما أشاع وفشا الحديث وتلقفته الألسن حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحبس الوحي مدة طويلة عن الرسول ﷺ، وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة فحزنت حزنًا شديدًا فأنزل الله براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين وأعظم ذلك ووصاهم بالوصايا النافعة، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ﴾ أي: الكذب الشنيع وهو رَمْيُ أم المؤمنين ﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ أي: جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق في إيمانه لكنه اغتر بترويج المنافقين ومنهم المنافق ﴿لا تَحْسَبُوهُ

شرًا لكم بل هو خير لكم﴾ لما تضمن ذلك من تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها والتنويه بذكرها حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبى ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد التى ما زال العمل بها إلى يوم القيامة، فكل هذا خير عظيم لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمرًا جعل له سببًا ولذلك جعل الخطاب عامًا مع المؤمنين كلهم وأخبر أن قدح بعضهم ببعض كقدح فى أنفسهم، ففيه أن المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم واجتماعهم على مصالحهم كالجسد الواحد والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، فكما أنه يكره أن يقدح أحد فى عرضه فليكره من كل أحد أن يقدح فى أخيه المؤمن الذى بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة فإنه من نقص إيمانه وعدم نصحه ﴿لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم﴾ وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حد النبى ﷺ منهم جماعة ﴿والذى تولى كبره﴾ أى: معظم الإفك، وهو المنافق الخبيث عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول، لعنه الله ﴿له عذاب عظيم﴾ ألا وهو الخلود فى الدرك الأسفل من النار، ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا﴾ أى: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيرًا وهو السلام مما رموا به وأن ما معهم من الإيمان المعلوم يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل ﴿وقالوا﴾ بسبب ذلك الظن ﴿سبحانك﴾ أى: تنزيهًا لك من كل سوء وعن أن تبتلى أصفياءك بالأمور الشنيعة ﴿هذا إفك مبين﴾ أى: كذب وبهت من أعظم الأشياء وأبينها، فهذا من الظن الواجب حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن مثل هذا الكلام أن يبرئه بلسانه ويكذب القائل لذلك ﴿لولا جاءو عليه بأربعة شهداء﴾ أى: هلا جاء الرامون على ما رموا به بأربعة شهداء، أى: عدول مرضيين ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ وإن كانوا فى أنفسهم قد تيقنوا ذلك فإنهم كاذبون فى حكم الله لأنه حرم عليهم التكلم بذلك من دون أربعة شهود، ولهذا قال: ﴿فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ ولم يقل «فأولئك هم الكاذبون» وهذا كله من تعظيم حرمة عرض المسلم بحيث لا يجوز الإقدام على رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة﴾ بحيث شملكم إحسانه فيهما فى أمر دينكم ودنياكم ﴿لمسكم فى ما أفضتم﴾ أى: خضتم ﴿فيه﴾ من شأن الإفك ﴿عذاب عظيم﴾ لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته أن شرع لكم التوبة وجعل العقوبة مطهرة للذنوب ﴿إذ تلقونه بألسنتكم﴾ أى: تتلقفونه ويلقيه بعضكم إلى بعض وتستوشون حديثه وهو قول باطل ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ والأمران محظوران: التكلم بالباطل والقول بلا علم ﴿وتحسبونه هينًا﴾ فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه وتطهروا بعد ذلك ﴿وهو عند الله عظيم﴾ وهذا فيه الزجر البليغ عن تعاطى بعض الذنوب على وجه التهاون بها، فإن العبد لا يفيده حسبانه شيئًا ولا يخفف من عقوبته الذنب بل يضاعف الذنب ويسهل عليه مواقعته مرة أخرى ﴿ولولا إذ سمعتموه﴾ أى: وهلا إذ سمعتم- أيها المؤمنون- كلام أهل الإفك ﴿قلتم﴾ منكرين لذلك معظمين لأمره: ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أى: ما ينبغى لنا وما يليق بنا الكلام بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح ﴿هذا بهتان﴾ أى كذب عظيم[1] ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله﴾ أى: لنظيره من رمى المؤمنين بالفجور، فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك ونعم المواعظ والنصائح من ربنا، فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان والتسليم والشكر له على ما بين لنا ﴿إن الله نعمًا يعظكم به﴾ ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ المشتملة على بيان الأحكام والوعظ والزجر والترغيب والترهيب يوضحها لكم توضيحًا جليًا ﴿والله عليم﴾ أى: كامل العلم ﴿حكيم﴾ عام الحكمة، فمن علمه وحكمته أن علمكم من علمه وإن كان ذلك راجعًا لمصالحكم فى كل وقت ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أى: الأمور الشنيعة المستقبحة فيحبون

(١) أى لما يترتب عليه من إلحاق الأذى بالناس، الذى يفضى إلى إفساد المجتمع، والله نهى المؤمنين أن يؤذوا بعضهم بعضًا، فإذا عمد المرء فى إلحاق الأذى بالناس، يكون قد خالف ربه، وهذه المخالفة عليها عقاب مخالفة الأمر الإلهى، وعقاب آخر وهو أذى الناس، فيكون عذابه مزدوجًا، ولذلك وصف الله هذه الجريمة بأنها عظيمة فى قوله: ﴿وهو عند الله عظيم﴾ وحذرنا من ارتكابها بقوله: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدًا إن كنتم مؤمنين﴾ ومفهوم هذا الكلام أن مخالفه خرج من الإيمان.

أن تشتهر الفاحشة ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: موجع للقلب والبدن وذلك لغشه لإخوانه المسلمين ومحبة الشر لهم وجراءته على أعراضهم فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة واستحلاء ذلك بالقلب فكيف بما هو أعظم من ذلك من إظهاره ونقله؟! وسواء كانت الفاحشة صادرة أو غير صادرة، وكل هذا من رحمة الله لعباده المؤمنين وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم وأمرهم بما بقتضى المصافاة وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ فلذلك علمكم وبين لكم ما تجهلونه ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ قد أحاط بكم من كل جانب ﴿وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لما بيّن لكم هذه الأحكام والمواعظ والحكم الجليلة ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته وأن ذلك وصفه اللازم آثر لكم من الخير الدنيوى والأخروى ما لن تحصوه أو تعدوه، ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه نهى عن الذنوب عمومًا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى طرقه ووساوسه، وخطوات الشيطان يدخل فيها سائر المعاصى المتعلقة بالقلب واللسان والبدن، ومن حكمته تعالى أن بيّن الحكم وهو: النّهىُ عن اتباع خطوات الشيطان، والحكمة وهو بيان ما في المنهى عنه من الشر المقتضى والداعى لتركه فقال: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ﴾ أى: الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة مع ميل بعض النفوس إليه ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ وهو: ما تنكره العقول ولا تعرفه، فالمعاصى التى هى خطوات الشيطان لا تخرج عن ذلك فنهى الله عنها العباد نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالرذائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أى: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى هو وجنده فى الدعوة إليها وتحسينها والنفس ميالة إلى السوء أمّارة به، والنقص مُسْتَوْلٍ على العبد من جميع جهاته والإيمان غير قوى، فلو خُلى وهذه الدواعى ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتزكى منكم من تزكى، وكان من دعاء النبى ﷺ: «اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها» ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ من يعلم منه أن يتزكى بالتزكية، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلا يَأْتَلِ﴾ أى: لا يحلف. ﴿أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ كان من جملة الخائضين فى الإفك «مسطح بن أثاثة» وهو قريب لأبى بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيرًا من المهاجرين فى سبيل الله فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه لقوله الذى قال، فنزلت هذه الآية ينهاهم عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه ويحثه على العفو والصفح ويعده بمغفرة الله إن غفره له فقال: ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إذا عاملتم عبيده بالعفو والصفح عاملكم بذلك، فقال أبو بكر لما سمع هذه الآية: بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى، فرجع النفقة إلى مسطح، وفى هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح ولو جرى منه ما جرى من أهل الجرائم، ثم ذكر الوعيد الشديد على رمى المحصنات فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أى: العفائف عن الفجور ﴿الْغَافِلاتِ﴾ اللاتى لم يخطر ذلك بقلوبهن ﴿الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير، وأكد[١] اللعنة بأنها متواصلة عليهم فى الدارين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا زيادة على اللعنة أبعدهم عن رحمته وأحل بهم شدة نقمته، وذلك العذاب يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فكل جارحة تشهد عليه بما عملته، ينطقها الذى أنطق كل شىء فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل فى العباد من جعل شهودهم من أنفسهم ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أى: جزاءهم على أعمالهم الجزاء الحق الذى بالعدل والقسط، يجدون جزاءها موفرًا لم يفقدوا منها شيئًا ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا

---

(١) قوله «وأكد. . .إلخ» توضيحه أن يقال: إن اللعنة من الناس متواصلة على القاذفين للمحصنات الموصوفات بالآية، وبإقامة الحد عليهم فى الدنيا، وبالعذاب العظيم فى الآخرة.

عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ويعلمون فى ذلك الموقف العظيم أن الله هو الحق المبين فيعلمون انحصار الحق المبين فى الله تعالى، فأوصافه العظيمة حق وأفعاله هى الحق وعبادته هى الحق ولقاؤه حق ووعيده حق وحكمه الدينى والجزائى حق ورسله حق، فلا ثَمَّ حق إلا فى الله ومن الله ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ أى: كل خبيث من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسب للخبيث وموافق له ومقترن به ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسب للطيب وموافق له ومقترن به ومشاكل له، فهذه كلمة عامة وحصر لا يخرج منه شىء من أعظم مفرداته أن الأنبياء خصوصًا أولى العزم منهم خصوصًا سيدهم محمد ﷺ الذى هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء، فالقدح فى عائشة ﵂ بهذا الأمر قدح فى النبى ﷺ وهو المقصود بهذا الإفك من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح فكيف وهى ما هى؟ صدِّيقةُ النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التى لم ينزل الوحى عليه وهو فى لحاف زوجة من زوجاته غيرها؟!! ثم صرح بذلك بحيث لا يبقى لمبطل مقالاً ولا لشك وشبهة مجالاً فقال: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ والإشارة إلى عائشة ﵂ أصلاً وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعًا لها ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ تستغرق الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فى الجنة صادر من الرب الكريم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾

يرشد البارى عباده المؤمنين أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم بغير استئذان فإن فى ذلك عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول ﷺ حيث قال: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» فبسبب الإخلال به يقع البصر على العورات التى داخل البيوت، فإن البيت للإنسان فى ستر عورة ما وراءه بمنزلة الثوب فى ستر عورة جسده، ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل ويتهم بالشر، سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ أى: تستأذنوا، سمى الاستئذان استئناسًا لأن به يحصل الاستئناس وبعدمه تحصل الوحشة ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ وصفة ذلك ما جاء فى الحديث «السلام عليكم أأدخل»؟ ﴿ذَلِكُمْ﴾ أى الاستئذان المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لاشتماله على عدة مصالح وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن دخل المستأذن ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أى: فلا تمتنعوا من الرجوع ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقًا واجبًا لكم وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا يأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز من هذه الحال ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أى: أشد لتطهيركم من السيئات وتنميتكم بالحسنات ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازى كل عامل بعمله من كثرة وقلة وحسن وعدمه، هذا الحكم فى البيوت المسكونة سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفى البيوت غير المسكونة التى لا متاع فيها للإنسان، وأما البيوت التى ليس فيها أهلها وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه وذلك كبيوت الكراء وغيرها فقد ذكرها بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أى: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان فى البيوت السابقة أنه محرم وفيه حرج ﴿أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ وهذا من احترازات القرآن العجيبة فإن قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ لفظ عام فى كل بيت ليس ملكًا للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التى ليست ملكه وفيها متاعه وليس فيها ساكن فأسقط الحرج فى الدخول إليها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أحوالكم الظاهرة والخفية وعلم مصالحكم فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون من الأحكام الشرعية.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)﴾

أى: أرْشِد المؤمنين وقل لهم، الذين معهم إيمان يمنعهم من وقوع ما يخل بالإيمان: ﴿**يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾ عن النظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبيات وإلى المردان الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة وإلى زينة الدنيا التى تفتن وتوقع فى المحذور ﴿**وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾ عن الوطء الحرام فى قُبُلٍ أو دُبُرٍ أو ما دون ذلك وعن التمكين من مسها والنظر إليها ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الحفظ للأبصار والفروج ﴿**أَزْكَىٰ لَهُمْ**﴾ أطهر وأطيب وأنمى لأعمالهم فإن من حفظ فرجه وبصره طهر من الخبث الذى يتدنس به أهل الفواحش وزكت أعماله بسبب ترك المحرم الذى تطمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن غض بصره أنار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته مع دواعى الشهوة كان حفظه لغيره أبلغ ولهذا سماه الله حفظًا، فالشىء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه فى مراقبته وحفظه وعمل الأسباب الموجبة لحفظه لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج إن لم يجتهد العبد فى حفظهما أوقعاه فى بلايا ومحن، وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقًا لأنه لا يباح فى حالة من الأحوال، وأما البصر فقال: ﴿**يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾ بأداة «من» الدالة على التبعيض، فإنه يجوز النظر فى بعض الأحوال لحاجة كنظر الشاهد والعامل والخاطب ونحو ذلك، ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم ليجتهدوا فى حفظ أنفسهم من المحرمات.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾

لما أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج أمر المؤمنات بذلك فقال: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ**﴾ عن النظر إلى العورات والرجال بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع ﴿**وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**﴾ من التمكين من جماعهن أو مسهن أو النظر المحرم إليهن ﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ**﴾ كالثياب الجميلة والحلى وجميع البدن كله من الزينة، ولما كانت الثياب الظاهرة لا بد منها قال: ﴿**إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾ أى الثياب الظاهرة التى جرت العادة بلبسها إذا لم يكن فى ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**﴾ وهذا لكمال الاستتار ويدل ذلك على أن الزينة التى يحرم إبداؤها يدخل فيها جميع البدن كما ذكرنا، ثم كرر النهى عن إبداء زينتهن ليستثنى منه قوله: ﴿**إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ**﴾ أى: أزواجهن ﴿**أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ**﴾ يشمل الأب بنفسه والجد وإن علا ﴿**أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ**﴾ أشقاء أو لأب أو لأم ﴿**أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ**﴾ أى: يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقًا، ويحتمل أن الإضافة تقتضى الجنسية أى: النساء المسلمات اللاتى من جنسكن، ففيه دليل لمن قال: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذمية ﴿**أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ**﴾ فيجوز للمملوك إذا كان كله للأنثى أن ينظر لسيدته ما دامت مالكة له كله فإذا زال الملك أو بعضه لم يجز النظر ﴿**أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ**﴾ أى: والذين يتبعونكم ويتعلقون بكم من الرجال الذين لا إربة لهم فى هذه الشهوة كالمعتوه[1] الذى لا يدرى ما هنالك، وكالعِنِّين[2] الذى لم يبق له شهوة لا فى فرجه ولا فى قلبه، فإن هذا لا محذور من نظره،

---

(١) المعتوه: الناقص العقل. اهـ. من المختار من الصحاح، وقال فى المصباح: عَتِهَ عَتَها من باب «تعب» نقص عقله من غير جنون، وفى التهذيب «المعتوه: المدهوش من غير مس أو جنون. اهـ».

(٢) العنّين: هو الذى لا يقدر على إتيان النساء، أو لا يشتهى النساء، وامرأة عنينة: لا تشتهى الرجال. اهـ مصباح.

﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أى: الأطفال الذين دون التمييز فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب، وعلل تعالى ذلك بأنهم لم يظهروا على عورات النساء أى: ليس لهم علم بذلك ولا وجدت فيهم الشهوة بعد، ودل هذا أن المميز تستتر منه المرأة لأنه يظهر على عورات النساء ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أى: لا يضربن الأرض بأرجلهن لِيُصوِّت ما عليهن من حُلى كخلاخل وغيرها فتعلم زينتها بسببه فيكون وسيلة إلى الفتنة، ويؤخذ من هذا ونحوه قاعدة سد الوسائل[1] وأن الأمر إذا كان مباحًا ولكنه يفضى إلى محرم أو يخاف من وقوعه فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل فى الأرض الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة منع منه، ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة ووصى بالوصايا المستحسنة وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك أمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم علق على ذلك الفلاح فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة وهى الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى: ما يحبه ظاهرًا وباطنًا، ودل هذا أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة لأن الله خاطب المؤمنين جميعًا، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة فى قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا أو رياء وسمعة أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

يأمر تعالى الأولياء والأسياد بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامى وهم: من لا أزواج لهم من رجال ونساء ثيبات وأبكار، فيجب على القريب وولى اليتيم أن يزوج من يحتاج للزواج ممن تجب نفقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ يحتمل أن المراد بالصالحين صلاح الدين وأن الصالح من العبيد والإماء ـ وهو الذى لا يكون فاجرًا زانيًا ـ مأمور سيده بإنكاحه جزاء له على صلاحه وترغيبًا له فيه، ولأن الفاسد بالزنا منهى عن تزوجه فيكون مؤيدًا للمذكور فى أول السورة أن نكاح الزانى والزانية محرم حتى يتوب، ويكون التخصيص بالصلاح فى العبيد والإماء دون الأحرار لكثرة وجود ذلك فى العبيد عادة، ويحتمل أن المراد بالصالحين الصالحون للتزوج المحتاجون إليه من العبيد والإماء يؤيد هذا المعنى أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه قبل حاجته إلى الزواج، ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما، والله أعلم، وقوله: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ أى: الأزواج والمتزوجين ﴿يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فلا يمنعكم ما تتوهمون من أنه إذا تزوج افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه، وفيه حث على التزوج ووعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الخير عظيم الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق فضله الدينى والدنيوى أو أحدهما ممن لا يستحق فيعطى كُلا ما علمه واقتضاه حكمه ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ هذا حكم العاجز عن النكاح أمره الله أن يستعفف أى: أن يكف عن المحرم ويفعل الأسباب التى تكفه عنه من صرف دواعى قلبه بالأفكار التى تخطر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضًا كما قال النبى ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أى: لا يقدرون نكاحًا[2] إما لفقرهم أو فقر أوليائهم وأسيادهم أو امتناعهم من تزويجهم وليس لهم قدرة على

(١) قوله: «سد الوسائل» الصواب أن يقال «سد الذرائع» كما هو المشهور على ألسنة العلماء.

(٢) قوله «لا يقدرون نكاحًا» الصواب أن يقال «لا يقدرون على النكاح» لأن الفعل «قدر» لا يتعدى بنفسه بل بحرف الجر «على» فيقال: «قدر عليه» ولا يقال «قدره».

إجبارهم على ذلك، وهذا التقدير أحسن من تقدير من قدر «لا يجدون مهر نكاح» وجعلوا المضاف إليه نائبًا مناب المضاف فإن فى ذلك محذورين، أحدهما: الحذف فى الكلام والأصل عدم الحذف، والثانى: كون المعنى قاصرًا على من له حالتان: حالة غنى بماله وحالة عدم، فيخرج العبيد والإماء ومن إنكاحه على وليه كما ذكرنا ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وعد للمستعفف أن الله سيغنيه وييسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج لئلا يشق عليه ما هو فيه، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أى: من ابتغى وطلب منكم الكتابة وأن يشترى نفسه من عبيد وإماء فأجيبوه إلى ما طلب وكاتبوه ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ﴾ أى: فى الطالبين للكتابة ﴿خَيْرًا﴾ أى: قدرة على التكسب وصلاحًا فى دينه، لأن فى الكتابة تحصيل المصلحتين مصلحة العتق والحرية ومصلحة العوض الذى يبذله فى فداء نفسه، وربما جد واجتهد وأدرك لسيده فى مدة الكتابة من المال ما لا يحصل عليه فى رقه فلا يكون ضرر على السيد فى كتابته مع حصول عظيم المنفعة للعبد، فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب كما هو الظاهر أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر بمعاونتهم على كتابتهم لكونهم محتاجين لذلك بسبب أنهم لا مال لهم فقال: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ يدخل فى ذلك أمر سيده الذى كاتبه أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها وأمر الناس بمعونتهم، ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطًا من الزكاة ورغب فى إعطائه بقوله: ﴿مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أى: فكما أن المال مال الله وإنما الذى بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منه فأحسنوا لعباد الله كما أحسن الله إليكم، ومفهوم الآية الكريمة أن العبد إذا لم يطلب الكتابة لا يؤمر سيده أن يبتدئ بكتابته وأنه إذا لم يعلم منه خيرًا بأن علم منه عكسه إما أنه يعلم أنه لا كسب له فيكون بسبب ذلك كَلا على الناس ضائعًا، وإما أن يخاف إذا أعتق وصار فى حرية نفسه أن يتمكن من الفساد فهذا لا يؤمر بكتابته بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ أى: إماءكم ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ أى: أن تكون زانية ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصنًا فإنها تكون بغيًا يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما نهى عن هذا لما كانوا يستعملونه فى الجاهلية من كون السيد يجبر أمته على البغاء ليأخذ منها أجرة ذلك ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يليق بكم أن تكون إماؤكم خيرًا منكم وأعف عن الزنا وأنتم تفعلون بهن ذلك لأجل عرض الحياة متاع قليل يعرض ثم يزول، فكسبكم النزاهة والنظافة والمروءة - بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها - أفضل من كسبكم العرض القليل الذى يكسبكم الرذالة والخسة، ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة فقال: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فليتب إلى الله وليقلع عما صدر منه مما يغضبه، فإذا فعل ذلك غفر الله ذنوبه ورحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب. وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

هذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات تلاها على عباده ليعرفوا قدرها ويقوموا بحقها فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ أى: واضحات الدلالة على كل أمر تحتاجون إليه من الأصول والفروع بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة ﴿وَ﴾ أنزلنا إليكم أيضًا ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ من أخبار الأولين الصالح منهم والطالح وصفة أعمالهم وما جرى لهم وجرى عليهم تعتبرونه مثالاً ومعتبرًا لمن فعل مثل أعمالهم أن يجازى مثل ما جوزوا ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين من الوعد والوعيد والترغيب والترهيب يتعظ بها المتقون فيكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الحسى والمعنوى، وذلك أنه تعالى بذاته نور وحجابه نور، الذى لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وبه استنار العرش والكرسى والشمس والقمر والنور، وبه استنارت الجنة، وكذلك المعنوى يرجع إلى الله فكتابه نور وشرعه نور والإيمان والمعرفة فى قلوب رسله وعباده المؤمنين نور، فلولا نوره تعالى لتراكمت الظلمات، ولهذا كل محل يفقد نوره فَثَمَّ الظلمة والحصر ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الذى يهدى إليه وهو نور الإيمان والقرآن فى قلوب المؤمنين ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أى: كوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق، ذلك ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ من صفائها وبهائها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أى: مضىء إضاءة الدر ﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح الذى فى تلك الزجاجة الدرية ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أى: يوقد من زيت الزيتون الذى ناره من أنور ما يكون ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط فلا تصيبها الشمس آخر النهار ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط فلا تصيبها الشمس أول النهار، وإذا انتفى عنها الأمران كانت متوسطة من الأرض كزيتون الشام تصيبه الشمس أول النهار وآخره فيحسن ويطيب ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفائه ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فإذا مسته النار أضاء إضاءة بليغة ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أى: نور النار ونور الزيت، ووجه هذا المثل الذى ضربه الله وتطبيقه على حالة المؤمن ونور الله فى قلبه أن فطرته التى فطر عليها بمنزلة الزيت الصافى، ففطرته صافية مستعدة للتعاليم الإلهية والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان اشتعل ذلك النور فى قلبه بمنزلة إشعال النار فتيلة ذلك المصباح وهو صافى القلب من سوء القصد وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان أضاء إضاءة عظيمة لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية فيجتمع له نور الفطرة ونور الإيمان ونور العلم وصفاء المعرفة نور على نوره، ولما كان هذا من نور الله تعالى وليس كل أحد يصلح له ذلك قال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ممن يعلم زكاءه وطهارته وأنه يزكى معه وينمى ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ ليعقلوا عنه ويفهموا لطفًا منه بهم وإحسانًا إليهم وليتضح الحق من الباطل، فإن الأمثال تقرب المعانى المعقولة من المحسوسة فيعلمها العباد علمًا واضحًا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فعلمه محيط بجميع الأشياء، فَلْتَعْلَمُوا أن ضَرْبَهُ الأمثال ضَرْبُ من يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها وأنها مصلحة للعباد، فَلْيَكُن اشتغالكم بتَدَبُّرها وتعقُّلها لا بالاعتراض عليها ولا بمعارضتها فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون، ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثروقوع أسبابه فى المساجد ذكرها منوهًا بها فقال:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

أى: يتعبد لله ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ عظيمة فاضلة هى أحب البقاع إليه وهى: المساجد ﴿أَذِنَ اللَّهُ﴾ أى: أمر ووصى ﴿أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل فى رفعها بناؤها وكنسها وتنظيفها من النجاسات والأذى، وصونها من المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسات، وعن الكافر وأن تصان عن اللغو فيها ورفع الأصوات بغير ذكر الله ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ يدخل فى ذلك الصلاة كلها فرضها ونفلها وقراءة القرآن والتسبيح والتهليل وغيره من أنواع الذكر وتَعَلُّم العلم وتعليمه والمذاكرة فيها والاعتكاف وغير ذلك من العبادات التى تفعل فى المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان وصيانة لها وعمارة بذكر اسم الله من الصلاة وغيرها وهذا أشرف القسمين، ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة فى المساجد وجوبًا عند أكثر العلماء واستحبابًا عند آخرين، ثم مدح تعالى عُمَّارَهَا بالعبادة فقال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ إخلاصًا ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَالْآصَالِ﴾ آخره ﴿رِجَالٌ﴾ خص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته، ويدخل فى ذلك التسبيح فى الصلاة وغيرها ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادهما عند الصباح والمساء، أى: يسبح فيها الله رجال وأى رجال ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا ذات لذات ولا تجارة

ومكاسب مشغلة عنه ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ وهذا يشمل كل تكسُّب يقصد به العوض فيكون قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال وإن اتجروا وباعوا واشتروا فإن ذلك لا محذور فيه، لكنه لا تلهيهم تلك بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم ونهاية مقصدهم فما حال بينهم وبينها رفضوه، ولما كان ترك الدنيا شديدًا على أكثر النفوس وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوبًا لها ويشق عليها تركه في الغالب وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك ذكر ما يدعوها إلى ذلك ترغيبًا وترهيبًا فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ من شدة هوله وإزعاجه القلوب والأبدان فلذلك خافوا ذلك اليوم فسهل عليهم العمل وترك ما يشغل عنه ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة لأنه أحسن ما عملوا لأنهم يعملون المباحات وغيرها فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن كقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله بل ولا تبلغه أمنيته ويعطيه من الأجر بلا عدّ ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جدًا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

هذا مثلان ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عامليها منها فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بربهم وكذبوا رسله ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ أي: بقاع لا شجر فيه ولا نبات ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ شديد العطش الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره بسبب ما معه من العطش وهذا حسبان باطل فيقصده ليزيل ظمأه ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فندم ندمًا شديدًا وازداد ما به من الظمأ بسبب انقطاع رجائه، كذلك أعمال الكفار بمنزلة السراب تُرَى ويظنها الجاهل الذي لا يرى الأمور أعمالاً نافعة فتغره صورتها ويخلبه خيالها ويحسبها هو أيضًا أعمالاً نافعة لهواه وهو أيضًا محتاج إليها كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذ قدم على أعماله يوم الجزاء وجدها ضائعة ولم يجدها شيئًا والحال إنه لم يذهب لا له ولا عليه، بل ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ لم يَخْفَ عليه من عمله نقير[1] ولا قطمير[2] ولن يعدم منه قليلاً ولا كثيرًا ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد فإنه لا بد من إتيانه، ومثّلها الله بالسراب الذي بقيعة أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم لا خير فيها ولا بر فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع وهو الكفر، والمثل الثاني لبطلان أعمال الكفار ﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ بعيد قعره طويل مداه ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة البحر اللجي ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة ثم فوق ذلك ظلمة السحب المدلهمة ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جدًا بحيث أن الكائن في تلك الحال ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ مع قربها إليه فكيف بغيرها، كذلك الكفار تراكمت على قلوبهم الظلمات ظلمة الطبيعة التي لا خير فيها وفوقها ظلمة الكفر وفوق ذلك ظلمة الجهل وفوق ذلك ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين وفي غمرتهم يعمهون وعن الصراط المستقيم مدبرون وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا لأن الله خذلهم فلم يعطهم من نوره ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ لأن نفسه ظالمة جاهلة فليس فيه من الخير والنور إلا ما أعطاها مولاها ومنحها ربها، يحتمل أن هذين المثالين لأعمال جميع الكفار كل منهما منطبق عليها وعدّدهما لتعدد الأوصاف، ويحتمل كل مثال لطائفة وفرقة، فالأول للمتبوعين والثاني للتابعين، والله أعلم.

---

(١) النقير: النقرة التي في ظهر نواة التمر. اهـ. من المختار من الصحاح، وفي المصباح «النقير» النكتة في ظهر النواة.

(٢) قال الراغب في معجم مفردات ألفاظ القرآن: «قطمير» أي: الأثر في ظهر النواة وذلك مَثَلٌ للشيء الطفيف، أي: القليل جدًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)﴾

نبه تعالى عباده على عظمته وكمال سلطانه وافتقار جميع المخلوقات إليه فى ربوبيتها وعبادتها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من حيوان وجماد ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ أى: صافات أجنحتها فى السماء تسبح ربها ﴿كُلٌّ﴾ من هذه المخلوقات ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أى: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح إما بواسطة الرسل كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح بدليل قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أى: علم جميع أفعالهم فلم يخف عليه منها شىء وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا قد جمع بين علمه بأعمالهم وذلك بتعليمه وبين علمه بمقاصدهم المتضمن للجزاء، ويحتمل أن الضمير فى قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ يعود إلى الله وأن الله تعالى قد علم عبادتهم وإن لم تعلموا - أيها العباد - منها إلا ما أطلعكم الله عليه، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فلما بيَّن عبوديتهم وافتقارهم إليه - من جهة العبادة والتوحيد - بيَّن افتقارهم إليه من جهة الملك والتربية والتدبير فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ورازقهما والمتصرف فيهما فى حكمه الشرعى والقدرى فى هذه الدار وفى حكمه الجزائى بدار القرار بدليل قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: مرجع الخلق ومآلهم ليجازيهم بأعمالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)﴾

أى: ألم تشاهد ببصرك عظيم قدرة الله وكيف ﴿يُزْجِي﴾ أى: يسوق ﴿سَحَابًا﴾ قطعًا متفرقة ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ بين تلك القطع فيجعله سحابًا متراكمًا مثل الجبال ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أى: الوابل والمطر يخرج من خلال السحابة نقطًا متفرقة ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر فتمتلئ بذلك الغدران وتتدفق الخلجان وتسيل الأودية وتنبت الأرض من كل زوج كريم، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب بَرَدًا يُتلفُ ما يصيبه ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ أى: بحسب اقتضاء حكمه القدرى وحكمته التى يحمد عليها ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ أى: يكاد ضوء برق ذلك السحاب من شدته ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ أليس الذى أنشأها وساقها لعباده المفتقرين وأنزلها على وجه يحصل به النفع وينتفى به الضرر كامل القدرة نافذ المشيئة واسع الرحمة؟ ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ من حر إلى برد ومن برد إلى حر ومن ليل إلى نهار ومن نهار إلى ليل ويُديلُ الأيام بين عباده ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أى: لذوى البصائر والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية، فالبصير ينظر إلى هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكير وتدبُّر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة بمنزلة نظر البهائم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾

ينبه عباده على ما يشاهدونه أنه خلق جميع الدواب التى على وجه الأرض ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ أى: مادتها كلها الماء كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فالحيوانات التى تتوالد مادتها ماء النطفة حين يلقح الذكر

والأنثى، والحيوانات التى تتولد من الأرض لا تتولد إلا من الرطوبات المائية كالحشرات لا يوجد منها شىء يتولد من غير ماء أبدًا، فالمادة واحدة ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كالحية ونحوها ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالآدميين وكثير من الطيور ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ كبهيمة الأنعام ونحوها، فاختلافها - مع أن الأصل واحد - يدل على نفوذ مشيئة الله وعموم قدرته، ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: من المخلوقات على ما يشاؤه من الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما أنزل المطر على الأرض وهو لقاح واحد والأم واحدة وهى الأرض والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦)﴾

أى: لقد رحمنا عبادنا وأنزلنا إليهم آيات بينات أى: واضحات الدلالة على جميع المقاصد الشرعية والآداب المحمودة والمعارف الرشيدة فاتضحت بذلك السبيل وتبين الرشد من الغى والهدى من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها ولا أدنى إشكال لمريد الصواب لأنها تنزيل مَنْ كَمُلَ علمه وكملت رحمته وكمل بيانه فليس بعد بيانه بيان «ليهلك» بعد ذلك «من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة» ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ممن سبقت لهم سابقة الحسنى وقدم الصدق ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: طريق واضح مختصر موصل إليه وإلى دار كرامته متضمن العلم بالحق وإيثاره والعمل به، عمم البيان التام لجميع الخلق وخصص بالهداية من يشاء فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون[1] وذاك عدله وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه.

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾

يخبر تعالى عن حالة الظالمين ممن فى قلبه مرض وضعف إيمان أو نفاق وريب وضعف علم أنهم.يقولون بما قالوا ويتولى فريق منهم عن الطاعة تَوَلِّيًا عظيمًا بدليل قوله: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فإن المتولِّى قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولَّى عنه وهذا المتولى معرض لا التفات له ولا نظر لما تولى عنه، وتجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدَّعى الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان، وتجده لا يقوم بكثير من العبادات خصوصًا: العبادات التى تشق على كثير من النفوس كالزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة والجهاد فى سبيل الله ونحو ذلك ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أى: إذا صار بينهم وبين أحد حكومة ودعوا إلى الله ورسوله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ يريدون أحكام الجاهلية ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية لعلمهم أن الحق عليهم وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ أى: إلى حكم الشرع ﴿مُذْعِنِينَ﴾[2] وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعى وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم، فليسوا ممدوحين فى هذه الحال ولو أتوا إليه مذعنين لأن العبد حقيقة من يتبع الحق فيما يحب ويكره وفيما يسره ويحزنه، وأما الذى يتبع الشرع عند موافقة هواه وينبذه عند مخالفته ويقدم الهوى على الشرع فليس بعبد لله على الحقيقة، قال الله فى

---

(١) ممنون، أى: مقطوع، والمراد: أن إكرام الله لعباده فى الجنة وما يتمتعون من أنواع النعيم مستمر دائم لا ينقطع عنهم أبدًا.

(٢) مذعنين، أى: خاضعين ذليلين، كما يستفاد من المختار من الصحاح، وفى المصباح «أذعن إذعانًا» انقاد ولم يستعص، وناقة مذعانة: منقادة. اهـ.

لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى: علة أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته فصار بمنزلة المريض الذى يعرض عما ينفعه ويقبل على ما يضره ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ أى: شكوا أو قلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله واتهموه أنه لا يحكم بالحق ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أى: يحكم عليهم حكمًا ظالمًا جائرًا، وإنما هذا وصفهم ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأما حكم الله ورسوله ففى غاية العدالة والقسط وموافقة الحكمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وفى هذه الآيات دليل على أن الإيمان ليس هو مجرد القول حتى يقترن به العمل، ولهذا نفى الإيمان عمن تولى عن الطاعة ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله فى كل حال وإن لم ينقدْ له دل على مرض فى قلبه وريب فى إيمانه، وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة، ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعى ذكر حالة المؤمنين الممدوحين فقال:

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴾

أى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ سواء وافق أهواءهم أو خالفها ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أى: سمعنا حكم الله ورسوله وأجبنا من دعانا إليه وأطعنا طاعة تامة سالمة من الحرج ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حصر الفلاح فيهم لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب والنجاة من المكروه ولا يفلح إلا من حكَّم الله ورسوله وأطاع الله ورسوله، ولما ذكر فضل الطاعة فى الحكم خصوصًا ذكر فضلها عمومًا فى جميع الأحوال فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيصدق خبرهما ويمتثل أمرهما ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ أى: يخافه خوفًا مقرونًا بمعرفة، فيترك ما نهى عنه ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بترك المحظور لأن التقوى - عند الإطلاق - يدخل فيها فعل المأمور به وترك المنهى عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة - كما فى هذا الموضع - تفسر بتوقِّى عذاب الله بترك معاصيه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله وخشية الله وتقواه ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بنجاتهم من العذاب لتركهم أسبابه ووصولهم إلى الثواب لفعلهم أسبابها، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة، واشتملت هذه الآية على الحق المشترك بين الله وبين رسوله وهو: الطاعة المستلزمة للإيمان والحق المختص بالله، وهو: الخشية والتقوى، وبقى الحق الثالث المختص بالرسول وهو التعزير والتوقير، كما جمع بين الحقوق الثلاثة فى سورة الفتح فى قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾

يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ فى الجهاد من المنافقين ومن فى قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ فيما يستقبل أو لئن نصصت عليهم حين خرجت ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ والمعنى الأول أولى، قال الله رادًا عليهم: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ أى: لا نحتاج إلى إقسامكم ولا إلى أعذاركم فإن الله قد نبأنا من أخباركم، وطاعتكم معروفة لا تخفى علينا قد كنا نعرف منكم التثاقل والكسل من غير عذر فلا وجه لعذركم وقسمكم، إنما يحتاج إلى ذلك من كان أمره محتملاً وحاله مشتبهة فهذا ربما يفيده العذر براءة وأما أنتم فكلا ولما، وإنما ينتظر بكم ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

﴿تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليها أتم الجزاء، هذه حالهم فى نفس الأمر، وأما الرسول ﷺ فوظيفته أن يأمركم وينهاكم ولهذا قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن﴾ امتثلوا كان حظهم وسعادتهم، وإن ﴿تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ من الرسالة وقد أداها ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من الطاعة وقد بانت حالكم وظهرت، فبان ضلالكم وغيكم واستحقاقكم العذاب ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ إلى الصراط المستقيم قولاً وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته وبدون ذلك لا يمكن بل هو محال ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أى: تبليغكم البين الذى لا يُبقى لأحد شكًا ولا شبهة، وقد فعل ﷺ بلغ البلاغ المبين، وإنما الذى يحاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى فالرسول ليس له من الأمر شىء وقد قام بوظيفته.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾

هذا من وعوده الصادقة التى شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم فى الأرض، فيكونون هم الخلفاء فيها المتصرفين فى تدبيرها، وأن يُمكِّنَ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وهو دين الإسلام الذى فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة لفضلها وشرفها ونعمته عليها بأن يتمكنوا من إقامته وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة فى أنفسهم وفى غيرهم لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين وأنه يبدلهم أمنًا من بعد خوفهم، حيث كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار وكون جماعة المسلمين قليلين جدًا بالنسبة إلى غيرهم وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة وبغوا لهم الغوائل، فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية وهى لم تشاهد الاستخلاف فى الأرض والتمكين فيها والتمكين من إقامة الدين الإسلامى والأمن التام بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا ولا يخافون أحدًا إلا الله فقام صدر هذه الأمة من الإيمان والعمل الصالح، بما يفوق على غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد وفتحت مشارق الأرض ومغاربها وحصل الأمن التام والتمكين التام فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط الله عليهم الكفار والمنافقين ويُديلُهمْ فى بعض الأحيان بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التمكين والسلطنة التامة لكم يا معشر المسلمين ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله وفسدوا فلم يصلحوا لصالح ولم يكن فيهم أهلية للخير لأن الذى يترك الإيمان فى حال عزه وقهره وعدم وجود الأسباب المانعة منه يدل على فساد نيته وخبث طويته لأنه لا داعى له لترك الدين إلا ذلك، ودلت هذه الآية أن الله قد مكن من قبلنا واستخلفهم فى الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾

يأمر تعالى بإقامة الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها ظاهرًا وباطنًا وبإيتاء الزكاة من الأموال التى استخلف الله عليها العباد وأعطاهم إياها بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة، فهذان أكبر الطاعات وأجلها جامعتان لحقه وحق خلقه للإخلاص للمعبود وللإحسان إلى العبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام فقال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ حين تقومون بذلك ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فمن أراد الرحمة فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة

الرسول فهو مُتَمَنٍّ كاذب وقد منته نفسه الأماني الكاذبة ﴿لا تحسبنَّ الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ فلا يغررك ما متّعوا به في الحياة الدنيا، فإن الله وإن أمهلهم فإنه لا يهملهم ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿ومأواهم النار ولبئس المصير﴾ أي: بئس المآل مآل الكافرين مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٩﴾

أمر المؤمنين أن يستأذنهم مماليكهم والذين لم يبلغوا الحلم منهم، قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأذَن عليهم، وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر، فهذا - في الغالب - أن النائم يستعمل للنوم في الليل ثوبًا غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار فلو كان في الغالب قليلاً قد ينام فيه العبد بثيابه المعتادة، قيده بقوله: ﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾ أي: للقائلة وسط النهار، ففي هذه الأحوال الثلاثة يكون المماليك والأولاد الصغار كغيرهم لا يُمكَّنُونَ من الدخول إلا بإذن، وأما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾ أي: ليسوا كغيرهم فإنهم يحتاج إليهم دائمًا فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: ﴿طوافون عليكم بعضكم على بعض﴾ أي: يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ بيانًا مقرونًا بحكمته ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شارعه وحكمته، ولهذا قال: ﴿والله عليم حكيم﴾ له العلم المحيط بالواجبات والمستحبات والممكنات الحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بيَّنها وبيَّن مآخذها وحسنها ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾ وهو إنزال المني يقظة أو منامًا ﴿فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾ أي: في سائر الأوقات، والذين من قبلهم هم الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾ الآية، ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ ويوضحها ويفصل أحكامها ﴿والله عليم حكيم﴾ وفي هاتين الآيتين فوائد: منها: أن السيد وولي الصغير مخاطبان بتعليم عبيدهم ومن تحت ولايتهم من الأولاد العلم والآداب الشرعية لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم﴾ الآية، فلا يمكن ذلك إلا بالتعليم والتأديب، ولقوله: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾ ومنها: الأمر بحفظ العورات والاحتياط لذلك من كل وجه وأن المحل والمكان الذي هو مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه أنه منهيٌّ عن الاغتسال فيه والاستنجاء ونحو ذلك، ومنها: جواز كشف العورة لحاجة كالحاجة عند النوم وعند البول والغائط ونحو ذلك، ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين القيلولة وسط النهار كما اعتادوا نوم الليل لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة، ومنها: أن الصغير الذي دون البلوغ لا يجوز أن يمكَّن من رؤية العورة ولا يجوز أن تُرَى عورته لأن الله لم يأمر باستئذانهم إلا عن أمر ما يجوز، ومنها: أن المملوك أيضًا لا يجوز أن يرى عورة سيده كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته، كما ذكرنا في الصغير، ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهما ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي أن يقرن بالحكم بيان مأخذه ووجهه ولا يلقيه مجردًا عن الدليل والتعليل، لأن الله - لما بيَّن الحكم المذكور - علله بقوله: ﴿ثلاث عورات لكم﴾ ومنها: أن الصغير والعبد مخاطبان كما أن وليهما مخاطب لقوله: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾ ومنها: أن ريق الصبي طاهر ولو كان بعد نجاسة كالقيء لقوله تعالى: ﴿طوافون عليكم﴾ مع قول النبي ﷺ حين سئل عن الهرة «إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات» ومنها: جواز استخدام الإنسان مَنْ تحت يده من

الأطفال على وجه معتاد لا يشق على الطفل لقوله: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ ومنها: أن الحكم المذكور المفصل إنما هو لما دون البلوغ وأما ما بعد البلوغ فليس إلا الاستئذان، ومنها: أن البلوغ يحصل بالإنزال، فكل حكم شرعى رتب على البلوغ حصل بالإنزال وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف هل يحصل البلوغ بالسن أو الإنبات للعانة، والله أعلم.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ اللاتى قعدن عن الاستمتاع والشهوة ﴿اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أى: لا يطمعن فى النكاح ولا يُطْمَعُ فيهن وذلك لكونها عجوزًا لا تُشْتَهَى ولا تَشْتَهِى أو دميمة الخلقة لا تُشْتَهَى ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أى: حرج وإثم ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أى: الثياب الظاهرة كالخمار ونحوه، الذى قال الله فيه للنساء: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فهؤلاء يجوز لهن أن يكشفن وجوههن لأَمْنِ المحذور منها وعليها، ولما كان نَفْيُ الحرج عنهن فى وضع الثياب ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شىء دفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أى: غير مظهرات للناس زينة من تجمل بثياب ظاهرة وتستر وجهها ومن ضرب الأرض ليعلم ما تخفى من زينتها لأن مجرد الزينة على الأنثى - ولو مع تسترها ولو كانت لا تشتهى - يُفْتَتَنُ فيها ويوقع الناظر إليها فى الحرج ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ والاستعفاف: طلب العفة بفعل الأسباب المقتضية لذلك من تزوج وتَرْكِ لما يُخْشَى منه الفتنة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات والمقاصد، فَلْيَحْذَرْنَ من كل قول وقصد فاسد وَلْيَعْلَمْنَ أن الله يجازى على ذلك.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

يخبر تعالى عن منّته على عباده وأنه لم يجعل عليهم فى الدين من حرج بل يسَّره غاية التيسير فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أى: ليس على هؤلاء جناح فى ترك الأمور الواجبة التى تتوقف على واحد منها وذلك كالجهاد ونحوه مما يتوقف على بصر الأعمى أو سلامة الأعرج أو صحة المريض، ولهذا المعنى العام الذى ذكرناه أطلق الكلام فى ذلك ولم يقيد كما قيد قوله: ﴿وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أى: حرج ﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أى: بيوت أولادكم، وهذا موافق للحديث الثابت: «أنت ومالك لأبيك» والحديث الآخر: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم من كسبكم» وليس المراد من قوله: ﴿مِن بُيُوتِكُمْ﴾ بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل الذى يتنزه عنه كلام الله، ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه فليس فيه أدنى توهم ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ﴾ وهؤلاء معروفون ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ أى: البيوت التى أنتم متصرفون فيها بوكالة أو ولاية ونحو ذلك، وأما تفسيرها بالمملوك فليس بوجيه لوجهين: أحدهما: أن المملوك لا يقال فيه « ملكت مفاتحه» بل يقال: «ما ملكتموه» أو «ما ملكت أيمانكم» لأنهم مالكون له جملة لا لمفاتحه فقط، والثانى: أن بيوت المماليك غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه لأن المملوك وما ملكه لسيده فلا وجه لنفى الحرج عنه ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وهذا

الحرج المنفى من الأكل من هذه البيوت كل ذلك إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق فبيوت هؤلاء المسلمين قد جرت العادة والعرف بالمسامحة فى الأكل منها لأجل القرابة القريبة أو التصرف التام أو الصداقة فلو قُدِّر فى أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح فى الأكل المذكور لم يجز الأكل ولم يرتفع الحرج نظرًا للحكمة والمعنى، وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فكل ذلك جائز، أكل أهل البيت الواحد جميعًا أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفىٌ للحرج لا نفىٌ للفضيلة، وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ نكرة فى سياق الشرط يشمل بيت الإنسان وبيت غيره سواء كان فى البيت ساكن أم لا، فإذا دخلها الإنسان[1] ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أى: فَلْيُسلِّم بعضكم على بعض لأن المسلمين كأنهم شخص واحد من توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت من غير فرق بين بيت وبيت، والاستئذان تقدم أن فيه تفصيلاً فى الأحكام، ثم مدح هذا السلام فقال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ أى: سلامكم بقولكم «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» أو «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» إذ تدخلون البيوت ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أى: قد شرعها لكم وجعلها تحيتكم ﴿مُبَارَكَةً﴾ لاشتمالها على السلام من النقص وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة ﴿طَيِّبَةً﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله الذى فيه طيب نفس للمحيا ومحبة وجلب مودة، لما بيَّن لنا هذه الأحكام الجليلة قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عنه فتفهمونها وتعقلونها بقلوبكم ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها يزيد فى العقل وينمو به اللب لكون معانيها أجل المعانى وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للعقل عن ربه وللتفكر فى آياته التى دعاه إليها زاده من ذلك، وفى هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهى: أن «العرف والعادة مخصص للألفاظ كتخصيص اللفظ للفظ» فإن الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من ملك الشىء إذا علم إذنه بالقول أو العرف جاز الإقدام عليه، وفيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره لأن الله سمى بيته بيتًا للإنسان، وفيها دليل على أن المتصرف فى بيت الإنسان كزوجته وأخته ونحوهما يجوز لهما الأكل عادة وإطعام السائل المعتاد، وفيها دليل على جواز المشاركة فى الطعام سواء أكانوا مجتمعين أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾

هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع أى: من ضرورته أو مصلحته أن يكونوا فيه جميعًا كالجهاد والمشاورة ونحو ذلك من الأمور التى يشترك فيها المؤمنون فإن المصلحة تقتضى اجتماعهم عليه وعدم تفرقهم، فالمؤمن بالله ورسوله حقًا لا يذهب لأمر من الأمور ولا يرجع لأهله ولا يذهب لبعض الحوائج التى يشذ بها عنهم إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان عدم

(١) قوله «فإذا دخلها الإنسان» هكذا فى الأصل وهو خطأ والصواب أن يقال: «فإذا دخلتموها» ليتناسب مع ما بعده.

الذهاب إلا بإذن ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولى الأمر منهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه شرطين: أحدهما: أن يكون لشأن من شئونهم وشغل من أشغالهم، فأما من يستأذن من غير عذر فلا يؤذن له، والثانى: أن يشاء الإذن فتقتضيه المصلحة من دون مضرة بالآذن، فلذلك قال: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فإذا كان له عذر واستأذن فإن كان فى قعوده وعدم ذهابه مصلحة برأيه أو شجاعته ونحو ذلك لم يأذن له، ومع هذا إذا استأذن وأذن له بشرطيه أمر الله رسوله أن يستغفر له لما عسى أن يكون مقصرًا فى الاستئذان، ولهذا قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم الذنوب ويرحمهم بأن جوَّز لهم الاستئذان مع العذر ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ فإذا دعاكم فأجيبوه وجوبًا حتى إنه تجب إجابة الرسول ﷺ فى حال الصلاة، وليس أحد إذا قال قولاً يجب على الأمة قبول قوله والعمل به إلا الرسول لعصمته وكوننا مخاطبين باتباعه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضًا، فلا تقولوا: «يا محمد» عند ندائكم أو «يا محمد بن عبد الله» كما يقول ذلك بعضكم لبعض بل من شرفه وفضله وتميزه ﷺ عن غيره أن يقال: يا رسول الله، يا نبى الله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ لما مدح المؤمنين بالله ورسوله الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه توعد من لم يفعل ذلك وذهب من غير استئذان فهو وإن خفى عليكم بذهابه على وجه خفى وهو المراد بقوله: ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أى: يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم بشىء يحجبهم عن العيون، فالله يعلمهم[1] وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء ولهذا توعدهم بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أى: يذهبون إلى بعض شئونهم عن أمر الله ورسوله فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شئونه؟!! وإنما ترك أمر الله من دون شغل له ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أى: شرك وشر ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ملكًا وعبيدًا يتصرف فيهم بحكمه القدرى وحكمه الشرعى ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أى: قد أحاط علمه بما أنتم عليه من خير وشر وعلم جميع أعمالكم أحصاها علمه وجرى بها قلمه وكتبتها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أى: يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ يخبرهم بجميع أعمالهم دقيقها وجليلها إخبارًا مطابقًا لما وقع ويستشهد عليهم أعضاءهم فلا يعدمون منه فضلاً أو عدلاً، ولما قيد علمه بأعمالهم ذكر العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تم تفسير سورة النور ولله الحمد والشكر



تفسير سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)﴾

هذا بيان لعظمته الكاملة وتفرده بالوحدانية من كل وجه وكثرة خيراته وإحسانه فقال: ﴿تَبَارَكَ﴾ أى: تعاظم وكملت أوصافه وكثرت خيراته الذى من أعظم خيراته ونعمه أن ﴿نَزَّلَ﴾ هذا ﴿الْفُرْقَانَ﴾ الفارق بين الحلال والحرام والهدى والضلال وأهل السعادة من أهل الشقاوة ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ الذى كمل مراتب العبودية وفاق جميع المرسلين ﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ينذرهم بأس الله ونقمه ويبين

---

(١) قوله «فالله يعلمهم» جواب شرط لقوله «وإن خفى... إلخ».

لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن من قبل نذارته وعمل بها كان من الناجين فى الدنيا والآخرة الذين حصلت لهم السعادة الأبدية والملك السرمدى، فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذى هذا بعض إحسانه وبركاته ﴿الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: له التصرف فيهما وحده وجميع من فيهما مماليك وعبيد له مذعنون لعظمته خاشعون لربوبيته فقراء إلى رحمته الذى ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ﴾ وكيف يكون له ولد أو شريك وهو المالك وغيره مملوك وهو القاهر وغيره مقهور، وهو الغنى بذاته من جميع الوجوه، والمخلوقون مفتقرون إليه فقراء من جميع الوجوه؟!! وكيف يكون له شريك فى الملك ونواصى العباد كلهم بيديه فلا يتحركون أو يسكنون ولا يتصرفون إلا بإذنه، فتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فلم يقدره حق قدره من قال فيه ذلك ولهذا قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ شمل العالم العلوى والعالم السفلى من حيواناته ونباتاته وجماداته ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أى: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به ويناسبه من الخلق وما تقتضيه حكمته من ذلك بحيث صار كل مخلوق لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد لا يناسبه غير محله الذى هو فيه، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ولما بين كماله وعظمته وكثرة إحسانه كان ذلك مقتضيًا لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم المفرد بالإخلاص وحده لا شريك له ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه فقال:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

أى: من أعجب العجائب وأول الدليل على سفههم ونقص عقولهم بل أدل على ظلمهم وجراءتهم على ربهم أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة وبلغ من عجزها أنها لا تقدر على خلق شيء بل هم مخلوقون بل بعضهم مما عملته أيديهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى: لا قليلاً ولا كثيرًا لأنه نكرة فى سياق النفى فتعم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أى: بعثًا بعد الموت، فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها وفسادها وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء للخالق لسائر المخلوقات من غير مشاركة له فى ذلك الذى بيده النفع والضر والعطاء والمنع الذى يحيى ويميت ويبعث من فى القبور ويجمعهم يوم النشور، وقد جعل لهم دارين دار الشقاء والخزى والنكال لمن اتخذ معه آلهة أخرى ودار الفوز والسعادة والنعيم المقيم لمن اتخذه وحده معبودًا، ولما قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده قرر صحة الرسالة وبطلان قول من عارضها واعترضها فقال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

أى: وقال الكافرون بالله الذى أوجب لهم كفرهم أن قالوا فى القرآن والرسول: إن هذا القرآن كذب كذبه محمد وإفك افتراه على الله وأعانه على ذلك قوم آخرون، فرد الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرة منهم وإقدام على الظلم والزور الذى لا يمكن أن يدخل عقل أحد وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول ﷺ وكمال صدقه وأمانته وبره التام وأنه لا يمكنه لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن الذى هو أجل الكلام وأعلاه وأنه لم يجتمع بأحد بعينه على ذلك فقد جاءوا بهذا القول ظلمًا وزورًا، ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذى جاء به محمد ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ أى: هذا قصص الأولين وأساطيرهم التى تتلقاها الأفواه وينقلها كل أحد استنسخها محمد ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ وهذا القول منهم فيه عدة عظائم: منها: رميهم الرسول

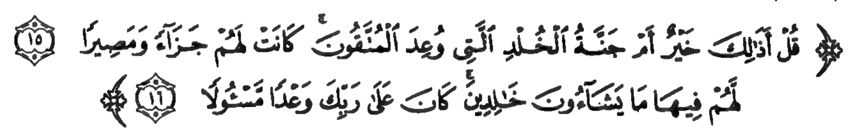
الذى هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب والجرأة العظيمة، ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن الذى هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله بأنه كذب وافتراء، ومنها: أن فى ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله وأن يضاهى المخلوق الناقص من كل وجه للخالق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته وهى الكلام، ومنها: أن الرسول قد علمت حاله وهم أشد الناس علمًا بها أنه لا يكتب ولا يجتمع بمن يكتب له وهم قد زعموا ذلك، فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: أنزله من أحاط علمه بما فى السموات وما فى الأرض من الغيب والشهادة والجهر والسر لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ووجه إقامة الحجة عليهم أن الذى أنزله هو المحيط علمه بكل شىء فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوق ويتقوَّل عليه هذا القرآن ويقول: هو من عند الله، وما هو من عنده، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم ويزعم أن الله قال له ذلك، والله يعلم كل شىء ومع ذلك فهو يؤيده وينصره على أعدائه ويمكنه من رقابهم وبلادهم، فلا يمكن أحدًا أن ينكر هذا القرآن إلا بعد إنكار علم الله، وهذا لا تقول به طائفة من بنى آدم سوى الفلاسفة الدهرية، وأيضًا فإن ذكر علمه تعالى العام ينبههم ويحضهم على تدبر القرآن وأنهم لو تدبروا لرأوا فيه من علمه وأحكامه ما يدل دلالة قاطعة على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة، ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة من لطف الله بهم أنه لم يَدَعْهُمْ وظلمهم بل دعاهم إلى التوبة والإنابة إليه ووعدهم بالمغفرة والرحمة إن هم تابوا ورجعوا فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا﴾ أى: وصفه المغفرة لأهل الجرائم والذنوب إذا فعلوا أسباب المغفرة وهى: الرجوع عن معاصيه والتوبة منها ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة وقد فعلوا مقتضاها وحيث قبل توبتهم بعد المعاصى وحيث محا ما سلف من سيئاتهم وحيث قبل حسناتهم وحيث أعاد الراجع إليه بعد شروده والمقبل عليه بعد إعراضه إلى حالة المطيعين المنيبين إليه.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

هذا من مقالة المكذبين للرسول الذين قدحوا فى رسالته، وهو: أنهم اعترضوا بأنه هلا كان مَلَكًا أو مَلَكًا أو يساعده مَلَكٌ فقالوا: ﴿مَا لِ هذَا الرَّسُولِ﴾ أى: ما لهذا الذى ادعى الرسالة؟ تهكمًا منهم واستهزاء ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ وهذا من خصائص البشر، فهلا كان مَلَكًا لا يأكل الطعام ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر ﴿وَيَمْشِى فِى الأَسْوَاقِ﴾ للبيع والشراء وهذا ـ بزعمهم ـ لا يليق بمن يكون رسولاً، مع أن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الأَسْوَاقِ﴾ ﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أى: هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه ﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة ولا بطوقه[1] وقدرته القيام بها ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أى: مال مجموع من غير تعب ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ فيستغنى بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ حملهم على القول ظلمهم لا اشتباه منهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ هذا، وقد علموا كمال عقله وحسن حديثه وسلامته من جميع المطاعن، ولما كانت هذه الأقوال منهم عجيبة جدًا، قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ وهى: هل كان مَلَكًا وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه ملك لأنه غير قادر

(١) قوله: «ولا بطوقه» أى: لا بوسعه ولا بقدرته، قال فى المختار من الصحاح: أطاق وهو فى طوقه، أى: فى وسعه. اهـ.

على ما قال أو أنزل عليه كنز أو جعلت له جنة تغنيه عن المشى فى الأسواق أو أنه كان مسحورًا ﴿فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ قالوا أقوالاً متناقضة كلها جهل وضلال وسفه ليس فى شيء منها هداية بل ولا فى شيء منها أدنى شبهة تقدح فى الرسالة، فبمجرد النظر إليها وتصورها يجزم العاقل ببطلانها ويكفيه عن ردها، ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها والنظر: هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟ ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيه خيرًا كثيرًا فى الدنيا فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ﴾ أى: خيرًا مما قالوا، ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ مرتفعة مزخرفة، فقدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك ولكنه تعالى - لما كانت الدنيا عنده فى غاية البعد والحقارة - أعطى منها أولياءه ورسله ما اقتضته حكمته منها، واقتراح أعدائهم بأنهم هلا رزقوا منها رزقًا كثيرًا جدًا ظلم وجراءة، ولما كانت تلك الأقوال التى قالوها معلومة الفساد وأخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق ولا لاتباع البرهان وإنما صدرت منهم تعنتًا وظلمًا وتكذيبًا بالحق قالوا ما فى قلوبهم من ذلك، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ والمكذب المتعنت الذى ليس له قصد فى اتباع الحق لا سبيل إلى هدايته ولا حيلة فى مجادلته وإنما له حيلة واحدة وهى نزول العذاب به فلهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أى: نارًا عظيمة قد اشتد سعيرها وتغيظت على أهلها واشتد زفيرها ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أى: قبل وصولهم ووصولها إليهم ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ عليهم ﴿وَزَفِيرًا﴾ تقلق منهم الأفئدة وتتصدع القلوب ويكاد الواحد منهم يموت خوفًا منها وذعرًا، قد غضبت عليهم لغضب خالقها وقد زاد لهبها لزيادة كفرهم وشرهم ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ أى: وقت عذابهم وهم فى وسطها جمع فى مكان بين ضيق المكان وتزاحم السكان وتقرينهم بالسلاسل والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النحس وحبسوا فى أشر حبس ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[1] دعوا على أنفسهم بالثبور والخزى والفضيحة وعلموا أنهم ظالمون معتدون قد عدل فيهم الخالق حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم: ﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أى: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن، لما بين جزاء الظالمين ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال:



أى: قل لهم مبينًا لسفاهة رأيهم واختيارهم الضار على النافع: ﴿أَذَلِكَ﴾ الذى وصفت لكم من العذاب ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التى زادها تقوى الله فمن قام بالتقوى فالله قد وعده إياها ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ على تقواهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ موئلاً يرجعون إليها ويستقرون فيها ويخلدون دائمًا أبدًا ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أى ما يطلبون وتتعلق به أمانيهم ومشيتهم من المطاعم والمشارب اللذيذة والملابس الفاخرة والنساء الجميلات والقصور العاليات والجنات والحدائق المرجحنة[2] والفواكه التى تسر ناظريها وآكليها من حسنها وتنوعها وكثرة أصنافها والأنهار التى تجرى فى رياض الجنة وبساتينها حيث شاءوا يصرفونها ويفجرونها أنهارًا من ماء غير آسن وأنهارًا من لبن لم يتغير طعمه وأنهارًا من خمر لذة للشاربين وأنهارًا من عسل مصفى وروائح طيبة ومساكن مزخرفة وأصوات شجية تأخذ من حسنها بالقلوب ومزاورة الإخوان والتمتع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم وسماع كلامه والحظوة بقربه والسعادة برضاه والأمن من سخطه واستمرار هذا النعيم ودوامه وزيادته على ممر الأوقات وتعاقب الآنات[3] ﴿كَانَ﴾ دخولها والوصول إليها ﴿عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً﴾ يسأله إياها عباده المتقون بلسان حالهم ولسان مقالهم، فأى الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟

---

(١) الثبور: الهلاك والخسران. اهـ. من المختار من الصحاح.

(٢) المرجحنة: المتمايلة الأشجار المثقلة بالفواكه والثمار المتنوعة المتدلية تكاد من ثقلها تلامس الأرض.

(٣) الآنات، أى: الأوقات والأزمان.

وأى العاملين - عمال دار الشقاء أو عمال دار السعادة - أولى بالفضل والعقل والفخر يا أولى الألباب؟ لقد وضح الحق واستنار السبيل فلم يبق للمفرط عذر فى تركه الدليل، فنرجوك يا من قضيت على أقوام بالشقاء وأقوام بالسعادة أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة ونستعيذ بك اللهم من حالة الأشقياء ونسألك المعافاة منها.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة وتبرّيهم منهم وبطلان سعيهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أى: المكذبين المشركين ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ﴾ الله مخاطبًا للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ هل أمرتموهم بعبادتكم وزينتم لهم ذلك أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به وبرءوا أنفسهم من ذلك ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾ أى: لا يليق بنا ولا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم ونعبدهم وندعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك ومتبرّين من عبادة غيرك فكيف نأمر أحدًا بعبادتنا؟ هذا لا يكون، أو سبحانك ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله أو يكونوا أضلوهم ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ فى لذات الدنيا وشهواتها ومطالبها النفسية ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ اشتغالاً فى لذات الدنيا وانكبابًا على شهواتها فحافظوا على دنياهم وضيعوا دينهم ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أى: بائرين[1] لا خير فيهم ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى وهو التمتع فى الدنيا الذى صرفهم عن الهدى، وعَدَمَ[2] المقتضى للهدى وهو: أنهم لا خير فيهم، فإذا عدموا المقتضى ووجد المانع فلا تشاء من شر وهلاك إلا وجدته فيهم، فلما تبرءوا منهم قال الله توبيخًا وتقريعًا للمعاندين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم أمروكم بعبادتهم ورضوا فعلكم وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبوكم فى ذلك الزعم وصاروا من أكبر أعدائكم فحق عليكم العذاب ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم بفعلكم أو بفداء أو غير ذلك ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لعجزكم وعدم ناصركم، هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين كما رأيت أسوأ حكم وشر مصير، وأما المعاند منهم الذى عرف الحق وصدف عنه فقال فى حقه: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بترك الحق ظلمًا وعنادًا ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يقادر قدره ولا يبلغ أمره، ثم قال تعالى جوابًا لقول المكذبين: ﴿مَا لِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ فما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام وما جعلناهم ملائكة فلك فيهم أسوة، وأما الغنى والفقر فهو فتنة وحكمة من الله تعالى كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الرسول فتنة للمرسل إليهم واختبار للمطيعين

---

(١) بائرين، أى: هالكين، قال فى المختار من الصحاح: وقوم بور: هلكى، قال الله تعالى ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ وهو جمع «بائر» مثل «حائل» و «حول» اهـ.

(٢) قوله «وعدم» معطوف على قوله «المانع».

من العاصين، والرسل فتناهم بدعوة الخلق، والغنى فتنة للفقير والفقر فتنة للغنى، وهكذا سائر أصناف الخلق فى هذه الدار دار الفتن والابتلاء والاختبار، والقصد من تلك الفتنة ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبة فيثيبكم مولاكم أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ يرى ويعلم أحوالكم ويصطفى من يعلمه يصلح لرسالته ويختصه بتفضيله ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

أى: قال المكذبون للرسول المكذبون بوعد الله ووعيده الذين ليس فى قلوبهم خوف الوعيد ولا رجاء لقاء الخالق: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أى: هلا نزلت الملائكة تشهد لك بالرسالة وتؤيدك عليها أو تنزل رسلاً مستقلين أو نرى ربنا فيكلمنا ويقول: هذا رسولى فاتبعوه؟ وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض بل بالتكبر والعلو والعتو ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح وتجرءوا هذه الجرأة، فمن أنتم يا فقراء ويا مساكين حتى تطلبوا رؤية الله وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأى كبر أعظم من هذا؟ ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أى: قسوا[1] وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار وأصلب من الحديد لا تلين للحق ولا تصغى للناصحين، فلذلك لم ينجح فيهم وعظ ولا تذكير ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم وآيات الله البينات بالإعراض والتكذيب، فأى عتو أكبر من هذا العتو؟! ولذلك بطلت أعمالهم واضمحلت وخسروا أشد الخسران ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وذلك أنهم لا يرونها مع استمرارهم على جرمهم وعنادهم إلا لعقوبتهم وحلول البأس بهم، فأول ذلك عند الموت إذا تنزلت عليهم الملائكة قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ثم فى القبر حيث يأتيهم منكر ونكير فيسألانهم عن ربهم ونبيهم ودينهم فلا يجيبون جوابًا ينجيهم فيحلون بهم النقمة وتزول عنهم بهم الرحمة، ثم يوم القيامة حين تسوقهم الملائكة إلى النار ثم يسلمونهم لخزنة جهنم الذين يتولون عذابهم ويباشرون عقابهم، فهذا الذى اقترحوه وهذا الذى طلبوه إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحينئذ يتعوذون من الملائكة ويفرون ولكن لا مفر لهم ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ أى: أعمالهم التى رجوا أن تكون خيراً لهم وتعبوا فيها ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ أى: باطلاً مضمحلاً قد خسروه وحرموا أجره وعوقبوا عليه وذلك لفقده الإيمان وصدوره عن مكذب لله ورسله، فالعمل الذى يقبله الله هو ما صدر من المؤمن المخلص المصدق للرسل المتبع لهم فيه.

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

أى: فى ذلك اليوم الهائل كثير البلابل ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الذين آمنوا بالله وعملوا صالحًا واتقوا ربهم ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ من أهل النار ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[2] أى: مستقرهم فى الجنة وراحتهم التى هى القيلولة هو المستقر النافع والراحة التامة لاشتمال ذلك على تمام النعيم الذى لا يشوبه كدر، بخلاف أصحاب النار فإن

---

(١) قوله «أى: قسوا وصلبوا» تعبير كلماته مفككة غير مترابطة ولو قال «أى: قسوا قساوة عظيمة وصلبوا فى عنادهم وإعراضهم عن الحق» لظهر التناسق والارتباط بين بالكلمات، وحصل التناسب مع ما بعده.

(٢) مقيلاً، أى: موضع استراحة.

جهنم مستقرهم ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر منه شيء لأنه لا خير فى مقيل أهل النار ومستقرهم كقوله: ﴿ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩)﴾

يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة وما فيه من الشدة والكروب ومزعجات القلوب فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ وذلك الغمام الذى ينزل الله فيه من فوق السموات فتنفطر له السموات وتشقق وتنزل الملائكة كل سماء فيقفون صفًا صفًا إما صفًا واحدًا محيطًا بالخلائق، وإما كل سماء يكونون صفًا ثم السماء التى تليها صفًا وهكذا، القصد أن الملائكة - على كثرتهم وقوتهم - ينزلون محيطين بالخلق مذعنين لأمر ربهم لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالآدمى الضعيف خصوصًا الذى بارز مالكه بالعظائم وأقدم على مساخطه ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها فيحكم فيه الملك الخلاق بالحكم الذى لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ولهذا قال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ لصعوبته الشديدة وتعسر أموره عليه بخلاف المؤمن فإنه يسير عليه خفيف الحمل ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ وقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة ﴿الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين مُلْكٌ ولا صورة مُلْك كما كانوا فى الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعايهم والأحرار والعبيد والأشراف وغيرهم، مما يرتاح له القلب وتطمئن به النفس وينشرح له الصدر أنه أضاف الملك فى يوم القيامة لاسمه «الرحمن» الذى وسعت رحمته كل شيء وعمت كل حى وملأت الكائنات وعمرت بها الدنيا والآخرة وتم بها كل ناقص وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه الأسماء الدالة على الغضب وسبقت رحمته غضبه وغلبته فلها السبق والغلبة، وخلق هذا الآدمي الضعيف وشرفه وكرمه ليتم عليه نعمته وليتغمده برحمته، وقد حضروا فى موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه ينتظرون ما يحكم فيهم وما يجرى عليهم وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك على الله إلا هالك ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة وحقت عليه كلمة العذاب ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ بشركه وكفره وتكذيبه للرسل ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ تأسفًا وتحسرًا وحزنًا وأسفًا ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ أى: طريقًا بالإيمان به وتصديقه واتباعه ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا﴾ وهو الشيطان الإنسى، أو الجنى ﴿خَلِيلاً﴾ أى: حبيبًا مصافيًا، عاديت أنصح الناس بى وأبرهم لى وأرفقهم بى وواليت أعدى عدو لى الذى لم تفدنى ولايته إلا الشقاء والخسار والخزى والبوار ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ حيث زين له ما هو عليه من الضلال بخدعه وتسويله ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ يزين له الباطل ويقبح له الحق ويعده الأمانى ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه كما قال لجميع أتباعه حين قضى الأمر وفرغ الله من حساب الخلق ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية، فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان وليتدارك الممكن قبل أن لا يمكن، وليوالِ مَنْ ولايته فيها سعادته وليُعادِ مَنْ تنفعه عداوته وتضره صداقته، والله الموفق.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ مناديًا لربه وشاكيًا له إعراض قومه عما جاء به ومتأسفًا على ذلك منهم: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ الذى أرسلتنى لهدايتهم وتبليغهم ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ أى قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه مع

أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه والمشى خلفه، قال الله مسليًا لرسوله ومخبرًا أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه يعارضونهم ويردون عليهم ويجادلونهم بالباطل، من بعض فوائد ذلك أن يعلو الحق على الباطل وأن يتبين الحق ويتضح اتضاحًا عظيمًا لأن معارضة الباطل للحق مما تزيده وضوحًا وبيانًا وكمال استدلال وأن نتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة وبأهل الباطل من العقوبة، فلا تحزن عليهم ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ يهديك فيحصل لك المطلوب ومصالح دينك ودنياك ﴿وَنَصِيرًا﴾ ينصرك على أعدائك ويدفع عنك كل مكروه فى أمر الدين والدنيا فاكتف به وتوكل عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾

هذا من جملة مقترحات الكفار الذى توحيه إليهم أنفسهم فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وأى محذور من نزوله على هذا الوجه؟ بل نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أنزلناه متفرقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن ازداد طمأنينة وثباتًا وخصوصًا عند ورود أسباب القلق فإن نزول القرآن عند حدوث السبب يكون له موقع عظيم وتثبيت كثير أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذلك ثم تذكره عند حلول سببه ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أى مهلناه ودرجناك فيه تدريجًا، وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن وبرسوله محمد ﷺ حيث جعل إنزال كتابه جاريًا على أحوال الرسول ومصالحه الدينية، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أى: أنزلنا عليك قرآنًا جامعًا للحق فى معانيه والوضوح والبيان التام فى ألفاظه، فمعانيه كلها حق وصدق لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظًا وأحسن تفسيرًا مبين للمعانى بيانًا كاملاً، وفى هذه الآية دليل على أنه ينبغى للمتكلم فى العلم من محدث ومعلم وواعظ أن يقتدى بربه فى تدبيره حال رسوله، كذلك العالم يدبر أمر الخلق وكلما حدث موجب أو حصل موسم أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواعظ الموافقة لذلك، وفيه رد على المتكلفين من الجهمية ونحوهم ممن يرى أن كثيرًا من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها ولها معان غير ما يفهم منها، فإذًا- على قولهم- لا يكون القرآن أحسن تفسيرًا من غيره، وإنما التفسير الأحسن - على زعمهم - تفسيرهم الذى حرفوا له المعانى تحريفًا.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله وسوء مآلهم وأنهم ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فى أشنع مرأى وأفظع منظر تسحبهم ملائكة العذاب ويجرونهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الجامعة لكل عذاب وعقوبة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين بهذه الحال ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ممن آمن بالله وصدق رسله ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر منه شيء، فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم واهتدوا فى الدنيا إلى الصراط المستقيم وفى الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)﴾

أشار تعالى إلى هذه القصص وقد بسطها فى آيات أخر ليُحَذِّرَ المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين كانوا قريبًا منهم ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم، ومنهم من يرون آثارهم عيانًا كقوم صالح فى الْحِجْرِ وكالقرية التى أُمْطِرَتْ مطر السَّوْء بحجارة من سجيل يمرون عليهم مصبحين وبالليل فى أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شرًا منهم ورسلهم ليسوا خيرًا من رسول هؤلاء[1] ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِى الزُّبُرِ﴾ ولكن الذى منع هؤلاء من الإيمان ـ مع ما شاهدوا من الآيات ـ أنهم كانوا لا يرجون بعثًا ولا نشورًا فلا يرجون لقاء ربهم ولا يخشون نكاله فلذلك استمروا على عنادهم وإلا فقد جاءهم من الآيات ما لا يبقى معه شك ولا شبهة ولا إشكال ولا ارتياب.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ يا محمد أى: هؤلاء المكذبون لك المعاندون لآيات الله المستكبرون فى الأرض، استهزءوا بك واحتقروك وقالوا على وجه الاحتقار والاستصغار: ﴿أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ أى غير مناسب ولا لائق أن يبعث الله هذا الرجل، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم وقلبهم الحقائق فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول، حاشاه، فى غاية الخسة والحقارة وأنه لو كانت الرسالة لغيره لكان أنسب ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فهذا الكلام لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم أو من أعظمهم عنادًا وهو متجاهل فصده ترويج ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ وجده رجل العالم وهمامهم ومقدمهم فى العقل والعلم واللب والرزانة ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والعفة والشجاعة وكل خُلُق فاضل، وأن المحتقر له والشانئ له قد جمع من السفه والجهل والضلال والتناقض والظلم والعدوان ما لا يجمعه غيره، وحسبه جهلاً وضلالاً أن يقدح بهذا الرسول العظيم والهمام الكريم، والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به تَصلُّبُهُمْ على باطلهم وتغرير ضعفاء العقول، ولهذا قالوا: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ بأن يجعل الآلهة إلهًا واحدًا ﴿لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لأضلنا، فزعموا ـ قبحهم الله ـ أن الضلال هو التوحيد وأن الهدى ما هم عليه من الشرك فلهذا تواصوا بالصبر عليه ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ وهنا قالوا: ﴿لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ والصبر يحمد فى المواضع كلها إلا فى هذا الموضع فإنه صبر على أسباب الغضب وعلى الاستكثار من حطب جهنم، وأما المؤمنون فهم كما قال الله عنهم: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ولما كان هذا حكمًا منهم بأنهم المهتدون والرسول ضال وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم توعدهم بالعذاب وأخبر أنهم فى ذلك الوقت ﴿حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ يعلمون علمًا حقيقيًا ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ الآيات، وهل فوق ضلال من جعل إلهه هواه فما هويه فعله فلهذا قال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ ألا تعجب من حاله وتنظر ما هو فيه من الضلال؟ وهو يحكم لنفسه بالمنازل الرفيعة؟ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ أى: لست عليه بمسيطر مسلط بل إنما أنت منذر، قد قمت بوظيفتك وحسابه على الله، ثم سجل تعالى على ضلالهم البليغ بأن سلبهم العقول والأسماع وشبههم فى ضلالهم بالأنعام السائمة التى لا تسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمى فهم لا يعقلون، بل هم أضل من الأنعام فإن الأنعام يهديها

---

(١) قوله «فإن أولئك الأمم... إلخ» تعبير يشعر أن لا تفاضل بين الرسل مع أن الله تعالى أثبت التفاضل بينهم بقوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فلو قال (فإن دعوة رسلكم أيها المكذبون للنبى ليست خيرًا من دعوة رسل الأمم التى قبلكم كما أن شرارهم ليسوا شرًا منكم) لانتظم الكلام وحصل التناسب مع ما بعده.

راعيها فتهتدى وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه وهى أيضًا أسلم عاقبة من هؤلاء، فتبين بهذا أن الرامى للرسول بالضلال أحق بهذا الوصف وأن كل حيوان بهيم فهو أهدى منه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

أى: ألم تشاهد ببصرك وببصيرتك كمال قدرة ربك وسعة رحمته أنه مدَّ على العباد الظل وذلك قبل طلوع الشمس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أى: على الظل ﴿دَلِيلًا﴾ فلولا وجود الشمس لما عرف الظل، فإن الضد يعرف بضده ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ فكلما ارتفعت الشمس تقلص الظل شيئًا فشيئًا حتى يذهب بالكلية، فتوالى الظل والشمس على الخلق الذى يشاهدونه عيانًا وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وتعاقب الفصول وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك من أدل دليل على قدرة الله وعظمته وكمال رحمته وعنايته بعباده وأنه وحده المعبود المحمود المحبوب المعظم ذو الجلال والإكرام.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

أى: من رحمته بكم ولطفه أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذى يغشاكم حتى تستقروا فيه وتهدأوا بالنوم وتسبت حركاتكم أى: تنقطع عند النوم، فلولا الليل لما سكن العباد ولا استمروا فى تصرفهم فضرهم ذلك غاية الضرر، ولو استمر أيضًا الظلام لتعطلت عليهم معايشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نشورًا ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾

أى: هو وحده الذى رحم عباده وأدرَّ عليهم رزقه بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدى رحمته وهو: المطر، فثار بها السحاب وتألف وصار كسفًا وألقحته وأدرته بإذن ربها والمتصرف فيها ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله وليستعدوا له قبل أن يفاجئهم دفعة واحدة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ يطهر من الحدث والخبث ويطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركته أنه أنزله ليحيى به بلدة ميتًا فتختلف أصناف النباتات والأشجار فيها مما يأكل الناس والأنعام ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أى: نسقيكموه أنتم وأنعامكم، أليس الذى أرسل الرياح المبشرات وجعلها فى عملها متنوعات وأنزل من السماء ماء طهورًا مباركًا فيه رزق العباد ورزق بهائمهم هو الذى يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك معه غيره؟ ولما ذكر تعالى هذه الآيات العيانية المشاهدة وصرفها للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه مع ذلك ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

يخبر تعالى عن نفوذ مشيئته وأنه لو شاء لبعث فى كل قرية نذيرًا أى: رسولاً ينذرهم ويحذرهم فمشيئته غير قاصرة على ذلك، ولكن اقتضت حكمته ورحمته بك وبالعباد يا محمد - أن أرسلك إلى جميعهم أحمرهم وأسودهم عربيهم وعجميهم إنسهم وجنهم ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فى ترك شىء مما أرسلت به، بل ابذل جهدك فى تبليغ ما أرسلت به ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أى: لا تبق من مجهودك فى نصر الحق وقمع الباطل إلا بذلته ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت فابذل جهدك واستفرغ وسعك ولا تيأس من هدايتهم ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

أي: وهو وحده الذى مرج البحرين يلتقيان: البحر العذب وهى الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أى: حاجزًا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر فتذهب المنفعة المقصودة منها ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى: حاجزًا حصينًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

أي: وهو الله وحده لا شريك له الذى خلق الآدمى من ماء مهين ثم نشر منه ذرية كثيرة وجعلهم أنسابًا وأصهارًا متفرقين ومجتمعين والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره لقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ ويدل على أن عبادته هى الحق وعبادة غيره باطلة لقوله:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

أي: يعبدون أصنامًا وأمواتًا لا تضر ولا تنفع ويجعلونها أندادًا لمالك النفع والضرر والعطاء والمنع مع أن الواجب عليهم أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم ذابين[1] عن دينه ولكنهم عكسوا القضية ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ فالباطل الذى هو الأوثان والأنداد أعداء لله، فالكافر عاونها وظاهرها على ربها وصار عدوًا لربه مبارزًا له فى العداوة والحرب، هذا وهو الذى خلقه ورزقه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته والله لم يقطع عنه إحسانه وبره وهو ـ بجهله ـ مستمر على هذه المعاداة والمبارزة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾

يخبر تعالى: أنه ما أرسل رسوله محمدًا ﷺ مسيطرًا على الخلق ولا جعله ملكًا ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله ﴿مُبَشِّرًا﴾ يبشر من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ ينذر من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة من الأوامر والنواهى، وإنك يا محمد لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجرًا حتى يمنعهم ذلك من اتباعك ويتكلفون من الغرامة ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أى: إلا من شاء أن ينفق نفقة فى مرضاة ربه وسبيله فهذا وإن رغبتكم فيه فلست أجبركم عليه وليس أيضًا أجرًا لى عليكم وإنما هو راجع لمصلحتكم وسلوككم للسبيل الموصلة إلى ربكم، ثم أمره أن يتوكل عليه ويستعين به فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ﴾ الذى له الحياة الكاملة المطلقة ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أى: اعبده وتوكل عليه فى الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ يعلمها ويجازى عليها، فأنت ليس عليك من هداهم شيء وليس عليك حفظ أعمالهم وإنما ذلك كله بيد الله ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ بعد ذلك ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذى هو سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأجملها ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ استوى على عرشه الذى وسع السموات والأرض باسمه الرحمن الذى وسعت رحمته كل شيء، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، وأثبت بهذه الآية خلقه للمخلوقات واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم وعلوه فوق العرش ومباينته إياهم ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ يعنى بذلك نفسه الكريمة فهو الذى يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك وأبان لكم من عظمته ما تستعدون به من معرفته فعرفه العارفون وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون واستنكفوا عن ذلك، ولهذا قال:

---

(١) ذابين، أى: ناصرين دين الله ومدافعين عنه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ أى: وحده الذى أنعم عليكم بسائر النعم ودفع عنكم جميع النقم ﴿قَالُوا﴾ جحدًا وكفرًا ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ بزعمهم الفاسد أنهم لا يعرفون الرحمن وجعلوا من جملة قوادحهم فى الرسول أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله وهو يدعو معه إلهًا آخر يقول: «يا رحمن» ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ فأسماؤه تعالى كثيرة لكثرة أوصافه وتعدد كماله فكل واحد منها دل على صفة كمال ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أى: لمجرد أمرك إيانا وهذا مبنى منهم على التكذيب بالرسول واستكبارهم عن طاعته ﴿وَزَادَهُمْ﴾ دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿نُفُورًا﴾ هربًا من الحق إلى الباطل وزيادة كفر وشقاء.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

كرر تعالى فى هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ ثلاث مرات، لأن معناها كما تقدم أنها تدل على عظمة البارى وكثرة أوصافه وكثرة خيراته وإحسانه، وهذه السورة فيها من الاستدلال على عظمته وسعة سلطانه ونفوذ مشيئته وعموم علمه وقدرته وإحاطة ملكه فى الأحكام الأمرية الجزائية وكمال حكمته، وفيها ما يدل على سعة رحمته وواسع جوده وكثرة خيراته الدينية والدنيوية ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ وهى: النجوم عمومها أو منازل الشمس والقمر التى تنزل منزلة منزلة وهى بمنزلة البروج والقلاع للمدن فى حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة فإنها رجوم للشياطين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ فيه النور والحرارة وهى: الشمس ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ فيه النور لا الحرارة وهذا من أدلة عظمته وكثرة إحسانه فإن ما فيها من الخلق الباهر والتدبير المنتظم والجمال العظيم دال على عظمة خالقها فى أوصافه كلها وما فيها من المصالح للخلق والمنافع دليل على كثرة خيراته ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أى: يذهب أحدهما فيخلفه الآخر وهكذا أبدًا لا يجتمعان ولا يرتفعان ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أى: لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية ويشكر الله على ذلك ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره وردٌ من الليل أو النهار، فمن فاته وردُه من أحدهما أدركه فى الآخر، وأيضًا فإن القلوب تتقلب وتنتقل فى ساعات الليل والنهار فيحدث لها النشاط والكسل والذكر والغفلة والقبض والبسط والإقبال والإعراض فجعل الله الليل والنهار يتوالى كل منهما على العباد ويتكرران ليحدث لهم الذكر والنشاط والشكر لله فى وقت آخر ولأن أوقات العبادات تتكرر بتكرر الليل والنهار، فكلما تكررت الأوقات أحدث للعبد همة غير همته التى كسلت عنه فى الوقت المتقدم فزاد فى تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سَقْىِ الإيمان الذى يمده فلولا ذلك لذوى[1] غرس الإيمان ويبس، فلله أتم حمد وأجمله على ذلك، ثم ذكر من جملة كثرة خيره منته على عباده الصالحين وتوفيقهم للأعمال الصالحات التى أكسبتهم المنازل العاليات فى غرف الجنات فقال:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا

(١) ذوى، أي: ذبل.

صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾ وعبودية لألوهيته وعبادته ورحمته وهى: عبودية أنبيائه وأوليائه، وهى المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم ﴿**يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا**﴾ أى: ساكنين متواضعين لله وللخلق فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ**﴾ أى: خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف ﴿**قَالُوا سَلَامًا**﴾ أى: خاطبوهم خطابًا يسلمون فيه من الإثم ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، وهذا مدح لهم بالحلم الكثير ومقابلة المسيء بالإحسان والعفو عن الجاهل ورزانة العقل الذى أوصلهم إلى هذه الحال ﴿**وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا**﴾ أى: يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له، كما قال تعالى: ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ**﴾ أى: ادفعه عنا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وقع منا مما هو مقتض للعذاب ﴿**إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**﴾ أى: ملازمًا لأهلها بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه[1] ﴿**إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا**﴾ وهذا منهم على وجه التضرع لربهم وبيان شدة حاجتهم إليه وأنهم ليس فى طاقتهم احتمال هذا العذاب، وليتذكروا منَّة الله عليهم، فإن صرف الشدة بحسب شدتها وفظاعتها يعظم وقعها ويشتد الفرح بصرفها ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا**﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿**لَمْ يُسْرِفُوا**﴾ بأن يزيدوا على الحد فيدخلوا فى قسم التبذير وإهمال الحقوق الواجبة ﴿**وَلَمْ يَقْتُرُوا**﴾ فيدخلوا فى باب البخل والشح ﴿**وَكَانَ**﴾ إنفاقهم ﴿**بَيْنَ ذَٰلِكَ**﴾ بين الإسراف والتقتير ﴿**قَوَامًا**﴾ يبذلون فى الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة وفيما ينبغى على الوجه الذى ينبغى من غير ضرر ولا ضرار وهذا من عدلهم واقتصادهم ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ**﴾ بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء مقبلين عليه معرضين عما سواه ﴿**وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ**﴾ وهو نفس المسلم والكافر المعَاهَد ﴿**إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ كقتل النفس بالنفس وقتل الزانى المحصن والكافر الذى يحل قتله ﴿**وَلَا يَزْنُونَ**﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿**إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**﴾ ﴿**وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ**﴾ أى: الشرك بالله أو قتل النفس التى حرم الله بغير حق أو الزنا، فسوف ﴿**يَلْقَ أَثَامًا**﴾ ثم فسره بقوله: ﴿**يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ**﴾ أى: فى العذاب ﴿**مُهَانًا**﴾ فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت لا شك فيه وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة لكونها إما شرك وإما من أكبر الكبائر، وأما خلود القاتل والزانى فى العذاب فإنه لا يتناوله الخلود لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار ولا يخلد فيها مؤمن ولو فعل من المعاصى ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض ﴿**إِلَّا مَن تَابَ**﴾ عن هذه المعاصى وغيرها بأن أقلع عنها فى الحال وندم على ما مضى له من فعلها وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود

---

(١) قوله «ملازمة الغريم لغريمه» أى: ملازمة الدائن للمدين حيث لا يفارقه بالحاحه فى مطالبته بأداء ما استدانه حتى يؤديه حقه.

﴿وآمن﴾ بالله إيمانًا صحيحًا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي: تتبدل أفعالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانًا ومعصيتهم طاعة وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية، وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه فعدَّدها عليه ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: «يا رب إن لي سيئات لا أراها ههنا» والله أعلم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن تاب، يغفر الذنوب العظيمة ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ثم وفقهم لها ثم قبلها منهم ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: فَلْيَعْلَم أن توبته في غاية الكمال لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه فَلْيُخلص فيها ولْيُخلّصها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة واتباعها على أفضل الوجوه وأجلها ليقدم على من تاب إليه فيوفيه أجره بحسب كمالها ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الزور أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله والجدال الباطل والغيبة والنميمة والسب والقذف والاستهزاء والغناء المحرم وشرب الخمر وفرش الحرير والصور ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه، وشهادة الزور داخلة في قول الزور تدخل في هذه الآية بالأولوية ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه ورأوا أن الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة فربئوا بأنفسهم عنه، وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لم يقابلوها بالإعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف النظر والقلوب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذانًا سامعة وقلوبًا واعية فيزداد بها إيمانهم ويتم بها إيقانهم وتحدث لهم نشاطًا ويفرحون بها سرورًا واغتباطًا ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ أي: قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: تَقَرُّ بهم أعيننا، وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفنا من هممهم وعلو مرتبتهم أن دعاءهم لذرياتهم في صلاحهم فإنه دعاء لأنفسهم لأن نفعه يعود عليهم ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم فقالوا: ﴿هَبْ لَنَا﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين لأن صلاح من ذكر يكون سببًا لصلاح كثير ممن يتعلق بهم وينتفع بهم ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم يقتدى بأفعالهم ويطمئن لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفهم فيهدون ويهتدون، ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة - درجة الإمامة في الدين - لا تتم إلا بالصبر واليقين كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله وعن معصيته وأقداره المؤلمة ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين - خيرًا كثيرًا وعطاء جزيلاً وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل، ولهذا - لما كانت هممهم ومطالبهم عالية - كان الجزاء من جنس العمل فجازاهم بالمنازل العاليات فقال: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: المنازل الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهى وتلذه الأعين، وذلك بسبب صبرهم نالوا ما نالوا، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ من ربهم ومن ملائكته الكرام ومن بعض على بعض ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات، والحاصل: أن الله وصفهم بالوقار والسكينة والتواضع له ولعباده وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم ومقابلة إساءتهم بالإحسان وقيام الليل

والإخلاص فيه والخوف من النار والتضرع لربهم أن ينجيهم منها وإخراج الواجب والمستحب فى النفقات والاقتصاد فى ذلك، وإذا كانوا مقتصدين فى الإنفاق الذى جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط فاقتصادهم وتوسطهم فى غيره من باب أولى، والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله فى عبادته والعفة عن الدماء والأعراض والتوبة عند صدور شىء من ذلك وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها بأنفسهم وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية التى لا خير فيها وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولى وفعلى، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها والاجتهاد فى تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء فى الدعاء الذى ينتفعون به وينتفع به من يتعلق بهم وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم فى تعليمهم ووعظهم ونصحهم لأن من حرص على شىء ودعا الله فيه لا بد أن يكون متسببًا فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم وهى: درجة الإمامة والصديقية، فلله ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب وأزكى تلك النفوس وأطهر تلك القلوب وأصفى هؤلاء الصفوة وأتقى هؤلاء السادة!! ولله فضل الله عليهم ونعمته ورحمته التى جللتهم ولطفه الذى أوصلهم إلى هذه المنازل، ولله منَّة الله على عباده أن بين لهم أوصافهم ونعت لهم هيئاتهم وبيَّن لهم هممهم وأوضح لهم أجورهم ليشتاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم ويبذلوا جهدهم فى ذلك ويسألوا الذى منَّ عليهم وأكرمهم الذى فضله فى كل زمان ومكان وفى كل وقت وأوان أن يهديهم كما هداهم ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم، فاللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث ولا حول ولا قوة إلا بك لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًا ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير إن لم تيسر ذلك لنا، فإنا ضعفاء عاجزون من كل وجه، نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين وكلتنا إلى ضعف وعجز وخطية، فلا نثق يا ربنا إلا برحمتك التى بها خلقتنا ورزقتنا وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة وصرفت عنا من النقم، فارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك، فلا خاب من سألك ورجاك، ولما كان الله تعالى قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته واختصهم بعبوديته لشرفهم وفضلهم ربما توهم متوهم أنه وأيضًا غيرهم فلم لا يدخل فى العبودية؟ فأخبر تعالى أنه لا يبالى ولا يعبأ بغير هؤلاء، وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة ما عبأ بكم ولا أحبكم فقال: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا**﴾ أى: عذابًا يلزمكم لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

تم تفسير سورة الفرقان فلله الحمد والثناء والشكر أبدًا

تفسير سورة الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿**طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾**﴾

يشير البارى تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح الدال على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به لوضوحه ودلالته على أشرف المعانى وارتباط الأحكام بحكمها وتعليقها بمناسبها، فكان رسول الله ﷺ ينذر به الناس ويهدى

به الصراط المستقيم، فيهتدى بذلك عباد الله المتقون ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء فكان يحزن حزنًا شديدًا على عدم إيمانهم حرصًا منه على الخير ونصحًا لهم، فلهذا قال تعالى لنبيه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أى: مهلكها وشاقًا عليها ﴿أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى: فلا تفعل ولا تذهب نفسك عليهم حسرات فإن الهداية بيد الله وقد أديت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى ننزلها ليؤمنوا بها فإنه كاف شاف لمن يريد الهداية ولهذا قال: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ أى: من آيات الاقتراح ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ أى: أعناق المكذبين ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ولكن لا حاجة إلى ذلك ولا مصلحة فيه فإنه إذ ذاك الوقت يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ الآية ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ﴾ يأمرهم وينهاهم ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم ﴿إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بقلوبهم وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدث الذى جرت العادة أنه يكون موقعه أبلغ من غيره فكيف بإعراضهم عن غيره وهذا لأنهم لا خير فيهم ولا تنجع فيهم المواعظ، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أى: بالحق وصار التكذيب لهم سجية لا تتغير ولا تتبدل ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: سيقع بهم العذاب ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حقت عليهم كلمة العذاب، قال الله منبهًا على التفكر الذى ينفع صاحبه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من جميع أصناف النباتات حسنة المنظر كريمة فى نفعها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ على إحياء الله الموتى بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى قد قهر كل مخلوق ودان له العالم العلوى والسفلى ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذى وسعت رحمته كل شىء ووصل جوده إلى كل حى، العزيز الذى أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات الرحيم بالسعداء حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ

تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ
ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ
أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ
فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

أعاد البارى تعالى قصة موسى وثناها فى القرآن ما لم يثن غيرها لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن فقال: واذكر حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله إياه حين كلمه ونبأه وأرسله فقال: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين تكبروا فى الأرض وعلوا على أهلها وادعى كبيرهم الربوبية ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾ أى: قل لهم بلين قول ولطف عبارة ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾ الله الذى خلقكم ورزقكم فتتركون ما أنتم عليه من الكفر، فقال موسى عليه السلام معتذراً من ربه ومبينًا لعذره وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ وقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي﴾ ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ فأجاب الله طلبته ونبأ أخاه كما نبأه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أى: معاونًا لى على أمرى ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ أى: فى قتل القبطى ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا﴾ أى: لا يتمكنون من قتلك فإنا سنجعل لكما سلطانًا فلا يصلون إليكما أنتما ومن اتبعكما الغالبون، ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى مع منابذته له غاية المنابذة وتسفيه رأيه وتضليله وقومه ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدقكما وصحة ما جئتما به ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أحفظكما وأكلؤكما ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: أرسلنا إليك لتؤمن به وبنا وتنقاد لعبادته وتذعن لتوحيده ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فكف عنهم عذابك وارفع عنهم يدك ليعبدوا ربهم ويقيموا أمر دينهم، فلما جاءا فرعون وقالا له ما قال الله لهما لم يؤمن فرعون ولم يلن وجعل يعارض موسى بقوله: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ أى: ألم ننعم عليك ونقم بتربيتك منذ كنت وليدًا فى مهدك ولم تزل كذلك ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ وهى قتل موسى للقبطى حين استغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ الآية ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أى: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا [1] وسبيلك سبيلنا فى الكفر، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا

---

(١) «وأنت إذ ذاك طريقك... إلخ» هذا القول يوهم أن موسى كان على ملة فرعون قبل الرسالة، وهذا غير صحيح، لأن الأنبياء معصومون من الكفر ووسائله.

والصواب ـ كما قاله أبو السعود فى تفسيره، وكذا فى الجلالين ـ أن معنى ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أى الجاحدين لنعمتى عليك بالتربية وعدم الاستعباد، ولأن موسى كان يعايشهم بالتقية، لا أنه كان يشاركهم فى الدين، وكيف يكون ذلك والأنبياء معصومون، ويعلم مما قررناه أن فى تعبير المؤلف قصوراً وإيهامًا للقارئ بأن موسى كان مشاركًا لهم فى الدين.

يدرى، فقال: موسى ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أى: عن غير كفر وإنما كان عن ضلال وسفه(١) فاستغفرت ربى فغفر لى ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ حين تراجعتم بقتلى فهربت إلى مدين ومكثت سنين ثم جئتكم ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى اعتراض جاهل أو متجاهل فإنه جعل المانع من كونه رسولاً أن جرى منه القتل، فبين له موسى أن قتله كان على وجه الضلال والخطأ(٢) الذى لم يقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد فلم منعتم ما منحنى الله من الحكم والرسالة؟ بقى عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ وعند التحقيق يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: تدلى علىَّ بهذه المنة لأنك سخرت بنى إسرائيل وجعلتهم لك بمنزلة العبيد وأنا قد أسلمتنى من تعبيدك وتسخيرك وجعلتها علىَّ نعمة، فعند التصور يتبين أن الحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل وعذبتهم وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سلمنى الله من أذاك مع وصول أذاك لقومى، فما هذه المنة التى تمن بها وتدلى بها؟ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا إنكار منه لربه ظلمًا وعلوًا مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى فقال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: الذى خلق العالم العلوى والسفلى ودبره بأنواع التدبير ورباه بأنواع التربية، ومن جملة ذلك أنتم أيها المخاطبون فكيف تنكرون خالق المخلوقات وفاطر الأرض والسموات ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فقال فرعون متجهما ومعجبًا بقوله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ ما يقول هذا الرجل، فقال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ تعجبتم أم لا، استكبرتم أم أذعنتم، فقال فرعون معاندًا للحق قادحًا بمن جاء به: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ حيث قال خلاف ما نحن عليه وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل من زعموا أنهم لم يخلقوا أو أن السموات والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجد وأنهم بأنفسهم خلقوا من غير خالق، والعقل عنده أن يعبد المخلوق الناقص من جميع الوجوه، والجنون عنده أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوى والسفلى المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة ويدعى إلى عبادته، وزين لقومه هذا القول وكانوا سفهاء الأحلام خفيفى العقول ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فقال موسى عليه السلام مجيبًا لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من سائر المخلوقات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقد أديت لكم من البيان والتبيين ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل فما بالكم تتجاهلون فيما أخاطبكم به؟ وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذى رميتم به موسى من الجنون أنه داؤكم فرميتم أزكى الخلق عقلاً وأكملهم علمًا، والحال أنكم أنتم المجانين حيث ذهبت عقولكم إلى إنكار أظهر الموجودات خالق الأرض والسموات وما بينهما، فإذا جحدتموه فأى شيء تثبتون؟ وإذا جهلتموه فأى شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته فبأى شيء - بعد الله وآياته - تؤمنون؟ تالله إن المجانين الذين بمنزلة البهائم أعقل منكم وإن الأنعام السارحة أهدى منكم، فلما خنقت فرعون الحجة وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة ﴿قَالَ﴾ متوعدًا لموسى بسلطانه ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ زعم - قبحه الله - أنه قد طمع فى إضلال موسى وأن لا يتخذ إلهًا غيره، وإلا فقد تقرر أنه هو ومن معه على بصيرة من أمرهم، فقال له موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ أى: آية ظاهرة جلية على صحة ما جئت به من خوارق العادات ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ أى: ذكر الحيات ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر لكل أحد لا خيال ولا تشبيه ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أى: لها نور عظيم لا نقص فيه لمن نظر إليها ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾ معارضًا للحق ومن جاء به: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ موه

---

(١) قوله: «عن ضلال وسفه» إطلاق «السفه» و «الضلال» على الأنبياء غير جائز ولا لائق بمراتبهم العلية فهم معصومون عن ذلك.

والصواب - كما قال أبو السعود فى تفسيره - الضالين، أى الجاهلين، وقد قرئ كذلك، أو من المخطئين لأنه لم يتعمد قتله، بل أراد تأديبه، أو الناسين عنا يؤدى إليه الوكز.

(٢) قوله: «على وجه الضلال... إلخ» الأولى أن يقال إن موسى لم يعلم أن وكزه يؤدى إلى الموت، ولم يتعمد قتل القبطى، بل حصل القتل خطأ فقط.

عليهم لعلمه بضعف عقولهم أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة لأنه من المتقرر عندهم أن السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس، وخَوَّفَهُمْ أن قصده بهذا السحر التوصل إلى إخراجهم من وطنهم ليجدوا ويجتهدوا فى معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أن نفعل به؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أى: أخِّرهما ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ جامعين للناس ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أى: ابعث فى جميع مدنك التى هى مقر العلم ومعدن السحر من يجمع لك كل ساحر ماهر عليم فى سحره فإن الساحر يُقَاتَلُ بسحرٍ من جنس سحره، وهذا من لطف الله أن يرى العباد بطلان ما موه به فرعون الجاهل الضال المضل أن ما جاء به موسى سحر قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم فيظهر الحق على الباطل ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى وأنه ليس بسحر، فعمل فرعون برأيهم فأرسل فى المدائن من يجمع السحرة واجتهد فى ذلك وجد ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ قد واعدهم إياه موسى وهو يوم الزينة الذى يتفرغون فيه من أشغالهم ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ أى: نودى بعموم الناس بالاجتماع فى ذلك اليوم الموعود ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ أى: قالوا للناس: اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسى وأنهم ماهرون فى صناعتهم فنتبعهم ونعظمهم ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وفقوا للحق لقالوا: لعلنا نتبع المحق منهم ولنعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك إلا قيام الحجة عليهم ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ ووصلوا لفرعون قالوا له: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ لموسى؟ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم أجر وثواب ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عندى، وعدهم الأجر والقربة منه ليزداد نشاطهم ويأتوا بكل مقدورهم فى معارضة ما جاء به موسى، فلما اجتمعوا للموعد هم وموسى وأهل مصر وعظهم موسى وذكّرهم وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم(١) بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ فتنازعوا وتخاصموا ثم شجعهم فرعون وشجع بعضهم بعضًا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أى: ألقوا كل ما فى خواطركم إلقاؤه ولم يقيدهم بشىء دون شىء لجزمه ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ فإذا هى حيات تسعى وسحروا بذلك أعين الناس ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فاستعانوا بعزة عبد ضعيف عاجز من كل وجه إلا أنه قد تجبر وحل على صورة ملك وجنود، فغرتهم تلك الأبهة ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر، أو أن هذا قَسَمٌ منهم بعزة فرعون والمقسم عليه أنهم غالبون ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تبتلع وتأخذ ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ فالتقفت جميع ما ألقوا من الحبال والعصى لأنها إفك وكذب وزور وذلك كله باطل لا يقوم للحق ولا يقاومه، فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة تيقنوا - لعلمهم - أن هذا ليس بسحر وإنما هو آية من آيات الله ومعجزة تنبئ بصدق موسى وصحة ما جاء به ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ لربهم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ وانقمع الباطل فى ذلك المجمع وأقر رؤساؤه ببطلانه ووضح الحق وظهر حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبى فرعون إلا عتوًا وضلالاً وتماديًا فى غيه وعنادًا، فقال للسحرة: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ يتعجب ويعجب قومه من جراءتهم عليه وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرته ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ هذا وهو الذى جمع السحرة وملأه الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى ولا رأوه قبل ذلك وأنهم جاءوا من السحر بما يحير الناظرين ويهيلهم، ومع ذلك فراج عليهم هذا القول الذى هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه، فلا يستنكر على أهل هذه العقول أن لا يؤمنوا بالحق الواضح والآيات الباهرة لأنهم لو قال فرعون عن أى شىء كان إنه على خلاف حقيقته صدقوه، ثم توعد السحرة فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ أى: اليد اليمنى والرجل اليسرى كما يفعل بالمفسد فى الأرض ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتختزوا وتذلوا، فقال السحرة - حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذاته: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أى: لا نبالى بما توعدتنا به ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا

---

(١) فيسحتكم، أى: يهلككم، ويستأصلكم، قال الراغب فى «معجم مفردات ألفاظ القرآن» فَيُسحِتكم، وقرئ فَيَسْحَتَكُم، يقال «سحته وأسحته» ومنه: السحت للمحظور الذى يلزم صاحبه العار، كأنه يُسْحِتُ دينه ومروءته، أكالون للسحت، أى: يسحت دينهم. اهـ. أى: يستأصل دينهم، وفى القاموس «أسحت الشىء وسحته» اكتسبه واستأصله. اهـ.

منقلبون ﴿٥٠﴾ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾ من الكفر والسحر وغيرهما ﴿أن كنا أول المؤمنين﴾ بموسى من هؤلاء الجنود، فثبتهم الله وصبرهم، فيحتمل أن فرعون فعل ما توعدهم به لسلطانه واقتداره إذ ذاك، ويحتمل أن الله منعه منهم ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم يأتيهم موسى بالآيات البينات وكلما جاءتهم آية وبلغت منهم كل مبلغ وعدوا موسى وعاهدوه لئن كشف الله عنهم ليؤمنن به وليرسلن معه بنى إسرائيل فيكشفه الله ثم ينكثون، فلما يئس موسى من إيمانهم وحقت عليهم كلمة العذاب وآن لبنى إسرائيل أن ينجيهم الله من أسرهم ويمكن لهم فى الأرض أوحى الله إلى موسى: ﴿أن أسر بعبادى﴾ أى: اخرج ببنى إسرائيل أول الليل ليتمادوا ويتمهلوا فى ذهابهم ﴿إنكم متبعون﴾ أى: سيتبعكم فرعون وجنوده، ووقع كما أخبر فإنهم لما أصبحوا إذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى ﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾ يجمعون الناس ليوقع ببنى إسرائيل ويقول مشجعًا لقومه ﴿إن هؤلاء﴾ أى: بنى إسرائيل ﴿لشرذمة قليلون ﴿٥٤﴾ وإنهم لنا لغائظون﴾ فلا بد أن ننفذ غيظنا فى هؤلاء العبيد الذين أبقوا منا ﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ أى: الحذر على الجميع منهم وهم أعداء للجميع والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده فى جيش عظيم ونفير عام لم يتخلف منهم سوى أهل الأعذار الذين منعهم العجز، قال الله تعالى: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون﴾ أى: بساتين مصر وجناتها الفائقة وعيونها المتدفقة وزروع قد ملأت أراضيهم وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم ﴿وكنوز ومقام كريم﴾ يعجب الناظرين ويلهى المتأملين تمتعوا به دهرًا طويلاً وقضوا بلذته وشهواته عمرًا مديدًا على الكفر والفساد والتكبر على العباد والتيه العظيم ﴿كذلك وأورثناها﴾ أى: هذه البساتين والعيون والزروع والمقام الكريم ﴿بنى إسرائيل﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم وسخروا فى أعمالهم الشاقة، فسبحان من يؤتى الملك من يشاء وينزعه عمن يشاء ويعز من يشاء بطاعته ويذل من يشاء بمعصيته ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ أى: اتبع قوم فرعون قوم موسى وقت شروق الشمس وساقوا خلفهم محثين على غيظ وحنق قادرين ﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أى رأى كل منهما صاحبه ﴿قال أصحاب موسى﴾ شاكين لموسى وحزنين ﴿إنا لمدركون﴾ فـ ﴿قال﴾ موسى مثبتًا لهم ومخبرًا لهم بوعد ربه الصادق: ﴿كلا﴾ أى: ليس الأمر كما ذكرتم أنكم مدركون ﴿إن معي ربي سيهدين﴾ لما فيه نجاتى ونجاتكم ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾ فضربه ﴿فانفلق﴾ اثنى عشر طريقًا ﴿فكان كل فرق كالطود﴾ أى: الجبل ﴿العظيم﴾ فدخله موسى وقومه ﴿وأزلفنا ثم﴾ فى ذلك المكان ﴿الآخرين﴾ أى فرعون وقومه وقربناهم وأدخلناهم فى ذلك الطريق الذى سلك منه موسى وقومه ﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين﴾ استكملوا خارجين لم يتخلف منهم أحد ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ لم يتخلف منهم عن الغرق أحد ﴿إن في ذلك لآية﴾ عظيمة على صدق ما جاء به موسى عليه السلام وبطلان ما عليه فرعون وقومه ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ مع هذه الآيات المقتضية للإيمان لفساد قلوبهم ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ بعزته أهلك الكافرين المكذبين وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

أى: واتل يا محمد على الناس نبأ إبراهيم الخليل وخبره الجليل فى هذه الحالة بخصوصها وإلا فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها هذا النبأ المتضمن لرسالته ودعوته قومه ومحاجته إياهم وإبطاله ما هم عليه ولذلك قيده بالظرف فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا﴾ متبجحين بعبادتهم ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ ننحتها ونعملها بأيدينا ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ أى: مقيمين على عبادتها فى كثير من أوقاتنا، فقال لهم إبراهيم مبينًا عدم استحقاقها للعبادة: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ فيستجيبون دعاوكم ويفرجون كربكم ويزيلون عنكم كل مكروه؟ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها فلا تسمع دعاء ولا تنفع ولا تضر، ولهذا لما كسرها قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ أى: هذا أمر متقرر من حالها لا يقبل الإشكال والشك، فلجئوا إلى تقليد آبائهم الضالين فقالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فتبعناهم على ذلك وسلكنا سبيلهم وحافظنا على عاداتهم، فقال لهم إبراهيم: أنتم وآباؤكم كلكم خصوم فى الأمر والكلام مع الجميع واحد ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ فليضرونى بأدنى شىء من الضرر وليكيدونى فلا يقدرون ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ هو المتفرد بنعمة الخلق ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية، ثم خصص منها بعض الضروريات فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ فهذا هو وحده المنفرد بذلك فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة وتترك هذه الأصنام التى لا تخلق ولا تهدى ولا تمرض ولا تشفى ولا تطعم ولا تسقى ولا تميت ولا تحيى ولا تنفع عابديها بكشف الكروب ولا مغفرة الذنوب فهذا دليل قاطع وحجة باهرة لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها فدل على اشتراككم فى الضلال وترككم طريق الهدى والرشد، قال الله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ الآيات، ثم دعا عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أى: علمًا كثيرًا أعرف به الأحكام والحلال والحرام وأحكم به بين الأنام ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من إخوانه الأنبياء والمرسلين ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى: اجعل لى ثناء صدق مستمر إلى آخر الدهر، فاستجاب الله دعاءه فوهب له من العلم والحكم ما كان به من أفضل المرسلين والحق بإخوانه المرسلين وجعله محبوبًا مقبولاً معظمًا مثنيًا عليه فى جميع الملل فى كل الأوقات، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أى: من أهل الجنة التى يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه فرفع منزلته فى جنات النعيم ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ وهذا الدعاء بسبب الوعد الذى قال لأبيه ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أى: بالتوبيخ على بعض الذنوب والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدنى فى ذلك اليوم الذى فيه ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ فهذا الذى ينفعه عندك وهذا الذى ينجو به من العقاب ويستحق جزيل الثواب، والقلب السليم معناه: الذى سلم من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه فى قلبه وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله وهواه تابعًا لما جاء عن الله، ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم وما فيه من الثواب والعقاب فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أى قربت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ربهم، الذين امتثلوا أوامره واجتنبوا زواجره واتقوا سخطه وعقابه ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ أى: برزت واستعدت بجميع ما فيها من العذاب ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ الذين أوضعوا فى معاصى الله وتجرءوا على محارمه وكذبوا رسله وردوا

ما جاءوهم به من الحق ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بأنفسهم أى: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم ولاحت خسارتهم وفضيحتهم وبان ندمهم وضل سعيهم ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أى: ألقوا فى النار ﴿هُمْ﴾ أى: ما كانوا يعبدون ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ العابدون لها ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ من الإنس والجن الذين أزهم إلى المعاصى أزًا وتسلط عليهم بشركهم وعدم إيمانهم فصاروا من دعاته والساعين فى مرضاته، وهم ما بين داع لطاعته ومجيب لهم ومقلد لهم على شركهم ﴿قَالُوا﴾ أى: جنود إبليس الغاوون لأصنامهم وأوثانهم التى عبدوها: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فى العبادة والمحبة والخوف والرجاء وندعوكم كما ندعوه، فتبين لهم حينئذ ضلالهم وأقروا بعدل الله فى عقوبتهم وأنها فى محلها، وهم لم يسووهم برب العالمين إلا فى العبادة لا فى الخلق بدليل قولهم: ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنهم مقرون أن الله رب العالمين كلهم الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم ﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾ عن طريق الهدى والرشد ودعانا إلى طريق الغى والفسق ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار ﴿فَمَا لَنَا﴾ حينئذ ﴿مِن شَافِعِينَ﴾ يشفعون لنا لينقذونا من عذابه ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أى: قريب مصاف ينفعنا بأدنى نفع كما جرت العادة بذلك فى الدنيا، فأيسوا من كل خير وأبلوا بما كسبوا وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحًا ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أى: رجعة إلى الدنيا وإعادة إليها ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لنسلم من العقاب ونستحق الثواب، هيهات هيهات قد حيل بينهم وبين ما يشتهون وقد غلقت منهم الرهون ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكرنا لكم ووصفنا ﴿لَآيَةً﴾ لكم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مع نزول الآيات.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يذكر تعالى تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح وما رد عليهم وردوا عليه وعاقبة الجميع فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ جميعهم، لأن تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة فتكذيب أحدهم كتكذيب بجميع ما جاءوا به من الحق، كذبوه ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ فى النسب ﴿نُوحٌ﴾ وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم لئلا يشمئزوا من الانقياد له ولأنهم يعرفون حقيقته فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطبًا بألطف خطاب كما هى طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى فتتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان وتخلصون العبادة لله وحده ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فكونه رسولاً إليهم بالخصوص يوجب لهم تلقى ما أرسل به إليهم والإيمان به وأن يشكروا الله تعالى على أن خصهم بهذا الرسول الكريم، وكونه أمينًا يقتضى أنه لا يقول على الله ولا يزيد فى وحيه ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه فإن هذا هو الذى يترتب على كونه رسولاً إليهم أمينًا، فلذلك رتبه بالفاء الدالة على السبب فذكر السبب الموجب ثم ذكر انتفاء المانع فقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتتكلفون من المغرم الثقيل ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرجو بذلك القرب منه والثواب الجزيل، وأما أنتم فمنيتى ومنتهى إرادتى منكم النصح لكم وسلوككم الصراط المستقيم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرر ذلك عليه السلام لتكريره دعوة قومه وطول مكثه فى ذلك كما قال تعالى:

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾ وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا﴾ الآيات، فقالوا ردًا لدعوته ومعارضةً له بما ليس يصلح للمعارضة ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ أى: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأراذلهم وسقطهم، بهذا يعرف عن تكبرهم عن الحق وجهلهم بالحقائق فإنهم لو كان قصدهم الحق لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك فى دعوته - بيِّنْ لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك، ولو تأملوا حق التأمل لعلموا أن أتباعه هم الأعلون خيار الخلق أهل العقول الرزينة والأخلاق الفاضلة، وأن الأرذل من سلب خاصية عقله فاستحسن عبادة الأحجار ورضى أن يسجد لها ويدعوها وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكمل، وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين فى الكلام الباطل يعرف فساد ما عنده بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه، فقوم نوح لما سمعنا عنهم أنهم قالوا فى ردهم دعوة نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ فبنوا على هذا الأصل الذى كل أحد يعرف فساده رد دعوته عرفنا(1) أنهم ضالون مخطئون ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به، فقال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أى: أعمالهم وحسابهم على الله إنما علىَّ التبليغ وأنتم دعوهم عنكم إن كان ما جئتكم به الحق فانقادوا له وكلٌّ له عمله ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كأنهم - قبحهم الله- طلبوا منه أن يطردهم عنه تكبرًا وتجبرًا ليؤمنوا فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، إنما يستحقون الإكرام القولى والفعلى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله ومجتهد فى نصح العباد وليس لى من الأمر شىء إن الأمر إلا لله، فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام على دعوتهم ليلاً ونهارًا سرًا وجهارًا فلم يزدادوا إلا نفورًا ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ﴾ من دعوتك إيانا إلى الله وحده ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أى لنقتلنَّك شر قتلة بالرمى بالحجارة كما يقتل الكلب، فتبًا لهم ما أقبح هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين الذى هو أشفق عليهم من أنفسهم بشر مقابلة، لا جرم لما انتهى ظلمهم واشتد كفرهم دعا عليهم نبيهم بدعوة أحاطت بهم فقال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآيات، وهنا ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ۝ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أى: أهلك الباغى منا، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة ولهذا قال: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أى: السفينة ﴿الْمَشْحُونِ﴾ من الخلق والحيوانات ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أى: بعد نوح ومن معه من المؤمنين ﴿الْبَاقِينَ﴾ أى: جميع قومه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أى: نجاة نوح وأتباعه وإهلاك من كذبه ﴿لآيَةً﴾ دالة على صدق رسلنا وصحة ما جاءوا به وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى قهر بعزه أعداءه فأغرقهم بالطوفان ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه حيث نجى نوحًا ومن معه من أهل الإيمان.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

أى: كذبت القبيلة المسماة عادًا، رسولهم هودًا، وتكذيبهم له، تكذيب لغيره، لاتفاق الدعوة ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ

(١) قوله «عرفنا» جواب «لما» فى قوله المتقدم «لما سمعنا».

﴿أَخُوهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودٌ﴾ بلطف وحسن خطاب ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتتركون الشرك وعبادة غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: أرسلني الله إليكم رحمة بكم واعتناء بكم، وأنا أمين تعرفون ذلك مني، رتب على ذلك قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أدوا حق الله تعالى وهو: التقوى وأدوا حقي بطاعتي فيما آمركم به وأنهاكم عنه، فهذا موجب لأن تتبعوني وتطيعوني وليس ثمَّ مانع يمنعكم من الإيمان، فلست أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم أجرًا حتى تستثقلوا ذلك المغرم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي رباهم بنعمه وأدرَّ عليهم فضله وكرمه خصوصًا ما ربَّى به أولياءه وأنبياءه ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: مدخل بين الجبال ﴿آيَةً﴾ أي: علامة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: تفعلون ذلك عبثًا لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: بركًا ومجابي للحياة ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ بالخلق ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قتلاً وضربًا وأخذ أموال، وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله ولكنهم فخروا واستكبروا وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ واستعملوا قوتهم في معاصي الله وفي العبث والسفه فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واتركوا شرككم وبطركم ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ حيث علمتم أني رسول الله إليكم أمين ناصح ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ﴾ أي: أعطاكم ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أمدكم بما لا يجهل ولا ينكر من الإنعام ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ﴾ من إبل وبقر وغنم ﴿وَبَنِينَ﴾ أي: وكثرة نسل، كثَّر أموالكم وكثَّر أولادكم خصوصًا الذكور أفضل القسمين، هذا تذكيرهم بالنعم ثم ذكرهم حلول عذاب الله فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إني - من شفقتي عليكم وبرى بكم - أخاف أن ينزل بكم عذاب يوم عظيم إذا نزل لا يرد إن استمررتم على كفركم وبغيكم، فقالوا معاندين الحق مكذبين لنبيهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي: الجميع على حد سواء، وهذا غاية العتو فإن أقوامًا بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله التي تذيب الجبال الصم الصلاب وتتصدع لها أفئدة أولي الألباب وجودها وعدمها - عندهم - على حد سواء - لقوم انتهى ظلمهم واشتد شقاؤهم وانقطع الرجاء من هدايتهم، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هذه الأحوال والنعم ونحو ذلك عادة الأولين تارة يستغنون وتارة يفتقرون، وهذه أحوال الدهر لأن هذه محن ومنح من الله تعالى وابتلاء لعباده ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ وهذا إنكار منهم للبعث أو تنزل مع نبيهم وتهكم به، إننا على فرض أننا نبعث فإننا كما أدرَّت علينا النعم في الدنيا كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: صار التكذيب سجية لهم وخلقًا لا يردعهم عنه رادع ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ على صدق نبينا هود عليه السلام وصحة ما جاء به وبطلان ما عليه قومه من الشرك والجبروت ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع وجود الآيات المقتضية للإيمان ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي أهلك بقدرته قوم هود على قوتهم وبطشهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ بنبيه هود حيث نجاه ومن معه من المؤمنين.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ القبيلة المعروفة فى مدائن الحجر ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ كذبوا صالحًا عليه السلام الذى جاء بالتوحيد الذى دعت إليه المرسلون فكان تكذيبهم له تكذيبًا للجميع ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ فى النسب برفق ولين: ﴿أَلا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى وتدعون الشرك والمعاصى ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ربكم أرسلنى إليكم لطفًا بكم ورحمة فتلقوا رحمته بالقبول وقابلوها بالإذعان ﴿أَمِينٌ﴾ تعرفون ذلك منى وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بى وبما جئت به ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتقولون: يمنعنا من اتباعك أنك تريد أخذ أموالنا ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: لا أطلب الثواب إلا منه ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أى: نضيد كثير، أى: أتحسبون أنكم تتركون فى هذه الخيرات والنعم سُدًى تنعمون وتتمتعون كما تتمتع الأنعام وتتركون سدى لا تؤمرون ولا تنهون وتستعينون بهذه النعم على معاصى الله ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ أى: بلغت بكم الفراهة والحذق إلى أن اتخذتم بيوتًا من الجبال الصم الصلاب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ الذين تجاوزوا الحد ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أى: الذين وصفهم وداؤهم الإفساد فى الأرض بعمل المعاصى والدعوة إليها إفسادًا لا إصلاح فيه وهذا أضر ما يكون لأنه شر محض، وكأن أناسًا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم موضعون فى الدعوة لسبيل الغى فنهاهم صالح عن الاغترار بهم، ولعلهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فلم يفد فيهم هذا النهى والوعظ شيئًا فقالوا لصالح: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أى: قد سحرت فأنت تهذى بما لا معنى له ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فأى: فضيلة فقتنا بها حتى تدعونا إلى اتباعك؟ ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه من أكبر الآيات البينات على صحة ما جاء به وصدقه، ولكنهم من قسوتهم سألوا آيات الاقتراح التى فى الغالب لا يفلح من طلبها لكون طلبه مبنيًا على التعنت لا على الاسترشاد، فقال صالح: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ﴾ تخرج من صخرة صماء ملساء- تابعنا فى هذا كثيرًا من المفسرين ولا مانع فى ذلك- ترونها وتشاهدونها بأجمعكم ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أى: تشرب ماء البئر يومًا وأنتم تشربون لبنها ثم تصدر عنكم اليوم الآخر وتشربون أنتم ماء البئر ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ بعقر أو غيره ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فخرجت واستمرت عندهم بتلك الحال فلم يؤمنوا واستمروا على طغيانهم ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وهى صيحة نزلت عليهم فدمرتهم أجمعين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ على صدق ما جاءت به رسلنا وبطلان قول معارضيهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾

قال لهم وقالوا كما قال من قبلهم تشابهت قلوبهم فى الكفر فتشابهت أقوالهم، وكانوا ـ مع شركهم ـ يأتون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، يختارون نكاح الذكران المستقذر الخبيث ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم لإسرافهم وعدوانهم فلم يزل ينهاهم حتى ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أى: من البلد، فلما رأى استمرارهم عليه ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أى: المبغضين الناهين عنه المحذرين منه، قال:

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من فعله وعقوبتـه فاستجاب الله له ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ أى الباقين فى العذاب وهى امرأته ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أى: حجارة من سجيل ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ أهلكهم الله عن آخرهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

أصحاب الأيكة: أى: البساتين الملتفة الأشجار وهم أصحـاب مدين فكذبوا نبيهم شعيبًا الذى جاء بما جاء به المرسلون ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، فتتركون ما يسخطه ويغضبه من الكفر والمعاصى ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يترتب على ذلك أن تتقوا الله وتطيعونى وكانوا ـ مع شركهم ـ يبخسون المكاييل والموازين فلذلك قال لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أى: أتموه وأكملوه ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكيال والميزان ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أى: بالميزان العادل الذى لا يميل ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ أى: الخليقة الأولين، فكما انفرد بخلقكم وخلق من قبلكم من غير مشاركة له فى ذلك فأفردوه بالعبادة والتوحيد وكمـا أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم فقـابلوه بشكره، قالوا له مكذبين له رادِّين لقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ فأنت تهذى وتتكلم كلام المسحور الذى غايته أن لا يؤاخذ به ﴿وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فليس فيك فضيلة اختصصت بها علينا حتى تدعونا إلى اتبـاعك، وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم ممن عارضوا الرسل بهـذه الشبهة التى لم يزالوا يدلون بها ويصولون ويتفقون عليـها لاتفاقهم على الكفر وتشابه قلوبهم، وقد أجـابت عنها الرسل بقولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهذا جراءة منهم وظلم وقـول زور قد انطووا على خلافه، فـإنه ما من رسول من الرسل واجه قومه ودعاهم وجادلهم وجادلوه إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصًا شعيبًا عليه السلام الذى يسمى خطيب الأنبيـاء، لحسن مراجعته قومه ومجادلتهم بالتى هى أحسن، فإن قومه قـد تيقنوا صدقه وأن مـا جاء به حق ولكن إخبارهم عن ظن كـذبه كذب منهم ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى: قطع عذاب تستأصلنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ كقول إخوانهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقـتراح التى لا يلزم تتميم مطلوب من سألها ﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى: نزول العذاب ووقوع آيات الاقتراح لست أنا الذى آتى بها وأنزلها بكم وليس علىَّ إلا تبليغكم ونصحكم، وقد فعلت، وإنما الذى يأتى بها ربِّى العالم بأعمالكم وأحوالكم الذى يجازيكم ويحاسبكم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أى: صار التكذيب لهم وصفًا والكفر لهم ديدنًا بحيث لا تفيـدهم الآيات وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ أظلتهم سحابة فاجتـمعوا تحتها مـستلذين لظلها غير الـظليل فأحرقهم بالعذاب فظلوا تحـتها خامدين ولديارهم مـفارقين وبدار الشقاء والعذاب نازلين ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا كرة لهم إلى الدنيا فيستأنفوا العمل ولا يُفتَّر عنهم العذاب

ساعة ولا هم ينظرون ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ دالة على صدق شعيب وصحة ما دعا إليه وبطلان رد قومه عليه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مع رؤيتهم الآيات لأنهم لا زكاء فيهم ولا خير لديهم ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى امتنع بقدرته عن إدراك أحد وقهر كل مخلوق ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذى الرحمة وصفه ومن آثارها جميع الخيرات فى الدنيا والآخرة من حين أوجد الله العالم إلى ما لا نهاية، له ومن عزته أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله ومن رحمته أن نجَّى أولياءه ومن معهم من المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم وكيف دعوه وما ردوا عليهم به وكيف أهلك الله أعداءهم وصارت لهم العاقبة، ذكر هذا الرسول الكريم والنبى المصطفى العظيم وما جاء به من الكتاب الذى فيه هداية لأولى الألباب فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالذى أنزله فاطر الأرض والسموات الْمُرَبِّى جميع العالم العلوى والسفلى، وكما أنه رباهم بهدايتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم فإنه يربيهم أيضًا بهدايتهم لمصالح دينهم وأخراهم ومن أعظم ما رباهم به إنزال هذا الكتاب الكريم الذى اشتمل على الخير الكثير والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين والأخلاق الفاضلة ما ليس فى غيره فى قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من تعظيمه وشدة الاهتمام به من كونه نزل من الله لا من غيره مقصودًا فيه نفعكم وهدايتكم ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ وهو: جبريل عليه السلام الذى هو أفضل الملائكة وأقواهم ﴿الأَمِينُ﴾ الذى قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ تهدى به إلى طريق الرشاد وتنذر به عن طريق الغى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ وهو أفضل الألسنة بلغة من بُعِثَ إليهم وباشر دعوتهم أصلاً اللسان البَيِّن الواضح، وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة فى هذا الكتاب الكريم فإنه أفضل الكتب نزل به أفضل الملائكة على أفضل الخلق على أفضل أمة أخرجت للناس بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها وهو: اللسان العربى المبين ﴿وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ أى: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته وهو لما نزل طِبْقَ ما أخبرت به صدقها بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً﴾ على صحته وأنه من الله ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ الذين قد انتهى إليهم العلم وصاروا أعلم الناس وهم أهل الصنف[1] فإن كل شيء يحصل به اشتباه يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية فيكون قولهم حجة على غيرهم، كما عرف السحرة الذين مهروا فى علم السحر صدق معجزة موسى وأنه ليس بسحر، فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يفقهون لسانهم ولا يقدرون على التعبير كما ينبغى ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ يقولون: ما نفقه ما يقول ولا ندرى ما يدعو إليه، فَلْيَحْمَدُوا ربهم أن جاءهم على لسان أفصح الخلق وأقدرهم على التعبير عن المقاصد بالعبارات الواضحة وأنصحهم، ولْيُبَادروُا إلى التصديق به وتَلَقِّيه بالتسليم والقبول ولكن تكذيبهم له من غير شبهة إن هو إلا محض الكفر والعناد وأمر قد توارثته الأمم المكذبة، فلهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: أدخلنا التكذيب ونظمناه فى قلوب أهل الإجرام كما يدخل السلك فى الإبرة فتشربته وصار وصفًا لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم، فلذلك ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ على تكذيبهم ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أى: يأتيهم على حين غفلة وعدم إحساس منهم ولا استشعار بنزوله ليكون أبلغ فى عقوبتهم والنكال بهم ﴿فَيَقُولُوا﴾ إذ ذاك: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أى: يطلبون أن يُنظَرُوا ويمهلوا، والحال إنه قد فات الوقت وحل بهم العذاب الذى لا يرفع عنهم ولا يُفَتَّر ساعة.

---

(١) قوله «وهم أهل الصنف» لعل الصواب «وهم أهل بالنصف» أى: الإنصاف، كما يدل عليه سياق الكلام وسباقه.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ وهو العذاب الأليم العظيم الذى لا يستهان به ولا يحتقر ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فما الذى غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدرون بها على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يُعْجِزُوننا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ أى: أفرأيت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب وأمهلناهم عدة سنين يتمتعون فى الدنيا ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ من اللذات والشهوات، أى: أى شىء يغنى عنهم ويفيدهم وقد مضت اللذات وبطلت واضمحلت وأعقبت تبعًا لها وضوعف لهم العذاب عند طول المدة، القصد أن الحذر من وقوع العذاب واستحقاقهم له، وأما تعجيله وتأخيره فلا أهمية تحته ولا جدوى عنده.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كمال عدله فى إهلاك المكذبين وأنه ما أوقع بقرية هلاكًا وعذابًا إلا بعد أن يعذر منهم ويبعث فيهم النُّذُرَ بالآيات البينات فيدعونهم إلى الهدى وينهونهم عن الردى ويذكرونهم بآيات الله وينبهونهم على أيامه فى نعمه ونقمه ﴿ذِكْرَىٰ﴾ لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فنهلك القرى قبل أن ننذرهم ونأخذهم وهم غافلون عن النذر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ولما بيَّن تعالى كمال القرآن وجلالته نزهه عن كل صفة نقص وحماه، وقت نزوله وبعد نزوله، من شياطين الجن والإنس فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾ أى: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ قد: أُبعدوا عنه وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل أقوى الملائكة الذى لا يقدر شيطان أن يقربه أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

ينهى تعالى رسوله أصلاً وأمته أسوة له فى ذلك عن دعاء غير الله من جميع المخلوقين وأن الله موجب للعذاب الدائم والعقاب السرمدى لكونه شركًا ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ والنَّهىُ عن الشىء أمْرٌ بضده، فالنهى عن الشرك أمر بإخلاص العبادة له وحده لا شريك له محبة وخوفًا ورجاء وذلا وإنابة إليه فى جميع الأوقات، ولما أمره بما فيه كمال نفسه أمره بتكميل غيره فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ الذين هم أقرب الناس إليك وأحقهم بإحسانك الدينى والدنيوى وهذا لا ينافى أمره بإنذار جميع الناس كما إذا أُمِرَ الإنسان بعموم الإحسان ثم قيل له: «أحسن إلى قرابتك» فيكون هذا الخصوص دالا على التأكيد وزيادة الحث، فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهى فدعا سائر بطون قريش فعمم وخصص وذكرهم ووعظهم ولم يُبْقِ ﷺ من مقدوره شيئًا من نصحهم وهدايتهم إلا فعله فاهتدى من اهتدى وأعرض من أعرض ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بلين جانبك ولطف خطابك لهم وتوددك وتحببك إليهم وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ فهذه أخلاقه ﷺ أكمل الأخلاق التى يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد، فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله ويدَّعى اتباعه والاقتداء به أن يكون كَلا على المسلمين شَرِسَ الأخلاق شديد الشكيمة غليظ القلب فَظَّ القول فظيعه؟ وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب

هجرهم ومقتهم وأبغضهم لا لين عنده ولا أدب لديه ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة من المفاسد وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقرًا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم وقد رماه بالنفاق والمداهنة وذكر نفسه ورفعها وأُعْجِبَ بعمله، فهل يُعَدُّ هذا إلا من جهله وتزيين الشيطان وخدعه له، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ فى أمر من الأمور فلا تتبرأ منهم ولا تترك معاملتهم بخفض الجناح ولين الجانب بل تبرأ من عملهم فعظهم عليه وانصحهم وابذل قدرتك فى ردهم عنه وتوبتهم منه، وهذا الدفع احتراز وهم من يتوهم أن قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ للمؤمنين يقتضى الرضاء بجميع ما يصدر منهم ما داموا مؤمنين فدفع هذا والله أعلم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به الاعتماد على ربه والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى فى جلب المنافع ودفع المضار مع ثقته به وحسن ظنه بحصول مطلوبه فإنه عزيز رحيم بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده وبرحمته به يفعل ذلك، ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله والنزول فى منزل الإحسان فقال: ﴿الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ﴾ أى: يراك فى هذه العبادة العظيمة التى هى الصلاة وقت قيامك وتقلبك راكعًا وساجدًا، خصها بالذكر لفضلها وشرفها ولأن من استحضر فيها قرب ربه خشع وذل وأكملها وبتكميلها يكمل سائر عمله ويستعين بها على جميع أموره ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات على اختلافها وتشتتها وتنوعها ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذى أحاط بالظواهر والبواطن والغيب والشهادة، فاستحضار العبد برؤية الله له فى جميع أحواله وسمعه لكل ما ينطق به وعلمه بما ينطوى عليه قلبه من الهم والعزم والنيات يعينه على منزلة الإحسان.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

هذا جواب لمن قال من مكذبى الرسول: إن محمدًا ينزل عليه شيطان، وقول من قال: إنه شاعر فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أى: أخبركم الخبر الحقيقى الذى لا شك فيه ولا شبهة عن من تنزل الشياطين عليه أى: بصفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ أى: كذاب كثير القول للزور والإفك بالباطل ﴿أَثِيمٍ﴾ فى فعله كثير المعاصى هذا الذى تنزل عليه الشياطين وتناسب حاله حالهم ﴿يُلْقُونَ﴾ عليه ﴿السَّمْعَ﴾ الذى يسترقونه من السماء ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أى: أكثر ما يلقون إليه كذب فيصدق واحدة ويكذب معها مائة فيختلط الحق بالباطل ويضمحل الحق بسبب قلته وعدم علمه، فهذه صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين وهذه صفة وحيهم له، وأما محمد ﷺ فحاله مباينة لهذه الأحوال أعظم مباينة لأنه الصادق الأمين البار الراشد الذى جمع بين برِّ القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال من المحرم، والوحى الذى ينزل عليه من عند الله ينزل محروسًا محفوظًا مشتملاً على الصدق العظيم الذى لا شك فيه ولا ريب، فهل يستوى- يا أهل العقول- هديه وإفكهم؟ وهل يشتبهان إلا على مجنون لا يميز ولا يفرق بين الأشياء؟ فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه برَّأه أيضًا من الشعر فقال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ أى: هل أنبئكم أيضًا عن حالة الشعراء ووصفهم الثابت، فإنهم ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ عن طريق الهدى المقبلون على طريق الغى والردى، فهم فى أنفسهم غاوون وتجد أتباعهم كل غاو ضال فاسد ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ غوايتهم وشدة ضلالهم ﴿أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الشعر ﴿يَهِيمُونَ﴾ فتارة فى مدح

وتارة فى قدح وتارة يتغزلون وأخرى يسخرون ومرة يمرحون وآونة يحزنون، فلا يستقر لهم قرار ولا يثبتون على حال من الأحوال ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أى: هذا وصف الشعراء أنهم تخالف أقوالهم أفعالهم، فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق قلت: هذا أشد الناس غرامًا، وقلبه فارغ من ذاك، وإذا سمعته يمدح أو يذم قلت: هذا صدق، وهو كذب، وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها وتروك لم يتركها وكرم لم يحم حول ساحته وشجاعة يعلو بها على الفرسان وتراه أجبَنَ من كل جبان، هذا وصفهم، فانظر هل يطابق حالة الرسول محمد ﷺ الراشد البار الذى يتبعه كل راشد ومهتد الذى قد استقام على الهدى وجانب الردى ولم تتناقض أفعاله؟ فهو لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشىء إلا صدق ولا أمر بشىء إلا كان أول الفاعلين له ولا نهى عن شىء إلا كان أول التاركين له، فهل تناسب حاله حالة الشعراء ويقاربهم؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل والهمام الأفضل أبد الآبدين ودهر الداهرين الذى ليس بشاعر ولا ساحر ولا مجنون لا يليق به إلا كل الكمال، ولما وصف الشعراء بما وصفهم به استثنى منهم من آمن بالله ورسوله وعمل صالحًا وأكثر من ذكر الله وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة وآثار إيمانهم لاشتماله على مدح أهل الإيمان والانتصار من أهل الشرك والكفر والذَّبِّ عن دين الله وتبيين العلوم النافعة والحث على الأخلاق الفاضلة فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ إلى موقف وحساب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ولا حقًا إلا استوفاه، والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة الشعراء



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

ينبه تعالى عباده على عظمه القرآن ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم فقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أى: هى أعلى الآيات وأقوى البينات وأوضح الدلالات وأبينها على أجل المطالب وأفضل المقاصد وخير الأعمال وأزكى الأخلاق، آيات تدل على الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهى عن كل عمل وخيم وخلق ذميم، آيات بلغت فى وضوحها وبيانها للبصائر النيرة مبلغ الشمس للأبصار، آيات دلت على الإيمان ودعت للوصول إلى الإيمان وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة طبْقَ ما كان ويكون، آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الكاملة، آيات عرفتنا برسله وأوليائه ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين ولم يهتد بها جميع المعاندين صونًا لها عن من لا خير فيه ولا صلاح ولا زكاء فى قلبه، وإنما اهتدى بها من خصهم الله بالإيمان واستنارت بذلك قلوبهم وصفت سرائرهم، فلهذا قال: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم وتبين لهم ما ينبغى أن يسلكوه أو يتركوه وتبشرهم بثواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق، ربما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان فهل يقبل من كل أحد ادعى أنه مؤمن ذلك، أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق، فلذلك بيَّن تعالى صفة المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فرضها ونفلها فيأتون بأفعالها الظاهرة من أركانها وشروطها وواجباتها ومستحباتها، وأفعالها الباطنة وهو: الخشوع الذى هو روحها ولبها باستحضار قرب الله وتدبر ما يقول المصلى

ويفعله ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لمستحقيها ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أى: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين وهو: العلم التام والواصل إلى القلب الداعى إلى العمل، ويقينهم بالآخرة يقتضى كمال سعيهم لها وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب وهذا أصل كل خير ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ ويكذبون بها ويكذبون من جاء بإثباتها ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ حائرين مترددين مؤثرين سخط الله على رضاه قد انقلبت عليهم الحقائق فرأوا الباطل حقًا والحق باطلاً ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أى: أشده وأسوأه وأعظمه ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم بكونهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وخسروا الإيمان الذى دعتهم إليه الرسل ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أى: وإن هذا القرآن الذى ينزل عليك وتتلقنه ينزل من عند ﴿حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها ﴿عَلِيمٍ﴾ بأسرار الأحوال وبواطنها كظواهرها، وإذا كان من عند ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد من الذى هو أعلم بمصالحهم منهم؟.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ إلى آخر قصته، يعنى: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران وابتداء الوحى إليه واصطفاءه برسالته وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث فى مدين عدة سنين وسار بأهله من مدين متوجهًا إلى مصر فلما كان فى أثناء الطريق ضل وكان فى ليلة مظلمة باردة فقال لهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ أى: أبصرت نارًا من بعيد ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أى: تستدفئون، وهذا دليل على أنه تائه ومشتد برده هو وأهله ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى: ناداه الله تعالى وأخبره بأن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته أن جعله الله موضعًا لتكليم الله لموسى وإرساله ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على أن يُظن به نقص أو سوء بل هو الكامل فى وصفه وفعله ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له كما فى الآية الأخرى ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذى قهر جميع الأشياء وأذعنت له كل المخلوقات ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أمره وخلقه، ومن حكمته أن أرسل عبده موسى بن عمران الذى علم الله منه أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه، ومن عزته أن تعتمد عليه ولا تستوحش من انفرادك وكثرة أعدائك وجبروتهم فإن نواصيهم بيد الله وحركاتهم وسكونهم بتدبيره ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ وهو ذكر الحيات سريع الحركة ﴿وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ذعرًا من الحية التى رأى على مقتضى الطبائع البشرية، فقال الله له: ﴿يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ﴾ وقال فى الآية الأخرى ﴿أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ ﴿إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة فى قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسالته واصطفاهم لوحيه لا ينبغى لهم أن يخافوا غير الله خصوصًا عند زيادة القرب منه والحظوة بتكليمه ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ أى: فهذا الذى هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم وما تقدم له من الجرم، وأما المرسلون فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا من ظلم نفسه بمعاصى الله وتاب وأناب فبدل سيئاته حسنات ومعاصيه طاعات فإن الله غفور رحيم، فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته فإنه يغفر الذنوب جميعًا وهو أرحم

بعباده من الوالدة بولدها ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ لا برص ولا نقص بل بياض يبهر الناظرين شعاعه ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ أى: هاتان الآيتان انقلاب العصا حية تسعى وإخراج اليد من الجيب فتخرج بيضاء فى جملة تسع آيات تذهب بها وتدعو فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فسقوا بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله واستكبارهم فى الأرض بغير الحق، فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه ودعاهم إلى الله تعالى وأراهم الآيات ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ مضيئة تدل على الحق ويبصر بها كما تبصر الأبصار بالشمس ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر بل قالوا: ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر لكل أحد، وهذا من أعجب العجائب الآيات المبصرات والأنوار الساطعات تجعل من بين الخزعبلات وأظهر السحر، هل هذا إلا من أعظم المكابرة وأوقح السفسطة؟ ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أى: كفروا بآيات الله جاحدين لها ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أى: ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم وتيقنهم بصحتها ﴿ظُلْمًا﴾ منهم لحق ربهم ولأنفسهم ﴿وَعُلُوًّا﴾ على الحق وعلى العباد وعلى الانقياد للرسل ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أسوأ عاقبة دمرهم الله وأغرقهم فى البحر وأخزاهم وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ

أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

يذكر في هذا القرآن وينوه بمنته على داود وسليمان ابنه بالعلم الواسع الكثير بدليل التنكير كما قال تعالى: ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ** ﴿٧٨﴾ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ الآية ﴿ **وَقَالَا** ﴾ شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ فحمدا لله على جعلهما من المؤمنين أهل السعادة وأنهما كانا من خواصهم، ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء، وداود وسليمان من خواص الرسل وإن كانا دون درجة أولى العزم الخمسة، لكنهما من جملة الرسل الفضلاء الكرام الذين نوه الله بذكرهم ومدحهم فى كتابه مدحًا عظيمًا فحمدا لله على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد أن يكون شاكرًا لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم من ربه فلا يفخر بها ولا يعجب بها بل يرى أنها تستحق عليه شكرًا كثيرًا، فلما مدحهما مشتركين خص سليمان بما خصه به لكون الله أعطاه ملكًا عظيمًا وصار له من المجريات ما لم يكن لأبيه صلى الله عليهما وسلم فقال: ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ** ﴾ أى: ورث علمه ونبوته فانضم علم أبيه إلى علمه فلعله تعلم من أبيه ما عنده من العلم مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه، كما تقدم من قوله: ﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ** ﴾ وقال شكرًا لله وتبجحًا بإحسانه وتحدثًا بنعمته: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ** ﴾ فكان عليه الصلاة والسلام يفقه ما تقول وتتكلم به كما راجع الهدهد وراجعه، وكما فهم قول النملة، للنمل كما يأتى، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عليه السلام ﴿ **وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ أى: أعطانا الله من النعم ومن أسباب الملك ومن السلطنة والقهر ما لم يؤت أحدًا من الآدميين، ولهذا دعا ربه فقال: ﴿ **رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي** ﴾ فسخر الله له الشياطين يعملون له كل ما شاء من الأعمال التى يعجز عنها غيرهم وسخر له الريح غدوها شهر ورواحها شهر ﴿ **إِنَّ هَٰذَا** ﴾ الذى أعطانا الله وفضلنا واختصنا به ﴿ **لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ** ﴾ الواضح الجلى، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى ﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ** ﴾ أى: جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة من بنى آدم ومن الجن والشياطين ومن الطيور فهم يوزعون يدبرون ويرد أولهم على آخرهم وينظمون غاية التنظيم فى سيرهم ونزولهم وحلهم وترحالهم، قد استعد لذلك وأعد له عدته، وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره لا تقدر على عصيانه ولا تتمرد عليه كما قال تعالى: ﴿ **هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ** ﴾ أى أعط بغير حساب، فسار بهذه الجنود الضخمة فى بعض أسفاره ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ** ﴾ منبهة لرفقتها وبنى جنسها: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ فنصحت هذه النملة وأسمعت النمل إما بنفسها ويكون الله قد أعطى النمل أسماعًا خارقة للعادة، لأن التنبيه للنمل الذى قد ملأ الوادى بصوت نملة واحدة من أعجب العجائب، وإما بأنها أخبرت مَن حولها من النمل ثم سرى الخبر من بعضهن لبعض حتى بلغ الجميع وأمرتهن بالحذر، والطريق فى ذلك وهو دخول مساكنهن، وعرفت حالة سليمان وجنوده وعظمة سلطانه واعتذرت عنهم أنهم إن حطموكم فليس عن قصد منهم ولا شعور، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه ﴿ **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا** ﴾ إعجابًا منه بنصح أمتها ونصحها وحسن تعبيرها، وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الأدب الكامل والتعجب فى موضعه وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم كما كان الرسول ﷺ جُلُّ ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب، وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه يدل على شراسة الخلق والجبروت والرسل منزهون عن ذلك،

وقال شاكرًا لله الذى أوصله إلى هذه الحال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أى: ألهمنى ووفقنى ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد، فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته الدينية والدنيوية عليه وعلى والديه ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أى: ووفقنى أن أعمل صالحًا ترضاه لكونه موافقًا لأمرك مخلصًا فيه سالمًا من المفسدات والمنقصات ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ التى منها الجنة ﴿فِي﴾ جملة ﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ فإن الرحمة مجعولة للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنازلهم، فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماعه خطاب النملة ونداءها، ثم ذكر نموذجًا آخر من مخاطبته للطير فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر وهو: تفقد الطيور والنظر هل هى موجودة كلها أم مفقود منها شىء؟ وهذا هو المعنى للآية، ولم يصنع شيئًا من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منه ليدله على بعد الماء وقربه كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل بل الدليل العقلى واللفظى دال على بطلانه، أما العقلى فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات أن هذه الحيوانات كلها ليس منها شىء يبصر هذا البصر الخارق للعادة وينظر الماء تحت الأرض الكثيفة ولو كان كذلك لذكره الله لأنه من أكبر الآيات، وأما الدليل اللفظى فلو أريد هذا المعنى لقال: «وطلب الهدهد لينظر له الماء فلما فقده قال ما قال» أو «فتش عن الهدهد أو بحث عنه» ونحو ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التى عينها لها، وأيضًا فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء ولو بلغ فى العمق ما بلغ، وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف ـ مع ذلك ـ يحتاج إلى الهدهد؟!!. وهذه التفاسير التى توجد وتشتهر بها أقوال لا يعرف غيرها تنقل هذه الأقوال عن بنى إسرائيل مجردة ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعانى الصحيحة وتطبيقها على الأقوال ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مسلمًا للمتقدم حتى يظن أنها الحق فيقع من الأقوال الردية فى التفاسير ما يقع، واللبيب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربى المبين الذى خاطب الله به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكر فى معانيه وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعانى التى لا تجهلها العرب العرباء وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ ردها إلى هذا الأصل فإن وافقه قبلها لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفته لفظًا ومعنًى أو لفظًا أو معنًى ردها وجزم ببطلانها لأن عنده أصلاً معلومًا مناقضًا لها وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته، والشاهد أن تفقد سليمان عليه السلام للطير وفقده الهدهد يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه وكمال فطنته حتى تفقد هذا الطائر الصغير ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أى: هل عدم رؤيتى إياه لقلة فطنتى به لكونه خفيًا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائبًا من غير إذنى ولا أمرى؟ فحينئذ تغيظ عليه وتوعده فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون القتل ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أى: حجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال ورعه وإنصافه أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح فلذلك استثناه لورعه وفطنته ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ثم جاء، وهذا يدل على هيبة جنوده منه وشدة ائتمارهم لأمره حتى إن هذا الهدهد الذى خلفه العذر الواضح لم يقدر على التخلف زمنًا كثيرًا ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ عندى من العلم علم ما أحطت به على علمك الواسع وعلو درجتك فيه ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ القبيلة المعروفة فى اليمن ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أى: خبر متيقن، ثم فسر هذا النبأ فقال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أى: تملك قبيلة سبأ وهى امرأة ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يؤتاه الملوك من الأموال والسلاح والجنود والحصون والقلاع ونحو ذلك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أى: كرسى ملكها الذى تجلس عليه عرش هائل، وعظم العروش تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: هم مشركون يعبدون الشمس ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فرأوا ما هم عليه هم الحق ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ لأن الذى يرى أن الذى عليه حق لا

مطمع فى هدايته حتى تتغير عقيدته، ثم قال: ﴿ أَلاَّ ﴾ أى: هلا ﴿ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: يعلم الخفى الخبىء فى أقطار السموات وأنحاء الأرض من صغار المخلوقات وبذور النباتات وخفايا الصدور، ويخرج خبء الأرض والسماء بإنزال المطر وإنبات النباتات، ويخرج خبء الأرض عند النفخ فى الصور وإخراج الأموات من الأرض ليجازيهم بأعمالهم ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أى: لا تنبغى العبادة والإنابة والذل والحب إلا له لأنه المألوه لما له من الصفات الكاملة والنعم الموجبة لذلك ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ الذى هو سقف المخلوقات ووسع الأرض والسموات، فهذا الملك عظيم السلطان كبير الشأن هو الذى يذل له ويخضع ويسجد له ويركع، فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم وتعجب سليمان كيف خفى عليه، وقال مثبتًا لكمال عقله ورزانته: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِى هَذَا ﴾ وسيأتى نصه ﴿ فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى: استأخر غير بعيد ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ إليك وما يتراجعون به، فذهب به فألقاه عليها فقالت لقومها: ﴿ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ أى: جليل المقدار من أكبر ملوك الأرض، ثم بينت مضمونه فقالت: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ أى: لا تكونوا فوقى بل اخضعوا تحت سلطانى وانقادوا لأوامرى وأقبلوا إلىَّ مسلمين، وهذا فى غاية الوجازة مع البيان التام، فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه والبقاء على حالهم التى هم عليها والانقياد لأمره والدخول تحت طاعته ومجيئهم إليه ودعوتهم إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة وتقديم الاسم فى أول عنوان الكتاب، فمن حزمها وعقلها أن جمعت كبار دولتها ورجال مملكتها وقالت: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى ﴾ أى: أخبرونى ماذا نجيبه به؟ وهل ندخل تحت طاعته وننقاد؟ أم ماذا نفعل؟ ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ أى: ما كنت مستبدة بأمر دون رأيكم ومشورتكم ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أى: إن رددت عليه قوله ولم تدخلى فى طاعته فإنا أقوياء على القتال، فكأنهم مالوا إلى هذا الرأى الذى لو تم لكان فيه دمارهم، ولكنهم أيضًا لم يستقروا عليه بل قالوا: ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ أى: الرأى ما رأيت، لعلمهم بعقلها وحزمها ونصحها لهم ﴿ فَانظُرِى ﴾ نظر فكر وتدبر ﴿ مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ فقالت لهم، مقنعة لهم بالعدول عن رأيهم ومبينة سوء مغبة القتال: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ قتلاً وأسرًا ونهبًا لأموالها وتخريبًا لديارها ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ أى: جعل الرؤساء السادة أشراف الناس من الأرذلين، أى: فهذا رأى غير سديد، وأيضًا فلست بمطيعة له قبل الاحتيال وإرسال من يكشف عن أحواله ويتدبرها وحينئذ نكون على بصيرة من أمرنا، فقالت: ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ منه، هل يستمر على رأيه وقوله؟ أم تخدعه الهدية وتتبدل فكرته، وكيف أحواله وجنوده؟ فأرسلت إليه بهدية مع رسل من عقلاء قومها وذوى الرأى منهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ ﴾ أى: جاءه الرسل بالهدية ﴿ قَالَ ﴾ منكرًا عليهم ومتغيظًا على عدم إجابتهم: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِىَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾ فليست تقع عندى موقعًا ولا أفرح بها قد أغنانى الله عنها وأكثر علىَّ النعم ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ لحبكم للدنيا وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطانى الله، ثم أوصى الرسول من غير كتاب لما رأى من عقله وأنه سينقل كلامه على وجهه فقال: ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: بهديتك ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم ﴾ أى: لا طاقة لهم ﴿ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ فرجع إليهم وأبلغهم ما قال سليمان وتجهزوا للمسير إلى سليمان وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه فقال لمن حضره من الجن والإنس ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ أى لأجل أن نتصرف فيه قبل أن يسلموا فتكون أموالهم محترمة ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ والعفريت هو القوى النشيط جدًا ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ والظاهر أن سليمان إذ ذاك فى الشام فيكون بينه وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر: شهران ذهابًا وشهران إيابًا، ومع ذلك يقول هذا العفريت: أنا ألتزم بالمجىء به على كبره وثقله وبعده قبل أن تقوم من مجلسك الذى أنت فيه، والمعتاد من المجالس الطويلة أن تكون معظم الضحى نحو ثلث يوم، هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك أو أكثر، وهذا الملك العظيم الذى عند آحاد رعيته هذه القوة والقدرة وأبلغ من ذلك أن ﴿ قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾: قال المفسرون: هو رجل

عالم صالـح عند سليمان يقال له «آصف بن برخـيا» كان يعرف اسم الله الأعظم الـذى إذا دعا الله به أجاب وإذا سأل به أعطى[1]: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ بأن يدعو الله بذلك الاسم فيحضر حالاً وأنه دعا الله فحضر، فالله أعلم هل هذا هو المراد أم أن عنده علمًا من الكتاب يقـتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد؟ ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ حمد الله تعالى على إقداره وملكه وتيسير الأمور له ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أى: ليختبرنى بذلك، فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته كما هو دأب الملوك الجاهلين بل علم أن ذلك اختبار من ربه فخـاف أن لا يقوم بشكر هذه النعـمة، ثم بيَّن أن هذا الشكر لا ينتـفع الله به وإنما يرجع نفعه إلى صاحـبه فقال: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ غنى عن أعمـاله كريم كثيـر الخير يعم به الشاكـر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمـزيد منها وكفرها داع لزوالهـا، ثم قال لمن عنده ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أى: غيروه بزيادة ونقص، ونحن فى ذلك ﴿نَنظُرْ﴾ مختبرين لعقلها ﴿أَتَهْتَدِي﴾ للصواب ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ قادمة على سليمان عرض عليها عرشها وكـان عهدها به قد خلفته فى بلدها، و ﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أى: أنه استقـر عندنا أن لك عرشًا عظيمًا فهل هو كهذا العرش الذى أحضرناه لك؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها لم تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتنكيـر، ولم تنف أنه هو لأنها عرفتـه، فأتت بلفظ محتـمل للأمرين صادق على الحـالين، فقال سليمان متعجبًا من هدايتها وعقلها وشاكرًا لله أن أعطاه أعظم منها ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أى: الهداية والعقل والحزم من قبل هذه الملكة ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وهى الهداية النافعة الأصلية، ويحتمل أن هذا من قول ملكه سبأ «وأوتينا العلم عن ملك سليـمان وسلطانه فزيادة اقتـداره من قبل هذه الحالة التى رأينا فـيها قدرته على إحـضار العرش من المسافة البعيدة فأذعنا له وجئنا مسلمين له خاضعين لسلطانه» قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: عن الإسلام وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعـرف الحق من الباطل ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين والعادة المستمرة بأمـر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم من أندر ما يكون، فلهذا لا يستـغرب بقاؤها على الكفر، ثم إن سليمـان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهر العـقول فأمرها أن تدخل الصـرح وهو المجلس المرتفع المـتسع وكان مجلسًا من قوارير تجرى تحته الأنهار ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ماء، لأن القوارير شفافة يرى الماء الذى تحتها كأنه بذاته يجرى ليس دونه شيء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه، وهذا أيضًا من عقلها أدبها، فإنهـا لم تمتنع من الدخـول للمحل الذى أمرت بدخـوله لعلمهـا أنها لم تستـدع إلا للإكرام وأن ملك سليـمان وتنظيمه قـد بناه على الحكمة ولم يكن فى قلبها أدنى شك من حـالة السوء بعدما رأت ما رأت، فلما اسـتعدت للخوض قيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أى: مجلس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ فلا حاجة منك لكشف الساقين، فحينئذ لما وصلت إلى سليمان وشاهدت ما شاهدت وعلمت نبـوته ورسالته ثابت ورجعت عن كفرها، و ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا ما قصـه الله علينا من قصة ملكة سبأ ومـا جرى لها مع سليمـان، وما عدا ذلك من الفـروع المولدة والقصص الإسـرائيلية فإنه لا يتـعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التى يتوقف الجزم بها على الدليل المعلوم عن المعصوم، والمنقولات فى هذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذلك، فالحزم كل الحزم الإعراض عنها وعدم إدخالها فى التفاسير، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ

---

(١) نقل الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالين بعد أن استعرض الأقوال فى الذى عنده علم من الكتاب، أنه سليمان عليه السلام نفسه.

فتكون هذه الرواية هى الراجحة على غيرها، وذلك ليبين سليمان للملأ أن معجزة الأنبياء فـوق خوارق العادات التى تظهر على أيدى الرجال الصالحين، فلذلك عول المحققون على هذه الرواية.

طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود - القبيلة المعروفة - أخاهم فى النسب صالحًا وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده ويتركوا الأنداد والأوثان ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ منهم المؤمن ومنهم الكافر وهم معظمهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أى: لم تبادرون فعل السيئات وتحرصون عليها قبل فعل الحسنات التى بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟ والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب لفعل السيئات؟ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم وتدعوا أن يغفر لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فإن رحمة الله قريب من المحسنين والتائب من الذنوب هو من المحسنين ﴿قَالُوا﴾ لنبيهم صالح مكذبين ومعارضين: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ زعموا قبحهم الله أنهم لم يروا على وجه صالح خيرًا وأنه هو ومن معه من المؤمنين صاروا سببًا لمنع مطالبهم الدنيوية، فقال لهم صالح: ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أى: ما أصابكم الله بذنوبكم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بالسراء والضراء والخير والشر لينظر هل تقلعون وتتوبون أم لا؟ فهذا دأبهم فى تكذيب نبيهم وما قابلوه به ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ التى فيها صالح الجامعة لمعظم قومه ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أى: وصفهم الإفساد فى الأرض ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح قد استعدوا لمعاداة صالح والطعن فى دينه ودعوة قومهم إلى ذلك كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة حتى إنهم من عداوتهم ﴿تَقَاسَمُوا﴾ فيما بينهم كل واحد أقسم للآخر ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أى: لنأتينهم ليلاً هو وأهله فلنقتلنهم ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ إذا قام علينا وادّعى علينا أنَّا قتلناهم ننكر ذلك وننفيه ونحلف ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فتواطئوا على ذلك ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله على وجه الخفية حتى من قومهم خوفًا من أوليائه ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بنصر نبينا صالح عليه السلام وتيسير أمره وإهلاك قومه المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم أم انتقض عليهم الأمر، ولهذا قال: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أهلكناهم واستأصلنا شأفتهم فجاءتهم صيحة عذاب فأهلكوا عن آخرهم ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ قد تهدمت جدرانها على سقوفها وأوحشت من ساكنيها وعطلت من نازليها ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أى: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله وبغيهم فى الأرض ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق ويتدبرون وقائع الله فى أوليائه وأعدائه فيعتبرون بذلك ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز، ولهذا قال: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أى: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصى ويعملون بطاعته وطاعة رسله.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

أى: واذكر عبدنا ورسولنا لوطًا ونبأه الفاضل حين قال لقومه داعيًا إلى الله وناصحًا: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾

أى: الفعلة الشنعاء التى تستفحشها العقول والفطر وتستقبحها الشرائع ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ذلك وتعلمون قبحه، فعاندتم وارتكبتم ذلك ظلمًا منكم وجرأة على الله، ثم فسر تلك الفاحشة فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أى: كيف توصلتم إلى هذه الحال فصارت شهوتكم للرجال وأدبارهم - محل الغائط والنَّجو والخبث - وتركتم ما خلق الله لكم من النساء من المحال الطيبة التي جبلت النفوس على الميل إليها، وأنتم انقلب عليكم الأمر فاستحسنتم القبيح واستقبحتم الحسن ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ متجاوزون لحدود الله متجرئون على محارمه ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ قبول ولا انزجار ولا تذكر وادكار، إنما كان جوابهم المعارضة والمناقضة والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين بالإجلاء عن وطنه والتشريد عن بلده ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ فكأنه قيل: ما نقمتم منهم وما ذنبهم الذى أوجب لهم الإخراج، فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أى: يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور، فقبحهم الله جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم نبيهم وفيما وعظهم به حتى وصلوا إلى إخراجه، والبلاء موكلٌ بالمنطق فهم قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ومفهوم هذا الكلام «وأنتم متلوثون بالخبث والقذارة المقتضى لنزول العقوبة بقريتكم ونجاة من خرج منها» ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وذلك لما جاءته الملائكة فى صورة أضياف وسمع بهم قومه فجاءوا إليه يريدونهم بالشر وأغلق الباب دونهم واشتد الأمر عليه، ثم أخبرته الملائكة عن جلية الحال وأنهم جاءوا لاستنقاذه من بين أظهرهم وأنهم يريدون إهلاكهم وأن موعدهم الصبح، وأمروه أن يسرى بأهله ليلاً إلا امرأته فإنه سيصيبها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلاً فنجوا وصبَّحهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم وجعل أعلاها أسفلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ أى: بئس المطر مطرهم وبئس العذاب عذابهم لأنهم أنذروا وخوفوا فلم ينزجروا ولم يرتدعوا فأحل الله بهم عقابه الشديد.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أى: قل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذى يستحق كمال الحمد والمدح والثناء لكمال أوصافه وجميل معروفه وهباته وعدله وحكمته فى عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين، وسلِّم أيضًا على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين من الأنبياء والمرسلين وصفوة الله رب العالمين، وذلك لرفع ذكرهم وتنويهًا بقدرهم وسلامتهم من الشر والأدناس وسلامة ما قالوه فى ربهم من النقائص والعيوب ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام قد تقرر وعرف أى: الله الرب العظيم كامل الأوصاف عظيم الألطاف خير أم الأصنام والأوثان التى عبدوها معه وهى ناقصة من كل وجه لا تنفع ولا تضر ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير؟ فالله خير مما يشركون، ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتبين أنه الإله المعبود وأن عبادته هى الحق وعبادة ما سواه هى الباطل فقال:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أى: أمن خلق السموات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والملائكة، والأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أى: لأجلكم ﴿مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أى: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أى: حسن منظر، من كثرة أشجارها وتنوعها وحسن ثمارها ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ لولا منَّة الله عليكم بإنزال المطر ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ فعل هذه الأفعال حتى يعبد معه ويشرك به؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ به غيره ويسوون به سواه مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوى والسفلى ومنزل الرزق.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

أى: هل الأصنام والأوثان الناقصة من كل وجه التى لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، خير؟ أم الله الذى ﴿جعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى والحرث والبناء والذهاب والإياب ﴿وجَعَلَ خلالَهَا أَنْهَارًا﴾ أى: جعل فى خلال الأرض أنهاراً ينتفع بها العباد فى زروعهم وأشجارهم وشربهم وشرب مواشيهم ﴿وجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أى: جبالاً ترسيها وتثبتها لئلا تميد وتكون أوتاداً لها لئلا تضطرب ﴿وجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ البحر المالح والبحر العذب ﴿حَاجِزًا﴾ يمنع من اختلاطهما فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض، جعل مجرى الأنهار فى الأرض مبعدة عن البحار فتحصل منها مقاصدها ومصالحها ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ فعل ذلك حتى يعدل به الله[1] ويشرك به معه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون بالله تقليداً لرؤسائهم وإلا فلو علموا حق العلم لم يشركوا به شيئاً.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

أى: هل يجيب المضطر الذى أقلقته الكروب وتعسر عليه المطلوب واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء أى: البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض يمكنكم منها ويمد لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم ويأتى بقوم بعدكم ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أى: قليل تذكركم وتدبركم للأمور التى إذا تذكرتموها ادكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم فلذلك ما ارعويتم ولا اهتديتم.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

أى: من هو الذى يهديكم حين تكونون فى ظلمات البر والبحر حيث لا دليل ولا معلم يرى ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم وتيسيره الطريق وجعل ما جعل لكم من الأسباب التى تهتدون بها ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أى: بين يدى المطر فيرسلها فتثير السحاب ثم تؤلفه ثم تجمعه ثم تلقحه ثم تدره فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده الذى انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره وعبدتم سواه؟ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعاظم وتنزه وتقدس عن شركهم وتسويتهم به غيره.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

أى: من هو الذى يبدأ الخلق وينشئ المخلوقات ويبتدى خلقها ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض بالمطر والنبات؟ ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك ويقدر عليه؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أى: حجتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإلا فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له فى شىء من ذلك فذلك مجرد دعوى صدقتموها بلا برهان وإلا فاعرفوا أنكم مبطلون لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات وأنه المستحق أن يصرف له جميع أنواع العبادات.

---

(١) قوله «حتى يعدل به الله» يريد «حتى يسوى بالله غيره» أو «حتى يسوى الله بغيره» ولو قال: «حتى يعدل بالله غيره» لكان هو الصواب.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السموات والأرض كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وكقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ إلى آخر السورة، فهذه الغيوب ونحوها اختص الله بعلمها فلم يعلمها ملك مقرب ولا نبى مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا فهو الذى لا تنبغي العبادة إلا له ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه فقال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يدرون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: متى البعث والنشور والقيام من القبور أي: فلذلك لم يستعدوا ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ أي: بل ضعف ولم يكن يقينًا ولا علمًا واصلاً إلى القلب وهذا أقل وأدنى درجة للعلم ضعفه ووهاؤه بل ليس عندهم علم قوى ولا ضعيف وإنما ﴿هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أى: من الآخرة، والشك زال به العلم لأن العلم بجميع مراتبه لا يجامع الشك ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا﴾ أى من الآخرة ﴿عَمُونَ﴾ قد عميت عنها بصائرها ولم يكن في قلوبهم علم من وقوعها ولا احتمال بل أنكروها واستبعدوها، ولهذا قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ أى: هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرتهم الضعيفة ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾ أى: البعث ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أى: فلم يجئنا ولا رأينا منه شيئًا ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أى: قصصهم وأخبارهم التى تقطع بها الأوقات وليس لها أصل ولا صدق فيها، فانتقل فى الإخبار عن أحوال المكذبين بالإخبار، كأنهم لا يدرون متى وقت الآخرة ثم الإخبار بضعف علمهم فيها ثم الإخبار بأنه شك ثم الإخبار بأنهم عُمْيٌ ثم الإخبار بإنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه، أى: وبسبب هذه الأحوال ترحَّل خوف الآخرة من قلوبهم فأقدموا على معاصى الله وسهل عليهم تكذيب الحق والتصديق بالباطل واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات فخسروا دنياهم وأخراهم، نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فلا تجدون مجرمًا قد استمر على إجرامه إلا وعاقبته شرُّ عاقبة، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

أى: لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين وعدم إيمانهم فإنك لو علمت ما فيهم من الشر وأنهم لا يصلحون للخير لم تأس ولم تحزن ولا يضيق صدرك ولا تقلق نفسك بمكرهم فإن مكرهم ستعود عاقبته عليهم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ويقول المكذبون بالمعاد وبالحق الذى جاء به الرسول مستعجلين للعذاب: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته قد أجَّله الله بأجله وقدَّره بقدره، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم ولكن مع هذا قال تعالى محذرًا لهم وقوع ما يستعجلون: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أى: قرب منكم وأوشك أن يقع بكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

ينبه عباده على سعة جوده وكثرة أفضاله ويحثهم على شكرها ومع هذا فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر واشتغلوا بالنعم عن المنعم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ أى: تنطوى عليه ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فليحذروا من عالم السرائر والظواهر وليراقبوه ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خفية وسر من أسرار العالم العلوى والسفلى ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث جَلى أو خفىٍّ إلا وهو مطابق لما كتب فى اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾

وهذا خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة وتفضيله، وتوضيحه: لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بنى إسرائيل قصَّه هذا القرآن قصًا زال به الإشكال واستبان به الصواب من المسائل المختلف فيها وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح وإزالة كل خلاف وفصل كل مشكل كان أعظم نعم الله على العباد ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر، ولهذا بيَّن أن نفعه ونوره وهداه مختص بالمؤمنين فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى﴾ من الضلالة والغىِّ والشُّبه ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ تثلج له صدورهم وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به المصدقين له المتلقين له بالقبول المقبلين على تدبره المتفكرين فى معانيه، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٧٨﴾

أى إن الله تعالى سيفصل بين المختصمين وسيحكم بين المختلفين بحكمه العدل وقضائه القسط فالأمور وإن حصل فيها اشتباه فى الدنيا بين المختلفين لخفاء الدليل ولبعض المقاصد فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع حين يحكم الله فيها ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى قهر الخلائق فأذعنوا له ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأقوال المختلفين وعن ماذا صدرت وعن غاياتها ومقاصدها وسيجازى كُلا بما عمله فيه.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝٧٩ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ۝٨١﴾

أى: اعتمد على ربك فى جلب المصالح ودفع المضار وفى تبليغ الرسالة وإقامة الدين وجهاد الأعداء ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ الواضح والذى على الحق يدعو إليه ويقوم بنصرته أحق من غيره بالتوكل فإنه يسعى إلى أمر مجزوم به معلوم صدقه لا شك فيه ولا مرية، وأيضًا فهو حق فى غاية البيان لا خفاء به ولا اشتباه، وإذا قمت بما حملت وتوكلت على الله فى ذلك فلا يضرك ضلال من ضل وليس عليك هداهم فلهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ أى حين تدعوهم وتناديهم وخصوصًا ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإنه يكون أبلغ فى عدم إسماعهم ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أى: هؤلاء الذين ينقادون لك هم الذين يؤمنون بآيات الله وينقادون لها بأعمالهم واستسلامهم كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾

أى: إذا وقع على الناس القول الذى حتَّمه الله وفرض وقته ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ خارجة ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أو دابة من دواب الأرض ليست من السماء وهذه الدابة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أى: تكلم العباد ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أى: لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله، فإظهار الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون، وهذه الدابة هى الدابة المشهورة التى تخرج فى آخر الزمان وتكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث، لم يذكر الله ورسوله كيفية هذا الدابة وإنما ذكر أثرها والمقصود منها وأنها

من آيات الله تكلم الناس كلامًا خارقًا للعادة حين يقع القول على الناس وحين يمترون بآيات الله فتكون حجة وبرهانًا للمؤمنين وحجة على المعاندين.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة وأن الله يجمعهم ويحشر من كل أمة من الأمم فوجًا وطائفة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو﴾ وحضروا قال لهم موبخًا ومقرعًا: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا﴾ العلم، أي: الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق وأن لا تتكلموا إلا بعلم، فكيف كذبتم بأمر لم تحيطوا به علمًا؟ ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يسألهم عن علمهم وعن عملهم فيجد علمهم تكذيبًا بالحق وعملهم لغير الله أو على غير سنة رسولهم ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه وتوجهت عليهم الحجة ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ لأنه لا حجة لهم.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

أي: ألم يشاهدوا الآية العظيمة والنعمة الجسيمة وهو تسخير الله لهم الليل والنهار، هذا بظلمته ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب ويستعدوا للعمل، وهذا بضيائه لينتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بكمال وحدانية الله وسبوغ نعمته.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يخوف الله عباده ما أمامهم من يوم القيامة وما فيه من المحن والكروب ومزعجات القلوب فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ﴾ بسبب النفخ فيه ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: انزعجوا وارتاعوا وماج بعضهم ببعض خوفًا مما هو مقدمة له ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن أكرمه الله وثبته وحفظه من الفزع ﴿وَكُلٌّ﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ صاغرين ذليلين، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ ففي ذلك اليوم يتساوى الرؤساء والمرءوسون في الذل والخضوع لمالك الملك، ومن هوله أنك ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ لا تفقد شيئًا منها وتظنها باقية على الحال المعهودة وهي قد بلغت منها الشدائد والأهوال كل مبلغ وقد تفتتت ثم تضمحل وتكون هباء منبثًا، ولهذا قال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ من خفتها وشدة ذلك الخوف وذلك ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، ثم بين كيفية جزائه فقال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ يعم جنس الحسنات قولية أو فعلية أو قلبية ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ هذا أقل التفضيل ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ أي: من الأمر الذي فزع الخلق لأجله آمنون وإن كانوا يفزعون معهم ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ اسم جنس يشمل كل سيئة ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: ألقوا في النار على وجوههم ويقال لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

أى قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ أى: مكة المكرمة ﴿الَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وأنعم على أهلها فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول ﴿وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ﴾ من العلويات والسفليات، أتى به لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: أبادر إلى الإسلام، وقد فعل ﷺ فإنه أول هذه الأمة إسلامًا وأعظمها استسلامًا ﴿وَ﴾ أمرت أيضًا ﴿أَنْ أَتْلُوَ﴾ عليكم ﴿الْقُرْآنَ﴾ لتهتدوا به وتقتدوا وتعلموا ألفاظه ومعانيه فهذا الذي عليَّ وقد أديته ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ﴾ نفعه يعود عليه وثمرته عائدة إليه ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وليس بيدى من الهداية شيء ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذى له الحمد فى الأولى والآخرة ومن جميع الخلق خصوصًا أهل الاختصاص والصفوة من عباده، فإن الذى وقع والذى ينبغى أن يقع منهم من الحمد والثناء على ربهم أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم وكمال قربهم منه وكثرة خيراته عليهم ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ معرفة تدلكم على الحق والباطل فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به فى الظلمات ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال وسيحكم بينكم حكمًا تحمدونه عليه ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانته وتيسيره



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٤ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ

بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ
أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ
رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي
سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ
تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى
الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي
يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ
إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ
وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ
امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا
نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ
﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ
الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ
بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ
أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ
﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ
﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ
﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ
﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا
لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي
هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا
الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ
مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ

مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

﴿**تلْكَ**﴾ الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم ﴿**آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ لكل أمر يحتاج إليه العباد من معرفة ربهم ومعرفة حقوقه ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين وجلاّها للعباد ووضحها، ومن جملة ما أبان قصة موسى وفرعون فإنه أبداها وأعادها فى عدة مواضع وبسطها فى هذا الموضع فقال: ﴿**نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ**﴾ فإن نبأهما غريب وخبرهما عجيب ﴿**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ فإليهم يساق الخطاب ويوجه الكلام حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر ويزدادون به إيمانًا ويقينًا وخيرًا إلى خيرهم، وأما من عداهم فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، وصانه الله عنهم وجعل بينهم وبينه حجابًا أن يفقهوه، فأول هذه القصة ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ**﴾ فى ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته فصار من أهل العلو فيها لا من الأعلين فيها ﴿**وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا**﴾ أى: طوائف متفرقة يتصرف فيها بشهوته وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته ﴿**يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ**﴾ وتلك الطائفة هم: بنو إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين الذى ينبغى له أن يكرمهم ويجلهم، ولكنه استضعفهم بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أراده فيهم فصار لا يبالى بهم ولا يهتم بشأنهم وبلغت به الحال إلى أنه ﴿**يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ**﴾ خوفًا من أن يكثروا فيغمروه فى بلاده ويصير لهم الملك ﴿**إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ الذين لا قصد لهم فى صلاح الدين ولا صلاح الدنيا، وهذا من إفساده فى الأرض ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف ونهلك من قاومهم ونخذل من ناوأهم ﴿**وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً**﴾ فى الدين، وذلك لا يحصل مع استضعاف بل لا بد من تمكين فى الأرض وقدرة تامة ﴿**وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ للأرض الذين لهم العاقبة فى الدنيا قبل الآخرة ﴿**وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾ فهذه الأمور كلها قد تعلقت بها إرادة الله وجرت بها مشيئته ﴿**وَ**﴾ كذلك نريد أن ﴿**نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ**﴾ وزيره ﴿**وَجُنُودَهُمَا**﴾ الذين بهم[1] صالوا وجالوا وعلوا وبغوا ﴿**مِنْهُم**﴾ أى: من هذه الطائفة المستضعفة ﴿**مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾ من إخراجهم من ديارهم ولذلك كانوا يسعون فى قمعهم وكسر شوكتهم وتقتيل أبنائهم الذين هم محل ذلك، فكل هذا قد أراده الله وإذا أراد أمرًا سهل أسبابه ونهج طرقه وهذا الأمر كذلك، فإنه قدر وأجرى من الأسباب ـ التى لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه ـ ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود، فأول ذلك لما أوجد الله رسوله موسى الذى جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلى على يديه وبسببه وكان فى وقت تلك المخافة العظيمة التى يذبحون بها الأبناء أوحى إلى أمه أن ترضعه ويمكث عندها ﴿**فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ**﴾

---

(١) فى الأصل المطبوع «التى ... إلخ» والصواب أن يقال «الذين بهم صالوا ... إلخ» لأن ضمير جمع التكسير لا يؤنث إلا لما لا يعقل، وأما جمع تكسير العقلاء فيعود الضمير إليهم مذكرًا، كما قال تعالى: ﴿**رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ**﴾ الآية، ولم يقل «لا تلهيها» كما فعل المؤلف هنا ولذلك أصلحنا العبارة هكذا «الذين بهم صالوا».

بأن أحسست أحدًا تخافين عليه منه أن يوصله إليهم ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أى نيل مصر فى وسط تابوت مغلق ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فبشرها بأنه سيرده إليها وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم ويجعله الله رسولاً، وهذا من أعظم البشائر الجليلة، وتقديم هذه البشارة لأم موسى ليطمئن قلبها ويسكن روعها فكأنها خافت عليه وفعلت ما أمرت به ألقته في اليم وساقه الله تعالى ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ فصار من لقطهم وهم الذين باشروا وجدانه ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أى: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط أن يكون عدوًا لهم وحزنًا يحزنهم بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذى خافوا منه من بنى إسرائيل قيض الله أن يكون زعيمهم يتربى تحت أيديهم وعلى نظرهم وبكفالتهم، وعند التدبر والتأمل تجد فى طى ذلك من المصالح لبنى إسرائيل ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم ومنع كثير من التعديات قبل رسالته بحيث إنه صار من كبار المملكة وبالطبع لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف الذى بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه أن صار بعض أفراده ينازع ذلك الشعب القاهر العالى فى الأرض: كما سيأتى بيانه، وهذا مقدمة للظهور، فإن الله تعالى من سنته الجارية أن جعل الأمور تمشى على التدريج شيئًا فشيئًا ولا تأتى دفعة واحدة، وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أى: مجرمين فأردنا أن نعاقبهم على إجرامهم ونكيد لهم جزاء على مكرهم وكيدهم، فلما التقطه آل فرعون حنَّن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة «آسية بنت مزاحم» ﴿وَقَالَتِ﴾: هذا الولد ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ أى أبقه لنا لتقرَّ به أعيننا ونسر به فى حياتنا ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أى: لا يخلو إما أن يكون بمنزلة الخدم الذين يسعون فى نفعنا وخدمتنا أو نرقيه درجة أعلى من ذلك نجعله ولدًا لنا ونكرمه ونجله، فقدَّر الله تعالى أنه نفع امرأة فرعون التى قالت تلك المقالة فإنه لما صار قرة عين لها وأحبته حبًا شديدًا فلم يزل لها بمنزلة الولد الشقيق حتى كبر ونبأه الله وأرسله بادرت[1] إلى الإسلام والإيمان به ﷺ وأرضاها، قال الله تعالى هذه المراجعات والمقالات فى شأن موسى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ما جرى به القلم ومضى به القدر من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالى فإنهم لو شعروا لكان لهم وله شأن آخر، ولما فقدت موسى أمه حزنت حزنًا شديدًا وأصبح فؤادها فارغًا من القلق الذى أزعجها على مقتضى الحالة البشرية مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف ووعدها برده ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أى: بما فى قلبها ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فثبتناها فصبرت ولم تبد به ﴿لِتَكُونَ﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت ازداد بذلك إيمانه ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه ﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى ﴿لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أى: اذهبى فقصى الأثر عن أخيك وابحثى عنه من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك، فذهبت تقصه ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: أبصرته على وجه كأنها مارة لا قصد لها فيه، وهذا من تمام الحزم والحذر فإنها لو أبصرته وجاءت إليهم قاصدة لظنوا بها أنها هى التى ألقته فربما عزموا على ذبحه عقوبة لأهله، ومن لطف الله بموسى وأمه أن منعه من قبول ثدى امرأة فأخرجوه إلى السوق رحمة به ولعل أحدًا يطلبه فجاءت أخته وهو بتلك الحال ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وهذا جُلُّ غرضهم فإنهم أحبوه حبًا شديدًا وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على الترغيب فى أهل هذا البيت بتمام حفظه وكفالته والنصح له بادروا إلى إجابتها فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ كما وعدناها بذلك ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ بحيث أنه تربى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة تفرح به وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فأريناها بعض ما وعدناها به عيانًا ليطمئن بذلك قلبها ويزداد إيمانها ولتعلم أنه سيحصل وعد الله فى حفظه ورسالته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإذا رأوا السبب متشوشًا شوش ذلك إيمانهم لعدم علمهم الكامل أن

---

(١) قوله «بادرت» كان فى الأصل «فبادرت» فأصلحنا الكلمة بـ «بادرت» لأنه جواب «لما» فى قوله «فإنه لما صار ... إلخ» وجواب «لما» لا يقترن بالفاء بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ ولم يقل «فالقاه».

الله تعالى يجعل المحن والعقبات الشاقة بين يدى الأمور العالية والمطالب الفاضلة، فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون يتربى فى سلطانهم ويركب مراكبهم ويلبس ملابسهم وأمه بذلك مطمئنة قد استقر أنها أمه من الرضاع ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوه عليها، وتأمل هذا اللطف من الله وصيانة نبيه موسى من الكذب فى منطقه وتيسير الأمر الذى صار به التعليق بينه وبينها الذى بان للناس أنه هو الرضاع الذى بسببه يسميها أمًّا فكان الكلام الكثير منه ومن غيره فى ذلك كله صدقًا وحقًّا ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ من القوة والعقل واللب وذلك نحو أربعين سنة فى الغالب ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ فكملت فيه تلك الأمور ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أى: حكمًا يعرف به الأحكام الشرعية ويحكم به بين الناس وعلمًا كثيرًا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ فى عبادة الله، المحسنين لخلق الله يعطيهم علمًا وحكمًا بحسب إحسانهم ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ إما وقت القائلة أو غير ذلك من الأوقات التى بها يغفلون عن الانتشار ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ يتخاصمان ويتضاربان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ أى من بنى إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ كالقبط ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ﴾ لأنه قد اشتهر وعلم الناس أنه من بنى إسرائيل، واستغاثته لموسى دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغًا يخاف منه ويرجي من بيت المملكة والسلطان ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ أى: وكز الذى من عدوه استجابة لاستغاثة الإسرائيلى ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى: أماته من تلك الوكزة لشدتها وقوة موسى، فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أى: من تزيينه ووسوسته ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة وحرصه على الإضلال، ثم استغفر ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ خصوصًا للمخبتين إليه المبادرين للإنابة والتوبة كما جرى من موسى عليه السلام ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ بالتوبة والمغفرة والنعم الكثيرة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ أى: معينًا ومساعدًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أى: لا أعين أحدًا على معصية، وهذا وعد من موسى عليه السلام بسبب منة الله عليه أن لا يعين مجرمًا كما فعل فى قتل القبطى، وهذا يفيد أن النعم تقتضى من العبد فعل الخير وترك الشر ﴿فَأَصْبَحَ﴾ لما جرى منه قتل الذى هو من عدوه ﴿فِى الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ هل يشعر به آل فرعون أم لا؟ وإنما خاف لأنه قد علم أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى من بنى إسرائيل، فبينما هو على تلك الحال ﴿فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ﴾ على عدوه ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ على قبطى آخر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ﴾ موبخًا على حاله ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أى: بيِّن الغواية ظاهر الجراءة ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ موسى ﴿بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أى: له وللمخاصم المستصرخ لموسى أى: لم يزل اللجاج بين القبطى والإسرائيلى وهو يستغيث بموسى فأخذته الحمية حتى هم أن يبطش بالقبطى ﴿قَالَ﴾ له القبطى زاجرًا له عن قتله: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ﴾ لأن من أعظم آثار الجبار فى الأرض قتل النفس بغير حق ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ وإلا فلو أردت الإصلاح لحلت بينى وبينه من غير قتل أحد، فانكف موسى عن قتله وارعوى لوعظه وزجره وشاع الخبر بما جرى من موسى فى هاتين القضيتين حتى تراود ملأ فرعون وفرعون على قتله وتشاوروا على ذلك، فقيض الله ذلك الرجل الناصح وبادر إلى الإخبار(١) لموسى بما اجتمع عليه رأى ملئهم فقال: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ أى: ركضًا على قدميه من نصحه لموسى وخوفه أن يوقعوا به قبل أن يشعر ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أى: يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ عن المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فامتثل نصحه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أن يوقع به القتل، ودعا الله ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه قد تاب من ذنبه وفعله غضبًا من غير قصد منه للقتل فتوعدهم له ظلم منهم وجراءة ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى: قاصدًا بوجهه مدين وهو جنوبى فلسطين حيث لا ملك فيه لفرعون ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى: وسط الطريق المختصر الموصل إليها بسهولة ورفق فهداه الله سواء السبيل فوصل إلى مدين ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أى:

---

(١) قوله «إلى الإخبار لموسى» لو قال «إلى إخبار موسى» لكان أصح وأفصح.

دون تلك الأمــة ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ غنمهما عن حياض الناس لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهم وعدم مروءتهم عن السقى لهما ﴿قَالَ﴾ لهما موسى ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أى: ما شأنكما بهذه الحالة ﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي: قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقى حتى يصدر الرعـاء مواشيهم فإذا خلا لنا الجو سقينا ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أى: لا قوة له على السقى فليس فينا قوة نقتدر بها ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء فرقّ لهما موسى عليه السلام ورحمهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غير طالب منهما الأجر ولا له قصد غير وجه الله تعالى، فلما سقى لهما وكان ذلك وقت شدة حر وسط النهار بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ مستريحًا لتلك الظلال بعد التعب ﴿فَقَالَ﴾ فى تلك الحالة مسترزقًا ربه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أى: إنى مفتقر للخير الذى تسوقه إلىَّ وتيسره لى، وهذا سؤال منه بحاله والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل فى هذه الحالة داعيًا ربه متملقًا، وأما المرأتان فذهبتا إلى أبيهما وأخبرتاه بما جرى فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى فجاءته ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة وخصوصًا فى النساء، ويدل على أن موسى عليه السلام لم يكن فيما فعله من السقى بمنزلة الأجير والخادم الذى لا يستحى منه عادة وإنما هو عزيز النفس رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه ما أوجب لها الحياء منه ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أى: لا لمنٍّ عليك بل أنت الذى ابتدأتنا بالإحسان وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه إلى أن وصل إليه ﴿قَالَ﴾ مسكنًا روعه جابرًا قلبه: ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: ليذهب خوفك وروعك فإن الله نجاك منهم حيث وصلت إلى هذا المحل الذى ليس لهم عليه سلطان ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ أى: إحدى ابنتيه ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أى: اجعله أجيرًا عندك يرعى الغنم ويسقيها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ أى: إن موسى أولى من استؤجر فإنه جمع القوة والأمانة وخير أجير استؤجر من جمعهما: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان ينبغى اعتبارهما فى كل من يتولى للإنسان عملاً بإجارة أو غيرها فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقى لهما ونشاطه ما عرفت به قوته وشاهدت من أمانته وديانته وأنه رحمهما فى حالة لا يرجى نفعهما وإنما قصده بذلك وجه الله تعالى ﴿قَالَ﴾ صاحب مدين لموسى ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي﴾ أى تصير أجيرًا عندى ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ أى: ثمانى سنين ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ تبرع منك لا شىء واجب عليك ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ فأحتّم عشر سنين، وما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة وإنما استأجرتك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فرغّبه فى سهولة العمل وفى حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح ينبغى له أن يحسن خلقه مهما أمكنه وأن الذى يطلب منه أبلغ من غيره ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام مجيبًا له فيما طلبه منه: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أى هذا الشرط الذى أنت ذكرت رضيت به وقد تم فيما بينى وبينك ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ سواء قضيت الثمانى الواجبة أم تبرعت بالزائد عليها ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ حافظ يراقبنا ويعلم ما تعاقدنا عليه، وهذا الرجل أبو المرأتين صاحب مدين ليس بشعيب النبى المعروف كما اشتهر عند كثير من الناس فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون أن شعيبًا عليه السلام قد كانت بلده مدين وهذه القضية جرت فى مدين فأين الملازمة بين الأمرين؟ وأيضًا فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب فكيف بشخصه؟!! ولو كان ذلك الرجل شعيبًا لذكره الله تعالى ولسمته المرأتان، أيضًا فإن شعيبًا عليه الصلاة والسلام قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاذ الله المؤمنين به أن يرضوا لبنتى نبيهم بمنعهما عن الماء وصد ماشيتهما حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما ويسقى ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادمًا له وهو أفضل منه وأعلى درجة إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة، وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبى بغير نقل صحيح عن النبى ﷺ، والله أعلم ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ﴾ يحتمل أنه قضى الأجل الواجب أو الزائد عليه كما هو الظن بموسى ووفائه، اشتاق إلى الوصول إلى أهله ووالدته وعشيرته ووطنه

وظن من طول المدة أنهم قد تناسوا ما صدر منه ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قاصداً مصر ﴿آنَسَ﴾ أى: أبصر ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وكان قد أصابهم البرد وتاهوا الطريق ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فأخبر بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك أن يأمره بعبادته وتألهه كما صرح به فى الآية الأخرى ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تسعى سعيًا شديدًا ولها صورة مُهيلة ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ ذكرُ الحيات العظيم ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى: يرجع، لاستيلاء الروع على قلبه فقال الله له: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ وهذا أبلغ ما يكون فى التأمين وعدم الخوف فإن قوله: ﴿أَقْبِلْ﴾ يقتضى الأمر بإقباله ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله وهو لم يزل فى الأمر المخوف فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ أمر له بشيئين: إقباله وأن لا يكون فى قلبه خوف، ولكن يبقى احتمال وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه فلذلك قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب بل مطمئنًا واثقًا بخبر ربه قد ازداد إيمانه وتم يقينه، فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون ليكون على يقين تام فيكون أجرأ له وأقوى وأصلب، ثم أراه الآية الأخرى فقال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ﴾ أى: أدخلها ﴿فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فسلكها وأخرجها كما ذكر الله تعالى ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ أى: ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك ليزول عنك الرهب والخوف. ﴿فَذَانِكَ﴾ أى: انقلاب العصا حية وخروج اليد بيضاء من غير سوء ﴿بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ أى: حجتان قاطعتان من الله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم بل لا بد من الآيات الباهرة إن نفعت ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام معتذرًا من ربه وسائلاً له المعونة على ما حمله وذاكرًا له الموانع التى فيه ليزيل ربه ما يحذره منها ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ أى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أى: معاونًا ومساعدًا ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ فإنه مع تضافر الأخبار يقوى الحق ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ فأجابه الله إلى سؤاله فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أى: نعاونك به ونقويك، ثم أزال عنه محذور القتل فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أى: تسلطًا وتمكنًا من الدعوة والحجة والهيبة الإلهية من عدوهما ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ وذلك بسبب آياتنا وما دلت عليه من الحق وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها، فهى التى بها حصل لكما السلطان واندفع بها عنكم كيد عدوكم وصارت لكم أبلغ من الجنود أولى العدد والعدد ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ وهذا وعد لموسى فى ذلك الوقت وهو وحده فريد وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريدًا، فلم تزل الأحوال تتطور والأمور تتنقل حتى أنجز له موعوده ومكنه من العباد والبلاد وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور، فذهب موسى برسالة ربه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما قال لهم ليس فيها قصور ولا خفاء ﴿قَالُوا﴾ على وجه الظلم والعلو والعناد ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ كما قال فرعون فى تلك الحال التى ظهر فيها الحق واستعلى على الباطل واضمحل الباطل وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ هذا وهو الذكي غير الزكى الذى بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصه الله علينا وقد علم ﴿مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولكن الشقاء غالب ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وقد كذبوا فى ذلك فإن الله أرسل يوسف قبل موسى كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين زعموا أن الذى جاءهم به سحر وضلال وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أى: إذا لم تفد المقابلة معكم وتبيين الآيات البينات وأبيتم إلا التمادى فى غيكم واللجاج على كفركم فالله تعالى العالم بالمهتدى وغيره ومن تكون له عاقبة الدار نحن أم أنتم ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه والفلاح والفوز وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متجرئًا على ربه ومموهًا على قومه السفهاء ضعفاء العقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ أى: أنا وحدى إلهكم ومعبودكم ولو كان ثَمَّ إله غيرى لعلمته، فانظر إلى هذا الورع التام من

فرعون حيث لم يقل «ما لكم من إلـه غيرى» وهذا لأنه عندهم العالم الفاضل الذى مهما قال فـهو الحق ومهما أمر أطاعوه، فلما قال هذه المقالة التي تحتمل أن ثمَّ إلهًا غيره أراد أن يحقق النفى الذى جعل فيه ذلك الاحتمال فقال لـ «هامان»: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ ليجعل له لبنًا من فخار ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ أى: بناء عاليًا ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ولكن سنحـقق هذا الظن ونريكم كذب موسـى، فانظر هذه الجراءة العظـيمة على الله التى مـا بلغهـا آدمى، كذَّب موسـى وادَّعى أنه الله ونفى أن يكون له علم بالإله الحق وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى وكل هذا ترويج، ولكـن العجب من هؤلاء الملأ الذين يزعمون أنهم كبار المملكة المدبـرون لشئونها كيف لعب هذا الرجل بعـقولهم واستخف أحـلامهم وهذا لفسقهم الذى صـار صفة راسخة فيهم، فـسد دينهم ثم تبع ذلك فساد عقولهم فنسألك اللهم الثـبات على الإيمان وأن لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وأن تهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ استكبـروا على عبـاد الله وساموها سـوء العذاب واستكـبروا على رسل الله وما جـاءوهم به من الآيات فكذبوها وزعموا أن ما هم عليـه أعلى منها وأفضل ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فلذلك تجرأوا وإلا فلـو علموا وظنوا أنهم يرجعون إلى الله لما كان منهم ما كان ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ كانت شر العواقب وأخسرها عـاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المـستمرة المتصلة بالعقوبة الأخروية ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى جعلنا فرعون وملأه من الأئمة الذين يقتدى بهم ويمشى خلفهم إلى دار الخزى والشقاء ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ من عذاب الله فهم أضعف شيء عن دفعه عن أنفسهم وليس لهم من دون الله من ولى ولا نصـير ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أى: وأتبعناهم زيادة فى عـقوبتهم وخزيهم فى الدنيا لعنة يلعنون ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد فهم أئمة الملعونين فى الدنيا ومقدمتهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ المبعدين المستقذرة أفعالهم الذين اجتمع عليهم مقت الله ومقت خلقه ومقت أنفسهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ الذين خاتمتهم فى الإهلاك العـام فرعون وجنوده وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العـام وشرع جهاد الكفار بالسيف ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أى: كتاب الله الذى أنزله على موسى فيه بصائر للناس أى: أمور يبصرون بها ما ينفعهم ومـا يضرهم فتقوم الحـجة على العاصى وينتفع بهـا المؤمن فتكون رحمة فى حـقه وهداية إلى الصراط المستقـيم، ولهذا قال: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ولما قص الله على رسوله مـا قص من هذه الأخبار الغيبـية نبه العبـاد على أن هذا خبر إلهى محض ليس للرسـول طريق إلى علمه إلا من جهة الـوحى ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أى: بجانب الطـور الغربى ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ على ذلك حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق ﴿وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ فاندرس العلم ونسيت آياته، فبعثناك فى وقت اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علمناك وأوحينا إليك ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أى: مقيمًا ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أى: تعلمهم وتتعلم منهم حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى فى مدين ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أى: ولكن ذلك الخبر الذى جئت به عن موسى أثر من آثار إرسالنا إياك وَوَحْيٌ لا سبيل لك إلى علمه بـدون إرسالنا ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى، وأمرناه أن يأتى القوم الظالمـين ويبلغهم رسالتنا ويريهم من آياتنا وعجائبنا ما قـصصنا عليك، والمقصود أن المجريات التى جرت لمـوسى عليه الصلاة والسلام فى هذه الأماكن فـقصصتـها كما هـى من غير زيادة ولا نقص لا يخلو من أحـد أمرين: إما أن تكون حضـرتها وشاهدتها أو ذهبت إلىٰ مـحالِّها فتعلمتـها من أهلها فحينئذ قـد لا يدل ذلك على أنك رسول الله إذ الأمور التى يخبر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غيـر المختصة بالأنبياء ولكن هذا قد عُلِمَ وتُيُقِّن أنه ما كان وما صار، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك، فتعين الأمر الثانى وهو: أن هذا جاءك من قِبَلِ الله ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعى صحة رسالتك ورحمة الله بك للعباد ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى: العرب وقريش فـإن الرسالة عندهم لا تعرف وقت إرسال الرسول وقـبله بأزمان متطاولة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ تفصيل الخير فيفعلونه والشر فيـتركونه، فإذا كنت بهذه المنزلة كان الواجب عليهم المبادرة

إلى الإيمان بك وشكر هذه النعمة التى لا يقادر قدرها ولا يدرك شكرها، وإنذاره للعرب لا ينفى أن يكون مرسلاً لغيرهم فإنه عربى والقرآن الذى نزل عليه عربى وأول من باشر بدعوته العرب فكانت رسالته لهم أصلاً ولغيرهم تبعًا كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: فأرسلناك يا محمد لدفع حجتهم وقطع مقالتهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذى لا شك فيه ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وهو القرآن الذى أوحيناه إليك ﴿قَالُوا﴾ مكذبين له ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ أى أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة أى: فأما ما دام ينزل متفرقًا فإنه ليس من عند الله، وأى دليل فى هذا؟ وأى شبهة أنه ليس من عند الله حين نزل مفرقًا؟ بل من كمال هذا القرآن واعتناء الله بمن أنزل عليه أن نزل متفرقًا ليثبت الله به فؤاد رسوله ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وأيضًا فإن قياسهم على كتاب موسى قياس قد نقضوه فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أى: القرآن والتوراة تعاونا فى سحرهما وإضلال الناس ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان وينقضونه بما لا ينقض ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة وهذا شأن كل كافر، ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ ولكن هل كفرهم بهما كان طلبا للحق واتباعًا لأمر عندهم خير منهما أم مجرد هوى؟ قال تعالى ملزمًا لهم بذلك: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ أى من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله مثل هذين الكتابين علمًا وهدى وبيانًا ورحمة للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعى أن قال: مقصودى الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك الموافق لكتاب موسى فيجب علينا جميعًا الإذعان لهما واتباعهما من حيث كونهما هدى وحقًا فإن جئتمونى بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعته وإلا فلا أترك هدى وحقًا قد علمته لغير هدى وحق ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: فاعلم أن تركهم اتباعك ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه ولا إلى هدى وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ فهذا من أضل الناس حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم الموصل إلى الله وإلى دار كرامته فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟!! ولكن ظلمه وعدوانه وعدم محبته للحق هو الذى أوجب له: أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله فلهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: الذى صار الظلم لهم وصفًا والعناد لهم نعتًا، جاءهم الهدى فرفضوه وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها فهم فى غيهم وظلمهم يعمهون وفى شقائهم وهلاكهم يترددون، وفى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول فإنه لم يذهب إلى هدى وإنما ذهب إلى هوى ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أى: تابعناه وواصلناه وأنزلناه شيئًا فشيئًا رحمة بهم ولطفًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ حين تتكرر عليهم آياته وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها، فصار نزوله متفرقًا رحمة بهم فلم اعترضوا على ما هو من مصالحهم؟

فصل

فى ذكر بعض الفوائد والعبر فى هذه القصة العجيبة

فمنها أن آيات الله وعبره وأيامه فى الأمم السابقة إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وأن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم وأما غيرهم فلا يعبأ الله بهم وليس لهم منها نور وهدى، **ومنها**: أن الله تعالى إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه وأتى بها شيئًا فشيئًا بالتدريج لا دفعة واحدة، **ومنها**: أن

الأمة المستضعفة ولو بلغت فى الضعف ما بلغت لا ينبغى لها أن يستهولى عليها الكسل عن طلب حقها ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور خصوصًا إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بنى إسرائيل الأمة الضعيفة من أسر فرعون وملئه ومكنهم فى الأرض وملَّكهم بلادهم، **ومنها**: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها ولا يكون لها إمامة فيه، **ومنها**: لطف الله بأم موسى وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة بأن الله سيرد إليها ابنها ويجعله من المرسلين، **ومنها**: أن الله يقدِّر على عبده بعض المشاق لينيله سرورًا أعظم من ذلك أو يدفع عنه شرًا أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد والهم البليغ الذى هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها على وجه تطمئن به نفسها وتقر به عينها وتزداد به غبطة وسرورًا، **ومنها**: أن الخوف الطبيعى من الخلق لا ينافى الإيمان ولا يزيله كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف، **ومنها**: أن الإيمان يزيد وينقص وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان ويتم به اليقين الصبر عند المزعجات والتثبيت من الله عند المقلقات كما قال تعالى: ﴿**لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أى: ليزداد إيمانها بذلك ويطمئن قلبها، **ومنها**: أن من أعظم نعم الله على عبده وأعظم معونة للعبد على أموره تثبيت الله إياه وربط جأشه وقلبه عند المخاوف وعند الأمور المذهلة فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه فإنه يضيع فكره ويذهل عقله فلا ينتفع بنفسه فى تلك الحال، **ومنها**: أن العبد، ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه فإنه لا يهمل فعل الأسباب التى أمر بها ولا يكون ذلك منافيًا لإيمانه بخبر الله فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها ومع ذلك اجتهدت فى رده وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه، **ومنها**: جواز خروج المرأة فى حوائجها وتكليمها للرجال من غير محذور كما جرى لأخت موسى وابنتى صاحب مدين، **ومنها**: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع والدلالة على من يفعل ذلك، **ومنها**: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذى يريد إكرامه أن يريه من آياته ويشهده من بيناته ما يزيد به إيمانه كما رد الله موسى إلى أمه لتعلم أن وعد الله حق، **ومنها**: أن قتل الكافر الذى له عهد بعقد أو عُرف لا يجوز فإن موسى عليه السلام عدَّ قتله القبطى الكافر ذنبًا واستغفر الله منه، **ومنها**: أن الذى يقتل النفوس بغير حق يُعد من الجبارين الذين يفسدون فى الأرض، **ومنها**: أن من قتل النفوس بغير حق وزعم أنه يريد الإصلاح فى الأرض وتهييب أهل المعاصى فإنه كاذب فى ذلك وهو مفسد كما حكى الله قول القبطى ﴿**إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**﴾ على وجه التقرير له لا الإنكار، **ومنها**: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه على وجه التحذير له من شر يقع فيه لا يكون ذلك نميمة - بل قد يكون واجبًا - كما أخبر ذلك الرجل موسى ناصحًا له ومحذرًا، **ومنها**: أنه إذا خاف القتل والتلف فى الإقامة فإنه لا يلقى بيده إلى التهلكة ولا يستسلم لذلك بل يذهب عنه كما فعل موسى، **ومنها**: أنه عند تزاحم المفسدتين إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما فإنه يرتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى لما دار الأمر بين بقائه فى مصر ولكنه يُقتل أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة التى لا يعرف الطريق إليها وليس معه دليل يدله غير ربه ولكن هذه الحالة أرجى للسلامة من الأولى فتبعها موسى، **ومنها**: أن الناظر فى العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه إذا لم يترجح عنده أحد القولين فإنه يستهدى ربه ويسأله أن يهديه الصواب من القولين بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه فإن الله لا يخيب مَنْ هذه حاله كما خرج موسى تلقاء مدين فقال: ﴿**عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ **ومنها**: أن الرحمة بالخلق والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف من أخلاق الأنبياء وأن من الإحسان سقى الماشية الماء وإعانة العاجز، **ومنها**: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها ولو كان الله عالمًا لها لأنه تعالى يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته كما قال موسى: ﴿**رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ **ومنها**: أن الحياء - خصوصًا من الكرام - من الأخلاق الممدوحة، **ومنها**: أن المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين، **ومنها**: أن العبد إذا عمل العمل لله تعالى ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول فإنه لا يلام على ذلك كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذى لم يبتغ له ولم يستشرف بقلبه على عوض، **ومنها**: مشروعية الإجارة وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها مما لا يقدر به العمل وإنما مرده العرف، **ومنها**: أن خطبة الرجل

لابنته الذى يتخيره لا يلام عليه، ومنها: أن خير أجير وعامل يعمل للإنسان أن يكون قويًا أمينًا، ومنها: أن من مكارم الأخلاق أن يُحَسِّن خلقه لأجيره وخادمه ولا يشق عليه بالعمل لقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد لقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات والمعجزات الظاهرة من الحية وانقلاب يده بيضاء من غير سوء ومن عصمة الله لموسى وهارون من فرعون ومن الغرق، ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إمامًا فى الشر وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته كما أن أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده أن يجعله إمامًا فى الخير هاديًا مهديًا ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بذلك تفصيلاً وتأصيلاً موافقًا قصه قصًا صدَّق به المرسلين وأيد به الحق المبين من غير حضور شىء من تلك الوقائع ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع ولا تلاوة درس فيها شيئًا من هذه الأمور ولا مجالسة أحد من أهل العلم إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم ووحى أنزله عليه الكريم المنان لينذر به قومًا جاهلين وعن النذر والرسل غافلين، فصلوات الله وسلامه على من مجرد خبره ينبئ أنه رسول الله ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة أنه من عند الله، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدقه الأولين والآخرين والشرع الذى جاء به من رب العالمين وما جُبِلَ عليه من الأخلاق الفاضلة التى لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة والنصر المبين لدينه وأمته حتى بلغ دينه مبلغ الليل والنهار وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار بالسيف والسنان وقلوبهم بالعلم والإيمان ولم تزل الأمم المعاندة والملوك الكفرة ترميه بقوس واحدة وتكيد له المكايد وتمكر لإطفائه وإخفائه وإخماده من الأرض وهو قد بهرها وعلاها لا يزداد إلا نموًا ولا آياته وبراهينه إلا ظهورًا، وكل وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة لِلْعَالَمِينَ وهداية لِلْعَالَمِينَ ونور وبصيرة للمتوسمينَ والحمد لله وحده.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يذكر تعالى عظمة القرآن وصدقه وحقه وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه ويؤمنون به ويقرون بأنه الحق: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ وهم أهل التوراة والإنجيل الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ﴿هُم بِهِ﴾ أى: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ استمعوا له وأذعنوا، و ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل ومطابقته لما ذكر فى الكتب واشتماله على الأخبار الصادقة والأوامر والنواهى الموافقة لغاية الحكمة، وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم وينفع قولهم لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة لأنهم أهل الخبرة وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة فضلاً عن الحجة لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهلٍ معاند للحق، قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ الآيات، وقوله ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ فلذلك ثبتنا على ما مَنَّ الله به علينا من الإيمان والإسلام فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب إيمانه بالكتاب الأول ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أجرًا على الإيمان الأول وأجرًا على الإيمان الثانى ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الإيمان وثبتوا على العمل فلم تزعزعهم عن ذلك شبهة ولا ثناهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة ﴿وَ﴾ من خصالهم الفاضلة التى هى من آثار إيمانهم الصحيح أنهم ﴿يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أى: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد حتى للمسىء إليهم بالقول والفعل يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ من جاهل خاطبهم به أعرضوا عنه و ﴿قَالُوا﴾ مقالة عباد الرحمن أولى الألباب: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أى: كُلٌّ سيُجازى بعمله الذى عمله وحده وليس عليه من وزر غيره شىء، ولزم من ذلك أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون

من اللغو والباطل والكلام الذى لا فائدة فيه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى لا تسمعون منا إلا الخير ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم فإننا ننزه أنفسنا عنه ونصونها عن الخوض فيه ﴿لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ من كل وجه.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾

يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد ولو كان من أحب الناس إليك فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق وخلق الإيمان فى القلب وإنما ذلك بيد الله تعالى يهدى من يشاء وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله، وأما إثبات الهداية للرسول فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فتلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم ويرغّب فيه ويبذل جهده فى سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق فى قلوبهم الإيمان ويوفقهم بالفعل فحاشا وكلا، ولهذا لو كان قادرًا عليها لهدى من وصل إليه إحسانه ونصره ومنعه من قومه عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة له للدين والنصح التام ما هو أعظم مما فعله معه عمه ولكن الهداية بيد الله.

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)﴾

يخبر تعالى أن المكذبين من قريش وأهل مكة يقولون للرسول ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإن الناس قد عادوك وخالفوك فلو تابعناك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم ولم يكن لنا بهم طاقة، وهذا الكلام منهم يدل على سوء الظن بالله تعالى وأنه لا ينصر دينه ولا يعلى كلمته بل يمكن الناس من أهل دينه فيسومونهم سوء العذاب وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق، قال الله مبينًا لهم حالة اختصهم بها دون الناس فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أى: أولم نجعلهم متمكنين ممكنين فى حرم يكثر المنتابون إليه ويقصده الزائرون قد احترمه القريب والبعيد فلا يهاج أهله ولا ينتقصون بقليل ولا كثير، والحال أن كل ما حولهم من الأماكن قد حف بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين فَلْيَحْمَدُوا ربهم على هذا الأمن التام الذى ليس فيه غيرهم وعلى الرزق الكثير الذى يجىء إليهم من كل مكان من الثمرات والأطعمة والبضائع ما به يرتزقون ويتوسعون، ولْيَتَّبِعُوا هذا الرسول الكريم ليتم لهم الأمن والرغد وإياهم وتكذيبه والبطر بنعمته فيبدلوا من بعد أمنهم خوفًا وبعد عزهم دلاً وبعد غناهم فقرًا ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلهم فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أى: فخرت بها والهتها واشتغلت بها عن الإيمان بالرسل فأهلكهم الله وأزال عنهم النعمة وأحل بهم النقمة ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لتوالى الهلاك والتلف عليهم وإيحاشها من بعدهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ للعباد نميتهم ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم ثم نعيدهم إلينا فنجازيهم بأعمالهم، ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل إليهم ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ أى بكفرهم وظلمهم ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ أى: فى القرية والمدينة التى إليها يرجعون ونحوها يترددون وكل ما حولها ينتجعها ولا تخفى عليهم أخبارها ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاء به وصدق ما دعاهم إليه فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم، بخلاف بعث الرسل فى القرى البعيدة والأطراف النائية فإن ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار وفى الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ

إلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ بالكفر والمعاصى مستحقون للعقوبة، والحاصل أن الله لا يعذب أحدًا إلا بظلمه وإقامة الحجة عليه.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

هذا حض منه تعالى لعباده على الزهد فى الدنيا وعدم الاغترار بها وعلى الرغبة فى الأخرى وجعلها مقصود العبد ومطلوبه ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق من الذهب والفضة والحيوانات والأمتعة والنساء والبنين والمآكل والمشارب واللذات كلها متاع الحياة الدنيا وزينتها أى: يتمتع به وقتًا قصيرًا متاعًا قاصرًا محشوًا بالمنغصات ممزوجًا بالغصص ويتزين به زمانًا يسيرًا للفخر والرياء ثم يزول ذلك سريعًا وينقضى جميعًا ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم والخيبة والحرمان ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من النعيم المقيم والعيش السليم ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أى: أفضل فى وصفه وكميته وهو دائم أبدًا ومستمر سرمدًا ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفلا تكون لكم عقول بها تزنون أى الأمرين أولى بالإيثار وأى الدارين أحق للعمل لها، فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد يؤثر الأخرى على الدنيا وأنه ما آثر أحد الدنيا إلا لنقص فى عقله، ولهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة فقال: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ﴾ أى: هل يستوى مؤمن ساع للآخرة سعيها قد عمل على وعد ربه له بالثواب الحسن الذى هو الجنة وما فيها من النعيم العظيم فهو لاقيه من غير شك ولا ارتياب لأنه وعد من كريم صادق الوعد لا يخلف الميعاد لعبد قام بمرضاته وجانب سخطه ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطى ويأكل ويشرب ويتمتع كما تتمتع البهائم قد اشتغل بدنياه عن آخرته ولم يرفع بهدى الله رأسًا ولم ينقد للمرسلين، فهو لا يزال كذلك لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب وقد علم أنه لم يقدم خيرًا لنفسه وإنما قدم جميع ما يضره وانتقل إلى دار الجزاء على الأعمال فما ظنكم بما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه ما هو أولى بالاختيار وأحق الأمرين بالإيثار.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة وأنه يسألهم عن أصول الأشياء عن عبادة الله وإجابة رسله فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أى: ينادى من أشركوا به شركاء يعبدونهم ويرجون نفعهم ودفع الضرر عنهم فيناديهم ليبين لهم عجزها وضلالهم ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ وليس لله شريك ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فأين هم بذواتهم، أين نفعهم وأين دفعهم؟ ومن المعلوم أنهم يتبين لهم فى تلك الحال أن الذى عبدوه ورجوه باطل مضمحل فى ذاته وما رجوا منه فيقولون: أى يحكمون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ من الرؤساء والقادة فى الكفر والشر مقرين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ﴾ التابعون ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أى: كلنا قد اشترك فى الغواية وحق عليه كلمة العذاب ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ من عبادتهم أى: نحن برآء منهم ومن عملهم ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ إنما كانوا يعبدون الشياطين ﴿وَقِيلَ﴾ لهم: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ على ما أملتم فيهم من النفع، فأمروا بدعائهم فى ذلك الوقت الحرج الذى يضطر فيه العابد إلى من عبده ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لينفعوهم أو يدفعوا عنهم من عذاب الله

من شىء ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الذى سيحل بهم عيانًا بأبصارهم بعدما كانوا مكذبين به منكرين له ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أى: لما حصل عليهم ما حصل ولهدوا إلى صراط الجنة كما اهتدوا فى الدنيا ولكن لم يهتدوا فلم يهتدوا ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هل صدقتموهم واتبعتموهم أم كذبتموهم وخالفتموهم؟ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى: لم يحيروا عن هذا السؤال جوابًا ولم يهتدوا إلى الصواب، ومن المعلوم أنه لا ينجى فى هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح المطابق لأحوالهم من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم لم ينطقوا بشىء ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم فى ماذا يجيبون به ولو كان كذبًا.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم ذكر الطريق الذى ينجو به العبد من عقاب الله تعالى وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة عن الشرك والمعاصى وآمن بالله فعبده وآمن برسله فصدقهم وعمل صالحًا متبعًا فيه للرسل ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ﴾ من جمع هذه الخصال ﴿مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ الناجحين بالمطلوب الناجين من المرهوب فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

هذه الآيات فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات ونفوذ مشيئته بجميع البريات وانفراده باختيار من يختاره ويختصه من الأشخاص والأوامر والأزمان والأماكن وأن أحدًا ليس له من الأمر والاختيار شىء وأنه تعالى منزه عن كل ما يشركون به من الشريك والظهير والعوين والولد والصاحبة ونحو ذلك مما أشرك به المشركون وأنه العالم بما أكنته الصدور وما أعلنوه وأنه وحده المعبود المحمود فى الدنيا والآخرة على ما له من صفات الجلال والجمال وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال وأنه هو الحاكم فى الدارين: فى الدنيا بالحكم القدرى الذى أثره جميع ما خلق وذرأ، والحكم الدينى الذى أثره جميع الشرائع والأوامر والنواهى، وفى الآخرة يحكم بحكمه القدرى والجزائى ولهذا قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازى كلا منكم بعمله من خير وشر.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

هذا امتنان من الله على عباده يدعوهم به إلى شكره والقيام بعبوديته وحقه أن جعل لهم من رحمته النهار ليبتغوا من فضل الله وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم فى ضيائه والليل ليهدءوا فيه ويسكنوا وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف فى النهار فهذا من فضله ورحمته بعباده فهل أحد يقدر على شىء من ذلك؟ و ﴿إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ مواعظ الله وآياته، سماع فهم وقبول وانقياد، و ﴿إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ مواقع العبر ومواضع الآيات فتستنير بصائركم وتسلكوا الطريق المستقيم، وقال فى الليل ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وفى النهار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن سلطان السمع فى الليل أبلغ من سلطان البصر، وعكسه النهار، وفى

هذه الآيات تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعَم الله عليه ويستبصر فيها ويقيسها بحال عدمها فإنه إذا وازن بين حالة وجودها وبين حالة عدمها تنبه عقله لموضع المنة، بخلاف من جرى مع العائد ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمرًا ولا يزال وعمى قلبه عن الثناء على الله بنعمه ورؤية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكر ولا ذكر.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

أي: ويوم ينادي الله المشركين به العادلين به غيره الذين يزعمون أن له شركاء يستحقون أن يعبدوا وينفعون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة وأراد الله أن يظهر جراءتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم لأنفسهم ﴿يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: بزعمهم لا بنفس الأمر كما قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ فإذا حضروا هم وإياهم نزع الله ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المكذبة ﴿شَهِيدًا﴾ يشهد على ما جرى في الدنيا من شركهم واعتقادهم وهؤلاء بمنزلة المنتخبين، أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدى للخصومة عنهم والمجادلة عن إخوانهم وهم على طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم ودليلكم على صحة شرككم هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئًا من الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذا كان فيهم أهلية وليروكم إن كان لهم قدرة ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذ بطلان قولهم وفساده، و ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة وانقطعت حجتهم وأفلجت[1] حجة الله ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب والإفك واضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حالة قارون وما فعل وفُعِلَ به ونُصِحَ ووُعِظَ فقال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي: من بني إسرائيل الذين فُضِّلوا على العالمين وفاقوهم في زمانهم وامتن الله عليهم بما امتن به فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا انحرف عن سبيل قومه ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وطغى بما أوتيه من الأمور العظيمة المطغية

---

(١) وأفلجت، أي: غلبت حجة الله حجتهم.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أي: كنوز الأموال شيئًا كثيرًا ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة ونحو ذلك أي: حتى إن مفاتح خزائن أمواله تثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح فما ظنك بالخزائن؟ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة وتفتخر بها وتلهيك عن الآخرة فإن الله لا يحب الفرحين بها المنكبين على محبتها ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال فابتغ بها ما عند الله وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات وتحصيل اللذات ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعًا بل أنفق لآخرتك واستمتع بدنياك استمتاعًا لا يثلم دينك ولا يضر بآخرتك ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بهذه الأموال ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة ﴿قَالَ﴾ قارون رادًا لنصيحتهم كافرًا بنعمة ربه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب وحذقي، أو على علم من الله بحالي يعلم أني أهل لذلك فلم تنصحوني على ما أعطاني الله؟ قال تعالى مبينًا أن عطاءه ليس دليلاً على حسن حال المعطَى:- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ فما المانع من إهلاك قرون أخرى مع مُضِيِّ عادتنا وسنتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم منه إذا فعل ما يوجب الهلاك؟ ﴿وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بل يعاقبهم الله ويعذبهم على ما يعلمه منهم، فهم وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة وشهدوا لها بالنجاة فليس قولهم مقبولا وليس ذلك رادًا عنهم من العذاب شيئًا لأن ذنوبهم غير خفية فإنكارهم لا محل له، فلم يزل قارون مستمرًا على عناده وبغيه وعدم قبول نصيحة قومه فرحًا بطرًا قد أعجبته نفسه وغره ما أوتيه من الأموال ﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ أي بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه قد كان له من الأموال ما كان وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها فرمقته في تلك الحالة العيون وملأت بزته القلوب واختلبت زينته النفوس فانقسم فيه الناظرون قسمين: كلٌّ تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها وصارت منتهى رغبتهم ليس لهم إرادة في سواها ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وصدقوا إنه حظ عظيم لو كان الأمر منتهيًا إلى رغباتهم وأنه ليس وراء الدنيا دار أخرى فإنه قد أعطى منها ما به غاية التنعم بنعيم الدنيا واقتدر بذلك على جميع مطالبه فصار هذا الحظ العظيم بحسب همتهم وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها لَمِنْ أدنى الهمم وأسفلها وأدناها وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية والمطالب الغالية ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم راثين لحالهم منكرين لمقالهم ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ العاجل، من لذة العبادة ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه، والآجل من الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه فهذه حقيقة الأمر ولكن ما كل من يعلم ذلك يقبل عليه فما يُلَقَّى ذلك ويوفق له ﴿إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها أن تشغلهم عن ربهم وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية، فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر وازينت الدنيا عنده وكثر بها إعجابه بغته العذاب ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله أنزله الله أسفل سافلين هو وما اغتر به من داره وأثاثه ومتاعه ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ﴾ أي: جماعة وعصبة وخدم وجنود ﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: جاءه العذاب فما نصر ولا انتصر ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ﴾ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون ليس دليلاً على خير فيه وأننا

غالطون فى قولنا: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ و ﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا فلولا فضله ومنته ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له وعبرة وموعظة لغيره حتى إن الذين غبطوه سمعت كيف ندموا وتغير فكرهم الأول ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أى: لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

لما ذكر تعالى قارون وما أوتيه من الدنيا وما صار إليه عاقبة أمره وأن أهل العلم قالوا: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ رغَّب تعالى فى الدار الآخرة وأخبر بالسبب الموصل إليها فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ التى أخبر الله بها فى كتبه وأخبرت بها رسله التى جمعت كل نعيم واندفع عنها كل مكدر ومنغص ﴿نَجْعَلُهَا﴾ دارًا وقرارًا ﴿لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ أى: ليس لهم إرادة فكيف العمل للعلو فى الأرض على عباد الله والتكبر عليهم وعلى الحق ﴿وَلا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصى، فإذا كانوا لا إرادة لهم فى العلو فى الأرض ولا الفساد لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله وقصدهم الدار الآخرة وحالهم التواضع لعباد الله والانقياد للحق والعمل الصالح، وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة الحسنى ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ أى حالة الفلاح والنجاح التى تستقر وتستمر لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم - وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته ويزول عن قريب، وعلم من هذا الحصر فى الآية الكريمة أن الذين يريدون العلو فى الأرض أو الفساد ليس لهم فى الدار الآخرة نصيب ولا لهم منها حظ.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

يخبر تعالى عن مضاعفة فضله وتمام عدله فقال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ شرط فيها أن يأتى بها العامل لأنه قد يعملها ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها فهذا لم يجئ بالحسنة، والحسنة اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المتعلقة بحقه تعالى وحقوق العباد ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أى: أعظم وأجل وفى الآية الأخرى: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ هذا التضعيف للحسنة لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بحسب حال العامل وعمله ونفعه ومحله ومكانه ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وهى كل ما نهى الشارع عنه نَهْىَ تحريم ﴿فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أى: نزله وفرض فيه الأحكام وبيَّن فيه الحلال والحرام وأمرك بتبليغه للعالمين والدعوة لأحكامه جميع المكلفين لا يليق بحكمته أن تكون هى الحياة الدنيا فقط من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد يجازى فيه المحسنون بإحسانهم والمسيئون بمعصيتهم، وقد بينت لهم الهدى وأوضحت لهم المنهج فإن تبعوك فذلك حظهم وسعادتهم وإن أبوا إلا عصيانك والقدح بما جئت به من الهدى وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق فلم يبق للمجادلة محل ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة والمحق والمبطل ولهذا قال: ﴿قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ وقد علم أن رسوله هو المهتدى الهادى وأن أعداءه هم الضالون المضلون ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أى: لم تكن متحريًا لنزول هذا الكتاب عليك ولا مستعدًا له ولا متصديًا ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وبالعباد

فأرسلك بهذا الكتاب الذى رحم به العالمين وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين، فإذا علمت أنه أنزل إليك رحمة منه علمت أن جميع ما أمر به ونهى عنه رحمة وفضل من الله فلا يكن فى صدرك حرج من شىء منه وتظن أن مخالفته أصلح وأنفع ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ أى: معينًا لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرتهم أن يقال فى شىء منه إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ بل أبلغها وأنفذها ولا تبال بمكرهم ولا يخدعنك عنها ولا تتبع أهواءهم ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أى: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فارفضه من رياء أو سمعة أو موافقة أغراض أهل الباطل فإن ذلك داع إلى الكون معهم ومساعدتهم على أمرهم ولهذا قال: ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا فى شركهم ولا فى فروعه وشعبه التى هى جميع المعاصى ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ بل أخلص لله عبادتك فإنه ﴿لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا أحد يستحق أن يؤله ويحب ويعبد إلا الله الكامل الباقى الذى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وإذا كان كل شىء سواه هالكًا مضمحلاً فعبادة الهالك الباطل باطلة ببطلان غايتها وفساد نهايتها ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فإذا كان ما سوى الله باطلاً هالكًا والله هو الباقى الذى لا إله إلا هو وله الحكم فى الدنيا والآخرة وإليه مرجع الخلائق كلهم ليجازيهم بأعمالهم تعيَّن على من له عقل أن يعبد الله وحده لا شريك له ويعمل لما يقربه ويدنيه ويحذر من سخطه وعقابه وأن يقدم على ربه غير تائب ولا مقلع عن خطئه وذنوبه.

تم تفسير سورة القصص ولله الحمد والثناء والمجد دائمًا وأبدًا



تفسير سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾

يخبر تعالى عن تمام حكمته، وأن حكمته لا تقتضى أن كل من قال «إنه مؤمن» وادعى لنفسه الإيمان أن يبقوا فى حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنه لو كان الأمر كذلك لم يتميز الصادق من الكاذب والمحق من المبطل ولكن سنته تعالى وعادته فى الأولين وفى هذه الأمة أن يبتليهم بالسراء والضراء والعسر واليسر والمنشط والمكره والغنى والفقر وإدالة الأعداء عليهم فى بعض الأحيان ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن التى ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل ويدفعها بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصى والذنوب أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله يعمل بمقتضى الإيمان ويجاهد شهوته دل ذلك على صدق إيمانه وصحته، ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر فى قلبه شكًا وريبًا وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصى أو تصدفه عن الواجبات دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه، والناس فى هذا المقام: درجات لا يحصيها إلا الله فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير يخرج خبثها وطيبها.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾

أى: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنايات أن أعمالهم ستهمل وأن الله سيغفل عنهم أو

يفوتونه فلذلك أقدموا عليها وسهل عليهم عملها؟ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى: ساء حكمهم فإنه حكم جائر لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله وهم أضعف شىء وأعجزه.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

يعنى: يا أيها المحب لربه المشتاق لقربه ولقائه المسارع فى مرتضاته أبشر بقرب لقاء الحبيب فإنه آت وكل ما هو آت قريب، فتزود للقائه وسر نحوه مستصحبًا الرجاء مؤملاً الوصول إليه، ولكن ما كل من يَدَّعِى يُعْطَى بدعواه ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات عليم بالنيات فمن كان صادقًا فى ذلك أناله ما يرجو ومن كان كاذبًا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح ﴿وَمَن جَاهَدَ﴾ نفسه وشيطانه وعدوه الكافر ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه راجع إليه وثمرته عائدة إليه، و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ لم يأمرهم به لينتفع به ولا نهاهم عما نهاهم عنه بُخلاً منه عليهم وقد علم أن الأوامر والنواهى يحتاج المكلف فيها إلى جهاد لأن نفسه تتثاقل بطبعها عن الخير وشيطانه ينهاه عنه وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغى، وكل هذه معارضات تحتاج إلى مجاهدات وسعى شديد.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾

يعنى أن الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح سيكفر الله عنهم سيئاتهم لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهى أعمال الخير من واجبات ومستحبات فهى أحسن ما يعمل العبد لأنه يعمل المباحات أيضًا وغيرها.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

أى: وأمرنا الإنسان ووصيناه بوالديه حسنًا أى: ببرهما والإحسان إليهما بالقول والعمل وأن يحافظ على ذلك ولا يعقهما ويسىء إليهما فى قوله وعمله ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله وهذا تعظيم لأمر الشرك ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم وقدموا طاعتهما إلا على طاعة الله ورسوله فإنها مقدمة على كل شىء.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾

أى: من آمن بالله وعمل صالحًا فإن الله وعده أن يدخله الجنة فى جملة عباد الله الصالحين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه وأنه من أهل الرحمن ومن الصالحين من عباد الله.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾

لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادَّعى الإيمان ليظهر الصادق من الكاذب بيَّن تعالى أن من الناس فريقًا لا صبر لهم على المحن ولا ثبات لهم على بعض الزلازل فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ﴾ بضرب أو أخذ مال أو تعيير ليرتد عن دينه وليراجع الباطل ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أى: يجعلها صادةً له عن الإيمان والثبات عليه كما أن العذاب صادٌّ عما هو سببه ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾

لأنه موافق للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ حيث أخبركم بهذا الفريق الذى حاله كما وصف لكم فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أى: فلذلك قدَّر محنًا وابتلاء ليظهر علمه فيهم فيجازيهم بما ظهر منهم لا بما يعلمه بمجرده لأنهم قد يحتجون على الله أنهم لو ابتُلُوا لَثَبَتُوا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم وفى ضمن ذلك تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع فى مكرهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ فاتركوا دينكم أو بعضه واتبعونا فى ديننا فإننا نضمن لكم الأمر ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ وهذا الأمر ليس بأيديهم فلهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير، فهذا التحمل ولو رضى به صاحبه فإنه لا يفيد شيئًا فإن الحق لله والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف فى حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولما كان قوله ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ قد يتوهم منه أيضًا أن الكفار الداعين إلى كفرهم ـ ونحوهم ممن دعا إلى باطله ـ ليس عليهم إلا ذنبهم الذى ارتكبوه دون الذنب الذى فعله غيرهم ولو كانوا متسببين فيه قال محترزًا عن هذا الوهم: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أى: أثقال ذنوبهم التى عملوها ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهى الذنوب التى حصلت بسببهم ومن جرائهم، فالذنب الذى فعله التابع لكل من التابع والمتبوع حصة منه حصلت، هذا لأنه فعله وباشره والمتبوع لأنه تسبب فى فعله ودعا إليه، كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالمباشرة وللداعى أجره بالتسبب ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الشر وتزيينه وقولهم ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

يخبر تعالى عن حكمه وحكمته فى عقوبات الأمم المكذبة وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحًا عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة والنهى عن الأنداد والأصنام ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ نبيًا داعيًا ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ وهو لا يَنِى بدعوتهم ولا يفتر فى نصحهم يدعوهم ليلاً ونهارًا وسرًا وجهارًا فلم يرشدوا ولا اهتدوا بل استمروا على كفرهم وطغيانهم حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام مع شدة صبره وحلمه واحتماله فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ أى: الماء الذى نزل من السماء بكثرة ونبع من الأرض بشدة ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ مستحقون للعذاب ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ الذين ركبوا معه، أهله ومن آمن به ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أى: السفينة، أو قصة نوح ﴿آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعتبرون بها على أن من كذب الرسل آخر أمره الهلاك وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا، وجعل الله أيضًا السفينة أى: جنسها آية للعالمين يعتبرون بها رحمة ربهم الذى قيض لهم أسبابها ويسّر لهم أمرها وجعلها تحملهم وتحمل متاعهم من محل إلى محل ومن قطر إلى قطر.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي

ﭐلْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى الله فقال لهم: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ**﴾ أى: وحِّدوه وأخلصوا له العبادة وامتثلوا ما أمركم به ﴿**وَاتَّقُوهُ**﴾ أن يغضب عليكم فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصى ﴿**ذَلِكُمْ**﴾ أى: عبادة الله وتقواه ﴿**خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق «أفعل التفضيل» بما ليس فى الطرف الآخر منه شىء فإن ترك عبادة الله وترك تقواه لا خير فيه بوجه وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيرًا للناس لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته فى الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكل خير يوجد فى الدنيا والآخرة فإنه من آثار عبادة الله وتقواه ﴿**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ ذلك، فاعلموا الأمور وانظروا ما هو أولى بالإيثار. فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه نهاهم عن عبادة الأصنام وبيَّن لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية فقال: ﴿**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا**﴾ تنحتونها وتخلقونها بأيديكم وتخلقون لها أسماء الآلهة وتختلقون الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ فى نقصه وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته ﴿**لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا**﴾ فكأنه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة لا تملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا وأن من هذا وصفه لا يستحق أدنى أدنى مثقال مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله والقلوب لا بد أن تطلب معبودًا تألهه وتسأله حوائجها فقال - حاثًا لهم على من يستحق العبادة: ﴿**فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ**﴾ فإنه هو الميسر له المقدر المجيب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه ﴿**وَاعْبُدُوهُ**﴾ وحده لا شريك له لكونه الكامل النافع الضار المتفرد بالتدبير ﴿**وَاشْكُرُوا لَهُ**﴾ وحده لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها ﴿**إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ فيجازيكم على ما عملتم وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم وارغبوا فيما يقربكم إليه ويثيبكم - عند القدوم - عليه ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**﴾ يوم القيامة ﴿**إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ كما قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ ﴿**قُلْ**﴾ لهم إن حصل معهم ريب وشك فى الابتداء: ﴿**سِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿**فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**﴾ فإنكم ستجدون أممًا من الآدميين لا تزال توجد شيئًا فشيئًا، وتجدون النبات والأشجار كيف تحدث وقتًا بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها مستمرة فى تجددها، بل الخلق دائمًا فى بدء وإعادة فانظر إليهم وقت موتتهم الصغرى - النوم - وقد هجم عليهم الليل بظلامه فسكنت منهم الحركات وانقطعت منهم الأصوات وصاروا فى فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم حتى تنفلق الأصباح فانتبهوا من رقدتهم وبعثوا من موتتهم قائلين: «الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور».

ولهذا قال: ﴿**ثُمَّ اللَّهُ**﴾ بعد الإعادة ﴿**يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ**﴾ وهى النشأة التى لا تقبل موتًا ولا نومًا وإنما هو الخلود والدوام فى إحدى الدارين ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ فقدرته تعالى لا يعجزها شىء، وكما قدر بها على ابتداء الخلق فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى ﴿**يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ**﴾ أى: هو المنفرد بالحكم الجزائى وهو: إثابة الطائعين ورحمتهم وتعذيب العاصين والتنكيل بهم ﴿**وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ**﴾ أى: ترجعون إلى الدار التى بها تجرى عليكم أحكام عذابه ورحمته، فاكتسبوا فى هذه الدار ما هو من أسباب رحمته من الطاعات وابتعدوا عن أسباب عذابه وهى المعاصى ﴿**وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾ أى: يا هؤلاء المكذبين المتجرئين على المعاصى لا تحسبوا أنه مغفول عنكم أو أنكم معجزون لله فى الأرض ولا فى السماء فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخدعتكم من النجاة من عذاب الله فلستم بمعجزين الله فى جميع أقطار العالم ﴿**وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ**﴾ يتولاكم فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم ﴿**وَلَا نَصِيرٍ**﴾ ينصركم فيدفع عنكم المكاره.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخير وحصل لهم الشر، وأنهم الذين كفروا به وبرسله وبما جاءوهم به وكذبوا بلقاء الله فليس عندهم إلا الدنيا فلذلك أقدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصى لأنه ليس فى قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ أى: فلذلك لم يعملوا سببًا واحدًا يحصلون به الرحمة وإلا فلو طمعوا فى رحمته لعملوا لذلك أعمالاً، والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير وهو نوعان: إياس الكفار منها وتركهم كل سبب يقربهم منها وإياس العصاة بسبب كثرة جناياتهم أوحشتهم فملكت قلوبهم فأحدث لها الإياس ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: مؤلم موجع، وكأن هذه الآيات معترضات بين كلام إبراهيم لقومه وردهم عليه والله أعلم بذلك.

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

أى: فما كان مجاوبة قوم إبراهيم لإبراهيم حين دعاهم إلى ربه قبول دعوته والاهتداء بنصحه ورؤية نعمة الله عليهم بإرساله إليهم، وإنما كان مجاوبتهم له شر مجاوبة ﴿قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ أشنع القتلات وهم أناس مقتدرون لهم السلطان فألقوه فى النار ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ﴾ منها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل وبرهم ونصحهم وبطلان قول من خالفهم وناقضهم وأن المعارضين للرسل كأنهم تواصوا وحث بعضهم بعضًا على التكذيب ﴿وَقَالَ﴾ لهم إبراهيم فى جملة ما قاله من نصحه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: غاية ذلك مودة فى الدنيا ستنقطع وتضمحل ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أى: يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه سيتبرأ من عابديه ويلعنهم؟ ﴿وَ﴾ أن ﴿مَأْوَاكُمُ﴾ جميعًا العابدين والمعبودين ﴿النَّارُ﴾ وليس أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم عقابه.

﴿ ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

أى: لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه وهم مستمرون على عنادهم إلا أنه آمن له بدعوته لوط الذى نبأه الله وأرسله إلى قومه، كما سيأتى ذكره ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئًا: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أى: هاجر أرض السوء ومهاجر إلى الأرض المباركة وهى الشام ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى: الذى له القوة وهو يقدر على هدايتكم ولكنه ﴿الْحَكِيمُ﴾ ما اقتضت حكمته ذلك، ولما اعتزلهم وفارقهم وهم بحالهم لم يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب بل ذكر اعتزاله إياهم وهجرته من بين أظهرهم، فأما ما يذكر فى الإسرائيليات أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض فشرب دماءهم وأكل لحومهم وأتلفهم عن آخرهم فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعى ولم يوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة، ولكن هل من أسرار ذلك أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم وأحلمهم وأجلهم فلم يدع على قومه كما دعا غيره ولم يكن الله ليجرى عليهم بسببه عذابًا عامًا؟ ومما يدل على ذلك أنه راجع الملائكة فى إهلاك قوم لوط وجادلهم ودافع عنهم وهم ليسوا قومه، والله أعلم بالحال ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أى: بعدما هاجر إلى الشام ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فلم يأت بعده نبى إلا من ذريته ولا نزل كتاب إلا على ذريته حتى ختموا بابنه محمد ﷺ وعليهم أجمعين، وهذا من أعظم المناقب والمفاخر أن تكون مواد الهداية

والرحمة والسعادة والفلاح والفوز فى ذريَّته وعلى أيديهم اهتدى المهتدون وآمن المؤمنون وصلح الصالحون: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ من الزوجة الجميلة فائقة الجمال والرزق الواسع والأولاد الذين بهم قرت عينه ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بل وهو ومحمد ﷺ أفضل الصالحين على الإطلاق وأعلاهم منزلة فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

تقدم أن لوطًا عليه السلام آمن لإبراهيم وصار من المهتدين به وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم وإنما هو ابن أخى إبراهيم، فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وإن كان عامًا فلا يناقض كون لوط نبيًا رسولاً وهو ليس من ذريته لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطًا اهتدى على يديه ومن اهتدى على يديه أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادى والله أعلم، فأرسل الله لوطًا إلى قومه وكانوا مع شركهم قد جمعوا بين فعل الفاحشة فى الذكور وقطع السبيل وفشو المنكرات فى مجالسهم فنصحهم لوط عن هذه الأمور وبيَّن لهم قبائحها فى نفسها وما تئول إليه من العقوبة البليغة فلم يرعووا ولم يذكروا ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأيس منهم نبيهم وعلم استحقاقهم العذاب وجزع من شدة تكذيبهم له فدعا عليهم و ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ فاستجاب الله دعاءه فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل ذلك وبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط فجعل يراجعهم ويقول ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فقالوا له: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ثم مضوا حتى أتوا لوطًا فساءه مجيئهم وضاق بهم ذرعًا بحيث إنه لم يعرفهم وظن أنهم من جملة الضيوف أبناء السبيل فخاف عليهم من قومه فقالوا له: ﴿لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ﴾ وأخبروه أنهم رسل الله ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ أى: عذابًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فأمروه أن يسرى بأهله ليلاً فلما أصبحوا قلب الله عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم فصاروا سمرًا من الأسمار وعبرة من العبر ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى: تركنا من ديار قوم لوط آثارًا بينة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم فينتفعون بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

أى ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة المشهورة ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ الذى أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له والإيمان بالبعث ورجائه والعمل له ونهاهم عن الإفساد فى الأرض ببخس المكاييل والموازين والسعى

بقطع الطرق ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أى عذاب الله ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[1] أى: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود وقد علمت قصتهم وتبين لكم بشىء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التى بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات المفيدة للبصيرة فكذبوهم وجادلوهم.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل، وكذلك قارون وفرعون وهامان حين بعث الله إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات والبراهين الساطعات فلم ينقادوا واستكبروا فى الأرض على عباد الله فاذلوهم وعلى الحق فردوه فلم يقدروا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ الله ولا فائتين بل سلموا واستسلموا ﴿فَكُلاًّ﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ على قدره وبعقوبة مناسبة له ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أى: عذابًا يحصبهم كقوم عاد حين أرسل الله عليهم الريح العقيم و ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كقوم صالح ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ كقارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كفرعون وهامان وجنودهما ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ أى: ما ينبغى ولا يليق به ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لكمال عدله وغناه التام عن جميع الخلق ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ منعوها حقها الذى هى بصدده فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده فهؤلاء وضعوها فى غير موضعها وشغلوها بالشهوات والمعاصى فضروها غاية الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعونها.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره يقصد به التعزز والتَّقَوِّى والنفع وأن الأمر بخلاف مقصوده فإن مثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا يقيها من الحر والبرد والآفات ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ أى: أضعفها وأوهاها ﴿لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة وبيتها من أضعف البيوت فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفًا، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم ازدادوا ضعفًا إلى ضعفهم ووهنًا إلى وهنهم، فإن اتكلوا عليهم فى كثير من مصالحهم وألقوها عليهم تخلوا هم عنها على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم فلم يحصلوا منهم على طائل ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل، فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم وحال من اتخذوهم لم يتخذوهم ولتبرءوا منهم ولتولوا الرب القادر الرحيم الذى إذا تولاه عبده وتوكل عليه كفاه مؤونة دينه ودنياه وازداد قوة إلى قوته فى قلبه وبدنه وحاله وأعماله، ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه وأنها ليست بشىء بل

---

(١) قوله: «جاثمين» المراد: «ميتين قعودًا» وفى المختار من الصحاح جثم الطائر: تلبد بالأرض وبابه «دخل» و «جلس» وكذا الإنسان. اهـ. أى: تلبد بالأرض، وقال الراغب فى مفردات ألفاظ القرآن «جاثمين» استعارة للمقيمين، من قولهم: جثم الطائر إذا قعد ولطئ بالأرض. اهـ. أى: لصق بالأرض.

هي مجرد أسماء سموها وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق يتبين للعاقل بطلانها وعدمها ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: إنه تعالى يعلم ـ وهو عالم الغيب والشهادة ـ أنهم ما يدعون من دون الله شيئًا موجودًا ولا إلهًا له حقيقة كقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ وقوله ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة جميعًا الذي قهر بها جميع الخلق ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقن ما أمره ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم لكونها من الطرق الموضحة للعلوم لأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة فيتضح المعنى المطلوب بسببها فهي مصلحة لعموم الناس ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا يَعْقِلُهَا﴾ بفهمها وتدبرها وتطبيقها على ما ضربت له وعقلها في القلب ﴿إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ أي: إلا أهل العلم الحقيقي الذين وصل العلم إلى قلوبهم، وهذا مدح للأمثال التي يضربها وحثٌّ على تدبرها وتعقلها ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين، والسبب في ذلك أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار والمطالب العالية والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها لاعتناء الله بها وحثه عباده على تعقلها وتدبرها فيبذلون جهدهم في معرفتها، وأما من لم يعقلها مع أهميتها فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى، ولهذا أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

أي: هو تعالى المنفرد بخلق السموات على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق أي لم يخلقها عبثًا ولا سدى ولا لغير فائدة، وإنما خلقها ليقوم أمره وشرعه ولتتم نعمته على عباده وليروا من حكمته وقهره وتدبيره ما يدلهم على أنه وحده معبودهم ومحبوبهم وإلههم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على كثير من المطالب الإيمانية إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عيانًا.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله وهو: هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته اتباعه بامتثال ما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه والاهتداء بهداه وتصديق أخباره وتدبر معانيه وتلاوة ألفاظه فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب علم أن إقامة الدين كلها داخلة في تلاوة الكتاب، فيكون قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ من باب عطف الخاص على العام لفضل الصلاة وشرفها وآثارها الجميلة وهي ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ فالفحشاء كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس، والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر، ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر أن العبد المقيم لها المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها يستنير قلبه ويتطهر فؤاده ويزداد إيمانه وتقوى رغبته في الخير وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، فبالضرورة مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه تنهى عن الفحشاء والمنكر فهذا من أعظم مقاصد الصلاة وثمراتها، وثَمَّ في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر وهو: ما اشتملت عليه من ذكر الله بالقلب واللسان والبدن، فإن الله تعالى إنما خلق العباد لعبادته وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها أخبر أن ذكره تعالى خارج الصلاة أكبر من الصلاة، كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى لأن الذكر في الصلاة أفضل من الذكر خارجها ولأنها ـ كما تقدم ـ بنفسها من أكبر الذكر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من خير وشر فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانت عن غير بصيرة من المجادل أو بغير قاعدة مرضية وأن لا يجادلوا إلا بالتى هى أحسن بحسن خلق ولطف ولين كلام ودعوة إلى الحق وتحسينه ورد الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من أهل الكتاب بأن ظهر من قصد المجادل منهم وحاله أنه لا إرادة له في الحق وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة فى جداله لأن المقصود منها ضائع ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ أى: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح فى شيء من الكتب الإلهية أو بأحد من الرسل كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم يقدح بجميع ما معهم من حق وباطل فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب المناظرة فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل ويقبل ما معه من الحق ولا يرد الحق لأجل قوله ولو كان كافرًا، وأيضًا فإن بناء مناظرة أهل الكتاب على هذا الطريق فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن وبالرسول الذى جاء به، فإنه إذا تكلم فى الأصول الدينية والتى اتفقت عليها الأنبياء والكتب وتقررت عند المتناظرين وثبتت حقائقها عندهما وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ قد بينتها ودلت وأخبرت بها فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها والرسل كلهم وهذا من خصائص الإسلام، فأما أن يقال: نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلانى دون الكتاب الفلانى وهو الحق الذى صدق ما قبله فهذا ظلم وهوى وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها المصدق لما بين يديه فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن، وأيضًا فإن كل طريق تثبت بها نبوة أى نبى كان فإن مثلها، وأعظم منها دالة على نبوة محمد ﷺ وكل شبهة يقدح بها فى نبوة محمد ﷺ فإن مثلها أو أعظم منها يمكن توجيهها إلى نبوة غيره، فإذا ثبت بطلانها فى غيره فثبوت بطلانها فى حقه ﷺ أظهر وأظهر، وقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أى: منقادون مستسلمون لأمره ومن آمن به واتخذه إلهًا وآمن بجميع كتبه ورسله وانقاد لله واتبع رسله فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق فهو الشقى.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

أى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد هذا ﴿الْكِتَابَ﴾ الكريم المبين كل نبأ عظيم، الداعى إلى كل خلق فاضل وأمر كامل المصدق للكتب السابقة المخبر به الأنبياء الأقدمون ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فعرفوه حق معرفته ولم يداخلهم حسد وهوى ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لأنهم تيقنوا صدقه بما لديهم من الموافقات وبما عندهم من البشارات وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقبيح والصدق والكذب ﴿وَمِنْ هَؤُلاءِ﴾ الموجودين ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ إيمانًا عن بصيرة لا عن رغبة ولا رهبة ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ﴾ الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له، وهذا حصر لمن كفر به أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق، وإلا فكل من له قصد صحيح فإنه لا بد أن يؤمن به لما اشتمل عليه من البينات لكل من له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد، ومما يدل على صحته أنه جاء به هذا النبى الأمين الذى عرف قومه صدق وأمانته ومدخله ومخرجه وسائر أحواله وهو لا يكتب بيده خطًا بل ولا يقرأ خطًا مكتوبًا فإتيانه به فى هذه الحال من أظهر البينات القاطعة التى لا تقبل الارتياب أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو﴾ أى تقرأ ﴿مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا﴾ لو كنت بهذه

الحال ﴿لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك كتابًا جليلاً تحديت به الفصحاء البلغاء الأعداء الألداء أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله فعجزوا غاية العجز بل ولا حدثتهم أنفسهم بالمعارضة لعلمهم ببلاغته وفصاحته وأن كلام أحد من البشر لا يبلغ أن يكون مجاريًا له أو على منواله، ولهذا قال:

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿بَلْ هُوَ﴾ أى: هذا القرآن ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ لا خفيات ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم: سادة الخلق وعقلاؤهم وأولو الألباب منهم والكمل منهم، فإذا كان آيات بينات فى صدور أمثال هؤلاء كانوا حجة على غيرهم وإنكار غيرهم لا يضر ولا يكون ذلك إلا ظلمًا، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ لأنه لا يجحدها إلا جاهل تكلم بغير علم ولم يقتد بأهل العلم ومن هو متمكن من معرفته على حقيقته أو متجاهل عرف أنه حق فعانده وعرف صدقه فخالفه.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

أى: واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به واقترحوا عليه نزول آيات عينوها كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ الآيات، فتعيين الآيات ليس عندهم ولا عند الرسول ﷺ فإن فى ذلك تدابير مع الله وأنه لو كان كذا وينبغى أن يكون كذا وليس لأحد من الأمر شىء، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ إن شاء أنزلها أو منعها ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وليس لى مرتبة فوق هذه المرتبة، وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل فإذا حصل المقصود - بأى طريق - كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلمًا وجورًا وتكبرًا على الله وعلى الحق، بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات ويكون فى قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها كان ذلك ليس بإيمان وإنما ذلك شىء وافق أهواءهم فآمنوا لا لأنه حق بل لتلك الآيات، فأى فائدة حصلت فى إنزالها على التقدير الفرضى؟ ولما كان المقصود بيان الحق ذكر تعالى طريقه فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ فى علمهم بصدقك وصدق ما جئت به ﴿أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا كلام مختصر جامع فيه من الآيات البينات والدلالات الباهرات شىء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرده وهو أمى من أكبر الآيات على صدقه، ثم عجزهم عن معارضته وتحديهم إياه آية أخرى، ثم ظهوره وبروزه جهرًا علانية يتلى عليهم ويقال: هو من عند الله قد أظهره الرسول وهو فى وقت قلَّ فيه أنصاره وكثر مخالفوه وأعداؤه فلم يخفه ولم يثن ذلك عزمه بل خرج به على رءوس الأشهاد ونادى به بين الحاضر والباد بأن هذا كلام ربى فهل أحد يقدر على معارضته أو ينطق بمباراته[1] أو يستطيع مجاراته؟ ثم هيمنته على الكتب المتقدمة وتصحيحه للصحيح ونَفْىُ ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل فى أمره ونهيه، فما أمر بشىء فقال العقل «ليته لم يأمر به» ولا نهى عن شىء قال العقل «ليته لم ينه عنه» بل هو مطابق للعدل والميزان والحكمة المعقولة لذوى البصائر والعقول، ثم مسايرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به، فجميع ذلك يكفى من أراد تصديق الحق وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من له يكفه القرآن ولا شفى الله

---

(١) قوله: أو ينطق بمباراته الأولى أن يقال: أو «ينطق بعباراته» أو سيبرز ويتحدى بمباراته» حتى يكون الكلام واضحًا بعيدًا عن ارتكاب المجازات والتأويلات فإن المباراة لا تكون بالنطق بل بالفعل.

من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى فإنه رحمة له وخير فلذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لما يحصل فيه من العلم الكثير والخير الغزير وتزكية القلوب والأرواح وتطهير العقائد وتكميل الأخلاق والفتوحات الإلهية والأسرار الربانية ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ فأنا قد استشهدته فإن كنت كاذبًا أحلَّ بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني وينصرني وييسر لي الأمور فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته ـ وأنتم لم تسمعوه ولم تروه ـ لا تكفي دليلاً فإنه ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن جملة معلوماته حالي وحالكم ومقالي لكم، فلو كنت متقولاً عليه مع علمه بذلك وقدرته على عقوبتي، لكان قدحًا في علمه وقدرته وحكمته كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه، واليوم الآخر وحيث فاتهم النعيم المقيم وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به وأنهم يقولون استعجالاً للعذاب وزيادة تكذيب: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول تعالى ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ مضروب لنزوله ولم يأت بعد ﴿لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بسبب تعجيزهم لنا وتكذيبهم الحق، فلو آخذناهم بجهلهم لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ولكن ـ مع ذلك ـ فلا يستبطئوا نزوله ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فوقع كما أخبر الله تعالى لما قدموا لـ «بدر» بطرين مفاخرين ظانين أنهم قادرون على مقصودهم، فأذلهم الله وقتل كبارهم واستوعب جملة أشرارهم ولم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا ونزل بهم وهم لا يشعرون، هذا وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي فإن أمامهم العذاب الأخروي الذي لا يخلص منهم أحد منه سواء عوجل بعذاب الدنيا أو أمهل ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ليس لهم عنها معدل ولا منصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب هو العذاب الشديد ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذابًا وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وصدقوا رسولي ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض فارتحلوا منها إلى أرض أخرى حيث كانت العبادة لله وحده، فأماكن العبادة ومواضعها واسعة والمعبود واحد والموت لا بد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية والمنازل الأنيقة الجامعة لما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون، فـ ﴿نِعْمَ﴾ تلك المنازل في جنات النعيم ﴿أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ لله ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على عبادة الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في ذلك، فصبرهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك والمحاربة العظيمة للشيطان الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك، وتوكلهم يقتضي شدة اعتمادهم على الله وحسن ظنهم به

أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل وإن كان داخلاً فى الصبر لأنه يحتاج إليه فى كل فعل وترك مأمور به ولا يتم إلا به.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

أى: البارى تبارك وتعالى قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم قويهم وعاجزهم، فكم ﴿مِّن دَابَّةٍ﴾ فى الأرض ضعيفة القوى ضعيفة العقل ﴿لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ ولا تدخره بل لم تزل لا شىء معها من الرزق ولا يزال الله يسخر لها الرزق فى كل وقت بوقته ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ فكلكم عيال الله القائم برزقكم كما قام بخلقكم وتدبيركم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلا تخفى عليه خافية ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

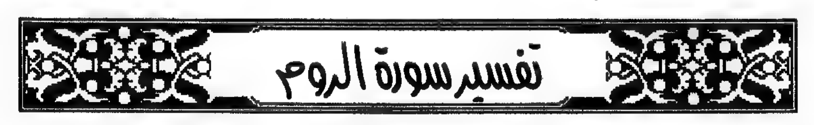
هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنت لو سألتهم من خلق السموات والأرض ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وحده ولاعترفوا بعجز الأوثان ومن عبدوه مع الله عن شىء من ذلك، فاعجب لإفكهم وكذبهم وعدولهم إلى من أقروا بعجزه وأنه لا يستحق أن يدبر شيئًا وسَجِّل عليهم عدم العقل وأنهم السفهاء ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلاً وأقل بصيرة ممن أتى إلى حجر أو قبر ونحوه وهو يدرى أنه لا ينفع ولا يضر ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص وصافى العبادية وأشركه مع الرب الخالق الرازق النافع الضار، و ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذى بيَّن الهدى من الضلال وأوضح بطلان ما عليه المشركون ليحذره الموفقون وقل: الحمد لله الذى خلق العالم العلوى والسفلى وقام بتدبيرهم ورزقهم وبسط الرزق على من يشاء وضيقه عمن يشاء حكمة منه ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغى لهم.

﴿ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة وفى ضمن ذلك التزهيد فى الدنيا والتشويق للأخرى فقال: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فى الحقيقة ﴿إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ تلهو بها القلوب وتلعب بها الأبدان بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة الباهجة للعيون الغافلة المفرحة للنفوس المبطلة الباطلة، ثم تزول سريعًا وتنقضى جميعًا ولم يحصل منها محبها إلا على الندم والخسران ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أى: الحياة الكاملة التى من لوازمها أن تكون أبدان أهلها فى غاية القوة وقواهم فى غاية الشدة لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة وأن يكون موجودًا فيها كل ما تكمل به الحياة وتتم به اللذة من مفرحات القلوب وشهوات الأبدان من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿لَوْ كَانُوا

﴿يَعْلَمُونَ﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان ورغبوا فى دار اللهو واللعب، فدل ذلك أن الذين يعلمون لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا لما يعلمونه من حالة الدارين، ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله فى حال الشدة عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك يتركون وقتذاك أندادهم ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر أشركوا به من لا نجاهم من شدة ولا أزال عنهم مشقة، فهلا أخلصوا لله الدعاء فى حال الرخاء والشدة واليسر والعسر ليكونوا مؤمنين حقًا مستحقين ثوابه مندفعًا عنهم عقابه، ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم بالنجاة من البحر ليكون عاقبته الكفر بما آتيناهم ومقابلة النعمة بالإساءة وليكملوا تمتعهم فى الدنيا الذى هو كتمتع الأنعام ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة شدة الأسف وأليم العقوبة، ثم امتن عليهم بحرمه الآمن وأنهم أهله فى أمن وسعة ورزق والناس من حولهم يتخطفون ويخافون فلا يعبدون الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو ما هم عليه من الشرك والأقوال والأفعال الباطلة ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ هم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ فأين ذهبت عقولهم وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى والباطل على الحق والشقاء على السعادة وحيث كانوا أظلم الخلق ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ على يد رسوله محمد ﷺ، ولكن هذا الظالم العنيد أمامه جهنم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ يؤخذ بها منهم الحق ويخزون بها وتكون منزلهم الدائم الذى لا يخرجون منه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ وهم الذين هاجروا فى سبيل الله وجاهدوا أعداءهم وبذلوا مجهودهم فى اتباع مرضاته ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أى: الطرق الموصلة إلينا وذلك لأنهم محسنون ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالعون والنصر والهداية دل هذا على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية وعلى أن من جد واجتهد فى طلب العلم الشرعى فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية خارجة عن مدرك اجتهاده وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعى من الجهاد فى سبيل الله بل هو أحد نَوْعَى الجهاد الذى لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين وعلى رد نزاع المخالفين للحق ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت ولله الحمد والمنة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾

كانت الفرس والروم فى ذلك الوقت من أقوى دول الأرض وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول المتوازنة، وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المسلمون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون لاشتراكهم والفرس فى الشرك يحبون ظهور الفرس على الروم، فظهر الفرس على الروم وغلبوهم غلبًا لم يحط بملكهم بل أدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة وحزن المسلمون فأخبرهم الله ووعدهم أن الروم ستغلب

الفرس ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ تسع أو ثمان ونحو ذلك مما لا يزيد فى العشر ولا ينقص عن الثلاث وأن غلبة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هى لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ أى: يفرحون بانتصارهم على الفرس وإن كان الجميع كفاراً ولكن بعض الشر أهون من بعض ويحزن يومئذ المشركون ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى له العزة التى قهر بها الخلائق أجمعين «يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء» ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين حيث قيض لهم من الأسباب التى تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل فى الحساب ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فتيقنوا ذلك واجزموا به واعلموا أنه لا بد من وقوعه، فلما نزلت هذه الآيات التى فيها هذا الوعد صدق بها المسلمون وكفر بها المشركون حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عينوها، فلما جاء الأجل الذى ضربه الله انتصر الروم على الفرس وأجلوهم عن البلاد التى أخذوها منهم وتحقق وعد الله، وهذا من الأمور الغيبية التى أخبر بها الله قبل وقوعها ووجدت فى زمان من أخبرهم الله بها من المسلمين والمشركين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما وعد الله به حق فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعده ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون أى: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فينظرون إلى الأسباب ويجزمون بوقوع الأمر الذى فى رأيهم انعقدت أسباب وجوده ويتيقنون عدم الأمر الذى لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئًا فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها ولا النار تخافها وتخشاها ولا المقام بين يدى الله ولقائه يروعها ويزعجها وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة، ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء فى ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا وأعجبوا بعقولهم ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء وهم مع ذلك أبلد الناس فى أمر دينهم وأشدهم غفلة عن آخرتهم وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة فى جهلهم يتخبطون وفى ضلالهم يعمهون وفى باطلهم يترددون ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ولو نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة فى الدنيا وظاهرها وما حرموا من العقل العالى لعرفوا أن الأمر لله والحكم له فى عباده وإن هو إلا توفيقه أو خذلانه ولخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه ويحلوا بساحته، وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرقى العالى والحياة الطيبة، ولكنها لما بنى كثير منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾

أى: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسل الله ولقائه ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ فإن فى أنفسهم آيات يعرفون بها أن الذى أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك وأن الذى نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمى قد نفخ فيه الروح إلى طفل إلى شاب إلى شيخ إلى هرم غير لائق أن يتركهم سدى مهملين لا يُنهون ولا يؤمرون ولا يثابون

ولا يعاقبون ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أى: ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أى: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضى به الدنيا وتقوم القيامة وتبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ فلذلك لم يستعدوا للقائه ولم يصدقوا رسله التى أخبرت به وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة دلت على البعث والجزاء ولهذا نبههم على السير فى الأرض والنظر فى عاقبة الذين كذبوا رسلهم وخالفوا أمرهم ممن هم أشد من هؤلاء قوة وأكثر آثاراً فى الأرض من بناء قصور ومصانع ومن غرس أشجار ومن زرع وإجراء أنهار، فلم تغن عنهم قوتهم ولا نفعتهم آثارهم حين كذبوا رسلهم الذين جاءوهم بالبينات الدالات على الحق وصحة ما جاءوهم به، فإنهم حين ينظرون فى آثار أولئك لم يجدوا إلا أممًا بائدة وخلقًا مهلكين ومنازل بعدهم موحشة وذم من الخلق عليهم متتابع، وهذا جزاء معجل توطئة للجزاء الأخروى ومبتدأ له، وكل هذه الأمم المهلكة لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك وإنما ظلموا أنفسهم وتسببوا فى هلاكها ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا﴾ أى: المسيئين ﴿السُّوأَى﴾ أى: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعيًا لهم إلى ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فهذا عقوبة إساءتهم وذنوبهم ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب يكون سببًا لأعظم العقوبات وأعضل المثلات.

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات ثم يعيدهم ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم ليجازيهم بأعمالهم ولهذا ذكر جزاء أهل الشر ثم جزاء أهل الخير فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ويقوم الناس لرب العالمين ويردون القيامة عيانًا، يومئذ ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أى: ييأسون من كل خير، وذلك لأنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجرام وهو الذنوب من كفر وشرك ومعاصى، فلما قدموا أسباب العقاب ولم يخلطوها بشىء من أسباب الثواب أيسوا وأبلسوا وأفلسوا وضل عنهم ما كانوا يفترونه من نفع شركائهم وأنهم يشفعون لهم، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ﴾ التى عبدوها مع الله ﴿شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله وتبرأ المعبودون وقالوا ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ والتعنوا وابتعدوا، وفى ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر كما افترقت أعمالهم فى الدنيا ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وآمنوا بقلوبهم وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتهيات ﴿يُحْبَرُونَ﴾ أى: يسرون وينعمون بالمآكل اللذيذة والأشربة والحور الحسان والخدم والولدان والأصوات المطربات والسماع المبهج والمناظر العجيبة والروائح الطيبة والفرح والسرور واللذة والحبور مما لا يقدر أحد أن يصفه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا نعمه وقابلوهم بالكفر ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التى جاءتهم بها رسلنا ﴿فَأُوْلَئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم واطّلع العذاب الأليم على أفئدتهم وشوى الحميم وجوههم وقطّع أمعاءهم فأين الفرق بين الفريقين وأين التساوى بين المنعمين والمعذبين؟.

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص وتقدسه عن أن يماثله أحد من الخلق وأمر للعباد أن يسبحوه حين يمسون وحين يصبحون ووقت العشى ووقت الظهيرة، فهذه الأوقات الخمسة أوقات الصلوات الخمس أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل فى ذلك الواجب منه كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب

كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات وما يقترن بها من النوافل لأن هذه الأوقات التى اختارها الله لأوقات المفروضات هى أفضل الأوقات، فالتسبيح والتحميد فيها والعبادة فيها أفضل من غيرها بل العبادة وإن لم تشتمل على قوله «سبحان الله» فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل أن يكون له شريك فى العبادة أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج النبات من الأرض الميتة والسنبلة من الحبة والشجرة من النواة والفرخ من البيضة والمؤمن من الكافر ونحو ذلك ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ بعكس المذكور ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فينزل عليها المطر وهى ميتة هامدة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم، فهذا دليل قاطع وبرهان ساطع أن الذى أحيا الأرض بعد موتها يحيى الأموات، فلا فرق فى نظر العقل بين الأمرين ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

هذا شروع فى تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية وكمال عظمته ونفوذ مشيئته وقوة اقتداره وجميل صنعه وسعة رحمته وإحسانه فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وذلك بخلق أصل النسل آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ وبثكم فى أقطار الأرض وأرجائها، ففى ذلك آيات على أن الذى أنشأكم من هذا الأصل وبثكم فى أقطار الأرض هو الرب المعبود الملك المحمود والرحيم الودود الذى سيعيدكم بالبعث بعد الموت ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ تناسبكم وتناسبونهن وتشاكلكم وتشاكلونهن ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم والسكون إليها، فلا تجد بين اثنين فى الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يُعمِلُون أفكارهم ويتدبرون آيات الله وينتقلون من شىء إلى شىء.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

والعالمون هم أهل العلم الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات، وآيات الله فى ذلك كثيرة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما، فإن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره الذى أوجد هذه المخلوقات العظيمة وكمال حكمته لما فيها من الإتقان وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ وعموم رحمته وفضله لما فى ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد الذى يختار ما يشاء لما فيها من التخصيصات والمزايا وأنه وحده الذى يستحق أن يعبد ويوحد لأنه المنفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة، فكل هذه أدلة عقلية نبه الله العقول إليها وأمرها بالتفكر واستخراج العبرة منها ﴿وَ﴾ كذلك فى ﴿اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه ولا لونين متشابهين من كل وجه إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ أى: إن هذا دال على كمال قدرته ونفوذ مشيئته، ومن عنايته بعباده ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف لئلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أى: سماع تدبر وتعقل للمعانى والآيات فى ذلك، إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى كما قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وعلى تمام حكمته إذ حكمته اقتضت

سكون الخلق فى وقت ليستريحوا ويستجموا وانتشارهم فى وقت لمصالحهم الدينية والدنيوية ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك هو المستحق للعبادة.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

أى: ومن آياته أن ينزل عليكم المطر الذى تحيا به البلاد والعباد ويريكم قبل نزوله مقدماته من الرعد والبرق الذى يُخاف ويُطمَع فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دالة على عموم إحسانه وسعة علمه وكمال إتقانه وعظيم حكمته وأنه يحيى الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى: لهم عقول تعقل بها ما تسمعه وتراه وتحفظه وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

أى: ومن آياته العظيمة أن قامت السموات والأرض واستقرتا وثبتتا بأمره فلم تتزلزلا ولم تسقط السماء على الأرض، فقدرته العظيمة التى بها أمسك السموات والأرض أن تزولا يقدر بها على أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض إذا هم يخرجون ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ ﴿وَلَهُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الكل خلقه ومماليكه والمتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض وكلهم قانتون لجلاله خاضعون لكماله ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ﴾ أى إعادة الخلق بعد موتهم ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ من ابتداء خلقهم وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول فإذا كان قادراً على الابتداء الذى تقرون به كانت قدرته على الإعادة التى هى أهون أولى وأولى، ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعتبرون ويتذكر المؤمنون ويستبصر المهتدون ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير فقال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو كل صفة كمال، والكمال فى تلك الصفة والمحبة والإنابة التامة الكاملة فى قلوب عباده المخلصين والذكر الجليل والعبادة منهم، فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما يترتب عليه، ولهذا كان أهل العلم يستعملون فى حق البارى قياس الأولى فيقولون: كل صفة كمال فى المخلوقات فخالقها أحق بالاتصاف بها على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص فى المخلوق ينزه عنه فتنزيه الخالق عنه من باب أولى وأحرى ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: له العزة الكاملة والحكمة الواسعة، فبعزته أوجد المخلوقات وأظهر المأمورات وبحكمته أتقن ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذا مثل ضربه الله لقبح الشرك وتهجينه مثلاً من أنفسكم لا يحتاج إلى حل وترحال وإعمال الجمال ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أى: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم فى رزقكم وترون أنكم وهم فيه على حد سواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أى: كالأحرار الشركاء فى الحقيقة الذى يخاف من قسمه واختصاص كل شىء بماله؟ ليس الأمر كذلك فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكًا لكم فيما رزقكم الله تعالى، هذا ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم وهم أيضًا مماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكًا من خلقه وتجعلونه بمنزلته وعديلاً له فى العبادة وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم؟ وهذا من أعجب الأشياء ومن أدل شىء على سفه من اتخذ شريكًا مع الله وأن ما اتخذه باطل مضمحل ليس مساويًا لله

ولا له من العبادة شيء ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الحقائق ويعرفون، وأما من لا يعقل فلو فُصِّلَتْ له الآيات وبينت له البينات لم يكن له عقل يبصر به ما تبين ولا لُب يعقل به ما توضح فأهل العقول والألباب هم الذين يساق إليهم الكلام ويوجه الخطاب، وإذا علم من هذا المثال أن من اتخذ من دون الله شريكًا يعبده ويتوكل عليه في أموره ليس معه من الحق شيء فما الذي أوجب لهم الإقدام على أمر باطل توضح بطلانه وظهر برهانه؟ لقد أوجب لهم ذلك اتباع الهوى فلهذا قال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصها ما تعلق به هواها أمرًا[1] يجزم العقل بفساده والفطر برده بغير علم دلهم عليه ولا برهان قادهم إليه ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم ولا طريق لهداية من أضل الله لأنه ليس أحد معارضًا لله أو منازعًا له في ملكه ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب وتنقطع بهم الوصل والأسباب.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾

يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال وإقامة دينه فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: انصبه ووجهه ﴿لِلدِّينِ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها، وشرائعه الباطنة كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة بأن تعبد الله فيها كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وخص الله إقامة الوجه لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب ويترتب على الأمرين سَعْيُ البدن ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مقبلاً على الله في ذلك معرضًا عما سواه، وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ووضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها، إن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق وهذا حقيقة الفطرة ومن خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها كما قال النبي ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد يبدل خلق الله فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أمرناك به ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى دار كرامته فإن من أقام وجهه للدين حنيفًا فإنه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه وطرقه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يتعرفون الدين القيم وإن عرفوه لم يسلكوه ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإنابة إنابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى، ويلزم من ذلك عمل البدن بمقتضى ما في القلب فشمل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة فلذلك قال: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات، وخص من المأمورات الصلاة بقوله ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى، كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ فهذا إعانتها على التقوى، ثم قال ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فهذا حثها على الإنابة، وخص من المنهيات أصلها والذي لا يقبل معه عمل وهو الشرك فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لكون الشرك مضادًا للإنابة التي روحها الإخلاص من كل وجه، ثم ذكر حالة المشركين مهجنًا لها ومقبحًا فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ مع أن الدين واحد وهو إخلاص العبادة لله وحده وهؤلاء المشركون فرقوه: منهم من يعبد الأوثان والأصنام ومنهم من يعبد الشمس والقمر ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين ومنهم يهود ومنهم نصارى، ولهذا قال: ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: كل فرقة تحزبت وتعصبت على نصر

---

(١) قوله: «أمرًا» مفعول به لقوله «هويت أنفسهم».

ما معها من الباطل ومنابذة غيرهم ومحاربتهم ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فَرِحُونَ﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق وأن غيرهم على باطل، وفى هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقًا كل فريق يتعصب لما معه من حق وباطل فيكونون مشابهين بذلك للمشركين فى التفرق بل الدين واحد والرسول واحد والإله واحد وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة والأخوة الإيمانية قد عقدها الله وربطها أتم ربط فما بال ذلك كله يُلْغَى ويُبْنَى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية أو فروع خلافية يضلل بها بعضهم بعضًا ويتميز بها بعضهم على بعض؟ فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده التى كاد بها المسلمين وهل السعى فى جمع كلمتهم وإزالة ما بينهم من الشقاق المبنى على ذلك الأصل الباطل إلا من أفضل الجهاد فى سبيل الله وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟ ولما أمر تعالى بالإنابة إليه والإنابة المأمور بها هى الإنابة الاختيارية التى تكون فى حَالَىِ العسر واليسر والسعة والضيق ذكر الإنابة الاضطرارية التى لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكربه فإذا زال عنه الضيق نبذها وراء ظهره وهذه غير نافعة فقال:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ مرض أو خوف من هلاك ونحوه ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ونسوا ما كانوا به يشركون فى تلك الحال لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ فشفاهم من مرضهم وآمنهم من خوفهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ ينقضون تلك الإنابة التى صدرت منهم ويشركون به من لا أسعدهم ولا أشقى ولا أفقرهم ولا أغنى، وكل هذا كفر بما آتاهم الله ومَنَّ به عليهم حيث أنجاهم وأنقذهم من الشدة وأزال عنهم المشقة، فهلا قابلوا هذه النعمة الجليلة بالشكر والدوام على الإخلاص له فى جميع الأحوال؟ ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أى: حجة ظاهرة ﴿فَهُوَ﴾ أى: ذلك السلطان ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ ويقول لهم: اثبتوا على شرككم واستمروا على شككم فإن ما أنتم عليه هو الحق وما دعتكم الرسل إليه باطل، فهل ذلك السلطان موجود عندهم حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمعية والكتب السماوية والرسل الكرام وسادات الأنام قد نهوا أشد النهى عن ذلك وحذروا من سلوك طرقه الموصلة إليه وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟ فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان وإنما هو أهواء النفوس ونزغات الشيطان.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس فى حالى الرخاء والشدة أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة من صحة وغنى ونصر ونحو ذلك فرحوا بذلك فرح بطر لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أى: حال تسوؤهم وذلك ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصى ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ييأسون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه، وهذا جهل منهم وعدم معرفة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله والرزق سعته وضيقه من تقديره ضائع ليس له محل، فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب بل اجعل نظرك لمسببها ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهم الذين يعتبرون ببسط الله الرزق لمن يشاء وقبضه ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجوده وجذب القلوب لسؤاله فى جميع مطالب الرزق.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

أى: فاعط القريب منك- على حسب قربه وحاجته- حقه الذى أوجبه الشارع أو حض عليه من النفقة

الواجبة والصدقة والهداية والبر والسلام والإكرام والعفو عن زلته والمسامحة عن هفوته، وكذلك آت المسكين الذى أسكنه الفقر والحاجة ما تزيل حاجته وتدفع به ضرورته من إطعامه وسقيه وكسوته ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ الغريب المنقطع في غير بلده الذى هو مظنة شدة الحاجة وأنه لا مال معه ولا كسب يدبر نفسه به فى سفره بخلاف الذى فى بلده فإنه حتى لو لم يكن له مال فإنه لا بد ـ فى الغالب ـ أن يكون فى حرفة أو صناعة ونحوها تسد حاجته ولهذا جعل الله في الزكاة حصة للمسكين وابن السبيل ﴿ذَلِكَ﴾ أى: إيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بذلك العمل ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ أى: خير غزير وثواب كثير لأنه من أفضل الأعمال الصالحة والنفع المتعدى الذى وافق محله المقرون به الإخلاص، فإن لم يرد به وجه الله لم يكن خيرًا للمُعْطي وإن كان خيرًا ونفعًا للمُعْطَى كما قال تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ مفهومها أن هذه الأمور خير لنفعها المتعدى ولكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا، وقوله ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الذى عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بثواب الله الناجون من عقابه، ولما ذكر العمل الذى يقصد به وجهه من النفقات ذكر العمل الذى يقصد به مقصد دنيوى فقال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ أى: ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم وقصدكم بذلك أن يربو أى: يزيد فى أموالكم بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها، فهذا العمل لا يربو أجره عند الله لكونه معدوم الشرط الذى هو الإخلاص، ومثل ذلك العمل الذى يراد به الزيادة فى الجاه والرياء عند الناس فهذا كله لا يربو عند الله ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ أى: مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة ويطهر أموالكم من البخل بها ويزيد فى دفع حاجة المُعْطَى ﴿تُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أى: المضاعف لهم الأجر الذين تربو نفقاتهم عند الله ويربيها الله لهم حتى تكون شيئًا كثيرًا، ودل قوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ أن الصدقة مع إضرار من يتعلق بالمنفق أو مع دَيْن عليه لم يقضه ويقدم عليه الصدقة أن ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه العبد ويرد تصرفه شرعًا كما قال تعالى فى الذى يمدح: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ فليس مجرد إيتاء المال خيرًا حتى يكون بهذه الصفة، وهو: أن يكون على وجه يتزكى به صاحبه.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)﴾

يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم وإحيائكم وأنه ليس أحد من الشركاء التى يدعوها المشركون من يشارك الله فى شىء من هذه الأشياء، فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟! فسبحانه وتعالى وتقدس وتنزه وعلا عن شركهم فلا يضره ذلك وإنما وباله عليهم.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)﴾

أى: استعلن الفساد فى البر والبحر أى: فساد معايشهم ونقصها وحلول الآفات بها، وفى أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها، هذه المذكورة ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أى: ليعلموا أنه المجازى على الأعمال فعجل لهم نموذجًا من جزاء أعمالهم فى الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن أعمالهم التى أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم، فسبحان من أنعم ببلائه وتفضل بعقوبته وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢)﴾

والأمر بالسير فى الأرض يدخل فيه السير بالأبدان والسير بالقلوب للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ تجدون عاقبتهم شر العواقب ومآلهم شر مآل، عذاب استأصلهم وذم ولعن من خلق الله يتبعهم وخزى متواصل فاحذروا أن تفعلوا أفعالهم لئلا يُحْذَى بكم حذوهم فإن عدل الله وحكمته فى كل زمان ومكان.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

أى: أقبل بقلبك وتوجه بوجهك واسع ببدنك لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو يوم القيامة الذى إذا جاء لا يمكن رده ولا يرجأ العاملون ليستأنفوا العمل بل فرغ من الأعمال ولم يبق إلا جزاء العمال ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أى: يتفرقون عن ذلك اليوم ويصدرون أشتاتًا متفاوتين ليُرَوْا أعمالهم ﴿مَن كَفَرَ﴾ منهم ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من الحقوق التى لله والتى للعباد الواجبة والمستحبة ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ﴾ لا لغيرهم ﴿يَمْهَدُونَ﴾ أى: يهيئون ولأنفسهم يعمرون آخرتهم ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها، ومع ذلك جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم بل يجزيهم الله من فضله الممدود وكرمه غير المحدود ما لا تبلغه أعمالهم وذلك لأنه أحبهم وإذا أحب الله عبدًا صب عليه الإحسان صبًا وأجزل له العطايا الفاخرة وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهذا بخلاف الكافرين فإن الله لما أبغضهم ومقتهم عاقبهم وعذبهم ولم يزدهم كما زاد من قبلهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

أى: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى وأنه الإله المعبود والملك المحمود ﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ أمام المطر ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ بإثارتها للسحاب ثم جمعها فتستبشر بذلك النفوس قبل نزوله ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ فينزل عليكم مطراً تحيا به البلاد والعباد وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هى المنقذة للعباد الجالبة لأرزاقهم فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة الفاتحة لخزائن الرحمة ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ فى البحر ﴿بِأَمْرِهِ﴾ القدرى ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بالتصرف فى معايشكم ومصالحكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ من سخر لكم الأسباب وسير لكم الأمور، فهذا المقصود من النعم أن تقابل بشكر الله تعالى ليزيدكم الله منها ويبقيها عليكم، وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصى فهذه حال من بدل نعمة الله كفراً ومنحته محنة وهو معرض لها للزوال والانتقال منه إلى غيره.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

أى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ فى الأمم السالفين ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ حين جحدوا توحيد الله وكذبوا بالحق فجاءتهم رسلهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص والتصديق بالحق وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال وجاءوهم بالبينات والأدلة على ذلك فلم يؤمنوا ولم يزولوا عن غيهم ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: أوجبنا ذلك على أنفسنا وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة ووعدناهم به فلا بد من وقوعه، فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ إن بقيتم على تكذيبكم حلّت بكم العقوبة ونصرناه عليكم.

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام نعمته أنه ﴿يُرسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ من الأرض ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يمده ويوسعه ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: على أي حالة أرادها من ذلك ﴿وَيَجْعَلُهُ﴾ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كِسَفًا﴾ أي: سحابًا ثخينًا قد طبق بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: السحاب نقطًا صغارًا متفرقة لا تنزل جميعًا فتفسد ما أتت عليه ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بذلك المطر ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضًا بنزوله وذلك لشدة حاجتهم واضطرارهم إليه فلهذا قال: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: آيسين قانطين لتأخر وقت مجيئه، أي: فلما نزل في تلك الحال صار له موقع عظيم عندهم وفرح واستبشار ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته تعالى لا يتعاصى عليها شيء وإن تعاصى على قدر خلقه ودق عن أفهامهم وحارت فيه عقولهم.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾

يخبر تعالى عن حالة الخلق وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها ونشر رحمة الله تعالى لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر وعلى زروعهم ريحًا مضرة متلفة أو منقصة ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ قد تداعى إلى التلف ﴿لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ فينسون النعم الماضية ويبادرون إلى الكفر، وهؤلاء لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ وبالأولى ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإن الموانع قد توفرت فيهم[1] عن الانقياد والسماع النافع كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ لأنهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم فليس فيهم قابلية له ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهؤلاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى المؤمنون بآياتنا بقلوبهم المنقادون لأوامرنا المسلمون لنا لأن معهم الداعي القوي لقبول النصائح والمواعظ وهو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله.

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)﴾

يخبر تعالى عن سعة علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته أنه ابتدأ خلق الآدميين من ضعف وهو الأطوار الأولى من خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيوانًا في الأرحام إلى أن ولد وهو في سن الطفولية وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة، ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئًا فشيئًا حتى بلغ الشباب واستوت قوته وكملت قواه الظاهرة والباطنة ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ بحسب حكمته، ومن حكمته أن يرى العبد ضعفه وأن قوته محفوفة بضعفين وأنه ليس له من نفسه إلا النقص ولولا تقوية الله له لما وصل إلى قوة وقدرة ولو استمرت قوته في الزيادة لطغى وبغى وعتا، وليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة يخلق بها الأشياء ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾

---

(١) قوله: «فإن الموانع الخ» تعبير قلق وفيه تعقيد، فلو قال «فإن الموانع عن الانقياد والسماع النافع قد توفرت فيهم كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي» لكان أسلس أسلوبًا، وأوضح فهمًا للقارئ.

يخبر تعالى عن يوم القيامة وسرعة مجيئه وأنه إذا قامت الساعة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بالله أنهم ﴿مَا لَبِثُوا﴾ فى الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ وذلك اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر واستقصار لمدة الدنيا ولما كان قولهم كذبًا لا حقيقة له قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أى: ما زالوا- وهم فى الدنيا- يؤفكون عن الحقائق ويأتفكون الكذب ففى الدنيا كذَّبوا الحق الذى جاء به المرسلون وفى الآخرة أنكروا الأمر المحسوس وهو اللبث الطويل فى الدنيا، فهذا خلقهم القبيح والعبد يبعث على ما مات عليه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ﴾ أى: مَنَّ الله عليهم بهما وصار وصفًا لهم العلم بالحق والإيمان المستلزم إيثار الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق مؤثرين له لزم أن يكون قولهم مطابقًا للواقع مناسبًا لأحوالهم، فلهذا قالوا الحق: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى: فى قضائه وقدره الذى كتبه الله عليكم وفى حكمه ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أى: عمرًا يتذكر فيه المتذكر ويتدبر فيه المتدبر ويعتبر فيه المعتبر حتى صار البعث ووصلتم إلى هذه الحال ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أنكرتموه فى الدنيا وأنكرتم إقامتكم فى الدنيا وقتًا تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فإن كذبوا وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة أو ما تمكنوا من الإيمان ظهر كذبهم بشهادة أهل العلم والإيمان وشهادة جلدهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار وأن يردو فلا يعودون لما نُهوا عنه لم يُمكَّنوا فإنه فات وقت الإعذار فلا تقبل معذرتهم ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾(١) أى: لا يزال عتبهم والعتاب عنهم.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ تتضح به الحقائق وتعرف به الأمور، وتنقطع به الحجة، وهذا عام فى الأمثال التى يضربها الله فى تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة وفى الإخبار بما سيكون وجلاء حقيقته حتى كأنه وقع، ومنه فى هذا الموضع ذكر الله تعالى ما يكون يوم القيامة وحالة المجرمين فيه وشدة أسفهم وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب، ولكن أبى الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح ولهذا قال: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ أى: أى آية تدل على صحة ما جئت به ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾ أى: قالوا للحق: إنه باطل، وهذا من كفرهم وجراءتهم وطَبْع الله على قلوبهم وجهلهم المفرط ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يدخلها خير ولا تدرك الأشياء على حقيقتها بل ترى الحق باطلاً والباطل حقًا ﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما أمرت به وعلى دعوتهم إلى الله، ولو رأيت منهم إعراضًا فلا يصدنك ذلك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أى: لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع بل سيجده كاملاً هان عليه ما يلقاه من المكاره وتيسر عليه كل عسير واستقل من عمله كل كثير ﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ أى: قد ضعف إيمانهم وقل يقينهم فخفت لذلك أحلامهم وقل صبرهم، فإياك أن يستخفك هؤلاء فإنك إن تجعلهم منك على بال وتحذر منهم وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهى والنفس تساعدهم على هذا وتطلب التشبه والموافقة، وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف العقل خفيفه فبالعكس، فالأول بمنزلة اللب والآخر بمنزلة القشور والله المستعان.

تم تفسير سورة الروم ولله الحمد والمنة

---

(١) يستعتبون، أى: لا يطلب منهم إرضاؤه تعالى والرجوع إلى ما يرضيه من التوبة والطاعة، كما دعوا إليه فى الدنيا.

تفسير سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أى: إن آياته محكمة صدرت من حكيم خبير ومن إحكامها أنها جاءت بأجَلِّ الألفاظ وأفصحها وأبينها الدالة على أجل المعانى وأحسنها، ومن إحكامها أنها محفوظة من التغيير والتبديل والزيادة والنقص والتحريف، ومن إحكامها أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة والأمور الغيبية كلها مطابقة للواقع مطابق لها الواقع لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية ولم يخبر بخلافها نبى من الأنبياء ولم يأت ولن يأتى علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت عليه، ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشىء إلا هو خالص المصلحة أو راجحها ولا نهت عن شىء إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيرًا ما يجمع بين الأمر بالشىء مع ذكر حكمته وفائدته والنهى عن الشىء مع ذكر مضرته، ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب والوعظ البليغ الذى تعتدل به النفوس الخيرة وتحتكم فتعمل بالحزم، ومن إحكامها: أنك تجد آياتها المتكررة كالقصص والأحكام ونحوها قد اتفقت كلها وتوطأت فليس فيها تناقض ولا اختلاف، فكلما ازداد بها البصير تدبرًا وأعمل فيها العقل تفكرًا انبهر عقله وذهل لبه من التوافق والتواطؤ وجزم جزمًا لا يمترى فيه أنه تنزيل من حكيم حميد، ولكن - مع أنه حكيم - يدعو إلى كل خلق كريم وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون من الاهتداء به معرضون عن الإيمان والعمل به إلا من وفقه الله تعالى وعصمه وهم المحسنون فى عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق، فإنه ﴿هُدًى﴾ لهم يهديهم إلى الصراط المستقيم ويحذرهم من طرق الجحيم ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم تحصل لهم به السعادة فى الدنيا والآخرة والخير الكثير والثواب الجزيل والفرح ويندفع عنهم الضلال والشقاء، ثم وصف المحسنين بالعلم التام وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل وخص من العمل عملين فاضلين ﴿يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ المشتملة على الإخلاص ومناجاة الله تعالى والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة على سائر الأعمال ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ التى تزكى صاحبها من الصفات الرذيلة وتنفع أخاه المسلم وتسد حاجته ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال فيخرج محبوبه من المال لما هو أحب إليه وهو طلب مرضاة الله ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المحسنون الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ أى: عظيم كما يفيده التنكير، وذلك الهدى حاصل لهم وواصل إليهم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذى لم يزل يربيهم بالنعم ويدفع عنهم النقم، وهذا الهدى الذى أوصله إليهم من تربيته الخاصة بأوليائه وهو أفضل أنواع التربية ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين أدركوا رضا ربهم وثوابه الدنيوى والأخروى وسلموا من سخطه وعقابه وذلك لسلوكهم طريق الفلاح الذى لا طريق له غيرها، لما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن المقبلين عليه ذكر من أعرض عنه ولم يرفع به رأسًا وأنه عوقب على ذلك بأن تعوض عنه كل باطل من القول فترك أعلى الأقوال وأحسن الحديث واستبدل به أسفل قول وأقبحه فلذلك قال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ ﴾

أى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن﴾ هو محروم مخذول ﴿يَشْتَرِى﴾ أى: يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن فى الشىء ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أى: الأحاديث الملهية للقلوب الصادَّة لها عن أجلِّ مطلوب، فدخل فى هذا كل كلام محرم وكل لغو وباطل وهذيان من الأقوال المرغبة فى الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق ومن غيبة ونميمة وكذب وشتم وسب ومن غناء ومزامير شيطان ومن الماجريات الملهية التى لا نفع فيها فى دين ولا دنيا، فهذا الصنف من الناس يشترى لهو الحديث عن هدى الحديث ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى: بعدما ضل هو فى فعله أضل غيره لأن الإضلال ناشئ عن الضلال، وإضلاله فى هذا الحديث صده عن الحديث النافع والعمل النافع والحق المبين والصراط المستقيم، ولا يتم له هذا حتى يقدح فى الهدى والحق الذى جاءت به آيات الله ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ يسخر بها وبمن جاء بها فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه والقدح فى الحق والاستهزاء به وبأهله أضل من لا علم عنده وخدعه بما يوحيه إليه من القول الذى لا يميزه ذلك الضال ولا يعرف حقيقته ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ بما ضلوا واستهزءوا بآيات الله وكذبوا الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ ليؤمن بها وينقاد لها ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِرًا﴾ أى: أدبر إدبار مستكبر عنها رادٍّ لها ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه بل أدبر عنها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ بل ﴿كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أى: صممًا لا تصل إليها الأصوات فهذا لا حيلة فى هدايته ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ بشارة تؤثر فى قلبه الحزن والغم وفى بشرته السوء والظلمة والغبرة ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم لقلبه ولبدنه لا يقادر قدره ولا يدرى بعظيم أمره، فهذه بشارة أهل الشر فلا نعمت البشارة، وأما بشارة أهل الخير فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان والظاهر بالإسلام والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ بشارة لهم بما قدموه وقرًى لهم بما أسلفوه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: فى جنات النعيم نعيم الروح والبدن ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ لا يمكن أن يخلف ولا يغير ولا يتبدل ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كامل العزة كامل الحكمة، من عزته وحكمته أن وفق من وفق وخذل من خذل بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (١١) ﴾

يتلو تعالى على عباده آثارًا من آثار قدرته وبدائع من بدائع حكمته ونعمًا من آثار رحمته فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ السبع على عظمها وسعتها وكثافتها وارتفاعها الهائل ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أى: ليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرؤيت وإنما استقرت واستمسكت بقدرة الله تعالى ﴿وَأَلْقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ﴾ أى: جبالاً عظيمة ركزها فى أرجائها وأنحائها لئلا ﴿تَمِيدَ بِكُمْ﴾ فلولا الجبال الراسيات لمادت الأرض ولما استقرت بساكنها ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أى: نشر فى الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب التى هى مسخرة لبنى آدم ولمصالحهم ومنافعهم، ولما بثها فى الأرض علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به فأنزل من السماء ماء مباركًا ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ المنظر، نافع مبارك فرتعت فيه الدواب المنبثة وسكن إليه كل حيوان ﴿هَذَا﴾ أى: خلق العالم العلوى والسفلى من جماد وحيوان وسوق أرزاق الخلق إليهم ﴿خَلْقُ اللَّهِ﴾ وحده لا شريك له كل مقر بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أى: الذين جعلتموهم له شركاء تدعونهم وتعبدونهم يلزم على هذا أن يكون لهم خلق كخلقه ورزق كرزقه، فإن كان لهم شىء من ذلك فأرونيه ليصح ما ادعيتم فيهم من استحقاق العبادة، ومن المعلوم أنهم لا يقدرون أن يروه شيئًا من الخلق لها لأن جميع المذكورات قد أقروا أنها خلق الله وحده ولا ثَمَّ شىء يعلم غيرها، فثبت عجزهم عن إثبات شىء لها تستحق به أن تعبد، ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة بل عن جهل وضلال ولهذا قال: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: جلىٍّ واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

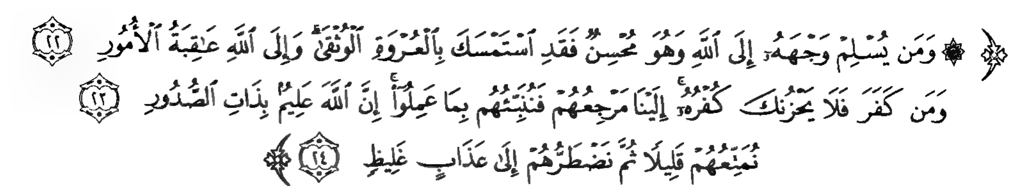
يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة وهى العلم بالحق على وجهه وحكمته فهى العلم بالأحكام ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالمًا ولا يكون حكيمًا، وأما الحكمة فهى مستلزمة للعلم بل وللعمل ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة أمره أن يشكره على ما أعطاه ليبارك له فيه وليزيده من فضله وأخبره أن شكر الشاكرين يعود نفعه عليهم وأن من كفر فلم يشكر الله عاد وبال ذلك عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عنه ﴿حَمِيدٌ﴾ فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره، فغناه تعالى من لوازم ذاته وكونه حميدًا فى صفات كماله حميدًا فى جميل صنعه من لوازم ذاته وكل واحد من الوصفين صفة كمال واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال، واختلف المفسرون هل كان لقمان نبيًا أو عبدًا صالحًا؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة وذكر بعض ما يدل على حكمته فى وعظه لابنه، فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ وقال له قولاً يعظه به والوعظ: الأمر والنهى المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص ونهاه عن الشرك وبيّن له السبب فى ذلك فقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ووجه كونه ظلمًا عظيمًا أنه لا أفظع ولا أبشع ممن سوى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوّى الذى لا يملك من الأمر شيئًا بمالك الأمر كله، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغنى من جميع الوجوه، وسوّى من لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرة من النعم بالذى ما بالخلق من نعمة فى دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شىء؟! وهل أعظم ظلمًا ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده فذهب بنفسه الشريفة فجعلها فى أخس المراتب؟! جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئًا فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا، ولما أمر بالقيام بحقه بترك الشرك الذى من لوازمه القيام بالتوحيد أمر بالقيام بحق الوالدين فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾ أى: عهدنا إليه وجعلناه وصية عنده سنسأله عن القيام بها وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ وقلنا له: ﴿اشْكُرْ لِي﴾ بالقيام بعبوديتى وأداء حقوقى وأن لا تستعن بنعمى على معصيتى ﴿وَلِوَالِدَيْكَ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين والكلام اللطيف والفعل الجميل والتواضع لهما وإكرامهما وإجلالهما والقيام بمؤونتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه بالقول والفعل، فوصيناه بهذه الوصية وأخبرناه أن ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أى: سترجع أيها الإنسان إلى مَنْ وصاك وكلفك بهذه الحقوق فيسألك: هل قمت بها فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها فيعاقبك العقاب الوبيل؟ وذكر السبب الموجب لبر الوالدين فى الأم فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أى: مشقة على مشقة فلا تزال تلاقى المشاق من حين يكون نطفة من الوحم والمرض والضعف والثقل وتغير الحال وثم وجع الولادة ذلك الوجع الشديد ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها، أفما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب أن يؤكد على ولده ويوصى إليه بتمام الإحسان إليه؟ ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ أى: اجتهد والداك ﴿عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا﴾ ولا تظن أن هذا داخل فى الإحسان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل

أحد و «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ولم يقل «وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فعقهما» بل قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أى: فى الشرك وأما برهما فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أى: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصى فلا تتبعهما ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله المستسلمون لربهم المنيبون إليه، واتباع سبيلهم أن يسلك مسلكهم فى الإنابة إلى الله التي هى انجذاب دواعى القلب وإرادته إلى الله ثم يتبعها سعى البدن فيما يرضى الله ويقرب منه ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الطائع والعاصى والمنيب وغيره ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما ثم أجازى كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التى هى أصغر الأشياء وأحقرها ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ أى فى وسطها ﴿أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ فى أي جهة من جهاتهما ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ وذلك من سعة علمه وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى: لطف فى علمه وخبرته حتى اطلع على البواطن والأسرار وخفايا القفار والبحار، والمقصود من هذا الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن والترهيب من عمل القبيح قَلَّ أو كَثُرَ ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ حثه عليها وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به والعلم بالمنكر لينهى عنه، والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا به من الرفق والصبر وقد صرح به فى قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به كافًا لما ينهى عنه فتضمن هذا تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر وتكميل غيره بذلك بأمره ونهيه، ولما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى وأن فى الأمر والنهى مشقة على النفوس أمره بالصبر على ذلك فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذى وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أى: من الأمور التى يعزم عليها ويهتم بها ولا يوفق لها إلا أهل العزائم ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أى: لا تُمِلْهُ وتعبس بوجهك للناس تكبرًا عليهم وتعاظمًا ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى: بطرًا فخرًا بالنعم ناسيًا المنعم معجبًا بنفسك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ فى نفسه وهيئته وتعاظمه ﴿فَخُورٍ﴾ بقوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أى: امش متواضعًا مستكينًا لا مَشْيَ البطر والتكبر ولا مشى التماوت ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أدبًا مع الناس ومع الله ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أى أفظعها وأبشعها ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ فلو كان فى رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة لما اختص بذلك الحمار الذى قد علمت خسته وبلادته، وهذه الوصايا التى وصى بها لقمان ابنه تجمع أمهات الحكم وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمرًا وإلى تركها إن كانت نهيًا، وهذا يدل على ما ذكرنا فى تفسير الحكمة أنها العلم بالأحكام وحِكَمِها ومناسباتها، فأمره بأصل الدين وهو التوحيد ونهاه عن الشرك وبيّن له الموجب لتركه، وأمره ببر الوالدين وبين له السبب الموجب لبرهما وأمره بشكره وشكرهما ثم احترز بأن محل برهما وامتثال أوامرهما ما لم يأمرا بمعصية ومع ذلك فلا يعقهما بل يحسن إليهما وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك، وأمره بمراقبة الله وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها، ونهاه عن التكبر وأمره بالتواضع ونهاه عن البطر والأشر والمرح، وأمره بالسكون فى الحركات والأصوات ونهاه عن ضد ذلك، وأمره بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر كما قال تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا أن يكون مخصوصًا بالحكمة مشهورًا بها، ولهذا من منة الله على عباده أن قص عليهم من حكمته ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

يمتن تعالى على عباده بنعمه ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها وعدم الغفلة عنها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أى:

تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم كلها مسخرات لنفع العباد ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزروع والأنهار والمعادن ونحوها كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أى عمكم وغمركم بوافر ﴿نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ التى نعلم بها والتى تخفى علينا، نعم الدنيا ونعم الدين حصول المنافع ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم بمحبة المنعم والخضوع له وصرفها فى الاستعانة على طاعته وأن لا يستعان بشىء منها على معصيته ﴿وَ﴾ لكن مع توالى هذه النعم فإن ﴿مِنَ النَّاسِ مَن﴾ لم يشكرها بل كفرها وكفر بمن أنعم بها وجحد الحق الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أى: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل يجادل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وعلى غير بصيرة، فليس جداله عن علم فيترك وشأنه ويسمح له فى الكلام ﴿وَلا هُدًى﴾ يقتدى به بالمهتدين ﴿وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أى نيّر مبيّن للحق فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين، وإنما جداله فى الله مبنى على تقليد آباء غير مهتدين بل ضالين مضلين، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على أيدى رسله فإنه الحق وبينت لهم أدلته الظاهرة ﴿قَالُوا﴾ معارضين ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد كائنًا من كان، قال تعالى فى الرد عليهم وعلى آبائهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فاستجاب له آباؤهم ومشوا خلفه وصاروا من تلاميذ الشيطان واستولت عليهم الحيرة فهل هذا موجب لاتباعهم ومشيهم على طريقتهم أم ذلك يرهبهم من سلوك سبيلهم وينادى على ضلالهم وضلال من تبعهم، وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولهم محبة لهم ومودة وإنما ذلك عداوة لهم ومكر لهم وبالحقيقة أتباعه من أعدائه الذين تمكن منهم وظفر بهم وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير بقبول دعوته.



﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصًا له دينه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فى ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعًا قد اتبع فيه الرسول، أو من يسلم وجهه إلى الله بفعل جميع العبادات وهو محسن فيها بأن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراك، أو من يسلم وجهه إلى الله بالقيام بحقوقه وهو محسن إلى عباد الله قائم بحقوقهم، والمعانى متلازمة لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظين وإلا فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين على وجه تقبل به وتكمل، فمن فعل ذلك ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أى: بالعروة التى من تمسك بها توثق ونجا وسلم من الهلاك وفاز بكل خير، ومن لم يسلم وجهه لله أو لم يحسن لم يستمسك بالعروة الوثقى وإذا لم يستمسك لم يكن ثَمَّ إلا الهلاك والبوار ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ أى: رجوعها وموئلها ومنتهاها، فيحكم فى عباده ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم ووصلت إليه عواقبهم فليستعدوا لذلك الأمر ﴿وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ لأنك أديت ما عليك من الدعوة والبلاغ، فإذا لم يهتد فقد وجب أجرك على الله ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه لأنه لو كان فيه خير لهداه الله، ولا تحزن أيضًا على كونهم تجرءوا عليك بالعداوة ونابذوك المحاربة واستمروا على غيهم وكفرهم ولا تتحرق عليهم بسبب أنهم ما بودروا[1] بالعذاب، إن ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من كفرهم وعداوتهم وسعيهم فى إطفاء نور الله وأذى رسله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ التى ما نطق بها الناطقون فكيف بما ظهر وكان شهادة؟! ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ فى الدنيا ليزداد إثمهم ويتوفر عذابهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أى: نلجئهم ﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أى انتهى فى عظمه وكبره وفظاعته وألمه وشدته.

(١) ما بودروا، أى: لم يعجل الله عليهم العذاب.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أى: سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ لعلموا أن أصنامهم ما خلقت شيئًا من ذلك ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ الذى خلقهما وحده ﴿قُلِ﴾ لهم ملزمًا لهم ومحتجّا عليهم بما أقروا به على ما أنكروا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذى بيّن النور وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم، فلو كانوا يعلمون لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير هو الذى يفرد بالعبادة والتوحيد ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أشركوا به غيره ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه على وجه الحيرة والشك لا على وجه البصيرة، ثم ذكر هاتين الآيتين نموذجًا من سعة أوصاف الله سبحانه ليدعو عباده إلى معرفته ومحبته وإخلاص الدين له، فذكر عموم ملكه وأن جميع ما فى السموات والأرض - وهذا شامل لجميع العالم العلوى والسفلى - أنه ملكه يتصرف فيهم بأحكام الملك القدرية وأحكامه الأمرية وأحكامه الجزائية، فكلهم عبيد مماليك مدبرون مسخرون ليس لهم من الملك شىء وأنه واسع الغنى فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ وأن أعمال النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئًا وإنما تنفع عامليها والله غنى عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه أن أغناهم وأقناهم[1] فى دنياهم وأخراهم، ثم أخبر تعالى عن سعة حمده وأن حمده من لوازم ذاته فلا يكون إلا حميدًا من جميع الوجوه فهو حميد فى ذاته وهو حميد فى صفاته، فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل حمد وأتمه لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به فى العباد وبين العباد فى هذه الحياة الدنيا وفى الآخرة يحمد عليه، ثم أخبر عن سعة كلامه عز وجل وعظمة قوله بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ وتنبهر له العقول وتتحير فيه الأفئدة وتسيح فى معرفته أولو الألباب والبصائر فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ يكتب بها ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ مدادًا يستمد بها، لتكسرت تلك الأقلام ولفنى ذلك المداد و ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم وأجل منقبة[2] حصلوها وهى لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك جله لا يترك كله، فنبههم تعالى على بعضها تنبيهًا تستنير به قلوبهم وتنشرح له صدورهم ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: «لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وإلا فالأمر أجل من ذلك وأعظم، وهذا التمثيل من باب تقريب المعنى الذى لا يطاق الوصول به إلى الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافًا كثيرة والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها لكونها مخلوقة، وأما كلام الله تعالى فلا يتصور نفاده بل دلنا الدليل الشرعى والعقلى على أنه لا نفاد له ولا منتهى فكل شىء ينتهى إلا البارى وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخريته وأن كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة مهما تسلسل الفرض والتقدير فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرض الذهن والعقل من الأزمان المتأخرة وتسلسل الفرض والتقدير وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية، والله فى جميع الأوقات يحكم ويتكلم ويقول ويفعل كيف أراد وإذا أراد لا مانع له من شىء من أقواله وأفعاله، فإذا تصور العقل

---

(١) أقناه، أى: أعطاه ما يقتنى من القنية والنشب، واقتناه أيضًا، رضاه. اهـ. من المختار من الصحاح، ومثله فى المصباح.

(٢) منقبة، أى: الشرف والمفخرة، وفى المختار من الصحاح «المنقبة» بوزن المتربة: ضد المثلبة (أى العيب).

ذلك عرف أن المثل الذى ضربه الله لكلامه ليدرك العباد شيئًا منه وإلا فالأمر أعظم وأجل، ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: له العزة جميعًا الذى ما فى العالم العلوى والسفلى من القوة إلا هى منه، هو الذى أعطاها للخلق فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم وتصرف فيهم ودبرهم، وبحكمته خلق الخلق وابتدأه بالحكمة وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهى وجد بالحكمة وكانت غايته المقصودة الحكمة فهو الحكيم فى خلقه وأمره ثم، ذكر عظمة قدرته وكمالها وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل فقال: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهذا شىء يحير العقول، إن خلق جميع الخلق، على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم بعد تفرقهم فى لمحة واحدة، كخلقه نفسًا واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته، ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات وبصره لجميع المبصرات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

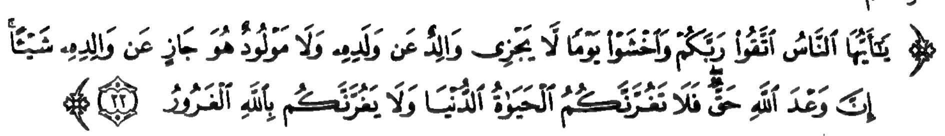
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)﴾

وهذا فيه أيضًا انفراده بالتصرف والتدبير وسعة تصرفه بإيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل أى: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر، وتسخيره للشمس والقمر ويجريان بتدبير ونظام لم يختل منذ خلقهما ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم فى دينهم ودنياهم ما به يعتبرون وينتفعون، و ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إذا جاء ذلك الأجل انقطع جريانهما وتعطّل سلطانهما وذلك فى يوم القيامة حين تكور الشمس ويخسف القمر وتنتهى دار الدنيا وتبتدئ الدار الآخرة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شىء من ذلك وسيجازيكم على تلك الأعمال بالثواب للمطيعين والعقاب للعاصين ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى بين لكم من عظمته وصفاته ما بيَّن ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ فى ذاته وفى صفاته، ودينه حق ورسله حق ووعده حق ووعيده حق وعبادته هى الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ فى ذاته وصفاته، فلولا إيجاد الله له لما وجد ولولا إمداده لَمَا بَقِىَ فإذا كان باطلاً كانت عبادته أبطل وأبطل ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته فوق جميع مخلوقاته الذى علت صفاته عن أن يقاس بها صفات وعلا على الخلق فقهرهم ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذى له الكبرياء فى ذاته وصفاته وله الكبرياء فى قلوب أهل السماء والأرض.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾

أى: ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده أن سخر البحر تجرى فيه الفلك بأمره القدرى ولطفه وإحسانه ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ ففيها الانتفاع والاعتبار ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ المنتفعون بالآيات كل صبار على الضراء شكور على السراء، صبَّار على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية، وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظلل فوقهم أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة فقال: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ انقسموا فريقين: ﴿فَمِنْهُم﴾ فريق ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ أى: لم يقم بشكر الله على وجه الكمال بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم، وفريق كافر بنعمة الله جاحد لها ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أى غدار، ومن غدره أنه عاهد ربه لئن أنجيتنا من البحر وشدته لنكونن من الشاكرين، فغدر

هذا الفريق ولم يف بذلك وهو مع ذلك ﴿كَفُورٍ﴾ بنعم الله، فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة إلا القيام التام بشكر نعم الله؟.



يأمر تعالى الناس بتقواه التى هى: امتثال أوامره وترك زواجره، ويستلفتهم لخشية يوم القيامة اليوم الشديد الذى فيه كل أحد لا يهمه إلا نفسه ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ يزيد فى حسناته ولا ينقص من سيئاته قد تم على كل عبد عمله وتحقق عليه جزاؤه، فلفت النظر لهذا اليوم المهول مما يقوى العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد يأمرهم بتقواه التى فيها سعادتهم ويعدهم عليها الثواب ويحذرهم من العقاب ويزجرهم عنه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تمتروا فيه ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الذى هو الشيطان، ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه فى جميع الأوقات، فإن لله على عباده حقًا وقد وعدهم موعدًا يجازيهم فيه بأعمالهم وهل وفوا حقه أم قصروا فيه، وهذا أمر يجب الاهتمام به وأن يجعله العبد نصب عينيه ورأس مال تجارته التى يسعى إليها، ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه الدنيا الفتانة والشيطان الموسوس المُسَوِّل، فنهى تعالى عباده أن تغرهم الدنيا أو يغرهم بالله الغرور ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾

قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة والظواهر والبواطن وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه الأمور الخمسة من الأمور التي طوى علمها عن جميع الخلق فلا يعلمها نبى مرسل ولا ملك مقرب فضلاً عن غيرهما فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى: يعلم متى مرساها كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ الآية ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أى: هو المنفرد بإنزاله وعلم وقت نزوله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ فهو الذى أنشأ ما فيها وعلم ما هو، هل هو ذكر أم أنثى، ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثي؟ فيقضى الله ما يشاء ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من كسب دينها ودنياها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه، ولما خصص هذه الأشياء عمم علمه بجميع الأشياء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ محيط بالظواهر والبواطن والخفايا والخبايا والسرائر، ومن حكمته التامة أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد لأن فى ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك.

تم تفسير سورة لقمان بفضل الله وعونه والحمد لله

تفسير سورة السجدة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)﴾

يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم تنزيل من رب العالمين الذى رباهم بنعمته ومن أعظم ما رباهم به هذا الكتاب الذى فيه كل ما يصلح أحوالهم ويتمم أخلاقهم وأنه لا ريب فيه ولا شك ولا امتراء، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون فى ذلك: افتراه محمد واختلقه من عند نفسه، وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله ورمى محمد ﷺ بأعظم الكذب وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق، وكل واحد من هذه من الأمور العظائم، قال الله رادًا على من قال: افتراه: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أنزله رحمة للعباد ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى فى حالة ضرورة وفاقة لإرسال الرسول وإنزال الكتاب لعدم النذير، بل هم فى جهلهم يعمهون وفى ظلمة ضلالهم يترددون، فأنزلنا الكتاب عليك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ من ضلالهم فيعرفون الحق ويؤثرونه، وهذه الأشياء التى ذكرها الله كلها مناقضة لتكذيبهم له وإنها تقتضى منهم الإيمان والتصديق التام به وهو كونه ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأنه ﴿الْحَقُّ﴾ والحق مقبول على كل حال، وأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بوجه من الوجوه، فليس فيه ما يوجب الريبة لا بخبر غير مطابق للواقع ولا بخفاء واشتباه معانيه، وأنهم فى ضرورة وحاجة إلى الرسالة وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته بأنه ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها الجمعة مع قدرته على خلقها بلحظة ولكنه تعالى رفيق حكيم ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذى هو سقف المخلوقات استواء يليق بجلاله ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولاكم فى أموركم فينفعكم ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يشفع لكم إن توجه عليكم العقاب ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن خالق الأرض والسموات المستوى على العرش العظيم الذى انفرد بتدبيركم وتوليكم وله الشفاعة كلها هو المستحق لجميع أنواع العبادة ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ القدرى والأمر الشرعى، الجميع هو المتفرد بتدبيره نازلة تلك التدابير من عند الملك القدير ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فَيُسْعِدُ بها ويُشْقِى ويُغْنِى ويُفْقِرُ ويُعِزُّ ويُذِلُّ ويُكْرِمُ ويُهِينُ ويرفع أقوامًا ويضع آخرين ويُنزِّلُ الأرزاق ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أى: الأمر ينزل من عنده ويعرج إليه ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وهو يعرج إليه ويصله فى لحظة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى خلق تلك المخلوقات العظيمة الذى استوى على العرش العظيم وانفرد بالتدابير فى المملكة ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فبسعة علمه وكمال عزته وعموم رحمته أوجدها وأودع فيها من المنافع ما أودع ولم يعسر عليه تدبيرها ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ﴾ أى: كل مخلوق خلقه الله فإن الله أحسن خلقه وخلقه خلقًا يليق به ويوافقه، فهذا عام ثم خص الآدمى لشرفه وفضله فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ وذلك بخلق آدم عليه السلام أبى البشر ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ أى: ذرية آدم ناشئة ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ وهو النطفة المستقذرة الضعيفة ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه وأحسن خلقته ووضع كل عضو منه بالمحل الذى لا يليق به غيره ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ بأن أرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح فيعود بإذن الله حيوانًا بعد أن كان جمادًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أى: ما زال يعطيكم من المنافع شيئًا فشيئًا حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الذى خلقكم وصوركم.

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

أى: قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: بَلينا وتمزقنا وتفرقنا فى المواضع التى لا تُعلَمُ ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى: لمبعوثون بعثًا جديدًا، بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء وذلك بقياسهم قدرة الخالق على قُدَرِهِم، وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة وإنما هو ظلم وعناد وكفر بلقاء ربهم وجحد ولهذا قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ فكلامهم علم مصدره وغايته، وإلا فلو كان قصدهم بيان الحق لَبيَّنَ لهم من الأدلة القاطعة على ذلك ما يجعله مشاهدًا للبصيرة بمنزلة الشمس للبصر، ويكفيهم علمهم أنهم قد ابتُدِئوا من العدم فالإعادة أسهل من الابتداء وكذلك الأرض الميتة ينزل الله عليها المطر فتحيا بعد موتها وينبت به متفرق بذورها ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أى: جعله الله وكيلاً على قبض الأرواح وله أعوان ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجاريكم بأعمالكم وقد أنكرتم البعث فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة ذكر حالهم فى مقامهم بين يديه فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ الذين أصروا على الذنوب العظيمة ﴿نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خاشعين خاضعين أذلاء مقرين بجرمهم سائلين الرجعة قائلين: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أى: بان لنا الأمر ورأيناه عيانًا فصار عين يقين ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أى: صار عندنا الآن يقين بما كنا نكذب به، أى: لرأيت أمرًا فظيعًا وحالاً مزعجة، أقوامًا خاسرين وسؤالاً غير مجاب لأنه قد مضى وقت الإمهال، وكل هذا بقضاء الله وقدره حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصى فلهذا قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ أى: لهدينا الناس كلهم وجمعناهم على الهدى، فمشيئتنا صالحة لذلك ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أى: وجب وثبت ثبوتًا لا تغير فيه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فهذا الوعد لا بد منه ولا محيد عنه، فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصى ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أى: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل وسألوا الرجعة إلى الدنيا ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك أى: بما أعرضتم عنه وتركتم العمل له وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أى: تركناكم بالعذاب جزاء من جنس عملكم فكما نَسِيتُمْ نُسِيتُمْ ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أى: العذاب غير المنقطع، فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية كان فيه بعض التنفيس والتخفيف وأما عذاب جهنم ـ أعاذنا الله منه ـ فليس فيه روح راحة ولا انقطاع لعذابهم فيها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والفسوق والمعاصى.

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

لما ذكر الكافرين بآياته وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها ووصفهم وما أعد لهم من الثواب

فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: إيمانًا حقيقيًا من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ فتليت عليهم آيات القرآن وأتتهم النصائح على أيدى رسل الله ودُعُوا إلى التذكر سمعوها فقبلوها وانقادوا، و ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أى: خاضعين لها خضوع ذكر لله وفرح بمعرفته ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا بقلوبهم ولا بأبدانهم فيمتنعون من الانقياد لها بل متواضعون لها وقد تلقوها بالقبول وقابلوها بالانشراح والتسليم وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أى: ترتفع جنوبهم وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم وهو: الصلاة فى الليل ومناجاة الله تعالى، ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أى: فى جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ودفع مضارهما ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أى: جامعين بين الوصفين خوفًا أن ترد أعمالهم وطمعًا فى قبولها، خوفًا من عذاب الله وطمعًا فى ثوابه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الرزق قليلاً أو كثيرًا ﴿يُنفِقُونَ﴾ ولم يذكر قيد النفقة ولا المنفق عليه ليدل على العموم فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة كالزكوات والكفارات ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة فى وجوه الخير والنفقة والإحسان المالى خير مطلقًا سواء وافق فقيرًا أو غنيًا قريبًا أو بعيدًا ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع فهذا عملهم، وأما جزاؤهم فقال: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق لكونه نكرة فى سياق النفى، أى: فلا يعلم أحد ﴿مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ من الخير الكثير والنعيم الغزير والفرح والسرور واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» فكما صلوا فى الليل ودعوا وأخفوا العمل جازاهم من جنس عملهم فأخفى أجرهم ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ينبه تعالى العقول على ما تقرر فيها من عدم تساوى المتفاوتين المتباينين وأن حكمته تقتضى عدم تساويهما فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ قد عمَّر قلبه الإيمان وانقادت جوارحه لشرائعه واقتضى إيمانه آثاره وموجباته من ترك مساخط الله التى يضر وجودها بالإيمان ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان فلم يكن فيه وازع دينى فأسرعت عنه جوارحه بموجبات الجهل والظلم فى كل إثم ومعصية وخرج بفسقه عن طاعة ربه، أفيستوى هذان الشخصان؟ ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ عقلاً وشرعًا، كما لا يستوى الليل والنهار والضياء والظلمة وكذلك لا يستوى ثوابهما فى الآخرة ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من فروض ونوافل ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ أى: الجنات التى هى مأوى اللذات ومعدن الخيرات ومحل الأفراح ونعيم القلوب والنفوس والأرواح ومحل الخلود وجوار الملك المعبود والتمتع بقربه والنظر إلى وجهه وسماع خطابه ﴿نُزُلاً﴾ لهم أى: ضيافة وقِرًى ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فأعمالهم التى تفضل الله بها عليهم هى التى أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية التى لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال ولا بالجنود والخدم ولا بالأولاد بل ولا بالنفوس والأرواح ولا يتقرب إليها بشىء أصلاً سوى الإيمان والعمل الصالح ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أى: مقرهم ومحل خلودهم النار التى جمعت كل عذاب وشقاء ولا يُفَتَّر عنهم العقاب ساعة ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ ردوا إليها فذهب عنهم روح ذلك الفرج واشتد عليهم الكرب ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ فهذا عذاب النار الذى يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذى قبل ذلك ومقدمة له وهو عذاب البرزخ فقد ذكر بقوله:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾

أى: ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجًا من العذاب الأدنى وهو عذاب البرزخ فنذيقهم طرفًا منه قبل أن يموتوا، إما بعذاب بالقتل ونحوه كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت كما فى قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ ثم يكمل لهم العذاب الأدنى فى برزخهم، وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر ودلالتها ظاهرة فإنه قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ أى: بعض وجزء منه، فدل على أن ثَمَّ عذابًا أدنى قبل العذاب الأكبر وهو عذاب النار، ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى فى الدنيا قد لا يتصل بها الموت أخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أى: لا أحد أظلم وأزيد تعديًا ممن ذكر بآيات ربه التى أوصلها إليه ربه الذى يريد تربيته وتكميل نعمته على أيدى رسله تأمره وتذكره بمصالحه الدينية والدنيوية وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية التى تقتضى أن تقابلها بالإيمان والتسليم والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغى فلم يؤمن بها ولا اتبعها بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين الذين يستحقون شديد النقمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

لما ذكر تعالى آياته التى ذكر بها عباده وهو: القرآن الذى أنزله على محمد ﷺ ذكر أنه ليس ببدع من الكتب ولا من جاء به بغريب من الرسل ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ الذى هو التوراة المصدقة للقرآن والتى قد صدقها القرآن فتطابق حقهما وثبت برهانهما ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته فلم يبق للشك والمرية محل ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى: الكتاب الذى آتيناه موسى ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يهتدون به فى أصول دينهم وفروعه وشرائعه وموافقة لذلك الزمان فى بنى إسرائيل، وأما هذا القرآن الكريم فجعله الله هداية للناس كلهم لأنه هداية للخلق فى أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة وذلك لكماله وعلوه ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ أى: من بنى إسرائيل ﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى: علماء بالشرع وطرق الهداية مهتدين فى أنفسهم يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذى أنزل إليهم هدى والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم، والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة وهى درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ على التعلم والتعليم والدعوة إلى الله والأذى فى سبيله وكفوا نفوسهم عن جماحها فى المعاصى واسترسالها فى الشهوات ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أى: وصلوا فى الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين، فما زالوا يتعلمون المسائل ويستدلون عليها بكثرة الدلائل حتى وصلوا لذلك، فبالصبر واليقين تُنَالُ الإمامة فى الدين، وثَمَّ مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل منهم من أصاب فيها الحق ومنهم من أخطأه خطأً أو عمدًا والله تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهذا القرآن يقص على بنى إسرائيل بعض الذى يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم ووجد فى القرآن تصديق لأحد القولين فهو الحق وما عداه مما خالفه باطل.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾

يعنى: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول ويهديهم إلى الصواب ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ الذين سلكوا مسلكهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ فيشاهدونها عيانًا كقوم هود وصالح وقوم لوط ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يستدل بها على صدق الرسل التى جاءتهم وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر وعلى أن من فعل مثل فعلهم فُعِلَ به كما فُعِلَ بأشياعه من قبل وعلى أن الله تعالى مجازى العباد وباعثهم للحشر والتناد ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آيات الله فيعونها فينتفعون بها، فلو كان لهم سمع صحيح وعقل رجيح لم يقيموا على حالة يجزم بها بالهلاك ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا ﴿أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ التى لا نبات فيها فيسوق الله المطر الذى لم يكن قبل موجودًا فيها فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ أى: نباتًا مختلف الأنواع ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ وهو نبات البهائم ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ وهو طعام الآدميين ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ تلك المنة التى أحيا الله بها البلاد والعباد فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر وتلك البصيرة إلى الصراط المستقيم، ولكن غلب عليهم العمى واستولت عليهم الغفلة فلم يبصروا فى ذلك بصر الرجال وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة ومجرد العادة فلم يوفقوا للخير.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾

أى: يستعجل المجرمون بالعذاب الذى وعدوا به على التكذيب جهلاً منهم ومعاندة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ﴾ الذى يفتح بيننا وبينكم بتعذيبنا على زعمكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى دعواكم ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ الذى يحصل به عقابكم لا تستفيدون به شيئًا، فلو كان إذا حصل حصل إمهالكم لتستدركوا ما فاتكم حين صار الأمر عندكم يقينًا لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح انقضى الأمر ولم يبق للمحنة والابتلاء محل، إذ ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ لأنه صار إيمان ضرورة ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى: يمهلون فيؤخر عنهم العذاب فيستدركون أمرهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لما وصل خطابهم لك وظلمهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب ﴿وَانتَظِرْ﴾ الأمر الذى يحل بهم فإنه لا بد منه ولكن له أجل إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بك ريب المنون ومتربصون بكم دوائر السوء والعاقبة للتقوى.

تم تفسير سورة السجدة بفضل الله وعونه والحمد لله



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) ﴾

أى: يا أيها الذى منَّ الله عليه بالنبوة واختصه بوحيه وفضله على سائر الخلق اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه التى أنت أولى بها من غيرك والتى يجب عليك منها أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهيه وبلغ رسالاته وأدِّ إلى عباده وحيه وابذل النصيحة للخلق ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد ولا يردك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ولرسوله ولا منافق قد أبطن التكذيب والكفر وأظهر ضده، فهؤلاء هم الأعداء

على الحقيقة فلا تطعهم فى بعض الأمور التى تنقض التقوى وتناقضها ولا تتبع أهواءهم فيضلوك عن الصواب ﴿وَ﴾ لكن ﴿اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنه هو الهدى والرحمة، وَارْجُ بذلك ثواب ربك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فإن وقع فى قلبك أنك إن لم تطعهم فى أهوائهم المضلة حصل عليك منهم ضرر أو حصل نقص فى هداية الخلق فادفع ذلك عن نفسك واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره وهو التوكل على الله بأن تعتمد على ربك اعتماد من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا فى سلامتك من شرهم وفى إقامة الدين الذى أمرت به، وثق بالله فى حصول ذلك الأمر على أى حال كان ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ توكل إليه الأمور فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده من حيث لا يعلم العبد وقدرته على إيصالها إليه من حيث لا يقدر عليها العبد وأنه أرحم بعبده من نفسه ومن والديه وأرأف به من كل أحد خصوصًا خواص عبيده الذين لم يزل يربيهم ببره ويُدِرُّ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة، خصوصًا وقد أمره بإلقاء أموره إليه ووعده أن يقوم بها، فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر وصعب يتسهل وخطوب تهون وكروب تزول وأحوال وحوائج تقضى وبركات تنزل ونقم تدفع وشرور ترفع، وهناك ترى العبد الضعيف الذى يفوض أمره لسيده قد قام بأمور لا تقوم بها أمة من الناس وقد سهل الله عليه ما كان يصعب على فحول الرجال وبالله المستعان.

﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

يعاقب تعالى عباده عن التكلم بما لا حقيقة له من الأقوال ولم يجعله الله تعالى كما قالوا فإن ذلك القول منهم كذب وزور يترتب عليه منكرات من الشرع، وهذه قاعدة عامة فى التكلم فى كل شيء والإخبار بوقوع ووجود ما لم يجعله الله تعالى، ولكن خص هذه الأشياء المذكورة لوقوعها وشدة الحاجة إلى بيانها فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ هذا لا يوجد، فإياكم أن تقولوا عن أحد: إن له قلبين فى جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ بأن يقول أحدكم لزوجته «أنت علىَّ كظهر أمى أو كأمى» فما جعلهن الله ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أمك مَنْ ولدتك وصارت أعظم النساء عليك حرمة وتحريمًا، وزوجتك أحل النساء لك فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟ هذا أمر لا يجوز كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾. ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ والأدعياء جمع «دعىّ» وهو: الولد الذى كان الرجل يدعيه وهو ليس له أو يُدْعَى إليه بسبب تبنيه إياه كما كان الأمر فى الجاهلية وأول الإسلام، فأراد الله تعالى أن يبطله ويزيله فقدم بين يدى ذلك بيان قبحه وأنه باطل وكذب وكل باطل وكذب لا يوجد فى شرع الله ولا يتصف به عباد الله، يقول تعالى: فالله لم يجعل الأدعياء الذين تدعونهم أو يدعون إليكم أبناءكم فإن أبناءكم فى الحقيقة من ولدتموهم وكانوا منكم وأما هؤلاء الأدعياء من غيركم فلا جعل الله هذا كهذا ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ القول الذى تقولون فى الدعىِّ: إنه ابن فلان الذى ادعاه أو والده فلان ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أى: قول لا حقيقة له ولا معنى له ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أى: اليقين والصدق، فلذلك أمركم باتباعه على قوله وشرعه، فقوله حق وشرعه حق والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه وليست من هدايته لأنه لا يهدى إلا إلى السبيل المستقيمة والطرق الصادقة، وإن كان ذلك واقعًا بمشيئته فمشيئته عامة لكل ما وجد من خير وشر، ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى المتضمنة للقول الباطل فقال: ﴿ادْعُوهُمْ﴾ أى الأدعياء ﴿لِآبَائِهِمْ﴾ الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ أى: أعدل وأقوم وأهدى ﴿فَإِن

لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ الحقيقيين ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أى: إخوتكم فى دين الله ومواليكم فى ذلك فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة والموالاة على ذلك فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها، وأما دعاؤهم لآبائهم فإن علموا دعوا إليهم وإن لم يعلموا اقتصر على ما يعلم منهم وهو أخوة الدين والموالاة، فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بآبائهم عذر فى دعوتهم إلى من تبناهم، لأن المحذور لا يزول بذلك ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ بأن سبق على لسان أحدكم دعوته إلى من تبناه فهذا غير مؤاخذ به أو علم أبوه ظاهرًا فدعوتموه إليه وهو فى الباطن غير أبيه، فليس فى ذلك حرج إذا كان خطأ ﴿وَلَكِن﴾ يؤاخذكم فى ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ من الكلام بما لا يجوز ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ غفر لكم ورحمكم حيث لم يعاقبكم بما سلف وسمح لكم بما أخطأتم به ورحمكم حيث بيَّن لكم أحكامه التى تصلح دينكم ودنياكم فله الحمد تعالى.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

يخبر تعالى المؤمنين خبرًا يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة فقال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أقرب ما للإنسان وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى بالمؤمن من نفسه لأنه ﷺ بذل لهم من النصح والشفقة والرأفة ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم، فرسول الله أعظم الخلق منَّةً عليهم من كل أحد، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على يديه وبسببه، فلذلك وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس أو مراد أحد من الناس مع مراد الرسول أن يقدم مراد الرسول وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحد كائنًا من كان وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ويقدموا محبته على الخلق كلهم وألا يقولوا حتى يقول ولا يتقدموا بين يديه، وهو ﷺ أب للمؤمنين كما فى قراءة بعض الصحابة يربيهم كما يربى الوالد أولاده، فترتب على هذه الأبوة أن كان نساؤه أمهاتهم أى: فى الحرمة والاحترام والإكرام لا فى الخلوة والمحرمية، وكأن هذا مقدمة لما سيأتى فى قصة زيد بن حارثة الذى يُدْعَى قَبْلُ «زيد بن محمد» حتى أنزل الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ فقطع نسبه وانتسابه منه، فأخبر فى هذه الآية أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول فلا مزية لأحد عن أحد، وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة فإن النسب الإيمانى لم ينقطع عنه فلا يحزن ولا يأسف، وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين أنهن لا يحللن لأحد من بعده كما صرح بذلك فى قوله: ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ أى الأقارب قربوا أو بعدوا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى: فى حكمه فيرث بعضهم بعضًا ويبر بعضهم بعضًا فهم أولى من الحلف والنصرة، والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب دون ذوى الأرحام فقطع تعالى التوارث بذلك وجعله للأقارب لطفًا منه وحكمة، فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة لحصل من الفساد والشر والتحيل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أى: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين أو غير مهاجرين فإن ذوى الأرحام مقدمون فى ذلك، وهذه الآية حجة على ولاية ذوى الأرحام فى جميع الولايات كولاية النكاح والمال وغير ذلك ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أى: ليس لهم حق مفروض وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تتبرعوا لهم تبرعًا وتعطوهم معروفًا منكم ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ ذلك الحكم المذكور ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أى: قد سطر وكتب وقدره الله فلا بد من نفوذه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عمومًا ومن أولى العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون - خصوصًا ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد على القيام بدين الله والجهاد فى سبيله وأن هذا سبيل قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ وأمر الناس بالاقتداء به وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن

هذا العهد الغليظ هل وفوا فيه وصدقوا؟ فيثيبهم جنات النعيم، أم كفروا فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم ويحثهم على شكرها حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم وأهل نجد من أسفل منهم وتعاقدوا وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة وذلك فى وقعة الخندق، ومالأتهم طوائف اليهود الذين حوالى المدينة فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة، وخندق رسول الله ﷺ على المدينة فحصروا المدينة واشتد الأمر وبلغت القلوب الحناجر حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ لما رأوا من الأسباب المستحكمة والشدائد الشديدة فلم يزل الحصار علي المدينة مدة طويلة والأمر كما وصف الله فى قوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أى: الظنون السيئة، أن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بهذه الفتنة العظيمة ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ بالخوف والقلق والجوع ليتبين إيمانهم ويزيد إيقانهم، فظهر ـ ولله الحمد ـ من إيمانهم وشدة يقينهم ما فاقوا فيه الأولين والآخرين، وعندما اشتد الكرب وتفاقمت الشدائد صار إيمانهم عين اليقين ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

وهنالك تبين نفاق المنافقين وظهر ما كانوا يضمرون، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة لا يثبت إيمانه وينظر بعقله القاصر إلى الحالة الحاضرة ويصدق ظنه ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أى: من المنافقين بعدما جزعوا وقلَّ صبرهم وصاروا أيضًا من المخذولين فلا صبروا بأنفسهم ولا تركوا الناس من شرهم، فقالت هذه الطائفة: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يريدون «يا أهل المدينة» فنادوهم باسم الوطن المنبئ عن التسمية فيه، إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية ليس لهما فى قلوبهم قدر وأن الذى حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعى ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أى: فى موضعكم الذى خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى المدينة، فهذه الطائفة تخذل عن الجهاد وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم ويأمرونهم بترك القتال، فهذه الطائفة شر الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم أصابهم الجبن والجزع وأحبوا أن ينخذلوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أى: عليها الخطر ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء ونحن غُيَّبٌ عنها فَأْذَنْ لنا نرجع إليها فنحرسها وهم كذبة فى ذلك ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ﴾ أى: ما قصدهم ﴿إِلاَّ فِرَارًا﴾ ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعذرًا لهم، فهؤلاء قَلَّ إيمانهم وليس لهم ثبوت عند اشتداد المحن ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ المدينة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أى: لو دخل الكفار إليها من نواحيها واستولوا عليها ﴿ثُمَّ﴾ سئل هؤلاء ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أى: الانقلاب عن دينهم والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين ﴿لآتَوْهَا﴾ أى: لأعطوها مبادرين ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا﴾ أى: ليس لهم منعة ولا تَصَلُّبٌ على الدين بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء يعطونهم ما طلبوا ويوافقونهم على كفرهم، هذه حالهم والحال أنهم ﴿كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾ سيسألهم عن ذلك العهد فيجدهم قد نقضوه فما ظنهم إذًا بربهم؟ ﴿قُل﴾ لهم ـ لائمًا على فرارهم ومخبرًا أنهم لا يفيدهم ذلك شيئًا ـ: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ فلو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، والأسباب تنفع إذا لم يعارضها القضاء والقدر فإذا جاء القضاء والقدر تلاشى كل سبب وبطلت كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه ﴿وَإِذًا﴾ حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل ولتنعموا فى الدنيا فإنكم ﴿لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ متاعًا لا يساوى فراركم وترككم أمر الله وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدى فى النعيم السرمدى، ثم بيَّن أن الأسباب كلها لا تغنى عن العبد شيئًا إذا أراده الله بسوء فقال: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم﴾ أى: يمنعكم ﴿مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أى: شرًا ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ فإنه هو المعطى المانع الضار النافع الذى لا يأتى بالخير إلا هو ولا يدفع السوء إلا هو ﴿وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يتولاهم فيجلب لهم المنافع ﴿وَلا نَصِيرًا﴾ ينصرهم فيدفع عنهم المضار، فَلْيَمْتَثِلُوا طاعة المنفرد بالأمور كلها الذى نفذت مشيئته ومضى قدره ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته ولِىٌّ ولا ناصر ثم توعَّد تعالى المخذلين المعوقين وتهددهم فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ عن الخروج لمن لم يخرجوا ﴿وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ﴾ الذين خرجوا ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أى: ارجعوا، كما تقدم من قولهم: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ وهم من تعويقهم وتخذيلهم ﴿لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ أى: القتال والجهاد، بأنفسهم ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ فهم أشد الناس حرصًا على التخلف لعدم الداعى لذلك من الإيمان والصبر ولوجود المقتضى للجبن من النفاق وعدم الإيمان ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بأبدانهم عند القتال وبأموالهم عند النفقة فيه فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ﴾ أى: نظر المغشى عليه ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾ من شدة الجبن الذى خلع قلوبهم والقلق الذى أذهلهم وخوفًا من إجبارهم على ما يكرهون من القتال ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وصاروا فى حال الأمن والطمأنينة ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أى: خاطبوكم وتكلموا معكم بكلام حديد ودعاوى غير صحيحة وحين تسمعهم تظنهم أهل الشجاعة والإقدام ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ الذى يراد منهم وهذا شر ما فى الإنسان أن يكون شحيحًا بما أمر به شحيحًا بماله أن ينفقه فى وجهه شحيحًا فى بدنه أن يجاهد أعداء الله أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحًا بجاهه شحيحًا بعلمه ونصيحته ورأيه ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الذين بتلك الحالة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ بسبب عدم إيمانهم ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيراً﴾ وأما المؤمنون فقد وقاهم الله شح أنفسهم ووفقهم لبذل ما أمروا به من بذل أبدانهم فى القتال فى سبيله وإعلاء كلمته وأموالهم للنفقة فى طرق الخير وجاههم وعلمهم ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أى: يظنون أن هؤلاء الأحزاب الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم فخاب ظنهم وبطل حسبانهم ﴿وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ﴾ مرة أخرى ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أى: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة ودَّ هؤلاء المنافقون أنهم ليسوا فى المدينة ولا فى القرب منها وأنهم مع الأعراب فى البادية يستخبرون عن أخباركم ويسألون عن أنبائكم ماذا حصل عليكم؟ فتبًا لهم وبعدًا فليسوا ممن يبالي بحضورهم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ فلا تبالوهم ولا تأسوا عليهم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة وباشر موقف الحرب وهو الشريف الكامل والبطل الباسل فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه؟!! فَتَأَسَّوْا به فى هذا الأمر وغيره، واستدل الأصوليون فى هذه الآية على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ وأن الأصل أن أمته أسوته فى الأحكام إلا ما دل الدليل الشرعي على الاختصاص به، فالأسوة نوعان: أسوة حسنة وأسوة سيئة، فالأسوة الحسنة فى الرسول ﷺ فإن المتأسِّى به سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله وهو الصراط المستقيم، وأما الأسوة بغيره إذا خالفه فهو الأسوة السيئة كقول المشركين حين دعتهم الرسل للتأسِّى بهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وهذه الأسوة الحسنة إنما يسلكها ويوفق لها من كان يرجو الله واليوم الآخر فإن ما معه من الإيمان وخوف الله ورجاء ثوابه وخوف عقابه يحثه على التأسى بالرسول ﷺ، لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف ذكر حال المؤمنين فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ﴾ الذين تحزبوا ونزلوا منازلهم وانتهى الخوف ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فإنا رأينا ما أخبرنا به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر ﴿إِلاَّ إِيمَانًا﴾ فى قلوبهم ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ فى جوارحهم وانقيادًا لأمر الله، ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله لا يولون الأدبار ونقضوا ذلك العهد ذكر وفاء المؤمنين به فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أى: وفوا به وأتموه وأكملوه فبذلوا مهجهم فى مرضاته وسبَّلوا نفوسهم فى طاعته ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أى: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق فقتل فى سبيل الله أو مات مؤديًا لحقه لم ينقصه شيئًا ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ تكميل ما عليه فهو شارع فى قضاء ما عليه ووفاء نحبه ولمَّا يكمله وهو فى رجاء تكميله ساع فى ذلك مجد ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ كما بدل غيرهم، بل لم يزالوا على العهد لا يلوون ولا يتغيرون فهؤلاء هم الرجال على الحقيقة ومن عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أى: بسبب صدقهم فى أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع الله واستواء ظاهرهم وباطنهم قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ الآية، أى: قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل ليتبين الصادق من الكاذب فيجزى الله الصادقين بصدقهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه ﴿إِن شَاءَ﴾ تعذيبهم، بأن لم يشأ هدايتهم بل علم أنهم لا خير فيهم فلم يوفقهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب على كرم الكريم، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لذنوب المسرفين على أنفسهم ولو أكثروا من العصيان إذا أتوا بالمتاب ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث وفقهم للتوبة ثم قبلها منهم وستر عليهم ما اجترحوه ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ أى: ردهم خائبين لم يحصل لهم الأمر الذى كانوا حريصين عليه مغتاظين قادرين عليه جازمين بأن لهم الدائرة، قد غرتهم جموعهم وأعجبوا بتحزبهم وفرحوا بعَدَدهم وعُددهم فأرسل الله عليهم ريحًا عظيمة وهى ريح الصبا فزعزعت مراكزهم وقوَّضت خيامهم وكفأت قدورهم وأزعجتهم وضربهم الله بالرعب فانصرفوا بغيظهم وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ لا يغالبه أحد إلا غُلِبَ ولا يستنصره أحد إلا غَلَبَ ولا يعجزه أمر أراده ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم

وعزتهم إن لم يعنهم الله بقوته وعزته ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ أى: عاونوهم ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أى: من اليهود ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أى: أنزلهم من حصونهم نزولاً مظفوراً بهم مجعولين تحت حكم الإسلام ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ فلم يقووا على القتال بل استسلموا وخضعوا وذلوا ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال المقاتلون ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ مَنْ عداهم من النساء والصبيان ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ أى: غنَّمكم ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ أى: أرضًا كانت من قبل، من شرفها وعزتها عند أهلها لا تتمكنون من وطئها، فمكنكم الله منها ومن أهلها وخذلهم وغنمتم أموالهم وقتلتموهم وأسرتموهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يعجزه شيء ومن قدرته قدَّر لكم ما قدر، وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب هم بنو قريظة من اليهود فى قرية خارج المدينة غير بعيدة، وكان النبى ﷺ حين هاجر إلى المدينة وادعهم وهادنهم فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه وهم باقون على دينهم لم يغير عليهم شيئًا، فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكثرتهم وقلة المسلمين وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذلك تدجيل بعض رؤسائهم عليهم، نقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ ومالئوا المشركين على قتاله، فلما خذل الله المشركين تفرغ رسول الله ﷺ لقتالهم فحاصرهم فى حصنهم فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه فحكم فيهم أن تقتل مقاتليهم وتسبى ذراريهم وتغنم أموالهم فأتم الله لرسوله والمؤمنين المنة وأسبغ عليهم النعمة وأقرَّ أعينهم بخذلان من انخذل من أعدائهم وقتل من قتلوا وأسر من أسروا، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمرًا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ فى الغيرة وطلبن منه أمرًا لا يقدر عليه فى كل وقت ولم يزلن فى طلبهن متفقات وفى مرادهن متعنتات شقَّ ذلك على الرسول حتى وصلت به الحال إلى أنه آلى منهن شهرًا، فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله وأن يرفع درجة زوجاته ويُذْهِبَ عنهن كل أمر ينقص أجرهن فأمر رسوله أن يخيرهن فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أى: ليس لكن فى غيرها مطلب وصرتن ترضين لوجودها وتغضبن لفقدها فليس لى فيكن إرب وحاجة وأنتن بهذه الحال ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ شيئًا مما عندى من الدنيا ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أى: أفارقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من دون مغاضبة ولا مشاتمة بل بسعة صدر وانشراح بال قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغى ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أى: هذه الأشياء مرادكن وغاية مقصودكن، وإذا حصل لكُنَّ الله ورسوله والجنة لما تبالين بسعة الدنيا وضيقها ويسرها وعسرها وقنعتن من رسول الله بما تيسر ولم تطلبن منه ما يشق عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ رتب الأجر على وصفهن بالإحسان لأنه السبب الموجب لذلك لا لكونهن زوجات الرسول فإن مجرد ذلك لا يكفى بل لا يفيد شيئًا مع عدم الإحسان، فخيَّرهن رسول الله ﷺ فى ذلك فاخترن كلهن الله ورسوله والدار الآخرة لم يتخلف منهن واحدة رضي الله عنهن، وفى هذا التخيير فوائد عديدة: **منها**: الاعتناء برسوله والغيرة عليه أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية، ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات وأنه يبقى فى حرية نفسه إن شاء أعطى وإن شاء منع ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ **ومنها**: تنزيهه عما لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة وعن مقارنتها، **ومنها**: سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول الموجب لسخطه المسخط لربه الموجب لعقابه، **ومنها**: إظهار رفعتهن وعلو درجتهن وبيان علو هممهن أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن دون الدنيا وحطامها، **ومنها**: استعدادهن بهذا الاختيار للأمر المختار للوصول إلى خيار درجات الجنة وأن يكُنَّ زوجاته فى الدنيا والآخرة، **ومنها**: ظهور المناسبة بينه وبينهن فإنه أكمل وأراد الله أن تكون نساؤه كاملات مكملات طيبات مطيبات ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ **ومنها**: أن هذا التخيير داع وموجب للقناعة التى يطمئن لها القلب وينشرح لها الصدر ويزول عنهن جشع الحرص وعدم الرضا الموجب

لقلق القلب واضطرابه وهمه وغمه، ومنها: أن يكون اختيارهن هذا سببًا لزيادة أجرهن ومضاعفته وأن يكُنَّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء ولهذا قال:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ذكر مضاعفة أجرهن ومضاعفة وزرهن وإثمهن لو جرى منهن ليزداد حذرهن وشكرهن الله تعالى فجعل لمن أتى منهن بفاحشة ظاهرة العذاب ضعفين ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ أى: تطيع ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ قليلاً أو كثيرًا ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أى: مثل ما نعطى غيرها مرتين ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ وهى الجنة، فقنتن لله ورسوله وعملن صالحًا فعلم بذلك أجرهن.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ خطاب لهن كلهن ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ الله، فإنكن بذلك تفقن النساء ولا يلحقكن أحد من النساء فكملن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها، فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم فقال: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أى: فى مخاطبة الرجال أو بحيث يسمعون فَتَلِنَّ فى ذلك وتتكلمن بكلام رقيق ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أى: مرض شهوة الحرام، فإنه مستعد ينتظر أدنى محرك يحركه لأن قلبه غير صحيح فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوة لما حرم الله فإن ذلك لا تكاد تُميلُه ولا تحركه الأسباب لصحة قلبه وسلامته من المرض، بخلاف مريض القلب الذى لا يتحمل ما يتحمل الصحيح ولا يصبر على ما يصبر عليه فأدنى سبب يوجد ويدعوه إلى الحرام يجيب دعوته ولا يتعاصى عليه، فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد فإن الخضوع بالقول واللين فيه فى الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم منع منه ولهذا ينبغى للمرأة فى مخاطبة الرجال أن لا تَلِينَ لهم القول، ولما نهاهن عن الخضوع فى القول فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ أى: غير غليظ ولا جاف كما أنه ليس بلَيِّنٍ خاضع، وتأمل كيف قال: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ولم يقل «فلا تَلِنَّ بالقول» وذلك لأن المنهى عنه القول اللين الذى فيه خضوع المرأة للرجل وانكسارها عنده، والخاضع هو الذى يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلامًا لينًا ليس فيه خضوع بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ وقال لموسى وهرون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ودل قوله: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفروجهم والحافظات ونهيه عن قربان الزنا أنه ينبغى للعبد إذا رأى من نفسه هذه الحالة وأنه يهش لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه ويجد دواعى طمعه قد انصرفت إلى الحرام فَلْيَعْرِفْ أن ذلك مرض فَلْيَجْتَهِدْ فى إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الردية ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر وسؤال الله العصمة والتوفيق وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أى: اقررن فيها لأنه أسلم وأحفظ لَكُنَّ ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾ أى: لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات كعادة أهل الجاهلية الأولى الذين لا علم عندهم ولا دين فكل هذا دفع للشر وأسبابه، ولما أمرهن بالتقوى عمومًا وبجزئيات من التقوى نص عليها لحاجة النساء إليها كذلك أمرهن بالطاعة خصوصًا الصلاة والزكاة اللتان يحتاجهما ويضطر إليهما كل أحد وهما

أكبر العبادات وأجل الطاعات، وفى الصلاة الإخلاص للمعبود، وفى الزكاة الإحسان إلى العبيد، ثم أمرهن بالطاعة عمومًا فقال: ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يدخل فى طاعة الله ورسوله كل أمر أمرا به أمر إيجاب أو إستحباب ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بأمركن بما أمركُنَّ به ونهيكن عما نهاكُنَّ عنه ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ أى: الأذى والشر والخبث يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ حتى تكونوا طاهرين مطهرين، أى: فاحمدوا ربكم واشكروه على هذه الأوامر والنواهى التى أخبركم بمصلحتها وأنها محض مصلحتكم لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجًا ولا مشقة بل لتتزكى نفوسكم وتتطهر أخلاقكم وتحسن أعمالكم ويعظم بذلك أجركم، ولما أمرهن بالعمل الذى هو فعل وترك أمرهن بالعلم وبيَّن لهن طريقه فقال: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ والمراد بآيات الله القرآن والحكمة: أسراره وسنة رسوله، وأمرهن بذكره يشمل ذكر لفظه بتلاوته وذكر معناه بتدبره والتفكر فيه واستخراج أحكامه وحكمه وذكر العمل به وتأويله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يدرك سرائر الأمور وخفايا الصدور وخبايا السموات والأرض والأعمال التى تبين وتسر، فلطفه وخبرته يقتضى حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال ومجازاة الله على تلك الأعمال، ومن معانى «اللطيف» الذى يسوق عبده إلى الخير ويعصمه من الشر بطرق خفية لا يشعر بها ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه ويريه من الأسباب التى تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقًا له إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ وعقابهن لو قدر عدم الامتثال وأنه ليس مثلهن أحد من النساء ذكر بقية النساء غيرهن، ولما كان حكمهن وحكم الرجال واحدا جعل الحكم مشتركًا فقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وهذا فى الشرائع الظاهرة إذا كانوا قائمين بها ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهذا فى الأمور الباطنة من عقائد القلب وأعماله ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ أى: المطيعين لله ولرسوله ﴿وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾ فى مقالهم وفعالهم ﴿وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ﴾ على الشدائد والمصائب ﴿وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ﴾ فى جميع أحوالهم خصوصًا فى عباداتهم ولا سيما فى صلواتهم ﴿وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ﴾ فرضًا ونفلاً ﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ شمل ذلك الفرض والنفل ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عن الزنا ومقدماته ﴿وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أى: فى أكثر الأوقات خصوصًا أوقات الأوراد المقيدة كالصباح والمساء أو بالصلوات المكتوبات ﴿وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم﴾ أى: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة والمناقب الجليلة التى هى ما بين اعتقادات وأعمال قلوب وأعمال جوارح وأقوال لسان ونفع متعد وقاصر وما بين أفعال الخير وترك الشر الذى من قام بهن فقد قام بالدين كله ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان فجزاهم على عملهم ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبهم لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقدر قدره إلا الذى أعطاه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أى: لا ينبغى ولا يليق من اتصف بالإيمان إلا الإسراع فى مرضاة الله ورسوله والهرب من سخط الله ورسوله وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور وحتَّما به وألزما به ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أى: الخيار هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم

المؤمن والمؤمنة أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه وبين أمر الله ورسوله ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ أى: بينًا لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله وهو الإيمان ثم ذكر المانع من ذلك وهو التخويف بالضلال الدال على العقوبة والنكال.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

وكان سبب نزول هذه الآيات أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعًا عامًا للمؤمنين أن الأدعياء ليسوا فى حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم فى نكاحهن، وكان هذا من الأمور المعتادة التى لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلاً، وإذا أراد الله أمرًا جعل له سببًا فكان زيد بن حارثة يدعى «زيد ابن محمد» قد تبناه النبى ﷺ فصار يدعى إليه حتى نزل ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ فقيل له «زيد بن حارثة» وكانت تحته زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ وكان قد وقع فى قلب الرسول لو طلقها زيد لتزوجها، فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبى ﷺ فى فراقها، قال الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أى: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق والإرشاد والتعليم حين جاءك مشاورًا فى فراقها: فقلت له ناصحًا له ومخبرًا بمصلحته مقدمًا لها على رغبتك مع وقوعها فى قلبك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أى: لا تفارقها واصبر على ما جاءك منها ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ تعالى فى أمورك عامة وفى أمر زوجك خاصة فإن التقوى تحث على الصبر وتأمر به ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ والذى أخفاه أنه لو طلقها زيد لتزوجها ﷺ ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ فى عدم إبداء ما فى نفسك ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ فإن خشيته جالبة لكل خير مانعة من كل شر ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أى: طابت نفسه ورغب عنها وفارقها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وإنما فعلنا ذلك لفائدة عظيمة وهى: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ حيث رأوك تزوجت زوج زيد بن حارثة الذى كان من قبل ينتسب إليك، ولما كان قوله: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ عامًا فى جميع الأحوال وكان من الأحوال ما لا يجوز ذلك وهى قبل انقضاء وطره منها قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أى: لا بد من فعله ولا عائق له ولا مانع، وفى هذه الآيات المشتملات على هذه القصة فوائد: منها: الثناء على زيد بن حارثة وذلك من وجهين: أحدهما: أن الله سماه فى القرآن ولم يسم من الصحابة باسمه غيره والثانى: أن الله أخبر أنه أنعم عليه أى: بنعمة الإسلام والإيمان وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن ظاهرًا وباطنًا وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة إلا أن المراد بها النعمة الخاصة، ومنها: أن المُعْتَق فى نعمة المُعْتِق، ومنها: جواز تزوج زوجة الدَّعِىّ كما صرح به، ومنها: أن التعليم الفعلى أبلغ من القولى خصوصًا إذا اقترن بالقول فإن ذلك نور على نور، ومنها: أن المحبة فى قلب العبد لغير زوجته ومملوكته ومحارمه إذا لم يقترن بها محذور لا يأثم عليها العبد ولو اقترن بذلك أمنيته أن لو طلقها زوجها لتزوجها من غير أن يسعى فى فرقة بينهما أو يتسبب بأى سبب كان لأن الله أخبر الرسول ﷺ أنه أخفى ذلك فى نفسه، ومنها: أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين فلم يدع شيئًا مما أوحى إليه إلا وبلغه حتى هذا الأمر الذى فيه عتابه، وهذا يدل على أنه رسول الله ولا يقول إلا ما أوحى إليه ولا يريد تعظيم نفسه، ومنها: أن المستشار مؤتمن يجب عليه - إذ استشير فى أمر من الأمور - أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير، ولو لم يكن للمستشار حظ نفس بتقدم مصلحة المستشير على هوى نفسه وغرضه، ومنها: أن الرأى الحسن لمن استشار فى فراق زوجه أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال فهو أحسن من الفرقة، ومنها: أنه يتعين أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس وأنها أحق منها وأولى، ومنها: فضيلة أم المؤمنين زينب رضي الله عنها حيث تولى الله تزويجها من رسوله ﷺ دون خطبة ولا شهود ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله ﷺ

وتقول، زوَّجكن أهاليكن وزوَّجني الله من فوق سبع سموات، **ومنها**: أن المرأة إذا كانت ذات زوج لا يجوز نكاحها ولا السعي فيه وفي أسبابه حتى يقضي زوجها وطره منها ولا يقضي وطره حتى تنقضي عدتها لأنها قبل انقضاء عدتها هي في عصمته أو في حقه الذي له وطر إليها ولو من بعض الوجوه.

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾

هذا دفع لطعن من طعن في الرسول ﷺ في كثرة أزواجه وأنه طعن بما لا مطعن فيه فقال: ﴿**مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ**﴾ أي: إثم وذنب ﴿**فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ**﴾ أي: قدر له من الزوجات فإن هذا قد أباحه الله له كما أباحه للأنبياء قبله ولهذا قال: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا**﴾ أي: لا بد من وقوعه، ثم ذكر من هم الذين قد خلوا من قبل وهذه سنتهم وعادتهم وأنهم ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ**﴾ فيتلون على العباد آيات الله وحججه وبراهينه ويدعونهم إلى الله ﴿**وَيَخْشَوْنَهُ**﴾ وحده لا شريك له ﴿**وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ**﴾ فإذا كان هذا سنة في الأنبياء المعصومين الذين وظيفتهم قد أدوها وقاموا بها أتم القيام وهو: دعوة الخلق إلى الله والخشية منه وحده التي تقتضي فعل كل مأمور وترك كل محظور ﴿**وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا**﴾ محاسبا عباده مراقبًا أعمالهم وعلم من هذا أن النكاح من سنن المرسلين.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

أي: ﴿**مَا كَانَ**﴾ الرسول ﴿**مُحَمَّدٌ**﴾ ﷺ ﴿**أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ**﴾ أيها الأمة فقطع انتساب زيد بن حارثة منه من هذا الباب، ولما كان هذا النفي عامًا في جميع الأحوال إن ظاهر اللفظ على ظاهره أي: لا أبوة نسب ولا أبوة ادعاء وكان قد تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم وأزواجه أمهاتهم احترز أن يدخل في هذا النوع بعموم النهي المذكور فقال: ﴿**وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ أي: هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع المهتدى به المؤمن له الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد الناصح الذي لهم أي: للمؤمنين من بره ونصحه كأنه أب لهم ﴿**وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ أي: قد أحاط علمه بجميع الأشياء ويعلم حيث يجعل رسالاته ومن يصلح لفضله ومن لا يصلح.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾

يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكرًا كثيرًا من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير وغير ذلك من كل قول فيه قربة إلى الله، وأقل ذلك أن يلازم الإنسان أوراد الصباح والمساء وأدبار الصلوات الخمس وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح وداعٍ إلى محبة الله ومعرفته وعون على الخير وكف اللسان عن الكلام القبيح ﴿**وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ أي: أول النهار وآخره لفضلهما وشرفهما وسهولة العمل فيهما ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم أن جعل من صلاته عليهم وثنائه وصلاة ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل، فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين تستدعي منهم شكرها والإكثار من ذكر الله الذي لطف بهم ورحمهم وجعل حملة عرشه أفضل الملائكة ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ**

رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فهذه رحمته ونعمته عليهم فى الدنيا وأما رحمته بهم فى الآخرة فأجل رحمة وأفضل ثواب وهو الفوز برضا ربهم وتحيته واستماع كلامه الجليل ورؤية وجهه الجميل وحصول الأجر الكبير الذى لا يدريه ولا يعرف كنهه إلا من أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)﴾

هذه الأشياء التى وصف بها رسوله محمداً ﷺ هى المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التى اختص بها وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه ﴿شَاهِدًا﴾ أى: شاهداً على أمته بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فهو ﷺ شاهد عدل مقبول، الثانى والثالث: كونه ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وهذا يستلزم ذكر المبشر والمنذر وما يبشر به وينذر والأعمال الموجبة لذلك، فالمبشَّرون: المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصى، لهم البشرى فى الحياة الدنيا بكل ثواب دنيوى ودينى رتب على الإيمان والتقوى، وفى الأخرى بالنعيم المقيم وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال وخصال التقوى وأنواع الثواب، والمُنْذَرون هم: المجرمون الظالمون أهل الظلم والجهل لهم النذارة فى الدنيا من العقوبات الدنيوية والدينية المترتبة على الجهل والظلم وفى الأخرى بالعقاب الوبيل والعذاب الطويل وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة المشتمل على ذلك، الرابع: كونه ﴿دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم ويشوقهم لكرامته ويأمرهم بعبادته التى خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه وذكر تفاصيل ما يدعو إليه بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة وتنزيهه عما لا يليق بجلاله وذكر أنواع العبودية والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه وإعطاء كل ذى حق حقه وإخلاص الدعوة إلى الله لا إلى نفسه وتعظيمها كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس فى هذا المقام، وذلك كله ﴿بِإِذْنِهِ﴾ تعالى له فى الدعوة وأمره وإرادته وقدره، الخامس: كونه ﴿سِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ وذلك يقتضى أن الخلق فى ظلمة عظيمة لا نور يهتدى به فى ظلماتها ولا علم يستدل به فى جهاتها حتى جاء الله بهذا النبى الكريم فأضاء الله به تلك الظلمات وعلم به من الجهالات وهدى به ضُلالاً إلى الصراط المستقيم فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر وأهل السعادة من أهل الشقاوة واستناروا به لمعرفة معبودهم وعرفوه بأوصافه الحميدة وأفعاله السديدة وأحكامه الرشيدة، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ذكر فى هذه الجملة المُبشَّرين وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده تدخل فيه الأعمال الصالحة، وذكر المبشَّر به وهو الفضل الكبير أى: العظيم الجليل الذى لا يقادر قدره من النصر فى الدنيا وهداية القلوب وغفران الذنوب وكشف الكروب وكثرة الأرزاق الدَّارَّة وحصول النعم السارة والفوز برضا ربهم وثوابه والنجاة من سخطه وعقابه وهذا مما ينشط العاملين أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم المشرع كما أن من حكمه أن يذكر فى مقام الترهيب العقوبات المترتبة على ما يرهب منه ليكون عونًا على الكف عما حرم الله، ولما كان ثَمَّ طائفة من الناس مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله من الرسل وأتباعهم وهم المنافقون الذين أظهروا الموافقة فى الإيمان وهم كفرة فجرة فى الباطن والكفار ظاهراً وباطنًا نهى الله رسوله عن طاعتهم وحذره ذلك فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أى: فى كل أمر يصد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضى هذا أذاهم بل لا تطعهم ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ فإن ذلك جالب لهم وداع إلى قبول الإسلام وإلى كف كثير من

أذيتهم له ولأهله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إتمام أمرك وخذلان عدوك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ توكل إليه الأمور المهمة فيقوم بها ويسهلها على عبده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

يخبر تعالى المؤمنين أنهم إذا نكحوا المؤمنات ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن فليس عليهن في ذلك عدة تعتدها أزواجهن عليهن وأمرهم بتمتيعهن بهذه الحالة بشيء من متاع الدنيا الذي يكون فيه جبر لخواطرهن لأجل فراقهن وأن يفارقوهن فراقًا جميلاً من غير مخاصمة ولا مشاتمة ولا مطالبة ولا غير ذلك، ويستدل بهذه الآية على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح، فلو طلقها قبل أنه ينكحها أو علق طلاقها على نكاحها لم يقع لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فجعل الطلاق بعد النكاح فدل على أن قبل ذلك لا محل له، وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة وتحريم تام لا يقع قبل النكاح فالتحريم الناقص لظهار أو إيلاء ونحوه من باب أولى وأحرى أن لا يقع قبل النكاح كما هو أصح قولَي العلماء، وعلى جواز الطلاق لأن الله أخبر به عن المؤمنين على وجه لم يلمهم عليه ولم يؤنبهم مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين، وعلى جوازه قبل المسيس كما قال في الآية الأخرى: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدة لها بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج حيث لا مانع وعلى أن عليها العدة بعد الدخول، وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء كما هو مجمع عليه؟ أو وكذلك الخلوة ولو لم يحصل معها وطء كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح، فمتى دخل عليها وطئها أم لا إذا خلا بها وجب عليها العدة، وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر فإن كان لها مهر مفروض فإنه إذا طلق قبل الدخول تَنَصَّف المهر وكفى عن المتعة، وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده أن يكون الفراق جميلاً يحمد فيه كل منهما الآخر، ولا يكون غير جميل فإن في ذلك من الشر المترتب عليه من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير، وعلى أن العدة حق للزوج فقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ دل مفهومه أن لو طلقها بعد المسيس كان له عليها عدة، وعلى أن المفارقة بالوفاة تعتد مطلقًا لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية، وعلى أن من عدا غير المدخول بها من المفارقات من الزوجات بموت أو حياة عليهن العدة، يقول تعالى ممتنًا على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك فيه هو والمؤمنون وما ينفرد به ويختص: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أعطيتهن مهورهن من الزوجات، وهذا من الأمور المشترك بينه وبين المؤمنين فإن المؤمنين كذلك يباح لهم من آتوهن أجورهن من الأزواج ﴿وَ﴾ كذلك أحللنا لك ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي الإماء التي ملكت ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من غنيمة الكفار من عبيدهم والأحرار من لهن زوج منهم ومن لا زوج لهن وهذا أيضًا مشترك وكذلك من المشترك قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ شمل العم والعمة والخال والخالة القريبين والبعيدين وهذا حصر المحللات، يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل كما تقدم في سورة النساء فإنه لا يباح من الأقارب من النساء غير هؤلاء الأربع وما عداهن من الفروع مطلقًا والأصول مطلقًا إلا فروع الأب والأم وإن نزلوا وفروع من فوقهم لصلبه فإنه لا يباح، وقوله: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ﴾ قيد لحل هؤلاء للرسول كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره ﷺ فقد علم

أن هذا قيد لغير الصحة ﴿وَ﴾ أحللنا لك ﴿امْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ بمجرد هبتها نفسها ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: إباحة الموهوبة، وأما المؤمنون فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: قد علمنا ما على المؤمنين وما يحل لهم وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين، وقد أعلمناهم بذلك وبينا فرائضه، فما في هذه الآية مما يخالف ذلك فإنه خاص لكون الله جعله خطابًا للرسول وحده بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ إلى آخر الآية، وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأبحنا لك يا أيها النبي ما لم نبح لهم ووسعنا عليك ما لم نوسع على غيرك ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لم يزل متصفًا بالمغفرة والرحمة وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده وإحسانه ما اقتضته حكمته ووجدت منهم أسبابه.

﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

وهذا أيضًا من توسعة الله على رسوله ورحمته به أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب وأنه إن فعل ذلك فهو تبرع منه، ومع ذلك فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك» فقال هنا: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك ولا تبيت عندها ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ أي: تضمها وتبيت عندها ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يتعين هذا الأمر ﴿مَنِ ابْتَغَيْتَ﴾ أي: أن تؤويها ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله، وقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له وإن شاء لم يقبلها، والله أعلم، ثم بيَّن الحكمة في ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التوسعة عليك وكون الأمر راجعًا إليك وبيدك وكون ما جاء منك إليهن تبرعًا منك ﴿أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ لعلمهن أنك لم تترك واجبًا ولم تفرط في حق لازم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة وعند المزاحمة في الحقوق فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله لتطمئن قلوب زوجاتك ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ أي: واسع العلم كثير الحلم، ومن علمه أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم وأكثر لأجوركم، ومن حلمه أن لم يعاقبكم بما صدر منكم وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

وهذا شكر من الله الذي لم يزل شكورًا لزوجات رسوله ﷺ حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة أن رحمهن وقصر رسوله عليهن فقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾ زوجاتك الموجودات ﴿وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ أي: ولا أن تطلق بعضهن فتأخذ بدلها، فحصل بهذا أمنهن من الضرائر ومن الطلاق لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة لا يكون بينه وبينهن فرقة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي: حسن غيرهن فلا يحللن لك ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: السراري فذلك جائز لك لأن المملوكات في كراهة الزوجات لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي: مراقبًا للأمور وعالمًا بما إليه تؤول وقائمًا بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن أحكام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا

يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ**﴾ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام، وأيضًا ﴿**غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ**﴾ أي: منتظرين استواءه ومتحينين نضجه أو سعة صدر بعد الفراغ منه، والمعنى: إنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين: الإذن لكم بالدخول وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿**وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ**﴾ أي: قبل الطعام وبعده، ثم بين حكمة النهي وفائدته فقال: ﴿**إِنَّ ذَلِكُمْ**﴾ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿**كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ**﴾ أي: يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته وإشغاله فيه ﴿**فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ**﴾ أن يقول لكم: «اخرجوا» كما هو جاري العادة أن الناس - وخصوصًا أهل الكرم منهم - يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم ﴿**وَ**﴾ لكن ﴿**اللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**﴾ فالأمر الشرعي ولو كان يتوهم أن في تركه أدبًا وحياءً فإن الحزم كل الحزم اتباع الأمر الشرعي وأن يجزم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء، والله تعالى لا يستحيي أن يأمركم بما فيه الخير لكم والرفق لرسوله كائنًا ما كان، فهذا أدبهم في الدخول في بيوته، وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته فإنه إما أن يحتاج إلى ذلك أو لا يحتاج إليه، فإن لم يحتج إليه فلا حاجة إليه والأدب تركه، وإن احتيج إليه كأن يسألهن متاعًا أو غيره من أواني البيت أو نحوها فإنهن يسألن ﴿**مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ أي: يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر لعدم الحاجة إليه، فصار النظر إليهن ممنوعًا بكل حال وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله، ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: ﴿**ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ**﴾ لأنه أبعد عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر فإنه أسلم له وأطهر لقلبه، فلهذا من الأمور الشرعية التي بيَّن الله كثيرًا من تفاصيلها أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ممنوعة وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق، ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿**وَمَا كَانَ لَكُمْ**﴾ يا معشر المؤمنين أي: غير لائق ولا مستحسن منكم بل هو أقبح شيء ﴿**أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ**﴾ أي: أذية قولية أو فعلية بجميع ما يتعلق به ﴿**وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا**﴾ هذا من جملة ما يؤذيه فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته بعده مخلٌّ بهذا المقام، وأيضًا فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة والزوجية باقية بعد موته، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته ﴿**إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا**﴾ وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر واجتنبت ما نهى الله عنه منه، ولله الحمد والشكر، ثم قال تعالى: ﴿**إِن تُبْدُوا شَيْئًا**﴾ أي تظهروه ﴿**أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ يعلم ما في قلوبكم وما أظهرتموه فيجازيكم عليه.

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

لما ذكر أنهن لا يسألن متاعًا إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عامًا لكل أحد احتيج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم وأنه ﴿**لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ**﴾ في عدم الاحتجاب عنهم، ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال لأنهن إذا لم يحتجبن عمن هن عماته وخالاته من أبناء الإخوة والأخوات مع رفعتهن عليهم فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن من باب أولى، ولأن منطوق الآية الأخرى المصرحة بذكر العم والخال مقدمة على ما يفهم من هذه الآية، وقوله: ﴿**وَلا نِسَائِهِنَّ**﴾ أي اللاتي من جنسهن في الدين فيكون ذلك مخرجًا لنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة ﴿**وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ**﴾ ما دام العبد في ملكها جميعه، ولما رفع الجناح عن هؤلاء شرط فيه وفي غيره لزوم تقوى الله وأن لا يكون في ذلك محذور شرعي فقال:

﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ يشهد أعمال العباد ظاهرها وباطنها ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾

وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ ورفعة درجته وعلو منزلته عند الله وعند خلقه ورفع ذكره، و ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي: يثني الله عليه بين الملائكة وفي الملأ الأعلى لمحبته تعالى إياه، ويثني عليه الملائكة المقربون ويدعون له ويتضرعون ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ اقتداء بالله وملائكته وجزاء له على بعض حقوقه عليكم وتكميلاً لإيمانكم وتعظيمًا له ﷺ ومحبة وإكرامًا وزيادة في حسناتكم وتكفيرًا عن سيئاتكم، وأفضل هيئات الصلاة عليه[1] ما علَّمه أصحابه: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد» وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)﴾

لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ وبالصلاة والسلام عليه نهى عن أذيته وتوعد عليها فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا يشمل كل أذية قولية أو فعلية من سب وشتم أو تنقص له أو لدينه أو ما يعود إليه بالأذى ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: أبعدهم وطردهم ومن لعنهم في الدنيا أنه يتحتم قتل من شتم الرسول وآذاه ﴿وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ جزاء له على أذاه أن يؤذى بالعذاب المهين، فأذية الرسول ليست كأذية غيره لأنه لا يؤمن العبد بالله حتى يؤمن برسوله ﷺ وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره وإن كان أذية المؤمنين عظيمة وإثمها عظيمًا، ولهذا قال فيها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: بغير جناية منهم موجبة للأذى ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا﴾ على ظهورهم ﴿بُهْتَانًا﴾ حيث آذوهم بغير سبب ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ حيث تعدوا عليهم وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها، ولهذا كان سب آحاد المؤمنين موجبًا للتعزير بحسب حالته وعلو مرتبته فتعزير من سب الصحابة أبلغ وتعزير من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)﴾

هذه الآية هي التي تسمى آية الحجاب فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عمومًا ويبدأ بزوجاته وبناته لأنهن آكد من غيرهن ولأن الآمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ

---

(١) قوله: «وأفضل هيئات الصلاة عليه... إلخ» يعني: كيفية الصلاة عليه ﷺ ولكن الرواية التي ذكرها مبتورة والكيفية التي ذكرها البخاري في صحيحه هي: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

وأهليكم نارًا﴾ أن ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ وهن اللاتى[1] يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه أى: يغطين بها وجوههن وصدورهن، ثم ذكر حكمة ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ دل على وجود أذية إن لم يحتجبن وذلك لأنهن إذا لم يحتجبن ربما ظن أنهن غير عفيفات فيتعرض لهن من فى قلبه مرض فيؤذيهن، وربما استهين بهن وظن أنهن إماء فتهاون بهن من يريد الشر، فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ حيث غفر لكم ما سلف ورحمكم بأن بيَّن لكم الأحكام وأوضح الحلال والحرام، فهذا سد للباب من جهتين، وأما من جهة أهل الشر فقد توعدهم بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى: مرض شك أو شهوة ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أى: المخوفون المرهبون الأعداء المتحدثون بكثرتهم وقوتهم وضعف المسلمين، ولم يذكر المعمول الذى ينتهون عنه ليعم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم وتوسوس به وتدعو إليه من الشر من التعريض بسب الإسلام وأهله والإرجاف بالمسلمين وتوهين قواهم والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة وغير ذلك من المعاصى الصادرة من أمثال هؤلاء ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أى: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك لا طاقة لهم بك وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً﴾ أى: لا يجاورونك فى المدينة إلا قليلاً بأن تقتلهم أو تنفيهم، وهذا فيه دليل لنفى أهل الشر الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه ويكونون ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ أى: مبعدين حيث وُجدوا، لا يحصل لهم أمن ولا يقر لهم قرار يخشون أن يقتلوا أو يحبسوا أو يعاقبوا ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أى من تمادى فى العصيان وتجرأ على الأذى ولم ينته منه فإنه يعاقب عقوبة بليغة ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ أى: تغييرًا بل سنته تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لمسبباتها.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

أى: يستخبرك الناس عن الساعة استعجالاً لها، وبعضهم تكذيبًا لوقوعها وتعجيزًا للذى أخبر بها ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ أى: لا يعلمها إلا الله فليس لى ولا لغيرى بها علم ومع هذا فلا تستبطئوها ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ومجرد مجىء الساعة قربًا وبعدًا ليس تحته نتيجة ولا فائدة وإنما النتيجة والخسار والربح والشقاوة والسعادة هل يستحق العبد العذاب أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها وأصف لكم مستحقها فوصف مستحق العذاب ووصف العذاب لأن الوصف المذكور منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أى: الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم، الكفر بالله وبرسله وبما جاءوا به من عند الله فأبعدهم الله فى الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذلك عقابًا ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أى: نارًا موقدة تسعر فى أجسامهم ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم ويخلدون فى ذلك العذاب الشديد فلا يخرجون منه ولا يُفتَّر عنهم ساعة، و ﴿لاَّ يَجِدُونَ﴾ لهم ﴿وَلِيًّا﴾ فيعطيهم ما طلبوه ﴿وَلا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم العذاب، بل قد تخلى عنهم النصير وأحاط بهم عذاب السعير وبلغ منهم مبلغًا عظيمًا، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ فيذوقون حرها ويشتد عليهم أمرها ويتحسرون على ما أسلفوا ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ﴾ فسلمنا من هذا العذاب واستحققنا كالمطيعين جزيل الثواب، ولكن أمنية فات وقتها فلم تفدهم إلا حسرة وندمًا وهمًّا وغمًّا وألمًا

---

(١) قوله: «وهن اللاتى... إلخ» الصواب أن يقال: «وهى التى تكون فوق الثياب ... إلخ» لأن كلمة «هن» لا تستعمل إلا فى العقلاء. فلا يقال: «الثياب اللاتى اشتريتهن والكتب اللاتى بعتهن» بل يقال: «الثياب التى اشتريتها والكتب التى بعتها».

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ وقلدناهم على ضلالهم ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ الآية، ولما علموا أنهم وكبراءهم مستحقون للعقاب أرادوا أن يشتفوا ممن أضلوهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ فيقول الله لكل ضعف فكلكم اشتركتم فى الكفر والمعاصى فتشتركون فى العقاب وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا (٦٩)﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ النبى الكريم الرءوف الرحيم لئلا يقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران كليم الرحمن فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أى أظهر الله لهم براءته، والحال أنه ليس محل التهمة والأذية فإنه كان وجيهًا عند الله مقربًا لديه من خواص المرسلين ومن عباد الله المخلصين، فلم يزجرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره، فاحذروا أيها المؤمنون أن تتشبهوا بهم فى ذلك، والأذية المشار إليها هى قول بنى إسرائيل عن موسى لما رأوا شدة حيائه وتستره عنهم: «إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر» أى كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد أن يبرئه منهم فاغتسل يومًا ووضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فأهوى موسى عليه السلام فى طلبه فمر به على مجالس بنى إسرائيل فرأوه أحسن خلق الله فزال عنه ما رموه به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا (٧٠) يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا (٧١)﴾

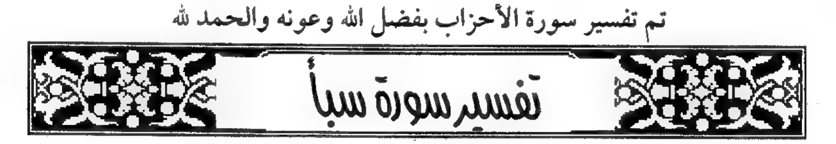
يأمر تعالى المؤمنين بتقواه فى جميع أحوالهم، فى السر والعلانية، ويخص منها ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب، أو المقارب له عند تعذر اليقين من قراءة وذكر وأمر بمعروف ونهى عن منكر وتعلم علم وتعليمه والحرص على إصابة الصواب فى المسائل العلمية وسلوك كل طريق يوصل لذلك وكل وسيلة تعين عليه، ومن القول السديد لين الكلام ولطفه فى مخاطبة الأنام والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح ثم ذكر ما يترتب على تقواه وقول القول السديد فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى يكون ذلك سببًا لصلاحها وطريقًا لقبولها لأن استعمال التقوى تتقبل به الأعمال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح ويصلح الله الأعمال أيضًا بحفظها عما يفسدها وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها وعدم تَرَتُّب آثارها عليها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أيضًا ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ التى هى السبب فى هلاككم، فبالتقوى تستقيم الأمور ويندفع بها كل محذور، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا (٧٢) لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا (٧٣)﴾

يعظم تعالى شأن الأمانة التى ائتمن الله عليها المكلفين التى هى امتثال الأوامر واجتناب المحارم فى حال السر والخفية كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة السموات والأرض والجبال عرض تخيير لا تحتيم وأنك إن قمت بها وأديتها على وجهها فلك الثواب وإن لم تقومى بها ولم تؤديها فعليك العقاب ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أى: خوفًا أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصيانًا لربهن ولا زهدًا فى ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور فقبلها وحملها مع ظلمه وجهله وحمل هذا الحمل الثقيل،

فانقسم الناس ـ بحسب قيامهم بها وعدمه ـ إلى ثلاثة أقسام: منافقون قاموا بها ظاهراً لا باطنًا، ومشركون تركوها ظاهراً وباطنًا، ومؤمنون قائمون بهـا ظاهراً وباطنًا، فذكر الله تعـالى أعمال هـؤلاء الأقسام الثـلاثة وما لهم من الثواب والعقاب فقال: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فله تعالى الحمد حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين الدالين على تمام مغفرة الله وسعة رحمته وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب بفضل الله وعونه والحمد لله



تفسير سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

الحمد: الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة، فلله تعـالى الحمد لأن جميع صفاته يحمد عليها لكونها صفات كـمال وأفعاله يحـمد عليها لأنهـا دائرة بين الفضل الذى يحمد عليـه ويشكر والحمد الذى يحـمد عليه ويعترف بحكمته فيـه، وحمد نفسه هنا على أن ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ملكًا وعبيدًا يتـصرف فيهم بحمده ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾ لأن فى الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون فى الدنيا، فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم ورأى الناس والخلق كلهم مـا حكم به وكمال عدله وقسطه وحكمته فـيه حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العـقاب ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئـة من حمده وأن عذابهم من جـراء أعمالهم وأنه عادل فى حكمه بعقـابهم، وأما ظهور حمده فى دار النعيم والثواب فـذلك شىء قد تواردت وتواترت به الأخبار وتوافق عليه الدليل السمـعى والعقلى، فإنهم فى الجنة يرون من توالى نعم الله وإدرار خيره وكثـرة بركاته وسعة عطاياه التى لا يبقى فى قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة إلا وقد أعطى مـنها كل واحد منهم فوق ما تمنى وأراد، بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيـهم ولن يخطر بقلوبهم، فما ظنك بحمدهم لربهم فى هذه الحال مع أن فى الجنة تضمـحل العوارض والقواطع التى تقطع عـن معرفة الله ومـحبته والثـناء عليه، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم وألذ عليهم من كل لذة، ولهذا إذا رأوا الله تعالى وسمعوا كلامه عند خطابه لهم أذهلهم ذلك عن كل نعيم ويكون الذكر لهم فى الجنة كالنَّفَس متواصلاً فى جميع الأوقات، هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة فى الجنة كل وقت من عظمة ربهم وجلاله وجـماله وسعة كماله ما يوجب لهم كـمال الحمد والثناء عليه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فى ملكه وتدبيره، الحكيم فى أمره ونهيه ﴿الْخَبِيرُ﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفاياها ولهذا فصل علمه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ أى: من مطر وبذر وحيوان ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من أنواع النباتات وأصناف الحيوانات ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأملاك والأرزاق والأقدار ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأرواح وغير ذلك، ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها وعلمـه بأحوالها ذكر مغفرته ورحمته لها فقال: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أى: الذى الرحمة والمغفرة وصفه ولم تزل آثارهما تنزل على العباد كل وقت بحسب ما قاموا به من مقتضياتهما.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

لما بين تعالى عظمته بما وصف به نفسه وكان هذا موجبًا لتعظيمه وتقديسه والإيمان به ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تقدر ربها حق قدره ولم تعظمه حق عظمته، بل كفروا به وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة وعارضوا بذلك رسله فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى بالله وبرسله وبما جاءوا به، فقالوا بسبب كفرهم ﴿لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أى: ما هى إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا، فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويبطله ويقسم على البعث وأنه سيأتيهم فقال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ واستدل على ذلك بدليل من أقرَّ به لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة وهو علمه تعالى الواسع العام فقال: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ أى: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا فكيف بالشهادة؟! ثم أكد علمه فقال: ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أى: لا يغيب عن علمه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ أى: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها حتى أصغر ما يكون من الأجزاء وهى المثاقيل منها ﴿وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أى: قد أحاط به علمه وجرى به قلمه وتضمنه الكتاب المبين الذى هو اللوح المحفوظ، فالذى لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه فى جميع الأرقات ويعلم ما تنقص الأرض من الأموات وما يبقى من أجسادهم قادر على بعثهم من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط، ثم ذكر المقصود من البعث فقال: ﴿لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم وصدقوا الله وصدقوا رسله تصديقًا جازمًا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تصديقًا لإيمانهم ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم بسبب إيمانهم وعملهم يندفع بها كل شر وعقاب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أى: سعوا فيها كفرًا بها وتعجيزًا لمن جاء بها وتعجيزًا لمن أنزلها كما عجزوه فى الإعادة بعد الموت ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أى: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

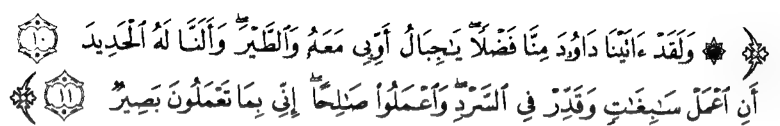
﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد وهم أهل العلم وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب وما اشتمل عليه من الأخبار هو الحق منحصر فيه وما خالفه وناقضه فإنه باطل لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين، ويرون أيضًا أنه فى أوامره ونواهيه ﴿يَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وذلك لأنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق ما أخبر به ومن جهة موافقته للأمور الواقعة والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارهما التى تقع عيانًا، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها فى الآفاق وفى أنفسهم، ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه، ويرون فى الأوامر والنواهى أنها تهدى إلى الصراط المستقيم وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى عموم الخلق ونحو ذلك، وتنهى عن كل صفة قبيحة تدنس النفس وتحبط الأجر وتوجب الإثم والوزر من الشرك والزنا والربا والظلم فى الدماء والأموال والأعراض، وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة وعلامة لهم وأنه كلما كان العبد أعظم علمًا وتصديقًا بأخبار ما جاء به الرسول وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين كما فى هذه الآية وغيرها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

أى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، أى: قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ

نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعنون بذلك الرجل رسول الله ﷺ وأنه رجل أتى بما يستغرب منه حتى صار - بزعمهم - فرجة يتفرجون عليه وأعجوبة يسخرون، منه وأنه كيف يقول: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ بعدما مزقكم البلى وتفرقت أوصالكم واضمحلت أعضاؤكم؟! فهذا الرجل الذى أتى بذلك هل ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فتجرأ عليه وقال ما قال ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾؟ فلا يستغرب منه فإن الجنون فنون، وكل هذا منهم على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم أنهم أبدءوا وأعادوا فى معاداتهم وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى صد الناس عنه فلو كان كاذبًا مجنونًا - يا أهل العقول غير الزاكية - لم ينبغ أن تصغوا لما قال ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون لا ينبغى للعاقل أن يلفت إليه نظره أو يبلغ قوله منه كل مبلغ، ولولا عنادكم وظلمكم لبادرتم لإجابته ولبيتم دعوته ولكن ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ومنهم الذين قالوا تلك المقالة ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أى: فى الشقاء العظيم والضلال البعيد الذى ليس بقريب من الصواب، وأى شقاء وضلال أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث وتكذيبهم لرسوله الذى جاء به واستهزائهم به وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق فرأوا الحق باطلاً والباطل والضلال حقًا وهدى، ثم نبههم على الدليل العقلى الدال على عدم استبعاد البعث الذى استبعدوه وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض لرأوا من قدرة الله فيهما ما يبهر العقول ومن عظمته ما يذهل العلماء الفحول وأن خلقهما وعظمتهما وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم، فما الحامل لهم على ذلك التكذيب مع التصديق بما هو أكبر منه؟ نعم ذاك خبر غيبى إلى الآن ما شاهدوه فلذلك كذبوا به قال الله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى: من العذاب لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم فنعاقبكم أشد العقوبة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أى: خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات ﴿لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه ومطيع له فيجزم بأن الله قادر على البعث، فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله كان انتفاعه بالآيات أعظم لأن المنيب مقبل إلى ربه قد توجهت إرادته وهماته لربه ورجع إليه فى كل أمر من أموره فصار قريبًا من ربه ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته فيكون نظره للمخلوقات نظر فكر وعبرة لا نظر غفلة غير نافعة.



أى: ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام وآتيناه فضلاً من العلم النافع والعمل الصالح والنعم الدينية والدنيوية، ومن نعمه عليه ما خصه من أمره تعالى الجمادات كالجبال والحيوانات من الطيور أن تُؤوِّب معه وتُرَجِّع التسبيح بحمد ربها مجاوبة له، وفى هذا من النعمة عليه أن كان ذلك من خصائصه التى لم تكن لأحد قبله ولا بعده وأن ذلك يكون منهضًا له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسبيح ربها وتمجيده وتكبيره وتحميده كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى، ومنها: أن ذلك - كما قال كثير من العلماء - أنه طرب لصوت داود، فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رجَّع التسبيح والتهليل والتمجيد بذلك الصوت الرخيم الشجىِّ المطرب طرب كل من سمعه من الإنس والجن حتى الطيور والجبال وسبحت بحمد ربها، ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها لأنه سبب ذلك وتسبح تبعًا له، ومن فضله عليه أن ألان له الحديد ليعمل الدروع السابغات وعلمه تعالى كيفية صنعته بأن يقدره فى السرد أى: يقدره حلقًا ويصنعه كذلك ثم يدخل بعضها ببعض، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ولما ذكر ما امتن به عليه وعلى آله أمره بشكره وأن يعملوا صالحًا ويراقبوا الله تعالى فيه بإصلاحه وحفظه من المفسدات فإنه بصير بأعمالهم مطلع عليهم لا يخفى عليه منها شيء.

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

لما ذكر فضله على داود عليه السلام ذكر فضله على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتحمله وتحمل جميع ما معه وتقطع المسافة البعيدة جدًا في مدة يسيرة فتسير في اليوم مسيرة شهرين ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ أي: أول النهار إلى الزوال ﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ من الزوال إلى آخر النهار ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: سخرنا له عين النحاس وسهلنا له الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها، وسخر الله له أيضًا الشياطين والجن لا يقدرون أن يستعصوا عن أمره ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وأعمالهم كل ما شاء سليمان عملوه ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ وهو: كل بناء يعقد وتحكم به الأبنية فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي: صور الحيوانات والجمادات من إتقان صنعتهم وقدرتهم على ذلك ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ أي: كالبرك الكبار يعملونها لسليمان للطعام لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره ﴿وَ﴾ يعملون له من ﴿قُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ لا تزول عن أماكنها من عظمتها، فلما ذكر منته عليهم أمرهم بشكرها فقال: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ وهم داود وأولاده وأهله لأن المنة على الجميع وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم ﴿شُكْرًا﴾ لله على ما أعطاهم ومقابلة لما أولاهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من النعم ودفع عنهم من النقم، والشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى وتلقيها افتقاراً إليها وصرفها في طاعة الله تعالى وصونها عن صرفها في المعصية، فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان عليه الصلاة والسلام كل بناء، وكانوا قد موهوا على الإنس وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب ويطلعون على المكنونات، فأراد الله تعالى أن يُرى العباد كذبهم في هذه الدعوى فمكثوا يعملون على عملهم وقضى الله بالموت على سليمان عليه السلام واتَّكأ على عصاه، وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها ظنوه حيًا وهابوه، فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه فلم تزل ترعاها حت بادت وسقطت فسقط سليمان وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب لعلموا موت سليمان الذي هم أحرص شيء عليه ليسلموا مما هم فيه.

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾

سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن ومسكنهم بلدة يقال لها «مأرب» ومن نعم الله ولطفه بالناس عمومًا وبالعرب خصوصًا أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين ممن كان يجاور العرب ويشاهد آثارهم ويتناقل

الناس أخبارهم ليكون ذلك أدعى إلى التصديق وأقرب للموعظة فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ أى: محلهم الذى يسكنون فيه ﴿آيَةٌ﴾ والآية هنا: ما أدرَّ الله عليهم من النعم وصرف عنهم من النقم الذى يقتضى ذلك منهم أن يعبدوا الله ويشكروه، ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم واد عظيم تأتيه سيول كثيرة وكانوا بنوا سدًا محكمًا يكون مجمعًا للماء فكانت السيول تأتيه فيجتمع هناك ماء عظيم فيفرقونه على بساتينهم التى عن يمين ذلك الوادى وشماله، وتُغِلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم ويحصل لهم الغبطة والسرور فأمرهم الله بشكر نعمه التى أدرها عليهم من وجوه كثيرة: منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم منهما، ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة لحسن هوائها وقلة وخمها وحصول الرزق الرغد فيها، ومنها: أن الله تعالى وعدهم - إن شكروه - أن يغفر لهم ويرحمهم، ولهذا قال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ ومنها: أن الله لما علم احتياجهم فى تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة الظاهر أنها: قرى صنعاء، كما قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام، هيأ لهم[1] من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة من الأمن وعدم الخوف وتواصل القرى بينهم وبينها بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أى: سيرًا مقدرًا يعرفونه ويحكمون عليه بحيث لا يتيهون عنه ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أى: مطمئنين فى السير فى تلك الليالى والأيام غير خائفين، وهذا من تمام نعمة الله عليهم أن أمنهم من الخوف فأعرضوا عن المنعم وعن عبادته وبطروا النعمة وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التى كان السير فيها متيسرًا ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التى أطغتهم فأبادها عليهم فأرسل عليها سيل العرم أى: السيل المتوعر الذى خرب سدهم وأتلف جناتهم وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة والأشجار المثمرة وصار بدلها أشجار لا نفع فيها ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾ أى: شىء قليل من الأكل الذى لا يقع منهم موقعًا ﴿خَمْطٍ[2] وَأَثْلٍ[3] وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ[4] قَلِيلٍ﴾ وهذا كله شجر معروف وهذا من جنس عملهم، فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح بدلوا تلك النعمة بما ذكر، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أى: وهل نجازى جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر بالله وبطر النعمة؟ فلما أصابهم ما أصابهم تفرقوا وتمزقوا بعدما كانوا مجتمعين وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم وأسمارًا للناس وكان يضرب بهم المثل فيقال: «تفرقوا أيدى سبأ» فكل أحد يتحدث بما جرى لهم ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله فيهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صبار على المكاره والشدائد يتحملها لوجه الله ولا يتسخطها بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله تعالى يُقِرُّ بها ويعترف ويثنى على من أولاها ويصرفها فى طاعته، فهذا إذا سمع بقصتهم وما جرى منهم وعليهم عرف بذلك أن تلك العقوبة جزاء لكفرهم نعمة الله وأن من فعل مثلهم فُعِلَ به كما فعل بهم، وأن شكر الله تعالى حافظ للنعمة دافع للنقمة وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به وأن الجزاء حق كما رأى أنموذجه فى دار الدنيا، ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدَّق عليهم إبليس ظنه حيث قال لربه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ

---

(١) قوله: «هيأ لهم» جملة فعلية فى محل رفع خبر «أن» فى قوله: «أن الله لما علم. . . إلخ».

(٢) خمط، أى: ثمر بشع، مر، أو حامض، لا يمكن أكله: وقيل: هو ثمرة شجرة يقال لها «فسوة الضبع» على صورة الخشخاش، لا ينتفع بها، أو كل شجر ذى شوك، مر، بشع، وقيل: شجر الأراك.

(٣) أثل، أى: شجر لا ثمر له، شبيه بالطرفاء.

(٤) سدر، أى: شجر قليل الغناء عند الأكل وهو نوع من الضال (نوع من الشجر) لا ينتفع به، وفى المصباح: «قال الحجة فى التفسير: والسدر نوعان، أحدهما: ينبت فى الأرياف: فينتفعُ بورقه فى الغسل، وثمرته طيبة، والآخر: ينبت فى البر، ولا ينتفع بورقه فى الغسل، وثمرته عفصة» اهـ، وهذا المعنى الأخير هو المراد هنا، بدليل ما قال أبو السعود فى تفسيره «قيل وصف السدر بالقلة لما أن جناه (أى: ثمرته) وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس فى البساتين، والصحيح أن السدر صنفان، صنف يؤكل من ثمره وينتفع بورقه لغسل اليد، وصنف له ثمرة لا تؤكل أصلاً، ولا ينتفع بورقه، وهو الضال، والمراد ههنا هو الثانى حتمًا، وقال قتادة: «كان شجرهم خير الشجر، فصيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم، وتسمية البدل «جنتين» للمشاكلة والتهكم» اهـ.

﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ وهذا ظن من إبليس لا يقين لأنه لا يعلم الغيب ولم يأته خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين إلا من استثنى، فهؤلاء وأمثالهم ممن صدق عليه إبليس ظنه ودعاهم وأغواهم ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن لم يكفر بنعمة الله فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس، ويحتمل أن قصة سبأ انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أى على جنس الناس فتكون الآية عامة فى كل من اتبعه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ﴾ أى: لإبليس ﴿عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أى: تسلط وقهر وقسر على ما يريده منهم، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبنى آدم ﴿لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أى: ليقوم سوق الامتحان ويعلم به الصادق من الكاذب ويعرف من كان إيمانه صحيحًا يثبت عند الامتحان والاختبار وإلقاء الشبه الشيطانية ممن إيمانه غير ثابت يتزلزل بأدنى شبهة ويزول بأقل داع يدعوه إلى ضده فالله تعالى جعله امتحانًا يمتحن به عباده ويظهر الخبيث من الطيب ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يحفظ العباد ويحفظ عليهم أعمالهم ويحفظ تعالى جزاءها فيوفيهم إياها كاملة موفرة.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)﴾

أى: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله غيره من المخلوقات التى لا تنفع ولا تضر ملزمًا لهم بعجزها ومبينًا بطلان عبادتها: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: زعمتموهم شركاء الله إن كان دعاؤكم ينفع فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز وعدم إجابة الدعاء من كل وجه، فإنهم ليس لهم أدنى ملك ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ على وجه الاستقلال ولا على وجه الاشتراك ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أى: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿فِيهِمَا﴾ أى: فى السموات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ أى: لا شرك قليل ولا كثير فليس لهم ملك ولا شركة ملك، بقى أن يقال: ومع ذلك فقط يكونون أعوانًا للمالك ووزراء له فدعاؤهم يكون نافعًا لأنهم - بسبب حاجة الملك إليهم - يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة فقال: ﴿وَمَا لَهُ﴾ أى: الله تعالى الواحد القهار ﴿مِنْهُم﴾ أى: من هؤلاء المعبودين ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير، فلم يبق إلا الشفاعة فنفاها بقوله: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ فهذه أنواع التعلقات التى يتعلق بها المشركون بأندادهم وأوثانهم من البشر والشجر وغيرهم قطعها الله وبين بطلانها تبيينًا حاسمًا لمواد الشرك قاطعًا لأصوله، لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء هو الذى أوجب له الشرك، فإذا كان من يدعوه غير الله لا مالكًا للنفع والضر ولا شريكًا للمالك ولا عونًا وظهيرًا للمالك ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك كان هذا الدعاء وهذه العبادة ضلالاً فى العقل باطلة فى الشرع، بل ينعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده فإنه يريد منها النفع، فبين الله بطلانه وعدمه وبين فى آيات أخر ضررها على عابديها وأنه يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضًا ومأواهم النار ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ والعجب أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسل بزعمه أنهم بشر ورضى أن يعبد ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان ورضى بعبادة من ضره أقرب من نفعه طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ يحتمل أن الضمير فى هذا الموضع يعود إلى المشركين لأنهم مذكورون فى اللفظ، والقاعدة فى الضمائر أن تعود إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة وفزع عن قلوب المشركين، أى: زال الفزع وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم عن حالهم فى الدنيا وتكذيبهم للحق الذى جاءت به الرسل أنهم يقرون أن ما هم عليه من الكفر والشرك باطل وأن ما قال الله وأخبرت به عنه رسله هو الحق ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ وعلموا أن الحق لله واعترفوا بذنوبهم ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته فوق جميع المخلوقات وقهره لهم وعلو قدره بما له

من الصفات العظيمـة الجليلة المقدار ﴿الْكَبِيرُ﴾ فى ذاته وصفاته، ومن علوه أن حكمـه تعالى يعلو وتذعن له النفوس حتى نفوس المتكبرين والمشركين، وهذا المعـنى أظهر وهو الذى يدل عليه السياق، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحى سمعته الملائكة فصعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جـبريل فيكلمـه الله من وحيه بمـا أراد، فإذا زال الصعق عن قلوب المـلائكة وزال الفزع فيـسأل بعضهم بعـضًا عن ذلك الكلام الذى صُعقوا مـنه ماذا قال ربكم؟ فيقـول بعضهم لبعض: قال الحق إمـا إجمالاً لعلمهم أنه لا يقول إلا حقًا، وإما أن يقولوا: قال: كذا وكذا، للكلام الذى سمعوه منه وذلك من الحق، فيكون المعنى على هذا أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة التى وصفنا لكم عجزها ونقصها وعدم نفعها بوجه من الوجوه كيف صدفـوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم العلى الكبيـر الذى ـ من عظمته وجلاله ـ أن الملائكة الكرام والمقربيـن من الخلق يبلغ بهم الخضوع والصعق عند سماع كلامـه هذا المبلغ ويقرون كلهم لله أنه لا يقول إلا الحق، فما بال هؤلاء المشركين استكبروا عن عبادة من هذا شأنه وعظمة ملكه وسلطانه، فتعالى العلى الكبير عن شرك المشركين وإفكهم وكذبهم.

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

يأمر تعالى نبـيه محمداً ﷺ أن يقـول لمن أشرك بالله ويسأله عن صحـة شركه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فإنهم لا بد أن يقروا أنه الله، ولئن لم يقروا ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ فإنك لا تجد من يدفع هذا القول، فإذا تبـين أن الله وحده الذى يرزقكم من السـموات والأرض وينزل لكم المطر ويـنبت لكم النبات ويفـجر لكم الأنهار ويطلع لكم من ثمار الأشجار وجعل لكم الحيوانات جميعها لنفعكم ورزقكم، فلمَ تعبدون من لا يرزقكم شيئًا ولا يفيدكم نفعًا؟ وقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: إحدى الطائفتين منا ومنكم على الهدى مستعلية عليه أو فى ضلال بيِّن منغمرة فيه، وهذا الكلام يقوله من تبين له الحق واتضح له الصواب وجزم بالحق الذى هو عليه وبطلان ما عليه خصمه، أى: قد شرحنا من الأدلة الواضحة عندنا وعندكم ما به يعلم علمًا يقينًا لا شك فيه مَنْ المحق منا ومن المبطل ومن المهتـدى ومن الضال؟ حتى إنه يصير اليقين بعد ذلك لا فائدة فيه، فإنك إذا وازنت[1] بين من يدعو إلى عبادة الخالق بسائر المخلوقات المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات المسدى جمـيع النعم الذى رزقهم وأوصل إليهم كل نعمة ودفع عنهم كل نقمـة الذى له الحمد كله والملك كله وكل أحد من الملائكة فمن دونهم خاضعون لهيبته مـتذللون لعظمته وكل الشفعاء تخافه لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه، العلى الكبيـر فى ذاته وأوصافـه وأفعاله الذى له كل كـمال وكل جـلال وكل جمال وكل حـمد وثناء ومجد، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة من سواه، وبين[2] من يتقرب إلى أوثان وأصنام وقبور لا تخلق ولا ترزق ولا تملك لأنفـسها ولا لمن عبدها نفعًا ولا ضـراً ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً، بل هى جمـادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديهـا، ولو سمعته مـا استجابت لهم ويوم القيـامة يكفرون بشركهم ويتبرءون منهم ويتـلاعنون بينهم، ليس لهم قسط من الملك ولا شركة فيه ولا لهم شفـاعة يستقلون بها دون الله، فهو يدعو مَنْ هذا وصفه ويتقرب إلـيه مهما أمكنه ويعادى من أخلص الدين لله ويحاربه ويكذب رسل الله الذين جـاءوا بالإخلاص لله وحده، تـبين[3] لك أى الفريقين المهتدى من الـضال والشقى من السعيد؟ ولم

(١) فعل الشرط لـ «إذا».

(٢) قوله: «وبين» معطوف على قوله السابق «إذا وازنت بين . . . إلخ».

(٣) جوباب الشرط لـ «إذا» فى قوله المتقدم «إذا وازنت. . . إلخ».

يحتج[١] إلى أن يعين لك ذلك لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال ﴿قُل﴾ لهم ﴿لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أى: كل منا ومنكم له عمله، أنتم لا تسألون عن إجرامنا وذنوبنا ونحن لا نسأل عن أعمالكم، فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحق[٢] وسلوك طريق الإنصاف ودعوا ما كنا نعمل ولا يكن مانعًا لكم من اتباع الحق، فإن أحكام الدنيا تجرى على الظواهر ويتبع فيها الحق ويجتنب الباطل، وأما الأعمال فلها دار أخرى يحكم فيها أحكم الحاكمين ويفصل بين المختصمين أعدل العادلين، ولهذا قال: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أى: يحكم بيننا حكمًا يتبين به الصادق من الكاذب والمستحق للثواب من المستحق للعقاب ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ أى: الحاكم فى القضايا المنغلقة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما ينبغى أن يقضى به ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول ومن ناب منابك: ﴿أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أى: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم فى الأرض أم فى السماء؟ فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس فى الوجود له شريك ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ﴾ الآية ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين لا يعلمون له شريكًا، فيا أيها المشركون أرونى الذين ألحقتم بزعمكم الباطل ﴿بِهِ﴾ أى: بالله ﴿شُرَكَاءَ﴾ وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كَلاَّ﴾ أى ليس لله شريك ولا ند ولا ضد ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ الذى لا يستحق التأله والتعبد إلا هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذى قهر كل شىء فكل ما سواه فهو مقهور له مسخر مدبر ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى أتقن ما خلقه وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن فى حكمته فى شرعه إلا أنه أمر بتوحيده وإخلاص الدين له وأحب ذلك وجعله طريقًا للنجاة ونهى عن الشرك به واتخاذ الأنداد من دونه وجعل ذلك طريقًا للشقاء والهلاك لكفى بذلك برهانًا على كمال حكمته، فكيف وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة؟!!.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)﴾

يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ إلا ليبشر جميع الناس بثواب الله ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك وينذرهم عقاب الله ويخبرهم بالأعمال الموجبة له فليس لك من الأمر شىء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد فليس من وظيفتك إنما ذلك بيد الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: ليس لهم علم صحيح بل إما جهال أو معاندون لم يعملوا بعلمهم فكأنهم لا علم لهم، ومن عدم علمهم جعلهم عدم الإجابة لما اقترحوه على الرسول موجبًا لرد دعوته، فمما اقترحوه استعجالهم العذاب الذى أنذرهم به فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا ظلم منهم فأى ملازمة بين صدقه وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا إلا رد للحق وسفه فى العقل؟ أليس النذير فى أمر من أحوال الدنيا لو جاء قومًا يعلمون صدقه ونصحه ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويُعد لهم فقال لهم: تركت عدوكم قد سار يريد اجتياحكم واستئصالكم، فلو قال بعضهم: إن كنت صادقًا فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل عاقلاً أم يحكم بسفهه وجنونه؟ هذا والمخبر يمكن صدقه وكذبه والعدو قد يبدو له غيرهم وقد تنحل عزيمته وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم، فكيف بمن كذب أصدق الخلق المعصوم فى خبره الذى لا ينطق عن الهوى بالعذاب اليقين الذى لا مدفع له ولا ناصر منه؟!! أليس رد خبره بحجة عدم بيان وقت وقوعه من أسفه السفه؟ ﴿قُل﴾ لهم مخبرًا بوقت وقوعه الذى لا شك فيه: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ فاحذروا ذلك اليوم وأعدوا له عدته.

---

(١) قوله: «ولم يحتج... إلخ» الأرشق فى الأسلوب أن يقال «ولم يحتج إلى أن يبين لك بلسانه ذلك لأنه لسان الحال أفصح وأوضح من لسان المقال».

(٢) فى الأصل «الحقائق» وهو غير متلائم بما بعده فلذا أبدلناها بـ «الحق».

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾

لما ذكر تعالى أن معاد المستعجلين بالعذاب لا بد من وقوعه عند حلول أجله ذكر هنا حالهم فى ذلك اليوم وأنك لو رأيت حالهم إذ وقفوا عند ربهم واجتمع الرؤساء والأتباع فى الكفر والضلال لرأيت أمرًا عظيمًا وهولاً جسيمًا ورأيت كيف يتراجعون ويرجع بعضهم إلى بعض القول ﴿ **يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا** ﴾ وهم الأتباع ﴿ **لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا** ﴾ وهم القادة ﴿ **لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** ﴾ ولكنكم حلتم بيننا وبين الإيمان وزينتم لنا الكفران فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم ﴿ **قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا** ﴾ مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون فى الجرم: ﴿ **أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم** ﴾ أى: بقوتنا وقهرنا إياكم ﴿ **بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ** ﴾ أى: مختارين للإجرام لستم مقهورين عليه وإن كنا قد زينا لكم فما كان لنا عليكم من سلطان ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا** ﴾ أى: بل الذى دهانا منكم ووصل إلينا من إضلالكم ما دبرتموه من المكر فى الليل والنهار إذ تحسّنون لنا الكفر وتدعوننا إليه وتقولون: إنه الحق وتقدحون فى الحق وتهجنونه وتزعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا حتى أغويتمونا وفتنتمونا فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئًا إلا براءة بعضهم من بعض والندامة العظيمة ولهذا قال: ﴿ **وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ** ﴾ أى: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذى احتج به بعضهم لينجو من العذاب وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم وتمنى أن لو كان على الحق وأنه ترك الباطل الذى أوصله إلى هذا العذاب سرًا فى أنفسهم لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم، وفى بعض مواقف القيامة وعند دخولهم النار يظهرون ذلك الندم جهرًا ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا** ﴾ الآيات ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ ﴿ **وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ يغلون كما يغل المسجون الذى سيهان فى سجنه كما قال تعالى: ﴿ **إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ** ﴾ الآيات ﴿ **هَلْ يُجْزَوْنَ** ﴾ فى هذا العذاب والنكال وتلك الأغلال الثقال ﴿ **إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾

يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ وأن الله إذا أرسل رسولاً فى قرية من القرى كفر به مترفوها وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها ﴿ **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا** ﴾ أى: ممن اتبع الحق ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴾ أى: أولاً، لسنا بمبعوثين فإن بعثنا فالذى أعطانا

الأموال والأولاد في الدنيا سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا، فأجابهم الله تعالى بأن بسط الرزق وتضييقه ليس دليلاً على ما زعمتم فإن الرزق تحت مشيئة الله إن شاء بسطه لعبده وإن شاء ضيقه ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ﴾ إلى الله ﴿زُلْفَى﴾ وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى الإيمان بما جاء به المرسلون والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان فإن أولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفًا الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ أي: في المنازل العاليات المرتفعات جدًا ساكنين فيها مطمئنين آمنين من المكدرات والمنغصات لما فيه من اللذات وأنواع المشتهيات وآمنين من الخروج منها أو الحزن فيها ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أي: على وجه التعجيز لنا ولرسلنا والتكذيب ﴿أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ تحضرهم الزبانية فلا يجديهم ما عولوا عليه نفعًا ثم أعاد تعالى أنه ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ليرتب عليه قوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ نفقة واجبة أو مستحبة على قريب أو جار أو مسكين أو يتيم أو غير ذلك ﴿فَهُوَ﴾ تعالى ﴿يُخْلِفُهُ﴾ فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق بل وعد بالخلف للمنفق الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق منه واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: العابدين لغير الله والمعبودين من دونه من الملائكة ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ الله ﴿لِلْمَلائِكَةِ﴾ على وجه التوبيخ لمن عبدهم ﴿أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ فتبرءوا من عبادتهم و ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهًا وتقديسًا أن يكون لك شريك أو ند ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: أنت الذي نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم فنحن مفتقرون إلى ولايتك مضطرون إليها فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء؟ ﴿بَلْ﴾ هؤلاء المشركون ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين يأمرونهم بعبادتنا[1] أو عبادة غيرنا فيطيعونهم بذلك، وطاعتهم هي عبادتهم لأن العبادة الطاعة، كما قال تعالى مخاطبًا لكل من اتخذ معه آلهة: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ أي: مصدقون للجن منقادون لهم لأن الإيمان هو: التصديق الموجب للانقياد، فلما تبرءوا منهم قال تعالى مخاطبًا لهم: ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ تقطعت بينكم الأسباب وانقطع بعضكم من بعض ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والمعاصي بعدما ندخلهم النار: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فاليوم عاينتموها ودخلتموها جزاء لتكذيبكم وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب من عدم الهرب من أسبابها.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

(١) قوله: «بعبادتنا أو عبادة غيرنا» تعبير غامض غير واضح، والأصح الأوضح أن يقال: «يأمرونهم بأن يعبدونا أو يعبدوا غيرنا» حتى ينجلي المعنى للقراء على اختلاف طبقاتهم العلمية.

يخبر تعالى عن حالـة المشركين عندما تتلى عليهم آيات الله البينات وحججه الظاهرات وبراهينه القاطعات الدالة على كل خير الناهية عن كل شر التى هى أعظم نعمة جاءتهم ومنَّة وصلت إليهم الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق والانقياد والتسليم أنهم يقابلونهـا بضد ما ينبغى ويكذبون منْ جاءهم بها ويقولون: ﴿مَـا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ أى: هذا قصده حـين يأمركم بالإخلاص لله لتتركـوا عوائد آبائكم الذين تعظمونهم وتمشون خلفهم، فردوا الحق بقوة الضالين ولم يـوردوا برهانًا ولا شبهة، فأى شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضـالين باتباع الحق فـادَّعوا أن إخوانهم الذين علـى طريقتهم لم يـزالوا عليه؟ وهذه السفـاهة ورد الحق بأقوال الضالين إذا تأملت كل حق رد فإذا هذا مآله لا يرد إلا بأقوال الضـالين من المشركين والدهريين والفلاسفة والصابئين والملحدين فى دين الله المارقين فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة، ولما احتجوا بفعل آبائهم وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل طعنوا بعد هذا بالحق ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أى: كذب افتراه هذا الرجل الذى جاء به ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: سحر ظاهر لكل أحد تكذيبًا بالحق وترويجًا على السفهاء، ولما بين ما ردوا به الحق وأنها أقوال دون مـرتبة الشبهة فضلاً عن أن تكون حجة ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتج لهم فإنهم لا مستند لهم ولا لهم شيء يعتمد عليه أصلاً فقال: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ حتى تكون عمدة لهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به ما جئتهم به فليس عندهم علم ولا أثارة من علم، ثم خوفهم ما فعل بـالأمم المكذبين قبلهم فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا﴾ أى: ما بلغ هؤلاء المخاطبون ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أى: الأمم الذين من قبلهم ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى: إنكارى عليهم وعقوبتى إياهم، وقـد أعلمنا ما فعل بهم من النكال وأن منهم من أغرقه ومـنهم من أهلكه بالريح العقيم وبالصيـحة وبالرجفة وبالخسف بـالأرض وبإرسال الحاصب من السماء فاحذروا يا هؤلاء المكذبون أن تدوموا على التكذيب فيأخذكم كما أخذ من قبلكم ويصيبكم ما أصابهم.

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

أى ﴿قُـلْ﴾ يا أيها الرسول لهـؤلاء المكذبين المعاندين المتصدين لرد الحق وتكذيبـه والقدح بمن جاء به ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ أى: بخصلة واحدة أشير عليكم بها وأنصح لكم فى سلوكـها وهى طريق نَصَف لست أدعوكم بها إلى اتباع قولى ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك وهى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ أى: تنهضوا بهمـة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله مجـتمعين ومتباحـثين فى ذلك ومتناظرين وفرادى كل واحد يخاطب نفسه بذلك فإذا قمتم لله مثنى وفرادى استعملتم فكركم وأجلتموه وتدبرتم أحوال رسولكم هل هو مجنون فيه صـفات المجانين من كلامه وهيئته وصفته؟ أم هو نبى صادق منذر لكم ما يضـركم مما أمامكم من العذاب الشديد؟ فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها لتبين لهم أكثر من غيرهم أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون لأن هيئته ليست كهيئة المـجانين فى خنقهم واختـلاجهم ونظرهم، بل هيـئته أحسـن الهيئات وحـركاته أجل الحركات وهـو أكمل الخلق أدبًا وسكينة وتواضعًا ووقـارًا لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلاً، ثم إذا تأمـلوا كلامه الفصيح ولفظه المليح وكـلماته التى تملأ القلوب أمنًا وإيمانًا وتزكى النفوس وتطـهر القلوب وتبعث على مكارم الأخلاق وتحث على محـاسن الشيم وتزجر عن مساوئ الأخلاق ورذائلهـا إذا تكلم رمقته العيون هـيبة وإجلالاً وتعظيمًا، فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعربدتـهم وكلامهم الذى يشبه أحوالهم؟ فكل من تدبر أحواله وقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكـر وحده أم معه غيره جزم بأنه رسول الله حقًا ونبيـه صدقًا خصوصًا المخاطبين وهو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره، وثَمّ مانع للنفوس آخر عن اتباع الداعى إلى الحق وهو أنه هل

يأخذ أموال من يستجيب له ويأخذ أجره على دعوته، فبين الله تعالى نزاهة رسوله عن هذا الأمر فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أى: على اتباعكم للحق ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أى: فأشهدكم أن ذلك الأجر- على التقدير- أنه لكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أى: محيط علمه بما أدعو إليه فلو كنت كاذبًا لأخذنى بعقوبته، وشهيد أيضًا على أعمالكم سيحفظها عليكم ثم يجازيكم بها، ولما بين البراهين الدالة على صحة الحق وبطلان الباطل أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق لأنه بين من الحق فى هذا الموضع ورد به أقوال المكذبين ما كان عبرة للمعتبرين وآية للمتأملين فإنك كما ترى كيف اضمحلت أقوال المكذبين وتبين كذبهم وعنادهم وظهر الحق وسطع وبطل الباطل وانقمع وذلك بسبب أنه ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ الذى يعلم ما تنطوى عليه القلوب من الوساوس والشبه ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج، فيعلم بها عباده ويبينها لهم ولهذا قال: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أى: ظهر وبان وصار بمنزلة الشمس وظهر سلطانه ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أى: اضمحل وبطل أمره وذهب سلطانه فلا يبدئ ولا يعيد ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول وكان المكذبون له يرمونه بالضلال أخبرهم بالحق ووضحه لهم وبين لهم عجزهم عن مقاومته وأخبرهم أن رميهم له بالضلال ليس بضائر الحق شيئًا ولا دافع ما جاء به، وأنه إن ضل ـ وحاشاه من ذلك لكن على سبيل التنزل فى المجادلة ـ فإنما يضل على نفسه أى: ضلاله قاصر على نفسه غير متعد إلى غيره ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ فليس ذلك من نفسى وحولى وقوتى وإنما هدايتى بما ﴿يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ فهو مادة هدايتى كما هو مادة هداية غيرى، إن ربى ﴿سَمِيعٌ﴾ للأقوال والأصوات كلها ﴿قَرِيبٌ﴾ ممن دعاه وسأله وعبده.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها الرسول ومن قام مقامك حال هؤلاء المكذبين ﴿إِذْ فَزِعُوا﴾ حين رأوا العذاب وما أخبرتهم به الرسل وما كذبوا به لرأيت أمرًا هائلاً ومنظرًا مفظعًا وحالة منكرة وشدة شديدة وذلك حين يحق عليهم العذاب ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لهم وليس لهم عنه مهرب ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أى: ليس بعيدًا عن محل العذاب بل يؤخذون ثم يقذفون فى النار ﴿وَقَالُوا﴾ فى تلك الحال ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ وصدقنا ما به كذبنا ﴿وَ﴾ لكن ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ أى: تناول الإيمان ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قد حيل بينهم وبينه، وصار من الأمور المحالة فى هذه الحالة، فلو أنهم آمنوا وقت الإمكان لكان إيمانهم مقبولاً ولكنهم ﴿كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ﴾ أى: يرمون ﴿بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ بقذفهم الباطل ليدحضوا به الحق، ولكن لا سبيل إلى ذلك كما لا سبيل للرامى من مكان بعيد إلى إصابة الغرض، فكذلك الباطل من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه وإنما يكون له صولة وقت غفلة الحق عنه فإذا برز الحق وقاوم الباطل قمعه ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الشهوات واللذات والأولاد والأموال والخدم والجنود، وقد انفردوا بأعمالهم وجاءوا فرادى كما خُلقوا وتركوا ما خولوا وراء ظهورهم ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أى: من الأمم السابقين حين جاءهم الهلاك حيل بينهم وبين ما يشتهون ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أى: يحدث الريبة وقلق القلب فلذلك لم يؤمنوا ولم يعتبوا حين استعتبوا.

تم تفسير سورة سبأ ولله الحمد والمنة والفضل ومنه العون وعليه التوكل وبه الثقة

تفسير سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾

يمدح تعالى نفسه الكريمة المقدسة على خلقه السموات والأرض وما اشتملتا عليه من المخلوقات لأن ذلك دليل على كمال قدرته وسعة ملكه وعموم رحمته وبديع حكمته وإحاطة علمه، ولما ذكر الخلق ذكر بعده ما يتضمن الأمر وهو: أنه ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ فى تدبير أوامره القدرية ووسائط بينه وبين خلقه فى تبليغ أوامره الدينية، وفى ذكره أنه جعل الملائكة رسلاً ولم يستثن منهم أحدًا دليل على كمال طاعتهم لربهم وانقيادهم لأمره كما قال تعالى: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ولما كانت الملائكة مدبرات بإذن الله ما جعلهم الله موكلين فيه ذكر قوتهم على ذلك وسرعة سيرهم بأن جعلهم ﴿أُوْلِي أَجْنِحَةٍ﴾ تطير بها فتسرع بتنفيذ ما أمرت به ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ أى: منهم من له جناحان وثلاثة وأربعة بحسب ما اقتضته حكمته ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أى: يزيد بعض مخلوقاته على بعض فى صفة خلقها وفى القوة وفى الحسن وفى زيادة الأعضاء المعهودة وفى حسن الأصوات ولذة النغمات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته تعالى تأتى على ما يشاؤه ولا يستعصى عليها شيء ومن ذلك زيادة مخلوقاته بعضها على بعض، ثم ذكر انفراده تعالى بالتدبير والعطاء والمنع فقال: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ﴾ من رحمته عنهم ﴿فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فهذا يوجب التعلق بالله تعالى والافتقار إليه من جميع الوجوه وأن لا يدعى إلا هو ولا يخاف ويرجى إلا هو ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى قهر الأشياء كلها ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) ﴾

يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافًا وباللسان ثناء وبالجوارح انقيادًا فإن ذكر نعمه تعالى داع لشكره ثم نبههم على أصول النعم، وهى: الخلق والرزق فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله نتج من ذلك أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته وعبودتهم، ولهذا قال: ﴿لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أى: تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا أيها الرسول فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فأهلك المكذبون ونجى الله الرسل وأتباعهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ فى الآخرة فيجازى المكذبين وينصر المرسلين وأتباعهم.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) ﴾

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء على الأعمال ﴿حَقٌّ﴾ أى: لا شك فيه ولا مرية

ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية فإذا كان وعده حقًا فتهيئوا له وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة ولا يقطعكم عن ذلك قاطع ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية فتلهيكم عما خلقتم له ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الذى هو: ﴿الشَّيْطَانَ﴾ وهو ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ فى الحقيقة ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أى: لتكن منكم عداوته ولا تهملوا محاربته كل وقت فإنه يراكم وأنتم لا ترونه وهو دائمًا لكم بالمرصاد ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ هذا غايته ومقصوده ممن تبعه أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد، ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين وذكر جزاء كل منهما فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: جحدوا ما جاءت به الرسل ودلت عليه الكتب ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فى نار جهنم، شديد فى ذاته ووصفه وأنهم خالدون فيها أبدًا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم بما دعا الله إلى الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا﴾ بمقتضى ذلك الإيمان بجوارحهم الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ويزول بها عنهم الشر والمكروه ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يحصل به المطلوب.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ القبيح، زينه له الشيطان وحسنه فى عينه ﴿فَرَآهُ حَسَنًا﴾ أى: كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم والدين القويم فهل يستوى هذا وهذا؟ فالأول: عمل السيئ ورأى الحق باطلاً والباطل حقًا، والثاني: عمل الحسن ورأى الحق حقًا والباطل باطلاً ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾ أى على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم وصدهم الشيطان عن الحق ﴿حَسَرَاتٍ﴾ أى: فلا تهلك نفسك حزنًا على الضالين وحسرة عليهم، فليس عليك إلا البلاغ وليس عليك من هداهم من شيء والله هو الذى يجازيهم بأعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليها.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

يخبر تعالى عن كمال اقتداره وسعة جوده وأنه الذى ﴿أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ فأنزله الله عليها ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فحييت البلاد والعباد وارتزقت الحيوانات ورتعت فى تلك الخيرات ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذى أحيا الأرض بعد موتها ينشر الأموات من قبورهم بعدما مزقهم البلاء فيسوق إليهم مطرًا كما ساقه إلى الأرض الميتة فينزله عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور ويكون ﴿النُّشُورُ﴾ فيأتون للقيام بين يدى الله ليحكم بينهم ويفصل بحكمه العدل.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

أى: يا من يريد العزة اطلبها ممن هى بيده فإن العزة بيد الله ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ من قراءة وتسبيح وتحميد وتهليل وكل كلام حسن طيب فيرفع إلى الله ويعرض عليه ويثنى الله على صاحبه بين الملأ الأعلى ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يَرْفَعُهُ﴾ الله تعالى إليه أيضًا كالكلم الطيب، وقيل: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة فهى التى ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح لم يرفع له قول إلى الله تعالى، فهذه الأعمال التى ترفع إلى الله تعالى ويرفع الله صاحبها ويعزه، وأما السيئات فإنها بالعكس يريد صاحبها الرفعة بها ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه ولا يزداد إلا هوانًا ونزولاً ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يهانون فيه غاية الإهانة ﴿وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أى: يهلك ويضمحل ولا يفيدهم شيئًا لأنه مكر بالباطل لأجل الباطل.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾

يذكر تعالى خلقه الآدمى وتنقله فى هذه الأطوار من تراب إلى نطفة وما بعدها ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى: لم يزل ينقلكم طوراً بعد طور حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجًا ذكر يتزوج أنثى ويراد بالزواج الذرية والأولاد فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وكذلك أطوار الآدمى كلها بعلمه وقضائه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أى: عمر الذى كان معمراً عمراً طويلاً ﴿إِلَّا﴾ بعلمه تعالى، أو ما ينقص من عمر الإنسان الذى هو بصدد أن يصل إليه لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر كالزنا وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام ونحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر، والمعنى: أن طول العمر وقصره يسبب وبغير سبب كله بعلمه تعالى وقد أثبت ذلك ﴿فِي كِتَابٍ﴾ حوى ما يجرى على العبد فى جميع أوقاته وأيام حياته ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أى: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة وإحاطة كتابه بها، فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور كلها عقلية نبه الله عليها فى هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها وأن الذى أحياها سيحيى الموتى، وتنقل الآدمى فى تلك الأطوار فالذى أرجده ونقله طبقًا بعد طبق وحالاً بعد حال حتى بلغ ما قدر له فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر وهو أهون عليه، وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم العلوى والسفلى دقيقها وجليلها الذى فى القلوب والأجنة التى فى البطون وزيادة الأعمار ونقصها وإثبات ذلك كله فى كتاب، فالذى كان هذا يسيراً عليه فإعادته للأموات أيسر وأيسر فتبارك من كثر خيره ونبه عباده على ما فيه صلاحهم فى معاشهم ومعادهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾

هذا إخبار عن قدرته وتوالى حكمته ورحمته أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضى كلهم وأنه لم يسوِّ بينهما لأن المصلحة تقتضى أن تكون الأنهار عذبة فراتًا سائغًا شرابها لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون وأن يكون البحر ملحًا أجاجًا لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت فى البحر من الحيوانات ولأنه ساكن لا يجرى فملوحته تمنعه من التغير ولتكون حيواناته أحسن وألذ ولهذا قال: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ من البحر الملح والعذب ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك المتيسر صيده فى البحر ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من لؤلؤ ومرجان وغيره مما يوجد فى البحر فهذه مصالح عظيمة للعباد، ومن المصالح أيضًا والمنافع فى البحر أن سخره الله تعالى لحمل الفلك من السفن والمراكب فتراها تمخر البحر وتشقه فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر ومن محل إلى محل فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيء كثير ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على النعم المتقدم ذكرها، ومن ذلك أيضًا إيلاجه تعالى الليل بالنهار والنهار بالليل يدخل هذا على هذا كلما أتى أحدهما ذهب الآخر ويزيد أحدهما وينقص الآخر ويتساويان فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد فى أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم، وكذلك ما جعل الله فى تسخير الشمس والقمر من مصالح الضياء والنور والحركة والسكون وانتشار العباد فى طلب فضله وما فيها من إنضاج الثمار وتجفيف ما يجفف وغير ذلك مما هو من الضروريات التى لو فقدت لَلَحِقَ الناس الضرر، وقوله ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: كل من الشمس والقمر يسيران فى فلكهما ما شاء الله أن يسيرا، فإذا جاء الأجل وقرب

انقضاء الدنيا انقطع سيرهما وتعطل سلطانهما وخسف القمر وكورت الشمس وانتشرت النجوم فلما بين تعالى ما بيَّن من هذه المخلوقات العظيمة وما فيها من العبر الدالة على كماله وإحسانه قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أى: الذى انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها هو الرب المألوه المعبود الذى له الملك كله ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ من الأوثان والأصنام ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[1] أى: لا يملكون شيئًا لا قليلاً ولا كثيراً حتى ولا القطمير الذى هو أحقر الأشياء وهذا من تنصص النفى وعمومه فكيف يُدْعَوْنَ وهم غير مالكين لشىء من ملك السموات والأرض؟ ومع هذا ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم ما بين جماد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يملكون شيئًا ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أى: يتبرءون منكم ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أى: لا أحد ينبئك أصدق من الله العليم الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر الذى نبأ به كأنه رأى عين فلا تشك ولا تمتر، فتضمنت هذه الآيات الأدلة والبراهين الساطعة الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود الذى لا يستحق شيئًا من العبادة سواه وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل لا تفيد عابده شيئًا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

يخاطب تعالى جميع الناس ويخبرهم بحالهم ووصفهم وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه: فقراء فى إيجادهم فلولا إيجاده إياهم لم يوجدوا، فقراء فى إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح التى لولا إعداده إياهم بها لما استعدوا لأى عمل كان، فقراء فى إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور لما حصل لهم من الرزق والنعم شىء، فقراء فى صرف النقم عنهم ودفع المكاره وإزالة الكروب والشدائد فلولا دفعه عنهم وتفريجه لكرباتهم وإزالته لعسرهم لاستمرت عليهم المكاره والشدائد، فقراء إليه فى تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير، فقراء إليه فى تألههم له وحبهم له وتعبدهم وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يوفقهم لذلك لهلكوا وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم، فقراء إليه فى تعليمهم ما لا يعلمون وعملهم بما يصلحهم فلولا تعليمه لم يتعلموا ولولا توفيقه لم يصلحوا، فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى وبكل اعتبار سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم الذى لا يزال يشاهد فقره فى كل حال من أمور دينه ودنياه ويتضرع له ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين وأن يعينه على جميع أموره ويستصحب هذا المعنى فى كل وقت فهذا حَرِى بالإعانة التامة من ربه وإلهه الذى هم أرحم به من الوالدة بولدها ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: الذى له الغنى التام من جميع الوجوه فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه ولا يفتقر إلى شىء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته وكونها كلها صفات كمال ونعوت جلال، ومن غناه تعالى أن قد أغنى الخلق فى الدنيا والآخرة، فهو الحميد فى ذاته وأسمائه لأنها حسنى وأوصافه لكونها عليا وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة وفى أوامره ونواهيه فهو الحميد على ما فيه من الصفات وعلى ما منَّه من الفضل والإنعام وعلى الجزاء بالعدل وهو الحميد فى غناه الغنى فى حمده ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس أطوع لله منكم ويكون فى هذا تهديد لهم بالهلاك

(١) القطمير: القشرة الرقيقة على نواة التمر: أو بتعبير آخر: «لفافة نواة التمر».

والإبادة وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك، ويحتمل أن المراد بذلك إثبات البعث والنشور وأن مشيئة الله تعالى نافذة فى كل شىء وفى إعادتكم بعد موتكم خلقًا جديداً ولكن لذلك الوقت أجل قدَّره الله لا يتقدم عنه ولا يتأخر ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أى: بممتنع ولا معجز له، ويدل على المعنى الأخير ما ذكره بعده فى قوله: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى: فى يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله ولا يحمل أحد ذنب أحد ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أى: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أى: تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها ﴿لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ فإنه لا يحمل قريب عن قريب، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا يساعد الحميم حميمه والصديق صديقه بل يوم القيامة يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد ولو على والديه وأقاربه ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ أى: هؤلاء الذين يقبلون النذارة وينتفعون بها هم أهل الخشية لله بالغيب الذين يخشونه فى حال السر والعلانية والمشهد والمغيب وأهل إقامة الصلاة بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها لأن الخشية لله تستدعى من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير وتنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ أى: ومن زكى نفسه بالتنقِّى من العيوب كالرياء والكبر والكذب والغش والمكر والخداع والنفاق ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة وتحلَّى بالأخلاق الجميلة من الصدق والإخلاص والتواضع ولين الجانب والنصح للعباد وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق فإن تزكيته يعود نفعها إليه ويصل مقصودها إليه ليس يضيع من عمله شىء ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازى الخلائق على ما أسلفوه ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾

يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد فى حكمة الله وفيما أودعه فى فطر عباده ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ﴾ فاقد البصر ﴿وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾ فكما أنه من المتقرر عندكم الذى لا يقبل الشك أن هذه المذكورات لا تتساوى فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوى المتضادات المعنوية أولى وأولى، فلا يستوى المؤمن والكافر ولا المهتدى والضال ولا العالم والجاهل ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار ولا أحياء القلوب وأمواتها، فإن بين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت المراتب وميزت الأشياء وبان الذى ينبغى أن يتنافس فى تحصيله من ضده فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحق بالإيثار ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ سماع فهم وقبول لأنه تعالى هو الهادى الموفق ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أى: أموات القلوب، أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئًا، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئًا ولكن وظيفتك النذارة وإبلاغ ما أرسلت به قبل منك أم لا، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: مجرد إرسالنا إياك بالحق لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل وطموس من السبل واندراس من العلم وضرورة عظيمة إلى بعثك فبعثك الله رحمة للعالمين، وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم والصراط المستقيم حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم حق وصدق ﴿بَشِيرًا﴾ لمن أطاعك بثواب الله العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك بعقاب الله العاجل والآجل ولست ببدع من الرسل ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يقيم عليهم حجة الله ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[1].

---

(١) أى: وما من أمة من الأمم فيما سلف ومضى إلا جاءها من قبل الله من يحذرها عقابه، ويخوفها وخامة الطغيان، وسوء عاقبة الكفران.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

أى وإن يكذبك أيها الرسول هؤلاء المشركون فلست أول رسول كُذّب ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ على الحق وعلى صدقهم فيما أخبروهم به ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ أى: الكتب المكتوبة المجموع فيها كثير من الأحكام ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى: المضىء فى أخباره الصادقة وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئًا عن اشتباه أو قصور بما جاءتهم به الرسل بل بسبب ظلمهم وعنادهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[1] عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل، فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم فيصيبكم كما أصاب أولئك من العذاب الأليم والخزى الوخيم.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

يذكر تعالى خلقه للأشياء والمتضادات التى أصلها واحد ومادتها واحدة وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته، فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات المختلفات والنباتات المتنوعات ما هو مشاهد للناظرين والماء واحد والأرض واحدة، ومن ذلك الجبال التى جعلها الله أوتادًا للأرض تجدها جبالاً مشتبكة بل جبلاً واحدًا وفيها ألوان متعددة فيها جدد بيض أى: طرائق بيض وفيها طرائق صفر وحمر وفيها غرابيب سود أى: شديدة السواد جدًا، ومن ذلك الناس والدواب والأنعام فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات ما هو مرئى بالأبصار مشهود للنظار والكل من أصل واحد ومادة واحدة فتفاوتها دليل عقلى على مشيئة الله تعالى التى خصصت ما خصصت منها بلونه ووصفه وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك وحكمته ورحمته حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت فيه من المصالح والمنافع ومعرفة الطرق ومعرفة الناس بعضهم بعضًا ما هو معلوم، وذلك أيضًا دليل على سعة علم الله تعالى وأنه يبعث من فى القبور، ولكن الغافل ينظر فى هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تحدث له تذكرًا، وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فكل من كان بالله أعلم كان أكثر له خشية وأوجبت له خشية الله الانكفاف عن المعاصى والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب التائبين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أى: يتبعونه فى أوامره فيمتثلونها وفى نواهيه فيتركونها وفى أخباره فيصدقونها ويعتقدونها ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضًا ألفاظه بدراسته ومعانيه بتتبعها واستخراجها ثم خص من التلاوة بعدما عمم الصلاة التى هى عماد الدين ونور المسلمين وميزان الإيمان وعلامة صدق الإسلام والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فى جميع الأوقات ﴿يَرْجُونَ﴾ بذلك ﴿تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أى: لن تكسد وتفسد بل تجاره هى أجل التجارات وأعلاها

---

(١) أى: فانظر كيف كان إنكارى لعملهم، وغضبى عليهم وتعذيبى إياهم.

وأفضلها ألا وهى رضا ربهم والفوز بجزيل ثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه الإخلاص بأعمالهم وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئًا وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أى: أجور أعمالهم وعلى حسب قلتها وكثرتها وحسنها وعدمه ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ زيادة عن أجورهم ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ غفر لهم السيئات وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

يذكر تعالى أن الكتاب الذى أوحاه إلى رسوله ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق وإحاطته بأصوله كأن الحق منحصر فيه فلا يكن فى قلوبكم حرج منه ولا تتبرموا منه ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها مطابق لما فى الواقع فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب والرسل لأنها أخبرت به فلما وجد وظهر ظهر به صدقها فهى بشرت به وأخبرت وهو مصدقها ولهذا لا يمكن أحدًا أن يؤمن بالكتب السابقة وهو كافر بالقرآن أبدًا لأن كفره به ينقض إيمانه بها لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فيعطى كل أمة وكل شخص ما هو اللائق بحاله، ومن ذلك أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها، ولهذا ما زال الله يرسل الرسل رسولاً بعد رسول حتى ختمهم بمحمد ﷺ فجاء بهذا الشرع الذى يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة ويتكفل بما هو الخير فى كل وقت، ولهذا لما كانت هذه الأمة أكمل عقولاً وأحسنهم أفكارًا وأرقهم قلوبًا وأزكاهم أنفسًا اصطفاهم تعالى واصطفى لهم دين الإسلام وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالمعاصى التى هى دون الكفر ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ مقتصر على ما يجب عليه تارك للمحرم ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ أى: سارع فيها واجتهد فسبق غيره وهو المؤدى للفرائض المكثر من النوافل التارك للمحرم والمكروه، فكلهم اصطفاه الله تعالى لوراثة هذا الكتاب وإن تفاوتت مراتبهم وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته حتى الظالم لنفسه فإنه ما معه من أصل الإيمان وعلوم الإيمان وأعمال الإيمان من وراثة الكتاب، لأن المراد بوراثة الكتاب وراثة علمه وعمله ودراسة ألفاظه واستخراج معانيه، وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ راجع إلى السابق إلى الخيرات لئلا يغتر بعمله بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته فينبغى له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى: وراثة الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده هو الفضل الكبير الذى جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجلُّ النعم على الإطلاق وأكبر الفضل وراثة الكتاب، ثم ذكر جزاء الذين أورثهم الكتاب ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أى: جنات مشتملات على الأشجار والظل والظليل والحدائق الحسنة والأنهار المتدفقة والقصور العالية والمنازل المزخرفة فى أبد لا يزول وعيش لا ينفد، والعدن «الإقامة» فجنات عدن أى: جنات إقامة، أضافها للإقامة لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وهو الحلى الذى يجعل فى اليدين على ما يحبون ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء فى الحلية فى الجنة سواء ﴿وَ﴾ يحلون فيها ﴿لُؤْلُؤًا﴾ ينظم فى ثيابهم وأجسادهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ من سندس ومن إستبرق أخضر ﴿وَ﴾ لما تم نعيمهم وكملت لذتهم ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وهذا يشمل كل حزن فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص فى جمالهم ولا فى طعامهم وشرابهم ولا فى لذاتهم ولا

فى أجسادهم ولا فى دوام لبثهم، فهم فى نعيم ما يرون عليه مزيدًا وهو فى تزايد أبد الآباد ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿شَكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا فبمغفرته نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب ﴿الَّذِى أَحَلَّنَا﴾ أى: أنزلنا نزول حلول واستقرار لا نزول معبر واعتبار ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أى: الدار التى تدوم فيها الإقامة والدار التى يرغب فى المقام فيها لكثرة خيراتها وتوالى مسراتها وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ علينا وكرمه لا بأعمالنا، فلولا فضله لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أى: لا تعب فى الأبدان ولا فى القلب والقوى ولا فى كثرة التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم فى نشأة كاملة ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام ما يكونون بهذه الصفة بحيث لا يمسهم نصب ولا لغوب ولا هَمٌّ ولا حزن، ويدل على أنهم لا ينامون فى الجنة لأن النوم فائدته زوال التعب وحصول الراحة به وأهل الجنة بخلاف ذلك ولأنه موت أصغر وأهل الجنة لا يموتون، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم ذكر حال أهل النار وعذابهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من الآيات وأنكروا لقاء ربهم ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب وأبلغ العقاب ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ فشدة العذاب وعظمه مستمر عليهم فى جميع الآناء واللحظات ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أى: كذلك نجزى به كل متماد فى الكفر مصر عليه ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أى يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاعترفوا بذنبهم وعرفوا أن الله عدل فيهم ولكن سألوا الرجعة فى غير وقتها، فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا﴾ أى: دهرًا وعمرًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أى: يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل، متعناكم فى الدنيا وأدررنا عليكم الأرزاق وقيضنا لكم أسباب الراحة ومددنا لكم فى العمر وتابعنا عليكم الآيات ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ وواصلنا إليكم النذر وابتليناكم بالسراء والضراء لتنيبوا إلينا وترجعوا إلينا فلم ينجع فيكم إنذار ولم تفد فيكم موعظة وأخرنا عنكم العقوبة حتى إذا انقضت آجالكم وتمت أعماركم ورحلتم عن دار الإمكان بأشر الحالات ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال سألتم الرجعة، هيهات هيهات فات وقت الإمكان وغضب عليكم الرحيم الرحمن واشتد عليكم عذاب النار ونسيكم أهل الجنة فامكثوا فى جهنم خالدين مخلدين وفى العذاب مهانين ولهذا قال: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم فيخرجهم منها أو يخفف عنهم من عذابها.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين وذكر أعمال الفريقين أخبر عن سعة علمه تعالى واطلاعه على غيب السموات والأرض التى غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم وأنه عالم بالسرائر وما تنطوى عليه الصدور من الخير والشر والزكاء وغيره فيعطى كلا ما يستحقه وينزل كل أحد منزلته.

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

يخبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته بعباده أنه قدر بقضائه السابق أن يجعل بعضهم يخلف بعضًا فى

الأرض ويرسل لكل أمة من الأمم النذر فينظر كيف يعملون، فمن كفر بالله وبما جاءت به رسله فإن كفره عليه وعليه إثمه وعقوبته ولا يحمل عنه أحد ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت ربه له وبغضه إياه، وأى عقوبة أعظم من مقت الرب الكريم؟ ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أى: يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم فى الجنة، فالكافر لا يزال فى زيادة من الشقاء والخسران والخزى عند الله وعند خلقه والحرمان.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى مُعجِّزًا لآلهة المشركين ومبينًا نقصها وبطلان شركهم من جميع الوجوه ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: أخبرونى عنهم هل هم مستحقون للدعاء والعبادة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ هل خلقوا بحرًا أم خلقوا جبالاً أو خلقوا حيوانًا أو خلقوا جمادًا؟ سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ أى: لشركائكم ﴿شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أى: مشاركة فى خلقها وتدبيرها؟ سيقولون: ليس لهم شركة فى ذلك، فإذا لم يخلقوا شيئًا ولم يشركوا الخالق فى خلقه فلمَ عبدتموهم ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانتفى الدليل العقلى على صحة عبادتهم ودل على بطلانها، ثم ذكر الدليل السمعى وأنه أيضًا منتف، فلهذا قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان ﴿فَهُمْ﴾ فى شركهم ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أى: من ذلك الكتاب الذى نزل عليهم فى صحة الشرك؟ ليس الأمر كذلك، فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ ولو قدر نزول كتاب إليهم وإرسال رسول إليهم وزعموا أنه أمرهم بشركهم فإنا نجزم بكذبهم لأن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ فالرسل والكتب كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ فإن قيل: إذا كان الدليل العقلى والدليل النقلى قد دلا على بطلان الشرك فما الذى حمل المشركين على الشرك وفيهم ذوو العقول والذكاء والفطنة؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أى: ذلك الذى مشوا عليه ليس لهم فيه حجة وإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به وتزيين بعضهم لبعض واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال وأمانىّ منّاها الشياطين وزينت لهم سوء أعمالهم، فنشأت فى قلوبهم وصارت صفة من صفاتها فعسر زوالها وتعسر انفصالها فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام رحمته وسعة حلمه ومغفرته وأنه تعالى يمسك السموات والأرض عن الزوال فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدا ليحصل للخلق القرار والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيمًا ومحبةً وتكريمًا، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته بإمهال المذنبين وعدم معاجلته للعاصين مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم ولو أذن للأرض لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرته وحلمه وكرمه ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ فى تأخير عقاب الكفار ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

أى: وأقسم هؤلاء الذين كذبوك يا رسول الله قسمًا اجتهدوا فيه بالأيمان الغليظة ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أى: أهدى من اليهود والنصارى أهل الكتب فلم يفوا بتلك الأقسام والعهود ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ لم يهتدوا ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم بل لم يدوموا على ضلالهم الذى كان، بل ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ وزيادة ضلال وبغى وعناد، وليس إقسامهم المذكور لقصد حسن وطلب للحق وإلا لوفقوا له، ولكنه صادر عن استكبار فى الأرض على الخلق وعلى الحق وبهرجة فى كلامهم هذا يريدون به المكر والخداع وأنهم أهل الحق الحريصون على طلبه فيغتر بهم المغترون ويمشى خلفهم المقتدون ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾ الذى مقصوده مقصود سيئ ومآله وما يرمى إليه سيئ باطل ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فمكرهم إنما يعود عليهم، وقد أبان الله لعباده فى هذه المقالات وتلك الأقسام أنهم كذبة فى ذلك ومزورون فاستبان خزيهم وظهرت فضيحتهم وتبين قصدهم السيئ فعاد مكرهم فى نحورهم ورد الله كيدهم فى صدورهم، فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب الذى هو سنة الله فى الأولين التى لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار فى الظلم والعناد والاستكبار على العباد أن تحل به نقمته وتسلب عنه نعمته فَلْيَتَرَقَّبْ هؤلاء ما فعل بأولئك.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

يحض تعالى الناس على السير فى الأرض بالقلوب والأبدان للاعتبار لا لمجرد النظر والغفلة وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل وكانوا أكثر منهم أموالاً وأولادًا وأشد قوة وعمروا الأرض أكثر مما عمرها هؤلاء، فلما جاءهم العذاب لم تنفعهم قوتهم ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا ونفذت فيهم قدرة الله ومشيئته ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لكمال علمه وقدرته ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كلها ﴿قَدِيرًا﴾ عليها، ثم ذكر تعالى كمال حلمه وشدة إمهاله وإنظاره أرباب الجرائم والذنوب فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أى: لاستوعبت العقوبة حتى الحيوانات غير المكلفة ﴿وَلَكِن﴾ يمهلهم تعالى ولا يهملهم، و ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ فيجازيهم بحسب ما علمه منهم من خير وشر.

تم تفسير سورة فاطر بفضل الله وعونه والحمد لله

تفسير سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم الذى وصفه الحكمة وهى وضع كل شىء موضعه: وضع الأمر والنهى فى المحل اللائق بهما، فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة، ومن حكمة هذا القرآن أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذا هو المقسم عليه وهو رسالة محمد ﷺ وإنك يا محمد من جملة المرسلين فلست ببدع من الرسل، وأيضًا فجئت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية، وأيضًا فمن تأمل أحوال المرسلين وأوصافهم وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم عرف أنك من خيار المرسلين بما فيك من الصفات الكاملة والأخلاق الفاضلة، ولا يخفى ما بين المقسم به، وهو القرآن الحكيم، وبين المقسم عليه وهو رسالة الرسول محمد ﷺ، من الاتصال وأنه لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم لكفى به دليلاً وشاهدًا على رسالة محمد، بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فأدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ، ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ الدالة على رسالته وهو أنه ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ معتدل موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وذلك الصراط المستقيم مشتمل على أعمال وهى الأعمال الصالحة والمصلحة للقلب والبدن والدنيا والآخرة والأخلاق الفاضلة المزكية للنفس المطهرة للقلب المنمية للأجر، فهذا الصراط المستقيم الذى هو وصف الرسول ﷺ ووصف دينه الذى جاء به، فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم كيف جمع بين القسم بأشرف الأقسام على أجل مقسم عليه، وخبر الله وحده كاف ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة فى هذا الموضع على صحة ما أقسم عليه من رسالة رسوله وما نبهنا عليه وأشرنا إشارة لطيفة لسلوك طريقه، وهذا الصراط المستقيم ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ فهو الذى أنزل به كتابه وأنزله طريقًا لعباده موصلاً لهم إليه فحماه بعزته عن التغيير والتبديل ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم حتى أوصلتهم إلى دار رحمته، ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: العزيز الرحيم، فلما أقسم تعالى على رسالته وأقام الأدلة عليها ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ وهم العرب الأميون الذين لم يزالوا خالين من الكتب عادمين الرسل قد عمتهم الجهالة وغمرتهم الضلالة، فأرسل الله إليهم رسولاً من أنفسهم يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين، فينذر العرب الأميين ومن لحق بهم من كل أمى، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب فنعمة الله به على العرب خصوصًا وعلى غيرهم عمومًا، ولكن هؤلاء الذين بعثت لإنذارهم بعدما أنذرتهم انقسموا قسمين: قسم رد لما جئت به ولم يقبل النذارة وهم الذين قال الله فيهم ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: نفذ فيهم القضاء والمشيئة أنهم لا يزالون فى كفرهم وشركهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه، فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم، وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ هى جمع «غل» و «الغل» ما يغل به العنق فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل، وهذه الأغلال التى فى الأعناق عظيمة ﴿فَهِيَ﴾ قد وصلت ﴿إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ قد رفعت رءوسهم إلى فوق ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أى: رافعو رءوسهم من شدة الغل الذى فى أعناقهم فلا يستطيعون أن يخفضوها ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أى: حاجزًا يحجزهم عن الإيمان ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم فلم تفد فيهم النذارة ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وكيف يؤمن من طبع على قلبه ورأى الحق باطلاً والباطل حقًا؟!

والقسم الثانى: الذين قبلوا النذارة وقد ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أى: تنفع نذارتك ويتعظ بنصحك ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [1] أى: من قصده اتباع الحق وما ذكر به ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أى: من اتصف بهذين الأمرين القصد الحسن فى طلب الحق وخشية الله تعالى فهم الذين ينتفعون برسالتك ويزكون بتعليمك، ومن وفق لهذين الأمرين ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لأعماله الصالحة ونيته الحسنة ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أى: نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من الخير والشر، وهو: أعمالهم التى عملوها

(١) والمراد بالذكر هنا: القرآن.

وباشروها فى حال حياتهم ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ وهى: آثار الخير وآثار الشر التى كانوا هم السبب فى إيجادها فى حال حياتهم وبعد وفاتهم وتلك الأعمال التى نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس بسبب علم العبد وتعليمه أو نصحه أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين أو فى كتب ينتفع بها فى حياته وبعد موته أو عمل خيراً من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان فاقتدى به غيره أو عمل مسجداً أو محلاً من المحال التى يرتفق بها الناس وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التى تكتب له وكذلك عمل الشر، ولهذا[1] «من سن سُنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» وهذا الموضع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك ونزول درجة الداعى إلى الشر الإمام فيه وأنه أسفل الخليقة وأشدهم جرمًا وأعظمهم إثمًا ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أى: كتاب هو أم الكتب وإليه مرجع الكتب التى تكون بأيدى الملائكة وهو اللوح المحفوظ.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أى: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك الرادين لدعوتك مثلاً يعتبرون به ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير، وذلك المثل: أصحاب القرية وما جرى منهم من التكذيب لرسل الله وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله، وتعيين تلك القرية لو كان فيه فائدة لعينها الله فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد فى مثل هذا الأمر تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذى لا يستقر له قرار ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح الوقوف مع الحقائق وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس ويزيد العلم من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التى لا دليل عليها ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتياد الأمور المشكوك فيها، والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ من الله تعالى يأمرونهم بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له وينهونهم عن الشرك والمعاصى ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أى قويناهما بثالث فصاروا ثلاثة رسل اعتناء من الله بهم وإقامة للحجة بتوالى الرسل إليهم ﴿فَقَالُوا﴾ لهم: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ فأجابوهم بالجواب الذى ما زال مشهوراً عند من رد دعوة الرسل: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أى: فما الذى فضلكم علينا وخصكم من دوننا؟ قالت الرسل لأممهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: أنكروا

---

(١) قوله: «ولهذا» أى: ولهذا قال رسول الله ﷺ.

عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضًا المخاطبين لهم فقالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ فقال هؤلاء الرسل الثلاثة: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فلو كنا كاذبين لأظهر الله خزينا ولبادرنا بالعقوبة ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أى: البلاغ المبين الذى يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها، وما عدا هذا من آيات الاقتراح أو من سرعة العذاب فليس إلينا وإنما وظيفتنا التى هى البلاغ المبين قمنا بها وبيَّناها لكم، فإن اهتديتم فهو حظكم وتوفيقكم، وإن ضللتم فليس لنا من الأمر شىء، فقال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أى: لم نر على قدومكم علينا واتصالكم بنا إلا الشر، وهذا من أعجب العجائب أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة ينعم الله بها على العباد وأجل كرامة يكرمهم بها وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة قد قدم بحالة شر زادت على الشر الذى هم عليه واستشأموا بها ولكن الخذلان وعدم التوفيق يصنع بصاحبه أعظم مما يصنع به عدوه، ثم توعدوهم فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أى: لنقتلنكم رجمًا بالحجارة أشنع القتلات ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فقال لهم رسلهم ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ وهو: ما معهم من الشرك والشر المقتضى لوقوع المكروه والنقمة وارتفاع المحبوب والنعمة ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أى: بسبب أنَّا ذكرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم قلتم لنا ما قلتم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون للحد متجرهمون[1] فى قولكم فلم يزدهم دعاؤهم إلا نفورًا واستكبارًا ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ حرصًا على نصح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به وعلم ما رد به قومه عليهم فقال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ فأمرهم باتباعهم ونصحهم على ذلك وشهد لهم بالرسالة، ثم ذكر تأييدًا لما شهد به ودعا إليه فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أى: اتبعوا من نصحكم نصحًا يعود عليكم بالخير وليس يريد منكم أموالكم ولا أجرًا على نصحه لكم وإرشاده إياكم فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه، بقى أن يقال: فلعله يدعو ولا يأخذ أجرة ولكنه ليس على الحق، فدفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه ولا ينهون إلا عما يشهد العقل الصحيح بقبحه، فكأن قومه لم يقبلوا نصحه بل عادوا لائمين له على اتباع الرسل وإخلاص الدين لله وحده فقال: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: وما المانع لى من عبادة من هو المستحق للعبادة لأنه الذى فطرنى وخلقنى ورزقنى وإليه مآل جميع الخلق فيجازيهم بأعمالهم، فالذى بيده الخلق والرزق والحكم بين العباد فى الدنيا والآخرة هو الذى يستحق أن يعبد ويثنى عليه ويمجد دون من لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا عطاءً ولا منعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ولهذا قال: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه فلا تغنى شفاعتهم عنى شيئًا ﴿وَلا يُنقِذُونِ﴾ من الضر الذى أراده الله بى ﴿إِنِّي إِذًا﴾ أى: إن عبدت آلهة هذا وصفها ﴿لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ فجمع فى هذا الكلام بين نصحهم والشهادة للرسل بالرسالة والاهتداء والإخبار بتعيُّن عبادة الله وحده، وذكر الأدلة عليها وأن عبادة غيره باطلة وذكر البراهين عليها والإخبار بضلال من عبدها والإعلان بإيمانه جهرًا مع خوفه الشديد من قتلهم فقال: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ فقتله قومه لما سمعوا منه وراجعهم بما راجعهم به ﴿قِيلَ﴾ له فى الحال: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ﴾ مخبرًا بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه وناصحًا لقومه بعد وفاته كما نصح لهم فى حياته ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أى: بأى شىء غفر لى فأزال عنى أنواع العقوبات ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بأنواع المثوبات والمسرات، أى: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم لم يقيموا على شركهم، قال الله فى عقوبة قومه: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى: ما احتجنا أن نتكلف فى عقوبتهم فننزل جندًا من السماء لإتلافهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك وعظمة اقتدار الله تعالى وشدة ضعف بنى آدم وأنهم أدنى شىء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم ﴿إِن كَانَتْ﴾ أى ما كانت عقوبتهم ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أى: صوتًا واحدًا تكلم به بعض ملائكة الله ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ قد تقطعت قلوبهم فى أجوافهم وانزعجوا لتلك الصيحة فأصبحوا خامدين لا صوت ولا حركة ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح وتجبرهم عليهم، قال الله مترحمًا

---

(١) متجرهمون، أى: أخذتكم الحدة فى ردكم قولنا.

للعباد: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى: ما أعظم شقاءهم وأطول عنادهم وأشد جهلهم حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة التى هى سبب لكل شقاء وعذاب ونكال!!.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى: ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة التى أهلكها تعالى وأوقع بها عقابه وأن جميعهم قد باد وهلك فلم يرجع إلى الدنيا ولن يرجع إليها وسيعيد الله الجميع خلقًا جديدًا ويبعثهم بعد موتهم ويحضرون بين يديه تعالى ليحكم بينهم بحكمه العدل الذى لا يظلم مثقال ذرة ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

أى ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴾ على البعث والنشور والقيام بين يدى الله تعالى للجزاء على الأعمال، هذه ﴿ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾ التى أنزل الله عليها المطر فأحياها بعد موتها ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ من جميع أصناف الزروع ومن جميع أصناف النبات التى تأكله أنعامهم ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أى: فى تلك الأرض الميتة ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ أى: بساتين فيها أشجار كثيرة وخصوصًا النخيل والأعناب واللذان هما أشرف الأشجار ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا ﴾ أى: فى الأرض ﴿ مِنَ الْعُيُونِ ﴾ جعلنا فى الأرض تلك الأشجار والنخيل والأعناب ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ ﴾ قوتًا وفاكهة وأدمًا ولذة ﴿ وَ ﴾ الحال أن ذلك الثمر ﴿ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ وليس لهم فيه صنع ولا عمل إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين وخير الرازقين، وأيضًا فلم تعمله أيديهم بطبخ ولا غيره بل أوجد الله هذه الثمار غير محتاجة لطبخ ولا شىء، تؤخذ من أشجارها فتؤكل فى الحال ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ من ساق لهم هذه النعم وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم، أليس الذى أحيا الأرض بعد موتها فأنبت فيها الزروع والأشجار وأودع فيها لذيذ الثمار وأظهر ذلك الجنى من تلك الغصون وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعيون بقادر على أن يحيى الموتى؟ بلى إنه على كل شىء قدير ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أى: الأصناف كلها ﴿ مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ ﴾ فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فنوعهم إلى ذكر وأنثى وفاوت بين خَلْقهم وخُلُقهم وأوصافهم الظاهرة والباطنة ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ من المخلوقات التى قد خلقت وغابت عن علمنا والتى لم تخلق بعد، فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك أو ظهير أو عوين أو وزير أو صاحبة أو ولد أو سَمِى أو مثيل فى صفات كماله ونعوت جلاله أو يعجزه شىء يريده.

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

أى ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴾ على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته وإحيائه الموتى بعد موتهم ﴿ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أى: نزيل منه الضياء العظيم الذى طبق الأرض فنبدله بالظلمة ونحلها محله ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ وكذلك نزيل هذه الظلمة التى عمتهم وشملتهم فنطلع الشمس فتضىء الأقطار وينتشر الخلق لمعايشهم ومصالحهم، ولهذا قال: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ أى: دائمًا تجرى لمستقر لها قدره الله لها لا تتعداه ولا تقصر عنه وليس لها تصرف فى نفسها ولا استعصاء على قدرة الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ الذى بعزته دبر هذه المخلوقات

العظيمة بأكمل تدبير وأحسن نظام ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذى بعلمه جعلها مصالح لعباده ومنافع فى دينهم ودنياهم ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ ينزلها كل ليلة ينزل منها واحدة ﴿حَتَّى﴾ صغر جداً و ﴿عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أى: عرجون النخلة الذى من قدمه نش وصغر حجمه وانحنى ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئًا فشيئًا حتى يتم نوره ويتسق ضياؤه، وكل من الشمس والقمر والليل والنهار قدره الله تقديراً لا يتعداه وكل له سلطان ووقت إذا وجد عدم الآخر ولهذا قال: ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أى: فى سلطانه الذى هو الليل فلا يمكن أن توجد الشمس فى الليل ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه ﴿وَكُلٌّ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أى: يترددون على الدوام، فكل هذا دليل ظاهر وبرهان باهر على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، خصوصًا وصف القدرة والحكمة والعلم فى هذا الموضع.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أى: ودليل لهم وبرهان على أن الله وحده المعبود لأنه المنعم بالنعم الصارف للنقم الذى من جملة نعمه ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال كثير من المفسرين: المراد بذلك: آباؤهم ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ أى: للموجودين من بعدهم ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أى: من مثل ذلك أى: جنسه ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ به، فذكر نعمته على الآباء بحملهم فى السفن لأن النعمة عليهم نعمة على الذرية وهذا الموضع من أشكل المواضع علىَّ فى التفسير، فإن ما ذكره كثير من المفسرين من أن المراد بالذرية الآباء مما لا يعهد فى القرآن إطلاق الذرية على الآباء بل فيه من الإبهام وإخراج الكلام عن موضوعه ما يأباه كلام رب العالمين وإرادته البيان والتوضيح لعباده، وثَمَّ احتمال أحسن من هذا وهو أن المراد بالذرية الجنس وأنهم هم بأنفسهم لأنهم هم من ذرية بنى آدم، ولكن ينقض هذا المعنى قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك أى لهؤلاء المخاطبين ما يركبون من أنواع الفلك فيكون ذلك تكريراً للمعنى تأباه فصاحة القرآن، فإن أريد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ الإبل التى هى سفن البر استقام المعنى واتضح، إلا أنه يبقى أيضًا أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنه لو أريد هذا المعنى لقال: «وآية لهم أنا حملناهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون» فأما أن يقول فى الأول: حملنا ذريتهم، وفى الثانى: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنى، إلا أن يقال: الضمير عائد إلى الذرية، والله أعلم بحقيقة الحال، فلما وصلت فى الكتابة إلى هذا الموضع ظهر لى معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله وبيانه التام من كل وجه للأمور الحاضرة والماضية والمستقبلة وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة ولم تزل موجودة فى كل زمان إلى زمان المواجهين بالقرآن، فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن وذكر حالة الفلك وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك فى غير وقتهم وفى غير زمانهم حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية الشراعية منها والبخارية والجوية السابحة فى الجو كالطيور ونحوها والمراكب البرية مما كانت الآية العظمى فيه لا توجد إلا فى الذرية نبَّه فى الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها فقال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أى المملوء ركبانًا وأمتعة، فحملهم الله تعالى ونجاهم بالأسباب التى علمهم الله إياها من الغرق، ولهذا نبههم على نعمته عليهم حيث أنجاهم من الغرق مع قدرته على ذلك فقال: ﴿وَإِن

نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أى: لا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة ولا يزيل عنهم المشقة ﴿وَلا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ مما هم فيه ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ حيث لم نغرقهم لطفًا بهم وتمتيعًا لهم إلى حين لعلهم يرجعون أو يستدركون ما فرط منهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أى: من أحوال البرزخ والقيامة وما فى الدنيا من العقوبات ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أعرضوا عن ذلك فلم يرفعوا به رأسًا ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وفى إضافة الآيات إلى ربهم دليل على كمالها ووضوحها لأنه ما أبين من آيات الله ولا أعظم بيانًا، وإن من جملة تربية الله لعباده أن أوصل إليهم الآيات التى يستدلون بها على ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أى: من الرزق الذى منَّ به الله عليكم ولو شاء لسلبكم إياه ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ معارضين للحق محتجين بالمشيئة: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث تأمروننا بذلك، وهذا مما يدل على جهلهم العظيم أو تجاهلهم الوخيم فإن المشيئة ليست حجة لعاص أبدًا، فإنه وإن كان ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالى مكَّن العباد وأعطاهم من القوة ما يقدرون على فعل الأمر واجتناب النهى، فإذا تركوا ما أمروا به كان ذلك اختيارًا منهم لا جبرًا لهم ولا قهرًا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال الله تعالى: لا يستبعدوا ذلك فإنه عن قريب ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهى نفخة الصور ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ أى: تصيبهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أى: وهم لاهون عنها لم تخطر على قلوبهم فى حال خصومتهم وتشاجرهم فيما بينهم الذى لا يوجد فى الغالب إلا وقت الغفلة، وإذا أخذتهم وقت غفلتهم فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أى: لا قليلة ولا كثيرة ﴿وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)﴾

النفخة الأولى نفخة الفزع والموت وهذه نفخة البعث والنشور، فإذا نفخ فى الصور خرجوا من الأجداث والقبور ينسلون إلى ربهم أى يسرعون للحضور بين يديه لا يتمكنون من التأنى والتأخر، وفى تلك الحال يحزن المكذبون ويظهرون الحسرة والندم ويقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أى: من رقدتنا فى القبور، لأنه ورد فى بعض الأحاديث أن لأهل القبور رقدة قبيل النفخ فى الصور، فيجابون ويقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أى: هذا الذى وعدكم الله به ووعدتكم به الرسل فظهر صدقهم رأى العين، ولا تحسب أن ذكر الرحمن فى هذا الموضع لمجرد الخبر عن وعده وإنما ذلك للإخبار بأنه فى ذلك اليوم العظيم سيرون من رحمته ما لا يخطر فى الظنون ولا حسب الحاسبون كقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ونحو ذلك مما يذكر اسمه الرحمن فى هذا ﴿إِن كَانَتْ﴾ أى: ما كانت البعثة من القبور ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ينفخ إسرافيل فى الصور فتحيا الأجساد ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ الأولون والآخرون والإنس والجن ليحاسبوا على أعمالهم ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ لا ينقص من حسناتها ولا يزاد فى سيئاتها ﴿وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾

---

(١) قوله: ﴿وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى: من أسواقهم وأشغالهم، بل يموتون فيها.

لما ذكر تعالى أن كل أحد لا يجزى إلا ما عمله ذكر جـزاء الفريقين، فبدأ بجزاء أهل الجنة وأخبر أنهم فى ذلك اليوم ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ أى: فى شغل مفكه للنفس مُلذٌّ لها من كل ما تهواه النفوس وتلذه العيون ويتمناه المتمنون، ومن ذلك لقاء العذارى الجـميلات كما قال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُـهُمْ﴾ من الحور العين اللاتى قـد جمعن حسن الوجوه والأبدان وحسن الأخلاق ﴿فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أى: السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ عليها، اتكاء دالا على كمال الراحة والطمأنينة واللذة ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ كثيرة من جميع أنواع الثمار اللذيذة من عنب وتين ورمان وغيرها ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أى: يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه، ولهم أيضًا ﴿سَـلَامٌ﴾ حـاصل لهم ﴿قَـوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ ففى هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسـلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿قَوْلًا﴾ وإذا سلم عليهم الرب الرحيم حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه وحصلت لهم التحية التى لا تحيـة أعلى منها ولا نعيم مـثلها، فما ظنـك بتحية ملك الملوك الـرب العظيم الرءوف الرحيم لأهل دار كرامته، الذين أحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا، فلولا أن الله تعالى قدر أن يموتوا أو تزول قلوبهم عن أماكنهم من الفـرح والبهجة والسرور لحـصل ذلك، فنرجو ربنا أن لا يحرمنا ذلك النعيم وأن يمـتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

لما ذكر تعالى جزاء المتـقين ذكر جزاء المجرمين ﴿وَ﴾ أنهم يقال لهم يوم القـيامة: ﴿امْتَـازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أى: تميزوا عن المؤمنين وكونوا على حدة، ليوبخهم ويقرعهم على رءوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار فيقول لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ أى: ألم آمركم وأوصيكم على ألسنة رسلى وأقول لكم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أى: لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ يدخل فيه التوبيخ عن جـميع أنواع الكفر والمعاصى لأنها كلها طاعة للشيـطان وعبادة له ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُّبِـينٌ﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير وأنـذرتكم عن طاعته وأخبرتكم بما يدعوكم إليه ﴿وَ﴾ أمرتكم ﴿أَنِ اعْبُدُونِي﴾ بامتثال أوامرى وترك زواجرى ﴿هَذَا﴾ أى: عبادتى وطاعتى ومعصية الشيطان ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى هذين الأمرين، أى: فلم تحفظوا عهدى ولم تعملوا بوصيتى ﴿وَلَقَدْ﴾ واليتم عدوكم وهو الشيطان الذى ﴿أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أى: خلقًا كثيرًا ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْـقِلُونَ﴾ أى: فلا كان لكم عقل يأمركم بمـوالاة ربكم ووليكم الحق ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم وليًا فلو كان لكم عقل صحيح لما فعلتم ذلك، فـإذا أطعتم الشيطان وعاديتم الرحمن وكذبتم بلقائه ووردتم القيامة دار الجزاء وحق عليكم القول بالعذاب ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وتكذبون بها فانظروا إليها عيانًا، فهناك تنزعج منهم الـقلوب وتزوغ الأبصار ويحصل الفـزع الأكبر، ثم يكمل ذلك بأن يؤمـر بهم إلى النار ويقال لهم: ﴿اصْلَوْهَا[1] الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى: ادخلوها على وجه تصلاكم ويحيط بكم حرها ويبلغ منكم كل مبلغ بسبب كـفركم بآيات الله وتكذيبكم لرسل الله، قال تعالى فى بيان وصفـهم الفظيع فى دار الشقاء ﴿الْيَـوْمَ نَخْـتِمُ عَلَى أَفْـوَاهِهِمْ﴾ بأن نجعلهم خـرسًا فلا يتكلمون فـلا يقدرون على إنكار ما عـملوه من الكفر والتكذيب ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: تشهد عليهم أعضـاؤهم بما عملوه وينطقها الذى أنطق كل شىء ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ بأن نُذْهِبَ أبصارهم كما طمسنا على نطقهم ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أى:

(١) اصلوها، أى: قاسوا وذوقوا حرها الشديد.

فبادروا إليه لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ وقد طمست أبصارهم ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ[(١)] عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أى لأذهبنا حركتهم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ إلى الأمام ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى ورائهم ليبعدوا عن النار، والمعنى: أن هؤلاء الكفار حقت عليهم كلمة العذاب ولم يكن بُدٌّ من عقابهم وفى ذلك الموطن ما ثَمَّ إلا النار قد برزت وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان الذين يمشون فى نورهم، وأما هؤلاء فليس لهم عند الله من عهد فى النجاة من النار، فإن شاء طمس أعينهم وأبقى حركتهم فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر، والمقصود: أنهم لا يعبرون فلا تحصل لهم النجاة.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ من بنى آدم ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أى: يعود إلى الحالة التى ابتدأ منها حالة الضعف، ضعف العقل وضعف القوة ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن الآدمى ناقص من كل وجه فيتداركوا قولهم وعقولهم فيستعملوها فى طاعة ربهم.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

ينزه تعالى نبيه محمد ﷺ عما رماه به المشركون من أنه شاعر وأن الذى جاء به شعر فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أن: يكون شاعرًا أى: هذا من جنس المحال أن يكون شاعرًا لأنه رشيد مهتد والشعراء غاوون يتبعهم الغاوون، ولأن الله تعالى حسم جميع الشبه التى يتعلق بها الضالون عن رسوله، فحسم أن يكون يكتب أو يقرأ وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغى له[(٢)] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أى: ما هذا الذى جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب جميع المطالب الدينية فهو مشتمل عليها أتم اشتمال وهو يذكر العقول ما ركز الله فى فطرها من الأمر بكل حسن والنهى عن كل قبيح ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أى مبين لما يطلب بيانه، ولهذا حذف المعمول ليدل على أنه مبين لجميع الحق بأدلته التفصيلية والإجمالية والباطل وأدلة بطلانه وأنزله الله كذلك على رسوله ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أى: حى القلب واعيه، فهو الذى يزكو على هذا القرآن، وهو الذى يزداد من العلم منه والعمل ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لأنهم قامت عليهم به حجة الله وانقطع احتجاجهم فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يُدْلُونَ بها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذللها وجعلهم مالكين لها مطاوعة لهم فى كل أمر يريدونه منها وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أثقالهم ومحاملهم وأمتعتهم من محل إلى محل ومن أكلهم منها وفيها دفء ومن أوبارها وأصوافها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين، وفيها زينة وجمال وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى الذى أنعم بهذه النعم ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعًا خاليًا من العبرة والفكرة.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

---

(١) قوله: ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ أى: لَغيَّرنا صورهم إلى صور قبيحة، كالقردة والخنازير ونحوهما من الصور القبيحة.

(٢) أى: لا يصح ولا يليق ـ لمكانته السامية ومنزلته الرفيعة ـ أن يكون شاعرًا، لأن الشعراء من الطبقة المنحطة الغاوية.

هذا بيان لبطلان آلهة المشركين التى اتخذوها مع الله تعالى ورجوا نصرها وشفعها أى: شفاعتها ووساطتها بينهم وبين الله، فإنها فى غاية العجز ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ ولا أنفسهم ينصرون، فإذا كانوا لا يستطيعون نصر أنفسهم فكيف ينصرونهم؟ والنصر له شرطان: الاستطاعة والقدرة، فإذا استطاع يبقى هل يريد نصرة من عبده أم لا؟ فَنَفْىُ الاستطاعة ينفى الأمرين كليهما ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أى: محضرون هم وهم فى العذاب ومتبرئ بعضهم من بعض، أفلا تبرءوا فى الدنيا من عبادة هؤلاء وأخلصوا العبادة للذى بيده الملك والنفع والضر والعطاء والمنع وهو الولى النصير؟.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

أى فلا يحزنك يا أيها الرسول قول المكذبين والمراد بالقول: ما دل عليه السياق كل قول يقدحون به فى الرسول أو فيما جاء به، أى: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فنجازيهم على حسب علمنا بهم وإلا فقولهم لا يضرك شيئًا.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

وهذه الآيات الكريمات فيها ذكر شبهة منكرى البعث، والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ﴾ المنكر للبعث أو الشاك فيه أمرًا يفيده اليقين التام بوقوعه وهو: ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ ابتداء ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ ثم تنقله فى الأطوار شيئًا فشيئًا حتى كبر وشب وتم عقله واستتب ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين وليعلم أن الذى أنشأه من العدم قادر على أن يعيده بعدما تفرق وتمزق من باب أولى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾ لا ينبغى لأحد أن يضربه وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق، فسر هذا المثل بقوله: ﴿قَالَ﴾ ذلك الإنسان: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أى: هل أحد يحييها؟ استفهام إنكار أى: لا أحد يحييها بعدما بليت وتلاشت، هذا وجه الشبهة والمثل وهو أن هذا أمر فى غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر، وهذا القول الذى صدر من هذا الإنسان غفلة منه ونسيان لابتداء خلقه، فلو فطن لخلقه بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا فوجد عيانًا لم يضرب هذا المثل، فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد بجواب شاف كاف فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا بمجرد تصوره يعلم به علمًا يقينًا لا شبهة فيه أن الذى أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ثانى مرة وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ هذا أيضًا دليل ثان من صفات الله تعالى وهو أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته فى جميع أحوالها فى جميع الأوقات ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات وما يبقى ويعلم الغيب والشهادة، فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم علم أنه أعظم وأجل من إحياء الله الموتى من قبورهم، ثم ذكر دليلاً ثالثًا فقال: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ فإذا أخرج النار اليابسة من الشجر الأخضر الذى هو غاية الرطوبة مع تضادهما وشدة تخالفهما فإخراجه الموتى من قبورهم مثل ذلك، ثم ذكر دليلاً رابعًا فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ على سعتهما وعظمهما ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أى: أن يعيدهم بأعيانهم ﴿بَلَى﴾ قادر على ذلك فإن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ وهذا دليل خاص فإنه تعالى الخلاق الذى جميع المخلوقات ـ متقدمها ومتأخرها صغيرها وكبيرها ـ كلها أثر من آثار خلقه وقدرته وأنه لا يستعصى عليها مخلوق أراد خلقه، فإعادته

للأموات فرد من أفراد آثار خلقه ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم كل شيء ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: في الحال من غير تمانع ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهذا دليل سادس فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء الذي جميع ما سكن في العالم العلوي والسفلي ملك له وعبيد مسخرون مدبَّرون يتصرف فيهم بأقداره الحكيمة وأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية فإعادته إياهم بعد موتهم لينفذ فيهم حكم الجزاء من تمام ملكه، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من غير امتراء ولا شك لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على ذلك فتبارك الذي جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور.

تم تفسير سورة يس فلله تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله وله الثناء كما يليق بكماله وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه وصلى الله على محمد وآله وسلم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١)﴾

هذا قسم منه تعالى بالملائكة الكرام في حال عباداتها وتدبيرها ما تدبره بإذن ربها على ألوهيته تعالى وربوبيته فقال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ أي: صفوفًا في خدمة ربهم وهم الملائكة ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ وهم الملائكة يزجرون السحاب وغيره بأمر الله ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ وهم: الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى، فلما كانوا متألهين لربهم ومتعبدين في خدمته ولا يعصونه طرفة عين أقسم بهم على ألوهيته فقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ليس له شريك في الإلهية فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء وسائر أنواع العبادة ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أي: هو الخالق لهذه المخلوقات الرازق لها المدبر لها فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها فكذلك لا شريك له في ألوهيته، وكثيرًا ما يقرن تعالى توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية لأنه دال عليه وقد أقر به أيضًا المشركون في العبادة فيلزمهم بما أقروا به على ما أنكروه، وخص الله المشارق بالذكر لدلالتها على المغارب أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها، فلهذا قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ ذكر الله في الكواكب هاتين الفائدتين العظيمتين: إحداهما: كونها زينة للسماء إذ لولاها لكانت السماء مظلمة لا ضوء فيها، ولكن زينها بها لتستنير أرجاؤها وتحسن صورتها ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر ويحصل فيها من المصالح ما يحصل، والثانية: حراسة السماء عن كل شيطان مارد يصل بتمرده إلى استماع الملأ الأعلى وهم: الملائكة، فإذا استمعوا ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ بالشهب الثواقب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ طردًا لهم وإبعادًا إياهم عن استماع ما يقول الملأ الأعلى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائم معد لهم لتمردهم عن طاعة ربهم، ولولا أنه تعالى استثنى لكان ذلك دليلاً على أنهم لا يستمعون شيئًا أصلاً ولكن قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: إلا من تلقف من الشياطين المردة، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه فينقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب فيكذبون معها مائة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء، ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: اسأل منكري خلقهم بعد موتهم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: إيجادهم بعد موتهم أشد خلقًا وأشق؟ ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ من هذه المخلوقات؟ فلا بد أن يقروا أن خلق السموات والأرض أكبر من

خلق الناس، فيلزمهم إذًا الإقرار بالبعث بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ[1]﴾ أى: قوى شديد كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أيها الرسول أو أيها الإنسان من تكذيب من كذب بالبعث بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة والأدلة المستقيمة، وهو حقيقة محل عجب واستغراب لأنه مما لا يقبل الإنكار ﴿وَ﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه أنهم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ ممن جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار حتى زادوا السخرية بالقول الحق ﴿وَ﴾ من العجب أيضًا أنهم ﴿إِذَا ذُكِّرُوا﴾ ما يعرفون فى فطرهم وعقولهم وفطنوا له ولفت نظرهم إليه ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ ذلك، فإن كان جهلاً فهو من أدل الدلائل على شدة بلادتهم العظيمة حيث ذكروا ما هو مستقر فى الفطرة معلوم بالعقل لا يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلاً وعنادًا فهو أعجب وأغرب، ومن العجب أيضًا أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة وذُكروا الآيات التى يخضع لها فحول الرجال وألباب الألباء يسخرون منها ويعجبون، ومن العجب أيضًا قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها وهو الحق فى رتبة أخس الأشياء وأحقرها، ومن العجب أيضًا قياسهم قدرة رب الأرض والسموات على قدرة الآدمى الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعادًا وإنكارًا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ ولما كان هذا منتهى ما عندهم وغاية ما لديهم أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم فقال: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ ذليلون صاغرون لا تمتنعون ولا تستعصون على قدرة الله ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ينفخ إسرافيل فيها فى الصور ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ مبعوثون من قبورهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ كما ابتدئ خلقهم بعثوا بجميع أجزائهم حفاة عراة غرلاً، وفى تلك الحال يظهرون الندم والخزى والخسار ويدعون بالويل والثبور ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ «أى: هذا يوم الحساب والجزاء على الأعمال» فقد أقروا بما كانوا فى الدنيا به يهزءون، فيقال لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق.

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

أى: إذا حضروا يوم القيامة وعاينوا ما به يكذبون ورأوا ما به يستسخرون يؤمر بهم إلى النار التى بها كانوا يكذبون فيقال: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصى ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الذين من جنس عملهم، كل يُضم إلى من يجانسه فى العمل ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد التى زعموها، اجمعوهم جميعًا ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أى: سوقوهم سوقًا عنيفًا إلى جهنم ﴿وَ﴾ بعدما يتعين أمرهم إلى النار ويعرفون أنهم من أهل دار البوار يقال: ﴿قِفُوهُمْ﴾ قبل أن توصلوهم إلى جهنم ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ عما كانوا يفترونه فى الدنيا ليظهر على رءوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم، فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أى: ما الذى جرى عليكم اليوم؟ وما الذى طرقكم حتى لا ينصر بعضكم بعضًا ولا يغيث بعضكم بعضًا بعدما كنتم تزعمون فى الدنيا أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب وتغيثكم أو تشفع لكم عند الله فكأنهم لا

---

(١) لازب، أى: ملتزق بعض ببعضه ويلتزق باليد لاشتداده.

يجيبون على هذا السؤال لأنهم قد علاهم الذل والصغار واستسلموا لعذاب النار وخشعوا وخضعوا وأبلسوا فلم ينطقوا، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون أذلاء فكلهم مستسلم غير منتصر.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)﴾

لما جمعوا هم وأزواجهم وآلهتهم وهدوا إلى صراط الجحيم ووقفوا فسئلوا فلم يجيبوا، أقبلوا فيما بينهم يلزم بعضهم بعضًا على إضلالهم وضلالهم، فقال الأتباع للمتبوعين الرؤساء: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي: بالقوة والغلبة فتضلونا ولولا أنتم لكنا مؤمنين ﴿قَالُوا﴾ لهم ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما زلتم مشركين كما نحن مشركون، فأي شيء فضلكم علينا؟ وأي شيء يوجب لومنا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي قهر لكم على اختيار الكفر ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ متجاوزين للحق ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ «فلزمنا جميعًا» نحن وإياكم ﴿قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ العذاب أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه إنا وإياكم سنذوق العذاب ونشترك في العقاب ﴿فَـ﴾ لذلك ﴿أَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها وهي الغواية فاستجبتم لنا فلا تلومونا ولوموا أنفسكم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فدعوا إليها وأمروا بترك إلهية ما سواه ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عنها وعلى من جاء بها ﴿وَيَقُولُونَ﴾ معارضة لها ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا﴾ التي لم نزل نعبدها نحن وآباؤنا ﴿لِـ﴾ قول ﴿شَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ يعنون: محمدًا ﷺ، فلم يكفهم قبحهم الله الإعراض عنه ولا مجرد تكذيبه حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام وجعلوه شاعرًا مجنونًا وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء ولا وصفه وصفهم وأنه أعقل خلق الله وأعظمهم رأيًا، ولهذا قال تعالى ناقضًا لقولهم: ﴿بَلْ جَاءَ﴾ محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: مجيئه حقًا وما جاء به من الشرع والكتاب حق ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: ومجيئه صدق المرسلين فلولا مجيئه وإرساله لم يكن الرسل صادقين فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله لأنهم أخبروا به وبشروا وأخذ الله عليهم العهد والميثاق لئن جاءهم ليؤمنن به ولينصرنه وأخذوا ذلك على أممهم، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله وتبين كذب من خالفهم فلو قدر عدم مجيئه وهم قد أخبروا به لكان ذلك قادحًا في صدقهم، وصدّق أيضًا المرسلين بأن جاء بما جاءوا به ودعا إلى ما دعوا إليه وآمن بهم وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم، ولما كان قولهم السابق: ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ قولاً صادرًا منهم يحتمل أن يكون صدقًا أو غيره، أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين وهو الخبر الصادق منه تعالى فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ أي المؤلم الموجع ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ﴾ في إذاقة العذاب الأليم ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلم نظلمكم وإنما عدلنا فيكم؟ ولما كان هذا الخطاب لفظه عامًا والمراد به: المشركون، استثنى تعالى المؤمنين فقال:

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩)﴾

يقول تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم غير ذائقي العذاب الأليم لأنهم أخلصوا لله الأعمال فأخلصهم واختصهم برحمته وجاد عليهم بلطفه ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ أي: غير مجهول وإنما هو رزق عظيم جليل لا يجهل أمره ولا يبلغ كنهه، فسره بقوله: ﴿فَوَاكِهُ﴾ من جميع أنواع الفواكه التى تتفكه بها النفس للذتها فى لونها وطعمها ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ لا مهانون محتقرون بل معظمون مبجلون موقرون، قد أكرم بعضهم بعضًا وأكرمتهم الملائكة الكرام وصاروا يدخلون عليهم من كل باب ويهنئونهم ببلوغ أهنأ الثواب وأكرمهم أكرم الأكرمين وجاد عليهم بأنواع الكرامات من نعيم القلوب والأرواح والأبدان ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أى: الجنات التى النعيم وصفها والسرور نعتها، وذلك لما جمعته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وسلمت من كل ما يخل بنعيمها من جميع المكدرات والمنغصات، ومن كرامتهم عند ربهم وإكرام بعضهم بعضًا أنهم ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ وهى المجالس المرتفعة المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة المزخرفة المجملة فهم متكئون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ فيما بينهم ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض فإن مقابلة وجوههم تدل على تقابل قلوبهم وتأدب بعضهم مع بعض فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ أى: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم عليهم بالأشربة اللذيذة بالكاسات الجميلة المنظر المترعة من الرحيق المختوم بالمسك وهى كاسات الخمر، وتلك الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه فإنها فى لونها ﴿بَيْضَاءَ﴾ من أحسن الألوان وفى طعمها ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ يلتذ شاربها بها وقت شربها وبعده، وأنها سالمة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبها وليس فيها صداع ولا كدر، فلما ذكر طعامهم وشربهم ومجالسهم وعموم النعيم وتفاصيله داخلة فى قوله: ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ لكن فصل هذه الأشياء لتعلم فتشتاق النفوس إليها ذكر أزواجهم فقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ أى: وعند أهل دار النعيم فى محلاتهم القريبة حور حسان كاملات الأوصاف قاصرات الطرف، إما أنها قصرت طرفها على زوجها لعفتها وعدم مجاوزته لغيره ولجمال زوجها وكماله بحيث لا تطلب فى الجنة سواه ولا ترغب إلا به، وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها وذلك يدل على كمالها وجمالها الفائق الذى أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها، وقصر الطرف أيضًا يدل على قصر النفس والمحبة عليها وكلا المعنيين محتمل وكلاهما صحيح، وكل هذا يدل على جمال الرجال والنساء فى الجنة ومحبة بعضهم بعضًا محبة لا يطمح معها أحد إلى غيره، ويدل على شدة عفتهم كلهم وأنه لا حسد فيها ولا تباغض ولا تشاحن وذلك لانتفاء أسبابه ﴿عِينٌ﴾ أى: حسان الأعين جميلاتها ملاح الحدق ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ أى: الحور ﴿بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ أى: مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها ليس فيه كدر ولا شين.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

ما ذكر تعالى نعيمهم وتمام سرورهم بالمآكل والمشارب والأزواج الحسان والمجالس الحسنة وصف تذاكرهم فيما بينهم ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية وأنهم ما زالوا فى المحادثة والتساؤل حتى أفضى ذلك بهم إلى أن قال قائل منهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ فى الدنيا ينكر البعث ويلومنى على تصديقى به، و ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أى: مجازون بأعمالنا؟ أى: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد الذى فى غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزقنا فصرنا ترابًا وعظامًا أننا نُبعث ونُعاد ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا؟!! أى: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتى وهذا خبرى أنا وقرينى ما زلت أنا مؤمنًا صادقًا وهو ما زال مكذبًا منكرًا للبعث حتى متنا ثم بعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون من النعيم الذى أخبرتنا

به الرسل وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ لننظر إليه فنزداد غبطة وسرورًا بما نحن فيه ويكون ذلك رأيَ عين؟ والظاهر من حال أهل الجنة وسرور بعضهم ببعض وموافقة بعضهم بعضًا أنهم أجابوه لما قال وذهبوا تبعًا له للاطلاع على قرينه ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ﴾ أى: رأى قرينه ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أى: فى وسط العذاب وغمراته والعذاب قد أحاط به ﴿قَالَ﴾ له، لائمًا على حاله وشاكرًا لله على أن نجاه من كيده ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أى: تهلكنى بسبب ما أدخلت علىَّ من الشُّبه بزعمك ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ على أن ثبتنى على الإسلام ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ فى العذاب معك ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أى: يقوله المؤمن مبتهجًا بنعمة الله على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها والسلامة من العذاب استفهام بمعنى الإثبات والتقرير، وقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وحذف المعمول والمقام مقام لذة وسرور يدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به والمسائل التى وقع فيها النزاع والإشكال، ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللذات الجارية فى أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية فى الجنة ما لا يمكن التعبير عنه، فلما ذكر تعالى نعيم الجنة ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة مدحه وشوَّق العاملين وحثَّهم على العمل له فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذى حصل لهم به كل خير وكل ما تهوى النفوس وتشتهى واندفع عنهم به كل محذور ومكروه، فهل فوز يطلب فوقه؟ أم هو غاية الغايات ونهاية النهايات حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسموات وفرحوا بقربه وتنعموا بمعرفته وسروا برؤيته وطربوا لكلامه؟ ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة أن يمضى على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشتغل بالعمل الذى يقرب لهذه الدار فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار؟!!.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ أى: ذلك النعيم الذى وصفناه لأهل الجنة خير أم العذاب الذى يكون فى الجحيم من جميع أصناف العذاب؟ فأى الطعامين أولى؟ الطعام الذى وصف فى الجنة ﴿أَمْ﴾ طعام أهل النار؟ وهو ﴿شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً﴾ أى: عذابا ونكالاً ﴿لِّلظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصى ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أى: وسطه فهذا مخرجها ومعدنها شر المعادن وأسوأها وشر المغرس يدل على شر الغراس وخسته ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تنبت به وبما ذكر من صفة ثمرتها، وأن ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها وما تفعل فى أجوافهم وبطونهم وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ فهذا طعام أهل النار فبئس الطعام طعامهم، ثم ذكر شرابهم فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أى: على أثر هذا الطعام ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أى: ماء حارًا قد تناهى حره كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ أى مآلهم ومقرهم ومأواهم ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ليذوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم ما ليس عليه مزيد من الشقاء، وكأنه قيل: ما الذى أوصلهم إلى هذه الدار؟ فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ أى وجدوا ﴿آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أى: يسرعون فى الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ

آثارهم مُقْتَدُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أى: قبل هؤلاء المخاطبين ﴿أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ﴾ وقليل منهم من آمن واهتدى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ ينذرونهم من غيهم وضلالهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ كانت عاقبتهم الهلاك والخزى والفضيحة، فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم فيصيبهم ما أصابهم، ولما كان المنذرون ليسوا كلهم ضالين بل منهم من آمن وأخلص الدين لله استثناهم الله من الهلاك فقال: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: الذين أخلصهم الله وخصهم برحمته لإخلاصهم فإن عواقبهم صارت حميدة، ثم ذكر نموذجًا من عواقب الأمم المكذبين فقال:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أول الرسل أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا أنه نادى ربه فقال: ﴿لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآية، وقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ فاستجاب الله له ومدح تعالى نفسه فقال: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ لدعاء الداعين وسماع تبتلهم وتضرعه، أجابه إجابة طابقت ما سأل فنجاه وأهله من الكرب العظيم وأغرق جميع الكافرين وأبقى نسله وذريته متسلسلين فجميع الناس من ذرية نوح عليه السلام، وجعل له ثناء حسنًا مستمرًا إلى وقت الآخرين، وذلك لأنه محسن فى عبادة الخالق محسن إلى الخلق، وهذه سنته تعالى فى المحسنين أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم، ودل قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن الإيمان أرفع منازل العباد وأنه مشتمل على جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه لأن الله مدح به خواص خلقه.

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّٰلِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّٰبِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَٰٓؤُا الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ (١١٣)﴾

أى: وإن من شيعة نوح عليه السلام ومن هو على طريقته فى النبوة والرسالة ودعوة الخلق إلى الله وإجابة الدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك والشبه والشهوات المانعة من تصور الحق والعمل به وإذا كان قلب العبد سليمًا سلم من كل شر وحصل له كل خير، ومن سلامته أنه سليم من غش الخلق وحسدهم وغير ذلك من مساوئ الأخلاق، ولهذا نصح الخلق فى الله وبدأ بأبيه وقومه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ هذا استفهام على وجه الإنكار والإلزام لهم بالحجة ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أى: أتعبدون من دون الله آلهة كذبًا ليست بآلهة ولا تصلح للعبادة، فما ظنكم برب العالمين أن يفعل بكم وقد عبدتم

معه غيره؟ وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب على الإقامة على شركهم ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: وما الذى ظننتم برب العالمين من النقص حتى جعلتم له أنداداً وشركـاء، فأراد عليه السلام أن يكسر أصنامهم ويتمكن من ذلك فانتهز الفرصة فى حين غفلة منهم لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم فخرج معهم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وفى الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقـوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله عن زوجته: «إنها أختى» والقصـد أنه تخلف عنهم ليتم له الكيد بآلهتهم ﴿فَـ﴾ لهذا ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ فوجد الفرصة ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أى: أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة ﴿فَقَالَ﴾ متهكمًا بها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ أى: فكيف يليق أن تُعبد وهى أنقص من الحيوانات التى تأكل وتكلم؟ وهذه جمادات لا تأكل ولا تكلم ﴿فَـرَاغَ[1] عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أى: جعل يضربها بقوته ونشاطه حتى جـعلها جذاذًا إلا كبيراً لهم لعلهم إليـه يرجعون ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أى: يسـرعون ويهـرعون ويريدون أن يوقعوا به بعدما بحثوا وقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقيل لهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ يقول: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ فوبخوه ولاموه فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ الآية، و ﴿قَـالَ﴾ هنا: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُـونَ﴾ أى: تنحتونه بأيديكم وتصنعـونه؟ فكيف تعبدونهم وأنتم الذين صنعتمـوهم وتتركون الإخلاص لله؟ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ أى: عاليًا مرتفعًا وأوقدوا فيه النار ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ جزاء ما فعل من تكسير آلهتهم ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ رد الله كيدهم فى نحورهم وجعل النار على إبراهيم برداً وسلامًا ﴿وَ﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل وأقام عليهم الحجة وأعذر منهم ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أى: مهاجر إليه قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يدلنى على ما فيه الخير لى من أمر دينى ودنيـاى، وقال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ ولداً يكون ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وذلك عندما أيس من قومه ولم ير فيهم خيراً دعا الله أن يهب له غلامًا صالحًا ينفع الله به فى حياته وبعد مماته، فاستجاب الله له وقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك فإنه ذكر بعـده البشارة بإسحق ولأن الله تعالى قال فى بشراه بإسحق ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ فدل على أن إسحاق، غير الذبيح، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم وهو يتضمن الصبر وحسن الخلق وسعة الصدر والعفو عمن جنى ﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ الغلام ﴿مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أى: أدرك أن يسعى معه وبلغ سنًا يكون فى الغالب أحب ما يكون لوالديه قد ذهبت مشقته وأقبلت منفعته، فقال له إبراهيم عليـه السلام: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أى: قد رأيت فى النوم، والرؤيا أن الله يـأمرنى بذبحك، ورؤيا الأنبياء وحى ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه ﴿قَالَ﴾ إسماعيل صابراً محتسبًا مرضيًا لربه وباراً بوالده: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أى: امض لما أمرك الله ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى لأنه لا يكون شيء بـدون مشيئة الله ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أى: إبراهيم وابنه إسماعيل: إبراهيم جـازمًا بقتل ابنه وثمرة فؤاده امتثالاً لأمر ربه وخـوفًا من عقابه، والابن قد وطَّن نفسه على الصبر وهانت عليه فى طاعة ربه ورضا والده ﴿وَتَلَّهُ[2] لِلْجَبِينِ﴾ أى: تل إبراهيم إسماعيل على جبينه ليضجعه فيذبحه وقد انكب لوجهه لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ فى تلك الحال المزعجة والأمر المدهش ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أى قد فعلت ما أمرت به فإنك وطَّنت نفسك على ذلك وفعلت كل سبب ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فى عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذى امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أى: الواضح الذى تبين به

---

(١) فراغ، أى: مال إليها خفية ليحطمها.

(٢) تله، أى: صرعه وألقاه على إحدى جبينيه، ولكل إنسان جبينان، بينهما الجبهة.

صفاء إبراهيم وكمال محبته لربه وخلته، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم أحبه حبًا شديدًا وهو خليل الرحمن والخلة أعلى أنواع المحبة وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل أراد تعالى أن يصفى وُدَّه ويختبر خلته فأمره أن يذبح من زاحم حبه حب ربه، فلما قدم حب الله وآثره على هواه وعزم على ذبحه وزال ما فى القلب من المزاحمة بقى الذبح لا فائدة فيه، فلهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أى: صار بدله ذبح من الغنم عظيم ذبحه إبراهيم، فكان عظيمًا من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، من جهة أنه من جملة العبادات الجليلة ومن جهة أنه كان قربانًا وسُنة إلى يوم القيامة ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: وأبقينا عليه ثناء صادقًا فى الآخرين كما كان فى الأولين، فكل[1] وقت بعد إبراهيم عليه السلام فإنه فيه محبوب معظم مثنى عليه ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى تحية عليه، كقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فى عبادة الله ومعاملة خلقه أن نفرج عنهم الشدائد ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما أمر الله بالإيمان به الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه البشارة الثانية بإسحاق الذى من ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه ووجود ذريته وكونه نبيًا من الصالحين، فهى بشارات متعددة ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أى: أنزلنا عليهما البركة التى هى النمو والزيادة فى علمهما وعملهما وذريتهما فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل وأمة بنى إسرائيل وأمة الروم من ذرية إسحاق ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ أى: منهم الصالح والطالح والعادل والظالم الذى تبين ظلمه بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام فإنه لما قال: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ اقتضى ذلك البركة فى ذريتهما وأن من تمام البركة أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسنًا وظالمًا، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

يذكر تعالى منته على عبديه ورسوليه موسى وهارون ابنى عمران بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون ونصرهما عليه حتى أغرقه الله وهم ينظرون وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين وهو التوراة التى فيها الأحكام والمواعظ وتفصيل كل شىء وأن الله هداهما الصراط المستقيم بأن شرع لهما دينًا ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومَنَّ عليهما بسلوكه ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أى أبقى عليهما ثناء حسنًا وتحية فى الآخرين، ومن باب أولى وأحرى فى الأولين ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[2] ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ[3]﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

---

(١) قوله: «فكل وقت ... إلخ» تعبير فيه ارتباك، ولو قال «فكل وقت يذكر فيه إبراهيم عليه السلام، يذكر بالتعظيم والثناء الجميل لأنه محبوب ومعظم عند الناس يعلى اختلاف أديانهم وشرائعهم» لكان أوضح للقراء على اختلاف طبقاتهم.

(٢) المحسنين، أى: لأنفسهم، الذين هما من جملتهم، لا جزاء قاصرًا عنه.

(٣) أى: الراسخين فى الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان.

يمدح تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده ونهاهم عن عبادتهم صنمًا لهم يقال له «بعل» وتركهم عبادة الله الذى خلق الخلق وأحسن خلقهم ورباهم فأحسن تربيتهم وأدرَّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة من هذا شأنه إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق بل لا يأكل ولا يتكلم؟!! وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغى؟! ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه فلم ينقادوا له، قال الله متوعدًا لهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أى يوم القيامة فى العذاب ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: الذين أخلصهم الله ومنَّ عليهم باتباع نبيهم فإنهم غير محضرين فى العذاب وإنما لهم من الله جزيل الثواب ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أى: إلياس ﴿فِي الآخِرِينَ﴾ ثناء حسنًا ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ أى: تحية من الله ومن عباده عليه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾

وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط بالنبوة والرسالة ودعوته إلى الله قومه ونهيهم عن الشرك وفعل الفاحشة، فلما لم ينتهوا نجاه الله وأهله أجمعين فسروا ليلاً فنجوا ﴿إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ أى: الباقين المعذبين وهى زوجة لوط لم تكن على دينه ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ بأن قلبنا عليهم ديارهم ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ حتى همدوا وخمدوا ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ أى: على ديار قوم لوط ﴿مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ﴾ أى فى هذه الأوقات يكثر ترددكم إليها ومروركم بها فلم تقبل الشك والمرية ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ الآيات والعبر وتنزجرون عما يوجب الهلاك؟.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩)﴾

وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله.

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾

وذكر تعالى عنه أنه عاقبه عقوبة دنيوية أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة فقال: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾[1] أى:

---

(١) قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أى «من ربه مغاضبًا له» إلى قوله «وهو مغاضبته لربه».

أقول: ذكر المؤلف هنا كلامًا خلاف ما ذكره المفسرون، فأوهم كلامه أن يونس عليه السلام هرب من ربه مغاضبًا له، ظانًا أن الله لا يقدر أن يدركه ولا يستطيع حبسه فى بطن الحوت، وأنه ارتكب ذنبًا، ومعلوم أن الإجماع قد انعقد على أن الأنبياء معصومون بعد النبوة من صغائر الذنوب وكبائرها، والمؤلف هنا جعله مرتكبًا ذنبًا، مستندًا إلى قوله تعالى: ﴿أَبَقَ﴾ مع أن إباقه لم يكن عن قصد مخالفته الله بل كان لتأخر نزول العذاب الذى كان وعد قومه بنزوله عليهم، فلما تأخر نزول العذاب، أداه اجتهاده أن يهجر قومه ويعيش بعيدًا عنهم، متيقنًا أن الله لا يضيق عليهم فى حياته الميعيشية، وهذا من اجتهادات الأنبياء التى تحتمل الخطأ والصواب، مع العلم بأن الوحى ينزل عليهم فورًا ويردون إلى الصواب، ولا يقرون على الخطأ، ومثاله: اجتهاد سيدنا محمد ﷺ فى أمر أسرى «بدر» واجتهاده فى النهى عن تلقيح النخل، فمما قررنا يتضح زن يونس اجتهد فى هجران قومه، لا أنه عمد إلى مخالفة أمر ربه حتى نقول: إنه ارتكب ذنبًا كما صرح المؤلف هنا، كما أنه فسر «الظن» فى قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ على حقيقته وهو إدراك الطرف الراجح، مع أن الظن هنا بمعنى اليقين، ونظيره قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ أى: يعتقدون ويتيقنون، وأيضًا فسر القدرة فى قوله تعالى: ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ على حقيقته الذى هو ضد العجز، مع أن معنى «لن نقدر» لن نضيق، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أى: من نضيق عليه =

من ربه مغاضبًا له ظانًا أنه لا يقدر عليه ويحبسه فى بطن الحوت ولم يذكر الله ما غاضب عليه ولا ذنبه الذى ارتكبه لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذكر لنا عنه أنه أذنب وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام وأنه نجاه بعد ذلك وأزال عنه الملام وقيض له ما هو سبب صلاحه، فلما أبق لجأ ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره والفلك شاحن ثقلت السفينة فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركاب وأنهم لم يجدوا لأحد مزية فى ذلك فاقترعوا على أن من قُرع وغلب ألقى فى البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه، فلما اقترعوا أصابت القرعة يونس ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أى: المغلوبين فألقى فى البحر ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ﴾ وقت التقامه ﴿مُلِيمٌ﴾ أى: فاعل ما يلام عليه وهو مغاضبته لربه ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أى: فى وقته السابق[1] بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده، وفى بطن الحوت حيث قال: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أى: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله نجاه الله تعالى، وكذلك ينجى الله المؤمنين عند وقوعهم فى الشدائد ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء، وهى الأرض الخالية العارية من كل أحد بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أى قد سقم ومرض بسبب حبسه فى بطن الحوت حتى صار مثل الفرخ الممعوط من البيضة ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾[2] تظله بظلها الظليل لأنها باردة الظلال ولا يسقط عليها ذباب وهذا من لطفه به وبره، ثم لطف به لطفًا آخر وامتَنَّ عليه مِنَّةً عظمى وهو أنه أرسله ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ من الناس ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ عنها، والمعنى أنهم إن لم يزيدوا عنها لم ينقصوا، فدعاهم إلى الله تعالى ﴿فَآمَنُوا﴾ فصاروا فى موازينه لأنه الداعى لهم ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ بأن صرف الله عنهم العذاب بعدما انعقدت أسبابه، قال تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أى: اسأل المشركين بالله غيره الذين عبدوا الملائكة وزعموا أنها بنات الله فجمعوا بين الشرك بالله ووصفه بما لا يليق بجلاله ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ أى: هذه قسمة ضيزى وقول جائر من جهة جعلهم الولد لله تعالى ومن جهة جعلهم أردأ القسمين وأخسهما له وهو البنات اللاتى لا يرضونهن لأنفسهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ ومن جهة جعلهم الملائكة بنات الله وحكمهم بذلك، قال تعالى فى بيان كذبهم: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ خلقهم؟ أى: ليس الأمر كذلك فإنهم ما شهدوا خلقهم، فدل على أنهم قالوا هذا القول بلا علم بل افتراء على الله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أى: كذبهم الواضح ﴿لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ «فى قولهم ذلك كذبًا بينًا لا ريب فيه» ﴿أَصْطَفَى﴾ أى: اختار ﴿الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ

= رزقه، وكذا فسر «مغاضبًا» بقوله «مغاضبًا له» (أى لربه) مع أن المعنى: مغاضبًا لقوله أى: غضبان عليهم، مما قاسى منهم، من معاندتهم وعدم استجابتهم لدعوته، ومن أراد الاستقصاء والوقوف على الحقيقة فليرجع إلى كتاب «عصمة الأنبياء» للرازى، وإلى المفسرين كأبى السعود، والنسفى، وابن كثير، يجد ما يؤيد كلامنا وتعقيبنا هذا، وكم كنت أود أن أذكر خلاصة ما قاله المفسرون فى هذه الآية، ولكن وجدت نفسى أمام كلام طويل وروايات شتى، مما لا يتسع المقام هنا لاستيعابه واستقصائه.

(١) قوله فى وقته السابق، أى: قبل وقوعه فى بطن الحوت، لأنه عليه السلام كان كثير الصلاة فى الرخاء، ولا شك أن من أقبل على ربه فى السراء أخذ بيده عند الضراء، وهذا ما يؤيده قول نبينا محمد ﷺ: «تعرف إلى الله فى الرخاء، يعرفك فى الشدة».

(٢) يقطين، أى: القرع كما ذهب إليه الجمهور، وفائدته، أن الذباب لا يجتمع عنده، وأنه أسرع الأشجار نباتًا وامتدادًا، وارتفاعًا، قيل لرسول الله ﷺ: إنك لتحب القرع، قال: «أجل: هى شجرة أخى يونس» اهـ. تفسير النسفى.

تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الجائر ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ وتميزون هذا القول الباطل الجائر، فإنكم لو تذكرتم لم تقولوا هذا القول ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أى: حجة ظاهرة على قولكم من كتاب أو رسول، وكل هذا غير واقع، ولهذا قال: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فإن من يقول قولاً لا يقيم عليه حجة شرعية فإنه كاذب متعمد أو قائل على الله بلا علم.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)﴾

أى: جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجنة نسبًا حيث زعموا أن الملائكة بنات الله وأن أمهاتهم سروات الجن والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدى الله ليجازيهم فهم عباد أذلاء فلو كان بينهم وبينه نسب لم يكونوا كذلك ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ الملك العظيم والكامل الحليم ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ به ربهم من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنه لم ينزه نفسه عما وصفوه به لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله وبذلك كانوا مخلصين.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)﴾

أى: إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحدًا إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم فنفذ فيه القضاء الإلهى، والمقصود من هذا بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد وبيان كمال قدرة الله تعالى، أى: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)﴾

هذا فيه بيان براءة الملائكة عليهم السلام عما قاله فيهم المشركون، وأنهم عباد الله لا يعصونه طرفة عين فما منهم من أحد إلا وله مقام وتدبير قد أمر الله به لا يتعداه ولا يتجاوزه وليس لهم من الأمر شىء ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾[1] فى طاعة الله وخدمته ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أى: والمقدسون لله سبحانه عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه، فكيف ـ مع هذا ـ يصلحون أن يكونوا شركاء؟! ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين يظهرون التمنى ويقولون: لو جاءنا من الذكر والكتب ما جاء الأولين لأخلصنا لله العبادة بل لكنا المخلصين على الحقيقة، وهم كَذَبَةٌ فى ذلك فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به فعلم أنهم متمردون على الحق ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ العذاب حين يقع بهم، ولا يحسبوا أيضًا أنهم فى الدنيا غالبون بل قد سبقت كلمة الله التى لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين أنهم الغالبون لغيرهم المنصورون من ربهم نصرًا عزيزًا يتمكنون فيه من إقامة دينهم، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله بأن كانت أحواله مستقيمة وقاتل من أمر بقتالهم أنه غالب منصور، ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا ولم

---

(١) أى: نصطف فى مواقف الطاعة، ومواطن الخدمة، أو نُصفُّ حول العرش داعين للمؤمنين.

يقبلوا الحق وأنه ما بقى إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب ولهذا قال: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ من يحل به النكال فإنه سيحل بهم ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أى: نزل عليهم وقريبًا منهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال، ثم كرر الأمر بالتولى عنهم وتهديدهم بوقوع العذاب، ولما ذكر فى هذه السورة كثيرًا من أقوالهم الشنيعة التى وصفوه بها نزه نفسه عنها فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ أى: تنزه وتعالى ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أى: الذى عز فقهر كل شىء واعتز عن كل سوء يصفونه به ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ لسلامتهم من الذنوب والآفات وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الألف واللام للاستغراق فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة والأفعال التى ربى بها العالمين وأدر عليهم فيها النعم وصرف عنهم بها النقم ودبرهم تعالى فى حركاتهم وسكونهم وفى جميع أحوالهم كلها لله تعالى، فهو المقدس عن النقص المحمود بكل كمال المحبوب المعظم، ورسله سالمون مسلم عليهم ومن اتبعهم فى ذلك له السلامة فى الدنيا والآخرة وأعداؤه لهم الهلاك والعطب فى الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الصافات والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات



تفسير سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن وحال المكذبين به معه ومع من جاء به فقال: ﴿صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ﴾ أى: ذى القدر العظيم والشرف المُذَكِّر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء الله وأفعاله ومن العلم بأحكام الله الشرعية ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكرٌ لهم فى أصول دينهم وفروعه، وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه فإن حقيقة الأمر أن المقسم به وعليه شىء واحد وهو: هذا القرآن الموصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف علم أن ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقِّيه بالإيمان والتصديق والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه، فهدى الله من هدى لهذا وأبى الكافرون التصديق به وبمن أنزله وصار معهم ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ عزة وامتناع عن الإيمان به واستكبار وشقاق له أى: مشاقة ومخاصمة فى رده وإبطاله وفى القدح بمن جاء به، فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسل وأنهم حين جاءهم الهلاك نادوا واستغاثوا فى صرف العذاب عنهم، ولكن ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أى: وليس الوقت وقت خلاصٍ مما وقعوا فيه ولا فرج لما أصابهم، فَلْيَحْذَرْ هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم فيصيبهم ما أصابهم ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أى: عجب هؤلاء المكذبون فى أمر ليس محل عجب أن جاءهم منذر منهم ليتمكنوا من التلقى عنه وليعرفوه حق المعرفة ولأنه من قومهم فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه، فهذا مما يوجب الشكر عليهم وتمام الانقياد له ولكنهم عكسوا القضية فتعجبوا تعجب إنكار ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ من كفرهم وظلمهم: ﴿هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وذنبه ـ عندهم ـ أنه ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أى: كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذى جاء به ﴿لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ أى: يقضى منه العجب لبطلانه

وفساده عندهم ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ﴾ المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أى: استمروا عليها وجاهدوا نفوسكم فى الصبر عليها وعلى عبادتها ولا يردكم عنها راد ولا يصدنكم عن عبادتها صاد ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذى جاء به محمد من النهى عن عبادتها ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أى: يقصد له قصد ونية غير صالحة فى ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء، فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق لا يرد قوله بالقدح فى نيته فنيته وعمله له وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده من الحجج والبراهين، وهم قصدهم أن محمدًا ما دعاكم إلى ما دعاكم إلا ليرأس فيكم ويكون معظمًا عندكم ومتبوعًا ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ القول الذى قاله والدين الذى دعا إليه ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أى: فى الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آباءنا ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه، فامضوا على الذى مضى عليه آباؤكم فإنه الحق وما هذا الذى دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه وكذب افتراه، وهذه أيضًا شبهة من جنس شبهتهم الأولى حيث ردوا الحق بما ليس بحجة لرد أدنى قول، وهو أنه قول مخالف لما عليه آباؤهم الضالون فأين فى هذا ما يدل على بطلانه؟ ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ أى: ما الذى فضله علينا حتى ينزِّل الذكر عليه من دوننا ويخصه الله به؟ وهذه أيضًا شبهة أين البرهان فيها على رد ما قاله؟ وهل جميع الرسل إلا بهذا الوصف يَمُنُّ الله عليهم برسالته ويأمرهم بدعوة الخلق إلى الله، ولهذا لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم لا يصلح شىء منها لرد ما جاء به الرسول أخبر تعالى من أين صدرت وأنهم ﴿فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ ليس عندهم علم ولا بينة، فلما وقعوا فى الشك وارتضوا به وجاءهم الحق الواضح وكانوا جازمين بإقامتهم على شكهم قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحق لا عن بينة من أمرهم وإنما ذلك من باب الائتفاك منهم، ومن المعلوم أن من هو بهذه الصفة يتكلم عن شك وعناد، فإن قوله غير مقبول ولا قادح أدنى قدح فى الحق وأنه يتوجه عليه الذم واللوم بمجرد كلامه ولهذا توعدهم بالعذاب فقال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أى: قالوا هذه الأقوال وتجرءوا عليها حيث كانوا ممتعين فى الدنيا لم يصبهم من عذاب الله شىء فلو ذاقوا عذابه لم يتجرءوا ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ فيعطون منها من شاءوا ويمنعون منها من شاءوا حيث قالوا: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ أى: هذا فضله تعالى ورحمته وليس ذلك بأيديهم حتى يتجرءوا على الله ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بحيث يكونون قادرين على ما يريدون ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ الموصلة لهم إلى السماء فيقطعوا الرحمة عن رسول الله، فكيف يتكلمون وهم أعجز خلق الله وأضعفهم بما تكلموا به؟! أم قصدهم التحزب والتجند والتعاون على نصر الباطل وخذلان الحق؟ وهو الواقع فإن هذا المقصود لا يتم لهم بل سعيهم خائب وجندهم مهزوم، ولهذا قال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ «أى: كالأجناد من جنس الأحزاب المتحزبين على الأنبياء قبلك وأولئك قد قهروا وأهلكوا فكذلك نهلك هؤلاء».

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥)﴾

يحذرهم تعالى أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم الذين كانوا أعظم قوة منهم وتحزبًا على الباطل ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾ قوم هود ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أى: الجنود العظيمة والقوة الهائلة ﴿وَثَمُودُ﴾ قوم صالح ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أى: الأشجار والبساتين الملتفة وهم قوم شعيب ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ الذين اجتمعوا بقوتهم وعَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ على رد الحق فلم تغن عنهم شيئًا ﴿إِن كُلٌّ﴾ من هؤلاء ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ الله، وهؤلاء ما الذى يطهرهم ويزكيهم أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك، فليتنظروا ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أى: من رجوع ورد تهلكهم وتستأصلهم إن أقاموا على ما هم عليه.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾

أى: قال هؤلاء المكذبون من جهلهم ومعاندتهم الحق مستعجلين للعذاب: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أى:

قسطنا وما قسم لنا من العذاب عاجلاً ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ولَجُّوا في هذا القول وزعموا أنك يا محمد إن كنت صادقًا فعلامة صدقك أن تأتيهم بالعذاب.

﴿ اَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

فقال الله لرسوله: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ كما صبر مَنْ قبلك من الرسل فإن قولهم لا يضر الحق شيئًا ولا يضرونك في شيء وإنما يضرون أنفسهم لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده ويتذكر حال العابدين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ ومن أعظم العابدين نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ﴿ذَا الأَيْدِ﴾ أي: القوة العظيمة على عبادة الله تعالى في بدنه وقلبه ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى الله في جميع الأمور بالإنابة إليه، بالحب والتأله والخوف والرجاء وكثرة التضرع والدعاء، رجَّاع إليه عندما يقع منه بعض الخلل بالإقلاع والتوبة النصوح، ومن شدة إنابته لربه وعبادته أن سخر الله الجبال معه تسبح معه بحمد ربها ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ أول النهار وآخره ﴿وَ﴾ سخر ﴿الطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ معه مجموعة ﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير ﴿لَّهُ﴾ تعالى ﴿أَوَّابٌ﴾ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ فهذه مِنَّةُ الله عليه بالعبادة، ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم فقال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي: قويناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة العَدَد والعُدَد التي بها قوَّى الله ملكه، ثم ذكر منته عليه بالعلم فقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة والعلم العظيم ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ أي: الخصومات بين الناس.

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أنه آتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس وكان معروفًا بذلك مقصودًا ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلها الله فتنة لداود وموعظة لخلل ارتكبه فتاب الله عليه وغفر له وقيض له هذه القضية، فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ فإنه نبأ عجيب ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ على داود ﴿الْمِحْرَابَ﴾ أي: محل عبادته من غير إذن ولا استئذان ولم يدخلوا عليه من باب، فلما دخلوا عليه بهذه الصورة فزع منهم وخاف فقالوا له: نحن ﴿خَصْمَانِ﴾ فلا تخف ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالظلم ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ولا تمل مع أحدنا ﴿وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ والمقصود[1] من هذا أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك كذلك فسيقصان عليه نبأهما بالحق فلم يشمئز نبي الله داود من وعظهما له ولم يؤنبهما، فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾ نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة لاقتضائها عدم البغي وأن بغيه الصادر منه أعظم من غيره ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي:

(١) قوله: «والمقصود» إلى «الصرف» تعبير غير منسجم مع المعنى المراد، ولو قال «والمقصود أن داود عليه السلام قد عرف من حال الخصمين أنهما إنما يقصدان الحق الواضح الصرف» لكان أوضح للقارئ.

زوجة، وذلك خير كثير يوجب عليه القناعة بما آتاه الله ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فطمع فيها ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أى: دعها لى وخلها فى كفالتى ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أى: غلبنى فى القول فلم يزل بى حتى أدركها أو كاد، فقال داود - لما سمع كلامه - ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما أن هذا هو الواقع فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر فلا وجه للاعتراض بقول القائل «لم حكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر»؟ ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ وهذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لأن الظلم من صفة النفوس ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يمنعهم من الظلم ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿وَظَنَّ[1] دَاوُودُ﴾ حين حكم بينهما ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أى: اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتنبه ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ لما صدر منه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أى ساجدًا ﴿وَأَنَابَ﴾ لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ الذى صدر منه، وأكرمه الله بأنواع الكرامات فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أى: منزلة عالية وقربة منا ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى: مرجع، وهذا الذنب الذى صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته وأنه ارتفع محله فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أى: العدل، وهذا لا يتمكن منه إلا بعلم بالواجب وعلم بالواقع وقدرة على تنفيذ الحق ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ فتميل مع أحد لقرابة أو صداقة أو محبة أو بغض للآخر ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويخرجك عن الصراط المستقيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ خصوصًا المتعمدين منهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أى: بغفلتهم عن يوم الجزاء، فلو ذكروه ووقع خوفه فى قلوبهم لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عن تمام حكمته فى خلقه السموات والأرض وأنه لم يخلقهما باطلاً أى: عبثًا ولعبًا من غير فائدة ولا مصلحة ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بربهم حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ فإنها التى تأخذ الحق منهم وتبلغ منهم كل مبلغ، وإنما خلق الله السموات والأرض بالحق وللحق فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه وأنه تعالى وحده المعبود دون من لم يخلق مثقال ذرة من السموات والأرض وأن البعث حق وسيفصل الله بين أهل الخير والشر، ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوى الله بينهما فى حكمه ولهذا قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ فيه خير كثير وعلم غزير فيه كل هدى من ضلالة وشفاء من داء ونور يستضاء به فى الظلمات، وفيه كل حكم يحتاج إليه المكلفون وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ أى: هذه الحكمة من إنزاله ليتدبر الناس آياته فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة تدرك بركته وخيره وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن وأنه من أفضل الأعمال وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التى لا يحصل بها هذا المقصود ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أى: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب.

---

(١) وظنَّ، أى: علم وتيقَّن.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

لما أثنى الله تعالى على داود وذكر ما جرى له ومنه أثنى على ابنه سليمان عليهما السلام فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ أي: أنعمنا به عليه وأقررنا به عينه ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ سليمان عليه السلام فإنه اتصف بما يوجب المدح وهو ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى الله فى جميع أحواله بالتأله والإنابة والمحبة والذكر والدعاء والتضرع والاجتهاد فى مرضاة الله وتقديمها على كل شىء، ولهذا لما عرضت عليه الخيل الجياد الصافنات أى: التى وصفها الصفون وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف وكان لها منظر رائق وجمال معجب وخصوصًا للمحتاج إليها كالملوك فما زالت تُعرض عليه حتى غابت الشمس فى الحجاب فألهته عن صلاة المساء وذكره، فقال ندمًا على ما مضى منه وتقربًا إلى الله بما ألهاه عن ذكره وتقديمًا لحب الله على حب غيره: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ وضمن «أحببت» معنى «آثرت» أى: آثرت حب الخير الذى هو المال عمومًا، وفى هذا الموضع المراد: الخيل ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ «أى: غابت عن عينيه» ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فردوها ﴿فَطَفِقَ﴾ أى: «شرع» فيها ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أى جعل(١) يعقرها بسيفه فى سوقها وأعناقها ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أى: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ أى: شيطانًا قضى الله وقدر أن يجلس على كرسى ملكه ويتصرف فى الملك فى مدة فتنة سليمان ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ سليمان إلى الله تعالى وتاب ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ فاستجاب الله له وغفر له ورد عليه ملكه وزاده ملكًا لم يحصل لأحد من بعده وهو تسخير الشياطين له يبنون ما يريد ويغوصون له فى البحر يستخرجون الدر والحلى ومن عصاه منهم قرنه فى الأصفاد وأوثقه، وقلنا له ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا﴾ فقر به عينًا ﴿فَامْنُنْ﴾ على من شئت ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ من شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: لا حرج عليك فى ذلك ولا حساب لعلمه تعالى بكمال عدله وحسن أحكامه، ولا تحسبن هذا لسليمان فى الدنيا دون الآخرة بل له فى الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله.

فصل

فيما تبين لنا من الفوائد والحكم فى قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه ويذكر من عبادتهم وشدة صبرهم وإنابتهم ما يشوقه إلى منافستهم والتقرب إلى الله الذى تقربوا له والصبر على أذى قومه ولهذا ـ فى هذا الموضع ـ لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به أمره بالصبر وأن يذكر عبده داود فيتأسى به ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة فى طاعته قوة القلب والبدن فإنه يحصل منها من

(١) قوله: «أى جعل... إلخ» كلام فيه ما فيه من المؤاخذات، فإن التاريخ حفظ لنا أحوال الصالحين من هذه الأمة وشدة حرصهم على امتثال الأوامر الإلهية وعدم انحرافهم فى تيار الخواطر الدنيوية حينما تحين أوقات العبادة، فإذا كان هذا شأن الصالحين فما بالك بالأنبياء الذين هم أعلى درجة من الصالحين، ولا شك أن تلك الروايات الملصقة بسليمان لا تليق بعصمة الأنبياء، ثم ما ذنب الخيل حتى تعرقب أرجلها وتقطع أيديها، ولقد فطن لهذا الإمام الرازى ففند هذه المزاعم كلها فى تفسيره وفى كتابه «عصمة الأنبياء» وذكر أن معنى ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أنه لما أجرى السباق وردت إليه الخيل جعل يمسح أعناقها وسوقها متحببًا إليها، لأنها أهم عدة للجهاد.

آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القـوة وأن العبد ينبغى له تعاطى أسبابها وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوة المـضعفة للنفس، ومنهـا: أن الرجوع إلى الله فى جمـيع الأمور من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك، فليقتـد بهما المقتدون وليهتد بهداهم السالكون ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ ومنهــا: ما أكرم الله به نبيه داود عليـه السلام من حسن الصوت العظيم الذى جعل الله بـسببـه الجبـال الصم والطيور البـهم يجاوبنه إذا رجَّع صوتـه بالتسبـيح ويسبـحن معه بـالعشى والإشراق، ومنهـا: أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه الـعلم النافع ويعرف الحكم والفصل بين الناس كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام، ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفـتنته إياهم وابتـلائهم بما به يزول عنهم الـمحذور ويعـودون إلى أكمل مـن حالتهـم الأولى كما جـرى لداود وسليمان عليهما السلام، ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ(١) فيما يبلغون عن الله تعالى لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك وأنه قد يجرى(٢) منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصى ولكن الله يتداركهم ويبادرهم بلطفه، ومنها: أن داود عليه السلام كان فى أغلب أحواله ملازمًا محرابه لخدمة ربه ولهذا تسور الخـصمان عليه المحراب لأنه كـان إذا خلا فى محرابه لا يأتيه أحد فلم يجـعل كل وقته للناس مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام بل جـعل له وقتًا يخلو فيه بربه وتقر عينه بعبـادته وتعينه على الإخلاص فى جميع أموره، ومنهـا: أنه ينبغى استعمال الأدب فى الدخول على الحكام وغيرهم فإن الخصمين ـ لما دخلا على داود فى حالة غير معتادة ومن غير الباب المعـهود فزع منهما واشتد عليه ذلك ورآه غير لائق بالحال، ومنهـا: أنـه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغى، ومنها: كمال حلم داود عليه السلام فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما ولا وبخهما، ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتنى» أو «يا ظالم» أو «باغ علىَّ» ونحو ذلك لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ومنها: أن الموعوظ والمـنصوح ولو كان كبيـر القدر جليل العلم إذا نصحـه أحد أو وعظه لا يغضب ولا يشمـئز بل يبادره بالقبـول والشكر، فإن الخصـمين نصحا داود فلم يشـمئز ولم يغـضب ولم يثنه ذلك عن الحق بل حكم بالحق الصـرف، ومنهـا: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب وكثرة التعلقـات الدنيوية المالية موجبة للتعادى بينهم، وبغى بعـضهم على بعض وأنه لا يرد عن ذلك إلا اسـتعـمال تقـوى الله والصبر علـى الأمور بالإيمان والـعمل الصالح وأن هذا من أقل شىء فى الناس، ومنهـا: أن الاستغفار والعبادة خـصوصًا الصلاة مكفرات للذنوب فإن الله رتب مغفـرة ذنب داود على استغفاره وسجـوده، ومنها: إكرام الله لعبديه داود وسليمـان بالقرب منه وحسن الثواب وأن لا يظن أن ما جرى لهما منقص لدرجتهمـا عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم أزال الآثار المترتبة عليه كلهـا حتى ما يقع فى قلوب الخلق فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم وقع فى قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى فأزال الله تعالى هذه الآثار وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار، ومنهـــا: أن الحكم بين الناس مرتبة ديـنية تولاها رسل الله وخواص خلقه وأن وظيفة الـقائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضى العلم بالأمور الشرعية والعلم بصورة القضية المحكوم بها وكيفية إدخالها فى الحكم الشرعى، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم ولا يحل له الإقدام عليه، ومنها: أنه ينبغى للحاكم أن يحذر الهوى ويجعله منه على بال فإن النفوس لا تخلو منه بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده وأن يلقى عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين، ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود ومن منن

---

(١) قوله: «معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى».

أقول: ومعصومون أيضًا من كبائر الذنوب وصغائرها كما انعقد الإجماع على ذلك، إلا فى المسائل الاجتهادية، فيجوز عليهم الخطأ ولكن لا يقرون عليه، بل ينزل الوحى فورًا، ويردهم الله إلى الصواب، كما حصل للنبى فى أسرى «بدر».

(٢) قوله: «وأنه قد يجرى منهم بعض مقـتضيات الطبيعة من المعاصى... إلخ» غـير صحيح لأن الأنبياء معصومـون بعد النبوة من كافة الذنوب صغائرها وكبائرها كما أجمع على ذلك علماء التوحيد.

الله عليه حيث وهبه له وأن من أكبر نعم الله على عبده أن يهب له ولدًا صالحًا، فإن كان عالمًا كان نورًا على نور، **ومنها:** ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه فى قوله ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ **ومنها:** كثرة خير الله وبره بعبيده أن يمن عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق ثم يثنى عليهم بها وهو المتفضل الوهاب، **ومنها:** تقديم سليمان محبة الله تعالى على محبة كل شيء، **ومنها:** أن كل ما شغل العبد عن الله فإنه مشئوم مذموم فَلْيُفَارِقْ وليُقْبِلْ على ما هو أنفع له، **ومنها:** القاعدة المشهورة «من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه» فسليمان عليه السلام عقر الجياد[١] الصافنات المحبوبة للنفوس تقديمًا لمحبة الله فعوضه الله خيرًا من ذلك بأن سخر له الريح الرخاء اللينة التى تجرى بأمره إلى حيث أراد وقصد غدوها شهر ورواحها شهر وسخر له الشياطين أهل الاقتدار على الأعمال التى لا يقدر عليها الآدميون، **ومنها:** أن سليمان عليه السلام كان ملكًا نبيًا يفعل ما أراد ولكنه لا يريد إلا العدل بخلاف النبى العبد فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر كحال نبينا محمد ﷺ وهذه الحال أكمل.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

أى: ﴿**وَاذْكُرْ**﴾ فى هذا الكتاب ﴿**عَبْدَنَا أَيُّوبَ**﴾ بأحسن الذكر وأثن عليه بأحسن الثناء حين أصابه الضر فصبر على ضره فلم يشتك لغير ربه ولا لجأ إلا إليه ﴿**إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ**﴾ داعيًا شاكيًا إليه لا إلى غيره فقال: رب ﴿**أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ**﴾ أى بأمر مشق متعب معذب، وكان سُلط على جسده فنفخ فيه حتى تقرح ثم تقيح[٢] بعد ذلك، واشتد به الأمر وكذلك هلك أهله وماله، فقيل: ﴿**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ**﴾ أى: اضرب الأرض بها لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب فيذهب عنك الضر والأذى، ففعل ذلك فذهب عنه الضر وشفاه الله تعالى ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ**﴾ قيل: إن الله تعالى أحياهم له ﴿**وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ**﴾ فى الدنيا، وأغناه الله وأعطاه مالاً عظيمًا ﴿**رَحْمَةً مِّنَّا**﴾ بعبدنا أيوب حيث صبر فأثبناه من رحمتنا ثوابًا عاجلاً وآجلاً ﴿**وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ أى: وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا فيعلموا أن من صبر على الضر فإن الله تعالى يثيبه ثوابًا عاجلاً وآجلاً ويستجيب دعاءه إذا دعاه ﴿**وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا**﴾ أى حزمة شماريخ ﴿**فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ**﴾ قال المفسرون: وكان فى مرضه وضره قد غضب على زوجته فى بعض الأمور فحلف: لئن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله وكانت امرأته صالحة محسنة إليه رحمها الله ورحمه فأفتاه أن يضربها بضغث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة فيبر فى يمينه ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ**﴾ أى: أيوب ﴿**صَابِرًا**﴾ أى: ابتليناه بالضر العظيم فصبر لوجه الله تعالى ﴿**نِّعْمَ الْعَبْدُ**﴾ الذى كمل مراتب العبودية فى حال السراء الضراء والشدة والرخاء ﴿**إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ أى: كثير الرجوع إلى الله فى مطالبه الدينية والدنيوية كثير الذكر لربه والدعاء والمحبة والتأله.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا**﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة ذكرًا حسنًا ﴿**إِبْرَاهِيمَ**﴾ الخليل ﴿**وَ**﴾ ابنه

---

(١) «عقر الجياد... إلخ» هذا إنما يتمشى على الراوية غير الصحيحة كما قدمنا.

(٢) قوله: «حتى تقرح وتقيح» كلام غير صحيح، إن الأنبياء معصومون من الأمراض المنفرة بإجماع علماء التوحيد.

وما نسب إلى أيوب من تلك الأمراض المنفرة إنما سرت إلى بعض المفسرين الذين تجردوا من التحقيق العلمى، من الأخبار الإسرائيلية، وقد سبق تفنيدنا لهذا الكلام بما يكفى.

﴿إِسْحَاقَ وَ﴾ ابنه ﴿يَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي﴾ أي: القوة على عبادة الله تعالى ﴿وَالأَبْصَارِ﴾ أي: البصيرة في دين الله، فوصفهم بالعلم النافع والعمل الصالح الكثير ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ﴾ عظيمة وخصيصة جسيمة وهي: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم والعمل لها صفوة وقتهم والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم وجعلناهم ذكرى الدار يتذكر بأحوالهم المتذكر ويعتبر بهم المعتبر ويذكرون بأحسن الذكر ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه ﴿الأَخْيَارِ﴾ الذين لهم خلق كريم وعمل مستقيم.

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

أي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلا منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق واختار لهم أكمل الأحوال من الأعمال والأخلاق والصفات الحميدة والخصال السديدة.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أي ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكر أوصافهم ذكر في هذا القرآن ذي الذكر يتذكر بأحوالهم المتذكرون ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون ويعرف ما منّ الله عليهم به من الأوصاف الزكية وما نشر لهم من الثناء بين البرية، فهذا نوع من أنواع الذكر وهو ذكر أهل الخير ومن أنواع الذكر ذكر جزاء أهل الخير وأهل الشر ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ربهم بامتثال الأوامر واجتناب النواهي من كل مؤمن ومؤمنة ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: لمآبًا حسنًا ومرجعًا مستحسنًا ثم فسره وفصله فقال: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة لا يبغي صاحبها بدلاً منها من كمالها وتمام نعيمها وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ﴾ أي: مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومساكنها لا يحتاجون أن يفتحوها بل هم مخدومون، وهذا دليل أيضًا على الأمان التام وأنه ليس في جنات عدن ما يوجب أن يغلق لأجله أبوابها ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ على الأرائك المزينات والمجالس المزخرفات ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي: يأمرون خدامهم أن يأتوا ﴿بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ من كل ما تشتهيه نفوسهم وتلذه أعينهم وهذا يدل على كمال النعيم وكمال الراحة والطمأنينة وتمام اللذة ﴿وَعِندَهُمْ﴾ من أزواجهم الحور العين ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ على أزواجهن وطرف أزواجهن عليهن لجمالهم كلهم ومحبة كل منهما للآخر وعدم طموحه لغيره وأنه لا يبغي بصاحبه بدلاً وعنه عوضًا ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي: على سن واحد أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المتقون ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ جزاء على أعمالكم الصالحة ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا﴾ الذي أوردناه على أهل النعيم ﴿مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع الأوقات متزايد في جميع الآنات وليس هذا بعظيم على الرب الكريم الرءوف الرحيم البر الجواد الواسع الغني الحميد اللطيف الرحمن الملك الديان الجليل الجميل المنان ذي الفضل الباهر والكرم المتواتر الذي لا تحصى نعمه ولا يحاط ببعض بره.

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

---

(١) قوله: «وانتهى قرها» أي: بردها بلغ النهاية في الشدة.

﴿هَـذَا﴾ الجزاء للمتقين ما وصفناه ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ أى: للمتجاوزين للحد فى الكفر والمعاصى ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أى: لشر مرجع ومنقلب ثم فصله فقال: ﴿جَهَنَّمَ﴾ التى جمع فيها كل عذاب واشتد حرها وانتهى قرها ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أى: يعذبون فيها عذابًا يحيط بهم من كل وجه لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ المعد لهم مسكنًا ومستقرًا ﴿هَـذَا﴾ المهاد وهذا العذاب الشديد والخزى والفضيحة والنكال ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ ماء حار قد اشتد حره يشربونه فَتَقَطَّع أمعاؤهم ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب من قيح وصديد مر المذاق كريه الرائحة ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ﴾ أى: من نوعه ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أى: عدة أصناف من أصناف العذاب يعذبون بها ويخزون، بها عند تواردهم على النار يشتم بعضهم بعضًا ويقول بعضهم لبعض: ﴿هَـذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ النار ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا﴾ أى: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أى: العذاب ﴿لَنَا﴾ بدعوتكم لنا وفتنتكم وإضلالكم وتسببكم ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ قرار الجميع قرار السوء والشر، ثم دعوا على المغوين لهم، و ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ وقال فى الآية الأخرى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ وهم فى النار: ﴿مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ﴾ أى: كنا نزعم أنهم من الأشرار المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تفقدهم أهل النار، قبحهم الله هل يرونهم فى النار؟ ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ أى: عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين: إما أننا غالطون فى عدِّنا إياهم من الأشرار بل هم من الأخيار وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ والأمر الثانى: أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا فى العذاب، وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا، فيحتمل أن هذا الذى فى قلوبهم فتكون العقائد التى اعتقدوها فى الدنيا وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار تمكنت من قلوبهم وصارت صبغة لها فدخلوا النار وهم بهذه الحالة فقالوا ما قالوا، ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه كما موهوا فى الدنيا موهوا حتى فى النار، ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أَهَـؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ قال تعالى مؤكدًا ما أخبر به وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذى ذكرت لكم ﴿لَحَقٌّ﴾ ما فيه شك ولا مرية ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أى: «هو تخاصم ونزاع أهل النار بعضهم مع بعض».

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾

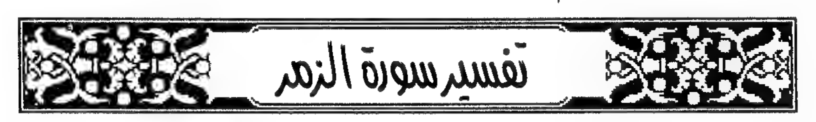
﴿قُلْ﴾ يأيها الرسول لهؤلاء المكذبين إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ هذا نهاية ما عندى وأما الأمر فلله تعالى ولكنى آمركم وأنهاكم وأحثكم على الخير وأزجركم عن الشر ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أى: ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله ﴿الْوَاحِدُ

﴿الْقَهَّارُ﴾ هذا تقرير لألوهيته بهذا البرهان القاطع وهو وحدانيته تعالى وقهره لكل شيء، فإن القهر ملازم للوحدة فلا يكون اثنان قهاران متساويين فى قهرهما أبدًا، فالذى يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذى لا نظير له وهو الذى يستحق أن يُعبد وحده كما كان قاهرًا وحده، وقرر ذلك بتوحيد الربوبية فقال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: خالقهما ومربيهما ومدبرهما بجميع أنواع التدابير ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذى له القوة التى بها خلق المخلوقات العظيمة ﴿الْغَفَّارُ﴾ لجميع الذنوب صغيرها وكبيرها لمن تاب إليه وأقلع منها، فهذا الذى يجب ويستحق أن يعبد دون من لا يخلق ولا يرزق ولا يضر ولا ينفع ولا يملك من الأمر شيئًا وليس له قوة الاقتدار ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار ﴿قُلْ﴾ لهم محذرًا ومخوفًا ومنهضًا لهم ومنذرًا: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أى: ما أنبأتكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال خبر عظيم ينبغى الاهتمام الشديد بشأنه ولا ينبغى إغفاله ولكن ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب، فإن شككتم فى قولى وامتريتم فى خبري فإنى أخبركم بأخبار لا علم لى بها ولا درستها فى كتاب، فإخبارى بها على وجهها من غير زيادة ولا نقص أكبر شاهد لصدقى وأدل دليل على حقيقة ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ﴾ أى: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ لولا تعليم الله إياى وإيحاؤه إلىَّ، ولهذا قال: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر النذارة جليها فلا نذير أبلغ من نذارته ﷺ، ثم ذكر اختصام الملأ الأعلى فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾ على وجه الإخبار: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ أى: مادته من طين ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أى: سويت جسمه وتم ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فوطَّن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه امتثالاً لربهم وإكرامًا لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه فى بدنه وروحه وامتحن الله آدم والملائكة فى العلم وظهر فضله عليهم وأمرهم الله بالسجود ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ عن أمر ربه واستكبر على آدم ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فى علم الله تعالى ﴿قَالَ﴾ الله موبخًا ومعاتبًا: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أى: شرفته وكرمته واختصصته بهذه الخصيصة التى اختص بها عن سائر الخلق وذلك يقتضى عدم التكبر عليه ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ فى امتناعك ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ «أى ممن علوت على العالمين» ﴿قَالَ﴾ إبليس معارضًا لربه ومناقضًا: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد، فإن عنصر النار مادة الشر والفساد والعلو والطيش والخفة، وعنصر الطين مادة الرزانة والتواضع وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها والطين قائم بنفسه، فهذا قياس شيخ القوم الذى عارض به الأمر الشفاهى من الله قد تبين غاية بطلانه وفساده، فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟ فإنها كلها أعظم بطلانًا من هذا القياس ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أى: من السماء والمحل الكريم ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أى: مبعد مدحور ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أى: طردى وإبعادى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ دائمًا أبدًا ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته ليتمكن من إغواء من قدَّر الله أن يغويه ﴿قَالَ﴾ الله مجيبًا لدعوته حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ حين تستكمل الذرية يتم الامتحان، فلما علم أنه مُنْظَر بادى ربه من خبثه بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ «أى بعظمتك وجلالك» يحتمل أن الباء للقسم وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ «أى: هم الذين أخلصهم الله لطاعته وعصمهم من الغواية لكمال إيمانهم وبذلهم أقصى ما فى وسعهم فى طاعة ربهم»(١) علم «إبليس» أن الله سيحفظهم من كيده، ويحتمل أن الباء للاستعانة وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه وأنه لا يضل أحدًا إلا بمشيئة الله تعالى استعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم، هذا وهو عدو الله حقًا، ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون المقرون لك بكل نعمة ذرية من شرفته وكرمته فنستعين بعزتك العظيمة وقدرتك ورحمتك الواسعة لكل مخلوق ورحمتك التى أوصلت إلينا بها ما عنا صرفت من النقم أن تعيننا على محاربته وعداوته والسلامة

(١) ما بين القوسين من زيادتنا، لأن المقام يقتضى ذلك حتى يكون معنى «المخلصين» واضحًا للقارئ.

من شره وشركه ونحسن الظن بك أن تجيب دعاءنا ونؤمن بوعدك الذى قلت لنا: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ فقد دعوناك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا ﴿**إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾ ﴿**قَالَ**﴾ الله تعالى ﴿**فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ**﴾ أى: الحق وصفى والحق قولى ﴿**لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ «من ذرية آدم» ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ**﴾ أى: على دعائى إياكم ﴿**مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾[(١)] أدعى أمرًا ليس لى وأقفو ما ليس لى به علم لا أتبع إلا ما يوحى إلى ﴿**إِنْ هُوَ**﴾ أى: ما هذا الوحى والقرآن ﴿**إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم فيكون شرفًا ورفعة للعالمين به وإقامة حجة على المعاندين فهذه السورة العظيمة مشتملة على الذكر الحكيم والنبأ العظيم وإقامة الحجج والبراهين على من كذب بالقرآن وعارضه وكذب من جاء به والإخبار عن عباد الله المخلصين وجزاء المتقين والطاغين، فلهذا أقسم فى أولها بأنه ذو الذكر ووصفه فى آخرها بأنه ذكر للعالمين وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك كقوله ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا**﴾ ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا**﴾ ﴿**رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ**﴾ ﴿**هَذَا ذِكْرٌ**﴾ اللهم علمنا منه ما جهلنا وذكرنا منه ما نسينا نسيان غفلة ونسيان ترك ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ**﴾ أى: خبره ﴿**بَعْدَ حِينٍ**﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب وتنقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمنه وعونه تعالى



تفسير سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾

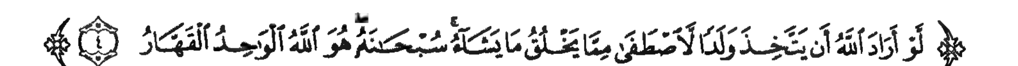
يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالة من تكلم به ونزل منه وأنه نزل من الله العزيز الحكيم، أى الذى وصفه الألوهية للخلق وذلك لعظمته وكماله والعزة التى قهر بها كل مخلوق وذل له كل شىء والحكمة فى خلقه وأمره فالقرآن نازل ممن هذا وصفه والكلام وصف للمتكلم والوصف يتبع الموصوف فكما أن الله تعالى هو الكامل من كل وجه الذى لا مثيل له فكذلك كلامه كامل من كل وجه لا مثيل له فهذا وحده كاف فى وصف القرآن دال على مرتبته، ولكنه ـ مع هذا ـ زاد بيانًا لكماله بمن نزل عليه وهو محمد ﷺ الذى هو أشرف الخلق فعلم أنه أشرف الكتب وبما نزل به وهو الحق، فنزل بالحق الذى لا مرية فيه لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور ونزل مشتملاً على الحق فى أخباره الصادقة وأحكامه العادلة، فكل ما دل عليه فهو أعظم أنواع الحق من جميع المطالب العلمية وما بعد الحق إلا الضلال، ولما كان نازلاً من الحق مشتملاً على الحق لهداية الخلق على أشرف الخلق عظمت فيه النعمة وجلّت ووجب القيام بشكرها وذلك بإخلاص الدين لله فلهذا قال: ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ**﴾ أى: أخلص لله تعالى جميع دينك من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان ـ بأن تفرد الله وحده بها وتقصد بها وجهه لا غير ذلك من المقاصد ﴿**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله وله التفضل على عباده من جميع الوجوه فكذلك له

---

(١) من المتكلفين، أى: المتصنعين بما ليسوا من أهله حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن. اهـ. أبو السعود.

وقال النسفى: ﴿**وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾ أى: لست من الذين يتصنعون، ويتحلّون بما ليسوا من أهله، وما عرفتمونى قط متصنعًا ولا مدعيًا بما ليس عندى حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم» اهـ. بتصرف يسير.

الدين الخالص والصافى من جميع الشوائب، فهو الدين الذى ارتضاه لنفسه وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به لأنه متضمن للتأله لله فى حبه وخوفه ورجائه والإنابة إليه فى تحصيل مطالب عباده، وذلك الذى يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها دون الشرك به فى شىء من العبادة، فإن الله برىء منه وليس لله فيه شىء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، فهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة مُشْقٍ للنفوس غاية الشقاء فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص، نهى عن الشرك به وأخبر بذم من أشرك به فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم معتذرين عن أنفسهم وقائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أى: لترفع حوائجنا لله وتشفع لنا عنده وإلا فنحن نعلم أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تملك من الأمر شيئًا أى: فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص وتجرءوا على أعظم المحرمات وهو الشرك وقاسوا الذى ليس كمثله شىء الملك العظيم بالملوك وزعموا ـ بعقولهم الفاسدة ورأيهم السقيم أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم ويستعطفونهم عليهم ويمهدون لهم الأمر فى ذلك ـ أن الله تعالى كذلك، وهذا القياس من أفسد الأقيسة وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق مع ثبوت الفرق العظيم عقلاً ونقلاً وفطرة فإن الملوك إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم لأنهم لا يعلمون أحوالهم فيحتاجون إلى من يعلمهم بأحوالهم وربما لا يكون فى قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة فيحتاج من يعطفه عليهم ويسترحمه لهم ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء ويخافون منهم فيقضون حوائج من توسطوا لهم مراعاة لهم ومداراة لخواطرهم وهم أيضًا فقراء قد يمنعون لما يخشون من الفقر، وأما الرب تعالى فهو الذى أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها الذى لا يحتاج إلى من يخبره بأحوال رعيته وعباده وهو تعالى أرحم الراحمين وأجود الأجودين لا يحتاج إلى أحد من خلقه يجعله راحمًا لعباده بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم وهو الذى يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب التى ينالون بها رحمته وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم وهو الغنى الذى له الغنى التام المطلق الذى لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم فى صعيد واحد فسألوه فأعطى كلا منهم ما سأل وتمنى لم ينقصوا من غناه شيئًا ولم ينقصوا مما عنده إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط[1]، وجميع الشفعاء يخافونه فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه وله الشفاعة كلها، فبهذه الفروق يعلم جهل المشركين به وسفههم العظيم وشدة جراءتهم عليه ويعلم أيضًا الحكمة فى كون الشرك لا يغفره الله تعالى لأنه يتضمن القدح فى الله تعالى، ولهذا قال حاكمًا بين الفريقين المخلصين والمشركين وفى ضمنه التهديد للمشركين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وقد علم أن من حكمة الله أن المؤمنين المخلصين فى جنات النعيم وأن من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ أى: لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أى: وصفه الكذب أو الكفر بحيث تأتيه المواعظ والآيات ولا يزول عنه ما اتصف به، ويريه الله الآيات فيجحدها ويكفر بها ويكذب فهذا أنَّى له الهدى وقد سد على نفسه الباب وعوقب بأن طبع الله على قلبه فهو لا يؤمن؟.


﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

أى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعم ذلك من زعمه من سفهاء الخلق ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: لاصطفى من مخلوقاته الذى يشاء اصطفاءه واختصه لنفسه وجعله بمنزلة الولد ولم يكن له حاجة إلى اتخاذ الصاحبة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى: تنزه عما ظن به الكافرون أو نسبه إليه الملحدون ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى: الواحد فى ذاته وفى أسمائه وفى صفاته وفى أفعاله فلا شبيه له فى شىء من ذلك ولا مماثل، فلو كان له ولد لاقتضى أن يكون شبيهًا له فى وحدته لأنه بعضه وجزء منه، القهار لجميع العالم العلوى والسفلى فلو كان له ولد لم يكن مقهورًا ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه، ووحدته تعالى وقهره متلازمان فالواحد لا يكون إلا قهارًا والقهار لا يكون إلا واحدًا وذلك ينفى الشركة له من كل وجه.

---

(١) المخيط، أى: الإبرة.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ أى: بالحكمة والمصلحة وليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾ أى: يدخل كلا منهما على الآخر ويحل محله فلا يجتمع هذا وهذا بل إذا أتى أحدهما انعزل الآخر عن سلطانه ﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾ بتسخير منظم وسير مقنن ﴿**كُلٌّ**﴾ من الشمس والقمر ﴿**يَجْرِي**﴾ متأثرًا عن تسخيره تعالى ﴿**لأَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ وهو انقضاء هذه الدار وخرابها فيخرب الله آلاتها وشمسها وقمرها وينشئ الخلق نشأة جديدة ليستقروا فى دار القرار الجنة أو النار ﴿**أَلا هُوَ الْعَزِيزُ**﴾ الذى لا يغالب، القاهر لكل شيء الذى لا يستعصى عليه شيء الذى من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة وسخرها تجرى بأمره ﴿**الْغَفَّارُ**﴾ لذنوب عباده التوابين المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ الغفار لمن أشرك به بعدما رأى من آياته العظيمة ثم تاب وأناب، ومن عزته أن ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ على كثرتكم وانتشاركم فى أنحاء الأرض ﴿**ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه وتتم بذلك النعمة ﴿**وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ**﴾ أى: خلقها بقدر نازل منه رحمة بكم ﴿**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾ وهى التى ذكرها فى سورة الأنعام ﴿**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ**﴾ ﴿**وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ**﴾ وخصها بالذكر مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها لكثرة نفعها وعموم مصالحها ولشرفها ولاختصاصها بأشياء لا يصلح لها غيرها كالأضحية والهدى والعقيقة ووجوب الزكاة فيها واختصاصها بالدية، ولما ذكر خلق أبينا وأمنا ذكر ابتداء خلقنا فقال: ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ**﴾ أى: طورًا بعد طور، وأنتم فى حال لا يد مخلوق تمسكم ولا عين تنظر إليكم وهو قد رباكم فى ذلك المكان الضيق ﴿**فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ**﴾ ظلمة البطن ثم ظلمة الرحم ثم ظلمة المشيمة ﴿**ذَلِكُمُ**﴾ الذى خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم ﴿**اللَّهُ رَبُّكُمْ**﴾ أى: المألوه المعبود الذى رباكم ودبركم، فكما أنه الواحد فى خلقه وتربيته لا شريك له فى ذلك فهو الواحد فى ألوهيته لا شريك له ولهذا قال: ﴿**لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**﴾ بعد هذا البيان أتبعه ببيان استحقاقه تعالى لإخلاص العبادة له دون عبادة الأوثان التى لا تدبر شيئًا وليس لها من الأمر شيء فقال: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ**﴾ لا يضره كفركم كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم ﴿**وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾ لكمال إحسانه بهم وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها ولأنه خلقهم لعبادته فهى الغاية التى خلق لها الخلق فلا يرضى أن يدعوا ما خلقهم لأجله ﴿**وَإِن تَشْكُرُوا**﴾ الله تعالى بتوحيده وإخلاص الدين له ﴿**يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ لرحمته بكم ومحبته للإحسان عليكم ولفعلكم ما خلقكم لأجله، وكما أنه لا يتضرر بشرككم ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم كذلك كل واحد منكم له عمله من خير وشر ﴿**وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ**﴾ فى يوم القيامة ﴿**فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ إخبارًا أحاط به علمه وجرى عليه قلمه وكتبته عليكم الحفظة الكرام وشهدت به عليكم الجوارح فيجازى كلا منكم بما يستحقه ﴿**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ أى: بنفس الصدور وما فيها من وصف برٍّ أو فجور، والمقصود من هذا الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره وقلة شكر عبده وأنه حين يمسه الضر من مرض أو فقر أو وقوع فى كربة بَحْرٍ أو غيره أنه يعلم أنه لا ينجيه فى هذا الحال إلا الله فيدعوه متضرعًا منيبًا[١]، ويستغيث به فى كشف ما نزل به ويلح فى ذلك ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾[٢] الله ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ بأن كشف ما به من الضر والكربة ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أى: نسى ذلك الضر الذى دعا الله لأجله ومر كأنه ما أصابه ضر واستمر على شركه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أى: ليضل بنفسه ويضل غيره، لأن الإضلال فرع عن الضلال فأتى بالملزوم ليدل على اللازم ﴿قُلْ﴾ لهذا العاتى الذى بدل نعمة الله كفرًا: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فلا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المآل النار ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾

هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره وبين العالم والجاهل وأن هذا من الأمور التى تقرر فى العقول تباينها وعلم علمًا يقينًا تفاوتها فليس المعرض عن طاعة ربه المتبع لهواه كمن هو قانت أى: مطيع لله بأفضل العبادات وهى الصلاة وأفضل الأوقات وهى أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله ثم وصفه بالخوف والرجاء وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة على ما سلف من الذنوب وأن متعلق الرجاء رحمة الله فوصفه بالعمل الظاهر والباطن ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعى ودينه الجزائى وما له فى ذلك من الأسرار والحكم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئًا من ذلك؟ لا يستوى هؤلاء ولا هؤلاء كما لا يستوى الليل والنهار والضياء والظلام والماء والنار ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ إذا ذكروا ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أى: أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى فيؤثرون العلم على الجهل وطاعة الله على مخالفته لأن لهم عقولاً ترشدهم للنظر فى العواقب بخلاف من لا لب له ولا عقل فإنه يتخذ إلهه هواه.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾

أى: قل مناديًا لأشرف الخلق وهم المؤمنون أمرًا لهم بأفضل الأوامر وهى: التقوى ذاكرًا لهم السبب الموجب للتقوى وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم المقتضى ذلك منهم أن يتقوه ومن ذلك ما منَّ الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى، كما تقول: أيها الكريم تصدق وأيها الشجاع قاتل، وذكر لهم الثواب المنشط فى الدنيا فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ بعبادة ربهم ﴿حَسَنَةٌ﴾ ولهم رزق واسع ونفس مطمئنة وقلب منشرح كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ إذا منعتم من عبادته فى أرض فهاجروا إلى غيرها تعبدون فيها ربكم وتتمكنون من إقامة دينكم، ولما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ كان لبعض النفوس مجال فى هذا الموضع وهو أن النص عام أنه كل من أحسن فله

---

(١) منيبًا، أى: راجعًا إلى الله بالدعاء ولا يدعو غيره. اهـ. نسفي، وقال أبو السعود: راجعًا إليه مما كان يدعوه فى حاله الرخاء، لعلمه بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره: اهـ.

(٢) خوَّله، أى: أعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى، من التخول وهو التعهد، أى: جعله خائل مال، من قولهم «فلان خائل مال» إذا كان متعهدًا له، حسن القيام به، أو من «الخول» وهو الافتخار، أى: جعله يخول، أى: يختال ويفتخر. اهـ. أبو السعود.

فى الدنيا حسنة فما بال من آمن فى أرض يضطهد فيها ويمتهن لا يحصل له ذلك؟ فدفع هذا الظن بقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ وهنا بشارة نص عليها النبى ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك» تشير إليه هذه الآية وترمى إليه من قريب وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة فمهما مُنعتم من عبادته فى موضع فهاجروا إلى غيرها وهذا عام فى كل زمان ومكان فلا بد أن يكون لكل مهاجر ملجأ من المسلمين يلجأ إليه وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر: الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب أى: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله وأنه معين على كل الأمور.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

أى: ﴿قُلْ﴾ يأيها الرسول للناس: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ فى قوله فى أول السورة ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأنى الداعى الهادى للخلق إلى ربهم فيقتضى أنى أول من ائتمر بما أمر به وأول من أسلم وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ وممن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام فى الأعمال الظاهرة والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فيما أمرني به من الإخلاص والإسلام ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يخلد فيه من أشرك ويعاقب فيه من عصى ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ كما قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ حقيقة هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ حيث حرموها الثواب واستحقت بسببهم وخيم العقاب ﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: فرّق بينهم وبينهم واشتد عليهم الحزن وعظم الخسران ﴿أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الذى ليس مثله خسران وهو خسران مستمر لا ربح بعده بل ولا سلامة، ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ﴾ أى: قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ﴾ الوصف الذى وصفنا به عذاب أهل النار سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أى: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داعيًا يدعو عباده إلى التقوى وزجرًا عما يوجب العذاب فسبحان من رحم عباده فى كل شىء وسهل لهم الطرق الموصلة لله وحثهم على سلوكها ورغبهم بكل مرغب تشتاق له النفوس وتطمئن له القلوب وحذرهم من العمل لغير ذلك غاية التحذير وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

ذكر تعالى هنا حال المنيبين وثوابهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ والمراد بالطاغوت فى هذا الموضع عبادة غير الله فاجتنبوها في عبادتها، وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها فى عبادتها ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له فانصرفت دواعيهم عن عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام ومن الشرك والمعاصى إلى التوحيد والطاعات ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ التى لا يقادر

قدرها ولا يعلم وصفها إلا من أكـرمهم بها وهذا شامل للبشرى فى الحياة الدنيـا بالثناء الحسن والرؤيا الصالحة والعناية الربانية من الله التى يرون فى خلالها أنه مريد لإكرامهم فى الدنيا والآخرة، ولهم البشرى فى الآخرة عند الموت وفى القبر وفى القيامة، وخاتمة البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه فى الجنة، ولمـا أخبر أن لهم البشـرى أمره الله ببشـارتهم وذكر الوصف الذى استحـقوا به البشارة فـقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ وهذا جنس يشمل كل قـول فهم يستمعـون جنس القول ليميزوا بين مـا ينبغى إيثاره مما ينبغى اجتنابه فلـهذا كان من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعـون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال فى هذه السورة: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ الآية، وفى هذه الآية نكتة وهى: أنه لما أخبر عن هؤلاء المـمدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعـون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحـسنه حتى نتصف بصفات أولى الألباب وحتى نعـرف أن من آثره فهو من أولى الألباب؟ قيل: نعم أحسنه ما نص الله عليه بقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ الآية، أولئك ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أى العقول الزاكية، ومن لبهم وحزمهم أنهم عرفوا الحسن وغيره وآثروا ما ينبغى إيثاره على ما سواه، وهذا علامة العقل بل لا علامة للعقل سوى ذلك فإن الذى لا يميز بين الأقوال حسنها وقبيحها ليس من أهل العقول الصحيحة أو الذى يميز لكن لما غلبت شهوته على عقله فبقى عقله تابعًا لشهوته فلم يؤثر الأحسن كان ناقص العقل.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

أى: أفمن وجبت عليـه كلمة العذاب باستمـراره على غيه وعناده وكفره، فـإنه لا حيلة لك فى هدايته ولا تقدر أن تنقـذ من فى النار لا محـالة، لكن الغنى والفوز كل الفـوز للمتـقين الذين أعد لهم مـن الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقادر قدره ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ أى: منازل عالية مزخرفة من حسنها وبهائها وصفائها أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها أنها ترى كما يرى الكواكب الغابر فى الأفق الشرقى أو الغربى ولهذا قال: ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ أى: بعضها فوق بعض ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ بذهب وفضة وملاطها المسك الأذفر ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المتدفقة التى تسقى البساتين الزاهرة والأشجـار الطاهرة، فتغل أنواع الثمار اللذيذة والفاكهة النضيـجة ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب فـلا بد من الوفاء به فليوفوا بخصال التقوى ليوفيهم أجورهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

يذكر تعالى أولى الألباب مـا أنزله من السماء من الماء وأنه سلكه ينابيع فى الأرض أى: أودعه فيـها ينبوعًا يستخرج بسهولة ويسر ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ من بر وذرة وشعير وأرز وغير ذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ عند استكماله أو عند حـدوث آفة فيه ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ متكسـرًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يذكرون بها عناية ربهم ورحمته بعباده حيث يسر لهـم هذا الماء وخزنه بخزائن الأرض تبعًا لمصالحهم ويذكرون به كمال قدرته وأنه يحيى الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة، اللهم اجعلنا من أولى الألباب الذين نوهت بذكـرهم وهديتهم بما أعطيتهم من العقول وأريتـهم من أسرار كتابك وبديع آياتك ما لم يصل إليه غيرهم إنك أنت الوهاب.

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

أى: أفيستوى من شرح الله صدره للإسلام فاتسع لتلقى أحكام الله والعمل بها منشرحًا قرير العين على بصيرة من أمره وهو المراد بقوله ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ كمن ليس كذلك بدليل قوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: لا تلين لكتابه ولا تتذكر آياته ولا تطمئن بذكره بل هى معرضة عن ربها ملتفتة إلى غيره فهؤلاء لهم الويل الشديد والشر الكبير ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وأى ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه؟ ومن كل السعادة فى الإقبال عليه وقسا قلبه عن ذكره وأقبل على كل ما يضره؟.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾

يخبر تعالى عن كتابه الذى نزله أنه ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ على الإطلاق، فأحسن الحديث كلام الله وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها وأن معانيه أجل المعانى لأنه أحسن الحديث فى لفظه ومعناه متشابهًا فى الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه حتى إنه كلما تدبره المتدبر وتفكر فيه المتفكر رأى من اتفاقه حتى فى معانيه الغامضة ما يبهر الناظرين ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم هذا هو المراد بالتشابه فى هذا الموضع، وأما فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فالمراد بها التى تشتبه على فهوم كثير من الناس ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فجعل التشابه لبعضه وهنا جعله كله متشابهًا أى: فى حسنه، لأنه قال: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وهو سور وآيات والجميع يشبه بعضه بعضا كما ذكرنا ﴿مَّثَانِيَ﴾ أى تثنى فيه القصص والأحكام والوعد والوعيد وصفات أهل الخير وصفات أهل الشر وتثنى فيه أسماء الله وصفاته وهذا من جلالته وحسنه فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب المكملة للأخلاق وأن تلك[1] المعانى للقلوب بمنزلة الماء لسقى الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بَعُد عهدها بسقى الماء نقصت بل ربما تلفت وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائمًا إلى تكرر معانى كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة فى جميع القرآن لم يقع منه موقعًا ولم تحصل النتيجة منه، ولهذا سلكت فى هذا التفسير هذا المسلك الكريم اقتداء بما هو تفسير له فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنى غير مراع لما مضى مما يشبهه وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغى لقارئ القرآن المتدبر لمعانيه أن لا يدع التدبر فى جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة أثر فى قلوب أولى الألباب المهتدين، فلهذا قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغب لعمل الخير وتارة يرهبهم من عمل الشر ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ أى: هداية منه لعباده وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ أى: بسبب ذلك ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: القرآن الذى وصفناه لكم ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الذى لا طريق يوصل إلى الله إلا منه ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ممن حسن قصده، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق بالإقبال على كتابه فإذا لم يحصل هذا فلا سبيل إلى الهدى وما هو إلا الضلال المبين والشقاء المهين.

---

(١) قوله: «وأن تلك المعانى... إلخ» المقام يقتضى أن يقال «جعل تلك المعانى للقلوب بمنزلة الماء لسقى الأشجار» حتى يتسق الكلام ويفهم جواب «لما» فى قوله «لما علم احتياج الخلق... إلخ».

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

أى: هل يستوى هذا الذى هداه الله ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته ومن كان فى الضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقى بوجهه الذى هو أشرف الأعضاء وأدنى شىء من العذاب يؤثر فيه فهو يتقى به سوء العذاب لأنه قد غُلَّت يداه ورجلاه ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصى توبيخًا وتقريعًا ﴿ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم كما كذب هؤلاء ﴿ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾ جاءهم فى غفلة أو نهار أو هم قائلون ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ ﴾ بذلك العذاب ﴿ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فافتضحوا عند الله وعند خلقه ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه ضرب فى القرآن من جميع الأمثال: أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر وأمثال التوحيد والشرك وكل مثل يقرب حقائق الأشياء والحكمة فى ذلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى: جعلناه قرآنًا عربيًا واضح الألفاظ سهل المعانى خصوصًا على العرب ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ أى ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه لا فى ألفاظه ولا فى معانيه وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا ﴾ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الله تعالى حيث سهلنا عليهم طريق التقوى العلمية والعملية بهذا القرآن العربى المستقيم الذى ضرب الله فيه من كل مثل، ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد فقال: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً ﴾ أى: عبدًا ﴿ فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ فهم كثيرون وليسوا متفقين على أمر من الأمور، وحالة من الحالات، حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كلٌّ له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟ ﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ أى: خالصًا له قد عرف مقصود سيده وحصلت له الراحة التامة ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ أى: هذان الرجلان ﴿ مَثَلاً ﴾؟ لا يستويان، كذلك المشرك فيه شركاء متشاكسون يدعو هذا ثم يدعو هذا فتراه لا يستقر له قرار ولا يطمئن قلبه فى موضع، والموحِّد مخلص لربه قد خلصه الله من الشركة لغيره فهو فى أتم راحة وأكمل طمأنينة ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على تبيين الحق من الباطل وإرشاد الجهال ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يصيرون إليه من العذاب من جراء شركهم ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ أى: كلكم لا بد أن يموت ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فيما تنازعتم فيه فيفصل بينكم بحكمه العادل ويجازى كُلا ما عمله ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾.

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى محذرًا ومخبرًا: إنه لا أظلم وأشد ظلمًا ﴿ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله أو بادعاء النبوة أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا أو أخبر بكذا وهو كاذب، فهذا داخل فى قوله تعالى:

﴿وأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ إن كان جاهلاً وإلا فهو أشنع وأشنع ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أى: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه، فتكذيبه ظلم عظيم منه لأنه رد الحق بعدما تبين له فإن كان جامعًا بين الكذب على الله والتكذيب بالصدق كان ظلمًا على ظلم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ يحصل بها الاشتفاء منهم وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ولما ذكر الكاذب المكذب وجنايته وعقوبته ذكر الصادق المصدق وثوابه فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ في قوله وعمله فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه وفيما فعله من خصال الصدق ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أى: بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق ولكن لا يصدق به بسبب استكباره أو احتقاره لمن قاله وأتى به فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره ﴿أُوْلَئِكَ﴾ أى: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من الثواب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيئتهم من أصناف اللذات والمشتهيات فإنه حاصل لهم معد مهيأ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يعبدون الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى عباد الله ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وعمل الإنسان له ثلاث حالات: إما أسوأ أو أحسن أو لا أسوأ ولا أحسن، والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ المعاصى كلها والأحسن الطاعات كلها، فبهذا التفصيل يتبين معنى الآية وأن قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أى: ذنوبهم الصغار بسبب إحسانهم وتقواهم ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: بحسناتهم وتقواهم ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: بحسناتهم كلها.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أى: أليس من كرمه وجوده وعنايته بعبده الذى قام بعبوديته وامتثل أمره واجتنب ما نهى عنه خصوصًا أكمل الخلق عبودية لربه وهو محمد ﷺ فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه ويدفع عنه من ناوأه بسوء ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء وهذا من غيهم وضلالهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[1] ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ لأنه تعالى الذى بيده الهداية والإضلال وهو الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ له العزة الكاملة التى قهر بها كل شيء وبعزته يكفى عبده ويدفع عنه مكرهم ﴿ذِي انتِقَامٍ﴾ ممن عصاه، فاحذروا موجبات نقمته.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أى: ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه وأقمت عليهم دليلاً من أنفسهم فقلت: ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئًا ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وحده الذى خلقها ﴿قُلْ﴾ لهم مقررًا عجز آلهتهم بعدما تبينت قدرة الله: ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ أى: أخبرونى ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أىَّ ضر كان ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ بإزالته بالكلية أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ يوصل

---

(١) أى: ومن لم يؤثر فيه لطفه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ من مؤثر فيه بشيء قط.

إلىَّ بها منفعة فى دينى أو دنياى ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ ومانعاتها عنى؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة، قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع على أنه وحده المعبود وأنه الخالق للمخلوقات النافع الضار وحده وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والضر مستجلبًا كفايته مستدفعًا مكرهم وكيدهم: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أى: عليه يعتمد المعتمدون فى جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذى بيده وحده الكفاية هو حسبى سيكفينى كل ما أهمنى وما لا أهتم به.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

أى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: على حالتكم التى رضيتموها لأنفسكم من عبادة من لا يستحق العبادة ولا له من الأمر شيء ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على ما دعوتكم إليه من إخلاص الدين لله تعالى وحده ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لمن العاقبة و ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فى الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ فى الأخرى ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا يحول عنه ولا يزول، وهذا تهديد عظيم لهم وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم ولكن الظلم والعناد حال بينهم وبين الإيمان.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق فى أخباره وأوامره ونواهيه الذى هو مادة الهداية وبلاغ لمن أراد الوصول إلى الله وإلى دار كرامته وأنه قامت به الحجة على العالمين ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بنوره واتبع أوامره ﴿فَـ﴾ إن نفع ذلك يعود ﴿لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ﴾ بعدما تبين له الهدى ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لا يضر الله شيئًا ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتجبرهم على ما تشاء وإنما أنت مبلغ تؤدى إليهم ما أمرت به.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالتصرف بالعباد فى حال يقظتهم ونومهم وفى حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وهذه الوفاة الكبرى وفاة الموت، وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه لا ينافى أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه باعتبار أنه الخالق المدبر ويضيفها إلى أسبابها باعتبار أن من سنته تعالى وحكمته أن جعل لكل أمر من الأمور سببًا، وقوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ وهذه هى الموتة الصغرى أى: ويمسك النفس التى لم تمت فى منامها ﴿فَيُمْسِكُ﴾ من هاتين النفسين النفس ﴿الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ وهى نفس من كان مات أو قضى أن يموت فى منامه ﴿وَيُرْسِلُ﴾ النفس ﴿الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى استكمال رزقها وأجلها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على كمال اقتداره وإحيائه الموتى بعد موتهم، وفى هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه مخالف جوهره جوهر البدن وأنها مخلوقة مدبرة يتصرف الله فيها بالوفاة والإمساك والإرسال وأن أرواح الأحياء تتلاقى فى البرزخ فتجتمع فتتحادث فيرسل الله أرواح الأحياء ويمسك أرواح الأموات.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه شفعاء يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم ﴿قُلْ﴾ لهم مبينًا جهلهم وأنها لا تستحق شيئًا من العبادة: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا﴾ أي: من اتخذتم من الشفعاء ﴿لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل ﴿وَلا يَعْقِلُونَ﴾ أي: وليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به لأنها جمادات من أحجار وأشجار وصور وأموات، فهل يقال: إن لمن اتخذها عقلاً؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم وأعظمهم ظلمًا؟ ﴿قُل﴾ لهم: ﴿لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لأن الأمر كله لله وكل شفيع فهو يخافه ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فإذا أراد رحمة عبده أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع رحمة بالاثنين ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: جميع ما فيها من الذوات والأفعال والصفات، فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها وتخلص له العبادة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي المخلص له بالثواب الجزيل ومن أشرك به بالعذاب الوبيل.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يذكر تعالى حالة المشركين وما اقتضاه شركهم ﴿وَ﴾ أنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ توحيدًا له وعملاً بإخلاص الدين له وترك ما يعبدون من دونه يشمئزون وينفرون ويكرهون ذلك أشد الكراهة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بذلك، فرحًا بذكر معبوداتهم ولكون الشرك موافقًا لأهوائهم وهذه الحال شر الحالات وأشنعها ولكن موعدهم يوم الجزاء، فهناك يؤخذ الحق منهم وينظر: هل تنفعهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله شيئًا؟ ولهذا قال ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومدبرهما ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي نشاهده ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق وإن لهم الحسنى في الآخرة دون غيرهم والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان وسووا بك من لا يسوى شيئًا وتنقصوك غاية التنقص واستبشروا عند ذكر آلهتهم واشمأزوا عند ذكرك وزعموا مع هذا أنهم علي الحق وغيرهم على الباطل وأن لهم الحسنى، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ ففي هذه الآية بيان عموم خلقه تعالى وعموم علمه وعموم حكمه بين عباده، فقدرته التي نشأت عنها المخلوقات وعلمه المحيط بكل شيء دال على حكمه بين عباده وبعثهم وعلمه بأعمالهم خيرها وشرها وبمقادير جزائها وخلقه دال على علمه ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه الحاكم بين عباده وذكر مقالة المشركين وشناعتها كأن النفوس تشوفت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة، أخبر أن لهم ﴿سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده وأفظعه كما قالوا أشد الكفر وأشنعه، وأنهم على الفرض والتقدير لو كان لهم ما في الأرض جميعًا من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعها

وجميع أوانيها وأثاثها ومثله معه ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه ما قبل منهم ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئًا ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: يظنون من السخط العظيم والمقت الكبير وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: الأمور التي تسوؤهم بسبب صنيعهم وكسبهم ﴿وَحَاقَ(١) بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم وما حل عليهم من العقاب.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته أنه حين يمسه ضر من مرض أو شدة أو كرب ﴿دَعَانَا﴾ ملحًا في تفريج ما نزل به ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ أي: أعطيناه ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشقته عاد بربه كافرًا ولمعروفه منكرًا، و ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: علم من الله أني له أهل وأني مستحق له لأني كريم عليه أو على علم مني بطرق تحصيله، قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ يبتلي الله بها عباده لينظر من يشكره ممن يكفره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة ويشتبه عليهم الخير المحض بما قد يكون سببًا للخير أو للشر، قال تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قولهم ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فما زالت متوارثة عند المكذبين لا يقرون بنعمة ربهم ولا يرون له حقًا، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ حين جاءهم العذاب ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ والسيئات في هذا الموضع: العقوبات لأنها تسوء الإنسان وتحزنه ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ فليسوا خيرًا من أولئك ولم يكتب لهم براءة في الزبر، ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال وزعموا بجهلهم أنه يدل على حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالى أن رزقه لا يدل على ذلك و ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده سواء كان صالحًا أو طالحًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرزق، أي: يضيقه على من يشاء صالحًا أو طالحًا فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بسط الرزق وقبضه لعلمهم أن مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة وأنه أعلم بحال عبيده، فقد يضيق عليهم الرزق لطفًا بهم لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض فيكون تعالى مراعيًا في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم والله أعلم.

﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩)﴾

يخبر تعالى عباده المسرفين «أي المكثرين من الذنوب» بسعة كرمه ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم

(١) حاق، أي: نزل وأحاط.

ذلك فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله مخبرًا للعباد عن ربهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب والسعى فى مساخط علام الغيوب ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أى: لا تيأسوا منها فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان متزودين ما يغضب عليكم الرحمن ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ من الشرك والقتل والزنا والربا والظلم وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان لا تنفك ذاته عنهما ولم تزل آثارهما سارية فى الوجود مالئة للموجود تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار ويوالى النعم والفواضل على العباد فى السر والجهار والعطاء أحب إليه من المنع والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة أعظمها وأجلها بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح والدعاء والتضرع والتأله والتعبد فهلم إلى هذا السبب الأجل والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه والمبادرة إليها فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ بقلوبكم ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ بجوارحكم، إذا أفردت الإنابة دخلت فيها أعمال الجوارح وإذا جمع بينهما كما فى هذا الموضع كان المعنى ما ذكرنا، وفى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ دليل على الإخلاص وأنه من دون إخلاص لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئًا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ مجيئًا لا يدفع ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[(١)] فكأنه قيل: ما هى الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتهما وأعمالهما؟ فأجاب تعالى بقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة كمحبة الله وخشيته وخوفه ورجائه والنصح لعباده ومحبة الخير لهم وترك ما يضاد ذلك، ومن الأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة والحج والصدقة وأنواع الإحسان ونحو ذلك مما أمر الله به وهو: أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالمتبع لأوامر ربه فى هذه الأمور ونحوها وهو المنيب المسلم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[(٢)] وكل هذا حث على المبادرة وانتهاز الفرصة، ثم حذرهم «ونصحهم» ﴿أَن﴾ لا يستمروا على غفلتهم حتى يأتيهم يوم يندمون فيه ولا تنفع الندامة «ولئلا» ﴿تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾[(٣)] ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أى: فى جانب حقه ﴿وَإِن كُنتُ﴾ فى الدنيا ﴿لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ فى إتيان الجزاء حتى رأيته عيانًا ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[(٤)] و«لو» فى هذا الموضع للتمنى، أى: ليت أن الله هدانى فأكون متقيًا له فأسلم من العقاب وأستحق الثواب، وليست «لو» هنا شرطية لأنها لو كانت شرطية لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم وهى حجة باطلة ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ وتجزم بوروده ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أى: رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[(٥)] قال تعالى: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد وإن هذه أمانى باطلة لا حقيقة لها إذ لا يتجدد للعبد لَوْ رُدَّ بيان بعد البيان الأول ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ الدالة على الحق دلالة لا يمترى فيها ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ عن اتباعها ﴿وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فسؤال الرد إلى الدنيا نوع عبث ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

---

(١) أى: بمنع نزول العذاب، إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب.

(٢) أى: لا تشعرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا له، بل يفجأكم وأنتم غافلون كأنكم لا تخشون شيئًا، لمزيد غفلتكم.

(٣) فرطت أى: قصرت «فى جنب الله» فى طاعته وحقه تعالى.

(٤) أى: الشرك والمعاصى.

(٥) أى: فى العقيدة والعمل.

يخبر تعالى عن خزى الذين كذبوا عليه وأن وجوههم تكون يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم يعرفهم بذلك أهل الموقف فالحق أبلج واضح كأنه الصبح، فكما سودوا وجه الحق بالكذب سود الله وجوههم جزاء من جنس عملهم فلهم سواد الوجوه ولهم العذاب الشديد فى جهنم، ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى[1] لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق وعن عبادة ربهم المفترين عليه؟ بلى والله إن فيها لعقوبة وخزيًا وسخطًا يبلغ من المتكبرين كل مبلغ ويؤخذ الحق منهم بها، والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله أو ادعاء النبوة أو القول في شرعه بما لم يقله والإخبار بأنه قاله وشرعه، ولما ذكر حالة المتكبرين ذكر حالة المتقين فقال: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ[2] الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾[3] أى بنجاتهم وذلك لأن معهم آلة النجاة وهي تقوى الله تعالى التى هى العدة عند كل هول وشدة ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أى: العذاب الذى يسوؤهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه وهذا غاية الأمان، فلهم الأمن التام يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه وتجرى عليهم نضرة النعيم، ويقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يخبر تعالى عن عظمته وكماله الموجب لخسران من كفر به فقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هذه العبارة وما أشبهها مما هو كثير فى القرآن تدل على أن جميع الأشياء - غير الله وأسمائه وصفاته - مخلوقة، ففيها رد على كل من قال بقدم بعض المخلوقات كالفلاسفة القائلين بقدم الأرض والسموات، وكالقائلين بقدم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه، وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة لأن الكلام صفة المتكلم والله تعالى بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شىء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أن كلام الله مخلوق، من أعظم الجهل فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته ولم يحدث صفة من صفاته ولم يكن معطلاً عنها بوقت من الأوقات، والشاهد من هذا أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوى والسفلى وأنه على كل شىء وكيل، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه ليتمكن من التصرف فيه ومن حفظ لما هو وكيل عليه ومن حكمة ومعرفة بوجوه التصرفات ليصرفها ويدبرها على ما هو الأليق فلا تتم الوكالة إلاّ بذلك كله فما نقص من ذلك فهو نقص فيها، ومن المعلوم المتقرر أن الله تعالى منزه عن كل نقص فى أى صفة من صفاته، فإخباره بأنه على كل شىء وكيل يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء وكمال قدرته على تدبيرها وكمال تدبيره وكمال حكمته التى يضع بها الأشياء مواضعها ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: مفاتيحها علمًا وتدبيرًا فـ ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلما بيّن من عظمته ما يقتضى أن تمتلئ القلوب له إجلالاً وإكرامًا ذكر حال من عكس القضية فلم يقدره حق قدره فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على الحق اليقين والصراط المستقيم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر الله وما تصلح به الجوارح من طاعة الله وتعوضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان وخسروا جنات النعيم وتعوضوا عنها بالعذاب الأليم.

---

(١) مثوى، أى: مقام ومنزل يكون لهم مأوى.

(٢) أى: من جهنم.

(٣) بمفازتهم، أى: بفوزهم وحصول أمنيتهم وهى الظفر بالجنة و «المفازة» مصدر ميمى، بمعنى الفوز، يقال: فاز بكذا، إذ أفلح به وظفر بمراده منه، وتفسير المفازة هو: أنه لا تمسهم النار التى تسوؤهم.

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين الذين دعوك إلى عبادة غير الله ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ أي: هذا الأمر صدر من جهلكم وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه مسدى جميع النعم هو المستحق للعبادة دون من كان ناقصًا من كل وجه لا ينفع ولا يضر لم تأمرونى بذلك؟ وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال مفسد للأحوال ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من جميع الأنبياء ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ هذا مفرد مضاف يعم كل عمل، ففى نبوة جميع الأنبياء أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالى فى سورة الأنعام - لما عد كثيرًا من أنبيائه ورسله قال عنهم: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دينك وآخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال ويستحق العقاب والنكال، ثم قال: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك وأخبر عن شناعته أمره بالإخلاص فقال: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ أى: أخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الله على توفيق الله تعالى، فكما أنه يشكر على النعم الدنيوية كصحة الجسم وعافيته وحصول الرزق وغير ذلك كذلك يشكر ويثنى عليه بالنعم الدينية كالتوفيق للإخلاص والتقوى بل نعم الدين هى النعم على الحقيقة وفى تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها سلامة من آفة العجب التى تعرض لكثير من العاملين بسبب جهلهم وإلا فلو عرف العبد حقيقة الحال لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) ﴾

يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه بل فعلوا ما يناقض ذلك من إشراكهم به من هو ناقص فى أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا يملك من الأمر شيئًا، فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم الذى - من عظمته الباهرة وقدرته القاهرة - أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن وأن السموات، على سعتها وعظمتها، مطويات بيمينه، فلم يعظمه حق تعظيمه من سوَّى به غيره وهل أظلم ممن فعل ذلك؟ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تنزه وتعاظم عن شركهم به.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾

لما خوفهم تعالى من عظمته خوفهم بأحوال يوم القيامة ورغَّبهم ورهَّبهم فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وهو قرن عظيم لا يعلم عظمته إلا خالقه ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام أحد الملائكة المقربين وأحد حملة عرش الرحمن ﴿فَصَعِقَ﴾ أى: غشى عليه أو مات، على اختلاف القولين ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أى: كلهم لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمها وما يعلمون أنها مقدمة له ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن ثبته الله عند النفخة فلم يصعق كالشهداء أو بعضهم وغيرهم، وهذه النفخة الأولى نفخة الصعق ونفخة الفزع ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ نفخة ﴿أُخْرَىٰ﴾ نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ أى: قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح وشخصت أبصارهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ ماذا يفعل

الله بهم ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ علم من هذا أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل وهو كذلك فإن الله أخبر أن الشمس تكور والقمر يُخسف والنجوم تنتثر ويكون الناس فى ظلمة فتشرق الأرض عند ذلك بنور ربها عندما يستجلى وينزل للفصل بينهم، وفى ذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة وينشئهم نشأة يقوون على أن لا يحرقهم نوره ويتمكنون أيضًا من رؤيته وإلا فنوره تعالى عظيم لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أى: كتاب الأعمال وديوانه وضع ونشر ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ ليُسألوا عن التبليغ وعن أممهم ويشهدوا عليهم ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ من الملائكة وأعضاء الإنسان والأرض ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أى: العدل التام والقسط العظيم لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة ومن هو محيط بكل شىء، وكتابه الذى هو اللوح المحفوظ محيط بكل ما عملوه والحفظة الكرام والذين لا يعصون ربهم قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق ويعترفون لله بالحمد والعدل ويعرفون به من عظمته وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم ولا تعبر عنه ألسنتهم ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧١) قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ (٧٣) وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (٧٤)

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ

وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٥) ﴾

لما ذكر تعالى حكمه بين عباده الذين جمعهم فى خلقه ورزقه وتدبيره واجتماعهم فى الدنيا واجتماعهم فى موقف القيامة فرقهم تعالى عند جزائهم كما افترقوا فى الدنيا بالإيمان والكفر والتقوى والفجور فقال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أى: سوقًا عنيفًا يُضربون بالسياط الموجعة من الزبانية الغلاظ الشداد إلى شر محبس وأفظع موضع وهى: جهنم التى قد جمعت كل عذاب وحضرها كل شقاء وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أى: يدفعون إليها دفعًا وذلك لامتناعهم من دخولها، ويُساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ أى: فرقًا متفرقة كل زمرة مع الزمرة التى تناسب عملها وتشاكل سعيها يلعن بعضهم بعضًا ويبرأ بعضهم من بعض ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أى: وصلوا إلى ساحتها ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم أى لأجلهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ لقدومهم وقرى لنزولهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ مهنئين لهم بالشقاء الأبدى والعذاب السرمدى وموبخين لهم على الأعمال التى أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أى: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم وتتمكنون من التلقى عنهم؟ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ التى أرسلهم الله بها الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ[1] لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أى: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم باستعمال تقواه وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟ ﴿قَالُوا﴾ مقرين بذنبهم وأن حجة الله قامت عليهم:

(١) ينذرونكم، أي: يخوفونكم من لقاء هذا اليوم المهول الذى يجعل الولدان شيبًا.

﴿ بلى ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته وبينوا لنا غاية التبيين وحذرونا من هذا اليوم ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب التي هي لكل من كفر بآيات الله وجحد ما جاء به المرسلون فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم ﴿ قيل ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها ﴿ خالدين فيها ﴾ أبدًا لا يظعنون عنها ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي: بئس المقر، النار مقرهم وذلك لأنهم تكبروا على الحق فجازاهم الله من جنس عملهم بالإهانة والذل والخزي، ثم قال عن أهل الجنة: ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم ﴾ بتوحيده والعمل بطاعته سوق إكرام وإعزاز يحشرون وفدًا على النجائب ﴿ إلى الجنة زمرا ﴾ فرحين مستبشرين كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله ﴿ حتى إذا جاءوها ﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة والمنازل الأنيقة وهبَّ عليهم ريحها ونسيمها وآن خلودها ونعيمها ﴿ وفتحت ﴾ لهم ﴿ أبوابها ﴾ فتح إكرام لكرام الخلق ليكرموا فيها ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ تهنئة لهم وترحيبًا: ﴿ سلام عليكم ﴾ أي: سلام عليكم من كل آفة وشر حال ﴿ طبتم ﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته وألسنتكم بذكره وجوارحكم بطاعته ﴿ فـ ﴾ بسبب طيبكم ﴿ ادخلوها خالدين ﴾ لأنها الدار الطيبة ولا يليق بها إلا الطيبون، وقال في النار: ﴿ فتحت أبوابها ﴾ وفي الجنة ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ بالواو إشارة إلى أن أهل النار بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون[1] فتحها في وجوههم وعلى وصولهم لحرها وأشد لعذابها، وأما الجنة فإنها الدار العالية الغالية التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها ومع ذلك فيحتاجون لدخولها إلى الشفاعة عند أكرم الشفعاء عليه فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع فيشفعه الله تعالى، وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق وأن لكل منهما خزنة وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحقهما بخلاف سائر الأمكنة والدور ﴿ وقالوا ﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم حامدين ربهم على ما أولاهم ومنَّ عليهم وهداهم: ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ أي: وعدنا الجنة على ألسنة رسله إن آمنا وصلحنا فوفَّى لنا وعدنا وأنجز لنا ما منَّانا ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ أي: أرض الجنة ﴿ نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ أي ننزل منها أي مكان شئنا ونتناول منها أي نعيم أردنا ليس ممنوعًا عنا شيء نريده ﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم في زمن قليل منقطع فنالوا بذلك خيرًا عظيمًا باقيًا مستمرًا، وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة التي يكرم الله فيها خواص خلقه ورضيها الجواد الكريم لهم نزلاً وبنى أعلاها وأحسنها وغرسها بيده وحشاها من رحمته وكرامته ما ببعضه يفرح الحزين ويزول الكدر ويتم الصفاء ﴿ وترى الملائكة ﴾ أيها الرائي ذلك اليوم العظيم ﴿ حافين من حول العرش ﴾ أي: قد قاموا في خدمة ربهم واجتمعوا حول عرشه خاضعين لجلاله معترفين بكماله مستغرقين بجماله ﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا ﴿ وقضي بينهم ﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿ بالحق ﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار ممن عليه الحق ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ لم يذكر القائل من هو ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله تعالى

---

(١) قوله: «وليكون فتحها» إلى «وأشد لعذابها» كلام غير مفهوم ولعل في الأصل سقطًا، وأحسن ما يقال في سبب الإتيان بالواو في أهل الجنة ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ وفي أهل النار ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ بدون الواو، ما ذكره النسفي في تفسيره بقوله: «أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها لقوله تعالى ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ فلذلك جيء بالواو، كأنه قال: ﴿ حتى إذا جاءوها ﴾ ﴿ و ﴾ قد ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ اهـ. فتكون الواو للحال، أي: والحال كانت أبواب الجنة مفتوحة.

تفسير سورة غافر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾

يخبر تعالى عن كتابه العظيم، وأنه صادر ومنزل من الله، المألوه المعبود، لكماله، وانفرد بأفعاله ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذى قهر بعزته كل مخلوق ﴿الْعَلِيمِ﴾ بكل شيء ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ للمذنبين ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ من التائبين ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها ﴿ذِى الطَّوْلِ﴾ أى: التفضل والإحسان الشامل، فلما قرر ما قرر من كماله وكان ذلك موجبًا لأن يكون وحده المألوه الذى تخلص له الأعمال قال: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعانى، فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله وهذه أسماء وأوصاف وأفعال، وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة فهى من تعليم العليم لعباده وإما إخبار عن نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِى الطَّوْلِ﴾ وإما إخبار عن نقمه الشديدة وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصى فذلك يدل عليه ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة والاستغفار فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك والحث عليه والنهى عن عبادة ما سوى الله وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها والترهيب منها فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وإما إخبار عن حكمه الجزائى العدل وثواب المحسنين وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝٦﴾

يخبر تبارك وتعالى أنه ﴿مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمراد بالمجادلة هنا المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل فهذا من صنيع الكافر، وأما المؤمنون فيخضعون للحق ليدحضوا به الباطل، ولا ينبغى للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية ويظن أن إعطاء الله إياه فى الدنيا دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلادِ﴾ أى: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب، بل الواجب على العبد أن يعتبر الناس بالحق وينظر إلى الحقائق الشرعية ويزن بها الناس ولا يزن الحق بالناس كما عليه من لا علم ولا عقل له، ثم هدد من جادل بآيات الله ليبطلها كما فعل من قبله من الأمم من ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وعاد ﴿وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليبطلوه وعلى الباطل لينصروه ﴿وَ﴾ أنه بلغت بهم الحال وآل بهم التحزب إلى أنه ﴿هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أى: يقتلوه، وهذا أبلغ ما يكون للرسل الذين هم قادة أهل الخير الذين معهم الحق الصرف الذى لا شك فيه ولا اشتباه هموا بقتلهم، فهل بعد هذا البغى والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذى لا يخرجون منه؟ ولهذا قال فى عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أى: بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان أشد العقاب وأفظعه، إن هو إلا صيحة أو حاصب ينزل عليهم أو يأمر الأرض أن تأخذهم أو البحر أن يغرقهم فإذا هم خامدون ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ

كفروا﴾ أى: كما حقت على أولئك حقت عليهم كلمة الضلال التى نشأت عنها كلمة العذاب، ولهذا قال: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾

يخبر تعالى عن كمال لطفه بعباده المؤمنين وما قيض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم من استغفار الملائكة المقربين لهم ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفى ضمن ذلك الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله وقربهم من ربهم وكثرة عبادتهم ونصحهم لعباد الله لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ أى: عرش الرحمن الذى هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها وأقربها من الله تعالى الذى وسع الأرض والسموات والكرسى، وهؤلاء الملائكة قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم، واختيار الله إياه لحمل عرشه وتقديمهم فى الذكر وقربهم منه يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ من الملائكة المقربين فى المنزلة والفضيلة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصًا التسبيح والتحميد وسائر العبادات تدخل فى تسبيح الله وتحميده لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره وحمد له تعالى، بل الحمد هو العبادة لله تعالى وأما قول العبد «سبحان الله وبحمده» فهو داخل فى ذلك وهو من جملة العبادات ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جدًا أن الملائكة الذين يؤمنون بالله ولا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم، ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها - غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان أن سؤالها وطلبها غايته مجرد مغفرة الذنوب - ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة بذكر ما لا تتم إلا به فقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فعلمك قد أحاط بكل شىء ولا يخفى عليك منه خافية ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ورحمتك وسعت كل شىء، فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالى ووسعتهم ووصل إلى ما وصل إليه خلقه ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ من الشرك والمعاصى ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ باتباع رسلك بتوحيدك وطاعتك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى قهم العذاب نفسه وقهم أسباب العذاب ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ على ألسنة رسلك ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أى: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ورفقائهم ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شىء، فبعزتك تغفر ذنوبهم وتكشف عنهم المحذور وتوصلهم بها إلى كل خير ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى يضع الأشياء مواضعها، فلا نسألك يا ربنا أمرًا تقتضى حكمتك خلافه، بل من حكمتك التى أخبرت بها على ألسنة رسلك واقتضاها فضلك المغفرة للمؤمنين ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: جنبهم الأعمال السيئة وجزاءها لأنها تسوء صاحبها ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم فمن وقيته السيئات فقد وفقته للحسنات وجزائها الحسن ﴿وَذَلِكَ﴾ أى: زوال المحذور بوقاية السيئات وحصول المحبوب بحصول الرحمة ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذى لا فوز مثله ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه، وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى التى يحب من عباده التوسل بها إليه والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه، فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التى علم الله نقصها واقتضاءها لما اقتضته من المعاصى ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التى قد أحاط الله بها علمًا وتوسلوا بالرحيم العليم، وتضمن كمال أدبهم مع

الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة وأنه ليس لهم من الأمر شىء وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه لا يُدْلِى على ربه بحالة من الأحوال إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه، وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة بمحبة ما يحبه من الأعمال التى هى العبادات التى قاموا بها واجتهدوا اجتهاد المحبين ومن العمال الذين هم المؤمنون الذين يحبهم الله تعالى من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله واجتهدوا فى صلاح أحوالهم لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه، وتضمن ما شرحه الله وفصله من دعائهم بعد قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ التنبيه اللطيف على كيفية تدبر كتابه وأن لا يكون المتدبر مقتصراً على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغى له أن يتدبر معنى اللفظ فإذا فهمه فهمًا صحيحًا على وجهه نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه وجزم بأن الله أراده كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص الدال عليه اللفظ، والذى يوجب الجزم له بأن الله أراده أمران: أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى والمتوقف عليه، والثانى: علمه بأن الله بكل شىء عليم وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر فى كتابه، وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعانى وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شىء وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحًا، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير بحسب ما وفقه الله له، وقد كان فى تفسيرنا هذا كثير من هذا مَنٌّ به الله علينا، وقد يخفى فى بعض الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سببًا لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه والتوسل بإحسانه الذى لا نزال نتقلب فيه فى كل الآنات وفى جميع اللحظات، ونسأله من فضله أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته إنه الكريم الوهاب الذى تفضل بالأسباب ومسبباتها، وتضمن ذلك أن المقارن من زوج وولد وصاحب يسعد بقرينه ويكون اتصاله به سببًا لخير يحصل له خارج عن عمله وسبب عمله كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ فحينئذ يكون ذلك من نتيجة عملهم، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

يخبر تعالى عن الفضيحة والخزى الذى يصيب الكافرين وسؤالهم الرجعة والخروج من النار وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها: من الكفر بالله أو بكتبه أو برسله أو باليوم الآخر حين يدخلون النار ويقرون أنهم يستحقونها لما فعلوه من الذنوب والأوزار فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت ويغضبون عليها غاية الغضب فينادون عند ذلك، ويقال لهم ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ أى: إياكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أى: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق فكفرتم وزهدتم فى الإيمان الذى خلقكم الله له وخرجتم من رحمته الواسعة فمقتكم وأبغضكم، فهذا ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أى: فلم يزل هذا المقت مستمراً عليكم والسخط من الكريم حالاً بكم حتى آلت لكم الحال إلى ما آلت، فاليوم حل عليكم غضب الله وعقابه حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه، فتمنوا الرجوع و ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ يريدون الموتة الأولى وما بين النفختين على ما قيل، أو العدم المحض قبل إيجادهم ثم أماتهم بعد ما أوجدهم ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ الحياة الدنيا والحياة الأخرى ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: تحسروا وقالوا ذلك فلم يفد ولم ينجع، ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة فقيل لهم: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أى: دُعى لتوحيده وإخلاص العمل له ونهى عن الشرك به ﴿كَفَرْتُمْ﴾ به واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أى: هذا الذى أنزلكم هذا المنزل وبوأكم هذا المقيل والمحل أنكم تكفرون

بالإيمان وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد فى الدنيا والآخرة وتكرهون ما هو خير وصلاح فى الدنيا والآخرة، تؤثرون سبب الشقاوة والذل والغضب وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ العلى: الذى له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات وعلو القدر وعلو القهر، ومن علو قدره كمال عدله تعالى وأنه يضع الأشياء مواضعها ولا يساوى بين المتقين والفجار ﴿الْكَبِيرِ﴾ الذى له الكبرياء والعظمة والمجد فى أسمائه وصفاته وأفعاله المتنزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى وقد حكم عليكم بالخلود الدائم فحكمه لا يغير ولا يبدل.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده بتبيين الحق من الباطل بما يُرِى عباده من آياته النفسية والآفاقية والقرآنية الدالة على كل مطلوب مقصود الموضحة للهدى من الضلال بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والمتأمل لها أدنى شك فى معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نعمه على عباده حيث لم يُبقِ الحق مشتبهًا ولا الصواب ملتبسًا، بل نوَّع الدلالات ووضَّح الآيات ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة، وكلما كانت المسائل أجل وأكبر كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر، فانظر إلى التوحيد لما كانت مسألته من أكبر المسائل بل أكبرها كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت وضرب الله لها الأمثال وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها فى هذا الموضع ونبه على جملة من أدلتها فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ولما ذكر أنه يُرِى عباده آياته نبه على آية عظيمة فقال: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أى: مطرًا به ترزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم وذلك يدل على أن النعم كلها منه، فمنه نعم الدين وهى المسائل الدينية والأدلة عليها وما يتبع ذلك من العمل بها، والنعم الدنيوية كلها كالنعم الناشئة عن الغيث الذى تحيا به البلاد والعباد، وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود الذى يتعين إخلاص الدين له كما أنه - وحده - المنعم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾ إلى الله تعالى بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذى ينتفع بالآيات وتصير رحمة فى حقه ويزداد بها بصيرة، ولما كانت الآيات تثمر التذكر والتذكر يوجب الإخلاص لله رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، والإخلاص معناه: تخليص القصد لله تعالى فى جميع العبادات الواجبة والمستحبة حقوق الله وحقوق عباده، أى: أخلصوا لله تعالى فى كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم ولا يثنكم ذلك عن دينكم ولا تأخذكم بالله لومة لائم فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضى إخلاص العبادة له فقال: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ أى: العلى الأعلى الذى استوى على العرش واختص به وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته وارتفع به قدره وجلت أوصافه وتعالت ذاته أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكى الطاهر المطهر وهو الإخلاص الذى يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه ويجعلهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحى فقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ أى: الوحى الذى للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش فالروح والقلب بدون روح الوحى لا يصلح ولا يفلح فهو تعالى ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ الذى فيه نفع العباد ومصلحتهم ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الرسل الذين فضلهم واختصهم لوحيه ودعوة عباده، والفائدة فى إرسال الرسل هو تحصيل سعادة العباد فى دينهم

ودنياهم وآخرتهم وإزالة الشقاوة عنهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ﴾ من ألقى إليه الوحى ﴿يَوْمَ التَّلاقِ﴾ أى: يخوف العباد بذلك ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه، وسماه يوم التلاق لأنه يلتقى فيه الخالق والمخلوق والمخلوقون بعضهم مع بعض والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ أى: ظاهرون على الأرض وقد اجتمعوا فى صعيد واحد لا عوج ولا أمت فيه يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ﴿لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم ولا من جزاء تلك الأعمال ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أى: من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين أهل السموات وأهل الأرض الذى انقطعت فيه الشركة فى الملك وتقطعت الأسباب ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ﴾ أى: المنفرد فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله فلا شريك له فى شىء منها بوجه من الوجوه ﴿الْقَهَّارِ﴾ لجميع المخلوقات الذى دانت له المخلوقات وذلت وخضعت خصوصًا فى ذلك اليوم الذى عنت فيه الوجوه للحى القيوم يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ فى الدنيا من خير وشر قليل وكثير ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ على أحد بزيادة فى سيئاته أو نقص من حسناته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى: لا تستبطئوا ذلك اليوم فإنه آت، وكل آت قريب، وهو أيضًا سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أى يوم القيامة التى قد أزفت وقربت وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ أى: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء ووصلت القلوب من الروع والكرب إلى الحناجر شاخصة أبصارهم ﴿كَاظِمِينَ﴾ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا وكاظمين على ما فى قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أى: قريب ولا صاحب ﴿وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون فى الظالم نفسه بالشرك ولو قدرت شفاعتهم، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم فلا يقبلها ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ وهو النظر الذى يخفيه العبد عن جليسه ومقارنه وهو نظر المسارقة ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ مما لم يبينه العبد لغيره فالله تعالى يعلم ذلك الخفى فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لأن قوله حق وحكمه الشرعى حق، وحكمه الجزائى حق وهو المحيط علمًا وكتابة وحفظًا بجميع الأشياء وهو المنزه ع٨١١ن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذى يقضى قضاءه القدرى الذى إذا شاء شيئًا كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذى يقضى بين عباده المؤمنين والكافرين فى الدنيا ويفصل بينهم يفتح ينصر به أولياءه وأحبابه ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير وعدم استطاعتهم لفعله ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿الْبَصِيرُ﴾ بما كان وما يكون وما يبصر وما لا يبصر وما يعلم العباد وما لا يعلمون، قال فى أول هاتين الآيتين: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم لاشتمالها على الترغيب والترهيب.

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أى: بقلوبهم وأبدانهم، سير نظر واعتبار وتفكر فى الآثار ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين فسيجدونها شر العواقب عاقبة الهلاك والدمار

والخزى والفضيحة، وقد ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فى العدَد والعُدد وكبر الأجسام ﴿وَ﴾ أشد ﴿آثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمتعه بها ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ بعقوبته ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ حين أصروا واستمروا عليها ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئًا، بل من أعظم الأمم قوة قوم عاد الذين قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أرسل الله إليهم ريحًا أضعفت قواهم ودمرتهم كل تدمير، ثم ذكر نموذجًا من أحوال المكذبين بالرسل وهو فرعون وجنوده فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

أى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿مُوسَىٰ﴾ ابن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾ العظيمة الدالة دلالة قطعية على حقيقة ما أرسل به وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى حجة بينة

تتسلط على القلوب فتذعن لها كالحية والعصا ونحوهما من الآيات البينات التى أيَّد الله بها موسى ومكنه مما دعا إليه من الحق، ﴿إلى﴾ المبعوث إليهم ﴿فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ وزيره ﴿وَقَارُونَ﴾ الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وأيده الله بالمعجزات الباهرة الموجبة لتمام الإذعان لم يقابلوها بذلك ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ حيث كادوا هذه المكيدة وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم لم يقووا وبقوا فى رقهم وتحت عبوديتهم ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ حيث لم يتم لهم ما قصدوا بل أصابهم ضد ما قصدوا أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

قاعدة: وتدبر هذه النكتة التى يكثر مرورها بكتاب الله تعالى إذا كان السياق فى قصة معينة أو على شىء معين وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم لا يختص به ذكر الحكم وعلقه على الوصف العام ليكون أعم وتندرج فيه الصورة التى سبق الكلام لأجلها وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين، فلهذا لم يقل «وما كيدهم إلا فى ضلال» بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متكبرًا متجبرًا مغررًا لقومه السفهاء: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أى: زعم، قبحه الله، أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله وأنه نصح لقومه وإزالة للشر فى الأرض فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ الذى أنتم عليه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وهذا من أعجب ما يكون أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق، هذا من التمويه والترويج الذى لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التى أوجبها له طغيانه واستعان فيها بقوته واقتداره مستعينًا موسى بربه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أى: امتنعت بربوبيته التى دبر بها جميع الأمور ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره كما تقدم قريبًا فى القاعدة فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب وقيض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملئه، ومن جملة الأسباب هذا الرجل المؤمن الذى من آل فرعون من بيت المملكة لا بد أن يكون له كلمة مسموعة وخصوصًا إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه فإنهم يراعونه فى الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم فى الظاهر، كما منع الله رسوله محمدًا ﷺ بعمه أبى طالب من قريش، حيث كان أبو طالب كبيرًا عندهم موافقًا لهم على دينهم، ولو كان مسلمًا لم يحصل منه ذلك المنع، فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم مقبحًا فعل قومه وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أى: كيف تستحلون قتله وهذا ذنبه وجرمه أن يقول ربى الله، ولم يكن أيضًا قولاً مجردًا عن البينات ولهذا قال: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهارًا علم به الصغير والكبير، أى: فهذا لا يوجب قتله، فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته واستعلى برهانه فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطى، ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل بأى حالة قدرت فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أى: موسى بين أمرين: إما كاذب فى دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذبًا فكذبه عليه وضرره مختص به وليس عليكم فى ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقًا وقد جاءكم بالبينات وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذابًا فى الدنيا وعذابًا فى الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذى يعدكم وهو عذاب الدنيا، وهذا من حسن عقله ولطف دفعه عن موسى حيث أتى بهذا الجواب الذى لا تشويش فيه عليهم وجعل الأمر دائرًا بين تينك الحالتين وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم، ثم انتقل - ؓ وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أى: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل ﴿كَذَّابٌ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب لا فى مدلوله

ولا فى دليله ولا يوفقه للصراط المستقيم أى: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية فالذى اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه ثم حذر قومه ونصحهم وخوفهم عذاب الآخرة ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أى: فى الدنيا ﴿ظَاهِرِينَ فِى الأَرْضِ﴾ على رعيتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم ولن يتم ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ أى: عذابه ﴿إِن جَاءَنَا﴾؟ وهذا من حسن دعوته حيث جعل الأمر مشتركًا بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ وقوله: ﴿إِن جَاءَنَا﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه ويرضى لهم ما يرضى لنفسه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا له فى ذلك ومغررًا لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وصدق فى قوله ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ ولكن ما الذى رأى؟ رأى أن يستخف قومه فيتابعوه ليقيم بهم رياسته ولم ير الحق معه بل رأى الحق مع موسى وجحد به مستيقنًا له، وكذب فى قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله لكان الشر أهون ولكنه أمرهم باتباعه وزعم أن فى اتباعه اتباع الحق وفى اتباع الحق اتباع الضلال ﴿وَقَالَ الَّذِى آمَنَ﴾ مكررًا دعوة قومه غير آيس من هدايتهم كما هى حالة الدعاة إلى الله تعالى لا يزالون يدعون إلى ربهم ولا يردهم عن ذلك راد ولا يثنيهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ يعنى الأمم المكذبين الذين تحزبوا على أنبيائهم واجتمعوا على معارضتهم، ثم بينهم فقال: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى: مثل عادتهم فى الكفر والتكذيب وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة فى الدنيا قبل الآخرة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه ولا جرم أسلفوه، ولما خوفهم العقوبات الدنيوية خوفهم العقوبات الأخروية فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أى: يوم القيامة حين ينادى أهل الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ إلى آخر الآيات ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وحين ينادى أهل النار مالكًا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ وحين ينادون ربهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيجيبهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ وحين يقال للمشركين: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فخوفهم ﷺ هذا اليوم المهول وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أى: قد ذهب بكم إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾ ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأن الهدى بيد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به لخبثه فلا سبيل إلى هدايته ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ ابن يعقوب عليهما السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ إتيان موسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدقه وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ فى حياته ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ﴾ ازداد شككم وشرككم، و ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ أى: ظنكم الباطل وحسبانكم الذى لا يليق بالله تعالى فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى لا يأمرهم وينهاهم بل يرسل إليهم رسله والظن بأن الله لا يرسل رسولاً ظن ضلال، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقى الذى وصفوا به موسى ظلمًا وعلوًا فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال وهم الكذبة حيث نسبوا ذلك إلى الله وكذبوا رسوله، فالذى وصفه السرف والكذب لا ينفك عنهما لا يهديه الله ولا يوفقه للخير لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه بأن يمنعه الهدى كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ثم ذكر وصف المسرف المرتاب فقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ﴾ التى بينت الحق من الباطل وصارت - من ظهورها - بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها ليدفعوها ويبطلوها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: بغير حجة وبرهان وهذا وصف لازم لكل من جادل فى آيات الله فإنه من المحال أن يجادل بسلطان لأن الحق

لا يعارضه معارض فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعى[١] أو عقلى أصلاً ﴿كَبُرَ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالله أشد بغضًا لصاحبه لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم وهؤلاء خواص خلق الله تعالى فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه ﴿كَذَلِكَ﴾ أى: كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ متكبر فى نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم جبار بكثرة ظلمه وعدوانه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا لموسى ومكذبًا له فى دعوته إلى الإقرار برب العالمين الذى على العرش استوى وعلى الخلق اعتلى: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ أى: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ[٢] كَاذِبًا﴾ فى دعواه أن لنا ربًا وأنه فوق السموات ولكنه يريد أن يحتاط فرعون ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى فى بيان الذى حمله على هذا القول: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فزين له العمل السيئ فلم يزل الشيطان يزينه وهو يدعو إليه ويحسنه حتى رآه حسنًا ودعا إليه وناظر فيه مناظرة المحقين وهو من أعظم المفسدين ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الحق بسبب الباطل الذى زين له ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ الذى أراد أن يكيد به الحق ويوهم به الناس أنه محق وأن موسى مبطل ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أى: خسارة وبوار لا يفيده إلا الشقاء فى الدنيا والآخرة ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ معيدًا نصيحته لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لا كما يقول لكم فرعون فإنه لا يهديكم إلا طريق الغى والفساد ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلاً ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ التى هى محل الإقامة ومنزل السكون والاستقرار فينبغى لكم أن تؤثروها وتعملوا لها عملاً يسعدكم فيها ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أى: لا يجازى إلا بما يسوءه ويحزنه بقدر إساءته وما تستحقه لأن جزاء السيئة السوء ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ بما قلت لكم ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ بترك اتباع نبى الله موسى عليه السلام، ثم فسر ذلك فقال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أنه يستحق أن يُعبد من دون الله والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ﴾ الذى له القوة كلها وغيره ليس بيده من الأمر شيء ﴿الْغَفَّارِ﴾ الذى يسرف العباد على أنفسهم ويتجرءون على مساخطه، ثم إذا تابوا وأنابوا إليه كفَّر عنهم السيئات والذنوب ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى: حقًا يقينًا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أى: لا يستحق الدعوة إليه والحث على اللجأ إليه فى الدنيا ولا فى الآخرة لعجزه ونقصه وأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى فسيجازى كل عامل بعمله ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ على ربهم بمعاصيه والكفر به دون غيرهم، فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه قال لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذه النصيحة وسترون مغبة عدم قبولها حين يحل بكم العقاب وتحرمون جزيل الثواب ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى: ألجأ إليه وأعتصم وألقى أمورى كلها لديه وأتوكل عليه فى مصالحى ودفع الضرر الذى يصيبنى منكم أو من غيركم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون: يعلم حالى وضعفى فيمنعنى منكم ويكفينى شركم ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته فإن سلطكم علىَّ فبحكمة منه تعالى وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أى: وقى الله القوىّ ذلك الرجل المؤمن الموفق عقوبات ما مكر فرعون وآله له ومن إرادة إهلاكه وإتلافه لأنه

---

(١) قوله: «بدليل شرعى ... إلخ» أقول: لعل فى الأصل تحريفًا لأن الدليل الشرعى لا يكون خلاف الحق بل هو الحق نفسه وإلا فلا يكون شرعيًا فكيف يتأتى أن يعارض الحق الدليل الشرعى وهو عين الحق؟.

(٢) قوله: ﴿لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ أى: أنا متيقن أنه كاذب فالظن هنا بمعنى اليقين لا على حقيقته الذى هو إدراك الطرف الراجح.

بادأهم بما يكرهون وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه فأرادوا به كيدًا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم على أنفسهم ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أغرقهم الله تعالى في صيحة واحدة عن آخرهم، وفي البرزخ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ فهذه العقوبات الشنيعة التي تحل بالمكذبين لرسل الله المعاندين لأمره.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾

يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار وعتاب بعضهم بعضًا واستغاثتهم بخزنة النار وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين ويتبرأ المتبوعون من التابعين ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ أي: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ على الحق، من القادة الذين دعوهم إلى ما استكبروا لأجله ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أنتم أغويتمونا وأضللتمونا وزينتم لنا الشرك والشر ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ أي: ولو قليلاً ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ وجعل لكل قسطه من العذاب فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه ولا يغير ما حكم به الحكيم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ لعله تحصل بعض الراحة ﴿قَالُوا﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم ودعاءهم لا يفيدهم شيئًا: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي تبينتم بها الحق والصراط المستقيم وما يقرب من الله وما يبعد منه؟ ﴿قَالُوا بَلَى﴾ قد جاءونا بالبينات وقامت علينا حجة الله البالغة فظلمنا وعاندنا الحق بعدما تبين ﴿قَالُوا﴾ أي الخزنة لأهل النار متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فَادْعُوا﴾ أنتم ولكن هذا الدعاء هل يغني شيئًا أم لا؟ قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: باطل لاغ، لأن الكفر محبط لجميع الأعمال صادّ لإجابة الدعاء.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

لما ذكر عقوبة آل فرعون في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة وذكر حالة أهل النار الفظيعة الذين نابذوا رسله وحاربوهم، قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بالحجة والبرهان والنصر ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: في الآخرة بالحكم ولأتباعهم بالثواب ولمن حاربهم بشدة العذاب ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ حين يعتذرون ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: الدار السيئة التي تسوء نازليها، أي: جهنم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾

لما ذكر ما جرى لموسى وفرعون وما آل إليه أمر فرعون وجنوده ثم ذكر الحكم العام الشامل له ولأهل النار ذكر أنه أعطى موسى ﴿الْهُدَى﴾ أي: الآيات والعلم الذي يهتدي به المهتدون ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: جعلناه متوارثًا بينهم من قرن إلى آخر وهو التوراة، وذلك الكتاب مشتمل على ﴿هُدًى﴾ وهو: العلم بالأحكام الشرعية وغيرها ﴿وَذِكْرَى﴾ أي: التذكر للخير بالترغيب فيه وعن الشر بالترهيب عنه، وليس

ذلك لكل أحد وإنما هو ﴿لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾[1] ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أيها الرسول كما صبر من قبلك من المرسلين أولى العزم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أى: ليس مشكوكًا فيه أو فيه ريب أو كذب حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق المحض والهدف الصرف الذى يصبر عليه الصابرون ويجتهد فى التمسك به أهل البصائر، فقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ من الأسباب التى تحث على الصبر على طاعة الله والكف عن ما يكره الله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[2] المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذى فيه يحصل المحبوب وبالاستغفار الذى فيه دفع المحذور ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ خصوصًا ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ اللذين هما أفضل الأوقات وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما لأن فى ذلك عونًا على جميع الأمور.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

يخبر تعالى أن من جادل فى آياته ليبطلها بالباطل بغير بينة من أمره ولا حجة إن هذا صادر من كبر فى صدورهم على الحق وعلى من جاء به يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل فهذا قصدهم ومرادهم، ولكن هذا لا يتم لهم وليسوا ببالغيه، فهذا نص صريح وبشارة بأن كل من جادل الحق مغلوب وكل من تكبر عليه فهو فى نهايته ذليل ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ أى: الجأ واعتصم ﴿بِاللَّهِ﴾ ولم يذكر ما يستعيذ منه إرادة للعموم، أى: استعذ بالله من الكبر الذى يوجب التكبر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن واستعذ بالله من جميع الشرور ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات على اختلافها ﴿الْبَصِيرُ﴾ بجميع المرئيات بأى محل وموضع وزمان كانت.

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يخبر تعالى بما تقرر فى العقول أن خلق السموات والأرض ـ على عظمهما وسعتهما ـ أعظم وأكبر من خلق الناس، فإن الناس ـ بالنسبة إلى خلق السموات والأرض ـ من أصغر ما يكون فالذى خلق الأجرام العظيمة وأتقنها قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى، وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دلالة قاطعة بمجرد نظر للعاقل إليها يستدل بها استدلالاً لا يقبل الشك والشبهة بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث، وليس كل أحد يجعل فكره لذلك ويقبل على تدبره، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولذلك لا يعتبرون بذلك ولا يجعلونه منهم على بال، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أى: كما لا يستوى الأعمى والبصير كذلك لا يستوى من آمن بالله وعمل الصالحات ومن كان مستكبرًا على عبادة ربه مقدمًا على معاصيه ساعيًا فى مساخطه ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أى: تذكركم قليل، وإلا فلو تذكرتم مراتب الأمور ومنازل الخير والشر والفرق بين الأبرار والفجار وكانت لكم همة عليه لآثرتم النافع على الضار والهدى على الضلال والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق ونطقت بها الكتب السماوية التى جميع أخبارها أعلى مراتب

---

(١) أى: لذوى العقول السليمة العاملين بما فى تضاعيفه من الدفع إلى الأعمال الصالحة.

(٢) تداركًا لما فرط منك من ترك الأولى فى بعض الأحايين. اهـ. أبو السعود.

وفى الجلالين «ليستن بك» أى: لتقتدى أمتك بك، وفى النسفى «لذنب أمتك» وفى «المنتخب فى تفسير القرآن» واطلب المغفرة من ربك لما قد يعد ذنبًا بالنسبة إليك.

الصدق وقامت عليها الشواهد المرئية والآيات الأفقية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ مع هذه الأمور التى توجب كمال التصديق والإذعان.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

هذا من لطفه بعباده ونعمته العظيمة حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه دعاء العبادة ودعاء المسألة ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد من استكبر عنها فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أى: ذليلين حقيرين يجتمع عليهم العذاب والإهانة جزاء على استكبارهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

تدبر هذه الآيات الكريمات الدالة على سعة رحمة الله وجزيل فضله ووجوب شكره وكمال قدرته وعظيم سلطانه وسعة ملكه وعموم خلقه لجميع الأشياء وكمال حياته واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة وما فعله من الأفعال الحسنة، وتمام ربوبيته وانفراده فيها وأن جميع التدابير فى العالم العلوى والسفلى فى ماضى الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد الله تعالى ليس لأحد من الأمر شىء، ولا من القدرة شىء، فينتج من ذلك أنه تعالى المألوه المعبود وحده الذى لا يستحق أحد غيره من العبودية شيئًا كما لم يستحق من الربوبية شيئًا، وينتج من ذلك امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى ومحبته وخوفه ورجائه، وهذان الأمران ـ وهما معرفته وعبادته ـ هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح وسعادة دنيوية وأخروية، وهما أشرف عطايا الكريم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا فات كل خير وحضر كل شر، فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه تابعة لأمره إنه لا يتعاظمه سؤال ولا يحفيه نوال، فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ أى: لأجلكم جعل الله الليل مظلمًا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ من حركاتكم التى لو استمرت لضرت فتأوون إلى فرشكم ويلقى الله عليكم النوم الذى يستريح به القلب والبدن وهو من ضروريات الآدمى لا يعيش بدونه، ويسكن فيه أيضًا كل حبيب إلى حبيبه ويجتمع الفكر وتقل الشواغل ﴿وَ﴾ جعل تعالى ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ منيرًا بالشمس المستمرة فى الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية، هذا لذكره وقراءته وهذا لصلاته وهذا لطلبه العلم ودراسته وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره برًا وبحرًا، وهذا لفلاحته وهذا لتصليح حيواناته[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أى: عظيم كما يدل عليه التنكير ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها وصرف عنهم النقم وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ بسبب جهلهم وظلمهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ الذين يقرون بنعمة ربهم ويخضعون لله ويحبونه ويصرفونها فى طاعة مولاهم ورضاه ﴿ذَلِكُمُ﴾ الذى فعل ما فعل ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: المنفرد بالإلهية والمنفرد بالربوبية لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته وإيجابها للشكر من ألوهيته ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تقرير لربوبيته ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، ثم صرح بالأمر

(١) قوله: «لتصليح حيواناته» لو عبر بـ «القيام بمصالح حيواناته ورعايتها» لكان أسلم من الانتقاد وأوضح للقارئ.

بعبادته فقال: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أى: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له بعدما أبان لكم الدليل وأنار لكم السبيل؟! ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى عقوبة على جحدهم لآيات الله وتعديهم على رسله صرفوا عن التوحيد والإخلاص كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى قارة ساكنة مهيأة لكل مصالحكم تتمكنون من حرثها وغرسها والبناء عليها والسفر والإقامة فيها ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفًا للأرض التى أنتم فيها قد جعل الله فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات التى يُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فليس فى جنس الحيوانات أحسن صورة من بنى آدم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وإذا أردت أن تعرف حسن الآدمى وكمال حكمة الله تعالى فيه فانظر إليه عضوًا عضوًا هل تجد عضوًا من أعضائه يليق به ويصلح أن يكون فى غير محله؟ وانظر أيضًا إلى الميل الذى فى القلوب بعضهم لبعض هل تجد ذلك فى غير الآدميين؟ وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان والمحبة والمعرفة التى هى أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وهذا شامل لكل طيب من مأكل ومشرب ومنكح وملبس ومنظر ومسمع وغير ذلك من الطيبات التى يسرها الله لعباده ويسر لهم أسبابها ومنعهم من الخبائث التى تضادها وتضر أبدانهم وقلوبهم وأديانهم ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذى دبر الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: تعاظم وكثر خيره وإحسانه المربى جميع العالمين بنعمه ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الذى له الحياة الكاملة التامة المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية التى لا تتم حياته إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والعلم والكلام وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: لا معبود بحق إلا وجهه الكريم ﴿فَادْعُوهُ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى، فإن الإخلاص هو المأمور به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى جميع المحامد والمدائح والثناء: بالقول كنطق الخلق بذكره، والفعل كعبادتهم له كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له لكماله فى أوصافه وأفعاله وتمام نعمه.

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾

لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده وذكر الأدلة على ذلك والبينات صرح بالنهى عن عبادة ما سواه فقال: ﴿قُلْ﴾ يأيها النبى ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام وكل ما عبد من دون الله ولست على شك من أمرى بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بقلبى ولسانى وجوارحى بحيث تكون منقادة لطاعته مستسلمة لأمره وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق كما أن النهى عن عبادة ما سواه أعظم منهيٍّ عنه على الإطلاق ثم قرر هذا التوحيد بأنه الخالق لكم والمطور لخلقتكم فكما خلقكم وحده فاعبدوه وحده فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وذلك بخلقه لأصلكم وأبيكم آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنسانى ما دام فى بطن أمه، فنبه بالابتداء على بقية الأطوار من العلقة فالمضغة فالعظام فنفخ الروح ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ﴾ هكذا تنتقلون فى الخلقة الإلهية ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ من قوة العقل والبدن وجميع قواه الظاهرة والباطنة ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ بلوغ الأشد ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ بهذه الأطوار المقدرة ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ تنتهى عنده أعماركم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أحوالكم فتعلمون أن المطور لكم فى هذه الأطوار كامل الاقتدار وأنه الذى لا تنبغى العبادة إلا له وأنكم ناقصون من كل وجه ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى هو المنفرد بالإحياء والإماتة فلا تموت نفس بسبب أو

بغير سبب إلا بإذنه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ جليلاً أو حقيرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ لا رد فى ذلك ولا مثنوية ولا تمنع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الواضحة البينة متعجبًا من حالهم الشنيعة ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ أى: كيف ينعدلون عنها؟ وإلى أى شىء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟ لا والله، أم يجدون شبهًا توافق أهواءهم ويصولون بها لأجل باطلهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذى جاءهم من الله وبما أرسل الله به رسله الذين هم خير الخلق وأصدقهم وأعظمهم عقولاً فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[1] (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ التى لا يستطيعون معها حركة ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ التى يقرنون بها هم وشياطينهم ﴿يُسْحَبُونَ[2] (٧١) فِي الْحَمِيمِ﴾ أى: الماء الذى اشتد غليانه وحره ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم فيصلون بها ثم يوبخون على شركهم وكذبهم، و ﴿قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ﴾ هل نفعوكم أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أى: غابوا ولم يحضروا ولو حضروا لم ينفعوا ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويحتمل ـ وهو الأظهر ـ أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون وأنه ليس لله شريك فى الحقيقة وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أى: كذلك الضلال الذى كانوا عليه فى الدنيا الضلال الواضح لكل أحد حتى إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة ويتبين لهم معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآيات، ويقال لأهل النار: ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب الذى نوع عليكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أى: تفرحون بالباطل الذى أنتم عليه وبالعلوم التى خالفتم بها علوم الرسل، وتمرحون على عباد الله بغيًا وعدوانًا وظلمًا وعصيانًا، كما قال تعالى فى آخر هذه السورة: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ وكما قال قوم قارون له: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح الممدوح الذى قال الله فيه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل بطبقة من طبقاتها على قدر عمله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها أبدًا ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مثوى يخزون فيه ويهانون ويحبسون ويعذبون ويترددون بين حرها وزمهريرها.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾

أى: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يأيها الرسول على دعوة قومك وما ينالك منهم من أذى واستعن على صبرك بإيمانك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ سينصر دينه ويُعْلى كلمته وينصر رسله فى الدنيا والآخرة واستعنى على ذلك أيضًا بتوقيع العقوبة

---

(١) أى: عقوبة تكذيبهم.

(٢) يسحبون، أى: يجرون فى الماء الحار. اهـ. نسفى.

فى الدنيا والآخرة ولهذا قال: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ فى الدنيا فذاك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل عقوبتهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنجازيهم بأعمالهم ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ ثم سلاه وصبره بذكر إخوانه المرسلين فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾

أى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ﴾ كثيرين إلى قومهم يدعونهم ويصبرون على أذاهم ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ خبرهم ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وكل الرسل مدبرون ليس بيدهم شىء من الأمر ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ من الآيات السمعية والعقلية ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: بمشيئته وأمره فاقتراح المقترحين على الرسل الإتيان بالآيات ظلم منهم وتعنت وتكذيب بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاءوا به ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم والفتح ﴿قُضِيَ﴾ بينهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذى يقع الموقع(١) ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم وإهلاك المكذبين ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أى: وقت القضاء المذكور ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ الذين وصفهم الباطل وما جاءوا به من العلم والعمل باطل وغايتهم المقصودة لهم باطلة فَلْيَحْذَرِ هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم فيخسروا كما خسر أولئك، فإن هؤلاء لا خير منهم ولا لهم براءة فى الكتب بالنجاة.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١)﴾

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التى بها جملة من المنافع: منها: منافع الركوب عليها والحمل، ومنها: منافع الأكل من لحومها والشرب من ألبانها، ومنها: الدفء واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها إلى غير ذلك من المنافع ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ من الوصول إلى الأقطار البعيدة وحصول السرور بها والفرح عند أهلها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أى: على الرواحل البرية والفلك البحرية يحملكم الله الذى سخرها وهيأ لها ما هيأ من الأسباب التى لا تتم إلا بها ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه حيث أشهد عباده آياته النفسية وآياته الأفقية ونعمه الباهرة وعددها عليهم ليعرفوه ويشكروه ويذكروه ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أى: أى آية من آياته لا تعترفون بها؟ فإنكم قد تقرر عندكم أن جميع الآيات والنعم منه تعالى، فلم يبق للإنكار محل ولا للإعراض عنها موضع، بل أوجبت لذوى الألباب بذل الجهد واستفراغ الوسع للاجتهاد فى طاعته والتبتل فى خدمته والانقطاع إليه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾

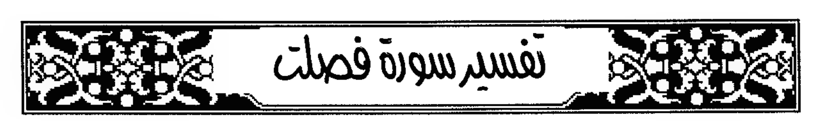
يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير فى الأرض بأبدانهم وقلوبهم: وسؤال العالمين ﴿فَيَنظُرُوا﴾ نظر فكر واستدلال لا نظر غفلة وإهمال ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة كعاد وثمود وغيرهم ممن

---

(١) قوله: يقع الموقع، أى: الصحيح، الفاصل بين الحق والباطل.

﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ من الأبنية الحصينة والغراس الأنيقة والزروع الكثيرة ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ حين جاءهم أمر الله، فلم تغن عنهم قوتهم ولا افتدوا بأموالهم ولا تحصنوا بحصونهم ثم ذكر جرمهم الكبير فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من الكتب الإلهية والخوارق العظيمة والعلم النافع المبين الهادى من الضلال والحق من الباطل ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ المناقض لدين الرسل ومن المعلوم أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم ومعاداة الحق الذى جاءت به الرسل وجعل باطلهم حقًا وهذا عام لجميع العلوم التى نوقض بها ما جاءت به الرسل ومن أحقها بالدخول فى هذا علوم الفلسفة والمنطق اليونانى الذى رُدَّت به كثير من آيات القرآن ونقصت قدره فى القلوب وجعلت أدلته اليقينية القاطعة أدلة لفظية لا تفيد شيئًا من اليقين ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد فى آيات الله والمعارضة لها والمناقضة فالله المستعان ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: نزل وأحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أى: عذابنا، أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ من الأصنام والأوثان وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أى: فى تلك الحال، وهذه ﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾ وعادته ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا كان إيمانهم غير صحيح ولا منجيًا لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة قد اضطروا إليه وإيمان مشاهدة وإنما الإيمان الذى ينجى صاحبه هو الإيمان الاختيارى الذى يكون إيمانًا بالغيب وذلك قبل وجود قرائن العذاب ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أى: وقت الإهلاك وإذاقة البأس ﴿الْكَافِرُونَ﴾ دينهم ودنياهم وأخراهم ولا يكفى مجرد الخسارة فى تلك الدار بل لا بد من خسران يشقى صاحبه فى العذاب الشديد والخلود فيه دائمًا أبدًا.

تم تفسير سورة غافر (المؤمن) بحمد الله ولطفه ومعونته لا بحولنا وقوتنا فله الشكر والثناء



تفسير سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تَنزِيلٌ﴾ صادر ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الذى وسعت رحمته كل شىء الذى من أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب الذى حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير ما هو من أجل نعمه على العباد وهو الطريق للسعادة فى الدارين ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان فقال: ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أى: فصل كل شىء من أنواعه على حدته وهذا يستلزم البيان التام والتفريق بين كل شىء وتمييز الحقائق ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فُصلت آياته وجعل عربيًا ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: لأجل أن يتبين لهم معناه كما يتبين لفظه ويتضح لهم الهدى من الضلال والغَى من الرشاد، وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالاً ولا البيان إلا عمًى فهؤلاء لم يُسَق الكلام لأجلهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى: بشيرًا بالثواب العاجل والآجل ونذيرًا بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما وذكر الأسباب والأوصاف التى تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه

الأوصاف للكتاب مما يوجب أن يُتلقَّى بالقبول والإذعان والإيمان به والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق إعراض المستكبرين ﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ له سماع قبول وإجابة وإن كانوا قد سمعوه سماعًا تقوم عليهم به الحجة الشرعية ﴿وَقَالُوا﴾ أى: هؤلاء المعرضون عنه مبينين عدم انتفاعهم به بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أى: أغطية مغشاة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أى: صمم فلا نسمع ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا نراك، والقصد من ذلك أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ أى: كما رضيت بالعمل بدينك فإننا راضون كل الرضا بالعمل فى ديننا، وهذا من أعظم الخذلان حيث رضوا بالضلال عن الهدى واستبدلوا الكفر بالإيمان وباعوا الآخرة بالدنيا ﴿قُلْ﴾ لهم يأيها النبى ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أى: هذه صفتى ووظيفتى أنى بشر مثلكم ليس بيدى من الأمر شىء ولا عندى ما تستعجلون به وإنما فضلنى الله عليكم وميَّزنى وخصَّنى بالوحى الذى أوحاه إلىَّ وأمرنى باتباعه ودعوتكم إليه ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أى: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى بتصديق الخبر الذى أخبر به واتباع الأمر واجتناب النهى، هذه حقيقة الاستقامة ثم الدوام على ذلك، وفى قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تنبيه على الإخلاص وأن العامل ينبغى له أن يجعل مقصوده وغايته التى يعمل لأجلها الوصول إلى الله وإلى دار كرامته فبذلك يكون عمله خالصًا نافعًا وبفواته يكون عمله باطلاً ولما كان العبد ولو حرص على الاستقامة لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور أو ارتكاب منهى أمرهم بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ ثم توعَّد من ترك الاستقامة فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ودسوا أنفسهم فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له ولم يصلوا ولا زكوا، فلا إخلاص منهم للخالق بالتوحيد والصلاة ولا نفع للخلق منهم بالزكاة وغيرها ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرهم فى الآخرة ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين ووصفهم وجزاءهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهذا الكتاب وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص والمتابعة ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أى: عظيم ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أى: غير مقطوع ولا نافد بل هو مستمر مدى الأوقات متزايد على الساعات مشتمل على جميع اللذات والمشتهيات.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾

ينكر تعالى ويعجِّب من كفر الكافرين به الذين جعلوا معه أندادًا يشركون معه ويبذلون لهم ما يشاءون من عباداتهم ويسوونهم بالرب العظيم الملك الكريم الذى خلق الأرض الكثيفة العظيمة فى يومين ثم دحاها فى يومين بأن جعل فيها رواسى من فوقها ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار، فكمل خلقها ودحاها وأخرج أقواتها وتوابع ذلك ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ عن ذلك، فلا ينبئك مثل خبير فهذا هو الخبر الصادق الذى لا زيادة فيه ولا نقص ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن خلق الأرض ﴿اسْتَوَىٰ﴾ أى: قصد ﴿إِلَى﴾ خلق ﴿السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ قد ثار على وجه الماء ﴿فَقَالَ لَهَا﴾ ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص عطف عليه بقوله: ﴿وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: انقادا لأمرى طائعتين أو مكرهتين فلا بد من نفوذه ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أى: ليس لنا إرادة تخالف إرادتك، جل جلال الله ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فتَمَّ خلق السموات والأرض فى ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيئته صالحة لخلق الجميع فى لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير فهو حكيم رفيق فمن حكمته ورفقه أن جعل خلقها فى هذه المدة المقدرة، واعلم أن ظاهر هذه الآية مع

قوله تعالى فى النازعات لما ذكر خلق السموات قال: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يظهر منهما التعارض مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف، والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف أن خلق الأرض وصورتها متقدم على خلق السموات كما هنا، ودحى الأرض بأن ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ متأخر عن خلق السموات كما فى سورة النازعات، ولهذا قال: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ إلى آخره، ولم يقل «والأرض بعد ذلك خلقها» وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أى: الأمر والتدبير اللائق بها الذى اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ هى: النجوم يستنار بها ويهتدى وتكون زينة وجمالاً للسماء ظاهراً ﴿وَحِفْظًا﴾ لها باطنًا يجعلها رجومًا للشياطين لئلا يسترق السمع فيها ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور، من الأرض وما فيها والسماء وما فيها ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذى عزته قهر بها الأشياء ودبرها وخلق بها المخلوقات ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذى أحاط علمه بالمخلوقات الغائب والشاهد فَتَرْكُ المشركين الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار الذى انقادت المخلوقات لأمره ونفذ فيها قدره من أعجب الأشياء، واتخاذهم له أنداداً يسوونهم به وهم ناقصون فى أوصافهم وأفعالهم أعجب وأعجب ولا دواء لهؤلاء إن استمر إعراضهم إلا العقوبات الدنيوية والأخروية فلهذا خوفهم بقوله:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤)﴾

أى: فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعدما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة ومن صفات الإله العظيم ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ أى: عذابًا يستأصلكم ويجتاحكم ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ القبيلتين المعروفتين حيث اجتاحهم العذاب وحل عليهم وبيل العقاب وذلك بظلمهم وكفرهم ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أى: يتبع بعضهم بعضًا متوالين ودعوتهم جميعًا واحدة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أى: يأمرونهم بالإخلاص لله وينهونهم عن الشرك فردوا رسالتهم وكذبوهم و ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى: وأما أنتم فبشر مثلنا ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين من الأمم وهى من أوهى الشُّبَه، فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل مَلَكًا وإنما شرط الرسالة أن يأتى الرسول بما يدل على صدقه، فَلْيَقْدَحُوا إن استطاعوا بصدقهم بقادح عقلى أو شرعى ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦)﴾

هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين عاد وثمود ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ فكانوا ـ مع كفرهم بالله وجحودهم بآيات الله وكفرهم برسله ـ مستكبرين فى الأرض قاهرين لمن حولهم من العباد ظالمين لهم قد أعجبتهم قوتهم ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال تعالى ردًا عليهم بما يعرفه كل أحد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلولا خلقه إياهم لم يوجدوا، فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحًا لم يغتروا بقوتهم فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم، التى اغتروا بها ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أى: ريحًا عظيمة من قوتها وشدتها لها صوت مزعج كالرعد القاصف، فسخرها الله عليهم ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ فدمرتهم وأهلكتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وقال هنا: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذى اختزوا به وافتضحوا بين الخليقة ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ أى: لا يمنعون من عذاب الله ولا ينفعون أنفسهم.

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) ﴾

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه الذين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام يدعوهم إلى توحيد ربهم وينهاهم عن الشرك، وآتاهم الله الناقة آية عظيمة لها شرب ولهم شرب يوم معلوم يشربون لبنها يومًا ويشربون من الماء يومًا وليسوا ينفقون عليها بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أى: هداية بيان، وإنما نص عليهم وإن كان جميع الأمم المهلكة قد قامت عليهم الحجة وحصل لهم البيان لأن آية ثمود آية باهرة قد رآها صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وكانت آية مبصرة فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى، ولكنهم - من ظلمهم وشرهم - استحبوا العمى - الذى هو الكفر والضلال - على الهدى الذى هو: العلم والإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لا ظلمًا من الله لهم ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أى نجى الله صالحًا عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصى.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ﴾

يخبر تعالى عن أعدائه الذين بارزوه الكفر بآياته وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم وحالهم الشنيعة حين يحشرون أى: يجمعون ﴿إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: يرد أولهم على آخرهم ويتبع آخرهم أولهم ويساقون إليها سوقًا عنيفًا لا يستطيعون امتناعًا ولا ينصرون أنفسهم ولا هم ينصرون ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أى: حتى إذا وردوا على النار وأرادوا الإنكار أو أنكروا ما عملوه من المعاصى ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ عموم بعد خصوص ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى يشهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا، وخص هذه الأعضاء الثلاثة لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها فإذا شهدت عليهم عاتبوها ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ﴾ هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ونحن ندافع عنكن ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فليس فى إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذى لا يستعصى شيء عن مشيئته ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم خلق أيضًا صفاتكم ومن ذلك الإنطاق ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فى الآخرة فيجزيكم بما عملتم، ويحتمل أن المراد بذلك الاستدلال على البعث بالخلق الأول كما هو طريقة القرآن ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أى: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم ولا تحاذرون من ذلك ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ بإقدامكم على المعاصى ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ الظن السيئ، حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ أى: أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لأنفسهم وأهليهم وأديانهم[1] بسبب الأعمال التى أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء ووجب عليكم الخلود الدائم فى العذاب الذى لا يفتر عنهم[2] ساعة ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ

(١) قوله: «لأنفسهم وأهليهم وأديانهم» فالأنسب أن يقال «لأنفسكم، وأهليكم، وأديانكم» ليتلاءم مع ما بعده.

(٢) قوله: «عنهم» الصواب أن يقال «عنكم» ليتناسب مع ما قبله.

﴿مَثْوًى لَّهُمْ﴾ فلا جَلَدَ عليها ولا صبر، وكل حالة قُدِّر إمكان الصبر عليها فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا وعظم غليان حميمها وزاد نتن صديدها وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها وكبرت مقامعها وغلظ خُزَّانها وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك سخط الجبار وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب فيرجعوا إلى الدنيا ليستأنفوا العمل ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ لأنه ذهب وقته وعمروا ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير، وانقطعت حجتهم مع أن استعتابهم كذب منهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)﴾

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾[1] أي: لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرَنَاءَ﴾ من الشياطين كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي: تزعجهم إلى المعاصي وتحثهم عليها ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فالدنيا زخرفوها بأعينهم ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا فأقدموا على معاصي الله وسلكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسوله والآخرة بَعَّدُوها عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشُّبه بعدم وقوعها فترحَّل خوفها من قلوبهم فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي، وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته وجحودهم الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ لأديانهم وآخرتهم ومن خسر فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾

يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن وتواصيهم بذلك فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم وإياكم أن تلتفتوا أو تصغوا إليه وإلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه عارضوه ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي: تكلموا بالكلام الذى لا فائدة فيه بل فيه المضرة ولا تمكنوا - مع قدرتكم - أحدًا يملك عليكم الكلام به وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم ولسان مقالهم فى الإعراض عن هذا القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿تَغْلِبُونَ﴾[2] وهذه شهادة من الأعداء وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا فى حال الإعراض عنه والتواصى بذلك، ومفهوم كلامهم أنهم إن لم يلغوا فيه بل استمعوا إليه وألقوا أذهانهم أنهم لا يغلبون فإن الحق غالب غير مغلوب يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه، ولما كان هذا ظلمًا منهم وعنادًا لم يبق فيهم مطمع للهداية فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم ولهذا قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهو الكفر والمعاصى فإنها أسوأ ما كانوا يعملون لكونهم يعملون المعاصى وغيرها، فالجزاء بالعقوبة إنما هو على عمل

---

(١) قوله: وقيضنا، أى: هيأنا لهم قرناء فاسدين يوسوسون لهم ويستولون عليهم.

(٢) أى: فيسكت محمد ﷺ عن القراءة، بسبب تشويشكم عليه.

الشرك ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ ﴾ الذين حاربوه وحاربوا أولياءه جزاؤهم ﴿ النَّارُ ﴾ بالكفر والتكذيب والمجادلة والمجالدة ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ أى: الخلود الدائم الذى لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا هم ينصرون، وذلك ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فإنها آيات واضحة وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدها والكفر بها ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: الأتباع منهم بدليل ما بعده على وجه الحنق على من أضلهم ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ أى: الصنفين اللذين قادانا إلى الضلال والعذاب من شياطين الجن وشياطين الإنس الدعاة إلى جهنم ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴾ أى: الأذلين المهانين، كما أضلونا وفتنونا وصاروا سببًا لنزولنا ففى هذا بيان حنق بعضهم على بعض وتبرى بعضهم من بعض.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أوليائه وفى ضمن ذلك تنشيطهم والحث على الاقتداء بهم فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أى: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى واستسلموا لأمره ثم استقاموا على الصراط المستقيم علمًا وعملاً فلهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ الكرام، أى: يتكرر نزولهم عليهم مبشرين لهم عند الاحتضار ﴿ أَلاَّ تَخَافُوا ﴾ على ما يستقبل من أمركم ﴿ وَلا تَحْزَنُوا ﴾ على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضى والمستقبل ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت وكان وعد الله مفعولاً، ويقولون لهم أيضًا مثبتين لهم ومبشرين: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ يحثونهم فى الدنيا على الخير ويزينونه لهم ويرهبونهم عن الشر ويقبحونه فى قلوبهم ويدعون الله لهم ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف وخصوصًا عند الموت وشدته والقبر وظلمته وفى القيامة وأهوالها على الصراط وفى الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم ويدخلون عليهم من كل باب ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ ويقولون لهم أيضًا: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ أى: فى الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ ﴾ قد أعد وهيئ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أى: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ أى: هذا الثواب الجزيل والنعيم المقيم نُزُلٌ وضيافة ﴿ مِّنْ غَفُورٍ ﴾ غفر لكم السيئات ﴿ رَّحِيمٍ ﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات ثم قبلها منكم فبمغفرته أزال عنكم المحذور وبرحمته أنالكم المطلوب.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هذا استفهام بمعنى النفى المتقرر أى: لا أحد أحسن قولاً، أى: كلامًا وطريقة وحالة ﴿ مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ بتعليم الجاهلين ووعظ الغافلين والمعرضين ومجادلة المبطلين بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها والحث عليها وتحسينها مهما أمكن والزجر عما نهى الله عنه وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصًا من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه ومجادلة أعدائه بالتى هى أحسن والنهى عما يضاده من الكفر والشرك والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومن الدعوة إلى الله تحبيبه إلى عباده بذكر تفاصيل نعمه وسعة جوده وكمال رحمته وذكر أوصاف كماله ونعوت جلاله، ومن الدعوة إلى الله الترغيب فى اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك الحث على مكارم الأخلاق والإحسان إلى عموم الخلق ومقابلة المسىء بالإحسان والأمر بصلة الأرحام وبر الوالدين، ومن ذلك الوعظ لعموم الناس فى أوقات المواسم والعوارض والمصائب بما يناسب ذلك الحال إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفراده بما تشمله الدعوة إلى الخير كله والترهيب من جميع الشر، ثم قال تعالى: ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى: مع دعوته الخلق إلى الله

بادر هو بنفسه إلى امتثال أمر الله بالعمل الصالح الذى يُرْضِى ربه ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى: المنقادين لأمره السالكين فى طريقه، وهذه المرتبة تمامها للصديقين الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل كما أن من أشر الناس قولاً من كان من دعاة الضلال السالكين لسبله، وبين هاتين المرتبتين المتباينتين اللتين ارتفعت إحداهما إلى أعلى عليين ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين مراتب لا يعلمها إلا الله وكلها معمورة بالخلق ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ﴾ أى: لا يستوى فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى وفعل السيئات والمعاصى التى تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوى الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم لا فى ذاتها ولا فى وصفها ولا فى جزائها ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ ثم أمر بإحسان خاص له موقع كبير وهو: الإحسان إلى من أساء إليك فقال: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أى: فإذا أساء إليك مسىء من الخلق خصوصًا من له حق كبير عليك كالأقارب والأصحاب ونحوهم إساءة بالقول أو بالفعل فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فَصِلْهُ وإن ظلمك فاعف عنه وإن تكلم فيك غائبًا أو حاضرًا فلا تقابله بل اعف عنه وعامله بالقول اللين، وإن هجرك وترك خطابك فَطيِّبْ له الكلام وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان حصل فائدة عظيمة ﴿ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ أى: كأنه قريب شفيق ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ أى: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ نفوسهم على ما تكره وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسىء بإساءته وعدم العفو عنه فكيف بالإحسان؟! فإذا صبر الإنسان نفسه وامتثل أمر ربه وعرف جزيل الثواب وعلم أن مقابلته للمسىء بجنس عمله لا نفيده شيئًا ولا تزيد العداوة إلا شدة وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره بل من تواضع لله رفعه هان عليه الأمر وفعل ذلك متلذذًا مستحليًا له ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ لكونها من خصال خواص الخلق التى ينال بها العبد الرفعة فى الدنيا والآخرة التى هى من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس وهو مقابلة إساءته بالإحسان ذكر ما يدفع به العدو الجنى وهو الاستعاذة بالله والاحتماء من شره فقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ أى: أى وقت من الأوقات أحسست بشىء من نزغات الشيطان أى: من وساوسه وتزيينه للشر وتكسيله عن الخير وإصابة ببعض الذنوب وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أى: اسأله مفتقرًا إليه أن يعيذك ويعصمك منه ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته، ثم ذكر تعالى أن ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على كمال قدرته ونفوذ مشيئته وسعة سلطانه ورحمته بعباده وأنه الله وحده لا شريك له ﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ﴾ هذا بمنفعة ضيائه وتصرف العباد فيه وهذا بمنفعة ظلمته وسكون الخلق فيه ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ اللذان لا تستقيم معايش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ ﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان ﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ أى: اعبدوه وحده لأنه الخالق العظيم،

ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات وإن كبر جرمها وكثرت مصالحها فإن ذلك ليس منها وإنما هو من خالقها تبارك وتعالى ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله تعالى ولم ينقادوا لها فإنهم لن يضروا الله شيئًا والله غنى عنهم وله عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعنى: الملائكة المقربين ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ أى: لا يملون من عبادته لقوتهم وشدة الداعى القوى منهم إلى ذلك ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية ﴿أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ لا نبات فيها ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ أى: المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أى: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾[1] ثم: أنبتت من كل زوج بهيج فحيى بها العباد والبلاد ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بعد موتها وهمودها ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم إلى يوم بعثهم فنشورهم ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكما لم تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها لا تعجز عن إحياء الموتى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

الإلحاد فى آيات الله: الميل بها عن الصواب بأى وجه كان: إما بإنكارها وجحودها وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها عن معناها الحقيقى وإثبات معان لها ما أرادها الله منها، فتوعَّد تعالى من ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه بل هو مطلع على ظاهره وباطنه وسيجازيه على إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ﴾ مثل الملحد بآيات الله ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ من عذاب الله مستحقًا لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير، لما تبين الحق من الباطل والطريق المنجى من عذابه من الطريق المهلك قال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ إن شئتم فاسكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته وإن شئتم فاسلكوا طريق الغىِّ المسخطة ربكم الموصلة إلى دار الشقاء ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ أى يجحدون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية المُعْلِى لقدر من اتبعه ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم ﴿وَ﴾ الحال ﴿إِنَّهُ لَكِتَابٌ﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿عَزِيزٌ﴾ أى: منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء، ولهذا قال: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أى: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن لا بسرقة ولا بإدخال ما ليس منه به ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ فى تنزيله محفوظة ألفاظه ومعانيه قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ فى خلقه وأمره يضع كل شىء موضعه وينزله منازله ﴿حَمِيدٍ﴾ على ما له من صفات الكمال ونعوت الجلال وعلى ما له من العدل والإفضال فلهذا كان كتابه مشتملاً على تمام الحكمة وعلى تحصيل المصالح والمنافع ودفع المفاسد والمضار التى يحمد عليها.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أيها الرسول من الأقوال الصادرة ممن كذبك وعاندك ﴿إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أى: من جنسها، بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسل من دعوتهم إلى الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له وردهم هذا بكل طريق يقدرون عليه وقولهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ واقتراحهم على رسلهم الآيات التى لا يلزمهم الإتيان بها ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم فى الكفر

---

(١) ربت: أى: انتفخت وزادت، قال: أبو السعود فى تفسيره «أى: تحركت بالنبات وانتفخت، لأن النبت إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت، ثم تصدعت عن النبات» وقيل: تزخرفت بالنبات، وقرئ «ربأت» أى: ارتفعت.

تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم وتكذيبهم فاصبر كما صبر مَنْ قبلك، ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة وحذرهم من الاستمرار على الغيِّ فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أى: عظيمة يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن أصر واستكبر.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)﴾

يخبر تعالى عن فضله وكرمه حيث أنزل كتابًا عربيًا على الرسول العربى بلسان قومه ليبين لهم وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به والتلقي لهم والتسليم، وأنه لو جعله قرآنا أعجميًا بلغة غير العرب لاعتراض المكذبون وقالوا: ﴿لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أى: هلا بينت آياته ووضحت وفسرت ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أى: كيف يكون محمد عربيًا والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون، فنفى الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموفقون انتفعوا به وارتفعوا وغيرهم بالعكس من أحوالهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أى: يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة، وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال ويحث على التوبة النصوح التى تغسل الذنوب وتشفي القلب ﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أى: صمم عن استماعه وإعراض ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أى: لا يبصرون به رشدًا ولا يهتدون به ولا يزيدهم إلا ضلالاً، فإنهم إذا ردوا الحق ازدادوا عمى إلى عماهم وغيا إلى غيِّهم ﴿أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أى: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذى ينادى وهو فى مكان بعيد لا يسمع داعيًا ولا يجيب مناديًا، والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا ينتفعون بهداه ولا يبصرون بنوره ولا يستفيدون منه خيراً لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى بإعراضهم وكفرهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ كما آتيناك الكتاب فصنع به الناس ما صنعوا معك اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع ومنهم من كذبه ولم ينتفع به، وإن الله تعالى لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين فى الحال لأن سبب الهلاك قد وجب وحق ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أى: قد بلغ بهم إلى الريب الذى يقلقهم فلذلك كذبوه وجحدوه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو العمل الذى أمر الله به ورسوله ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ نفعه وثوابه فى الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرره وعقابه فى الدنيا والآخرة، وفى هذا حث على فعل الخير وترك الشر وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة وضررهم بأعمالهم السيئة وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيحمِّل أحدًا فوق سيئاته.

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨)﴾

هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذى لا يطلع عليه سواه فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى: جميع الخلق يرد عملهم إلى الله تعالى ويقرون بالعجز عنه الرسل والملائكة وغيرهم ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ

﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: وعائها الذى تخرج منه وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التى فى البلدان والبرارى فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار إلا وهو يعلمها تفصيليًا ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ من بنى آدم وغيرهم من أنواع الحيوانات إلا بعلمه ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ فكيف سوَّى المشركون به تعالى من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أى: المشركين به يوم القيامة توبيخًا وإظهارًا لكذبهم فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِى﴾ الذين زعمتم أنهم شركائى فعبدتموهم وجادلتم على ذلك وعاديتم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوا﴾ مقرين ببطلان إلهيتهم وشركتهم مع الله: ﴿آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أى: أعلمناك يا ربنا واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم فكلنا الآن رجعنا إلى بطلان عبادتها وتبرأنا منها، ولهذا قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ من دون الله، أى: ذهبت عقائدهم وأعمالهم التى أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله وظنوا أنها تفيدهم وتدفع عنهم العذاب وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم وانتقض ظنهم ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئًا ﴿وَظَنُّوا﴾ أى: أيقنوا فى تلك الحال ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أى: منقذ ينقذهم ولا مغيث ولا ملجأ، فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره بينها الله لعباده ليحذروا الشرك به.

﴿لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو وعدم صبره وجلده لا على الخير ولا على الشر إلا من نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال فقال: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أى: لا يمل دائمًا من دعاء الله بالفوز والمال والولد وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل على ذلك ولا يقتنع بقليل ولا بكثير منها، فلو حصل له من الدنيا ما حصل لم يزل طالبًا للزيادة ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ﴾ أى: المكروه كالمرض والفقر وأنواع البلايا ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أى: ييأس من رحمة الله تعالى ويظن أن هذا البلاء هو القاضى عليه بالهلاك ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يحب ويطلب، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب شكروا الله تعالى وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدراجًا وإمهالاً وإن أصابتهم مصيبة فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا ورجوا فضل ربهم فلم ييأسوا، ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ أى: الإنسان الذى يسأم من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أى: بعد ذلك الشر الذى أصابه بأن عافاه الله من مرضه أو أغناه من فقره فإنه لا يشكر الله تعالى بل يبغى ويطغى ويقول: ﴿هَٰذَا لِي﴾ أى: أتانى لأنى له أهل وأنا مستحق له ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وهذا إنكار منه للبعث وكفر للنعمة والرحمة التى أذاقها الله له ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أى: على تقدير إتيان الساعة وأنى سأرجع إلى ربى إن لى عنده للحسنى، فكما حصلت لى النعمة فى الدنيا فإنها ستحصل لى فى الآخرة، وهذا من أعظم الجرأة والقول على الله بلا علم فلهذا توعده بقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أى: شديد جدًا ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾ بصحة أو رزق أو غيرهما ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ربه وعن شكره ﴿وَنَأَىٰ﴾ ترفَّع ﴿بِجَانِبِهِ﴾ عجبًا وتكبرًا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أى: المرض أو الفقر أو غيرهما ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أى: كثير جدًا لعدم صبره، فلا صبر فى الضراء ولا شكر فى الرخاء إلا من هداه الله ومنَّ عليه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾

أى: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ من غير شك ولا ارتياب ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى: معاندة لله ولرسوله لأنه تبين لكم الحق والصواب ثم عدلتم عنه لا إلى حق بل إلى باطل وجهل فإذًا تكونون أضل الناس وأظلمهم، فإن قلتم أو شككتم بصحته وحقيقته فسيقيم الله لكم ويريكم من آياته حيث قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ كالآيات التي في السماء وفي الأرض وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة الدالة للمستبصر على الحق ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ مما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله وعجائب صنعته وباهر قدرته وفي حلول العقوبات والمثلات في المكذبين ونصر المؤمنين ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ من تلك الآيات بيانًا لا يقبل الشك ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وما اشتمل عليه حق، وقد فعل تعالى فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين أنه الحق ولكن الله هو الموفق للإيمان من يشاء والخاذل لمن يشاء ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أى: أولم يكفهم على أن القرآن حق ومن جاء به صادق بشهادة الله تعالى فإنه قد شهد له بالتصديق وهو أصدق الشاهدين وأيده ونصره نصرًا متضمنًا لشهادته القولية عند من شك فيها ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أى: في شك من البعث والقيامة وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا فلذلك لم يعملوا للآخرة ولم يلتفتوا لها ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ علمًا وقدرة وعزة.

تفسير سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ﴿١﴾ عسق ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين ففيه بيان فضله بإنزال الكتب وإرسال الرسل سابقًا ولاحقًا وأن محمدًا ﷺ ليس ببدع من الرسل وأن طريقته طريقة من قبله وأحواله تناسب أحوال من قبله من المرسلين وما جاء به يشابه ما جاءوا به لأن الجميع حق وصدق وهو تنزيل من اتصف بالألوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تدبيره القدري والشرعي، وأنه ﴿الْعَلِيُّ﴾ بذاته وقدره وقهره ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي من عظمته ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ(١) مِن فَوْقِهِنَّ﴾ على عظمها وكونها جمادًا ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته مستكينون لعزته مذعنون بربوبيته ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ويعظمونه وينزهونه عن كل نقص ويصفونه بكل كمال ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ عما يصدر منهم مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى ﴿هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة، وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل عمومًا وإلى محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - خصوصًا إشارة إلى أن هذا

---

(١) يتفطرن، أى: تنشق كل واحدة فوق التي تليها من عظمة الله.

القرآن الكريم فيه الأدلة والبراهين والآيات الدالة على كمال البارى تعالى ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله وإكرامه وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول اتخاذ أنداد لله من دونه ليس بيدهم نفع ولا ضر بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله فى جميع أحوالهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة كما يعبدون الله ويطيعونه فإنما اتخذوا الباطل وليسوا بأولياء على الحقيقة ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ يحفظ عليهم أعمالهم فيجازيهم بخيرها وشرها ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فتسأل عن أعمالهم وإنما أنت مبلغ أديت وظيفتك، ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس حيث أنزل الله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بين الألفاظ والمعانى ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة المكرمة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من قرى العرب ثم يسرى هذا الإنذار إلى سائر الخلق ﴿وَتُنذِرَ﴾ الناس ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ الذى يجمع الله به الأولين والآخرين وتخبرهم أنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ وهم الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ﴾ أى: جعل الناس كلهم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على الهدى لأنه القادر الذى لا يمتنع عليه شيء ولكن أراد أن يدخل فى رحمته من شاء من خواص خلقه، وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح فإنهم محرومون من الرحمة فـ ﴿مَا لَهُم﴾ من دون الله ﴿مِّن وَلِيٍّ﴾ يتولاهم فيحصل لهم المحبوب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم المكروه، والذين ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يتولونهم بعبادتهم إياهم فقد غلطوا أقبح غلط، فالله هو الولى الذى يتولاه عبده بعبادته وطاعته والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات ويتولى عباده عمومًا بتدبيره ونفوذ القدر فيهم ويتولى عباده المؤمنين خصوصًا بإخراجهم من الظلمات إلى النور وتربيتهم بلطفه وإعانتهم فى جميع أمورهم ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: هو المتصرف بالإحياء والإماتة ونفوذ المشيئة والقدرة فهو الذى يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ من أصول دينكم وفروعه مما لم تتفقوا عليه ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يرد إلى كتابه وإلى سنة رسوله فما حكما به فهو الحق وما خالف ذلك فباطل ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أى: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه فى جميع أمورهم، ومفهوم الآية الكريمة أن اتفاق الأمة حجة قاطعة لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه يكفى اتفاق الأمة عليه لأنها معصومة عن الخطأ ولا بد أن يكون اتفاقها موافقًا لما فى كتاب الله وسنة رسوله، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى: اعتمدت بقلبى عليه فى جلب المنافع ودفع المضار واثقًا به تعالى فى الإسعاف بذلك ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: أتوجه بقلبى وبدنى إليه وإلى طاعته وعبادته، وهذان الأصلان كثيرًا ما يذكرهما الله فى كتابه لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد ويفوته الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لتسكنوا إليها وتنتشر منكم الذرية ويحصل لكم من النفع ما يحصل ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أى: ومن جميع أصنافها نوعين ذكر وأنثى لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام الدالة على التعليل أى: جعل لكم من أنفسكم وجعل لكم من الأنعام أزواجًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أى: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته لا فى ذاته ولا فى أسمائه ولا فى صفاته ولا فى أفعاله لأن أسماءه كلها حسنى وصفاته صفات كمال وعظمة وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات

﴿الْبَصِيرُ﴾ يرى دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ويرى سريان القوت فى أعضاء الحيوانات الصغيرة جداً وسريان الماء فى الأغصان الدقيقة، وهذه الآية ونحوها دليل لمذاهب أهل السنة والجماعة من إثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات، وفيها رد على المشبهة فى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وعلى المعطلة فى قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: له ملك السموات والأرض وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فكل الخلق مفتقرون إلى الله فى جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم فى كل الأحوال ليس بيد أحد من الأمر شيء، والله تعالى هو المعطى المانع الضار النافع الذى ما بالعباد من نعمة إلا منه ولا يدفع الشر إلا هو و ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أى: يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أى: يضيق على من يشاء حتى يكون بقدر حاجته لا يزيد عنها وكل هذا تابع لعلمه وحكمته فلهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم أحوال عباده فيعطى كلا ما يليق بحكمته وتقتضيه مشيئته.

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها وأزكاها وأطهرها دين الإسلام الذى شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار وصفوة الصفوة وهم أولو العزم من المرسلين المذكورين فى هذه الآية أعلى الخلق درجة وأكملهم من كل وجه، فالدين الذى شرعه الله لهم لا بد أن يكون مناسبًا لأحوالهم موافقًا لكمالهم بل إنما كملهم الله واصطفاهم بسبب قيامهم به؟ فلولا الدين الإسلامى ما ارتفع أحد من الخلق فهو روح السعادة وقطب رحى الكمال وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب وقال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أى: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه تقيمونه بأنفسكم وتجتهدون فى إقامته على غيركم وتتعاونون على البر والتقوى ولا تتعاونوا على الإثم والعدوان ﴿وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أى: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزابًا وشيعًا يعادى بعضكم بعضًا مع اتفاقكم على أصل دينكم، ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة كاجتماع الحج والأعياد والجمع والصلوات الخمس والجهاد وغير ذلك من العبادات التى لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أى: شق عليهم غاية المشقة حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده كما قال عنهم ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقولهم كما حكى القرآن الكريم: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ أى: يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته، ومنه أن اجتبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم واختار لها أفضل الأديان وخيرها ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ هذا السبب الذى من العبد يتوصل به إلى هداية الله تعالى وهو: إنابته لربه وانجذاب دواعى قلبه إليه وكونه قاصداً وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده فى طلب الهداية من أسباب التيسير لها كما قال تعالى ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾.

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم ونهاهم عن التفرق أخبرهم أنهم ينبغى لهم أن لا يغتروا بما أنزل الله عليهم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغيًا وعدوانًا منهم، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أى: بتأخير العذاب القاضى إلى أجل مسمى ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ولكن حكمته وحلمه اقتضى تأخير ذلك عنهم ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى: الذين ورثوهم وصاروا خلفًا لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أى: لفى اشتباه كثير يوقع فى الاختلاف حيث اختلف سلفهم بغيًا وعنادًا فإن خلفهم اختلفوا شكًا وارتيابًا والجميع مشتركون فى الاختلاف المذموم ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾ أى: فللدين القويم والصراط المستقيم الذى أنزل الله به كتبه وأرسل رسله فادع إليك أمتك وحضهم عليه وجاهد عليه من لم يقبله ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ بنفسك ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ أى: استقامة موافقة لأمر الله لا تفريط ولا إفراط بل امتثالاً لأوامر الله واجتنابًا لنواهيه على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك، ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمته إذا لم يرد تخصيص له ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: أهواء المنحرفين عن الدين من الكفرة أو المنافقين إما باتباعهم على بعض دينهم أو بترك الدعوة إلى الله أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذًا لمن الظالمين، ولم يقل «ولا تتبع دينهم» لأن حقيقة دينهم الذى شرعه الله لهم هو دين الرسل كلهم ولكنهم لم يتبعوه بل اتبعوا أهواءهم واتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا ﴿وَقُلْ﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أى: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمنته على سائر الأديان وأن الدين الذى يزعم أهل الكتاب أنهم عليه جزء من الإسلام، وفى هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب أو ببعض الرسل دون غيره فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذى يدعون إليه والرسول الذى ينتسبون إليه من شرطه أن يكون مصدقًا بهذا القرآن وبمن جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرانا إلا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل التى أخبر بها وصدق بها وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته، وأما مجرد التوراة والإنجيل وموسى وعيسى الذين لم يوصفوا لنا ولم يوافقوا لكتابنا فلم يأمرنا بالإيمان بهم، وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أى: فى الحكم فيما اختلفتم فيه فلا تمنعنى عداوتكم وبغضكم يا أهل الكتاب من العدل بينكم ومن العدل فى الحكم بين أهل الأقوال المختلفة من أهل الكتاب وغيرهم أن يقبل ما معهم من الحق ويرد ما معهم من الباطل ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أى: هو رب الجميع لستم بأحق به منا ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ من خير وشر ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أى: بعدما تبينت الحقائق واتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال لم يبق للجدال والمنازعة محل لأن المقصود من الجدال إنما هو بيان الحق من الباطل ليهتدى الراشد ولتقوم الحجة على الغاوى، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون كيف والله يقول: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وإنما المراد ما ذكرنا ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يوم القيامة فيجزى كلا بعمله ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)﴾

وهذا تقرير لقوله ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ فأخبر هنا أن ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ بالحجج الباطلة والشبه المتناقضة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أى: من بعد ما استجاب لله أولو الألباب والعقول لما بيّن لهم من الآيات القاطعة والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ أى: باطلة مدفوعة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لأنها مشتملة على رد الحق وكل ما خالف الحق فهو باطل ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لعصيانهم

وإعراضهم عن حجج الله وبيناته وتكذيبها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هو أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بينة بحيث استجاب لها كل من فيه خير ذكر أصلها وقاعدتها بل جميع الحجج التى أوصلها إلى العباد ترجع إليه فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم نزل بالحق واشتمل على الحق والصدق واليقين وكله آيات بينات وأدلة واضحات على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل، وأما الميزان فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح فكل الدلائل العقلية من الآيات الأفقية والنفسية والاعتبارات الشرعية والمناسبات والعلل والأحكام والحكم داخلة فى الميزان الذى أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده ليزنوا به ما أثبته وما نفاه من الأمور ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت به رسله مما خرج عن هذين الأمرين ـ عن الكتاب والميزان ـ وما قيل: إنه حجة أو برهان أو دليل أو نحو ذلك من العبارات فإنه باطل متناقض قد فسدت أصوله وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها وعرف التمييز بين راجح الأدلة ومرجوحها والفرق بين الحجج والشبه، وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة والألفاظ المموهة ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد فإنه ليس من أهل هذا الشأن ولا من فرسان هذا الميدان فوفاقه وخلافه سيان، ثم قال تعالى مخوفًا للمستعجلين لقيام الساعة المنكرين لها: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أى: ليس بمعلوم وقتها وبعدها ولا متى تقوم فهى فى كل وقت متوقع وقوعها مخوف وجوبها ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ عنادًا وتكذيبًا وتعجيزًا لربهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أى: خائفون لإيمانهم بها وعلمهم بما اشتملت عليه من الجزاء بالأعمال وخوفهم لمعرفتهم بربهم أن لا تكون أعمالهم منجية ولا مسعدة ولهذا قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الذى لا مرية فيه ولا شك يعتريه ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ﴾ أى: بعدما امتروا فيها ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها ﴿لَفِى ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ فى غاية البعد عن الحق، وأى بعد أبعد ممن كذب بالدار التى هى الدار على الحقيقة وهى الدار التى خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهى دار الجزاء التى يظهر الله فيها عدله وفضله؟ وإنما هذه الدار بالنسبة إليها كراكب قال[1] فى ظل شجرة ثم رحل وتركها وهى دار عبور وممر لا محل استقرار، فصدقوا فى الدار المضمحلة الفانية حيث رأوها وشاهدوها وكذبوا بالدار الآخرة التى تواترت بالإخبار عنها الكتب الإلهية والرسل الكرام وأتباعهم الذين هم أكمل عقولا وأغزرهم علما وأعظمهم فطنة وفهما.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه ﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ ليعرفوه ويحبوه ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى معناه: الذى يدرك الضمائر والسرائر الذى يوصل عباده ـ وخصوصًا المؤمنين ـ إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون، فمن لطفه بعبده المؤمن أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيعازه تعالى لملائكته الكرام أن يثبتوا عباده المؤمنين ويحثوهم على الخير ويلقوا فى قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعيًا لاتباعه، ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية التى بها تقوى عزائمهم وتنبعث هممهم ويحصل منهم التنافس على الخير والرغبة فيه واقتداء بعضهم ببعض، ومن لطفه أن قيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصى حتى إنه تعالى إذا

---

(١) قال، أى: استراح ونام فى ظل شجرة وقت القيلولة، وهو قبيل الظهر، وفعله من الباب الثانى، يعنى «قال يقيل».

علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا تقطع عبده عن طاعته أو تحمله على الغفلة عنه أو على معصيته صرفها عنه وقدر عليه رزقه ولهذا قال هنا: ﴿يرزق من يشاء﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه ﴿وهو القوي العزيز﴾ الذى له القوة كلها فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به الذى دانت له جميع الأشياء ثم قال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة﴾ أى: أجرها وثوابها فآمن بها وصدق وسعى لها سعيها ﴿نزد له في حرثه﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافًا كثيرة كما قال تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا﴾ ومع ذلك فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه ﴿ومن كان يريد حرث الدنيا﴾ بأن كانت الدنيا هى مقصوده وغاية مطلوبه فلم يقدم لآخرته ولا رجا ثوابها ولم يخش عقابها ﴿نؤته منها﴾ نصيبه الذى قسم له ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾ قد حرم الجنة ونعيمها واستحق النار وجحيمها، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشتركون هم وإياهم فى الكفر وأعماله من شياطين الإنس الدعاة إلى الكفر ﴿شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ من الشرك والبدع وتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم، مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى ليدين به العباد ويتقربوا به إليه فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئًا ما جاء عن الله ولا عن رسوله فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وهم على الكفر ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾ أى: لولا الأجل المسمى الذى ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة وأنه سيؤخرهم إليه لقضى بينهم فى الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل لأن المقتضى للإهلاك موجود ولكن أمامهم العذاب الأليم فى الآخرة هؤلاء وكل ظالم، وفى ذلك اليوم ﴿ترى الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصى ﴿مشفقين﴾ أى: خائفين وجلين ﴿مما كسبوا﴾ أن يعاقبوا عليه، ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه وقد لا يقع أخبر أنه ﴿واقع بهم﴾ العقاب الذى خافوه لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب من غير معارض من توبة ولا غيرها ووصلوا موضعًا فات فيه الإنظار والإمهال ﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم بالله وبكتبه ورسله وبما جاءوا به ﴿وعملوا الصالحات﴾ يشمل فيه كل عمل صالح من أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فهؤلاء ﴿فى روضات الجنات﴾ أى: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة وما فيها من الأنهار المتدفقة والغياض المعشبة والمناظر الحسنة والأشجار المثمرة والطيور المغردة والأصوات الشجية المطربة والاجتماع بكل حبيب والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسنًا وبهاء ولا يزداد أهلها إلا اشتياقًا إلى لذاتها ووِدادًا ﴿لهم ما يشاءون﴾ فيها أى: فى الجنات ﴿عند ربهم﴾ فمهما أرادوا فهو حاصل ومهما طلبوا حصل مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ وهل فضل أكبر من الفوز برضا الله تعالى والتنعم بقربه فى دار كرامته؟ ﴿ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أى: هذه البشارة العظيمة التى هى أكبر البشائر على الإطلاق بشر بها الرحيم الرحمن على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح فهى أجل الغايات والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل ﴿قل لا أسألكم عليه﴾ أى: على تبليغى إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه ﴿أجرًا﴾ فلست أريد

أخذ أموالكم ولا التولى عليكم والترأس ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه إلا أجرًا واحدًا هو لكم وعائد نفعه إليكم وهو أن تودونى وتحبونى فى القرابة، أى: لأجل القرابة، ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان فإن مودة الإيمان، بالرسول وتقديم محبته على جميع المحاب بعد محبة الله فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القرابة لأنه ﷺ قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه حتى إنه قيل: إنه ليس فى بطون قريش أحد إلا ولرسول الله ﷺ فيه قرابة، ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالى الصادقة وهي التى يصحبها التقرب إلى الله، والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى: فى التقرب إلى الله وعلى كلا القولين فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألكم عليه أجرًا بالكلية إلا أن يكون شيئًا يعود نفعه إليهم فهذا ليس من الأجر فى شيء بل هو من الأجر منه لهم ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وقولهم: «ما لفلان عندك ذنب إلا أنه محسن إليك» ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ من صلاة أو صوم أو حج أو إحسان إلى الخلق ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ بأن يشرح الله صدره وييسر أمره ويكون سببًا للتوفيق لعمل آخر ويزداد بها عمل المؤمن ويرتفع عند الله وعند خلقه ويحصل له الثواب العاجل والآجل ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، فبمغفرته يغفر الذنوب ويستر العيوب وبشكره بتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافًا كثيرة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

يعنى أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذبًا: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فرموك بأشنع الأمور وأقبحها وهو الافتراء على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو برىء منه وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرءون على هذا الكذب الصراح؟ بل تجرءوا بذلك على الله تعالى، فإنه قدح فى الله حيث مكنك من هذه الدعوة العظيمة المتضمنة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد فى الأرض حيث مكنه الله من التصريح بالدعوة ثم بنسبتها إليه ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات والأدلة القاهرات والنصر المبين والاستيلاء على من خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع، فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول وأقوى شهادة من الله له على ما قال ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته وسنته الجارية أنه يمحو الباطل ويزيله وإن كان له صولة فى بعض الأوقات فإن عاقبته الاضمحلال ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ الكونية التى لا تبدل ولا تغير ووعده الصادق وكلماته الدينية التى تحقق ما شرعه من الحق وتثبته فى القلوب وتبصر أولى الألباب حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق أن يقيِّضَ له الباطل ليقاومه فإذا قاومه صال عليه الحق ببراهينه وبيناته فظهر من نوره وهداه ما به يضمحل الباطل وينقمع ويتبين بطلانه لكل أحد ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما فيها وما اتصفت به من خير وشر وما أكنته ولم تبده.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتمام لطفه إذ ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ الصادرة ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها ويعزمون على أن لا يعاودوها إذا قصدوا بذلك وجه ربهم فإن الله يقبلها بعد ما انعقدت سببًا للهلاك ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ ويمحوها ويمحو أثرها من العيوب وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريمًا كأنه ما عمل سوءًا قط ويحبه ويوفقه لما يقربه إليه، ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها وقد تكون ناقصة عند نقصهما وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فالله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير فانقسموا ـ بحسب الاستجابة له ـ إلى قسمين: مستجيبين وصفهم بقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه وينقادون له ويلبون دعوته لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك، فإذا استجابوا له شكر الله لهم وهو الغفور الشكور ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ توفيقًا ونشاطًا على العمل وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم وأما غير المستجيبين لله ﴿وَ﴾ هم المعاندون ﴿الْكَافِرُونَ﴾ به وبرسله فإنهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدنيا والآخرة ثم ذكر أن من لطفه بعباده أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة تضر بأديانهم فقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لغفلوا عن طاعة الله وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا فأوجبت لهم الانكباب على ما تشتهيه نفوسهم ولو كان معصية وظلمًا ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض ولو عافيته لأفسده ذلك إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم إني خبير بصير» ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد ﴿مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ وانقطع عنهم مدة وظنوا أنه لا يأتيهم وأيسوا وعملوا لذلك الجدب أعمالاً فينزل الله الغيث ﴿وَيَنشُرُ﴾ به ﴿رَحْمَتَهُ﴾ من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم فيقع عندهم موقعًا عظيمًا ويستبشرون بذلك ويفرحون ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم ﴿الْحَمِيدُ﴾ في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال وما أوصله إلى خلقه من أنواع الأفضال.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩)﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم ﴿خَلْقُ﴾ هذه ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على عظمتهما وسعتهما الدال على قدرته وسعة سلطانه وما فيهما من الإتقان والإحكام دال على حكمته وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ أي: ما نشر في السموات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ فقدرته ومشيئته صالحتان لذلك ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١)﴾

يخبر تعالى أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزًا عليهم إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات وأن ما يعفو الله عنه أكثر فإن الله لا يظلم العباد ولكن أنفسهم يظلمون ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ وليس إهمالاً منه تعالى تأخير العقوبات ولا عجزًا

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم بل أنتم عاجزون فى الأرض ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولاكم فيحصل لكم المنافع ﴿وَلا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده ﴿الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ﴾ من السفن والمراكب البخارية والشراعية التى هى من عظمها ﴿كَالأَعْلامِ﴾ وهى الجبال الكبار التى سخر لها البحر العجاج وحفظها من التطام الأمواج وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم الكثيرة إلى البلدان والأقطار البعيدة وسخر لها من الأسباب ما كان معونة على ذلك، ثم نبه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ التى جعلها الله سببًا لسيرها ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ أي: الجوارى «أي: السفن على اختلاف أنواعها» ﴿رَوَاكِدَ﴾ على ظهر البحر لا تتقدم ولا تتأخر ولا ينتقض هذا بالمراكب البخارية، فإن من شرط مشيها وجود الريح، وإن شاء الله تعالى أوبق الجوارى بما كسب أهلها أي: أغرقها فى البحر وأتلفها ولكنه يحلم ويعفو عن كثير ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها فيُكرهها عليه من مشقة طاعة أو ردع داع إلى معصية أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط ﴿شَكُورٍ﴾ فى الرخاء وعند النعم يعترف بنعمة ربه ويخضع له ويصرفها فى مرضاته فهذا الذى ينتفع بآيات الله، وأما الذى لا صبر عنده ولا شكر له عند نعم الله فإنه معرض أو مُعاند لا ينتفع بالآيات، ثم قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ ليبطلوها بباطلهم ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا ينقذهم منفذ مما حل بهم من العقوبة.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

هذا تزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ من ملك ورياسة وأموال وبنين وصحة وعافية بدنية ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لذة منغصة منقطعة ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الثواب الجزيل والأجر الجليل والنعيم المقيم ﴿خَيْرٌ﴾ من لذات الدنيا خيرية لا نسبة بينهما ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر ولا انتقال ثم ذكر لمن هذا الثواب فقال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة وبين التوكل الذى هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام وهو «أي: التوكل» الاعتماد بالقلب على الله فى جلب ما يحبه العبد ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ والفرق بين الكبائر والفواحش، مع أن جميعهما كبائر، أن الفواحش هى: الذنوب الكبار التى فى النفوس داع إليها كالزنا ونحوه والكبائر ما ليس كذلك هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر يدخل فيه ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم فصار الحلم لهم سجية وحسن الخلق لهم طبيعة حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه بل غفروه ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح، فترتب على هذا العفو والصفح من المصالح ودفع المفاسد فى أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿وَالَّذِينَ

استجابوا لربهم﴾ أي: انقادوا لطاعته ولبوا دعوته وصار قصدهم رضوانه وغايتهم الفوز بقربة، ومن الاستجابة لله إقام الصلاة وإيتاء الزكاة فذلك عطفها على ذلك من باب عطف العام على الخاص الدال على شرفه وفضله فقال: ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي: ظاهرها وباطنها فرضها ونفلها ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ من النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم والمستحبة كالصدقات على عموم الخلق ﴿وأمرهم﴾ الديني والدنيوي ﴿شورى بينهم﴾ أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم وهذا لا يكون إلا فرعًا عن اجتماعهم وتوالفهم وتوادهم وتحاببهم، فمن كمال عقولهم أنهم إذا أرادوا أمرًا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها حتى إذا تبينت لهم المصلحة انتهزوها وبادروها وذلك كالرأي في الغزو والجهاد وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء أو غيرهما وكالبحث في المسائل الدينية عمومًا فإنها من الأمور المشتركة والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله وهو داخل في هذه الآية ﴿والذين إذا أصابهم البغي﴾[1] أي: وصل إليهم من أعدائهم ﴿هم ينتصرون﴾ لقوتهم وعزتهم ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار، فوصفهم بالإيمان والتوكل على الله واجتناب الكبائر والفواحش الذي تكفر به الصغائر والانقياد التام والاستجابة لربهم وإقامة الصلاة والإنفاق في وجوه الإحسان والمشاورة في أمورهم والقوة والانتصار على أعدائهم، فهذه خصال الكمال قد جمعوها ويلزم من قيامها فيهم فعل ما هو دونها وانتفاء ضدها.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ (٤٣)﴾

ذكر الله في هذه الآية مراتب العقوبات وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم، فمرتبة العدل جزاء السيئة بسيئة مثلها لا زيادة ولا نقص فالنفس بالنفس وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها والمال يضمن بمثله، ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء ولهذا قال: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ يجزيه أجرًا عظيمًا وثوابًا كثيرًا، وشرط الله في العفو والإصلاح فيه ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق بالعفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته فإنه - في هذه الحال - لا يكون مأمورًا به، وفي جعل أجر العافي على الله مما يهيج على العفو وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به فكما يحب أن يعفو الله عنه فليعف عنهم وكما يحب أن يسامحه الله فليسامحهم فإن الجزاء من جنس العمل، وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته فالزيادة ظلم ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ أي: لا حرج عليهم في ذلك، ودل قوله ﴿والذين إذا أصابهم البغي﴾ وقوله: ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه، وأما إرادة البغي على الغير وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء فهذا لا يجازى بمثله وإنما يؤدب تأديبًا يردعه عن قول أو فعل صدر منه ﴿إنما السبيل﴾ أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ أي: موجع للقلوب والأبدان بحسب ظلمهم وبغيهم ﴿ولمن صبر﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وغفر﴾ لهم بأن سمح لهم عما صدر منهم ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ أي: الأمور التي حث الله عليها وأكدها وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم وذوو الألباب والبصائر فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى والصفح عنه ومغفرته ومقابلته بالإحسان أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه وجاهد

(١) البغي، أي: الظلم، يعني: ينتقمون ممن ظلمهم بمثل ظلمه، كما قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾.

نفسه على الاتصاف به واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته ووجد آثاره تلقاه برحب الصدر وسعة الخلق والتلذذ فيه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦)﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال وأنه ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بسبب ظلمه ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾ يتولى أمره ويهديه ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ مرأى ومنظرًا فظيعًا صعبًا شنيعًا يظهرون الندم العظيم والحزن على ما سلف منهم ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا لنعمل غير الذى كنا نعمل وهذا طلب للأمر المحال الذى لا يمكن ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أى: على النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ أى: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذى فى قلوبهم ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أى: ينظرون إلى النار مسارقة وشزرًا من هيبتها وخوفها ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حين ظهرت عواقب الخلق وتبين أهل الصدق من غيرهم ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ على الحقيقة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حيث فوتوا على أنفسهم جزيل الثواب وحصلوا على أليم العقاب وفرّق بينهم وبين أهليهم فلم يجتمعوا بهم آخر ما عليهم ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصى ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أى: فى سوائه ووسطه منغمرون لا يخرجون منه أبدًا ولا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ كما كانوا فى الدنيا يمنون أنفسهم بذلك ففى القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التى أملوها تقطعت وأنه حين جاءهم عذاب الله لم يدفع عنهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ تحصل به هدايته، فهؤلاء ضلوا حين زعموا فى شركائهم النفع ودفع الضر فتبين حينئذ ضلالهم.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨)﴾

يأمر تعالى عباده بالاستجابة له بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ القيامة الذى إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت، وليس للعبد فى ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه فيفوت ربه ويهرب منه بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة من خلفهم ونودوا ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ وليس للعبد فى ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه، وهذه الآية ونحوها فيها ذم الأمل والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عما جئت به بعد البيان التام ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ أعمالهم وتُسأل عنها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فإذا أديت ما عليك فقد وجب أجرك على الله سواء استجابوا أم أعرضوا وحسابهم على الله الذى يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها وظاهرها وباطنها، ثم ذكر تعالى حالة الإنسان وأنه إذا أذاقه رحمة من صحة بدن ورزق رغد وجاه ونحوه ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أى: فرح فرحًا مقصورًا عليها لا يتعداها ويلزم من ذلك طمأنينته بها وإعراضه عن المنعم ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أى: مرض أو فقر أو نحوهما ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أى: طبيعته كفران النعمة السابقة والتسخط لما أصابه من السيئة.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾

هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى ونفوذ تصرفه فى الملك فى الخلق لما يشاء والتدبير لجميع الأمور حتى أن تدبيره تعالى من عمومه أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب لولادة الأولاد فالله تعالى هو الذى يعطيهم من الأولاد ما يشاء، فمن الخلق من يهب له إناثًا ومنهم من يهب له ذكورًا ومنهم من يزوجه أى يجمع له ذكورًا وإناثًا ومنهم من يجعله عقيمًا لا يولد له ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شىء ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شىء فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء بقدرته فى مخلوقاته.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)﴾

لما قال المكذبون لرسل الله الكافرون بالله: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ من كبرهم وتجبرهم رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة وبين أن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه للأنبياء والمرسلين وصفوته من العالمين وأنه يكون على أحد هذه الأوجه إما أن يكلمه الله ﴿وَحْيًا﴾ بأن يلقى الوحى فى قلب الرسول من غير إرسال ملك ولا مخاطبة منه شفاهًا ﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاهًا لكن ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسى بن عمران كليم الرحمن ﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكى ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ﴾ أى: بإذن ربه لا بمجرد هواه ﴿مَا يَشَاءُ إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيٌّ﴾ أى على الذات على الأوصاف عظيمها على الأفعال قد قهر كل شىء ودانت له المخلوقات ﴿حَكِيمٌ﴾ فى وضعه كل شىء موضعه من المخلوقات والشرائع ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهو: هذا القرآن الكريم، سماه روحًا لأن الروح يحيا به الجسد والقرآن تحيا به القلوب والأرواح وتحيا به مصالح الدنيا والدين لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير، وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين من غير سبب منهم ولهذا قال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي﴾ أى: قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أى: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أميًا لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذى ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به فى ظلمات الكفر والبدع والأهواء المردية ويعرفون به الحقائق ويهتدون به إلى الصراط المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: تبينه لهم وتوضحه وترغبهم فيه وتنهاهم عن ضده وترهبهم منه ثم فسر الصراط المستقيم فقال: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: الصراط الذى نصبه الله لعباده وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أى: ترجع أمور الخير والشر فيجازى كُلا بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

تفسير سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥)﴾

هذا قسم بالقرآن فأقسم بالكتاب المبين وأطلق ولم يذكر المتعلق ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ﴾ هذا هو المقسوم عليه أنه جُعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها وهذا من بيانه، وذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان ﴿ **وَإِنَّهُ** ﴾ أي: هذا الكتاب ﴿ **فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا** ﴾ أي: في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿ **لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ أي: لعلى في قدره وشرفه ومحله حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان، ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله تقتضي أن لا يترك عباده هملاً لا يرسل إليهم رسولاً ولا ينزل عليهم كتابًا ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال: ﴿ **أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا** ﴾ أي: أفنعرض عنكم ونترك إنزال الذكر إليكم ونضرب عنكم صفحًا لأجل إعراضكم وعدم انقيادكم؟ بل ننزل عليكم الكتاب ونوضح لكم فيه كل شيء، فإن آمنتم به واهتديتم فهو من توفيقكم وإلا فقد قامت عليكم الحجة وكنتم على بينة من أمركم.

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى: إن هذه سنتنا في الخلق أن لا نتركهم هملاً ﴿ **وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ** ﴾ يأمرونهم بعبادة الله وحده لا شريك له ولم يزل التكذيب موجودًا في الأمم ﴿ **وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ جحدًا لما جاء به وتكبرًا على الحق ﴿ **فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم** ﴾ أي: من هؤلاء ﴿ **بَطْشًا** ﴾ أي: قوة وأفعالاً وآثارًا في الأرض ﴿ **وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ أي: مضت أمثالهم وأخبارهم وبيَّنا لكم منها ما فيه عبرة ومزدجر عن التكذيب.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنك ﴿ **لَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** ﴾ أي: الله وحده لا شريك له العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات بظواهر الأمور وبواطنها وأوائلها وأواخرها، فإذا كانوا مقربين بذلك فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق ولا يميت ولا يحيي؟! ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا** ﴾ ثم ذكر أيضًا من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره بما خلقه لعباده من الأرض التي مهدها وجعلها قرارًا للعباد يتمكنون فيها من كل ما يريدون ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا** ﴾ أي: جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار ﴿ **لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ في السير في الطرق ولا تضيعون ولعلكم أيضًا تهتدون في الاعتبار بذلك والادكار فيه ﴿ **وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ** ﴾ لا يزيد ولا ينقص ويكون أيضًا بمقدار الحاجة لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل أغاث به العباد وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال: ﴿ **فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا** ﴾ أي: أحييناها بعد موتها ﴿ **كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ** ﴾ أي: فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء كذلك يحييكم بعدما تستكملون في البرزخ ليجازيكم بأعمالكم ﴿ **وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا** ﴾ أي: الأصناف جميعها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون من ليل ونهار وحر وبرد وذكر وأنثى وغير ذلك ﴿ **وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ** ﴾ أي: السفن البحرية الشراعية والبخارية ﴿ **وَ** ﴾ من ﴿ **الْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ** ﴾ وهذا شامل لظهور الأنعام أي: لتستقروا عليها

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها والثناء عليه تعالى بذلك، ولهذا قال: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أى: لولا تسخيره لنا ما سخر من الفلك والأنعام ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى سخرها وذللها ويسر أسبابها، والمقصود من هذا بيان أن الرب الموصوف بما ذكره من إفاضة النعم على العباد هو الذى يستحق أن يعبد ويصلى له ويسجد(١).

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾

يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين الذين جعلوا لله تعالى ولدًا وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولم يكن له كفوًا أحد، وأن ذلك باطل من عدة أوجه: **منهـا:** أن الخلق كلهم عبـاده والعبودية تنافى الولادة، **ومنها:** أن الولد جزء من والده والله تعالى بائن من خلقه مباين لهم فى صفاته ونعوت جلاله والولد جزء من الوالد فمحال أن يكون لله ولد، **ومنها:** أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون لله البنات ويصطفيهم بالبنين ويفضلهم بها؟! فإذًا يكونون أفضل من الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، **ومنها:** أن الصنف الذى نسبوه لله وهو البنات أدون الصنفين وأكرهها لهم حتى إنهم من كراهتهم لذلك ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من كراهته وشدة بغضه فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟ **ومنها:** أن الأنثى ناقصة فى وصفها وفى منطقها وبيانها ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ أى: يجمل فيها لنقص جماله فيجمل بأمر خارج منه؟ ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ أى: عند الخصام الموجب لإظهار مـا عند الشخص من الكلام ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أى: غير مبين لحجته ولا مفصح عما احتوى عليه ضميره فكيف ينسبونهن لله تعالى؟ **ومنهـا:** أنهم ﴿جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ فتجرءوا على الملائكة العباد المقربين ورقوهم عن مرتبة العبـادة والذل إلى مرتبة المشاركـة لله فى شىء من خواصه ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مـرتبة الأنوثية، فسبحان من أظهـر تناقض من كذب عليه وعاند رسله، **ومنهـــا:** أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد أنه ليس لهم به علم؟!! ولكن لا بد أن يُسألوا عن هذه الشهادة وستكتب عليهم ويعاقبون عليها، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة وهى حجة لم يزل المشركون يطرقونها وهى حجة باطلة فى نفسها عقلاً وشـرعًا، فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر ولو سلكه فى حالة من أحوالـه لم يثبت عليها قدمه، وأما شرعًا فإن الله تعـالى أبطل الاحتجاج به ولم يذكره عن غير المشركـين به المكذبين لرسله فإن الله تعالى قد

---

(١) ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أى: وإنا إلى خالقنا لراجعون بعد هذه الحياة ليحاسب بما قدمت يداه.

وفيه إيـذان وإعلام بأن حق الراكب أن يتأمل فيـما يلابسه من المسـير، ويتذكر منـه المسافرة العظمى، التى هى الانقـلاب والرجوع إلى الله تعالى: فيبنى أموره فى مسيره ذلك على تلك الملاحظة، ولا يخطر ببـاله فى شىء مما يأتى ويذر أمرًا ينافيها، ومن ضرورته أن يكون ركوبه لأمر مشروع.

أقام الحجة على العباد فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً ولهذا قال هنا: ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ أي: يتخرصون تخرصًا لا دليل عليه ويتخبطون خبط عشواء، ثم قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ يخبرهم بصحة أفعالهم وصدق أقوالهم؟ ليس الأمر كذلك فإن الله أرسل محمدًا نذيرًا إليهم وهم لم يأتهم نذير غيره، أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأمران فلا ثَمَّ إلا الباطل، نعم لهم شبهة من أوهى الشُبه وهي: تقليد آبائهم الضالين الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: على دين وملة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: منعموها وملؤها الذين أطغتهم الدنيا وغرتهم الأموال واستكبروا على الحق: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ أي: فهؤلاء ليسوا ببدع منهم وليسوا بأول من قال هذه المقالة، وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين بتقليدهم لآبائهم الضالين ليس المقصود به اتباع الحق والهدى وإنما هو تعصب محض يراد به نصرة ما معهم من الباطل، ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي: أفتتبعوني لأجل الهدى ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعلم بهذا أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بتكذيبهم الحق وردهم إياه بهذه الشبهة الباطلة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم فيصيبهم ما أصابهم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾

يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون وكلهم يزعم أنه على طريقته، فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: مبغض له مجتنب معاد لأهله ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾[1] فإني أتولاه وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل بالحق، فكما فطرني ودبرني بما يصلح ديني ودنياي ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ لما يصلح ديني وآخرتي ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: هذه الخصلة الحميدة التي هي أم الخصال وأساسها وهي إخلاص العبادة لله وحده والتبرِّي من عبادة ما سواه ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي: في ذريته ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إليها ﴿يَرْجِعُونَ﴾ لشهرتها عنه وتوصيته لذريته وتوصية بعض بنيه كإسحاق ويعقوب لبعض، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ إلى آخر الآيات، فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطغيان، فقال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ بأنواع الشهوات حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم فلم تزل يتربى حبها في قلوبهم حتى صارت صفات راسخة وعقائد متأصلة ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين الرسالة قامت أدلة رسالته قيامًا باهرًا بأخلاقه ومعجزاته وبما جاء به وبما صدق به المرسلين وبنفس دعوته ﷺ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه بل ولا جحده فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحًا شنيعًا وجعلوه بمنزلة السحر الباطل الذي لا يأتي به إلا أخبث الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم،

---

(١) فطرني، أي: خلقني، وأبدعني.

﴿وَقَالُوا﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أى: معظم عندهم مبجل من أهل مكة وأهل الطائف كالوليد بن المغيرة ونحوه ممن هو عندهم عظيم، قال الله ردًا لاقتراحهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أى: أهم الخزان لرحمة الله وبيدهم تدبيرها فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون ويمنعونها ممن يشاءون؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أى: فى الحياة الدنيا ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا، فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى وهو الذى يقسمها بين عباده فيبسط الرزق على من يشاء ويضيقه على من يشاء بحسب حكمته فرحمته الدينية التى أعلاها النبوة والرسالة أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى فالله أعلم حيث يجعل رسالته، فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ وأن التدبير للأمور كلها دينيها ودنيويها بيد الله وحده، هذا إقناع لهم من جهة غلطهم فى الاقتراح الذى ليس فى أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق، وقولهم: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لولا عرفوا حقائق الرجال والصفات التى بها يعرف علو قدر الرجل وعظم منزلته عند الله وعند خلقه لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ هو أعظم الرجال قدرًا وأعلاهم فخرًا وأكملهم عقلاً وأغزرهم علمًا وأجلهم رأيًا وعزمًا وجزمًا وأكملهم خلقًا وأوسعهم رحمة وأشدهم شفقة وأهداهم وأتقاهم، وهو قطب دائرة الكمال وإليه المنتهى فى أوصاف الرجال ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه إلا من ضل وكابر، فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟! ومن جرمه ومنتهى حمقه أن جعل إلهه الذى يعبده ويدعوه ويتقرب إليه صنمًا أو شجرًا أو حجرًا لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع وهو كَلٌّ على مولاه يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل السفهاء والمجانين؟ فكيف يجعل مثل هذا عظيمًا؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم محمد ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون، وفى هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى فى تفضيل الله بعض العباد على بعض فى الدنيا ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أى: ليسخر بعضهم بعضًا فى الأعمال والحرف والصنائع، فلو تساوى الناس فى الغنى ولم يحتج بعضهم إلى بعض لتعطل كثير من مصالحهم ومنافعهم، وفيها دليل على أن نعمته الدينية خير من النعمة الدنيوية كما قال تعالى فى الآية الأخرى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئًا وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده التى لا يقدم عليها شيئًا لوسَّع الدنيا على الذين كفروا توسيعًا عظيمًا ولجعل: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أى: درجًا من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ إلى سطوحهم ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ من فضة، ولجعل لهم زخرفًا أى: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفًا عليهم من التسارع فى الكفر وكثرة المعاصى بسبب حب الدنيا، ففى هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعًا عامًا أو خاصًا لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا منغصة مكدرة فانية وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، لأن نعيمها تام كامل من كل وجه وفى الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، فما أشد الفرق بين الدارين!!.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يخبر تعالى عن عقوبته البليغة لمن أعرض عن ذكره فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أى: يعرض ويصد ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ الذى هو القرآن العظيم الذى هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمَنْ قبلها فقد قبل خير المواهب وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردها فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدًا وقيَّض له الرحمن شيطانًا مريدًا يقارنه ويصاحبه ويعده ويمنيه ويؤزه إلى المعاصى أزًا ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أى: الصراط المستقيم والدين القويم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له وإعراضهم عن الحق فاجتمع هذا وهذا، **فإن قيل**: فهل لهذا من عذر من حيث إنه ظن أنه مهتد وليس كذلك؟ **قيل**: لا عذر لهذا وأمثاله الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله مع تمكنهم من الاهتداء، فزهدوا فى الهدى مع القدرة عليه ورغبوا فى الباطل فالذنب ذنبهم والجرم جرمهم، فهذه حالة هذا المُعْرض عن ذكر الله فى الدنيا مع قرينه وهو الضلال والغىُّ وانقلاب الحقائق، وأما حاله إذا جاء ربه فى الآخرة فهو شر الأحوال وهو الندم والتحسر والحزن الذى لا يجبر مصابه والتبرِّى من قرينه، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ كما فى قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم فى العذاب أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم، وذلك لأنكم اشتركتم فى الظلم فاشتركتم فى عقابه وعذابه، ولن ينفعكم أيضًا روح التسلى فى المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت فى الدنيا واشترك فيها المعاقبون هان عليهم بعض الهون وتسلَّى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة فإنها جمعت كل عقاب ما فيه أدنى راحة حتى ولا هذه الراحة، نسألك يا ربنا العافية وأن تريحنا برحمتك.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ مسليًا له عن امتناع المكذبين عن الاستجابة له وأنهم لا خير فيهم ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ أى: الذين لا يسمعون ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ الذين لا يبصرون ﴿وَ﴾ تهدى ﴿مَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بيِّنٌ واضح لعلمه بضلاله ورضاه به، فكما أن الأصم لا يسمع الأصوات والأعمى لا يبصر والضال ضلالاً مبينًا لا يهتدى، فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم بإعراضهم عن الذكر واستحدثوا عقائد فاسدة وصفات خبيثة تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدى وتوجب لهم الازدياد من الردى، فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم إما فى الدنيا أو فى الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أى: فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب فاعلم بخبرنا الصادق أنا منهم منتقمون ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ من العذاب ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيره، فهذه حالك وحال هؤلاء المكذبين، وأما أنت ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ فعلاً واتصافًا بما يأمر بالاتصاف به ودعوة إليه وحرصًا على تنفيذه بنفسك وفى غيرك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى الله وإلى دار كرامته وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء إذا علمت أنه حق وعدل وصدق تكون بانيًا على أصل أصيل إذا بنى غيرك على الشوك[1] والأوهام والظلم والجور ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى هذا القرآن الكريم ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أى: فخر لكم ومنقبة جليلة ونعمة لا يقادر قدرها ولا يعرف وصفها ويذكركم أيضًا ما فيه من الخير

(١) قوله: «على الشوك» لعل الصواب «الشرك» كما يفيده سياق الكلام وسباقه.

الدنيوى والأخروى ويحثكم عليه ويذكركم الشر ويرهبكم عنه ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عنه هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم أم لم تقوموا به؟ فيكون حجة عليكم وكفرًا منكم بهذه النعمة ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ حتى يكون للمشركين نوع حجة يتبعون فيها أحدًا من الرسل، فإنك لو سألتهم واستخبرت عن أحوالهم لم تجد أحدًا منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله وأن كل الرسل من أولهم إلى آخرهم يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وكل رسول بعثه الله يقول لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فدل هذا أن المشركين ليس لهم مستند فى شركهم لا من عقل صحيح ولا نقل عن الرسل، لما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ بين تعالى حال موسى ودعوته التى هى أشهر ما يكون من دعوات الرسل ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها فى كتابه فذكر حاله مع فرعون.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦)﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ التى دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به كالعصا والحية وإرسال الجراد والقمل إلى آخر الآيات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فدعاهم إلى الإقرار بربهم ونهاهم عن عبادة ما سواه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أى: ردوها وأنكروها واستهزءوا بها ظلمًا وعلوًا، فلم يكن لقصور بالآيات وعدم وضوح فيها ولهذا قال: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أى: الآية المتأخرة أعظم من السابقة ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ كالجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإسلام ويذعنون له ليزول شركهم وشرهم ﴿وَقَالُوا﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ يعنون موسى عليه السلام، وهذا إما من باب التهكم به وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحًا فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم وهم السحرة فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أى: بما خصك الله به وفضلك به من الفضائل والمناقب أن يكشف عنا العذاب ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إن كشف الله عنا ذلك ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أى: لم يفوا بما قالوا بل غدروا واستمروا على كفرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ﴾ مستعليًا بباطله قد غره ملكه وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ أى: ألست المالك لذلك المتصرف فيه ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أى: الأنهار المنسحبة من النيل فى وسط القصور والبساتين ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الملك الطويل العريض، وهذا من جهله البليغ حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته ولم يفخر بأوصاف حميدة ولا أفعال سديدة ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعنى - قبحه الله - بالمهين موسى بن عمران كليم الرحمن الوجيه عند الله، أى: أنا العزيز وهو الذليل المهان المحتقر فأينا خير؟ ﴿وَ﴾ مع هذا فإنه ﴿لَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ عما فى ضميره بالكلام لأنه ليس بفصيح اللسان، وهذا ليس من العيوب فى شىء إذا كان يبين ما فى قلبه ولو كان الكلام ثقيلاً

عليه، ثم قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: فهلا كان موسى بهذه الحالة أن يكون مزينًا مجملاً بالحلي والأساور؟ ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يعاونونه على دعوته ويؤيدونه على قوله ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استخف فرعون عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه التي لا تسمن ولا تغني من جوع ولا حقيقة تحتها وليست دليلاً على حق ولا على باطل ولا تروج إلى على ضعفاء العقول، فأي دليل يدل على أن فرعون محق في كون ملك مصر له وأنهارها تجري من تحته؟ وأي دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى لقلة أتباعه وثقل لسانه وعدم تحلية أم له له بأساور من ذهب؟ ولكن فرعون لقي ملأ لا عقول عندهم، فمهما قال اتبعوه من حق وباطل ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فبسبب فسقهم قيض لهم فرعون يزين لهم الشرك والشر ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا بأفعالهم ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ ليعتبر بهم المعتبرون ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٢ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٦٥﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي: نُهي عن عبادته وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ المكذبون لك ﴿مِنْهُ﴾ أي: من أجل هذا المثل المضروب ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي: يلجون في خصومتهم لك ويصيحون ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم وأفلحوا ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعني: عيسى حيث نهي عن عبادة الجميع وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم، ونزل أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ ووجه حجتهم الظالمة أنهم قالوا: قد تقرر عندنا يا محمد أن عيسى من عباد الله المقربين الذين لهم العاقبة الحسنة فلم سويت بينه وبين معبوداتنا في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولا أن حجتك باطلة لم تتناقض، ولم قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ وهذا اللفظ بزعمهم يعم الأصنام وعيسى، فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها، هذا أقصى ما يقرون به هذه الشبهة التي فرحوا بها واستبشروا وجعلوا يصدون ويتباشرون، وهي - ولله الحمد - من أضعف الشبه وأبطلها فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح وبين النهي عن عبادة الأصنام لأن العبادة حق لله تعالى لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا من سواهم من الخلق فأي: شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟ وليس في تفضيل عيسى عليه السلام وكونه مقربًا عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة والحكمة والعلم والعمل ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ فالجواب عنها من ثلاثة أوجه: **أحدها:** أن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أن «ما» اسم لما لا يعقل، لا يدخل فيه المسيح ونحوه، **الثاني:** أن الخطاب للمشركين الذين بمكة وما حولها وهم إنما يعبدون أصنامًا وأوثانًا، **الثالث:** أن الله قال بعد هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فلا شك أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء داخلون في هذه الآية، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم في الأرض

ويكونون فى الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم أن أرسل إليكم رسلاً من جنسكم تتمكنون من الأخذ عنهم ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أى: وإن عيسى عليه السلام لدليل على الساعة وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو وإن عيسى عليه السلام سينزل فى آخر الزمان ويكون نزوله علامة من علامات الساعة ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أى: لا تشكن فى قيام الساعة فإن الشك فيها كفر ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ بامتثال ما أمرتكم واجتناب ما نهيتكم ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الله عز وجل ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عما أمركم الله به ﴿إِنَّهُ﴾ أى الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ حريص على إغوائكم باذل جهده فى ذلك ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك من الآيات ﴿قَالَ﴾ لبنى إسرائيل ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ النبوة والعلم، بما ينبغى على الوجه الذى ينبغى ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أى: أبين لكم صوابه وجوابه فيزول عنكم بذلك اللبس فجاء عليه السلام مكملاً ومتممًا لشريعة موسى عليه السلام ولأحكام التوراة وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له وقبول ما جاءهم به ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أى: اعبدوا الله وحده لا شريك له وامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه وآمنوا بى وصدقونى وأطيعونى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية بأن الله هو المربى جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة والإقرار بتوحيد العبودية بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله ليس كما قال النصارى فيه: «إنه ابن الله أو ثالث ثلاثة» والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم موصل إلى الله وإلى جنته، فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ المتحزبون على التكذيب ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ كلٌّ قال بعيسى عليه السلام مقالة باطلة ورد ما جاء به إلا من هدى الله من المؤمنين الذين شهدوا له بالرسالة وصدقوا بكل ما جاء به وقالوا: إنه عبد الله ورسوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: ما أشد حزن الظالمين ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وما أعظم خسارهم فى ذلك اليوم!!.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أى: هل ينتظر المكذبون وهل يتوقعون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: فإذا جاءت فلا تسألوا عن أحوال من كذب بها واستهزأ بمن جاء بها، وإن ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة، المتخالين على الكفر والتكذيب ومعصية الله ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن خلتهم ومحبتهم فى الدنيا لغير الله فانقلبت يوم القيامة عداوة ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ للشرك والمعاصى فإن محبتهم تدوم وتتصل بدوام من كانت المحبة لأجله، ذكر ثواب المتقين وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أى: لا خوف يلحقكم فيها تستقبلونه من الأمور ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه ثبت المحبوب المطلوب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: وصفهم الإيمان بآيات الله وذلك شامل للتصديق بها وما لا يتم التصديق إلا به من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ لله منقادين له فى جميع أحوالهم، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ التى هى دار القرار ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أى: من كان على مثل عملكم من كل مقارن لكم من زوجة وولد وصاحب وغيرهم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أى: تنعمون وتكرمون ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات

والسرور والأفراح واللذات ما لا تعبر الألسن عن وصفه ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: تدور عليهم خدامهم من الولدان المخلدين بطعامهم بأحسن الأواني وأفخرها وهي: صحاف الذهب وشرابهم بألطف الأواني وهي الأكواب التي لا عرى لها وهي من أصفى الأواني من فضة أعظم من صفاء القوارير ﴿وَفِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ وهذا اللفظ جامع يأتي على كل نعيم وفرح وقرة عين وسرور قلب، فكل ما تشتهيه النفوس من مطاعم ومشارب وملابس ومناكح وما تلذه العيون من مناظر حسنة وأشجار محدقة ونعم مونقة ومبان مزخرفة فإنه حاصل فيها معد لأهلها على أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة وهو: الخلد الدائم فيها الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته وعدم انقطاعه ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات هي ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أورثكم الله إياها بأعمالكم وجعلها من فضله جزاء لهم وأودع فيها من رحمته ما أودع ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ كما في الآية الأخرى ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية والثمار اللذيذة تأكلون، ولما ذكر نعيم الجنة عقَّبه بذكر عذاب جهنم فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾ أي: منغمرون فيه محيط بهم العذاب من كل جانب ﴿خَالِدُونَ﴾ فيه لا يخرجون منه أبدًا، و ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ساعة لا بإزالته ولا بتهوين عذابه ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير غير راجين للفرج وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ وهذا العذاب العظيم بما قدمت أيديهم وبما ظلموا به أنفسهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ فالله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم ﴿وَنَادَوْا﴾ وهم في النار لعلهم يحصل لهم استراحة ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: ليمتنا فنستريح فإننا في غم شديد وعذاب غليظ لا صبر لنا عليه ولا جلد ﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار ـ حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ أي: مقيمون فيها لا تخرجون منها أبدًا، فلم يحصل لهم ما قصدوه بل أجابهم بنقيض قصدهم وزادهم غمًا إلى غمهم، ثم وبخهم بما فعلوا فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ الذي يوجب عليكم أن تتبعوه، فلو تبعتموه لفزتم وسعدتم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ أي: أبرم المكذبون بالحق المعاندون له ﴿أَمْرًا﴾ أي: كادوا كيدًا ومكروا للحق ولمن جاء بالحق ليدحضوه بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي: محكمون أمرًا ومدبرون تدبيرًا يعلو تدبيرهم وينقضه ويبطله، وهو ما قيضه الله من الأسباب والأدلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ الذي لم يتكلموا به بل هو سر في قلوبهم ﴿وَنَجْوَاهُم﴾ أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها، فرد الله عليهم بقوله: ﴿بَلَى﴾ إنا نعلم سرهم ونجواهم ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الملائكة الكرام ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كل ما عملوه، سيحفظ ذلك عليهم حتى يردوا القيامة فيجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أى: قل يأيها الرسول الكريم للذين جعلوا لله ولداً، وهو الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولم يكن له كفواً أحد ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد، لأنه جزء من والده وأنا أول الخلق انقيادًا للأوامر المحبوبة لله ولكنى أول المنكرين لذلك وأشدهم لـه نفيًا فعلم بذلك بطلانه، فهذا احتجاج عظيم عند من عـرف أحوال الرسل، وأنه إذا علـم أنهم أكمل الخلق وأن كل خير فـهم أول الناس سبقًا إليـه وتكميلاً له وكل شر فهم أول الناس تركًا له وإنكاراً له وبعـداً منه، فلو كان للرحمن ولد وهو الحق لكان محمد ابن عبد الله أفضل الرسل أول من عبده ولم يسبقه إليه المشركون، ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتى لله إثبات ما أثبته ونفى ما نفاه فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا لو كان حقًا لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادهم عقلاً ونقلاً ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الشريك والظهير والعوين والولد وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أى: يخوضوا بالباطل ويلعبوا بالمحال، فعلومهم ضارة غير نافعة وهى الخوض والبحث بالعلوم التى يعارضون بها الحق وما جاءت به الرسل وأعـمالهم لعب وسفاهة لا تزكى النفوس ولا تثمر المعارف، ولهذا توعدهم بما أمـامهم يوم القيامة فقال: ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ﴾ فسيعلمـون فيه ماذا حصلوا وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم والعذاب المستمر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ يخبر تعـالى أنه وحده المألوه المعبـود فى السموات والأرض، فأهل السموات كلهم والمؤمنون من أهل الأرض يعبدونه ويعظمونه ويخضعون لجلاله ويفتقرون لكماله ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فهو تعالى المألوه المعبود الذى يألهه الخـلائق كلهم طائعين مختارين وكارهين، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ﴾ أى: ألوهيته ومحبته فيهما، وأما هو فإنه فوق عرشه بائن من خلقه متوحد بجلاله متمجد بكماله ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذى أحكم ما خلقه وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئًا إلا لحكمة وحكمه القدرى والشرعى والجزائى مشتمل على الحكمة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شىء، يعلم السر وأخفى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى العالم العلوى والسفلى ولا أصغر منها ولا أكبر ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تبارك بمعنى تعـالى وتعاصم وكثر خيـره واتسعت صفاته وعظم ملكه، ولهـذا ذكر سعة ملكه للسموات والأرض وما بينهما وسعة علمه وأنه بكل شىء عليم حتى إنه تعـالى انفرد بعلم الغيوب التى لم يطلع عليها أحد من الخلق لا نبى مرسل ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ قدم الظرف ليفيد الحصر أى: لا يعلم متى تجىء الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: فى الآخرة فيحكم بينكم بحكمـه العدل ومن تمام ملكه أنه لا يملك أحد من خلقـه من الأمر شيئًا ولا يقدم على الشفاعة عنده أحـد إلا بإذنه ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ أى: كل من دُعى من دون الله من الأنبيـاء والملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة ولا يشفعون إلا بإذن الله ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن

﴿شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي: نطق بلسانه مقرًا بقلبه عالمًا بما يشهد به ويشترط أن تكون شهادته بالحق وهى الشهادة لله تعالى بالوحدانية ولرسله بالنبوة والرسالة وصحة ما جاءوا به من أصول الدين وفروعه وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عقاب الله الحائزون لثوابه، ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أى: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية ومن هو الخالق لأقروا أنه الله وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أى: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فإقرارهم بتوحيد الربوبية يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى: وعنده علم قيله أى: الرسول ﷺ شاكيًا لربه تكذيب قومه متحزنًا على ذلك متحسرًا على عدم إيمانهم، فالله تعالى عالم بهذه الحال قادر على معالجتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حليم يمهل العباد ويستأنى بهم لعلهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أى: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية واعف عنهم ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذى يقابل به أولو الألباب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أى: خطابًا بمقتضى جهلهم ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ فامتثل ﷺ لأمر ربه وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى بالعفو والصفح ولم يقابلهم إلا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل، فصلوات الله وسلامه على من خصه الله بالخلق العظيم الذى فضل به أهل الأرض والسماء وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أى: غِبَّ ذنوبهم وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف ولله الحمد والمنة



تفسير سورة الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه أنه أنزله ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ أى: كثيرة الخير والبركة وهى ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالى والأيام على أفضل الأنام بلغة العرب الكرام لينذر به قومًا عمتهم الجهالة وغلبت عليهم الشقاوة فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه ويسيروا وراءه فيحصل لهم الخير الدنيوى والخير الأخروى ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا﴾ أى: فى تلك الليلة الفاضلة التى نزل فيها القرآن ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أى: يفصل ويميز ويكتب كل أمر قدرى وشرعى حكم الله به، وهذه الكتابة والفرقان الذى يكون فى ليلة القدر إحدى الكتابات التى تكتب وتميز فتطابق الكتاب الأول الذى كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأموالهم، ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما سيجرى على العبد وهو فى بطن أمه، ثم وكلهم بعد خروجه إلى الدنيا، وكَّل به كرامًا كاتبين يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالى يقدر فى ليلة القدر ما يكون فى السنة، وكل هذا من تمام

علمه وكمال حكمته وإتقان حفظه واعتنائه تعالى بخلقه ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: هذا الأمر الحكيم أمر صادر من عندنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ للرسل ومنزلين للكتب، والرسل تبلغ أوامر المرسل وتخبره بأقداره ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: يسمع جميع الأصوات ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه فرحمهم بذلك ومنَّ عليهم، فلله تعالى الحمد والمنة والإحسان ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق ذلك ومدبره والمتصرف فيه بما شاء ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: عالمين بذلك علمًا مفيدًا لليقين فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا وجهه ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة وسيجمعكم بعد موتكم فيجزيكم بعملكم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي رب الأولين والآخرين مربيهم بالنعم الدافع عنهم النقم، فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته بما يوجب العلم التام ويدفع الشك أخبر أن الكافرين مع هذا البيان ﴿فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات غافلون عما خلقوا له قد اشتغلوا باللعب الباطل الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي: انتظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وآن أوانه ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ⑩ يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي: يعمهم ذلك الدخان ويقال لهم: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم، ويؤيد هذا المعنى أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعد الكفار والتأني بهم وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم، ويؤيده أيضًا أنه قال في هذه الآية: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ وهذا يقال يوم القيامة للكفار حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا فيقال: قد ذهب وقت الرجوع، وقيل: إن المراد بذلك ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان واستكبروا على الحق فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: «اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف» فأرسل الله عليهم الجوع العظيم حتى أكلوا الميتات والعظام وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان وليس به، وذلك من شدة الجوع، فيكون - على هذا - قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾ أن ذلك بالنسبة إلى أبصارهم وما يشاهدون وليس بدخان حقيقة، ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله ﷺ وسألوه أن يدعو الله لهم أن يكشفه الله عنهم فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إخبار بأن الله سيصرفه عنهم وتوعدٌ لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب وإخبار بوقوعه فوقع، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة «بدر» وفي هذا القول نظر ظاهر، وقيل: إن المراد بذلك أن ذلك من أشراط الساعة وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس ويصيب المؤمنين منه كهيئة الزكام، والقول هو الأول، وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ⑩ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑪ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ⑫ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⑬ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أن هذا كله يوم القيامة، وأن قوله تعالى ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ⑮ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم، وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة وهذا الذي يظهر عندي ويترجح، والله أعلم.

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ⑰ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ⑱ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ⑲ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ⑳ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ㉑ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ㉒ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ㉓ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ㉔ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ㉕ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ㉖ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ㉗ كَذَٰلِكَ ۖ

﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمدًا ﷺ ذكر أن لهم سلفًا من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى وما أحل الله بهم ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم، الرسول الكريم الذي فيه من مكارم الأخلاق ما ليس في غيره ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أي: قال لفرعون وملئه: أدوا إليَّ عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل، أي: أرسلوهم وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب فإنهم عشيرتي وأفضل العالمين في زمانهم، وأنتم قد ظلمتموهم واستعبدتموهم بغير حق فأرسلوهم ليعبدوا ربهم ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: رسول من رب العالمين أمين على ما أرسلني به لا أكتمكم منه شيئًا ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانقياد له ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بالاستكبار عن عبادته والعلو على عباد الله ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات والأدلة القاهرات، فكذبوه وهموا بقتله فلجأ إلى الله من شرهم فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أي: تقتلوني شر القتلات بالرجم بالحجارة ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي، وهو مقصودي منكم، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة فاعتزلوني لا عليَّ ولا لي، فاكفوني شركم، فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله محاربين لنبيه موسى عليه السلام غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: قد أجرموا جرمًا يوجب تعجيل العقوبة، فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال كما أخبر عن نفسه عليه السلام في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾[1] وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله ثم تبعهم فرعون أمر الله موسى أن يضرب البحر فضربه فصار اثني عشر طريقًا وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة فسلكه موسى وقومه، فلما خرجوا منه أمره الله أن يتركه رهوًا أي: بحاله ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ فلما تكامل قوم موسى خارجين منه وقوم فرعون داخلين فيه أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا وأورثه الله بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين لهم، ولهذا قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: هذه النعمة المذكورة ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: لما أتلفهم الله وأهلكهم لم تبك عليهم السماء والأرض أي: لم يحزن عليهم ولم يأس على فراقهم بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم حتى السماء والأرض، لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ أي: ممهلين عن العقوبة بل اصطلمتهم في الحال، ثم امتنَّ على بني إسرائيل فقال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ الذي كانوا فيه ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ إذ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾ أي: مستكبرًا في الأرض بغير الحق ﴿مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين لحدود الله والمتجرئين على محارمه ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ﴾ أي: اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بهم وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد ﷺ ففضلوا العالمين كلهم وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم ﴿وَآتَيْنَاهُم﴾ أي: بني إسرائيل ﴿مِّنَ الْآيَاتِ﴾ الباهرة والمعجزات الظاهرة ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إحسان كثير ظاهر منا عليهم وحجة عليهم على صحة ما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام.

---

(١) رهوًا، أي: ساكنًا منفرجًا حتى يدخله فرعون وجنوده، وهم القبط.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يخبر تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ المكذبين ﴿لَيَقُولُونَ﴾ مستبعدين للبعث والنشور ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: ما هي إلا الحياة الدنيا فلا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، ثم قالوا متجرئين على ربهم معجزين له: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في مكان سحيق فأي ملازمة بين صدق الرسول ﷺ وأنه متوقف على الإتيان بآبائهم؟ فإن الآيات قد قامت على صدق ما جاءهم به وتواترت تواترًا عظيمًا من كل وجه، قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: هؤلاء المخاطبون ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ فإنهم ليسوا خيرًا منهم، وقد اشتركوا في الإجرام فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام حكمته وأنه ما خلق السموات والأرض لعبًا ولا لهوًا ولا سدى من غير فائدة وأنه ما خلقهما إلا بالحق أي: نفس خلقهما بالحق وخلقهما مشتمل على الحق وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا شريك له وليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لم يتفكروا في خلق السموات والأرض ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين وبين كل مختلفين ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ أي: الخلائق ﴿أَجْمَعِينَ﴾ كلهم سيجمعهم الله فيه ويحضرهم ويحضر أعمالهم ويكون الجزاء عليها ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ لا قريب عن قريبه ولا صديق عن صديقه ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: يمنعون عذاب الله عز وجل لأن أحدًا من الخلق لا يملك من الأمر شيئًا ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فإنه هو الذي ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالى التي تسبب إليها وسعى لها سعيًا في الدنيا، ثم قال تعالى:

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

لما ذكر يوم القيامة وأنه يفصل بين عباده فيه ذكر افتراقهم إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير وهم: الآثمون بعمل الكفر والمعاصي وأن طعامهم ﴿شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ شر الأشجار وأفظعها وأن طعمها ﴿كَالْمُهْلِ﴾ أي: كالصديد المنتن خبيث الريح والطعم شديد الحرارة ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ ويقال للمعذب: ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب الأليم والعقاب الوخيم ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي: بزعمك أنك عزيز ستمتنع من عذاب الله وأنك كريم على الله لا يصيبك بعذاب، فاليوم تبين لك أنك الذليل المهان الخسيس ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب العظيم هو ﴿مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي: تشكون، فالآن صار عندكم حق اليقين.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

هذا جزاء المتقين لله الذين اتقوا سخطه وعذابه بتركهم المعاصى وفعلهم الطاعات فلما انتفى السخط عنهم والعذاب ثبت لهم الرضا من الله والثواب العظيم فى ظل ظليل من كثرة الأشجار والفواكه والعيون تجرى من تحتهم الأنهار يفجرونها تفجيراً فى جنات النعيم، فأضاف الجنات إلى النعيم لأن ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور كامل من كل وجه ما فيه منغص ولا مكدر بوجه من الوجوه، ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق، أى: غليظ الحرير ورقيقه مما تشتهيه أنفسهم ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ فى قلوبهم ووجوههم فى كمال الراحة والطمأنينة والمحبة والعشرة الحسنة والآداب المستحسنة ﴿كَذَلِكَ﴾ النعيم التام والسرور الكامل ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ﴾ أى نساء جميلات من جمالهن وحسنهن أنه يحار الطرف فى حسنهن وينبهر العقل بجمالهن وينخلب اللب لكمالهن ﴿عِينٍ﴾ أى: واسعات الأعين حسانها ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أى: الجنة ﴿بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ مما له اسم فى الدنيا ومما لا يوجد له اسم ولا نظير فى الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها أحضر لهم فى الحال من غير تعب ولا كلفة ﴿آمِنِينَ﴾ من انقطاع ذلك وآمنين من مضرته وآمنين من كل مكدر وآمنين من الخروج منها والموت، ولهذا قال: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾ أى: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى لم يستثن الموتة الأولى التى هى الموتة فى الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذى وفقهم للأعمال الصالحة التى بها نالوا خير الآخرة وأعطاهم أيضًا ما لم تبلغه أعمالهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وأى فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته والسلامة من عذابه وسخطه؟ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أى: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أى: الذى هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها فتيسر به لفظه وتيسر به معناه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما فيه نفعهم فيفعلونه وما فيه ضررهم فيتركونه ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أى: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بهم من العذاب، وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير فى الدنيا والآخرة وضدهم يرتقبون الشر فى الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان ـ ولله الحمد والمنة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾

يخبر تعالى خبراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به وأنه تنزيلٌ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال وانفرد به من النعم الذى له العزة الكاملة والحكمة التامة، ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية من خلق السموات والأرض وما بث فيهما من الدواب وما أودع فيهما من المنافع وما أنزل الله من الماء الذى يحيى به الله البلاد والعباد، فهذه كلها آيات بينات وأدلة واضحات على صدق هذا القرآن العظيم وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام ودالات أيضًا على ما لله تعالى من الكمال وعلى البعث

والنشور، ثم قسم تعالى الناس بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه إلى قسمين: قسم يستدلون بها ويتفكرون بها وينتفعون فيرتفعون وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانًا تامًا وصل بهم إلى درجة اليقين فزكى منهم العقول وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم، وقسم يسمع آيات الله سماعًا تقوم به الحجة عليهم ثم يعرض عنها ويستكبر - كأنه ما سمعها لأنها لم تزك قلبه ولا طهرته بل - بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه، وأنه إذا علم من آيات الله شيئًا اتخذها هزوًا، فتوعده الله تعالى بالويل فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: كذاب في مقاله أثيم في فعاله، وأخبر أن له عذابًا أليمًا، وأن ﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ تكفي في عقوبتهم البليغة وأنه ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا﴾ من الأموال ﴿شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يستنصرون بهم فخذلوهم، أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا، فلما بين آياته القرآنية والعيانية وأن الناس فيها على قسمين أخبر عن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية أنه هدى فقال: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ وهو وصف عام لجميع القرآن فإنه يهدى إلى معرفة الله تعالى بصفاته المقدسة وأفعاله الحميدة ويهدى إلى معرفة رسله وأوليائهم وأعدائهم وأوصافهم ويهدى إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها ويهدى إلى بيان الجزاء على الأعمال ويبين الجزاء الدنيوى والأخروى، فالمهتدون اهتدوا به فأفلحوا وسعدوا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الواضحة القاطعة التى لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه وتضاعف طغيانه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾

يخبر تعالى عن فضله على عباده وإحسانه إليهم بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بأنواع التجارات والمكاسب ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجرًا جزيلاً ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السموات والأرض ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب والثوابت والسيارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معد لمصالح بنى آدم ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم فى شكر نعمته وأن تتغلغل أفكارهم فى تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها دال على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته، وما فيها من الأحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دال على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته وشمول فضله وإحسانه وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود الذى لا تنبغى العبادة والذل والمحبة إلا له وأن رسله صادقون فيما جاءوا به فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبًا ولا شكًا.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق والصبر على أذية المشركين به الذين لا يرجون أيام الله أى: لا يرجون ثوابه ولا يخافون وقائعه فى العاصين فإنه تعالى سيجزى كل قوم بما يكسبون، فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم ثوابا جزيلاً وهم - إن استمروا على تكذيبهم - فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والخزى، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

أى: ولقد أنعمنا على بنى إسرائيل نعمًا لم تحصل لغيرهم من الناس وآتيناهم ﴿**الْكِتَابَ**﴾ أى: التوراة والإنجيل ﴿**وَالْحُكْمَ**﴾ بين الناس و ﴿**النُّبُوَّةَ**﴾ التى امتازوا بها وصارت النبوة فى ذرية إبراهيم عليه السلام أكثرهم من بنى إسرائيل ﴿**وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ**﴾ من المآكل والمشارب والملابس وإنزال المن والسلوى عليهم ﴿**وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ أى: على الخلق(١) بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظى هذه الأمة فإنها خير أمة أخرجت للناس، والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة فإن الله يقص علينا ما امتن به على بنى إسرائيل وميَّزهم على غيرهم وأيضًا فإن الفضائل التى فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة وغيرها من النعوت قد حصلت كلها لهذه الأمة وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة فهذه الشريعة شريعة بنى إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيمن على سائر الكتب السابقة ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين ﴿**وَآتَيْنَاهُم**﴾ أى: آتينا بنى إسرائيل ﴿**بَيِّنَاتٍ**﴾ أى: دلالات تبين الحق من الباطل ﴿**مِّنَ الأَمْرِ**﴾ القدرى الذى أوصله الله إليهم، وتلك الآيات هى المعجزات التى رأوها على يد موسى عليه السلام، فهذه النعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل تقتضى الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه وأن يجتمعوا على الحق الذى بيَّنه الله لهم، ولكن انعكس الأمر فعاملوها بعكس ما يجب وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: ﴿**فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ**﴾ أى: الموجب لعدم الاختلاف وإنما حملهم على الاختلاف البغى من بعضهم على بعض والظلم ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ فيميز المحق من المبطل والذى حمله على الاختلاف الهوى أو غيره.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

أى: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير وتنهى عن كل شر من أمرنا الشرعى ﴿**فَاتَّبِعْهَا**﴾ فإن فى اتباعها السعادة الأبدية والصلاح والفلاح ﴿**وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ أى: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم ولا ماشية خلفه وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته فإنه من أهواء الذين لا يعلمون ﴿**إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**﴾ أى: لا ينفعونك عند الله فيحصلوا لك الخير ويدفعوا عنك الشر إن اتبعتهم على أهوائهم ولا يصلح أن توافقهم وتواليهم فإنك وإياهم متباينون ﴿**وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

أى ﴿**هَذَا**﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿**بَصَائِرُ لِلنَّاسِ**﴾ أى: تحصل به التبصرة فى جميع الأمور للناس فيحصل به الانتفاع للمؤمنين ﴿**وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ فيهتدون به إلى الصراط المستقيم فى أصول الدين وفروعه ويحصل به الخير والسرور والسعادة فى الدنيا والآخرة وهى الرحمة فتزكو به نفوسهم وتزداد به عقولهم ويزيد به إيمانهم ويقينهم وتقوم به الحجة على من أصر وعاند.

---

(١) قوله: «على الخلق» جمهور المفسرين ذهبوا إلى أن المراد بتفضيل بنى إسرائيل على العالمين «عالمى زمانهم فقط» وأما أبو السعود فذهب فى تفسيره إلى أن تفضيل بنى إسرائيل على العالمين مقيد بالنعم التى خصهم الله بها دون غيرهم من الأمم السابق واللاحقة كما يدل عليه كلامه حيث قال: «حيث اتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما» وقيل: «عالمى زمانهم». اهـ. وعبر عن القول الثانى: بـ «قيل» ليشعر القارئ بضعف هذا القول.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

أى: أم حسب المسيئون المكثرون من الذنوب المقصرون فى حقوق ربهم ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم واجتنبوا مساخطه ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أى: أحسبوا أن يكونوا ﴿سَوَاءً﴾ فى الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا وساء ما حكموا به فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين وخير العادلين ويناقض العقول السليمة والفطر المستقيمة ويضاد ما نزلت به الكتب وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعى أن المؤمنين العاملين الصالحات لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب فى العاجل والآجل كلٌّ على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة والعذاب والشقاء فى الدنيا والآخرة.

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

أى: خلق الله السموات والأرض بالحكمة وليعبد وحده لا شريك له، ثم يحاسب بعد ذلك من أمرهم بعبادته وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، هل شكروا الله تعالى وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا فاستحقوا جزاء الكفور؟.

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ الرجل الضال الذى ﴿اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ فما هواه سلكه سواء كان يرضى الله أم يسخطه ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[(١)] من الله أنه لا تليق به الهداية ولا يزكو عليها ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾ فلا يسمع ما ينفعه ﴿وَقَلْبِهِ﴾ فلا يعى الخير ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ تمنعه من نظر الحق ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ أى لا أحد يهديه وقد سد الله عليه أبواب الهداية وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله ولكن هو الذى ظلم نفسه وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعكم فتسلكوه وما يضركم فتجتنبوه ﴿وَقَالُوا﴾ أى: منكرو البعث ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ إن هذا إلا عادات وجَرْىٌ على رسوم الليل والنهار، يموت أناس ويحيا أناس، ومن مات فليس براجع إلى الله ولا مجازى بعمله، وقولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم ولا برهان، إن هى إلا ظنون واستبعادات

(١) قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: ضلاله لا عن جهل عن الحق ولا عن عدم معرفته بالطريق المستقيم، بل ضلاله ناشئ عن عناد، وعن غلبة هواه عليه، هذا التفسير هو الصواب والأحسن، وذلك لتقوم حجة الله على العبد، ولا تقوم حجته تعالى على العبد الجاهل بالحق.

يؤيد ما ذهبنا إليه ما قاله أبو السعود فى تفسيره: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: «عالمًا بضلاله وتبديله لفطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها».

وفى «المنتخب من التفسير»: أنظرت فرأيت أيها الرسول من اتخذ إلهه هواه معبودًا له، فخضع له وأطاعه وضل عن سبيل الحق على علم منه بهذا السبيل، وأغلق سمعه فلا يقبل وعظًا، وقلبه فلا يعتقد حقًا، وجعل على بصره غطاء فلا يبصر عبرة، فمن يهديه من بعد إعراض الله عنه، أتتركون النظر فلا تذكرون؟!.

هذا هو المعنى المعقول فى تفسير هذه الآية، كما هو واضح من ظاهر عبارتها، لا كما ذهب إليه مؤلفنا تبعًا للجلالين والنسفى وغيرهما.

وأيضًا فما فائدة القول بأنه ضل على علم من الله؟ فهل هناك من يشك أن ما يحدث فى الكون يحدث من غير أن يعلم الله ذلك؟ اللهم لا، حتى، ولا أهل الجاهلية فى زمن الرسول، لأن عباد الأصنام والجاهلية يعتقدون أن الله يعلم كل شىء وعلمه محيط بجليات الأمور وخفاياها، وإنما اتخذوا الأصنام آلهة لتكون لهم شفعاء، ووسطاء فقط.

خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ وهذا جراءة منهم على الله حيث اقترحوا هذا الاقتراح وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بآبائهم وأنهم لو جاءوهم بكل آية لم يؤمنوا إلا إن اتبعتهم الرسل على ما قالوا، وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل لا بيان الحق قال تعالى: ﴿ **قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم لعملوا له أعمالاً وتهيئوا له.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

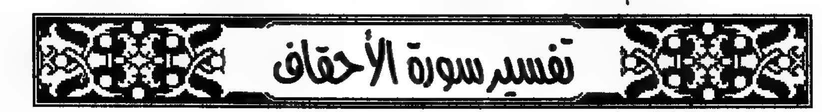
يخبر تعالى عن سعة ملكه وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات وأنه ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ** ﴾ ويجمع الخلائق لموقف القيامة يحصل الخسار على المبطلين الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق وكانت أعمالهم باطلة لأنها متعلقة بالباطل فبطلت في يوم القيامة اليوم الذي تستبين فيه الحقائق واضمحلت عنهم وفاتهم الثواب وحصلوا على أليم العقاب، ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره الناس ويستعد له العباد فقال: ﴿ **وَتَرَىٰ** ﴾ أيها الرائي لذلك اليوم ﴿ **كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً** ﴾[1] على ركبها خوفًا وذعرًا وانتظارًا لحكم الملك الرحمن ﴿ **كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا** ﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله وهل قاموا بها فيحصل الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ ﴿ **الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ فأمة موسى يدعون إلى شريعة موسى وأمة عيسى كذلك وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية وهو معنى صحيح في نفسه غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ **كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا** ﴾ أي: إلى كتاب أعمالها وما سطر عليها من خير وشر وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه كقوله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية، ويدل على هذا قوله: ﴿ **هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ** ﴾ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم يفصل بالحق الذي هو العدل ﴿ **إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ فهذا كتاب الأعمال، ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ إيمانًا صحيحًا وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة من واجبات ومستحبات ﴿ **فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ** ﴾ التي محلها الجنة وما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم ﴿ **ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ** ﴾ أي: المفاز والنجاة والربح والفلاح الواضح البيِّن الذي إذا حصل للعبد حصل له كل خير واندفع عنه كل شر ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ بالله فيقال لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿ **أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم ونهتكم عما فيه ضرركم وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وفقتم لها ﴿ **فَاسْتَكْبَرْتُمْ** ﴾ عنها وأعرضتم وكفرتم بها فجنيتم أكبر جناية وأجرمتم أشد الجرم، فاليوم تجزون ما كنتم تعملون، ويوبخون أيضًا بقوله: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا**

---

(١) أي: ترى أهل كل دين جالسين على الركب من هول الموقف متحفزين لإجابة النداء.

رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم﴾ منكرين لذلك: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾(١) فهذه حالهم فى الدنيا وحال البعث الإنكار له وردوا قول من جاء به، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أى: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: نزل ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: نزل بهم العذاب الذى كانوا فى الدنيا يستهزئون بوقوعه وبمن جاء به ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾(٢) أى: نترككم فى العذاب ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أى: هى مقركم ومصيركم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونكم من عذاب الله ويدفعون عنكم عقابه ﴿ذَلِكُم﴾ الذى حصل لكم من العذاب ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها فاطمأننتم إليها وعملتم لها وتركتم العمل للدار الباقية ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى: ولا يمهلون ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحًا ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلق حيث خلقهم ورباهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: له الجلال والعظمة والمجد فالحمد فيه الثناء على الله بصفات الكمال ومحبته تعالى وإكرامه والكبرياء فيها عظمته وجلاله والعبادة مبنية على ركنين: محبة الله والذل له، وهما ناشئان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شىء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى يضع الأشياء مواضعها فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الجاثية والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣)﴾

هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفى ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره والإقبال على تدبر آياته واستخراج كنوزه، ولما بيَّن إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهى ذكر خلقه السموات والأرض فجمع بين الخلق والأمر ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ وكما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ فالله تعالى هو الذى خلق المكلفين وخلق مساكنهم وسخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض، ثم أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وأمرهم ونهاهم وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وممر للعمال لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وهم سينتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار وموطن الخلود والدوام وإنما أعمالهم التى عملوها فى هذه الدار سيجدون ثوابها فى تلك الدار كاملاً موفرًا، وأقام تعالى الأدلة على تلك الدار وأذاق العباد نموذجًا من الثواب والعقاب العاجل ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب والهرب من المرهوب، ولهذا قال هنا: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أى: لا عبثًا ولا سدى بل

---

(١) بمستيقنين، أى: إمكان إتيان الساعة، فضلاً عن إثباتها قطعًا ووقوعها فعلاً.

(٢) أى: نترككم فى العذاب ترك المنسى. اهـ. أبو السعود.

وقيل لهؤلاء المشركين توبيخًا: اليوم نترككم فى العذاب كما تركتم الاستعداد للقاء ربكم فى هذا اليوم، بالطاعة والعمل الصالح، ومقركم النار، وليس لكم من ناصرين ينقذونكم من عذابها. اهـ. من «المنتخب فى تفسير الكريم».

ليعرف العباد عظمة خالقهما ويستدلوا على كماله ويعلموا أن الذى خلقهما قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء وأن خلقهما وبقاءهما مقدر إلى ساعة معينة ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فلما أخبر بذلك - وهو أصدق القائلين - وأقام الدليل وأنار السبيل أخبر - مع ذلك - أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضًا عن الحق وصدوفًا عن دعوة الرسل فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا[١] مُعْرِضُونَ﴾[٢] وأما الذين آمنوا فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم وتلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالانقياد والتعظيم ففازوا بكل خير واندفع عنهم كل شر.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾

أى ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله أوثانًا وأندادًا لا تملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا قل لهم، مبينًا عجز أوثانهم وأنها لا تستحق شيئًا من العبادة: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ﴾ هل خلقوا من أجرام السموات شيئًا؟ هل خلقوا جبالاً؟ هل أجروا أنهارًا؟ هل نشروا حيوانًا؟ هل أنبتوا أشجارًا؟ هل كان منهم معاونة على خلق شىء من ذلك؟ لا شىء من ذلك بإقرارهم على أنفسهم فضلاً عن غيرهم فهذا دليل عقلى قاطع على أن كل من سوى الله فعبادته باطلة، ثم ذكر انتفاء الدليل النقلى فقال: ﴿ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك ﴿أَوْ أَثَارَةٍ[٣] مِّنْ عِلْمٍ﴾ موروث عن الرسل يأمر بذلك، من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم ونهوا عن الشرك به، وهى أعظم ما يؤثر عنهم من العلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وكل رسول قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فعلم أن جدال المشركين فى شركهم غير مستندين إلى برهان ولا دليل وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة وآراء كاسدة وعقول فاسدة، يدلك على فسادها استقراء أحوالهم وتتبع علومهم وأعمالهم والنظر فى حال من أفنوا أعمارهم بعبادته هل أفادهم شيئًا فى الدنيا أو فى الآخرة؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى: مدة مقامه فى الدنيا لا ينتفع به مثقال ذرة ﴿وَهُمْ[٤] عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لا يسمعون منهم دعاء ولا يجيبون لهم نداء، هذا حالهم فى الدنيا ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يلعن بعضهم بعضًا ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

---

(١) أنذروا، أى: خُوِّفوا من هول ذلك اليوم، ومع ذلك التخويف ما زالوا مصرين على كفرهم حتى فارقوا الدنيا وهم كافرون.

(٢) معرضون، أى: غير مقبلين على دعوة الرسل ولا مؤمنين بيوم القيامة ولا بالبعث، ولا يهتمون بالاستعداد لذاك اليوم الذى يخلقون فيه خلقًا جديدًا، ثم يبعثهم الله لمحاسبتهم ومجازاتهم.

(٣) أثارة، أى: بقية من علم، بقيت عليكم من علوم الأولين شاهدة، باستحقاقهم للعبادة.

ومعنى الآية «ايتونى بكتاب من عند الله، أو أثر من علم الأولين، تستندون إليه فى دعواكم أن ما تعبدون من الأوثان وغيرها حق وصراط مستقيم، إن كنتم صادقين».

هيهات هيهات، فَجَمْعُ نجوم السماء وجَعْلُهَا فى حجوركم أقرب إليكم مما تدعونه.

(٤) وهم: أى: الأصنام «عن دعائهم» أى: عبادتهم «غافلون» لأنها جمادات لا تعقل، الضمير الأول لمفعول «يدعو» والثانى لفاعله، والجمع فيهما باعتبار معنى «مَنْ» كما أن الإفراد فيما سبق وهو قوله: «ومن أضل ممن يدعو» باعتبار لفظها.

وأتى بضمير العقلاء وهو «هم» وفى قوله: «لهم» وفى «كانوا» لإجرائهم إياها مجرى العقلاء. ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة من ظهور حالها، للتهكم بها وبعبدتها، كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ الآية. اهـ. أبو السعود، بتصرف.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أى: على المكذبين ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ بحيث تكون على وجه لا يمترى بها ولا يشك فى وقوعها وحقها لم تفدهم خيرًا بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافترائهم ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر لا شك فيه وهذا من باب قلب الحقائق الذى لا يروج إلا على ضعفاء العقول وإلا فبين الحق الذى جاء به الرسول ﷺ وبين السحر من المنافاة والمخالفة أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق الذى علا وارتفع ارتفاعًا على الأفلاك وفاق بضوئه ونوره نور الشمس وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه وأقرت به وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزينة كيف يقاس الحق الذى هذا شأنه بالباطل الذى هو السحر الذى لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله وهل هذا إلا من البهرجة؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أى: افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه فليس هو من عند الله ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ فالله علىَّ قادر وبما تفيضون فيه عالم فكيف لم يعاقبنى على افترائى الذى زعمتم؟ ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ إن أرادنى الله بضر أو أرادنى برحمة ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ[1] فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فلو كنت متقولاً عليه لأخذ منى باليمين ولعاقبنى عقابًا يراه كل أحد لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً، ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته فقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى: فتوبوا إليه وأقلعوا عما أنتم فيه يغفر لكم ذنوبكم ويرحمكم فيوفقكم للخير ويثيبكم جزيل الأجر ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أى: لست بأول رسول جاءكم حتى تستغربوا رسالتى وتستنكروا دعوتى فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتى دعوتهم فلأى شىء تنكرون رسالتى؟ ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أى: لست إلا بشرًا ليس بيدى من الأمر شىء والله تعالى المتصرف بى وبكم الحاكم علىَّ وعليكم ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ولست آتى بالشىء من عندى ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فإن قبلتم رسالتى وأجبتم دعوتى فهو حظكم ونصيبكم فى الدنيا والآخرة وإن رددتم ذلك علىَّ فحسابكم على الله وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أى: أخبرونى لو كان هذا القرآن من عند الله وشهد على صحته الموفقون من أهل الكتاب الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق فآمنوا به واهتدوا فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)﴾

أى: قال الكفار بالحق معاندين له ورادين لدعوته: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أى: ما سبقنا إليه

---

(١) بما تفيضون فيه، أى: تندفعون فيه من القدح فى وحى الله والطعن فى آياته، وتسميته «سحرًا» تارة، و «فرية» أخرى. اهـ. أبو السعود والنسفى.

المؤمنون وكنا أول مبادر به وسابق إليه وهذا من البهرجة فى مكان، فأى دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أزكى نفوسًا؟ أم أكمل عقولاً؟ أم الهدى بأيديهم؟ ولكن هذا الكلام الذى صدر منهم يعزون به أنفسهم بمنزلة من لم يقدر على الشىء ثم طفق يذمه ولهذا قال: ﴿ **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ** ﴾ أى: هذا السبب الذى دعاهم إليه أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن وفاتهم أعظم المواهب وأجل الرغائب قدحوا فيه بأنه كذب وهو الحق الذى لا شك فيه ولا امتراء يعتريه ﴿ **وَ** ﴾ قد وافق الكتب السماوية ﴿ **مِن قَبْلِهِ** ﴾ خصوصًا أكملها وأفضلها بعد القرآن وهى التوراة ﴿ **كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً** ﴾ أى: يقتدى بها بنو إسرائيل ويهتدون بها ويحصل لهم خير الدنيا والآخرة ﴿ **وَهَٰذَا** ﴾ القرآن ﴿ **كِتَابٌ مُصَدِّقٌ** ﴾ للكتب السابقة شهد بصدقها وصدَّقها بموافقته لها وجعله الله ﴿ **لِسَانًا عَرَبِيًّا** ﴾ ليسهل تناوله ويتيسر تذكُّره ﴿ **لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الوبيل ﴿ **وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ** ﴾ فى عبادة الخالق وفى نفع المخلوقين بالثواب الجزيل فى الدنيا والآخرة ويذكر الأعمال التى ينذر عنها والأعمال التى يبشر بها.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

أى: إن الذين أقروا بربهم وشهدوا له بالوحدانية والتزموا طاعته وداموا على ذلك ﴿ **ثُمَّ اسْتَقَامُوا** ﴾ مدة حياتهم ﴿ **فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** ﴾ من كل شر أمامهم ﴿ **وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ على ما خلَّفوا وراءهم ﴿ **أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ﴾ أى: أهلها الملازمون لها الذين لا يبغون عنها حولاً ولا يريدون بها بدلاً ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ من الإيمان بالله المقتضى للأعمال الصالحة التى استقاموا عليها.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين أن وصَّى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف والكلام اللين وبذل المال والنفقة وغير ذلك من وجوه الإحسان، ثم نبَّه على ذكر السبب الموجب لذلك فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدة يسيرة ساعة أو ساعتين وإنما ذلك أى: ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ** ﴾ مدة طويلة قدرها ﴿ **ثَلاثُونَ شَهْرًا** ﴾: الحمل تسعة أشهر ونحوها والباقى للرضاع هذا هو الغالب. ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ** ﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأن مدة الرضاع ـ وهى سنتان ـ إذا سقطت من الثلاثين شهرًا بقى ستة أشهر مدة للحمل ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ** ﴾ أى: نهاية قوته وشبابه وكمال عقله ﴿ **وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي** ﴾ أى: ألهمنى ووفقنى ﴿ **أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ** ﴾ أى: نعم الدين ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم فى طاعة مسديها وموليها ومقابلته على منَّته بالاعتراف والعجز عن الشكر والاجتهاد فى الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريتهم أنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها خصوصًا نعم الدين فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم ﴿ **وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ** ﴾ بأن يكون جامعًا لما يصلحه سالمًا مما يفسده، فهذا العمل الذى يرضاه الله تعالى ويقبله ويثيب عليه ﴿ **وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي** ﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم لقوله: ﴿ **وَأَصْلِحْ لِي** ﴾ ﴿ **إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ** ﴾ من الذنوب والمعاصى ورجعت

إلى طاعتك ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(١) ⑮ أُولَئِكَ﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ وهو الطاعات لأنهم يعملون أيضًا غيرها ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي﴾ جملة ﴿أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب وزال عنهم الشر والمكروه ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أى: هذا الوعد الذى وعدناهم هو وعد من أصدق القائلين الذى لا يخلف الميعاد.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ⑰ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ⑱ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ⑲﴾

لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه ذكر حال العاق وأنها شر الحالات فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾ إذ دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وخوفاه الجزاء، وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما أن يدعواه إلى ما فيه سعادته الأبدية وفلاحه السرمدى، فقابلهما بأقبح مقابلة فقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾(٢) أى: تبًا لكما ولما جئتما به، ثم ذكر استبعاده وإنكاره لذلك فقال: ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ من قبرى إلى يوم القيامة ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ على التكذيب وسلفوا على الكفر وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟ ﴿وَهُمَا﴾ أى: والداه ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ عليه ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ أى: يبذلان غاية جهدهما ويسعيان فى هدايته أشد السعى حتى إنهما - من حرصهما عليه - يستغيثان الله له استغاثة الغريق ويسألانه سؤال الشريق ويعذلان ولدهما ويتوجعان له ويبينان له الحق فيقولان: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما وولدهما لا يزداد إلا عتواً ونفوراً واستكباراً عن الحق وقدحًا فيه ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: إلا منقول من كتب المتقدمين ليس من عند الله ولا أوحاه الله إلى رسوله، وكل أحد يعلم أن محمدًا ﷺ أمى لا يكتب ولا يقرأ ولم يتعلم من أحد فمن أين يتعلمه؟ وأنَّى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا؟ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ﴾ بهذه الحالة الذميمة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أى: حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فِي﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ على الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء فى غمارهم ويغرقون فى تيارهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ والخسران: فوات رأس مال الإنسان وإذا فقد رأس ماله فالأرباح من باب أولى وأحرى: فهم قد فاتهم الإيمان ولم يحصلوا شيئًا من النعيم ولا سلموا من عذاب الجحيم ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل الخير وأهل الشر ﴿دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أى: كُل على حسب مرتبته من الخير والشر ومنازلهم فى الدار الآخرة على قدر أعمالهم ولهذا قال: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بأن لا يزاد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ⑳﴾

يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ حيث اطمأنتم إلى الدنيا واغتررتم بلذاتها ورضيتم بشهواتها وألهتكم طيباتها عن السعى لآخرتكم

---

(١) أى: الذين أخلصوا لك وأسلموا أنفسهم إليك.

(٢) أف: وهو صوت إذا صوَّت به الإنسان علم أنه متضجر، كما إذا قال «حَسّ» علم أنه متوجع، واللام لبيان المؤفف له، كما فى «هيت لك» أى: هذا التأفيف لكما خاصة، ولأجلكما، دون غيركما. اهـ. نسفى وأبو السعود بتصرف يسير.

وفى الجلالين، أفّ، بكسر الفاء وفتحها بمعنى مصدر، أى: نتنًا وقبحًا. اهـ.

وفى «غريب القرآن» لمحمد منير الدمشقى، «يقال لكل مستخف به، استقذارًا» وأصل «الأف» كل مستقذر من وسخ وغيره.

﴿وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ كما تتمتع الأنعام السارحة فهى حظكم من آخرتكم ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أى: العذاب الشديد الذى يهينكم ويفضحكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: تنسبون الطريق الضالة التى أنتم عليها إلى الله وإلى حكمه وأنتم كذبة فى ذلك ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أى: تتكبرون «وتتخرجون» عن طاعته فجمعوا بين قول الباطل والعمل بالباطل والكذب على الله والقدح فى الحق والاستكبار عنه فعوقبوا أشد العقوبة.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦)﴾

أى: ﴿وَاذْكُرْ﴾ بالثناء الجميل ﴿أَخَا عَادٍ﴾ وهو: هود عليه السلام حيث كان من الرسل الكرام الذين فضلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه وإرشاد الخلق إليه ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ﴾ وهم عاد ﴿بِالأَحْقَافِ﴾ أى: فى منازلهم المعروفة بالأحقاف وهى: الرمال الكثيرة فى أرض اليمن ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ فلم يكن بدعًا منهم ولا مخالفًا لهم، قائلاً لهم: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فأمرهم بعبادة الله الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد ونهاهم عن الشرك والتنديد وخوفهم - إن لم يطيعوه - العذاب الشديد فلم تفد فيهم تلك الدعوة ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا[1] عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أى: ليس لك من القصد ولا معك من الحق إلا أنك حسدتنا على آلهتنا فأردت أن تصرفنا عنها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا[2] إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[3]﴾ وهذا غاية الجهل والعناد ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ[4] عِندَ اللَّهِ﴾ فهو الذى بيده أزمة الأمور ومقاليدها وهو الذى يأتيكم بالعذاب إن شاء ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ أى: ليس علىَّ إلا البلاغ المبين ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ[5]﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجرأة الشديدة، فأرسل الله عليهم العذاب العظيم وهو الريح التى دمرتهم وأهلكتهم، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أى: العذاب ﴿عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أى: معترضًا كالسحاب قد أقبل على أوديتهم التى تسيل فتسقى مزارعهم ويشربون من آبارها وغدرانها ﴿قَالُوا﴾ مستبشرين: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أى: هذا السحاب سيمطرنا، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ أى: هذا الذى جنيتم به على أنفسكم حيث قلتم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ[6] كُلَّ شَيْءٍ﴾ تمر عليه من شدتها ونحسها، فسلطها الله عليهم سبع ليالى وثمانية أيام حسومًا فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أى: بإذنه ومشيئته ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ

---

(١) لتأفكنا، أى: لتصرفنا عن عبادة آلهتنا. (٢) بما تعدنا، أى: من العذاب العظيم.

(٣) فى وعيدك، ووعدك، بنزوله بنا.

(٤) أى: العلم بجميع الأشياء، التى من جملتها، وقت نزول عذاب الله بكم.

(٥) أى: ولكنكم تجهلون ما تبعث به الرسل، لأن الرسل بعثوا منذرين لا مقترحين، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه، وليس من وظيفتهم الإتيان بالعذاب، ولا تعيين وقت نزوله.

(٦) تدمر، أى: تهلك الريح بأمر ربها من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير.

﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب جرمهم وظلمهم، هذا مع أن الله قد أدرَّ عليهم النعم العظيمة فلم يشكروه ولا ذكروه ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أى: مكناهم فى الأرض ينالون طيباتها ويتمتعون بشهواتها وعمرناهم عمرًا يتذكر فيه من تذكر ويتعظ فيه المهتدى أى: ولقد مكنا عادًا كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون أى: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئًا بل غيركم أعظم منكم تمكينًا فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئًا ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ أى: لا قصور فى أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم حتى يقال: إنهم تركوا الحق جهلاً منهم وعدم تمكن من العلم به ولا خلل فى عقولهم ولكن التوفيق بيد الله ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: نزل بهم العذاب الذى يكذبون بوقوعه ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم منه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يحذر تعالى مشركى العرب وغيرهم بإهلاك الأمم المكذبين الذين هم حول ديارهم بل كثير منهم فى جزيرة العرب كعاد وثمود ونحوهم وأن الله تعالى صرَّف لهم الآيات أى: نوَّعها من كل وجه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الكفر والتكذيب، فلما لم يؤمنوا أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ولم تنفعهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أى: يتقربون إليهم ويتألهونهم لرجاء نفعهم ﴿بَلْ ضَلُّوا(١) عَنْهُمْ﴾ فلم يجيبوهم ولا دفعوا عنهم ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب الذى يمنون به أنفسهم حيث يزعمون أنهم على الحق وأن أعمالهم ستنفعهم فضلت وبطلت.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمدًا ﷺ إلى الخلق إنسهم وجنهم وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة فالإنس يمكنه ﷺ دعوتهم وإنذارهم وأما الجن فصرفهم الله إليه بقدرته وأرسل إليه ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ وصَّى بعضهم بعضًا بذلك ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾(٢) وقد وعوه وأثَّر ذلك فيهم ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ نصحًا منهم لهم وإقامة للحجة عليهم، وقيضهم الله معونة لرسوله ﷺ فى نشر دعوته فى الجن ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ لأن كتاب موسى أصل للإنجيل وعمدة لبنى إسرائيل فى أحكام الشرع وإنما الإنجيل متمم ومكمل ومغير لبعض الأحكام ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي﴾ هذا الكتاب الذى سمعناه ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو: الصواب فى كل مطلوب وخبر ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى الله وإلى جنته، من العلم بالله وبأحكامه الدينية وأحكام الجزاء فلما مدحوا القرآن وبينوا محله ومرتبته دعوهم إلى الإيمان به فقالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أى: الذى لا يدعو إلا إلى ربه لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا هوى وإنما يدعوكم إلى ربكم ليثيبكم ويزيل عنكم كل شر ومكروه، ولهذا قالوا: ﴿وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وإذا أجارهم من العذاب الأليم فما ثَمَّ بعد ذلك إلا النعيم فهذا جزاء من

---

(١) أى: غابت عنهم آلهتهم أحوج ما كانوا إلى النصرة.

(٢) أى: فلما فرغ النبى ﷺ من قراءة القرآن للجن.

أجاب داعى الله ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾ فإن الله على كل شىء قدير فلا يفوته هارب ولا يغالبه مغالب ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ وأى ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل ووصلت إليه النذر بالآيات البينات والحجج المتواترات فأعرض واستكبر؟.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾

هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت بما هو أبلغ منها وهو: ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ على عظمهما وسعتهما وإتقان خلقهما من دون أن يكترث بذلك ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم، وهو ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؟.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾

يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التى كانوا يكذبون بها وأنهم يوبخون ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عيانًا؟ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ فاعترفوا بذنبهم وتبين كذبهم ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى: عذابًا لازمًا دائمًا كما كان كفركم صفة لازمة، ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له وأن لا يزال داعيًا لهم إلى الله وأن يقتدى بصبر أولى العزم من المرسلين سادات الخلق أولى العزائم والهمم العالية الذين عظم صبرهم وتم يقينهم فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم، فامتثل ﷺ لأمر ربه فصبر صبرًا لم يصبره نبى قبله حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، قاموا جميعًا بصده عن الدعوة إلى الله وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعًا بأمر الله ومقيمًا على جهاد أعداء الله صابرًا على ما يناله من الأذى حتى مكَّن الله له فى الأرض وأظهر دينه على سائر الأديان وأمته على سائر الأمم فصلى الله عليه وسلم تسليمًا وقوله: ﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أى: المكذبين المستعجلين للعذاب فإن هذا من جهلهم وحمقهم فلا يستخفنك جهلهم ولا يحملك[1] ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك فإن كل ما هو آت قريب ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا﴾ فى الدنيا ﴿إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الوبيل ﴿بَلاغٌ﴾ أى: هذه الدنيا متاعها وشهوتها ولذتها بلغة منغصة ودفع وقت حاضر قليل، وهذا القرآن العظيم الذى بينًا لكم فيه البيان التام بلاغ لكم وزاد إلى الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة زاد يوصل إلى دار النعيم ويعصم، وزاد من العذاب الأليم فهو أفضل زاد يتزوده الخلائق وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ بالعقوبات ﴿إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: الذين لا خير فيهم وقد خرجوا عن طاعة ربهم ولم يقبلوا الحق الذى جاءتهم به الرسل، وأعذر الله لهم وأنذرهم فاستمروا على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

تم تفسير سورة الأحقاف بحول الله وتوفيقه

(١) قوله: «ولا يحملك» هكذا فى الأصل، والصواب «ولا يحملنك» ليتناسب مع ما قبله.

تفسير سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) ﴾

هذه الآيات مشتملات على ذكر ثواب المؤمنين وعقاب العاصين والسبب فى ذلك دعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك فقال: ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ وهؤلاء رؤساء الكفر وأئمة الضلال الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله التى هى الإيمان بما دعت إليه الرسل وأتباعه، فهؤلاء ﴿ **أَضَلَّ** ﴾ الله ﴿ **أَعْمَالَهُمْ** ﴾ أى: أبطلها وأشقاهم بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التى عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، إن الله جعل كيدهم فى نحورهم فلم يدركوا مما قصدوا شيئًا وأعمالهم التى يرجون أن يثابوا عليها إن الله سيحبطها عليهم والسبب فى ذلك أنهم اتبعوا الباطل وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان، والأعمال التى فى نصر الباطل لما كانت باطلة كانت الأعمال لأجلها باطلة ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ بما أنزل الله على رسله عمومًا وعلى محمد ﷺ خصوصًا ﴿ **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد الواجبة والمستحبة ﴿ **كَفَّرَ** ﴾ الله ﴿ **عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ** ﴾ صغارها وكبارها وإذا كفرت سيئاتهم نجوا من عذاب الدنيا والآخرة ﴿ **وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** ﴾ أى: أصلح دينهم ودنياهم وقلوبهم وأعمالهم وأصلح ثوابهم بتنميته وتزكيته وأصلح جميع أحوالهم والسبب فى ذلك أنهم ﴿ **اتَّبَعُوا الْحَقَّ** ﴾ الذى هو الصدق واليقين وما اشتمل عليه القرآن العظيم الصادر ﴿ **مِن رَّبِّهِمْ** ﴾ الذى رباهم بنعمته ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق فاتبعوه فصلحت أمورهم، فلما كانت الغاية المقصودة لهم متعلقة بالحق المنسوب إلى الله الباقى الحق المبين كانت الوسيلة صالحة باقية باقيًا ثوابها ﴿ **كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ** ﴾ حيث بيَّن لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ** ﴾.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) ﴾

يقول تعالى مرشدًا عباده إلى ما فيه صلاحهم ونصرهم على أعدائهم: ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ فى الحرب والقتال فاصدقوهم القتال واضربوا منهم الأعناق ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ** ﴾ وكسرتم شوكتهم ورأيتم الأسر أولى وأصلح ﴿ **فَشُدُّوا الْوَثَاقَ** ﴾ أى: الرباط، وهذا الاحتياط لأسرهم لئلا يهربوا فإذا اشتد منهم الوثاق اطمأن المسلمون من حربهم ومن شرهم، فإذا كانوا تحت أسركم فأنتم بالخيار بين المن عليهم وإطلاقهم بلا مال ﴿ **فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً** ﴾ بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم أو يشتريهم أصحابهم بمال أو بأسير مسلم عندهم، وهذا الأمر مستمر ﴿ **حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** ﴾ أى: حتى لا يبقى حرب وتبقون فى المسالة والمهادنة فإن لكل مقام مقالاً ولكل حال حكمًا فالحال المتقدمة إنما هى إذا كان قتال وحرب، فإذا كان فى بعض الأوقات لا حرب فيه لسبب من الأسباب فلا قتل ولا أسر ﴿ **ذَٰلِكَ** ﴾ الحكم المذكور فى ابتلاء المؤمنين بالكافرين ومداولة الأيام بينهم وانتصار بعضهم على بعض ﴿ **وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ** ﴾ فإنه تعالى على كل شىء قدير وقادر على أن لا

ينتصر الكفار فى موضع واحد أبدًا حتى يبيد المسلمون خضراءهم ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ ليقوم سوق الجهاد وتتبين بذلك أحوال العباد الصادق من الكاذب وليؤمن من آمن إيمانًا صحيحًا عن تبصرة لا إيمانًا مبنيًا على متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جدًا لا يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لهم ثواب جزيل وأجر جميل وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم لتكون كلمة الله هى العليا ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: لن يحبطها ويبطلها بل يتقبلها وينميها لهم ويظهر من أعمالهم نتائجها فى الدنيا والآخرة ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أى: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحًا كاملاً لا نكد فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا[1] لَهُمْ﴾ أى: عرفها أولاً بأن شوقهم إليها ونعتها لهم وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها التى من جملتها الشهادة فى سبيل الله ووفقهم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه ثم إذا دخلوا الجنة عرفهم منازلهم وما احتوت عليه من النعيم المقيم والعيش السليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ (٩)﴾

هذا أمر منه تعالى للمؤمنين أن ينصروا الله بالقيام بدينه والدعوة إليه وجهاد أعدائه وأن يقصدوا بذلك وجه الله فإنهم إذا فعلوا ذلك نصرهم وثبت أقدامهم أى: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات ويصبر أجسادهم على ذلك ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد أن الذى ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه وييسر له أسباب النصر من الثبات وغيره، وأما الذين كفروا بربهم ونصروا الباطل ﴿فَتَعْسًا[2] لَّهُمْ﴾ فإنهم فى تعس أى: انتكاس من أمرهم وخذلان ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أبطل أعمالهم التى يكيدون بها الحق، فرجع كيدهم فى نحورهم وبطلت أعمالهم التى يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله، ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن الذى أنزله صلاحًا للعباد وفلاحًا لهم فلم يقبلوه بل أبغضوه وكرهوه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١)﴾

أى: أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا من كان قبلهم قد بادوا وهلكوا واستأصلهم التكذيب والكفر فخمدوا ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين فى كل زمان ومكان أمثال هذه العواقب الوخيمة والعقوبات الذميمة، وأما المؤمنون فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب ويجزل لهم كثير الثواب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى[3] الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فتولاهم برحمته فأخرجهم من الظلمات إلى النور وتولى جزاءهم ونصرهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ بالله تعالى حيث قطعوا عنهم ولاية الله وسدوا على أنفسهم رحمته ﴿لَا مَوْلَىٰ

---

(١) عن مجاهد: عرفهم مساكنهم فيها حتى لا يحتاجون أن يسألوا عنها، أو طيَّبها لهم من «العرف» (بفتح العين وسكون الراء) وهو: طيب الرائحة. اهـ. نسفى.

(٢) التعس: الهلاك والعثار وبالسقوط والشر والبعد والانحاط ورجل تاعس وتعس، وانتصابه بفعله الواجب حذفه سماعًا (أى: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوبًا تقديره: تعس تعسًا) أى: فقال تعسًا لهم، أو فقضى تعسًا لهم. اهـ. أبو السعود.

وفى المختار من الصحاح: بالتعس: الهلاك، وأصله: الكب وهو ضد الانتعاش، وقد تعس، من باب قطع ومن باب تعب، وأتعسه الله.

ويقال: تعسًا لفلان، أى: ألزمه الله هلاكًا.

وفى «مفردات الراغب» التعس: أن لا يتتعش من العثرة وأن ينكسر فى سفال، وتعس تعسًا وتعسة.

وفى الجلالين فتعسًا لهم، أى: هلاكًا وخيبة من الله لهم.

(٣) أى: إن الله ولى المؤمنين، يتولى شئونهم، ويرعاهم وينصرهم.

لَهُمْ﴾ يهديهم إلى سبل السلام ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه، بل أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه ولى المؤمنين ذكر ما يفعل بهم فى الآخرة من دخول الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار التى تسقى تلك البساتين الزاهرة والأشجار الناضرة المثمرة بكل زوج بهيج وكل فاكهة لذيذة، ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم ذكر أنهم وُكلوا إلى أنفسهم فلم يتصفوا بصفات المروءة ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات وصاروا كالأنعام التى لا عقل لها ولا فضل بل جُلُّ همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة ولهذا كانت النار مثوى لهم أى: منزلاً معدًا لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم من عذابها.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

أى: وكم من قرية من قرى المكذبين هى أشد قوة من قريتك فى الأموال والأولاد والأعوان والأبنية والآلات ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ حين كذبوا رسلنا ولم تفد فيهم المواعظ فلا تجد لهم ناصرًا ولم نغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئًا، فكيف حال هؤلاء الضعفاء أهل قريتك إذا أخرجوك عن وطنك وكذبوك وعادوك، وأنت أفضل المرسلين وخير الأولين والآخرين؟! أليسوا بأحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أن الله تعالى بعث رسوله بالرحمة والتأنى بكل كافر وجاحد؟

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

أى: لا يستوى من هو على بصيرة من أمر دينه علمًا وعملاً قد علم الحق واتبعه ورجا ما وعده الله لأهل الحق كمن هو أعمى القلب قد رفض الحق وأضله واتبع هواه بغير هدى من الله، ومع ذلك يرى أن ما هو عليه هو الحق فما أبعد الفرق بين الفريقين! وما أعظم التفاوت بين الطائفتين أهل الحق وأهل الغيّ!.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أى: التى أعدها الله لعباده الذين اتقوا سخطه واتبعوا رضوانه أنها من نعتها وصفتها الجميلة ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أى: غير متغير لا بوخم ولا بريح منتنة ولا بحرارة ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها وأطيبها ريحًا وألذها شربًا ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ بحموضة ولا غيرها ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: يلتذ بها لذة عظيمة لا كخمر الدنيا التى يكره مذاقها وتصدع الرأس وتغول العقل ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ من شمعه وسائر أوساخه ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من نخيل وعنب وتفاح ورمان وأترج وتين وغير ذلك مما لا نظير له فى الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم، ثم قال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يزول بها عنهم المرهوب، فهؤلاء خير أم ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ التى اشتد حرها وتضاعف عذابها ﴿وَسُقُوا﴾ فيها ﴿مَاءً حَمِيمًا﴾ أى: حارًا جدًا ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ما تقول استماعًا لا عن قبول وانقياد بل معرضة قلوبهم عنه ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ مستفهمين عما قلت وما سمعوا مما لم يكن لهم فيه رغبة ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أى: قريبًا، وهذا فى غاية الذم لهم فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لألقوا إليه أسماعهم ووعته قلوبهم وانقادت له جوارحهم ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: ختم عليها وسد أبواب الخير التى تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم التى لا يهوون فيها إلا الباطل، ثم بين حال المهتدين فقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بالإيمان والانقياد واتباع ما يرضى الله ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ شكرًا منه تعالى على ذلك ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أى: وفقهم للخير وحفظهم من الشر فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع والعمل الصالح.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) ﴾

أى: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أى: فجأة وهم لا يشعرون ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أى: علاماتها الدالة على قربها ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أى: من أين لهم إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟ فقد فات ذلك وذهب وقت التذكر فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكر وجاءهم النذير، ففى هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) ﴾

العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه تمامه أن يعمل بمقتضاه، وهذا العلم الذى أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد كائنًا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك، والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور: **أحدها**، بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله، فإنها توجب بذل الجهد فى التأله له والتعبد للرب الكامل الذى له كل حمد ومجد وجلال وجمال، **الثانى**: العلم بأنه تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية، **الثالث**: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته والتأله له وحده لا شريك له، **الرابع**: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها، **الخامس**: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التى عبدت مع الله واتخذت آلهة وأنها ناقصة من جميع الوجوه فقيرة بالذات لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ولا ينصرون من عبدهم ولا ينفعونهم بمثقال ذرة من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله وبطلان إلهية ما سواه، **السادس**: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه، **السابع**: أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولاً ورأيًا وصوابًا وعلمًا - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا لله بذلك، **الثامن**: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية التى تدل على التوحيد أعظم دلالة تنادى عليه بلسان حالها بما أودعها من لطف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه، فهذه الطرق التى أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله وأبداها فى كتابه وأعادها عند تأمل العبد فى بعضها لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت وقامت أدلة للتوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك فى قلب العبد بحيث يكون كالجبال الرواسى لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد - على تكرر الباطل والشبه - إلا نموًا وكمالاً، هذا

وإن نظرت إلى الدليل العظيم والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم والتأمل في آياته - فإنه الباب الأعظم إلى العمل بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره، وقوله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[1] أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة والحسنات الماحية وترك الذنوب والعفو عن الجرائم ﴿وَ﴾ استغفر أيضًا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة، ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم ويستغفر لذنوبهم، وإذا كان مأمورًا بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم فإن من لوازك ذلك النصح لهم وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه ويأمرهم بما فيه الخير لهم وينهاهم عما فيه ضررهم ويعفو عن مساويهم ومعايبهم ويحرص على اجتماعهم اجتماعًا تتألف به قلوبهم ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ أي: تصرفاتكم وحركاتكم وذهابكم ومجيئكم ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات فيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾

يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: فيها الأمر بالقتال ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ أي: ملزم العمل بها ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ من كراهتهم لذلك وشدته عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ ثم ندبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم فقال: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم ويجمعوا عليه هممهم ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جاءهم أمر جد وأمر حتم ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ في هذه الحال بالاستعانة به وبذل الجهد في امتثاله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من حالهم الأولى وذلك من وجوه: منها: أن العبد ناقص من كل وجه لا قدرة له إلا إن أعانه الله فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده، ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل ضعف عن العمل بوظيفة وقته الحاضر وبوظيفة المستقبل، أما الحال فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره والعمل تبع للهمة وأما المستقبل فإنه لا يجيء حتى تفتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه، ومنها: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة مع كسله عن عمل الوقت الحاضر شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما همَّ به وتوعَّد نفسه عليه فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير

---

(١) قد علم من علم التوحيد أن الأنبياء - بالإجماع - معصومون بعد النبوة من صغائر الذنوب وكبائرها، والمراد هنا - كما قال أبو السعود في تفسيره: «وهو الذي ربما يصدر عنه عليه الصلاة والسلام من ترك الأولى.

عبر عنه بالذنب، نظرًا إلى منصبه الجليل، وإرشادًا له عليه الصلاة والسلام، إلى التواضع، وهضم النفس، واستقصار العمل» اهـ، المراد منه.

وفي النسفي «ذنب الأنبياء، ترك الأفضل، دون مباشرة القبيح.

وذنوبنا مباشرة القبائح، من الصغائر والكبائر». اهـ. المراد منه.

متفرقة مستعينًا بربه في ذلك، فهذا أحرى بالتوفيق والتسديد في جميع أموره، ثم ذكر تعالى المتولّي عن طاعة ربه وأنه لا يتولى إلى خير بل إلى شر فقال: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** ﴾ أي: فهما أمران إما التزام لطاعة الله وامتثال لأوامره فثَمَّ الخير والرشد والفلاح وإما الإعراض عن ذلك والتولّي عن طاعة الله فما ثَمَّ إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ** ﴾ أفسدوا في الأرض وقطعوا أرحامهم ﴿ **لَعَنَهُمُ اللَّهُ** ﴾ بأن أبعدهم عن رحمته وقربوا من سخط الله ﴿ **فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ** ﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه فلهم آذان ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول وإنما تسمع سماعًا تقوم بها حجة الله عليها ولهم أعين ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبينات.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾

أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه لدلَّهُمْ على كل خير ولَحَذَّرَهُمْ من كل شر ولملأ قلوبهم من الإيمان وأفئدتهم من الإيقان ولأوصلهم إلى المطالب العالية والمواهب الغالية ولبيَّنَ لهم الطريق الموصلة إلى الله وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها والطريق الموصلة إلى العذاب وبأي شيء يحذر، ولعرَّفهم بربهم وأسمائه وصفاته وإحسانه ولشوَّقهم إلى الثواب الجزيل ورهَّبهم من العقاب الوبيل ﴿ **أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الإعراض والغفلة والاعتراض وأقفلت فلا يدخلها خير أبدًا؟ هذا هو الواقع.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم وإملاء منه لهم ﴿ **يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ و ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ** ﴾ قد تبين لهم الهدى فزهدوا فيه ورفضوه، و ﴿ **قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ** ﴾ من المبارزين العداوة لله ولرسوله ﴿ **سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ** ﴾ أي الذي يوافق أهواءهم فلذلك عاقبهم الله بالضلال والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ** ﴾ فلذلك فضحهم وبينها لعباده المؤمنين لئلا يغتروا بها ﴿ **فَكَيْفَ** ﴾ ترى حالهم الشنيعة ورؤيتهم الفظيعة ﴿ **إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ** ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم ﴿ **يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ** ﴾ بالمقامع الشديدة؟! ﴿ **ذَٰلِكَ** ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه ﴿ **بِـ** ﴾ سبب ﴿ **أَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ** ﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان ﴿ **وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ** ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه ولا يدنيهم منه ﴿ **فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه فإنه سيكفر عنه سيئاته ويضاعف له أجره وثوابه.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ﴾ من شبهة أو شهوة بحيث تخرج القلب عن حال صحته

واعتداله ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ﴾ ما فى قلوبهم ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾[(١)] وعداوتهم للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بـالمحن التى من ثبت عليها ودام إيمـانه فيهـا فهو المؤمن حقيقة، ومن ردته على عقبيه فلم يصبر عليـها وحين أتاه الامتحان جزع وضعف إيمانه وظهر ما فى قلبه من الضغن وتبين نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية مع أنه تعالى قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أى: بعلاماتهم التى هـى كالرسم فى وجوههم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[(٢)] أى: لا بد أن يظهر مـا قلوبهم ويتبين بفلتـات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب يظهـر فيها ما فى القلوب من الخـير والشر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فيجـازيكم عليها، ثم ذكـر أعظم امتحان يمـتحن به عباده وهو: الجـهاد فى سبيـل الله فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أى: نختبر إيمانكم وصبركم ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ فمن امتثل أمر الله وجاهد فى سـبيل الله بنصر دينه وإعلاء كلمـته فهو المـؤمن حقًا ومن تكاسل عن ذلك كان ذلك نـقصًا فى إيمانه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

هذا وعيد شـديد لمن جمع أنواع الشر كلها من الكفـر بالله وصد الخلق عن سبيل الله الذى نصبـه موصلاً إليـه ﴿وَشَاقُّوا[(٣)] الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أى: عاندوه وخالفوه عن عـمد وعناد لا عن جهل وغىٍّ وضلال، فإنهم ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فلا ينقص به ملكه ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: مساعيهم التى بذلوها فى نصر الباطل بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران وأعمالهم التى يرجون بها الثواب لا تقبل لعدم وجود شرطها.

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

يأمر تعالى المؤمنين بأمـر به تتم وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية وهو: طاعتـه وطاعة رسوله فى أصول الدين وفروعه، والطاعة هى: امتثال الأوامر واجتناب النهى[(٤)] على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة، وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ يشمل النهى عن إبطالها بعد عملها بما يفسدها من مَنٍّ بها وإعجاب وفخر وسمعة ومن عمل بالمعاصى التى تضمحـل معها الأعمال ويحبط أجرها ويشمل النهى عن إفسادها حـال وقوعها بقطعها أو الإتيان بمفسـد من مفسـداتها، فمبطلات الصـلاة والصيام والحج ونحوها كلهـا داخلة فى هذا ومنهى عنها، ويستدل الفقـهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض وكراهة قطع النفل من غيـر موجب لذلك، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمـال فهو أمـر بإصلاحهـا وإكمالهـا وإتمامها والإتيـان بها على الوجه الـذى تصلح به علمًا وعملاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

هذه الآية والتى فى البقرة وهى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

---

(١) قال الراغب فى «مفردات ألفاظ القرآن» الضِّغْن، والضَّغْن، (بفتح الضاد وكسرها) الحقد الشديد، يعنى: هل ظن هؤلاء المنافقون أن لن يظهر الله أحقادهم لرسوله وللمؤمنين فتبقى أمورهم مستورة؟ والمعنى: إن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال.

(٢) فى لحن القول أى: معناه، إذا تكلموا عندك بأن يُعَرِّضوا بما فيه تهجين (تقبيح) أمر المسلمين اهـ. جلالين.

وفى أبى السـعود «ولحن القـول: نحوه وأسلوبه، أو إمـالته إلى جـهة تعـريض وتورية، ومنه للمـخطئ «لاحن» لعدله بالكلام عن سـمت الصواب». اهـ.

(٣) هذه الآية نزلت فى المشركين الذين كانوا يطعمون إخوانهم المشركين يوم «بدر» أو غزوة بنى قريظة أو بنى النضير فى رواية أخرى.

(٤) قوله: «النهى» هكذا فى الأصل، والصحيح أن يقال «المناهى» ليتناسب مع ما قبله وهى كلمة «الأوامر».

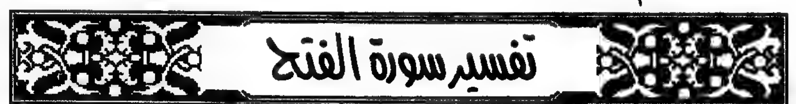
في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ مقيدتان لكل نص مطلق فيه إحباط العمل بالكفر فإنه مقيد بالموت عليه، فقال هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر ﴿وَصَدُّوا﴾ الخلق ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بتزهيدهم إياهم بالحق ودعوتهم إلى الباطل وتزيينه ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ لم يتوبوا منه ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لا بشفاعة ولا بغيرها، لأنه قد تحتم عليهم العقاب وفاتهم الثواب ووجب عليهم الخلود في النار وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار، ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ويدخلهم الجنة ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به والصد عن سبيله والإقدام على معاصيه، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة ولم يغلقها عن أحد ما دام حيًا متمكنًا من التوبة، وسبحان الحليم الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة بل يعافيهم ويرزقهم كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم، ثم قال تعالى ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم ويستولي عليكم الخوف بل اصبروا واثبتوا ووطّنوا أنفسكم على القتال والجلاد طلبًا لمرضاة ربكم ونصحًا للإسلام وإغضابًا للشيطان ﴿وَ﴾ لا ﴿تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ والمتاركة بينكم وبين أعدائكم طلبًا للراحة ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ أي: ينقصكم ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ فهذه الأمور الثلاثة كل منها مقتض للصبر وعدم الوهن: كونهم الأعلون، أي: قد توفرت لهم أسباب النصر ووعدوا من الله بالوعد الصادق، فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عددًا أو عُدَدًا وقوة داخلية وخارجية، الثاني: أن الله معهم فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم وإقدامهم على عدوهم، الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئًا بل سيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، خصوصًا عبادة الجهاد فإن النفقة تضاعف فيه إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده أوجب له ذلك النشاط وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؟! فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

هذا تزهيد منه تعالى لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهيًا في ماله وأولاده وزينته ولذاته من النساء والمآكل والمشارب والمساكن والمجالس والمناظر والرياسات لاعبًا في كل عمل لا فائدة فيه بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي حتى يستكمل دنياه ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولّت وفارقت ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسرانه وحرمانه وحضر عذابه فهذا موجب للعاقل الزهد فيها وعدم الرغبة فيها والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ بأن تؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته وهي: العمل بمرضاته على الدوام مع ترك معاصيه فهذا الذي ينفع العبد وهو الذي ينبغي أن يُتنافس فيه وتبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفًا ليثيبهم الثواب الجزيل، ولهذا قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم ويعنتكم من أخذ أموالكم وبقائكم بلا مال أو ينقصكم نقصًا يضركم،

ولهذا قال: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ[(١)] تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أى: ما فى قلوبكم من الضغن إذا طلب منكم ما تكرهون بذله، الدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها أنكم تمنعون منها: أنكم ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على هذا الوجه الذى فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أى: فكيف لو سألكم وطلب منكم أموالكم فى غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك، ثم قال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى وفاته خير كثير ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئًا ﴿وَاللَّهُ﴾ هو ﴿الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ تحتاجون إليه فى جميع أوقاتكم لجميع أموركم ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بالله وامتثال ما يأمركم به ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ فى التولى «عن أمر الله» بل يطيعون الله ورسوله، ويحبون الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

تم تفسير سورة محمد (القتال) والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمرًا فى قصة طويلة صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل فى عهد قريش وحلفهم دخل ومن أحب أن يدخل فى عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل، وسبب ذلك أنه لما أمن الناس بعضهم بعضًا اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل وصار كل مؤمن بأى محل كان من تلك الأقطار يتمكن من ذلك، وأمكن ذلك للحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام فدخل الناس فى تلك المدة فى دين الله أفواجًا، فلذلك سماه الله فتحًا ووصفه بأنه فتح مبين، أى: ظاهر جلى، وذلك لأن المقصود من فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله وانتصار المسلمين وهذا حصل به الفتح ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور فقال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة والدخول فى الدين بكثرة، وبما تحمَّل ﷺ من تلك الشروط التى لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعزاز دينك ونصرك على أعدائك واتساع كلمتك ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ تنال به السعادة الأبدية والفلاح السرمدى ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أى: قويًا لا يتضعضع فيه الإسلام بل يحصل الانتصار التام وقمع الكافرين وذلهم ونقصهم مع توفر المسلمين ونموهم ونمو أموالهم ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾

---

(١) فيحفكم، أى: يجهدكم، ويشق عليكم، ويطلبه كله، والإحفاء والإلحاف: المبالغة وبلوغ الغاية فى كل شىء، يقال: أحفاه فى المسألة إذا لم يترك شيئًا من الإلحاح، وأحفى شاربه: إذا استأصله عن آخره.

يخبر تعالى عن منَّته على المؤمنين بإنزال السكينة فى قلوبهم وهى: السكون والطمأنينة والثبات عند نزول المحن المقلقة والأمور الصعبة التى تشوش القلوب وتزعج الألباب وتضعف النفوس، فمن نعمة الله على عبده فى هذه الحال أن يثبته ويربط على قلبه وينزل عليه السكينة ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة فيستعد بذلك لإقامة أمر الله فى هذه الحال فيزداد بذلك إيمانه ويتم إيقانه، فالصحابة ﷺ لما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين من تلك الشروط التى ظاهرها أنها غضاضة عليهم وحط من أقدارهم وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطَّنوا أنفسهم لها ازدادوا بذلك إيمانًا مع إيمانهم، وقوله: ﴿**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ أى: جميعها فى ملكه وتحت تدبيره وقهره، فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه ولكنه تعالى عليم حكيم فتقتضى حكمته المداولة بين الناس فى الأيام وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر ﴿**لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين أى: يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات ﴿**وَكَانَ ذَلِكَ**﴾ الجزاء المذكور للمؤمنين ﴿**عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين فى ذلك الفتح المبين، وأما المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات فإن الله يعذبهم بذلك ويريهم ما يسوؤهم حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله ظن السوء أنه لا ينصر دينه ولا يُعلى كلمته وأن أهل الباطل ستكون لهم الدائرة على أهل الحق فأدار الله عليهم ظنهم وكانت دائرة السوء عليهم فى الدنيا ﴿**وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**﴾ بما اقترفوه من المحادَّة لله ولرسوله ﴿**وَلَعَنَهُمْ**﴾ أى: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿**وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[1].

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ ﴾

كرر الإخبار بأن له ملك السموات والأرض وما فيهما من الجنود ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ أى: قويًا غالبًا قاهرًا لكل شىء ومع عزته وقوته حكيم فى خلقه وتدبيره يجرى أوامره على ما تقتضيه حكمته وإتقانه.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ ﴾

أى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ**﴾ أيها الرسول الكريم ﴿**شَاهِدًا**﴾ لأمتك بما فعلوه من خير وشر وشاهدًا على المقالات والمسائل حقها وباطلها، وشاهدًا لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه ﴿**وَمُبَشِّرًا**﴾ من أطاعك وأطاع الله بالثواب الدنيوى والدينى والأخروى ﴿**وَنَذِيرًا**﴾ لمن عصى الله بالعقاب العاجل والآجل ومن تمام البشارة والنذارة بيان الأعمال والأخلاق التى يبشر بها وينذر فهو المبين للخير والشر والسعادة والشقاوة والحق من الباطل، ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿**لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ أى: بسبب دعوة الرسول لكم وتعليمه لكم ما ينفعكم أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله المستلزم ذلك لطاعتهما فى جميع الأمور ﴿**وَتُعَزِّرُوهُ**[2] **وَتُوَقِّرُوهُ**﴾ أى: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه أى: تعظموه وتجلوه وتقوموا بحقوقه كما كانت له المنة العظيمة فى رقابكم ﴿**وَتُسَبِّحُوهُ**﴾ أى: تسبحوا لله ﴿**بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ أول النهار وآخره، فذكر الله فى هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله وهو: الإيمان بهما والمختص بالرسول وهو التعزير والتوقير والمختص بالله وهو: التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها.

---

(١) أى: ساءت وقبحت جهنم مرجعًا ونهاية يخلدون فى عذابها.

(٢) تعزروه، التعزير: النصرة مع التعظيم. اهـ. مفردات الراغب.

وفى «أبو السعود» وتعزروه بتقوية دينه ورسوله. اهـ. والمراد: تنصروا الله تعالى بالجهاد الصادق مع نبيه محمد عليه الصلاة والسلام.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

هذه المبايعة التى أشار الله إليها هى «بيعة الرضوان» التى بايع الصحابة ﷺ فيها رسول الله ﷺ على أن لا يفروا عنه فهى عقد خاص من لوازمه: أن لا يفروا ولو لم يبق منهم إلا القليل ولو كانوا فى حال يجوز الفرار فيها فأخبر تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ حقيقة الأمر أنهم ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية وحملهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾[1] فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ لأن وبال ذلك راجع إليه وعقوبته واصلة له ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ أى: أتى به كاملاً موفراً ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذى آتاه إياه.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

يذم تعالى المتخلفين عن رسول الله فى الجهاد فى سبيله من الأعراب الذين ضعف إيمانهم وكان فى قلوبهم مرض وسوء ظن بالله تعالى وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج فى سبيله وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذنب وأنهم تخلفوا تخلفًا يحتاج إلى توبة واستغفار، فلولا هذا الذى فى قلوبهم لكان استغفار الرسول نافعًا لهم لأنهم قد تابوا وأنابوا ولكن الذى فى قلوبهم أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء فظنوا ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: إنهم سيقتلون ويستأصلون ولم يزل هذا الظن يزيد فى قلوبهم ويطمئنون إليه حتى استحكم، وسبب ذلك أمران: أحدهما: أنهم كانوا ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ أى: هلكى لا خير فيهم فلو كان فيهم خير لم يكن هذا فى قلوبهم، الثانى: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله ونصر دينه وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: فإنه كافر مستحق للعقاب ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

أى: هو تعالى المنفرد بملك السموات والأرض يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية فقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وهو: من قام بما أمره الله به ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ ممن تهاون بأمر الله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أى: وصفه اللازم الذى لا ينفك عنه المغفرة والرحمة فلا يزال فى جميع الأوقات يغفر للمذنبين ويتجاوز عن الخاطئين ويتقبل توبة التائبين وينزل خيره المدرار آناء الليل والنهار.

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

---

(١) أى: فمن نقض عهده الذى عاهدك عليه وهو الثبات على الإيمان الصادق فإنما يعود ضرر نقض بالعهد المذكور على نفسه ولا يضر إلا نفسه.

لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية أن رسول الله ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها طلبوا منهم الصحبة والمشاركة ويقولون: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ حيث حكم بعقوبتهم واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم شرعًا وقدرًا ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ إنكم محرومون منها بما جنيتم على أنفسكم وبما تركتم القتال أول مرة ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مجيبين لهذا الكلام الذى منعوا به عن الخروج: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ على الغنائم، هذا منتهى علمهم فى هذا الموضع، ولو فهموا رشدهم لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم وأن المعاصى لها عقوبات دنيوية ودينية ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

لما ذكر تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد فى سبيله ويعتذرون بغير عذر وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال بل لمجرد الغنيمة، قال تعالى ممتحنًا لهم: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أى: سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه من الخلفاء الراشدين والأئمة وهؤلاء القوم هم فارس والروم ومن نحا نحوها وأشبههم ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أى: إما هذا، وإما هذا وهذا هو الأمر الواقع فإنهم فى حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام إذا كانت شدتهم وبأسهم معهم فإنهم فى تلك الحال لا يقبلون أن يبذلوا الجزية بل إما أن يدخلوا فى الإسلام وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه، فلما أثخنهم المسلمون وضعفوا وذلوا ذهب بأسهم فصاروا إما أن يسلموا وإما أن يبذلوا الجزية ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ الداعى إلى قتال هؤلاء ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الأجر الذى رتبه الله ورسوله على الجهاد فى سبيل الله ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عن قتال، من دعاكم الرسول إلى قتاله ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين الداعين لجهاد أهل البأس من الناس وأنه تجب طاعتهم فى ذلك، ثم ذكر الأعذار التى يعذر بها العبد عن الخروج إلى الجهاد فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أى: فى التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فى امتثال أمرهما واجتناب نهيهما ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالسعادة كلها فى طاعة الله والشقاوة فى معصيته ومخالفته.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

يخبر تعالى بفضله ورحمته برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعة التى بيضت وجوههم واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة، وكان سبب هذه البيعة التى يقال لها «بيعة الرضوان» لرضا الله عن المؤمنين فيها ويقال لها «بيعة أهل الشجرة» أن رسول الله ﷺ لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية

---

(١) أى: لا يفهمون إلا فهمًا قليلاً، وهو فطنتهم لأمور الدنيا.

وهذا ردٌّ لقولهم الباطل ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد وأطم من الجهل المفرط وسوء الفهم فى أمور الدين. اهـ. من أبى السعود.

في شأن مجيئه وأنه لم يجئ لقتال أحد وإنما جاء زائراً هذا البيت معظماً له، فبعث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه لمكة في ذلك فجاء خبر غير صادق أن عثمان قتله المشركون، فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين وكانوا نحواً من ألف وخمسمائة فبايعوه تحت الشجرة على قتال المشركين وأن لا يفروا حتى يموتوا، فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ شكراً لهم على ما في قلوبهم وزادهم هدى، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله فأنزل عليهم السكينة تثبتهم وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو: فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية فاختصوا بخيبر وغنائمها جزاءً لهم وشكراً على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: له العزة والقدرة التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم يبتلي بعضهم ببعض ويمتحن المؤمن بالكافر ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهذا يشمل كل غنيمة غنمها المسلمون إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي: غنيمة خيبر أي: فلا تحسبوها وحدها بل ثَمَّ شيء كثير من الغنائم سيتبعها ﴿وَ﴾ احمدوا الله إذ ﴿كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ﴾ القادرين على قتالكم الحريصين عليه ﴿عَنكُمْ﴾ فهي نعمة وتخفيف عنكم ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الغنيمة ﴿آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يستدلون بها على خبر الله الصادق ووعده الحق وثوابه للمؤمنين وأن الذي قدرها سيقدر غيرها ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بما يقيض لكم من الأسباب ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ من العلم والإيمان والعمل ﴿وَأُخْرَى﴾ أي: وعدكم أيضاً غنيمة أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وقت هذا الخطاب ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: هو قادر عليها وهي وتحت تدبيره وملكه وقد وعدكموها فلا بد من وقوع ما وعد به لكمال اقتدار الله تعالى ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين بنصرهم على أعدائهم الكافرين وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويعينهم على قتالكم بل هم مخذولون مغلوبون وهذه سنة الله في الأمم السابقة أن جند الله هم الغالبون ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بالعافية من شر الكفار ومن قتالهم فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أهل مكة ﴿عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من بعد ما قدرتم عليهم وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد وهم نحو ثمانين رجلاً انحدروا على المسلمين ليصيبوا منهم غرة، فوجدوا المسلمين منتبهين فأمسكوهم فتركوهم ولم يقتلوهم رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فيجازي كل عامل بعمله ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن، ثم ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين وهي كفرهم بالله ورسوله وصدهم رسول الله ومن معه من المؤمنين أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة، وهم الذين أيضاً صدوا ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ أي: محبوساً ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ وهو محل ذبحه في مكة، حيث تذبح هدايا العمرة، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً، وكل هذه الأمور موجبة

وداعيـة إلى قتـالهم، ولكن ثَمَّ ومانع هو: وجـود رجال ونسـاء من أهل الإيمان بين أظهـر المشركين وليسوا بمتميزين بمحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى، فلولا هؤلاء الرجـال المؤمنون والنساء المؤمنات الذين لا يعلمهم المسلمون أن تطئوهم، أى: خشية أن تطئوهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والمعرة: ما يدخل تحت قتـالهم من نيلهم بالأذى والمكروه، وفائـدة أخروية وهو: أنه ﴿لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فَيَمُنُّ عليهم بالإيمان بعد الكفر وبالهدى بعد الضلال فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أى: لو زالوا من بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بأن نبيح لكم قتالهم ونأذن فيه وننصركم عليهم.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ حيث أنفوا من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم فى تلك السنة لئلا يقول الناس: «دخلوا مكة قاهرين لقريش» وهذه الأمـور ونحوها من أمور الجاهـلية لم تزل فى قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت من كثير من المعاصى ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به بل صبروا لحكم الله والتزموا الشروط التى فيها تعظيم حرمات الله ولو كانت ما كانت ولم يبالوا بقول القائلين ولا بلوم اللائمين ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ وهى «لا إله إلا الله» وحقوقها ألزمهم القيام بها فالتزموها وقاموا بها ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَ﴾ كانوا ﴿أَهْلَهَا﴾ الذين استأهلوا لما يعلم الله عندهم وفى قلوبهم من الخير ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ رأى فى المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى ورجعوا من غير دخول لمكة كثر فى ذلك الكلام منهم حتـى إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم تخبرنا أنَّا سنأتى البيت ونطوف به؟ فقال: «أخبرتكم أنه العام؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ستأتونه وتطوفون به» قال الله تعالى هنا: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ أى: لا بد من وقوعها وصدقـها ولا يقدح فى ذلك تأويلها ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أى: فى هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام وأدائكم للنسك وتكميله بالحلق والتقصير وعدم الخوف ﴿فَعَلِمَ﴾ من المصلحة والمنافع ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الدخول بتلك الصفة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت به قلوب بعض المؤمنين وخفيت عليهم حكمتها فبيَّن تعالى حكمتها ومنفعتها وهكذا سائر أحكامه الشرعية فإنها كلها هدى ورحمة، أخبر بحكم عام فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ الذى هو العلم النافع الذى يهدى من الضلالة ويبين طرق الخير والشر ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أى: الدين الموصوف بالحق وهو: العدل والإحسـان والرحمة، وهو: كل عـمل مُزكٍّ للقلوب مطهر للنفـوس مُرَبٍّ للأخلاق مُعْلٍ للأقدار ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾[1] بما بعثه الله به ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ بالحجة والبرهان ويكون داعيًا لإخضاعهم بالسيف والسنان.

---

(١) ليظهره: أى: ليعليه على الأديان كلها.

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾

يخبر تعالى عن نبيه ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ ﷺ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من أصحابه من المهاجرين والأنصار أنهم بأكمل الصفات وأجل الأحوال، وأنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ أي: جادون ومجتهدون في نصرتهم وساعون في ذلك بغاية جهدهم فلم ير الكفار منهم إلا الغلظة والشدة، فلذلك ذل أعداؤهم لهم وانكسروا وقهرهم المسلمون ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: متحابون متراحمون متعاطفون كالجسد الواحد يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق وأما معاملتهم مع الخالق فإنك ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: وصفهم كثرة الصلاة التي أجل أركانها الركوع والسجود ﴿يَبْتَغُونَ﴾ بتلك العبادة ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم والوصول إلى ثوابه ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي: قد أثرت العبادة - من كثرتها وحسنها - في وجوههم حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم استنارت بالجلال ظواهرهم ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به مذكور بالتوراة هكذا ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾ بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ﴾ أي: أخرج أفرخه فوازرته فراخه في الثبات والاستواء ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ ذلك الزرع أي: قوي وغلظ ﴿فَاسْتَوَى﴾ «أي: قوى واستقام» ﴿عَلَى سُوقِهِ﴾ جمع ساق، يعني: أصوله والمراد: أنه قوي وقام على قضبانه ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ من كماله واستوائه وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة ﷺ هم كالزراع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق ووازره وعاونه على ما هو عليه من إقامة دين الله والدعوة إليه كالزرع الذي أخرج شطأه فآزره فاستغلظ، ولهذا قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ حين يرون اجتماعهم وشدتهم على أعداء دينهم وحين يتصادمون معهم في معارك النزال ومعامع القتال ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فالصحابة ﷺ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح قد جمع الله لهم بين المغفرة التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة والأجر العظيم في الدنيا والآخرة، ولنسق قصة الحديبية بطولها كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في «الهدى النبوى» فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة وقد تكلم على معانيها وأسرارها.

فصل في قصة الحديبية: قال رحمه الله تعالى: قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري وقتادة وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وغيرهم، وقال هشام بن عروة عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان وكانت في شوال وهذا وهم وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان قال أبو الأسود عن عروة: أنها كانت في ذي القعدة على الصواب، وفي الصحيحين عن أنس: أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديبية وكان معه ألف وخمسمائة، وهكذا في الصحيحين عن جابر وعنه فيهما كانوا ألفًا وأربعمائة، وفيهما عن عبد الله بن أبي أوفى كنا ألفًا وثلاثمائة، قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، قال قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مائة قال: يرحمه الله، وَهِم، وهو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة، قلت: صح عن جابر القولان وصح عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة البدنة عن سبعة فقيل له: كم كنتم؟ قال: ألفًا وأربعمائة بخيلنا ورجلنا، يعني: فارسهم وراجلهم، والقلب إلى هذا أميل وهو قول البراء بن عازب ومعقل بن يسار وسلمة بن الأكوع في أصح الروايتين وقول المسيب بن حزن، قال شعبة عن

قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفًا وأربعمائة وغلط غلطًا بيِّنًا من قال: كانوا سبعمائة، وعذرهم أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة أو عشرة وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل فإنه قد صرح بأن البدنة كانت فى هذه الغزوة عن سبعة فلو كانت السبعون عن جميعهم لكانوا أربعمائة وتسعين رجلاً وقد قال بتمام الحديث بعينه أنهم كانوا ألفًا وأربعمائة.

فصل: فلما كان بذى الحليفة قلَّد رسول الله ﷺ الْهَدْىَ وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث عينًا له بين يديه من خزاعة يخبره عن قريش، حتى إذا كانوا قريبًا من عُسْفان أتاه عينه فقال: إنى قد تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش وجمعوا لك جموعًا وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت، واستشار رسول الله ﷺ أصحابه وقال أترون أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين وإن نجوا يكن عنق قطعه الله؟ أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبى ﷺ: «فروحوا إذًا» فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبى ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش فخذوا ذات اليمين» فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بقترة الجيش فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت راحلته فقال الناس: حل حل، فألحت فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبى ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياهم» ثم زجرها فوثبت به فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضًا، فلم يلبث الناس أن نزحوه فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوها فيه، قال: فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنها، وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم فقال: يا رسول الله ليس بمكة من بنى كعب أحد يغضب لى إن أوذيت، فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها وإنه مبلغ ما أردت، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فأرسله إلى قريش وقال: «أخبرهم أنَّا لم نأت لقتال وإنما جئنا عُمَّارًا، وادعهم إلى الإسلام» وأمره أن يأتى رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإيمان، فانطلق عثمان فمر على قريش ببلدح فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثنى رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ويخبركم أنَّا لم نأت لقتال وإنما جئنا عمارًا، قالوا: قد سمعنا ما تقول فانفذ لحاجتك، وقام إليه أبان بن سعيد فرحَّب به وأسرج فرسه فحمل عثمان على الفرس فأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون» فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظنى به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه» واختلط المسلمون بالمشركين فى أمر الصلح، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة وتراموا بالنبل والحجارة وصاح الفريقان كلاهما وارتضى كل واحد من الفريقين بمن فيهم وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل فدعا إلى البيعة فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجر فبايعوه على أن لا يفروا فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال: «هذه عن عثمان» ولما تمت البيعة رجع عثمان فقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، فقال: بئسما ظننتم بى والذى نفسى بيده لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ولقد دعتنى قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت فقال المسلمون: رسول الله ﷺ كان أعلمنا بالله وأحسننا ظنًا، وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة فبايعه المسلمون كلهم إلا الجد بن قيس وكان معقل بن يسار أخذ بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدى وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، فى أول الناس وأوسطهم وآخرهم، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله

ﷺ من أهل تهامة فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، قال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم ويخلوا بينى وبين الناس وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمره» قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشًا فقال: إنى قد جئتكم من عند هذا الرجل وسمعته يقول قولاً فإن شئتم عرضته عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشىء، وقال ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فقال عروة بن مسعود الثقفى: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آته، فقالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلمه فقال النبى ﷺ نحوًا من قوله لبديل فقال له عروة عند ذلك: أى محمد أرأيت لو استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فوالله إنى لأرى وجوهًا وأرى أوباشًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك، وجعل يكلم النبى ﷺ وكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة على رأس النبى ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال: أخِّرْ يدك عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروة رأسه وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أى غُدَر أولست أسعى فى غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قومًا فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبى ﷺ: «أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه فى شىء» ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ فوالله ما تنخم النبى ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك به جلده ووجهه وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضُوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيمًا له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم والله لقد وفدت على الملوك: على كسرى وقيصر والنجاشى والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا والله ما تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضُوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيمًا له وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بنى كنانة: دعونى آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبى ﷺ قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له» فبعثوها فاستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، لا ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فرجع إلى أصحابه فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت وما أرى يصدون عن البيت، فقام مكرز بن حفص وقال: دعونى آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبى ﷺ: «هذا مكرز بن حفص وهو رجل فاجر» فجعل يكلم النبى ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال النبى ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم» فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتابًا فدعا الكاتب فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما ندرى ما هو ولكن اكتب: «باسمك اللهم» كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله ما نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبى ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: فوالله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبى ﷺ: «إنى رسول الله وإن كذبتمونى، اكتب: محمد بن عبد الله» فقال النبى ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به» فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنَّا أُخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل فكتب، فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان فى دينك إلا رددته علينا، فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟ فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف فى قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيتك عليه أن ترده، فقال النبى ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعدُ» فقال: فوالله إذًا لا أصالحك على

شيء أبدًا، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي» فقال: ما أنا بمجيزه، فقال: «بلى فافعل» قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: قد أجزناه، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا! ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذابًا شديدًا، قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله ألست نبي الله؟ قال: بلى، قال: قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، فقلت: علام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله وهو ناصري ولست أعصيه» قلت: أولست كنت تحدثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به» قال: فأتيت أبا بكر فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً، فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا ثم احلقوا» فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلق لك، فقام فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا، ثم جاءت نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا عنده في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة، وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ فقال: «نعم» فقال الصحابة: هنيئًا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. انتهى.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح ولله الحمد
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه



تفسير سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾

هذا متضمن للأدب مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ والتعظيم والاحترام له وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله ورسوله من امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله متبعين لسنة رسول الله ﷺ في جميع أمورهم وأن لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله فلا يقولوا حتى يقول ولا يأمروا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله وهو: عنوان سعادة العبد وفلاحه وبفواته تفوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدي، وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ وجب اتباعها وتقديمها على غيرها كائنًا من كان، ثم أمر الله بتقواه عمومًا وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات في خفي المواضع والجهات ﴿عَلِيمٌ﴾

بالظواهر والبواطن والسوابق واللواحق والواجبات والمستحيلات والجائزات، وفي ذكر الاسمين الكريمين - بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه - حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة والآداب المستحسنة وترهيب عن ضده، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول﴾ وهذا أدب مع الرسول ﷺ في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته ولا يجهر له بالقول بل يغض الصوت ويخاطبه بأدب ولين وتعظيم وتكريم وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزونه في خطابهم كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة ووجوب الإيمان به والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك محذوراً خشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر كما أن الأدب معه من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال، ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى، أي: ابتلاها واختبرها فظهرت نتيجة ذلك بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه وحصول الأجر العظيم الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى وفيه حصول كل محبوب، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب بالأمر والنهي والمحن، فمن لازم أمر الله واتبع رضاه وسارع إلى ذلك وقدمه على هواه تمحض وتمحص للتقوى وصار قلبه صالحًا، ومن لم يكن كذلك علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

نزلت هذه الآيات الكريمة في ناس من الأعراب الذين وصفهم الله بالجفاء وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ فوجدوه في بيته وحجرات نسائه فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد، أي: اخرج إلينا، فذمهم الله بعدم العقل حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل استعمال الأدب، فأدب العبد عنوان عقله وأن الله مريد به الخير، ولهذا قال: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالآداب، رحيم بهم حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾

وهو أيضًا من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها وهو: أنه إذا أخبرهم فاسق بنبإ - أي: خبر - أن يتثبتوا في خبره ولا يأخذوه مجردًا، فإن في ذلك خطراً كبيراً ووقوعًا في الإثم فإن خبره إذا جعل بمنزل خبر الصادق العدل حكم بموجب ذلك ومقتضاه فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سببًا للندامة بل الواجب عند سماع خبر الفاسق التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه عمل به وصدق وإن دلت على كذبه كُذِّب ولم يعمل به ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول وخبر الكاذب مردود وخبر الفاسق متوقف فيه، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج المعروفين بالصدق، ولو كانوا فساقًا.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

أي: وليكن لديكم معلومًا أن رسول الله ﷺ بين أظهركم وهو الرسول الكريم البار الراشد الذي يريد بكم الخير وينصح لكم وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعنتكم ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحبب إليكم الإيمان ويزينه في قلوبكم بما أودع في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره وبما نصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته وقبول

القلوب والفطر له وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإنابة إليه، ويكره إليكم الكفر والفسوق ـ أى: الذنوب الصغار ـ بما أودع فى قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده ومضرته وعدم قبول الفطر له وبما يجعل الله فى القلوب من الكراهة له ﴿**أُولَٰئِكَ**﴾ الذين زين الله الإيمان فى قلوبهم وحببه إليهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿**هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾ أى: الذين صلحت علومهم وأعمالهم واستقاموا على الدين القويم والصراط المستقيم، وضدهم الغاوون الذين حبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة قلب أفئدتهم، وقوله: ﴿**فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً**﴾ أى: ذلك الخير الذى حصل لهم هو بفضل الله عليهم وإحسانه لا بحولهم وقوتهم ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ أى: عليم بمن يشكر النعمة فيوفقه لها ممن لا يشكرها ولا تليق به فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

هذا متضمن لنهى المؤمنين عن أن يبغى بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضًا، وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم والتوسط على أكمل وجه يقع به الصلح ويسلكوا الطرق الموصلة إلى ذلك، فإن اصطلحتا فبها ونعمت ﴿**فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ**﴾ أى: ترجع إلى ما حد الله ورسوله من فعل الخير وترك الشر الذى من أعظمه الاقتتال، وقوله: ﴿**فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ**﴾ هذا أمر بالصلح وبالعدل فى الصلح فإن الصلح قد يوجد ولكن لا يكون بالعدل بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين فهذا ليس هو الصلح المأمور به فيجب أن لا يراعى أحدهما لقرابة أو وطن أو غير ذلك من المقاصد والأغراض التى توجب العدول عن العدل ﴿**وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ أى: العادلين فى حكمهم بين الناس وفى جميع الولايات التى تولوها، حتى إنه قد يدخل فى ذلك عدل الرجل فى أهله وعياله فى أداء حقوقهم، وفى الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نور: الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ هذا عقد عقده الله بين المؤمنين أنه إذا وجد من أى شخص كان فى مشرق الأرض ومغربها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فإنه أخ للمؤمنين أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم ويكرهوا له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبى ﷺ آمرًا بالأخوة الإيمانية: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه» متفق عليه، وفيهما عن النبى ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وشبك ﷺ بين أصابعه، ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض ومما يحصل به التآلف والتوادد والتواصل بينهم كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها فليصلح المؤمنون بين إخوانهم وليسعوا فيما به يزول شنآنهم، ثم أمر بالتقوى عمومًا ورتب على القيام بالتقوى وبحقوق المؤمنين الرحمة فقال: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة، وفى هاتين الآيتين من الفوائد غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع وجود الاقتتال كغيره من الذنوب الكبائر التى دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل وعلى وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله بأن رجعوا على

وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه أنه لا يجوز ذلك وأن أموالهم معصومة لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة دون أموالهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهذا أيضًا من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض أن ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ بكل كلام وقول وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام لا يجوز وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيرًا من الساخر وهو الغالب والواقع، فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق متحلٍ بكل خلق ذميم متخلٍ من كل خلق كريم، ولهذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» ثم قال تعالى: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا يعب بعضكم على بعض، واللمز: بالقول، والهمز: بالفعل، وكلاهما منهى عنه حرام متوعد عليه بالنار، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الآية، وسمى الأخ المسلم نفسًا لأخيه لأن المؤمنين ينبغى أن يكون هذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره أوجب للغير أن يهمزه فيكون هو المتسبب لذلك ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ أى: لا يعير أحدكم أخاه ويلقبه بلقب يكره أن يقال فيه، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة فلا تدخل فى هذا ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ أى: بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه وما يقتضيه بالإعراض عن أوامره ونواهيه باسم الفسوق والعصيان الذى هو التنابز بالألقاب ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا هو الواجب على العبد أن يتوب إلى الله تعالى ويخرج من حق أخيه المسلم باستحلاله والاستغفار والمدح مقابلة على ذمه ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثَمَّ غيرهما.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

نهى الله عز وجل عن كثير من الظن السيئ بالمؤمنين حيث قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وذلك كالظن الخالى من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء الذى يقترن به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغى ويفعل ما لا ينبغى، وفى ذلك أيضًا إساءة الظن بالمسلم وبغضه وعداوته المأمور بخلافها منه ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ أى: لا تفتشوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوها ودعوا المسلم على حاله واستعملوا التغافل عن زلاته التى إذا فشت ظهر منها ما لا ينبغى ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغيبة كما قال النبى ﷺ: «ذكر أخاك بما يكره ولو كان فيه» ثم ذكر مثلاً منفرًا عن الغيبة فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ شبه أكل لحمه ميتًا المكروه للنفوس غاية الكراهة باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه خصوصًا إذا كان ميتًا فاقد الروح فكذلك فلتكرهوا غيبته وأكل لحمه حيًا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ والتواب الذى يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها ثم يتوب عليه بقبول توبته رحيم بعباده حيث دعاهم إلى ما ينفعهم وقبل منهم التوبة، وفى هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة وأنها من الكبائر لأن الله شبهها بأكل لحم الميت وذلك من الكبائر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه خلق بنى آدم من أصل واحد وجنس واحد وكلهم من ذكر وأنثى ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء ولكن الله تعالى بث منهما رجالاً كثيرًا ونساء وفرقهم وجعلهم شعوبًا وقبائل أى: قبائل صغارًا وكبارًا

وذلك لأجل أن يتعارفوا فإنه لو استقل كل واحد منهم بنفسه لم يحصل بذلك التعارف الذى يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث والقيام بحقوق الأقارب ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف ولحوق الأنساب ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصى لا أكثرهم قرابة وقومًا ولا أشرفهم نسبًا، ولكن الله تعالى عليم خبير يعلم منهم من يقوم بتقوى الله ظاهراً وباطنًا ممن لا يقوم بذلك ظاهراً ولا باطنًا فيجازى كلا بما يستحق، وفى هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة لأن الله جعلهم شعوبًا وقبائل لأجل ذلك.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾

يخبر تعالى عن مقالة بعض الأعراب الذين دخلوا فى الإسلام على عهد رسول الله ﷺ دخولا من غير بصيرة ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان أنهم مع هذا ادَّعَوْا وقالوا: آمنا، أى: إيمانًا كاملاً مستوفيًا لجميع أموره فأمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم فقال: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ أى: لا تدَّعوا لأنفسكم مقام الإيمان ظاهرًا وباطنًا كاملاً ﴿وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أى: دخلنا فى الإسلام واقتصروا على ذلك ﴿وَ﴾ السبب فى ذلك أنه ﴿لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وإنما أسلمتم خوفًا أو رجاء أو نحو ذلك مما هو السبب فى إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان فى قلوبكم، وفى قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: وقت هذا الكلام الذى صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك فإن كثيرًا منهم مَنَّ الله عليهم بالإيمان الحقيقى والجهاد فى سبيل الله ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بفعل خير أو ترك شر ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أى: لا ينقصكم منها مثقال ذرة بل يوفيكم إياها أكمل ما تكون لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: غفور لمن تاب إليه وأناب، رحيم به حيث قبل توبته ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: على الحقيقة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: من جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله، فإن من جاهد الكفار دل ذلك على الإيمان التام فى قلبه لأن من جاهد غيره على الإسلام والإيمان والقيام بشرائعه فجهاده لنفسه على ذلك من باب أولى وأحرى ولأن من لم يقو على الجهاد فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه، وشرط تعالى فى الإيمان عدم الريب أى: الشك لأن الإيمان النافع هو: الجزم اليقينى بما أمر الله بالإيمان به الذى لا يعتريه شك بوجه من الوجوه، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أى: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق دعوى عظيمة فى كل شىء يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان الذى هو مدار السعادة والفوز الأبدى والفلاح السرمدى فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه فهو الصادق المؤمن حقًا ومن لم يكن كذلك علم أنه ليس بصادق فى دعواه وليس لدعواه فائدة فإن الإيمان فى القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى، فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما فى القلب، وهو سوء أدب وظن بالله، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذا شامل للأشياء كلها التى من جملتها ما فى القلوب من الإيمان والكفران والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله ويجازى عليه إن خيراً فخير وإن شرًا فشر، هذه حالة من أحوال من ادَّعى لنفسه الإيمان وليس به فإنه إما أن يكون ذلك تعليمًا لله، وقد علم أنه

عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنَّة على رسوله وأنهم قد بذلوا وتبرعوا بما ليس من مصالحهم بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمُّل بما لا يجمل، وفخر بما لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله، فإن المنة لله تعالى عليهم، فكما أنه تعالى هو المانُّ عليهم بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة فمنته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام ومنته عليهم بالإيمان أفضل من كل شيء، ولهذا قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ⑰ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: الأمور الخفية فيها التي تخفى على الخلق كالذي في لجج البحار ومهامه القفار وما جنه الليل أو واراه النهار، يعلم قطرات الأمطار وحبَّات الرمال ومكنونات الصدور وخبايا الأمور ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحصى عليكم أعمالكم ويوفيكم إياها ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة الحجرات بعون الله ومنّه وجوده وكرمه والحمد لله



تفسير سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ① بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ② أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ③ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ④﴾

يقسم تعالى بالقرآن المجيد أي: وسيع المعاني عظيمها كثير الوجوه كثير البركات جزيل المبرات والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بذلك هذا القرآن الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين الذي حوى من الفصاحة أكملها ومن الألفاظ أجزلها ومن المعاني أعمها وأحسنها وهذا موجب لكمال اتباعه وسرعة الانقياد له وشكر الله على المنة به، ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ أي: المكذبون للرسول ﷺ ﴿أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: ينذرهم ما يضرهم ويأمرهم بما ينفعهم وهو من جنسهم يمكنهم التلقى عنه ومعرفة أحواله وصدقه، فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه بل يتعجب من عقل من تعجب منه ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم لا نقص بذكائهم وآرائهم ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: مستغرب، وهم في هذا الاستغراب بين أمرين: إما صادقون في استغرابهم وتعجبهم، فهذا يدل على غاية جهلهم وضعف عقولهم، بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأي ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟ وهل تعجبه إلا دليل على زيادة جهله وظلمه؟ وإما أن يكونوا متعجبين على وجه يعلمون خطأهم فيه فهذا من أعظم الظلم وأشنعه، ثم ذكر وجه تعجبهم فقال: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فقاسوا قدرة من هو على كل شيء قدير الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاسوا الجاهل الذي لا علم له بمن هو بكل شيء عليم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: من أجسادهم مدة مقامهم في البرزخ وقد أحصى في كتابه ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي: محفوظ عن التغيير والتبديل بكل ما يجري عليهم في حياتهم أو مماتهم وهذا الاستدلال بكمال سعة علمه - التي لا يحيط بها إلا هو - على قدرته على إحياء الموتى.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ⑤﴾

أي: ﴿بَلْ﴾ كلامهم الذي صدر منهم إنما هو عناد وتكذيب، فقد ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ الذي هو أعلى أنواع

الصدق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أى: مختلط مشتبه لا يثبتون على شىء ولا يستقر لهم قرار فتارة يقولون عنك: إنك ساحر وتارة مجنون وتارة شاعر، كذلك جعلوا القرآن عضين، كلٌّ قال فيه ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا كل من كذب بالحق فإنه فى أمر مختلط لا يدرى له وجه ولا قرار، فترى أموره متناقضة مؤتفكة كما أن من اتبع الحق وصدق به قد استقام أمره واعتدل سبيله وصدَّق فعله قيله.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به دعاهم إلى النظر فى آياته الأفقية كى يعتبروا ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ أى: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشد رحل بل هو فى غاية السهولة، فينظروا ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء ثابتة البناء مزينة بالنجوم الخنس والجوارى الكنس التى ضربت من الأفق إلى الأفق فى غاية الحسن والملاحة لا ترى فيها عيبًا ولا فروجًا ولا خلالاً، ولا إخلالاً قد جعلها الله سقفًا لأهل الأرض وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع ﴿وَ﴾ إلى ﴿الْأَرْضَ﴾ كيف ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ ووسعناها حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال لتستقر من التزلزل والتموج ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى من كل صنف من أصناف النبات التى تسر ناظريها وتعجب مبصريها وتقر عين رامقيها لأكل بنى آدم وأكل بهائمهم ومنافعهم، وخص من تلك المنافع الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة من العنب والرمان والأترج والتفاح، وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات أى: الطوال التى يطول نفعها وترفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغًا لا يبلغه كثير من الأشجار فتخرج من الطلع النضيد فى قنوانها ما هو رزق للعباد قوتًا وأدمًا وفاكهة يأكلون منه ويدخرون هم ومواشيهم، وكذلك ما يخرج الله بالمطر وما هو أثره من الأنهار التى على وجه الأرض وتحتها من ﴿حَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أى: من الزرع المحصود من بُر وشعير وذرة وأرز ودخن وغيره، فإن فى النظر فى هذه الأشياء ﴿تَبْصِرَةً﴾ يتبصر بها من عمى الجهل ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يتذكر بها ما ينفع فى الدين والدنيا ويتذكر بها ما أخبر الله به وأخبرت به رسله وليس ذلك لكل أحد بل ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ إلى الله، أى: مقبل عليه بالحق والخوف والرجاء وإجابة داعيه، وأما المكذب والمعرض فما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، وحاصل هذا أن ما فيها من الخلق الباهر والقوة والشدة دليل على كمال قدرة الله تعالى، وما فيها من الحسن والإتقان وبديع الصنع وبديع الخلقة دليل على أن الله أحكم الحاكمين وأنه بكل شىء عليم، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد دليل على رحمة الله التى وسعت كل شىء وجوده الذى عم كل حى، وما فيها من عظمة الخلقة وبديع النظام دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولم يكن له كفوًا أحد وأنه الذى لا تنبغى العبادة والذل والحب إلا له، وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها دليل على إحياء الله الموتى ليجاريهم بأعمالهم ولهذا قال: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ولما ذكرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية خوَّفهم أخذات الأمم وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

أى: كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام كنوح كذبه قومه، وثمود كذبوا صالحًا، وعاد كذبوا هودًا، وإخوان لوط كذبوا لوطًا، وأصحاب الأيكة كذبوا شعيبًا، وقوم تبع، وتبع: كل ملك

ملكَ اليمن فى الزمان السابق قبل الإسلام، فقوم تبع كذبوا الرسول الذى أرسله الله إليهم ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول وأى تبع من التبابعة لأنه، والله أعلم، كان مشهوراً عند العرب العرباء الذين لا تخفى مجرياتهم على العرب خصوصًا مثل هذه الحادثة العظيمة، فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم فحق عليهم وعيد الله وعقوبته ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيراً منهم ولا رسلهم أكرم على الله من رسولكم فاحذروا جرمهم لئلا يصيبكم ما أصابهم، ثم استدل تعالى بالخلق الأول، وهو النشأة الأولى، على الخلق الآخر وهو: النشأة الآخرة، فكما أنه الذى أوجدهم بعد العدم كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى الرفات والرمم فقال: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ أى: أفعجزنا وضعفت قدرتنا ﴿بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾؟ ليس الأمر كذلك فلم نعجز ونَعْىَ عن ذلك وليسوا فى شك من ذلك ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا الذى شكوا فيه والتبس عليهم أمره مع أنه لا محل للبس فيه لأن الإعادة أهون من الابتداء كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان ذكورهم وإناثهم وأنه يعلم أحوالهم وما يسره وتوسوس به نفسه وأنه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ الذى هو أقرب شىء إلى الإنسان وهو: العظم المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه المطلع على ضميره وباطنه، القريب إليه فى جميع أحواله فيستحى منه أن يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره، وكذلك ينبغى له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال فيجلهم ويوقرهم ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه مما لا يرضى رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أى: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ يكتب الحسنات ﴿وَ﴾ الآخر ﴿عَنِ الشِّمَالِ﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿قَعِيدٌ﴾ بذلك متهيئ لعمله الذى أعد له ملازم لذلك ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أى: مراقب له حاضر لحاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أى: ﴿وَجَاءَتْ﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ الذى لا مرد له ولا مناص ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أى: تتأخر وتنكص عنه ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أى: اليوم الذى يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ﴾ يسوقها إلى موقف القيامة فلا يمكنها أن تتأخر عنه ﴿وَشَهِيدٌ﴾ يشهد عليها بأعمالها خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد وحفظه لأعمالهم ومجازاته لهم بالعدل فهذا الأمر مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أى: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخًا ولومًا وتعنيفًا، أى: لقد كنت مكذبًا بهذا تاركًا للعمل له ﴿فَـ﴾ الآن ﴿كَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ الذى غطى قلبك فكثر نومك واستمر إعراضك ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال، أو هذا خطاب من الله للعبد فإنه فى الدنيا فى غفلة عما خلق له ولكنه يوم القيامة ينتبه ويزول عنه وسنه فى وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد وترهيب وبذكر ما يكون على المكذبين فى ذلك اليوم العظيم.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿**وَقَالَ قَرِينُهُ**﴾ أى: قرين هذا المكذب المعرض، من الملائكة الذين وكلهم الله على حفظه وحفظ أعماله فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول: ﴿**هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ**﴾ أى: قد أحضرت ما جعلت عليه من حفظه وحفظ أعماله فيجازى بعمله، ويقال لمن استحق النار: ﴿**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ أى: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثر من المعاصى المجترئ على المحارم والمآثم ﴿**مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ**﴾ أى: يمنع الخير الذى قبله الذى أعظمه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله مناع لنفع ماله وبدنه ﴿**مُعْتَدٍ**﴾ على عباد الله وعلى حدوده ﴿**مُرِيبٍ**﴾ أى: شاك فى وعد الله ووعيده فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه الكفر والعدوان والشك والريب والشح واتخاذ الآلهة من دون الرحمن، ولهذا قال: ﴿**الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾ أى: عبد معه غيره ممن لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ﴿**فَأَلْقِيَاهُ**﴾ أيها الملكان القرينان ﴿**فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ**﴾ الذى هو معظمها وأشدها وأشنعها ﴿**قَالَ قَرِينُهُ**﴾ الشيطان، متبرئًا منه حاملاً عليه إثمه: ﴿**رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ**﴾ لأنى لم يكن لى عليه سلطان ولا حجة ولا برهان ﴿**وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ**﴾ فهو الذى ضل وبعد عن الحق باختياره، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ**﴾ الآية، قال الله تعالى مجيبًا لاختصامهم: ﴿**لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ**﴾ أى: لا فائدة فى اختصامكم عندى ﴿**وَ**﴾ الحال أنى ﴿**قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ**﴾ أى: جاءتكم رسلى بالآيات البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات فقامت عليكم حجتى وانقطعت حجتكم وقدمتم إلىَّ بما أسلفتم من الأعمال التى وجب جزاؤها ﴿**مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ**﴾ أى: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به لأنه لا أصدق من الله قيلاً ولا أصدق حديثًا ﴿**وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر فلا يزداد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخوفًا لعباده: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ**﴾ وذلك من كثرة ما ألقى فيها ﴿**وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ**﴾ أى: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين غضبًا لربها وغيظًا على الكافرين، وقد وعدها الله ملأها كما قال تعالى: ﴿**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه فينزوى بعضها على بعض وتقول: قط قط قد اكتفيت وامتلأت ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ**﴾ أى قربت ﴿**لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ**﴾ بحيث تشاهد وينظر ما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت لأجل المتقين لربهم التاركين للشرك كبيره وصغيره الممتثلين لأوامر ربهم المنقادين له، ويقال لهم على وجه التهنئة: ﴿**هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ**﴾ أى: هذه الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين هى التى وعد الله كل أواب أى: رجَّاع إلى الله فى جميع الأوقات بذكره وحبه والاستعانة به ودعائه وخوفه ورجائه ﴿**حَفِيظٍ**﴾ أى: محافظ على ما أمر الله به بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له على أتم الوجوه حفيظ لحدوده ﴿**مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ**﴾ أى: خافه على وجه المعرفة بربه والرجاء لرحمته ولازم على خشية الله فى حال غيبه أى مغيبه عن أعين الناس، وهذه هى الخشية الحقيقية، وأما خشيته فى حال نظر الناس وحضورهم فقد تكون رياء وسمعة فلا تدل على الخشية وإنما الخشية النافعة خشيته فى الغيب والشهادة ﴿**وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**﴾ أى: وصفه الإنابة إلى مولاه وانجذاب دواعيه إلى مراضيه، ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ**﴾ أى دخولاً مقرونًا بالسلام من الآفات والشرور مأمونًا فيه جميع مكاره الأمور فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص ﴿**ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ**﴾ الذى لا زوال له ولا موت ولا شيء من المكدرات ﴿**لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا**﴾ أى: كل ما تعلقت به مشيئتهم فهو حاصل فيها ﴿**وَلَدَيْنَا**﴾ فوق ذلك ﴿**مَزِيدٌ**﴾ أى: ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا

خطر على قلب بشر، وأعظم ذلك وأجله وأفضله النظر إلى وجهه الكريم والتمتع بسماع كلامه والتنعم بقربه فنسأله ذلك من فضله.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى، مخوفًا للمشركين المكذبين للرسول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: أممًا كثيرة ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: قوة وآثارًا في الأرض، ولهذا قال: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة وغرسوا الأشجار وأجروا الأنهار وزرعوا وعمروا ودمروا، فلما كذبوا رسل الله وجحدوا آياته أخذهم الله بالعقاب الأليم والعذاب الشديد ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم ولا أموالهم ولا أولادهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: قلب عظيم حي ذكي زكي فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله تذكر بها وانتفع فارتفع، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله واستمعها استماعًا يسترشد به، وقلبه ﴿شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر، فهذا أيضًا له ذكرى وموعظة وشفاء وهدى، وأما المعرض الذي لم يصغ سمعه إلى الآيات فهذا لا تفيده شيئًا لأنه لا قبول عنده ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا نعته.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

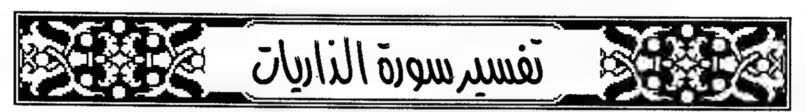
وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة ومشيئته النافذة التي أوجد بها أعظم المخلوقات ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة من غير تعب ولا نصب ولا لغوب ولا إعياء، فالذي أوجدها ـ على كبرها وعظمها ـ قادر على إحياء الموتى من باب أولى وأحرى ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الذم لك والتكذيب بما جئت به واشتغل عنهم بطاعة ربك وتسبيحه أول النهار وآخره في أوقات الليل وأدبار الصلوات فإن ذكر الله تعالى مُسَلٍّ للنفس مؤنس لها مُهَوِّنٌ للصبر.

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

أي: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ بقلبك ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ وهو إسرافيل عليه السلام أي: حين ينفخ في الصور ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الأرض ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ تلك ﴿الصَّيْحَةَ﴾ المزعجة المهولة ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه ولا امتراء ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء، ولهذا قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ أي: عن الخلائق ﴿سِرَاعًا﴾ أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: سهل على الله لا تعب فيه ولا كلفة ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لك مما يحزنك من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك فقد علمت كيف اعتناؤنا بك وتيسيرنا لأمورك ونصرنا لك على أعدائك فليفرح قلبك ولتطمئن نفسك ولتعلم أننا أرحم بك وأرأف من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله والتأسي بأولي العزم من رسل الله ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: مسلط عليهم ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ولهذا قال: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ والتذكير هو تذكير بما تقرر في العقول والفطر من محبة الخير وإيثاره وفعله ومن

بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به فهذا فائدة تذكيره وإقامة الحجة عليه لئلا يقول: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾.

آخر تفسير سورة (ق) والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً



تفسير سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)﴾

هذا قسم من الله الصادق في قيله بهذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل على أن وعده صدق وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال لواقع لا محالة ما له من دافع، فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه وأقام الأدلة والبراهين عليه فلمَ يكذب به المكذبون ويعرض عن العمل له العاملون ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ هي: الرياح التي تذرو في هبوبها ﴿ذَرْوًا﴾ بلينها ولطفها وقوتها وإزعاجها ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ هي: السحاب، تحمل الماء الكثير الذي ينفع الله به العباد والبلاد ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة فتتزين بها السموات ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر وينتفع بالاعتبار بها ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذنه الله، فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا والآخرة لا يتعدى ما حُدَّ له وقدر ورسم ولا ينقص منه.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أي: ذات الطرائق الحسنة التي تشبه حبك الرمال ومياه الغدران حين يحركها النسيم ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ منكم من يقول: ساحر ومنكم من يقول: كاهن ومنكم من يقول: مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة الدالة على حيرتهم وشكهم وأن ما هم عليه باطل ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يصرف عنه من صرف عن الإيمان وانصرف عن أدلة الله اليقينية وبراهينه واختلاف قولهم دليل على فساده وبطلانه كما أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ متفق يصدق بعضه بعضًا لا تناقض فيه ولا اختلاف، وذلك دليل على صحته وأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ يقول تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أي: قاتل الله الذين كذبوا على الله وجحدوا آياته وخاضوا بالباطل ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي: في لجة من الكفر والجهل والضلال ﴿سَاهُونَ[1] (١٠) يَسْأَلُونَ﴾ على وجه الشك والتكذيب ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي: متى يبعثون مستبعدين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يعذبون بسبب ما انطووا عليه من خبث الباطن والظاهر ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: العذاب والنار الذي هو أثر ما افتتنوا به من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر والضلال ﴿هَٰذَا﴾ العذاب الذي وصلتم إليه هو ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال والسلاسل والأغلال والسخط والوبال.

---

(١) ساهون: أي: غافلون عما أمروا به.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى فى ذكر ثواب المتقين وأعمالهم التى وصلوا بها إلى ذلك الجزاء: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: الذين كانت التقوى شعارهم وطاعة الله دثارهم ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ مشتملات على جميع أصناف الأشجار والفواكه التى يوجد لها نظير فى الدنيا، والتى لا يوجد لها نظير مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم يخطر على قلب بشر ﴿وَعُيُونٍ﴾ سارحة تشرب منها تلك البساتين ويشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم من جميع أصناف النعيم فأخذوا ذلك راضين به قد قرت به أعينهم وفرحت به نفوسهم ولم يطلبوا منه بدلاً ولا يبغون عنه حولاً وكلٌ قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد، ويحتمل أن هذا وصف المتقين فى الدنيا وأنهم آخذون ما آتاهم الله من الأوامر والنواهى أى: قد تلقوها بالرحب وانشراح الصدر منقادين لما أمر الله به بالامتثال على أكمل الوجوه، ولما نهى عنه بالانزجار عنه لله على أكمل وجه فإن الذين أعطاهم الله من الأوامر والنواهى هو أفضل العطايا التى حقها أن تتلقي بالشكر لله عليها والانقياد، والمعنى الأول ألصق بسياق الكلام لأنه ذكر وصفهم فى الدنيا وأعمالهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ الوقت الذى وصلوا به إلى النعيم ﴿مُحْسِنِينَ﴾[1] وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم أن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، وللإحسان إلى عباد الله ببذل النفع والإحسان من مال أو علم أو جاه أو نصيحة أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو غير ذلك من وجوه البر وطرق الخيرات، حتى إنه يدخل فى ذلك الإحسان بالقول والكلام اللين والإحسان إلى المماليك والبهائم المملوكة وغير المملوكة، ومن أفضل أنواع الإحسان فى عبادة الخالق صلاة الليل الدالة على الإخلاص وتواطؤ القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿كَانُوا﴾ أى: المحسنون ﴿قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أى: كان هجوعهم أى: نومهم بالليل قليلاً، وأما أكثر الليل فإنهم قانتون لربهم ما بين صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرع ﴿وَبِالأَسْحَارِ﴾ التى هى قبل الفجر ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الله تعالى، فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا فى خاتمة قيامهم بالليل يستغفرون الله تعالى استغفار المذنب لذنبه، وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست لغيره كما قال: فى وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ واجب ومستحب ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أى: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس والذين لا يسألونهم.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى، داعيًا عباده إلى التفكر والاعتبار: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ وذلك شامل لنفس الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار ونبات تدل المتفكر فيها المتأمل لمعانيها على عظمة خالقها وسعة سلطانه وعميم إحسانه وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن، وكذلك فى نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله واحد صمد وأنه لم يخلق الخلق سدى، وقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أى: مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الأقدار، الرزق الدينى والدنيوى ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الجزاء فى الدنيا والآخرة فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار، فلما بيَّن الآيات ونبه عليها تنبيهًا ينتبه به الذكي اللبيب أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق وشبه ذلك بأظهر الأشياء لنا وهو النطق فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[2] فكما أنكم لا تشكون فى نطقكم فكذلك ينبغى أن لا يعتريكم الشك فى البعث والجزاء.

---

(١) محسنين، أى: الأعمال الصالحة، آتين بها على ما ينبغى، فلذلك نالوا ما نالوا من الفوز العظيم. اهـ. أبو السعود.

(١) وعن الأصمعى أنه قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود (الذكر الشاب من الإبل) فقال: من الرجل؟ قلت: من بنى =

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أى: أما جاءك ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ونبأهم الغريب العجيب وهم: الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط وأمرهم بالمرور على إبراهيم فجاءوه فى صورة أضياف ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ﴾ مجيبًا لهم ﴿سَلامٌ﴾ أى: عليكم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أى: أنتم قوم منكرون فأحب أن تعرفونى بأنفسكم ولم يعرفهم إلا بعد ذلك ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أى: ذهب سريعًا فى خفية ليحضر لهم قراهم ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ وعرض عليهم الأكل ﴿قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ[1] مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ حين رأى أيديهم لا تصل إليه ﴿قَالُوا لا تَخَفْ﴾ وأخبروه بما جاءوا له ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ وهو: إسحاق عليه السلام ﴿فَـ﴾ لما سمعت المرأة البشارة ﴿أَقْبَلَتِ﴾ فرحة مستبشرة ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ أى: صيحة ﴿فَصَكَّتْ[2] وَجْهَهَا﴾ وهذا من جنس ما يجرى للنساء عند السرور ونحوه من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أى: أنَّى لى الولد وأنا عجوز قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء، ومع ذلك فأنا عقيم غير صالح رحمى للولادة أصلاً، فَثَمَّ مانعان كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث فى سورة هود فى قولها: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أى: الله الذى قدر ذلك وأمضاه فلا عجب فى قدرة الله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أى: الذى وضع الأشياء مواضعها وقد وسع كل شىء علمًا فسلموا لحكمه واشكروه على نعمته ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أى: قال لهم إبراهيم عليه السلام: ما شأنكم أيها المرسلون؟ وماذا تريدون؟ لأنه استشعر أنهم رسل أرسلهم الله لبعض الشئون المهمة ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا بإشراكهم بالله وتكذيبهم لرسولهم وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أى: مُعَلَّمَةً على كل حجر اسم صاحبه، لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد، فجعل إبراهيم يجادلهم فى قوم لوط لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقيل

= أصمع، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الله، قال: اتلُ علىَّ فتلوت (والذاريات) فلما بلغت قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى.

فلما حججت مع الرشيد، طفقت أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رفيق، فالتفتُّ، فإذا أنا بالأعرابى، وقد نحل، واصفر، فسلم علىَّ، واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: «قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا».

ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فصاح وقال: يا سبحان الله، من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدقوه بقوله حتى حلف؟ قالها ثلاثًا، وخرجت معها نفسه. اهـ. نسفى.

قال فى المختار من الصحاح: القعود ـ بالفتح ـ البعير من الإبل، وهو البكر حين يركب، أى: يمكن ظهر الركوب، فأقله سنتان إلى أن يثنى فإذا أثنى سمى جملاً، ولا تكون البكرة قعودًا، بل قلوصًا.

وقال أبو عبيد: القعود من الإبل، هو الذى يقتعده الراعى فى كل حاجة.

فى المصباح «والقعود ذكر القلاص، وهو الشاب، قيل سُمِّىَ بذلك لأن ظهره اقْتُعِدَ أى: ركب». اهـ.

(١) أوجس، أى: أضمر فى نفسه خيفة لتوهم أنهم جاءوا للشر، وقيل: وقع فى قلبه أنهم ملائكة جاءوا للعذاب. اهـ. أبو السعود.

(٢) فصكت وجهها أى: لطمته من الحياء لما أنها وجدت حرارة دم الطمث، وقيل: ضربت بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجب. اهـ. أبو السعود.

له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهم بيت لوط عليه السلام إلا امرأته فإنها من المهلكين ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب وأن رسله صادقون مصدقون.

فصل

في ذكر بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منهـا: أن من الحكمة أن قص الله على عباده نبأ الأخيار والفـجار ليعتبروا بهم وأين وصلت بهم الأحوال، ومنهـا: فضيلة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث ابتدأ الله قـصته بما يدل على الاهتمام بشأنها والاعتناء بها، ومنها: مشروعية الضيافة وأنها من سنن إبراهيم الخليل الذي أمر الله محمداً وأمته أن يتبعوا ملته وساقها الله في هذا الموضع على وجـه المدح له والثناء، ومنهـــا: أن الضيف يكرم بأنواع الإكـرام بالقول والفعل لأن الله وصف أضياف إبراهيـم بأنهم مكرمون أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله مـا صنع بهم من الضيافة قـولاً وفعلاً ومكرمون أيضًا عند الله، ومنها: أن إبراهيم عليه السلام قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان وإنما سلكوا طريق الأدب في ابتداء السلام فرد عليهم إبراهيم سلامًا أكمل من سلامهم وأتم لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستمرار، ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان أو صار له فيه نوع اتصال لأن في ذلك فوائد كثيرة، ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام حيث قال: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ ولم يقل «أنكرتكم» وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى، ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها لأن خير البر عاجله ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قِـرَى أضيافه، ومنهـا: أن الذبيحة الحاضرة التي قد أعـدت لغير الضيف الحاضر إذا جعلت له ليس فيها أقـل إهانة بل ذلك من الإكرام كما فعل إبراهيم عليه السلام وأخبـر الله أن ضيفه مكرمون، ومنها: ما منَّ الله به على خليله إبراهيم من الكرم الكثير وكون ذلك حاضراً لديه وفي بيته معدًا لا يحتاج إلى أن يأتي به من السوق أو الجيران أو غير ذلك، ومنها: أن إبراهيم هو الذي خدم أضيافه وهو خليل الرحمن وسيد من ضيَّف الضيفان، ومنها: أنه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، فلم يجعله في موضع ويقول لهم: «تفضلوا أو ائتوا عليه» لأن هذا أيسر وأحسن، ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين خصوصًا عند تقديم الطعام إليه فإن إبراهيم عرض عليهم عرضًا لطيفًا فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل «كلوا» ونحوه من الألفاظ التي غيرها أولى منها بل أتى بأداة العـرض فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فينبغي للمقتدى به أن يسـتعمل من الألفاظ الحسنة ما هو المناسب واللائق بالحال كـقوله لأضيـافه: «ألا تأكلون» أو «ألا تتفـضلون» أو «تشرفوننا وتحـسنون إلينا» ونحو ذلك، ومنهـا: أن من خاف من أحد لسبب من الأسباب فإن عليه أن يزيل عنه الخوف ويذكر له ما يؤمن روعه ويسكِّن جأشه كما قالت الملائكة لإبراهيم لما خافهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منـهم، ومنهـا: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم حتى جرى منها ما جرى من صك وجـهها وصرَّتها غير المعهود، ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليم.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠)﴾

أي: ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون وملئه بالآيات البـينات والمعجزات الظاهرات آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى مـوسى بذلك السلطان المبين تولى فرعون ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي: أعرض بجـانبه عن الحق ولم يلتفت إليه وقدحوا فيه أعظم القدح فقالوا: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: إن موسى لا يخلو إما أن يكون ما أتى به سحراً وشعوذة ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنونًا لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله، هذا وقد علموا خصوصًا فرعون أن موسى صادق كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ وقال

موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ الآية ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أى: مذنب طاغ عاتٍ على الله فأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

أى ﴿وَ﴾ آية لهم ﴿فِي عَادٍ﴾ القبيلة المعروفة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أى: التى لا خير فيها حين كذبوا نبيهم هودًا عليه السلام ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أى: كالرمم البالية فالذى أهلكهم على قوتهم وبطشهم دليل على كمال قوته واقتداره الذى لا يعجزه شىء المنتقم ممن عصاه.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

أى ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ آية عظيمة حين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام فكذبوه وعاندوه وبعث الله له الناقة آية مبصرة فلم يزدهم ذلك إلا عتوًا ونفورًا ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا[1] عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أى: الصيحة العظيمة المهلكة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ ينجون به من العذاب ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ لأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أى: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح حين كذبوا نوحًا عليه السلام وفسقوا عن أمر الله، فأرسل عليهم السماء والأرض بماء منهمر فأغرقهم عن آخرهم ولم يبق من الكافرين ديارًا وهذه عادة الله وسنته فيمن عصاه.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى مبينًا لقدرته العظيمة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أى: خلقناها وأتقناها وجعلناها سقفًا للأرض وما عليها ﴿بِأَيْدٍ﴾ أى: بقوة وقدرة عظيمة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون أيضًا على عبادنا بالرزق الذى ما ترك دابة فى مهامه القفار ولجج البحار وأقطار العالم العلوى والسفلى إلا وأوصل إليها من الرزق ما يكفيها وساق إليها من الإحسان ما يغنيها، فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات وتبارك الذى وسعت رحمته جميع البريات ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أى: جعلناها فراشًا للخلق يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس وسلوك للسبل الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم، ولما كان الفراش قد يكون صالحًا للانتفاع من كل وجه وقد يكون من وجه دون وجه أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد على أكمل الوجوه وأحسنها وأثنى على نفسه بذلك فقال: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ الذى مهد لعباده ما اقتضته حكمته ورحمته ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى صنفين ذكر وأنثى من كل نوع من أنواع الحيوانات ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لنعم الله التى أنعم بها عليكم فى تقدير ذلك وحكمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع، فلما دعا العباد إلى النظر إلى آياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه أمر بما هو المقصود من ذلك وهو الفرار إليه، أى: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا، فرار من الجهل إلى العلم ومن الكفر إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة ومن الغفلة إلى الذكر، فمن استكمل هذه الأمور فقد استكمل الدين كله وزال عنه المرهوب وحصل له غاية المراد والمطلوب، وسمى الله الرجوع إليه فرارًا لأن فى الرجوع إلى غيره أنواع المخاوف والمكاره وفى الرجوع إليه

(١) فعتوا، أى: فاستكبروا عن امتثال أمر ربهم.

أنواع المحاب والأمن والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: منذر لكم من عذاب الله ومخوف بيِّنُ النذارة ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور وغيرها مما عبد من دون الله ويخلص لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول الله ـ مسليًا لرسوله ﷺ ـ عن تكذيب المشركين بالله المكذبين له القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأبًا وعادة للمجرمين المكذبين للرسل فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر والجنون، يقول الله تعالى: هذه الأقوال التى صدرت منهم ـ الأولين والآخرين ـ هل هى أقوال تواصوا بها ولقن بها بعضهم بعضًا؟ فلا يستغرب ـ بسبب ذلك ـ اتفاقهم عليها: أم ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وكذلك المؤمنون لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعى فيه بادروا إلى الإيمان برسلهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم، يقول تعالى آمرًا رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ فى ذنبهم، وإنما عليك البلاغ وقد أديت ما حملت وبلَّغت ما أرسلت به ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله مما عرف مجمله بالفطر والعقول، فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك فكل أمر ونَهْى من الشرع فهو من التذكير وتمام التذكير، أن يذكر ما فى المأمور من الخير والحسن والمصالح وما فى المنهى عنه من المضار، والنوع الثانى من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول فَيُذَكَّرُونَ بذلك ويكرر عليهم ليرسخ فى أذهانهم وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك وليحدث لهم نشاطًا وهمة توجب لهم الانتفاع والارتفاع، وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين لأن معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى وتقع الموعظة منهم موقعها كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ وأما من ليس له إيمان ولا استعداد لقبول التذكير فهذا لا ينفع تذكيره بمنزلة الأرض السبخة التى لا يفيدها المطر شيئًا، وهؤلاء الصنف لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

هذه الغاية التى خلق الله الجن والإنس لها وبعث جميع الرسل يدعون إليها وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه، وذلك متوقف على معرفة الله تعالى فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله بل كلما ازداد العبد معرفة بربه كانت عبادته أكمل فهذا الذى خلق المكلفين لأجله فما خلقهم لحاجة منه إليهم ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ تعالى الله الغنى عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه وإنما جميع الخلق فقراء إليه فى جميع حوائجهم ومطالبهم الضرورية وغيرها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ أى: كثير الرزق ما من دابة فى الأرض ولا فى السماء إلا على الله رزقها يعلم، مستقرها ومستودعها ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ أى: الذى له القوة والقدرة كلها الذى أوجد بها الأجرام العظيمة السفلية والعلوية

وبها تصرف فى الظواهر والبواطن ونفذت مشيئته فى جميع البريات، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أن أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعدما مزقهم البلى وعصفت بهم الرياح وابتلعتهم الطيور والسباع وتمزقوا وتفرقوا فى مهامه القفار ولجج البحار فلا يفوته منهم أحد ويعلم ما تنقص الأرض منهم فسبحان القوى المتين.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)﴾

أى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بتكذيبهم محمداً ﷺ من العذاب والنكال ﴿ذَنُوبًا﴾ أى: نصيبًا وقسطًا مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالعذاب، فإن سنة الله فى الأمم واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب ولو تأخر عنه مدة ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾[1] وهم يوم القيامة الذى قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والأغلال فلا مغيث ولا منقذ لهم من عذاب الله نعوذ بالله منه.

تم تفسير سورة الذاريات والحمد لله

تفسير سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾

يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة المشتملة على الحكم الجليلة على البعث والجزاء للمتقين والمكذبين، فأقسم بالطور وهو: الجبل الذى كلم الله عليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفى ذلك من المنة عليه وعلى أمته ما هو من آيات الله العظيمة ونعمه التى لا يقدر العباد لها على عدٍّ ولا ثمن ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ يحتمل أن المراد به: اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه كل شيء، ويحتمل أن المراد به: القرآن الكريم الذى هو أفضل الكتب أنزله الله محتويًا على نبأ الأولين والآخرين وعلوم السابقين واللاحقين وقوله ﴿فِي رَقٍّ﴾ أى ورق ﴿مَّنشُورٍ﴾ أى: مكتوب مسطر ظاهر غير خفى لا تخفى حاله على كل عاقل بصير ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ وهو: البيت الذى فوق السماء السابعة المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يتعبدون فيه لربهم ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وقيل: إن البيت المعمور هو: بيت الله الحرام والمعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة، كما أقسم الله به فى قوله: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وحقيق ببيت هو أفضل بيوت الأرض الذى يقصده الناس بالحج

---

(١) و «من» فى قوله تعالى: ﴿مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ للتعليل، أى: يوعدونه من يوم «بدر».

وقيل: يوم القيامة، وهو الأنسب، بما فى صدر السورة الكريمة الآتية:

والأول (يوم القيامة) هو الأوفق لما قبله من حيث أنهما من العذاب الدنيوى. اهـ. . أبو السعود.

والعمرة أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام التى لا يتم إلا بها وهو الذى بناه إبراهيم وإسماعيل وجعله الله مثابة للناس وأمنًا أن يقسم الله به ويبين من عظمته ما هو اللائق به وبحرمته ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ أى السماء التى جعلها الله سقفًا للمخلوقات وبناء للأرض تستمد منها أنوارها ويقتدى بعلاماتها ومنارها وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أى: المملوء ماء قد سجره الله ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض مع أن مقتضى الطبيعة أن يغمر وجه الأرض ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان ليعيش من على وجه الأرض من أنواع الحيوان، وقيل: إن المراد بالمسجور: الموقد الذى يوقد نارًا يوم القيامة، نارًا تلظى، ممتلئًا، على سعته، من أصناف العذاب، هذه الأشياء التى أقسم الله بها مما يدل على أنها من آيات الله تعالى وأدلة توحيده وبراهين قدرته وبعثه الأموات، ولهذا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أى: لا بد أن يقع ولا يخلف الله وعده وقيله ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ يدفعه ولا مانع يمنعه لأن قدرة الله لا يغالبها مغالب ولا يفوتها هارب، ثم ذكر وصف ذلك اليوم الذى يقع فيه العذاب فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ أى: تدور السماء وتضطرب وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أى: تزول عن أماكنها وتسير كسير السحاب وتتلون كالعهن المنفوش وتبث بعد ذلك حتى تصير مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة فكيف بالآدمى الضعيف!؟ ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف، ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أى: خوض بالباطل ولعب، به فعلومهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب بالحق والتصديق بالباطل وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة والأعمال الصالحة ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أى: يدفعون إليها دفعًا ويساقون إليها سوقًا عنيفًا، يجرون على وجوههم ويقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فاليوم ذوقوا عذاب الخلد الذى لا يبلغ قدره ولا يوصف أمره ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب كما يدل عليه سياق الآيات أى: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقريع: «أهذا سحر لا حقيقة له فقد رأيتموه أم أنتم فى الدنيا لا تبصرون» أى: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم بل كنتم جاهلين بهذا الأمر لم تقم عليكم الحجة؟ والجواب انتفاء الأمرين: إما كونه سحرًا فقد ظهر لهم أنه أحق الحق وأصدق الصدق المنافى للسحر من جميع الوجوه، وأما كونهم لا يبصرون فإن الأمر بخلاف ذلك بل حجة الله قد قامت عليهم ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجلية، ويحتمل أن الإشارة بقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ إلى ما جاء به محمد ﷺ من الحق المبين والصراط المستقيم أى: أفيتصور من له عقل أن يقول عنه: إنه سحر وهو أعظم الحق وأجله؟ ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا ﴿اصْلَوْهَا﴾ أى: ادخلوا على وجه تحيط بكم وتشمل أبدانكم وتطلع على أفئدتكم ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: لا يفيدكم الصبر على النار شيئًا ولا يتأسى بعضكم ببعض ولا يخفف عنكم العذاب وليست من الأمور التى إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها، وإنما فعل بهم ذلك بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين ذكر نعيم المتقين ليجمع بين الترغيب والترهيب فتكون القلوب بين الخوف والرجاء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لربهم الذين اتقوا سخطه وعذابه بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهى ﴿فِى جَنَّاتٍ﴾ أى: بساتين قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفة والأنهار المتدفقة والقصور المحدقة والمنازل المزخرفة ﴿وَنَعِيمٍ﴾ وهذا شامل لنعيم القلب والروح والبدن ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: معجبين به متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذى لا يمكن وصفه ولا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ فرزقهم المحبوب ونجاهم من المرهوب لما فعلوا ما أحبه وجانبوا ما

يسخطه ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أى: مما تشتهيه أنفسكم من أصناف المآكل والمشارب اللذيذة ﴿هَنِيئًا﴾ أى: متهنئين بذلك على وجه البهجة والفرح والسرور والحبور ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة وأقوالكم المستحسنة ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ الاتكاء هو: الجلوس على وجه التمكن والرحة والاستقرار، والسرر هى: الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية، ووصف الله السرر بأنها مصفوفة ليدل ذلك على كثرتها وحسن تنظيمها واجتماع أهلها وسرورهم بحسن معاشرتهم وملاطفة بعضهم بعضًا، فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يخطر بالبال ولا يدور فى الخيال من المآكل والمشارب اللذيذة والمجالس الحسنة الأنيقة لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتى لا يتم سرور إلا بهن، فذكر تعالى أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافًا وخلقًا وأخلاقًا، ولهذا قال: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ وهن النساء اللواتى قد جمعن جمال الصور الظاهرة وبهاءها ومن الأخلاق الفاضلة ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين ويسلبن عقولها العالمين وتكاد الأفئدة أن تطير شوقًا إليهن ورغبة فى وصالهن، والعين: حسان الأعين مليحاتها التى صفا بياضها وسوادها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾

وهذا من تمام نعيم الجنة أن ألحق الله بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان أى: لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم فصارت الذرية تبعًا لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون يلحقهم الله بمنازل آبائهم فى الجنة وإن لم يبلغوها جزاء لآبائهم وزيادة فى ثوابهم، ومع ذلك لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئًا، ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك يلحق الله بهم ذريتهم أخبر أنه ليس حكم الدارين حكمًا واحدًا فإن النار دار العدل ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحدًا إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أى: مرتهن بعمله فلا تزر وازرة وزر أخرى ولا يحمل على أحد ذنب أحد، فهذا اعتراض من فوائده إزالة هذا الوهم المذكور، وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ أى: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم ﴿بِفَاكِهَةٍ﴾ من العنب والرمان والتفاح وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم من لحوم الطير وغيرها ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أى: تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم ويتعاطونها فيما بينهم وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أى: ليس فى الجنة كلام لغو وهو: الذى لا فائدة فيه، ولا تأثيم، وهو: الذى فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران ثبت الأمر الثالث وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر مسر للنفوس مفرح للقلوب يتعاشرون أحسن عشرة ويتنادمون أطيب المنادمة، ولا يسمعون من ربهم إلا ما يقر أعينهم ويدل على رضاه عنهم ومحبته لهم ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أى: خدم شباب ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ من حسنهم وبهائهم يدورون عليهم بالخدمة وقضاء أشغالهم وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته وكمال راحتهم ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها ﴿قَالُوا﴾ فى ذكر بيان الذى أوصلهم إلى ما هم فيه من الحبرة والسرور ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أى: فى دار الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أى: خائفين وجلين فتركنا من خوفه الذنوب وأصلحنا لذلك العيوب ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالهداية والتوفيق ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أى: العذاب الحار الشديد حره ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أن يقينا عذاب السموم ويوصلنا إلى النعيم وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، أى: لم يزل نتقرب إليه بأنواع العبادات وندعوه فى سائر الأوقات ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ فمن بره ورحمته إيانا أنالنا رضاه والجنة ووقانا سخطه والنار.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يذكر الناس مسلمهم وكافرهم لتقوم حجة الله على الظالمين ويهتدى بتذكيره الموفقون وأن لا يبالى بقول المشركين المكذبين وأذيتهم وأقوالهم التى يصدون بها الناس عن اتباعه مع علمهم أنه أبعد الناس عنها ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به فقال: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أى: منّه ولطفه ﴿بِكَاهِنٍ﴾ أى: له رئى من الجن يأتيه بخبر بعض الغيوب التى يضم إليها مائة كذبة ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ فاقد للعقل بل أنت أكمل الناس عقلاً وأبعدهم عن الشياطين وأعظمهم صدقًا وأجلهم وأكملهم وتارة ﴿يَقُولُونَ﴾ فيه: إنه ﴿شَاعِرٌ﴾ يقول الشعر والذى جاء به شعر، والله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أى: ننتظر به الموت فيبطل أمره ونستريح منه ﴿قُلْ﴾ لهم جوابًا لهذا الكلام السخيف: ﴿تَرَبَّصُوا﴾ أى: انتظروا بى الموت ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى: أهذا التكذيب لك والأقوال التى قالوها هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فبئس العقول والأحلام التى هذه نتائجها وهذه ثمراتها فإن عقولاً جعلت أكمل الخلق عقلاً مجنونًا وجعلت أصدق الصدق وأحق الحق كذبًا وباطلاً لَهِىَ العقول التى يتزه المجانين عنها، أم الذى حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع، فالطغيان ليس له حد يقف عليه فلا يستغرب من الطاغى المتجاوز الحد كل قول وفعل صدر منه ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أى: تقول محمد القرآن وقاله من تلقاء نفسه؟ ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلو آمنوا لم يقولوا ما قالوا ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أنه تقوله، فإنكم العرب الفصحاء والفحول البلغاء وقد تحداكم أن تأتوا بمثله فتصدق معارضتكم أو تقروا بصدقه وأنكم لو اجتمعتم أنتم والإنس والجن لم تقدروا على معارضته والإتيان بمثله فحينئذ أنتم بين أمرين: إما مؤمنون به مقتدون بهديه وإما معاندون متبعون لما علمتم من الباطل ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله مكذبون لرسوله وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم، وقد تقرر فى العقل مع الشرع أن ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم خلقوا من غير شيء، أى: لا خالق خلقهم بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال، أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضًا محال فإنه لا يتصور أن يوجد أحد نفسه، فإذا بطل هذان الأمران وبان استحالتهما تعين القسم الثالث وهو أن الله هو الذى خلقهم، وإذا تعين ذلك علم أن الله تعالى هو المعبود وحده الذى لا تنبغى العبادة ولا تصلح إلا له تعالى، وقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهذا استفهام يدل على تقرير النفى، أى: ما خلقوا السموات والأرض فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جدًا ﴿بَل﴾ المكذبون ﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾ أى: ليس عندهم يقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أى: أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك فيعطوا من يشاءون ويمنعوا من يشاءون؟ أى: فلذلك حجروا على الله أن يعطى النبوة عبده ورسوله محمدًا ﷺ وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله وهم أحقر وأذل من ذلك فليس فى أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضر ولا موت ولا حياة ولا نشور ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا

بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ ﴿أم هم المسيطرون﴾ أى: المتسلطون على خلق الله وملكه بالقهر والغلبة، ليس الأمر كذلك بل هم العاجزون الفقراء ﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾ أى: ألهم اطلاع على الغيب واستماع له بين الملأ فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟ ﴿فليأت مستمعهم﴾ المدعى لذلك ﴿بسلطان[1] مبين﴾ وأنى له ذلك؟ والله تعالى عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه، وإذا كان محمد ﷺ وهو أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم وهو المخبر بما أخبر به من توحيد الله ووعيده وغير ذلك من أخباره الصادقة لا يعلم إلا ما علمه الله، والمكذبون هم أهل الجهل والضلال والغى والعناد فأى المخبرين أحق بقبول خبره؟ خصوصًا والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين وأكمل الصدق وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة فضلاً عن إقامة حجة، وقوله: ﴿أم له البنات﴾ كما زعمتم ﴿ولكم البنون﴾ فتجمعون بين المحذورين؟ جعلكم له الولد واختياركم له أنقص الصنفين؟ فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين غاية أو دونه نهاية؟ ﴿أم تسألهم﴾ يأيها الرسول ﴿أجرا﴾ على تبليغ الرسالة ﴿فهم من مغرم[2] مثقلون﴾ ليس الأمر كذلك بل أنت الحريص على تعليمهم تبرعًا من غير شيء بل تبذل لهم الأموال الجزيلة على قبول رسالتك والاستجابة لأمرك ودعوتك وتعطى المؤلفة قلوبهم ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله فعارضوه وعاندوه بما عندهم من الغيب؟ وقد علم أنهم هم الأمة الأمية الجهال الضالون، ورسول الله ﷺ هو الذى عنده من العلم أعظم من غيره وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يطلع عليه أحد من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض، وقوله: ﴿أم يريدون﴾ بقدحهم فيك وفيما جئت به ﴿كيدا﴾ يبطلون به دينك ويفسدون به أمرك؟ ﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾ أى: كيدهم فى نحورهم ومضرته عائدة إليهم، وقد فعل الله ذلك - ولله الحمد - فلم يُبق الكفار من مقدورهم من المكر شيئًا إلا فعلوه، فنصر الله نبيه عليهم وأظهر دينه وخذلهم وانتصر عليهم ﴿أم لهم إله غير الله﴾ أى: ألهم إله يدعى ويرجى نفعه ويخاف من ضره غير الله تعالى؟ ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ فليس له شريك فى الملك ولا شريك فى الوحدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذى سيق لأجله وهو بطلان عبادة ما سوى الله وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل وأن الذى ينبغى أن يُعبد ويصلى له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة هو الله المألوه المعبود كامل الأسماء والصفات كثير النعوت الحسنة والأفعال الجميلة ذو الجلال والإكرام والعز الذى لا يرام الواحد الأحد الفرد الصمد الكبير الحميد المجيد.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى فى ذكر بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح قد عتوا عن الحق وعسوا[3] على الباطل وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه ولخالفوه وعاندوا ﴿وإن يروا كسفا من السماء ساقطا﴾ أى: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف، أى: قطع كبار من العذاب ﴿يقولوا سحاب مركوم﴾ أى: هذا سحاب متراكم على العادة، أى: فلا يبالون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب

(١) بسلطان، أى: بحجة واضحة تصدق دعواه.

(٢) المغرم، أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه، يعنى يفرض عليه جبراً أن يدفع مبلغًا من المال.

والمعنى، أألزمتهم وأجبرتهم على دفع مبلغ يثقل عليهم ويعجزون عن أدائه مقابل تأديتك رسالة الله إليهم، فزهدهم ذلك، فى أن يتبعوك؟.

(٣) قال المختار من الصحاح: عسا الشىء من باب «سما» وعساءً بالمد، أى: يبس وصلب. اهـ. والمراد هنا: جمدوا على الباطل وتمسكوا به بيبوسة وصلابة.

والنكال ولهذا قال: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذى يصيبهم فيه من العذاب ما لا يقادر قدره ولا يوصف أمره ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أى: لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان فى الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمنًا قليلاً، فيوم القيامة يضمحل كيدهم وتبطل مساعيهم ولا ينتصرون من عذاب الله ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[1].

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

لما ذكر الله عذاب الظالمين فى الآخرة أخبر أن لهم عذابًا قبل عذاب يوم القيامة وذلك شامل لعذاب الدنيا بالقتل والسبى والإخراج من الديار ولعذاب البرزخ والقبر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب، ولما بين تعالى الحجج والبراهين على بطلان أقوال المكذبين أمر رسوله ﷺ أن لا يعبأ بهم شيئًا وأن يصبر لحكم ربه القدرى والشرعى بلزومه والاستقامة عليه ووعده الله الكفاية بقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: بمرأى منا وحفظ واعتناء بأمرك وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من الليل، ففيه الأمر بقيام الليل أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس بدليل قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ أى: آخر الليل ويدخل فيه صلاة الفجر والله أعلم.

تم تفسير سورة الطور والحمد لله

تفسير سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

يقسم تعالى بالنجم عند هَوِيِّه أى: سقوطه فى الأفق فى آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار، لأن فى ذلك من الآيات العظيمة ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحى الإلهى لأن فى ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء فكذلك الوحى وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء لكان الناس فى ظلمة أشد من ظلمة الليل البهيم، والمقسم عليه تنزيه الرسول عن الضلال فى علمه والغىِّ فى قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتديًا فى علمه هاديًا حسن القصد ناصحًا للخلق، وبعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم وسوء القصد، وقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ لينبههم على ما يعرفونه منه من الصدق والهداية وأنه لا يخفى عليهم أمره ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أى: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أى: لا يتبع إلا ما أوحى إليه من الهدى والتقوى فى نفسه وفى غيره، ودل هذا على أن السنة وحى من الله لرسوله ﷺ كما قال تعالى:

(١) ولا هم ينصرون أى: من جهة الغير فى دفع العذاب عليهم.

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه لأن كلامه لا يصدر عن هوى وإنما يصدر عن وحي يوحى، ثم ذكر المعلم للرسول وهو جبريل عليه السلام أفضل الملائكة الكرام وأقواهم وأكملهم فقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه السلام شديد القوى الظاهرة والباطنة، قوى على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه قوى على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ ومنعه من اختلاس الشياطين له أو إدخالهم فيه ما ليس منه، وهذا من حفظ الله لوحيه أن أرسله مع هذا الرسول القوى الأمين ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: قوة وخلق حسن وجمال ظاهر وباطن ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ جبريل عليه السلام ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: أفق السماء الذي هو أعلى من الأرض فهو من الأرواح العلوية التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل من النبي ﷺ لإيصال الوحي إليه ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ عليه من الأفق الأعلى ﴿فَكَانَ﴾ في قربه منه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: قدر قوسين والقوس معروف ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: أقرب من القوسين وهذا يدل على كمال مباشرته للرسول ﷺ بالرسالة وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم والنبأ المستقيم ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ أي: اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه وتواطأ عليه سمعه وبصره وقلبه، وهذا دليل على كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه وأنه تلقاه منه تلقيًا لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره ولم يشك في ذلك، ويحتمل أن المراد بذلك: ما رأى ﷺ ليلة أسرى به من آيات الله العظيمة وأنه تيقنه حقًا بقلبه ورؤيته وهذا هو الصحيح في تأويل الآية الكريمة، وقيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله فأثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا، ولكن الصحيح القول الأول وأن المراد به جبريل عليه السلام كما يدل عليه السياق، وأن محمدًا ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين: مرة في الأفق الأعلى تحت السماء الدنيا، كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسرى برسول الله ﷺ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى نازلاً إليه ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ وهي شجرة عظيمة جدًا فوق السماء السابعة سميت سدرة المنتهى لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض وينزل إليها ما ينزل من الله من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم المخلوقات إليها أي: لكونها فوق السموات والأرض فهي المنتهى في علوها أو لغير ذلك والله أعلم، فرأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة ﴿عِندَهَا﴾ أي: عند تلك الشجرة ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: الجنة الجامعة لكل نعيم بحيث كانت محلاً تنتهي إليه الأماني وترغب فيه الإرادات وتأوي إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ أي: يغشاها من أمر الله شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي: ما زاغ يمنة ولا يسرة عن مقصوده ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه ﷺ أن قام مقامًا أقامه الله فيه ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم الذي فاق فيه الأولين والآخرين، فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور: إما أن لا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به على وجه التفريط أو على وجه الإفراط أو على وجه الحيدة يمينًا وشمالاً، وهذه الأمور كلها منتفية عنه ﷺ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ من الجنة والنار وغير ذلك من الآيات التي رآها ﷺ ليلة أسرى به.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

لما ذكر تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق والأمر بعبادة الله وتوحيده ذكر بطلان ما عليه

المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء ولا تنفع ولا تضر وإنما هي أسماء فارغة من المعنى سماها المشركون، هم وآباؤهم الجهال الضلال ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال لا تستحق مثقال ذرة من العبادة وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها فسموا «اللات» من «الإله» المستحق للعبادة و «العزى» من «العزيز» و «مناة» من «المنان» إلحادًا في أسماء الله وتجريًا على الشرك به وهذه أسماء متجردة من المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾ أي: أتجعلون لله البنات بزعمكم ولكم البنون؟ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أي: ظالمة جائرة، وأي ظلم أعظم من قسمة تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟! تعالى الله عن قولهم علوا كبيرًا، وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله فيه من سلطان فهو باطل فاسد لا يتخذ دينًا وهم - في أنفسهم - ليسوا بمتبعين لبرهان يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم الظن الفاسد والجهل الكاسد وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافق لأهويتهم والحال أنه لا موجب لهم يقتضي ذلك إلا اتباعهم للظن من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه وأدله على المقصود وأقام عليه من الأدلة والبراهين ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه فلم يبق لأحد حجة ولا عذر من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه غايته اتباع الظن ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي فالبقاء على هذه الحال من أسفه السفه وأظلم الظلم ومع ذلك يتمنون الأماني ويغترون بأنفسهم، ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك فقال: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ﴾ فيعطي منها من يشاء ويمنع من يشاء فليس الأمر تابعًا لأمانيهم ولا موافقًا لأهوائهم.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ (٢٦)﴾

يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة المقربين وكرام الملائكة ﴿لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا تفيد من ادعاها[1] وتعلق بها ورجاها ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة ورضاه عن المشفوع له، ومن المعلوم المتقرر أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجه الله موافقًا فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذًا لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين لأنهم سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ (٣٠)﴾

يعني: أن المشركين بالله المكذبين لرسله الذين لا يؤمنون بالآخرة بسبب عدم إيمانهم بالله تعالى تجرءوا على ما تجرءوا عليه من الأقوال والأفعال المحادة لله ولرسوله من قولهم: «الملائكة بنات الله» فلم ينزهوا ربهم عن الولادة ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثًا، والحال أنه ليس لهم بذلك علم لا عن الله ولا عن رسوله ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم وأن الله منزه عن الأولاد والصاحبة لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وأن الملائكة كرام

(١) قوله: من ادعاها، أي: اتخذها آلهة بمجرد الدعوى فأخذ يدعوها، والأنسب أن يقال: دعاها ليتناسب مع ما بعدها.

مقربون إلى الله قائمـون بخدمته ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ والمشركون إنمـا يتبعون فى ذلك القول القبيح وهو: الظن الذى لا يغنى من الحق شيئًا فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة والبراهين الساطعة، ولما كـان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم لا غرض لهم فى اتباع الحق وإنما غرضهـم ومقصودهم ما تهواه نفوسهم أمر الله رسوله بالإعراض عمن تولى عن ذكره الذى هو الذكر الحكيم والقرآن العظيم فأعرض عن العلوم النافعة ولم يرد إلا الحياة الدنيا فهذا منتهى إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشىء الذى يريده، فَسَعْيُ هؤلاء مقصور على الدنيا ولذاتها وشـهواتها كيف حصلت خصَّلوها وبأى طريق سنحت ابتدروها ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أى: هذا منتهى علمهم وغايته، وأما المؤمنون بالآخـرة المصدقون بها أولو الألباب والعقول فهمهم وإرادتهم للدار الآخرة وعلومهم أفضل العلوم وأجلها وهو المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فـيهديه ممن لا يستحق ذلك فيكله إلى نفسه ويخذله فـيضل عن سبيل الله ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه مالك الملك المنفرد بملك الدنيا والآخرة وأن جميع ما فيهما ملك لله يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم فى عبيده ومماليكه ينفذ فيهم قدره ويجرى عليهم شرعه ويأمرهم وينهاهم ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه فيثيب المطيع ويعاقب العاصى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ من سيئات الكفر فما دونه من المعاصى وبما عملوه من أعمال الشر بالعقوبة الفظيعة ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ فى عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله بأنواع المنافع ﴿بِالْحُسْنَىٰ﴾ أى: بالحال الحسنة فى الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم والفوز بالجنة وما فيها من النعيم، ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ أى: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات التى يكون تركها من كبائر الذنوب ويتـركون المحرمات الكبار من الزنا وشرب الخمر وأكل الربا والقتل ونحو ذلك من الذنوب العظيمة ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ وهى الذنوب الصغار التى لا يصر صاحبها عليها أو التى يلم العبد بها المرة بعد المرة على وجه الندرة والقلة فهذه لـيس مجرد الإقدام عليها مخرجًا للعبد من أن يكون من المحـسنين فإن هذه مع الإتيان بالواجـبات وترك المحرمـات تدخل تحت مغفـرة الله التى وسعت كل شىء ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض ولما ترك على ظهـرها من دابة، ولهذا قال النبى ﷺ: «الصوات الخـمس والجمعة إلى الجمـعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لمـا بينهن ما اجتنبت الكبائر» وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أى: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها وما جبلكم عليه مـن الضعف والخور عن كثير مما أمركم الله به ومن كثرة الدواعى إلى فعل المحرمات وكثرة الجواذب إليها وعدم الموانع القوية، والضعف موجود مشاهـد منكم حين أخرجكم الله من الأرض وإذ كنتم فى بطون أمـهاتكم ولم يزل موجودًا فـيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكـن الضعف لم يزل فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه ناسبت الحكمة الإلهية والجـود الربانى أن يتغمدكم برحمـته ومغفرته وعـفوه ويغمركم بإحسانه ويزيـل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصًا إذا كان العبد مـقصوده مرضاة ربه فى جميع الأوقات وسعيه فيمـا يقرب إليه فى أكثر الآنات وفراره من الذنوب التى يمقت بها عند مـولاه ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة، فإن الله تعالى أكرم الأكـرمين وأجود الأجودين أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريبًا وأن يكون الله له فى جميع أحواله مجيبًا ولهذا قال تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح عندهم ﴿هُوَ أَعْلَمُ

بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ فإن التقوى محلها القلب والله هو المطلع عليه المجازى على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس فلا يغنون عنكم من الله شيئًا.

﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟ فإن سمحت نفسه ببعض الشىء القليل فإنه لا يستمر عليه بل يبخل ويكدى[1] ويمنع، فإن الإحسان ليس سجية له وطبعًا بل طبعه التولِّى عن الطاعة وعدم الثبوت على فعل المعروف ومع هذا فهو يزكِّى نفسه وينزلها غير منزلتها التى أنزلها الله بها ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ الغيب فيخبر به، أم هو متقول على الله متجرئ عليه جامع بين المحذورين الإساءة والتزكية كما هو الواقع لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التى على يد النبى المعصوم تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ هذا المدعى ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ أى: قام بجميع ما ابتلاه الله به وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفى تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أى: كل عامل له عمله الحسن والسيئ فليس له من عمل غيره وسعيه شىء ولا يتحمل أحد عن أحد ذنبًا ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ فى الآخرة فيميز حسنه من سيئه ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ أى: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى والسيئ الخالص بالسوأى والمشوب بحسبه، جزاء تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلها وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد، وقد استدل بقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فوصول[2] سعى غيره إليه مناف لذلك وفى هذا الاستدلال نظر فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه وهذا حق لا خلاف فيه وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعى غيره إذا أهداه ذلك الغير إليه كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو فى ملكه وتحت يده ولا يلزم من ذلك أن لا يملك ما وهبه الغير له من ماله الذى يملكه، وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ أى: إليه تنتهى الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى فى كل حال، فإليه ينتهى العلم والحكمة والرحمة وسائر الكمالات ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أى: هو الذى أوجد أسباب الضحك والبكاء وهو

---

(١) قوله: «ويكدى» فعل مضارع وماضيه «أكدى» أى: قطع عطيته وأمسك، وعلى هذا فيكون عطف «يمنع» على «يكدى» من باب عطف المرادف، وأصله أكدى الحافر، إذا بلغ الكدية، أى: الصلابة كالصخرة فلا يمكنه أن يحفر فيمسك عنه. اهـ. من أبى السعود والنسفى بتصرف يسير.

(٢) قوله: «فوصول سعى غيره إليه مناف لذلك» هكذا فى الأصل وهو تعبير غير قويم، والصواب أن يقال: «وقد استدل البعض بالآية على عدم وصول سعى غيره، إذا أهداه ذلك الغير إليه» يعنى بذلك إهداء قراءة القرآن والصدقات وغيرهما إلى الأموات.

الخير والشر والفرح والسرور والهم والحزن وهو سبحانه له الحكمة البالغة فى ذلك ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أى: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذى أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم سيعيدهم بعد موتهم ويجازيهم بتلك الأعمال التى عملوها فى دار الدنيا ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ فسرهما بقوله: ﴿الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات ناطقها وبهيمها فهو المنفرد بخلقها ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة حيث أوجد تلك الحيوانات صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة من ماء مهين ثم نماها وكملها حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمى منها إما إلى أرفع المقامات فى أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات فى أسفل سافلين، ولهذا استدل بالبداءة على الإعادة فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ﴾ فيعيد العباد من الأجداث ويجمعهم ليوم الميقات ويجازيهم على الحسنات والسيئات ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أى: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب من الحرف وغيرها، وأقنى أى: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها ما يصيرون به مقتنين لها ومالكين لكثير من الأعيان وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه، وهذا يوجب على العباد أن يشكروه ويعيدوه وحده لا شريك له ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ وهو النجم المعروف بالشعرى العبور المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر وإن كان هو رب كل شىء لأن هذا النجم مما عُبد فى الجاهلية فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون مربوب مدبر مخلوق فكيف يتخذ مع الله آلهة ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ﴾ وهم: قوم هود عليه السلام حين كذبوا هودًا فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح عليه السلام أرسله الله إلى ثمود فكذبوه فبعث الله إليهم الناقة آية فعقروها وكذبوه فأهلكهم الله ﴿فَمَا أَبْقَىٰ﴾ منهم أحدًا بل أبادهم عن آخرهم ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من هؤلاء الأمم فأهلكهم الله وأغرقهم ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ وهم: قوم لوط عليه السلام ﴿أَهْوَىٰ﴾[1] أى: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحدًا من العالمين قلب أسفل ديارهم أعلاها وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أى: غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما غشى، أى: شىء عظيم لا يمكن وصفه ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أى: فبأى نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى ولا يدفع النقم إلا هو ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ﴾ أى: هذا الرسول القرشى الهاشمى محمد بن عبد الله ليس ببدع من الرسل بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلأى شىء تنكر رسالته؟ وبأى حجة تبطل دعوته؟ أليست أخلاقه أعلى أخلاق الرسل الكرام؟ أليس يدعو إلى كل خير وينهى عن كل شر؟ ألم يأت بالقرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذى يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين؟ ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ أى: قربت القيامة ودنا وقتها وبانت علاماتها ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أى: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به، ثم توعد المنكرين لرسالة محمد ﷺ المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم فقال: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾؟ أى: أفمن هذا الحديث الذى هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور والحقائق المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذى إذا حدث صدق وإذا قال قولاً فهو القول الفصل ليس بالهزل وهو القرآن العظيم الذى لو أنزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله، الذى يزيد ذوى الإصلاح رأيًا وعقلاً وتسديدًا وثباتًا وإيقانًا وإيمانًا، بل الذى ينبغى العجب من عقل من تعجب منه وسفهه وضلاله ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ أى: تستعجلون الضحك والاستهزاء به مع أنه الذى ينبغى أن تتأثر منه النفوس وتلين له القلوب وتبكى له العيون سماعًا لأمره ونهيه وإصغاء لوعده ووعيده والتفاتًا لأخباره الصادقة الحسنة ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ أى: غافلون لاهون عنه وعن تدبره وهذا من قلة عقولكم وزيف أديانكم، فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه فى جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التى يأنف منها أولو الألباب ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ الأمر

---

(٢) أهوى، أى: أسقطها ـ بعد رفعها إلى السماء ـ مقلوبة إلى الأرض بأمره تعالى جبريل أن يرفع ديار قوم لوط على جناحه إلى السماء.

بالسجود لله خصوصًا يدل على فضله وأنه سر العبادة ولبها فإن روحها الخشوع لله والخضوع له، والسجود أعظم حالة يخضع بها العبد فإنه يخضع قلبه وبدنه ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام، ثم أمر بالعبادة عمومًا الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم والحمد لله

تفسير سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) ﴾

يخبر تعالى أن الساعة وهى: القيامة اقتربت وآن أوانها وحان وقت مجيئها ومع هذا فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها غير مستعدين لنزولها ويريهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على صحة ما جاء به وصدقه أشار ﷺ إلى القمر فانشق بإذن الله فلقتين فلقة على جبل أبى قبيس وفلقة على جبل قعيقعان والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية العظيمة الكائنة فى العالم العلوى التى لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخييل، فشاهدوا أمرًا ما رأوا مثله بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم ولم يرد الله بهم خيرًا ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من ورد عليكم من السفر فإنه إن قدر على سحركم لم يقدر أن يسحر من ليس مشاهدًا مثلكم، فسألوا كل من قدم فأخبروهم بوقوع ذلك فقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ سحرنا محمد وسحر غيرنا، وهذا من البهت الذى لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكارًا منهم لهذه الآية وحدها بل كل آية تأتيهم فإنهم مستعدون لمقابلتها بالتكذيب والرد لها، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ فليس قصدهم اتباع الحق والهدى وإنما مقصودهم اتباع الهوى ولهذا قال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى لآمنوا قطعًا واتبعوا محمدًا ﷺ لأن الله أراهم على يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع ما دل على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أى: إلى الآن لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه وسيصير الأمر إلى آخره، فالمصدق يتقلب فى جنات النعيم ومغفرة الله ورضوانه والمكذب يتقلب فى سخط الله وعذابه خالدًا مخلدًا أبدًا، وقال تعالى مبينًا، ليس لهم قصد صحيح واتباع للهدى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أى: زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك ﴿حِكْمَةٌ﴾ منه تعالى ﴿بَالِغَةٌ﴾ أى: لتقوم حجته على العالمين ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ لقوله تعالى: ﴿لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة فى هداهم فلم يبق إلا الإعراض عنهم فقال:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وانتظر بهم يومًا عظيمًا وهَوْلاً جسيمًا، وذلك ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ وهو إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أى: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة فلم تر منظرًا أفظع ولا أوجع منه فينفخ إسرافيل نفخة يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أى: من الهول والفزع الذى وصل إلى قلوبهم فخضعت وذلت وخشعت لذلك أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهى: القبور ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من كثرتهم وروجان(١) بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أى: مبثوث فى الأرض متكاثر جدًا ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أى: مسرعين لإجابة نداء الداعى، وهذا يدل على أن الداعى يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة فيلبون دعوته ويسرعون إلى إجابته ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ الذين قد حضر عذابهم: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله وأن الآيات لا تنفع فيهم ولا تجدى عليهم شيئًا أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل وكيف أهلكهم الله وأحل بهم عقابه، فذكر قوم نوح أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً ونهارًا سرًا وجهارًا فلم يزدهم ذلك إلا عنادًا وطغيانًا وقدحًا فى نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذى عليه العقل وأن ما جاء به نوح عليه السلام جهل وضلال لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا فى ذلك وقلبوا الحقائق الثابتة شرعًا وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت الذى يرشد العقول النيرة المستقيمة إلى الهدى والنور والرشد وما هم عليه جهل وضلال مبين، وقوله: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أى: زجره قومه وعنفوه لما دعاهم إلى الله تعالى فلم يكفهم ـ قبحهم الله ـ عدم الإيمان به ولا تكذيبهم إياه حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه وهكذا جميع أعداء الرسل هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه فقال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ لا قدرة لى على الانتصار منهم لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم ﴿فَانتَصِرْ﴾ اللهم لى منهم، وقال فى الآية الأخرى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآيات، فأجاب الله سؤاله فانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ أى: كثير جدًا متتابع ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فجعلت السماء ينزل منها الماء شىء خارق للعادة وتفجرت الأرض كلها حتى التنور الذى لم تجر العادة بوجود الماء فيه فضلاً عن كونه منبعًا للماء لأنه موضع النار ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أى: ماء السماء والأرض ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ﴾ من الله له بذلك ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ أى: قد كتبه الله فى الأزل وقضاه عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ أى: ونجينا عبدنا نوحًا على السفينة ذات الألواح والدسر أى: المسامير التى قد سمرت بها ألواحها وشد بها أسرها ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: تجرى بنوح ومن آمن معه ومن حمله من أصناف المخلوقات برعاية من الله وحفظ منه لها عن الغرق ونظر وكلاءة منه تعالى، وهو نعم الحافظ والوكيل ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أى: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام جزاء له حيث كذبه قومه وكفروا فصبر على دعوتهم واستمر على أمر الله، فلم يرده عنه راد ولا صده عن ذلك صاد، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ الآية، ويحتمل أن المراد: إنا أهلكنا قوم نوح وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخزى جزاء لهم على كفرهم

---

(١) قوله: «وروجان» هكذا فى الأصل، والصواب أن يقال: «وموجان».

وعنادهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها وأن أصل صنعتها تعليم من الله لرسوله نوح عليه السلام، ثم أبقى الله صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته وكمال قدرته وبديع صنعته ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ أى: فهل من متذكر للآيات مُلْقٍ ذهنه وفكرته لما يأتيه منها فإنها فى غاية البيان واليسر؟ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أى: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذى لا يُبْقى لأحد عليه حجة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم ألفاظه للحفظ والأداء ومعانيه للفهم والعلم لأنه أحسن الكلام لفظًا وأصدقه معنى وأبينه تفسيرًا فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام وأحكام الأمر والنهى وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظًا وتفسيرًا أسهل العلوم وأجلها على الإطلاق وهو العلم النافع الذى إذا طلبه العبد أُعِينَ عليه، وقال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيُعَان عليه؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

«وعاد» هى: القبيلة المعروفة باليمن أرسل الله إليهم هودًا عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته فكذبوه فأرسل الله عليهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أى: شديدة جدًا ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أى: شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا ﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾[1] من شدتها فترفعهم إلى جو السماء ثم تدفعهم بالأرض[2] فتهلكهم فيصبحون ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أى: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوى الذى اقتلعته الريح فسقط على الأرض، فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره! ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كان والله العذاب الأليم والنذارة التى ما أبقت لأحد عليه حجة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كرر تعالى ذلك رحمة بعباده وعناية بهم حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وهم القبيلة المعروفة المشهورة فى أرض الحجر نبيهم صالحًا ﷺ حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه، فكذبوه واستكبروا عليه وقالو كبرًا وتيهًا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ أى: كيف نتبع بشرًا لا ملكًا منا لا من غيرنا ممن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إِنَّا إِذًا﴾ أى: إن اتبعناه وهو فى هذه الحالة ﴿لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[3] أى: لضالون أشقياء، وهذا

---

(١) تنزع الناس، أى: تقلعهم من حفر الأرض المندسين فيها وتصرعهم على رءوسهم فتدق رقابهم فتفصل الرأس من الجسد. اهـ. جلالين، وذكر النسفى فى تفسيره أنهم كانوا يصطفون، آخذًا بعضهم أيدى بعض، ويتداخلون فى الشعاب ويحفرون الحفر فيدسون فيها فتقتلعهم الريح وتك بهم وتدق رقابهم.

(٢) قوله: «ثم تدفعهم بالأرض» تعبير غير قويم، والصواب أن يقال: «ثم ترمى بهم ـ منكبين على وجوههم ـ على الأرض صرعى».

(٣) سعر، أى: جنون، كما فى الجلالين وأبى السعود، وذكر النسفى أن معنى «سعر» نيران، جمع «سعير» فعكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك كنا =

الكلام من ضلالهم وشقائهم فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أى: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأى مزية خصه من بيننا؟ وهذا اعتراض من المكذبين على الله لم يزالوا يدلون به ويصولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبه بقول الرسل لأممهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فالرسل مَنَّ الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحيه، ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر فلو كانوا من الملائكة لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم ولو جعلهم من الملائكة لَعَاجَل المكذبين لهم بالعقاب العاجل، والمقصود من هذا الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح تكذيبه ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الحائر فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أى: كثير الكذب والشر، فقبحهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم، فأرسل الله الناقة التى هى من أكبر النعم عليهم آية من آيات الله ونعمة يحلبون من درِّها ما يكفيهم أجمعين ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أى: اختبارًا منه لهم وامتحانًا ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أى: اصبر على دعوتك إياهم وارتقب ما يحل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟ ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أى: وأخبرهم أن الماء، أى: موردهم الذى يستعذبونه قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أى: يحضره من كان قسمته ويحظر على من ليس بقسمة له ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ الذى باشر عقرها الذى هو أشقى القبيلة ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ أى: انقاد لما أمروه به من عقرها ﴿فَعَقَرَ[1] ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كان أشد عذاب أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم ونجى الله صالحًا ومن آمن معه ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ فى اليوم الرابع من عقرها ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح بها جبريل عليه السلام ﴿فَكَانُوا﴾ أى: فصاروا ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ والهشيم الشجر اليابس المتهشم المتكسر أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء أى: كهشيم الحظيرة أو الشجر المتخذ لها، والمعنى الإجمالى «إنا سلطنا عليهم صيحة واحدة فصاروا بها كشجر يابس يجمعه من يريد اتخاذ حظيرة لبهائمه» ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

أى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطًا عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن الشرك والفاحشة التى ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم حتى إن الملائكة الذين جاءوه بصورة أضياف حين سمع بهم قومه جاءوا مسرعين يريدون إيقاع الفاحشة فيهم ـ لعنهم الله وقبحهم ـ وراودوه عنهم فأمر الله جبريل عليه السلام فطمس أعينهم، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته ﴿فَتَمَارَوْا[2] بِالنُّذُرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ قلب الله عليهم ديارهم وجعل أسفلها أعلاها وتتبعهم بحجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك للمسرفين، ونجى الله لوطًا وأهله من الكرب العظيم جزاء لهم على شكرهم لربهم وعبادته وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين.

= إذا كما تقول (يعنى أنهم إذا تركوا دينهم يكونون من أصحاب النار) وقيل: أى: إن معنى «السعر» الضلال والخطأ والبعد عن الصواب، و «السعر» الجنون. اهـ.

(١) فعقر، أى: قتلها، وقال فى آية أخرى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ لرضاهم بفعل الفاعل الواحد، أو لأنه عقرت بمعرفتهم وموافقتهم على ذلك.

(٢) فتماروا: أى: تجادلوا وكذبوا.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾

أى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أى: فرعون وقومه ﴿النُّذُرُ﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم وأيده بالآيات البينات والمعجزات الباهرات وأشهدهم من العبر مـا لم يشهد غيرهم، فكذبوا بآيات الله كلها فأخذهم أخذ عزيز مقتـدر فأغرقه وجنوده فى اليم والمراد، من ذكـر هذه القصص: تحذير الناس والمكذبين لمحمد ﷺ ولهذا قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ أى: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل خير من أولئك المكذبين الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيـراً منهم أمكن أن ينجوا من العذاب ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار وليس الأمر كذلك فإنهم إن لم يكونوا شراً منهم فليسوا بخير منهم ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقًا فى الكتب التى أنزلها على الأنبياء فتـعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟ وهذا غير واقع بل غير ممكن عقلاً وشرعًا أن تكتب براءتهم فى الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعـاندين المكذبين لأفضل الرسل وأكرمهن على الله فلم يبق إلا أن يكون بهم قـوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾[1] قال تعالى مبينًا لضعفهم وأنهم مهزومون: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فوقع كما أخبر، هزم الله جمعـهم الأكبر يوم «بدر» وقُتل صناديدهم وكبراؤهم فأذلوا ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين، ومع ذلك فلهم موعـد يجمع به أولهم وآخرهم ومن أصيب فى الدنيا منهم ومن متع بلذاته ولهذا قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ الذى يجازون به ويؤخذ منهم الحق بالقسط ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أى: أعظم وأشق وأكبر من كل ما يـتوهم أو يدور فى الخيال ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: الذين أكثروا من فـعل الجرائم وهى الذنوب العظيمة من الشرك وغيره من المعاصى ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أى: هم ضالون فى الدنيا: ضلال عن العلم وضلال عن العمل الذى ينجيـهم من العذاب ويوم القيام فى العذاب الأليم والنار التى تستـعر بهم وتشتعل فى أجسامهم حتى تبلغ أفئدتهم ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ التى هى أشرف ما بهم من الأعضاء وألمها أشد من غيرها فيهانون بذلك ويخزون ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أى: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية إن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه ولا مشاركة فى خلقه، وخلقها بقضاء سبق به علمه وجرى به قلمه بوقتها ومقدارها وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف وذلك على الله يسـير فلهذا قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ فإذا أراد شيـئًا قال له: كن فيكون كما أراد، كلمح البصر من غير ممانعة ولا صعوبة ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كمـا عملتم وكذبوا كمـا كذبتم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: متـذكر يعلم أن سنة الله فى الأولـين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار فإن هؤلاء مثلهم ولا فرق بين الفريقين ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم فى الكتب القدرية ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أى:

---

(١) ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أى: نحن أولو حزم ورأى، أمرنا مجتمع لا يغلبنا أحد ولا نضام وسنتصـر على الأعداء ولا سيما محمد وأصحابه، وكلمة ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ مفرد، أفرده مراعاة للفظ الجميع، كما فى أبى السعود، يعنى أن كلمة «الجميع» مفرد بمعنى «الجماعة» التى تجمع على جماعات، فهذا الذى سوغ أن يخبر عنه بالمفرد وهو «منتصر» باعتبار لفظ «الجميع».

مسطر مكتوب، وهذه حقيقة القضاء والقدر وأن جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالى وسطرها عنده فى اللوح المحفوظ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لله بفعل أوامره وترك نواهيه الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أى: فى جنات النعيم، التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الأشجار اليانعة والأنهار الجارية والقصور الرفيعة والمنازل الأنيقة والمآكل والمشارب اللذيذة والحور الحسان والروضات البهيات فى الجنان ورضا الملك الديان والفوز بقربه ولهذا قال: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده ويمدهم به من إحسانه ومنته، جعلنا الله منهم ولا حرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير سورة القمر، والحمد لله



تفسير سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾

هذه السورة الكريمة الجليلة افتتحها باسمه ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ الدال على سعة رحمته وعموم إحسانه وجزيل بره وواسع فضله، ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذى أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية والأخروية وبعد كل جنس ونوع من نعمه ينبه الثقلين، لشكره ويقول: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فذكر أنه ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أى: علم عباده ألفاظه ومعانيه ويسرها على عباده، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها العباد حيث أنزل عليهم قرآنًا عربيًا بأحسن الألفاظ وأوضح المعانى مشتمل على كل خير زاجر عن كل شر ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ فى أحسن تقويم كامل الأعضاء مستوفى الأجزاء محكم البناء قد أتقن البارئ تعالى البديع خلقه أى إتقان، وميزه على سائر الحيوانات بأن ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أى: التبيين عما فى ضميره وهذا شامل للتعليم النطقى والتعليم الخطى فالبيان الذى ميز الله به الآدمى على غيره من أجلّ نعمه وأكبرها عليه ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أى: خلق الله الشمس والقمر وسخرهما يجريان بحساب مقنن وتقدير مقدر رحمة بالعباد وعناية بهم وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم وليعرفوا عدد السنين والحساب ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أى: نجوم السماء وأشجار الأرض تعرف ربها وتسجد له وتطيع وتخضع وتنقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ رفع سقفها للمخلوقات الأرضية ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أى: العدل بين العباد فى الأقوال والأفعال وليس المراد به الميزان المعروف وحده بل هو كما ذكرنا يدخل فيه الميزان المعروف والمكيال الذى به تكال الأشياء والمقادير والمساحات التى تضبط بها المجهولات والحقائق التى يفصل بها بين المخلوقات ويقام بها العدل بينهم ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أى: أنزل الله الميزان لئلا تتجاوزوا الحد فى الحقوق والأمور، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم لحصل من الخلل ما الله به عليم ولفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أى: اجعلوه قائمًا بالعدل الذى تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أى: لا تنقصوه وتعملوا بضده وهو الجور والظلم والطغيان ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ الله على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف أوصافها وأحوالها ﴿لِلْأَنَامِ﴾ أى: للخلق لكى يستقروا عليها وتكون لهم مهادًا وفراشًا يبنون

بها ويحرثون ويغرسون ويحفرون ويسلكون سبلها فجاجًا وينتفعون بمعادنها وجميع ما فيها مما تدعو إليه حاجتهم بل ضرورتهم، ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية فقال: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ وهي جميع الأشجار التى تثمر الثمرات التى يتفكه بها العباد من العنب والتين والرمان والتفاح وغير ذلك ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أى: ذات الوعاء الذى ينفلق عن القنوان التى تخرج شيئًا فشيئًا حتى تتم فتكون قوتًا يدخر ويؤكل ويتزود منه المقيم والمسافر وفاكهة لذيذة من أحسن الفواكه ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ أى: ذو الساق الذى يداس فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها ويدخل فى ذلك حب البر والشعير والذرة والأرز والدخن وغير ذلك ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يحتمل أن المراد به جميع الأرزاق التى يأكلها الآدميون فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص ويكون الله قد امتن على عباده بالقوت والرزق عمومًا وخصوصًا، ويحتمل أن المراد بالريحان المعروف وأن الله امتن على عباده بما يسره فى الأرض من أنواع الروائح الطيبة والمشام الفاخرة التى تسر الأرواح وتنشرح لها النفوس، ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التى تشاهد بالأبصار والبصائر وكان الخطاب للثقلين الجن والإنس قررهم تعالى بنعمه فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أى: فبأى نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟ وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبى ﷺ هذه السورة فكلما مر بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: ولا شىء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد، فهكذا ينبغى للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه أن يقر بها ويشكر ويحمد الله عليها ثم قال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾

وهذا من نعمه تعالى على عباده حيث أراهم من آثار قدرته وبديع صنعته أن ﴿خَلَقَ﴾ أبا ﴿الْإِنسَانَ﴾ وهو آدم عليه السلام ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ أى: من طين مبلول قد أحكم بله وأتقن حتى جف فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار وهو الطين المشوى ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أى: أبا الجن وهو: إبليس لعنه الله ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أى: من لهب النار الصافى أو الذى قد خالطه الدخان، وهذا يدل على شرف عنصر الآدمى المخلوق من الطين والتراب الذى هو محل الرزانة والثقل والمنافع بخلاف عنصر الجان وهو النار التى هى محل الخفة والطيش والشر والفساد، ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك وكان منة منه تعالى عليهم قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

أى: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر والكواكب النيرة وكل ما غربت عليه وكل ما كانا فيه فالجميع تحت تدبيره وربوبيته وثناهما هنا باعتبار مشارقهما شتاء وصيفًا، والله أعلم.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾

المراد بالبحرين: البحر العذب والبحر المالح فهما يلتقيان فيصب العذب فى البحر المالح ويختلطان ويمتزجان ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخًا من الأرض حتى لا يبغى أحدهما على الآخر ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم وحروثهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك وللؤلؤ والمرجان ويكون مستقرًا مسخرًا للسفن والمراكب ولهذا قال:

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

أى: وسخر تعالى لعباده السفن الجوارى التى تمخر البحر وتشقه بإذن الله التى ينشئها الآدميون فتكون من

عظمها وكبرها كالأعلام وهى: الجبال العظيمة، فيركبها الناس ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجاراتهم وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السموات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)﴾

أى: كل من على الأرض من إنس وجن ودواب وسائر المخلوقات يفنى ويبيد ويبقى الحى الذى لا يموت ﴿ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ أى: ذو العظم والكبرياء والمجد الذى يعظم ويبخل ويجل لأجله والإكرام الذى هو سعة الفضل والجود الذى يكرم أولياءه وخواص خلقه بأنواع الإكرام والذى يكرمه أولياؤه ويجلونه ويعظمونه ويحبونه وينيبون إليه ويعبدونه ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)﴾

أى: هو الغنى بذاته عن جميع مخلوقاته وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه يسألونه جميع حوائجهم بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يغنى فقيرًا ويجبر كسيرًا ويعطى قومًا ويمنع آخرين ويميت ويحيى ويخفض ويرفع، لا يشغله شأن عن شأن ولا تغلطه المسائل ولا يبرمه إلحاح الملحين ولا طول مسألة السائلين، فسبحان الكريم الوهاب الذى عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات وعم لطفه جميع الخلق فى كل الآنات واللحظات وتعالى الذى لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشئون التى أخبر أنه كل يوم هو فى شأن هى تقاديره وتدابيره التى قدرها فى الأزل وقضاها لا يزال تعالى يمضيها وينفذها فى أوقاتها التى اقتضتها حكمته وهى أحكامه الدينية التى هى الأمر والنهى والقدرية التى يجريها على عباده مدة مقامهم فى هذه الدار، حتى إذا تمت هذه الخليقة وأفناهم الله تعالى وأراد أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء ويريهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه ما به يعرفونه ويوحدونه نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان وفرغ حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام التى جاء وقتها وهو المراد بقوله:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢)﴾

أى: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التى عملتموها فى دار الدنيا.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤)﴾

أى: إذا جمعهم الله فى موقف القيامة أخبرهم بعجزهم وضعفهم وكمال سلطانه ونفوذ مشيئته وقدرته فقال معجزًا لهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: تجدون مسلكًا ومنفذًا تخرجون به عن ملك الله وسلطانه ﴿فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ أى: لا تخرجون منه إلا بقوة وتسلط منكم وكمال قدرة وأنَّى لهم ذلك وهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟! ففى ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه ولا تسمع إلا همسًا، وفى ذلك الموقف يستوى الملوك والمماليك والرؤساء والمرءوسون والأغنياء والفقراء، ثم ذكر ما أعد لهم فى ذلك اليوم فقال:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾

أى: يرسل عليكما لهب صاف من النار ونحاس هو: اللهب الذى قد خالطه الدخان، والمعنى: أن هذين

الأمرين الفظيعين يرسلان عليكما ويحيطان بكما فلا تنتصران لا بناصر من أنفسكم ولا بأحد ينصركم من دون الله ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم وسوطًا يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب ذكر منته بذلك فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢)﴾

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي: يوم القيامة من الأهوال وكثرة البلبال وترادف الأوجال فانخسفت شمسها وقمرها وانتثرت نجومها ﴿فَكَانَتْ﴾ من شدة الخوف والانزعاج ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي: كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾ أي: سؤال استعلام بما وقع، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وقال هنا: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم فيلقون في النار ويسحبون إليها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة وحكمته الجليلة.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾

أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تسعر الجحيم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ فليهنهم تكذيبهم بها وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها ما هو جزاء لهم على تكذيبهم ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي: بين أطباق الجحيم ولهبها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي: ماء حار جدًا قد انتهى حره، وزمهرير قد اشتد برده وقره ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين ذكر جزاء المتقين الخائفين فقال:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)﴾

أي: والذي خاف ربه وقيامه عليه فترك ما نهى عنه وفعل ما أمر به له جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما

وبنيانهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات والأخرى على فعل الطاعات، ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أى: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة نعيم الظاهر والباطن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وأن فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة التى فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة، وفى تلك الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿زَوْجَانِ﴾ أى: صنفان كل صنف له لذة ولون ليس للنوع الآخر ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ هذه صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها وأنهم متكئون عليها أى: جلوس تمكن واستقرار وراحة كجلوس الملوك على الأسرة، وتلك الفرش لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله تعالى حتى إن بطائنها التى تلى الأرض منها من إستبرق وهو أحسن الحرير وأفخره فكيف بظاهرها التى يباشرون؟ ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنى هو الثمر المستوى أى: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول يناله القائم والقاعد والمضطجع ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى: قد قصرن طرفهن على أزواجهن من حسنهم وجمالهم وكمال محبتهن لهم وقصرت أيضًا طرق أزواجهن عليهن من حسنهن وجمالهن ولذة وصالهن وشدة محبتهن ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أى: لم ينلهن أحد قبلهم من الإنس والجن، بل هن أبكار عُرب متحببات إلى أزواجهن بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ أى: هل جزاء من أحسن فى عبادة الخالق ونفع عبيده إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل والفوز الكبير والنعيم والعيش السليم فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ من فضة بنيانهما وحليتهما وما فيهما لأصحاب اليمين، وتلك الجنتان ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أى: سوداوان من شدة الخضرة والرى ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أى: فوارتان ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ﴾ من جميع أصناف الفواكه وأخصها: النخيل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما ﴿فِيهِنَّ﴾ أى: فى الجنات كلها ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ أى: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن وحسن الْخَلْق والخُلُق ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ أى: محبوسات فى خيام للؤلؤ قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفى ذلك خروجهن فى البساتين ورياض الجنة كما جرت العادة لبنات الملوك، لمخدرات الخفرات ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ أى: أصحاب هاتين الجنتين متكأهم على الرفرف الأخضر، وهى الفرش التى تحت المجالس العالية التى قد زادت على مجالسهم فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم لزيادة البهاء وحسن المنظر ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ العبقرى: نسبة لكل منسوج نسجًا حسنًا فاخرًا ولهذا وصفها بالحسن الشامل لحسن الصفة والمنظر ونعومة الملمس، وهاتان الجنتان دون الجنتين الأولیين كما نص الله على ذلك بقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف بها الأخريين فقال فى الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وفى الأخريين: ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاخة، وقال فى الأوليين: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ولم يقل ذلك فى الأخريين، وقال فى الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وفى الأخريين: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت وقال فى الأوليين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ ولم يقل ذلك فى الأخريين، بل قال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ وقال فى الأوليين، فى وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ وفى الأخريين: ﴿مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك، وقال فى الأوليين: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فدل على ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك فى الأخريين، ومجرد تقديم الأوليين على الأخريين يدل على فضلهما، فبهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الأخريين وأنهما معدتان للمقربين من الأنبياء والصديقين وخواص عباد الله الصالحين، وأن الأخريين معدتان لعموم المؤمنين، وفى كل من الجنات المذكورات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأهلهن فى غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إن كل واحد منهم لا يرى أحدًا أحسن حالاً منه ولا أعلى من نعيمه

الذى هو فيه، ولما ذكر سعة فضله وإحسانه قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ أي: تعاظم وكثر خيره الذى له الجلال الباهر والمجد الكامل والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن - ولله الحمد والشكر والثناء الجميل



تفسير سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٤٠)﴾

يخبر تعالى بحال الواقعة التى لا بد من وقوعها وهى: القيامة التى ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أى: لا شك فيها لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية ودلت عليها حكمته تعالى ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أى: خافضة لأناس فى أسفل سافلين رافعة لأناس فى أعلى عليين، أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب ورفعت فأسمعت البعيد ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا﴾ أى: حركت واضطربت ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ أى: فتتت ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾ فأصبحت ليس عليها جبل ولا معلم قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ﴿وَكُنتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ أى: انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة فقال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ تعظيم لشأنهم وتفخيم لأحوالهم ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أى: الشمال ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ تهويل لحالهم ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أى: السابقون فى الدنيا إلى الخيرات هم السابقون فى الآخرة لدخول الجنات، أولئك الذين هذا وصفهم المقربون عند الله فى جنات النعيم فى أعلى عليين فى المنازل العاليات التى لا منزلة فوقها، وهؤلاء المذكورون ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ﴾ أى: جماعة كثيرة من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة فى الجملة على متأخريها لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم: خواص الخلق ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ أى: مرمولة بالذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر وغير ذلك من الحُلِيِّ والزينة التى لا يعلمها إلا الله تعالى ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أى: على تلك السرر، جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ وجه كل منهم إلي وجه صاحبه من صفاء قلوبهم وتقابلها بالمحبة وحسن أدبهم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أى: يدور على أهل الجنة لخدمتهم وقضاء حوائجهم ولدان صغار الأسنان فى غاية الحسن والبهاء ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أى مستور لا يناله ما يغيره، مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بآنية شرابهم

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ وهى: التى لا عرى لها ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ الأوانى التى لها عرى ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أى: من خمر لذيذ المشرب لا آفة فيه ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أى: لا تصدع عنها رءوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أى: لا تنزف عقولهم ولا تذهب أحلامهم منها كما يكون لخمر الدنيا، **والحاصل**: أن كل ما فى الجنة من النعيم الموجود جنسه فى الدنيا لا يوجد فى الجنة فيه آفة كما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ وذكر هنا خمر الجنة ونفى عنه كل آفة توجد فى الدنيا ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أى: مهما تخيروا وراق فى أعينهم واشتهته نفوسهم من أنواع الفواكه الشهية والجنى اللذيذ حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: من كل صنف من الطيور يشتهونه ومن أى جنس من لحمه أرادوا إن شاءوا مشويًا أو طبيخًا أو غير ذلك ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ أى: ولهم حور عين، والحوراء: التى فى عينها كحل وملاحة وحسن وبهاء، والعين: واسعات الأعين حسانها، وحسن عين الأنثى من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أى: كأنهن اللؤلؤ الرطب الصافى البهى المستور عن الأعين والريح والشمس الذى يكون لونه من أحسن الألوان الذى لا عيب فيه بوجه من الوجوه، فكذلك الحور العين لا عيب فيهن بوجه من الوجوه بل هن كاملات الأوصاف جميلات النعوت، فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر القلب ويروق الناظر وذلك النعيم المعد لهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فكما حسنت منهم الأعمال أحسن الله لهم الجزاء ووفر لهم الفوز والنعيم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أى: لا يسمعون فى جنات النعيم كلامًا يلغى ولا يكون فيه فائدة ولا كلامًا يؤثم صاحبه ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أى: إلا كلامًا طيبًا وذلك لأنها دار الطيبين ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة فى خطابهم فيما بينهم وأنه أطيب كلام وأسره للقلوب وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله أن يجعلنا من أهل الجنة، ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أى: شأنهم عظيم وحالهم جسيم ﴿فِي سِدْرٍ[١] مَّخْضُودٍ﴾ أى: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان الرديئة المضرة مجعول مكان ذلك الثر الطيب وللسدر من الخواص الظل الظليل وراحة الجسم فيه ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾[٢] والطلح معروف وهو شجر كبار يكون بالبادية تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهى ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أى كثير من العيون والأنهار السارحة والمياه المتدفقة ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أى: ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تنقطع فى وقت من الأوقات وتكون ممتنعة أى: متعسرة على مبتغيها بل هى على الدوام موجودة وجناها قريب يتناوله العبد على أى حال يكون ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أى: مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعًا عظيمًا وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ أى: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التى كانت فى الدنيا نشأة كاملة لا تقبل الفناء ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ صغارهن وكبارهن، وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا وأن هذا الوصف - وهو البكارة - ملازم لهن فى جميع الأحوال كما أن كونهن ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ملازم لهن فى كل حال والعروب هى: المرأة المتحببة إلى بعلها وحسن هيئتها ودلالها وجمالها ومحبتها، فهى التى إن تكلمت سبَتِ العقول وود السامع أن كلامها لا ينقضى، خصوصًا عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنغمات المطربة، وإن نظر إلى أدبها وسمتها ودلها ملأت قلب بعلها فرحًا وسرورًا، وإن انتقلت من محل إلى آخر امتلأ ذلك الموضع منها ريحًا طيبًا ونورًا، ويدخل فى ذلك الغنجة عند الجماع، والأتراب اللاتى على سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة التى هى غاية ما يتمنى أكمل سن الشباب، فنساؤهم عرب أتراب متفقات مؤتلفات راضيات مرضيات لا يَحزَنَّ ولا يُحزِنَّ بل هن أفراح النفوس وقرة العيون وجلاء الأبصار ﴿لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أى: معدات لهم مهيئات ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أى هذا القسم وهم أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين وعدد كثير من الآخرين.

---

(١) السدر: شجر النبق.

(٢) الطلح: شجر الموز، والمنضود: الذى نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه، فليست له ساق بارزة. اهـ. نسفى.

والمعنى: فى شجر من النبق مقطوع شوكه، وشجر من الموز متراكب ثمره، بعضه فوق بعض.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

المراد بأصحاب الشمال هم أصحاب النار والأعمال المشئومة فذكر الله لهم من العقاب ما هم حقيقون به فأخبر أنهم ﴿فِى سَمُومٍ﴾ أى: ريح حارة من حر نار جهنم تأخذ بأنفاسهم وتقلقهم أشد القلق ﴿وحميم﴾ أى: ماء حار يقطع أمعاءهم ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أى: لهب نار يختلط بدخان ﴿لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ أى: لا برد فيه ولا كرم والمقصود: أن هناك الهم والغم والحزن والشر الذى لا خير فيه لأن نفى الضد إثبات لضده، ثم ذكر أعمالهم التى أوصلتهم إلى هذا الجزاء فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أى: قد ألهتهم دنياهم وعملوا لها وتنعموا وتمتعوا بها فألهاهم الأمل عن إحسان العمل فهذا هو الترف الذى ذمهم الله عليه ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ أى وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها ولا يندمون عليها بل يصرون على ما يسخط مولاهم فقدموا عليه بأوزار كثيرة غير مغفورة، وكانوا ينكرون البعث فيقولون استبعادًا لوقوعه: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ أى: كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا فكنا ترابًا وعظامًا؟! هذا من المحال قال تعالى فى جوابهم:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

أى: قل إن متقدم الخلق ومتأخرهم الجميع سيبعثهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم قدَّره الله لعباده حين تنقضى الخليقة ويريد الله جزاءهم على أعمالهم التى عملوها فى دار التكليف.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾ عن طريق الهدى التابعون لطريق الردى ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد والوعيد ﴿لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ وهو أقبح الأشجار وأخسها وأنتنها ريحًا وأبشعها منظرًا ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ والذى أوجب لهم أكلها - مع ما هى عليه من الشناعة - الجوع المفرط الذى يلتهب فى أكبادهم وتكاد تتقطع منه أفئدتهم، هذا الطعام هو الذى يدفعون به الجوع وهو لا يسمن ولا يغنى من جوع، وأما شرابهم فهو بئس الشراب وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذى يغلى فى البطون ﴿شُرْبَ الْهِيمِ﴾ وهى: الإبل العطاش التى قد اشتد عطشها، أو أن الهيم: داء يصيب الإبل لا تروى معه من شراب الماء ﴿هَذَا﴾ الطعام والشراب ﴿نُزُلُهُمْ﴾ أى: ضيافتهم ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ [1] وهى الضيافة التى قدموها لأنفسهم وآثروها على ضيافة الله لأوليائه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ ثم ذكر الدليل العقلى على البعث فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ﴾ أى: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟ بلى إنه على كل شىء قدير، ولهذا وبخهم على عدم تصديقهم بالبعث وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

---

(١) أى: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة.

أى: أفرأيتم ابتداء خلقكم من المنى الذى تمنون فهل أنتم خالقون ذلك المنى وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى الخالق الذى خلق فيكم الشهوة فى الذكر والأنثى وهدى كلاً منهما لما هنالك وحبب بين الزوجين وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب التناسل، ولهذا أحالهم الله تعالى بالاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى فقال: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ القادر على ابتداء خلقكم قادر على إعادتكم.

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

وهذا امتنان منه على عباده يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم التى لا يقدرون أن يحصوها فضلاً عن شكرها وأداء حقها، فقررهم بمنته فقال: ﴿**أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**﴾ أى: أنتم أخرجتموه نباتًا من الأرض؟ أم أنتم الذين نميتموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حبًا حصيدًا وثمرًا نضيجًا؟ أم الله الذى انفرد بذلك وحده وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر، ثم لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه بلغة لكم ومتاعًا إلى حين ﴿**لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ**﴾ أى: الزرع المحروث وما فيه من الثمار ﴿**حُطَامًا**﴾ أى: فتاتًا متحطمًا لا نفع فيه ولا رزق ﴿**فَظَلْتُمْ**﴾ أى: فصرتم بسبب جعله حطامًا بعد أن تعبتم فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة ﴿**تَفَكَّهُونَ**﴾ أى: تندمون وتتحسرون على ما أصابكم ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم فتقولون: ﴿**إِنَّا لَمُغْرَمُونَ**﴾ [1]أى إنا قد نقصنا وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا، ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم وبأى سبب دهيتم فتقولون: ﴿**بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**﴾[2] فاحمدوا الله تعالى حيث زرعه لكم ثم أبقاه وكمله لكم ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذى منه يشربون وأنه لولا أن الله يسره وسهله لما كان لكم إليه سبيل وأنه الذى أنزله من المزن وهو السحاب والمطر الذى ينزله الله تعالى فتكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفى بطنها وتكون منه الغدرات المتدفقة، ومن نعمته تعالى أن جعله عذبًا فراتًا تسيغه النفوس ولو شاء لجعله ملحًا أجاجًا لا ينتفع به ﴿**فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ**﴾ الله تعالى على ما أنعم به عليكم.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

وهذه نعمة تدخل فى الضروريات التى لا غنى للخلق عنها فإن الناس محتاجون إليها فى كثير من أمورهم وحوائجهم فقررهم تعالى بالنار التى أوجدها فى الأشجار وأن الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها وإنما الله

---

(١) لمغرمون أى: لملزمون غرامة ما أنفقنا، أو، مهلكون بهلاك رزقنا، من الغرام وهو: الهلاك. اهـ. أبو السعود.

(٢) محرومون، أى: سيئو الحظ، لا بخت لنا، ومحرومون من الرزق.

تعالى قد أنشأها من الشجر الأخضر فإذا هى نار توقد بقدر حاجة العباد فإذا فرغوا من حاجتهم أطفئوها وأخمدوها ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ للعباد بنعمة ربهم وتذكرة بنار جهنم التى أعدها الله للعاصين وجعلها سوطًا يسوق به عباده إلى دار النعيم ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أى: المتنفعين أو المسافرين، وخص الله المسافر لأن نفع المسافر أعظم من غيره ولعل السبب فى ذلك لأن الدنيا كلها دار سفر والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار جعلها الله متاعًا للمسافرين فى هذه الدار وتذكرة لهم بدار القرار، فلما بيَّن من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكره وعبادته أمر بتسبيحه وتعظيمه، فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أى: نزه ربك العظيم كامل الأسماء والصفات كثير الإحسان والخيرات واحمده بقلبك ولسانك وجوارحك لأنه أهل لذلك وهو المستحق لأن يُشكر فلا يُكفر ويُذكر فلا يُنسى ويُطاع فلا يُعصى.

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها أى: مساقطها فى مغاربها وما يحدث الله فى تلك الأوقات من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده ثم عظم هذا المقسم به فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وإنما كان القسم عظيمًا لأن فى النجوم وجريانها وسقوطها عند مغاربها آيات وعبراً لا يمكن حصرها، وأما المقسم عليه فهو إثبات القرآن وأنه حق لا ريب فيه ولا شك يعتريه، وأنه كريم أى: كثير الخير غزير انعلم وكل خير وعلم فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ أى: مستور عن أعين الخلق وهذا الكتاب المكنون هو: اللوح المحفوظ، أى: إن هذا القرآن مكتوب فى اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته فى الملأ الأعلى ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون هو الكتاب الذى بأيدى الملائكة الذين ينزلهم الله لوحيه ورسالته وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين لا قدرة لهم على تغييره ولا الزيادة والنقص منه واستراقه ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أى: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون وأن أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم ولا يدان إلى مسه دلت الآية - تنبيهًا - على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر[1] ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين الذى يربى عباده بنعمه الدينية والدنيوية، وأجلُّ تربية ربى بها عباده إنزاله هذا القرآن الذى قد اشتمل على مصالح الدارين ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكوراً، ومما يجب عليهم أن يقوموا به ويعلنوه ويدعوا إليه ويصدعوا به، ولهذا قال: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أى: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أى: تختفون وتدلون خوفًا من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ هذا لا ينبغى ولا يليق إنما يليق أن يداهن بالحديث الذى لا يثق صاحبه منه، وأما القرآن الكريم فهو الحق الذى لا يغالب به مغالب إلا غلب ولا يصول به صائل إلا كان العالى على غيره وهو الذى لا يداهن به ويختفى بل يصدع به ويعلن، وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أى: تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق بالتكذيب والكفر لنعمة الله فتقولون: مطرنا بنوء[2] كذا وكذا وتضيفون النعمة لغير مسديها ومويلها، فهلا شكرتم الله على

---

(١) قوله: «لا يمس القرآن إلا طاهر» هذا من باب الأدب فقط، لا من باب وجوب الوضوء لمس المصحف، فإن مس المصحف للمحدث جائز لا حرمة فيه كما أفاد ذلك ابن حزم فى كتابه «المحلى» وابن القيم فى كتابه «التبيان فى أقسام القرآن» وقد أطال ابن القيم الكلام فى ذلك وذكر من الأدلة القاطعة ما لا يمكن ردها ولا نقضه، ولولا خشية الإطالة لذكرناها هنا، ومن أراد الوقوف على الحقيقة فليرجع إلى الكتاب المذكور.

(٢) النوء سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق، يقابله من ساعته فى كل ثلاثة عشر يومًا ما خلا الجبهة فإن =

إحسانه إذ أنزله إليكم ليزيدكم من فضله فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم ﴿**فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ** ﴿٨٣﴾ **وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ** ﴿٨٤﴾ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ**﴾ أى: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم وأنتم تنظرون المحتضر فى هذه الحالة، والحال أنَّا نحن أقرب إليه منكم بعلمنا وملائكتنا ولكن لا تبصرون ﴿**فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ**﴾ أى: فهلا إذ كنتم تزعمون أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجزيين ﴿**تَرْجِعُونَهَا**﴾ أى: إلى بدنها ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها، فحينئذ إما أن تقروا بالحق الذى جاء به محمد ﷺ وإما أن تعاندوا فتعلم حالكم وسوء مآلكم.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين الضالين فى أول السورة فى دار القرار، ثم ذكر أحوالهم فى آخرها عند الاحتضار والموت فقال: ﴿**فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ**﴾ أى: إن كان الميت من المقربين إلى الله المتقربين إليه بأداء الواجبات والمستحات وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات ﴿**فَـ**﴾ لهم ﴿**رَوْحٌ**﴾ أى: راحة وطمأنينة وسرور وبهجة ونعيم القلب والروح ﴿**وَرَيْحَانٌ**﴾ هم اسم جامع لكل لذة بدنية من أنواع المآكل والمشارب وغيرها وقيل: الريحان هو: الطيب المعروف، فيكون من باب التعبير بنوع الشىء عن جنسه العام ﴿**وَجَنَّتُ نَعِيمٍ**﴾ جامعة للأمرين كليهما فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة التى تكاد تطير منها الأرواح فرحًا وسرورًا كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴿٣٠﴾ **نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ** ﴿٣١﴾ **نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ**﴾ وقد فسر قوله تعالى: ﴿**لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾ أن هذه البشارة المذكورة هى البشرى فى الحياة الدنيا وقوله: ﴿**وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ**﴾ وهم: الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات وإن حصل منهم بعض التقصير فى بعض الحقوق التى لا تخل بإيمانهم وتوحيدهم ﴿**فَـ**﴾ يقال لأحدهم: ﴿**سَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ**﴾ أى: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين أى: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب لأنك من أصحاب اليمين الذين سلموا من الموبقات ﴿**وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ**﴾ أى: الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى ﴿**فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ** ﴿٩٣﴾ **وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ**﴾ أى: ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم تصلية الجحيم التى تحيط بهم وتصل إلى أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدة العطش أى الظمأ ﴿**يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ ﴿**إِنَّ هَذَا**﴾ الذى ذكره الله تعالى من جزاء العباد بأعمالهم خيرها وشرها وتفاصيل ذلك ﴿**لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ**﴾ أى: الذى لا شك فيه ولا مرية، بل هو الحق الثابت الذى لا بد من وقوعه، وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك حتى صار عند أولى الألباب كأنهم ذائقون له مشاهدون لحقيقته فحمدوا الله تعالى على ما خصهم من هذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ فسبحان ربنا

= لها أربعة عشر يومًا، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها، وقيل: إلى الطالع منها، لأنه فى سلطانه، وجمعه أنواء ونوءان كعبد وعبدان. اهـ. من المختار من الصحاح.

والمراد هنا: النهى عن إثبات تأثير حوادث الأمطار والحر والبرد إلى تنقلات النجوم من منزل إلى منزل، كما كان عرب الجاهلية تعتقد هذا؛ بل المؤثر بإنزال المطر وإرسال الرياح وحصول الحر والبرد، إنما هو الله تعالى.

العظيم وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا والحمد لله رب العاليمن حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه.

تم تفسير سورة الواقعة

تفسير سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه أن جميع ما فى السموات والأرض من الحيوانات الناطقة وغيرها والجوامد تسبح بحمد ربها وتنزهه عما لا يليق بجلاله وأنها قانتة لربها منقادة لعزته قد ظهرت فيها آثار حكمته ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلوية والسفلية لربها فى جميع أحوالها وعموم عزته وقهره للأشياء كلها وعموم حكمته فى خلقه وأمره ثم أخبر عن عموم ملكه فقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: هو الخالق للمخلوقات الرازاق المدبر لها بقدرته ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1]﴾ (٢) ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذى ليس قبله شىء ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شىء ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذى ليس فوقه شىء ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذى ليس دونه شىء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والسرائر والخفايا والأمور المتقدمة والمتأخرة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله فوق جميع خلقه ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من حب وحيوان ومطر وغير ذلك ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبت وشجر وحيوان وغير ذلك ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الملائكة والأقدار والأرزاق ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذلك ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ وهذه المعية معية العلم والاطلاع ولهذا توعد ووعد بالمجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال وما صدرت عنه تلك الأعمال من بر وفجور فمجازيكم عليها وحافظها عليكم ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا وعبيدًا يتصرف فيهم بما شاءه من أوامره القدرية والشرعية الجارية على الحكمة الربانية ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ من الأعمال والعمال فيعرض عليه العباد فيميز الخبيث من الطيب ويجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أى: يدخل الليل على النهار فيغشيهم الليل بظلامه فيسكنون ويهدءون، ثم يدخل النهار على الليل فيزول ما على الأرض من الظلام ويضىء الكون فيتحرك العباد ويقومون إلى مصالحهم ومعايشهم، ولا يزال الله يكور الليل على النهار والنهار على الليل ويداول بينهما فى الزيادة والنقص والطول والقصر حتى تقوم بذلك الفصول وتستقيم الأزمنة ويحصل من المصالح بذلك ما يحصل، فتبارك الله رب العالمين وتعالى

---

(١) قدير، أى: تام القدرة ومبالغ فيها بحيث لا تدرك العقول مدى قدرة الله ولا تحديدها.

الكريم الجواد الذى أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما يكون فى صدور العالمين فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

يأمر تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به وبالنفقة فى سبيله من الأموال التى جعلها الله فى أيديهم واستخلفهم عليها لينظر كيف يعملون، ثم لما أمرهم بذلك رغبهم وحثهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أى: الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله والنفقة فى سبيله لهم أجر كبير وأعظمه وأجله رضا ربهم والفوز بدار كرامته وما فيها من النعيم المقيم الذى أعده الله للمؤمنين والمجاهدين، ثم ذكر السبب الداعى لهم إلى الإيمان وعدم المانع منه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى: وما الذى يمنعكم من الإيمان، والحال أن الرسول محمدًا ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله يدعوكم، فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته والتلبية والإجابة للحق الذى جاء به وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين، ومع ذلك من لطفه وعنايته بكم أنه لم يكتف بمجرد دعوة الرسول الذى هو أشرف العالم بل أيده بالمعجزات ودلكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات فلهذا قال: ﴿هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى: ظاهرات تدل أهل العقول على صحة جميع ما جاء به وأنه هو الحق اليقين ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ بإرسال الرسول إليكم وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، وهذا من رحمته بكم ورأفته حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ[1]﴾ ﴿٩﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: وما الذى يمنعكم من النفقة فى سبيل الله وهى طرق الخير كلها ويوجب لكم أن تبخلوا، الحال أنه ليس لكم شىء بل ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فجميع الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون عنها ثم يعود المُلك إلى مالكه تبارك وتعالى فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال فى أيديكم وانتهزوا الفرصة، ثم ذكر تعالى تفاصيل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ المراد بالفتح هنا هو: فتح الحديبية حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التى حصل فيها نشر الإسلام واختلاط المسلمين بالكافرين والدعوة إلى الدين من غير معارض فدخل الناس من ذلك الوقت فى دين الله أفواجًا واعتز الإسلام عزًا عظيمًا وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرون على الدعوة إلى الدين فى غير البقعة التى أسلم أهلها كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف فلذلك كان من أسلم قبل الفتح ويقاتل أعظم درجة وأجرًا وثوابًا ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك كما هو مقتضى الحكمة، ولهذا كان السابقون وفضلاء الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين

---

(١) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ﴾ فى إخراجكم من الكفر إلى الإيمان ﴿لَرَءُوفٌ﴾ كثير الرأفة ﴿رَّحِيمٌ﴾ واسع الرحمة، حيث يهديكم إلى سعادة الدارين بإرسال الرسول وتنزيل الآيات ونصب الحجج العقلية.

الأمور قد يتوهم منه نقص وقدح في المفضول احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده كلهم وعده الله الجنة وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم ﷺ حيث شهد الله لهم بالإيمان ووعدهم الجنة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازى كلا منكم على ما يعمله من عمله ثم حث على النفقة في سبيله لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه وبذل الأموال في التجهيز له فقال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهي: النفقة الطيبة التي تكون خالصة لوجه الله موافقة لمرضاة الله من مال حلال طيب طيبة به نفسه وهذا من كرم الله تعالى حيث سماه قرضًا والمال ماله والعبيد عبيده ووعد بالمضاعفة عليه أضعافًا كثيرة وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة محلها ومواضعها يوم القيامة يوم يتبين كل إنسان فقره ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى مبينًا لفضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ أي إذا كان يوم القيامة وكورت الشمس وخسف القمر وصار الناس في الظلمة ونصب الصراط على متن جهنم فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم فيمشون بإيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب كل على قدر إيمانه ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة فيقال: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم وألذها لنفوسهم حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب ونجوا من كل شر ومرهوب، فإذا رأى المنافقون المؤمنين يمشون بنورهم وهم قد طفئ نورهم وبقوا في الظلمات حائرين قالوا للمؤمنين: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به لننجو من العذاب ﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي: إن كان ذلك ممكنًا، والحال أن ذلك غير ممكن بل هو من المحالات ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ أي: حائط منيع وحصن حصين ﴿لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾(١) وهو الذي يلي المؤمنين ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ وهو الذي يلي المنافقين، فينادي المنافقون فيقولون تضرعًا وترحمًا: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا بقول «لا إله إلا الله» ونصلي ونصوم ونجاهد ونعمل مثل عملكم؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ كنتم معنا في الدنيا وعملتم في الظاهر مثل عملنا ولكن أعمالكم أعمال المنافقين من غير إيمان ولا نية صادقة صالحة ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم في خبر الله الذي لا يقبل شكًا ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ الباطلة حيث تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين وأنتم غير موقنين ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحالة الذميمة ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وهو: الشيطان الذي زين لكم الكفر والريب فاطمأننتم به ووثقتم بوعده وصدقتم خبره ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولو افتديتم بملء الأرض ذهبًا ومثله معه لما تقبل منكم ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: مستقركم ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ التي تتولاكم وتضمكم إليها ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النار، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

---

(١) أي: فضرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجز له باب، باطن الحاجز الذي يلي الجنة فيه الرحمة والنعيم، وظاهر الحاجز الذي يلي النار من جهته النقمة والعذاب. اهـ. من المنتخب من تفسير القرآن الكريم.

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (١٦) ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) ﴾

لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات فى الدار الآخرة كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها والاستكانة لعظمته فعاتب الله المؤمنين على عدم ذلك فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى: ألم يأت الوقت الذى به تلين قلوبهم وتخشع لذكر الله الذى هو القرآن وتنقاد لأوامره وزواجره وما نزل من الحق الذى جاء به محمد ﷺ؟ وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى ولما أنزله من الكتاب والحكمة وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت ويحاسبوا أنفسهم على ذلك ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ﴾ أى: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام ثم لم يدوموا عليه ولا يثبتوا بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ فالقلوب تحتاج فى كل وقت إلى أن تذكر بما أنزل الله وتناطق بالحكمة ولا ينبغى الغفلة عن ذلك فإنه سبب لقسوة القلب وجمود العين ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فإن الآيات تدل العقول على المطالب الإلهية والذى أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيى الأموات بعد موتهم فيجازيهم بأعمالهم، والذى أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيى القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله، وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينقد لشرائع الله.

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (١٩) ﴾

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ بالتشديد أى: الذين أكثروا من الصدقات والنفقات المرضية ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بأن قدموا من أموالهم فى طرق الخيرات ما يكون ذخرًا لهم عند ربهم ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو ما أعده الله لهم فى الجنة مما لا تعلمه النفوس ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ والإيمان عند أهل السنة ما دل عليه الكتاب والسنة وهو قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا هذه الأمور هم الصديقون أى: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء، وقوله: ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ كما ورد فى الحديث الصحيح «إن فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين فى سبيله» وهذا يقتضى شدة علوها ورفعتهم وقربهم من الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق: المتصدقين والصديقين والشهداء وأصحاب الجحيم، فالمتصدقون هم الذين جُلُّ عملهم الإحسان إلى الخلق وبذل النفع لهم بغاية ما يمكنهم خصوصًا، بالنفع بالمال فى سبيل الله، والصديقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح والعلم النافع واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله وبذلوا أنفسهم وأموالهم فقُتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله، وبقى قسم ذكرهم الله فى سورة فاطر وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات إلا أنهم حصل منهم بعض التقصير بحقوق الله وحقوق عباده فهؤلاء مآلهم الجنة، وإن حصل لبعضهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) ﴾

يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هى عليه ويبين غايتها وغاية أهلها بأنها لعب ولهو تلعب بها الأبدان وتلهو بها القلوب وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات عمرهم بلهو قلوبهم وغفلتهم عن ذكر الله وعما أمامهم من الوعد والوعيد تراهم قد اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، بخلاف أهل اليقظة وعمَّال الآخرة فإن قلوبهم معمورة بذكر الله ومعرفته ومحبته، وقد شغلوا أوقاتهم بالأعمال التى تقربهم إلى الله من النفع القاصر والمتعدى، وقوله: ﴿وَزِينَةٌ﴾ أى: تزيُّنٌ فى اللباس والطعام والشراب والمراكب والدور والقصور والجاه وغير ذلك ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أى: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر وأن يكون هو الغالب فى أمورها والذى له الشهرة فى أحوالهم ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أى: كلٌّ يريد أن يكون هو الكاثر لغيره فى المال والولد وهذا مصداقه وقوعه من مُحبِّى الدنيا والمطمئنين إليها، بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها فجعلها معبرًا ولم يجعلها مستقرًا فنافس فيما يقربه إلى الله واتخذ الوسائل التى توصله إلى دار كرامته وإذا رأى من يكاثره وينافسه فى الأموال والأولاد نافسه بالأعمال الصالحة، ثم ضرب للدنيا مثلاً بغيث نزل على الأرض فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأعجب نباته الكفار الذين قصروا نظرهم وهممهم على الدنيا جاءها من أمر الله ما أتلفها فهاجت ويبست وعادت إلى حالها الأولى كأنه لم ينبت فيها خضراء ولا رُئى لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا بينما هى زاهية لصاحبها زاهرة مهما أراد من مطالبها حصل ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة إذ أصابها القدر فأذهبها من يده وأزال تسلطه عليها أو ذُهِبَ به عنها فرحل منها صفر اليدين ولم يتزود منها سوى الكفن فتبًا لمن أضحت هى غاية أمنيته ولها عمله وسعيه، وأما العمل للآخرة فهو الذى ينفع ويدخر لصحابه ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أى: حال الآخرة لا يخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد فى نار جهنم وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هى غايته ومنتهى مطلبه فتجرأ على معاصى الله وكذب بآيات الله وكفر بأنعم الله، وإما مغفرة من الله للسيئات وإزالة العقوبات ورضوان من الله يحل من أحله عليه دار الرضوان لمن عرف الدنيا وسعى للآخرة سعيها، فهذا كله مما يدعو إلى الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أى: إلا متاع يتمتع به وينتفع به ويستدفع به الحاجات لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور، ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعى بأسباب المغفرة من التوبة النصوح والاستغفار النافع والبعد عن الذنوب ومظانها والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح والحرص على ما يرضى الله على الدوام من الإحسان فى عبادة الخالق والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك فقال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ والإيمان بالله ورسله يدخل فيه أصول الدين وفروعه ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: هذا الذى بيَّناه لكم وذكرنا الطرق الموصلة إلى الجنة والطرق الموصلة إلى النار وأن ثواب الله بالأجر الجزيل والثواب الجميل من أعظم منته على عباده وفضله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذى لا يحصى أحد ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى عليه أحد من خلقه.

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) ﴾

ويقول تعالى مخبرًا عن عموم قضائه وقدره: ﴿ما أصابَ من مُصيبَةٍ فِي الأرْضِ وَلا فِي أنفُسِكُمْ﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التى تصيب الخلق من خير وشر فكلها قد كتب فى اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول بل تذهل عنه أفئدة أولى الألباب ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا ييأسوا ويحزنوا على ما فاتهم مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه لعلمهم أن ذلك مكتوب فى اللوح المحفوظ لا بد من نفوذه ووقوعه فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم وإنما أدركوه بفضل الله ومنّه فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أى: متكبر فظ معجب بنفسه فخور بنعم الله ينسبها إلى نفسه وتطغيه وتلهيه كما قال تعالى: ﴿إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أى: يجمعون بين الأمرين الذميمين اللذين كل منهما كاف فى الشر: البخل وهو: منع الحقوق الواجبة ويأمرون الناس بذلك فلم يكفهم بخلهم حتى أمروا الناس بذلك وحثوهم على هذا الخلق الذميم بقولهم وفعلهم وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الذى غناه من لوازم ذاته الذى له ملك السموات والأرض وهو الذى أغنى عباده وأقناهم، الحميد الذى له كل اسم حسن ووصف كامل وفعل جميل يستحق أن يحمد عليه ويثنى ويعظم عليه.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهى: الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقيقته ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التى أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم إلى ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو: العدل فى الأقوال والأفعال، والدين الذى جاءت به الرسل كله عدل وقسط فى الأوامر والنواهى وفى معاملات الخلق وفى الجنايات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك، وذلك ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ قيامًا بدين الله وتحصيلاً لمصالحهم التى لا يمكن حصرها وعدها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون فى قاعدة الشرع وهو القيام بالقسط وإن اختلفت صور العدل بحسب الأزمنة والأحوال ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ من آلات الحرب كالسلاح والدروع وغير ذلك ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ وهو: ما يشاهد من نفعه فى أنواع الصناعات والحرف والأوانى وآلات الحرث، حتى إنه قلَّ أن يوجد شىء إلا وهو يحتاج إلى الحديد ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أى: ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد فيتبين من ينصره وينصر رسله فى حالة الغيب التى ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة التى لا فائدة بوجود الإيمان فيها لأنه حينئذ يكون ضروريًا واضطراريًا ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى: لا يعجزه شىء ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذى منه الآلات القوية ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه ولكنه يبتلى أولياءه بأعدائه ليعلم من ينصره بالغيب، وقرن تعالى بهذا الموضع بين الكتاب والحديد لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه ويعلى كلمته، بالكتاب الذى فيه الحجة والبرهان، والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط الذى يستدل به على حكمة البارى وكماله وكمال شريعته التى شرعها على ألسنة رسله، ولما ذكر نبوة

الأنبياء عمومًا ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحًا وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين ﴿ فَمِنْهُم ﴾ أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿ مُّهْتَدٍ ﴾ بدعوتهم منقاد لأمرهم مسترشد بهداهم ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله وطاعة رسله، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أي: أتبعنا ﴿ عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ خص الله عيسى عليه السلام لأن السياق مع النصارى الذين يزعمون اتباع عيسى ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ كما قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوبًا حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة ووظفوها على أنفسهم والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم قصدهم بذلك رضا الله، ومع ذلك ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم، فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم، ومنهم: من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أي: الذين آمنوا بمحمد ﷺ مع إيمانهم بعيسى كلٌّ أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي: مكذبون بمحمد وخارجون عن الطاعة والطريق المستقيم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾

وهذا الخطاب يحتمل أنه خطاب لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي: نصيبين من الأجر: نصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ ويحتمل أن يكون الأمر عامًا يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم وهذا هو الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم أعطاهم ﴿ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ لا يعلم قدرهما ولا وصفهما إلا الله تعالى، أجر على الإيمان وأجر على التقوى وأجر على امتثال الأوامر وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ أي: يعطيكم علمًا وهدى ونورًا تمشون به في ظلمات الجهل ويغفر لكم السيئات ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ فلا يستغرب كثرة هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم الذي عم فضله أهل السموات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك، وقوله: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أي: بيَّنا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيمانًا عامًا واتقى الله وآمن برسوله لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة فيقولون: ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ ويتمنون على الله الأماني الفاسدة، فأخبر الله تعالى المؤمنين برسوله محمد ﷺ المتقين لله أن لهم كفلين من رحمته ونورًا ومغفرة رغمًا عن أنوف أهل الكتاب، وليعلموا ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الذي لا يقادر قدره.

تم تفسير سورة الحديد ولله الحمد والمنة

تفسير سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

نزلت هذه الآيات الكريمات فى رجل من الأنصار اشتكته زوجته إلى الله وجادلته إلى رسول الله ﷺ لما حرَّمها على نفسه بعد الصحبة الطويلة والأولاد، وكان هو رجـلاً شيخًا كبيرًا، فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ وكررت ذلك وأبـدت فيه وأعادت، فقـال تعالى: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا**﴾ أى: تخاطبكما فيما بينكما ﴿**إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ**﴾ لجميع الأصوات فى جميع الأوقات على تفنن الحاجات ﴿**بَصِيرٌ**﴾ يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء، وهذا إخبـار عن كمال سمـعه وبصره وإحـاطتهما بالأمـور الدقيقـة والجليلة وفى ضمن ذلك الإشارة بأن الله سيزيل شكواها وبلواها، ولهذا ذكر حكمها وحكم غيرها على وجه العموم فقال: ﴿**الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ**﴾ المظاهرة من الزوجة: أن يقول الرجل لزوجـته: «أنت علىَّ كظهر أمى» أو غيـرها من محارمـه أو «أنت علىَّ حرام» وكان المـعتاد عندهم فى هذا اللفظ «الظهـر» ولهذا سمـاه الله «ظهارًا» فقـال: ﴿**الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ**﴾ أى: كيف يتكلمون بهـذا الكلام الذى يعلمون أنه لا حقيقة له فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتى ولدنهم؟ ولهذا عظم الله أمره وقبحه فقال: ﴿**وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا**﴾ أى: قولاً شنيعًا وكذبًا ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ**﴾ عمن صدر منه بعض المخالفات فتداركها بالتوبة النصوح ﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا**﴾ اختلف العلماء فى معنى العود فقيل معناه العزم على جمـاع من ظاهر منها وأنه بمـجرد عزمـه تجب عليه الكفارة المـذكورة، ويدل على هذا أن الله تعـالى ذكر فى الكفارة أنها تكون قبل المسيس وذلك إنما يكون بمجـرد العزم، وقيل: معناه حقيقة الوطء ويدل على هذا أن الله قال: ﴿**ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا**﴾ والذين قالوا إنمـا هو الوطء، وعلى كل من القولين ﴿**فَـ**﴾ إذا وجد العود صار كفارة هذا التحريم ﴿**تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**﴾ كما قيدت فى آية القتل ذكر أو أنثى بشرط أن تكون سالمة من العيوب الضارة بالعمل ﴿**مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا**﴾ أى: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التى ظاهر منها حتى يكفر برقبة ﴿**ذَٰلِكُمْ**﴾ الحكم الذى ذكـرناه لكم ﴿**تُوعَظُونَ بِهِ**﴾ أى: يبين لكم حكمه مع الترهيب المـقرون به لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب فالذى يريد أن يظاهر إذا ذكر أن علـيه عتق رقبة كف نفسه عنه ﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ فيجازى كل عامل بعمله ﴿**فَمَن لَّمْ يَجِدْ**﴾ رقبة يعتقها بأن لم يجدها أو لم يجد ثمنها ﴿**فَـ**﴾ عليه ﴿**صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ**﴾ الصيام ﴿**فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا**﴾ إما أن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم كما هو قول كثير من المفسرين، وإما أن يطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره مما يجزى فى الفطر كما هو قول طائفة أخرى، ذلك الحكم الذى بيناه لكم ووضحناه ﴿**لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام والعمل به، فإن التزام أحكام الله والعـمل بها من الإيمان بل هى المقصودة ويزداد بها الإيمـان ويكمـل وينمـو ﴿**وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ**﴾ التى تمنع من الوقوع فيـها فيجب ألا تُتعدى ولا يقـصر عنها

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١] وفى هذه الآيات عدة أحكام: منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة وأزالها ورفع عنها البلوى بل رفع البلوى بحكمه العام عن كل من ابتلى بمثل هذه القضية، ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة لأن الله قال: ﴿مِّن نِّسَائِهِم﴾ فلو حرم أمته لم يكن ظهاراً بل هو من جنس تحريم الطيبات كالطعام والشراب تجب فيه كفارة اليمين فقط، ومنها: أن لا يصلح الظهار[٢] من امرأة قبل أن يتزوجها لأنها لا تدخل فى نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها، سواء نجَّز ذلك أو علَّقه، ومنها: أن الظهار محرم لأن الله سماه ﴿مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ ومنها: تنبيه الله على الحكم وحكمته لأن الله قال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادى زوجته ويدعوها باسم محارمه كقوله «يا أمى» «يا أختى» ونحو ذلك لأن ذلك يشبه المحرم، منها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر على اختلاف القولين السابقين لا بمجرد الظهار، ومنها: أنه يجزئ فى كفارة الرقبة الصغير والكبير والذكر والأنثى لإطلاق الآية فى ذلك، ومنها: أنه يجب إخراجها إذا كانت عتقًا أو صيامًا قبل المسيس كما قيده الله، بخلاف كفارة الإطعام فإنه يجوز المسيس والوطء فى أثنائها، ومنها: أنه لعل الحكمة فى وجوب الكفارة قبل المسيس أن ذلك أدعى لإخراجها فإنه إذا اشتاق إلى الجماع وعلم أنه لا يُمكَّنُ من ذلك إلا بعد الكفارة بادر إلى إخراجها، ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكينًا فلو جمع طعام ستين مسكينًا ودفعه لواحد أو أكثر من ذلك دون الستين لم يجز ذلك لأن الله قال: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾

محادة الله ورسوله: مخالفتهما ومعصيتهما خصوصًا فى الأمور الفظيعة كمحادة الله ورسوله بالكفر ومعاداة أولياء الله، وقوله: ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم جزاء وفاقًا وليس لهم حجة على الله فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد فمن اتبعها وعمل عليها فهو من المهتدين الفائزين ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بها ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: يهينهم ويذلهم فكما تكبروا عن آيات الله أهانهم الله وأذلهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أى: يوم يبعث الله الخلق ﴿جَمِيعًا﴾ فيقومون من أجداثهم سريعًا ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من خير وشر لأنه علم ذلك و ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أى: كتبه فى اللوح المحفوظ وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا ﴿وَ﴾ العاملون قد ﴿نَسُوهُ﴾ أى: نسوا ما عملوه والله أحصى ذلك ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ على الظواهر والسرائر والخبايا والخفايا، ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما فى السموات والأرض من دقيق وجليل، وأنه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ والمراد بهذه المعية: معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ثم قال تعالى:

---

(١) قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: وللكافرين بحدود الله الذين يتعدونها ولا يلتزمون حدود الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: مؤلم للغاية.

(٢) قوله: «أن لا يصلح الظهار» هكذا فى الأصل المطبوع، والصواب أن يقال «ومنها أنه لا يصح الظهار من امرأة» الخ. ليتناسب مع ما بعده.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) ﴾

النجوى هي: التناجي بين اثنين فأكثر وقد تكون في الخير وتكون في الشر، فأمر الله المؤمنين أن يتناجوا بالبر وهو اسم جامع لكل خير وطاعة وقيام بحق الله وحق عباده والتقوى وهي - هنا - اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم، فالمؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهي فلا تجده مناجيًا ومتحدثًا إلا بما يقربه إلى الله ويباعده من سخطه، والفاجر يتهاون بأمر الله ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ** ﴾ أي: يسيئون الأدب في تحيتهم لك ﴿ **وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ** ﴾ أي: يسرون فيها ما ذكر عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿ **لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ** ﴾ ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم أن ما يقولونه غير محذور، وقال تعالى في بيان أنه يمهل ولا يهمل: ﴿ **حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ أي تكفيهم جهنم التي جمعت كل عذاب وشقاء عليهم تحيط بهم ويعذبون بها ﴿ **فَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ أي: المرجع والمآل جهنم، وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيرًا وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب الذين سلموا على رسول الله ﷺ وقالوا «السام عليك يا محمد» يعنون: الموت.

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) ﴾

يقول تعالى: ﴿ **إِنَّمَا النَّجْوَىٰ** ﴾ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين بالمكر والخديعة وطلب السوء من الشيطان الذي كيده ضعيف ﴿ **لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ هذا غاية هذا المكر ومقصوده ﴿ **وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ فإن الله وعد المؤمنين بالكفاية والنصر على الأعداء وقال تعالى: ﴿ **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** ﴾ فأعداء الله ورسوله والمؤمنين مهما تناجوا ومكروا فإن ضرر ذلك عائد إلى أنفسهم ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ أي: ليعتمدوا عليه ويثقوا بوعده، فإن من توكل على الله كفاه كيد الأعداء وكفاه أمر دينه ودنياه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) ﴾

هذا أدب من الله لعباده إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم واحتاج بعضهم أو بعض القادمين للتفسح له في المجلس فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود، وليس ذلك بضار للفاسح شيئًا فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه والجزاء من جنس العمل فإن من فسح لأخيه فسح الله له ومن وسع لأخيه وسع الله عليه ﴿ **وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا** ﴾ أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض ﴿ **فَانشُزُوا** ﴾ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة، فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم به من العلم والإيمان ﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ فيجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وفي هذه الآية فضيلة العلم وأن زينته وثمرته التأدب بآدابه والعمل بمقتضاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تأديبًا لهم وتعليمًا وتعظيمًا للرسول ﷺ فإن هذا التعظيم خير للمؤمنين وأطهر، أى: بذلك يكثر خيركم وأجركم وتحصل لكم الطهارة من الأدناس التى من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التى لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدى مناجاته صار هذا ميزانًا لمن كان حريصًا على العلم والخير فلا يبالى بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة فى الخير وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام فينكف بذلك عن الذى يشق على الرسول، هذا فى الواجد للصدقة، وأما الذى لا يجد الصدقة فإن الله لم يضيق عليه الأمر بل عفا عنه وسامحه وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها، ثم لما رأى تعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة سهل الأمر عليهم ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدى المناجاة وبقى التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ لأن هذا من باب المشروع لغيره ليس مقصودًا لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها فقال: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ أى: لم يهن عليكم تقديم الصدقة ولا يكفى هذا فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هينًا على العبد ولهذا قيده بقوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أى عفا لكم عن ذلك ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها وجميع حدودها ولوازمها ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة فى أموالكم إلى مستحقيها، وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية فمن قام بهما على الوجه الشرعى فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، ولهذا قال بعده: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر فيدخل فى ذلك طاعة الله وطاعة رسوله بامتثال أوامرهما واجتناب نواهيهما وتصديق ما أخبرا به والوقوف عند حدود الشرع، والعبرة فى ذلك على الإخلاص والإحسان فلهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيعلم تعالى أعمالهم وعلى أى وجه صدرت فيجازيهم على حسب علمه بما فى صدورهم.

﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم ونالوا من لعنة الله أوفى نصيب وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فليسوا مؤمنين ظاهرًا وباطنًا لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهرًا وباطنًا لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم الذى نعتهم الله به والحال أنهم يحلفون على الذى هو الكذب فيحلفون أنهم مؤمنون والحال أنهم ليسوا مؤمنين، فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة أن الله أعد لهم عذابًا شديدًا لا يقادر قدره ولا يعلم وصفه، وإنهم ساء ما كانوا يعملون حيث عملوا بما يسخط الله ويوجب لهم العقوبة واللعنة ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ أى: ترسًا ووقاية يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين فبسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله وهو الصراط الذى من سلكه أفضى به إلى جنات النعيم ومن صد عنه فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ حيث إنهم لما استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته أهانهم بالعذاب السرمدى

الذى لا يُفتّر عنهم ساعة ولا هم يُنظَرون ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى: لا تدفع عنهم شيئًا من العذاب ولا تحصل لهم قسطًا من الثواب ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومن عاش على شىء مات عليه، فكما أن المنافقين فى الدنيا يموهون على المؤمنين ويحلفون لهم أنهم مؤمنون فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعًا حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين ويحسبون فى حلفهم هذا أنهم على شىء لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة لم تزل ترسخ فى أذهانهم شيئًا فشيئًا حتى غرتهم وظنوا أنهم على شى يعتد به ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون فى ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة، وهذا الذى جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذى استولى عليهم وزين لهم أعمالهم وأنساهم ذكر الله وهو العدو المبين الذى لا يريد بهم إلا الشر ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا دينهم ودنياهم وأهليهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ ﴾

هذا وعد ووعيد، وعيد لمن حادَّ الله ورسوله بالكفر والمعاصى أنه مخذول مذلول لا عاقبة له حميدة ولا راية له منصورة، ووعد لمن آمن به وبرسله واتبع ما جاء به المرسلون فصار من حزب الله المفلحين أن لهم الفتح والنصر والغلبة فى الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يُخلَف ولا يُغيَّر فإنه من الصادق القوى العزيز الذى لا يعجزه شىء يريده.

﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة إلا إذا كان عاملاً على مقتضى إيمانه ولوازمه من محبة من قام بالإيمان وموالاته وبغض من لم يقم به ومعاداته ولو كان أقرب الناس إليه، وهذا هو الإيمان على الحقيقة الذى وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله فى قلوبهم الإيمان أى: رسمه وثبَّته وغرسه غرسًا لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك، وهم الذين قوَّاهم الله بروح منه، أى: بوحيه ومعرفته ومدده الإلهى وإحسانه الربانى، وهم الذين لهم الحياة الطيبة فى هذه الدار ولهم جنات النعيم فى دار القرار التى فيها كل مات شتهيه الأنفس وتلذ الأعين وتختار ولهم أفضل النعيم وأكبره، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات ووافر المثوبات وجزيل الهبات ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية ولا وراءه نهاية، وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر وهو مع ذلك مُوادٌّ لأعداء الله محب لمن نبذ الإيمان وراء ظهره فإن هذا إيمان زَعْمىٌّ لا حقيقه له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه فمجرد الدعوى لا تفيد شيئًا ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير سورة المجادلة والحمد لله

تفسير سورة الحشر

هذه السورة تسمى «سورة بنى النضير» وهم طائفة كبيرة من اليهود فى جانب المدينة وقت بعثة النبى ﷺ فلما بعث النبى ﷺ وهاجر إلى المدينة كفروا به فى جملة من كفر من اليهود فهادن النبى ﷺ طوائف اليهود الذين هم جيرانه فى المدينة، فلما كان بعد وقعة بدر بستة أشهر أو نحوها خرج إليهم النبى ﷺ وكلمهم أن يعينوه فى دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمرى، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم اجلس ههنا حتى نقضى حاجتك، فخلا بعضهم ببعض وسوّل لهم الشيطان الشقاء الذى كتب عليهم فتآمروا على قتله ﷺ فقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحا فيصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليُخبَرَنَّ بما هممتم به وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه، وجاء الوحى على الفور إليه من ربه بما هموا به فنهض مسرعًا فتوجه إلى المدينة ولحقه أصحابه فقالوا: نهضت ولم نشعر بك فأخبرهم بما همت يهود به، وبعث إليهم رسول الله ﷺ «أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنونى بها، وقد أجلتكم عشرًا، فمن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه» فأقاموا أيامًا يتجهزون وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول «أن لا تخرجوا من دياركم فإن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان» وطمع رئيسهم حُيَىّ بن أخطب فيما قال له وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك، فكبَّر رسول الله ﷺ وأصحابه ونهضوا إليهم وعلى بن أبى طالب يحمل اللواء، وأقاموا على حصونهم يرمون بالنبال والحجارة، واعتزلتهم قريظة وخانهم ابن أُبَىّ وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ وقطع نخلهم وحرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذراريهم وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح، وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر وفيهم حُيَىّ بن أخطب كبيرهم واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح فوجد من السلاح خمسين درعًا وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفًا، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا

يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من فى السموات والأرض تسبح بحمد ربها وتنزهه عما لا يليق بجلاله وتعبده وتخضع لعظمته لأنه العزيز الذى قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء ولا يستعصى عليه عسير، الحكيم فى خلقه وأمره فلا يخلق شيئًا عبثًا ولا يشرع ما لا مصلحة فيه ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك نصره لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بنى النضير حين غدروا برسوله فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التى ألفوها وأحبوها، وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ إلى خيبر، ودلت الآية الكريمة أن لهم حشرًا وجلاء غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبى ﷺ من خيبر ثم عمر رضي الله عنه أخرج بقيتهم منها ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا﴾ من ديارهم لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ فأعجبوا بها وغرتهم وحسبوا أنهم لا ينالون بها ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله وراء ذلك كله لا تغنى عنه الحصون والقلاع ولا تُجدى فيه القوة والدفاع، ولهذا قال: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أى: من الأمر والباب الذى لم يخطر ببالهم أن يُؤتوا منه، وهو أنه تعالى ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو الخوف الشديد الذى هو جند الله الأكبر الذى لا ينفع معه عَدَدٌ ولا عُدَّة ولا قوة ولا شدة، فالأمر الذى يحتسبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التى تحصنوا بها واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول ومن ركن إلى غير الله كان وبالاً عليه، فأتاهم أمر سماوى نزل على قلوبهم التى هى محل الثبات والصبر أو الخور والضعف، فأزال قوتها وشدتها وأورثها ضعفًا وخورًا وجبنًا لا حيلة لهم فى دفعه فصار ذلك عونًا عليهم ولهذا قال: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم صالحوا النبى ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل، فنقضوا لذلك كثيرًا من سقوفهم التى استحسنوها وسلطوا المؤمنين بسبب بغيهم على إخراب ديارهم وهدم حصونهم فهم الذين جنوا على أنفسهم وصاروا أكبر عون عليها ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أى: البصائر النافذة والعقول الكاملة، فإن فى هذا معتبرًا يعرف به صنع الله فى المعاندين للحق المتبعين لأهوائهم الذين لم تنفعهم عزتهم ولا منعتهم قوتهم ولا حصنتهم حصونهم حين جاءهم أمر الله فوصل إليهم النكال بذنوبهم والعبرة بعموم المعنى لا بخصوص السبب فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار وهو اعتبار النظير بنظيره وقياس الشيء على ما يشابهه والتفكر فيما تضمنته الأحكام من المعانى والحكم التى هى محل العقل والفكر وبذلك يكمل العقل وتتنور البصيرة ويزداد الإيمان ويحصل الفهم الحقيقى، ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الذى أصابهم وقضاه عليهم بقدره الذى لا يبدل ولا يغير لكان لهم شأن آخر

من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوى - فإن لهم فى الآخرة عذاب النار الذى لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله، فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية، فما أعد الله لهم من العذاب فى الآخرة أعظم وأطم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وعادوهما وحاربوهما وسعوا فى معصيتهما، وهذه سنته وعادته فيمن شاقه ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين فى قطع النخيل والأشجار وزعموا أن ذلك من الفساد وتوصلوا بذلك إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه إن أبقوه ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وأمره ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ حيث سلطكم على قطع نخلهم وتحريقها ليكون ذلك نكالاً لهم وخزيًا فى الدنيا وذلا يعرف به عجزهم التام الذى ما قدروا على استنقاذ نخلهم الذى هو مادة قوتهم، واللينة: تشمل النخيل كله على أصح الاحتمالات وأولاها، فهذه حال بنى النضير وكيف عاقبهم الله فى الدنيا، ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم فقال: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أى: من أهل هذه القرية وهم بنو النضير ﴿فَـ﴾ إنكم يا معشر المسلمين ﴿مَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أى: ما أجلبتم ولا حشدتم أى: لم تتعبوا بتحصيلها لا بأنفسكم ولا بمواشيكم بل قذف الله فى قلوبهم الرعب فأتتكم صفْوًا عفْوًا، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن تمام قدرته أنه لا يمتنع عليه ممتنع ولا يعزز من دونه قوى، وتعريف الفىء باصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق من غير قتال كهذا المال الذى فروا وتركوه خوفًا من المسلمين وسمى فيئًا لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له إلى المسلمين الذين لهم الحق الأوفر فيه، وحكمه العام كما ذكره الله بقوله ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ عمومًا، سواء كان فى وقت الرسول أو بعده على من تولى الإمارة من بعده من أمته ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهذه الآية نظير الآية التى فى سورة الأنفال وهى قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فهذا الفىء يضم خمسة أقسام: خمس لله ولرسوله يصرف فى مصالح المسلمين العامة، وخمس لذى القربى، وهم: بنو هاشم وبنو المطلب حيث كانوا يُسوَّى فيه بين ذكورهم وإناثهم، وإنما دخل بنو المطلب فى خمس الخمس مع بنى هاشم ولم يدخل بقية بنى عبد مناف لأنهم شاركوا بنى هاشم فى دخولهم الشعب حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم، فنصروا رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبى ﷺ فى بنى عبد المطلب: «إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام» وخمس لفقراء اليتامى وهم: من لا أب له ولم يبلغ، وخمس للمساكين، وخمس لأبناء السبيل وهم الغرباء المنقطع بهم فى غير أوطانهم، وإنما قدَّر الله هذا التقدير وحصر الفىء فى هؤلاء المعينين ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ أى: مداولة واختصاصًا ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ فإنه لو لم يقدره لتداولته الأغنياء الأقوياء ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شىء وفى ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، كما أن فى اتباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه وظاهره وباطنه وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشىء كنص الله تعالى لا رخصة لأحد ولا عذر له فى تركه ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله، ثم أمر بتقواه التى بها عمارة القلوب والأرواح والدنيا والآخرة وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم وبإضاعتها الشقاء الأبدى والعذاب السرمدى فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من ترك التقوى وآثر اتباع الهوى، ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى أموال الفىء لمن قدرها له وأنهم حقيقون بالإعانة مستحقون لأن تجعل لهم وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا المحبوبات والمألوفات من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال رغبة فى الله ومحبة لرسول الله، فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة بخلاف من ادعى الإيمان وهو لم يصدقه بالجهاد والهجرة وغيرهما من العبادات وبين أنصارهم الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعًا ومحبة واختيارًا وآووا رسول الله ﷺ ومنعوه من الأحمر والأسود وتبوءوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موئلاً ومرجعًا يرجع إليه المؤمنون ويلجأ إليه

المهاجرون ويسكن بحماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار الدين يأوون إلى الأنصار حتى انتشر الإسلام وقوى وجعل يزداد شيئًا فشيئًا حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن والبلدان بالسيف والسنان، الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ وهذا لمحبتهم لله ورسوله، وأحبوا أحبابه وأحبوا من نصر دينه ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ أى: لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله وخصهم به من الفضائل والمناقب التى هم أهلها وهذا يدل على سلامة صدورهم وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها، ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل من الأنصار لأن الله قدمهم بالذكر وأخبر أن الأنصار لا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة، وقوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أى: ومن أوصاف الأنصار التى فاقوا بها غيرهم وتميزوا بها عمن سواهم الإيثار وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكى ومحبة لله تعالى مقدمة على شهوات النفس ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصارى الذى نزلت الآية بسببه حين آثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا جياعًا، والإيثار عكسه الأثرة، فالإيثار محمود والأثرة مذمومة لأنها من خصال البخل والشح، ومن رُزق الإيثار فقد وُقِىَ شح نفسه ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ووقاية شح النفس يشمل وقايتها الشح فى جميع ما أمر به، فإنه إذا وُقِىَ العبد شُحَّ نفسه سَمحت نفسه بأوامر الله ورسوله ففعلها طائعًا منقادًا منشرحًا بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه وإن كان محبوبًا للنفس تدعو إليه وتتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال فى سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم يوق شح نفسه بل ابتلى بالشح بالخير الذى هو أصل الشر ومادته، فهذان الصنفان الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم وأدركوا به من قبلهم فصاروا أعيان المؤمنين وسادات المسلمين وقادات المتقين، وحَسْبُ مَنْ بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم ويأتم بهداهم، ولهذا ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم فقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أى: من بعد المهاجرين والأنصار ﴿ يَقُولُونَ ﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين من السابقين من الصحابة ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض ويدعو بعضهم لبعض بسبب المشاركة فى الإيمان المقتضى لعقد الأخوة بين المؤمنين التى من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض وأن يحب بعضهم بعضًا، ولهذا ذكر الله فى هذا الدعاء نَفْىَ الغل عن القلب الشامل لقليله وكثيره الذى إذا انتفى ثبت ضده وهو: المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين، فوصف الله مَنْ بعد الصحابة بالإيمان لأن قولهم: ﴿ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ دليل على المشاركة فيه وأنهم تابعون للصحابة فى عقائد الإيمان وأصوله وهم أهل السنة والجماعة الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها واستغفار بعضهم لبعض واجتهادهم فى إزالة الغل والحقد لإخوانهم المؤمنين لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا ومتضمن لمحبة بعضهم بعضًا وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه وأن ينصح له حاضرًا وغائبًا حيًا وميتًا، ودلت الآية الكريمة على أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين دالين على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم الذى من جملته بل أجله توفيقهم للقيام بحقوقه وحقوق عباده، فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة وهم المستحقون للفىء الذى مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام، وهؤلاء أهله الذين همْ أهله، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه، ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين أطمعوا إخوانهم من أهل الكتاب فى نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين وأنهم يقولون لهم: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ أى: لا نطيع فى عدم نصرتكم أحدًا يعذلنا أو يخوفنا ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى هذا الوعد الذى غروا به إخوانهم، ولا يستكثر هذا عليهم فإن الكذب وصفهم والغرور والخداع مقارنهم والنفاق والجبن يصحبهم ولهذا كذبهم الله بقوله الذى وجد مخبره كما

أخبر به ووقع طبق ما قال، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾ أي: من ديارهم جلاء ونفيًا ﴿لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ لمحبتهم للأوطان وعدم صبرهم على القتال وعدم وفائهم بالوعد ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ﴾ بل يستولى عليهم الجبن ويملكهم الفشل ويخذلون إخوانهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ أي: سيحصل منهم الإدبار عن القتال والنصرة ولا يحصل لهم نصر من الله، والسبب الذى حملهم على ذلك أنكم - أيها المؤمنين - ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ فخافوا منكم أعظم مما يخافون من الله، وقدموا مخافة المخلوق الذى لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا على مخافة الخالق الذى بيده الضر والنفع والعطاء والمنع ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ مراتب الأمور ولا يعرفون حقائق الأشياء ولا يتصورون العواقب وإنما الفقه كل الفقه أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمًا على غيره وغيرها تبعًا لها ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: فى حال الاجتماع ﴿إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي: لا يثبتون على قتالكم ولا يعزمون عليه إلا إذا كانوا متحصنين فى القرى أو من وراء الجدر والأسوار، فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع اعتمادًا على حصونهم وجدرهم لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: بأسهم فيما بينهم شديد لا آفة في أبدانهم ولا فى قوتهم وإنما الآفة فى ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم ولهذا قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين ﴿وَ﴾ لكن ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي: متباغضة متفرقة متشتتة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا عقل عندهم ولا لب فإنهم لو كانت لهم عقول لآثروا الفاضل على المفضول ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين ولكانت كلمتهم مجتمعة وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون ويتعاونون على مصالحهم الدينية والدنيوية مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب الذين انتصر الله لرسوله منهم وأذاقهم الخزى فى الحياة الدنيا وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم وقال: ﴿لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ﴾ فغرتهم أنفسهم وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب حتى أتوا «بَدْرًا» بفخرهم وخيلائهم ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم، فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم فقتلوا كبارهم وصناديدهم وأسروا من أسروا منهم وفر من فر، وبذلك ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا فى الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر وحصل له الشقاء لم ينفعه الشيطان الذى تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه بل تبرأ منه و ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ليس لى قدرة على دفع العذاب عنك ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ أي: الداعى الذى هو الشيطان والمدعو الذى هو الإنسان حين أطاعه ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين اشتركوا فى الظلم والكفر وإن اختلفوا فى شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه فإنه يدعوهم ويدليهم بغرور إلى ما يضرهم حتى إذا وقعوا فى الشباك وحاق بهم أسباب الهلاك تبرأ منهم وتخلى عنهم، واللوم كل اللوم على من أطاعه فإن الله قد حذر منه وأنذر وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته فالمقدم على طاعته عاص على بصيرة لا عذر له.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

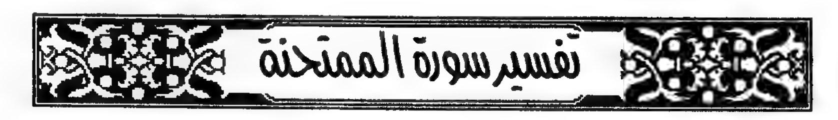
يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه سرًا وعلانية فى جميع الأحوال وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وحدوده وينظروا ما لهم وما عليهم وماذا حصلوا عليه من الأعمال التى تنفعهم أو تضرهم فى يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم واهتموا للمقام بها اجتهدوا فى كثرة الأعمال الموصلة إليها وتصفيتها من القواطع والعوائق التى توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضًا أن الله خبير بما يعملون لا تخفى عليه أعمالهم ولا تضيع لديه ولا يهملها أوجب لهم الجد والاجتهاد، وهذه الآية الكريمة أصل فى محاسبة العبد نفسه وأنه ينبغى له أن يتفقدها فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه والتوبة النصوح والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرًا فى أمر من أوامر الله بذل جهده واستعان بربه فى تتميمه وتكميله وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء لا محالة، والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر ويشابه قومًا نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل بل أنساهم الله مصالح أنفسهم وأغفلهم عن منافعها وفوائدها فصار أمرهم فرطًا فرجعوا بخسارة الدارين وغبنوا غبنًا لا يمكن تداركه ولا يجبر كسره لأنهم هم الفاسقون الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا فى معاصيه، فهل يستوى من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده فاستحق جنات النعيم والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكره ونسى حقوقه فشقى فى الدنيا واستحق العذاب فى الآخرة، فالأولون هم الفائزون والآخرون هم الخاسرون، ولما بيَّن تعالى لعباده ما بين وأمر عباده ونهاهم فى كتابه العزيز كان هذا موجبًا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه ولو كانوا فى القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسى فإن هذا القرآن لو أُنزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله، أى: لكمال تأثيره فى القلوب فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها وهى من أسهل شىء على النفوس وأيسرها على الأبدان خالية من التكلف لا تناقض فيها ولا اختلاف ولا صعوبة فيها ولا اعتساف تصلح لكل زمان ومكان وتليق لكل أحد، ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال ويوضح لعباده الحلال والحرام لأجل أن يتفكروا فى آياته ويتدبروها فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم ويبين له طرق الخير والشر ويحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ويزجره عن مساوئ الأخلاق فلا أنفع للعبد من التفكير فى القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى عظيمة الشأن وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود الذى لا إله إلا هو وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام، وكل إله غيره فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة لأنه فقير عاجز ناقص لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه وبعموم رحمته التى وسعت كل شىء ووصلت إلى كل حى، ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها وأنه المالك لجميع الممالك فالعالم العلوى والسفلى وأهله: الجميع مماليك لله فقراء مدبرون ﴿الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ أى: المقدس السالم من كل عيب ونقص، المعظم الممجد لأن القدوس يدل على التنزيه من كل نقص والتعظيم لله فى أوصافه وجلاله ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أى: المصدق لرسله وأنبيائه بما جاءوا به بالآيات البينات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذى لا يُغالَب ولا يمانع بل قد قهر كل شىء وخضع له كل شىء ﴿الْجَبَّارُ﴾ الذى قهر جميع العباد وأذعن له سائر

الخلق الذى يجبر الكسير ويغني الفقير ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذى له الكبرياء والعظمة المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ لجميع المخلوقات ﴿الْبَارِئُ﴾ للمبروءات ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ للمصورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير وأن ذلك كله قد انفرد الله به لم يشاركه فيه مشارك ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أى: له الأسماء الكثيرة جدًا التى يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو، ومع ذلك فكلها حسنى أى: صفات كمال بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها لا نقص فى شىء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن الله يحبها ويحب من يحبها ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها، ومن كماله وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا وأن جميع من فى السموات والأرض مفتقرون إليه على الدوام يسبحون بحمده ويسألونه حوائجهم فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذى لا يريد شيئًا إلا ويكون، ولا يكون شيئًا إلا لحكمة ومصلحة.

تم تفسير سورة الحشر ـ والحمد لله وحده



تفسير سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٦) عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٩) ﴾

ذكر كثير من المفسرين رحمهم الله أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات فى قصة حاطب بن أبى بلتعة حين غزا النبى ﷺ غزاة الفتح فكتب حاطب إلى المشركين من أهل مكة يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم ليتخذ بذلك يدًا عندهم لا شكًا ونفاقًا وأرسله مع امرأة، فأخبر النبى ﷺ بشأنه فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب وعاتب حاطبًا فاعتذر بعذر قبله النبى ﷺ، وهذه الآيات فيها النهى الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم وإلقاء المودة إليهم وأن ذلك مناف للإيمان ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذى يوجب الحذر كل الحذر من العدو والذى لا يبقى من مجهوده فى العداوة شيئًا وينتهز الفرصة فى إيصال الضرر إلى عدوه فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى اعملوا بمقتضى

إيمانكم من ولاية من قام بالإيمان ومعاداة من عاداه فإنه عدو لله وعدو للمؤمنين ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي﴾ عدو الله ﴿وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أى: تسارعون فى مودتهم والسعى فى أسبابها فإن المودة إذا حصلت تبعتها النصرة والموالاة فخرج العبد من الإيمان وصار من جملة أهل الكفران، وهذا المتخذ للكافر وليًا عادم المروءة أيضًا فإنه كيف يوالى أعدى أعدائه الذى لا يريد له إلا الشر ويخالف ربه ووليه الذى يريد به الخير ويأمره به ويحثه عليه؟! ومما يدعو المؤمن أيضًا إلى معاداة الكفار أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة فإنهم قد كفروا بأصل دينكم وزعموا أنكم ضُلَّال على غير هدى، والحال أنهم كفروا بالحق الذى لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله بل مجرد العلم بالحق يدل على بطلان قول من رده وفساده، ومن عداوتهم البليغة أنهم ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أيها المؤمنون من دياركم ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم فى ذلك عندهم إلا ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الذى يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته لأنه رباهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فلما أعرضوا عن هذا الأمر الذى هو أوجب الواجبات وقمتم به عادوكم وأخرجوكم ـ من أجله ـ من دياركم، فأى دين وأى مروءة وعقل يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم فى كل زمان أو مكان؟!! ولا يمنعهم منه إلا خوف أو مانع قوى ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أى: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله وابتغاء رضاه فاعملوا بمقتضى هذا من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه فإن هذا من أعظم الجهاد في سبيله ومن أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى الله ويبتغون به رضاه ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ أى: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟! فهو وإن خفى على المؤمنين فلا يخفى على الله تعالى وسيجازى العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أى: موالاة الكافرين بعدما حذركم الله منها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لأنه سلك مسلكًا مخالفًا للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية، ثم بيَّن تعالى شدة عداوتهم تهييجًا للمؤمنين على عداوتهم فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أى: يجدوكم وتسنح لهم الفرصة فى أذاكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ ظاهرين ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والضرب ونحو ذلك ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ أى: بالقول الذى يسوء من شتم وغيره ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم، فإن احتججتم وقلتم نوالى الكفار لأجل القرابة والأموال ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ من الله شيئًا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أى: قدوة صالحة وائتمام ينفعكم ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح فقالوا: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا﴾ أى: ظهر وبان ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ أى: البغض بالقلوب وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم مستمرين على كفركم ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ أى: فإذا آمنتم بالله وحده زالت العداوة والبغضاء وانقلبت مودة وولاية، فلكم أيها المؤمنون أسوة حسنة فى إبراهيم ومن معه فى القيام بالإيمان والتوحيد ولوازم ذلك ومقتضياته وفى كل شىء تعبدوا به الله وحده ﴿إِلَّا﴾ فى خصلة واحدة وهى ﴿قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر المشرك الكافر المعاند حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد فامتنع فقال إبراهيم له: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ﴾ الحال أنى ﴿مَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ولكنى أدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيًا، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم فى هذه الحالة التى دعا بها للمشرك فليس لكم أن تدعوا للمشركين وتقولوا: إنا فى ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم فى ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ الآية، ولكم أسوة حسنة فى إبراهيم ومن معه حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه واعترفوا بالعجز والتقصير فقالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أى: اعتمدنا عليك فى جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا ووثقنا بك يا ربنا فى ذلك ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أى: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك

وجميع ما يقرب إليك فنحن في ذلك ساعون وبفعل الخيرات مجتهدون ونعلم أنَّا إليك نصير فنستعد للقدوم عليك ونعمل ما يزلفنا إليك ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا فيفتنونا ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان ويفتنون أيضًا بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة ظنوا أنهم على الحق وأنَّا على الباطل فازدادوا كفرًا وطغيانًا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما اقترفنا من الذنوب والسيئات وما قصرنا به من المأمورات ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك وحكمتك انصرنا على أعدائنا واغفر لنا ذنوبنا وأصلح عيوبنا، ثم كرر الحث على الاقتداء بهم وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة وإنما تسهل ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب يسهل على العبد كل عسير ويقلل لديه كل كثير ويوجب له الاقتداء بعباد الله الصالحين والأنبياء والمرسلين فإنه يرى نفسه مفتقرًا مضطرًا إلى ذلك غاية الاضطرار ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله والتأسي برسل الله فلن يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه ﴿الْحَمِيدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله فإنه محمود على ذلك كله، ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر بها المؤمنين للمشركين ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان فإن الحكم يدور مع علته والمودة الإيمانية ترجع، فلا تيأسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، فـ ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على كل شيء ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ولا عيب أن يستره ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وفي هذه الآية إشارة وبشارة بإسلام بعض المشركين الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين وقد وقع ذلك ولله الحمد والمنة، ولما نزلت هذه الآيات الكريمات المهيجة على عداوة الكافرين وقعت من المؤمنين كل موقع وقاموا بها أتم القيام وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم فقال: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة والمكافأة بالمعروف والقسط للمشركين من أقاربكم وغيرهم حيث كانوا بحال لم ينصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم فإن صلتهم في هذه الحالة لا محذور فيها ولا تبعة كما قال تعالى في الأبوين الكافرين إذا كان ولدهما مسلمًا: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: لأجل دينكم، عداوة لدين الله ولمن قام به ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا﴾ أي: عاونوا غيرهم ﴿عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ نهاكم الله ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بالنصرة والمودة بالقول والفعل وأما بركم وإحسانكم الذي ليس بتولٍّ للمشركين فلم ينهكم الله عنه بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين وغيرهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ منكم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي فإن كان توليًا تامًا كان ذلك كفرًا مخرجًا عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ وما هو دونه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

لما كان صلح الحديبية صالح النبى ﷺ المشركين على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلمًا أنه يرد إلى المشركين وكان هذا لفظًا عامًا مطلقًا يدخل فى عمومه النساء والرجال، فأما الرجال فإن الله لم ينْهَ رسوله عن ردهم إلى الكفار وفاء بالشرط وتتميمًا للصلح الذى هو من أكبر المصالح، وأما النساء فلما كان ردهن فيه مفاسد كثيرة أمر المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات وشكُّوا فى صدق إيمانهن أن يمتحنوهن ويختبروهن بما يظهر به صدقهن من أيمان مغلظة وغيرها فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة فى زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية، فإن كن بهذا الوصف تعين ردهن وفاء بالشرط من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات أو علموا ذلك منهن من غير امتحان فلا يرجعوهن إلى الكفار ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فهذه مفسدة كبيرة راعاها الشارع وراعى أيضًا الوفاء بالشرط بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضًا عنهن، ولا جناح حينئذ على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج فى دار الشرك ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم ما دامت على كفرها غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ وإذا نهى عن الإمساك بعصمتها فالنهى عن ابتداء تزويجها أولى ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ﴾ أيها المؤمنون حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم استحق المسلمون أن يأخذوا مقابله ما ذهب من زوجاتهم إلى الكفار، وفى هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره كان عليه ضمان المهر، وقوله ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ أى: ذلكم الحكم الذى ذكره الله هو حكم الله بيَّنَهُ لكم ووضحه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيعلم تعالى ما يصلح لكم من الأحكام فيشرعه بحسب حكمته ورحمته، وقوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ بأن ذهبن مرتدات ﴿فَعَاقَبْتُمْ[1] فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنيمة بدل ما أنفق ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإيمانكم بالله يقتضى منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

هذه الشروط المذكورة فى هذه الآية تسمى «مبايعة النساء» اللاتى كن يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة

(١) قوله: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أى: فغزوتم وغنمتم ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم﴾ من الغنيمة ﴿مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ لفواته عليهم من جهة الكفار ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وقد فعل المؤمنون ما أمروا به من الإيتاء للكفار والمؤمنين، ثم ارتفع الحكم. اهـ من الجلالين، وفى تفسير النسفى: «إن انفلت أحد منهم إلى الكفار ـ وهى قراءة ابن مسعود ﷺ (أحد) ـ (فعاقبتم) فأصبتموهم فى القتال بعقوبة حتى غنمتم ـ عن الزجاج ـ (فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) فأعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم ولحقن بدار الحرب مهور زوجاتهم من هذه الغنيمة، وقيل: هذا الحكم منسوخ أيضًا. اهـ. وفى تفسير أبى السعود: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ أى: وانفلت منكم ﴿شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أى: أحد من أزواجكم، وقد قرئ كذلك (وهى قراءة ابن مسعود) وإيقاع «شىء» موقعه للتحقير والإشباع فى التعميم أو شىء من مهور أزواجكم ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أى: فجاءت عقبتكم أى: نوبتكم من أداء المهر، شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين. من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة، وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى، بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب فى الركوب وغيره ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ من مهر المهاجرة التى تزوجتموها ولا تؤتوه زوجها الكافر، وقيل: معناه إن فاتكم فأصبتم من الكفار عقبى، هى الغنيمة، فآتوا بدل الفائت من الغنيمة، وقرئ «فأعقبتم» و «فعقبتم» بتشديد القاف و «فعقبتم» بالتخفيف وفتح القاف وكسرها.

وقيل: جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة: أم الحكم بنت أبى سفيان، وفاطمة بنت أمية، وبروع بنت عقبة، وعبدة بنت عبد العزى، وهند بنت أبى جهل، وكلثوم بنت جرو. اهـ.

التى تجب على الذكور والنساء فى جميع الأوقات، وأما الرجال فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم فكان النبى ﷺ يمتثل ما أمره الله، فكان إذا جاءته النساء يبايعنه والتزمن بهذه الشروط بايعهن وجبر قلوبهن واستغفر لهن الله فيما يحصل منهن من التقصير وأدخلهن فى جملة المؤمنين ﴿عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ بل يفردن الله وحده بالعبادة ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ كما يجرى لنساء الجاهلية الجهلاء «من وأد البنات» ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ كما كان ذلك موجود كثيراً فى البغايا وذوات الأخدان ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ (١) والبهتان: الافتراء على الغير أى: لا يفترين بكل حالة سواء تعلقت بهن مع أزواجهن أو تعلق ذلك بغيرهم ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أى: لا يعصينك فى كل أمر تأمرهن به لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف ومن ذلك طاعتهن لك فى النهى عن النياحة وشق الجيوب وخمش الوجوه والدعاء بدعوى الجاهلية ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ إذا التزمن بجميع ما ذكر ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ عن تقصيرهن وتطييبًا لخواطرهن ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ أى: كثير المغفرة للعاصين والإحسان إلى المذنبين التائبين ﴿رَّحِيمٌ﴾ وسعت رحمته كل شىء وعم إحسانه البرايا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) ﴾

أى: يأيها المؤمنون إن كنتم مؤمنين بربكم ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم وهذا شامل لجميع أصناف الكفار ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أى: قد حرموا من خير الآخرة فليس لهم منها نصيب فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وشركهم فتحرموا خير الآخرة كما حرموا، وقوله ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ حين أفضوا إلى الدار الآخرة وشاهدوا حقيقة الأمر وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها، ويحتمل أن المعنى قد يئسوا من الآخرة أى: قد أنكروها وكفروا بها فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة كما يئس الكفار المنكرون للبعث فى الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة الممتحنة ـ والله أعلم



تفسير سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾

وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره وذل جميع الأشياء له تبارك وتعالى وأن جميع من فى السموات والأرض يسبحون بحمد ربهم ويعبدونه ويسألونه حوائجهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى قهر الأشياء بعزته وسلطانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى خلقه وأمره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أى: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون متصفون به، فهل تليق بالمؤمنين

---

(١) قوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أى: لا يلحقن بأزواجهن من ليس من أولادهم، بهتانًا وكذبًا يختلقنه بين أيديهن وأرجلهن، كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدى منك، كنّى عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها، لأن بطنها الذى تحمله بين يديها، ومخرجه بين رجليها. اهـ. أبو السعود.

هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس مبادرة إليه والناهى عن الشر أن يكون أبعد الناس عنه، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾

هذا حث من الله لعباده على الجهاد فى سبيله وتعليم لهم كيف يصنعون وأنهم ينبغى لهم أن يصفوا فى الجهاد صفًا متراصًا متساويًا من غير خلل يحصل فى الصفوف وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضًا، ولهذا كان النبى ﷺ إذا حضر القتال صف أصحابه ورتبهم فى مواقفهم بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

أى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ موبخًا لهم على صنيعهم ومقرعًا لهم على أذيته وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ والرسول من حقه الإكرام والإعظام والقيام بأوامره والابتدار لحكمه، وأما أذية الرسول الذى إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله ففى غاية الوقاحة والجراءة والزيغ عن الصراط المستقيم الذى قد علموه وتركوه، لهذا قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أى: انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذى اختاروه لأنفسهم ورضوه لها ولم يوفقهم الله للهدى لأنهم لا يليق بهم الخير ولا يصلحون إلا للشر ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: الذين لم يزل الفسق وصفًا لهم ليس لهم قصد فى الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعبيده ليس ظلمًا منه ولا حجة لهم عليه وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ وتقليب القلوب عقوبة لهم وعدلاً منه بهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن عناد بنى إسرائيل المتقدمين الذين دعاهم عيسى ابن مريم وقال لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أى: أرسلنى الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر وأيدنى بالبراهين الظاهرة، ومما يدل على صدقى كونى ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أى: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية ولو كنت مدعيًا للنبوة غير صادق فى دعواى لجئت بغير ما جاء به المرسلون، ومصدقًا لما بين يدى من التوراة أيضًا أنها أخبرت بى وبشرت فجئت وبعثت مصدقًا لها ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، النبى الهاشمى، فعيسى عليه الصلاة والسلام كسائر الأنبياء يصدق بالنبى السابق ويبشر بالنبى اللاحق بخلاف الكذابين فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة ويخالفونهم فى الأوصاف

والأخلاق والأمر والنهى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ محمد ﷺ الذى بشر به عيسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: الأدلة الواضحة الدالة على أنه هو وأنه رسول الله حقًا ﴿قَالُوا﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذى قد وضحت رسالته وصارت أبين من شمس النهار يجعل ساحرًا بينًا سحره فهل فى الخذلان أعظم من هذا؟ وهل فى الافتراء أبلغ من هذا الافتراء الذى نفى عنه ما كان معلومًا من رسالته وأثبت له ما كان أبعد الناس عنه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بهذا أو غيره، والحال أنه لا عذر له وقد انقطعت حجته لأنه ﴿يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ وتبين له براهينه وبيناته ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين لا تردهم عنه موعظة ولا يزجرهم بيان ولا برهان خصوصًا هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه ولينصروا الباطل ولهذا قال عنهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أى: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة التى يردون بها الحق وهى لا حقيقة لها بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أى: قد تكفل الله بنصر دينه وإتمام الحق الذى أرسل به رسله وإظهار نوره فى سائر الأقطار ولو كره الكافرون وبذلوا - بسبب كراهته - كل ما قدروا عليه مما يتوصلون به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون، ومثلهم كمثل من ينفخ عين الشمس بفيه ليطفئها فلا على مرادهم حصلوا ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها، ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامى الحسى والمعنوى فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أى: بالعلم النافع والعمل الصالح بالعلم: الذى يهدى إلى الله وإلى دار كرامته ويهدى لأحسن الأعمال والأخلاق ويهدى إلى مصالح، الدنيا والآخرة ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أى: الدين الذى يدان به ويتعبد لرب العالمين الذى هو حق وصدق لا نقص فيه ولا خلل يعتريه بل أوامره غذاء القلوب والأرواح وراحة الأبدان، وترك نواهيه سلامة من الشر والفساد، فما بعث به النبى ﷺ من الهدى ودين الحق أكبر دليل وبرهان على صدقه وهو برهان باق ما بقى الدهر كلما ازداد العاقل تفكرًا ازداد به فرحًا وتبصرًا ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان فأما نفس الدين فهذا الوصف ملازم له فى كل وقت فلا يمكن أن يغالبه مغالب أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه فإنهم إذا قاموا به واستناروا بنوره واهتدوا بهديه فى مصالح دينهم ودنياهم فكذلك لا يقوم لهم أحد ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه لم ينفعهم ذلك وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا من استقرأ الأحوال والنظر فى أول المسلمين وآخرهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين لأعظم تجارة وأجل مطلوب وأعلى مرغوب يحصل بها النجاة من العذاب الأليم والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل معتبر ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التى هذا قدرها؟ فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به المستلزم لأعمال الجوارح التى من أجلها الجهاد فى سبيله، فلهذا قال: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام والقصد: رفعة دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم فى ذلك المطلوب فإن ذلك وإن كان كريهًا للنفوس شاقًا عليها فإنه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فإن فيه الخير الدنيوى من النصر

على الأعداء والعز المنافى للذل والرزق الواسع وسعة الصدر وانشراحه، والخير الأخروى بالفوز بثواب الله والنجاة من عقابه ولهذا ذكر الجزاء فى الآخرة فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وهو شامل للصغائر والكبائر فإن الإيمان بالله والجهاد فى سبيله مكفر للذنوب ولو كانت كبائر ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: من تحت مساكنها وقصورها وغرفها وأشجارها، أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى: جمعت كل طيب من علو وارتفاع وحسن بناء وزخرفة، حتى إن أهل الغرف من أهل عليين يتراءاهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدرى فى الأفق الشرقى أو الغربى، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب وبعضه من لبن فضة وخيامها من اللؤلؤ والمرجان وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتى عليه وصف الواصفين ولا خطر على قلب أحد من العالمين لا يمكن أن يدركوه حتى يروه ويتمتعوا بحسنه وتقر به أعينهم، ففى تلك الحالة لولا أن الله خلق أهل الجنة وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم لأوشك أن يموتوا من الفرح فسبحان من لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى عليه أحد من خلقه، وتبارك الجليل الجميل الذى أنشأ دار النعيم وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم، وتعالى من له الحكمة التامة الذى من جملتها أنه لو رأى العباد الجنة ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد ولما هنأهم العيش فى هذه الدار المنغصة المشوب نعيمها بألمها وفرحها بترحها، وسميت جنة عدن لأن أهلها مقيمون فيها لا يخرجون منها أبدًا ولا يبغون عنها حولاً ذلك الثواب الجزيل والأجر الجميل هو الفوز العظيم الذى لا فوز مثله فهذا الثواب الأخروى، وأما الثواب الدنيوى لهذه التجارة فذكره بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أى: يحصل لكم خصلة أخرى تحبونها وهى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ لكم على الأعداء يحصل به العز والفرح ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ تتسع به دائرة الإسلام ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد إذا قام غيرهم بالجهاد فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى بالثواب العاجل والآجل كل على حسب إيمانه وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين فى سبيل الله، كما قال النبى ﷺ: «من رضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد الخدرى راوى الحديث فقال: أعدها عَلَىَّ يا رسول الله، فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» فقال: وما هى يا رسول الله؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله» رواه مسلم، ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾ أى: بالأقوال والأفعال وذلك بالقيام بدين الله والحرص على تنفيذه على الغير وجهاد من عانده ونابذه بالأبدان والأموال وجهاد من نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق بدحض حجته وإقامة الحجة عليه والتحذير منه، ومن نصر دين الله تَعَلُّمُ كتاب الله وسنة رسوله والحث على ذلك والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ﴾ أى: قال لهم منبهًا: من يعاوننى ويقوم معى فى نصر دين الله ويدخل مدخلى ويخرج مخرجى؟ فابتدر الحواريون فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ فمضى عيسى عليه السلام على نصر دين الله هو ومن معه من الحواريين ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ بسبب دعوة عيسى والحواريين ﴿وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ منهم فلم ينقادوا لدعوتهم فجاهد المؤمنون الكافرين ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أى: قويناهم ونصرناهم عليهم ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ عليهم قاهرين لهم، فأنتم يا أمة محمد كونوا أنصار الله ودعاة دينه ينصركم الله كما نصر من قبلكم ويظهركم على عدوكم.

تم تفسير سورة الصف ـ والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤ ﴾

أى: يسبح لله وينقاد لأمره ويتألهه ويعبده جميع ما فى السموات والأرض لأنه الكامل الملك الذى له ملك العالم العلوى والسفلى فالجميع مماليكه وتحت تدبيره ﴿الْقُدُّوسِ﴾ المعظم المنزه عن كل آفة ونقص ﴿الْعَزِيزِ﴾ القاهر للأشياء كلها ﴿الْحَكِيمِ﴾ فى خلقه وأمره، فهذه الأوصاف العظيمة تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً﴾ المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالى عليهم منة عظيمة أعظم من منته على غيرهم لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا من قبل فى ضلال مبينٍ يتعبدون للأصنام والأشجار والأحجار ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية يأكل قويهم ضعيفهم، وقد كانوا فى غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولاً منهم يعرفون نسبه وأوصافه الجميلة وصدقه وأنزل عليه كتابه ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بأن يفصل لهم الأخلاق الفاضلة ويحثهم عليها ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أى: علم الكتاب والسنة المشتمل على علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية من أعلم الخلق بل كانوا أئمة أهل العلم والدين وأكمل الخلق أخلاقًا وأحسنهم هديًا وسمتًا اهتدوا بأنفسهم وهدوا غيرهم فصاروا أئمة المهتدين وقادة المتقين، فلله تعالى عليهم ببعثة هذا الرسول ﷺ أكمل نعمة وأجل منحة، وقوله: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أى: وامتن على آخرين من غيرهم، أى: من غير الأميين ممن يأتى بعدهم ومن أهل الكتاب لما يلحقوا بهم أى: فيمن باشر دعوة الرسول، ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم فى الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم فى الزمان، وعلى كلٍّ فكلا المعنيين صحيح، فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحدًا أن يلحقهم فيها، وهذا من عزته وحكمته حيث لم يترك عباده هملاً ولا سدًى بل ابتعث فيهم الرسل وأمرهم ونهاهم وذلك من فضله العظيم الذى يؤتيه من يشاء من عباده وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق وغير ذلك من النعم الدنيوية، فلا أعظم من نعمة الدين التى هى مادة الفوز والسعادة الأبدية.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾

لما ذكر تعالى منته على هذه الأمة الذين بعث فيهم النبى الأمى وما خصهم الله من المزايا والمناقب التى لا يلحقهم فيها أحد، وهم الأمة الأمية الذين فاقوا الأولين والآخرين حتى أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم

العلماء الربانيون والأحبار المتقدمون ذكر[1] أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود والنصارى وأمرهم أن يتعلموها ويعملوا بها فلم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به أنهم لا فضيلة لهم وأن مثلهم كمثل الحمار الذى يحمل فوق ظهره أسفاراً من كتب العلم، فهل يستفيد الحمار من تلك الكتب التى فوق ظهره؟ وهل تلحقه فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء أهل الكتاب الذين لم يعملوا بما فى التوراة الذى من أجلّه وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ والبشارة به والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على صدق رسولنا وصحة ما جاء به ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: لا يرشدهم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفًا والعناد لهم نعتًا، ومن ظلم اليهود وعنادهم أنهم يعلمون أنهم على باطل ويزعمون أنهم على حق وأنهم أولياء الله من دون الناس، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم على الحق وأولياء الله ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدى الذى جعله الله دليلاً على صدقهم إن تمنوه وكذبهم إن لم يتمنوه، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: من الذنوب والمعاصى التى يستوحشون من الموت من أجلها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شىء، هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم بل يفرون منه غاية الفرار فإن ذلك لا ينجيهم بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذى قد حتمه الله على العباد، ثم بعد الموت واستكمال الآجال يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة فينبئهم بما كانوا يعملون من خير وشر قليل وكثير.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَـٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

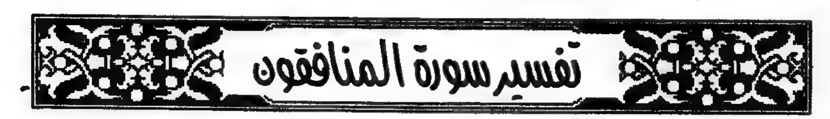
يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها من حين يُنادَى إليها والسعى إليها والمراد بالسعى هنا: المبادرة والاهتمام وجعلها أهم الأشغال: لا البيع الذى قد نهى عنه عند المضى إلى الصلاة وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أى: اتركوا البيع إذا نودى للصلاة وامضوا إليها فإن ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع أو تفويتكم لصلاة الفريضة التى هى من آكد الفروض ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: ما عند الله خير وأبقى وأن من آثر الدنيا على الدين فقد خسر الخسارة الحقيقية من حيث يظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال بالتجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله أمر بالإكثار من ذكره لينجبر بهذا فقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أى: فى حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أى: خرجوا من المسجد حرصًا على ذلك اللهو وتلك التجارة وتركوا الخير ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ تخطب الناس وذلك فى يوم الجمعة بينما النبى ﷺ يخطب الناس إذ قدم المدينة عير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم فى المسجد انفضوا من المسجد وتركوا النبى ﷺ يخطب استعجالاً لما لا ينبغى أن يستعجل له وترك أدب ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الأجر والثواب لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة الله ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ التى وإن حصل منها بعض المقاصد فإن ذلك قليل منقض مفوت لخير الآخرة وليس الصبر على طاعة الله مفوتًا للرزق ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب، وفى هذه الآيات فوائد عديدة:

---

(١) قوله «ذكر» جواب «لما» فى قوله المتقدم «لما ذكر».

منها: أن الجمعة فريضة على المؤمنين يجب عليهم السعى إليها والمبادرة والاهتمام بشأنها، ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة فريضة يجب حضورهما لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين فأمر الله بالمضى إليه والسعى له، ومنها: مشروعية النداء للجمعة والأمر به ومنها: النهى عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة وتحريم ذلك وما ذاك إلا أن يفوت الواجب ويشغل عنه، فدل ذلك على أن كل أمر وإن كان مباحًا فى الأصل إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب فإنه لا يجوز فى تلك الحال، ومنها: الأمر بحضور الخطبتين يوم الجمعة وذم من لم يحضرهما ومن لازم ذلك الإنصات لهما، ومنها: أنه ينبغى للعبد المقبل على عبادة الله وقت دواعى النفس لحضور اللهو والتجارات والشهوات أن يذكرها بما عند الله من الخيرات وما لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة بمن الله وعونه، والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)﴾

لما قدم النبى ﷺ المدينة وكثر الإسلام فيها وعز، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ليبقى جاههم وتحقن دماؤهم وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون لكى يحذرهم العباد ويكونوا منهم على بصيرة فقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا﴾ على وجه الكذب ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق مع أنه لا حاجة لشهادتهم فى تأييد رسوله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فى قولهم ودعواهم وأن ذلك ليس بحقيقة منهم ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أى: ترسًا يتترسون بها من نسبتهم إلى النفاق ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأنفسهم وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم ﴿ذَلِكَ﴾ الذى زين لهم النفاق ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّهُمْ﴾ لا يثبتون على الإيمان بل ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بحيث لا يدخلها الخير أبدًا ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما ينفعهم ولا يعون ما يعود بمصالحهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من روائها ونضارتها ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أى: من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدى الصالح شىء، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ لا منفعة فيها ولا ينال منها إلا الضرر المحض ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم وريبها يخافون أن يطلع عليها، فهؤلاء: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ على الحقيقة، لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذى لا يشعر به وهو مخادع ماكر يزعم أنه ولىٌّ وهو العدو المبين ﴿فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أى: كيف يصرفون عن الدين الإسلامى بعدما تبينت أدلته واتضحت معالمه إلى الكفر الذى لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أى: لهؤلاء المنافقين: ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ عما

صدر منكم لتحسن أحوالكم وتقبل أعمالكم امتنعوا من ذلك أشد الامتناع ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ امتناعًا من طلب الدعاء من الرسول ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ عن الحق بغضًا له ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباعه بغيًا وعنادًا، فهذه حالهم عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول، وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله حيث لم يأتوا إليه فيستغفر لهم فإنه ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وذلك لأنهم قوم فاسقون خارجون عن طاعة الله مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول لو استغفر لهم كما قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ فإنهم - على زعمهم - لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجب أن يدعى هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين وأذية المسلمين مثل هذه الدعوى التي لا تروج إلا على من لا علم له بالحقائق، ولهذا قال تعالى ردًا لقولهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فيؤتي الرزق من يشاء ويمنعه من يشاء وييسر الأسباب لمن يشاء ويعسرها على من يشاء ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم وتحت مشيئتهم ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ وذلك في غزوة المريسيع حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر الخواطر ظهر حينئذ نفاق المنافقين وتبين ما في قلوبهم، وقال كبيرهم عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني المهاجرين - إلا كما قال القائل «سمِّنْ كلبك يأكلك» وقال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ بزعمه أنه هو وإخوانه المنافقين الأعزون وأن رسول الله ومن اتبعه هم الأذلون والأمر بعكس ما قال هذا المنافق فلهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار هم الأذلاء ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فلذلك زعموا أنهم الأعزاء اغترارًا بما هم عليه من الباطل، ثم قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره فإن في ذلك الربح والفلاح والخيرات الكثيرة وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس فتقدمها على محبة الله وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي يلهه ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ للسعادة الأبدية والنعيم المقيم لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ يدخل في هذا النفقات الواجبة من الزكاة والكفارات ونفقة الزوجات والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة كبذل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى لم يكلف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشق عليهم بل أمرهم بإخراج

(١) الفاسقين، أي: الكاملين في الفسق، الخارجين عن دائرة الاستصلاح، المنهمكين في الكفر والنفاق. اهـ. أبو السعود.

جزء مما رزقهم ويسره ويسر أسبابه، فليشكروا الذى أعطاهم بمواساة إخوانهم المحتاجين وليبادروا الذى إذا جاء لم يمكن العبد أن يأتى بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ﴾ متحسراً على ما فـرَّط فى وقت الإمكان سائلاً الرجعة التى هى محال: ﴿رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أى: لأتدارك ما فرّطت فيه ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ من مالى، ما به أنجو من العذاب وأستحق جزيل الثواب ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها واجتناب المنهيات، ويدخل فى هذا الحج وغيره، وهذا السؤال والتمني قد فات وقته ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ المحتوم لها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر فيجازيكم على ما عمله من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقون ـ ولله الحمد



تفسير سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)﴾

هذه الآيات الكريمات مشتملات على جملة كثيرة واسعة من أوصاف البارى العظيمة فذكر كمال ألوهيته سبحانه وسعة غناه وافتقار جميع الخلائق إليه وتسبيح من فى السموات والأرض بحمد ربها وأن الملك كله لله، فلا يخرج عن ملكه مخلوق، والحمد كله له حمد على ما له من صفات الكمال وحمد على ما أوجده من الأشياء وحمد على ما شرعه من الأحكام وأسداه من النعم، وقدرته شاملة لا يخرج عنها موجود فلا يعجزه شىء يريده وذكر أنه خلق العباد وجعل منهم المؤمن والكافر فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره وهو الذى شاء ذلك منهم بأن جعل لهم قدرة وإرادة بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١] فلما ذكر خلق الإنسان المأمور المنهى ذكر خلق باقى المخلوقات فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى: أجرامهما وجميع ما فيهما فأحسن خلقهما ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فالإنسان أحسن المخلوقات صورة وأبهاها منظراً ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: المرجع يوم القيامة فيجازيكم على إيمانكم وكفركم ويسألكم عن النعم والنعيم الذى أولاكم هل قمتم بشكره أم لم تقوموا به؟ ثم ذكر عموم علمه فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: من السرائر والظواهر والغيب والشهادة ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ[٢] وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما فيها من الأسرار الطيبة والخبايا الخبيثة والنيات الصالحة والمقاصد الفاسدة، فإذا كان عليماً بذات الصدور تعين على العاقل البصير أن يحرص ويجتهد فى حفظ باطنه من الأخلاق الرذيلة واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾

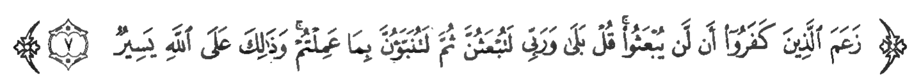
لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة ما به يعرف ويعبد ويبذل الجهد فى مرضاته وتجتنب مساخطه

---

(١) فيجازيكم بذلك فاختاروا منه ما يجديكم من الإيمان والطاعة، وإياكم وما يرديكم من الكفر والعصيان. اهـ. أبو السعود.

(٢) أى: ما تسرونه فيما بينكم، وما تظهرونه من الأمور.

أخبر بما فعل بالأمم السابقين والقرون الماضين الذين لم تزل أنباؤهم يتحدث بها المتأخرون ويخبر بها الصادقون وأنهم حين جاءتهم رسلهم بالحق كذبوهم وعاندوهم ﴿**فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ**﴾ في الدنيا وأخزاهم الله فيها ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ في الدار الآخرة، ولهذا ذكر السبب في هذه العقوبة فقال: ﴿**ذَلِكَ**﴾ النكال والوبال الذي أحللناه بهم ﴿**بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ أي: بالآيات الواضحات الدالة على الحق والباطل فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم فقالوا: ﴿**أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا**﴾ أي: ليس لهم فضل علينا ولأي شيء خصهم الله دوننا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ فهم حجروا فضل الله ومنته على أنبيائه أن يكونوا رسلاً للخلق واستكبروا على الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأشجار والأحجار ونحوها ﴿**فَكَفَرُوا**﴾ بالله ﴿**وَتَوَلَّوا**﴾ عن طاعته ﴿**وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ**﴾ عنهم، فلا يبالي بهم ولا يضره ضلالهم شيئًا ﴿**وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ أي: هو الغني الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.



يخبر تعالى عن عناد الكافرين وزعمهم الباطل وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم وجزائهم بأعمالهم الخبيثة وتكذيبهم بالحق ﴿**وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ فإنه وإن كان عسيرًا بل متعذرًا بالنسبة إلى الخلق فإن قواهم كلهم لو اجتمعت على إحياء ميت واحد ما قدروا على ذلك، وأما الله تعالى فإنه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، قال تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾

لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث وأن ذلك منهم موجب كفرهم بالله وآياته أمر بما يعصم من الهلكة والشقاء وهو الإيمان به وبرسوله وبكتابه، وسماه الله نورًا لأن النور ضد الظلمة فما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار أنوار يهتدى بها في ظلمات الجهل المدلهمة ويمشى بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله فهي علوم ضررها أكثر من نفعها وشرها أكثر من خيرها بل لا خير فيها ولا نفع إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه يقتضي الجزم التام واليقين الصادق بها والعمل بمقتضى ذلك التصديق من امتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٠ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ۝١٢ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٣﴾

يعني اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين ويوقفهم موقفًا هائلاً عظيمًا وينبئهم بما عملوا فحينئذ يظهر الفرق والتغابن بين الخلائق ويرفع أقوام إلى أعلى عليين في الغرف العاليات والمنازل المرتفعات المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين محل الهم والغم والحزن والعذاب الشديد وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: ﴿**ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ**﴾(١) أي: يظهر فيه

---

(١) أصل الغبن في اللغة المخادعة في البيع والشراء، واستعير هنا، بمعنى أن يغبن الناس بعضهم بعضًا، بنزول السعداء منازل الأشقياء التي =

التغابن والتفاوت بين الخلائق ويغبن المؤمنون الفاسقين ويعرف المجرمون أنهم على غير شىء وأنهم هم الخاسرون، فكأنه قيل: بأى شىء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟ فذكر أسباب ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ إيمانًا تامًا شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ من الفرائض والنوافل من أداء حقوق الله وحقوق عباده ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وتختاره الأرواح وتحن إليه القلوب ويكون نهاية كل مرغوب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: كفروا بها من غير مستند شرعى ولا عقلى بل جاءتهم الأدلة والبينات فكذبوا بها وعاندوا ما دلت عليه ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٢) لأنها جمعت كل بؤس وشدة وشقاء وعذاب، يقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٣) هذا عام لجميع المصائب فى النفس والمال والولد والأحباب ونحوهم فجميع ما أصاب العباد بقضاء الله وقدره قد سبق بذلك علم الله وجرى به قلمه ونفذت مشيئته واقتضته حكمته ولكن الشأن كل الشأن هل يقوم العبد بالوظيفة التى عليه فى هذا المقام أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها فله الثواب الجزيل والأجر الجميل فى الدنيا والآخرة فإذا آمن أنها من عند الله فرض بذلك وسلم لأمره هدى الله قلبه فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب كما يجرى ممن لم يهد الله قلبه بل يرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر فيحصل له بذلك ثواب عاجل مع ما يدخر له يوم الجزاء من الأجر العظيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وعلم من ذلك أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره بل وقف مع وجود الأسباب أنه يخذل ويكله الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الهلع والجزع الذى هو عقوبة عاجلة على العبد قبل عقوبة الآخرة على ما فرط فى واجب الصبر، هذا ما يتعلق بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فى مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظى فإن الله أخبر أن كل من آمن، أى: الإيمان المأمور به وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من لوازمه وواجباته أن هذا السبب الذى قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له فى أقواله وأفعاله وجميع أحواله وفى علمه، وعمله وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان كما قال تعالى - مخبراً - أنه يثبت المؤمنين فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وأصل الثبات ثبات القلب وصبره ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فأهل الإيمان أهدى الناس قلوبًا وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أى: فى امتثال أمرهما واجتناب نهيهما فإن طاعة الله وطاعة رسوله مدار السعادة وعنوان الفلاح ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى: عن طاعة الله وطاعة رسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أى: يبلغكم ما أرسل به إليكم بلاغًا بينًا واضحًا فتقوم عليكم به الحجة وليس بيده من هدايتكم ولا من حسابكم شىء، وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: هو المستحق للعبادة والألوهية فكل معبود سواه باطل ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: فليعتمدوا عليه فى كل أمر نابهم وفيما يريدون القيام به، فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاعتماد على طاعة الله، ولا يتم الاعتماد على الله حتى يحسن العبد ظنه بربه ويثق به فى كفايته الأمر الذى يعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله قوة وضعفًا.

= كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء وفى الحديث «ما من عبد يدخل الجنة إلا أُرِىَ مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلا أُرِىَ مقعده من بالجنة لو أحسن ليزداد حسرة» وتخصيص التغابن بذلك ايوم، للإيذان والإعلام، بزن التغابن - فى الحقيقة - هو الذى يقع فيه (أى: يوم القيامة) ا ما يقع فى أمور الدنيا - اهـ. أبو السعود، والنسفى بتصرف يسير.

(١) أى: الذى لا فوز وراءه لانطوائه على النجاة من أعظم الهلكات والظفر بأجل الطلبات. اهـ. أبو السعود.

(٢) أى: بالنار كأن هاتين الآيتين الكريمتين، بيان لكيفية التغابن. اهـ. أبو السعود.

(٣) أى: إلا بعلمه وتقديره ومشيئته، كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه. اهـ. نسفى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

هذا تحذير من الله للمؤمنين عن الاغترار بالأزواج والأولاد فإن بعضهم عدو لكم والعدو هو الذى يريد لك الشر فوظيفتك الحذر ممن هو صفته والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد التى فيها محذور شرعى، ورغبهم فى امتثال أوامره وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية والمحاب الغالية وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية، ولما كان النهى عن طاعة الأزواج والأولاد فيما هو ضرر على العبد والتحذير من ذلك قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم أمر تعالى بالحذر منهم والصفح عنهم والعفو فإن فى ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره فقال: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لأن الجزاء من جنس العمل فمن عفا عفا الله عنه ومن صفح صفح عنه، ومن عامل الله فيما يحب وعامل عباده بما يحبون وينفعهم نال محبة الله ومحبة عباده واستوثق له أمره.

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

يأمر تعالى بتقواه التى هى امتثال أوامره واجتناب نواهيه وقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة، فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد يسقط عنه وأنه إذا قدر على بعض الأمور وعجز عن بعضها فإنه يأتى بما قدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه كما قال النبى ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع ما لا يدخل تحت الحصر وقوله: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أى: اسمعوا ما يعظكم الله به وما يشرعه لكم من الأحكام واعلموا ذلك وانقادوا له ﴿وَأَطِيعُوا﴾ الله ورسوله فى جميع أموركم ﴿وَأَنفِقُوا﴾ من النفقات الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منكم ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ فى الدنيا والآخرة، فإن الخير كله فى امتثال أوامر الله وقبول نصائحه والانقياد لشرعه، والشر كله فى مخالفة ذلك ولكن ثَمَّ آفة تمنع كثيراً من الناس من النفقة المأمور بها وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس فإنها تشح المال وتحب وجوده وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ بأن تسمح بالإنفاق النافع لها ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لأنهم أدركوا المطلوب ونجوا من المرهوب بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد ونهى عنه، فإنه إن كانت نفسه شحيحة لا تنقاد لما أمرت به ولا تخرج ما قبلها «من النفقات المأمورة بها» لم يفلح بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفسًا سمحة مطمئنة منشرحة لشرع الله طالبة لمرضاته فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به ووصول معرفته إليها والبصيرة بأنه مُرضٍ لله وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز، ثم رغَّب تعالى فى النفقة فقال: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو: كل نفقة كانت فى الحلال، وإذا قصد بها العبد وجه الله تعالى ووضعها فى موضعها ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ يضاعف لكم النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿وَ﴾ مع المضاعفة أيضًا ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم فإن الذنوب تكفرها الصدقات والحسنات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه بل يمهله ولا يهمله ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ﴿وَاللَّهُ﴾ تعالى ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل من عباده اليسير من العمل ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال وأنواع التكاليف الثقال، ومن ترك شيئًا عوضه الله خيراً منه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: ما غاب عن العباد من

الجنود التى لا يعلمها إلا هو وما يشاهدونه من المخلوقات ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذى لا يغالب ولا يمانع الذى قهر جميع الأشياء ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى خلقه وأمره الذى يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير سورة التغابن ـ ولله الحمد

تفسير سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾

يقول تعالى مخاطبًا لنبيه ﷺ وللمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أى: أردتم طلاقهن ﴿فَـ﴾ التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه من غير مراعاة لأمر الله بل ﴿طَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أى: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهى طاهر فى طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذى تكون العدة فيه واضحة بينة، بخلاف ما لو طلقها وهى حائض فإنها لا تحتسب تلك الحيضة التى وقع فيها الطلاق وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو طلقها فى طهر وطئ فيه فإنه لا يؤمن حملها فلا يتبين ولا يتضح بأى عدة تعتد ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ وإحصاء العدة ضبطها إن كانت تحيض أو بالأشهر إن لم تكن تحيض وليست حاملاً، فإن فى إحصائها أداء لحق الله وحق الزوج المطلق وحق من سيتزوجها بَعْدُ وحقها فى النفقة ونحوها، فإذا ضبطت عدتها علمت حالها على بصيرة وعلم ما يترتب عليها من الحقوق وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة يتوجه للزوج وللمرأة إن كانت مكلفة وإلا فلوليها، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أى: فى جميع أموركم وخافوه فى حق الزوجات المطلقات ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ﴾ مدة العدة بل تلزم بيتها الذى طلقها زوجها وهى فيه ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أى: لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهى عن إخراجها فلأن المسكن يجب على الزوج للزوجة لتكمل فيه عدتها التى هى حق من حقوقه، وأما النهى عن خروجها فلما فى خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه ويستمر هذا النهى عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أى: بأمر قبيح واضح موجب لإخراجها بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة ففى هذه الحال يجوز لهم إخراجها لأنها هى التى تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لخاطرها ورفق بها فهى التى أدخلت الضرر عليها، وهذا فى المعتدة الرجعية، وأما البائن فليس لها سكنى واجبة لأن السكن تبع للنفقة والنفقة تجب للرجعية دون البائن ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى: التى حدها لعباده وشرعها لهم وأمرهم بلزومها والوقوف معها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ بأن لم يقف معها بل تجاوزها أو قصر عنها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أى: بخسها حقها وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التى هى الصلاح فى الدنيا والآخرة ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أى: شرع الله العدة وحدد الطلاق بها لحكم عظيمة: فمنها: أنه لعل الله يحدث فى قلب المطلق الرحمة والمودة فيراجع من طلقها ويستأنف عشرتها فيتمكن من ذلك

«من معرفة» مدة العدة، ولعله يطلقها لسبب منها فيزول السبب في مدة العدة فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق، ومن الحكم: أنها مدة التربص يعلم براءة رحمها من زوجها، وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن انقضاء العدة لأنهن لو خرجن من العدة لم يكن الزوج مخيراً بين الإمساك والفراق ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: على وجه المعاشرة الحسنة والصحبة الجميلة لا على وجه الضرر وإرادة الشر والحبس، فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فراقًا لا محذور فيه من غير تشاتم ولا تخاصم ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ على طلاقها ورجعتها ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور سدًا لباب المخاصمة وكتمان كل منهما ما يلزم بيانه ﴿وَأَقِيمُوا﴾ أيها الشهداء ﴿الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي: ائتوا بها على وجهها من غير زيادة ولا نقص واقصدوا بإقامتها وجه الله تعالى ولا تراعوا بها قريبًا لقرابته ولا صاحبًا لمحبته ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود ﴿يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن الإيمان بالله واليوم الآخر يوجب لصاحبه أن يتعظ بمواعظ الله وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ما يتمكن منها، بخلاف من ترحل الإيمان من قلبه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر ولا يعظم مواعظ الله لعدم الموجب لذلك، ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم أمر تعالى بتقواه ووعد من اتقاه في الطلاق وغيره بأن يجعل له فرجًا ومخرجًا، فإذا أراد العبد الطلاق ففعله على الوجه الشرعي بأن أوقعه طلقة واحدة في غير حيض ولا طهر أصابها فيه فإنه لا يضيق عليه الأمر بل جعل الله له فرجًا وسعة يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح إذا ندم على الطلاق، والآية وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى الله ولازم مرضاته في جميع أحواله فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة، ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجًا ومخرجًا من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله جعل له فرجًا ومخرجًا فمن لم يتق الله يقع في الآصار والأغلال التي لا يقدرون على التخلص منها والخروج من تبعتها، واعتبر ذلك في الطلاق فإن العبد إذا لم يتق الله فيه بل أوقعه على الوجه المحرم كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها، وقوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: يسوق الله، الرزق للمتقي من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في أمر دينه ودنياه بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ويثق به في تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه فيه، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي العزيز الرحيم فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له، فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره ولكن ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: وقتًا ومقدارًا لا يتعداه ولا يقصر عنه.

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥)﴾

لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء ذكر العدة فقال: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ بأن كن يحضن ثم ارتفع حيضهن لكبر أو غيره ولم يُرجَ رجوعه ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ جعل كل شهر مقابله حيضة ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي: الصغار اللائي لم يأتهن الحيض بَعْدُ أو البالغات اللاتي لم يأتهن حيض بالكلية فإنهن كالآيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللائي يحضن فذكر الله عدتهن في قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ وقوله: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ أي: عدتهن ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: جميع ما في بطونهن من واحد ومتعدد، ولا عبرة حينئذ بالأشهر ولا غيرها ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أي: من اتقى يسر له الأمور وسهَّل عليه كل عسير ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الحكم الذي بينه الله لكم ﴿أَمْرُ اللَّهِ

أنزله إليكم﴾ لتمشوا عليه وتأتموا به وتعظموه ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا﴾ أى: يندفع عنه المحذور ويحصل له المطلوب.

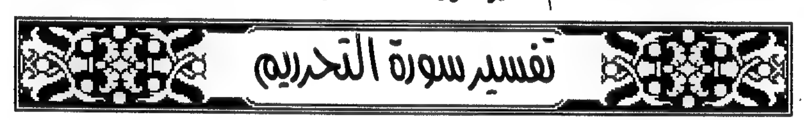
﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)﴾

تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات من البيوت وهنا أمر بإسكانهن وقدر إسكانهن بالمعروف وهو البيت الذى يسكنه مثله ومثلها بحسب وُجْد الزوج وعسره ﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾ أى: لا تضاروهن عند سكناهن بالقول أو الفعل لأجل أن يمللن فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن ونهاهن عن الخروج وأمر بسكناهن على وجه لا يحصل به عليهن ضرر ولا مشقة وذلك راجع إلى العرف ﴿وإن كن﴾ أى: المطلقات ﴿أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾ وذلك لأجل الحمل الذى فى بطنها إن كانت بائنًا، ولها ولحملها إن كانت رجعية ومنتهى النفقة إلى وضع الحمل فإذا وضعن حملهن فإما أن يرضعن أولادهن أو لا ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن﴾ المسماة لهن إن كان مسمى وإلا فأجر المثل ﴿وأتمروا بينكم بمعروف﴾ أى: وليأمر كل واحد من الزوجين وغيرهما الآخر بالمعروف وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة فى الدنيا والآخرة فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف يحصل فيها من الضرر والشر ما لا يعلمه إلا الله وفى الائتمار به تعاون على البر والتقوى، ومما يناسب هذا المقام أن الزوجين عند الفراق وقت العدة خصوصًا إذا ولد بينهما ولد فى الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق الذى لا يحصل فى الغالب إلا مقرونًا بالبغض فيتأثر من ذلك شىء كثير، فكل منهما يؤمر بالمعروف والمعاشرة الحسنة وعدم المشاقة والمنازعة وينصح على ذلك ﴿وإن تعاسرتم﴾ بأن لم يتفق الزوجان على رضاعها لولدها ﴿فسترضع له أخرى﴾ غيرها ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ وهذا حيث كان الولد يقبل ثدى غير أمه، فإن لم يقبل إلا ثدى أمه تعينت لإرضاعه ووجب عليها وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى، وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى فإن الولد لما كان فى بطن أمه مدة الحمل لا خروج له منه عين تعالى على وليه النفقة، فلما ولد وكان يتمكن أن يتقوت من أمه ومن غيرها أباح تعالى الأمرين فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه كان بمنزلة الحمل وتعينت أمه طريقًا لقوته، ثم قدر تعالى النفقة بحسب حال الزوج فقال: ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ أى: لينفق الغنى من غناه فلا ينفق نفقة الفقراء ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ أى: ضيق عليه ﴿فلينفق مما آتاه الله﴾ من الرزق. ﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلا بحسبه وخفف عن المعسر وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها فى باب النفقة وغيرها ﴿سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾ وهذا بشارة للمعسرين أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة ﴿فإن مع العسر يسرا﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾

يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية والقرون المكذبة للرسل وأن كثرتهم وقوتهم لم تغن عنهم شيئًا حين جاءهم الحساب الشديد والعذاب الأليم وأن الله أذاقهم من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة، ومع عذاب الدنيا فإن الله أعد لهم في الآخرة عذابًا شديدًا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا ذوى العقول التى تفهم عن الله آياته وعبره وأن الذى أهلك القرون الماضية بتكذيبهم أن من بعدهم مثلهم لا فرق بين الطائفتين، ثم ذكر عباده المؤمنين بما أنزل علهم من كتابه الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ ليخرج الخلق من ظلمات الجهل والكفر والمعصية إلى نور العلم والإيمان والطاعة، فمن الناس من آمن به ومنهم من لم يؤمن به ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، ثم أخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن وما بينهن وأنزل الأمر وهو: الشرائع والأحكام الدينية التى أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التى يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها وإحاطة علمه بجميع الأشياء، فإذا عرفوه بأسمائه الحسنى وأوصافه المقدسة عبدوه وأحبوه وقاموا بحقه فهذه هى الغاية المقصودة من الخلق والأمر: معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون.

تم تفسير سورة الطلاق - والحمد لله



تفسير سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾

هذا عتاب من الله لنبيه محمد ﷺ حين حرم على نفسه سريته «مارية» أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته فى قصة معروفة، فأنزل الله هذه الآيات ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ أى: يأيها الذى أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة والوحى ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ من الطيبات التى أنعم الله بها عليك وعلى أمتك ﴿تَبْتَغِي﴾ بذلك التحريم ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هنا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله ورفع عنه اللوم ورحمه وصار ذلك التحريم الصادر منه سببًا لشرع حكم عام لجميع الأمة فقال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وهذا عام في جميع أيمان المؤمنين أى: قد شرع لكم وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث وما به تتكفر بعد الحنث وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ فكل من حرم حلالاً عليه من طعام أو شراب أو سرية أو حلف يمينًا بالله على فعل أو ترك ثم حنث وأراد الحنث فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أى: متولى أموركم ومربيكم أحسن تربية فى أمر دينكم ودنياكم وما به يندفع عنكم الشر فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم

لتبرأ ذممكم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ الذى أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم وهو الحكيم فى جميع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنه موافق لمصالحكم ومناسب لأحوالكم وقوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قال كثير من المفسرين: هى حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها أسرَّ لها النبى ﷺ حديثًا وأمر أن لا تخبر به أحدًا فحدثت به عائشة رضي الله عنها، أخبره الله بذلك الخبر الذى أذاعته فعرَّفها ﷺ ببعض ما قالت وأعرض عن بعضه كرمًا منه ﷺ وحلمًا ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا﴾ الخبر الذى لم يخرج منا؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية يعلم السر وأخفى، وقوله: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين حفصة وعائشة رضي الله عنهما كانتا سببًا لتحريم النبى ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة وعاتبهما على ذلك وأخبرهما أن قلوبكما قد صغت، أى: مالت وانحرفت عما ينبغى لهن من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه وأن لا يشققن عليه ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أى: تعاونا على ما يشق عليه ويستمر هذا الأمر منكن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أى: الجميع أعوان للرسول مظاهرون له، ومن كان هؤلاء أنصاره فهو المنصور وغيره إن يناوئه فهو مخذول وفى هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين حيث جعل البارى نفسه الكريمة وخواص خلقه أعوانًا لهذا الرسول الكريم، وفيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى، ثم خوَّفهما أيضًا بحالة تشق على النساء غاية المشقة وهو الطلاق الذى هو أكبر شىء عليهن فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ أى: فلا تترفعن عليه فإنه لو طلقكن لا يضيق عليه الأمر ولم يكن مضطرًا إليكن فإنه سيجد ويبدله الله أزواجًا خيرًا منكن دينًا وجمالاً، وهذا من باب التعليق الذى لم يوجد ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ﴾ جامعات بين الإسلام وهو: القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان وهو: القيام بالشرائع الباطنة من العقائد وأعمال القلوب ﴿قَانِتَاتٍ﴾ القنوت هو: دوام الطاعة واستمرارها ﴿تَائِبَاتٍ﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله والتوبة عما يكرهه الله ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أى: بعضهن ثيب وبعضهن أبكار ليتنوع ﷺ فيما يحب فلما سمعن - رضي الله عنهن - هذا التخويف والتأديب بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ فكان هذا الوصف منطبقًا عليهن فصرن أفضل نساء المؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾

أى: يا من مَنَّ الله عليهم بالإيمان قوموا بلوازمه وشروطه، فـ ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله امتثالاً ونهيه اجتنابًا والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم وإجبارهم على أمر الله فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به فى نفسه وفيمن تحت ولايته وتصرفه، ووصف الله النار بهذه الأوصاف ليزجر عباده عن التهاون بأمره فقال: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ أى: غليظة أخلاقهم شديد انتصارهم يفزعون بأصواتهم ويزعجون بمرآهم ويهينون أصحاب النار بقوتهم وينفذون فيهم أمر الله الذى حتَّم عليهم بالعذاب وأوجب عليهم شدة العقاب ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وهذا فيه أيضًا مدح للملائكة الكرام وانقيادهم لأمر الله وطاعتهم له فى كل ما أمرهم به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧)﴾

أى: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ فيقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ أى: فإنه

ذهب وقت الاعتذار وزال نفعه فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾

قد أمر الله بالتوبة النصوح فى هذه الآية ووعد عليها بتكفير السيئات ودخول الجنات والفوز والفلاح حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم ويمشون بضيائه ويتمتعون بروحه وراحته، يشفقون إذا طفئت الأنوار التى تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتم لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم ويوصلهم بما معهم من النور واليقين إلى جنات النعيم وجوار الرب الكريم وكل هذا من آثار التوبة النصوح، والمراد بها: التوبة العامة الشاملة لجميع الذنوب التى عقدها العبد لله لا يريد بها إلا وجه الله والقرب منه ويستمر عليها فى جميع أحواله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٩) ﴾

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم فى ذلك وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه فإن هذا يجاهد ويغلظ عليه، وأما المرتبة الأولى فتكون بالتى هى أحسن، فالكفار والمنافقون لهم عذاب فى الدنيا بتسليط الله لرسوله وحزبه عليهم وعلى جهادهم، وعذاب النار فى الآخرة وبئس المصير الذى يصير إليه كل شقى خاسر.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ (١٢) ﴾

هذان المثلان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيده شيئًا وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئًا مع قيامه بالواجب عليه، فكأن فى ذلك إشارة وتحذيرًا لزوجات النبى ﷺ عن المعصية وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئًا مع الإساءة، فقال: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا﴾** أى: المرأتان **﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾** وهما نوح ولوط عليهما السلام **﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾** فى الدين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراش، فإنه ما بغت امرأة نبى قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيا **﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾** أى: نوح ولوط **﴿عَنْهُمَا﴾** أى: عن امرأتيهما **﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾**(١) **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾** وهى آسية بنت مزاحم رضي الله عنها **﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها وسؤالها أجل المطالب وهو دخول الجنة ومجاراة الرب الكريم وسؤالها أن ينجيها من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها فعاشت فى إيمان كامل

---

(١) أى: مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام. اهـ. أبو السعود.

وثبات تام ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» وقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: حفظته وصانته عن الفاحشة لكمال ديانتها وعفتها ونزاهتها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ بأن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها فوصلت نفخته إلى مريم فجاء منها عيسى عليه السلام الرسول الكريم والسيد العظيم ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة فإن التصديق بكلمات الله يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه يقتضي معرفة، ما به يحصل التصديق ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل ولهذا قال: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ أي: المداومين على طاعة الله بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل فإنها ـ رضي الله عنها ـ صديقة والصديقية، هي: كمال العلم والعمل.

تم تفسير سورة التحريم ـ بعون الله وتيسيره

تفسير سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي: تعاظم وتعالى وكثر خيره وعم إحسانه، ومن عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي فهو الذي خلقه ويتصرف فيه بما شاء من الأحكام القدرية والأحكام الدينية التابعة لحكمته ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ومن عظمته كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء وبها أوجد من المخلوقات العظيمة كالسموات والأرض ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه وذلك أن الله خلق عباده وأخرجهم لهذه الدار وأخبرهم أنهم سينقلون منها وأمرهم ونهاهم وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره فمن انقاد لأمر الله أحسن الله له الجزاء في الدارين ومن مال مع شهوات النفس ونبذ أمر الله فله شر الجزاء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة كلها التي قهر بها جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات ﴿الْغَفُورُ﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين خصوصًا إذا تابوا وأنابوا فإنه يغفر ذنوبهم ولو بلغت عنان السماء ويستر عيوبهم ولو كانت ملء الدنيا ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي: كل واحدة فوق الأخرى ولسن طبقة واحدة وخلقها في غاية الحسن والإتقان ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ أي: خلل ونقص وإذا انتفى النقص من كل وجه صارت حسنة كاملة متناسبة من كل وجه في لونها وهيئتها وارتفاعها وما فيها من الشمس والكواكب النيرات الثوابت منهن والسيارات، ولما كان كمالها معلومًا أمر الله تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها فقال: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ أي: أعده إليها ناظرًا معتبرًا ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: نقص واختلال ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ المراد بذلك: كثرة التكرار ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: عاجزًا عن أن يرى خللاً أو فطورًا ولو حرص غاية الحرص، ثم صرح بذكر حسنها فقال:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾ أى: ولقد جملنا ﴿السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ التى ترونها وتليكم ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ وهى: النجوم على اختلافها فى النور والضياء فإنه لولا ما فيها من النجوم لكانت سقفًا مظلمًا لا حسن فيه ولا جمال، ولكن جعل الله هذه النجوم زينة للسماء وجمالاً ونورًا وهداية يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، ولا ينافى إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح أن يكون كثير من النجوم فوق السموات السبع فإن السموات شفافة وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا وإن لم تكن الكواكب فيها ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أى: المصابيح ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ الذين يريدون استراق خبر المساء، فجعل الله هذه النجوم حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبارها إلى الأرض فهذه الشهب التى ترمى من النجوم أعدها الله فى الدنيا للشياطين ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ لأنهم تمردوا على الله وأضلوا عباده ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم قد أعد الله لهم عذاب السعير فلهذا قال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ التى يهان أهلها غاية الهوان ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ على وجه الإهانة والذل ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ أى: صوتًا عاليًا فظيعًا ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾[1] ⑦ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أى: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضًا وتتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم إذا حصلوا فيها؟ ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها فقال: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أى: حالكم هذه واستحقاقكم النار كأنكم لم تخبروا عنها ولم تحذركم النذر منها ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ فجمعوا بين تكذيبهم الحاضر والتكذيب العام بكل ما أنزل الله، ولم يكفهم ذلك حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون ولم يكتفوا بمجرد الضلال بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيرًا، فأى عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟ ﴿وَقَالُوا﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى وهى السمع لما أنزل الله وجاءت به الرسل والعقل الذى ينفع صاحبه ويوقفه على حقائق الأشياء وإيثار الخير والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة فلا سمع لهم ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية فسمعوا ما جاء من عند الله وجاء به رسول الله علمًا ومعرفة وعملاً، والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال والحسن من القبح والخير من الشر وهم - فى الإيمان - بحسب ما منَّ الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من يشاء ويمن على من يشاء من عباده ويخذل من لا يصلح للخير، قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار المعترفين بظلمهم وعنادهم: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أى: بُعدًا لهم وخسارة وشقاء، فما أشقاهم وأرداهم حيث فاتهم ثواب الله وكانوا ملازمين للسعير التى تستعر فى أبدانهم وتطلع على أفئدتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑫﴾

لما ذكر حالة الأشقياء الفجار ذكر وصف الأبرار السعداء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أى: فى جميع أحوالهم حتى فى الحالة التى لا يطلع عليهم فيها إلا الله فلا يقدمون على معاصيه ولا يقصرون عما أمرهم به ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم وقاهم شرها ووقاهم عذاب الجحيم ﴿وَ﴾ لهم ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو ما أعده لهم فى الجنة من النعيم المقيم والملك الكبير واللذات المتواصلات والقصور والمنازل العاليات والحور الحسان والخدم والولدان وأعظم من ذلك وأكبر رضا الرحمن الذى يحله على ساكنى الجنان.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑬ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ⑭﴾

هذا إخبار من الله بسعة علمه وشمول لطفه فقال: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ أى: كلاهما سواء لديه لا يخفي عليه منهما خافية ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما فيها من النيات والإرادات فكيف بالأقوال والأفعال التى تسمع وترى؟ ثم قال مستدلاً بدليل عقلى على علمه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه

(١) أى: والحال أنها تغلى بهم غليان المرجل (القدر) بما فيه. اهـ. أبو السعود.

كيف لا يعلمه؟ ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذى لطف علمه وخبره حتى أدرك السرائر والضمائر والخبايا والخفايا والغيوب «وهو الذى يعلم السر وأخفى» ومن معانى اللطيف أنه الذى يلطف بعبده ووليه فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من العبد على بال حتى إنه يذيقه المكاره ليوصله بها إلى المحاب الجليلة والمطالب النبيلة.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

أى: هو الذى سخر لكم الأرض وذللها لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم من غرس وبناء وحرث وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أى: لطلب الرزق والمكاسب ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أى: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التى جعلها الله امتحانًا وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة تبعثون بعد موتكم وتحشرون إلى الله ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾

هذا تهديد ووعيد لمن استمر فى طغيانه وتعديه وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة فقال: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ وهو الله تعالى العالى على خلقه ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ بكم وتضطرب حتى تهلكوا وتتلفوا ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أى: عذابًا من السماء يحصبكم وينتقم الله منكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أى: كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب، فلا تحسبوا أن أمنكم من أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم فستجدون عاقبة أمركم سواء طال عليكم الأمد أو قصر، فإن من قبلكم كذبوا كما كذبتم فأهلكهم الله تعالى فانظروا كيف إنكار الله عليهم عالجهم بالعقوبة الدنيوية قبل عقوبة الآخرة فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التى سخرها الله وسخر لها الجو والهواء تصف فيه أجنحتها للطيران وتقبضها للوقوع فتظل سابحة فى الجو مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ فإنه الذى سخر لهن الجو وجعل أجسادها وخلقتها فى حالة مستعدة للطيران، فمن نظر فى حالة الطير واعتبر فيها دلته على قدرة البارى وعنايته الربانية وأنه الواحد الأحد الذى لا تنبغى العبادة إلا له ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ فهو المدبر لعباده بما يليق بهم وتقتضيه حكمته.

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره المعرضين عن الحق: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أى: ينصركم إذا أراد الرحمن بكم سوءًا فيدفعه عنكم؟ أى: من الذى ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبد لم ينفعوه بمثقال ذرة على أيدى أى عدو كان، فاستمرار الكافرين على كفرهم بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن غرور وسفه ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل﴾ أى: الرزق كله من الله فلو أمسك عنكم الرزق فمن الذى يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم فكيف بغيرهم؟ فالرزاق المنعم الذى لا يصيب العباد نعمة

إلا منه هو الذى يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرين ﴿لَّجُّوا﴾ أى: استمروا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أى: قسوة وعدم لين للحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ أى: شرود عن الحق.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

أى: أى الرجلين أهدى؟ من كان تائهًا فى الضلال غارقًا فى الكفر قد انتكس قلبه فصار الحق عنده باطلاً والباطل حقًا؟ أو من كان عالمًا بالحق مؤثرًا له عاملاً به يمشى على الصراط المستقيم فى أقواله وأعماله وجميع أحواله؟ فبمجرد النظر إلى حال الرجلين يعلم الفرق بينهما والمهتدى من الضال منهما والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾

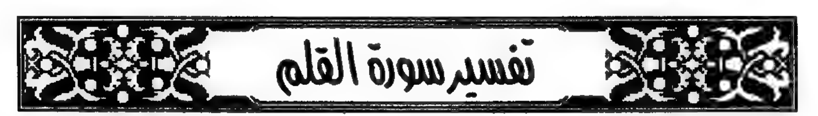
يقول تعالى ـ مبينًا أنه المعبود وحده وداعيًا عباده إلى شكره وإفراده بالعبادة ـ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ﴾ أى: أوجدكم من العدم من غير معاون له ولا مظاهر، ولما أنشأكم كمل لكم الوجود إذ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وهذه الثلاثة هى أفضل أعضاء البدن وأكمل القوى الجسمانية ولكنكم مع هذا الإنعام ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله، قليل منكم الشاكر وقليل منكم الشكر ﴿قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ﴾ أى: بثكم فى أقطارها وأسكنكم فى أرجائها وأمركم ونهاكم وأسدى إليكم من النعم ما به تنتفعون، ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة ولكن هذا الوعد بالجزاء ينكره هؤلاء المعاندون ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تكذيبًا ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ جعلوا علامة صدقهم أن يخبروهم بوقت مجيئه وهذا ظلم وعناد ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ لا عند أحد من الخلق ولا ملازمة بين هذا الخبر وبين الإخبار بوقته فإن الصدق يعرف بأدلته، وقد أقام الله من الأدلة والبراهين على صحته ما لا يبقى معه أدنى شك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

يعنى أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا فى الدنيا فإن كان يوم الجزاء ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾ أى: قريبًا ساءهم ذلك وأفظعهم وأقلقهم فتغيرت لذلك وجوههم ووبخوا على تكذيبهم وقيل: ﴿هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ فاليوم رأيتموه عيانًا وانجلى لكم الأمر وتقطعت بكم الأسباب ولم يبق إلا مباشرة العذاب، ولما كان المكذبون للرسول ﷺ الذين يردون دعوته ينتظرون هلاكه ويتربصون به ريب المنون أمره الله أن يقول لهم: إنكم إن حصلت لكم أمنيتكم وأهلكنى الله ومن معى فليس ذلك بنافع لكم شيئًا لأنكم كفرتم بآيات الله واستحققتم العذاب فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتّم وقوعه بكم؟ فإذًا تعبكم وحرصكم على هلاكى غير مفيد ولا مُجْدٍ لكم شيئًا، ومن قولهم: إنهم على هدى والرسول على ضلال أعادوا فى ذلك وأبدوا وجادلوا عليه وقاتلوا، فأمر الله نبيه أن يخبر عن حاله وحال أتباعه ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم وهو أن يقولوا: ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ والإيمان يشمل التصديق الباطن والأعمال الباطنة والظاهرة، ولما كانت الأعمال وجودها وكمالها متوقفان على التوكل خص الله التوكل من سائر الأعمال وإلا فهو داخل فى الإيمان، ومن جملة لوازمه، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإذا كانت هذه حال الرسول وحال من اتبعه وهى الحال التى تتعين للفلاح وتتوقف عليها السعادة وحالة أعدائه بضدها فلا إيمان لهم ولا توكل، علم

بذلك من هو على هدى ومن هو فى ضلال مبين، ثم أخبر عن انفراده بالنعم خصوصًا الماء الذى جعل الله منه كل حىٍّ فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أى: غائرًا ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ تشربون منه وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ وهذا استفهام بمعنى النفى أى: لا يقدر أحد على ذلك غير الله تعالى.

تم تفسير سورة الملك ـ والحمد لله



تفسير سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴾

يقسم تعالى بالقلم وهو اسم جنس شامل للأقلام التى تكتب بها أنواع العلوم ويسطر بها المنثور والمنظوم وذلك أن القلم وما يسطر به من أنواع الكلام من آياته العظيمة التى تستحق أن يقسم بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون فنفى عنه ذلك بنعمة ربه عليه وإحسانه حيث منَّ عليه بالعقل الكامل والرأى الجزل والكلام الفصل الذى هو أحسن ما جرت به الأقلام وسطره الأنام وهذا هو السعادة فى الدنيا، ثم ذكر سعادته فى الآخرة فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أى: لأجرًا عظيمًا، كما يفيده التنكير، غير مقطوع بل هو دائم مستمر وذلك لما أسلفه النبى ﷺ من الأعمال الصالحة والأخلاق الكاملة والهداية إلى كل خير ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أى: علىٌّ به مُسْتَعلٍ بخُلقك الذى منَّ الله عليك به، وحاصل خُلقه العظيم ما فسرته به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمن سألها عنه فقالت: «كان خُلقه القرآن» وذلك نحو قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ الآية ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية، وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق والآيات الحاثَّات على كل خلق جميل فكان له منها أكملها وأجلها وهو فى كل خصلة منها فى الذروة العليا، فكان سهلاً لينًا قريبًا من الناس مجيبًا لدعوة من دعاه قاضيًا لحاجة من استقضاه جابرًا لقلب من سأله لا يحرمه ولا يرده خائبًا، وإذا أراد أصحابه منه أمرًا وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم ولم يكن يعاشر جليسًا إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس فى وجهه ولا يغلظ عليه فى مقاله ولا يطوى عنه بِشْره ولا يمسك عليه فلتات لسانه ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة بل يحسن إليه غاية الإحسان ويحتمله غاية الاحتمال، فلما أنزل الله نبيه محمدًا ﷺ فى أعلى المنازل وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون قال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ وقد تبين أنه أهدى الناس وأكملهم لنفسه ولغيره وأن أعداءه أضل الناس وشر الناس للناس وأنهم الذين فتنوا عباد الله وأضلوهم عن سبيله وكفى بعلم الله بذلك فإنه المحاسب المجازى ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وهذا فيه تهديد للضالين ووعد للمهتدين وبيان لحكمة الله حيث كان يهدى من يصلح للهداية دون غيره.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق فإنهم ليسوا اهلاً لأن يطاعوا لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم وهم لا يريدون إلا الباطل فالمطيع لهم مُقْدِم على ما يضره وهذا عام فى كل مكذب وفى كل طاعة ناشئة عن التكذيب وإن كان السياق فى شيء خاص وهو أن المشركين طلبوا من النبى ﷺ إن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم ويسكتوا عنه ولهذا قال: ﴿وَدُّوا﴾ أى: المشركون ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾[1] أى: توافقهم على بعض ما هم عليه إما بالقول أو الفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾[2] ولكن أصدع بأمر الله وأظهر دين الإسلام فإن تمام إظهاره نقض ما يضاده وعيب ما يناقضه ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أى: كثير الحلف فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذابًا إلا وهو ﴿مَّهِينٍ﴾ أى: خسيس النفس ناقص الحكمة ليس له رغبة فى الخير بل إرادته فى شهوات نفسه الخسيسة ﴿هَمَّازٍ﴾ أى: كثير العيب للناس والطعن فيهم بالغيبة والاستهزاء وغير ذلك ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أى: يمشى بين الناس بالنميمة وهو: نقل كلام بعض الناس لبعض لقصد الإفساد بينهم وإيقاع العداوة والبغضاء ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ الذى يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك ﴿مُعْتَدٍ﴾ على الخلق يظلمهم فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم ﴿أَثِيمٍ﴾ أى: كثير الإثم والذنوب المتعلقة فى حق الله ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أى: غليظ شرس الخلق قاس غير منقاد للحق ﴿زَنِيمٍ﴾ أى: دَعِيٌّ ليس له أصل ولا مادة ينتج منها الخير بل أخلاقه أقبح الأخلاق ولا يرجى منه فلاح، له زنمة أى: علامة فى الشر يعرف بها، وحاصل هذا أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب خسيس النفس سيئ الأخلاق خصوصًا الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس والتكبر على الحق وعلى الخلق والاحتقار للناس بالغيبة والنميمة والطعن فيهم وكثرة المعاصى، وهذه الآيات وإن كانت نزلت فى بعض المشركين - كالوليد بن المغيرة أو غيره لقوله عنه ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: لأجل كثرة ماله وولده طغى واستكبر عن الحق ودفعه حين جاءه وجعله من جملة أساطير الأولين التى يمكن صدقها وكذبها، فإنها عامة فى كل من اتصف بهذا الوصف لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات فى سبب شخص من الأشخاص لتتضح به القاعدة العامة ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة فى القضايا العامة، ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله بأن الله سيسمه على الخرطوم فى العذاب ويعذبه عذابًا ظاهرًا يكون عليه سمة وعلامة فى أشق الأشياء عليه وهو وجهه[3].

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلناهم وأمددناهم بما شئنا من مال وولد وطول عمر ونحو ذلك مما يوافق أهواءهم لا لكرامتهم علينا بل ربما يكون استدراجًا لهم من حيث لا يعلمون، فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة الذين هم فيها شركاء حين أينعت أشجارها وزهت ثمارها وآن وقت صرامها وجزموا

---

(١) تدهن، أى: تلين لهم. (٢) فيدهنون أى: يلينون لك.

(٣) وذلك بأن يكويه على أنفه مهانة له وعلامة يعرف بها وتخصيص الأنف بالذكر لأن بالوسم عليه أبشع، وحاصل معنى الآية ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ أى: سنجعل على أنفه علامة يعير بها طيلة حياته، فحطم أنفه بالسيف يوم «بدر».

أنها فى أيديهم وطوع أمرهم وأنه ليس ثَمَّ مانع يمنعهم منها ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء أنهم سيصرمونها أى: يجذونها مصبحين ولم يدروا أن الله بالمرصاد وأن العذاب سيخلفهم عليها ويبادرهم إليها ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: عذاب نزل عليها ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ فأبادها وأتلفها ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أى: كالليل المظلم، وذهبت الأشجار والثمار هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا﴾ قاصدين لها ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ فيما بينهم بمنع حق الله تعالى ويقولون: ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أى: بكّروا قبل انتشار الناس وتواصوا مع ذلك بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافتة خوفًا أن يسمعهم أحد فيخبر الفقراء ﴿وَغَدَوْا﴾ فى هذه الحالة الشنيعة والقسوة وعدم الرحمة ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أى: على إمساك ومنع لحق الله جازمين بقدرتهم عليها ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ على الوصف الذى ذكر الله كالصريم ﴿قَالُوا﴾ من الحيرة والانزعاج ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أى: تائهون عنها لعلها غيرها، فلما تحققوها ورجعت إليهم عقولهم قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أى: أعدلهم وأحسنهم طريقة ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أى: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك ظنكم أن قدرتكم مستقلة فلو استثنيتم وقلتم «إن شاء الله» وجعلتم مشيئتكم تابعة لمشيئته ما جرى عليكم ما جرى ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أى: استدركوا بعد ذلك ولكن بعد ما وقع على جنتهم العذاب الذى لا يرفع، ولكن لعل تسبيحهم هذا وإقرارهم على أنفسهم بالظلم ينفعهم فى تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندموا ندامة عظيمة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ فيما أجروه وفعلوه ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أى: متجاوزين للحد فى حق الله وحق عباده ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ فهم رجوا الله أن يبدلهم خيرًا منها ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله ويلحون عليه فى الدنيا، فإن كانوا كما قالوا فالظاهر أن الله أبدلهم فى الدنيا خيرًا منها لأن من دعا الله صادقًا ورغب إليه ورجاه أعطاه سؤله، قال تعالى معظمًا ما وقع: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ أى: الدنيوى لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلبه الله الشىء الذى طغى به وبغى وآثر الحياة الدنيا وأن يزيله عنه أحوج ما يكون إليه ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فإن من علم ذلك أوجب له الانزجار عن كل سبب يوجب العقاب ويحرم الثواب.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾

يخبر تعالى بما أعده للمتقين الكفر والمعاصى من أنواع النعيم والعيش السليم فى جوار أكرم الأكرمين وأن حكمته تعالى لا تقتضى أن يجعل المتقين القانتين لربهم المنقادين لأوامره المتبعين مراضيه كالمجرمين الذين أوضعوا فى معاصيه والكفر بآياته ومعاندة رسله ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم فى الثواب فإنه قد أساء الحكم وأن حكمه باطل ورأيه فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك فليس لهم مستند لا كتاب فيه يدرسون ويتلون أنهم من أهل الجنة وأن لهم ما طلبوا وتخيروا، وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين، ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف فليس لهم كتاب ولا لهم عهد عند الله فى النجاة ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة، وقوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أى: أيهم الكفيل بهذه الدعوى التى تبين بطلانها فإنه لا يمكن أحدًا أن يتصدر بها ولا يكون زعيمًا فيها.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

أى: إذا كان يوم القيامة وانكشف فيه من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم وأتى البارى لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة التى لا يشبهها شىء ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه فحينئذ يدعون إلى السجود لله فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله طوعًا واختياراً، ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود وتكون ظهورهم كصياصى البقر لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم فإنهم كانوا يدعون فى الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون لا علة فيهم فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم فإن الله سخط عليهم وحقت عليهم كلمة العذاب وتقطعت أسبابهم ولم تنفعهم الندامة والاعتذار يوم القيامة، ففى هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصى ويوجب التدارك مدة الإمكان.

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

أى: دعنى والمكذبين بالقرآن العظيم فإن علىَّ جزاءهم ولا تستعجل لهم ﴿ **سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ فنمدهم بالأموال والأولاد ونمدهم فى الأرزاق والأعمال ليغتروا ويستمروا على ما يضرهم وهذا من كيد الله لهم وكيد الله لأعدائه متين قوى يبلغ من ضررهم وعقوبتهم كل مبلغ ﴿ **أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ** ﴾ أى: ليس لنفورهم عنك وعدم تصديقهم لك سبب يوجب لهم ذلك فإنك تعلمهم وتدعوهم إلى الله لمحض مصلحتهم من غير أن تصيبهم من أموالهم مغرمًا يثقل عليهم ﴿ **أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ** ﴾ ما كان عندهم من الغيوب وقد وجدوا أنهم على حق وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم، فلم يبق إلا الصبر لأذاهم والتحمل لما يصدر منهم والاستمرار على دعوتهم ولهذا قال: ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** ﴾ أى: لما حكم به شرعًا وقدراً فالحكم القدرى يصبر على المؤذى منه ولا يُتلَقَّى بالسخط والجزع والحكم الشرعى يُقابَل بالقبول والتسليم والانقياد لأمره، وقوله: ﴿ **وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ**(١) ﴾ وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام أى: ولا تشابهه فى الحال التى أوصلته وأوجبت له الانحباس فى بطن الحوت وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه وذهابه مغاضبًا لربه(٢)، حتى ركب البحر فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون كى تخف بهم فوقعت القرعة عليه فالتقمه الحوت وهو مليم، وقوله: ﴿ **إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ** ﴾ أى: وهو فى بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم فقال: ﴿ **لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ فاستجاب الله له وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ولهذا قال هنا: ﴿ **لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ** ﴾ أى: لطرح فى العراء وهى الأرض الخالية ﴿ **وَهُوَ مَذْمُومٌ** ﴾(٣) ولكن الله تغمده برحمته فنبذ وهو ممدوح وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: ﴿ **فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ** ﴾ أى: اختاره ونقاه من كل كدر ﴿ **فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ أى: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم وأحوالهم، فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر الله فصبر لحكم ربه صبراً لا يدركه أحد من العالمين فجعل الله له العاقبة ﴿ **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ ولم يبلغ أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم، أى: يصيبوه بأعينهم من حسدهم وحنقهم وغيظهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلىّ والله حافظه

---

(١) ﴿ **وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ** ﴾ وهو يونس بن متى، فى العجلة والغضب على القوم، حتى لا تبتلى ببلائه.

(٢) قوله: «مغاضبًا لربه» الصواب «مغاضبًا لقومه» وقد سبق أن تكلمنا على ذلك.

(٣) مذموم، أى: معاتب بزلته، لكنه رحم فنبذ بفضل الله من الأرض غير مذموم.

وناصره، وأما الأذى القولى فيقولون فيه أقوالاً بحسب ما توحى إليهم قلوبهم فيقولون تارة «مجنون» وتارة «شاعر» وتارة «ساحر» قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى: وما هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم إلا ذكر للعالمين يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم والحمد لله.

تم تفسير سورة القلم ـ بمن الله وكرمه

تفسير سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

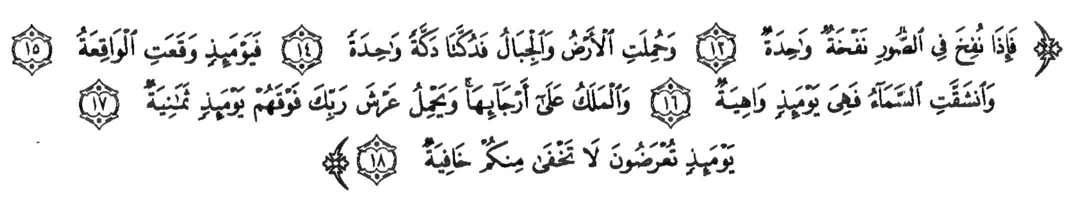
﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾

﴿الْحَاقَّةُ﴾ من أسماء يوم القيامة لأنها تحق وتنزل بالخلق وتظهر فيها حقائق الأمور ومخبآت الصدور، فعظم تعالى شأنها وفخمه بما كرره من قوله: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ فإن لها شأنًا عظيمًا وهولاً جسيمًا، ثم ذكر نموذجًا من أحوالها الموجودة فى الدنيا المشاهدة فيها وهو ما أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وهم: القبيلة المشهورة سكان الحجر الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحًا عليه السلام ينهاهم عما هم عليه من الشرك ويأمرهم بالتوحيد فردوا دعوته وكذبوه وكذبوا ما أخبر به من يوم القيامة وهى: القارعة التى تقرع الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى سكان حضرموت حين بعث الله إليهم رسوله هودًا عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده فكذبوه وأنكروا ما أخبر به من البعث فأهلك الله الطائفتين بالهلاك العاجل: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وهى: الصيحة العظيمة الفظيعة التى قطعت قلوبهم وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أى: قوية شديدة الهبوب لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أى: عتت على خزانها، على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد وزادت على الحد كما هو الصحيح ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أى: نحسًا وشرًا فظيعًا عليهم فدمرتهم وأهلكتهم ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أى: هلكى موتى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أى: كأنهم جذوع النخل التى قد قطعت رءوسها الخاوية الساقط بعضها على بعض ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفى المتقرر.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾

أى: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة كفرعون مصر الذى أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام وأراهم من الآيات البينات ما تيقنوا بها الحق ولكن جحدوا وكفروا ظلمًا وعلوًا، وجاء مَنْ قَبله من المكذبين ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ أى: قرى قوم لوط، الجميع جاءوا ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أى: بالفعلة الطاغية وهو: الكفر والتكذيب والظلم والمعاندة وما انضم إلى ذلك من أنواع المعاصى والفسوق ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا اسم جنس أى: كل من هؤلاء كذبوا الرسول الذى أرسله الله إليهم ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ الله جميعًا ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أى: زائدة على الحد والمقدار الذى يحصل به هلاكهم، ومن جملة هؤلاء قوم نوح أغرقهم الله فى اليم ﴿لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ على وجه الأرض وعلا على مواضعها الرفيعة، وامتن الله

على الخلق الموجودين بعدهم أن حملهم ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ وهي: السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم الذين نجاهم الله، فاحمدوا الله واشكروا الذي نجاكم حين أهلك الطاغين واعتبروا بآياته الدالة على توحيده، ولهذا قال: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: الجارية والمراد جنسها ﴿تَذْكِرَةً﴾ تذكركم أول سفينة صنعت وما قصتها وكيف نجى الله عليها من آمن به واتبع رسوله وأهلك أهل الأرض كلها، فإن جنس الشيء مذكر بأصله، وقوله: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي: يعقلها أولو الألباب ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها، وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة وأهل البلادة وعدم الفطنة فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله لعدم وعيهم عن الله وتفكرهم بآياته.


﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾

لما ذكر تعالى ما فعله بالمكذبين لرسله وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا وأن الله نجى الرسل وأتباعهم كان هذا مقدمة للجزاء الأخروي وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام يوم القيامة وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿فِي الصُّورِ﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فخرجت الأرواح فتدخل كل روح في جسدها فإذا الناس قيام لرب العالمين ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: فتت الجبال واضمحلت وخلطت بالأرض ونسفت عليها فكان الجميع قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا هذا ما يصنع بالأرض وما عليها، وأما ما يصنع بالسماء فإنها تضطرب وتمور وتشقق ويتغير لونها وتهى بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها وكرب جسيم هائل أوهاها وأضعفها ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها خاضعين لربهم مستكينين لعظمته ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ أملاك في غاية القوة إذا أتى الرب العظيم للفصل بين العباد والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ على الله ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ لا من أجسادكم وذواتكم ولا من أعمالكم وصفاتكم فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة ويحشر العباد حفاة عراة غرلاً في أرض مستوية يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فحينئذ يجازيهم بما عملوا ولهذا ذكر كيفية الجزاء فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

وهؤلاء هم أهل السعادة يُعْطَوْنَ كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزًا لهم وتنويهًا بشأنهم ورفعة لمقدارهم ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور ومحبة أن يطلع الخلق على ما منَّ الله عليه به من الكرامة: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ أي: دونكم كتابي فاقرءوه فإنه يبشر بالجنات وأنواع الكرامات ومغفرة الذنوب وستر العيوب والذي أوصلني إلى هذه الحال ما منَّ الله به عليَّ من الإيمان بالبعث والحساب والاستعداد له بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: أيقنت، فالظن ـ هنا ـ بمعنى اليقين ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: جامعة لما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وقد رضوها ولم يختاروا عليها غيرها ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ المنازل والقصور عالية المحل ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي: ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبة سهلة التناول على أهلها ينالها أهلها قيامًا وقعودًا ومتكئين ويقال لهم إكرامًا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: من كل طعام لذيذ وشراب شهيٍّ ﴿هَنِيئًا﴾ أي: تامًّا كاملاً من غير مكدر ولا منغص، وذلك الجزاء حاصل لكم ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ من الأعمال الصالحة من صلاة وصيام وصدقة وحج وإحسان إلى الخلق وذكر الله وإنابة إليه وترك الأعمال السيئة فالأعمال جعلها الله سببًا لدخول الجنة ومادة لنعيمها وأصلاً لسعادتها.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾

هؤلاء هم أهل الشقاء يُعْطَوْنَ كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة بشمالهم تمييزًا لهم وخزيًا وعارًا وفضيحة فيقول أحدهم من الهم والغم والحزن: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ لأنه يبشر بدخول النار والخسارة الأبدية ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أى: ليتنى كنت نسيًا منسيًا ولم أبعث وأحاسب ولهذا قال: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أى: يا ليت موتتى هى الموتة التى لا بعث بعدها، ثم التفت إلى ماله وسلطانه فإذا هو وبال عليه لم يقدم منه لآخرته ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب شيئًا فيقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أى: ما نفعنى فى الدنيا لأنى لم أقدم منه شيئًا ولا فى الآخرة قد ذهب وقت نفعه ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ أى: ذهب واضمحل فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العَدَدُ ولا العُدَدُ ولا الجاه العريض بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح وفاتت بسببه المتاجر والأرباح وحضرت بدله الهموم والغموم والأتراح، فحينئذ يؤمر بعذابه فيقال للزبانية الغلاظ الشداد: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أى: اجعلوا فى عنقه غلا يخنقه ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أى: قلبوه على جمرها ولهبها ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ من سلاسل الجحيم فى غاية الحرارة ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أى: انظموه فيها بأن تدخل فى دبره وتخرج من فمه ويعلق فيها، فلا يزال يعذب هذا العذاب الفظيع فبئس العذاب والعقاب وواحسرة له من التوبيخ والعتاب فإن السبب الذى أوصله إلى هذا المحل ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ بأن كان كافرًا بربه معاندًا لرسله رادًا ما جاءوا به من الحق ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أى: ليس فى قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين فلا يطعمهم من ماله ولا يحض غيره على إطعامهم لعدم الوازع فى قلبه، وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله الذى أصله الإيمان بالله والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه الإحسان التى من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوتون به وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان فلذلك استحقوا ما استحقوا ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا﴾ أى: يوم القيامة ﴿حَمِيمٌ﴾ أى: قريب أو صديق يشفع له لينجو من عذاب الله أو يفوز بثوابه ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ وهو صديد أهل النار الذى هو فى غاية الحرارة والمرارة ونتن الريح وقبح الطعم، لا يأكل هذا الطعام الذميم ﴿إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾[1] الذين أخطئوا الصراط المستقيم وسلكوا كل طريق يوصلهم إلى الجحيم فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء وما لا يبصرونه فدخل فى ذلك كل الخلق بل دخل فى ذلك نفسه المقدسة على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعالى، ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه من أنه شاعر أو ساحر وأن الذى حملهم على ذلك عدم إيمانهم وتذكرهم فلو آمنوا وتذكروا علموا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك أن ينظروا فى حال محمد ﷺ ويرمقوا أوصافه وأخلاقه

(١) الخاطئون، أى: الكافرون، وأصحاب الخطايا، الذين كانوا يرتكبون الجرائم عمدًا، ولا يبالون بأوامر الله ونواهيه.

ليروا أمرًا مثل الشمس يدلهم على أنه رسول الله حقًا وأن ما جاء به ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا يليق أن يكون قولاً للبشر بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به وجلالة أوصافه وكمال تربيته للخلق وعلوه فوق عباده، وأيضًا فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ وافترى ﴿بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ الكاذبة ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ وهو عرق متصل بالقلب إذا انقطع هلك منه الإنسان، فلو قدر أن الرسول - حاشا وكلا - تقوَّل على الله لعاجله بالعقوبة وأخذه أخذ عزيز مقتدر لأنه حكيم قدير على كل شيء فحكمته تقتضى أن لا يمهل الكاذب عليه الذى يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم وأنه هو وأتباعه لهم النجاة ومن خالفه فله الهلاك، فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات ونصره على أعدائه ومكنه من نواصيهم فهو أكبر شهادة منه على رسالته، وقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أى: لو أهلكه ما امتنع هو بنفسه ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى: القرآن الكريم ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم فيعرفونها ويعملون عليها يذكرهم العقائد الدينية والأخلاق المرضية والأحكام الشرعية فيكونون من العلماء الربانيين والعباد العارفين والأئمة المهديين ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ به، وهذا فيه تهديد ووعيد للمكذبين وأنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فإنهم لما كفروا به ورأوا ما وعدهم به تحسروا إذ لم يهتدوا به ولم ينقادوا لأمره ففاتهم الثواب وحصلوا على أشد العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أى: أعلى مراتب العلم فإن أعلى مراتب العلم اليقين وهو: العلم الثابت الذى لا يتزلزل ولا يزول، واليقين مراتبه ثلاثة كل واحدة أعلى مما قبلها: أولها: علم اليقين وهو العلم المستفاد من الخبر، ثم عين اليقين وهو: العلم المدرك بحاسة البصر، ثم حق اليقين وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة وهذا القرآن بهذا الوصف فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية يحصل به لمن ذاقه حق اليقين ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أى: نزهه عما لا يليق بجلاله وقدِّسْهُ بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة - والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى، مبينًا جهل المعاندين واستعجالهم لعذاب الله استهزاء وتعنتًا وتعجيزًا ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أى: دعا داع واستفتح مستفتح ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ﴾ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: ليس لهذا العذاب - الذى استعجل به من استعجل من متمردى المشركين - أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشى أو غيره من المكذبين فقال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله فإما أن يعجل لهم فى الدنيا وإما أن يدخر لهم فى الآخرة، فلو عرفوا الله وعرفوا عظمته وسعة سلطانه وكمال أسمائه وصفاته لما استعجلوا ولاستسلموا وتأدبوا ولهذا ذكر تعالى من عظمته ما يضاد أقوالهم القبيحة فقال: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أى: ذى العلو والجلال والعظمة والتدبير لسائر الخلق الذى تعرج إليه الملائكة بما جعلها

على تدبيره وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها برَّها وفاجرها وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار فتعرج أرواحهم إلى الله فيؤذن لها من سماء إلى سماء حتى تنتهى إلى السماء التى فيها الله عز وجل فتُحيِّى ربها وتسلم عليه وتحظى بقربه وتبتهج بالدنو منه ويحصل لها منه الثناء والإكرام والبر والإعظام، وأما أرواح الفجار فتعرج فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلا يؤذن لها وأعيدت إلى الأرض، ثم ذكر المسافة التى تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله وأنها تعرج فى يوم بما يسر لها من الأسباب وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة من ابتداء العروج إلى بلوغها ما حُدَّ لها وما تنتهى إليه من الملأ الأعلى، فهذا الملك العظيم والعالم الكبير علويه وسفليه جميعه قد تولى خلقه وتدبيره العَلِىُّ الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة ومستقرهم ومستودعهم وأوصلهم من رحمته وبره وإحسانه ما عمهم وشملهم وأجرى عليهم حكمه القدرى وحكمه الشرعى وحكمه الجزائى، فَبُؤسًا لأقوام جهلوا عظمته ولم يقدروه حق قدره فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحليم الذى أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم وعافاهم ورزقهم، هذا أحد الاحتمالات فى تفسير هذه الآية الكريمة فيكون هذا العروج والصعود فى الدنيا لأن السياق الأول يدل عليه، ويحتمل أن هذا فى يوم القيامة وأن الله تعالى يُظْهِرُ لعباده فى يوم القيامة من عظمته وجلاله وكبريائه ما هو أكبر دليل على معرفته مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح صاعدة ونازلة بالتدابير الإلهية والشئون الربانية ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من طوله وشدته لكن الله تعالى يخففه على المؤمن، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أى: اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً لا تَضَجُّر فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله وادع عباده إلى توحيده ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم وعدم رغبتهم فإن فى الصبر على ذلك خيراً كثيراً ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ الضمير يعود إلى البعث الذى فيه عذاب السائلين بالعذاب أى: إن حالهم حال المنكر له والذى غلبت عليه الشقوة والسكرة حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريبًا لأنه رفيق حليم لا يعجل ويعلم أنه لا بد أن يكون وما هو آت فهو قريب، ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما فيه فقال:

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾

أى: ﴿يَوْمَ﴾ القيامة الذى تقع فيه هذه الأمور العظيمة ﴿تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ وهو: الرصاص المذاب من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ وهو: الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباء منثوراً فتضمحل، فإذا كان هذا الانزعاج والقلق لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة فما ظنك بالعبد الضعيف الذى قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟ أليس حقيقًا أن ينخلع قلبه ولبه ويذهل عن كل أحد؟ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أى: يشاهد الحميم - وهو: القريب - حميمه فلا يبقى فى قلبه متسع لسؤاله عن حاله ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومحبتهم ولا يهمه إلا نفسه ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ﴾ الذى حق عليه العذاب ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ﴾ أى: زوجته ﴿وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ﴾ أى: قرابته ﴿الَّتِى تُؤْوِيهِ﴾ أى: التى جرت عادتها فى الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضًا، ففى القيامة لا ينفع أحد أحدًا ولا يشفع أحد إلا بإذن الله، بل لو يفتدى المجرم المستحق للعذاب بكل من يعرفه ﴿وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ذلك لم ينفعه ﴿كَلَّا﴾ أى: لا حيلة ولا مناصر لهم قد حقت عليهم كلمة ربك وذهب نفع الأقارب والأصدقاء ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ أى: النار التى تتلظى تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة ﴿تَدْعُو﴾ إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ أى: أدبر عن اتباع الحق وأعرض عنه، فلا غرض له فيه وجمع الأموال بعضها فوق بعض وأوعاها فلم ينفق منها ما ينفعه ويدفع عنه النار، فالنار تدعو هؤلاء إلى نفسها وتستعد للالتهاب بهم.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥)﴾

وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته أنه هلوع، وفسر الهلوع بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له من مال أو أهل أو ولد ولا يستعمل فى ذلك الصبر والرضا بما قضى الله ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فلا ينفق مما آتاه الله ولا يشكر الله على نعمه وبره فيجزع فى الضراء ويمنع فى السراء ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله وأنفقوا مما خولهم وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا، وقوله فى وصفهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أى: مداومون عليها فى أوقاتها بشروطها ومكملاتها، وليسوا كمن لا يفعلها أو يفعلها وقتًا دون وقت أو يفعلها على وجه ناقص ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ من زكاة وصدقة ﴿لِّلسَّائِلِ﴾ الذى يتعرض للسؤال ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ وهو: المسكين الذى لا يسأل الناس فيعطوه ولا يفطن له فيتصدق عليه ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أى: يؤمنون بما أخبر به الله وأخبرت به الرسل من الجزاء والبعث ويتيقنون ذلك فيستعدون للآخرة ويسعون لها سعيها، والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسل وبما جاءوا به من الكتب ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أى: خائفون وجلون فيتركون لذلك كل ما يقربهم من عذاب الله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أى: هو العذاب الذى يخشى ويحذر ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ فلا يطئون بها وطئًا محرمًا من زنا أو لواط أو وطء فى دبر أو حيض ونحو ذلك، ويحفظونها أيضًا من النظر إليها ومسها ممن لا يجوز له ذلك ويتركون أيضًا وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أى: سرياتهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ فى وطئهن فى المحل الذى هو محل الحرث ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أى: غير الزوجة وملك اليمين ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله، ودلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة لكونها غير زوجة مقصودة ولا ملك يمين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أى: مراعون لها حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التى بين العبد وبين ربه كالتكاليف السرية التى لا يطلع عليها إلا الله والأمانات التى بين العبد وبين الخلق فى الأموال والأسرار، وكذلك العهد شامل للعهد الذى عاهد عليه الله والعهد الذى عاهد الخلق عليه فإن العهد يسأل عنه العبد هل قام به ووفاه أم رفضه وخانه فلم يقم به؟ ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أى: لا يشهدون إلا بما يعلمونه من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان ولا يحابى فيها قريبًا ولا صديقًا ونحوه ويكون القصد بإقامتها وجه الله، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بالمداومة عليها على أكمل الوجوه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أى: الموصوفون بتلك الصفات ﴿فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أى: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، وحاصل هذا أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة والأخلاق المرضية من العبادات البدنية كالصلاة والمداومة عليها والأعمال القلبية كخشية الله الداعية لكل خير والعبادات المالية والعقائد النافعة والأخلاق الفاضلة ومعاملة الله ومعاملة خلقه أحسن معاملة: من إنصافهم وحفظ حقوقهم وأماناتهم والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكرهه الله تعالى.

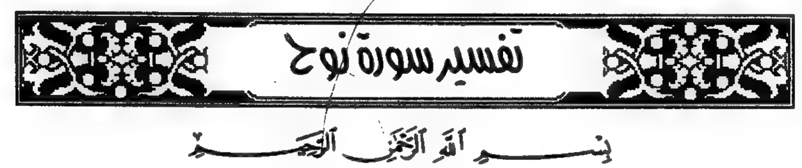
﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾

يقول تعالى مبينًا اغترار الكافرين: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ أى: مسرعين ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أى: قطعًا متفرقة وجماعات متنوعة كل منهم بما لديه فرح ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ أى بسبب أطمعهم وهم لم يقدموا سوى الكفر والجحود لرب العالمين، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ أى: ليس الأمر بأمانيهم ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أى: من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب فهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) ﴾

هذا إقسام منه تعالى بالمشارق والمغارب للشمس والقمر والكواكب لما فيها من الآيات الباهرات على البعث وقدرته على تبديل أمثالهم وهم بأعيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أى: ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده فإذا تقرر البعث والجزاء واستمروا على تكذيبهم وعدم انقيادهم لآيات الله ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أى: يخوضوا بالأقوال الباطلة والعقائد الفاسدة ويلعبوا بدينهم ويأكلوا ويشربوا ويتمتعوا ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم، ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون اليوم الذى يوعدون فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أى: القبور ﴿سِرَاعًا﴾ مجيبين لدعوة الداعى مهطعين إليها ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[1] أى: كأنهم إلى علم يؤمون ويقصدون فلا يتمكنون من الاستعصاء على الداعى ولا الالتواء عن نداء المنادى بل يأتون أذلاء مقهورين بين يدى رب العالمين ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم واستولى على أفئدتهم فخشعت منهم الأبصار وسكنت الحركات وانقطعت الأصوات ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحال والمآل هو ﴿الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ولا بد من الوفاء بوعد الله.

تم تفسير سورة المعارج - والحمد لله



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ

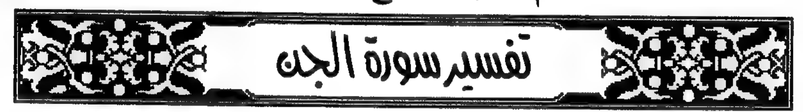
(١) نصب، أى: كل ما نصب فعبد من دون الله، «يوفضون» أى: يسرعون. اهـ. أبو السعود.

ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

لم يذكر الله فى هذه السورة إلا قصة نوح وحدها لطول لبثه فى قومه وتكرار دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك، فأخبر تعالى أنه أرسل نوحًا إلى قومه رحمة بهم وإنذارًا من عذاب أليم وخوفًا من استمرارهم على كفرهم فيهلكهم هلاكًا أبديًا ويعذبهم عذابًا سرمديًا فامتثل نوح عليه السلام لذلك وابتدر لأمر الله فقال: ﴿**يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ أى: واضح النذارة بيِّنها وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه وبأى شىء تحصل النجاة، بيَّن ذلك بيانًا شافيًا فأخبرهم وأمرهم بأصل ذلك فقال: ﴿**أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ**﴾ وذلك بإفراده تعالى بالعبادة والتوحيد والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم وإذا غفر ذنوبهم حصل لهم النجاة من العذاب والفوز بالثواب ﴿**وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ أى: يمتعكم فى هذه الدار ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى أى: مقدر البقاء فى الدنيا بقضاء الله وقدره إلى وقت محدود وليس المتاع أبدًا فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال: ﴿**إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ كما كفرتم بالله وعاندتم الحق، فلم يجيبوا لدعوته ولا انقادوا لأمره فقال شاكيًا لربه: ﴿**رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا**﴾ أى: نفورًا عن الحق وإعراضًا فلم يبق لذلك فائدة لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه ﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ**﴾ أى: لأجل أن يستجيبوا، فإذا استجابوا غفرت لهم وهذا محض مصلحتهم ولكن أبوا إلا تماديًا على باطلهم ونفورًا عن الحق ﴿**جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ**﴾ حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام ﴿**وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ**﴾ أى: تغطوا بها غطاء يغشاهم بعدًا عن الحق وبغضًا له ﴿**وَأَصَرُّوا**﴾ على كفرهم وشرهم ﴿**وَاسْتَكْبَرُوا**﴾ على الحق ﴿**اسْتِكْبَارًا**﴾ فشرهم ازداد وخيرهم بَعُدَ ﴿**ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا**﴾ أى: بمسمع منهم كلهم ﴿**ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا**﴾ كل هذا حرص ونصح وإتيانهم بكل طريق يظن به حصول المقصود ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ**﴾ أى: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب واستغفروا الله منها ﴿**إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر فرغبهم بمغفرة الذنوب وما يترتب عليها من الثواب واندفاع العقاب، ورغَّبهم أيضًا بخير الدنيا العاجل فقال: ﴿**يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا**﴾ أى: مطرًا متتابعًا يروى الشعاب والوهاد ويحيى البلاد والعباد ﴿**وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**﴾ أى: يكثر أموالكم التى تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم ﴿**وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها ﴿**مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا**﴾ أى: لا تخافون لله عظمة وليس لله عندكم قدر ﴿**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا**﴾ أى: خلقًا من بعد خلق فى بطن الأم ثم فى الرضاع ثم فى سن الطفولة ثم التمييز ثم الشباب ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق، فالذى انفرد بالخلق والتدبير البديع متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفى ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على المعاد وأن الذى أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم، واستدل أيضًا بخلق السموات التى هى أكبر من خلق الناس فقال: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا**﴾ أى: كل سماء فوق الأخرى ﴿**وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا**﴾ لأهل الأرض ﴿**وَجَعَلَ**

الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء وكثرة المنافع فى الشمس والقمر الدالة على رحمة الله وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم يستحق أن يعظم ويحب ويخاف ويرجى ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ حين خلق أباكم آدم وأنتم فى صلبه ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ عند الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ للبعث والنشور فهو الذى يملك الحياة والموت والنشور ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أى: مبسوطة مهيأة للانتفاع بها ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ فلولا أنه بسطها لما أمكن ذلك بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها والبناء والسكون على ظهرها ﴿قَالَ نُوحٌ﴾ شاكيًا لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أى عصوا الرسول الناصح الدال على الخير واتبعوا الملأ والأشراف الذين لم تزدهم أموالهم ولا أولادهم إلا خسارًا أى: هلاكًا وتفويتًا للأرباح، فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أى: مكرًا كبيرًا بليغًا فى معاندة الحق ﴿وَقَالُوا﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ فدعوهم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك وأن لا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم عينوا آلهتهم فقالوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وهذه أسماء رجال صالحين لما ماتوا زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم كانوا يعبدونهم ويتوسلون بهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم ولهذا وصى رؤساؤهم للتابعين لهم أن لا يدعوا عبادة هذه الأصنام ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أى: أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيرًا من الخلق ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ أى: لو كان ضلالهم عند دعوتى إياهم للحق لكان مصلحة ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالاً أى: فلم يبق محل لنجاحهم وصلاحهم، ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ فى اليم الذى أحاط بهم ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ فذهبت أجسادهم فى الغرق وأرواحهم للنار والحرق، وهذا كله بسبب خطيئاتهم التى أتاهم نبيهم ينذرهم عنها ويخبرهم بشؤمها وسوء مغبتها فرفضوا ما قال حتى حل بهم النكال ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر ولا أحد يقدر على أن يعارض القضاء والقدر ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ يدور على وجه الأرض، وذكر السبب فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أى: بقاؤهم مفسدة محضة لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح ذلك لأنه مع كثرة مخالطته إياهم ومزاولته لأخلاقهم علم بذلك نتيجة أعمالهم فلهذا استجاب الله له دعوته فأغرقهم أجميعن ونجى نوحًا ومن معه من المؤمنين ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ خص المذكورين لتأكيد حقهم وتقديم برهم ثم عمم الدعاء فقال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أى: خسارًا ودمارًا وهلاكًا.

تم تفسير سورة نوح - والحمد لله



تفسير سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾

أى: ﴿قُلْ﴾ يأيها الرسول للناس ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ صرفهم الله إلى رسوله لسماع آياته لتقوم عليهم الحجة وتتم عليهم النعمة ويكونوا منذرين لقومهم وأمر رسوله أن يقص نبأهم على الناس وذلك: أنهم لما حضروه قالوا: أنصتوا ، فلما أنصتوا فهموا معانيه ووصلت حقائقه إلى قلوبهم ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ أى: من العجائب الغالية والمطالب العالية ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس

إلى مصالح دينهم ودنياهم ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ فجمعوا بين الإيمان الذى يدخل فيه جميع أعمال الخير وبين التقوى المتضمنة لترك الشر، وجعلوا السبب الداعى لهم إلى الإيمان وتوابعه ما علموه من إرشادات القرآن وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار فإن ذلك آية عظيمة وحجة قاطعة لمن استنار به واهتدى بهديه، وهذا هو الإيمان النافع المثمر لكل خير المبنى على هداية القرآن بخلاف إيمان العوائد والمربى والإلف ونحو ذلك فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة.

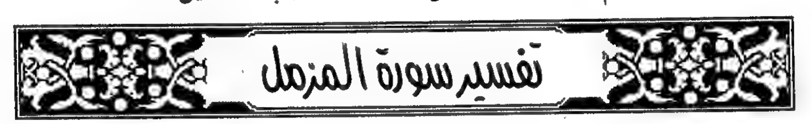
﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)﴾

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أى: تعالت عظمته وتقدست أسماؤه ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فعلموا من جد الله وعظمته ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولدًا لأن له العظمة والجلال فى كل صفة كمال، واتخاذ الصاحبة والولد ينافى ذلك لأنه يضاد كمال الغنى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أى: قولاً جائرًا عن الصواب متعديًا للحد وما حمله على ذلك إلا سفهه وضعف عقله وإلا فلو كان رزينًا مطمئنًا لعرف كيف يقول ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: كنا مغترين قبل ذلك غرتنا السادة والرؤساء من الجن والإنس فأحسنا بهم الظن وحسبناهم لا يتجرءون على الكذب على الله فلذلك كنا قبل ذلك على طريقهم فاليوم إذ بان لنا الحق سلكنا طريقه وانقدنا له ولم نبال بقول أحد من الخلق يعارض الهدى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أى: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفزاع ويعبدونهم فزاد الإنس الجن رهقًا أى: طغيانًا وتكبرًا لما رأوا الإنس يعبدونهم ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير وهو «الواو» يرجع إلى الجن أى: زاد الجن الإنس ذعرًا وتخويفًا لما رأوهم يستعيذون بهم ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم والتمسك بما هم عليه فكان الإنسى إذا نزل بواد مخوف قال: «أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه» ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أى: فلما أنكروا البعث أقدموا على الشرك والطغيان ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أى: أتيناها واختبرناها ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ عن الوصول إلى أرجائها والدنو منها ﴿وَشُهُبًا﴾ يرمى بها

من استرق السمع، وهذا مخالف لعادتنا الأولى، فإنا كنا نتمكن من الوصول إلى خبر السماء ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ فنتلقف من أخبار السماء ما شاء الله ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أى: مرصدًا له معدًا لإتلافه وإحراقه أى: وهذا له شأن عظيم ونبأ جسيم، وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث فى الأرض حادثًا كبيرًا من خير أو شر فلهذا قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أى: لا بد من هذا أو هذا لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيرًا أنكروه فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريده الله ويحدثه في الأرض، وفى هذا بيان لأدبهم إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى والشر حذفوا فاعله تأدبًا ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أى: فساق وفجار وكفار ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أى: فرقًا متنوعة وأهواء متفرقة كل حزب بما لديهم فرحون ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أى: وأنَّا فى وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا وأن نواصينا بيد الله فلن نعجزه فى الأرض ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته لا ملجأ منه إلا إليه ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾ وهو: القرآن الكريم الهادى إلى الصراط المستقيم وعرفنا هدايته وإرشاده أثَّر فى قلوبنا و ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ ثم ذكروا ما يرغب المؤمن فقالوا: ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أى: من آمن به إيمانًا صادقًا فلا عليه نقص ولا أذى يلحقه وإذا سلم من الشر حصل له الخير فالإيمان سبب داع إلى كل خير وانتفاء كل شر ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أى: الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أى: أصابوا طريق الرشد الموصل إلى الجنة ونعيمها ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وذلك جزاء على أعمالهم لا ظلم من الله لهم ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ المثلى ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أى: هنيئًا مريئًا ولم يمنعهم من ذلك إلا ظلمهم وعدوانهم ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أى: لنختبرهم ونمتحنهم ليظهر الصادق من الكاذب ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أى: من أعرض عن ذكر الله الذى هو كتابه فلم يتبعه وينقد له بل لها عنه وغفل يسلكه عذابًا صعدًا أى: بليغًا شديدًا ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ أى: لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التى هى أعظم محالٍّ للعبادة مبنية على الإخلاص لله والخضوع لعظمته والاستكانة لعزته ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أى: يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن ﴿كَادُوا﴾ أى: الجن من تكاثرهم عليه ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أى: متلبدين متراكمين حرصًا على ما جاء به من الهدى ﴿قُلْ﴾ لهم يأيها الرسول مبينًا حقيقة ما تدعو إليه ﴿إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ أى: أوحده وحده لا شريك له وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان وكل ما يتخذه المشركون من دونه ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ فإنى عبد ليس لى من الأمر والتصرف شىء ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أى: لا أحد أستجير به ينقذنى من عذاب الله، وإذا كان الرسول الذى هو أكمل الخلق لا يملك ضرًا ولا رشدًا ولا يمنع نفسه من الله شيئًا إن أراده بسوء فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أى: ملجأ ومنتصرًا ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ أى: ليس لى مزية على الناس إلا أن الله خصنى بإبلاغ رسالته ودعوة خلقه إليه وبذلك تقوم الحجة على الناس ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وهذا المراد به المعصية الكفرية كما قيدتها النصوص الأخر المحكمة، وأما مجرد المعصية فإنه لا يوجب الخلود فى النار كما دلت على ذلك آيات القرآن والأحاديث عن النبى ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ أى: شاهدوه عيانًا وجزموا أنه واقع بهم ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ فى ذلك الوقت حقيقة المعرفة ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ حين لا ينصرهم غيرهم ولا أنفسهم ينتصرون وإذ يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة ﴿قُلْ﴾ لهم إن سألوك فقالوا: «متى هذا الوعد»؟ ﴿إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أى: غاية طويلة فعلم ذلك عند الله ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ من الخلق بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيوب ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أى: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به، وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم فإن الله أيدهم بتأييد ما أريده أحدًا من الخلق وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته من غير أن تقربه الشياطين فيزيدوا فيه أو ينقصوا ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أى: يحفظونه بأمر الله ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ بذلك ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ

ربهم﴾ بما جعله لهم من الأسباب ﴿وأحاط بما لديهم﴾ أي: بما عندهم وما أسروه وما أعلنوه ﴿وأحصى كل شيء عددا﴾ وفي هذه السورة فوائد عديدة، ومنها: وجود الجن وأنهم مأمورون منهيون ومجازون بأعمالهم كما هو صريح في هذه السورة ومنها: أن رسول الله ﷺ مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس، فإن الله صرف نفرًا من الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلغوا قومهم، ومنها: ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن وحسن أدبهم في خطابهم، ومنها: اعتناء الله برسوله وحفظه لما جاء به فحين ابتدأت بشائر نبوته والسماء محروسة بالنجوم والشياطين قد هربت من أماكنها وأزعجت عن مراصدها وأن الله رحم به أهل الأرض رحمة ما يقدر لها قدر وأراد بهم ربهم رشدًا فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض ما تبتهج به القلوب وتفرح به أولو الألباب وتظهر به شعائر الإسلام وينقمع به أهل الأوثان والأصنام، ومنها: شدة حرص الجن على استماعهم للرسول ﷺ وتراكمهم عليه، ومنها: أن هذه السورة قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك وبينت حالة الخلق وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة لأن الرسول محمدًا ﷺ إذا كان لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًا، بل ولا يملك لنفسه، علم أن الخلق كلهم كذلك، فمن الخطأ والظلم اتخاذ من هذا وصفه إلهًا آخر، ومنها: أن علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها فلا يعلمها أحد من الخلق إلا من ارتضاه الله واختصه بعلم شيء منها.

تم تفسير سورة الجن ـ والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾

المزمل: المتغطي بثيابه كالمدثر وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته وابتداه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه فرأى أمرًا لم ير مثله ولا يقدر على الثبات عليه إلا المرسلون فاعتراه عند ذلك انزعاج حين رأى جبريل عليه السلام فأتى أهله فقال: «زملوني زملوني» وهو ترعد فرائصه، ثم جاءه جبريل فقال: «اقرأ» فقال: «ما أنا بقارئ» فغطه حتى بلغ منه الجهد وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ ثم ألقى الله عليه الثبات وتابع عليه الوحي حتى بلغ مبلغًا ما بلغه أحد من المرسلين، فسبحان الله ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وجد منه أول أمره، فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به ثم أمره بالصبر على أذية قومه ثم أمره بالصدع بأمره وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات وهي الصلاة وبآكد الأوقات وأفضلها وهو قيام الليل، ومن رحمته به أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿قم الليل إلا قليلا﴾ ثم قدر ذلك فقال: ﴿نصفه أو انقص منه﴾ أي: من النصف ﴿قليلا﴾ بأن يكون الثلث ونحوه ﴿أو زد عليه﴾ أي: على النصف فيكون نحو الثلثين ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر وتحريك القلوب به والتعبد بآياته والتهيؤ والاستعداد التام له، فإنه قال: ﴿إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا﴾ أي: نوحي إليك هذا القرآن الثقيل أي: العظيمة معانيه الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف حقيق أن يتهيأ له ويرتل ويتفكر فيما يشتمل عليه، ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل فقال: ﴿إن ناشئة الليل﴾ أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هي أشد وطئا وأقوم قيلا﴾ أي: أقرب إلى حصول مقصود القرآن يتواطأ عليه القلب واللسان وتقل الشواغل

ويفهم ما يقول ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار فإنه لا تحصل به هذه المقاصد، ولهذا قال: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾ أي: ترددًا في حوائجك ومعاشك يوجب اشتغال القلب وعدم تفرغه التفرغ التام ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ أي: انقطع إليه فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه هو الانفصال بالقلب عن الخلائق والاتصاف بمحبة الله وما يقرب إليه ويدني من رضاه ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وهذا اسم جنس يشمل المشارق والمغارق كلها، فهو تعالى رب المشارق والمغارب وما يكون فيها من الأنوار وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم والإجلال والتكريم ولهذا قال: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ أي: حافظًا ومدبرًا لأمورك كلها، فلما أمره الله بالصلاة خصوصًا وبالذكر عمومًا وبذلك تحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال وفعل الشاق من الأعمال أمره بالصبر على ما يقوله المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به وأن يمضي على أمر الله لا يصده عنه صاد ولا يرده راد وأن يهجرهم هجرًا جميلاً وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه بل يعاملهم بالهجر والإعراض عن أقوالهم التي تؤذيه وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اتركني وإياهم فسأنتقم منهم وإن أمهلتهم، فلا أهملهم وقوله: ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أي: أصحاب النعمة والغنى الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه وأمدهم من فضله، كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ ثم توعدهم بما عنده من العقاب فقال:

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾

أي: إن عندنا ﴿أَنكَالاً﴾ أي: عذابًا شديدًا جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمرًا على ما يغضب الله ﴿وَجَحِيمًا﴾ أي: نارًا حامية ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعًا مفظعًا وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم والصلاب ﴿كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك فتكون كالهباء المنثور.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾

يقول تعالى: احمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير الشاهد على الأمة بأعمالهم واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروا فتعصوا رسولكم فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران فدعاه إلى الله وأمره بالتوحيد فلم يصدقه بل عصاه فأخذه الله أخذًا وبيلاً، أي: شديدًا بليغًا.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝١٨﴾

أي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة يوم القيامة، اليوم المهول أمره العظيم خطره الذي يشيِّب الولدان وتذوب له الجمادات العظام فتتفطر السماء وتنتثر نجومها ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ أي: لا بد من وقوعه ولا حائل دونه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝١٩﴾

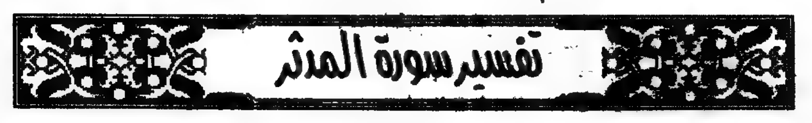
أى: إن هذه الموعظة التى نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهوالها تذكرة يتذكر بها المتقون وينزجر بها المؤمنون ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أى: طريقًا موصلاً إليه وذلك باتباع شرعه فإنه قد أبانه كل البيان وأوضحه غاية الإيضاح، وفى هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم ومكَّنهم منها لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم فإن هذا خلاف النقل والعقل.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

ذكر الله فى أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل وثلثيه أو ثلثه والأصل أن أمته أسوة له فى الأحكام، وذكر فى هذا الموضع أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين، ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس أخبر أنه سهل عليهم فى ذلك غاية التسهيل فقال: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أى: يعلم مقاديرهما وما يمضى ويبقى منهما ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أى: لن تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص لكون ذلك يستدعى انتباهًا وعناء زائدًا ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أى: فخفف عنكم وأمركم بما تيسر عليكم سواء زاد على المقدر أو نقص ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أى: مما تعرفون ولا يشق عليكم ولهذا كان المصلى بالليل مأمورًا بالصلاة ما دام نشيطًا فإذا فتر أو كسل أو نعس فليسترح ليأتى الصلاة بطمأنينة وراحة، ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ يشق عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثيه أو ثلثه فليصل المريض ما يسهل عليه ولا يكون أيضًا مأمورًا بالصلاة قائمًا عند مشقة ذلك بل لو شقت عليه الصلاة النافلة فله تركها وله أجر ما كان يعمل صحيحًا ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أى: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة ليستغنوا عن الخلق ويتكففوا عنهم أى: فالمسافر حاله تناسب التخفيف ولهذا خفف عنه فى صلاة الفرض فأبيح له جمع الصلاتين فى وقت واحد وقصر الصلاة الرباعية ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ فذكر تعالى تخفيفين: تخفيفًا للصحيح المقيم يراعى فيه نشاطه من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت بل يتحرى الصلاة الفاضلة وهى ثلث الليل بعد نصفه الأول، وتخفيفًا للمريض والمسافر سواء كان سفره للتجارة أو لعبادة من جهاد أو حج أو غيره فإنه يراعى ما لا يكلفه، فلله الحمد والثناء حيث لم يجعل علينا فى الدين من حرج بل سهل شرعه وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم، ثم أمر العباد بعبادتين هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة التى لا يستقيم الدين إلا بها وإيتاء الزكاة التى هى برهان الإيمان وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أى: بأركانها وحدودها وشروطها وجميع مكملاتها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أى: خالصًا لوجه الله بنية صادقة وتثبيت من النفس ومال طيب ويدخل فى هذا الصدقة الواجبة والمستحبة، ثم حث على عموم الخير وأفعاله فقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، زهده وليعلم أن مثقال ذرة فى الدار من الخير يقابله أضعاف أضعاف الدنيا وما عليها من دار النعيم المقيم من اللذات والشهوات، وإن الخير والبر فى هذه الدنيا مادة الخير والبر فى دار القرار وبذره وأصله وأساسه فوأسفاه على أوقات مضت فى الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت فى غير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها، فلك اللهم الحمد وإليك المشتكى وبك المستغاث ولا حول ولا قوة إلا بك ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وفى الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير فائدة كبيرة وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله

على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته فإنه هالك.

تم تفسير سورة المزمل والحمد لله



تفسير سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾

تقدم أن المزمل والمدثر بمعنى واحد وأن الله أمر رسوله ﷺ بالاجتهاد في عبادات الله القاصرة والمتعدية فتقدم هناك الأمر بالعبادات الفاضلة والقاصرة والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بالإعلان بالدعوة والصدع بالإنذار فقال: ﴿قُمْ﴾ أي: بجد ونشاط ﴿فَأَنذِرْ﴾ الناس بالأقوال والأفعال التي يحصل بها المقصود وبيان حال المنذر عنه ليكون ذلك أدعى لتركه ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظمه بالتوحيد واجعل قصدك في إنذارك وجه الله وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ يحتمل أن المراد بالثياب أعماله كلها وبتطهيرها تخليصها والنصح بها وإيقاعها على أكمل الوجوه وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات والمنقصات من شر ورياء ونفاق وعجب وتكبر وغفلة وغير ذلك مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته، ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصاً في الصلاة التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروطها (أي: من شروط صحتها) ويحتمل أن المراد بثيابه الثياب المعروفة وأنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات في جميع الأوقات خصوصاً عند الدخول في الصلوات، وإذا كان مأموراً بطهارة الظاهر فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ يحتمل أن المراد بالرجز: الأصنام والأوثان التي عُبدت مع الله فأمره بتركها والبراءة منها، ومما نسب إليها من قول أو عمل، ويحتمل أن المراد بالرجز: أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمراً له بترك الذنوب صغارها وكبارها ظاهرها وباطنها فيدخل في هذا الشرك فما دونه ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية فتستكثر بتلك المنة وترى الفضل عليهم بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك وانس عندهم إحسانك واطلب أجرك من الله تعالى واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء، وقد قيل: إن معنى هذا ألا تعطي أحداً شيئاً وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه فيكون هذا خاصاً بالنبي ﷺ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي: احتسب بصبرك واقصد به وجه الله تعالى، فامتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه وبادر فيه فأنذر الناس وأوضح لهم بالآيات جميع المطالب الإلهية وعظَّم الله تعالى ودعا الخلق إلى تعظيمه وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء وهجر كل ما يعبد من دون الله وما يعبد معه من الأصنام وأهلها والشر وأهله، وله المنة على الناس - بعد منة الله - من غير أن يطلب عليهم بذلك جزاء ولا شكوراً، وصبر لربه أكمل صبر: فصبر على طاعة الله وعن معاصيه وصبر على أقداره المؤلمة حتى فاق أولي العزم من المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾

أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور وجمع الخلائق للبعث والنشور ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ لكثرة أهواله وشدائده ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ لأنهم قد أيسوا من كل خير وأيقنوا بالهلاك والبوار، ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المعاند للحق المبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة فذمه الله ذمًا لم يذم به غيره وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه أن له الخزى في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: خلقته منفردًا بلا مال ولا أهل ولا عشيره فلم أزل أربيه وأعطيه ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ أي: كثيرًا ﴿وَ﴾ جعلت له ﴿بَنِينَ﴾ أي: ذكورًا ﴿شُهُودًا﴾ أي: حاضرين عنده على الدوام يتمتع بهم ويقضى بهم حوائجه ويستنصر بهم ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي: مكنته من الدنيا وأسبابها حتى انقادت له مطالبه وحصل له ما يشتهي ويريد ﴿ثُمَّ﴾ مع هذه النعم والإمدادات ﴿يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما طمع بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه وذلك ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ عرفها ثم أنكرها ودعته إلى الحق فلم ينقد لها، ولم يكفه أنه أعرض عنها وتولى بل جعل يحاربها ويسعى في إبطالها ولهذا قاله عنه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ أي: في نفسه ﴿وَقَدَّرَ﴾ ما فكر فيه ليقول قولاً يبطل به القرآن ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ لأنه قدر أمرًا ليس في طوره وتسور على ما لا يناله هو ولا أمثاله ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ما يقول ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضًا له ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي: تولى ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ نتيجة سعيه الفكرى والعملي والقولي ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ أي: ما هذا كلام الله بل كلام البشر، وليس أيضًا كلام البشر الأخيار بل كلام الأشرار منهم والفجار من كل كاذب سحار، فتبًا له ما أبعده من الصواب وأحراه بالخسارة والتباب كيف يدور في الأذهان أو يتصور ضمير أي إنسان أن يكون أعلى الكلام وأعظمه كلام الرب الكريم الماجد العظيم يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟ أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى؟! فما حقه إلا العذاب الشديد، ولهذا قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا تبقى من الشدة ولا على المعذب شيئًا إلا وبلغته ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي: تلوحهم وتصليهم في عذابها وتقلقهم بشدة حرها وقرها ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة خزنة لها غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ وذلك لشدتهم وقوتهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة ولزيادة نكالهم فيها والعذاب يسمى فتنة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ويحتمل أن المراد: أنّا ما أخبرناكم بعدتهم إلا لنعلم من يصدق ممن يكذب ويدل على هذا ما ذكره بعده في قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ فإن أهل الكتاب إذا وافق ما عندهم وطابقه ازداد يقينهم بالحق والمؤمنون كلما أنزل الله آية فآمنوا بها وصدقوا ازداد إيمانهم ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة يعتني بها أولو الألباب وهي: السعي في اليقين وزيادة الإيمان في كل وقت وكل مسألة من مسائل الدين ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق فجعل ما أنزله على رسوله محصلاً لهذه المقاصد الجليلة ومميزًا للصادقين من الكاذبين ولهذا قال: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك

وشبهة ونفاق ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ وهذا على وجه الحيرة والشك منهم والكفر بآيات الله، وهذا وذلك من هداية الله لمن يهديه وإضلاله لمن يضله ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فمن هداه الله جعل ما أنزل على رسوله رحمة فى حقه وزيادة فى إيمانه ودينه ومن أضله جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقله عليه وحيرة وظلمة فى حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده وأخبركم بها العليم الخبير فعليكم أن تصدقوا خبره من غير شك ولا ارتياب ﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ أى: وما هذه الموعظة والتذكار مقصودًا به العبث واللعب وإنما المقصود به أن يتذكر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه وما يضرهم فيتركونه.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿كَلاَّ﴾ هنا بمعنى حقًا أو بمعنى «ألا» الاستفتاحية، فأقسم تعالى بالقمر وبالليل وقت إدباره والنهار وقت إسفاره لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة الدالة على كمال قدرة الله وحكمته وسعة سلطانه وعموم رحمته وإحاطة علمه، والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أى: إن النار لإحدى العظائم الطامة والأمور الهامة فإذا أعلمناكم بها وكنتم على بصيرة من أمرها فمن شاء منكم أن يتقدم فيعمل بما يقربه إلى الله ويدنيه من رضاه ويزلفه من دار كرامته أو يتأخر عما خلق له وعما يحبه الله ويرضاه فيعمل بالمعاصى ويتقرب إلى جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الآية ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من أفعال الشر وأعمال السوء ﴿رَهِينَةٌ﴾ بها موثقة بسعيها قد ألزم عنقها وغل فى رقبتها واستوجبت به العذاب ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم لم يرتهنوا بل أطلقوا وفرحوا ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: فى جنات قد حصل لهم فيها جميع مطلوباتهم وتمت لهم الراحة والطمأنينة حتى أقبلوا يتساءلون فأفضت بهم المحادثة أن سألوا عن المجرمين أى حال وصلوا إليها وهل وجدوا ما وعدهم الله؟ فقال بعضهم لبعض «هل أنتم مطلعون عليهم» فاطلعوا عليهم فى وسط الجحيم يعذبون فقالوا لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ أى: أى شىء أدخلكم فيها؟ وبأى ذنب استحققتموها؟ ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ فلا إخلاص للمعبود ولا إحسان ولا نفع للخلق المحتاجين ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أى: نخوض بالباطل ونجادل به الحق ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ هذه آثار الخوض بالباطل وهو التكذيب بالحق، ومن أحق الحق يوم الدين الذى هو محل الجزاء على الأعمال وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق، فاستمر عملنا على هذا المذهب الباطل ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ أى: الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل وانسد فى وجوههم باب الأمل ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم، فلما بيَّن الله مآل المخالفين وبين ما يفعل بهم عطف على الموجودين بالعتاب واللوم فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أى: صادين غافلين عنها ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ فى نفرتهم الشديدة منها ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ أى: حمر وحش نفرت فنفر بعضها بعضًا فزاد عدوها ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أى: من صائد ورام يريدها أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون

من النفور عن الحق ومع هذا النفور والإعراض يدَّعون الدعاوى الكبار ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ نازلة عليه من السماء يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم لأنهم جاءتهم الآيات البينات التى تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ أى: لا نعطيهم ما طلبوا وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلو كانوا يخافونها لما جرى منهم ما جرى ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ الضمير إما أن يعود على هذه السورة أو على ما اشتملت عليه من هذه الموعظة ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ لأنه قد بيَّن له السبيل ووضح له الدليل ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن مشيئة الله نافذة عامة لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرية الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله والجبرية الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة ولا فعل حقيقة وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلاً وجعل ذلك تابعًا لمشيئته ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أى: هو أهل أن يتقى ويعبد لأنه الإله الذى لا تنبغى العبادة إلا له وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر - ولله الحمد والمنة



تفسير سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾﴾

ليست «لا» ههنا نافية ولا زائدة وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها وإن لم تكن فى الأصل موضوعة للاستفتاح، فالمقسم به فى هذا الموضع هو المقسم عليه وهو: البعث بعد الموت وقيام الناس من قبورهم ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ وهى جميع النفوس الخيرة والفاجرة سميت «لوامة» لكثرة تلونها وترددها وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما فعلت بل نفس المؤمن تلوم صاحبها فى الدنيا على ما حصل منه من تفريط وتقصير فى حق من الحقوق أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء وعلى الجزاء وبين مستحق الجزاء، ثم أخبر مع هذا أن بعض المعاندين يكذبون بيوم القيامة فقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ بعد الموت كما قال: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؟! فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التى هى عماد البدن فرد عليه بقوله: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أى: أطراف أصابعه وعظامه، وذلك مستلزم لخلق جميع أجزاء البدن لأنها إذا وجدت الأنامل، والبنان فقد تمت خلقة الجسد وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصوراً بالدليل الدال على ذلك وإنما وقع ذلك منه لأن إرادته وقصده التكذيب بما أمامه من البعث ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ والفجور: الكذب مع التعمد ثم ذكر أحوال القيامة فقال:

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾

أى: ﴿فَإِذَا﴾ كانت القيامة ﴿بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ من الهول العظيم وشخص فلا يطرف كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أى: ذهب نوره وسلطانه ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى فيجمع الله بينهما يوم القيامة ويخسف القمر وتكور الشمس ويقذفان فى النار ليرى العباد أنهما عبدان مسخران وليرى من عبدهما أنهم

كانوا كاذبين ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين يرى تلك القلاقل المزعجات: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ أي: أين الخلاص والفكاك مما طرقنا وألم بنا؟ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي: لا ملجأ لأحد دون الله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ لسائر العباد فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع بل لا بد من إيقافه ليجزى بعمله، ولهذا قال: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: بجميع عمله الحسن والسيئ في أول وقته وآخره وينبأ بخبر لا ينكره ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ أي: شاهد ومحاسب ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ فإنها معاذير لا تقبل بل يقرر بعمله فيقر به كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ فالعبد وإن أنكر أو اعتذر عما عمله فإنكاره واعتذاره لا يفيدانه شيئًا لأنه يشهد عليه سمعه وبصره وجميع جوارحه بما كان يعمل ولأن استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾

كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي وشرع في تلاوته بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه الله عن ذلك وقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ وقال هنا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه ويجمعه الله في صدره فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ فالحرص الذي في خاطرك إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان فإذا ضمنه الله لك فلا موجب لذلك ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك فحينئذ اتبع ما قرأه فاقرأه ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي: بيان معانيه فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربه فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا أنصت له فإذا فرغ قرأه، وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم أن لا يبادر المتعلم للعلم قبل أن يفرغ المعلم من المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه، وكذلك إذا كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان أن لا يبادر برده أو قبوله قبل الفراغ من ذلك الكلام ليتبين ما فيه من حق أو باطل وليفهمه فهمًا يتمكن فيه من الكلام فيه على وجه الصواب، وفيها: أن النبي ﷺ كما بين للأمة ألفاظ الوحي فإنه قد بين لهم معانيه.

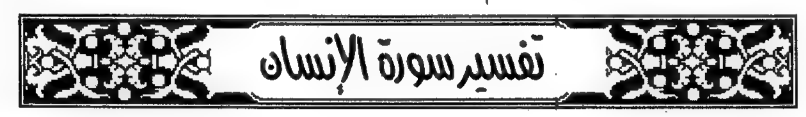
﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

أي: هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ وتسعون فيما يحصلها وفي لذاتها وشهواتها وتؤثرونها على الآخرة فتذرون العمل لها لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة والإنسان مولع بحب العاجل والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم فلذلك غفلتم عنها وتركتموها كأنكم لم تخلقوا لها وكأن هذه الدار هي دار القرار، التي تبذل فيها نفائس الأعمار ويسعى لها آناء الليل والنهار وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة وحصل من الخسار ما حصل، فلو آثرتم الآخرة على الدنيا ونظرتم العواقب نظر البصير العاقل لنجحتم وربحتم ربحًا لا خسار معه وفزتم فوزًا لا شقاء يصحبه، ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي: حسنة بهية لها رونق ونور مما هم فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: ينظرون إلى ربهم على حسب مراتبهم، ومنهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيًا، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر الذي ليس كمثله شيء، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه ونضرت وجوههم فازدادوا جمالاً إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا منهم، وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي: معبسة كدرة خاشعة ذليلة ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي: عقوبة شديدة وعذاب أليم فلذلك تغيرت وجوههم وعبست.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)﴾

يعظ تعالى عباده بذكر المحتضر حال السياق وأنه إذا بلغت روحه التراقى وهى العظام المكتنفة لثغرة النحر، فحينئذ يشتد الكرب ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أى: من يرقيه من الرقية، لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية فتعلقوا بالأسباب الإلهية، ولكن القضاء والقدر إذا حتم وجاء فلا مرد له ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [1] للدنيا ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أى: اجتمعت الشدائد والتفت وعظم الأمر وصعب الكرب وأريد أن تخرج الروح من البدن الذى ألفته ولم تزل معه فتساق إلى الله تعالى ليجازيها بأعمالها ويقررها بفعالها، فهذا الزجر الذى ذكره الله يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها ويزجرها عما فيه هلاكها، ولكن المعاند الذى لا تنفع فيه الآيات لا يزال مستمراً على غيه وكفره وعناده ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ أى: لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾ بالحق فى مقابلة التصديق ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الأمر والنهى، هذا وهو مطمئن قلبه غير خائف من ربه ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أى: ليس على باله شىء، ثم توعده بقوله: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ وهذه كلمات وعيد كررها لتكرير وعيده، ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول فقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أى مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب؟ هذا حسبان باطل وظن بالله غير ما يليق بحكمته ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ﴾ بعد المنى ﴿عَلَقَةً﴾ أى: دماً ﴿فَخَلَقَ﴾ الله منها الحيوان ﴿فَسَوَّى﴾ أى: أتقنه وأحكمه ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾ أى: الذى خلق الإنسان وطوره إلى هذه الأطوار المختلفة ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ بلى إنه على كل شىء قدير.

تم تفسير سورة القيامة



تفسير سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾

ذكر الله فى هذه السورة أول حال الإنسان ومنتهاها ومتوسطها، فذكر أنه مر عليه ﴿حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ طويل وهو الذى قبل وجوده وهو معدوم ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ ثم لما أراد خلقه خلق أباه آدم من طين ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أى: ماء مهين مستقذر ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ بذلك لنعلم هل يرى حاله الأولى ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه؟ فأنشأه الله وخلق له القوى الظاهرة والباطنة كالسمع والبصر وسائر الأعضاء فأتمها له وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده، ثم أرسل إليه الرسل وأنزل عليه الكتب وهداه الطريق الموصلة إليه وبينها ورغَّبه فيها وأخبره بما له عند الوصول إليه، ثم أخبر بالطريق الموصلة إلى الهلاك ورهَّبه عنها وأخبره بما له إذا

---

(١) أى: أيقن أن ما نزل به هو الفراق من الدنيا ونعيمها، اهـ. أبو السعود.

سلكها وابتلاه بذلك فانقسم الناس إلى شاكر لنعمة الله عليه قائم بما حمله الله من حقوقه، وإلى كفور للنعم أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية فردها وكفر بربه وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾

أي: إنَّا هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله وكذب رسله وتجرأ على معاصيه ﴿سَلَاسِلَ﴾ في نار جهنم كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ ﴿وَأَغْلَالًا﴾ تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها ﴿وَسَعِيرًا﴾ أي: نارًا تستعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وهذا العذاب الدائم مؤبد لهم مخلدون فيه سرمدًا، وأما ﴿الْأَبْرَارَ﴾ وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من معرفة الله ومحبته والأخلاق الجميلة فبرت أعمالهم واستعملوها بأعمال البر، فأخبر أنهم ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور أي: خلط به ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور في غاية اللذة قد سلم من كل مكدر ومنغص موجود في كافور الدنيا فإن الآفة الموجودة في الدنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة، كما قال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربونه لا يخافون نفاده بل له مادة لا تنقطع وهي عين دائمة الفيضان والجريان يفجرها عباد الله تفجيرًا أنى شاءوا وكيف أرادوا، فإن شاءوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات أو إلى الرياض النضرات أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات أو إلى أي جهة يرونها من الجهات المونقات، ثم ذكر جملة من أعمالهم فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي: بما ألزموا به أنفسهم من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر الذي هو غير واجب في الأصل عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية من باب أولى وأحرى ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: قياسًا متنشرًا فخافوا أن ينالهم شره فتركوا كل سبب موجب لذلك ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام ولكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى ويقولون

بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ أى: لا جزاء ماليًا ولا ثناء قوليًا ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾ أى: شديد الجهمة والشر ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ أى: ضنكًا ضيقًا ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ فلا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أى: أكرمهم وأعطاهم ﴿نَضْرَةً﴾ فى وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ فى قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعته فعملوا ما أمكنهم منها وعن معاصيه فتركوها وعلى أقداره المؤلمة فلم يتسخطوها ﴿جَنَّةً﴾ جامعة لكل نعيم سالمة من كل مكدر ومنغص ﴿وَحَرِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ولعل الله إنما خص الحرير لأنه لباسهم الظاهر الدال على حال صاحبه ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الاتكاء: التمكن من الجلوس فى حال الطمأنينة والراحة والرفاهية والأرائك هى: السرر التى عليها اللباس المزين ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ أى: فى الجنة ﴿شَمْسًا﴾ يضرهم حرها ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أى: بردًا شديدًا بل جميع أوقاتهم فى ظل ظليل لا حر ولا برد بحيث تلتذ به الأجساد ولا تتألم من حر ولا برد ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أى: قربت ثمراتها من مريدها تقريبًا ينالها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ أى: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة ﴿بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أى: مادتها فضة وهى على صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء أن تكون الفضة الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أى: قدروا الأوانى المذكورة على قدر ريِّهم لا تزيد ولا تنقص لأنها لو زادت نقصت لذتها ولو نقصت لم تكفهم لريهم، ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بمقدار يوافق لذاتهم فأتتهم على ما قدروا فى خواطرهم ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ أى: فى الجنة ﴿كَأْسًا﴾ وهو الإناء من خمر ورحيق ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أى: خلطها ﴿زَنجَبِيلًا﴾ ليطيب طعمه وريحه ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ سميت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: على أهل الجنة فى طعامهم وشرابهم وخدمتهم ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أى: خلقوا من الجنة للبقاء لا يتغيرون ولا يكبرون وهم فى غاية الحسن ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ منتشرين فى خدمتهم ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ من حسنهم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ وهذا من تمام لذة أهل الجنة أن يكون خدامهم الولدان المخلدون الذين تسر رؤيتهم ويدخلون فى مساكنهم آمنين من تبعتهم ويأتونهم بما يدعون وتطلبه نفوسهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أى: رمقت ما أهل الجنة عليه من النعيم الكامل ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ فتجد الواحد منهم عنده من المساكن والغرف المزينة المزخرفة ما لا يدركه الوصف ولديه من البساتين الزاهرة والثمار الدانية والفواكه اللذيذة والأنهار الجارية والرياض المعجبة والطيور المطربة الشجية ما يأخذ بالقلوب ويفرح النفوس وعنده من الزوجات اللاتى فى غاية الحسن والإحسان الجامعات لجمال الظاهر والباطن الخيرات الحسان ما يملأ القلب سرورًا ولذة وحبورًا، وحوله من الولدان المخلدين والخدم المؤبدين ما به تحصل الراحة والطمأنينة وتتم لذة العيش وتكمل الغبطة، ثم علاوة ذلك ومعظمه الفوز برضا الرب الرحيم وسماع خطابه ولذة قربه والابتهاج برضاه والخلود الدائم وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين فسبحان، مالك الملك الحق المبين الذى لا تنفد خزائنه ولا يقل خيره فكما لا نهاية لأوصافه فلا نهاية لبره وإحسانه ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ أى: قد جللتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من الحرير، والإستبرق: ما رق منه ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أى: حلوا فى أيديهم أساور: ذكورهم وإناثهم وهذا وعد وعدهم الله وكان وعده مفعولاً لأنه لا أصدق منه قيلاً ولا حديثًا، وقوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أى: لا كدر فيه بوجه من الوجوه مطهرًا لما فى بطونهم من كل أذى وقذى و ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الجزاء الجزيل ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ على ما أسلفتموه من الأعمال ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أى: القليل منه، يجعل الله لكم به من النعيم ما لا يمكن حصره، وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ وفيه الوعد والوعيد وبيان كل ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام والسعى فى تنفيذها والصبر على ذلك، ولهذا قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أى: اصبر لحكمه القدرى فلا تسخطه ولحكمه الدينى فامض عليه ولا يعوقنك عنه عائق ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ من المعاندين الذين

يريدون أن يصدوك ﴿آثِمًا﴾ أى: فاعلاً إثمًا ومعصية ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ فإن طاعة الكفار والفجار والفساق لا بد أن تكون معصية لله فإنهم لا يأمرون إلا بما تهواه أنفسهم، ولما كان الصبر يستمد من القيام بطاعة الله والإكثار من ذكره أمر الله بذلك فقال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أى: أول النهار وآخره، فدخل فى ذلك الصلوات المكتوبات وما يتبعها من النوافل والذكر والتسبيح والتهليل والتكبير فى هذه الأوقات ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ أى: أكثر له من السجود، وذلك متضمن لكثرة الصلاة ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ أى: المكذبين لك أيها الرسول بعدما بينت لهم الآيات ورغبوا ورهبوا ومع ذلك لم يفد فيهم ذلك شيئًا بل لا يزالون ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ ويطمئنون إليها ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أى: يتركون العمل ويهملون ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ أى: أمامهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ وهو يوم القيامة الذى مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ فكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة فيها، ثم استدل عليهم وعلى بعثهم بدليل عقلى وهو دليل الابتداء فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ أى: أوجدناهم من العدم ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أى: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب والعروق والأوتار والقوى الظاهرة والباطنة حتى تم الجسم واستكمل وتمكن من كل ما يريده، فالذى أوجدهم على هذه الحال قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذى نقلهم فى هذه الدار إلى هذه الأطوار لا يليق به أن يتركهم سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ أى: أنشأناهم للبعث نشأة أخرى وأعدناهم بأعيانهم وهم بأنفسهم أمثالهم ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أى: يتذكر بها المؤمن فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أى: طريقًا موصلاً إليه، فالله يبين الحق والهدى ثم يخير الناس بين الاهتداء بها والنفور عنها إقامة للحجة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن مشيئة الله نافذة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فله الحكمة فى هداية المهتدى وإضلال الضال ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ فيختصه بعنايته ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطريقها ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ الذين اختاروا الشقاء على الهدى ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بظلمهم وعدوانهم.

تم تفسير سورة الإنسان ولله الحمد



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾

أقسم تعالى على البعث والجزاء على الأعمال بالمرسلات عرفًا وهى: الملائكة التى يرسلها الله تعالى بشئونه القدرية وتدبير العالم وبشئونه الشرعية ووحيه إلى رسله، و ﴿عُرْفًا﴾ حال من المرسلات أى: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة لا بالنكر والعبث ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ وهى: أيضًا الملائكة التى يرسلها الله تعالى وصفها بالمبادرة لأمره وسرعة تنفيذ أوامره كالريح العاصف، أو: أن العاصفات الرياح الشديدة التى يسرع هبوبها ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ يحتمل أن المراد بها: الملائكة تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها: السحاب التى ينشر بها الله الأرض فيحييها بعد موتها ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هى: الملائكة تلقى أشرف الأوامر، وهو: الذكر الذى يرحم الله به عباده ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم تلقيه إلى الرسل ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أى: إعذارًا أو إنذارًا للناس،

تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف وتقطع أعذارهم فلا يكون لهم حجة على الله ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث والجزاء على الأعمال ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أى: منحتم وقوعه من غير شك ولا ارتياب، فإذا وقع حصل من التغير والأهوال الشديدة للعالم ما يزعج القلوب وتشتد له الكروب فتنطمس النجوم أى: تتناثر وتزول عن أماكنها وتنسف الجبال فتكون كالهباء المنثور وتكون هى والأرض قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا وذلك اليوم هو اليوم الذى أقتت فيه الرسل وأجلت للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل، ثم أجاب بقوله: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ أى: بين الخلائق بعضهم من بعض وحساب كل منهم منفردًا، ثم توعد المكذب بهذا اليوم فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أى: يا حسرتهم وشدة عذابهم وسوء منقلبهم أخبرهم الله وأقسم لهم فلم يصدقوه فلذلك استحقوا العقوبة البليغة.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

أى: أما أهلكنا المكذبين السابقين ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة فى كل مجرم لا بد من عقابه فلم لا تعتبرون بما ترون وتسمعون؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعد ما شاهدوا من الآيات البينات والعقوبات والمثلات.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

أى: أما خلقناكم أيها الآدميون ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أى: فى غاية الحقارة خرج من بين الصلب والترائب حتى جعله الله ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهو الرحم به يستقر وينمو ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ووقت مقدر ﴿فَقَدَرْنَا﴾ أى: قدرنا ودبرنا ذلك الجنين فى تلك الظلمات ونقلناه من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى أن جعله الله جسدًا ونفخ فيه الروح ومنهم من يموت قبل ذلك ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ يعنى بذلك نفسه المقدسة لأن قدره تابع لحكمته موافق للحمد ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

أى: أما مننا عليكم وأنعمنا بتسخير الأرض لمصالحكم، فجعلناها ﴿كِفَاتًا﴾[1] لكم ﴿أَحْيَاءً﴾ فى الدور ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ فى القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنته فكذلك القبور رحمة فى حقهم وستر لهم عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أى: جبالاً ترسى الأرض لئلا تميد بأهلها فثبتها الله بالجبال الراسيات الشامخات أى: الطوال العراض ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أى: عذبًا زلالاً، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مع ما أراهم الله من النعم التى انفرد بها واختصهم بها فقابلوها بالتكذيب، هذا من الويل الذى أعد للمجرمين المكذبين أن يقال لهم يوم القيامة

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾

---

(١) كفاتًا، أى: وعاء تضم الأحياء والأموات، والمعنى: أن الأرض تجمع الناس جميعهم، ظهرها لأحيائهم، وبطنها لأمواتهم.

﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ أي: إلى ظل نار جهنم التي تتمايز في خلال ثلاث شعب أي: قطع من النار تتعاوره وتتناوبه وتجتمع به ﴿لا ظليل﴾ ذلك الظل أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة ﴿ولا يغني﴾ من مكث فيه ﴿من اللهب﴾ بل اللهب قد أحاط به يمنة ويسرة ومن كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾ ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾ ثم ذكر عظيم شرر النار الدال على عظمها وفظاعتها وسوء منظرها فقال: ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر ﴿٣٢﴾ كأنه جمالت صفر﴾ وهي: السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة وهذا يدل على أن النار مظلمة لهبها وجمرها وشررها وأنها سوداء كريهة المنظر شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها ومن الأعمال المقربة منها ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أي: هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ أي: لا تقبل معذرتهم ولو اعتذروا ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ لنفصل بينكم ونحكم بين الخلائق ﴿فإن كان لكم كيد﴾ تقدرون على الخروج به عن ملكي وتنجون من عذابي ﴿فكيدون﴾ أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما قال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ ففي ذلك اليوم تبطل حيل الظالمين ويضمحل مكرهم وكيدهم ويستسلمون لعذاب الله ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

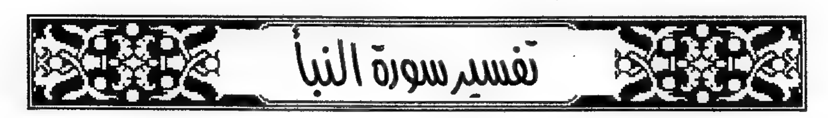
لما ذكر عقوبة المكذبين ذكر مثوبة المحسنين فقال: ﴿إن المتقين﴾ أي: للتكذيب المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات وتركهم المحرمات ﴿في ظلال﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة الزاهرة البهية ﴿وعيون﴾ جارية من السلسبيل والرحيق وغيرهما ﴿وفواكه مما يشتهون﴾ أي: من خيار الفواكه وأطيبها يقال لهم: ﴿كلوا واشربوا﴾ من المآكل الشهية والأشربة اللذيذة ﴿هنيئا﴾ أي: من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل ﴿بما كنتم تعملون﴾ فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى جنات النعيم المقيم، وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله ولهذا قال: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين ﴿٤٤﴾ ويل يومئذ للمكذبين﴾ ولو لم يكن من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم لكفى به حزنا وحرمانا.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

هذا تهديد ووعيد للمكذبين أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا باللذات وغفلوا عن القربات فإنهم مجرمون يستحقون ما يستحقه المجرمون فتنقطع عنهم اللذات وتبقى عليهم التبعات، ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات وقيل لهم ﴿اركعوا﴾ امتنعوا من ذلك، فأي إجرام فوق هذا؟ وأي

تكذيب يزيد على هذا؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ومن الويل عليهم أنهم تنسد عنهم أبواب التوفيق ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الذى هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أبالباطل الذى هو كاسمه لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام مشرك كذاب أفاك مبين؟ فليس بعد النور المبين إلا دياجى الظلمات ولا بعد الصدق الذى قامت عليه الأدلة والبراهين القاطعة إلا الإفك الصراح والكذب المبين الذى لا يليق إلا بمن يناسبه، فتبًا لهم ما أعماهم! وويحًا لهم ما أخسرهم وأشقاهم، نسأل الله العفو والعافية إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة المرسلات ـ ولله الحمد



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾

أى: عن أى شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟ ثم بيَّن ما يتساءلون عنه فقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أى: عن الخبر العظيم الذى طال فيه نزاعهم وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد وهو: النبأ الذى لا يقبل الشك ولا يدخله الريب ولكن المكذبين بلقاء ربهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم، ولهذا قال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أى: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ما كانوا به يكذبون حين يُدعُّون إلى نار جهنم دعًا ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ثم ذكر تعالى النعم والأدلة الدالة على ما جاءت به الرسل فقال:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

أى: أما أنعمنا عليكم بنعم جليلة فجعلنا لكم ﴿الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أى: ممهدة مذللة لكم ولمصالحكم من الحروث والمساكن والسبل ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى: ذكورًا وإناثًا من جنس واحد ليسكن كل منهما إلى الآخر فتتكون المودة والرحمة وتنشأ عنهما الذرية وفى ضمن هذا الامتنان بلذة المنكح ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أى: راحة لكم وقطعًا لأشغالكم التى متى تمادت بكم أضرت بأبدانكم فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس لتسكن حركاتهم الضارة وتحصل راحتهم النافعة ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أى: سبع سموات فى غاية القوة والصلابة والشدة، وقد أمسكها الله بقدرته وجعلها سقفًا للأرض فيها عدة منافع لهم ولهذا ذكر من منافعها الشمس فقال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ نبه بالسراج على النعمة بنورها الذى صار ضرورة للخلق، وبالوهاج وهى حرارتها على ما فيها من الإنضاج والمنافع ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ أى: السحاب ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ أى: كثيرًا جدًا ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا﴾ من بر وشعير وذرة وأرز وغير ذلك مما يأكله الآدميون ﴿وَنَبَاتًا﴾ يشمل سائر النبات الذى جعله الله قوتًا لمواشيهم ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ أى: بساتين ملتفة فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة، فالذى أنعم بهذه النعم الجليلة التى لا يقدر قدرها ولا يحصى عددها كيف تكفرون به وتكذبون ما أخبركم به من البعث والنشور؟! أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه وتجحدونها؟.

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) ﴾

ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون ويجحده المعاندون أنه يوم عظيم وأن الله جعله ﴿ مِيقَاتًا ﴾ للخلق ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ ويجرى فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له المولود وتنزعج له القلوب، فتسير الجبال حتى تكون كالهباء المنثور وتنشق السماء حتى تكون أبوابًا ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذى لا يجور وتوقد نار جهنم التى أرصدها الله وأعدها للطاغين وجعلها مثوى لهم ومآبًا وأنهم يلبثون فيها أحقابًا كثيرة و«الحقب» على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة فإذا وردوها ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ﴾ أى: لا ما يبرد جلودهم ﴿ وَلَا شَرَابًا ﴾ ولا ما يدفع ظمأهم ﴿ إِلَّا حَمِيمًا ﴾ أى: ماء حارًا يشوى وجوههم ويقطع أمعاءهم ﴿ وَغَسَّاقًا ﴾ وهو صديد أهل النار الذى هو فى غاية النتن وكراهة المذاق، وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ لهم على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها، لم يظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم ولهذا ذكر أعمالهم التى استحقوا بها هذا الجزاء فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ أى: لا يؤمنون بالبعث ولا أن الله يجازى الخلق بالخير والشر فلذلك أهملوا العمل للآخرة ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ أى: كذبوا بها تكذيبًا واضحًا صريحًا وجاءتهم البينات فعاندوها ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ من قليل أو كثير وخير وشر ﴿ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ أى: أثبتناه فى اللوح المحفوظ فلا يحسب المجرمون أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ﴿ فَذُوقُوا ﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والخزى الدائم ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ فكل وقت وحين يزداد عذابهم، وهذه الآية أشد الآيات فى شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) ﴾

لما ذكر حال المجرمين ذكر مآل المتقين فقال: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ أى: الذين اتقوا سخط ربهم بالتمسك بطاعته والانكفاف عن معصيته فلهم مفاز ومنجى وبُعْدٌ عن النار وفى ذلك المفاز لهم ﴿ حَدَائِقَ ﴾ وهى: البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية بالثمار ﴿ وَأَعْنَابًا ﴾ تتفجر خلالها الأنهار، وخص العنب لشرفه وكثرته فى تلك الحدائق ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ وهى: النواهد اللاتى لم ينكسر ثديهن من شبابهن وقوتهن ونضارتهن ﴿ أَتْرَابًا ﴾ أى: على سن واحد متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات متعاشرات، وذلك السن الذى هن فيه ثلاث وثلاثون سنة أعدل ما يكون من الشباب ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ أى: مملوءة من رحيق لذة للشاربين ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أى: كلامًا لا فائدة فيه ﴿ وَلَا كِذَّابًا ﴾ أى: إثمًا، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل من فضله وإحسانه ﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ أى: بسبب أعمالهم التى وفقهم الله لها وجعلها سببًا للوصول إلى كرامته.

﴿ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾

أى: الذى أعطاهم هذه العطايا هو ربهم ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الذى خلقها ودبرها ﴿الرَّحْمَنِ﴾ الذى رحمته وسعت كل شىء فرباهم ورحمهم ولطف بهم حتى أدركوا ما أدركوا، ثم ذكر عظمته وملكه العظيم يوم القيامة وأن جميع الخلق كلهم ساكتون ذلك اليوم لا يتكلمون، و ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا، فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين: أن يأذن الله له فى الكلام، وأن يكون ما تكلم به صوابًا، لأن ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ الذى لا يروج فيه الباطل ولا ينفع فيه الكذب وذلك ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ وهو: جبريل عليه السلام الذى هو أفضل الملائكة ﴿وَالْمَلائِكَةُ﴾ أيضًا، يقوم الجميع ﴿صَفًّا﴾ خاضعين لله ﴿لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فلما رغّب ورهّب وبشّر وأنذر قال: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ أى: عملاً وقدم صدق يرجع إليه يوم القيامة ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ لأنه قد أزف مقبلاً وكل ما هو آت قريب ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أى: هذا الذى يهمه ويفزع إليه فلينظر فى هذه الدار ما قدم لدار القرار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ الآيات، فإن وجد خيرًا فليحمد الله وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة النبأ ـ ولله الحمد



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤)﴾

هذه الإقسامات بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله وإسراعهم فى تنفيذه، يحتمل أن المقسم عليه الجزاء والبعث بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك، ويحتمل أن المقسم عليه والمقسم به متحدان وأنه أقسم على الملائكة لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، ولأن فى ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذى تتولاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده فقال: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ وهم: الملائكة التى تنزع الأرواح بقوة وتغرق فى نزعها حتى تخرج الروح فتجازى بعملها ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ وهى: الملائكة أيضًا تجتذب الأرواح بقوة ونشاط، أو أن النشط يكون لأرواح المؤمنين والنزع لأرواح الكفار ﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾ أى: المترددات فى الهواء صعودًا ونزولاً ﴿سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ﴾ لغيرها ﴿سَبْقًا﴾ فتبادر لأمر الله وتسبق الشياطين فى إيصال الوحى إلى رسل الله لئلا تسترقه ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة الذين جعلهم الله يدبرون كثيرًا من أمور العالم العلوى والسفلى من الأمطار والنبات والرياح والبحار والأجنة والحيوانات والجنة والنار وغير ذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ وهى قيام الساعة ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أى: الرجفة الأخرى التى تردفها وتأتى تلوها ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أى: منزعجة من شدة ما ترى وتسمع ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ أى: ذليلة حقيرة قد ملك قلوبهم الخوف وأذهل أفئدتهم الفزع وغلب عليهم التأسف واستولت عليهم الحسرة ﴿يَقُولُونَ﴾ أى: منكرو البعث فى الدنيا استهزاءً وإنكارًا للبعث: ﴿أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾(١) أى: أنرد بعد الموت إلى الخلقة الأولى؟ استفهام إنكارى

---

(١) والحافرة: اسم لأول الأمر، ومنه «رجع فلان إلى حافرته» إذا رجع من حيث جاء، ويقال لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه: «رجع إلى حافرته» أى: إلى حالته الأولى، ويقال: «النقد فى الحافرة» أى: عند الحالة الأولى، وهى: الصفقة.

مشتمل على غاية التعجب ونهاية الاستغراب، أنكروا البعث ثم ازدادوا استبعاداً فاستمروا ﴿يقولون﴾ أى: الكفار فى الدنيا علـى وجه التكذيب: ﴿أءذا كنا عظاما نخرة﴾ أى: بالية فتاتًا، والمعنـى أنرد إلى الحياة بعد أن صرنا عظامًا وهـى رميم؟ ﴿قالوا تلك إذا كرة خاسرة﴾ أى: استبعدوا أن يبعثهم الله ويعـيدهم بعدما كانوا عظامًا نخرة جهلاً منهم بقدرة الله وتجرؤاً عليه، قال الله فى بيان سهولة هذا الأمر عليه: ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ ينفخ فى الصور ﴿فإذا هم﴾ أى: الخلائق كلهم ﴿بالساهرة﴾ أى: على وجه الأرض قيام ينظرون فيجمعهم الله ويقضى بينهم بحكمه العدل ويجازيهم.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿هل أتاك حديث موسىٰ﴾ وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه أى: هل أتاك حـديثه ﴿إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾ وهو المحل الذى كلمة الله فيـه وامتن عليه بالرسالة وابتعثه بالوحى واجتباه فقال له: ﴿اذهب إلىٰ فرعون إنه طغىٰ﴾ أى: فانهه عن طغيانه وشركه وعصيانه، بقول لين وخطاب لطيف لعله ﴿يتذكر أو يخشىٰ﴾ ﴿فقل﴾ له: ﴿هل لك إلىٰ أن تزكىٰ﴾ أى: هل لك فى خصلة حميدة ومحمدة جميلة يتنافس فيها أولو الألباب وهى: أن تُزكِّىَ نفسك وتطهرها من دنس الكفـر والطغيان إلى الإيمان والعمل الصالح؟ ﴿وأهديك إلىٰ ربك﴾ أى: أدلك عليه وأُبيِّنُ لك مواقع رضاه من مواقع سخطه ﴿فتخشىٰ﴾ الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى ﴿فأراه الآية الكبرىٰ﴾ أى: جنس الآية الكبرى فلا ينافى تعددها ﴿فألقىٰ عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴿١٠٧﴾ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ ﴿فكذب﴾ بالـحق ﴿وعصىٰ﴾ الأمر ﴿ثم أدبر يسعىٰ﴾ أى: يجتهد فى مبارزة الحق ﴿فحشر﴾ جنوده أى: جمعهم ﴿فنادىٰ ﴿٢٣﴾ فقال﴾ لهم: ﴿أنا ربكم الأعلىٰ﴾ فاذعنوا له وأقروا بباطله حين استخفهم ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولىٰ﴾ أى: جعل الله عقوبته دليلاً وزاجراً ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشىٰ﴾ فإن من يخشى الله هو الذى ينتفع بالآيات والعبر، فإذا رأى عقوبة فرعـون عرف، أن من تكبر وعصى وبارز الملك الأعلى يعـاقبه فى الدنيا والآخرة وإن من ترحلت خشية الله من قلبه فلو جاءته كل آية لا يؤمن بها.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى مبينًا دليلاً واضحًا لمنكرى البعث ومستبعدي إعادة الله للأجساد: ﴿أأنتم﴾ أيها البشر ﴿أشد خلقًا أم السماء﴾ ذات الجرم العظيم والخلق القوى والارتفاع الباهر ﴿بناها﴾ الله ﴿رفع سمكها﴾ أى: جرمها وصورتها ﴿فسواها﴾ بإحكام وإتقان يحير العقول ويذهل الألباب ﴿وأغطش ليلها﴾ أى: أظلمه فعمت الظلمة جميع أرجاء السـماء، فأظلم وجه الأرض ﴿وأخرج ضحاها﴾ أى: أظهر فيه الـنور العظيم حين أتى بالشمس فانتشر الناس فى مصالح دينهم ودنياهم ﴿والأرض بعد ذلك﴾ أى: بعد خلق السماء ﴿دحاها﴾ أى: أودع فيها منافعها وفـسر ذلك بقوله: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها ﴿٣١﴾ والجبال أرساها﴾ أى: ثبتهـا بالأرض، فدحى الأرض بعد خلق السمـوات، كما هو نص هذه الآيات الكريمة، وأما خلق نفس الأرض فـمتقدم على خلق السمـاء كما قال تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادًا ذلك رب العالمين﴾ إلى أن قال: ﴿ثم استوىٰ إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين﴾ فالذى خلق السموات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام والأرض الغـبراء الكثيفة وما فيها من ضـروريات الخلق ومنافعهم لا بد أن يبعث الخلق

المكلفين فيجازيهم بأعمالهم فمن أحسن فله الحسنى ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزاء فقال:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾

أي: إذا جاءت القيامة الكبرى والشدة العظمى التي يهون عندها كل شدة فحينئذ يذهل الوالد عن ولده والصاحب عن صاحبه وكل محب عن حبيبه و ﴿يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ في الدنيا من خير وشر فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته ويغم ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته، ويعلم إذا ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعاه في الدنيا وينقطع كل سبب وصلة كانت له في الدنيا سوى الأعمال ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أي: جعلت في البراز ظاهرة لكل أحد قد هيئت لأهلها واستعدت لأخذهم منتظرة لأمر ربها ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي: جاوز الحد بأن تجرأ على المعاصي الكبار ولم يقتصر على ما حده الله ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة فصار سعيه لها ووقته مستغرقًا في حظوظها وشهواتها ونسي الآخرة والعمل لها ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ له أي: المقر والمسكن لمن هذه حاله ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل فأثر هذا الخوف في قلبه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ الذي يصدها عن طاعة الله وصار هواه تبعًا لما جاء به الرسول وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ﴾ المشتملة على كل خير وسرور ونعيم ﴿هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ لمن هذا وصفه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾

أي: يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ متى وقوعها ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ فأجابهم الله بقوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية بل المصلحة في إخفائه عليهم طوى علم ذلك عن جميع الخلق واستأثر بعلمه فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ أي: إليه ينتهي علمها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ أي: إنما نذارتك نفعها لمن يخشى مجيء الساعة ويخاف الوقوف بين يدي الله فهم الذين لا يهمهم إلا الاستعداد لها والعمل لأجلها، وأما من لم يؤمن بها فلا يبالي به ولا يتعنته لأنه تعنت مبني على التكذيب والعناد وإذا وصل إلى هذه الحال كانت الإجابة عنه عبثًا ينزه أحكم الحاكمين عنه.

تم تفسير سورة النازعات - بعون الله وتوفيقه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠)﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبى ﷺ ويتعلم منه وجاء رجل من الأغنياء وكان ﷺ حريصًا على هداية الخلق فمال ﷺ وأصغى إلى الغنى وصد عن الأعمى الفقير رجاء لهداية ذلك الغنى وطمعًا فى تزكيته فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف فقال: ﴿عَبَسَ﴾ أى: فى وجهه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ فى بدنه، لأجل مجىء الأعمى له، ثم ذكر الفائدة فى الإقبال عليه فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ﴾ أى: الأعمى ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ أى: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة ويتصف بالأخلاق الجميلة؟ ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ أى: يتذكر ما ينفعه فينتفع بتلك الذكرى، وهذه فائدة كبيرة هى المقصودة من بعثة الرسل ووعظ الوعاظ وتذكير المذكرين فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقرًا لذلك مقبلاً هو الأليق الواجب، وأما تصديك وتعرضك للغنى المستغنى الذى لا يسأل ولا يستفتى لعدم رغبته فى الخير مع تركك من هو أهم منه فإنه لا ينبغى لك فإنه ليس عليك ألا يزكى فلو لم يتزك فلست بمحاسب على ما عمله من الشر، فدل هذا على القاعدة المشهورة أنه «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة» وأنه ينبغى الإقبال على طالب العلم المفتقر إليه الحريص عليه أزيد من غيره.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أى: حقًا إن هذه الموعظة تذكرة من الله يذكر بها عباده ويبين لهم فى كتابه ما يحتاجون إليه ويبين الرشد من الغى فإذا تبين ذلك ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أى: عمل به كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها فقال: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ﴾ القدر والرتبة ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ من الآفات، وعن أن ينالها أيدى الشياطين أو يسترقوها، بل هى ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ وهم الملائكة الذين هم سفراء بين الله وبين عباده ﴿كِرَامٍ﴾ أى: كثيرى الخير والبركة ﴿بَرَرَةٍ﴾ قلوبهم وأعمالهم، وذلك كله حفظ من الله لكتابه أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول، ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفورًا ولهذا قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق بعدما تبين وهو ما هو هو من أضعف الأشياء خلقه من ماء مهين ثم قدر خلقه وسواه بشرًا سويًا وأتقن قواه الظاهرة والباطنة ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أى: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية وهداه السبيل وبينه وامتحنه بالأمر والنهى ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أى: أكرمه بالدفن ولم يجعله كسائر الحيوانات التى تكون جيفها على وجه الأرض ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أى: بعثه بعد موته للجزاء، فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف لم يشاركه فيه مشارك، وهو - مع هذا - لا يقوم بما أمره الله ولم يقض ما فرضه عليه بل لا يزال مقصرًا تحت الطلب، ثم أرشده الله إلى النظر والتفكر فى طعامه وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة ويسره له فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أى: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾ للنبات ﴿شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ أصنافًا مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة والأقوات الشهية ﴿حَبًّا﴾ وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وهو القت ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ وخص هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أى: بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ الفاكهة: ما يتفكه فيه الإنسان من تين وعنب وخوخ ورمان وغير ذلك، والأب: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ التى خلقها الله

وسخرها لكم، فمن نظر فى هذه النعم أوجب له ذلك شكر ربه وبذل الجهد فى الإنابة إليه والإقبال على طاعته والتصديق لأخباره.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

أى: إذا جاءت صيحة القيامة التى تصخ لهولها الأسماع وتنزعج لها الأفئدة يومئذ مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال ﴿يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾ من أعز الناس عليه وأشفقهم عليه ﴿مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ﴾ أى زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ وذلك لأنه ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أى: قد شغلته نفسه واهتم لفكاكها ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء فوجوههم ﴿يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ أى: قد ظهر فيها السرور والبهجة لما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ﴾ الأشقياء ﴿يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا﴾ أى: تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ فهى سوداء مظلمة مدلهمة قد أيست من كل خير وعرفت شقاءها وهلاكها ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بهذا الوصف ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أى: الذين كفروا بنعمة الله وكذبوا بآياته وتجرءوا على محارمه، نسأل الله العفو والعافية إنه جواد كريم.

تفسير سورة التكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

أى: إذا حصلت هذه الأمور الهائلة تميز الخلق وعلم كلٌّ ما قدمه لآخرته وما أحضره فيها من خير وشر وذلك: أنه إذا كان يوم القيامة تكور الشمس أى: تجمع وتلف ويخسف القمر ويلقيان فى النار ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أى: تغيرت وتناثرت من أفلاكها ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أى: صارت كثيبًا مهيلاً ثم صارت كالعهن المنفوش ثم تغيرت وصارت هباء منبثًا وأزيلت عن أماكنها ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أى: عطل الناس يومئذ نفائس أموالهم التى كانوا يهتمون لها ويراعونها فى جميع الأوقات فجاءهم ما يذهلهم عنها، فنبه بالعشار ـ وهى: النوق التى تتبعها أولادها وهى أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم ـ على ما هو فى معناها من كل نفيس ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أى: جمعت ليوم القيامة ليقتص الله من بعضها لبعض ويرى العباد كمال عدله حتى إنه يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم يقال لها كونى ترابًا ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أى: أوقدت فصارت ـ على عظمها ـ نارًا تتوقد ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أى: قرن كل صاحب عمل مع نظيره فجمع الأبرار مع الأبرار والفجار مع الفجار وزوج المؤمنون بالحور العين والكافرون بالشياطين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ وهى ما كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب إلا خشية الفقر فتسأل ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب ولكن هذا فيه توبيخ وتقريع لقاتليها ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ﴾ المشتملة على ما عمله العاملون

من خير وشر ﴿نُشِرَتْ﴾ وفرقت على أهلها فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أى: أزيلت كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أى: أوقد عليها فاستعرت والتهبت التهابًا لم يكن لها قبل ذلك ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أى: قربت للمتقين ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أى: كل نفس لإتيانها فى سياق الشرط ﴿مَا أَحْضَرَتْ﴾ أى: ما حضر لديها من الأعمال التى قدمتها كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ وهذه الأوصاف التى وصف بها يوم القيامة من الأوصاف التى تنزعج لها القلوب وتشتد من أجلها الكروب وترتعد الفرائص وتعم المخاوف وتحث أولى الألباب للاستعداد لذلك اليوم وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأى عين فليتدبر سورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أقسم تعالى ﴿بِالْخُنَّسِ﴾ وهى: من الكواكب التى تخنس أى: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق، وهى: النجوم السبعة السيارة: الشمس والقمر والزهرة والمشترى والمريخ وزحل وعطارد، فهذه السبعة لها سيران: سير إلى جهة المغرب مع سائر الكواكب والفلك، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها، فأقسم الله بها فى حال خنوسها أى تأخرها، وفى حال جريانها وفى حال كنوسها، أى: استتارها بالنهار، ويحتمل أن المراد بها: جميع الكواكب السيارة وغيرها ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أى: أقبل، وقيل: أدبر ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أى: بدت علائم الصبح وانشق النور شيئًا فشيئًا حتى يستكمل وتطلع الشمس، وهذه آيات عظام أقسم الله عليها بقوة سند القرآن وجلالته وحفظه من كل شيطان رجيم فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهو: جبريل عليه السلام نزل به من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه وخصاله الحميدة فإنه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند ربه ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ على ما أمره الله به، ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أى: جبريل مقرب عند الله له منزلة رفيعة وخصيصة من الله اختصه بها ﴿مَكِينٍ﴾ أى: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أى: جبريل مطاع فى الملأ الأعلى لأنه من الملائكة المقربين نافذ فيهم أمره مطاع رأيه ﴿أَمِينٍ﴾ أى: ذو أمانة وقيام بما أمر به لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى ما حُدَّ له، وهذا كله يدل على شرف القرآن عند الله تعالى فإنه بعث به هذا الملك الكريم الموصوف بتلك الصفات الكاملة، والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا فى أهم المهمات وأشرف الرسائل، ولما ذكر فضل الرسول الملكى الذى جاء بالقرآن ذكر فضل الرسول البشرى الذى نزل عليه القرآن ودعا إليه الناس فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ وهو محمد ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته المتقولون عليه الأقوال التى يريدون أن يطفئوا بها ما جاء به، بل هو أكمل الناس عقلاً وأجزلهم رأيًا وأصدقهم لهجة ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أى: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق البيِّن الذى هو أعلى ما يلوح للبصر ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أى: وما هو على ما أوحاه الله إليه بشحيح يكتم بعضه بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض الذى بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشىء منه عن غنىٍّ ولا فقير ولا رئيس ولا مرءوس ولا ذكر ولا أنثى ولا حضرىٍّ ولا بدوىٍّ ولذلك بعثه الله فى أمة أمية جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا

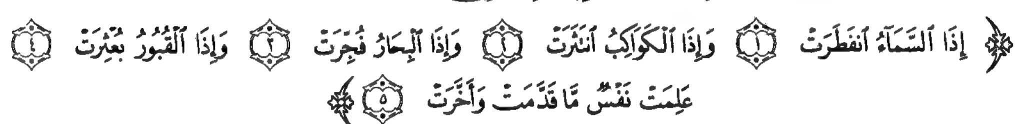
علماء ربانيين وأحبارًا متفرسين، إليهم الغاية فى العلوم وإليهم المنتهى فى استخراج الدقائق والمفهوم وهم الأساتذة وغيرهم، قصاراه أن يكونوا من تلاميذهم ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ لما ذكر جلالة كتابه وفضله بذكر الرسولين الكريمين اللذين وصل إلى الناس على أيديهما وأثنى الله عليهما بما أثنى دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح فى صدقه فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ أى: فى غاية البعد عن الله وعن قربه ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أى: كيف يخطر هذا ببالكم وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذى هو فى أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب الذى هو أنزل ما يكون وأرذل وأسفل الباطل؟ هل هذا إلا من انقلاب الحقائق[1] ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ربهم وما له من صفات الكمال وما ينزه عنه من النقائص والرذائل والأمثال، ويتذكرون به الأوامر والنواهى وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة يتذكرون به مصالح الدارين وينالون بالعمل به السعادتين ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بعدما تبين الرشد من الغى والهدى من الضلال ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: فمشيئته نافذة لا يمكن أن تعارض أو تمانع، وفى هذه الآية وأمثالها رد على فِرْقَتَىِ القدرية النفاة والقدرية المجبرة، كما تقدم من أمثالها، والله أعلم والحمد لله.

تم تفسير سورة التكوير ـ والحمد لله رب العالمين



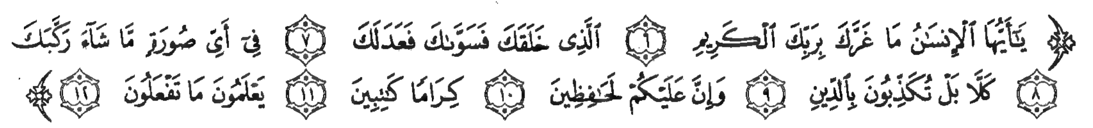
تفسير سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥)﴾

أى: إذا انشقت السماء وانفطرت وتناثرت نجومها وزال جمالها وفجرت البحار فصارت بحرًا واحدًا، وبعثرت القبور بأن أخرج ما فيها من الأموات وحشروا للموقف بين يدى الله للجزاء على الأعمال فحينئذ ينكشف الغطاء ويزول ما كان خفيًا، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسران، هنالك يعض الظالم على يديه إذا رأى ما قدمت يداه وأيقن بالشقاء الأبدى والعذاب السرمدى، وهنالك يفوز المتقون المقدمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم والنعيم المقيم والسلامة من عذاب الجحيم.



﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾

يقول تعالى معاتبًا للإنسان المقصر فى حقه المتجرئ على معاصيه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أتهاونًا منك فى حقوقه؟ أم احتقارًا منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟ أليس هو ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ﴾ فى أحسن تقويم؟ ﴿فَعَدَلَكَ﴾ وركبك تركيبًا قويمًا معتدلاً فى أحسن الأشكال وأجمل الهيئات، فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم أو تجحد إحسان المحسن؟ إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك، فاحمد الله إذ لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار أو نحوهما من الحيوانات، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أى: مع هذا الوعظ والتذكير لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء، وأنتم

---

(١) قوله: «من انقلاب الحقائق» الصواب أن يقال «من قلب الحقائق» حتى يكون نصًا على معاندة المعاندين وتحريفهم.

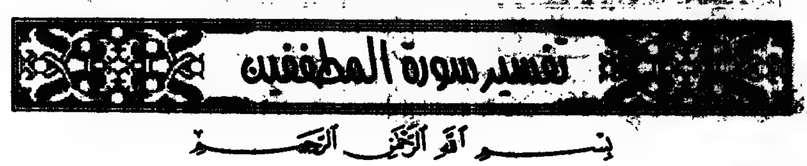
وأما كلمة «انقلاب» فلا تؤدى هذا المعنى بل تدل على التأثر بفعل آخر لأنها من أفعال المطاوعة، والمطاوع يدل على أثر فاعل فعل آخر فكلمة «انقلاب» مطاوع لكلمة «قلب».

لا بد أن تحاسبوا على ما عملتم وقد أقام الله عليكم ملائكة كرامًا يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمونها فدخل فى هذا أفعال القلوب وأفعال الجوارح فاللائق بكم أن تكرموهم وتجلوهم.

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

المراد بالأبرار هم القائمون بحقوق الله وحقوق عباده الملازمون للبر فى أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فهؤلاء جزاؤهم النعيم فى القلب والروح والبدن فى دار الدنيا وفى دار البرزخ وفى دار القرار ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ الذين قصروا فى حقوق الله وحقوق عباده الذين فجرت قلوبهم ففجرت أعمالهم ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ أى: عذاب أليم فى دار الدنيا ودار البرزخ وفى دار القرار ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويعذبون بها أشد العذاب ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ أى: يوم الجزاء على الأعمال ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أى: بل هم ملازمون لها لا يخرجون منها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ فى هذا تهويل لذلك اليوم الشديد الذى يحير الأذهان ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ ولو كانت قريبة أو حبيبة مصافية فكل مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فهو الذى يفصل بين العباد ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه، والله أعلم.

تم تفسير سورة الانفطار - ولله الحمد والمنة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب وعقاب ﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ وفسر الله المطففين بأنهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أى: أخذوا منهم وفاء لهم عما قبلهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ كاملاً من غير نقص ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أى: إذا أعطوا الناس حقهم الذى لهم عليهم بكيل أو وزن ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أى: ينقصونهم ذلك إما بمكيال وميزان ناقصين أو بعدم ملء المكيال والميزان أو بغير ذلك، فهذا سرقة لأموال الناس وعدم إنصاف لهم منهم، وإذا كان هذا وعيداً على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان فالذى يأخذ أموالهم قهراً وسرقة أولى بهذا الوعيد من المطففين، ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذى له يجب أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل فى عموم هذا الحجج والمقالات فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ما له من الحجج فيجب عليه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجة التى لا يعلمها وأن ينظر فى أدلة خصمه كما ينظر فى أدلته هو، وفى هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه وتواضعه من كبره وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير، ثم توعد تعالى المطففين وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالذى جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر، وإلا فلو آمنوا به وعرفوا أنهم سيقومون بين يدى الله فيحاسبهم على القليل والكثير لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه.

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ وهذا شامل لكل فاجر من أنواع الكفرة والمنافقين والفاسقين ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ⑧ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة، والسجين: المحل الضيق الضنك و «سجين» ضد «عليين» الذي هو محل كتاب الأبرار كما سيأتي، وقد قيل: إن «سجين» هو أسفل الأرض السابعة مأوى الفجار ومستقرهم في معادهم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثم بينهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ على محارم الله، متعد الحلال إلى الحرام ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الإثم فهذا يحمله عدوانه على التكذيب ويوجب له كبره رد الحق ولهذا قال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ الدالة على الحق وعلى صدق ما جاءت به الرسل كذبها وعاندها ﴿قَالَ﴾ هذه ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين ليست من عند الله تكبراً وعنادًا، وأما من أنصف وكان مقصوده الحق المبين فإنه لا يكذب بيوم الدين لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة والبراهين ما يجعله حق اليقين وصار لبصائرهم بمنزلة الشمس للأبصار بخلاف من ران على قلبه كسبه وغطته معاصيه فإنه محجوب عن الحق، ولهذا جوزي على ذلك بأن حجب عن الله كما حجب قلبه عن آيات الله ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ مع هذه العقوبة البليغة ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [1] ثم يقال لهم توبيخًا وتقريعًا ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب عن رب العالمين المتضمن لسخطه وغضبه عليهم وهو أعظم عليهم من عذاب النار، ودل مفهوم الآية على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في الجنة ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات ويبتهجون بخطابه ويفرحون بقربه كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن وتواتر فيه النقل عن رسول الله ﷺ، وفي هذه الآيات التحذير من الذنوب فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئًا فشيئًا حتى ينطمس نوره وتموت بصيرته فتنقلب عليه الحقائق فيرى الباطل حقًا والحق باطلاً، وهذا من أعظم عقوبات الذنوب.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقها ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها وأفسحها، وأن كتابهم ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ⑳ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء وينوه الله بذكرهم في الملأ الأعلى، و «عليون» اسم لأعلى الجنة، فلما ذكر كتابهم ذكر أنهم في نعيم وهو: اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن ﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ أي: على السرر المزينة بالفرش الحسان ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم وينظرون إلى وجه ربهم الكريم ﴿تَعْرِفُ﴾ أيها الناظر ﴿فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي: بهاءه ونضارته ورونقه فإن توالي اللذات والمسرات والأفراح يكسب الوجه نوراً وحسنًا وبهجة ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها ﴿مَّخْتُومٍ﴾ ذلك الشراب ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته أو يفسد طعمه وذلك الختام الذي ختم به مسك، ويحتمل أن المراد أنه الذي يكون في آخر الإناء الذي يشربون منه الرحيق حثالة وهي المسك الأذفر، فهذا الكدر منه الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق يكون في الجنة بهذه المثابة ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ النعيم المقيم الذي لا يعلم حسنه ومقداره إلا الله

---

(١) أي: إنهم لداخلون النار المحرقة، وكلمة «ثم» لتراخي الرتبة، فإن صليَّ الجحيم أشد من الإهانة والحرمان من الرحمة والكرامة، ولا شك أن «الصلى» هو الاحتراق بالجحيم، متراخي عن الحرمان من رحمة الله وكرامته. اهـ. أبو السعود بتصرف.

﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أى: فليتسابقوا فى المبادرة إليه بالأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس وأحرى ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرجال ﴿وَ﴾ هذا الشراب ﴿مِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ صرفًا وهى أعلى أشربة الجنة على الإطلاق فلذلك كانت خالصة للمقربين الذين هم أعلى الخلق منزلة وممزوجة لأصحاب اليمين أى: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

لما ذكر تعالى جزاء المجرمين وجزاء المحسنين وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم أخبر أن المجرمين كانوا فى الدنيا يسخرون بالمؤمنين ويستهزئون بهم ويضحكون منهم فيتغامزون بهم عند مرورهم عليهم احتقارًا لهم وازدراء ومع هذا تراهم مطمئنين لا يخطر الخوف على بالهم ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ﴾ صباحًا ومساءً ﴿انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أى: مسرورين مغتبطين، وهذا أشد ما يكون من الاغترار أنهم جمعوا بين غاية الإساءة مع الأمن فى الدنيا حتى كأنهم قد جاءهم كتاب وعهد من الله أنهم من أهل السعادة وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى وأن المؤمنين ضالون افتراء على الله، وتجرءوا على القول عليه بلا علم، قال تعالى: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أى: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم حتى يحرصوا على رميهم بالضلال وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب ليس له مستند ولا برهان ولهذا كان جزاؤهم فى الآخرة من جنس عملهم، قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أى يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم فى غمرات العذاب يتقلبون وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون فى غاية الراحة والطمأنينة ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ وهى السرر المزينة ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أى: هل جوزوا من جنس عملهم؟ فكما ضحكوا فى الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال ضحك المؤمنون منهم فى الآخرة حين رأوهم فى العذاب والنكال الذى هو عقوبة الغى والضلال، نعم ثُوِّبوا ما كانوا يفعلون عدلاً من الله وحكمة والله عليم حكيم.

تم تفسير سورة المطففين ولله الحمد

تفسير سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥)﴾

يقول تعالى: مبينًا لما يكون فى يوم القيامة من تغيير الأجرام العظام: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ أى: انفطرت وتمايز بعضها من بعض وانتثرت نجومها وخسف شمسها وقمرها ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أى: استمعت لأمره وألقت سمعها وأصاخت لخطابه ﴿وَحُقَّتْ﴾ أى: حق لها ذلك فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم لا يعصى

أمره ولا يخالف حكمه ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أى: رجفت وارتجت ونسفت عليها جبالها ودك ما عليها من بناء ومَعْلَم فسويت ومدها الله مد الأديم حتى صارت واسعة جداً تسع أهل الموقف على كثرتهم فتصير قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الأموات والكنوز ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ منهم، فإنه ينفخ فى الصور فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض وتخرج الأرض كنوزها حتى تكون كالأسطوان العظيم يشاهده الخلق ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ أى: إنك ساع إلى الله وعامل بأوامره ونواهيه ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقى الله يوم القيامة فلا تعدم منه جزاء بالفضل أو العدل، بالفضل إن كنت سعيداً وبالعقوبة العادلة إن كنت شقيًا، ولهذا ذكر تفصيل الجزاء فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وهم أهل السعادة ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وهو العرض اليسير على الله فيقرره الله بذنوبه حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك قال الله تعالى: إنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أسترها لك اليوم ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ فى الجنة ﴿مَسْرُورًا﴾ لأنه قد نجا من العذاب وفاز بالثواب ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أى: بشماله من وراء ظهره ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ من الخزى والفضيحة وما يجد فى كتابه من الأعمال التى قدمها ولم يتب منها ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أى: تحيط به السعير من كل جانب ويقبل على عذابها وذلك ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ لا يخطر البعث على باله وقد أساء ولا يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾

أقسم فى هذا الموضع بآيات الليل فأقسم بالشفق الذى هو بقية نور الشمس الذى هو مفتتح الليل ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أى: احتوى عليه من حيوانات وغيرها ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أى: امتلأ نوراً بإبداره وذلك أجسم ما يكون وأكثر منافع والمقسم عليه قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أى: أيها الناس ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أى: أطواراً متعددة وأحوالاً متباينة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى نفخ الروح، ثم يكون وليداً وطفلاً ومميزاً ثم يجرى عليه قلم التكليف والأمر والنهى ثم يموت بعد ذلك ثم يبعث ويجازى بأعماله، فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد دالة على أن الله وحده هو المعبود الموحد المدبر لعباده بحكمته ورحمته وأن العبد فقير عاجز تحت تدبير العزيز الرحيم ﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ومع هذا فكثير من الناس لا يؤمنون ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾ أى: لا يخضعون للقرآن ولا ينقادون لأوامره ونواهيه ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أى: يعاندون الحق بعدما تبين فلا يستغرب عدم إيمانهم وانقيادهم للقرآن فإن المكذب بالحق عناداً لا حيلة فيه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أى: بما يعملونه وينوونه سرًا، فالله يعلم سرهم وجهرهم وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وسميت البشارة بشارة لأنها تؤثر فى البشرة سروراً أو غمًا، فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن وعدم الإيمان به، ومن الناس فريق هداهم الله فآمنوا بالله وقبلوا ما جاءتهم به الرسل فآمنوا وعملوا الصالحات، فهؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أى: غير مقطوع بل هو أجر دائم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والحمد لله.

تم تفسير سورة الانشقاق ـ والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أى: ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر والكواكب المنتظمة فى سيرها على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله ورحمته وسعة علمه وحكمته ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وهو يوم القيامة الذى وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه ويضم فيه أولهم وآخرهم وقاصيهم ودانيهم الذي لا يمكن أن يتغير ولا يخلف الله الميعاد ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف أى مبصر ومبصر وحاضر ومحضور وراء ومرئى، والمقسم عليه ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة وحكمه الظاهرة ورحمته الواسعة، وقيل: إن المقسم عليه قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك، و «الأخدود» الحفر التى تحفر فى الأرض، وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قومًا كافرين ولديهم قوم مؤمنون فراودوهم على الدخول فى دينهم فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أخدودًا فى الأرض وقذفوا فيها النار وقعدوا حولها وفتنوا المؤمنين وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه ومن استمر على الإيمان قذفوه فى النار، وهذا غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب الذى تنفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها، والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا حالة يمدحون عليها وبها سعادتهم وهى: أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أى: الذى له العزة التى قهر بها كل شىء وهو حميد فى أقواله وأفعاله وأوصافه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقًا وعبيدًا يتصرف فيهم بما شاء ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا، فهلا خاف هؤلاء المتمردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أوما علموا كلهم أنهم مماليك لله ليس لأحد على أحد سلطة من دون إذن المالك؟ أو خفى عليهم أن الله محيط بأعمالهم مجازيهم عليها؟ كلا إن الكافر فى غرور والجاهل فى عمى وضلال عن سواء السبيل ثم أوعدهم ووعدهم وعرض عليهم التوبة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أى: العذاب الشديد المحرق، قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وأهل طاعته وهو يدعوهم إلى التوبة، ولما ذكر عقوبة الظالمين ذكر ثواب المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الذى حصل لهم الفوز برضا الله ودار كرامته ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أى: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام

لقوية شديدة وهو للظالمين بالمرصاد، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أى: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته فلا يشاركه فى ذلك مشارك ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الذى يغفر الذنوب جميعها لمن تاب ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب ﴿الْوَدُودُ﴾ الذى يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شىء، فكما أنه لا يشابهه شىء فى صفات الجلال والجمال والمعانى والأفعال فمحبته فى قلوب خواص خلقه التابعة لذلك لا يشبهها شىء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبته أصل العبودية وهى المحبة التى تتقدم جميع المحاب وتغلبها وإن لم يكن غيرها تبعًا لها كانت عذابًا على أهلها، وهو تعالى الودود الوَادُّ لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ والمودة هى: المحبة الصافية، وفى هذا سر لطيف حيث قرن «الودود» بالغفور ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا غفر لهم ذنوبهم وأحبهم فلا يقال تغفر ذنوبهم ولا يرجع إليهم الود، كما قال بعض الظالمين، بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب من رجل على راحلته عليها طعامه وشرابه وما يصلحه فأضلها فى أرض فلاة مهلكة فأيس منها فاضطجع فى ظل شجرة ينتظر الموت فبينما هو على تلك الحال إذا راحلته على رأسه فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحًا بتوبة العبد من هذا براحلته وهذا أعظم فرحٍ يقدر، فلله الحمد والثناء وصفو الوداد ما أعظم بره وأكثر خيره وأغزر إحسانه وأوسع امتنانه!!

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ أى: صاحب العرش العظيم الذى من عظمته أنه وسع السموات والأرض والكرسى فهى بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة فى فلاة بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر لعظمته ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه، وهذا على قراءة الجر يكون «المجيد» نعتًا للعرش، وأما على قراءة الرفع فإنه يكون نعتًا لله والمجد سعة الأوصاف وعظمتها ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ أى: مهما أراد شيئًا فعله إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون وليس أحد فعالاً لما يريد إلا الله، فإن المخلوقات ولو أرادت شيئًا فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته ولا ممانع له مما أراد، ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ وكيف كذبوا المرسلين فجعلهم من المهلكين ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أى: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات ولا تُجْدى لديهم العظات ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ قد أحاط بهم علمًا وقدرة كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ ففيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة من هم فى قبضته وتحت تدبيره ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ أى: وسيع المعانى عظيمها كثير الخير والعلم ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ من التغيير والزيادة والنقص ومحفوظ من الشياطين، وهو: اللوح المحفوظ الذى قد أثبت الله فيه كل شىء، وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير سورة البروج ـ ولله الحمد



تفسير سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ثم فسر الطارق بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أى: المضىء الذى يثقب نوره فيخرق السموات فينفذ حتى يرى فى الأرض، والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب، وقد

قيل: إنه «زحل» الذى يخرق السموات السبع وينفذها فيرى منها، وسمى طارقًا لأنه يطرق ليلاً والمقسم عليه قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة وستجازى بعملها المحفوظ عليها ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أى: فليتدبر خلقته ومبدأه فإنه ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ وهو: المنى الذى ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهى ثدياها، ويحتمل أن المراد: المنى المتدفق، وهو منى الرجل، وأن محله الذى يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعل هذا أولى فإنه إنما وصف به الماء الدافق الذى يحس به ويشاهد دفقه، وهو منى الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل للرجل، فإن الترائب للرجل بمنزلة الثديين للأنثى فلو أريد الأنثى لقيل: «من الصلب والثديين» ونحو ذلك، والله أعلم، فالذى أوجد الإنسان من ماء دافق يخرج من هذا الموضع الصعب قادر على رجعه فى الآخرة وإعادته للبعث والنشور والجزاء، وقد قيل: إن معناه أن الله على رجع الماء المدفوق فى الصلب لقادر، وهذا المعنى وإن كان صحيحًا فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أى: تختبر سرائر الصدور ويظهر ما كان فى القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ففى الدنيا ينكتم كثير من الأشياء ولا يظهر عيانًا للناس وأما يوم القيامة فيظهر بِرُّ الأبرار وفجور الفجار وتصير الأمور علانية، وقوله: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ﴾ أى: من نفسه يدفع بها ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ من خارج ينتصر به فهذا القَسَمُ على العاملين وقت عملهم وعند جيزائهم، ثم أقسم قسمًا ثانيًا على صحة القرآن فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أى: ترجع السماء بالمطر كل عام وتتصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم، وترجع السماء أيضًا بالأقدار والشئون الإلهية كل وقت، وتتصدع الأرض عن الأموات ﴿إِنَّهُ﴾ أى: القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أى: حق وصدق بَيِّنٌ واضح ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أى: جد ليس بالهزل وهو القول الذى يفصل بين الطوائف والمقالات وتنفصل به الخصومات ﴿إِنَّهُمْ﴾ أى: المكذبين للرسول ﷺ وللقرآن ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق ويؤيدوا الباطل ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ لإظهار الحق ولو كره الكافرون ولدفع ما جاءوا به من الباطل ويعلم بهذا مَن الغالب فإن الآدمى أضعف وأحقر من أن يغالب القوى العليم فى كيده ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أى: قليلاً، فسيعلمون عاقبة أمرهم حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق - والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته والخضوع لجلاله والاستكانة لعظمته وأن يكون تسبيحًا يليق بعظمة الله تعالى بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها العظيم الجليل، وتذكر أفعاله التى منها أنه خلق المخلوقات فسواها أى: أتقن وأحسن خلقها ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ تقديرًا تتبعه جميع المقدرات ﴿فَهَدَىٰ﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات، وهذه هى الهداية العامة التى مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته وتذكر فيها نعمه

الدنيوية ولهذا قال: ﴿وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ أى: أنزل من السماء ماء فأنبت به أصناف النبات والعشب الكثير فرتع فيه الناس والبهائم وجميع الحيوانات، ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب ألوى نباته وصوَّح عشبه ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ أى: أسود أى: جعله هشيمًا رميمًا، ويذكر فيها نعمه الدينية، ولهذا امتن الله بأصلها ومادتها وهو القرآن فقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ أى: سنحفظ ما أوحيناه إليك من الكتاب ونوعيه قلبك فلا تنسى منه شيئًا، وهذه بشارة من الله كبيرة لعبده ورسوله محمد ﷺ أن الله سيعلمه علمًا لا ينساه ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة وحكمة بالغة ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده، أى: فلذلك يشرع ما أراد ويحكم بما يريد ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وهذه أيضًا بشارة أخرى أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرى فى جميع أموره ويجعل شرعه ودينه يسيرًا ﴿فَذَكِّرْ﴾ بشرع الله وآياته ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ أى: ما دامت الذكرى مقبولة والموعظة مسموعة سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه، ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى بأن كان التذكير يزيد فى الشر أو ينقص من الخير لم تكن مأمورًا بها بل هى منهى عنها، فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون وغير منتفعين، فأما المنتفعون فقد ذكرهم بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ الله، فإن خشية الله تعالى والعلم بمجازاته على الأعمال توجب للعبد الانكفاف عما يكرهه الله والسعى فى الخيرات، وأما غير المنتفعين فذكرهم بقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ وهى: النار الموقدة التى تطلع على الأفئدة ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أى: يعذب عذابًا أليمًا من غير راحة ولا استراحة حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أى: قد فاز وربح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أى: اتصف بذكر الله وانصبغ به قلبه فأوجب له ذلك العمل بما يرضى الله خصوصًا الصلاة التى هى ميزان الإيمان، هذا معنى الآية، وأما من فسر قوله «تزكى» يعنى أخرج زكاة الفطر، وذكر اسم ربه فصلى أنه صلاة العيد فإنه وإن كان داخلاً فى اللفظ وبعض جزئياته فليس هو المعنى وحده: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: تقدمونها على الآخرة وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل على الآخرة ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ خير من الدنيا فى كل وصف مطلوب وأبقى لكونها دار خلد وبقاء، والدنيا دار فناء فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود ولا يبيع لذة ساعة بترحة الأبد، فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور لكم فى هذه السورة المباركة من الأوامر الحسنة والأخبار المستحسنة ﴿لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ اللذين هما أشرف المرسلين بعد محمد ﷺ وعليهم أجمعين، فهذه أوامره فى كل شريعة لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهى مصالح فى كل زمان ومكان، ولله الحمد.

تم تفسير سورة الأعلى ـ والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾

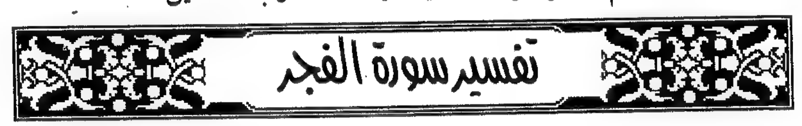
يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامة وأنها تغشى الخلائق بشدائدها فيجازون بأعمالهم ويتميزون إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في وصف أهل النار: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَاشِعَةٌ﴾ من الذل والفضيحة والخزى ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي: تاعبة في العذاب تجر على وجوهها وتغشى وجوههم النار، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان صار يوم القيامة هباء منثورًا، وهذا الاحتمال وإن كان صحيحًا من حيث المعنى فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول لأنه قيده بالظرف وهو يوم القيامة، ولأن المقصود بها بيان ذكر أهل النار عمومًا وذلك الاحتمال جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا، وقوله: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: شديدًا حرها تحيط بهم من كل مكان ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي: شديدة الحرارة ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ فهذا شرابهم، وأما طعامهم فإنهم ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ وذلك لأن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة، نسأل الله العافية، وأما أهل الخير فوجوههم يوم القيامة ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم فنضرت أبدانهم واستنارت وجوههم وسروا غاية السرور ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة والإحسان إلى عباد الله ﴿رَاضِيَةٌ﴾ إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا فحمدت عقباه وحصل لها كل ما تتمناه، وذلك أنها ﴿فِي جَنَّةٍ﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها ﴿عَالِيَةٍ﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عليين ومنازلها مساكن عالية لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة المثمرة بالثمار الحسنة السهلة التناول بحيث ينالونها على أي حال كانوا لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة أو يستعصي عليهم منها ثمرة ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿لَاغِيَةً﴾ أي: كلمة لغو وباطل فضلاً عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن نافع مشتمل على ذكر الله وذكر نعمه المتواترة عليهم وعلى الآداب الحسنة بين المتعاشرين الذي يسر القلوب ويشرح الصدور ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ وهذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاءوا وأنى أرادوا ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ و «السرر» جمع «سرير» وهي: المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: أوان ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة قد وضعت بين أيديهم وأعدت لهم وصارت تحت طلبهم واختيارهم يطوف بها عليهم الولدان المخلدون ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والاتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يصنعوها أو يصفوها بأنفسهم ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ والزرابي هي: البسط الحسان، مبثوثة أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾

يقول تعالى حثًا للذين لا يصدقون الرسول ﷺ ولغيرهم من الناس أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي: ألا ينظرون إلى خلقها البديع وكيف سخرها الله للعباد وذللها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ بهيئة باهرة حصل بها الاستقرار للأرض وثباتها من الاضطراب، وأودع فيها من المنافع الجليلة ما أودع ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: مدت مدًا واسعًا وسهلت غاية التسهيل ليستقر العباد على ظهرها ويتمكنوا من حرثها وغراسها والبنيان فيها وسلوك طرقها،

واعلم أن تسطيحها لا ينافى أنها كرة مستديرة قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة كما هو مذكور معروف عند كثير من الناس خصوصًا فى هذه الأزمنة التى وقف فيها الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيح إنما ينافى كروية الجسم الصغير جدًا الذى لو سطح لم يبق له استدارة تذكر، وأما جسم الأرض الذى هو كبير جدًا وواسع فيكون كرويًا مسطحًا ولا يتنافى الأمران كما يعرف ذلك أرباب الخبرة ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أى: ذكر الناس وعظهم وأنذرهم وبشرهم فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم ولم تبعث مسيطرًا عليهم مسلطًا ولا موكلاً بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وقوله: ﴿إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أى: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ﴾ أى: الشديد الدائم ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أى: رجوع الخلائق وجمعهم فى يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ على ما عملوا من خير وشر.

تم تفسير سورة الغاشية ـ والحمد لله رب العالمين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾

الظاهر أن المقسم عليه هو المقسم به، وذلك جائز مستعمل إذا كان أمرًا ظاهرًا مهمًا، وهو كذلك فى هذا الموضع، فأقسم تعالى بالفجر الذى هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما فى إدبار الليل وإقبال النهار من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه تعالى هو المدبر لجميع الأمور الذى لا تنبغى العبادة إلا له، ويقع فى الفجر صلاة فاضلة معظمة يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالى العشر وهى على الصحيح: ليالى عشر رمضان أو عشر ذى الحجة، فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة ويقع فيها من العبادات، والقربات ما لا يقع فى غيرها، وفى ليالى عشر رمضان ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر، وفى نهارها صيام آخر رمضان الذى هو أحد أركان الإسلام العظام، وفى أيام عشر ذى الحجة الوقوف بعرفة الذى يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان فإنه ما رئى الشيطان أحقر ولا أدحر منه فى يوم عرفة لما يرى من تنزل الأملاك والرحمة من الله على عباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة مستحقة أن يقسم الله بها ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أى: وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد فيسكنون ويستريحون ويطمئنون رحمة منه تعالى وحكمة ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أى: لذى عقل؟ نعم بعض ذلك يكفى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بقلبك وبصيرتك ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ هذه الأمة الطاغية، وهى ﴿إِرَمَ﴾ القبيلة المعروفة فى اليمن ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أى: القوة الشديدة والعتو والتجبر ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أى: فى جميع البلدان فى القوة والشدة، كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أى: وادى القرى نحتوا بقوتهم الصخور فاتخذوها مساكن ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أى: ذى الجنود الذين ثبتوا ملكه كما تثبت

الأوتاد ما يراد إمساكه بها ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله وآذوا عباد الله في دينهم ودنياهم، ولهذا قال: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ وهو العمل بالكفر وشُعَبه من جميع أجناس المعاصي وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم أرسل الله عليهم من عذابه ذنوبًا وسوط عذاب ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ لمن يعصيه، يمهله قليلاً ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

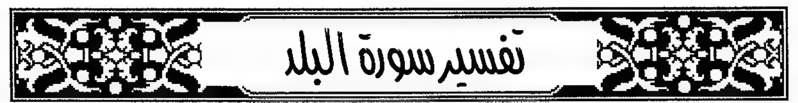
يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو وأنه جاهل ظالم لا علم له بالعواقب يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته وقربه منه، وأنه إذا ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: ضيقه، فصار يقدر قوته لا يفضل عنه أن هذا إهانة من الله له فرد الله عليه هذا الحسبان فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كل من نعَّمته في الدنيا فهو كريم عليَّ، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لديَّ، وإنما الغنى والفقر والسعة والضيق ابتلاء من الله وامتحان يمتحن به العباد ليرى من يقوم له بالشكر والصبر فيثيبه على ذلك الثواب الجزيل، ومن ليس كذلك فينقله إلى العذاب الوبيل، وأيضًا فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط من ضعف الهمة، ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين فقال: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم وعدم الرغبة في الخير ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يحض بعضكم بعضًا على إطعام المحاويج من الفقراء والمساكين وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب، ولهذا قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ أي: المال المخلف ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: ذريعًا لا تبقون على شيء منه ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: شديدًا وهذا كقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كل ما أحببتم من الأموال وتنافستم فيه من اللذات بباق لكم بل أمامكم يوم عظيم وهول جسيم تدك فيه الأرض والجبال، وما عليها حتى تجعل قاعًا صفصفًا لا عوج فيه ولا أمت، ويجيء الله لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، وتجيء الملائكة الكرام أهل السموات كلهم ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفًا بعد صف كل سماء يجيء ملائكتها صفًا يحيطون بمن دونهم من الخلق وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل، فإذا وقعت هذه الأمور ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾ ما قدمه من خير ومن شر ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ فقد فات أوانها وذهب زمانها ﴿يَقُولُ﴾ متحسرًا على ما فرط في جنب الله: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ الباقية الدائمة عملاً صالحًا، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ وفي هذا دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها وفي تتميم لذاتها هي الحياة في دار القرار فإنها دار الخلد والبقاء ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ لما أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ فإنهم يوثقون بسلاسل من نار ويسحبون على

وجوههم في الحميم ثم في النار يسجرون فهذا جزاء المجرمين، وأما من آمن بالله واطمأن به وصدق رسله فيقال له: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى ذكر الله، الساكنة إلى حبه التي قرت عينها بالله ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ الذي رباك بنعمته ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أي: راضية عن الله وعما أكرمها به من الثواب والله قد رضي عنها ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ وهذا تخاطب به الروح يوم القيامة وتخاطب به وقت السياق والموت.

تم تفسير سورة الفجر ـ والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾

يقسم تعالى ﴿بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ الأمين وهو: مكة المكرمة أفضل البلدان على الإطلاق خصوصًا وقت حلول الرسول ﷺ فيها ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أي: آدم وذريته، والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده الإنسان ويقاسيه من الشدائد في الدنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد ويوجب له الفرح والسرور الدائم، وإن لم يفعل فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد، ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وأقوم خلقة يقدر على التصرف والأعمال الشديدة، ومع ذلك فإنه لم يشكر الله على هذه النعمة العظيمة، بل بطر بالعافية وتجبر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له وأن سلطان تصرفه لا ينعزل، ولهذا قال: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه حيث ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: كثيرًا بعضه فوق بعض، وسمى الله الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكًا لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق ولا يعود إليه من إنفاقه إلا الندم والخسارة والتعب والقلة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير فإن هذا قد تاجر مع الله وربح أضعاف أضعاف ما أنفق، قال الله متوعدًا هذا الذي افتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي: أيظن في فعله هذا أن الله لا يراه ولا يحاسبه على الصغير والكبير؟ بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله ووكل به الكرام الكاتبين لكل ما عمله من خير وشر، ثم قرره بنعمه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ للجمال والبصر والنطق وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها فهذه نعم الدنيا، ثم قال في نعم الدين: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي: طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال والرشد من الغي، فهذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله ويشكره على نعمه وأن لا يستعين بها على معاصي الله ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها لأنه متبع لهواه، وهذه العقبة شديدة عليه ثم فسر هذه العقبة بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي: فكها من الرق بعتقها أو مساعدتها على أداء كتابتها ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي مجاعة شديدة بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ جامعًا بين كونه يتيمًا وفقيرًا ذا قرابة ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي:

قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وعملوا الصالحات، أى: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به وعملوا الصالحات بجوارحهم، فدخل فى هذا كل قول وفعل واجب أو مستحب ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضًا على الانقياد لذلك والإتيان به كاملاً منشرحًا به الصدر مطمئنة به النفس ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ للخلق من إعطاء محتاجهم وتعليم جاهلهم والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه، أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف والذين وفقهم الله لاقتحام العقبة ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده وتركوا ما نهوا عنه وهذا عنوان السعادة وعلامتها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم فلم يصدقوا بالله ولا آمنوا به ولا عملوا صالحًا ولا رحموا عباد الله، أولئك ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أى: مغلقة ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ قد مرت من ورائها لئلا تنفتح أبوابها حتى يكونوا فى ضيق وهمٍّ وشدة.

تم تفسير سورة البلد والحمد لله



تفسير سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

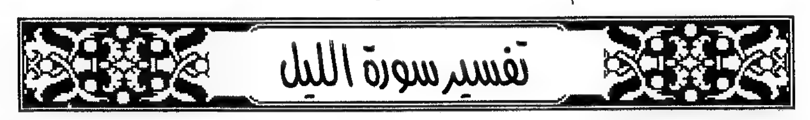
﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾

أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة على النفس المفلحة وغيرها من النفوس الفاجرة فقال: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ أى: نورها ونفعها الصادر منها ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أى: تبعها فى المنازل والنور ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أى: جلَّى ما على وجه الأرض وأوضحه ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أى: يغشى وجه الأرض فيكون ما عليها مظلمًا، فتعاقب الظلمة والضياء والشمس والقمر على هذا العالم بانتظام وإتقان وقيام لمصالح العباد أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه المعبود وحده الذى كل معبود سواه باطل ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ يحتمل أن «ما» موصوله فيكون الإقسام بالسماء وبانيها وهو الله تعالى، ويحتمل أنها مصدرية فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها الذى هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان، ونحو هذا قوله: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ أى: مدها ووسعها فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها بجميع أوجه الانتفاع ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ يحتمل أن المراد ونفس سائر المخلوقات الحيوانية كما يؤيد هذا العموم، ويحتمل أن الإقسام بنفس الإنسان المكلف بدليل ما يأتى بعده وعلى كلٍّ فالنفس آية كبيرة من آياته التى يحق الإقسام بها فإنها فى غاية اللطف والخفة سريعة التنقل والحركة والتغير والتأثر والانفعالات النفسية من الهم والإرادة والقصد والحب والبغض، وهى التى لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على ما هى عليه آية من آيات الله العظيمة، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ أى: طهر نفسه من الذنوب ونقاها من العيوب ورقَّاها بطاعة الله وعلاَّها بالعلم النافع والعمل الصالح ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1] أى: أخفى نفسه الكريمة التى ليست حقيقة بقمعها وإخفائها بالتدنس بالرذائل والدنو

(١) أى: أخفاها فى مزابل المعاصى، وأمات استعدادها للخير بالمداومة على اتباع طرق الشيطان وفعل الفجور.

من العيوب والذنوب وترك ما يكملها وينميها واستعمال ما يشينها ويدسيها ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أى: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق وعتوها على رسولهم ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ أى: أشقى القبيلة وهو «قدار بن سالف» لعقرها حين اتفقوا على ذلك وأمروه فأتمر لهم ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح عليه السلام محذرًا: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أى: احذروا عقر ناقة الله التى جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بِسَقْى لبنها أن تعقروها، فكذبوا نبيهم صالحًا ﴿فَعَقَرُوهَا (١٤) فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ[(١)] رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ أى: دمر عليهم وعمهم بعقابه وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم فأصبحوا جاثمين على ركبهم لا تجد منهم داعيًا ولا مجيبًا ﴿فَسَوَّاهَا﴾ عليهم أى: سوى بينهم فى العقوبة ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أى: تَبِعَتَها، وكيف يخاف من هو قاهر لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، حكيم فى كل ما قضاه وشرعه؟.

تم تفسير سورة الشمس بحمد الله وعونه



تفسير سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾

هذا قسم من الله بالزمان الذى تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أى: يعم الخلق بظلامه فيسكن إلى مأواه ومسكنه ويستريح العباد من الكد والتعب ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ للخلق فاستضاءوا بنوره وانتشروا فى مصالحهم ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ إن كانت «ما» موصولة كان إقسامًا بنفسه الكريمة الموصوفة بكونه خالق الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية كان قسمًا بخلقه للذكر والأنثى، وكمال حكمته فى ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التى يريد إبقاءها ذكرًا وأنثى ليبقى النوع ولا يضمحل وقاد كلا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلا منهما مناسبًا للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين، وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا هو المقسم عليه أى: إن سعيكم أيها المكلفون لَمُتَفَاوِتٌ تفاوتًا كثيرًا، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال هل هو وجه الله الأعلى الباقى فيبقى العمل له ببقائه وينتفع به صاحبه؟ أم هى غاية مضمحلة فانية فيبطل السعى ببطلانها ويضمحل باضمحلالها؟ وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله بهذا الوصف، ولهذا فضَّل الله العاملين ووصف أعمالهم فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ أى: ما أمر به من العبادات المالية: كالزكوات والنفقات والكفارات والصدقات والإنفاق

---

(١) دمدم عليهم، أى: أطبق العذاب عليهم، وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمدمة: إذا لبسها الشحم. اهـ. أبو السعود، وفى مفردات الراغب ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أى: أهلكهم وأزعجهم.

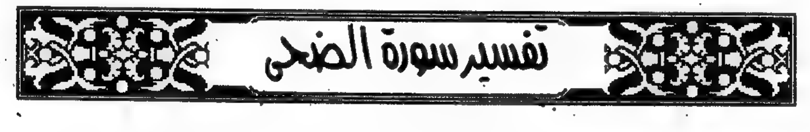
وقيل: الدمدمة: حكاية صوت الهرة، ومنه دمدم فلان فى كلامه.

ودمدمت الثوب: طليته بصبغ ما، والدمام، ما يطلى به، وبعير مدمدم بالشحم.

والدَّأمَاء والدمدمة: جحر اليربوع، والدَّأماء بالتخفيف، والديمومة: المفازة. اهـ.

في وجوه الخير، والعبادات البدنية: كالصلاة والصوم وغيرهما، والمركبة من ذلك: كالحج والعمرة ونحوهما ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ ما نهي عنه من المحرمات والمعاصي على اختلاف أجناسها ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: صدق بـ «لا إله إلا الله» وما دلت عليه من العقائد الدينية وما ترتب عليها من الجزاء ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: نيسر له أمره ونجعله مسهلاً عليه كل خير ميسراً له ترك كل شر لأنه أتى بأسباب التيسير فيسر الله له ذلك ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ﴾ بما أمر به فترك الإنفاق الواجب والمستحب ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها الذي تقصده وتتوجه إليه ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: للحالة العسرة والخصال الذميمة بأن يكون ميسراً للشر أينما كان ومقيضًا له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي أطغاه واستغنى به وبخل به ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ أي: هلك ومات فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح، وأما ماله الذي لم يخرج منه الواجب فإنه يكون وبالاً عليه، إذ لم يقدم منه لآخرته شيئًا ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: إن الهدى المستقيم طريقه يوصل إلى الله ويدني من رضاه، وأما الضلال فطرقه مسدودة عن الله لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ ملكًا وتصرفًا ليس له فيهما مشارك فليرغب الراغبون إليه في الطلب ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي: تستعر وتتوقد ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالخبر ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الأمر ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ بأن يكون قصده به تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب والأدناس قاصداً به وجه الله تعالى، فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب كدين ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء لأنه يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي: ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزى إلا وقد كافأه عليها، وربما بقي له الفضل والمنة على الناس فتمحض عبداً لله، لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقيت عليه نعمة الناس فلم يجزها ويكافئها فإنه لا بد أن يترك الناس ويفعل لهم ما ينقص إخلاصه، وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق ﷺ، بل قد قيل: إنها نزلت بسببه، فإنه - ﷺ - ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها وهي نعمة الدعوة إلى دين الإسلام وتعليم الهدى ودين الحق، فإن لله ورسوله المنة على كل أحد منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى، ولهذا قال: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات.

تم تفسير سورة الليل - والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الضحى

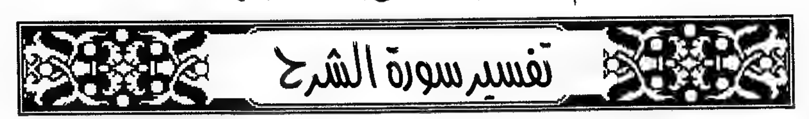
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى، وبالليل إذا سجى وادلهمت ظلمته على اعتناء الله برسوله ﷺ فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي: ما تركك منذ اعتنى بك ولا أهملك منذ رباك ورعاك بل لم يزل يربيك

أكمل تربية ويعليك درجة بعد درجة ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ ـك الله، أى: ما أبغضك منذ أحبك فإن نفى الضد دليل على ثبوت ضده، والنفى المحض لا يكون مدحًا إلا إذا تضمن ثبوت كمال، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة أكمل حال وأتمها محبة الله له واستمرارها وترقيته فى درجات الكمال ودوام اعتناء الله به، وأما حاله المستقبلة فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أى: كل حالة متأخرة من أحوالك فإن لها الفضل على الحالة السابقة، فلم يزل ﷺ يصعد فى درجات المعالى ويمكن الله له دينه وينصره على أعدائه ويسدده فى أحواله حتى مات وقد وصل إلى حال ما وصل إليها الأولون والآخرون من الفضائل والنعم وقرة العين وسرور القلب، ثم بعد هذا لا تسأل عن حاله فى الآخرة من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه إلا بهذه العبارة الجامعة الشاملة، ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله الخاصة فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ أى: وجدك لا أم لك ولا أب بل قد مات أبوه وهو لا يدبر نفسه فآواه الله وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب حتى أيده بنصره وبالمؤمنين ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أى: وجدك لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان فعلمك ما لم تكن تعلم ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ أى: فقيرًا ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ ـك الله بما فتح عليك من البلدان التى جبيت لك أموالها وخراجها، فالذى أزال عنك هذه النقائص سيزيل عنك كل نقص والذى أوصلك إلى الغنى وآواك ونصرك وهداك، قابلْ نعمته بالشكران، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أى: لا تسىء معاملة اليتيم ولا يضق صدرك عليه ولا تنهره، بل أكرمه وأعطه ما تيسر واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أى: لا يصدر منك كلام للسائل يقتضى رده عن مطلوبه بنهر وشراسة خلق بل أعطه ما تيسر عندك أو ردَّه بمعروف وإحسان، ويدخل فى هذا السائل للمال والسائل للعلم ولهذا كان المعلم مأمورًا بحسن الخلق مع المتعلم ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن فى ذلك معونة له على مقصده وإكرامًا لمن كان يسعى فى نفع العباد والبلاد ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وهذا يشمل النعم الدينية والدنيوية، أى: أثْنِ على الله بها وخصها بالذكر إن كان هناك مصلحة، وإلا فحدِّث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داعٍ لشكرها وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

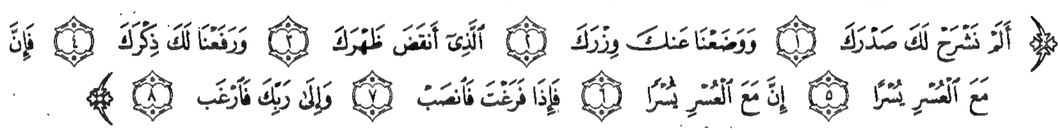
تم تفسير سورة الضحى بحمد الله وعونه



تفسير سورة الشرح



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

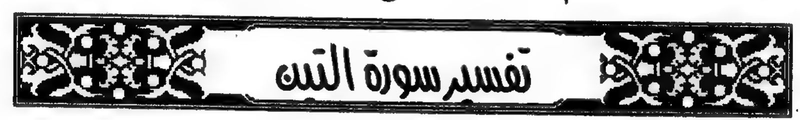


﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ممتنًا على رسوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أى: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله والاتصاف بمكارم الأخلاق والإقبال على الآخرة وتسهيل الخيرات، فلم يكن ضيقًا حرجًا حتى لا يكاد ينقاد لخير ولا تكاد تجده منبسطًا ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أى: ذنبك ﴿الَّذِي أَنقَضَ﴾ أى: أثقل ﴿ظَهْرَكَ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أى: أعلينا قدرك وجعلنا لك الثناء الحسن العالى الذى لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسول الله ﷺ كما فى الدخول فى الإسلام وفى الأذان والإقامة والخطب وغير ذلك من الأمور التى أعلى الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ، وله فى قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره بعد الله تعالى، فجزاه الله عن أمته أفضل ما

جزى نبيًا عن أمته، وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بشارة عظيمة أنه كلما وجد عسر وصعوبة فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه، كما قال تعالى ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وكما قال النبى ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسرًا» وتعريف «العسر» فى الآيتين يدل على أنه واحد وتنكير «اليسر» يدل على تكراره فلن يغلب عسر يسرين، وفى تعريفه بالألف واللام الدال على الاستغراق والعموم دلالة على أن كل عسر وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ، فإنه فى آخره التيسير ملازم له، ثم أمر رسوله أصلاً والمؤمنين تبعًا بشكره والقيام بواجب نعمه فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أى: إذا تفرغت من أشغالك ولم يبق فى قلبك ما يعوقه فاجتهد فى العبادة والدعاء ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَارْغَبْ﴾ أى: أعظم الرغبة فى إجابة دعائك وقبول دعواتك، ولا تكن ممن إذا فرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره فتكون من الخاسرين، وقد قيل: إن معنى هذا: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها فانصب فى الدعاء، وإلى ربك فارغب فى سؤال مطالبك، واستدل من قال هذا القول على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات والله أعلم.

تم تفسير سورة الشرح بحمد الله والمنة



تفسير سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾

﴿وَالتِّينِ﴾ هو التين المعروف وكذلك ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ أقسم بهاتين الشجرتين لكثرة منافع شجرهما وثمرهما ولأن سلطانهما فى أرض الشام محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أى: طور سيناء محل نبوة موسى عليه السلام ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وهو: مكة المكرمة محل نبوة محمد ﷺ، فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة التى اختارها وابتعث منها أفضل الأنبياء وأشرفهم، والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أى: تام الخلق متناسب الأعضاء منتصب القامة لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرًا وباطنًا شيئًا، ومع هذه النعم العظيمة التى ينبغى له القيام بشكرها فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم مشتغلون باللهو واللعب قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمر وسفساف الأخلاق، فردهم الله فى أسفل سافلين أى: أسفل النار موضع العصاة المتمردين على ربهم إلا من منّ الله عليه بالإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة العالية ﴿فَلَهُمْ﴾ بذلك المنازل العالية و ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أى: غير مقطوع بل لذات متوافرة وأفراح متواترة ونعم متكاثرة فى أبد لا يزول ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أى: أى شىء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما يحصل لك به اليقين ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفر بشىء منها؟ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فهل تقتضى حكمته أن يترك الخلق سدًى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون؟ أم الذى خلق بنى الإنسان أطوارًا بعد أطوار وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هى مستقرهم وغايتهم التى إليها يقصدون ونحوها يؤمون.

تم تفسير سورة التين والحمد لله

تفسير سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩) ﴾

هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ، فإنها نزلت في مبادئ النبوة إذ كان لا يدرى ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه السلام بالرسالة وأمره أن يقرأ فاعتذر وقال: «ما أنا بقارئ» فلم يزل به حتى قرأ، فأنزل الله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ عموم الخلق، ثم خص الإنسان وذكر ابتداء خلقه ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره لا بد أن يدبر بالأمر والنهي وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولهذا أتى بعد الأمر بالقراءة بخلقه للإنسان، ثم قال ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي: كثير الصفات واسعها كثير الكرم والإحسان واسع الجود الذي من كرمه أن علم أنواع العلوم، و ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا وجعل له السمع والبصر والفؤاد ويسر له أسباب العلم فعلمه القرآن وعلمه الحكمة وعلمه بالقلم الذي به تحفظ العلوم وتضبط الحقوق وتكون رسلاً للناس تنوب مناب خطابهم، فلله الحمد والمنة الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور، ثم منَّ عليهم بالغنى وسعة الرزق، ولكن الإنسان ـ لجهله وظلمه ـ إذا رأى نفسه غنيًا طغى وبغى وتجبر عن الهدى ونسى أن لربه الرجعى ولم يخف الجزاء بل ربما وصلت به الحال إلى أنه يترك الهدى بنفسه ويدعو غيره إلى تركه فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان، يقول الله لهذا المتمرد العاتي: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أيها الناهي للعبد إذا صلى ﴿إِن كَانَ﴾ العبد المصلي ﴿عَلَى الْهُدَىٰ﴾ العلم بالحق والعمل به ﴿أَوْ أَمَرَ﴾ غيره ﴿بِالتَّقْوَىٰ﴾ فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم المحادة لله والمحاربة للحق؟ فإن النهى لا يتوجه إلا ممن هو في نفسه على غير الهدى أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ الناهي بالحق ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه؟ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ ما يعمل ويفعل؟ ثم توعده إن استمر على حاله فقال: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عما يقول ويفعل ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي: لنأخذن بناصيته أخذًا عنيفًا وهي حقيقة بذلك، فإنها ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: كاذبة في قولها خاطئة في فعلها ﴿فَلْيَدْعُ﴾ هذا الذي حق عليه العذاب ﴿نَادِيَهُ﴾ أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله ليعينوه على ما نزل به ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي: خزنة جهنم لأخذه وعقوبته فلينظر أي الفريقين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما توعد به من العقوبة، وأما حالة المنهى فأمره الله أن لا يصغى إلى هذا الناهي ولا ينقاد لنهيه فقال: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ أي: فإنه لا يأمر إلا بما فيه الخسار ﴿وَاسْجُدْ﴾ لربك ﴿وَاقْتَرِب﴾ منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات فإنها كلها تُدنى من رضاه وتقرب منه، وهذا عام لكل ناهٍ عن الخير ولكل منهى عنه وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعذبه وآذاه.

تم تفسير سورة العلق ـ والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾

يقول تعالى مبينًا لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وذلك أن الله تعالى ابتدأ بإنزال القرآن فى رمضان فى ليلة القدر ورحم الله بها العباد رحمة عامة لا يقدر العباد لها شكرًا، وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله ولأنه يقدر فيها ما يكون فى العام من الأجل والأرزاق والمقادير القدرية، ثم فخَّم شأنها وعظم مقدارها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ أى: فإن شأنها جليل وخطرها عظيم ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أى: تعادل فى فضلها ألف شهر، فالعمل الذى يقع فيها خير من العمل فى ألف شهر خالية منها، وهذا مما تتحير فيها الألباب وتندهش له العقول حيث منَّ تعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجلٍ معمر عمرًا طويلاً نيفًا وثمانين سنة ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ أى: يكثر نزولهم فيها ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ﴾ أى: سالمة من كل آفة وشر وذلك لكثرة خيرها ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أى: مبتداها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر، وقد تواترت الأحاديث فى فضلها وأنها فى رمضان وفى العشر الأواخر منه خصوصًا فى أوتاره وهى باقية فى كل سنة إلى قيام الساعة، ولهذا كان النبى ﷺ يعتكف ويكثر من التعبد فى العشر الأواخر من رمضان رجاء ليلة القدر، والله أعلم.

تم تفسير سورة القدر بعون الله

تفسير سورة البينة

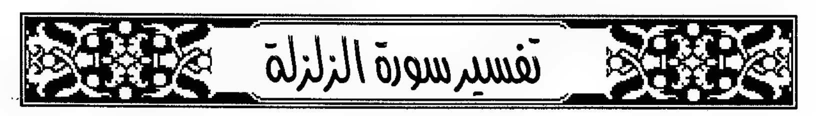
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) ﴾

يقول تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أى: من اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ من سائر أصناف الأمم ﴿مُنفَكِّينَ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذى هم عليه أى: لا يزالون فى غيهم وضلالهم لا يزيدهم مرور الأوقات إلا كفرًا ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الواضحة والبرهان الساطع ثم فسر تلك البينة فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: أرسله الله يدعو الناس إلى الحق وأنزل عليه كتابًا يتلوه ليعلم الناس الحكمة ويزكيهم ويخرجهم من

الظلمات إلى النور ولهذا قال: ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أى: محفوظة من قربان الشياطين لا يمسها إلا المطهرون لأنها أعلى ما يكون من الكلام، ولهذا قال عنها: ﴿فِيهَا﴾ أى: فى تلك الصحف ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أى: أخبار صادقة وأوامر عادلة تهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البينة فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد فى طلبه فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىَّ عن بينة، وإذا لم يؤمن أهل الكتاب بهذا الرسول وينقادوا له فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزابًا ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ التى توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم لم يزدهم الهدى إلا ضلالاً ولا البصيرة إلا عمى مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ فى سائر الشرائع ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله وطلب الزلفى لديه ﴿حُنَفَاءَ﴾ أى: معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد، وخص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان فى قوله: ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لفضلهما وشرفهما وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين ﴿وَذَلِكَ﴾ أى التوحيد والإخلاص فى الدين، هما ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أى: الدين المستقيم الموصل إلى جنات النعيم وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم، ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قد أحاط بهم عذابها واشتد عليهم عقابها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يفتر عنهم العذاب وهم فيها مبلسون ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه وخسروا الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أى: جنات إقامة لا ظعن فيها ولا رحيل ولا طلب لغاية فوقها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فرضى عنهم بما قاموا به من مراضيه ورضوا عنه بما أعد لهم من أنواع الكرامات ﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أى: لمن خاف الله فأحجم عن معاصيه وقام بما أوجب عليه.

تم تفسير سورة البينة بفضل الله وتوفيقه



تفسير سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾

يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة وأن الأرض تتزلزل وترجف وترتج حتى يسقط ما عليها من بناء ومَعْلَم، فتندك جبالها وتُسَوَّى تلالها وتكون قاعًا صفصفًا لا عوج فيه ولا أمت ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أى: ما فى بطنها من الأموات والكنوز ﴿وَقَالَ الإِنسَانُ﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم: ﴿مَا لَهَا﴾؟ أى: أى شىء عرض لها؟ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض ﴿أَخْبَارَهَا﴾ أى: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، ذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ أى: أمرها أن تخبر بما عمل عليها فلا تعصى لأمره ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ من موقف القيامة ﴿أَشْتَاتًا﴾ أى: فرقًا متفاوتين ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: ليريهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات ويريهم جزاءه موفورًا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ وهذا شامل عام للخير والشر كله لأنه إذا رأى مثقال الذرة التى هى

أحقر الأشياء وجوزى عليها فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ وهذا فيه الترغيب فى فعل الخير ولو قليلاً والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

تم تفسير سورة الزلزلة والحمد لله

تفسير سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾

أقسم تعالى بالخيل لما فيها من آياته الباهرة ونعمه الظاهرة ما هو معلوم للخلق، وأقسم تعالى بها فى الحال التى لا يشاركها فيه غيرها من أنواع الحيوانات فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أى: العاديات عدواً بليغًا قويًا يصدر عنه الضبح وهو صوت نفسها فى صدرها عند اشتداد عَدْوِهَا ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ بحوافرهن ما يطأن عليه من الأحجار ﴿قَدْحًا﴾ أى: تنقدح النار من صلابة حوافرهن وقوتهن إذا عدون ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ على الأعداء ﴿صُبْحًا﴾ وهذا أمر أغلبى أن الغارة تكون صباحًا ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ﴾ أى: بعدوهن وغارتهن ﴿نَقْعًا﴾ أى: غباراً ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ أى: براكبهن ﴿جَمْعًا﴾ أى: توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم، والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أى: منوع للخير الذى لله عليه، فطبيعة الإنسان وجبلته أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق فتؤديها كاملة موفرة بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليها من الحقوق المالية والبدنية إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أى: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك لا يجحده ولا ينكره لأن ذلك بيِّنٌ واضح، ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله أى: إن العبد لربه لكنود والله شهيد على ذلك ففيه الوعيد والتهديد الشديد لمن هو عليه كنود بأن الله عليه شهيد ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى: الإنسان ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أى: المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أى: كثير الحب للمال، وحبه لذلك هو الذى أوجب له ترك الحقوق الواجبه عليه، قدم شهوة نفسه على رضا ربه، وكلُّ هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار وغفل عن الآخرة، ولهذا قال حاثا له على الخوف يوم الوعيد: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أى: هلاّ يعلم هذا المغتر ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أى: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشرهم ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أى: ظهر وبان ما فيها وما استتر فى الصدور من كمائن الخير والشر فصار السر علانية والباطن ظاهراً وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ بأعمالهم الظاهرة والباطنة الخفية والجلية ومجازيهم عليها، وخص خبرهم بذلك اليوم مع أنه خبير بهم فى كل وقت لأن المراد بهذا الجزاء على الأعمال الناشئ عن علم الله واطلاعه.

تم تفسير سورة العاديات ولله الحمد والمنة

تفسير سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾

﴿الْقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تقرع الناس وتزعجهم بأهوالها، ولهذا عظَّم أمرها وفخمه بقوله: ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ من شدة الفزع والهول ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أى: كالجراد المنتشر الذى يموج بعضه فى بعض، والفراش هى: الحيوانات التى تكون فى الليل يموج بعضها ببعض لا تدرى أين توجه، فإذا أوقد لها نار تهافتت إليها لضعف إدراكها فهذه حال الناس أهل العقول، وأما الجبال الصم الصلاب فتكون ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ أى: كالصوف المنفوش الذى بقى ضعيفًا جدًا تطير به أدنى ريح، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ ثم بعد ذلك تكون هباء منثورًا فتضمحل ولا يبقى منها شىء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أى: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ فى جنات النعيم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أى: مأواه ومسكنه النار التى من أسمائها الهاوية تكون له بمنزل الأم الملازمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ وقيل: إن معنى ذلك فأم دماغه هاوية فى النار أى: يلقى فى النار على رأسه ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ وهذا تعظيم لأمرها ثم فسرها بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أى: شديدة الحرارة قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا بسبعين ضعفًا، نستجير بالله منها.

تفسير سورة التكاثر

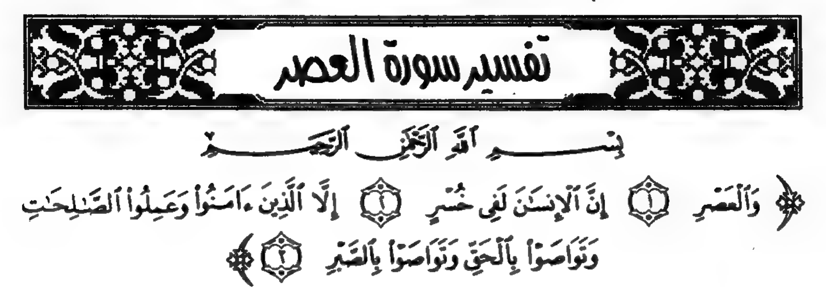
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾

يقول تعالى موبخًا عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له ومعرفته والإنابة إليه وتقديم محبته على كل شىء: ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ عن ذلك المذكور ﴿التَّكَاثُرُ﴾ ولم يذكر المتكاثر به ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون ويفتخر به المفتخرون من الأموال والأولاد والأنصار والجنود والخدم والجاه وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود منه وجه الله، فاستمرت غفلتكم ولهوتكم وتشاغلكم ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فانكشف حينئذ لكم الغطاء ولكن بعدما تعذر عليكم استئنافه، ودل قوله ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أن البرزخ دار المقصود منها النفوذ إلى الدار الآخرة لأن الله سماهم زائرين ولم يسمهم مقيمين، فدل ذلك على البعث والجزاء على الأعمال فى دار باقية غير فانية، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أى: لو تعلمون ما أمامكم علمًا يصل إلى القلوب لما ألهاكم

التكاثر ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة ولكن عدم العلم الحقيقى صيَّركم إلى ما ترون ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أى: لترون القيامة فلترون الجحيم التى أعدها الله للكافرين ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أى: رؤية بصرية كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الذى تنعمتم به فى دار الدنيا هل قمتم بشكره وأديتم حق الله فيه ولم تستعينوا به على معاصيه فينعمكم نعيمًا أعلى منه وأفضل، أم اغتررتم به ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على المعاصى فيعاقبكم على ذلك، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الآية.

تم تفسير سورة التكاثر ولله الحمد والفضل



أقسم تعالى بالعصر الذى هو الليل والنهار محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر والخاسر ضد الرابح، والخسار مراتب متعددة متفاوتة: قد يكون خسارًا مطلقًا كحال من خسر الدنيا والآخرة وفاته النعيم واستحق الجحيم، وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان إلا من اتصف بأربع صفات: الإيمان بما أمر الله بالإيمان به ولا يكون الإيمان بدون العلم فهو فرع عنه لا يتم إلا به والعمل الصالح وهذا شامل لأفعال الخير كلها الظاهرة والباطنة المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة، والتواصى بالحق الذى هو الإيمان والعمل الصالح أى: يوصى بعضهم بعضًا بذلك ويحثه عليه ويرغبه فيه، والتواصى بالصبر على طاعة الله وعن معصية الله وعلى أقدار الله المؤلمة، فبالأمرين الأولين يكمل العبد نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد قد سلم من الخسار وفاز بالربح العظيم.

تم تفسير سورة العصر بحمد الله وفضله



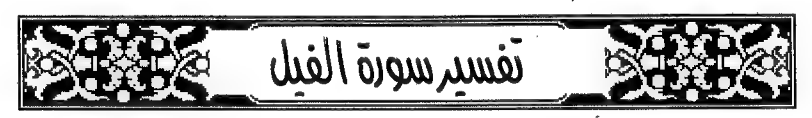
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾

﴿وَيْلٌ﴾ أى: وعيد ووبال وشدة عذاب ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أى: الذى يهمز الناس بفعله ويلمزهم بقوله، فالهماز: الذى يعيب الناس ويطعن عليهم بالإشارة والفعل، واللماز: الذى يعيبهم بقوله، ومن صفة هذا الهماز أنه لا همَّ له سوى جمع المال وتعديده والغبطة به وليس له رغبة فى إنفاقه فى طرق الخيرات وصلة الأرحام ونحو ذلك ﴿يَحْسَبُ﴾ بجهله ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ فى الدنيا، فلذلك كان كده وسعيه فى تنمية ماله الذى يظن أنه ينمى عمره ولم يدر أن البخل يقصف الأعمال ويخرب الديار وأن البر يزيد فى العمر ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ﴾ أى:

ليطرحن ﴿فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تعظيم لها وتهويل لشأنها، ثم فسرها بقوله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ التى وقودها الناس والحجارة، و ﴿الَّتِي﴾ من شدتها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ أى: تنفذ من الأجساد إلى القلوب، ومع هذه الحرارة البليغة هم محبوسون فيها قد أيسوا من الخروج منها، ولهذا قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أى: مغلقة ﴿فِي عَمَدٍ﴾ من خلف الأبواب ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ لئلا يخرجوا منها ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية.

تم تفسير سورة الهمزة ولله الحمد والشكر

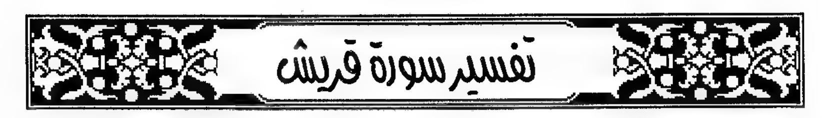


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

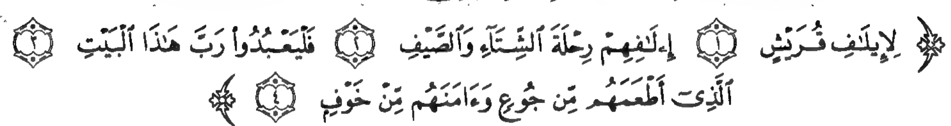
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

أى: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه ورحمته بعباده وأدلة توحيده وصدق رسوله ﷺ ما فعله الله بأصحاب الفيل الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخرابه، فتجهزوا لأجل ذلك واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه وجاءوا بجمع لا قِبَلَ للعرب به من الحبشة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة ولم يكن بالعرب مدافعة وخرج أهل مكة خوفًا منهم أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل أى: متفرقة تحمل أحجارًا محماة من سجيل، فرمتهم بها وتتبعت قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا وصاروا كعصف مأكول وكفى الله شرهم ورد كيدهم فى نحورهم، وقصتهم معروفة مشهورة وكانت تلك السنة التى ولد فيها رسول الله ﷺ فصارت من جملة إرهاصات دعوته وأدلة رسالته فلله الحمد والشكر.

تم تفسير سورة الفيل بحمد الله وفضله



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التى قبلها، أى: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم واستقامة مصالحهم وانتظام رحلتهم فى الشتاء لليمن وفى الصيف للشام لأجل التجارة والمكاسب، فأهلك الله من أرادهم بسوء وعظّم أمر الحرم وأهله فى قلوب العرب حتى احترموهم ولم يعترضوا لهم فى أى سفر أرادوا، ولهذا أمرهم الله بالشكر فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ أى: ليوحدوه ويخلصوا له العبادة ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ فرغد الرزق والأمن من الخوف من أكبر النعم الدنيوية الموجبة لشكر الله تعالى، فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة، وخص الله الربوبية بالبيت لفضله وشرفه وإلا فهو رب كل شىء.

تم تفسير سورة قريش بعون الله وتيسيره

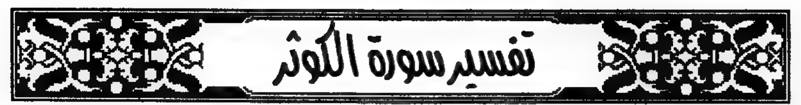
تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أي: بالبعث والجزاء فلا يؤمن بما جاءت به الرسل ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه بعنف وشدة ولا يرحمه لقساوة قلبه ولأنه لا يرجو ثوابًا ولا يخاف عقابًا ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ غيره ﴿عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الملتزمين لإقامة الصلاة ولكنهم ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي: مضيعون لها تاركون لوقتها، مخلون بأركانها، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة التى هى أهم الطاعات، والسهو عن الصلاة هو الذى يستحق صاحبه الذم واللوم، وأما السهو فى الصلاة فهذا يقع من كل أحد حتى من النبى ﷺ، ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أي: يعملون الأعمال لأجل رئاء الناس ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي: يمنعون إعطاء الشىء الذى لا يضر إعطاؤه على وجه العارية أو الهبة: كالإناء والدلو والفأس ونحو ذلك مما جرت العادة ببذله والسماح به، فهؤلاء ـ لشدة حرصهم ـ يمنعون الماعون فكيف بما هو أكثر منه، وفى هذه السورة الحث على إطعام اليتيم والمساكين والتحضيض على ذلك ومراعاة الصلاة والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص فيها وفى سائر الأعمال، والحث على فعل المعروف وبذل الأموال الخفيفة كعارية الإناء والدلو والكتاب ونحو ذلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذلك، والله سبحانه أعلم.

تم تفسير سورة الماعون بعون الله ومعونته



تفسير سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير والفضل الغزير الذى من جملته ما يعطيه الله لنبيه ﷺ من النهر الذى يقال له «الكوثر» ومن الحوض طوله شهر وعرضه شهر ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء فى كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، ولما ذكر منته عليه أمره بشكرها فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ خص هاتين العبادتين بالذكر لأنهما أفضل العبادات وأجل القربات، ولأن الصلاة تتضمن الخضوع فى القلب والجوارح لله وتنقله فى أنواع العبودية، وفى النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من الأضاحى وإخراج للمال الذى جبلت النفوس على محبته والشح به ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك وذامك ومنتقصك ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: المقطوع من كل خير، مقطوع العمل مقطوع الذِّكْر، وأما محمد ﷺ فهو الكامل حقًا الذى له الكمال الممكن للمخلوق من رفع الذِّكْر وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.

تم تفسير سورة الكوثر فلله الحمد والشكر

تفسير سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾

أى: قل للكافرين معلنًا ومصرحًا ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أى: تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله ظاهرًا وباطنًا ﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لعدم إخلاصكم فى عبادتكم لله، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة، وكرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثانى على أن ذلك قد صار وصفًا لازمًا، ولهذا ميز بين الفريقين وفصل بين الطائفتين فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

تم تفسير سورة الكافرون بفضل الله وتيسيره

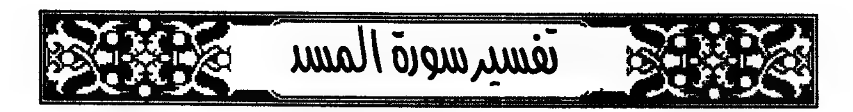
تفسير سورة النصر

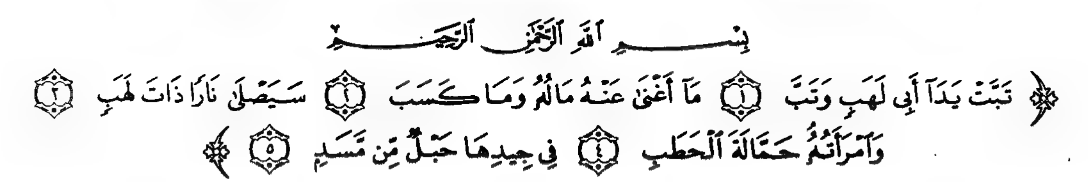
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾

فى هذه السورة الكريمة بشارة وأمر لرسوله عند حصولها وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك، فالبشارة هى: البشارة بنصر الله لرسوله وفتحه مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجًا بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره بعد أن كانوا من أعدائه وقد وقع هذا المبشَّر به، وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح فأمر رسوله أن يشكره على ذلك ويسبح بحمده ويستغفره، وأما الإشارة فإن فى ذلك إشارتين: إشارة أن النصر يستمر للدين ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله فإن هذا من الشكر، والله يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وقد وجد ذلك فى زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم فى هذه الأمة لم يزل نصر الله مستمرًا حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان ودخل فيه من لم يدخل فى غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث فابتلوا بتفرق الكلمة وتشتت الأمر فحصل ما حصل، ومع هذا فلهذه الأمة وهذا الدين من رحمة الله ولطفه ما لا يخطر بالبال ويدور فى الخيال، وأما الإشارة الثانية فهى إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به، وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار كالصلاة والحج وغير ذلك، فَأَمْرُ الله لرسوله بالحمد والاستغفار فى هذه الحال إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه، فكان يتأول القرآن ويقول ذلك فى صلاته، يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى».

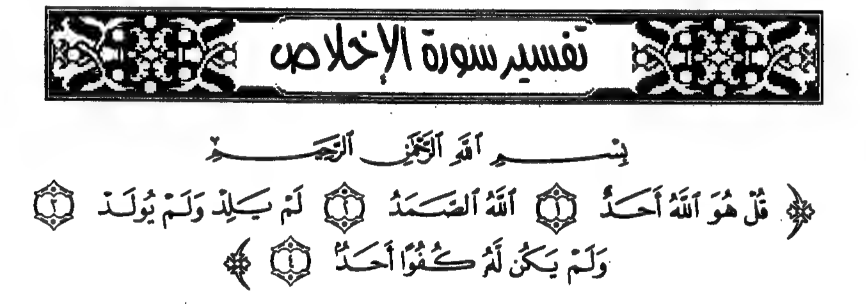
تم تفسير سورة النصر بتيسير الله ومعونته





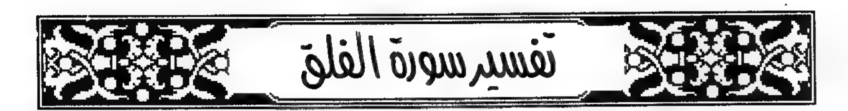
أبو لهب هو عم النبى ﷺ وكان شديد العداوة والأذية له فلا دين له ولا حمية للقرابة قبحه الله فذمه الله بهذا الذم العظيم الذى هو خزى عليه إلى يوم القيامة فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أى: خسرت يداه وشقى ﴿وَتَبَّ﴾ فلم يربح ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذى كان عنده فأطغاه ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ لم يرد عنه شيئًا من عذاب الله إذا نزل به ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أى: ستحيط به النار من كل جانب، هو ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ وكانت أيضًا شديدة الأذية لرسول الله ﷺ تتعاون هى وزوجها على الإثم والعدوان وتلقى الشر وتسعى غاية ما تقدر عليه فى أذية الرسول ﷺ وتجمع على ظهرها الأوزار بمنزلة من يجمع حطبًا قد أعد له فى عنقه حبلاً ﴿مِّن مَّسَدٍ﴾ أى: من ليف، أو أنها تحمل فى النار الحطب على زوجها متقلدة فى عنقها حبلاً من مسد، وعلى كلٍّ ففى هذه السورة آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان فى النار ولا بد ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

تم تفسير سورة المسد بعون الله وتيسيره



أى: ﴿قُلْ﴾ قولاً جازمًا به معتقدًا له عارفًا بمعناه: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أى: قد انحصرت فيه الأحدية فهو الأحد المنفرد بالكمال الذى له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والأفعال المقدسة الذى لا نظير له ولا مثيل ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أى: المقصود فى جميع الحوائج، فأهل العالم العلوى والسفلى مفتقرون إليه غاية الافتقار يسألونه حوائجهم ويرغبون إليه فى مهماتهم لأنه الكامل فى أوصافه، العليم الذى قد كمل فى علمه، الحليم الذى كمل فى حلمه، الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لكمال غناه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لا فى أسمائه ولا فى صفاته ولا فى أفعاله تبارك وتعالى، فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

تم تفسير سورة الإخلاص ولله الحمد والشكر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

أى: ﴿قُلْ﴾ متعوذًا ﴿أَعُوذُ﴾ أى: ألجأ وألوذ وأعتصم ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أى: فالق الحب والنوى وفالق الإصباح ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وهذا يشمل جميع ما خلق الله من إنس وجن وحيوانات فيستعاذ بخالقها من الشر الذى فيها، ثم خص بعدما عم فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أى: من شر ما يكون فى الليل حين يغشى النعاس وينتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة والحيوانات المؤذية ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أى: ومن شر السواحر اللاتى يستعن على سحرهن بالنفث فى العقد التى يعقدونها على السحر ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحاسد هو الذى يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى فى زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره وإبطال كيده، ويدخل فى الحاسد العاين لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع خبيث النفس، فهذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور عمومًا وخصوصًا، ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره ويستعاذ بالله منه ومن أهله.

تم تفسير سورة الفلق ولله الحمد والفضل

تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم من الشيطان الذى هو أصل الشرور كلها ومادَّتها، الذى من فتنته وشره أنه يوسوس فى صدور الناس فيحسن لهم الشر ويريهم إياه فى صورة حسنة وينشط إرادتهم لفعله، ويثبطهم عن الخير ويريهم إياه فى صورة غير صورته، وهو دائمًا بهذه الحال يوسوس ثم يخنس أى: يتأخر عن الوسوسة إذا ذكر العبد ربه واستعان على دفعه، فينبغى له أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم، وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك فكل دابة هو آخذ بناصيتها وبألوهيته التى خلقهم لأجلها فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم الذى يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

تم تفسير سورة الناس ولله الحمد والفضل

بسم الله الرحمن الرحيم

أصول وكليات من أصول التفسير وكلياته

لا يستغنى عنها المفسر للقرآن

النكرة فى سياق النفى، أو سياق النهى، والاستفهام، أو سياق الشرط، تعم، وكذلك المفرد المضاف، يعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفردة مضافة إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل فى ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

وينبغى أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتى لا تزال تحدث على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شىء، وأنه لا يحدث حادث ولا يستجد أمر من الأمور إلا وفى القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله أن الألف واللام، الداخلة على الأوصاف[1]، وعلى أسماء الأجناس، تفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعانى.

ومن كليات القرآن، أنه يدعو إلى توحيد الله ومعرفته بذكر أسماء الله وأوصافه وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق وعبادته هى الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ، وصدقه، ببيان إحكامه، وتمامه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه، ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ من الكمال البشرى الذى لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين، ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه وتصديقه له بالحجة والبرهان وبالنصر والظهور وبشهادة أهل العلم المنصفين، ويقابل بين ما جاء به من الحق فى أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه والمكذبون به من الكذب فى أخبارهم والباطل فى أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة، ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقه للسموات والأرض اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذى بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذى أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى.

ويذكر أيضًا أيامه فى الأمم ووقوع المثلات التى شاهدها الناس فى الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين، من الكفار والمشركين والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدى للتى هى أقوم فى عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية والنعم العظيمة، وأن من تفرد بالكمال المطلق والنعم كلها هو الذى لا تصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون إذا ميز وحقق وجد شرًا وباطلاً وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير، إذا فهمت ما دلت عليه الآيات الكريمة من المعانى مطابقة وتضمنًا، فاعلم أن لوازم هذه المعانى وما لا تتم إلا به وشروطها وتوابعها تابعة لذلك المعنى.

---

(١) قوله «الأوصاف» المراد منها الأسماء المشتقة كاسم الفاعل واسم المفعول، ونحوهما.

فما لا يتم الخبر إلا به فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به فهو تابع للحكم.

وأن الآيات التى يفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها، على الحالة المناسبة اللائقة بها، وأن حذف المتعلقات من مفعولات وغيرها يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظى والقرينة الحالية.

كما أن الأحكام المقيدة، بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود لا بد منها فى ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشىء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهى عن شىء كان آمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفى شىء من النقائص كان إثباتًا للكمال المنافى لذلك النقص، وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شىء من النقائص فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله: نفى النقائص عن دار النعيم يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكليات، أنه إذا وضح الحق وظهر ظهوراً جليًا لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن، فإما أن يكون غير موجود أو أنه موجود ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله فى القرآن الإيمان والعمل الصالح فى مواضع كثيرة، ورتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئًا كثيراً.

فالإيمان هو: التصديق الجازم بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح، والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله وحقوق عباده.

وكذلك أمر الله بالتقوى ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات وزوال المكروهات، والتقوى الكاملة، امتثال أمر الله وأمر رسوله واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه كانت التقوى اسمًا لتوقِّى جميع المعاصى، والبر اسمًا لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب فى مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدى، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه وبالسعى فى كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل، فالمهتدى، من عرف الحق وعمل به، وضده الغى والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوى، ومن جهل الحق فهو الضال.

أمر الله بالإحسان وأثنى على المحسنين وذكر ثوابهم المتنوع فى آيات كثيرة وحقيقة الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالى والبدنى والقولى إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم، والإصلاح هو: أن تسعى فى إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضًا يشمل إصلاح الأمور الدينية والأمور الدنيوية وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا الفساد، والإفساد قد نهى عنه وذم المفسدين وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين وعلى الموقنين، وأنهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الأفقية، واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر وأثنى على الصابرين وذكر جزاءهم العاجل والآجل فى عدة آيات، نحو تسعين موضعًا، وهو يشمل أنواعه الثلاثة:

الصبر على طاعة الله حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه.

والصبر على محارم الله حتى ينهى نفسه الأمارة بالسوء عنها.

والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم غير متسخط فى قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق فى الدنيا والآخرة، وحقيقة الشكر هو الاعتراف بجميع نعم الله والثناء على الله بها والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية فى مواضع كثيرة، أمر به وأثنى على أهله وذكر ثوابهم وأنهم المنتفعون بالآيات التاركون للمحرمات، وحقيقة الخوف والخشية أن يخاف العبد مقامه بين يدى الله ومقامه عليه، فينهى نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة ورحمته الخاصة به، فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه فى كل حالة من أحواله.

وذكر الله الإنابة فى مواضع كثيرة وأثنى على المنيبين وأمر بالإنابة إليه، وحقيقة الإنابة انجذاب القلب إلى الله فى كل حالة من أحواله، ينيب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه فى جميع مهماته، وينيب إلى ربه باللهج بذكره فى كل وقت، والإنابة أيضًا: الرجوع إلى الله بالتوبة من جميع المعاصى والرجوع إليه فى جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال موزونة بميزان الشرع.

أمر تعالى بالإخلاص وأثنى على المخلصين وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص، وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه، وضده الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة، والتكبر هو: رد الحق واحتقار الخلق، وضد ذلك التواضع، فقد أمر به وأثنى على أهله وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله وأن لا يحتقر الخلق بل يرى فضلهم ويحب لهم ما يحب لنفسه.

العدل، هو: أداء حقوق الله وحقوق العباد، والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصى والشرك، وظلم العباد فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق، وهو: استواء الظاهر والباطن فى الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك.

حدود الله هى محارمه، وهى التى يقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ ويراد بها ما أباحه الله وحلله وقدره وفرضه فيقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾.

الأمانة هى: الأمور التى يؤتمن عليها العبد، فيشمل ذلك أداء حقوق الله وخصوصًا الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود، ويدخل فيها التى بينه وبين الله وهو: القيام بعبادة الله مخلصًا له الدين، والتى بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

الحكمة والقوام، فعل ما ينبغى على الوجه الذى ينبغى.

والإسراف والتبذير: مجاوزة الحد فى الإنفاق، والتقتير والبخل عكسه، وهو: التقصير فى النفقات الواجبة.

و «المعروف» اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعًا وعقلاً و «المنكر» عكسه.

الاستقامة: لزوم طاعة الله وطاعة رسوله على الدوام.

مرض القلب هو اعتلاله وهو نوعان: مرض شكوك فى الحق ومرض شهوة للأمور المحرمة.

النفاق: إظهار الخير وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادى والنفاق العملى.

القرآن كله محكم وأحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره على أعلى درجات الصدق وأحكامه فى غاية الحسن، وكله متشابه من جهة اتفاقه فى البلاغة والحسن وتصديق بعضه لبعض وكمال اتفاقه.

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه: ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعانى، ومحكمه واضح مبين صريح فى معناه، إذا رد إليه المتشابه اتفق الجميع واستقامت معانيه.

معية الله التى ذكرها فى كتابه، نوعان:

معية العلم والإحاطة، وهى: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.

ومعية خاصة، وهى معيته مع خواص خلقه بالنصرة واللطف والتأييد.

الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله، ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار.

الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد والأخلاق والأعمال والمآكل والمشارب والمكاسب، والخبيث ضد ذلك، وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾.

النفقة تشمل النفقة الواجبة، كالزكاة والكفارة ونفقة النفس والعائلة والمماليك، والنفقة المستحبة كالنفقة فى جميع طرق الخير.

التوكل على الله والاستعانة به قد أمر الله بهما وأثنى على المتوكلين فى آيات كثيرة، وحقيقة ذلك، قوة اعتماد القلب على الله فى جلب المصالح ودفع المضار الدينية والدنيوية مع الثقة به فى حصول ذلك.

العقل الذى مدحه الله وأثنى على أهله وأخبر أنهم هم المنتفعون بالآيات، هو الذى يفهم ويعقل الحقائق النافعة ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له حجر ولب ونُهى، لأنه يحجر صاحبه وينهاه عما يضره.

العلم هو معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبةِ ومعرفة أدلتها وطرقها التى تهدى إليها، والعلم النافع، هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل.

لفظ «الأمة» فى القرآن على أربعة أوجه:

يراد به «الطائفة من الناس» وهو الغالب، ويراد بـه «المدة» ويراد به «الدين» و «الملة» ويراد به «الإمام» فى الخير.

لفظ «استوى» فى القرآن على ثلاثة أوجه:

إن عُدِّىَ بـ «على» كان معناه العلو والارتفاع كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وإن عدى بـ «إلى» فمعناه قصد كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾.

وإن لم يعد بشىء، فمعناه «كمل» كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾.

«التوبة» ورد فى آيات كثيرة الأمر بها ومدح التائبين وثوابهم، وهى: الرجوع عما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا.

الصراط المستقيم، الذى أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبى ﷺ فى أقواله وأفعاله وكل أحواله.

الذكر لله الذى أمر به وأثنى على الذاكرين وذكر جزاءهم العاجل والآجل، هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله من عقيدة أو فكر نافع أو خلق جميل أو عمل قلبى أو بدنى أو ثناء على الله أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية أو ما يعين على ذلك فكله داخل فى ذكر الله.

فصل
فى شرح أسماء الله الحسنى

قد تكرر كثير من أسمـاء الله الحسنى فى القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبـيه إلى معانيها الجامعة فنقول:

قد تكرر اسم (الرب) فى آيات كثيرة.

و «الرب» هو: المربى جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم.

وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم.

ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

(الله) هو المألوه المعبود ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التى هى صفات الكمال.

(الملك، المالك، الذى له الملك) فهو الموصوف بصفة الملك.

وهى صفات العظمة والكـبرياء والقهر والتدبير، الذى له التصـرف المطلق فى الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوى والسفلى كلهم عبيد ومماليك ومضطرون إليه.

(الواحـد الأحـد) وهو الذى توحد بجميع الكمـالات بحيث لا يشاركه فيها مشـارك، ويجب على العبيد توحيده، عقدًا وقولاً وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق وتفرده بالوحدانية ويفردوه بأنواع العبادة.

(الصـمـد) وهو الذى تقصده الخلائق كلها فى جميع حاجـاتها وأحوالها وضروراتها وأحوالها، لما له من الكمال المطلق فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

(العليم الخبير) وهو الذى أحاط علمه بالظواهر والبواطن والإسرار والإعلان، وبالواجـبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوى والسفلى، وبالماضى والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شىء من الأشياء.

(الحكـيم) وهو الذى له الحكمة العليا فى خلقـه وأمره، الذى أحسن كل شىء خلقه ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ فلا يخلق شيئًا عبثـًا ولا يشرع شيئًا سدى، الذى له الحكم فى الأولى والآخرة وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده فى شرعه وفى قدره وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها.

(الرحمن الرحيم والبـر الكريم، الجواد، الرءوف، الوهاب) هذه الأسماء، تتقارب مـعانيها وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمـة والبر والجود والكرم، وعلى سعة رحمـته ومواهبه التى عم بها جميـع الوجود بحسب ما تقتضيه حكمته، وخص المـؤمنين منها بالنصيب الأوفر والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الآية، والنعم والإحسان كله من آثار رحمته وجوده وكرمه، وخيرات الدنيا والآخرة كلها من آثار رحمته.

(السميع) لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات.

(البصـيـر) الذى يبصـر كل شىء، وإن رق وصغر، فيـبصر دبيب النملة السـوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصمـاء، ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبـصر ما فوق السموات السبع، وأيضًا سـميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

(الحـميد) فى ذاته وأسمائه وصفاتـه وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها ومن الصفـات أكملها ومن الأفعال أتمها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

(المجيد الكبير العظيم الجليل) وهو الموصوف بصفات المجد والكبرياء والعظمة والجلال، الذى هو أكبر من كل شىء وأعظم من كل شىء وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال فى قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله والخضوع له والتذلل لكبريائه.

(العفو الغفور الغفار) الذى لم يزل ولا يزال بالعفو معروفًا، وبالغفران والصفح عن عباده موصوفًا، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾.

(التواب) الذى لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحًا تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين: أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم، قبولاً لها وعفوًا عن خطاياهم.

(القدوس، السلام) أى: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المتنزه عن جميع العيوب والمتنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد فى شىء من الكمال ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾.

فالقدوس كالسلام، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى ثبت الكمال كله.

(العلى الأعلى) وهو الذى له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات وعلو القدر والصفات وعلو القهر، فهو الذى على العرش استوى وعلى الملك احتوى، وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف وإليه فيها المنتهى.

(العزيز) الذى له العزة كلها: عزة القوة وعزة الغلبة وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته.

(القوى المتين) هو فى معنى العزيز.

(الجبار) هو بمعنى العلى الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى الرءوف، الجابر للقلوب المنكسرة وللضعيف العاجز ولمن لاذ به ولجأ إليه.

(المتكبر) عن السوء والنقص والعيوب لعظمته وكبريائه.

(الخالق البارئ المصور) الذى خلق جميع الموجودات وبرأها وسواها بحكمته وصورها بحمده وحمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

(المؤمن) الذى أثنى على نفسه بصفات الكمال وبكمال الجلال والجمال، الذى أرسل رسله وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان يدل على صدقهم وصحة ما جاءوا به.

(المهيمن) المطلع على خفايا الأمور وخبايا الصدور الذى أحاط بكل شىء علمًا.

(القدير) كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات وبقدرته دبرها وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيى ويميت ويبعث العباد للجزاء ويجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته، الذى إذا أراد شيئًا قال له: «كن فيكون» وبقدرته يقلب القلوب ويصرفها على ما يشاء ويريد.

(اللطيف) الذى أحاط علمه بالسرائر والخفايا وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى الخبير وبمعنى الرءوف.

(الحسيب) هو العليم بعباده كافى المتوكلين المجازى لعباده بالخير والشر بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها.

(الرقيب) المطلع على ما أكنته الصدور القائم على كل نفس بما كسبت، الذى حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

(الحفيظ) الذى حفظ ما خلقه وأحاط علمه بما أوجده وحفظ أولياءه من وقوعهم فى الذنوب والهلكات، ولطف بهم فى الحركات والسكنات وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها.

(المحيط) بكل شيء علمًا وقدرة ورحمة وقهراً.

(القهار) لكل شيء الذى خضعت له المخلوقات وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره.

(المقيت) الذى أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمته وحمده.

(الوكيل) المتولى لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذى تولى أولياءه، فيسرهم لليسرى وجنبهم العسرى وكفاهم الأمور، فمن اتخذه وكيلاً كفاه ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

(ذو الجلال والإكرام) أى: ذو العظمة والكبرياء وذو الرحمة والجود والإحسان العام والخاص، المكرم لأوليائه وأصفيائه الذى يجلونه ويعظمونه ويحبونه.

(الودود) الذى يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه وانجذبت أفئدتهم إليه ودّا وإخلاصًا وإنابة من جميع الوجوه.

(الفتاح) الذى يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية وأحكامه القدرية وأحكام الجزاء، الذى فتح بلطفه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفته ومحبته والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التى ينالون بها خير الدنيا والآخرة ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

(الرزاق) لجميع عباده فما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها، ورزقه لعباده نوعان:

رزق عام، شمل البر والفاجر والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

ورزق خاص وهو القلوب وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذى يعين على صلاح الدين وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

(الحكم العدل) الذى يحكم بين عباده فى الدنيا والآخرة بعدله وقسطه.

فلا يظلم مثقال ذرة ولا يحمل أحداً وزر أحد ولا يجازى العبد بأكثر من ذنبه، ويؤدى الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا وصل إليه حقه، وهو العدل فى تدبيره وتقديره ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

(جامع الناس) ليوم لا ريب فيه وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين بكمال قدرته وسعة علمه.

(الحى القيوم) كامل الحياة والقائم بنفسه، القيوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم فـ «الحىُّ» الجامع لصفات الذات، و «القيوم» الجامع لصفات الأفعال.

(النور) نور السموات والأرض، الذى نوَّر قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به ونوَّر أفئدتهم بهدايته، وهو الذى أنار السموات والأرض بالأنوار التى وضعها، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

(بديع السموات والأرض) أى: خالقهما ومبدعهما فى غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع والنظام العجيب المحكم.

(القابض، الباسط) يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب وذلك تبع لحكمته ورحمته.

(المعطى، المانع) لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب وإليه يرغب فيها، وهو الذى يعطيها لمن يشاء ويمنعها ممن يشاء بحكمته ورحمته.

(الشـهـيـد) أى: المطلع على جميع الأشياء، سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شىء، الذى شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

(المبدىء، المعيد) قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ابتدأ خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم ليجزى الذين أحسنوا بالحسنى ويجزى المسيئين بإساءتهم، وكذلك هو الذى يبدأ إيجاد المخلوقات شيئًا فشيئًا ثم يعيدها كل وقت.

(الفعال لما يريد) وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريده يفعله بلا ممانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين على أىّ أمر يكون، بل إذا أراد شيئًا قال له «كن فيكون» ومع أنه الفعال لما يريد فإرادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة لكل ما فعله ويفعله.

(الغنى، المغنى) فهو الغنى بذاته الذى له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات لكماله وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه ولا يمكن أن يكون إلا غنيًا، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقًا قادرًا رازقًا محسنًا، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغنى الذى بيده خزائن السموات والأرض وخزائن الدنيا والآخرة، المغنى جميع خلقه غنى عامًا، والمغنى لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

(الحليم) الذى يَدِرُّ على خلقه النعم الظاهرة والباطنة مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعتبهم كى يتوبوا ويمهلهم كى ينيبوا.

(الشاكر الشكور) الذى يشكر القليل من العمل ويغفر الكثير من الزلل، ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشىء من الأعمال الصالحة تقرب الله منه أكثر.

(القريب، المجيب) أى: هو تعالى القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد بعلمه وخبرته ومراقبته ومشاهدته وإحاطته، وقرب خاص من عابديه وسائليه ومحبيه، وهو قرب لا تدرك له حقيقة وإنما تعلم آثاره من لطفه بعبده وعنايته به وتوفيقه وتسديده، ومن آثاره الإجابة للداعين، والإنابة للعابدين، فهو المجيب إجابة عامة للداعين مهما كانوا وأين كانوا وعلى أى حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشرعه، وهو المجيب أيضًا للمضطرين ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين وقوى تعلقهم به طمعًا ورجاءً وخوفًا.

(الكافى) عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، الكافى كفاية خاصة من آمن به وتوكل عليه واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

(الأول والآخر والظاهر والباطن) قد فسرها النبى ﷺ تفسيرًا جامعًا واضحًا فقال يخاطب ربه: «أنت الأول فليس قبلك شىء، وأنت الآخر فليس بعدك شىء، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء، وأنت الباطن فليس دونك شىء».

(الواسع) الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يُحْصِى أحد ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان عظيم الجود والكرم.

(الهادى، الرشيد) أى: الذى يهدى ويرشد عباده إلى جميع المنافع وإلى دفع المضار ويعلمهم ما لا يعلمون ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد ويلهمهم التقوى ويجعل قلوبهم منيبة إليه منقادة لأمره.

وللرشيد معنًى بمعنى الحكيم، فهو: الرشيد فى أقواله وأفعاله وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

(الحق) فى ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشىء من الأشياء إلا به، فهو الذى لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفًا، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفًا، فقوله حق وفعله حق ولقاؤه ورسله حق وكتبه حق ودينه هو الحق وعبادته وحده لا شريك له هى الحق، وكل شىء ينسب إليه فهو حق.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

وصلى الله وسلم على محمد

وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه

«عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدى»

غفر الله له ولوالديه ومشايخه وأحبابه وجميع المسلمين

آمين



فهرس الموضوعات والسور

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة


مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ٤٨٢٧٨٥١